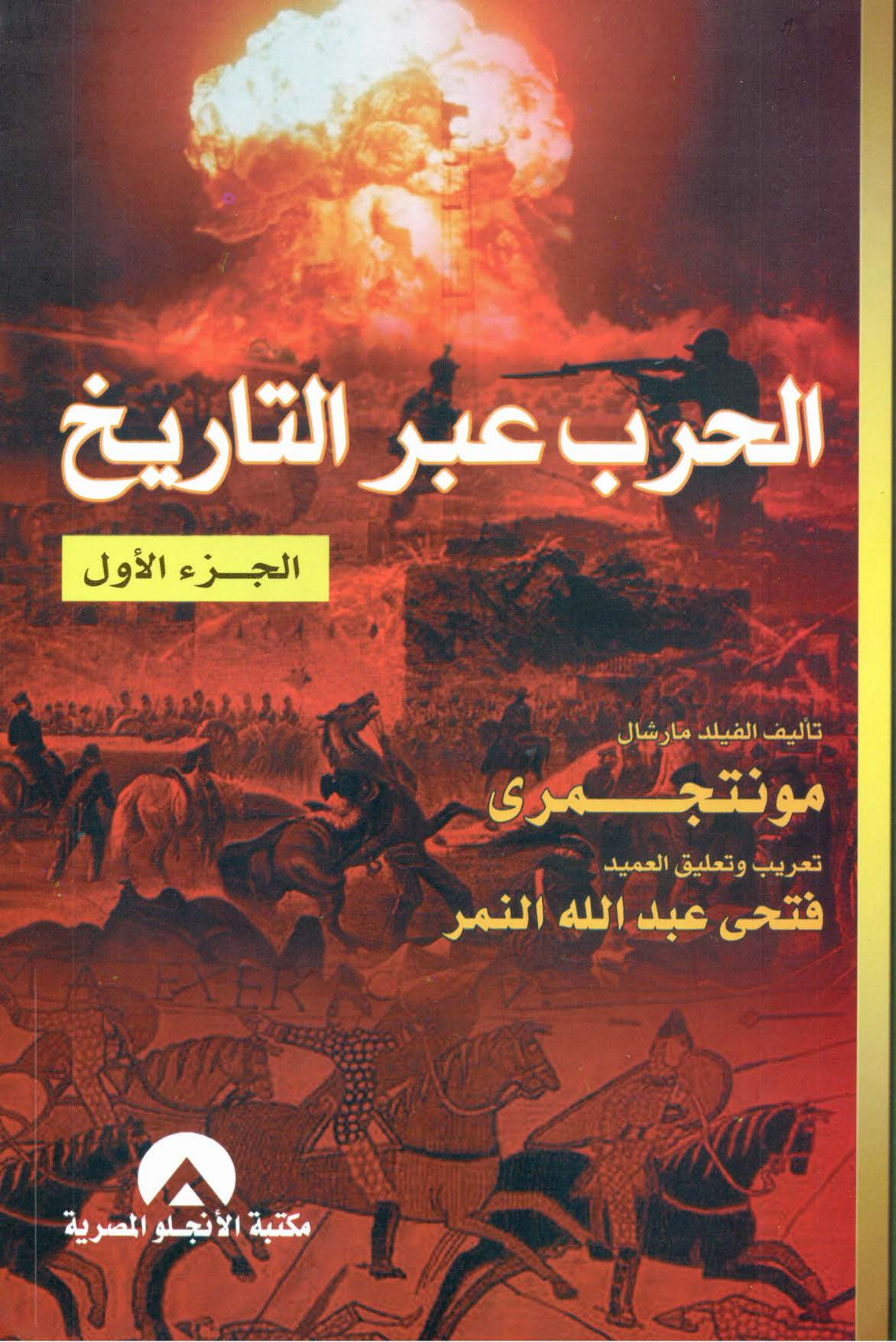

الحرب عبر التاريخ

الجـــزء الأول

تأليف الفيلد مارشال

مونتجـــمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر

مكتبة الأنجلو المصرية

الحرب عبر التاريخ

A HISTORY OF WARFARE

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكليات العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
فى عيد العلم العاشر والحادى عشر

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

التصديق بالنشر

كتاب المخابرات الحربية رقم ن / م ث / ٦ / ١ / ٢٠٢١
بتـــاريخ ١٥ / ٣ / ١٩٧١

تقديم

لقد قرأت هذا الكتاب أكثر من مرة لأعجابي الشديد به ، وفكرت مرات كثيرة فى تعريبه لأنقل للمكتبة العربية أروع وآخر ما كتبه الفيلد مارشال مونتجمرى عن **الحرب عبر التاريخ** ، ولكننى وجدت أنه عمل كبير ويحتاج إلى مجهود ضخم ، فلجأت إلى صديقى الدكتور عبد العزيز الدسوقى والأستاذ سامى الشهابى فقدما لى العون المخلص الذى ساعدنى على أخراج هذا الكتاب على الوجه الأكمل والمشرف .

وهذا الكتاب يعتبر من أروع الكتب التى ظهرت حتى الآن فى مجال الدراسات العسكرية ليس لأنه يحملنا معه عبر تسعة آلاف سنة من الحرب ، ولكنه لأن مؤلفه الفيلد مارشال مونتجمرى يعد من القادة العظام المعاصرين وقد حقق إنتصارات باهرة خلال الحرب العالمية الثانية ، ويرجع ذلك لعقليته الفذة وتفكيره الصائب وقيادته الحكيمة .

وقد بذل الفيلد مارشال مونتجمرى ومساعدوه مجهوداً شاقاً يفوق الخيال حتى أخرجوا هذا الكتاب إلى النور ، فقرأوا حوالى ١٢٥ مرجعاً وبالرغم من ذلك كانوا فى بعض الأحيان يقفون مكتوفى الأيدى أمام عصر من العصور تكون معلوماته قد طمست فيضطرون للبحث والتنقيب فى المتاحف والمراجع القديمة والكتب المقدسة حتى يحصلوا على بصيص من الأمل أو شعاع ضعيف لينير لهم طريق المعرفة .

سيصحبنا مونتجمرى معه فى رحلة طويلة ، بدأها من ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد حيث يقص علينا قصص الحروب المختلفة والمعارك الحاسمة . . . والممالك والإمبراطوريات التى تزدهر ثم تندثر بعد أن تدفع إلى آتون الحرب ، فتنصهر وتذوب ويظهر على أنقاضها دول أخرى . . . يقود هذه الدول قادة عسكريون أو سياسيون . . . وقياصرة . . . ودكتاتوريون . . .

وفراعنة . . . فيدفعون بأممهم إما إلى النصر العظيم أو إلى قاع الهزيمة والذل والعار . . . سيرافقنا مونتجمرى عبر حقبة من الزمن ... حقبة طويلة ... تبلغ تسعين قرناً ... يمر بنا من قرن إلى قرن ... ومن دولة إلى أخرى ... عبر قتال مرير ... وجيوش جرارة ... وأسلوب تكتيكي أو أستراتيجى متطور ... وتنظيمات مستحدثة ...

والجدير بالذكر أن مونتجمرى وضع الشرق الأوسط ومصر فى الصدارة وأظهرها بأنها منبع الحضارات العريقة ، وأن الفن العسكرى قد نبع من مصر والعراق خاصة ومن العرب عامة ، وكانوا الرواد الأوائل للأستراتيجية والحرب وتطور الأسلحة .

وقد أثنى على مقدرة أحمس ورمسيس الثانى فى قيادة المعارك ، وأبرز أن صلاح الدين الأيوبى كان أستراتيجيا قديراً وألحق بالصليبيين كارثة مروعة ولم ينس أن يقص علينا تاريخ الحروب فى العصور القديمة وعظمة الأغريق والرومان والأسبان والفرس ، وتمر القرون عبر السطور وعلى نغمات طبول الحرب وحوافر الخيل وأقدام الجنود حتى يصل بنا إلى الحروب التى نشبت فى أوروبا خلال القرن ١٧ ، ١٨ بعد الميلاد ويذكرنا بنلسون ونابليون وويلنجتون ثم ينتقل إلى الشرق الأقصى حيث حرب مانغوليا والصين واليابان والهند حتى يصل إلى بداية الحرب الحديثة حيث أندلعت نيران الحروب العالمية الأولى ويرافقنا عبر الخنادق وبين أزيز طلقات المدافع حتى يدخل بنا إلى الحرب العالمية الثانية ويصل بنا إلى نهايتها بـ ٢٠ عاماً ، ويخرج بنا إلى أخلاقيات الحرب والستار الحديدى والحرب الباردة بين روسيا وأمريكا ثم يعود ثانية إلى العصر النووى وما ينتظر العالم خلال الحرب الهيدروجينية المستقبلة حتى يصل بنا فى نهاية المطاف إلى مفهوم السلام ، ولم ينس هذا القائد العظيم أن يكتب أحاسيسه وتجاربه الشخصية خلال السطور .

إنها رحلة ممتعة خلال هذه القرون . . . وهذه المعارك . . . وهؤلاء القادة . . .

رحلة شائقة لمعرفة الأعماق البشرية والقيمة الحقيقية للحروب الطويلة فى الماضى حتى يمكن أستخلاص العبر والدروس المستفادة ، فالحرب جزء رئيسى من التاريخ لأنها تتعلق بضروريات الحياة من طعام ومكان آمن يعيش فيه الإنسان .

أنه أول كتاب يقوم بدراسة الماضى دراسة عميقة للبحث عن كل ماله أهمية لإيضاح

وأنارة الطريق فى الحاضر والمستقبل ، وقد ركز بصفة خاصة على قادة الأمس العظام لمعرفة : —

كيف كانوا يفكرون ويعملون . . . ؟

كيف أستخدموا ما أتيح لهم من إمكانيات ... ؟

العوامل التى أثرت وسيطرت على قراراتهم ... ؟

ما هى قراراتهم ... ولماذا ... ؟

الصفات التى يجب توافرها فى القائد العسكرى والسياسى ... ؟

العوامل التى تؤدى إلى النصر أو تسبب الهزيمة ... ؟

لأننا أبناء القرن العشرين ، يوجد خلفنا ٢٠٠٠ سنة من الخبرة والتجارب ، فإذا أجبرنا على القتال فليس لنا أى عذر إذا لم نحارب جيداً .

وقد أسهب فى الكتابة عن القيادة والروح المعنوية للرجال ، وضرب لنا الأمثلة التى قشعت الضباب الكثيف حول هذه المشكلات ، ومنها أن الحصون ذات الأسوار العالية والمكتظة بالأسلحة وبها أجود الخيول وأقوى عربات القتال والفيلة ، كل ذلك ما هو إلا خرافاً ترتدى أقنعة الأسود إذا لم يتوفر الرجال لكل هذا ، ولديهم الروح المعنوية العالية والجرأة والأستعداد لخوض الحرب ...

وعلى كل فالقيادة فى الحقيقة مشكلة انسانية لأن المادة الخام التى يتعامل بها القائد . . . هى الرجال . . . والحرب هى البوتقة التى ستظهر من أى معدن صنع هذا القائد . . . وهؤلاء الجنود . . . وهذه الأمة . . .

سنقرأ سوياً خلال صفحات هذا الكتاب عن دول تعلو ... وممالك تهوى ... وملوك تتوج ... وأباطرة تسقط ...

حياة كلها شقاء وعذاب ... دماء تسفك على كوكبنا الأرضى ...

الجميع يشعرون بها ... وينادون بأعلى صوتهم ويطلبون السلام والحرية ...

ولكن هذه الأصوات تخبو رويداً رويداً وتضيع عبر هذا الفراغ الكبير ... وبين هذه الدول الكبرى ... وعبر هذه القرون الطويلة ...

وفى النهاية يعلو صوت واحد فقط ...

أنه صوت الحرب ... صوت المدافع ...

صوت القنابل الذرية والهيدروجينية ...

ولكن من خلال هذا الدمار وهذه الأشلاء يستمر النداء بالحرية والسلام .

ولكن من يسمع ... ويعى ... ويقدر ...

إنها حكمة الله فى ملكه ...

الحرب ... والحرب ... وإلا فسدت الأرض .

العميد

فتحى عبد الله النمر

المقدمة

لم أكتب هذا الكتاب لأمجد الحروب ، ولكن لأساط الضوء على الجهود الضخمة التى بذلها الرجال والنساء فى الجبهة الداخلية وجبهة القتال على السواء خلال هذه الفترات العصيبة من الصراع ٠

لذلك أصبح من الحيوى أن يراعى القادة السياسيون الهدف السياسى من الحرب ، مع إصدار تعليمات واضحة للقادة العسكريين وجميع المسئولين حتى يمكن تحقيق هذا الهدف ، فى نفس الوقت يجب عليهم تفهم العوامل الإنسانية حتى يمكن تجنب الحرب ، أما إذا أضطروا لها فيجب الحد من الخسائر الفادحة فى الأرواح بقدر الإمكان ٠

لذلك لم يصبح هدف القائد العسكرى تحقيق النصر فى الحروب ولكن عليه أيضاً أن يقوم بدور رئيسى فى منع قيامها ٠

وقد قال السير ونستون تشرشل : —

« السلام هو آخر جائزة أطمع فى كسبها ٠ ٠ » .

ونجد أن هذه الجائزة لا يعرف قيمتها غير المقاتل ، فهو وحده الذى يدرك حقيقة الوحش المسمى « بالحرب » .

وأنا شخصياً شاهدت عبر حياتى الطويلة معارك كبيرة دارت بعنف وضراوة وتكبدنا خلالها خسائر فادحة ، إلا أنها أنتهت دون تحقيق الأمن والسلام اللذين أشتعلت من أجلهما ٠

وفى هذه الأيام أشعر بهذا اليأس المرير الذى يعترى العالم المسمى « بعالم السلام » والذى نعيش فيه ، وبالرغم من هذا الشعور المظلم إلا أننى أشعر بالأمل والتفاؤل ، لأحساسى بقرب شروق شمس حياة زاهرة وسلام مستتب ٠

وعلى هذا الأساس وهذه الأحاسيس ، أقدم كتابى هذا إلى جميع الشعوب المناضلة من أجل السلام والحرية ، وأخص منهم رفاقى فى السلاح الذين حاربوا معى فى ميادين القتال فى أفريقيا وأوروبا ، فالكثير منهم ضحوا بأرواحهم لكى ننعم نحن الباقين على قيد الحياة بالحرية .

وأخيراً أذكر ما كتبه ثوسيد يدز : —

« إذا ردد أى إنسان أن ما أكتبه مفيد ، فهذا يكفينى » .

وهذا بالضبط ما أقصد أن أقوله .

الفيلد مارشال مونتجمرى

مصادر الكتاب

عندما فكرت فى هذا الكتاب ، وجدت أننى لن أستطيع إخراجه لحيز الوجود بمفردى ، وأصبح لزاماً على تكوين مجموعة من العلماء لتساعدنى فى البحث مع إمدادى بالمعلومات القيمة الصحيحة ، فأخذت أبحث عن العلماء ، ورشح لى عدد كبير منهم لمعاونتى وأخترت بنفسى آلان هوارث ليكون رئيساً لهذه المجموعة ، وقد وفقت فى أختياره ، لأنه شاب نابه ذكى عمره ۲۱ عاماً ، كرس كل جهوده ، بل وكل ما يملك من معلومات لأنجاح هذا العمل ، وعلى الفور أختار معاوناً له فى البحث وهو أنتونى وينرايت ، وكان زميلا له فى رجبى وفى كلية لوبورد ، وقد فضل ترك الكلية لينضم إلى مجموعتنا .

وأنتونى عمره ۲۱ عاماً ، وقد أثبت مقدرة عظيمة كمساعد لآلان هوارث . فأصبحت مجموعة البحث تتكون منى ، الرجل العسكرى ، والمؤرخون الصغار .

وربما يتساءل البعض : — « كيف سار العمل بين الرجل العسكرى الذى يناهز الثمانين والمؤرخين الصغار الذين لا يزيد عمر الواحد منهم عن ۲۱ عاماً ..؟

الجواب : — لقد سار العمل بنجاح كبير ، وتعاون كامل ، فقد قاموا بالتفكير فى البحث وأمدادى بالمعلومات القيمة ، وقد تعلمت منهم الكثير ، فكنت أفكر فى عالمهم ، بينما بعثوا بالشباب فى عالمى البعيد . وعلى كل حال فقد عملنا بجهد متواصل ، فلم نتقيد بساعات العمل المحددة ، وكنا نعمل بجد ونشاط مرة فى منزلى ومرات خارجه ، كل همنا إنجاز هذا البحث بسرعة وعلى خير وجه .

وبالرغم من هذا فقد تخلل هذه الفترة كثير من المرح والسعادة فى منزلى فى هامبشير .

وبعد أن قطعنا شوطاً كبيراً فى هذا الكتاب وجدت أننى فى حاجة إلى شخص آخر بعيد عن مجموعة البحث ، ليقرأ ما كتبناه كما هو ، ويقوم بالتعليق عليه بكل صراحة .

فأخذت أبحث عن مؤرخ عسكرى مجرب يستطيع القيام بهذا العمل ، وفى نفس الوقت يقوم بعمل الرسوم التخطيطية للمعارك التى يتحدث عنها الكتاب .

وأخيراً وقع أختيارى على أنتونى بريت جيمس ، أستاذ التاريخ العسكرى فى الكلية الحربية الملكية البريطانية فى ساندهيرست ، وله عدة مؤلفات فى التاريخ العسكرى ، وقد قدم لنا مساعدة وخبرة لا يمكن تقديرها .

بينما قدم جورج رينبيرد ومعه طاقم التحرير بكل خبرتهم ومساعدتهم الخالصة كل عون لنا .

وأخيراً لا يفوتنى أن أذكر الآنسة بونى التى كتبت فصول هذا الكتاب على الآلة الكاتبة ، وقد أعادت كتابتها أكثر من مرة .

وقد قرأت مجموعة البحث كتباً كثيرة . . . وكثيرة . . . لدرجة لا يمكن حصرها ، وصادفتنا مشاكل كثيرة منها : — هل الكاتب صادق فى سرده للحقائق التاريخية ؟

لأن الكتاب يختلفون عادة فى هذا المجال . . .

وعلى كل بذلنا أقصى طاقتنا ، ونحن مسئولون عن كل ماورد من حقائق وبيانات فى هذا البحث . . .

ولا يفوتنى أن أذكر أن مجموعة البحث طلبت منى أرشادها للكتب القيمة التى يمكن اللجوء إليها لدراسة حقبة معينة من الزمن ، وقد أستشرنا بعض العلماء ، وقد أعطونا توجيهات سديدة . وعاونتنا المكتبات بقدر كبير ، ومنها مكتبة لندن والمتحف البريطانى وغيره .

وأخص بالذكر رئيس أمناء مكتبة وزارة الدفاع مستر د . و . كينج ومعاونوه ، فقد أعطونا بأخلاص خبرات وتوجيهات قيمة .

بينما أستمتعت أنا شخصياً بقراءة مجموعة من الكتب أرسلت لى من وقت لآخر من بعض المؤلفين والناشرين ، ليس للتعليق عليها بل كمظهر من مظاهر الصداقة والمودة ، وقد أعجبت بكتابين هما : —

١ — رجال فى السلاح : — وكتبه البروفيسور بريستون والبروفيسور وايز الكنديان وهما أستاذان فى الكلية الحربية الكندية ومستر فيرنز الأمريكى وهو أستاذ بالأكاديمية البحرية الأمريكية .

٢ — تخطيط لن يموت : — وكتبه الجنرال باور وكان يشغل منصب قائد القوات الجوية الأستراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية ، وتقاعد الآن ، وهو من أبرع رجال القوات الجوية وصديق لى ، وقد أستفدت من كتابه هذا كثيراً فى هذا البحث . وأضيف إلى هذا أننى درست بعناية العديد من مؤلفات أصدقائى ، وأخص بالذكر سير بازل ليدل هارت ، سيريل فولز ، آلان كلارك ، كوريلى بارنيت ، والميجور جنرال فوللر .

بينما قرأت بأمعان كتاب « أسس القيادة » بقلم جون لافن ، وأرسله لى عن طريق الناشر وولتر هاراب .

وكانت النتيجة النهائية لكل هذه البحوث هذا الكتاب .

وأعتقد أن أصدقائى العسكريين قد يكون لهم رأى يخالف رأيى وعلى كل حال فأنا أقبل تحمل المسئولية كاملة ، وقد أعتمدت فى تعليقى العسكرى على خبرتى العملية والشخصية الطويلة فى الحرب .

وأخيراً ... أعترف بأننى أستمتعت بكل وقتى الذى قضيته فى هذا الكتاب .

وأوجه أمتنانى العميق لكل من قدم العون لى فى أخراجه بهذه الصورة المشرفة .

مونتجمرى

الفصل الأول

طبيعة الحرب

الصدام المسلح وتقدم الإنسانية

— هل الحرب من أختصاص العسكريين وحدهم دون غيرهم . . ؟ ؟

— بالطبع لا . . .

فقد أظهر لنا التاريخ أن آثار الحروب ونتائجها تنعكس دائماً على المدنيين أيضاً ، وكم من أرواح غير عسكرية ذهبت ضحية هذه الحروب .

وفى العصر الحديث أصبحت دفة الحرب تدار بواسطة الساسة ، وهم فى الغالب من المدنيين وليسوا من العسكريين المحترفين .

ونجد أيضاً فى حالة الحرب الشاملة تجند جميع الطاقات والأمكانيات المدنية لخدمة المجهود الحربى ، لذلك لم يصبح التاريخ العسكرى بمعزل عن التاريخ العام ، وتطلب هذا أن التاريخ العسكرى أصبح جديراً بالدراسة والأهتمام لكل من المدنيين والعسكريين على السواء ، لذلك سأقوم فى كتابى هذا بالتركيز على المواضيع الرئيسية الآتية لأهميتها : -

— **الوسائل . . والأساليب لجميع الأسلحة .**

— **الاستراتيجية . . والتكتيك . . والقيادة .**

وفى نفس الوقت سوف أبرز العوامل الرئيسية التى أثرت تأثيراً جوهرياً فى مجرى تاريخ الحروب وأهمها : —

— **عامل العلم . . . والتكنولوجيا .**

— **العوامل الاجتماعية . . . والاقتصادية . . . والسياسية .**

ولا يعنى هذا أن يتحول الكتاب إلى أحد المراجع التاريخية ، بل آمل أن يشعر القارىء بمتعة وجمال هذه القصة . . . **قصة الحرب عبر التاريخ .**

لذلك أصبحت مهمتى الأولى شرح ومناقشة وتبسيط ما فى الحروب من تعقيدات ، معتمداً على تجاربى التى مررت بها وخبراتى العسكرية الطويلة .

فعلى أولا أن أحاول تبسيط المبادىء الأولية للحرب ، فمن الجائز أن يكون القارىء رجلا غير عسكرى ، ويحتاج إلى بعض المعلومات الواضحة والمبسطة لأساليب وتاريخ الحروب ، وعلى كل ستصبح مهمتى صعبة عندما أتكلم عن الحروب فى العصر الحديث ، فكلما زادت المدنية زاد معها بل وبسرعة تطـــور الحروب ، وبالتالى يحتاج القارىء إلى أيضاحات أكثر وأبسط .

ولكن لا يفوتنى هنا إلا أن أشير للأثر الواضح للصدام المسلح على تقدم الأنسانية ، فسنجد فى بعض الأحيان أن تأثيرها كان مفيداً ، وفى البعض الآخر ضاراً .

وعلى كل فالصدام المسلح من العوامل الحاسمة فى تقدم الأنسان لأنه من المستحيل أن نتصور أن الحروب تنشب فى الفراغ ، ولكنها على كل حال ليست العامل الوحيد . وعلى سبيل المثال ، فوليام الفاتح لم يتحكم فى تاريخ أنجلترا إلا نتيجة لأنتصاراته العسكرية ، ومثال آخر يرجع بعض المؤرخين بداية التوسع والأزدهار فى صناعة المعادن نتيجة للطلب الملح للمدافع ، بينما البعض الآخر يرجعها للطلب الملح لأجراس الكنائس .

لماذا تنشب الحرب . . ؟

سيقول البعض أنها وليدة المدنية ... والبعض الآخر سيقول أنها أمتداد للطبيعة البشرية .

هناك حقيقة واضحة بأن الحرب هى الحكم النهائى عندما تفشل جميع الجهود السلمية للوصول الى اتفاق ، وهذا الحكم يستند على القوة والعنف أكثر من استناده على الحق ، بالرغم من وضوح الحق فى أغلب الأحيان .

والحروب لها أشكال وأسباب ولكنها تختلف حسب أماكن وقوعها فى بلدان العالم . فالبدو الرحل مثل جماعات « المآجيار » تنحصر حروبها فى البحث عن المناطق الغنية بالمراعى ، لسلبها والأستيلاء عليها بالقوة .

بينما نشبت الحرب الفارسية لأنقاذ اليونان ، وبالتالى لأنقاذ أوروبا من الأرهاب الأسيوى . ونجد أن الحرب هى التى أقامت الأمبراطورية الرومانية ، وأيضاً ساهمت فى دمارها .

وما حدث للأمبراطورية الرومانية تكرر مع الأمبراطورية الألمانية التى أنشأها بسمارك . وقد حدث فى فترة من الزمن أن الدين كان من الأسباب الرئيسية لنشوب الحروب ، ولم تقتصر على دول معينة بل أمتدت لتصبح عالمية تقريباً . أما فى العصر الحديث فنجد أن مصادر

الثروة للقوى الأستعمارية تـكمن فى المستعمرات التى أستولت عليها بقوة السلاح ، وقد خلقت هذه الثروات منازعات بل ومنافسات تجارية بين هـــذه الدول مما أدى إلى دخولها فى صدام مسلح .

ما هى الحرب. . ؟

الحرب : هى صدام طويل ينشب نتيجة لنزاع كتل سياسية بواسطة قوة السلاح .

الأستراتيجية العليا : هى تنسيق وأدارة جميع مصادر الدولة أو مجموعة دول لتحقيق الغرض السياسى من الحرب حتى يتحقق السلام والأمن الدائم المستقر لها .

الأستراتيجية: هى فن توزيع وأستخدام الأمـكانيات الحربية للقوات المساحة مع أمدادها لتحقيق الغرض السياسى بالـكامل .

التـكتيك : هو أسلوب وأستخدام القوات المقاتلة والسيطرة عليها خلال القتال الفعلى .

وبأختصار **فالأستراتيجية هى فن ادارة الحرب والتـكتيك هو فن القتال .**

وبدراستى للحروب عبر التاريخ برزت لى عدة عوامل ثابتة لا تتغير على مر العصور وتمثل مشكلة عويصة أمام القادة وتطلبت منهم الجهد الـكبير لحلها وتـكمن فى **خفة الحركة وقوة النيران** ، وكيف يستطيع القائد تحريك قواته المقاتلة بحرية كاملة، بينما يحرم خصمه منها؟

وأدى هذا إلى التفكير الدائم فى زيادة خفة الحركة لنقل قوة النيران إلى المكان والزمان المناسبين مع تأمينهما ، وهذا تطلب تطوراً كبيراً فى صناعة المركبات المدرعة حتى يمـكن السيطرة على جبهات عريضة ، وأستلزم هـــذا تطوراً موازياً فى مجال الأتصال اللاسلـكى للسيطرة على القوات المتحركة عبر هذه المسافات الشاسعة .

وأصبحت هذه التطورات من العوامل الرئيسية التى تتحـكم فى خطط القادة بل وفى الحرب كـكل .

لذلك نجد أن دراسة أستراتيجية الحملات والمعارك مهم جداً ، حتى نستطيع معرفة .—

ما هو الغرض من الحملة ...؟

ما يريد القائد تحقيقه فى المعركة ... ؟

قد يكون الغرض المطلوب تحقيقه أهمية أستراتيجية كبرى ، ولـكن يجب ان يكون من الممكن تنفيذه من الناحية التكتيكية بما هو متاح من القوات والامكانيات .

القوة البحرية فى الميزان

منذ أقدم العصور والقوة لها تأثير فاصل وحاسم ، وكانت تتمثل فى الماضى فى القوة البحرية وقد ظهر ذلك جلياً عندما أدركت اليونان أثناء حربها مع الفرس أنه من الصعب عليها القضاء على عدوها طالما لديه أسطول بحرى يستطيع به نقل قواته وأمداداته عبر بحر أيجة وأنزالها على الشاطىء اليونانى . ولكن بعد مجهود خارق أستطاعت اليونان بناء قوتها البحرية فتمكنت من هزيمة الفرس فى معركة سلاميس البحرية عام ٤٨٠ قبل الميلاد . وبعد ذلك بسنة سيطرت اليونان على شرق البحر الأبيض المتوسط وأنتهت الحملة الفارسية ، وكان ذلك بداية عهد جديد لليونان تمتعت فيه بالرفاهية والأستقرار التجارى ، وأنشأت خلاله أعظم الحضارات . وتكرر نفس الشىء مع روما عندما أشتعلت الحرب بينها وبين دولة قرطاجة[١] ووجدت من الضرورى أولا تدمير القوات البحرية لقرطاجة ، ولكنها لم تستطع حتى بنت أسطولاً قوياً هزمت به الأسطول القرطاجى الذى كان فى ذلك العصر يعتبر من أقوى الأساطيل التى أصطدمت بها روما .

وفى القرن الثامن عشر كان من المستحيل غزو بريطانيا لوجود قوة بحرية كبيرة لديها ، وقد مكنتها هذه القوة البحرية من هزيمة الأسطولين الفرنسى والأسبانى فى معركة ترافلجار[٢] .

وأستطاعت بريطانيا أيضاً فى عام ١٨٠٨ من إنزال قواتها على الساحل البرتغالى . وبعدها بسنوات هزمت نابليون الذى كان يملك أكبر قوة عسكرية فى ذلك الوقت ، ولكنه كان مقيداً بأستراتيجية القوات البرية ومسيطرة على تفكيره .

ولم تقتصر أهمية القوة البحرية على العصور الماضية بل ظهرت قيمتها بوضوح فى العصر الحديث ، ويمكن ملاحظة ذلك فى معركتى ترافلجار (٢١ أكتوبر) والعلمين (٢٣ أكتوبر) فكل منهما بمثابة نقطة تحول فى حرب طويلة الأمد ضد عدو قوى ينتمى إلى القارة الأوروبية .

---

(١) كانت دولة قرطاجة تقع فى شمال أفريقيا

(٢) ترافلجار هى الطرف الأغر « المعرب » .

فلولا سيطرة الحلفاء البحرية لما أستطاعوا الحصول على النصر فى العلمين لأنهم تمكنوا بذلك من بناء قواتهم البرية ونقل الأمدادات بسرعة أكبر من روميل ، ولولا ذلك لتغيرت النتيجة تماماً ولسيطر العدو على ميدان القتال فى العلمين وربما أمتد وسيطر على مصر وقناة السويس بل وربما الشرق الأوسط كله .

والدرس المستفاد الذى يمكن الخروج به من دراسة تاريخ الدول **أن السيادة الحربية تكون دائما فى يد الدولة صاحبة السيادة البحرية .**

هل القوة الجوية سلاح رهيب ؟

لقد ظهر أن القوة الجوية لها تأثير فعال على الحرب فى البحر والبر . ففى خلال عام ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ظهر فى ميدان جنوب شرق أسيا والباسفيك ، التعاون الوثيق والتفوق الكاسح للقوة البحرية والجوية اليابانية ، عندما شنت اليابان فى ٧ ديسمبر ١٩٤١ أعنف هجوم جوى يمكن أن تقوم به حاملة طائرات ، فقد أنطلق أكثر من ٣٠٠ طائرة يابانية وقصفت سفن الأسطول الأمريكى فى الباسفيك الراسية فى ميناء بيرل هاربور وأغرقتها . وكان الأمريكيون يعتقدون بأن سفنهم الراسية فى هذا الميناء فى مأمن من الطوربيدات الجوية لضحالة المياه هناك .

وبعد فترة وجيزة من هذا الهجوم القاتل ، أنطلقت الطائرات اليابانية من قواعد برية وأغرقت البارجة الحربية البريطانية « أميرويلز » كما أغرقت الطراد ريبالس البريطانى أمام شاطىء الملايو . وفى عام ١٩٤٢ حدثت معركتان بحريتان بين الأسطولين الأمريكى واليابانى ويعاونهما القوات الجوية ، وقد ظهر بوضوح خلالهما الدور الفعال الذى تلعبه القوات الجوية فى المعارك البحرية الحديثة ، والمعركة الأولى نشبت فى بحر المرجان[1] فى الفترة ما بين ٤ — ٨ مايو ، وأستطاع الأمريكيون صد الهجوم البحرى اليابانى على ميناء مورسبى وبذلك منعوا اليابان من تهديد أستراليا ... أما المعركة الثانية فنشبت أمام سواحل جزيرة ميدواى فى الفترة ما بين ٣ — ٦ يونية ، وأستطاع الأمريكيون بعد حل الشفرة اليابانية ومعرفة خطة العدو والأستعداد له فى شمال وشمال غرب الجزيرة من توجيه ضربة قاتلة لليابانيين .

وقد تميزت معركة بحر المرجان بأنها أول معركة بحرية تتم بدون أن يرى الخصم سفن

---

(١) بحر الكورال « المعرب »

عدوه ، ولم يحدث ضرب مباشر على السفن (١) .

وقد أستخدم القادة ، القوات الجوية فى الحرب البرية للاستطلاع فأستطاعوا رؤية «ماوراء الجبل» وقد تطورت القوات الجوية بسرعة مذهلة مما أصبح من المتعذر على العدو أجراء التحركات النهارية وتطلب منه ضرورة الحصول على السيادة الجوية قبل الدخول فى أى معركة برية .

وبذلك أصبحت القوات الجوية هى السلاح الحاسم فى الحروب ، فأستطاعت القاذفات نقل المعركة إلى العمق وضرب المناطق الحيوية للعدو محدثة خسائر فادحة فى المدنيين والمصانع وبذلك تؤثر على جبهة القتال بطريق غير مباشر فتستطيع القوات البرية الحصول على النصر السريع وبخسائر طفيفة .

القيادة والخيط الذهبى

سيلاحظ القارىء بأن موضوع القيادة سيجرى كخيط من الذهب خلال صفحات هذا الكتاب وسوف أنوه عنه حالياً ولكننى سأكتب بأستفاضة فى الفصل الثانى .

فالقيادة هى قمة الأحساس بل أهم العمد فى الحرب

لذلك يجب أن يتوفر فى القائد بعض المميزات والصفات مع مساهمة بعض العوامل فى صنعه ، ولكن يجب أن يتحلى أولا بصفتين حيويتين وهما : —

١ — القدرة على أصدار القرارات الصحيحة والصائبة

٢ — الشجاعة والجراة فى تنفيذ هذه القرارات .

وطبعاً هذه الصفات لا تقتصر على القادة العسكريين فقط بل هى لازمة أيضاً فى مجالات أخرى كالصناعة والسياسة .

ويجب على القائد أن يعرف . . .

— ماذا يريد تحقيقه . . . ؟

— يرى هدفه بوضوح ثم يبدأ فى محاولة تحقيقه . . .

---

(١) يقصد مونتجمرى أن الضرب تم عن طريق الحسابات من مسافات بعيدة دون أن يرى الغرض المراد الضرب عليه ، وهذه الطريقة تسمى بالضرب غير المباشر أما الضرب المباشر فهو أن يرى الغرض ويتم التصويب عليه . (المعرب)

— يلم مرؤوسيه إلماما تاما بما يريد ، مع معرفتهم للقواعد الرئيسية للسياسة التي سيتبعها مستقبلا .

وفي الواقع يجب أن يمارس القائد قيادة حازمة على أن يكون توجيهه واضحا ، مع خلق ما يسمى « بالجو » ليعيش فيه ويعمل جميع مساعديه وأركانات حربه وقادته الأصاغر ، على أن يكون قادراً على أدارة زمام القيادة والتوجيه ، وله الشخصية والقدرة على بث الثقة فيمن يعملون تحت قيادته ، وأهم من كل ما سبق يجب أن يتمتع القائد **بالشجاعة الأدبية والتصميم وقوة الارادة** ، فالاعتبارات الثلاثة الأخيرة تمكن القائد من الوقوف بثبات أمام الأحداث التي تحتاج للموازنة وأصدار قرار حاسم سريع ، ففي المعركة هناك شيء واحد مؤكداً ، وهو أن كل ما يجرى في المعركة غير مؤكد ، لذلك فأهم مصادر السيطرة والقوة للقائد خلال المعركة ستنبع من مقدرته على بث الثقـــة في الخطة التي وضعها ، ثم يتابع ذلك أثناء سير العمليات ، وخاصة عندما يكون القائد غير متأكد في قرارة نفسه بأن المعركة ستحقق النتيجة المرجوة .

ولكي يستطيع القائد تطبيق هذه الفلسفة على جميع المرؤوسين ، يجب عليه أن تكون معنوياته شخصياً مرتفعة ، فالمعركة في الحقيقة عبارة عن **صراع بين ارادتين ... ارادته وارادة قائد قوات العدو** . فإذا ما ضعفت معنوياته نتيجة لقسوة المعركة وأحداثها المفزعة ، فالنصر سيكون من نصيب الخصم المتمالك لمعنوياته .

وفي أعتقادي يمكن تقسيم القادة إلى نوعين : —

١ — قائد عادي جيد : وهو قائد جيد ، طالما يتلقى أوامر مفصلة من قائده الأعلى ، على أن يوجهه قائده الأعلى إلى ما يجب عمله ، ويقف بجانبه ليساعده ويراقبه ويتأكد دائماً بأنه ينفذ كل ما يأمر به .

٢ — قائد ممتاز (عبقري) : وهو القائد الذي لا يحتاج إلى تعليمات مفصلة بل يكفيه فكرة عامه عن العملية التي سيقوم بها ، ويستطيع تنفيذها بدون معاونة قائده الأعلى وهو مملوء بالثقة والإطمئنان ، ومثل هذا القائد كالطائر النادر جداً جداً .

وسوف نجد أثناء دراستنا لتاريخ الحروب منذ بدايتها حتى العصر الحديث ، أن كثيراً

من الشخصيات المعروفة والبارزة ستمر أمامنا على مسرح الحرب ، وبذلك ستكون لدينا فرصة لنقرر بأنفسنا إلى أى نوع من النوعين السابقين من القادة ينتمون . ونستطيع أن نحكم على نوعية القادة من خلال ممارستهم لتخصصهم ، وأيضاً من خلال معتقداتهم ودوافعهم العسكرية .

ويمكنني أن أقول بأن القادة الذين قادوا الحملات وخاضوا المعارك لا لشيء إلا لأسباب سياسية فقط دون الإستعداد لها . . . فإن هذه الحملات والمعارك لم تكن سوى المقبرة التي دفنت وطوت خبرتهم وشهرتهم العسكرية .

والآن وأستكمال للحديث عن القيادة والقادة يجب أن نتحدث عن موضوع هام وحيوى للقادة ويمنحهم العون الكبير قبل وأثناء وبعد المعركة وهو المخابرات والخدمة السرية .

المخابرات والخدمة السرية

لقد كتب بوليبوس[1] بأن القائد يجب أن يؤمن أيماناً راسخاً بوجوب معرفة كل مايتعلق بنزعات وشخصية خصمه . وقال فون مولتك[2] منذ ألفي سنة أثناء مخاطبته لضباطه :

— « ستجدون عند تقدير موقف العدو أن أمامه ثلاثة طرق مفتوحة سوف يستخدم أحداها ولكن وعند القتال الفعلى سيفاجئكم بأستخدام طريقة رابعة » .

لذلك فالقائد الجيد **من يستطيع السيطرة على ما يحيط به من احداث اما اذا سلبته هذه الأحداث سيطرته وتوازنه، فسوف يفقد بعد ذلك ثقة رجاله وبالتالى يفقد اهم مقومات القيادة .**

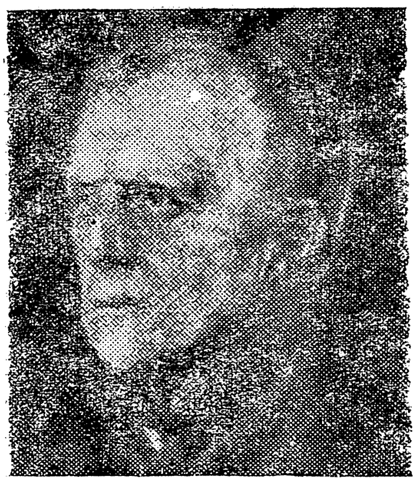

فون مولتك

لذلك كان لزاماً على القائد أن يكون على علم سابق بنوايا العدو وتحركاته المنتظرة ، حتى يستطيع أتخاذ الأجراءات المعتادة السريعة لمنعه من التدخل وأفساد خطته ، وبذلك يمنع العدو من التدخل فى تحركاته . وهذا أدى إلى ضرورة وجود جهاز مخابرات من الدرجة الأولى ، لأنه حيوى ، ومثل هذا الجهاز يجب أن يكون المسئول عنه ضابطاً يتمتع بأكبر قدر من الذكاء وليس من الضرورى أن يكون ضابطاً

(١) بوليبوس مؤرخ يونانى عاش فى الفترة ما بين ٢٠١ — ١٢٠ ق م.

(٢) فون مولتك كان يشغل منصب رئيس أركان حرب القوات البروسية لمدة ثلاثين سنة بدأت من عام ١٨٥٧ . (المعرب)

متخصصاً فى القتال . فأهم الصفات التى يجب توافرها فيه أن يكون تفكيره ناضجاً ومرتباً ونقياً ، ليستطيع أستخلاص النقط الهامة والرئيسية بالنسبة للعدو والتى قد تمر من أمامه مصادفة .

ويجب أن يكون هناك إتصال قريب ووثيق جداً بين أجهزة المخابرات وأجهزة الخدمة السرية . والقائد الجيد هو الذى يؤمن بأهمية معرفة ما يفكر فيه خصمه ولا يدخر وسعاً فى المحاولة للحصول على هذه المعلومات . وكنت أثناء قيادتى لقواتى أحتفظ فى عربة قيادتى بصورة فوتوغرافية معلقة لقائد الأعداء ، فى كل من صحراء العلمين ونورماندى ، ولم تتغير هذه الصورة الفوتوغرافية . . . فكانت لروميل . وكنت دائماً أنظر إليها متمعنا فى قسمات وجهه محاولاً الوصول إلى ما يمكن أن يقوم به هذا العقل المتوارى خلف هذه القسمات عند قيامى بتنفيذ خطتى . . . وليصدقنى القارىء أن ذلك ساعدنى كثيراً . . . ومرة أخرى أكرر أن دراسة قادة العدو عامل هام وضرورى جداً .

أثناء سير المعارك الحربية ، قد تخرج المعركة وبسرعة عن مسار الخطة الموضوعة لها ، وإذا حدث ذلك أنتقل زمام المبادأة إلى العدو ، فالدرس الذى تخرج به وتعلمته طوال مدة خدمتى العسكرية الطويلة ، هو أنه إذا **فقد القائد المبادأة ، أصبح من المستحيل أن يحقق النصر** ، ومن هنا تظهر أهمية وخطورة المخابرات والخدمة السرية التى تتولاها الحكومة المركزية وتتضمن عمليات الجواسيس والمخربين والعملاء السريين ، وكل هذه العمليات بصفة عامة تعتبر خارجة عن نطاق القانون سواء المحلى أو الدولى ، وبالتالى يمكن أن يقال أنها من العمليات البغضية إذا قورنت بالعمليات الأخرى التقليدية التى تخدم القيادة ، ولكن بالرغم من ذلك ، فقد أثبت التاريخ بالرغم من هذه النظرة البغيضة إلى عمليات الخدمة السرية ، أنه لم يحدث مطلقاً أن قامت أى دولة بالحد منها لأنها تزيد من قوة وفاعلية هذه الدولة .

الروح المعنوية :

نجد أن عوامل القيادة والسيطرة تلعب الدور الرئيسى فى تحقيق النصر خلال المعارك ، ولكن يوجد عامل حيوى وهام يتوقف عليه النصر أيضاً وهو الروح المعنوية للمقاتل .

وقد ظهر أن أفضل الطرق لرفع المعنويات خلال الحرب هو الحصول على النجاح فى

المعركة . ويجب أن نعلم أن **المادة الخام التى يتعامل معها القائد هى الرجال** ، لذلك فمن الضرورى ، بل ومن الحيوى أن نعرف أن النصر يتم أولا وقبل كل شىء ... فى قلوب الرجال . ومن الخطـــأ النظر إلى القوات المسلحة على أنها مجموعة من الأفراد المزودين بعدد ضخم من الدبابات والأسلحة ، فقوتها ليست فى مجموع هؤلاء ، بل القوة الفعلية تنبع مما هو أعظم بكثير من مجموع الأفراد والدبابات والأسلحة ... فالقوة الحقيقية تكمن فى **الروح المعنوية ، والروح القتالية والثقة المتبادلة بين القاده والجنود** (وخاصة بين القادة الميدانيين والقيادة العليا) وهذه هى الدعامات التى تؤكد وتدعم النصر .

وهناك أيضاً عاملان يلعبان دوراً هاماً فى المعركة **وهما الضبط والربط .. والزمالة** (زمالة السلاح) ولذلك يبرز لنا السؤال التالى : — ما هو الدافع للجندى ليخرج من خندقه أو حفرته التى تحميه من رصاص الإعداء ، ويتوجه للأمام ويواجه الرصاص أو قذائف المدفعية معرضاً نفسه للموت ؟

السبب الرئيسى فى هذا الأندفاع الجرىء هو قائده الذى يتقدمه وزملاؤه المحيطون به ، **فالزمالة تجعل الجندى يشعر بالدفء والشجاعة عندما تحاول غرائزه تحويله الى شخص بارد خائف** .

ويجب على القائد تفهم القوى العاطفية الفياضة الكامنة فى صدور الرجال ، ويجد لها متنفسا أو مخرجا أيجابيا وبناءا وبطريقة تدفىء القلوب وتثير وتلهب الخيال .

وفى العصر الحديث ، إذا قابل القائد مشكلات جنوده الأنسانية بطريقة باردة ومجردة من الشعور الحقيقى ، فلن يحصل منهم إلا على القليل ، ولكنه إذا أستطاع كسب ثقتهم وأيمانهم ، وجعلهم يشعرون بأنه يرعى مصالحهم ، وأنهم بين أيدى أمينة عليهم ، يكون بذلك قد أمتلك رجالا ذوى مستوى عال ونادر معنويا وقتاليا وحقق فى نفس الوقت أعظم ما يمكن أن يحققه قائد . والنصر فى المعركة لايتحقق كما ذكرت ، إلا بواسطة الروح القتالية العالية للجنود والضباط فى الميدان ، مهما كانت نوعية ضباط القيادات العليا .

وعندما تحدثت عن علاقة القائد والجنود ، بدأت بكلمة « العصر الحديث » لأن الحال لم يكن هكذا فى العصور الماضية ، وعلى كل فالقادة فى أى عصر مسئولون عن كسب

الحرب • وقادة العصر الحديث يقومون بذلك ولكن بأقل ما يمكن من الخسائر فى الأرواح ، أما خلال العصور الوسطى فلم تكن للقوة البشرية أى أعتبار وليست ذات قيمة ، لأن العبيد كانوا يعملون فى الأرض وبعد ذلك يستهلكون فى المعارك • أما فى القرن الرابع عشر فقد توالت سلسلة من الأوبئة وأصبحت القوة البشرية نادرة جداً ، فقد حصدت هذه الأوبئة أعدادا مخيفة من البشر حتى سمى هذا العصر ، بعصر « الموت الأسود » فنتج عنه أرتفاع قيمة هؤلاء العبيد وبذلت الجهود للمحافظة على حياتهم .

نعود ثانية للعصر الحديث ، فنجد أن معظم الدول بدأت تطعم قواتها المسلحة بعناصر من المدنيين المحترفين لأعمال فى البحر والجو وهؤلاء الأفراد لم يفكروا مطلقا فى الأنخراط فى سلك الجندية .

وهؤلاء يختلفون تمام الأختلاف عن العبيد الذين كانوا ينزعون من أعمال الأرض إلى الحرب ، لأن هؤلاء المدنيين مثقفين ويمكنهم التفكير والتقدير بل والنقد أيضاً ، ويهمهم دائماً معرفة ما يجرى ، وما يريد القائد أن يقوم به ••• ولماذا ••• ومتى ••• ؟ ويهمهم أيضاً أن يتأكدوا من أن قائدهم يعمل ما فى صالحهم ، وأنهم بين أيدى أمينة ،ولذلك يريدون دائما رؤيته حتى يرسموا فى أذهانهم صورة له فيعرفوا من أى نوع من البشر هذ القائد ••• ؟ وبذلك ترتفع روحهم المعنوية .

الحرب الشاملة .

وأعتقد أنه أصبح واضحا الآن مما كتبته ، أن الحرب لها **جوانب انسانية** أيضا ، وللأسف أهملها كل المؤرخين ، وسأحاول الأشارة إلى هذا الموضوع عبر فصول هذا الكتاب ولن أغفر لنفسى مهما كانت الأعذار ألا أكتب عن هذا الجانب الأنسانى • فالجانب الأنسانى فى الحرب هو أهم جوانبها لأن التعب والخوف والرعب والحرمان وتحمل الموت ... سوف يواجهها الجندى المقاتل بقلب جسور إذا كان على علم وأيمان بالغرض الذى يقاتل من أجله ويثق فى ضباطه ورفاقه ، وفى نفس الوقت يعلم أنه لن يطلب منه تحقيق مالا يكون فى أستطاعته •••

لذلك يجب أن يكون كل ماسبق محل أعتبار الدارسين للحرب ، وخاصة من تكون مهمتهم الأصلية هى الحرب والقتال فقط .

والحرب الحديثة قد أزدادت صورتها تعقيداً من الماضى حتى الآن ، وعلى كل فهى النوع الذى يشمل كل أوجه الحياة والنشاط للدولة فترة طويلة بما فى ذلك معنويات هذه الدولة .

والحرب الشاملة فى العصر الحديث تمتص كل جهود القوى العاملة رجالا ونساء ... وتحول كل قوى الصناعة لسد الحاجات الضرورية للمجهود الحربى .

وأثناء هذه الحرب يكون المرء دائما محوطا بالخطر سواء إستدعى للخدمة العسكرية أو كلف بأى عمل مدنى أو صناعى ، فالخطر يصبح ماثلا فى كل مكان وأدى هذا إلى ضرورة وجود نظام خاص يكفل حماية المدنيين داخل المدن ، وسمى هذا « بالدفاع المدنى » أو « الدفاع الوطنى » .

تلك الحقائق أدت أن أصبحت الحرب الحديثة أمرا بالغ التعقيد ، لذلك لم تعد القوى الكبرى تستعد للحرب بالوسائل التقليدية ، بل أضطرت إلى أن تجهز نفسها بنوع آخر من الحروب ... وهى الحرب النووية . ولهذا سعت الدول لتضمن أمنها وبقائها إلى توجيه كل أمكانياتها العلمية والتكنولوجية إلى التوصل لأحدث وأقوى أنواع الأسلحة الحديثة على أن يتمشى ذلك مع الأستعداد للحرب النووية .

الفصل الثانى

القيـــادة

العلم وفن القيادة

خلال فترة الحرب ما بين ١٩١٤ — ١٩١٨ ، قال كل من برياند ولويد جورج نقلا عن توليراند بأن « الحرب من الأمور البالغة الخطورة ويجب ترك تصريف شئونها للعسكريين فقط » وطبعاً هذا صحيح جداً ، ولكن يمكن أيضاً أن يقال « الحرب من الأمور البالغة الخطورة ويجب أن يتولى شئونها السياسيون فقط . »

والحقيقة أن الحرب الحديثة تتطلب وجـــود تعاون وثيق بين كل من العسكريين والسياسيين ، لأن هذا أمر ضرورى وحيوى وإذا لم يحدث هذا ، فستكون النتيجة الموجوة من الحرب مشكوكا فى تحقيقها .

والآن ... ليدعنى القارىء أقدم وجهات النظر فى مسئوليات العسكريين الذين يقصدهم توليراند ، فنجد أن كلمة « قائد » يشمل معناها كل الرتب العسكرية الكبرى التى تعمل فى خدمة الحرب والقتال ، وإذا بحثنا عن معنى القيادة فى قاموس أكسفورد لوجدنا أنها تعنى « مكتب الجنرال ، الأستراتيجية ، المهارة العسكرية ، الأدارة الناجحة ، التكتيك ، الدبلوماسية ... » أما التعريف الذى أضعه لهذه الكلمة فهو : —

علم وفن القيادة .

فهى علم لأن الضباط يجب أن يدرسوها نظريا ... وهى فن لأن هذه الدراسة النظرية تحتاج للتطبيق العملى ، ويجب أن تتضمن القيادة مع كل هذا المعرفة الحقة للأعماق البشرية .

وقد كتب ماوتسى تونج الذى يعتبر بلا منازع قائدا عظيما فى كتابه بعنوان « كتابات حربية مختارة » قال : — أن القوانين والنظريات العسكرية ما هى إلا حصيلة وخلاصة الحروب الماضية والتى وضعها الأقدمون أو المعاصرون ، وهذه الخلاصة يجب علينا دراستها

دراسة عميقة وأختبار نتائجها على ضوء ما أكتسبناه نحن من تجاربنا ، ثم أستيعاب الجوانب القيمة لهذه النتائج مع رفض الضار منها وأضافة ما يمكن أضافته إليها من خبراتنا ، والأضافة الأخيرة هامة جداً ، وإلا فلن نتمكن من تطوير وتوجيه الحرب ، وعلى كل القراءة تعنى المعرفة ، ولكن تطبيق هذه المعرفة هو أهم ما فى القراءة من جوانب » .

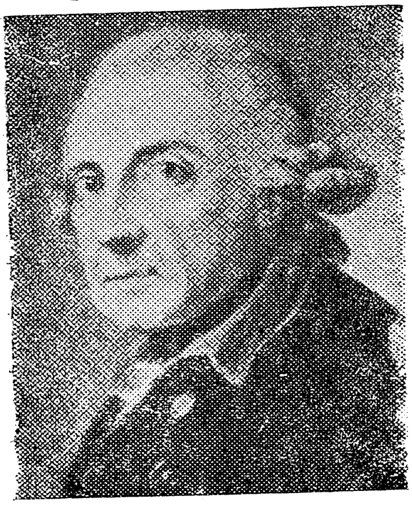

فردريك الأكبر

وماوتسى تونج على حق ، فأنا أذكر خلال فترة الحرب ١٩١٤ — ١٩١٨ أننى أقترحت على أحد الضباط الألتحاق بأحدى الكليات العسكرية للضباط الأصاغر فى فرنسا ، فما كان منه أن ضحك من أقتراحى هـذا وقال : « إن الخبرة الفعلية للضباط لاتأتى إلا خلال المعارك والقتال فى الخنادق . » ولكننى ذكرته بما قاله فريدريك الأكبر عن الضباط الذين يعتمدون فى دراستهم وخبرتهم أشتركوا فى معارك كثيرة فقط فقال : — « كان لدى زوج من البغال أشتركوا معى فى أكثر من أربعين معركة ، ولكن بعد أنتهاء كل هذه المعارك مازلا بغلين ... »

فالدراسة النظرية والتطبيق العملى كلاهما ضرورى ، فيجب دراسة علم الحرب أولا ثم يتم تطبيق هذه الدراسة فى المعارك ثانياً . والأعتبار الأول ممكن القيام به دائماً ، وليس هناك أى عذر لأهماله ، أما الأعتبار الثانى فربما لا يتوفر ، ولكنه توفر لى كثيراً .

وسنجد أن قدراً كبيراً من الخبرة العظيمة والتجارب الكثيرة مدفونة تحت أنقاض الماضى السحيق والعصور المتعاقبة للحروب ، ولن يستطيع القادة الإستفادة من هذه الخبرة إلا بوجود المؤرخين العسكريين لكى يخرجوها من تحت أنقاض هذا الماضى ، وفى نفس الوقت لن يستطيعوا إستيعابها بدوننا نحن جنرالات وأدميرالات العصر الحديث ، لأن وجودنا حيوى لنقد وأختبار خبرات ذلك الماضى ، ولولا هذا لأختلطت الأمور وتشابكت الصور ، لأن القيمة الحقيقية للحروب الطويلة فى الماضى ، هى الخروج بالحقائق واستخلاص العبر والدروس المستفادة، وليس فى الدخول فى متاهات المناقشات فيما كان يجب أن يكون ...

فالمهم الخروج بالحقائق أولا ثم بعد ذلك لتكن المناقشة وليكن الرأى . . .

دراسة التاريخ العسكرى .

لقد كان استمتاعى بكتابة هذا الكتاب أكثر بكثير من أننى الشخص الملائم لكتابته ، وخاصة لو عرف القارىء أننى بدأت حياتى ضابطاً صغيراً ليس له أى تجارب أو خبرة وألتحقت بكتيبة فى الهند عام ١٩٠٩ وأخذت أتدرج فى المناصب القيادية حتى وصلت إلى أعلى القيادات ، وكانت عادتى دائماً طوال هذه المدة (ولا زلت حتى الآن) القيام بدراسة الماضى دراسة عميقة محاولا البحث عن كل ماله أهمية لأيضاح وأنارة طريقى فى الحاضر والمستقبل . ولذلك قمت بدراسة التاريخ العسكرى دراسة شاملة وواسعة ولكنها كانت محصورة فى حدود الكتب التى وضعها المؤرخون البريطانيين من أبناء عصرى ، إلا أننى حاولت دراسة كتب غيرهم مثل كلاوزفيتز الألمانى وجومينى السويسرى ، وكلاهما من الكتاب العسكريين ذائعى الصيت ، إلا أننى تعثرت مع كتاباتهم فعدت ثانية إلى دراسة كتابات المؤرخين من أبناء بلدى ولغتى .

وأول كتاب تناولته كان كتاب « علم الحرب » بقلم ج . ف . ر . هندرسون وهو عبارة عن مجموعة محاضرات نشرت للمؤلف بعد وفاته . وبعد ذلك قرأت كتاب « الحرب الأهلية الأمريكية » لنفس المؤلف وقد أثارنى جداً وأستمتعت به أستمتاعا كبيراً . ثم وجدت أننى أستطيع الأستفادة والتعلم أكثر لو قرأت كتبا للمؤرخين المعاصرين ، وركزت بصفة خاصة دراستى على قادة الأمس العظام لأعرف **كيف كانوا يفكرون ويعملون . . ؟**

كيف استخدموا ما اتيح لهم من أمكانيات . . ؟

ولم تشغلنى الطريقة التفصيلية لتوزيع وتنسيق القوات المحاربة فى أى عصر مضى ، بل كنت دائما أبحث عن **المشكلات التى كانت تواجه القائد اثناء المعركة . .**

ما هى العوامل التى اثرت وسيطرت على قراره . . ؟

وما هو قراره . . ولماذا . . ؟

أردت أن أعرف ماذا كان يدور فى رأس هذا القائد العظيم عندما أصدر قراره . . ؟

وكان ذلك يمثل فى نظرى الدراسة الحقة والأكيدة للقيادة .

وقد تأثرت بعدد من المؤرخين العسكريين المعاصرين البريطانيين ومنهم بازيل ليدل هارت وهو من الكتاب الممتازين فى هذا المضمار لتميزه بالوضوح المطلق والكتابة السلسة، علاوة على أنه خبير فى مجالى التحليل والتعليق ، وكانت تربطنى به صداقة لأكثر من أربعين عاما ، وقد تتبعت خلالها كل مؤلفاته ، وقد أثرت طريقة تفكيره العسكرى تأثيراً بارزاً فى قيادتى طوال مدة خدمتى وأثناء الحرب الأخيرة .

ومن المؤرخين أيضاً الذين تعلمت الكثير من كتاباتهم سير آرثر بريانت والمرحوم ج . ف . س . فوللر وأيضاً سيريل فولز و أ . ج . تايلور ، والأخير كتب أفضل الكتب وخلالها أمكننى التعرف على المشكلة الألمانية ، وهذا الكتاب إسمه « الأسباب الرئيسية للحرب العالمية الثانية » . وبعد أنتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ يظهر جيل جديد من المؤرخين العسكريين الشبان ، ولم يتمكنوا بحكم حداثة سنهم من رؤية خبايا الحرب، ومن أبرز هؤلاء فى رأيى كوريللى بارنيت ، فكتابه «حملة السيوف» من الكتب ذات المستوى العالى وضمنه دراسة لبعض القادة الذين أشتركوا فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ وأبرز ما فيه القوة الفائقة فى التحليل والتعليق . ومن هؤلاء أيضا آلان كلارك الذى أعجبنى كثيراً كتابه « بارباروسا » وهذان الكاتبان ينتظرهما مستقبل باهر ، وجميع مؤلفاتهم جديرة بالقراءة من القادة على جميع المستويات .

علم الحرب .

من الأمور الطبيعية أن المهارة العسكرية للقائد تحتاج إلى دراسة نظرية أولا وذلك عن طريق دراسة علم الحرب ، لأن الفرصة لا تسنح دائماً للقائد للقيام بحرب عملية حقيقية فى أى وقت ، ولهذا كان أعظم القادة دائماً من الدارسين للتاريخ العسكرى .

وقد كتب بسمارك : « **اكثر الرجال حكمة هم اكثرهم استفادة من تجارب الغير** »

وقال ت . د . لورانس :« إن وراءنا نحن أبناء القرن العشرين ألفى سنة من الخبرة والتجارب ، فإذا أجبرنا على القتال ، فليس لنا أى عذر إذا لم نحارب جيداً » .

ومن خلال قراءاتى الطويلة عبر السنين ، أقتنعت بأنه لا يمكن لأى قائد فى القرن العشرين أن يصبح قائدا عظيما وممارساً ممتازاً لفن الحرب ، إذا لم يقم قبل كل شيء بالدراسة

والتفكير العلمى للحرب . وعلى ضوء تجاربى الشخصية فى قيادتى أثناء الحرب الأخيرة ، خرجت بمبادىء رئيسية ونتائج محددة حول القيادة منها أن من أولى مسئوليات قائد القوات أن يخلق ما يسمى « بالوسط أو الجو » الذى من خلاله سيعيش ويعمل ويقاتل كل أركانات حربه وقواده المرؤوسين وجنوده ، على أن تعرف وتلم قواته **بما يريد . . ؟ ويكونون على علم تام بالأسس الرئيسية لسياسته المستقبلة ، مع توجيه القوات توجيها حازما فى ظل قيادة واضحة .**

فى نفس الوقت يجب أن يصدر التفكير والتوجيه من القيادة العليا على أن ينتشر تدريجياً حتى يعم جميع القوات .

وإذا تم ذلك فالجميع سيسيرون للأمام كل فيما هو مرسوم له فى الخطة وبذلك ستكسب القوات عاملين هامين هما **التوازن** . . **والتماسك** . . . وطبعاً يمكن أن نعرف ما تستطيع مثل هذه القوات أن تحققه فى المعركة . . ومن القادة الذين طبقوا هذه المبادىء كاملا هو نيلسون .

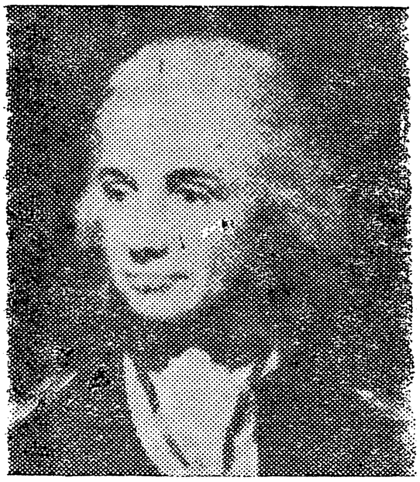

نيلسون

وبعد أن يحقق القائد هذه العوامل أو المبادىء المعنوية يجب عليه أن يوفر المبادىء المادية من توفير المعدات الحربية اللازمة للمعركة مع الحصول على أقصى طاقة وجهد لهما ، ويتطلب هذا أن يكون على معرفة كاملة بإدارة الحرب وفى نفس الوقت يقوم بتدريب قواته تدريباً شاقاً متواصلا على هذه المعدات .

ويجب أيضاً أن يتواجد فى مركز قيادته جهاز يستطيع توجيه جميع الأسلحة والمعدات بكفاءة وبسرعة مع دفعها إلى ساحة القتال بطريقة مدروسة لتحقيق أكبر قدر من النجاح ، ويجب أن تعرف القوات كل هذا . ويتضح لنا مما سبق أن أدارة مسرح المعركة أصبح حيوياً ومن أولى أختصاص القادة .

مشكلات الحرب

لقد ظهر للقادة بعض عناصر رئيسية يتوقف عليها القتال فى المعركة ويجب تحقيقها للحصول على النصر وهى :

١ — **المفاجأة .** ٢ — **تركيز الجهود .**
٣ — **التعاون بين جميع الأسلحة والقيادات والقوات .** ٤ — **السيطرة .**
٥ — **البساطة .** ٦ — **سرعة التصرف .** ٨ — **المبادأة .**

علاوة على ذلك يجب على القائد أن يكون واضح التفكير ، قادراً على أستخلاص العوامل الهامة فى المشكلة التي يحيط به ثم يتمسك بها ، على ألا تغيب عن بصره ولا يسمح للتفاصيل الكثيرة أن تغرق ما حصل عليه ، لأنها هى أسس النجاح .

والمشاكل الحربية فى جوهرها بسيطة ، ولكن القدرة على تبسيطها واستخلاص الهام منها هو الصعب ، ويجب على القائد أن يتميز بهذه القدرة مع تحليه بصفة بعد النظر .

وقد يتعرض القائد للفشل إذا لم يكن عقله منظم وتفكيره نقى فى جميع الأوقات ، ويجب عليه الاعتدال فى التدخين وشرب الخمر .

يجب على القائد أيضاً أن يضع خطة العمليات بنفسه ولا تفرض عليه من قبل أركانات حربة أو تحت تأثير أى ظروف أو بواسطة العدو ، لأن أقصى ما يطمع فيه العدو أن تتاح له الفرصة ليملى أرادته على المعركة ، ولكن يمكن للقائد إحباط ذلك بأفقاد العدو لثوازنه باستخدام خفه الحركة وأجباره على الأذعان لتحركاته وتهديده مع أستخدام عامل المفاجأة ، وهنا تظهر حنكة وبراعة القائد فى المناورة والخداع مما يجعل العدو يتصرف ويتحرك طبقاً للضغط القوى التواصل لهذا القائد .

المفاجأة .

المفاجأة من العوامل الرئيسية لنجاح المعركة ، ولكن نجد دائماً أن من الصعب

تحقيق المفاجأة **الاستراتيجية**[١] بينما يمكن تحقيق **المفاجأة التكتيكية** التى دائماً تتبوأ الصدارة أثناء وضع الخطة لأن القائد يجب أن يجبر عدوه على الرقص على ما يصنعه من أنغام طول الوقت . وهذا يتطلب أن يتنبأ القائد ويتخيل ما ستكون عليه معركته ، أى يقدر الموقف قبل بداية المعركة ثم يتصور ما يجب أن تكون عليه العمليات ، وبعد ذلك يستخدم جميع الإمكانيات المتوفرة له لإجبار المعركة على السير فى الطريق الذى رسمه ويريده .

وأثناء سير العمليات سيحاول العدو أن يفقد قائد الخصم توازنه بالقيام بالهجوم والتهديد المضاد وهذا ما لا يجب أن يسمح به إطلاقاً عبر أرض المعركة ولذلك يجب أن تتمتع القوات بتوازن تام وضبط وربط عاليين ، وهذا يتطلب أن يكون الهيكل العام لتوزيع وتنسيق القوات جيداً حتى يصبح من المستحيل على العدو أن يفرض سيطرته عليها .

ومن أبرز علامات القيادة الممتازة **المهارة فى توزيع**[٢] **القوات قبل المعركة ، على أن يسهل اعادة تجميعها لمقابلة ما يطرأ من تطورات على الموقف التكتيكى .**

مناورة افقاد التوازن .

كما ذكرت فى بداية هذا الفصل أن من أهم صفات القائد أن يستطيع **متابعة وفهم عقلية خصمه** ، وبذا يقدر على قطع الطريق ، مقدما على جميع محاولات خصمه لأحباط ما وضعه من خطط ، كما يمكنه أيضاً التحرك أسرع من تحرك خصمه المضاد . وبالطبع فالقادة يختلفون ، فكل منهم له طريقة وأسلوب ينبعان من دراسته وتجاربه وعقليته . أما بالنسبة لى شخصياً فكان أسلوبى يعتمد على **المناورة التى تفقد العدو توازنه فى نفس الوقت احتفظ بتوازن قواتى بالكامل** ، ويطلق على هذه المناورة **مناورة افقاد التوازن .**

---

(١) المفاجأة الاستراتيجية : تعنى إخفاء نية وقوة وموعد واتجاه الضربة الرئيسية ، أما المكافأة التكتيكية فتماثل المفاجأة الاستراتيجية ما عدا بند النية .

(٢) يقصد مونتجمرى ليس عملية التوزيع فى حد ذاتها ، بل المهارة فى التأكد ، أن جميع الوحدات قد اختيرت ووزعت بحيث تتلاءم مع الغرض التى ستحققه . (المعرب)

وكنت أهدف دائما أثناء تخطيطى للمعركة أن أجعل العدو يبعثر قواته الاحتياطية على جبهة واسعة لكى يسد بها الثغرات التى حدثت فى خطوطه الدفاعية ، وعندما يحدث ذلك أقوم على الفور بدفع قواتى الاحتياطية لتوجيه ضربات عنيفة للعدو وعلى جبهة ضيقة ، وفى هذا الوقت أحاول تكوين أحتياطى جديد يكون على أستعـــداد لأى تصرف مفاجىء يقوم به العدو .

المبادأة .

يجب عندما يمتلك القائد زمام المبادأة ، أن يحرص عليها ولا يدعها تفلت منه مطلقا مهما كانت الظروف ، لأن المبادأة وحدها تجعل العدو يرقص على نغمات هذا القائد ، أما إذا فقدت المبادأة أمام عدو محنك فستصبح جميع التحركات تخضع لتهديد العدو وضغطه . وهـــذا كفيل بخسارة المعركة ، ومن السهل أن تفلت المبادأة من القائد إذا كانت العمليات تجرى على نطاق واسع وشامل ، ولكن يمكن منع حدوث ذلك ، بمسك زمام المعركة بقبضة محكمة مع تعديل الخطة لتتناسب مع التغيير الذى طرأ على الموقف التكتيكى ،وعلى كل فيجب على القائد أن يفكر فى معركتين ، الأولى فى وضع الخطة والثانية فى تنفيذ هذه ، الخطة والنجاح فى الأولى هو نقطة الانطلاق للنجاح فى الثانية .

ويجب دائما أن يكون الشاغل الأكبر للقائد فى وضع الخطة والمشكلات التى تعترضها ، ولكنه لا ينسى مطلقا أن **المادة الخام التى يتعامل بها هى . الرجال ، فالقيادة فى الحقيقة مشكلة انسانية** .

الثقة بين القائد والجنود :

لقد ظهر أن الجنود يصيبهم شعور كبير بالوحدة أثناء المعركة وأذكر أننى شخصيا تعرضت لهذه الوحدة فى فترة حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ وكنت أقود أحدى الدوريات الليلية عبر منطقة العدو وقد حدث أكثر من مرة أن فقدت الأتصال برجالى فأصبحت وحيداً وقريباً جداً من العدو .

وأعترف بأننى أحسست بالخوف فى ذلك الوقت ، لأنها كانت أولى تجاربى فى الحرب وبالطبع أعتدت بعد ذلك على هذه المواقف .وعندما أصبحت قائداً كبيرا وضعت نصب عينى

أهمية معرفة الجنود بوجود قادة من مختلف الرتب يقفون خلفهم ويعملون كل مافى جهدهم للعناية بهم والقائد الذى يحرص ويعنى أشد العناية بالمحافظة على أرواح رجاله يستطيع أن يحقق النصر بأقل خسائر فى الأرواح لأنه يحصل على ثقة جنوده ، وبذلك سيتبعونه عن إيمان وثقة راسخة . لذلك أصبح لزاما أن يتواجد القائد بين جنوده ، وكان أسلوبى فى حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ التواجد بين رجالى والتحدث معهم بقدر إستطاعتى ، وأحيانا كنت أتحدث إلى عـدد كبير منهم من خلال نافذة عربتى الجيب عندما أصادفهم فى الطريق وأحيان أخرى وهم فى خنادقهم أو دشمهم يقفون خلف أسلحتهم .

وفى أوقات أخرى كنت أوجه الحديث إليهم بطريق غير مباشر عن طريق الرسائل المكتوبة فى الأوقات الحرجة وذلك أثناء القتال أو قبل بداية المعركة ... وكانت مثل هذه الرسائل تشحذ عزيمتهم وتساعدهم على تنمية روح الفريق ، فيقاتلون بثقة للحصول على النصر . وكان السير دوجلاس هيج لا يتبع هذه القاعدة بل يتفقد قواته فى صمت تام ، وهناك قصة تروى عنه بأن أحد أركانات حربه أقترح عليه فى يوم من الأيام أن يتحدث إلى الجنود أثناء المرور عليهم لأن هذا سيحدث أثراً طيباً فى نفوسهم ، وعمل هيج بالأقتراح ، ووقف مع أحد الجنود وسأله : ــ كيف بدأت الحرب .. ؟ فأجابه الجندى محملقاً : أنا لم أبدأها يا سيدى . . . بل القيصر هو الذى بدأها ! ! ؟ ؟ . .

وطبعاً لم يعلق هيج على هذه الإجابة غير المنتظرة ، وعلى كل حال فهذه الكلمات الصادقة يجب أن يعمل حسابها أثناء قيادة الرجال .

ومن المهام الرئيسية للقائد العمل على أستمرار تدريب قواته للحرب المنتظرة وما قد يحدث خلالها من عمليات خاصة ، حتى يثق الجندى ثقة مطلقة فى **سلاحه ومقدرته على استخدامه بكفاءة فى مختلف الظروف وعلى جميع الاراضى وفى جميع الاحوال الجويه .** ويمكن تنمية هذه الثقة عن طريق التدريب المتواصل حتى يكلل بالنجاح فيصبح من أهم العوامـــل الرئيسية لرفع الروح المعنوية للقوات . ويجب القائد ألا يكون شحيحاً فى توزيع

ثنائه على من يستحق هذا الثناء لأن جميع البشر يحبون أن يثنى عليهم إذا شعروا بأنهم قاموا بعملهم على خير وجه . وقد أخبرنى ذات مرة السير ونستون تشرشل عما أجاب به دوق ويلنجنون رداً على سؤال وجه إليه فى آخر أيامه ، وكان هذا السؤال هو : إذا أعطيت لك الفرصة لتبدأ حياتك من جديد فما هى الوسيلة التى تجعلك تؤدى عملك أحسن مما قدمته حتى الآن ؟ .

دوق ولنجتون

وكانت أجابته : **« الوسيلة لذلك ان أحصل على المزيد من الثناء »**

الصلابة

إذا قمنا بدراسة الطرق والأساليب التى أتبعها القادة فى الماضى ، فنستطيع أن نعرف الجوانب العملية للحرب فى ذلك الوقت وكيف كانت تدار ؟ ومن ناحية أخرى سترسم لنا هذه الدراسة صورة للتطور الذى مر به فن الحرب . وسيرى الدارس أن المبادىء التى أتبعت فى الماضى سيتوالى تكرارها عبر التاريخ ولكن الظروف فقط هى التى ستختلف . وبالرغم من أن أسلحة الحرب أصبحت أكثر قوة ، وأزدادت مشكلات ميدان القتال تعقيداً ، إلا إننا سنجد أن جوهر وأسس الحرب اليوم هى نفسها التى كانت فى عهد الاغريق القدامى ، والتى ظهرت فى المعارك التى نشبت بين روما وقرطاجة . . وعلى مر القرون ، أخذ القادة على أختلاف رتبهم يواجهون رغماً عنهم مشكلة **الادارة** أو كما يسمونها **مشكلة الشئون الادارية** ،وقد تعلمت أنا شخصياً من خلال تجاربى الشاقة ، **أن الموقف الادارى فى مؤخرة القوات يجب أن يتكافأ تماما مع ما أريد تحقيقه من مهام فى المناطق الامامية أثناء المعركة** ، وخرجت أيضاً بدرس آخر وهو الحاجة إلى الصلابة أو بمعنى أصح **المقدرة على الثبات أمام صدمات الحرب** التى ليس هناك أدنى شك فى وقوعها ، تماما كما نعرف أن الليل سيعقبه النهار . وقد عبرت فى السطور السابقة عن مشاعرى عندما كنت ضابطاً صغيراً أقود أحدى الدوريات الليلية عبر خطوط العدو ، وما شعرت به من وحدة ، ولكن هناك أيضاً شعور بهذه الوحدة أو العزلة فى مجال القيادة العليا . والقائد الأعلى للقوات له مسئوليات

جسام يجب ألا يترك تصريف أمورها لأركانات حربه أو مرؤوسيه ،لأنه الوحيد الذى يجب أن يصدر القرارات ، وهو المسئول الوحيد أيضاً عن نجاحها أو فشلها وتقع مسئولية أرواح رجاله فى عنقه .

وتتجلى مظاهر المسئولية فى القيادة وبصفة خاصة فى وقت الشدائد والمحن ، ويعتبر ذلك أقسى أمتحان يمر به القائد ، وقد مر كل من ويلنجتون ونابليون بهذا الأمتحان ، كما أننى مررت به شخصياً ولكن على نطاق أضيق فى نورماندى عام ١٩٤٤ . فعندما لا تسير الأمور طبقاً لما هو مخطط لها ، فجميع الأبصار تتجه إلى القائد الأعلى لتستلهم منه الثقة وتسأله : ماذا نفعل الآن ؟ .

وفى مثل هذه الأوقات العصيبة ، يجب على القائد بجانب قيادته لقواته أن يقوم أيضاً بقيادة نفسه ... وأنا أعلم تماما أن قيادته لنفسه لن تكون بالشىء السهل .

فنجد أن « لى » أستطاع أثناء الحرب الأهلية الأمريكية من أستعادة ثقة رجاله وأخلاصهم بالرغم من أنه لم يحقق النصر لهم . وقد كتب ويفل عن « لى » : —

لقد كان رجلا مهذبا فى مواجهة اشرس مواقف القتال .

ضباب المعركة الكثيف

ولنعد الآن إلى الموضوع ذكرته فى بداية حديثى عن القيادة وقلت أنها مهمة فى الحياة العسكرية أو السياسية ، فنجد أن القادة السياسيين إذا فشلوا فى تسوية منازعاتهم الدولية بطريقة سلمية ، فستظل دفة الحرب فى أيدينا نحن العسكريين ، أما إذا لجأت الدولة للقوة المسلحة لتحقيق أغراضها السياسية ، أو أن هذه الدولة نفسها هوجمت ، فستصبح مسئولية توجيه الحرب فى أيدى السياسيين وليس العسكريين .

وعلى كل سيجد القادة العسكريون صعوبة بل أستحالة لتحقيق النجاح لحكومة مذبذبة غير مستقرة ، تنقصها الشجاعة والبصيرة الواضحة وليس لديها أى تقدير لما هو هام وما هو غير هام فى المعارك المنتظرة .

فمن المهم بل ومن الحيوى أن يكون هناك نوع من اللغة التى تربط بين الأهداف السياسية والأستراتيجية ، وذلك بطريقة واضحة لا تقبل اللبس ، ويجب أن تكون

التوجيهات العسكرية الصادرة للقادة الكبار نابعة من هـــذا المفهوم . ويجب أن ترعى الحكومات منتهى الدقة والحكمة فى إنتقاء هؤلاء القادة حتى يستطيعوا توصيل هـــذه التوجيهات بعد ذلك إلى باقى القادة المرؤوسين ، مع مدهم بأقصى ما يمكن من العون والتأييد .

ويجب أن يراعى فى التوجيهات التى تصدر أن تكون مشددة ... واضحة . وقد ظهر فى معظم الحروب أن إمكانيات الدول المشتركة فى القتال تكون متساوية تقريباً ، وفى هذه الحالة فالنصر يحالف الجانب **الأفضل تدريبا . . وقيادة . . . والاهم من ذلك . . . الروح المعنوية العالية . .** وقد حدث فى كثير من الحروب بالرغم من مهارة القائد أن يصبح النصر مشكوكا فيه لأصطدامه بعدو مستميت ، فى هذه الحالة تنتقل مصادر القوة من القائد إلى جنوده ، ويصبح النصر عندئذ مرهوناً **بشجاعتهم ومستوى تدريبهم وضبطهم وربطهم ورفضهم لقبول الهزيمة ومقدرتهم على الثبات والتماسك خلال المعركة .**
وخلال مسيرتى الطويلة من العلمين إلى برلين أبان حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ كنت دائماً أضع أمام عينى الجملة المأثورة عن شكسبير والتى وردت فى قصته « هنرى الخامس » والتى يقول فيها :

يا اله الحروب . . . انزع القلوب من صدور جنودى . .

ومع بداية دراستنا للحرب ، فآمل أن يصل القارىء للأعماق الحقيقية لما أكتب فمعظم ماسندرسه من الحروب حـــدثت فى الماضى وقد تحقق النصر فيها ، ولكن كان وراء هذا النصر الجنود والبحارة[1] . والقادة عندما يخططون للمعركة يواجهون دائماً بالضباب الكثيف ، ولكن براعتهم وحكمتهم فى التخطيط يبدد هذا الضباب الكثيف أمام الجنود وفى أعتقادى أن القادة المهرة لا يولدون قادة ولكن يصنعون ، فلا يمكن للضابط أن يصل إلى مناصب القيادة العليا بدون دراسة طويلة ، فالقيادة فى الحرب ما هى إلا دراسة دائمة ، وإذا أهملها القائد فلن ينجح .

---

(١) لم يذكر مونتجمرى القوات الجوية لأنها لم تـن كموجودة فى العصور القديمة ، (المعرب)

وقد قلت ذات مرة لأحد ضباطى ، وكان طموحاً ولكنه إلى حد ما كسولا : — «تذكر أن الذين يحققون النصر بدون دراسة نادرون جداً وليس ذلك فى الحرب فقط ، ولكن أيضاً فى أى مهنة أخرى » .

وطبعاً فالموهبة الطبيعية ضرورية وتظهر فى المقدرة على وضع قرار سريع حكيم وسديد مع الصلابة والجرأة وفى الوقت المناسب .

الرفاهية وتأثيرها على الدول

سوف نرى كيف تؤدى الخبرة والتدريب المتواصل للقوات على أختلاف أسلحتهم إلى تحقيق أعظم الأنتصارات خلال أقسى الظروف وفى مواجهة أضخم الجيوش . وستظهر مزايا القائد الجيد سواء فى أوقات الشدة أو المحن أو عند الأنتصار .

وأخيراً ... ستظهر لنا الدراسة أن أهم عوامل النجاح فى الحرب هى المقدرة والقيادة الجيدة وقوة العزيمة ، وإذا توافرة هذه الصفات فى القائد فمكانه الطبيعى فى مصاف أشهر وأعظم القادة . وعلى كل عندما تنطلق الأقوال وتتحول إلى أعمال ... فالحرب ستصبح البوتقة التى ستظهر من أى معدن صنع هذا القائد .

وسوف أنهى هذه المجموعة البسيطة من الأفكار عن موضوع القيادة بملحوظة ، وستتضح من خلال قراءة الفصول القادمة لهذا الكتاب ، وهى أن المارشال الراحل ويفل أخبرنى ذات مرة أنه عندما كان الأسبرطيون فى أوج مجدهم العسكرى ، أرسلوا وفداً إلى كاهن مدنيه دلفى (١) ووجهوا إليه السؤال التالى بطريقة تنم عن الغطرسة : —

— هل تعتقد أن هناك ما يمكن أن يلحق الأذى بإسبرطه ؟

وجاءت الأجابة بسرعة . — نعم ... الرفاهية .

وقد قمت بنفسى بزيارة دلفى ، وقضيت ساعات أمام هذا الخراب والدمار وكان المنظر موحشاً وكانت أجابة الكاهن صحيحة .

فدراسة تاريخ الحروب سوف تبين لنا أننا لسنا أمام قصة تنتهى نهاية سعيدة ، بل

---

(١) دلفى مدينة يونانية . (المعرب)

أمام قتال يجرى من عصر إلى عصر ، وكل تقدم للقوات يجب أن يحوز نصراً ، وكل موقع يستولى عليه يجب الاحتفاظ به. وسيظهر لنا أنه يمكن رؤية العدو بوضوح فى الحرب أما فى السلم ، فالدولة تواجه عدوا خفيا ، عدوا آت من داخلها ٠٠٠

وهو الضعف داخل الدولة ، والتى يجعلها تتهاوى وحدها ، ومثال لذلك فرنسا .

فهى بلد عظيم ولكن فى الفترة الأخيرة التى سبقت حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ كان الضعف الداخلى قد هاجم قلب وروح فرنسا ، حتى كانت الطامة الكبرى عام ١٩٤٠ ، ولكنها أستعادت روحها مرة أخرى على يد الجنرال الراحل ديجول ، وعادات إليها الحياة أكثر مما كانت عليه جمالا وشبابا تحت قيادة هذا القائد العظيم .

لقد تعرفت أثناء قيادتى فى الحرب العالمية الثانية وخلال خدمتى لعشر سنوات فى هيئة الدفاع الغربى على عـــدد كبير من جنود دول كثيرة ولكن كان من الطبيعى أن أتعرف بدرجة كبيرة على أبناء بلدى فقد وضح لى أنهم كانوا شعبا يتميز بالصمود والإستقلال. ولسنين طويلة لم نعرف معنى للهزيمة النهائية فالحرية تجرى فى دمائنا ٠٠٠ تمدنا بالصمود والقوة الراسخة ٠٠٠ لقد أثرت الثورة الصناعية علينا وعلى روحنا إلا أن كفاحنا المستميت من أجل البقاء كان يزداد صلابة رغماً عن الآلام الجسمانية التى تعصف بأجساد شعبنا فى أحياء بريطانيا الفقيرة ، وعلى كل لم يتمكن الضيق الأقتصادى من قتل الروح البريطانية نهائياً ، لأن تلك الظروف هى التى أنجبت رجالا لم يعرفوا المستحيل وكل شىء أمامهم كان ممكنا ، وعندما يقاتلون فلن يعرفوا الهزيمة طالما أمامهم قيادة سديدة وبأيديهم سلاح مناسب وقادة يبثون فيهم الثقة، ولكن مرة أخرى أقول أن الخطر الآتى من الداخل قائم ويجب التأهب لصده بأستمرار ، وهنا أتوقف قليلا لأقول أن كاهن دلفى كان على حق ...

فاذا تسلطت الرفاهية على رجولة أى دولة واهملت الصفات العسكرية ، كان ذلك نذيرا بانتهاء هذه الدولة .

والروح المعنوية من أهم العوامل التى ترفع درجة الجهـــد الحربى وقد كتب فرانسيس بيكون : —

— إن المدن ذات الأسوار العالية والمكتظة بالأسلحة وبها أجود سلالات الخيل ، وأقوى عربات القتال والأفيال ٠٠٠ كل ذلك ما هو إلا خراف ترتدى أقنعة الأسود إذا لم يتوفر الرجال لكل هذا ، ولديهم روح الجرأة والإستعداد لخوض الحرب ٠٠٠

ودراسة تاريخ الحروب سوف يثبت صحة هذا الكلام ، ويرجع مسئولية توفير هذه الروح على عاتق القادة السياسيين ، وللقادة العسكريين دور هام أيضاً فى هذا المجال .

وأرتفاع الروح المعنوية مرتبط باللياقة الجسمانية ، فالجندى لايمكن أن يكون لائقا للحرب من الناحية العقلية إذا لم يكن صالحاً من الناحية الجسمانية .

وقد كتب كبلنج فى مقدمة كتابه « قصص من البر والبحر » : —

— امم كثيرة مضت بعيدا دون ان تترك اثرا . . .

— ثم جاء التاريخ وكشف عن حقيقتها . . .

— والسبب فى كل مرة ٠٠ ولكل دولة ...

— سبب واحد ....٠ وبسيط . . .

— ذهبت هذه الدول لانه لم يكن بها رجال لا لقون. . .

الفصل الثالث

الحرب فى العصر البدائى

حرب النمل

لقد تدخلت الحروب فى حياة الأنسان منذ المجتمعات القديمة فلو عدنا إلى الوراء ٧٠٠٠ سنة قبل الميلادو أتخذنا مدينة جيريكو[1] مثالا لذلك لوجدنا أن هذه المدينة كانت محاطة بأسوار أرتفاعها ٢١ قدما ، بينما نحت فى الصخر خارج هذه الأسوار خندق عرضه ١٥ قدما وعمقه ٩ أقدام ليملأ بالماء .

وكان يسكن هذه المدينة حوالى ٢٥٠٠ نسمة من بينهم ٥٠٠ إلى ٦٠٠ مقاتل مسلحين بالأقواس والسهام ذات الرؤوس الحادة المصنوعة من حجر الصوان . وكان هؤلاء القوم مهرة وخبراء فى فن التحصين والهندسة علاوة على تطويرهم لمعدات القتال مثل القوس والسهم .

وفى عام ١٩٣١ قضيت ساعات طويلة بين أنقاض هذه المدينة القديمة فى وادى البحر الميت أستطلع ما بها من حفائر وأسوار ، وأول أنطباع قفز إلى ذهنى عند رؤية هذه التحصينات الحربية أن هؤلاء القوم كانوا يخشون عدوا قويا ومخيفا .

وأنه ما من شك ... أن فن الحرب ظهر قبل هذه المدينة بزمن بعيد ... إذن

كيف كانت النشأة الأولى للحرب .... ؟؟

يجب أن نعلم أولا أن الحرب من العناصر الرئيسية للتاريخ نظراً لإرتباطها بضروريات الحياة ، كالطعام والمكان الآمن للمعيشة ، لذلك كانت من الضروريات الرئيسية للإنسان البدائى ، كما هو الحال تماما بالنسبة لنا الآن ، ولكن وجد الأنسان أن هذه الضروريات

(١) جيريكو : هى مدينة أريحا . (المعرب)

محتاجة إلى مكملات مثل الرفاق والثروة والقوة والنفوذ ، وقد تكون متوفرة أحيانا ولكن ليست بالقدر الكافى ، مما أدى إلى أن الأفراد بل الدول أخذت تتطاحن ، وفى الحقيقة هذا التطاحن يرجع لأسباب إقتصادية ، وقد ظهر ذلك جليا فى الماضى عندما كانوا يتنافسون من أجل ضمان أدنى مستوى للمعيشة ، تماما كما تتصارع الحيوانات والحشرات من أجل هذا السبب نفسه . وهذا يذكرنى بحرب النمل لأنه فى الواقع تعتبر من الحروب المعقدة جداً فتتضمن التجسس والكمائن والهجمات المفاجأة والحصار ، ويتم ذلك تحت قيادات منظمة ومقسمة ولها رئاسة عليا تعمل على أسس من الأستراتيجية بعيدة المدى .

وأول من لفت نظرى إلى حرب النمل ، السير ونستون تشرشل ، ففى أحدى زيارته لى فى مركز قيادتى فى ألمانيا خلال خريف ١٩٤٤ أهدانى كتاب « حياة النمل » لماترلينيك ، معتقداً أن هذا الكتاب سيزودنى بأفكار جديدة فى عملياتى المنتظرة ضد الألمان ، لأن النمل لديه جيوش منظمة ودائما تقوم بالأعمال الهجومية الناجحة .

عالم الأنسان والحيوان

وتعتبر الحرب من الأمور الأكثر طبيعية فى حياة الأنسان وأعتقد أن الأنسان لو لم يجد نفسه مجبراً عليها للجأ إليها مختاراً ، وقد ظهر فى سجلات التاريخ أن التعاون بين الأفراد كان يسير بنفس الدرجة التى يسير بها القتال ، فنجد أن المجتمع الذى يسوده جو التنافس يصبح كل فرد فيه خطراً على زميله ، ومن هنا يظهر العدوان والحقد والخوف ، ويصبح شيئاً طبيعياً فى نفوس الأفراد نتيجة لهذا التنافس المحتدم .

ونجد أيضاً أن المجتمعات الحيوانية كالقرود والطيور يسودها المنافسات وتقوم برسم وتحديد حدودها مع جيرانها ، وهذه الحدود موجودة أيضاً داخل مجتمعات الأفراد ، ويحترمونها بصفة عامة ويستخدمون القوة عادة لطرد الدخيل الذى يهدد مجتمعهم . وفى عالم الماشية والدواجن يوجد درجات ورتب لكبار السن وتحترم ، ولكن عندما ينشب عراك حول مصلحة ما ، وخاصة فى الطعام ، تنقلب الأمور إلى العكس ويصبح الأصغر سناً هو القائد ، ولكن هناك أنواع من الحيوانات لا يحدث بينها أى عراك إلا إذا كان هناك سبب قوى ومتعلق بضرورة حيوية ، وحتى العراك الغريزى فلا يحدث بينها .

وإذا عدنا إلى عالم الأنسان سنجد أن لديه وسائل يستطيع أن يمنع بها نشوب الحروب وتتمثل فى أساليب السياسة والدبلوماسية إلا أن الأنسان كان دائماً أقل حظا من باقى الكائنات فى تجنب العنف ويرجع ذلك إلى التضخم والأزدحام السكانى الذى يصل فى بعض الأحيان إلى نقطة الأنفجار ، علاوة على أنه يعانى من مشكلات أكثر عدداً وأشد تعقيداً مما تعانيها باقى الكائنات .

العصر الحجرى فى القرن العشرين

تشير كل آثار الأنسان القديم إلى أنه كان يحاول بشتى الطرق أن يتحد مع جيرانه ليكون دفاعاً قوياً ضد ما يحيط به من ظروف طبيعية قاسية . وعند ما كان ينشب القتال ، فلم يكن لديه سوى العصى والحجارة التى يستخدمها فى أغراضه اليومية العادية فتصبح سلاحه الرئيسى . ومن أسلحة القتال التى كانت تستخدم فى العصر الباليوزوى [1] البلط والسكاكين [2] والعظام التى لها شكل الرمح وقرون الرنة . وعلى العموم ، فمن المستحيل على علماء الآثار معرفة أسباب وطرق وأساليب الحروب لدى الشعوب البدائية فى أوروبا وآسيا ، ولذلك فمن الأفضل لدراسة هذا الموضوع أن ندرس بعض الشعوب فى قارات أخرى ولا تزال تعيش فى العصر الحجرى ، بينما هى تعيش فى قرننا هذا ... القرن العشرين . ومن خلال دراستنا لهذه الشعوب المتخلفة البدائية ، سنستطيع معرفة لماذا يحاربون .. ؟وماهى أتجاهاتهم وميولهم عند التجائهم للعنف .... ؟ وبالطبع سنعرف الأسباب والأساليب التى أتبعها الأنسان الأول فى الحرب ، ولا يمكن القول بأن هناك حكماً عاماً أو قاعدة عامة كانت تتبعها كل الشعوب البدائية ولكن هو أقرب الطرق إلى الصحة ، لأن بواعث الحرب تختلف، وتختلف أيضاً درجة ضراوتها ووحشيتها طبقاً لما هو محيط بها من ظروف ، مثل مرارة الحقد والخوف من عواقب الهزيمة . فبعض القبائل كانت تقتل أسراها فى نفس الوقت توجد قبائل أخرى تعامل أسراها بالحسنى . وعلى كل فالطبيعة والتكوين الجسمانى لهما تأثير كبير ،فنجد

---

(١) العصر الباليوزوى : هو العصر الحجرى القديم .

(٢) البلطة : كانت عبارة عن عصا مثبت بها فى مقدمتها شظية مسننة ومدببة من الحجر . السكين : كانت عبارة عن شظية طويلة مدببة ، وكان الإنسان القديم يقوم بقطع وشحذ وتهذيب كلا النوعين . (المعرب)

أن الأقزام كانوا مسالمين لضعفهم ، فأدى هذا إلى طردهم إلى أصعب المناطق معيشةفى أفريقيا تحت ضغط الهجمات المتوالية من القبائل القوية المعادية . وقد ظهر عبر التاريخ أن سكان أستراليا الأصليين كانوا يكرهون الحرب ، فى حين يوجد فى أجزاء أخرى من العالم قبائل لعهد قريب ، تعتبر الحرب أحدى جوانب الحياة الطبيعية والتقليدية وأنها من الحلول الأكثر قبولا عند نشوب أى نزاع . ومن الأمثلة لذلك قبائل « الماساى » فى شرق أفريقيا وقبائل جوارانيس فى البرازيل وقبائل الآباش فى أمريكا الشمالية وقبائل الدياكس والكينياس فى جزر الأوقيانوس .

بواعث الحرب

ومن أكثر أسباب الحرب شيوعاً بين هذه الشعوب البدائية هو الأزدحام السكانى بينهم والأرتفاع المفاجىء فى تعداد سكان منطقة معينة أو هبوط موارد الغذاء والمياه فيها ، وهذا يتطلب منهم محاولة خفض معدل التعداد ، وكان يتحقق هذا عن طريق الحروب أو بواسطة ظروف طبيعية (مثل الأمراض والأوبئة) . وتاريخ الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية يرسم لنا صورة صادقة للحرب الناجمة عن الحاجة والتوسع لأمتلاك أرض جديدة .

ومنذ حوالى ١٦٠٠ سنة ، تمكن عدد كبير من الأوروبيين من الأستيلاء على مناطق على الساحل الشرقى للقارة الأمريكية بقوة سلاحهم الحديث ، وطردوا الهنود الحمر إلى الغرب وكان ذلك بداية لحرب أستمرت قرناً من الزمان . فأصبحت حرباً متواصلة بين قبائل الهنود بسبب تراجع القبائل غرباً وبالتالى أنتهاكها للأرض التى تسكنها قبائل هندية أخرى ، فقامت معارك ضارية بين قبائل الشيبوا والسيو فى منطقة ميل لاكس فى القرن السابع عشر ، وفى منطقة كروس ليك فى عام ١٨٠٠ ولم تكن هذه الحروب لمجرد أستعراض العضلات أو لتحقيق المجد ، بل كانت حرباً شعواء من أجل البقاء ، حرباً كان يخوضها الرجال بكامل قوتهم وبأستماتة كبيرة ، حرباً من يسكنون الغرب دفاعاً عن بيوتهم وممتلكاتهم ضد هؤلاء الغزاة من الهنود أيضاً والذين طردهم الأوروبيون . وقد تدهور الموقف فى القرن التاسع عشر عندما بدأ الغذاء الرئيسى للهنود فى الأختفاء ... وهو الجاموس ،وبدأ معه المنافسة على الحصول على الخيول والأسلحة النارية ، وزادت الهجمات المسلحة للهنود ، فقبائل السيو المهزومة تدفع

أمامها قبائل الشايين بعيداً إلى الغرب ، والشايين بدورهم يدفعون أمامهم قبائل الكومانش إلى الوراء نحو المكسيك . ومن الأسباب الرئيسية لنشوب الحرب فى مختلف أنحاء العالم ، رغبة الإنسان للانتماء إلى عشيرة أو مجتمع حتى يتوفر لديه الوطنية والولاء . والأحساس الفعلى بالولاء للمجتمع يتولد معه شعور العداء نحو المجتمعات المجاورة . وتوجد صلة قوية بين ثقافة الشعوب والحرب ، وتظهر هذه الصلة بصفة خاصة فى الشعائر والطقوس الدينية ، وعلى سبيل المثال قبائل المايا فى جنوب أمريكا من ضمن معتقداتهم الدينية أنهم إذا أرادوا الحياة فعليهم مهاجمة القبائل الأخرى والإستيلاء عليها . ومثال آخر عندما قام الأوروبيون بإيقاف حروب شعب البولينيز ، نتج عن هذا أن البولينيز عانوا من مأساة أجتماعية وثقافية عميقة ، لأن كل قيم هذا الشعب كانت مرتبطة تماما بالحرب ، وعندما توقفت الحرب فقدوا طاقتهم ودينهم وكرامتهم .

بينما كثير من قبائل الهنود يعتبرون الحرب من وسائل التسلية وأحد مظاهر الأثارة ، فيقومون بتنظيمها بينهم وغالباً ما تسفر هذه التسليات عن العديد من الضحايا .

ومن ضمن أسباب الحرب كانت المرأة ، فالأعجاب بجمالها كان أحد بواعث ذهاب الرجال إلى الحرب ، كما كان الحال فى « تاهيتي » فكان لزاماً على الزوج الحصول أولا على وشم فى ذراعيه يبين أنه قتل أحد الأعداء أثناء الحرب . وفى الأنجيل تكرر أكثر من مرة ذكر الغارات التى كان يقوم بها القبائل لخطف النساء ، وأعتقد أن الكثير منا يعلم أسطورة « هيليني » فاتنة طروادة ، وكذا أسطورة نساء سابين ومثال لذلك فى أواخر القرن الثامن عشر هاجمت سفن القراصنة من البربر أحدى القرى على الساحل الفرنسى لا لشىء إلا لأختطاف الفتيات لبيعهن لحريم فى قصور الملوك والسلاطين العرب ، ونتج عن هذا أن القبائل الضعيفة التى لم تقو على التصدى للمغيرين فكانوا يشوهون وجوه بناتهم ونسائهم حتى لا يبدون جميلات فى أعين القراصنة .

الانفجار السكانى

ومن المنطق أن مسببات الحرب وأساليبها لها تأثير كبير على تشكيل هيكل وحضارة المجتمعات البدائية ، تماما كما يحدث حاليا فى القرن العشرين ، ولكن لا يمكن أن نجزم

بذلك ، لأن هناك فجوة زمنية كبيرة حوالى ٣٠٠٠ سنة فى التاريخ الأثرى للعالم القديم ، وهذه الفترة تقع ما بين حصون مدينة جيريكو من ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وتاريخ كل من العراق ومصر فى ٤٠٠٠ سنة الأخيرة قبل الميلاد ، لوجدنا أن العامل الوحيد المشترك فى جميع التطورات الحربية والسياسية فى تاريخ الشرق الأدنى هو الازدحام السكانى والأزدياد الهائل فى التعداد .

ومن أولى الحضارات القديمة ، الحضارة البابلية والسومرية التى ظهرت على ضفاف نهر الدجلة والفرات الأدنى وكذا الحضارة المصرية التى ظهرت على ضفاف النيل ونتج عن هذا أنه أصبح لا مناص من الحرب بسبب التنافس على أمتلاك هـذا الشريط الخصب الموجود حول هذه الأنهار ، فقد قام السكان الذين يقيمون فى المساحات الكبيرة والتى يسودها الجفاف والمحيطة بهـذه الوديان بالهجوم عليها وأصبح لزاماً على سكان الوديان الدفاع عن كل بوصة من هذه الأرض الخصبة ، علاوة على ذلك كانوا معرضين أيضاً للهجمات الخارجية من سكان المناطق الصحراوية المجاورة الذين كانوا ينظرون إليهم ولأراضيهم الوفيرة المياه بعين الغيرة والحقد .

أول صراع بين الحضارات فى التاريخ

لم تكن هناك أى موانع أو عوائق طبيعية تحمى كلا من مصر أو بابل ضد الغزاة ، مما أدى أن المصريين تراجعوا إلى الخلف أمام هجمات أعدائهم النوبيين من الجنوب وقبائل الساميين عبر سيناء من الشرق ويعتبر سيرخيت أول ملك لمصر يغزو سيناء فى عام ٣٣٧٠ ق . م وقد سجل وقائع غزواته على صخورها ، فظهر رسم لهذا الملك وهو يضرب بسلاحه ملك قبائل العدو ، ووجد رسم آخر على جدران مقابر ساهور (عام ٢٩٥٠ ق . م) يبين قوة بحرية تعبر البحر الأحمر متجهة إلى سيناء ، ورسم آخر يبين رحلة العودة محملة بالأسرى من القبائل السامية .

وقام ملوك بابل بنفس الشىء ضد العرب الساميين وضد الآشوريين فى المناطق العليا العراق وفيما بعد تحولت الغارات على مصر وبابل إلى موجات عارمة من المهـاجرين ، وقام الساميون بذلك ثم تبعهم الهنود الأوروبيون للوصول إلى وديان هذه الأنهار . والساميون فى الشرق الأدنى وشمال أفريقيا يرجع أصلهم إلى الجزيرة العربية لأن الجزيرة العربية صحراء

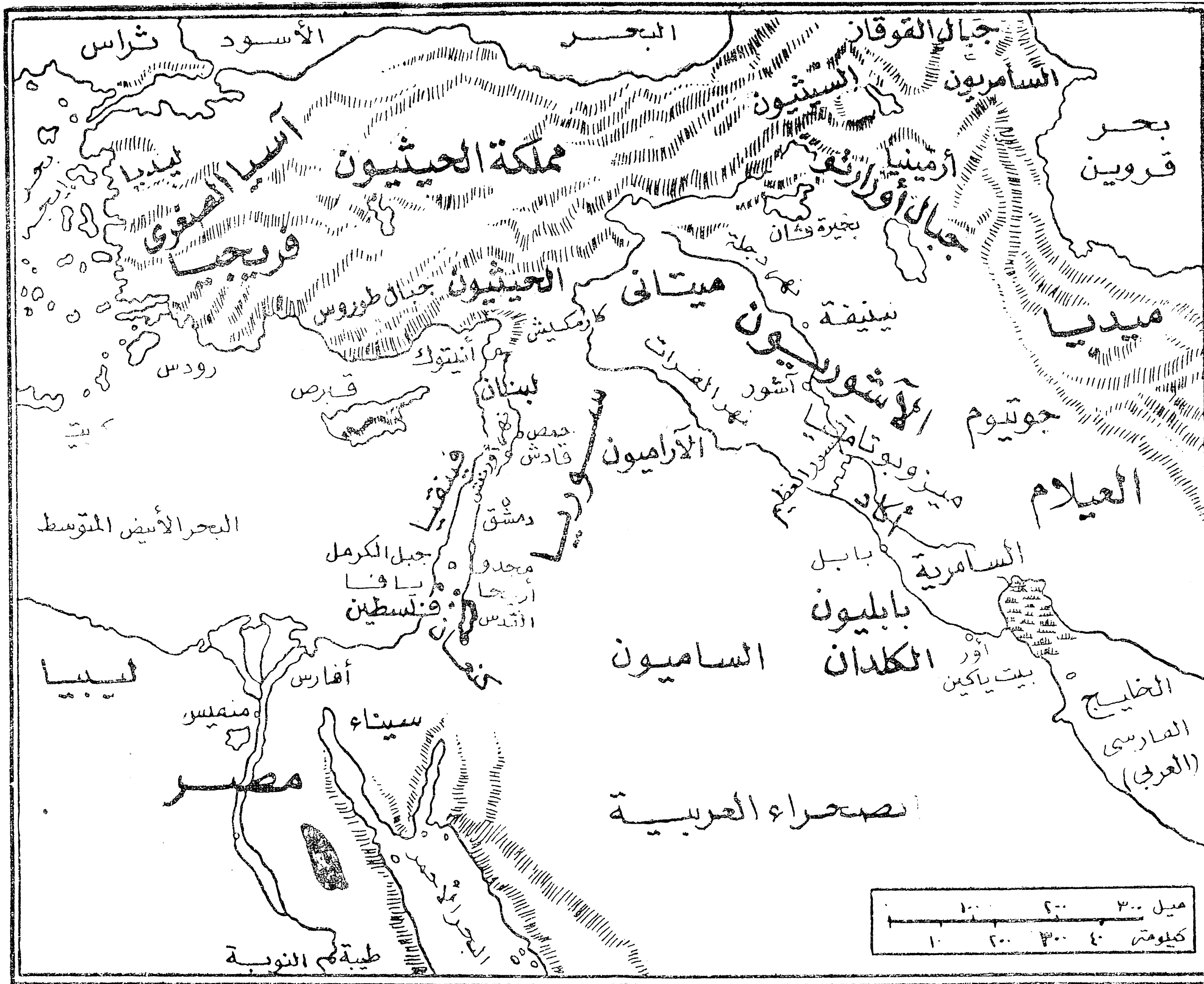

اللوحة رقم ١ — الامبراطورية المصرية والأشورية والحيثية

ومن الطبيعى أن يضطر سكانها للبحث عن مناطق خصبة فاتجهوا إلى الخليج العربى ونهر الفرات والنيل

وعلى كل فهناك ثلاث انفجارات رئيسية للجنس السامى العربى .

وتقول الأساطير أنه فى بداية عام ٤٥٠٠ ق . م كان هناك مملكة سامية فى العراق ، كما أنه هناك شبه أساطير تقول أنه بعد فترة قصيرة من قيام المملكة السامية ، قامت مملكة أخرى سامرية فى جنوب العراق ويعتبر الصراع بين الساميين والسامريين حول العراق أول صراع بين الحضارات فى التاريخ ، وقد قام أهل الجنوب ببناء سور يمتد من نهر الفرات إلى نهر الدجلة ليحميهم من غزوات القبائل الرحل ويعتبر هذا تفكيراً أستراتيجيا يماثل فكرة سور الصين العظيم،ولكن كان بدون جدوى ، وأستمر الصراع بين الشمال والجنوب لمدة ٢٠٠٠ سنة لتحقيق السيادة الكاملة على جميع العراق . وأول مملكة حققت السيطرة على جميع العراق أسسها سارجون فى عام ٢٧٥٠ ق . م وكان من الكهنة الذين ينتمون لنسل إشتار آله المعارك .

أكبر الأمبراطوريات التى عرفها العالم : (أنظر اللوحة رقم ١)

ومع بداية مملكة سارجون بدأت قوة الساميين فى الأزدياد نتيجة لجحافل المهاجرين الآتين من الجزيرة العربية إلى سوريا وشمال العراق فى عام ٣٠٠٠ ق . م . وأختار سارجون مدينة آكاد عاصمة له ربما لأسباب عسكرية ، ففى هذه المنطقة يقترب نهر دجلة من نهر الفرات ولا يفصل بينهما سوى ١٥ ميلا فقط . وقام سارجون فى العام التالى لحكمه بفتح العيلام ثم سيطر على المناطق الممتدة غربا إلى البحر المتوسط حتى جزيرة قبرص . وقد قامت عدة ثورات متفرقة ضد حكم سارجون ولكنه كان يقمعها بأسلوب غاية فى الصرامة والقسوة ، لدرجة أنه قام بتحويل مدينة كازلا إلى أنقاض من الأتربة ، حتى أعشاش الطيور قام بسحقها . كما أنه صد جميع الهجمات الآتية من شمال غرب آسيا الصغرى من مملكة

الحيثيين[1] وأجبرها على الأنسحاب إلى الخلف تحت وطأة الهزيمة . وقد خلفه فى الحكم ملك يختلف عن سارجون الكاهن ،فقد كان نارامسين رجلا عسكريا ويرجع نجاحه فى الحكم إلى أنه قائد جيد ، ولديه جيوش ذات كفاءة عالية ومطيعة . وكان نارام سين قبل موته حاكم أكبر الأمبراطوريات التى عرفها العالم ، فكانت تمتد من أرمينيا شمالا والبحر الأحمر جنوبا ومن العيلام شرقا إلى ساحل البحر الأبيض غربا إلا أن هذه الأمبراطورية تفتت بعد موته تحت ضربات الثورات الدلخلية والغزوات الخارجية التى قام بها البرابرة من جوتيوم وبعد مرور أربعين عاما على وفاته فقدت الأمبراطورية أستقلالها لدرجة أن الغزاة وصلوا إلى العاصمة آكاد نفسها .

العربات المدرعة

لقد شهدت الفترة مابين (٣٥٠٠ — ٢٤٠٠ ق . م)نشاطا حربيا عظيما خلال فترة الصراع بين الساميين والسامريين وفترة الإمبراطورية الأكادية[2] وفترة المملكة المصرية القديمة . وفى الفترة الأولى ظهر أول تطور حقيقى فى فنون الحرب وأنواع الأسلحة والتحصينات ماعدا الفرسان ، وظلت سائدة ٣٠٠٠ سنة حتى بدأ أكتشاف البارود فى القرن الرابع عشر بعد الميلاد .

وكان العراقيون يتمتعون بتقدم كبير فى المجال العسكرى أكثر من المصريين الذين لم يعرفوا سوى الحروب ذات المستوى المحدود إلى أن حدث غزو الهكسوس فى عام ١٨٠٠ ق . م .على سبيل المثال ، فالمصريون لم يستخدموا العربة الحربية إلا بعد أن إستخدمها العراقيون بـ ١٢ قرنا من الزمان . وكانت العربة الحربية تعتبر من أدوات الحرب الرئيسية لدى العراقيين عد عام ٣٥٠٠ ق . م ولها نوعان ، النوع الأول مزود بعجلتين ، والنوع الثانى له أربع عجلات ، وكلا النوعين يجره أربعة بغال ، وكان النوع الأول من هذه العربات ثقيلا وغير متقن الصنع وقد عثر على أنواع من هذه العربات وكانت مزودة بلوحة مرتفعة فى مقدمتها لوقاية راكبها ، ويؤكد هذا أنها كانت تستخدم فى العمليات الهجومية المباشرة

---

(١) الحيثيين : تركيا حالياً .

(٢) الأكادية : نسبة إلى مدينة آكاد التى أصبحت عاصمة العراق بعد توحيدها . (المعرب)

وكان الغرض الرئيسى لاستخدام العربات عند العراقيين هو مفاجأة العدو بسرعتها وبث الذعر بين صفوفه . وطاقم العربة يتكون من فردين ، قائد العربة وجندى يحمل حربة ورمحاً ويقوم الطاقم بالهجوم عندما يصبحون على مسافة مناسبة من العدو مستخدمين الرماح ، وعندما تضيق المسافة بينهم وبين العدو يستخدمون الحراب . وقد طرأ على هذه العربات تطور كبير فى الفترة مابين ٢٠٠٠ — ١٥٠٠ ق . م حتى أصبحت من أهم مصادر الهجوم لتحركها السريع وكفاءتها وأدى هذا التطور أنها أصبحت أكثر خفة وأستبدلت البغال بالخيول فى الأجزاء الشمالية للعراق عام ٢٠٠٠ ق . م .

أسلحة القتال

وصحب هذا التطور ، تطور آخر فى قوة النيران[١] وذلك بإدخال القوس المركب ضمن أسلحة القتال الرئيسية عند العراقيين ، بينما كان السلاح الثابت تقريباً لدى الجميع وخاصة المصريين هو المقرعة[٢] ولكن هذه الرؤوس الحديدية فقدت فاعليتها عندما ظهرت الخوذات القوية الواقية للرأس، وبدأت أهمية البلطة ، ففى ٣٠٠٠ سنة الأخيرة ق . م تطورت البلطة ذات النصل النحاسى لتصبح أداة للطعن وأيضاً للقطع ، وكان يستخدمها كل من المشاة من حملة الحراب وأطقم العربات . أما السيف فقد ظهر متأخراً فى العراق وذلك لعدم وجود الإمكانيات لصناعته . وأول أنواع هذه السيوف كان يشبه الخناجر ، فكان قصيراً ، مستقيما ذا حدين ثم بدأ بعد ذلك ظهور السيوف المقوسة التى تشبه المناجل لأستخدامها عند الألتحام ويجب أن نشير إلى أن السيف كان معروفا من قبل عند صانعى الأسلحة فى الأناضول لخبرتهم الطويلة فى الصناعات الحديدية وهذا مكنهم من صناعة السيوف ذات النصل الطويل ، وبعد ذلك بدأت صناعة السيوف فى بداية القرن الرابع عشر ق . م تنتشر بين الدول ، بينما كان العراقيين قبل ذلك يعتبرون الحراب[٣] هى السلاح المثالى وكان يحملها الجنود أثناء السير فى وضع رأسى مائل قليلا على الكتف ، ويتغير هذا الوضع إلى وضع أفقى عند الهجوم .

---

(١) قوة النيران : المقصود هنا بقوة النيران هو نوعية الأسلحة أى التطوير فى أسلحة القتال نفسها .

(٢) المقرعة : عبارة عن قضيب من الحديد ينتهى برأس حديدى على شكل كرة لضرب الأعداء على رؤوسهم .

(٣) الحراب : كانت عبارة عن ساق طويلة من الخشب مزودة بنصل معدنى على شكل ورقة الشجر

أما القوس ، فقد ظهرت له بعض النقوش على الآثار يرجع تاريخها إلى نهاية سنة ٤٠٠٠ ق . م ، وكان محدب الشكل ومزدوجا ، أما فى العراق[١] فكان عبارة عن جذع واحد مقوس ، بينما كانت سهام هذه الأقواس قوية ورؤوسها صلبة مصنوعة من حجر الصوان .

ومن الغريب أن راكبى العربات الحربية لم يستعملوا القوس إلا بعد عام ٢٠٠٠ ق . م وظهر القوس المزدوج لأول مرة مرسوماً على لوحة النصر التذكارية عام ٢٨٠٠ ق . م وأعتبر منذ هذا التاريخ السلاح الرئيسى للحرب وكان من الأسباب الرئيسية لقيام الأمبراطورية الأكادية امتلاكهم لهذا السلاح . وأبتدأ الإهتمام به والعناية بصنعه وأصبح يصنع من أكثر من مادة بعدأن ثبت أن المادة الواحدة لا تكسبه المرونة والصلابة . فأدى هذا أن القوس الحديث المركب[٢] أصبح يصنع من أربع مواد فاكتسب صلابة مع مدى أبعد . وقد فوجىء العدو بالقوس المركب عندما تم الهجوم عليه من مسافة بعيدة خارجة عن حدود سمعه وبصره فلم يستطع القيام بالهجوم المضاد . وقد وصل القوس المركب إلى أعلى درجات الكفاءة عندما صنعه المصريون على شكل محدب ومزدوج وأصبح من أسلحتهم الرئيسية . ونتج عن هذا التطور الكبير فى القوس ، تطوراً آخر مضاد فى الدروع ، فأصبحت أكبر حجماً وأصلب صنعاً .

وكان السامريون أول من طوروا الدروع فأصبحت رداء مصفحاً مصنوعاً من قطع صغيرة ومستديرة من المعدن لوقايه المقاتل من السهام المنطلقة من الأقواس .

أسلوب القتال

أما أسلوب القتال المتبع فى العصر القديم ، فالرسومات لهذا قليلة جداً ، ولكن من الواضح أن المشاة وراكبوا العربات كانا يكملان بعضهما أثناء القتال ، وغالبا ما يبدأ بهجوم بالعربات الحربية لبعثرة قوات العدو وإرباك خطوطه بالمرور خلالها بسرعة ، وأثنائها يقوم

---

(١) العراق : كان يطلق عليها فى ذلك الوقت بلاد مابين النهرين أو أرض الجزيرة

(٢) القوس المركب : مصنوع من الخشب والعظام الحيوانية والأوتار والغراء ، فاصبح خفيفا فى نفس الوقت زادت درجة قوة شده وأصبح مداه من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ ياردة « المعرب » .

الرماة بالرمى من العربات ، وتندفع سرايا المشاة لتطويق جناحى أو قلب قوات العدو تحت حماية دروعهم المستطيلة الشكل إلى أن يتم لهم القضاء على العدو بما لديهم من البلط والحراب .

وكانت سرايا المشاة تتقدم نحو العدو بطريقة منظمة . فكل سرية تتحرك على شكل طابور مكون من ستة صفوف وكل صف مكون من عشرة جنود وصف ضابط واحد . وقد أضاف الأكاديون على التشكيل السابق للقتال جماعة من رماة السهام ، بينما كانت سرايا الرماة بعيدة المدى تكمل عمل راكبي العربات الحربية ، وفى نفس الوقت تعمل مع المشاة المسلحين بالحراب والسيوف .

وبعد ذلك بنحو ألف سنة أستخدم المصريون نفس الأسلوب والتنظيم السابق أثناء حربهم مع الحيثيين . أما بالنسبة لأسلوب الحصار ، فلم يكن له وجود حتى عهد الأشوريين ، ولكن فى العصر الألفى الثالث تم بناء الأسوار والحصون حول المدن ، ومن وراء هذه الحصون كان حاملو الأقواس يقومون بالدفاع عنها وهم متمركزون فى أبراج على شكل مربع أو نصف دائرة . وكانت الحصون تبنى من خليط من الطوب والحجارة ، وكانت الجدران سميكة إلا أن العدو كان يتمكن من تصديعها وأختراقها وذلك لأن الأهتمام كان منصباً على أن تكون هذه الحوائط عالية حتى تمنع سلالم العدو من الوصول إلى نهايتها وتشير آثار الحصار على مدينة دشاشة المصرية إلى الطريقة التى كان يتم بها مهاجمة مدينة محصنة فى هذا العصر القديم . فكان المغيرون يتسلقون الأسوار بالسلالم المزودة بالعجلات تحت حماية وابل من سهام فرق الرماة الموجودين خلفهم ، بينما يقوم الكبش (١) بدك سور الحصن حتى يمكن النفاذ للداخل ويتم أختيار أضعف نقطة فى سور الحصن وتكون غالباً البوابة . والآن وقد عرفنا شيئاً من أنواع الأسلحة وأساليب القتال فى الفترة ما بين ٤٠٠٠ — ٢٠٠٠ سنة ق . م لنستعرض بشىء من الأختصار التاريخ السياسى للحرب فى العهد القديم للشرق الأدنى .

التاريخ السياسى للحرب

لقد بدأت الموجة الثانية العظمى لهجرة الساميين حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م من الجزيرة العربية حتى وصلت إلى أرض كنعان على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وقد أدت الهجرة

(١) آلة حربية يستخدمها القدماء فى دك أسوار المدن المحصنة وأختراقها . «المعرب»

العظمى الأولى للساميين بدفع شعب كنعان إلى أرض العراق حيث قاموا بتقديم آلهتهم للعراقيين حتى أستمالوهم وهذه الآلهة هى ريمون والإله داجان . وبذلك أصبح الكنعانيون أول من رفع شأن مدينة بابل وعادوا تأسيس مدينة أور ، كما وحدوا جميع مناطق جنوب العراق التى سميت فيما بعد بالمملكة الكلدانية .

أما فى مصر فى حوالى عام ٢٣٧٥ ق . م بدأ عهد المملكة الوسطى وقام حكام طيبة فى الجنوب بغزو دلتا نهر النيل . وفى هذه الفترة تحتم على ملوك مصر أن يخوضوا معارك عنيفة ضد كل من القلاقل الداخلية والأعداء المغيرين على الحدود وفى نفس الوقت قاموا بفتح النوبة وإخضاعها لحكمهم الصارم .

وقد نقشت عبارة على جدران قلعة أحد الفراعنة فى مدينة سيمنة تقول : — « تلك هى قلعتى الرابضة هنا ولن أسمح لأى زنجى أن يمر منها إلى الشمال ، فأنا ملك وأفعل ما أقول »

إلا أن مصر دخلت فى مرحلة جديدة لعصر طويل من السلام ووصلت فيه مدنيتها إلى أقصى أزدهار وذلك فى حكم أمينحيت الثالث العظيم (٢٠٦١ — ٢٠١٣ ق . م) .

وأدى هذا السلام إلى ضعف قابلية المصريين للقتال عامة ، ولم يفكروا فى صناعة العربات الحربية بالرغم من توفر أعداد كبيرة من البغال والعربات المدنية ؛ وأدى هذا إلى تأخر تكنولوجية الحرب عندهم لمئات السنين عن باقى شعوب الشرق الأدنى . وأستمر الحال هكذا حتى عام ١٨٠٠ ق . م عندما غزا الهكسوس المناطق الشمالية لمصر وأستعبدوا شعبها .

والهكسوس يعتبروا فرع من نسل الموجة الثانية للهجرة السامية ، وجاءوا من الجنوب الغربى لسوريا للاستيلاء على وادى النيل العظيم . ولم يستطع المصريون مقاومة خيول وعربات الهكسوس الحربية وسيوفهم البرنزية . وبعد فترة وحشية تخللها الدماء أصبح سيمكن الهكسوسى ملكا على مصر . وكانت مدينة طيبة هى آخر المدن المصرية التى سقطت فى يد الهكسوس ومنها أيضاً بدأت حرب التحرير عام ١٦٣٠ ق . م .

احمس والهكسوس

وأخيراً ... قاد أحمس الحرب ضد الهكسوس متجها نحو دلتا النيل وأستولى على

(١) كان أحمس ملك طيبة . « المعرب »

مدينة أفاريس. وفى عام ١٥٨٠ ق . م إستطاع هزيمة الهكسوس تماما وفروا أمامه من فلسطين إلى وادى نهر إورنتس [١] . وأصبح أحمس مؤسس المملكة الجديدة المصرية فى عام ١٥٨٠ ق . م وهكذا نجد أن أحتلال الهكسوس لمصر لم يستمر أكثر من ٢٥٠ عاما . وقد أثرت هذه الفترة تأثيراً عميقا على مصر وأصبحت بعد طرد الهكسوس دولة عسكرية قوية وهنا يبرز لنا سؤال : — كيف كانت طبيعة القوات المصرية خلال حرب التحرير فى نهاية المملكة الوسطى . ؟ كان المحاربون المصريون يستخدمون البلط والحراب فى القتال ، بينما كان سلاحهم الرئيسى هو القوس ، وبالرغم من ذلك فكان تطوره بطيئا .

أما النوبيون فلم يكن لديهم دروع ، ولم يكن لديهم حافز لعمل سلاح طاعن طويل المدى [٢] قبل مجىء الهكسوس . وفى الحقيقة أدخل الهكسوس إلى مصر العربة الحربية والقوس المركب والخيل . أما وسائل الدفاع فلم يكن فى مصر شكل ثابت محدد لدروع الجنود ، وكان المهاجمون يحملون دروعا صغيرة وخفيفة لتمكنهم من حرية الحركه السريعة .

ومنذ ذلك الوقت ، أصبح من الأمور العادية بين القبائل أن يقوموا بتسوية نزاعاتهم التقليدية التى كانت تنحصر غالبا فى مصادر المياه والماشية وذلك عن طريق المعارك الفردية المحدودة [٣] .

تنظيم القوات المسلحة المصرية

لقد أقام المصريون نظاما عسكريا معقداً فكان للملك جهازه الخاص من الحراس المحترفين وكانوا غالبا من الليبيين أو السودانيين بينما كان على كل حاكم إقليم أن يجمع عدد من الرجال ليمد بهم الملك حتى يستطيع تكوين جيش قوى .

وظل الذكور من المصريين خاضعين لهذا النظام [٤] التعسفى حتى غزو الهكسوس .

وفى المملكة الوسطى كان الجيش ينقسم إلى وحدات وكل وحدة تضم ٣٠٠ مقاتل ، وواجب هذه الوحدات والسرايا العمليات الهجومية ، أما وحدات الحرس فتتكون من عشرة أفراد فقط . وتتكون الوحدة من ٣ سرايا ، وكل سرية من ١٠٠ مقاتل

---

(١) نهر العاصى : ينبع هذا النهر من شمال مدينة حمص ويصب فى البحر بالقرب من انيقوك (أنطاكية) .

(٢) القوس والسهم

(٣) نظام المبارزة الفردية

(٤) لم يعد التجنيد الأجبارى إلى مصر إلا فى عهد محمد على (أوائل القرن التاسع عشر ب . م) .
« المعرب »

بينما كان يسيطر على الجيش **اجهزة اتصال ومخابرات وادارة ذات كفاءة عالية .** وأستخدم المصريون شفرة خاصة ترسل بالإشارات الضوئية ، علاوة على وجود عدائين يحملون الرسائل والأوامر إلى ميادين القتال ، وكانت تستخدم الأعلام والنفير لأستدعاء الجنود وتنبيههم. وظهر الحاجة الشديدة للمعلومات لمعاونة القوات عند قيامها بحملات كبيرة وخاصة فى المناطق الصعبة وغير المعروفة ، لذلك كان المصريون يرسلون وحدات خاصه للأستكشاف والتجسس وأسر بعض أفراد العدو لأستجوابهم ، **بينما ترسل التقارير عن الموقف والعدو بسرعة وبأنتظام من الضباط فى الخطوط الامامية الى مراكز قياداتهم او القائد الأعلى ، كمصدر من مصادر المعلومات وكانت غاية فى الدقة** ، وهى تشبه إلى حد كبير التقارير التى نستخدمها فى الجيوش المتحضرة فى الوقت الحالى . وتشير الايصالات التى أكتشفت عن القدماء المصريين والخاصة باستلام قوائم طويلة من المعدات والإمدادات إلى مدى دقة ونظام الجهاز الأدارى عندهم .

وكانت الجيوش المصرية القديمه تضم وحدات من الخدمات الطبية ومن المهندسين المسئولين عن عمليات حصار الحصون علاوة على وجود سرايا للنقل مكونة من السفن والعربات لنقل المعدات والجنود والمهمات لمسافات بعيدة .

معركة مجدو

بعد أن أنتهى أحمس من طرد الهكسوس ، أصبح سيد مصر وأخـذ يهتم بالشئون الداخلية للبلاد ، فوجد أن النبلاء لم يساعدوه بل ولم يؤيدوه أثناء حرب التحرير ، فقام على الفور بمصادرة ممتلكاتهم وأصبحت مصر كلها تحت سيطرته وملكا لفرعون . وقد شعر المصريون بطعم النصر فى الحرب ، مما أدى إلى فتح شهيتهم فقاموا بفتوحات أخرى فى عهد المملكة الحديثة ، فقام أمينحوتيب الأول ١٥٥٤ — ١٥٣٠ ق . م بتوحيد النوبة وليبيا والسيطرة عليهما ، وبعدها بعام قام بغزو أسيا مخترقا سوريا حتى نهر الفرات ، وتولى الحكم من بعده أبنه تحتمس الأول الذى حافظ على مجد أبيه وغزا شعب ميتانى (١) وبعد ذلك أهتم تحتمس الأول بإعادة تكوين الحضارة المصرية وتجديد جميع المعابد .

(١) تقع فى أقصى شمال العراق . «المعرب»

وخلال هذه الفترة السليمة ، تراخت السيطرة المصرية على كل من ميتانى وسوريا وشمال فلسطين لدرجة خطيرة . وأدى هذا أن قام ملك قادش بثورة ضد تحتمس الثالث . وكان يعلم ملك مصر أن الأمبراطورية المصرية لن تؤمن إلا بالسيطرة الكاملة على مدينة قادش لأنها تقع بالقرب من بحيرة حمص فى سوريا وتتحكم فى الوادى الأعلى لنهر العاصى ، وتسيطر على المرتفعات اللبنانية التى تتحكم بدورها فى الطرق إلى نهر الفرات وآشور ولذلك كانت هذه المدينة هى المفتاح الرئيسى للتجارة مع آسيا .. لذلك قرر تحتمس الثالث فرض سيطرته عليها فقاد جيشاً مكوناً من ٣٠٠٠٠ مقاتل من دلتا النيل فى ١٩ أبريل ١٤٦٨ ق . م حتى وصل إلى المنحدرات الجنوبية لجبل الكرمل فى ١٠ مايو أى بمعدل ١٦ ميلا يوميا . بينما كانت القوات الآسيوية بقيادة ملك قادش تحتل قلعة مجدو التى تقع على المنحدر الشمالى لجبل الكرمل وقد أحسن القائد إختياره لأرض المعركة ، لأنها أنسب الأماكن لمواجهة القوات الآتية من مصر شمالا . فكانت قلعة مجدو يمتد أمامها سهل كبير علاوة على تحكمها فى الطريق الرئيسى للتجارة إلى الأناضول وسوريا والفرات وهذه القلعة لها أهمية كبيرة فى تاريخ الشرق الأدنى فكانت ميدانا لعديد من المعارك الهامة .

وقام المصريون بالهجوم وحققوا نصرا سهلا ، ولكن ظهر خطأ تحتمس عندما ترك قواته تضيع الوقت فى النهب والسلب بدلا من مطاردة العدو . وعموما فقد وصل تحتمس حتى مشارف مدينة قادش .

نابليون

وقد تقدم تحتمس الثالث عبر مدينة مجدو وفعل مثله فى العصر الحديث كل من نابليون واللنبى ، وفى عام ١٩٣١ أثناء وجودى فى فلسطين قمت بتفقد ميدان معركة مجدو .

وقد سيطر تحتمس سيطرة تامة على الساحل الفينيقى (٢) الغنى بعد مهاجمته برا وبحرا إلى أنه عاد مرة ثانية يهاجم عدوه القديم قادش . وكانت قادش تعد بمثابة القلعة الحصينة لسوريا لوقوعها بين نهر العاصى وروافده

(١) قادش : — جنوب مدينة حمص الآن

(٢) فينقيا تمثل ساحل كل من فلسطين وسوريا الآن . « المعرب »

وهى موانع طبيعية وقد أستكملت هذه الموانع بشق قناة أخرى بين النهر وروافده ، وكان هذا الحصن طويلا ومنيعاً ولكن تحتمس تمكن أخيراً من أحتلاله . وهكذا أنتهت آخر عهود الهكسوس وأستطاع تحتمس من أحتلال ميتانى مرة أخرى ، وبعدها أخذت الهدايا والهبات تصل إليه من العديد من مدن ما بين النهرين [١] وعندما مات عام ١٤٤٧ ق . م كانت الأمبراطورية المصرية قد وصلت إلى قمة الانتشار والثراء .

الهجرة الارامية

أما الهجرة السامية الثالثة ، فقد بدأت من الجزيرة العربية فى حوالى عام ١٣٥٠ ق . م وكانت تعرف بالهجرة الآرامية [٢] وأستطاعت القبائل السامية من تأسيس دولة كبيرة لهم كانت عاصمتها دمشق وسيطروا على الطرق التجارة فى المناطق الصحراوية الغربية لمدة ٣٠٠ سنة ، وهؤلاء هم السوريون .

وبعد موت تحتمس الثالث بدأت تضعف القوة العسكرية للأمبراطورية المصرية فبدأ الآراميون والحيثيون بالهجوم على حدودها بينما قامت ثورات دينية داخلية وبالرغم من ذلك أستعاد الجيش المصرى قوته مرة أخرى بعد عام ١٣٥٠ ق . م ... ففى عام ١٢٩٢ ق . م . أصبح رمسيس الثانى الشاب ذا الطاقة والموهبة العظيمة فرعون مصر وقد عقد العزم على أحياء وإعادة الأمبراطورية المصرية السابقة فقد تسببت فترة السلم فى مصر أن أستطاع الحيثيين تقوية أنفسهم فى سوريا ، مع جعل قادش حصناً منيعاً لحدودهم الجنوبية وعلى هذه النقطة (قادش) قرر رمسيس الهجوم .

الجيش المصرى فى عصر المملكة الجديدة

ولكن قبل دراسة معركة قادش ، يجب أن نتعرف على تنظيم الجيش المصرى وأسلحته فى عهد المملكة الحديثة منذ عهد أمينحوتب الأول إلى عهد رمسيس الثانى من واقع الأدلة والوثائق والآثار التى خلفتها هذه المملكة فنجد أن أستخدام الفأس (البلطة) ظل قائماً حتى عام ١٥٠٠ ق . م وبعدها قل أستخدامها وأصبح السيف [٣] أكثر شيوعاً وحل محل المقرعة التى كانت رمزاً لقوة الفراعنة . وأصبح سيف رمسيس الثانى طويلا ... عريضاً ... إلا أن

---

(١) هى العراق أو أرض الجزيرة .

(٢) نسبة للمنطقة الواقعة بين لبنان والفرات .

(٣) لقد دخل السيف من آسيا إلى مصر فى ذلك الوقت . «المعرب»

السيف القصير الذى يشبه الخنجر ظل يستخدم ، وكانت هذه أكثر الأسلحة فاعليـة فى القتال المتلاحم. بينما كان السلاح الرئيسى للمشاة هو الرمح إلا أنه تطوروأصبح رأسه على شكل ورقة الشجر ومجوفة وكان يستخدم قبل ذلك فى العراق .

وكانت أسلحة القوات المصرية تتكون من الرماح والفئوس والسيوف وأستخدمت الرماح أيضاً فى الدفاع عن أسوار الحصون ، ولكنها لم تستخدم بواسطة راكبى العربات الحربية ، كما كانت تفعل الجيوش الأسيوية . أما راكبو العربات الحربية من المصريين فكانوا يستخدمون النبال وهذا الأختلاف راجع إلى أختلاف التكتيك ، فمثلا العربة الأسيوية كانت تندفع خلال قوات العدو فراداً وطاقمها مكون من السائق وإثنين من حملة الرماح وإذا أشتدت وطأة القتال وأصبح من الصعب على العربة القيام بأى مناورة ، فالسائق يترك قيادة العربة ويساعد حملة الرماح فى القتـــال . أما العربات المصرية فكانت تعمل فى مجموعات أو وحدات ولا تندفع خلال قوات العدو ، بل تدفعهم أمامـها ولا تعمل عربة بمفردها فيسهل على العدو حاصرها . والعربات المصرية كانت تمثل النسبة العظمى للقوات ، وكانت مقسمة إلى وحدات كل وحدة مكونة من خمسين عربة ويقودها ضابط ، ولم تكن الفرسان قد ظهرت بعد . ولكن حيث أن الأسلحة تطورت فى القوة والفاعلية ، فصحب هذا تطوراً فى الدروع لتوفر أقصى قدر من الحماية ... وأصبحت نتيجة المعركة تتوقف على **قدرة القوات على المناورة وخفة الحركة** ولذلك أصبحت العربات ذات أهمية كبيرة .

ومع بداية المملكة الحديثة ، كانت العربة عبارة عن مركبة خفيفة ذات أطار خشبى يجرها زوج من الخيول ، وكانت مصممة على أن تكون عربة قويةوسريعةوذات قدرة كبيرة على المناورة ، ومن عهد تحتمس الرابع قام المصريون بتطوير العربات المستعمـــلة إلى عربات ثقيلة . وكانت هناك ورش لصيانة هذه العربات وتتواجد على طول خطوط الحملات الحربية ومعها رماح ومناشير لإصلاح مركبات النقل . وعلى كل فكان القوس هو السلاح الحاسم لكل الجيوش الكبرى فى هذا العصر ، وكانت تستخدمه كل من المشاة وأطقم العربات الحربية وأستخدم بعد ذلك القوس المركب[1] وكانت السهام[2] تستطيـع

(١) كان يشبه المثلث فى شكله أو ذو شكل مزدوج التقوس وكان يحفظ فى داخل جراب خاص لحفظه من الألتواء أو الأعوجاج .

(٢) عبارة عن قصبات رفيعة من البوص ذات رأس مدببة من البرونز . «المعرب»

أختراق دروع هذا العصر من على مسافة قصيرة . ويحمل جندى المشاة جرابا به ثلاثون سهماً ومدلى من حزام جلدى مثبت على كتفه . وكان التدريب على الرماية بالسهام تسلية شائقة فى ذلك الوقت ، وأماكن التدريب متوفرة علاوة على وجود مدربين مهرة ، أما تدريب الجنود فيتم على أساس الرمى من العربة الحربية وهى فى أقصى سرعتها .

وفى المملكة الوسطى (٢٣٧٥ — ١٥٨٠ ق .) لم يرتد الجنود المصريون أى واق للجسم ، بل كانوا يحملون دروعاً كبيرة .

أما فى المملكة الحديثة (١٥٨٠ق)فقد كان رماة السهام وأطقم العربات يلبسون دروعا[1] واقية أو يحملون دروعاً صغيرة ، وفى بعض الأحيان لا يحملون دروعا على الإطلاق لأن طبيعة عملهم تقتضى أن تكون أيديهم حرة الحركة .

وأدى تطور أسلحة الأختراق (مثل السهام والحراب) إلى تطور صناعة الدروع[1] فأصبحت أصلب وأقوى ، ولكن كانت تكاليف صنعها باهظة ، مما أدى إلى قصر أستعمالها على من تقتضى طبيعة عملهم أن تكون أيديهم حرة الحركة كحملة القوس ،أما حملة السيوف والحراب فكانوا يحملون دروعا فى أيديهم بينما يستخدم الجميع بدون أستثناء خوذ للرأس وكانت غاية فى الزخرفة .

أما الإدارة العسكرية فكانت أكثر تنظيما فى عهد المملكة الحديثة عما كانت عليه من قبل ، فمثلا لم تعد السلطة مركزية لأنها لم تعد قادرة وكافية لأجراء التجنيد والأمداد والتنظيم للجيش ، فأصبحت لا مركزية فكان هناك رئيس للشئون الأدارية وأركان حرب للأفراد للجيش ولديهما كل الوثائق والسجلات الخاصة بالمهمات والتموين والمعدات والأفراد والأجور وكانا مسئولين عن توزيع الإمدادات على المستودعات وتجهيز العربات لنقل المؤن وتزويد القواب بالقوارب لنقلها عبر الأنهار ، مع إعداد قوائم للغنائم المستولى عليها من العدو .

الحصون الدفاعية

يظهر فى هذه الفترة نوع جديد من الدفاع أطلق علية « ميجدول » وكان عبارة عن

(١) يقصد البدله التى يلبسها الجندى ومصنوعة من صفائح معدنية مرنة وإلى حدما خفيفة مع وجود خوذة على الرأس . « المعرب »

قلعة ذات حصون مستطيلة الشكل وتستخدم فى حراسة المناطق ذات الأهمية العسكرية مثل الآبار والطرق الرئيسية وقد ظهرت المهارة الهندسية الفائقة فى فن التحصين والقلاع فى الألف سنة الثانية قبل الميلاد . وعلى سبيل المثال حصار مدينة مجدو والمشكلة الأزلية لهذا العصر وهى المياه ، فكان بئر المياه تقع خارج أسوار قلعة مجدو فقام أهل المدينة بحفر حفرة أسطوانية الشكل لعمق ٦٠ قدما فى أرض الحصن وأقرب ما يمكن لمكان البئر الخارجية وقاموا بتوصيل هذه الحفرة بالبئر الخارجية عن طريق نفق خلال الصخر طوله ١٤٠ قدما . ولم يستخدم المصريون أثناء أقتحام الحصون فى هذه الفترة الكبش وذلك لسمك أسوار هذه الحصون وكانت الطريقة المعتادة لمهاجمة المدن المحصنة هى تحطيم البوابات بالبلط مع تسلق الأسوار بالسلالم ويتم ذلك بأن يمسك الجندى بالسلم بأحكام بكلتا يديه ويحمى نفسه أثناء التسلق بدرع توضع على ظهره ، فى ذلك الوقت يقوم المدافعون عن الحصن بالرد على هذا الهجوم بواسطة وحدات الرماة ، أما حملة الحراب فيضربون الجنود الذين ينجحون فى التسلق والوصول إلى قمة السور . لذلك كان مهاجمة الحصون القوية بهذا الأسلوب ينجم عنه خسائر فادحة ، لذلك كان يفضل القادة محاصرة الحصون فقط حتى تستسلم تحت وطأة الجوع مع اللجوء أيضاً إلى الحيل والخداع ، كما قام بذلك « توت » أحد قادة تحتمس الثالث أثناء حصار يافا عندما أوهم العدو بالاستسلام فدخلت الخدعة على سكان الحصن ، ففتحوا الأبواب ، فأجتاح على الفور الحصن وأستولى عليه ، وهناك أيضاً أسطورة حصان طروادة الذى حدث فى هذا العصر ، ويعتبر من أحسن الأمثلة لأساليب الخداع .

وقد برع المصريون فى عمل الكمائن ، وكانوا يفضلون القتال فى الأراضى المفتوحة معتمدين على مهاراتهم الحربية وقواتهم الكبيرة خفيفة الحركة وتعتبر معركة قادش بين رمسيس الثانى والحيثيين عام ١٢٧٨ ق . م . مثالا واضحاً لذلك .

معركة قادش (انظر اللوحة رقم ٢)

سادت الأمبراطورية المصرية فترة هدوء فى عهد سيتى فأستغلها الحيثيون وقاموا بإنشاء جيش قوى كبير تحت قيادة موتاللو ، حتى أصبح أقوى من الجيش المصرى . إلا أن رمسيس الثانى أصبح حاكم مصر فعمل على تقوية جيشه حتى أصبح يضارع جيش الحيثيين عام ١٢٨٨

ق . م وكان يضم بين صفوفه مجموعات من المرتزقة . وفى ربيع عام ١٢٨٨ ق . م تحرك رمسيس الثانى على رأس هذا الجيش (١) حتى وصل إلى أعلى نهر أورنتس (العاصى) ويطل على السهل الذى تقع به قادش ويمكن الوصول إليها بعد مسيرة يوم واحد .

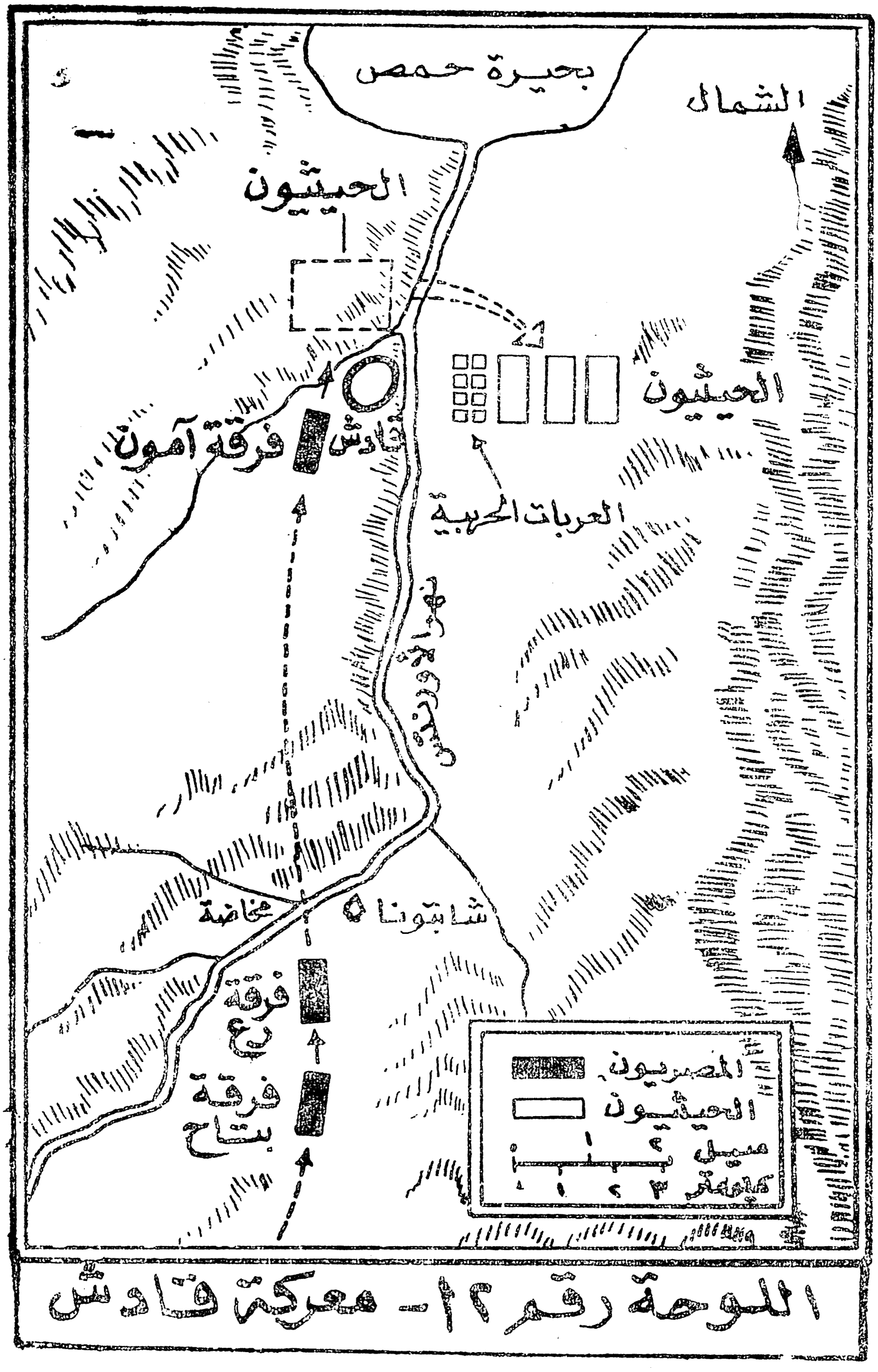

اللوحة رقم ١٢ - معركة قادش

(١) كان جيش رمسيس مكونا من أربع فرق ، فرقة حرس رعمسيس وفرقة آمون وفرقة رع وفرقة بتاح « المعرب »

وعندما أقترب رمسيسَ من قادش قاد بنفسه فرق آمون وعبر بها النهر بالقرب من شابتونا[1] وتقدم شمالا تاركا باقى الفرق ، وكان متلهفا لحصار قادش وواثقاً من النصر بعد أن ألتقى بجنديين من الحيثيين وأبلغاه بأنهما هاربان من صفوف الجيش وأن الحشد الأكبر

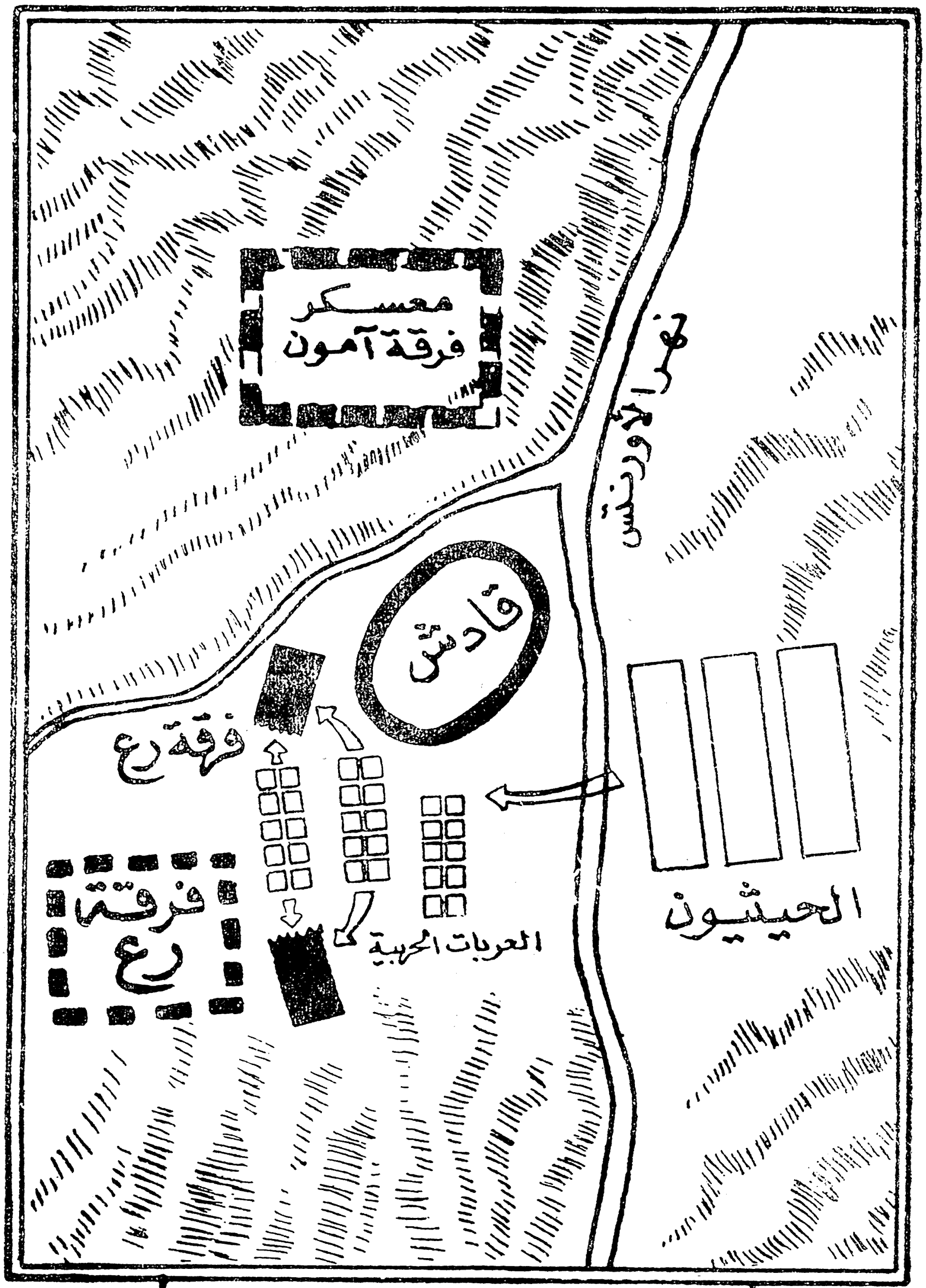

اللوحة رقم ٢ ب

---

(١) شابتونا : تقع جنوب قادش بمسافه ٦ أميال « المعرب »

لجيش الحيثيين لا يزال بعيداً فى الشمال بالقرب من حلب . وكان ذلك خدعة وقع فيها رمسيس ، فقد أرسلهما موتاللو لإغراء رمسيس للاتجاه شمالا حتى يسقط فى المصيدة التى نصبها له شمال قادش. تقدم رمسيس شمالا حتى أصبح غرب مدينة قادش ، فى هذه الآونة تحرك جيش الحيثيين وعبر النهر ثم اتجه نحو الجنوب حتى أصبح شرق قادش محافظا على أن تبقى المدينة بينه وبين قوات رمسيس حتى لا يكتشف تحركه ، ونجح موتاللو فى إتمام

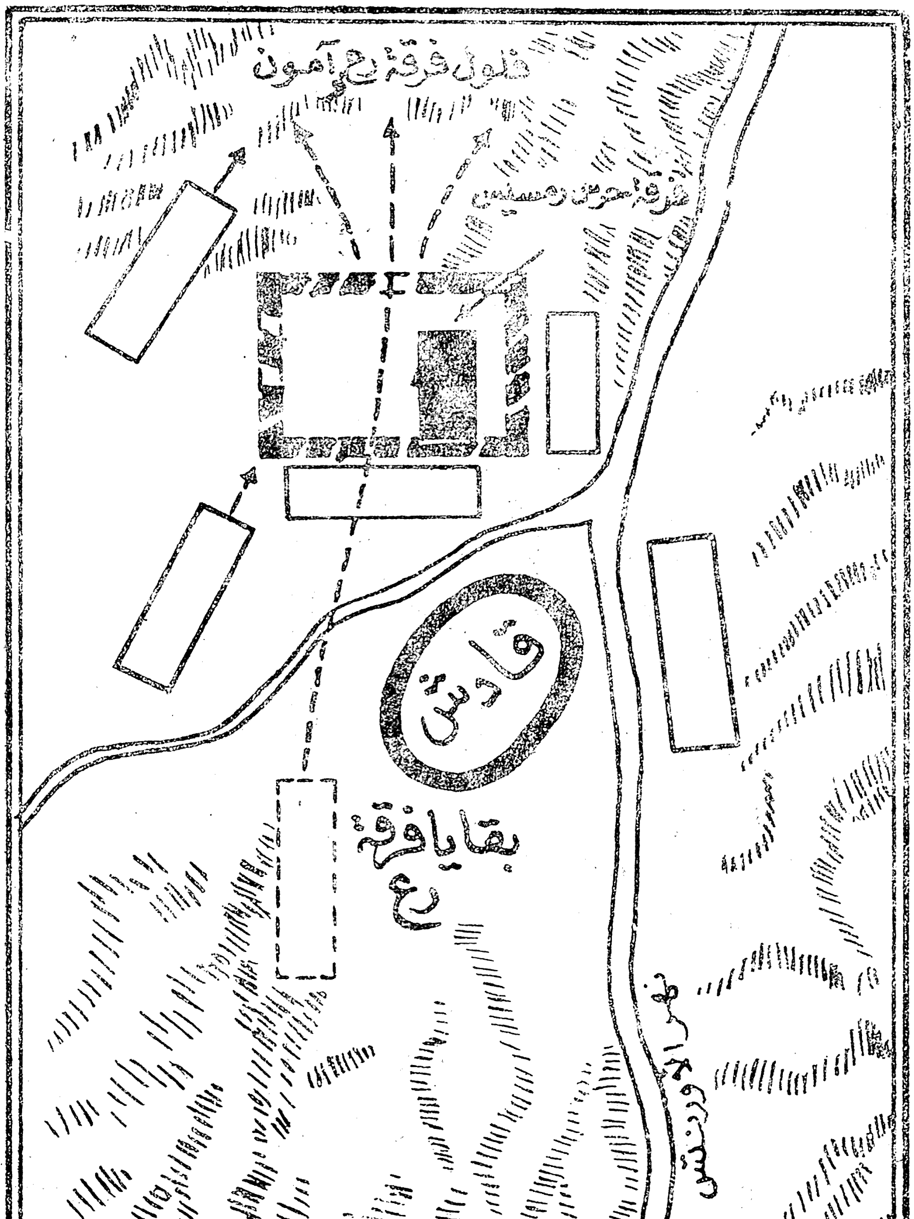

اللوحة رقم ٢ ج

حيلته وقام بمناورة بارعةو هاجم فرقة رع من الشرق والتى أخذت تماما بالمفاجأة ونجح فى شطرها إلى قسمين وتبعثر هذين القسمين إلى أجزاء صغيرة أنطلق بعضها نحو معسكر آمون فى الشمال ويطاردهم عن قرب وحدات من العربات الحربية وكتائب الحيثيين [1] .

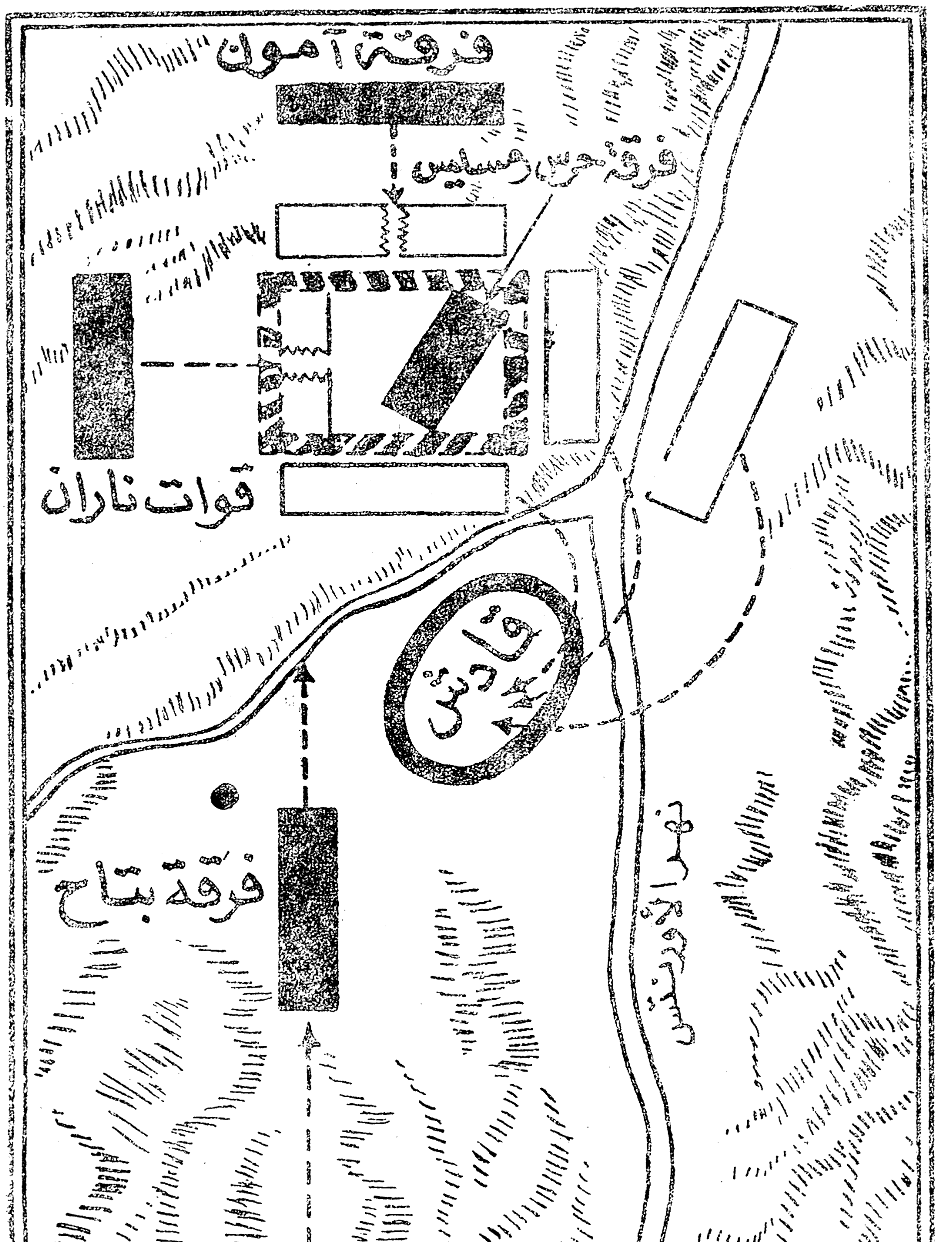

اللوحة رقم ٢ ى

(١) كانت تقدر قوات الحيثيين التى تطارد المصريين بحوالى ٤٧ ألف مقاتل « المعرب »

وأصبح بذلك رمسيس معزولا فى الشمال ويهاجمه قوات كبيرة من الحيثيين ، بينما باقى قواته تقاتل بعيدا فى الجنوب لدرجة أنه أصبح من المشكوك فيه أنها ستلحق به وتقاتل معه . وكان الجزء الأكبر من جيش موتاللو يتمركز فى قادش لكى يحمى ظهره مع توفير قاعدة حصينة لقواته. ولم يدرك رمسيس فداحة الموقف إلا بعد أن قبض على جاسوسين آخرين من الحيثيين واعترفا له بالصدق فى هذه المرة ، بأن جيش موتاللو خاف مدينة قادش فى ذلك الوقت وصلت فلول فرقة رع وخلفها قوات الحيثيين فأصاب فرقة آمون والتى يقودها رمسيس الذعر والأرتباك ، فأرتدت على أعقابها فى تحركات عشوائية ظهر معها أن خيوط الهزيمة بدأت برمسيس . ولكن رمسيس قدر موقفه بسرعة وقرر القيام بهجوم مضاد ولكنه وجد أنه لن يستطيع كسر حده هجوم الحيثيى فى منطقة الوسط (القلب) إلا أنه لاحظ أن الجناح الشرقى لهم والمتحرك بمحازة النهر ضعيفاً ، فعلى الفور وجه هجومه المضاد إليه بواسطة عرباته الحربية . وبالرغم من ذلك كان الحيثيين لا يزالون مسيطرين على منطقة الوسط ، وما كان عليهم إلا أن يركزوا جهودهم ويحشدوا قواتهم فى الجناح الشرقى ضد هجوم رمسيس المضاد ، وبذلك يضمنون النصر كاملا ، ولكنهم بدلا من ذلك بعثروا قواتهم وأنهمكوا فى سلب الغنائم من معسكر المصريين فى منطقة الوسط بعيدين عن حراسهم وكانت هذه هى اللحظة الحاسمة فى المعركة . وعلى الفور دفع رمسيس بقوات ناران[1] من الغرب لمهاجمتهم فتحسن موقف القوات المصرية فى منطقة الوسط ، وفى نفس الوقت أستمر المصريون فى الضغط على الجناح الشرقى للعدو ، وهنا برزت عظمة التفوق التكتيكى لأستخدام العربات الحربية المصرية والمسلحة بالأقواس المركبة بعيدة المدى ، بينما كانت العربات الحربية للحيثيين أقل عدداً وأبطء حركة وتسليحها قاصرة على الأقواس قصيرة المدى .

وتم دحر موتاللو وجيشه ، وأجبر على الأنسحاب للخلف عبر نهر العاص ومعه ٦٠٠٠ جندى وأصبح عاجزاً تماماً بعد فقده لجميع عرباته الحربية تقريباً فى هجومه الأول على منطقة الوسط للمصريين ، وبذلك أصبحت مشاته عاجزة هى الأخرى أمام ضربات العربات الحربية للمصريين ، وعند حلول المساء وصلت فرقة بتاح إلى ميدان المعركة ، فأضطر الحيثيون

---

(١) قوات نارات : وهى القوات الكنعانية التى يقودها فاران وتخدم مع القوات المصرية . «المعرب»

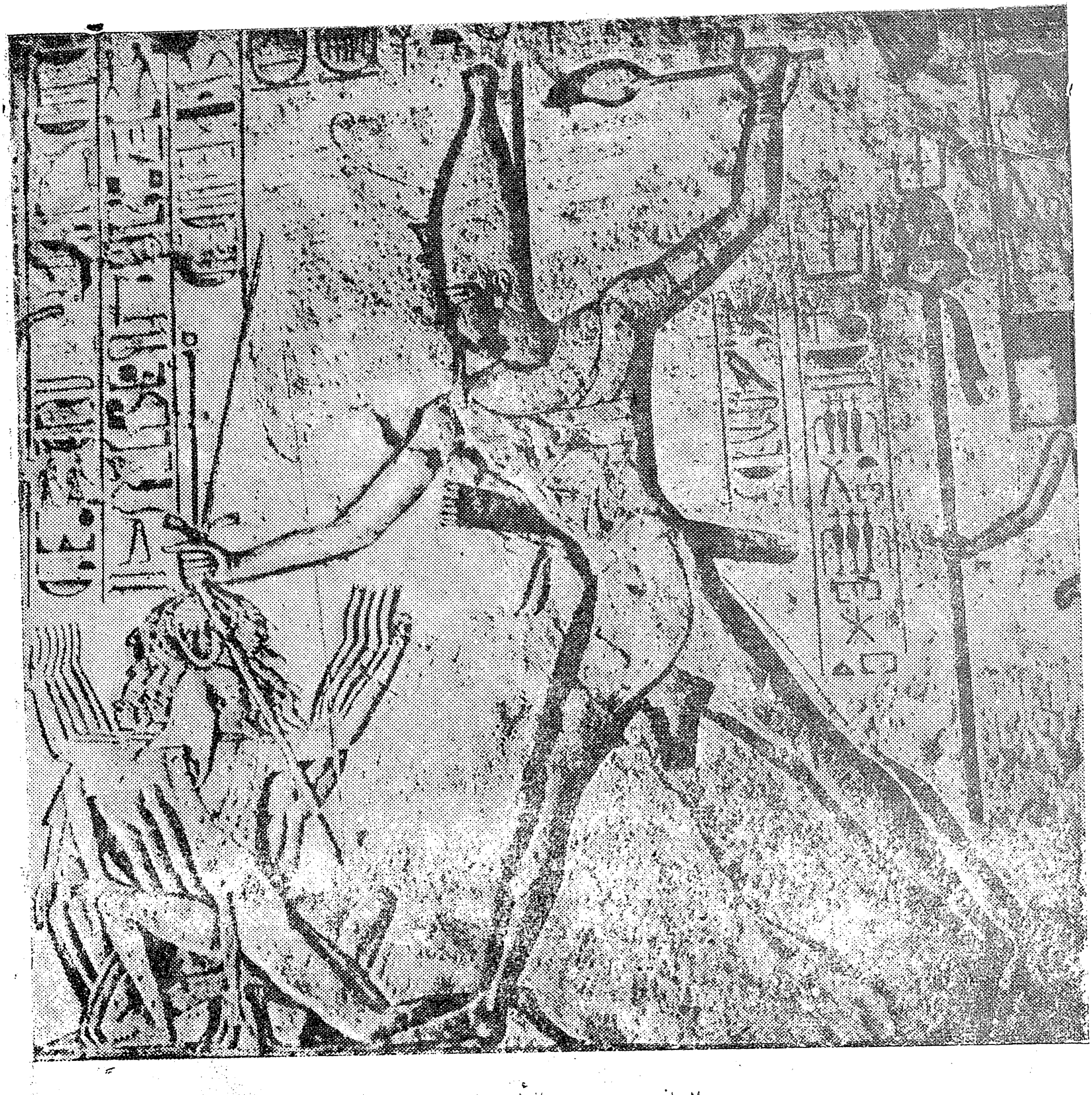

رمسيس الثانى يوسع الأمبراطورية المصرية

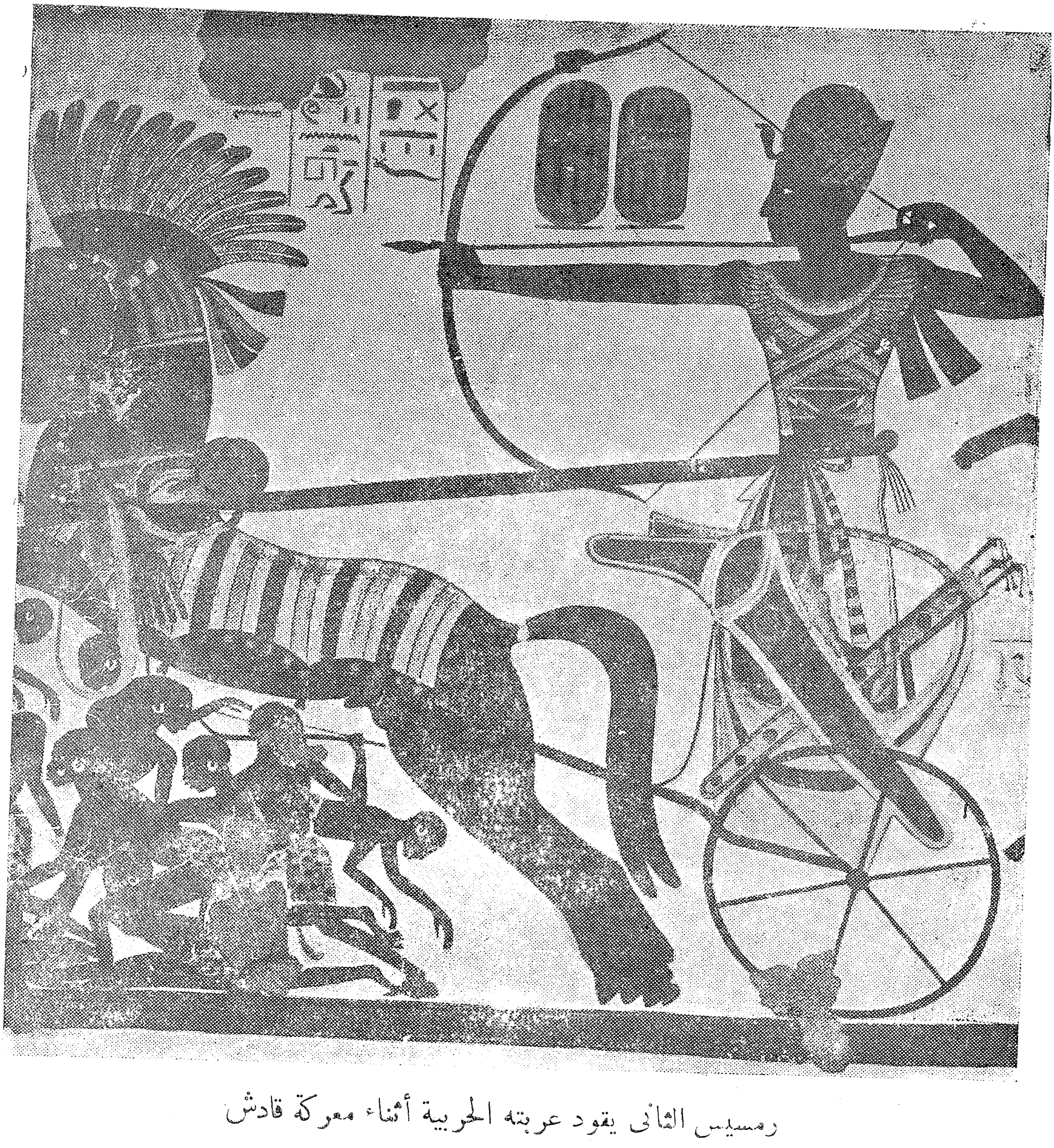

رمسيس الثانى يقود عربته الحربية أثناء معركة قادش

إلى الأنسحاب داخل قادش وأخذوا يعدون أنفسهم للحصار ، ولـكن المصريون أنسحبوا دون أحتلال قادش وبذلك أنتهت المعركة نهاية غير حاسمة أو محددة .

وفى الحقيقة تفوق موتاللو على رمسيس أستراتيجياً ولـكن قيادته الخاطئة وسوء تنظيم جيشه وافتقاره للأسلوب الفنى(١) فى الحرب أفقدته المعركة ، بينما أستطاع رمسيس قيادة رجاله بحـكمة وبراعة فأستطاع تجنب كارثة محققة .

قيام الدوله الآشورية (أنظر اللوحة رقم(١))

وبعد معركة قادش ، أضمحلت كل من الإمبراطورية المصرية والحيثية وفترت عزيمة ونزعة المصريين للفتوحات، بينما شعر الحيثيون بالقوة المتزايدة للأشوريين ، بالإضافة إلى ذلك أجتاحت قبائل المهاجرين(٢) مناطق جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط من أتجاه بحر أيجه . . وبدأت غاراتهم المتفرقة تزداد عنفاً حتى أصبحت خطيرة ، وأصبحت من القوة بحيث لا تقاوم . وأستولوا فى عام ١٢٠٠ ق . م على جزء من دولة الحيثيين وتقدموا نحو سوريا ، وأصبحوا يشكلون خطراً وتهديداً مباشراً لمصر .

وقد أعيـــد تنظيم الجيش المصرى بواسطة سيتنخت ورمسيس الثالث وكان الرماة المصريون لا يزالون يحتفظون بقوتهم. وفى عام ١١٩٠ ق . م أستطاعوا صد الغزاة براً وبحراً على الساحل الفينيقى ، وقد أطلق على هذا الغزو « الهجرة المسلحة » لأن القوات الغازية كانت تصحبها عربات كبيرة محملة بممتلـكاتهم وعائلاتهم . وبعد أن هزمهم رمسيس أسكن رعاياهم المدنيين على الساحل وكانوا يسمون بالفلسطينيين . وبعد ذلك وبالرغم من ضعف الفراعنة لم يستطع أى غاز أن يخترق أرض مصر حتى ظهور الأشوريون فى القرن السابع قبل الميلاد وأصبح الآشوريون فى هذا الوقت أقوى دولة عسكرية فى الشرق الأوسط .

من افق السماء حتى ذروتها

كنت معجباً جداً بالأشوريين وأنا ضابط صغير ذاهب للحرب فى جنوب أفريقيا

---

(١) يقصد أن العربات الحربية والأسلحة عند الحيثيين كانت متخلفة فى التطور عنها عند المصريين

(٢) الأندو أوروبى أو كما كانوا يسمون بالآرى «المعرب»

وأقتبست هذه السطور من قصيدة بيرون وأسمها « سينا خريب[١] المدمر » .

« وهبط الآشوريون من سفح الجبل كما يهجم الذئاب على قطيع من الخراف » .

« وأسلحتهم تومض فى لونها الأرجوانى والذهبى » .

والشعب الأول لآشور[٢] ينحدر من نسل موجة الهجرة السامية الثانية عام ٢٥٠٠ ق.م ولكن الطقس البارد ولأختلاطهم بدم غير السامى ، جعلهم شعباً قوياً صارماً ، وأصبحوا أعظم شعب عسكرى ذو براعة فائقة فى فن القتال قبل الرومان . وأستطاعوا توحيد كل شعوب الشرق الأدنى فى أمبراطورية آشور وأصبحت عاصمتهم نينوى[٣] وإذا عدنا قليلا إلى الوراء نجد أنه فى عام ٢٠٠٠ ق . م كان الآشوريين بعيدين عن الأحداث ، ولكنهم أخذوا ينمون ببطء حتى القرن الثالث عشر ق . م . وبعد أنهيار الأمبراطورية المصرية والحيثية وجد ما يسمى « بفراغ القوة » فوجد الآشوريون متنفساً لهم ليظهروا على مسرح الأحداث . وبين سنة ١٢٧٦ — ١٢٣٣ ق . م بدأوا تقدمهم السريع فى الشمال والشمال الغربى . وفى عهد طجلاط بلبزر الأول (١١١٥ — ١١٠٢ ق . م) كانوا من القوة بحيث أستطاعوا ضم مساحات شاسعة لهم من الأمبراطورية الحيثية وتمكنوا من الوصول لساحل البحر الأبيض المتوسط كما أستولوا على بابل . ولكن الحرب الأهلية داخل آشور بالإضافة إلى هجمات القبائل الآرامية أدى إلى ضعف الآشوريين لمدة ٢٠٠ سنة إلا أنهم أستعادوا قوتهم ومجدهم مرة أخرى فى عهد أداد — نيرارى الثانى عام (٩١١—٨٩٩ ق.م) الذى أستطاع دخول بابل والإيقاع بين سكان الجبال والوديان فى الشمال الغربى . وأنتهج ملوك آشور فى ١٠٠ سنة التالية سياسة التوسع الدائب المستمر القائم على أساليب غاية فى الوحشية .

وكانوا دائماً يضعون القرص ذا الأجنحة[٤] على عربه الملك الحربية فى أى معركة ، ثم يوضع بعد ذلك فى البلد التى يتم فتحها والإستيلاء عليها .

(١) سينا خريب هو ملك آشور وقد قتل على يد ولديه

(٢) آشور وهى مدينة تقع على نهر دجله فى العراق

(٣) نينوى أو (نينيفة) وتقع على نهر دجلة شمال مدينة آشور

(٤) هذا القرص منحوت عليه صورة آشور وهو يقود شعبه « المعرب »

وكان الضباط الكبار فى الجيش الآشورى من الكهنة ولذلك كانوا متمسكين بعبادتهم لآشور ، وعند تمرد أى شخص أو بلد ، فيصبح هذا الشخص اثما ويلقى أشد وأقسى العذاب أما البلد فيحولونها إلى دمار شامل كما حدث لمدينة (أرينا) عندما أحتقرت الإله آشور . وكان الأشوريون يقيمون الطقوس الدينية بعد أنتصارهم فى المعارك ويجرى ذبح الأسرى أثناءها . ولم يكن هناك أى منفعة تعود على الشعوب التى يضمها الآشوريين إليهم بل على العكس كانوا ينهبون ويسلبون كل الممتلكات علاوة على أستعمالهم القسوة مع الشعب المهزوم بالقيام بعمليات النفى والطرد الجماعى وذلك لتوفير الأراضى ليسكنها الآشوريون ويتكاثروا فيها ، لأن آشور تقع فى منطقة جرداء فى المنطقة العليا لنهر الدجلة وكان عليهم أختيار أحد أمرين ، أما البقاء فى هذه الرقعة الصغيرة المقفرة ، أو القيام بالغزوات فيحصلوا على الأرض والغنى ، ولكى يسيروا فى طريق التوسع كان لزاما عليهم تأمين حدودهم الشرقية والجنوبية مع فرض سيطرتهم على الشمال والغرب .

ولم تكن هناك إلا مشاكل طفيفة حتى القرن السابع ق . م بسبب الهجرات الجماعية وكانت السياسة الآشورية تعتمد على فرض قوة وسلطة ملك بابل على القبائل ، ولكن بعد فترة طويلة من الثورات والتمرد ، قام سينا خريب بالأستيلاء على بابل عام ٦٨٩ ق . م . وفى عام ٦٣٩ ق . م قام أشور بانيبال بتدمير مملكة العيلام مما أدى إلى وجود فراغ هيأ لظهور مملكة فارس . وهكذا نجد أن المشاكل الرئيسية أخذت تظهر فى كل من الشمال والغرب ، ففى الشمال مثلا كان لابد للآشوريين من القيام بحملات دورية لتأديب القبائل التى تسكن الهضاب وخاصة قبائل الأورارتيين وأخيراً المهاجرين من السيثيين والسامريين ، وأستعادة السيطرة عليهم . أما فى الغرب فقد أثبتت التجارب أنه لا يوجد غير الغزو وأحتلال هذه المنطقة لكى يمكن إستغلال الإمكانيات التجارية بها إلى أقصى حد ، مع الإستمرار فى أخضاع هذه القبائل لهم .

وقد قام طجلاط بلبزر الثالث (٧٤٥ — ٧٢٧ ق . م) بغزو أبعد المناطق فى الغرب وهى مدينة كاركميش وكانت وسيلته فى ذلك أبادة القوة الصغيرة ثم توجيه ضربات قاضية للعدوين الرئيسيين وهما أورارتو[١] ودمشق. وخلال سلسلة من الحملات يقدم شمالا نحو دجلة

(١) كانت أورارتو مملكة قديمة وتقع بين بحيرة ڤان والقوقاز « المعرب » .

موجهاً ضربات متلاحقة شرقا وغربا ضد الميديين وداخل سوريا ، وتم له فعلا سحق أورارتو والأستيلاء على دمشق ، وبعد ذلك أستسلم حكام كل من فينيقيا وفلسطين وبعض الدويلات الأخرى ثم أبتدأ بعد ذلك التقدم نحو الجنوب .

وبعد ١٨ عاما من المعارك والحملات مات الملك وترك المملكة الآشورية التي تمتد حدودها الشرقية من بيت ياكين على الخليج العربى إلى جبل بيكنى . أما حدودها الغربية فالبحر الأبيض المتوسط إلى مصر وعلى حد قوله « من أفق السماء حتى ذروتها » .

وأحتفظت آشور بقوتها وسيطرتها بعد ذلك على الشرق الأدنى لمدة قرن من الزمان ، وقد حاول المهاجرون السامريون التقدم ولكن سارجون الثانى دحرهم فى موقعة كبيرة عام ٧٠٥ ق . م . وأخيراً فى عام ٦٧١ ق . م قام الملك أسر حدون بقيادة الجيش الأشورى وأستولى على كل مصر العليا .

والآن نتساءل كيف حقق الآشوريون كل هذا النجاح العسكرى ؟ .

يبدو أنهم كانوا متفوقين فى بعض الفنون غير فن الحرب، إلا أن فن الحرب كان شاغلهم الرئيسى ويظهر لنا بوضوح الوصف التاريخى للآشوريين من خلال اللوحات المرسومة والمنحوتة فى القصور الملكية وتبين حروبهم وبعض فنونهم الأخرى . ولذلك فنحن على دراية تامة بتطورات أسلحتهم وتكتيكهم العسكرى . وكان الآشوريون يعتبرون أقوى قوة عسكرية شهدها العصر الحديدى ، وكانت أسلحتهم أصلب وأمضى من أى أسلحة ظهرت فى العصور السابقة .

ظهور الفرسان

وكان الآشوريون أول شعب أدخل نظام الفرسان فى الجيوش فى حوالى سنة ١٠٠٠ ق.م بفترة وجيزة . وكان هؤلاء الفرسان نوعين حملة الأقواس وحملة الحراب ويستخدم النوعين فى القتال المفتوح القريب والبعيد ولكن لم يستخدما مطلقاً فى مهاجمة الأماكن المحصنة

وعند نشوب المعركة كان على حملة الحراب من الخيالة أن تفتح ثغرة فى قوات العدو ثم تندفع خلفهم المشاة من حملة الحراب ، أما الخيالة من حملة الأقواس ،فيقومون بمهاجمة مؤخرات

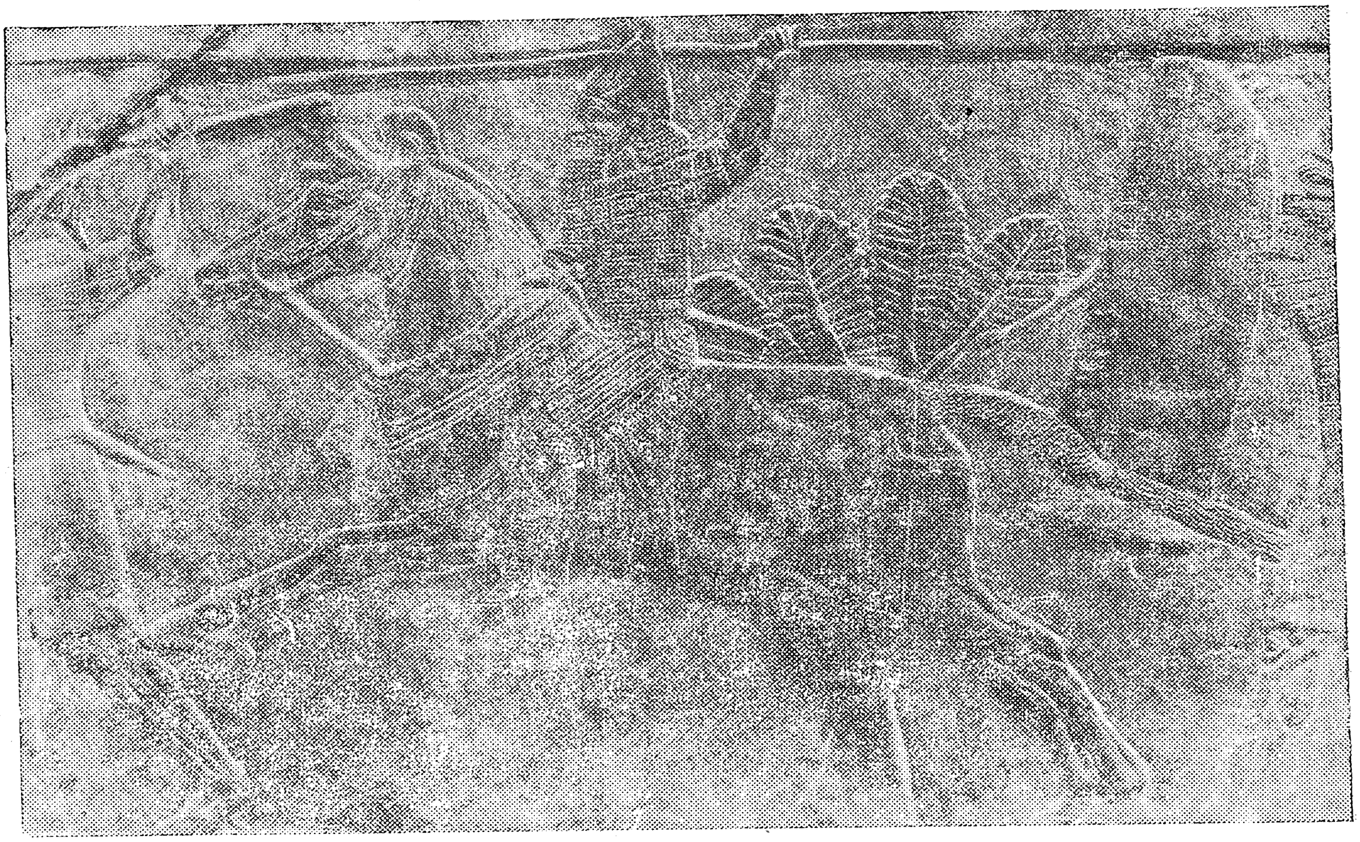

الآشوريون أول من أدخل نظام الفرسان فى الجيش

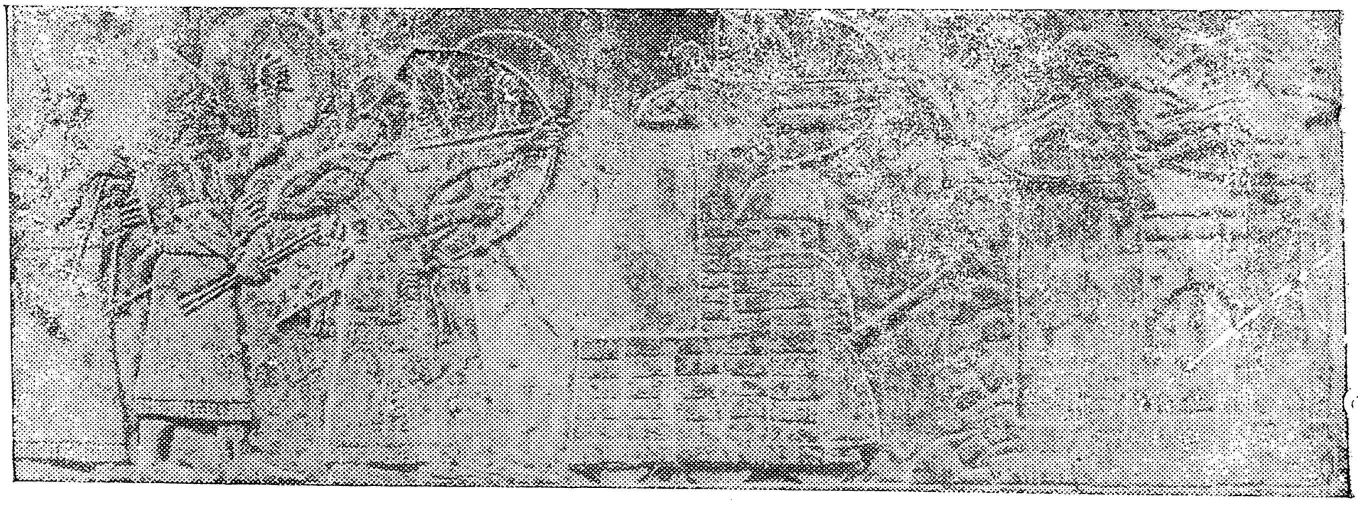

الآشوريون يهاجمون المناطق المحصنة بكبش متحرك

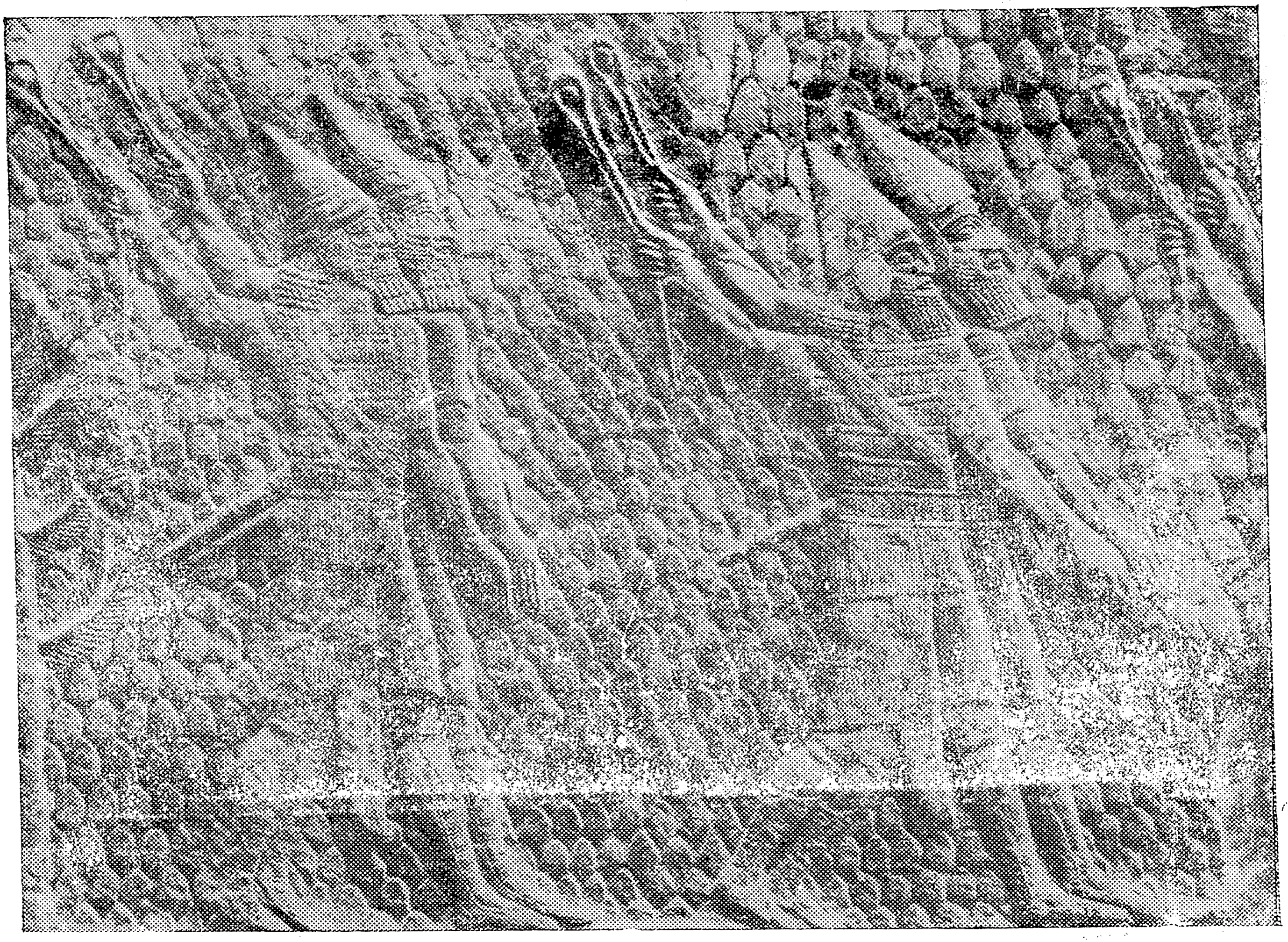

المشـاة الآشورية من حملة المقلاع

وأجناب العدو فى تشكيل ثنائى[١] . وبالرغم من إستخدام الخيالة إلا أن السلاح الرئيسى للجيش كان العربات الحربية ، ففى عهد الملك آشور بانيبال أرتفع عدد طاقم العربة من أثنين إلى أربعة[٢] . وأصبحت العربة نفسها أثقل ويجرها أربعة خيول .

أما قوات المشاة فكانت تتكون من حملة الحراب والرماة ورماة المقلاع . ويرتدى حملة الحراب أردية مصفحة وخوذات .

وقد أجرى الآشوريون عدة تجارب على الدروع للحصول على الحجم والشكل والوزن المناسب بحيث يعطى درجة كافية من الحماية مع سهوله الحركة للمقاتل ولكنهم لم يتوصلوا لنموذج ثابت .

وعادة كان حملة الحراب هم قوات الصدمة التى تقود الهجوم بالمواجهة ، وكانوا أيضاً ذوى أهمية كبيرة فى مهاجمة المدن المحصنة . وتتكون القوة الرئيسية للمشاه من الرماة لأنهم العناصر الهامة لكل أنواع الهجوم بما لديهم من أقواس متقدمة الصنع من النوع المركب . وفى العهود الأولى كانوا يرتدون أردية طويلة مصفحة ، ثم فى عهد طجلاط بليزر الثالث قام بتغييرات جذرية فى جميع الأسلحة ومنها أستخدام دروع كبيرة[٣] ، وقلنسوات للجنود ووحدات من الرماة خفيفة الحركة وأدخل تحسينات على القوس بحيث أصبح طرفا القوس مائلين قليلا إلى الخلف مما يؤدى إلى سهولة جذب الوتر وبالتالى سهولة وقوة الرمى ، كما أستعمل المقلاع لأول مرة فى عهد طجلاط بليزر الثالث وكان ذا فاعلية وتأثير شديدين أثناء مهاجمة المدن الموجودة فوق المرتفعات ، وكان المشاه يحملون بالأضافة إلى سلاحهم الخاص ، سيفاً طويلا مستقيما محمولا فى غمد على الفخذ الأيسر . ولم يهزم الآشوريون طوال ٤٠٠ سنة من القتال المتواصل وكانت جيوشهم فى أزدياد مطرد وكان لأعدائهم السوريون والأورارتيون والعيلاميون جيوش مماثلة ، ولكن يرجع نجاح الآشوريون إلى أن ملوك آشور كانوا قادة ميدانيين من

(١) يقوم بالهجوم كل أثنين من الخيالة أحدهما للرمى بينما يمسك الآخر أعنة الحصان ويحمل درعا كبيراً يحمى الأثنين . أما وقاية الخيول فيضعون لهم دورعا جلدية .

(٢) يتكون الطاقم من سائق ورامى واثنين من حملة الدروعا لوقاية الطاقم .

(٣) كانت الدروع أطول من قامة المقاتل ولها شخص خاص لحملها « المعرب »

الدرجة الأولى ولهم اليد المطلقة فى توجيه جميع أمكانيات الدولة فى حالة الحرب علاوة على دقة وتنظيم قواتهم ، فكان هناك جيش نظامى يخدم فيه جميع البالغين لفترة محددة، وكان الأغنياء يدفعون المال أو يرسلون العبيد بدلا من أبنائهم إذا أرادوا ذلك ، وعلى الشعوب المهزومة إرسال كتائب للخدمة فى الجيش الآشورى .ويجرى أمداد القوات والضباط من الحكومة المركزية أو من الجزية التى تفرض على المناطق التى يحتلونها ، وبعد الأنتهاء من المعركة تقسم الغنائم بين القوات . وكان يدعم الجيش نظام كفء من المخابرات ، وكذا أجهزة من المسئولين المدنيين المنتشرين فى المقاطعات للحصول على ما يمكن الأستفادة به من المعلومات العسكرية .

العمليات الحربية

كانت القوة الضاربة للجيش الآشورى لا تعطى أى فرصة للشعوب الأخرى للوقوف أمامها فى معركة مفتوحة،فأعتمدت فى الشعوب الدفاع على الأماكن المحصنة.ولا يوجد لدينا سجلات توضح بالتفصيل المعارك المفتوحة للآشوريين ، فأصبح من المستحيل معرفة الأستراتيجية والتكتيك اللذين أستخدمها الآشوريون فى عملياتهم . ويحتمل أن تكون العربات هى التى لعبت الدور الرئيسى فى الحروب فكانت تقوم بالهجوم من جميع الأتجاهات وتشترك فى القتال بجميع أبعاده أما باقى التشكلات فتقوم بعد ذلك بتطهير الفلول التى تبقى على أرض المعركة بعد هجوم العربات،وأقوى دليل على ذلك تلك النقوش البارزة للملك آشور بانيبال والتى تصور معركته مع العيلاميين والعرب عند نهر أولاى ويظهر موقف الجيش العيلامى العصيب المكون من وحدات رماة خفيفة ومشاة وبعض الفرسان ، أمام الجيش الأشورى ذى الوحدات المجهزة والمناسبة للمنطقة التى يحارب فيها ، وكانت هذه الوحدات تتكون من الفرسان المسلحين بالأقواس والحراب والمشاة من حملة الحراب ومعظم هؤلاء يلبسون دروعا ثقيلة ، علاوة على وجود مجموعات أضافية من الرماة الخفيفة ينتشرون فى أرض المعركة لأحداث أكبر قدر من الخسائر وتبين الرسومات المنحوتة على الجدران سير المعركة التى تبدأ بهجوم كاسح وينتهى بدفع بقايا العدو إلى الخلف نحو النهر وذبح الأسرى .ومن الواضح أن الفرسان والمشاة كانوا يدخلون المعركة بعد ما تحدثه العربات الحربية من فوضى فى قوات

العدو وكان الفرسان يعملون على أجناب العدو لمنعه من الهرب ويدفعونه للخلف نحو النهر ثم ذبحه . وكان الآشوريون محاربين ممتازين فى جميع أنواع الأراضى من جبال أورارتو[١] . حتى مستنقعات بيت ياكين وفى الصحراء أيضاً .

وهناك نقوش للملك سينا خريب توضح تقدم المشاة خلال مدينة كثيفة الأشجار ويوضح الرسم المشاه المترجلة من حملة الحراب وهى تتقدم فى صفوف منتظمة بينما يتبعها مجموعات صغيرة لتأمين الأجناب والمؤخرة . وكانت الفرسان من حملة الحراب وحملة الأقواس يلعبون الدور الرئيسى بمعاونة المشاة فى مناطق الغابات أو الجبلية . فكانوا يتقدمون إلى الأمام فى صفوف منتظمة بينما تحمى المشاة أجنابهم، وأصدق مثال يوضح مقدرة الأشوريين فى التغلب على صعوبة أرض المعركة ، تلك العمليات البرمائية التى قام بها الملك سينا خريب فى منطقة مستنقعات دلتا نهر دجلة ، فقد ظهر فى الرسم المشاة وهم يعملون كجنود بحرية ، ويقومون بهجومهم من داخل قوارب خفيفة وبالمناورة بين أعواد البوص باحثين عن العدو ومشعلين النيران فى ملاجئهم ، كما كان الجيش الآشورى له القدرة على تحريك تشكيلات كبيرة لمسافات طويلة عبر المدن الجبلية ، كما وصلوا إلى مستوى جيد من البراعة والمهارة الفنية فى التغلب على العقبات الطبيعية وخاصة الأنهار ، ويظهر فى نقش آخر مجموعات كبيرة من العربات تعبر نهراً واسعاً بجميع معداتها الثقيلة ، وكانت هذه العربات تعبر النهر على قوارب كبيرة تعمل بالمجاديف ويساعدها من الشاطىء الآخر فريق يشد القوارب بالحبال ، بينما تسبح خيول العربات خلف القوارب وهى مربوطة بحبال فى القوارب ، أما الجنود فكانوا يسبحون بمساعدة جلود الماعز المنفوخة محافظين إلى أقصى حد على أسلحتهم من المياه ، كما كان يقيم المهندسون العسكريون فى بعض الأحيان الكبارى العائمة عبر مجارى المياة الصغيرة .

الحرب النفعية قبل الميلاد

قامت الدول الصغرى مثل سوريا وفلسطين بتطوير أسلوب التحصينات لكى تواجه الآشوريين ، وبالتالى قام الآشوريون بتطوير فن حرب الحصار، وكان نجاحهم فى ذلك راجعا بدرجة كبيرة إلى تنسيق وأستغلال أمكانياتهم العسكرية إلى أقصى حد ، وأستخدموا

(١) جبال أورارتو (أنظر اللوحة رقم ١) « المعرب »

معظم أساليب فن الحصاد [١] مع أستخدام الحرب النفسية .

وكان الكبش فى بداية عهدهم كبير الحجم وغير متقن الصنع إلى حد ما ، ومحمولا على ستة عجلات وطوله يصل إلى ١٥ قدما كما كان يوجد فى مقدمته ما يشبه البرج بأرتفاع ١٨ قدما ، ويحتوى بداخله على المنجانيق مربوطا بحبل ليسهل قذفه ، وكان رأس المنجانيق يشبه البلطة التى تنحشر بعد إنطلاقها من العربة فى بوابة أوسور الحصن ثم بعد ذلك يقوم الجنود بتحريكه ليخلخل السور وينهار . وقد أرجع طجلاط بليزر الثالث نجاحه إلى أستخدامه نوع جديد من المنجانيق ذا وزن خفيف ومحمول على أربع عجلات . وكان أطقم المنجانيق معرضين لخطر جسيم لتعرضهم للسهام المنطلقة من أقواس رماة العدو ، ولذلك كانت هناك وحدات من الرماة تتحرك فى أبراج متحركة لتحميهم ، ويجرى الهجوم على الأسوار بواسطة حملة الحراب الذين يحملون سلالم التسلق ، محولين أهتمام المدافعين عن أطقم المنجانيق الذين ينتهزون هذه الفرصة للبحث عن النقط الضعيفة فى الحصن . وفيما بعد عندما أصبحت الحصون أكثر قوة ، فضل المهاجمون السلالم على المنجانيق ووصل طول السلم إلى ٣٠ قدما . وكانت تشترك فى الهجوم على الحصن فى وقت واحد جميع وسائل الأقتحام ويؤازرها رماة السهام النارية . وفى عهد سينا خريب أصبحت هجمات الآشوريون أكثر تخريبا ودمارا وقوة عند أستخدامهم للسلاح الجديد وهو المقلاع . وفى بعض الأحيان كان يصطدم الآشوريون بقوات للعدو كبيرة أو بتحصينات قوية لا يمكن دكها فكانوا يحاصرون الحصن أو يستخدمون الخداع . ومثال لذلك ما جاء فى الأنجيل فى وصف الطريقة التى نادى بها رابشا كيه على المدافعين عن حصن القدس مستخدما لغتهم طالبا أستسلامهم وعدم أطاعة أوامر قائدهم حزقيا ، وكان هذا عبارة عن مثال للحرب النفسية المبكرة إلا أن حصن القدس نجا من الحصار نتيجة لما يتمتع به حزقيا من بعد النظر ، بتوفير مصدر للمياه داخل الحصن وذلك بتحويل المجرى العلوى لنهر جيجون إلى أسفل نحو الجانب الغربى من القدس . فقد حفر بمهارة هندسية فائقة قناة فى الصخر الصلب ولمسافة ٦٥٠ ياردة بحيث تصب فى

---

(١) مثل أجتياح المتاريس والقلاع ، النفاذ خلال الحوائط والبوابات والتسلق ، والنفاذ عبر الأنفاق « المعرب »

خزان داخل المدينة وقام أيضاً ببناء مخازن أحتياطية لتخزين الزيت والدقيق والنبيذ. ويعد سور مجدو الضخم مثال لفن تطوير التحصينات، فقد بنى فى بداية القرن التاسع عشر ق . م وسمكه ٧ أقدام عند القاعدة، ومزود بشرفات بارزة عرضها ١٨ قدما بها فتحات للضرب منها، وبنوا سورا آخر منخفضا ليزيد من قوة السور الكبير . وتبين النقوش هجوم الملك سينا خريب على لاكيش وظهر المدافعون عن الحصن على طول الفتحات التى يدافعون من ورائها، وقاموا بتزويد هذه الفتحات بأطارات خشبية خاصة ليعلقوا عليها دروعهم بحيث تصبح ساتراً يمكن للرماة العمل من خلفه بحرية .

وفى عام ٦٣٩ ق . م أستطاع الملك آشور بانيبال أن يحقق الأستقرار فى أمبراطوريته فقد ساد السلام الجزء الجنوبى الغربى بعد أن أصبحت ليديا حليفة له بينما سحق العيلام ثم وقعت الكارثة ... فنحن لا نعلم على وجه الدقة ماذا حدث، ولكن من المؤكد أنه بموت الملك حدثت خلافات ومنازعات طويلة على من يخلفه . وقد تحالف كل من نابو بلصر ملك بابل مع سايا كساراس ملك ميديا على تدمير الآشوريون الذين أستنفدت الحروب الأهلية قوتهم فى عام ٦٢٠ ق . م وكان قادة الأعداء رجالا أكفاء، فوجد الآشوريون أنفسهم عاجزين عن مقاومتهم إلى أن تمكن نابوبلصر من ألحاق هزيمة ساحقة بهم فى كابلينو فى عام ٦١٦ ق . م، وبعد ذلك بعامين وصل سايا كساراس إلى نينيفة (نينوى) ثم تحول جنوبا وأشترك مع البابليين للأستيلاء على آشور . وحتى هذا الوقت لم تكن الأمبراطورية الآشورية تحطمت تماما ولكن فى عام ٦١٢ ق . م شارك السيثيين والبابليين والميديين فى الهجوم على نينيفة . وأخيراً سقطت الأمبراطورية الآشورية أمام تحالف القوى وقد ألقى مليكها سين شار أشكون بنفسه فى النيران المشتعلة فى عاصمته وكان آخر ملوك الآشوريين .

وأنتهى بذلك تاريخ شعب أشعل الحروب فى الشرق الأدنى لأكثر من ٦٠٠ عاما بدون هوادة وكان يخرج دائما منتصراً .

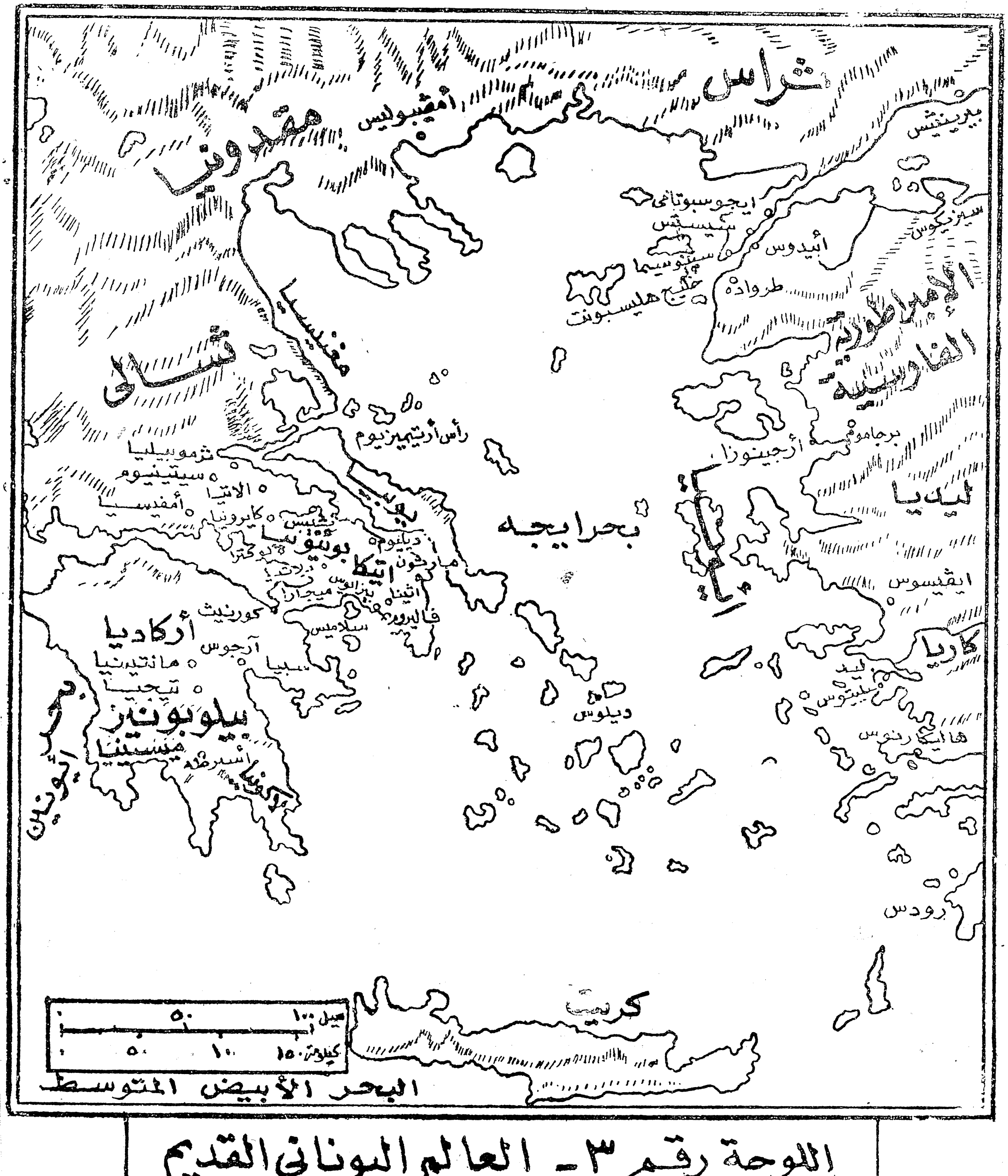

اللوحة رقم ٣ ـ العالم اليونانى القديم

الفصل الرابع

الأغريق القدامى

النصر أو الموت (أنظر اللوحة رقم ٣)

خلال الصفحات السابقة ، قمنا بعبور ما يقرب من سبعة آلاف سنة من تاريخ الحروب والتى أنتهت بأنهيار الدولة الآشوريه فى عام ٦١٢ ق . م وبينما كانت هذه الأحداث تقع فى الشرق الأدنى كانت سحب الحرب تتكاثف متجمعة بعيداً فوق الغرب .

ويمكن القول بأن عصر البطولة الأغريقية بدأ فى عام ١٤٠٠ ق. م عندما سيطر على بحر أيجه القادمين من كريت . وفى عام ١٢٠٠ ق . م بدأ هؤلاء وبعض شعوب إيجه فى الأغارة على كل من الأمبراطورية المصرية والحيثية مما أدى إلى أنهاك قواهما . وقد تحدث هومر عن أحدى هذه الغارات على مدينة طروادة .

وكانت المعارك فى هذا الوقت عبارة عن سلسلة من البطولات والشجاعة بين المقاتلين الأبطال أمثال أجاكس وديوميدس وهيكتور والأخير كان أعظمهم جميعاً . وقال هومر :—

— وقف أشيلس عاليا فوق مسرح الموت. . .

— الجميع يغطيهم التراب . . . ويملأ الرعب قلوبهم . . .

كان المحاربون يذهبون إلى ميدان القتال فى العربات الحربية ثم يترجلون ويخوضون قتالاً فردياً (فرد ضد فرد) بين هتافات أتباعهم وكان تسليحهم بسيطاً لتسهل حركتهم فيحمل كل منهم درعاً مستديرة ورمحين للقذف وسيفاً مستقيما ، أما القوس فأصبح سلاحاً محتقراً ولا يستخدمه إلا الجبناء ، فإذا لم تحسم الرماح الأمر تتبع بمبارزة بالسيوف لأنهاء الصراع . وظلت الرماح السلاح الرئيسى للأغريق بالرغم مما حدث من تغيير .

وبعد أنقضاء جيلين على حرب طروادة ، قامت الهجرة الدوريانية بغزو اليونان[1] وتلا

---

(١) وكانت تسمى بلاد الأغريق « المعرب »

ذلك أربعة قرون من الصراع العنصرى إلى أن تم الأندماج بين الغزاة والمقهورين ودخلت اليونان فى ذلك الوقت العصر الحديدى .

وحتى القرن الثامن ق . م كانت آرجوس[١] تحكم كل منطقة البيلوبونيز الشرقية ، وبعدها بدأ عصر أسبرطة[٢] . وفى الفترة ما بين ٧٤٠ — ٧١٠ ق . م قام الملك ثيوبومبس ملك أسبرطة بضم كل من ميسينا ولاكونيا إلى مملكته ، وبذلك ضمن لنفسه موارد الحديد والقوى العاملة من العبيد[٣] .

وفى عام ٦٦٩ ق . م مرت أسبرطة بفترة مؤقته من التداعى والأنهاك على أثر هزيمتها بواسطة فيدون ملك آرجوس فى وادى هيسيا علاوة على ثورة العبيد التى أستمرت ١٩ عاماً . ومع بداية القرن السادس ق . م أستعادت أسبرطة قوتها ثانية ودخلت فى طور السيادة العسكرية فى اليونان لمدة ٢٥٠ عاماً .

وفى الفترة ما بين ٦٢٠ — ٦٠٠ ق . م أدخل ليكورجس المؤسس الشهير لدستور أسبرطة نظاماً أجتماعياً وآخر سياسياً جديدين وهكذا أصبحت أسبرطة دولة عسكرية ، فأقتصر التعليم على إنتاج جنود أكفاء فقط ، بينما يقتل الأطفال المتأخرين جسمانياً أو عقلياً . ويتم تدريب الشباب من سن ٧ إلى ٣٠ على النظام وتحمل المشاق داخل تشكلات خاصة ، لذلك نجد أن جميع الذكور كانوا يخدمون فى الجيش وبهذا كونوا جيشاً محترفاً مدرباً قوياً ويدين بقانون « النصر أو الموت » وكان يقود هذا الجيش ملك أسبرطة شخصياً ، بينما يقوم العبيد بسد جميع الأحتياجات الإدارية الأخرى .

وعاشت أسبرطة فى أستقرار سياسى بفضل هذا النظام بالرغم من تعدادها القليل إلا أنها كانت قوية فسيطرت على البيلوبونيز وعلى العبيد . وفى عام ٥٦٠ ق . م تحالف الملك نكساندريدامع مدينة تيجيا[٤] فى البيلوبونيز الوسطى لأقامة نوع من الأتحاد تحت القيادة السياسية لأسبرطة .

---

(١) أحدى مدن الدوريانية

(٢) تقع هذه المدينة فى البيلوبونيز الجنوبى (المورة)

(٣) وكان يطلق عليهم أسم الأقنان ومفردها قن أى عبد

(٤) مدينة أدكارية فى وسط المورة « المعرب »

وفى عام ٥٤٦ ق. م. هزمت أسبرطة آرجوس فى معركة الأبطال ، إلا أن الأسبرطيين فى عام ٤٩٥ ق. م تحت قيادة كايوميئيس أستطاعوا تحطيم آرجوس نهائياً فى معركة سبيا .

ولكن فى هذا الوقت بدأ يلوح فى الأفق أول حرب كبرى بين اليونان والفرس .

الهوبليت

ففى عام ٥٥٢ ق . م أنتهز قورش العظيم مؤسس الأمبراطورية الفارسية فرصة زوال دولة آشور، وقام وبعده أبنه قمبيز على مدى ثلاثين عاماً بفتح كل من ميديا وبابل وليديا ومصر . وفى عهد الملك دارا الأول عام ٥١٢ ق . م أمتدت الأمبراطورية الفارسية غرباً حتى وصلت الدانوب. وفى عام ٥٠٠ ق.م طلبت المدن اليونانية فى جزر أيونيا[١] الحماية من اليونان الأم ، وبناء على ذلك قرر دارا الأول غزو جميع المدن اليونانية ، وأمام هذا الخطر الأول من نوعه ، أتحدت كل المدن اليونانية تحت قيادة أسبرطة وتمكنوا من صد الغزو الفارسى الأول فى ماراثون فى عام ٤٩٠ق. م وكذا الغزو الثانى فى سلاميس وبلاتيا فى الفترة بين ٤٨٠ — ٤٧٩ ق . م .

وقد حقق الأغريق هذه الأنتصارات العظيمة على قوات الفرس الجرارة لأستخدامهم أثنين من أروع وأفضل أدوات الحرب وهى فرق الهوبليت[٢] والسفن الثلاثية المجاديف .

وقد أعتمد تكتيك الهوبليت على مواجهة العدو بخطوط[٣] صلبة كثيفة من مختلف أنواع الدروع والحراب وكانت متتالية ، وعند الألتحام مع العدو يضرب كل مقاتل خصمه بالحربة فى رقبته .

وكان واجب الصف الخلفى الأسراع لملأ الثغرات التى تحدث فى الصفوف الأمامية بالأضافة إلى حمل الأسلحة الأحتياطية وتضميد جراح جنودهم وقتل جرحى الأعداء .

وأصبح من الأهمية والحيوية أن تصمد وتتماسك هذه الخطوط لأن كل مقاتل فى الخط

---

(١) كانت تحت الحكم الفارسى

(٢) الهوبليت : ـ وهم عبارة عن المشاة المدججين بالسلاح أو المشاة الثقيلة ويحمل الجندى رمحا طوله ٨ أقدام وسيفا ودرعا واقيا للصدر ، ودروعا لوقاية الارجل ودرعا قطره ٤ أقدام يثبت بالذراع الأيسر وخوذة متوجة بشعار .

(٣) كانت السرية المشاة فى بلاتيا تتكون من ثمانية صفوف « المعرب »

يعتمد أعتماداً كلياً على جاره .ولم يحاول المقاتلون أظهار مهارتهم الفردية أثناء القتال ولكنها كانت تظهر فى المجال الرياضى فقط .

وكان النظام والضبط والربط من العوامل الرئيسية للحفاظ على تماسك قوات الهوبليت وذلك لتفادى حدوث الثغرات فى الصفوف الأمامية وكان هذا يعتمد على الروح المعنوية للجنود .

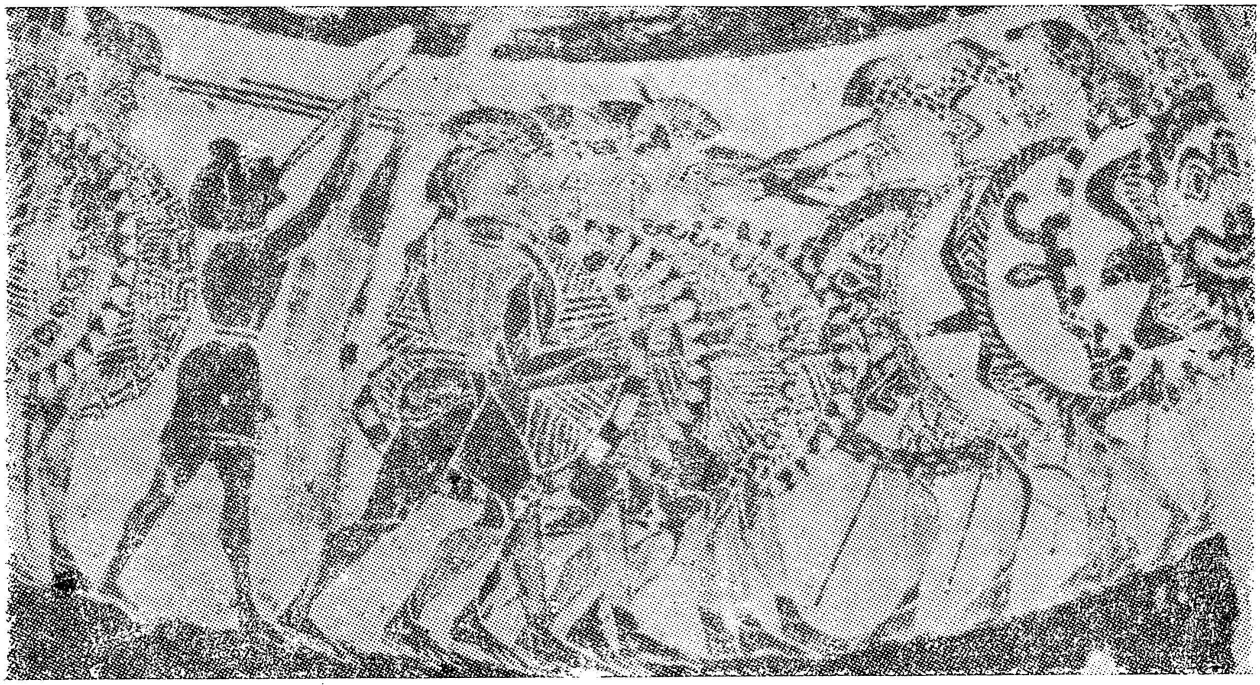

الهوبليت تقوم بالهجوم على نغمات الفلوت

وكانت المعارك عادة قصيرة وتتقرر نتيجتها على عدد القوات ورباطة جأشهم وتماسكهم وكان نجاح المعركة يتوقف على من يقوم بالضربة الأولى ، لذلك كانت الهوبليت تبدأ الهجوم على الفور بكل قواتها وفى حشد ، ولو حدث وكسر الخط الأول فالهوبليت يتراجعون ويفرون لعدم وجود أحتياطى وبالتالى كان من المستحيل القيام بهجوم مضاد ، ولم تكن هناك مطاردة للعدو المهزوم ، لأن هذا النوع من الحروب كان يقضى بل يستهلك قوى القوات المحاربة . وكان المهزمون يرضخون للأمر الواقع بسرعة ، وجرت العادة على أن يرسل المهزوم رسولاً يعترف للمنتصر بالهزيمة ويطلب التصريح بجمع قتلاه لدفنهم .

وهكذا نجد أن التكتيكات الحربية كانت محدودة جداً ، فلم يكن هناك أى نوع من المناورة بل أكتفوا بالهجوم المباشر فقط وأصبحت أسبرطة سادة هذا النوع من الحروب لتمتع

قواتها بالتدريب والنظام الراق ، وقد أدخلوا على أسلوب الهجوم تحسينات طفيفة وهذا أدى إلى تحقيق النصر عبر ثلاثة قرون .

كانت القوات المتقدمة تميل بطريقة طبيعية نحو اليمين ، فكل جندى يريد الإحتماء بدرع زميله الذى يجاوره ، وينتج عن هذا أن الجناح الأيمن للقوات يطوق تلقائياً وإلى حد ما الجانب الأيسر للعدو ، وقد أستغل الأسبرطيون هذا الميل ، فبعد تطويق العدو ، يحاصرونه فى مكان واحد ، ثم يقومون بهجوم ثابت بطىء على نغمات موسيقى الفلوت للقضاء عليه .

وأدى هذا الإستخدام التكتيكى المحدود إلى الحد من الإستراتيجية والإبتكار .

وكانت الأرض المفضلة للمعارك هى الأرض المنبسطة لأن الأرض الوعرة تؤدى إلى تكسر صفوف القوات المتقدمة فتضعف من صلابتها .

وكانت معركة حربية واحدة قصيرة كفيلة بحسم أمر الحملة العسكرية كلها . وعلى أى حال فقد أدت الطرق الوعرة والبلاد الجبلية والقوات الصلبة إلى الحد من التطور التكتيكى والإستراتيجى وعدم تحقيق المفاجأة . وكان يفضل فصل الصيف لشن الحروب ، فكان ذلك الوسيلة الوحيدة لإجبار العدو للخروج من أسوار المدينة للدفاع عن مزروعاتهم وقطعانهم والذى أخذ المهاجم فى إتلافها . أما عمليات الحصار فكانت نادرة ، ومثال لذلك عام ٤٩٥ ق.م فشل الأسبرطيون فى الإستيلاء على مدينة آرجوس ، ولا توجد أى سجلات أو آثار تدل على أن مدينة ماتم أجتياحها قبل عام ٤٢٤ ق. م. وعلى كل لم يقاتل الهوبليت أى سلاح آخر غير المشاة ، وكان من الممكن أن تكون الخيالة ذات تأثير فعال لو كان لدى الأغريق الجياد القوية ، ولكن بلاد الأغريق لم تكن بالبلد الملائمة لتربية الخيول لأفتقارها إلى المراعى ، أما فى أثينا فكان لديهم مجموعة من فرسان النبلاء الأرستقراطيين وقد أعتمد الثساليون على الفرسان فى قتالهم للهوبليت عام ٥١١ ق. م. ولكن الهوبليت هزمت وكانت هزيمة فريدة من نوعها . ولم تستطع العربات الحربية والرماة صد هجوم الهوبليت ، لأن العربات الحربية فى الواقع كانت تستخدم فى اليونان للأحتفالاف والمهرجانات الرياضية . أما الفرس الذين فتحوا آسيا باستخدام فرسانهم ورماتهم أستخدموا أسلوباً جديداً للحرب مع الأغريق ، إلا أنهم تلقوا هزيمتهم على أيدى الهوبليت فى موقعة بلاتيا فى عام ٤٧٩ ق. م.

فقد أستخدم بوسانياس توقيتا مناسباً، فبعد أن أمطر الفرس المدينة بالسهام وأخذوا يعيدون تجميع قواتهم قام هو بالهجوم بالهوبليت .

القيادة بين الفرس والأغريق

لقد عرفت اليونان عن قريب وقمت باستكشاف معالمها أثناء خدمتي فى منظمة حلف شمال الأطلنطى . وأستطيع أن أعلق على النظام العسكرى الأغريقى خلال عصوره القديمة بأنه بالرغم من أن هذه البلاد أكثر من ثلاث أرباعها جبلية إلا أن الأغريق أستخدموا أسلوباً تكتيكياً وتشكيلات تصلح فقط للقتال فى الأراضى المنبسطة ، ولذلك أصبحت المعارك عبارة عن مباريات باطشة ليس فيها مناورة أو نيران أو حركة ولا حتى فرصة لأظهار مهارة القائد، وكان على القائد أن يرسم خطة المعركة ويضع أفضل رجاله فى المكان المناسب ويشجعهم على القتال ببسالة ، وبعد ذلك يخوض معهم القتال مثله مثل أى مقاتل آخر. ولم يكن هناك هيكل قيادى ولا رتب متوسطة بين الضباط .

والجدير بالذكر أن الأغريق لم يكن لديهم أى دافع لتطوير نظم ووسائل الحرب، فالجميع ماعدا الأسبرطيون مقتوا النظام وكرهوا الحرب، ولكنهم كانوا يقاتلون بكفاءة إذا أضطروا لذلك فقط وكانت فلسفتهم فى هذا أن الأنسان الشجاع الذى يتحلى بأحاسيس نقية لاتؤثر فيه آلام أو مباهج الحياة ، لذلك لن يتداعى أمام الخطر ، وعندما سمع بيركاز نبأ مقتل شباب يونانى فى ساموس شعر وكأن فصل الربيع قد أنتزع من السنة ، أمابالنسبة للفرس فكانت نظرتهم للحرب مختلفة ، وعليه فأختلف تنظيمهم أيضاً ، فلم تكن المشاة هى السلاح الرئيسى فى جيوشهم ، لأن المشاه كانت غالبيتها من عبيد الأرض ورجال القبائل التى تسكن الهضاب ولم تكن فى قوة المشاة الأغريقية ، ولكن الفرس أعتمدوا على الفرسان وذلك يرجع إلى مجتمعهم الذى يقوم على الأرستقراطيين وكبار ملاك الأرض وأتباعهم وكانوا هؤلاء يشكلون سلاح الفرسان الذى خشاه الأغريق كثيراً . ومثال لذلك فى مدينة ماراثون عام ٤٩٠ ق.م أستطاعت المشاة الأغريقية القضاء على مشاة الفرس بسهولة علاوة على أن فرسان الفرس لم يستطيعوا تقديم العون لمشاتهم أو القيام بالمناورة أو حتى الهجوم لأن المعركة دارت فى أرض ضيقة على الشاطىء . وحدث مرة أخرى فى ثيرموبيليا فى عام ٤٨٠ ق.م

أن مشاة الفرس رفضت الألتحام مع مشاة الهوبليت الذين تقدموا تحت غطاء كثيف من رماة السهام من الأمام والخلف .

ونلاحظ أن أنتصارات الأغريق على الفرس تمت بأتباعهم مواقف دفاعية أو القتال على أرض من أختيارهم يصعب فيها أستخدام فرسان الفرس، وفى هذه الظروف كان هذا التكتيك والأسلوب غاية فى الحكمة .

استراتيجية الحرب البحرية

لم يكن هناك أسطول حربى فى عصر البطولة الأغريقية ، فالسفن كانت تستخدم فقط فى النقل .

ولكن فى القرن السابع ق.م ظهرت السفن الحربية ذات المقدمة الحادة التى يمكن بها أختراق سفن الأعداء وكانت مجهزة أيضاً بأسطح ليقصف منها الجنود سفن الأعداء أو يصعدون إليها إذا أقتربت منهم . وفى عام ٦٥٠ق.م كان أهم أساليب التكتيك البحرى هى الأختراق[١] ولذلك أصبحت السفن أطول وأسرع ومنها السفينة بنتكونتر التى يقوم بالتجديف فيها خمسة وعشرون رجلا على كل جانب من جوانبها . وفى الفترة بين ٥٥٠ — ٥٠٠ ق.م أدت المنافسة بين اليونان والأسطول الفينيقى التابع للفرس إلى تطوير السفن اليونانية وأصبحت قوية وتتمثل فى السفن ثلاثية المجاديف[٢] والتى سيطرت على مياه شرق البحر الأبيض المتوسط لمدة قرنين من الزمان، وأصبحت فيما بعد النموذج الذى تطورت منه باقى السفن الحربية والتى سيطرت على الحرب البحرية حتى موقعة ليبانتو فى عام ١٥٧١ ق.م. وقد قدمت هذه السفن مجالا كبيراً للملاحين ليقوموا بالمناورة لتميزها بالسرعة الفائقة وأول معركة أشترك فيها أسطول من هذه السفن كانت معركة « ليديا » عام ٤٩٤ ق.م عندما سحق الفرس الثورة الأيونية.

وخلال الأعوام السابقة لعام ٤٩٠ ق.م كان واضحاً أن الفرس على وشك القيام بغزو

---

(١) الأختراق : — يقصد الكاتب أن السفينة الحربية تصدم بمقدمتها الحادة سفن الأعداء فتحطمها

(٢) السفن ثلاثية المجاديف يقوم بالتجديف فيها ١٧٠ رجلا كل منهم يعمل على مجداف واحد وتلك المجاديف مركبة فوق بعضها على شكل صفوف متدرجة مزودة بمساند ممتدة بطول صفوف هذه المجاديف لمساعدتهم « المعرب »

اليونان براً وبحراً ، مما دفع ملتيادس[1] إلى تحصين مدينة بيزايوس (بيريه) وجعلها قاعدة أثينا البحرية .

فى عام ٤٩٠ ق. م نزل الفرس فى ماراثون وتبعد عشرين ميلاً إلى الشمال الشرقى من أثينا ، وكان ذلك جزءاً من الأستراتيجية البحرية المخططة لخداع الجيش اليونانى ، ليندفع نحوهم تاركاً أثينا التى يتم الأستيلاء عليها بواسطة الطابور الخامس من داخل المدينة تعاونهم عملية أنزال بحرى أخرى فارسية فى مدينة فاليرم وكان هذا يتطلب من الهوبليت الأثينية السير جنوباً بأقصى سرعتهم من ماراثون بعد أنتهاء المعركة هناك لكى يحولوا دون عملية الأنزال فى فاليرم ، وأستطاعت بشق الأنفس أن تلحق الأنزال الفارسى عند فاليرم .

وقد أدرك تيميستو كليس القائد الآثينى فى عام ٤٨٠ ق.م أحتمال حدوث غزو آخر ، إذا لم تصبح لأثينا أعظم وأقوى أسطول بحرى فى منطقة بحر أيجه ، وسيكون ذلك نذيراً بهلاك أثينا بل اليونان بأسرها .

أسطول من ١٢٠٠ سفينة حربية

ومرت اليونان بفترة هدوء عند تمرد مصر على فارس ، وبعدموت ملك الفرس دارا الأول عام ٤٨٦ ق . م إلا أن خليفة دارا وهو سيركسوس بدأ أستعدادات على نطاق واسع لغزو اليونان من البر ويساعـــده فى نفس الوقت أسطول حربى . وقد كلف الفرس هاربالوس[2] ببناء كوبرى خشبى محمل على السفن على خليج هليسبونت (الدردنيل) بين أبيدوس وسستس وكان هذا الكوبرى محملا على ٣٠٠ سفينة من النوع الثلاثى المجاديف ومن نوع بنتكونتر والمتصلة ببعضها بواسطـــة ستة سلاسل قوية . وفى ربيع ٤٨٠ ق . م تقدمت القوات الفارسية تحت قيادة سيركسوس نحو شمال اليونان بقوة بلغ عـــددها ١٦٠ر٠٠٠ سرية ، وطبقاً لما كتبه هيرودوت نقلت القوات فى ١٢٠٠ سفينة حربية و ٣٠٠٠ سفينة نقل إلى شمال اليونان .

وفى مجلس عام أغريقى تحت رئاسة أسبرطة وضعت الخطة الدفاعية عن اليونان ، قرروا

---

(١) ملتيادس : — قائد من أثينا .

(٢) هاربالوس المهندس اليونانى الذى يعمل لحساب الفرس « المعرب »

مقابلة الفرس فى الممر الضيق بالقرب من ثرموبيليا شمال أثينا بـ ٨٠ ميلاً وإلى الشرق من قناة يوبيا وذلك للتقليل من تأثير التفوق العددى للعدو . وكان الغرض من عملية ثرموبيليا هو أغراء سيركسوس بتطويق وتدمير الأسطول الأغريق فى معركة بحرية واحدة . وحيث أن كل شىء كان معداً من قبل فأرسل جزء من الأسطول اليونانى مكوناً من ٣٢٤ سفينة ثلاثية المجاديف و ٩ من نوع بنتكونتر تحت قيادة الأدميرال يوربيبادس الأسبرطى إلى قناة يوبيا ، أما القوة الضاربة للأسطول فكانت تحت قيادة تيميستوكليس الأثينى . وكان الفرس يهدفون السيطرة على ممر ثرموبيليا وحصار الأسطول اليونانى فى قنـاة يوبيا ، إلا أنه عندما كان الأسطول الفارسى يبحر شرق شاطىء مغنيسيا قامت عاصفة هوجاء وحطمت معظم سفنه ، وهذا أغرى تيميستوكليس لمهاجمة أسطول العدو وهو فى حالة فوضى . وعلى الفور قام بالهجوم ودارت بينهما معركة قاسية وغامضة أمام رأس أرتيميزيوم ، وبعد يومين من القتال أصبح الفرس قريبين من النصر ، وبينما كان اليونانيون يفكرون فى الأنسحاب وصلهم خبر سقوط ثرموبيليا بعد أن صمد الملك الأسبرطى ليدنيداس ومعه ٧٠٠٠ من الهوبليت (من بينهم ٣٠٠ أسبرطى) أمام جيش الفرس الجرار إلا أن أحد الخونة أرشد الفرس على طريق يمكن تطويق الممر منه ، وكانت النتيجة المحتومة أن جميع المدافعين قتلوا عن آخرهم وأستولى الفرس على الممر المتجه جنوباً ثم تحركوا نحو أثينا ، وما كان من الأسطول اليونانى إلا أن أبحر خلال الليل فى قناة يوبيا ثم ألتف حول أثينا متجهاً إلى الجنوب.

وقد قمت بزيارة ثرموبيليا عام ١٩٣٣ وشاهدت النصب التذكارى المقام هناك لتخليد ذكرى الأسبرطيين الذين ماتوا دفاعاً عن الممر وقد نقشت عليه العبارة التالية : —

« يا من تمرون من هذا الممر . . . أذهبوا وبلغوا أهل أسبرطة أننا هنا راقدون . . . ولقوانينهم منفذون . . . » .

سقوط سيركسوس فى الفخ (أنظر اللوحة رقم ٤)

لقد سبق أن ذكرنا فى بداية هذا الفصل القانون الأسبرطى « النصر أو الموت » لذلك لم يصبح أمام الأسبرطيين غير الأسطول الذى أتجه إلى الجنوب لأنقاذ اليونان ، ولكن

ظهرت مشكلة كيف يمكن أغراء الأسطول الفارسى للقتال فى معركة بحرية مع اليونانيين وفى منطقة من أختيارهم ؟

وقد وجد تيميستوكليس أن المياه أمام شواطىء جزيرة سلاميس هى أنسب مكان للمعركة ، لأنها تقع عند مصب خليج أيليوسيس ولهذا الخليج مدخلان ، فالمدخل الغربى يقع بين كل من ميجارا وسلاميس أما المدخل الشرقى فيقع بين كل من بيرايوس (بيريه) والبروز الناشىء من

اللوحة رقم ٤ - معركة سلاميس

سينورسورا ، وكان المدخل الشرقى للخليج مقسماً إلى قناتين ضيقتين جداً بواسطة جزيرة بيستياليا ، وعرض كل منهما لا يزيد عن ¾ ميل ومن الطبيعى أن الأسطول الفارسى الضخم سيتقيد فى هذه القنوات الضيقة بينما ستتاح للسفن اليونانية فرصة أفضل للقتال بواسطة ملاحيها المهرة . وعلى العموم لم يكن الفرس محتاجين إلى معركة بحرية أخرى ليؤكدوا أنتصارهم ، ولكن ياترى هل سيتجاهلون أسطول اليونان . . . ؟

وعلى كل فكانت الروح المعنوية لليونانيين سيئة جداً بعد قيام سيركسوس بأجتياح أتيكا وذبح جميع المدافعين عن أكروبوليس الأثينية،أما يوريبيادس فأصابه التردد والحيرة.. ولكن تيميستوكليس أتخذ قراراً جريئاً وربما يكون خطيراً ، فقرر أتباع خطة لأغراء الفرس لأسر الأسطول اليونانى ، فقام بالإبحار وترك القناة الواقعة بين سلاميس وميجارا بدون حراسة ثم بعث برسالة إلى سيركسوس فى ٢٢ سبتمبر عام ٤٨٠ ق. م يخبره فيها « لقد تملك الرعب من قلوب اليونانيين ، وبدأوا يفكرون فعلا فى الأنسحاب . . . » .

وسقط سيركسوس فى الفخ .

معركة سلاميس (أنظر اللوحة رقم ٤)

فى تلك الليلة نفسها قام أسطول سيركسوس بغلق مضيق سلاميس وبدأت القوات الفارسية فى النزول إلى جزيرة بيستياليا ، ومع خيوط الفجر كان معظم الأسطول الفارسى منتشراً فى ثلاثة خطوط متتالية بين سينورسورا وبيرايوس (بيريه).

بينما أرسل اليونانيون الأسطول الكورنثى لمواجهة السفن المصرية(١) فى القناة الغربية ، بينما أسرعوا فى نشر باقى الأسطول(٢) اليونانى فى القناة الشرقية بين مدينة سلاميس وهيرا كاين بالتنظيم الآتى يوريبيادس فى اليمين ومعه ١٦ سفينة أسبرطية ، وتيميستوكليس فى اليسار ومعه أكثر من نصف عدد السفن الثلاثية المجاديف ، أما باقى الأسطول فأخذ مكانه فى الوسط بين القائدين ، وحتى الآن لم يكن الأسطولان الفارسى واليونانى قد رأيا بعضهما ،

---

(١) كان ضمن الأسطول الفارسى بعض السفن المصرية

(٢) كان الأسطول اليونانى مكونا من ٣٦٦ سفينة من نوع الثلاثى المجاديف و ٧٠ أخرى من نوع بنتكونتر « المعرب »

ثم فجأة أفتتح الفرس المعركة ، وقد أضطروا بسبب ضيق القناة أن يقسموا أسطولهم إلى قولين بدلا من ثلاثة خطوط فإلى اليمين كان الفينيقيون وإلى اليسار كان الأيونيون. وما هى إلا لحظات حتى بدأت الفوضى والأضطراب يشيعان فى أسطول الفرس وربما نتيجة لهياج البحر أو بسبب حشدهم الزائد عن اللازم فى القناة . وكانت تلك اللحظة مناسبة فأندفع فيها الأسطول اليونانى وبدأت المعركة . وكانت خطـة السفن اليونانية ثلاثيـة المجاديف تقوم على أساس تحطيم مجاديف سفن الأعداء وبالتالى أفقادهم السيطرة عليها ، وتقوم بعد ذلك السفن اليونانية التى على الجانب الأيسر بأختراقها من الوسط والصعود على أسطحها. وبعـد ذلك أقتربت هذه السفن من الشاطىء فدفعت سفن الفرس إلى الجانب الأيمن ثم إلى المنتصف مما زاد من أرباكهم وتخبطهم، إلا أن القتال كان سجالا بينهما ولـكن بدا فى الجانب الأيمن لليونانيين بعض المتاعب إلا أنه بعد ٧ أو ٨ ساعات من القتـــال المستميت بدأت تظهر بوادر النصر لليونانيين فى كل منطقة القتال . فقد كان الأثينيون فى الجـانب الأيسر على وشك تطويق العدو من الخلف وأسره مما أدى أن الأيونيين كفوا عن القتال وبدأوا فى الأنسحاب وتم بعد ذلك تطهير جزيرة بيستياليا وأنسحب الفرس إلى فاليروم ولم تعرف خسائر هذه المعركة على وجه التحديد وعلى كل لم تـكن السفن اليونانية فى حالة تسمح لها بمطاردة العدو فأتجهت سفنها إلى ميناء سلاميس . وإذا نظرنا مليا إلى معركة سلاميس ، لوجدنا أنها ليست بالمعركة غير العادية أو المثيرة تكتيكياً ولـكنها كانت رائعة من الناحية الأستراتيجية . بعد ذلك ترك سيركسوس جزءاً صغيراً من جيشه فى اليونان بدون أى أسطول يـكفل له الأمن أو النقل أو الأتصال ، وبذلك تمـكن الأغريق من هزيمة هذا الجيش فى بلاتيا عام ٤٧٩ ق . م . وبعدها لم تتعرض ليونان لأى غزو من آسيا حتى القرن الخامس عشر بعد الميلاد .

حلف ديليان

ومن الجدير بالذكر أنه فى القرن الخامس قبل الميلاد كانت أثينا من أعظم القوى البحرية .
وفى عام ٤٧٨ ق. م تـكون حلف ديليان يضم كلا من شعوب أيجه وأيونين اليونانية .

وذلك بغرض طرد الفرس من منطقة أيجة ، وقد سمى هذا الحلف بأسم ديليان لأن أموالهم وخزائنهم وضعت فى جزيرة ديلوس المقدسة وكان على الدول الأعضاء فى الحلف أن

تسهم أما بالمال أو بالسفن . وبعد فترة برزت أثينا وأصبحت تقود هذا الحلف .

وفى عام ٤٦٧ ق . م قام سيمون القائد الآثينى أبن ملتبادس بهزيمة الفرس هزيمة فادحة عند نهر يوريميدون فى مدينة بامفيليا ، وبعد هذا بعشر سنوات أرسل أسطول يونانى لمساعدة الثورة التى قامت فى مصر . وفى هذا الوقت أكتمل بناء الحصون فى بيرايوس (بيريه) ولذا تم نقل خزائن الأموال من جزيرة ديلوس المقدسة إلى أثينا فى عام ٤٥٤ ق . م ، وبذا تحولت جميع أمكانيات حلف ديليان إلى أثينا ونتج عن هذا تكوين أمبراطورية أثينية تضم أكثر من ١٥٠ ولاية تقوم كل منها بدفع حصتها فى التحالف ، مما مكن أثينا من بناء أسطول عظيم . وقد كتب توسيديدس قائلاً : —

« إن النمو الذى وصلت إليه قوة أثينا كان بمثابة جرس الأنذار لأسبرطة ، وجعله أمراً لا مفر منه » .

وفى عام ٤٣١ ق . م أندلعت الحرب البيلوبونيزية (المورة) وكان على جميع ولايات اليونان تقريباً أن تشترك فى هذه الحرب خلال السبعة والعشرين عاماً التالية ، ولكن خلال العشر سنوات الأولى ظهرت أزمة كبيرة وأخفاق تام عانى منه أسطول أثينا فى البحر بقيادة القائدين بيريكليس وفورميو ، كما عانت منه أسبرطة وحلفاؤها تحت قيادة براسيداس وباجونداس فى البر . وبدأت هذه الحرب فى الفتور فى الفترة ما بين ٤٢١ — ٤١٨ ق . م ثم أستطاع الأسبرطيون أنتزاع النصر فى أكبر معركة برية فى هذه الحرب فى مانتينيا وردت أثينا على هذا النصر بغزو صقلية عام ٤١٥ ق . م قاطعة بذلك خطوط الأمداد وتجارة العدو .

معركة « الميناء الكبير »

ولكن اللامبالاة وعدم الأكتراث التى تميز بهما القائد نيكياس الأغريقى مكنت السيرقوصيين بقيادة جيليبوس الأسبرطى والقائد الأعلى للجيش فى صقلية من محاصرة الأسطول الأثينى وتدميره فى « الميناء الكبير » فى سيرقوصة ثم أبادة الجيش بعد ذلك . وتمكنت أسبرطة بدعم من الفرس من بناء ١٠٠ سفينة حربية فمكنتها من نقل مسرح الحرب إلى شرق أيجة وهذا أدى إلى قطع خطوط الأمداد الأثينية إلا أن أثينا كانت تخطط لكسب المعارك البحرية كيزيكس وبيزنطة وأرجينوس فى الفترة ما بين ٤١٦ — ٤٠٦ ق . م ،

ولكن فى عام ٤٠٥ ق.م فاجأ الأدميرال الأسبرطى ليساندر الأسطول الأثينى فى أيجوسبوتامى (فى الدردنيل) حيث ترسو ١٧٠ سفينة وأمكن أسرهم بدون أن يضرب سهماً واحداً. وفى عام ٤٠٤ ق.م وصل الضعف بأثينا إلى مداه وسقطت وتم للأسبرطيين الأستيلاء عليها، وأجبرت على قبول شروط السلام .. شروط ملؤها العار والذل، وهكذا أدى سقوط أثينا وإنقسام القيادات السياسية والثقافية إلى أنهاء أعظم فترة للحضارة اليونانية .

الحرب البيلوبونيزية الثورة

وأهم ما يميز الحرب البيلوبونيزية هو تاريخها الذى كتبه توسيديدس فكان أول مؤرخ واقعى، لأننا لو تصفحنا سجلات الأحداث التاريخية لآشور ومصر التى كتبها هيرودوت سنجدها عبارة عن تسجيل غير كامل ومتحيز لهذه الأحداث، لأن هيرودوت كان بارعاً فقط فى سرد القصص والروايات، ولكن توسيديدس كان يصف ويشرح الأحداث بطريقة موضوعية وبوضوح وتعمق، وتحليله للعقلية الأثينية من « الخطبة الجنائزية » المنسوبة لبيريكليس، علاوة على وصفه للكارثة التى حلت بأثينا فى صقلية، يعدان من أعظم التحف الأدبية والتاريخية .

وكانت فترة الحرب البيلوبونيزية (٤٣١ — ٤٠٤ ق.م) بمثابة المجد للأسطول الأثينى ولذلك يمكن القول بأن بيريكليس وضع كل ثقله وأعتماده على الأستراتيجية البحرية فقط، ولم يدرك أن أثينا لن يمكنها تحقيق النصر فى هذه الحرب بدون قوات برية قادرة ومدربة، وقد أدى أهماله للتوازن بين القوى البحرية والبرية إلى الهزيمة النهائية لأثينا .

لم تحسم الصدام التقليدى بين كتائب المشاة، الحرب البيلوبونيزية، وكانت هذه الحرب أعظم الحروب القديمة التى شهدتها اليونان من حيث أتساع مجال عملياتها ومدة أستمرارها. وفى هذا الوقت تطورت الحروب البرية أثناء الصراع الدائر بين أسبرطة وأثينا وثيبس (طيبة) للحصول على التفوق العسكرى والسيطرة على اليونان. وكانت ثيبس (طيبة) من أقدم المدن الأغريقية المحصنة وتقع على بعد خمسين ميلا إلى الشمال من أثينا وقد هيأ لها أمنها العسكرى(١) مركز قيادى، وأتاح لها أن تسود المدن المجاورة وتصبح أحدى القوى العسكرية الضخمة. وخلال الحرب البيلوبونيزية حدثت عدة حصارات، فنجد أن مدينة بلاتيا دافعت عن أسوارها ضد المقذوفات النارية الأثينية، كما

(١) موقعها الجغرافى وتحصيناتها القوية

أستطاع أهل سراقوصة تدمير كبش الأثينيين بواسطة المخلوط الحارق [١] .

وفى عام ٤٢٤ ق. م كانت مدينة ديليوم اليونانية أول مدينة يستولى عليها بواسطة الهجوم وليس الحصار ، فقد أمكن حرق السياج الخشبى الذى تم بناءه حولها بسرعة نتيجة النيران المندفعة نحوه خلال أنابيب ضخ كبيرة .

احذية الخيول

يمكن أن يقال أن هو ديونيسيوس الأول ملك سراقوصة كان أول يونانى برع فى فن التخطيط للحصار (٤٠٥ — ٣٦٧ ق. م.) . فقد جعل جزيرة أورتيجيا حصناً منيعاً أثناء دفاعه ضد القرطاجيين علاوة على بنائه قلعة حصينة على مرتفعات أبيبولى . وفى عام ٣٩٨ ق. م أستولى على مدينة موتيا بإقامة حاجز فوق المياه [٢] به أبراج للحصار تحتوى على كباشات ومنجانيقات وبعد عملية قذف مبدئية بدأ رجاله تسلق أسوار الحصن ليلاً . ويعتبر أستخدام أبراج الحصار والمنجانيق [٣] تطورا ثوريا ، وكان هناك نوعان من المنجانيق :—

النوع الصغير ويقذف السهام والرماح بالأضافة إلى الأحجار التى يبلغ وزنها ثمانية أرطال إلى أرتفاع يصل إلى ٢٥٠ ياردة ، ثم النوع الكبير ويمكن قذف أحجار وزنها ٥٥ رطلاً . وحتى ذلك الوقت كان الأستيلاء على المدن لايزال يتم بالوسائل العتيقة ومنها الحصار للتجويع والطابور الخامس والخيانة .

وأثناء هذه الفترة أبتدأت الأسلحة فى التنوع وزادت أهمية الفرسان والمشاة ذات التسليح الخفيف . وفى عام ٤١٥ ق. م أبحر نيكياس إلى صقلية ومعه ٣٠ حصاناً فقط ، ولكنه سرعان ما أكتشف حاجته الملحة لحماية قواته وبناء على ذلك جمع ٤٠٠ فارس من السكان المحليين وأرسل إلى بلاده يطلب المزيد وكان أجيلوس الأسبرطى من أبرع قادة الفرسان فى هذه الفترة ، ولكن الفرسان كانت تصطدم دائما بمشكلاتها التقليدية عندما تكون الحملات فى فصل الصيف حيث تشح المياه ويقل العلف بالأضافة إلى أن الأغريق لم يكن لديهم حدوة

---

(١) مخلوط حارق مركب من القار والكبريت ونشارة الخشب ومسحوق الصمغ ونسالة الكتان .
(٢) كانت موتيا عبارة عن جزيرة .
(٣) أبراج الحصار والمنجانيق اخترعها الفينيقيون . (المعرب)

معدنية للخيول أو ركاب فى السرج . أما أحذية الخيل فقد أخترعها سيلتس فى القرن الرابع ق. م. وظهر الركاب فى آسيا الوسطى فى نفس الوقت . والجياد الأغريقية لم تكن قوية بدرجة كافية لتتحمل ثقل الدروع، وبالتالى كانت معرضة لضربات الحراب خاصة بعد أن ينتهى الهجوم وتبدأ فى الأبتعاد ، وكانت الفرسان لا تلائم أرض اليونان بل يلائمها المشاة المسلحة تسليحاً خفيفاً وليست الهوبليت . وقد تعلم الأثينيون عام ٤٢٦ ق. م درساً قاسياً عندما أبيد ١٢٠ من الهوبليت تحت قيادة ديموستينس بواسطة حملة الرماح من رجال الأناضول . وبناء على ذلك قام ديموستينس بتشكيل قوات خفيفة ، وأدهش اليونانيين عندما أستخدمها وتغلب بها على الأسبرطيين فى سفا كتيريا عام ٤٢٥ ق. م .

المرتزقـــة

وكان أعداد المشاة المسلحة تسليحاً خفيفاً لا يكلف كثيراً ، وأزداد عددهم وتطورهم بزيادة نظام المرتزقة ، فالكثير من الأغريق الذين أشتركوا فى حرب البيلوبونيز لم يكن لديهم أى مهنة أخرى بعد أنتهاء هذه الحرب ، وبذا أصبحوا جنوداً محترفين ، علاوة على وجود مرتزقة أغريق من قبل ، وقد قاموا بحفر أسمائهم على أعمدة أبو سمبل وقد عمل بعضهم حرساً خاصاً لحكام الولايات الفارسية (١) وزاد عددهم فى هذه الفترة ، ففى عام ٤٠١ ق. م أستأجر قورش ١٠٫٠٠٠ أغريقى ليقاتلوا معه عند قيامه بالثورة ضد أخيه أرتخشتر ملك الفرس . وفى معركة كوناكسا (٢) ظهرت قوتهم وبأسهم إلا أن سوء أستخدام قورش لهم أدى إلى خسارة المعركة فأضطر هؤلاء المرتزقة إلى الأنسحاب من المعركة للنجاة بأنفسهم ، وقد كتب كسينوفون أحد قادتهم يصف أنسحابهم المرير لمدة خمسة شهور نحو البحر الأسود، وقد تعلموا الكثير خلال هذه الفترة عن الحرب خفيفة التسليح وخاصة حرب الرماح بقتالهم مع القبائل الجبلية أثناء شق طريقهم عبر الجبال . وفى الفترة ما بين ٣٩٥ — ٣٧٥ ق. م خدم ٢٥٫٠٠٠ أغريقى كمرتزقة خارج اليونان ، وعاد الكثيرون منهم بما تعلموه من فنون الحرب مثال ذلك من عادوا من رودس بفن المقلاع ومن كريت بفن رماية السهام .

---

(١) يسمون بالمرزبانات .

(٢) كونا كسا بالقرب من بابل . (المعرب)

وبعد فترة وجيزة من سنة ٤٠٠ ق. م ، قام أفيكروتس فى أثينا بتكوين مجموعة من المرتزقة حاملى الرماح وكانوا يرتدون جركن(١) ويحمل الجندى منهم سيفاً ودرعاً صغيرة ومدربين على المناورة السريعة ، وكانوا أكثر أنواع المشاة تأثيراً وفاعلية عدا المعارك الضخمة فى هذا الوقت . وفى عام ٣٩٠ ق. م. تمكنوا من أبادة ٦٠٠ من الهوبليت الأسبرطيين بالقرب من كورنيت .

الأحتياطى خفيف الحركة

وبظهور هذه الأنواع الجديدة من الأسلحة تغير الأسلوب التكتيكى وكان براسيداس الأسبرطى الذى أنتصر فى موقعة أمفيبوليس عام ٤٢٢ ق.م آخر قواد الهوبليت العظام والذى أستخدم الأساليب القديمة . وفى عام ٤٢٤ ق . م أستخدم القائد الطيبى باجونداس أسلوب تكتيكى جديد هزم به جيش أثينا فى ديليوم ، وذلك بتعميق الجناح الأيمن لقواته وأستخدام الفرسان كأحتياطى خفيف الحركة . وقد ظهرت أتجاهات جديدة فى التكتيكات الحربية فى اليونان ، فقد قام بلاتو برسم مهارة الإنسان فى الحروب كما قام توسيديدس بتحليل الحروب التى كانت تجرى من حوله ، وقد قال أكسينوفون :— « القيادة الحكيمة أن يهاجم العدو فى أضعف نقطة » . وقال افيكريتس : — « القوات خفيفة التسليح مثل الأيدى للأنسان والفرسان مثل الأقدام أما خط الجنود المدججين بالسلاح (المشاة الثقيلة) فمثل الصدر ، وعليه الدرع الواقية ، أما القائد فهو الرأس » .

وقد تكوّن جيش ديونيسيوس الأول ملك سراقوصة من مجموعات مندمجة من الهوبليت والمشاة الخفيفة والفرسان ، وكان يعتبر هذا تطوراً كبيراً فى فن التنظيم .

الحشد فى المكان والزمان المناسبين

وقد طور القائد الطيبى أيبامينونداس ، حرب المجموعات تطوراً ثورياً فى معركة لوكترا عام ٣٧١ ق.م فتميز أسلوبه التكتيكى بالبساطة، ولكنه أحتاج إلى براعة فى التنفيذ ، وأعتمد أساساً على الحشد فى المكان المناسب والحاسم للمعركة بدلا من بعثرة القوات فى كل مكان كما كان يحدث فى الماضى عندما يوزع القائد كل قواته فى كل مكان ، وبذلك يصبح ضعيفاً فى أى مكان ، تماماً كالزبدة المنتشرة على قطعة من الخبز .

---

(١) جركن عبارة عن معطف طويل ضيق من الجلد بدون أكمام . (المعرب)

وقد علم أيبامينونداس أن الجيش الأسبرطى يحشد قواته فى الميمنة بغرض تطويق ميسرته ، وعلى ذلك قام أيبامينونداس بمواجهة الأسبرطيين بخط مائل ، فأحتفظ بميمنته كما هى مع وضع قواته الضاربة فى الميسرة على شكل طابور مكون من خمسين صفاً تحميه قوة من الفرسان ، وبذلك تمكن من مواجهة مفاجأة الأسبرطيين بمفاجأة مماثلة ، محققاً النصر فى الميسرة مع أبقائه بأحتياطى كاف فى الوسط والميمنة .

ونجد أنه حدث فى موقعة لوكترا كما حدث فى موقعة روكروى عام ١٦٤٣ ق. م، فقد حطمت أسطورة « الجيش الذى لا يقهر » .

وفى السنة التالية حقق أيبامينونداس نصراً بطريقة كانت بمثابة نظرية أستراتيجية جديدة فقد تقدم بجيشه من ثيبس إلى لاكونيا محرراً ميسينيا (قاعدة القوة الأقتصادية لأسبرطة) وموحداً أركاديا ، وبذلك قام بعمل توازن لما بقى من قوة أسبرطة فى الجنوب .

الاستراتيجية غير المباشرة

لقد ضعفت السياسة اليونانية بموت أيبا مينونداس عام ٣٦٢ ق. م، إلا أنه فى عام ٣٥٩ ق. م أصبح فيليب الثانى ملكا على مقدونية وكان طموحاً وعلى أستعداد دائم لأنتهاز الفرص علاوة على وضوح بصيرته زد على ذلك أنه أدارى ومنظم من الدرجة الأولى .

وقد أدرك بفطنته أن كل دويلات اليونان التى تهدد كل منها الأخرى منذ ٧٠ عاماً ، لن تتحد لطرد أى غاز ولا سيما إذا كان جيشه قوياً . وكان أسلوب فيليب السياسى هو « الحيلة قبل القوة. . . ولكن أستخدام القوة فى النهاية » .

وفى عام ٣٥٠ ق.م أحتل فيليب إلليريا[1] وبعدها تراس (تراقيا) وتسالى. وفى عام ٣٣٨ق. م أنتصر على ثيبس (طيبة) وأثينا فى كارونيا ثم بعد ذلك فى بوئيوتيا التى أعطته أخيراً السيادة على اليونان ، وبعد أنتصاره دعا كل دويلات الأغريق للأجتماع فى كورنيث وأقترح عليهم الأتحاد تحت قيادته ، وذلك لغرضين : ـ أولا لمنع أى نزاع داخل اليونان، وثانياً للقيام بغزو الأمبراطورية الفارسية للأنتقام لما حدث فى القرن الخامس ق. م من أنتهاك الفرس لليونان. وقد ظل هذا الأقتراح لوقت ما مجرد فكرة ، ورفضت أسبرطة فقط الأتحاد مع فيليب

(١) إلليريا : وهى الآن يوغسلافيا . (المعرب)

عسكرياً . ولـكن قبل أن يستطيع فيليب تنفيذ فـكرته أغتيل عام ٣٣٦ ق. م وترك تنفيذ فـكرته لمن يخلفه وهو الأسكندر أبنه .

ولم تـكن هذه الفـكرة هى كل ماورثه الأسكندر عن أبيه ، فكان جيش فيليب وأفكاره العسكرية هى الأساس الذى أعتمد عليه الأسكندر فى كل منجزاته فى المستقبل . وكان على الأسكندر أن يطور الفن العسكرى الذى وضعه فيليب فى الحرب ضد أثينا . وكانت الملامح الرئيسية لهذه الأستراتيجية تتركز فى أختيار الموقع الجغرافى المناسب مع خفة الحركة ، والتنسيق والتعاون بين الأسلحة المختلفة . وكان فيليب يطمع فى السيطرة على الشمال الشرق والجنوب . وقرر تحقيق أطماع والده بأن يضرب عصفورين بحجر واحد ويحارب الأثينيين بقطع طريق الأمداد القادم من الدردنيل ، ولـكنه فشل فى تحقيق غرضه لأن الفرس تنبهوا وساعدوا الأثينيين على فك الحصار الذى ضربه على كل من بيرنثوس وبيزنطه ، إلا أن الأستراتيجية غير المباشرة تمت بطريقة عكسية ، فقد أستطاع التحكم فى سياسة الأثنيين بعد هزيمتهم فى كايرونيا ، فتحكم فى الدردنيل والطريق إلى أسيا الصغرى .

وتعتبر حملة فيليب فى كارونيا نموذجاً لخفة الحركة ، فالتحركات الطويلة السريعة كانت نادرة فى عهد الأغريق ، فعندما حاول فيليب دخول بوئيوتيا وجد أن كل من الطريق الغربى من سيتينيوم إلى أمفيسيا وأيضاً الطريق الشرقى من إلاتيا إلى كارونيا مسدوداً ، فقام بأخفاء نواياه وتقدم أولا إلى إلاتيا وتوقف هنا ، مما أدى أن المدافعين عن الطريق الغربى لم يأخذوا حذرهم ، وخلال الليل تحرك بمعظم قواته بسرعة نحو أمفيسيا وهاجم ١٠ر٠٠٠ من المرتزقة هناك وأبادهم وبذلك تخلص من الجانب الأيسر للخط الدفاعى الذى كان عائقاً أمامه لفترة طويلة ، والآن أصبح قادراً لبدء المعركة الفاصلة التى أعد لها مع أثينا وثيبس (طيبة). ولـكنه لم يتقدم فوراً نحو الشرق لمواجهة قوات العدو الرئيسية وبدلا من ذلك أستدار بجيشه إلى الخلف إلى إلاتيا ، ثم هبط بسرعة خلال ممر بارابوتامى وأنقض على عدوه فى كايرونيا .

وقد أظهرت قيادته للمعركة ولأول مرة أن الجيش الأغريقى قد تعلم كيف ينسق ويشرك كل أنواع الأسلحة فى أرض المعركة وبنجاح. وقد أصطف العدو فى هذه المعركة بخط صلب من الجنود بينما كانت المرتفعات والنهر تحمى جناحيه . قرر فيليب أحداث ثغرة فى صفوف

الأعداء ، فأصدر أوامره لكتيبة مدربة تدريباً عالياً فى الجانب الأيمن بالأسحاب مما أدى أن جناح العدو الأيسر تقدم خلفها فحدثت الثغرة ، فدفع فيليب أبنه الإسكندر[1] على رأس قوة من الفرسان فى الثغرة بينما دخلت باقى قوات فيليب خلف الفرسان بسرعة وبقوة .

القوات المسلحة فى عهد فيليب

كان الجيش المقدونى الذى قاده الأسكندر بعد وفاة أبيه فيليب يعد أحسن الجيوش تنظيما وتسليحاً وتدريباً وبطريقة لم تشهدها اليونان فى أى وقت سابق .

وقد وحد فيليب القوات المقدونية المحلية مع أتباعه الخاصة مكوناً قوة عظيمة تضم جميع الأسلحة وأصبحت وظيفة الجيش الأقليمى تكوين قاعدة وطيدة ينطلق منها الجيش الملكى (أتباعه الخاصة) بهجومه الحاسم، وكان الجيش الملكى مكوناً من الخيالة المرافقة[2] والهيباسبيست[3] وكان الفرسان المقدونيون فرساناً ممتازين ودورهم فى المعركة القيام بضربات حاسمة ومفاجأة على أجنحة العدو أو فى الثغرات التى تحدث بين صفوفه بعد أن تقوم القوات الأخرى بتثبيت العدو .وكان يوجد حوالى ثمانية كتائب من الفرسان المرافقة وتتكون الكتيبة من ٢٠٠ أو ٣٠٠ فارس تحت إمرة ضابط ، والفارس كان مسلحاً بدرع واقية وحربة قذف ،أما الهيباسبيست فكانوا مشاة منتخبين وممتازين ومهمتهم الرئيسية فى المعركة معاونة الفرسان وباقى الفرق ، ولكن فى بعض الأوقات يتبعوا الفرسان أثناء السير الليلى السريع أو أثناء أقتحام الحصون .

وكانوا عبارة عن ٣ لواءات يتكون كل لواء من ١٠٠٠ مقاتل أما حرس الملك فيتكون من كتيبة من الفرسان المرافقة وكتيبة من الهيباسبيست .

وكان الأسكندر يقود بنفسه الفرسان المرافقة وأحياناً يقود الهيباسبيست أو القوات الأخرى ، وقاد ذات مرة مجموعات من الرماة .

أما الجيش الأقليمى ، فكان هيكله الرئيسى من المشاة ، ويتكون من ١٥٣٦ جندياً مقسمة إلى كتائب كل منها ٥١٢ مقاتلا وهذه الكتائب تشكل فى الحرب فى صفوف كل صف مكون من ١٦ مقاتلا ولكل كتيبة قائد . وكان فيليب أول من أدخل نظام تسلسل

(١) كان الإسكندر فى ذلك الوقت عمره ١٨ عاماً .

(٣) يسمون صحابة الملك وهم الفرسان الكومبانيون .

(٣) الهيباسبيست جنود من المشاة وتسليحهم يشابه تسليح الهوبليت . (المعرب)

الرتب بين الضباط فى الجيش الإغريقى ، وقام بتسليح قواته مثل الهوبليت ولكن بطريقة حديثة فجعل الدرع أصغر حجماً واستبدل الرمح الذى طوله ٨ قدم بآخر طوله ١٣ قدماً وكان يطلق عليه أسم ساريسا . وكانت المشاة تقوم فى القتال بمهمة ثانوية ولكنها حيوية جداً ، وذلك بتثبيت جيش العدو ، بينما تقوم الفرسان بتوجيه ضربات حاسمة . وقد تمكن فريق من الفرسان المرافقة التى أسسها الأسكندر من ضرب فرسان الفرس بفضل مساعدة المشاة لهم أثناء القتال . وقام فيليب والأسكندر بتكوين فرق من الشعوب المتحالفة معهم ومن أهم هذه الفرق الخيالة الثقيلة من ثيساليا والفرسان من حملة الرماح من تراشيا ورماة السهام من كريت وحملة الرماح من أجريان .

الاسكندر اول من استخدم مدفعية الميدان

الأسكندر الأكبر

ويعتبر الأسكندر أول قائد يدمج قواته الخفيفة الحركة بالأسلحة الأخرى ، وقد أثبتت مقدرتها عندما دمرت العربات الحربية للفرس ، كما أثبتت كفاءة فى حرب الجبال ضد القبائل بينما أعتمد على المرتزقة فى حماية خطوط مواصلاته ، وفى السنوات الأخيرة من حروبه قام بتكوين قوة من فرسان البدو الفارسيين الرحل .

وأما وسائل الحصار التى قام بها الأسكندر فكانت مماثلة لوسائل ديونيسيوس الأول ، من الأبراج والمنجانيق والمقلاع وأسقف الوقاية ، ولم يحدث أبداً أن خذلته هذه التجهيزات .

وكان الأسكندر أول قائد يستخدم مدفعية الميدان فى جميع حملاته فكانت مقسمة إلى أقسام تحمل على ظهور الدواب . ولسوء الحظ ليس لدينا القدر الكافى عن الطريقة التى كان يتبعها الأسكندر فى إمداد القوات . وعلى كل كان للاسكندر ١٣ من كبار الضباط يعملون فى هيئة أركان حربه الخاصة بينما له مجلس إستشارى يتكون من ٨ آخرين . وكان يرافق جيش الأسكندر فى غزواته المهندسون العسكريون ، ومهندسو التعدين والبحث عن المياه وعمال للبناء وخبراء فى البحرية ، ومهندسون معماريون مثل دينوقراطيس مصمم مدينة

الأسكندرية علاوة على خبراء فى المساحة والجغرافيا وعلم النبات والأطباء ومجموعة خاصة لأعمال السكرتارية بالإضافة إلى مؤرخ رسمى .

وأدت هذه الإستعدادات الضخمة أن أصبح جيشه من أقوى وأكفأ الجيوش فى هذا العصر ، فقد كان معداً للقتال فى جميع أنواع البلاد وضد أى نوع من الجيوش ويتلخص الأسلوب التكتيكي للجيش المقدونى بقيادة الأسكندر فى الترابط بين المشاة الصلبة والخيالة الخفيفة والثقيلة ، وأدى هذا إلى وجود تعاون وثيق بين القاعدة التى تقوم بها المشاة وبين القوات الضاربة المتحركة التى تقوم بها الفرسان مما أدى إلى أن أصبحت تمثل خطراً كبيراً على الفرس الذين يعتمدون فى قتالهم على الحشد العددى ولكن الأعداد وحدها لم تعد ذات جدوى فى مواجهة الثبات، والتعاون وقوة النيران وخفة الحركة والمفاجأة مع القيادة الحكيمة .

الاسكندر يغزو الامبراطورية الفارسية (أنظر اللوحة رقم ٥)

لقد أمضى الأسكندر الفترة ما بين ٣٣٦ إلى ٣٣٥ ق . م . فى تأمين قاعدته الداخلية . وأستطاع قهر البرابرة وإجبارهم على الإنسحاب إلى ما وراء الدانوب بعد أن غبره رجاله على أطواف من أغطية الخيام المحشوة بالقش ، كما أذهل الإغريق بمسيرته الطويلة من حدود إلليريان حتى ثيبس (طيبة) فى ١٤ يوما ، كما أشاد به كاهن دلفى كقائد لا يقهر .

وفى ربيع ٣٣٤ ق . م قام بغزو آسيا الصغرى بواسطة ٣٠٫٠٠٠ من المشاة و ٥٫٠٠٠ من الفرسان و ١٦٠ سفينة ، ومن بين كبار الضباط الذين صاحبوه فى هذه الحملة ٤ من ملوك المستقبل وهم بطلميوس ليزيماخوس وسلوقوس وأنتوجينوس وكان عليه أن يغزو الأمبراطورية الفارسية من الدردنيل إلى البنجاب وقد شجعه على هذا الغزو ضعف دارا الثالث والفوضى التى كانت منتشرة فى أمبراطوريته بالرغم من وجود أعداد هائلة لدى الفرس وتعززها الثروة الطائلة . وكانت تكمن مقومات نجاح الاسكندر فى قيادته الجريئة التي تفوق الخيال وشجاعته النادرة وحسن تدريب قواته مع تطويره للأسلوب الاستراتيجى الذى غطى منطقة مساحتها أكثر من ٥ مليون ميل مربع ، وقد مكنه كل ذلك من خوض أربع معارك كبرى والقيام بعملية حصاره الشهيرة .

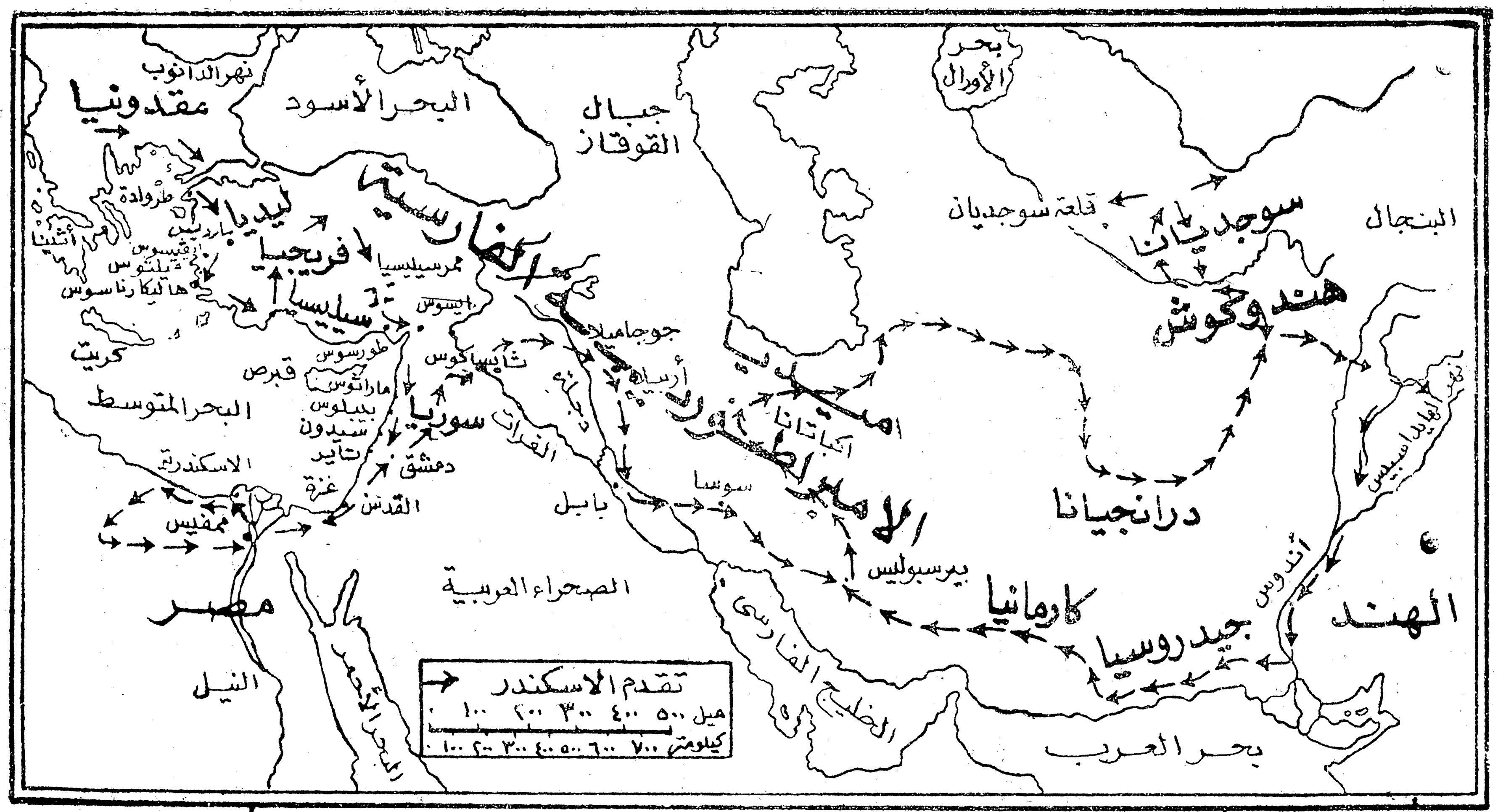

اللوحة رقم ٥ - غزوات الاسكندر

لم يتوقع دارا أى غزو لبلاده ، ولذلك لم يلتق الأسكندر إلا بقوات فارسية ضعيفة ومعها بعض المرتزقة الأغريق وقد قام بتشكيلها بعض المسئولين الفارسيين واستطاع هزيمتهم هزيمة ساحقة عند نهر جرانيكوس وبذلك سيطر على غرب آسيا الصغرى . وكانت هذه المعركة هى أول انتصار رائع للأسكندر . وقد قاد بنفسه هجوم الفرسان المرافقة على ميمنة العدو .

وبعد ذلك واصل الأسكندر زحفه حول آسيا الصغرى عن طريق ساردیس ، والمدن الساحلية (وهى ايفيسوس وميليتوس وهاليكارناسوس) ثم خلال فريجيا عندما أضطرت القبائل إلى التوجه للوديان الأكثر أمناً تحت وطأة الثلوج . وأخيرا هبط بسرعة فائقة ليفاجأ المدافعين عن بوابات سيليسيا وهم فى غفلة . وكان يهدف من وراء ذلك إلى تأمين خطوط مواصلاته قبل أن يوجه ضربته نحو الشرق البعيد مع تدمير الأسطول الفارسى القوى عن طريق إحتلال قواعده وتم له الاستيلاء على المدينة بطريقة كانت أبسط وأهدأ ما قام به من فتوحات ، وأكثر من ذلك فبعد الاستيلاء على المدينة أيدته الحركات الديمقراطية بها فدفع ذلك معظم أطقم البحرية الفارسية على الانشقاق على الفرس . وفى شتاء عام ٣٣٤ — ٣٣٣ ق. م قام الاسكندر بإيفاد جنود الأغريق المتزوجين إلى بلادهم فى أجازات ، وكانت هذه لمسة إنسانية ساعدته على كسب إخلاص جنوده وإكتساب حبهم.

ولأول مرة أخطأ الأسكندر فى تقديره عندما دفع قواته الرئيسية خلال سيليسيا إلى طرسوس مما أدى أن الملك دارا طوق الاسكندر وقطع خطوط مواصلاته ، ولكن فى نوفمبر عام ٣٣٣ ق . م وعند إيسوس(١) تمكن الاسكندر من تحقيق نصر آخر عظيم بفضل فشل الفرس فى إستغلال تفوقهم العددى وقد انتهت مشاكل الاسكندر المالية عندما استولى على خزائن دمشق ، ولم يحاول الاسكندر مطاردة دارا بل ركز إهتمامه لتدمير ما تبقى من قواعد أسطول العدو فى فينيقيا وتم له أخضاع كل من ماراثوس وبيبلوس وسيدون بسرعة ، أما تاير (صور) فقد بدت صعبة إلى حد ما .

---

(١) إيسوس : تقع فى تركيا قرب أطنة . (المعرب)

حصار مدينة تاير (صور)

ويعتبر حصار مدينة صور مثال كلاسيكى لقوة وعزيمة ومهارة الأسكندر وظهرت براعته وذكائه فى إستخدام الأسلحة ، كما يعتبر أعظم حصار تم فى العصور القديمة .

وبمقارنة ما قام به ديميتريوس ضد رودس عام ٣٠٥ ق. م فنجد أن الحصار كان على مستوى أوسع ولكن أقل فى مهارته من حصار صور . فقد أوضح الأسكندر لقواده ضرورة أحتلالها حتى يفقد الأسطول الفينيقى قاعدته فيضطر إلى اللجوء إلى اليونان أو يهيم على وجهه فى البحر بدون وجهة معينة ، وبذلك سيتم تأمين كل من قبرص وأيجه ويصبح الطريق إلى مصر مفتوحاً ، وعموما فقد جلب حصار صور مشاكل جسيمة على الأسكندر ، لأنها مقامة على صخرة تبعد عن الشاطىء بنصف ميل ويحيطها سور طوله ٢¾ ميل ويصل أرتفاعه فى بعض أجزائه إلى ١٥٠ قدما . وكان هناك ميناءان فى الجانب الشرقى يطلق على الشمالى منهما ميناء صورنيان والجنوبى يطلق عليه المصرى. فى يناير عام ٣٣٢ ق. م. بدأ الحصار وقام الاسكندر وكبير مهندسيه دياديس فى بناء سد من الشاطىء حتى الصخرة ، وكان العمل يتقدم بسهولة فى أول الأمر إلا أن المياه أصبحت أكثر عمقاً وابتدأ العمال يواجهون المتاعب من العواصف والقذائف المنهمرة عليهم من الأسوار ومن السفن الحربية الصورية . وتمكن رجال الاسكندر بعد جهد شاق من تحريك برجين من أبراج الحصار حتى نهاية المرفأ . وكان ارتفاع كل من البرجين ١٥٠ قدما ومغطى بالجلود لوقايته من السهام المشتعلة ، وقد قصفت مجموعات المنجانيق المدافعين عن الأسوار وكذا السفن المعادية ، فما كان من الصوريين إلا أن أرسلوا سفينتين حريق(١) وأحرقوا برجى الحصار بينما أبحر بعض جنود العدو فى قوارب صغيرة وأزالوا ما تبقى من السد .

وأصبح واضحاً للأسكندر أنه يحارب خصما عنيداً قوياً ، وعندئذ أصدر أوامره ببناء سد أكبر ، ثم أبحر بنفسه شمالاً نحو صيدا لجمع الأسطول ، ولم يستغرق الأمر طويلا حتى كون أسطولا من ٢٢٠ سفينة لقتال الصوريين ، ولكن عندما عاد الاسكندر رفض أزميلك ملك صور أن يستأنف المعركة فحاصر الاسكندر الميناءين بالرغم من صعوبة ذلك لعدم

---

(١) محملة بالكبريت والقار ونشارة الخشب . (المعرب)

وجود أماكن لرسو السفن . وفى ذلك الوقت تم بناء السد الجديد مع وضع بطارية مدفعية من أبراج الحصار بالمنجانيق وهذه البطارية لم تستطع قذف نيرانها إلا على بعد ٢٠٠ ياردة فقط ، ولذا قام الاسكندر بتركيب كباشات على ظهر السفن لتدور حول الصخرة القائم عليها المدينة لتقتحم الأسوار لكن للمرة الثانية كان الصوريون على أتم الاستعداد وقاموا بإلقاء الحجارة فى مياه البحر حتى يصبح من المستحيل الأقتراب من الجزيرة وأمطروا المهاجمين بوابل من السهام النارية . وعلى الفور أحضر الاسكندر سفناً لتطهير المياه من الحجارة ومعها سفن حربية لحراستها ولكن الغواصين الصوريين قاموا بقطع حبال السفن المزيلة للعوائق ، وعندما أستبدل الأسكندر هذه الحبال بسلاسل حديدية ولم يستطع المدافعون الصوريون القيام بأى رد حيال هذه السلاسل وبعد ذلك أبحرت ١٣ سفينة حربية صورية من ميناء صورنيان وفاجأوا أسطول الاسكندر بينما كانت البحارة يتناولون أحدى وجباتهم على الشاطىء ، ودمروا بعض السفن ولكن الأسكندر قرر الرد على هذا الهجوم بحصار الميناء المصرى وقام بنفسه بقيادة بعض السفن ودار حول المدينة وفاجأ مؤخرة سفن العدو . وتمكنت السفن ذات الأبراج والمركب عليها الكباشات العثور على أحدى النقط الضعيفة فى السور . . . وبالتحديد جنوب الميناء المصرى . وفى الحال قام الاسكندر بهجوم شامل فدفع الأسطول القبرصى والفينيقى لتطويق الميناء وعندما وصلت هزيمة صور إلى حد مناسب ، أحضر الأسكندر سفينتى نقل محملتين بالكبارى ومجموعات أقتحام وأوصلا السفن بالسور المتصدع وقاد الاسكندر مع مساعده أدميتوس والحرس الملكى من قوات الهيباسبيست ، وتبعهم كوينوس بكتيبة أخرى .

وسار الهجوم بنجاح حتى وصلوا إلى قصر أزميلك وتم أحتلال المدينة وبذلك سقطت صور بعد حصار دام سبعة شهور .

وقد أستاء اليونانيون من الطريقة التى أتبعها الصوريون فى ذبح الأسرى وقد ثأروا من الصوريين بأن قتلوا ٨٠٠٠ منهم مع بيع ٣٠٫٠٠٠ كعبيد .

غزو آسيا

وبعد معركة أيسوس فى عام ٣٣٣ ق . م . عرض دارا الصلح والتحالف ولكن

الاسكندر لم يعر هذا الاقتراح إلتفاتاً قائلا لعدوه : « يجب على الملك أن يخاطبنى بأننى سيد آسيا » وقدم دارا أثناء حصار صور شروطاً أكثر أغراء وهى ١٠٫٠٠٠ تالنت(١) ويد أبنته بالإضافة إلى وضع غرب الفرات تحت حكم الأسكندر .

وقد ألح بارمنيون على الاسكندر لقبول هذه الشروط ، لأن اليونانيين أعتقدوا أنهم وصلوا إلى غرضهم من الحرب وباحتلال آسيا الصغرى . ولكن طموح الاسكندر كان غير ذلك .

فقام أولا بالتقدم خلال سوريا ومصر ، وأخضعهما بسهولة بالرغم من أصابة الاسكندر بجراح فى غزة ، ثم بعد ذلك تحول إلى فارس ليتحدى دارا على عرشه .

وفى صيف ٣٣١ ق . م أرسل الأسكندر قوة يقودها بارمنيون لقطع طريق المواصلات على الفرات عند ثابساكوس مع إقامة جسر هناك وكان الاسكندر أول قائد يطبق نظام السير بمجموعات منفصلة والقتال بحشد . وفى يوليو عبر الأسكندر النهر بنفسه متقدما نحو الشمال الشرقى إلى دجلة وتساقط أمامه الحرس الفارسى المتقدم . وفى ١٩ سبتمبر عبر باقى جيشه النهر ، وبعد ذلك بأربعة أيام أخبرته وحدات الاستطلاع بأن جيش العدو معسكر فى أحد السهول بالقرب من جوجاميلا .

وكان يجب على الفرس أستخدام أسلوب أنهاك العدو بالإغارة عليه بدلا من الدخول معه فى معركة فاصلة ، إلا أن دارا قرر القتال فسر الاسكندر من ذلك قائلا لقواته « هذه المعركة ستقرر مصير آسيا كلها » .

معركة جوجا ميلا (أنظر اللوحة رقم ٦)

وفى خلال العشرون شهراً التالية لمعركة إيسوس ، بذل الفرس مجهوداً كبيراً فى بناء جيش قوى ، ولكنهم نسوا منذ زمن طويل الأساليب الحربية القديمة التى ساعدتهم على أقامة أمبراطوريتهم فى القرن السادس ق . م علاوة على إنقراض الرماه المشهورين و ١٠٫٠٠٠ من « الخالدين » الذين يمثلون صفوة المشاة الثقيلة مع صغر حجم الحرس الملكى . وعلى كل فقد كانت مشاتهم تضم الجنود غير المدربين أو رجال القبائل غير المنظمة . أما الفرسان

---

(١) تالنت عملة نقدية قديمة . (المعرب)

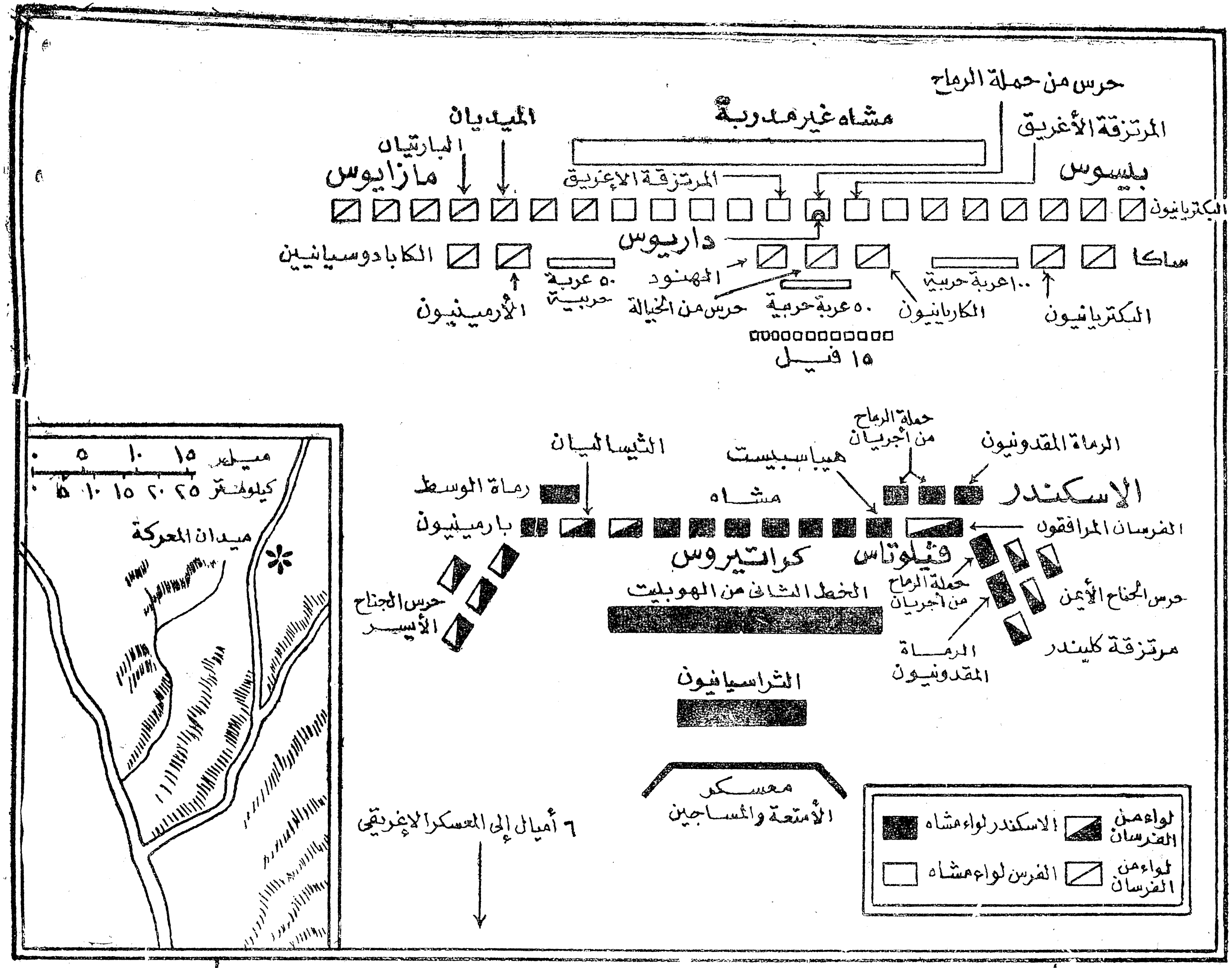

اللوحة رقم ٦ - معركة جوجاميلا

فكانت هى الوحيدة المتماسكة فى قواتهم وخاصة فرسان الحرس الملكى والكابادوسيانيين وهؤلاء كانوا مسلحين برمح طاعن ودرع وسيف طويل . وأعاد دارا العربات الحربية التى لم تكن مستخدمة منذ زمن طويل ، لتكملة فرق الفرسان ، ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت لتدريب سائقيها التدريب الكافى . وكما قال فوللر فمشكلة الجيش الفارسى تنحصر فى وجود خفة حركة كبيرة ولكن يفتقر للاتزان مع تمركز القيادة العليا للجيش فى يددارا .

وقد أدى طبيعة وتشكيل الجيش الفارسى(١) إلى التحكم فى استراتيجيتهم فى هذه المعركة، فقام دارا (داريوس) بتمهيد سهل جوجاميلا حتى تصبح الأرض ملاءمة لتحرك العربات الحربية، وأستغل تفوقه العددى وأقام جبهة طويلة بجناحين قويين من الفرسان ، وقاد بنفسه منطقة الوسط المشكلة من المشاة المدربين والحراس من حملة الحراب بالإضافة إلى ٢٠٠٠ مرتزق أغريقى من الهوبليت ودفع أمامه ١٠٠٠ فارس من الحرس الملكى وقوات الفرسان من الهنود والكاريانيين . بينما كانت الميسرة تحت قيادة بيسوس مشكلة من مجموعات من الفرسان القادمة من المقاطعات الشرقية للامبراطورية من بينهم ١٠٠٠ فارس مصفح يحملون دروعا ثقيلة ويطلق عليهم ساكا . أما الميمنة فكانت تحت قيادة ما زايوس ومشكلة من الفرسان الغربيين بما فى ذلك الكابادوسيانيون ووضعت المشاة فى المؤخرة ووضعت ٢٠٠ عربة حربية فى المقدمة أما فى المركز فكان هناك ١٥ فيلا ، ولو عرف دارا كيف يستخدم الفيلة لأصبحت ذات فاعلية(٢) ضد فرسان الأسكندر ، وعلى كل فليس لدينا سجلات تبين أن الفيلة أشتركت فى المعركة أو لا أما الاسكندر فكان لديه جيش من أكبر ما قاده من الجيوش فقد جند عدداً من المرتزقة الأغريق ودعمهم بثلاث وحدات من الفرسان وكان مجموع قواته ٤٠٫٠٠٠ من المشاة و ٧٫٠٠٠ فارس وكان يدرك أن الفرس فى بداية المعركة سيهاجموه بالفرسان والعربات الحربية ليطوقونه ، ولذلك أتخذ الأسكندر الدفاع الهجومى ، فكون جبهته من المشاة الصلبة القوية وعلى مواجهة تبلغ نصف طول جبهة العدو ومدعمة بصفوف عميقة حول الأجنحة . وكانت منطقة الوسط مقسمة إلى يمين ويسار وقلب

---

(١) تضمن الجيش الفارسى من ٢٤ جنسية .

(٢) من المعروف أن الخيل تخاف الفيلة وتجمح . (المعرب)

وكان القلب به ستة لواءات من المشاة ولواء من الهيباسبيست أما فى اليسار فكان بارمينيون يقود الفرسان الثيساليون ونصف الفرسان المتحالفين وبعض الرماة والمشاة المرتزقة أما فى اليمين فكان فيلوتاس يقود القوة الرئيسية للفرسان المرافقين وفى مقدمتهم حملة الرماح ونصف الرماة المقدونيين . أما الجناح الأيسر (الميسرة) فكانت مشكلة من عدد كبير من فرسان الحلفاء أما الجناح الأيمن فمشكل من الفرسان بما فى ذلك الفرسان المرتزقة كايندر المحنكين ، وبقية الرماة وحملة الرماح من أجريان وكان هناك خطر ثان من الهوبليت المرتزقة لمقاومة أى تطويق لأجنحة جيش الاسكندر . ووضع خلفهم الأمتعة ومهمات الجيش والأسرى تحت حراسة المشاة من جنود تراسيا ، وعلى بعد ستة أميال كان يقع المعسكر الأغريقى .

وكانت خطة الاسكندر تتمشى مع مبدأ نابليون « دفاع سليم قوى وحذر جدا يعقبه هجوم مضاد جرىء وسريع » .

وفى الليلة السابقة للمعركة ، أصدر دارا أوامره بأن تبقى جميع القوات على أهبة الأستعداد خلف أسلحتهم ، وكان هذا تصرف أحمق ، وغير ضرورى ، فقد أدى إلى أصابتهم بالإرهاق قبل بداية المعركة . أما الأسكندر فبعد أن أعد جميع ترتيبات وتنظيمات المعركة أمر براحة أجبارية لجنوده وناموا جميعاً نوماً عميقاً حتى صباح أول أكتوبر ٣٣١ ق . م حيث بدأت المعركة ولاحظ الاسكندر أن فرسانه المرافقين يواجهون عربات الفرس الحربية ، فأمر بأنحرافهم نحو اليمين حتى تصبح مشاته فى مواجهة العربات ، وهذا دفع بفرسان الاسكندر إلى الطريق الممهد فى السهل ، فقرر دارا أيقاف تقدم الفرسان من جهة اليمين وإلا أصبح هجوم عرباته ليس له فائدة ، فدفع مجموعات من السا كا وخلفهم الفرسان والبكتريانيون لمهاجمة الجناح الأيمن للأسكندر ونشب قتال ضار ، قام خلاله الأسكندر بمهارة فائقة بتعزيز قواته بوحدات جديدة فأتت بنتائج فعالة فى القتال وبعد قليل حطم فرسان الاسكندر الفرس وأجبروهم على الأنسحاب وأبتدأ فى ذلك الوقت هجوم العربات الحربية الفارسية ولكنها فشلت فشلا ذريعاً ، فقد قابلهم جنود الاسكندر بوابل من الرماح مما جعل هذه العربات تتخبط وتتحرك فى فوضى . وقد أصاب الخيل الفزع والذعر وسقط معظم قواد هذه العربات صرعى ، وعندما وصل ما تبقى منهم إلى صفوف

جنود الاسكندر فتحت لهم هذه الصفوف ثغرة مروا من خلالها فإستقبلتهم مشاة الخط الثانى وعندما رأى دارا أن الاسكندر دفع باحتياطيه الموجود فى الميمنة إلى المعركة ، قرر القيام بأكبر هجومين لتطويق جيش الأسكندر .

فدفع بجبهة الفرسان الفارسية بالكامل للأمام ، وهنا كانت أحرج لحظات المعركة ، فبدلا من أن يركز الجناح الأيسر الفارسى هجومه على فرسان الأسكندر المرافقين ، أندفعوا إلى أقصى اليمين حيث الجيش الأغريقى ، وترجع هذه الغلطة لسوء فهم الأوامر أو كما أرجعها فوللر لرغبة الفرسان الفارسية لسلوك طريق الهجوم السابق ، كما حدث مع بعض الفرنسيين فى معركة ووترلو ، أو ربما لأن الخيول لم تستطع مواجهة القذائف فى المنتصف . وعلى أى حال فكانت النتيجة حدوث ثغرة فى الجبهة الفارسية . وقد وصف آريان كيف أنتهز الأسكندر هذه الفرصة فى الحال قائلا : — عندما كسر الخط الأمامى الفارسى على أثر إنطلاق فرسانهم لمساعدة قواتهم التى تحاصر الجناح الأيمن للاغريق ، ألتف الأسكندر على الفور نحو الثغرة ومعه فرسانه المرافقون وجزء آخر من الهيباسبيست وقادهم بنفسه فى هجوم خاطف نحو دارا نفسه . وكان هجوم الفرسان المقدونيين تحت قيادة الأسكندر ضاريا وكان فى بعض الأوقات يصل إلى القتال يداً بيد ، وأندفعوا بجرأة نحو الفرس يضربون وجوههم بالحراب وقد أشترك معهم بعد ذلك قوات مقدونية مساحة بالحراب الطويلة . وأصبح كل شىء مملوءاً بالرعب وقد قتل معظم جنود حرس الفرس وفر دارا من المعركة .

وعلى كل حال فالمعركة لم يتم كسبها بعد ، فعندما تقدمت القوات التى رافقت الأسكندر فى هجومها الخاطف تركت ثغرة فى جبهة الأسكندر مما أدى إلى أن أندفع خلالها فرسان الفرس شاطرين قوات الأسكندر إلى قسمين ، ولكن ظهرت حماقتهم عندما لم يعاونوا ما زايوس فى القضاء على الجناح الأيسر للأسكندر ، وبدلا من ذلك أندفعوا إلى الخلف ليجمعوا الغنائم . فى هذا الوقت أحاطت قوات الفرس بالجناح الأيسر وحاصروا بارمينيون وقواته فأرسل نداء يائساً يطلب العون من الأسكندر ، ووصل هذا النداء والأسكندر يتابع هجومه الناجح على يسار الفرس . وهنا ظهرت براعة الأسكندر الحربية وقيادته الحكيمة عندما قاد الفرسان المرافقين إلى الجانب الآخر من منطقة المعركة ، وهناك أشتبكوا مع قوات الحرس الفارسى

العائدين ومعهم فرسان الهنود والبارتيانيين وطبقاً لما قاله أربان : —

« وهنا حدث أعنف أشتباك بين الفرسان فى المعركة كلها » وقد أدركت القوات الفارسية أن دارا قد تخلى عنها فضعفت روحهم المعنوية وعزيمتهم ، وفى هذه الآونة قام الثيساليين فى الجناح الأيسر بهجوم ثان ولكنه كان ناجحاً هذه المرة وسطقت الميمنة الفارسية ، بينما أنسحب بيسوس بالجناح الأيسر . وفى الحال أصدر الأسكندر أوامره بالمطاردة الشاملة للفرس كما قال تارن : — « لقد أدرك الأسكندر أن العدو أصبح غير قادر على القتال » وقد ظل رجاله يطاردون الفرس لمسافة ٣٥ ميلا حتى أربيلا ، ولم يتوقفوا إلا لحظات قصيرة عند منتصف الليل للراحة .

نتائج معركة جوجاميلا

تعتبر معركة جوجاميلا من أعظم المعارك التى حدثت فى العالم ، وليس هذا لأنها تعتبر مثال كلاسيكى لعبقرية الأسكندر الحربية ، ولكن لنتائجها التاريخية . فقد كشفت هذه المعركة عن قلب الأمبراطورية الفارسية وجعلت من الأسكندر سيد آسيا .

أما دارا فقد هرب فى أتجاه الشمال الشرقى داخل تلال ميديا ولم يغر الأسكندر ذلك ليحيد عن غرضه الرئيسى ويتبع دارا ، بل تقدم ليستولى على أهم مراكز فارس وهى بابل وسوسا وبيرسبوليس وقد أستسلمت جميعها بسهولة . وعندما كان فى الطريق إلى بيرسبوليس قام بحملة خاطفة ضد القبائل التى تسكن المرتفعات . ووصل الأسكندر إلى بيرسبوليس حيث أحرق قصر سيركسوس وأمضى شتاء هذا العام هناك ليؤكد أن اليونان أنتقمت أنتقاما كاملا من فارس .

وفى صيف ٣٣٠ ق . م تقدم الأسكندر إلى إكباتانا فى ميديا ليلحق بدارا . وهناك أنتهى الأسكندر من مهمته وقام بدفع أجور من رغب من جنوده اليونانيين فى العودة إلى بلادهم .

الاسكندر يغزو الشرق

شرع الأسكندر من أكباتانا فى غزو الشرق ، فوصل إلى إندوس (نهر السند) فى أوائل صيف عام ٣٢٦ ق . م بعد أربع سنوات من القتال . وقد قام هو وجيشه خلال الطريق بأعظم

البطولات الحربية ، فقد قطع ٤٠٠ ميل فى ١١ يوما أثناء مطاردته لدارا فى أتجاه كاسبيا (قزوين) ثم قاد بعد ذلك ٥٠٠ من جنوده على ظهور الجياد لمسافة ٥٠ميلاأخرى ليلا .

وفى عام ٣٢٩ ق . م هزم الأسكندر جماعات الرحل فى أوكسوس بقذفهم بالمنجانيق المركب على القوارب ، ثم هاجمهم بعد ذلك بالفرسان الثقيلة ويعاونها مجموعات من الرماة وحملة الرماح لزيادة قوتهم وفاعليتهم .

وفى شتاء ٣٢٨ ق.م أسر رجال الأسكندر جميع من فى قلعة سوجديان (بخارى)المقامة على صخرة عالية بتسلقهم للجبال المغطاة بالثلوج التى ترتفع ٣٠٠قدم بواسطة الحبال . وفى عام ٣٢٧ ق.م عبر الأسكندر هندوكوش ومعه ٢٧٫٠٠٠ مقاتل ، وبعد قتال مرير مع قبائل باجور وصل فى العام التالى إلى نهر الهايداسبيس . وهناك حقق انتصاره الرابع العظيم ، فقد عبر النهر عندما كان العدو يحشد قواته على الضفة المقابلة ، وبالرغم من فزع فرسانه من الفيلة إلا أنه تمكن من العبور بعد القيام ببعض الهجمات الخداعية ، وأخيراً حقق النصر فى المعركة بعد قتال مرير .

ولكن بعد فترة وجيزة تمرد جيشه عليه عند نهر بياس ورفض التقدم أكثر من ذلك فقد مضى عليهم ثمانية سنوات منذ أن غادروا اليونان وقد قطعوا فى هذه الرحلة ١٧٫٠٠٠ ميل وأنهكت الأمطار والحروب قواهم، وتملكهم اليأس من أحتمال نجاحهم فى شق طريقهم قتالا خلال الأعداء التى لاحصر لها من الفيلة والمحاربين الهنود ولذلك أنهارت معنوياتهم فأضطر الأسكندر إلى العودة بهم إلى الأندوس (نهر السند) ومنها إلى جيدروسيا (بلوخستان) وكارمانيا ثم إلى سوسا التى وصلها فى ربيع عام ٣٢٤ ق. م. وتعد المرحلة الأخيرة لهذه الحرب أفظعها جميعاً ، فقدجرح الأسكندر ، ومات فى يونيو عام ٣٢٣ ق . م وكان عمره لايزال ٣٣ عاما بعد حكم دام ١٢ عاما وثمانية شهور .

الاسكندر القائد السياسى

وليس هناك شك فى أن الأسكندر ينتمى إلى قادة الحرب العظام وهو معروف فى التاريخ بأسم « الأسكندر الأكبر » وقد ترجمت سيرته إلى لغات معظم الشعوب من الصين حتى أيسلندا . فكان الأسكندر يقدم فى كل حروبه معايير جديده للأنسانية ، ففى ايفيسوس

عاون الديمقراطيين ، ولكنه رفض السماح لهم بقتل الأقلية . وفى كاريا أحترم نظام حكم المرأة فى هذه البلاد فقام بتعيين أمرأة فى منصب الحاكم لأحدى الولايات . وكان يحرص دائما على عدم إنتهاك الحرمات الدينية لأى شعب يحكمه ، وعلى سبيل المثال ، قام بإعادة بناء معبد ماردوك فى بابل والذى دمره سيركسوس . ويقال أنه أسس ٧٠ مدينة جديدة فى أمبراطوريته ، وتحمل مسئولية جعل الشرق الأدنى يعتنق الثقافة والأسلوب الأغريقى .

ولكن عظمة الأسكندر الأكبر تكمن فى عدم تمسكه بفكرة أرسطو التقليدية والتى تنص على أن اليونان المتحضرة يجب أن تكون بعيداً عن باقى العالم المكون من البرابرة . وقد قال الأسكندر لكاهن آمون فى مصر بأن الله هو «أب لجميع البشر» وهذا التصريح من الأسكندر يعتقد سير ويليام تارن أنه أول تصريح فى العالم لمبدأ أخوة البشر جميعهم . وقد تمتعت جميع الشعوب التى حكمها الأسكندر بالأحترام والمساواة فى المعاملة وكان فى نيته أن يدمجهم فى جنس واحد . وقد تزوج الأسكندر ومعه ٨٠ ضابطاً من نساء فارسيات . وأقام الأسكندر عام ٣٢٤ ق . م فى أحد الأعياد وليمة كبيرة حضرها ما يقرب من ٩٠٠٠ ضيف يمثلون شعوب أمبراطوريته .

ولم يكتمل حلم الأسكندر فى تحقيق الأخوة الأنسانية لأنه لم يستطيع بناء كيان سياسى ثابت فى البلاد التى فتحها ، فعندما مات أنفصمت عرى الأمبراطورية ، ولكن أصبحت وجهات نظره وآرائه من أهم وأعظم صور تطور المدنية والحضارة . وكانت أفكاره تشبه أفكار الرواقية(١) وأفكار الأمبراطورية الرومانية وأفكار الديانة المسيحية .

وقد تبع موت الأسكندر صراع شديد بين خلفائه للأستيلاء على أجزاء من الأمبراطورية . ففى سنة ٣٠١ ق . م بعد موقعة إيسوس ظهرت أربع ممالك . ولم يتطور فن الحرب الإغريقى لأبعد مما وصل إليه أبان عهد الأسكندر . وقد كان خلفاؤه قادة ممتازين وخاصة ليزماخوس وسلوقس ولكن جيوشهم أصبحت معقدة وصعبة القيادة ولم يعد هناك أى دروس يخرجون

---

(١) الرواقية : مذهب فلسفى أنشأه زينون حوالى عام ٣٠٠ ق.م ويتضمن أن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الأنفعالات ولا يتأثر بالمديح أو الذم ولا الحزن والفرح على أن يخضع للقضاء والقدر وبدون أى تذمر . «المعرب»

بها من المعارك . ففى خلال حملات الأسكندر فى الهند تركت الفيلة أنطباعات مؤثرة على قادته وذلك لفاعليتها الكبيرة على الخيول التى لم تستطع مواجهتها ، علاوة على تأثيرها المخيف على القوات التى تراها لأول مرة. تال لذلك أستطاع بايروس ملك إيبيروس هزيمة الرومان عام ٢٨٠ ق . م فى معركة هيراقلية ، ولكن يجب القول بأن النجاح فى هذه المعركة لم يكن بسبب الفيلة فقط ، لأن الرومان أستطاعوا هزيمة بايروس فى بيننفنتوم عام ٢٧٥ ق .م وكان السبب فى ذلك أن فيلا واحداً بعد أن جرح أصابه الذعر فاندفع بجنون داخل صفوف جنوده متسبباً فى قتل عدد كبير منهم .

ولم ينجح بايروس فى حل مشكلة تزايد وجمود وعدم مورنه كتائب المشاة الأغريقية وبالرغم من الخسائر الفادحة(١) التى تكبدتها قوات بايروس فى معركة هيراقلية فلا يزال الألبانيون ينظرون إليه كأحد الأبطال القوميين .

---

(١) فقدوا فى هذه المعركة حوالى ٤٠٠٠ جندى (المعرب)

وهكذا ينتهى الجزء الأول من الكتاب ، أما الجزء الثانى فضمنه مونتجمرى الآتى :—

* هانيبال يغزو إيطاليا .
* حرب العبيد الأولى .
* صلب ستة آلاف سجين .
* يوليوس قيصر وكليوباترا .
* عقـــدة ماجينو .
* النساء يستعدن المعارك .
* القرابين لآلهة الألمان .
* حائط الشيطان .
* التنين البربرى .
* ســـوط الله .
* حوت البوسفور .
* النصر الخاوى .
* ظهور محمد (عليه الصلاة والسلام) .
* المسلمون قوم لا يقهرون .
* الإسلام محرر الشعوب من العبودية .
* النــار الأغريقية .
* الأمبراطور البيزنطى .
* الملك شارلمان .
* الفايكنج .
* فتيات الدروع .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء الثانى .

« المعرب »

مؤلفات وتراجم للعميد فتحى عبد الله النمر

مؤلفات

		الثمن
		ص
*	التاريخ العسكرى فى ١٠٠ سؤال	٢٠
*	الحرب العالمية الثانية فى شمال أفريقيا	نفذ
*	فلسفة فن القتال (٥ أجزاء)	نفذ
*	الروح المعنوية	نفذ
*	مبدأ الحرب التعاون	نفذ

تراجم

*	مذكرات روميل (٦ أجزاء)	الجزء الواحد	٣٠
*	قرارات هتلر المميتة (٢ أجزاء)	« «	١٠
*	ثعالب الصحراء (٣ أجزاء)	« «	٣٠
*	الحرب عبر التاريخ	« «	٢٥

تطلب هذه التراجم والمؤلفات من مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة القراء

			عدد
الجائزة الأولى : —		١٠ جنيهات مصرية	١
الجائزة الثانية : —		٣ جنيهات مصرية	٣
الجائزة الثالثة : —		٢ جنيـــة مصرى	٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارىء أن يضع علامة (✓) أمام الأجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم أختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والأجابات من الكتاب وتوضع فى مظروف عليه طابع بريد وترسل فى بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالى :—

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ » .

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين فى الجزء التالى للكتاب .

٥ — لقد رصد الفيلد مارشال مونتجمرى الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

المســـابقة

نمرة ٠٠٣٢٩٦

١ — النصر فى المعركة يتحقق بـ

١ — الروح القتالية العالية للجنود والضباط فى الميدان .

٢ — الضبط والربط والزمالة بين القوات .

٣ — التدريب الشاق على الأسلحة والخطة المحكمة .

٢ — اذا هاجم العدو دولة ، فدفة الحرب تكون فى ايدى

١ — العسكريين .

٢ — السياسيين .

٣ — العسكريين والسياسيين .

٣ — قبائل جوارانيس تقيم فى

١ — شرق أفريقيا .

٢ — جزر الأوقيانوس .

٣ — البرازيل .

٤ — فى العصر القديم كانت الحرب تعتبر عند

١ — الشعب البولينيزى إحدى وسائل التسلية .

٢ — قبائل المايا من الطقوس الدينية .

٣ — القبائل الهندية طاقتهم ودينهم وكرامتهم .

٥ — اول من استخدم العربة الحربية

١ — المصريون .

٢ — العراقيون .

٣ — الآشوريون .

٦ — بدات حرب التحرير المصرية ضد الهكسوس من

١ — مدينة طيبة عام ١٦٣٠ ق.م .

٢ — مدينة أفاريس عام ٢٢٠٠ ق. م .

٣ — مدينة سيمنة عام ١٧٤٠ ق. م .

٧ — فى عهد المملكة الحديثة تم توحيد النوبة وليبيا مع مصر بواسطة

١ — تحتمس الأول .

٢ — أمينحوتب الأول .

٣ — أحمس .

٨ — كانت معركة مجدو بين كل من

١ — أحمس والهكسوس .

٢ — تحتمس الثالث وملك قادش .

٣ — رمسيس الأول وملك الحيثيين .

٩ — اول من برع فى فن التخطيط للحصار

١ — يوليوس قيصر .

٢ — الأسكندر الأكبر .

٣ — هو ديونيسيوس الأول .

١٠ — « الحيلة قبل القوة .. ولكن استخدام القوة فى النهاية » من قال هذا

١ — أجيلوس الأسبرطى .

٢ — فيليب .

٣ — الأسكندر المقدونى .

الاسم ____________________

العنوان ____________________

____

____

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم المعرب	٣
المقدمة للمؤلف	٧
مصادر الكتاب	٩
الفصل الاول : طبيعة الحرب	١٢
* الصدام المسلح وتقدم الإنسانية	١٢
* لماذا تنشب الحرب ؟	١٣
* ما هى الحرب ؟	١٤
* القيادة والخيط الذهبى	١٧
* المخابرات والخدمة السرية	١٩
* الحرب الشاملة	٢٢
الفصل الثانى : القيادة	٢٤
* العلم وفن القيادة	٢٤
* مشكلات الحرب	٢٩
* مناورة أفقاد التوازن	٣٠
* الثقة بين القائد والجنود	٣١
* الرفاهية وتأثيرها على الدول	٣٦
الفصل الثالث : الحرب فى العصر البدائى	٣٩
* حرب النمل	٣٩
* العصر الحجرى فى القرن العشرين	٤١
* أول صراع بين الحضارات فى التاريخ	٤٤
* أكبر الأمبراطوريات التى عرفها العالم	٤٧

تابع الفهرس

الموضوع	الصفحة
* التاريخ السياسى للحرب	٥١
* أحمس والهكسوس	٥٢
* تنظيم القوات المسلحة المصرية	٥٣
* معركة مجدو	٥٤
* معركة قادش	٥٩
* الحرب النفسية قبل الميلاد	٧٣
الفصل الرابع : الأغريق القدامى	٧٧
* النصر أو الموت	٧٧
* معركة سلاميس	٨٧
* حرب المورة	٩٠
* الأستراتيجية غير المباشرة	٩٤
* الإسكندر أول من استخدم مدفعية الميدان	٩٧
* حصار مدينة صور	١٠١
* معركة جوجاميلا	١٠٣
* الإسكندر يغزو الشرق	١٠٨
الخرائط :	
* اللوحة رقم ١ : الأمبراطورية المصرية والآشورية والحيثية	٤٥
* اللوحة رقم ٢ (ا ، ب ، ج ، د) : معركة قادش . .	٦٠ إلى ٦٣
* اللوحة رقم ٣ : العالم اليونانى القديم	٧٦
* اللوحة رقم ٤ : معركة سلاميس	٨٦
* اللوحة رقم ٥ : غزوات الإسكندر	٩٩
* اللوحة رقم ٦ : معركة جوجاميلا	١٠٤

الحرب عبر التاريخ

A HISTORY OF WARFARE

الجزء الثاني

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكليات العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
العلم العاشر والحادى عشر

التصديق بالنشر

كتاب المخابرات الحربية

رقم ن / م ث / ٦ / ١ / ٢٠٢١

رقم الايدع دار الـكتب ٢٠٢٦ لسنة ١٩٧٢

المطبعة الفنية الحديثة

٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة
الفصل الخامس : التوسع الرومانى	١١٣
* الحشد فى فرق كاملة	١١٣
* هانيبال يغزو إيطاليا	١١٩
* هانيبال يقابل سيبيو	١٢٥
* حرب العبيد الأولى	١٣٣
* سولا الدكتاتورى	١٣٦
* صلب ستة آلاف سجين	١٣٧
* يوليوس قيصر يغزو بريطانيا	١٤٢
* يوليوس قيصر وكليوباترا	١٤٥
الفصل السادس : الدفاع الرومانى . . والهجرات البربرية . . .	١٤٨
* عقـــدة ماجينو	١٤٨
* النساء يستعدن المعركة	١٥٢
* القرابين لآلهة الألمـان	١٥٣
* حائط الشيطان	١٥٨
* التنين البربرى	١٦٦
* أعظم الشعوب فى فن الحرب	١٧٣
* ســـوط الله	١٧٦
* أتيلا وعروسة الجديدة	١٧٨
* حـــوت البوسفور	١٨١
* النصر الخـــاوى	١٨٢

تابع الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل السابع : الحروب فى أوائل العصور الوسطى	١٨٥
* ظهور محمد (عليه الصلاة والسلام)	١٨٥
* المسلمون قوم لا يقهرون	١٨٦
* الإسلام محرر الشعوب من العبودية	١٨٧
* النار الأغريقية	١٩٠
* أسر الإمبراطور البيزنطى	٢٠٤
* الملك شارلمان	٢٠٦
* الانفجار المثير للفايكنج	٢١٤
* فتيات الدروع	٢١٠
الخرائط :	
* اللوحة رقم ٧ : حملة هانيبال وسيبيو	١٢٠
* اللوحة رقم ٨ : معركة كانا	١٢٣
* اللوحة رقم ٩ : معركة زاما	١٢٩
* اللوحة رقم ١٠ : الإمبراطورية الرومانية فى عهد يوليوس قيصر	١٤١
* اللوحة رقم ١١ : حدود الإمبراطورية الرومانية والهجرات البربرية ٤٠٠ ب . م	١٥٦
* اللوحة رقم ١٢ : فتوحات العرب فى القرن السابع والثامن	١٨٧
* اللوحة رقم ١٣ : معركة القسطنطينية البحرية . . .	١٩١
* اللوحة رقم ١٤ : إمبراطورية الفرنجة وغارات الفايكنج والمجريون والعرب	٢٠٨

الفصل الخامس

التوسع الرومانى

الحشد فى فرق كاملة (أنظر اللوحة رقم ٧)

أننا نتحرك الآن إلى الأمام . . . نحو العصر الرومانى ، وتشير لنا القصة التى نحن بصددها إلى أن الرومان قد امتلكوا المقدرة السياسية والإدارية التى مكنتهم من تعزيز فتوحات قادتهم لصالح الجمهورية التى صارت فيما بعد أمبراطورية ، والجدير بالذكر بأن هذه المقدرة افتقرت إليها اليونان القديمة وسنرى أن كلا من التطور الاجتماعى والتنظيم العسكرى الرومانى قد أثر كل منهما فى الآخر بعمق لذلك أخذت روما تتحول من مجرد ولايه إلى امبراطورية ، ومن الممتع أن نلاحظ فى الحروب التى شنتها روما ضد خلفاء الاسكندر الأكبر استخدامهم للكتائب المشاة اليونانية فى أول الأمر ولكن ظهر لهم أهمية وفائدة القتال بحشد وبتشكيل مفتوح أكثر من التشكيل اليونانى المنظم ومن هنا ظهر أهمية القتال بفرق كاملة .

وقد لمعت روما فى عام ٧٥٣ ق . م كما تقول الأسطورة ، وكانت فى ذلك الوقت مجرد ولاية من بين عديد من الولايات ، ولكنها بعد مرور ٥٠٠ سنة سادت وسيطرت على شبه الجزيرة الإيطالية وبعد ذلك بـ ٧٥٠ عام حكمت كل غرب أوروبا ودول البحر المتوسط وكان ظهور روما كدولة بارزة فى أيطاليا شيئاً طبيعيا وليس حدثاً عرضياً كالمثل القائل « البقاء للأصلح » فكان هذا الشعب يؤمن بنفسه وأهمية الدفاع عن كيانه ، فأدى هذا إلى أن أصبح لرومان ذوى ميول حربية ونزعات عدوانية .

وعلى مر القرون هزموا كلا من التسكانيين والفلشيين والسمنيين ، وصدوا هجوم الغال وردوهم على أعقابهم ، ولكن فى عام ٣٢١ ق . م هزم الرومان هزيمة منكرة فى كودين فوركس إلا أنهم انتقموا بالانتصار على أتحاد كل من الغال والسمنيين فى موقعة سنتينوم عام

٢٩٥ ق . م ، مما أعطى روما السيادة على إيطاليا الوسطى . وفى عام ٢٧٥ ق . م هزموا الأبيروس فى موقعة بينفنتوم وهذا حقق السيطرة على جنوب إيطاليا .

ولا نعرف سوى القليل عن الجيش الرومانى قبل القرن الرابع ق.م ويعتقد أن سيرفيوس توليومس ملك تسكانى ، قام فى القرن السادس ق . م ببناء أولى تحصينات روما مع تنظيمها لتكون قاعدة عسكرية . وأصبح الرومانيون دولة عسكرية ، فجميع الذكور ما بين سن ١٤ و ٤٦ يعتبرون صالحين للخدمة العسكرية أما الرجال ما بين ٤٦ و ٦٠ فيعتبرون صالحين للاستدعاء كاحتياط .

وكان لهم مجلس[١] يدعى للاجتماع فى ميدان مارس بواسطة النداء فى النفير ، وكان هذا الميدان يقع خارج أسوار المدينة . وكان المواطنون مقسمين إلى درجات . . . الفرسان وهؤلاء عبارة عن درجتين عليا وصغرى وهذا يتوقف على مسئولية الأفراد من حيث الخدمة ودفع ضريبة الحرب . وكانت الدرجات الصغرى تمثل القوة العسكرية الرئيسية وكان الأغنياء منهم يلبسون رداء الهوبلايت الكامل مع خوذة برنزية ويسلحون بدرع واقية للصدر والأرجل وحربة وسيف ، أما الفقراء منهم ويطلق عليهم فيليت[٢] .

وكان التكتيك المستخدم فى ذلك الوقت مقاربا لما يستخدمه الهوبليت ، أما الفرسان فكانوا عبارة عن مشاة راكبة فقط .

وكان على الرومان أن يبدأوا من جديد فى تكوين جيش متطور بعد الهزيمة الفادحة التى تلقوها على أيدى الغال عند نهر أليا عام ٣٩١ ق . م . وفى الجيلين اللاحقين وبوحى من ماركوس فيوريوس كامليوس أعيد تحصين روما كما أعيد تنظيم جيشها الذى كان مكوناً من المجندين من السكان وتدفع لهم الأجور عند القتال الفعلى .

وقد حلت الفرق الكاملة بدلا من الكتائب وأصبحت المشاة الثقيلة هى القوة الرئيسية للفرقة ، ولكن الفرقة كانت تضم فى تنظيمها مجموعات من الفرسان والفيليت .

(١) المجلس : — يقصد هنا مجلس يضم جميع الأفراد المتخصصين فى الحرب من جنود وصناع للسلاح والابواق وخلافه . « المعرب »

(٢) الفيليت : ــ هم جنود المشاة الخفية من المواطنين الفقراء وتسليحهم المقلاع والحجارة فقط بدون أى دروع . « المعرب »

(د)　　　　(جـ)　　　　(ب)　　　　(أ)

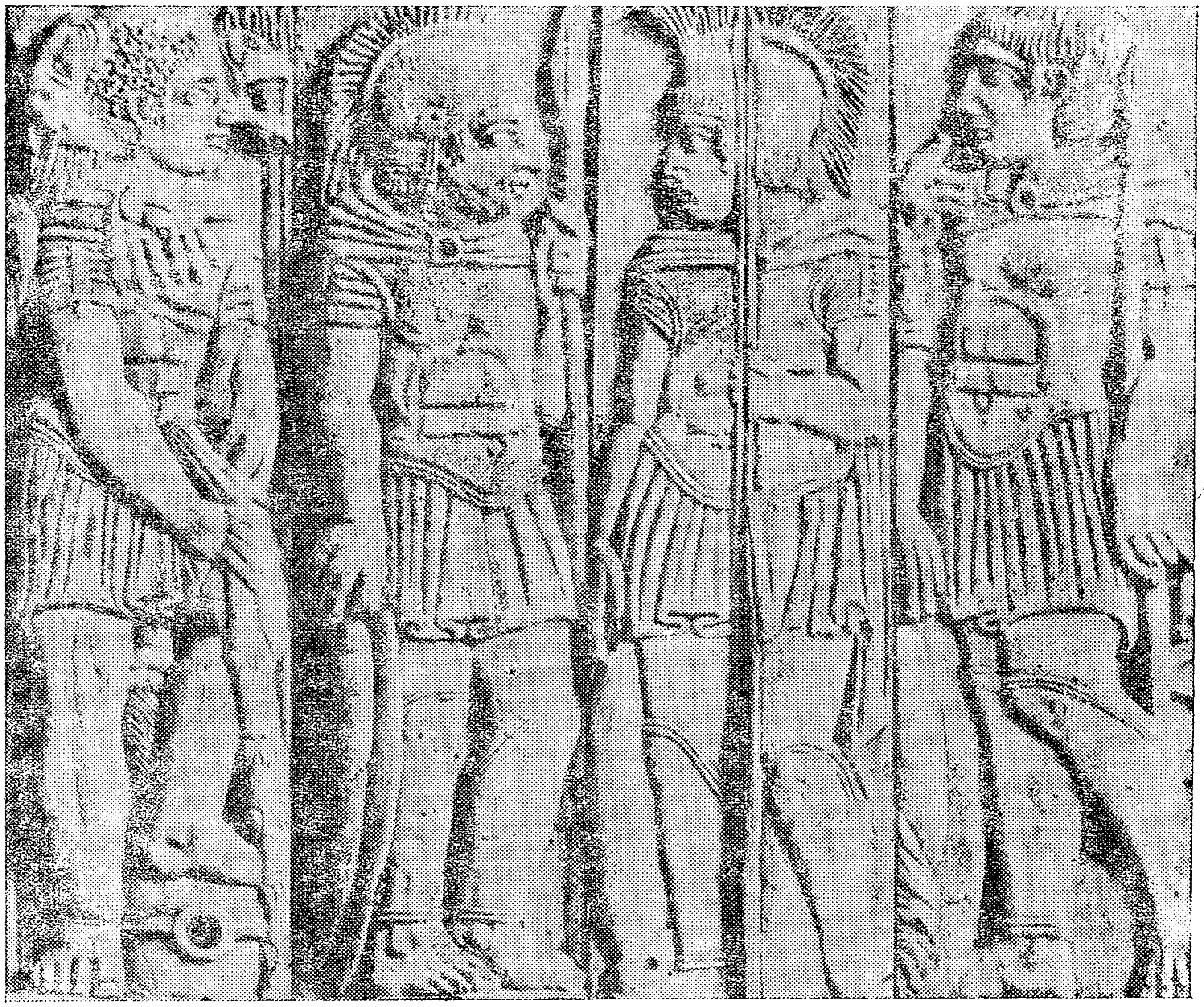

المشاة الرومانية فى القرن الرابع قبل الميلاد

(أ ، ب ، جـ) المشاة الثقيلة .　　(د) المشاة الخفيفة (فيليت) .

وتشكل الفرقة المشاة الثقيلة فى ثلاثة خطوط ، الخط الأمامى أو المقدمة والخط الرئيسى ثم خط المؤخرة وكل خط من هـذه الخطوط الثلاثة يضم عشر سرايا ، أما المشاة الخفيفة فتنتشر بين هذه السرايا ، وكانت هذه الفرقة توزع سراياها على شـكل مربع بحيث تغطى السرايا الخلفية الفواصل بين السرايا الأمامية ، وكان عمق الخط الواحد أربعة صفوف من الجنود . ويضم الخطين الأولين على ١٠ سرايا أى كل خط به ١٢٠٠ جندى بينما المؤخرة (الخط الثالث) تحتوى على ٦٠٠ جندى ، وتوضع الفرسان على الأجنحة . وكانت الفرقة بها ٣٠٠ فارس مشكلة فى ١٠ فصائل ، وفيما بعد ارتفع عدد جنود الفرقة المشاة حتى وصل إلى ٦٠٠٠ جندى عندما تم تجنيد أعداد كبيرة من حلفاء الأيطاليين .

وكان الجنود فى الخط الأول والثانى يحمون أنفسهم بخوذات نحاسية ودروع واقية للصدر بالإضافة إلى دروع[1] نصف أسطوانية مثلثة الشـكل ويتسلحون برمحين قصيرين وخنجر طويل وسيف[2] طوله قدمان مزدوج الشفرة . وكان جنود المؤخرة يتسلحون بنفس الأسلحة ماعدا الرمحين وقد حل محلها حربتان . وقد تطور تسليح الفيليت فأصبح سيفاً ورمحين قصيرين ودرعاً مستديرة قطره ٣ أقدام ويلبسون فى رأسهم غطاء من جلد الذئاب . ومن المحتمل أن يكون الرومان نقلوا صناعة الرماح[3] عن الغال . وفى بعض الأحيان كان هذا الرمح يقذف بمساعدة سير مثبت خلف مركز الثقل ، وعند تحرير هذا السير ينطلق الرمح طائراً فى حركة حلزونية فتزيد من مجاله ودقته ، وقد بطل العمل بهذا الجهاز فى القرن الثانى ق . م عندما لم تتطلب التـكتيكات سوى القذف القصير الذى لا يتجاوز ٢٥ ياردة . أما وحدات الخيالة فى الفرق فـكانت فقيرة التسليح ، فلم تتجاوز درعاً من الجلد وحربة وسيفاً .

---

(١) كان يصنع من طبقتين من الخشب ملتصقتين ببعضها ، وعليها غطاء من جلد القنب ، بينما الاطراف العليا والسفلى مكسوة بطبقة من الحديد حتى تقاوم السيوف الطويلة .

(٢) لقد نبع هذا السيف من أسبانيا .

(٣) الرماح : ـ طوله ستة أقدام ذات رأس حديدى مدبب على شكل الشوكة حيث تغمد فى درع العدو ومن الصعب نزعها مما يؤدى إلى أعاقة العدو من أستخدام أسلحته « المعرب »

الفرقة المشاة فى الهجوم

وكانت الحكمة من تشكيل الفرقة على هيئة مربعات هى إتاحه المرونة فى الدفاع والسهولة فى الهجوم حتى يمكنها مواجهة المشاة اليونانية الصلبة أو جحافل الغال . ويبدأ هجوم الفرقة المشاة بدفع الفيليب لمناوشة العدو وتغطية تقدم المشاة الثقيلة ، وعندما تدخل قوات الخط الأول مجال المعركة تطلق رماحها ثم تلتحم مع العدو بالسيوف وخلال القتال تدعم قوات الخط الثالث قوات الخط الأول بالمقاتلين بدلا ممن قتلوا أو أصابهم الإرهاق وكان قادة الفرق مدربين على إحلال خط كامل محل خط آخر مع القيام بهجوم جديد ضد العدو ، أما إذا ساءت الأمور ، فتندمج قوات الخط الأول مع قوات الخط الثانى فى خط واحد ويتراجعوا خلال الفواصل بين مجموعات قوات الخط الثالث التى تقاتل فى ذلك الوقت وهى ثابتة . أما الفرسان فكانت تستخدم للاستطلاع والمطاردة ولم يكن لها دور رئيسى فى التكتيك الكلاسيكى للفرقة ، وفى الحقيقة كانت الفرسان تقاتل مترجلة وليس من على ظهور الخيل ، وقد استطاع الرومان تطبيق هذا الأسلوب بكفاءة نتيجة للتنظيم والتدريب العالى للقوات وكان يوضع فى الخط الأول الجنود المدربين من الشباب حتى تكون القوة الضاربة أكثر تأثيراً وتركيزاً ، بينما يوضع الرجال الأكبر سنا فى الخط الثالث ليكونوا بمثابة احتياطى للصفوف الأمامية عند الحاجة . وكان الرومانيون يقومون دائما بهجوم نهائى بقوات جديدة محتفظة بنشاطها فيتحقق النصر . وكان استخدام أسلوب الثلاثة خطوط فى الهجوم مفيداً جداً بالنسبة للروح المعنوية للجنود ، فهذا النظام كان يضمن ⅔ الجنود بعيدين عن منطقة الخطر لأطول وقت ممكن ، كما كان يعطى فرصة كافية للجبهة المهزومة للانسحاب بأمان .

وقد وصف فوللر الجيش الرومانى على أنه أعظم جيش دفاعى [1] فى التاريخ فكانت للفرقة المشاة معسكر محصن يقوم بدور المؤخرة لها ، وإذا دعت الضرورة كانوا يبنون معسكراً جديداً فى نهاية كل يوم حتى ولو كان ذلك على حساب إختصار وقت السير فى الصباح إلى ثلاث أو أربع ساعات حتى يستغلوا فترة بعد الظهر فى عمليات الحفر . وكان حجم وشكل المعسكر

---

(١) يقصد فوللر أنه كان أعظم جيش يقيم الخنادق والتحصينات أثناء القتال « المعرب »

يختلف تبعاً لطبيعة الأرض ، ولكن فى الغالب يبنى على شكل مربع كبير وبدرجة تسمح باستيعاب فرقتين من المشاة ويجرى تحصينه بالأسوار والخنادق والمتاريس ، وكان الرومان يتحملون مشاقا فى بناء المعسكرات لسببين أولا : — لأنهم عرفوا قيمة الأمن والراحة . فكانوا يمضون معظم وقتهم فى تلك المعسكرات للتدريب والتمرينات الرياضية ليحافظوا على لياقتهم البدنية وينموا قدراتهم على الثبات مع الضبط والربط ، وكانت هذه الصفات ضرورية لتكتيك الفرقة والتى كانت على أى حال صفات طبيعية فى جنود الرومان .

وثانياً : — عندما تخوض الفرقة القتال يجب أن يكون بالقرب منها منطقة محصنة تستطيع الانسحاب إليها إذا ساءت الأمور ونتيجة لذلك لم تصل هزائمهم إلى حد الكارثة . وكان جنود الرومان أثناء السير يحملون بخلاف أسلحتهم حملا ثقيلا يتضمن أدوات الحفر ومعدات الطهى . وكان غذاء الجنود الرئيسى داخل المعسكرات عبارة عن الخبز (١) ولم يحصلوا على تغذية جيدة ، بينما القليل جداً منهم كان يتناول اللحم .

القيادة

كانت قيادة الجيش فى يد قنصلين ينتخبان سنوياً وهما بصفة عامة من السياسيين وليس لهم دراية بفن القيادة العسكرية . وكان الغرض من هذا الازدواج الغريب فى القيادة هو التقليل من احتمال قيام دكتاتورية عسكرية ، ولكن كان هذا النوع يعتبر من الحماقة العسكرية لأن الانتخاب السنوى أدى إلى صعوبة استمرار سياسية موحدة علاوة على أن أعمال القيادة اليومية كانت تصطدم دائماً بحائط ضخم بسبب اختلاف وجهتى نظر القنصلين المنتخبين ، وكان يحل هذا المشكل بانتخاب قائد دكتاتورى لفترة الطوارىء .

وفى القصص الشعرية لروما القديمة روى ماكولى عن معركة بحيرة ريجيللوس عندما لم تسر الأمور كما ينبغى : —

« فى الأوقات العصيبة ، من الأفضل أن يتحمل شخص واحد المسئولية ، فيجب أن يختار قائد ديكتاتورى ليطيعه كل الناس ، وذلك لمدة ستة شهور فقط وليس أكثر » .

---

(١) كان الخبز غير مخبز ومصنوع من الدقيق ومطهى على حجارة ساخنة أو الجمر .

وتلك نصيحة ممتازة ، وربما تكون أكثر سهولة فى العـــالم اليوم ، على أن ينتخب ديكتاتور لمدة ستة شهور فقط .

ولم يكن لدى الرومان القدامى طبقة من الضباط الأرستقراطيين. وكانت السرية[1] هى الوحدة التكتيكية الرئيسية ويقودها قائدان[2] . أما القيادة التكتيكية للفرقة فكان يسيطر عليها ويتحكم فيها الموثوق بهم من المحترفين والذين يفهمون رجالهم جيداً ، ويصف بوليبيوس هؤلاء القادة : —

« ليسوا رجالا مغامرين أو متهورين بل كان لديهم الاستعداد الطبيعى للقيادة ،فيتميزون بالمثابرة والروح المتأصلة ويصمدون أمام جحافل العدو وضغوطه الساحقة ، ومستعدين للموت دفاعاً عن مواقعهم ، لقد كانوا مثابرين شجعان يفهمون الحرب جيداً وأنهـا عمل يجب أن يؤدى تماما . وكان السبب الرئيسى لنجاح روما فى معظم حملاتها أنها أنتجت ضباط صف من الدرجة الأولى وجنوداً ممتازين .

وهكذا كانت الفرقة مكونة من ثلاث خطوط من المشاة الثقيلة المسلحة بالرماح والسيوف ، ومدعمة بالمشاة الخفيفة والفرسان . وكانت المشاة مدربة على القيام بالأعمال الشاقة . وأصبح تنظيم الفرق المشاة ثابت لأكثر من ٧٠٠ عام بعد منتصف القرن الرابع ق . م ، بالرغم من أن بعض القادة الفرديين قاموا ببعض التغيير إلا أنه لم يحدث أى تغيير جوهرى فى تنظيم الفرقة المشاة ، وعندما ندرس حروب الرومان سيظهر لنا مواطن الضعف والقوة فى هذه الفرق .

هانيبال يغزو ايطاليا

(أنظر اللوحة رقم ٧)

لقد انسعت مصالح روما السياسية والتجارية فى منتصف القرن الثالث ق . م حتى وصلت إلى التحدى لقرطاجة أغنى دولة فى الغرب فنشب أولى الحروب القرطاجية ما بين ٢٦٥ — ٢٤١ ق.م وأنتهت لصالح روما ، إلا أن قرطاجة فى عام ٢٢٠ ق م استعادت قوتها مرة أخرى فى إسبانيا ،وفى عام ٢١٨ ق. م قام هانيبال[3] بعد عدة استفزازات بعبور البيرينيز[4]

(١) السرية تتكون من ٦٠ إلى ١٢٠ جندى .

(٢) القائد عبارة عن جندى له خبرة طويلة ومن نفس الطبقة الأجتماعية للجنود

(٣) قائد قرطاجى عمره ٢٩ عاما .

(٤) جبال البرانس « المعرب »

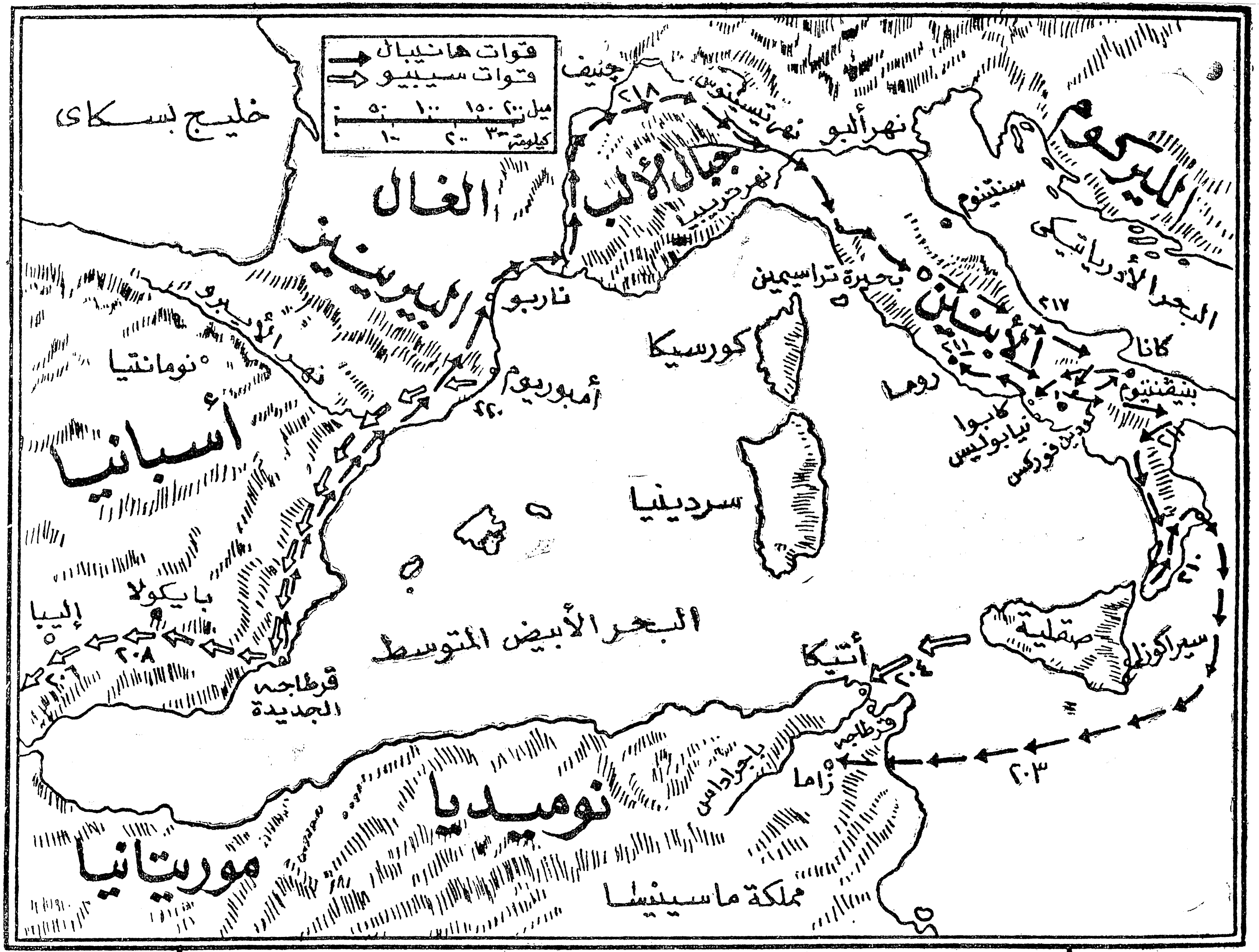

اللوحة رقم ٧ - حملة هانيبال وسيبيو

لغزو إيطاليا وذلك لسببين أولهما بسبب النفوذ الإيطالى الذى أخذ يؤثر على التاريخ العـالمى وثانيهما دورها القيادى للشرق والغرب .

هانيبال

والحرب القرطاجية الثانية (٢١٨ — ٢١٠ ق . م) جديرة بالدراسة لأن كل من قرطاجة وروما متساويين فى القوة، وكل منهما على يقين تام من أنه لابد من الانتصار وإلا سيدمر دمارا أبديا .

وقد زرت تونس التى تقع فيها أرض قرطاجة وشاهدت المدينة القديمة هناك وذلك بعد نهاية الحرب فى شمال أفريقيا عام ١٩٤٣ .

لقد درس هانيبال منذ الصغر الحرب والأسلحة ، وقام بدراسة شـاملة لفنون الحرب الأغريقية والرومانية ، وقاد الجيوش لمدة ثلاث سنوات وكان واثقاً تماما أنه سيهزم الرومان وقد عبر جبال البرانس بجيش مكون تقريباً من ٤٠٠٠٠ مقاتل و٣٧ فيلا وكان معظم جنوده آتين من أنحاء متفرقة من أفريقيا وأسبانيا ، كما قام بإلحاق مجموعات أخرى وهو فى طريقه إلى إيطاليا من الغال ، وكان أغلب جيشه من المرتزقة ولم يجمعهم تحت قيادة واحدة سوى هانيبال وخوفهم من بطشه واحتمالات النهب والسلب خلال القتال . وتمثل القوة الرئيسية لجيش هانيبال من المشاة الخفيفة المسلحة بسيف قصير وحربة ودرع واق صغير ، بينما كان أكفأ قواته الراكبة من حملة الرماح النوميديين تحت قيادة القائد المحنك ماهربال . وقال بوليبيوس « لم يكن جيش هانيبال كثير العدد ، ولـكنه ذو كفاءة عالية .. ولياقة بدنية ممتازة . »

وخلال فترة الحرب ، كان القرطاجيون يواجهون بأعداد كبيرة من الرومان الذين رفعوا عدد فرقهم من ٥ إلى ١١ ، وفى المراحل الأخيرة للحرب وصل عدد الفرق الرومانية إلى عشرين فرقة أى ١٠٠ر٠٠٠ مقاتل . ولم تـكن استراتيجية هانيبال تهدف إلى تدمير روما ولـكن ليفقدها فقط السيطرة على الحلف الإيطالى مع إجبارها على التعايش مع قرطاجة . وقد قال هانيبال «لم أحضر لأقاتل الشعب الأيطالى، ولـكن لأحرر الإيطاليين من سيطرة روما . »

وتقدم هانيبال سريعاً حول البحر الأبيض المتوسط ، وخلال عبوره لجبال الألب تعرض

لهجمات رجل القبائل ثم لسقوط الثلج المبكر ما أدى إلى هبوط قوة جيشه حتى وصلت إلى ٢٠٠٠٠ من المشاة و ٦٠٠٠ من الفرسان ، وبعد اشتباك ناجح عند نهر تيسينوس استطاع هانيبال وجنوده من عبور نهر البو . وفى ديسمبر عام ٢١٨ ق . م عند نهر تريبيا حقق أولى انتصاراته العظيمة الثلاث فاستطاعت فرسانه وفيلته اجبار الرومان ودفعهم إلى نهر تريبيا مما أدى إلى تدمير ⅔ الجيش الرومانى تماما مع فرار حوالى ١٠٠٠٠ مقاتل عبر منطقة الوسط .

وقرر الرومان فى عام ٢١٧ ق . م عدم مواجهة فرسان قرطاجة المتفوقة فى السهل على أن يلتفوا بهم من أقصى الجنوب عند جبال الأبنين . ومع ذلك فى شهر أبريل من نفس العام استطاع هانيبال من حصر جيش فلامينيوس بين التلال والشاطىء الشمالى لبحيرة تراسيمين ، لأهمال الرومان إجراء الأستطلاع والمخابرات مما أدى أن هانيبال قام بهجوم مفاجىء من سفوح التلال ، وفى خلال ثلاث ساعات تمكن من تدمير أو أسر كل قوات العدو . وبعد هذا الأنتصار أعلن هانيبال تحرير إيطاليا من السيطرة والسيادة المطلقة لروما . ثم هبط إلى ساحل الأدرياتيكى حيث استولى فى ربيع عام ٢١٦ ق . م على قاعدة الإمداد الرومانية فى كانا .

معركة كانا

(أنظر اللوحة رقم ٨) .

وفى أغسطس استعد الرومان للقتال عند كانا ، فقام هانيبال بتنظيم جيشه على شكل هلال محدب ، بحيث وضع المشاة الأسبانية والغالية فى منطقة الوسط ، أما القوات الأفريقية على كلا الجانبين والفرسان على الأجنحة ، أما مشاة الرومان فتشكلوا بالطريقة التقليدية على شكل صفوف متوازية ، وابتدأ هانيبال الهجوم وهزم فرسان الرومان هزيمة نكراء ، وترك مشاتهم تتقدم متوغلة داخل صحن الهلال القرطاجى حتى أخذ شكل مقعر ، وفى هذه اللحظة دفع هانيبال المشاة الأفريقية من اليسار واليمين لتطويق أجنحة الرومان ، وأكتملت المعركة عندما عادت فرسانه بعد مطاردة فرسان العدو وهاجموا مؤخرة مشاة العدو . وقد قال فوللر عن هذه المعركة : « تم الهجوم من أربع جوانب فأبيد الجيش الرومانى وكأن زلزالا قد أبتلعه » .

وفى معركة كانا هذه أبيد الجيش الرومانى الضخم المشكل من ٧٠٠٠٠ مقاتل وذلك

لقيادة هانيبال الحكيمة وحماقة القائد الرومانى القنصل هوكيوس تارينتيوس ڤارو رجل الأعمال الذى كان فى منصب القائد .

وهذه المعركة تعد بمثابة أعظم وأفدح كارثة للجيش الرومانى .

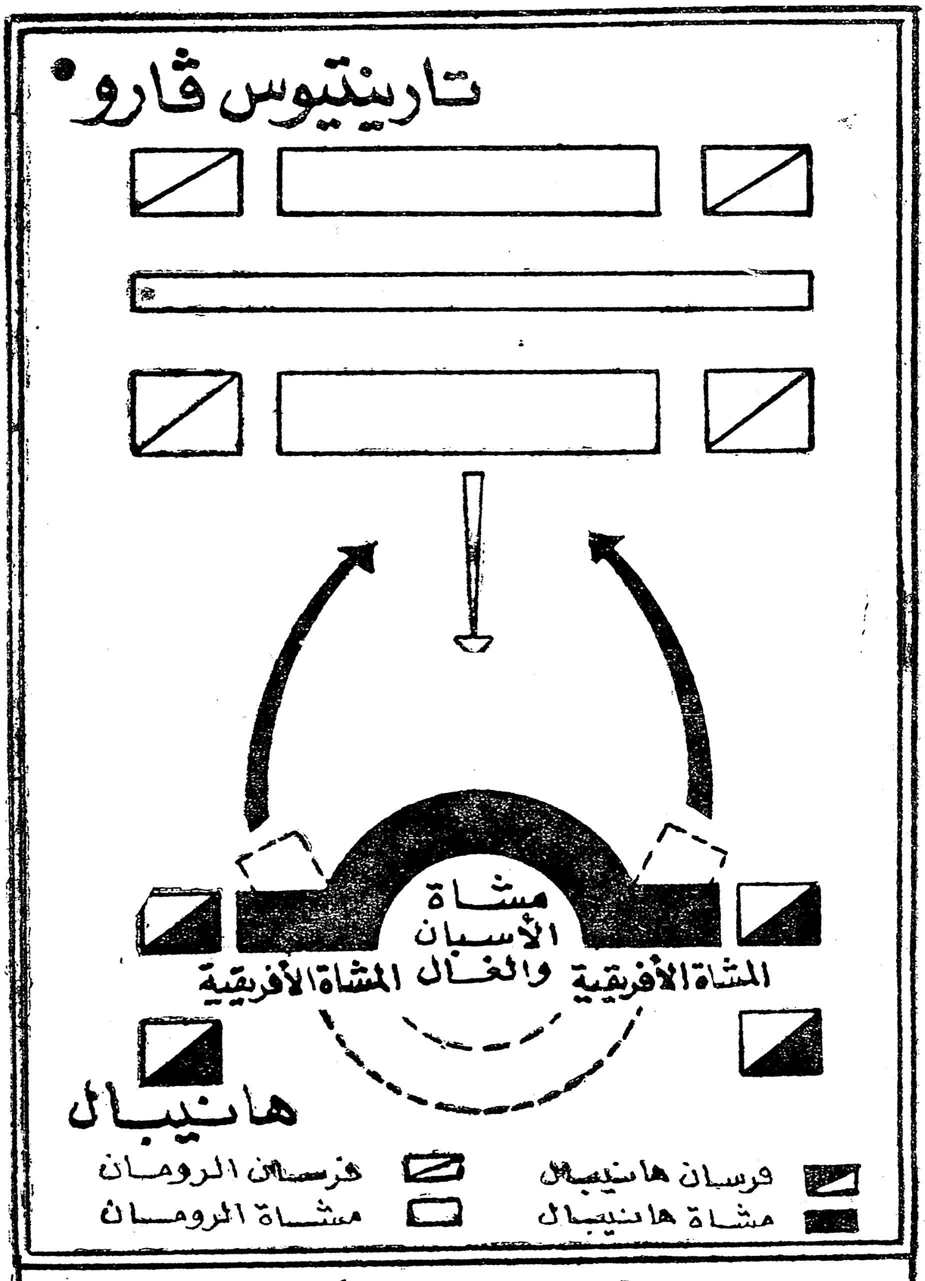

اللوحة رقم ٨ ـ معركة كانا

الحرب حتى الموت (أنظر اللوحة رقم ٧)

أستسلمت معظم دويلات جنوب ايطاليا لهانيبال ، بما فى ذلك مدينة كابوا[١] الهامة ، ولكن النواة الكبرى[٢] للأرض الرومانية ظلت ثابتة وظل الأسطول الرومانى يحكم البحار . وألح ماهربال على هانيبال بالزحف نحو روما فى الحال ، ولكن هانيبال رفض ، لأن استراتيجيته كما قلنا لم تكن مواصلة الحرب حتى الموت ، ولكن ببساطة اخضاع روما للشروط وعلى أى حال فكان هانيبال يفتقر إلى المواد التى تمكنه من القيام بعمليات حصار كبيرة .

بعد ذلك نشبت حرب الاستنزاف ، حيث استغل الرومان قلاعهم وأعدادهم الكبيرة التى يقودها كوينتوس فابيوس مكسيموس وكان يطلق عليه « البطىء الحذر » واستطاع إرهاق وأضعاف قوات هانيبال ، وإبقائه فى جنوب ايطاليا ولكنه لم يجرأ على مهاجمته . وفى عام ٢٠٨ ق . م . حققت روما نصراً بحريا فأعاد لها سيادتها البحرية وسهل إمكانية غزو أفريقيا فى المستقبل.

وبعد معركة كانا بعشرة سنوات ابتسم الحظ لروما وحققوا نجاحا باهراً فى أسبانيا . ففى عام ٢١٨ ق . م أرسل جيشاً رومانياً إلى أسبانيا وفى أول الأمر أبلى بلاءاً حسناً ، ولكن فى عام ٢١١ ق . م تخلى الحلفاء الأسبان عن الرومان ، فلحق بهم هزيمة نكراء فعادت فلولهم إلى شمال نهر الأبرة . وفى عام ٢١٠ ق. م أسندت قيادة الجيش الأسبانى إلى بوبليوس كورنيليوس سيبيو البالغ من العمر خمسة وعشرون سنة وعرف فيما بعد باسم أفريكانوس .

سيبيو

وقد وضح أن سيبيو سيصبح أعظم القادة الرومان ، وذلك أثناء حضوره كارثتى تيسينوس وكانا وأظهر فيهما شجاعة باهرة جعلته قائدا معروفا ومحبوباً من الشعب . فقد درس الحرب بعناية وعقل متفتح . ففى عام ٢١٠ ق.م

(١) هى مدينة كاسرتا حاليا

(٢) يقصد روما

نزل إلى أسبانيا عند أمبوريوم ومعه ١٠٫٠٠٠ مقاتل بغرض جمع شتات الجيش الرومانى المبعثر هناك وإعادة تشكيل قوة تعادل أربعة فرق ، وعلى الفور شرع سيبيو فى تنظيم جيشه ورفع معنويات رجاله ثم اتخذ خطوة جريئة بإشعال الحرب القرطاجية الثانية ، وبدلا من مهاجمة جيوش العدو الثلاثة فى أسبانيا ، اتجه فورا إلى قرطاجة الجديدة التى تمثل القاعدة الرئيسية للعدو وتبعد ٣٠٠ ميلا إلى الجنوب على الساحل وتحتاج إلى مسيرة عشرة أيام لكى تصل قوات العدو لنجدتها ، لذلك قرر قطع هذه المسافة بجيشه وأسطوله فى حوالى أسبوع وبذلك وجد أن لديه الوقت الكافى قبل وصول العدو . كانت القلعة هناك مقامة على نتوء صخرى ، ومدافع عنها بقوة ، ولكن سيبيو أخذهم على غرة وقام هو ورجاله بخوض المياه الضحلة حول القلعة وتسلق أسوارها فى أضعف نقطها بالسلالم ، ولم يستغرق الأمر طويلا وسقطت قرطاجة الجديدة واستولى بذلك على قاعدة الجيش وأحتلت قواته الجناح الشرقى ومؤخرة العدو .

وفى عام ٢٠٨ ق . م تصدى سيبيو لجيش هازدروبال عند بايكولا فى الأندلس وهزمه ، وقام القرطاجيون ببناء قوتهم مرة أخرى ، وفى عام ٢٠٦ ق . م تقابل سيبيو مع الجيوش المتحدة المشكلة من جيش ماجو وهازدروبال جيسجو عند إليبا وبالرغم من التفوق العددى لهذه الجيوش إلا أن سيبيو حقق نصرا حاسماً عليهم .

فقد دفع الرومان الفرق القوية الموجودة على الأجنحة إلى الأمام مدمرة أجنحة الجيش القرطاجى قبل أن يتقابل الخصمان فى منطقة الوسط ثم اتجهت بعد ذلك هذه الأجنحة الرومانيـة إلى الداخل لحسم المعركة ، فانسحب الأعداء وأخذ سيبيو يطاردهم حتى البحر حيث استسلموا .

وفى عام ٢٠٥ ق . م تم لسيبيو تطهير أسبانيا من جميع القرطاجيين وبعدها عاد إلى إلى روما .

هانيبال يقابل سيبيو

أدى هذا أن فقدت قرطاجة سيطرتها على أسبانيا وتحقق السلام مع كل من صقلية وسردنيا ومقدونيا ، بينما ظل هانيبال وجيشه فى جنوب إيطاليا .

وفى روما أتجهت النية فى مجلس الشيوخ إلى خنق جيش هانيبال حيث هو ، ولكن سيبيو اقترح خطة استراتيجية مختلفة ، وذلك بابقاء هانيبال كما هو فى جنوب إيطاليا بينما يهاجم قرطاجة فى شمال أفريقيا ، وأظهر المجلس تشككه فى اقتراح سيبيو ، ولكن فى النهاية سمح له بالذهاب إلى صقلية ومعه فرقتين وهناك بدأ سيبيو فى تجنيد وتنظيم وتدريب جيشه وقام بالتحالف مع ماسينيسا ملك نوميديا الذى مده بفرسان من الدرجة الأولى .

وفى ربيع عام ٢٠٤ ق . م وصل سيبيو إلى أفريقيا ومعه ٢٥٫٠٠٠ مقاتل بالإضافة إلى ما مده به ماسينيسا . وهناك واجه جيشا قرطاجى مكون من ٢٠٫٠٠٠ من المشاة و٦٠٠٠ من الفرسان بالإضافة إلى ١٤٠ فيلا تحت قيادة هازدروبال وسوفا كس ملك ماسيسيللى . وبعد حصار ناجح لمدينة أتيكا اتجه شتاءاً نحو كاسترا كورنيليا وهناك حاصره سوفا كس وأصبح فى موقف حرج إلا أنه أستخدم الخداع وتظاهر بطلب الهدنة ، لخدع أعدائه وعلى الفور أمر رجاله بإحراق معسكر الأعداء .وكان من الضرورى على سيبيو أن يهاجم جيش هازدروبال قبل وصول هانيبال إلى أفريقيا ، لذلك فى ربيع عام ٢٠٣ ق . م تقدم سيبيو ومعه فرقة واحده وبعض الفرسان حيث التقى بجيش العدو عند سهل باجراداس وهزمهم بأسلوب تكتيكى جديد غير التكتيكات الرومانية المعتادة وذلك بالقيام بهجومين بالفرسان فى وقت واحد على أجنحة العدو كما أسر سوفا كس .

وبدأت قرطاجة تطلب السلام واستدعت هانيبال بعد أسر سوفا كس . وفى عام ٢٠٢ ق . م عاد هانيبال إلى أفريقيا ومعه جيش مكون من ١٥٫٠٠٠ مقاتلا فما كان من القرطاجيون ان قرروا استئناف الحرب . وفى السنة التالية خرب سيبيو وادى باجراداس الخصب، وفى الخريف التقى سيبيو مع جيشه هانيبال عند زاما[1] ودارت آخر معارك الحرب القرطاجية الثانية فى عام ٢٠٢ ق . م .

كان قوام كل من الجيشين حوالى ٤٠٫٠٠٠ مقاتل ، وربما كان هانيبال متفوقاً بعض الشىء من الناحية العددية إلا أن معظم مشاة سيبيو كانوا مدربين تدريباً جيدا ووصل عدد فرسانه إلى ٤٠٠٠ فارس وكان لدى هانيبال حوالى ٢٠٠٠ فارس . ولأول مرة فى تاريخ قيادة

(١) زاما تقع على مسيرة خمسة أيام إلى الجنوبى الغربى من قرطاجة « المعرب »

هانيبال أن يصبح جيشه ناقص العدد بتلك الدرجة وخاصة فى الفرسان ، وكان هذا يعنى أنه لن يستطيع أستخدام أسلوب التطويق الذى برع فيه وكما حدث فى كانا.

وربما حدث نتيجة لذلك ما لم يكن فى الحسبان ، فطبقاً لما قاله ليفى : ـ « اقترح هانيبال على سيبيو التقابل معاً بين جيشيهما لمناقشة الأمور سويا » . وأننى أعتقد أنه من الصعب حدوث ذلك فى القرن العشرين ، فلو اقترح على روميل مقابلتى بين خطوطنا قبل معركة العلمين لرفضت بالرغم من أننى كنت سأستمتع جـــداً بمقابلة خصمى القائد الشهير والذى لم أقابله قط .

وعلى العموم فقد تقابل هانيبال مع سيبيو فى وجود المترجمين ومن المحتمل جداً أن هانيبال عرض شروط للسلام ولكن سيبيو رفضها وعاد كل منهما بعد تلك المقابلة إلى معسكره .

معركة زاما (أنظر اللوحة رقم ٩)

وفى فجر اليوم التالى استعد الجيشان للقتال ، فقام هانيبال بتوزيع قواته وكانت تدل على أنه يدرك ضعف جيشه عن جيش العدو لذلك وضع ٨٠ فيلا فى مقدمة القوات ، واصطفت مشاته فى ثلاث خطوط وكان الخط الأول مكوناً من المشاة الثقيلة من الليجور والغال وانتشرت المشاة الخفيفة بين الفواصل ، أما الخط الثانى فضمنه القوات التى لا يثق فيها كثيراً وهم المجندون الجدد من قرطاجة وأفريقيا ، أما الخط الثالث فكان مكون من المشاة المحنكة من الإيطاليين وكان يبعد عن الخط الثانى ٢٠٠ ياردة حتى لا يعزل أو يحاصر بواسطة العدو أثناء قيامه بالضربة الحاسمة . ووضع هانيبال ١٠٠٠ فارس قرطاجى فى الجناح الأيمن و ١٠٠٠ فارس نوميدى فى الجناح الأيسر ، وكان هدفه من ذلك اختراق الجبهة الأمامية للرومانيين وقد اعتمد فى هذا على الفيلة .

أما سيبيو فلم يوزع مشاته الثقيلة على شكل مربع بل أستغل تفوقه العددى وشكلها فى طوابير بينها ثغرات لكى تمر منها الفيلة فيتعامل معها الفيليت ، وجعل المسافات بين الصفوف أوسع من ذى قبل ووضع المؤخرة بعيداً فى الخلف لإيجاد المسافة المناسبة إذا اضطرت المشاة الثقيلة للأنسحاب ، أما قوته الضاربة فكانت مشكلة من الفرسان النوميديين التابعة للملك

ماسينيسا وحشدها على الجناح الأيمن، أما الجناح الأيسر فحشد فيه الفرسان الإيطاليين تحت قيادة لايليوس .

وبدأت المعركة ببعض المناوشات التى قامت بها الفرسان النوميديين لكلا الجانبين بالمواجهة ، وعندئذ بدأ هانيبال هجومه بالفيلة ، وأثناء تقدمها نحو الجيش الرومانى أمر سيبيو بأطلاق الأبواق والنفائر على طول خطوطه ، وأحدثت هذه الصفارات المفاجئة ذعراً بين الفيلة الموجودة على اليسار فاستدارت عائدة واندفعت فزعة نحو فرسان هانيبال محدثه أرباكاً كبيراً فاستغل ماسينيسا الظروف وقام بهجوم أبعد به هذه الفرسان عن ميدان المعركة ، أما فى منطقة الوسط فقد دفعت سرايا سيبيو الثمن فقد صبت الفيلة جام غضبها على الفيليت ولكنها لم تلمس المشاة الثقيلة ومرت خلالهم ثم قام فرسان الرومان بمطاردة الفيلة بالرماح نحو يمين القوات القرطاجية وعلى الفور استغل لا يليوس ما حدث من ارباك فى صفوف فرسان العدو ، كما حدث تماماً مع ماسينيسا فى الجناح الآخر ، وأندفع بفرسانه نحو الجناح الأيمن لفرسان هانيبال وبذلك هزمت فرسان هانيبال على كلا الجناحين هزيمة منكرة وأصبح كلا الجناحين مكشوفين ، وأثبتت الأحداث بأن الفيلة من الممكن أن تكون مصدراً للكوارث .

وعلى الفور بدأت فرسان الرومان بمطارة فرسان هانيبال إلى مسافة بعيدة وبعد ذلك بدأت المرحلة الثانية للمعركة وهى الاشتباك مع المشاة ، وفى البداية كانت الأمور تسير لصالح مشاة الليجور والغال فى جيش هانيبال وذلك لخفة حركتهم ، ولكنهم لم يستطيعوا اقتحام واختراق الخط الرومانى القوى فما كان من الرومانيين أن دفعوا المقدمة وأبتدأت تشتبك مع الخط الأول لهانيبال ولم يتمكن الخط الثانى لهانيبال من مؤازره وأمداد جبهته المتقدمة ، وعندما شعرت مشاة الغال بأنهم تركوا فى الميـــدان وحدهم ، على الفور كفوا عن القتال وتراجعوا بعيداً هاربين تاركين خطهم الثانى ليواجه الرومان . وأصبحت أرض المعركة مليئة بالجثث وملطخة بالدماء لدرجة أنها أصبحت زلقة يصعب فيها القتال . ومرت لحظة من المعركة تراجعت فيها مقدمة الرومان تحت ضغط الخط الثانى لهانيبال ولكن ضباط الرومان تمكنوا من تجميع القوات الرئيسية وأنشاء خط أطول من خط هانيبال ، وبذلك تمكنوا من صد الخط الثانى لهانيبال ودفعه إلى الخلف وتمزيقه إلى مجموعات صغيرة ، وهرب من أستطاع

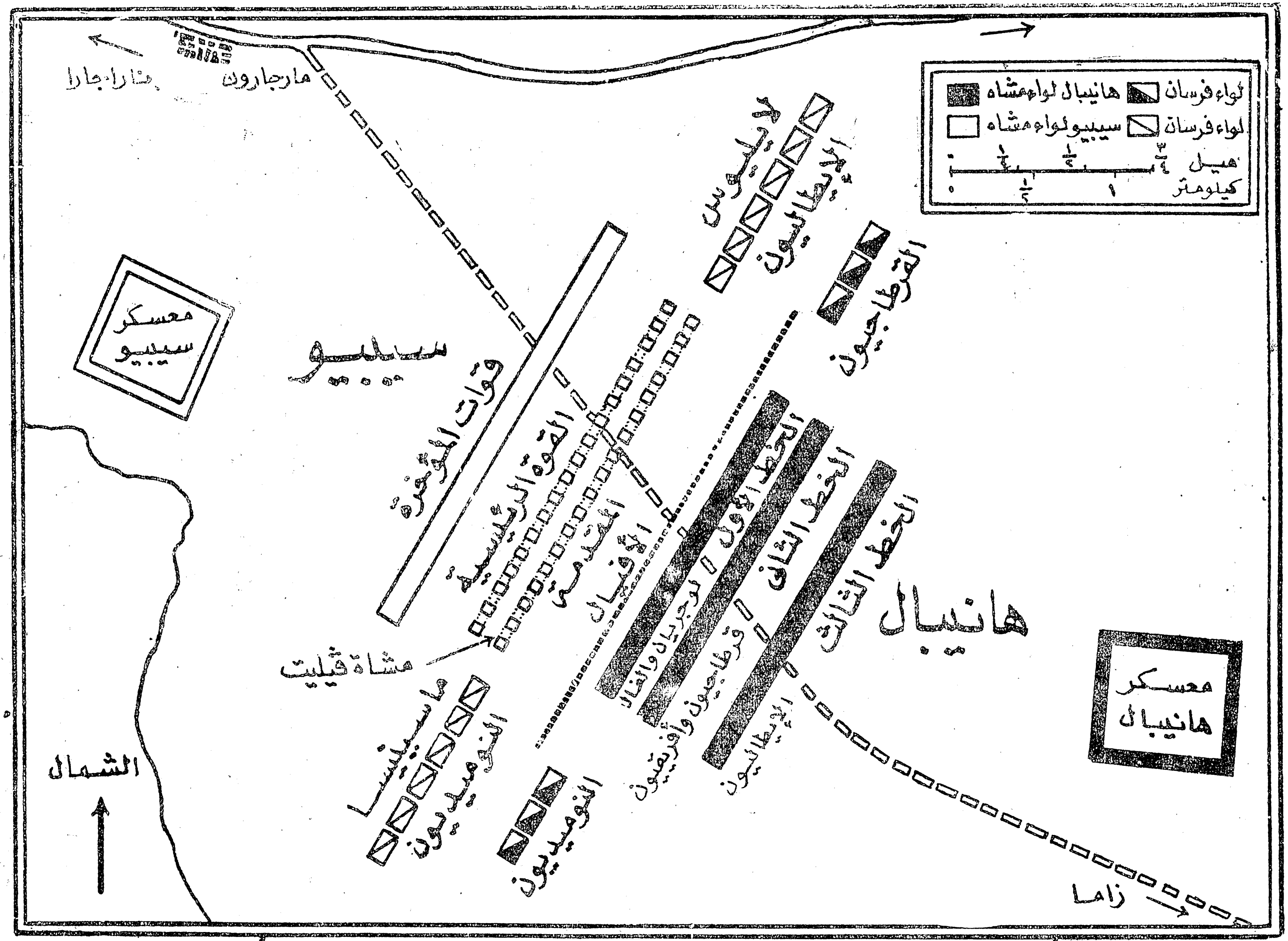

اللوحة رقم ٩ - معركة زاما

النجاة إلى الخط الثالث طالباً الحماية ولـكن هانيبال رفض انضمام هؤلاء المهزومين إلى صفوف قواته المنظمة والتي لازالت فى كامل نشاطها وقوتها ولم تشترك بعد فى المعركة وأشهرت قوات المؤخرة حرابها مما جعـــل هؤلاء المهزومين يهربون إلى المناطق الجانبيـة لأرض المعركة واختفوا .

والآن أبتدأت المرحلة الثالثة من المعركة وكانت أعنف أطوارها فقد إستعدت جنود الخط الثالث لهانيبال للقتال فى نفس الوقت كان الرومان سعداء لقضائهم على خطين من خطوط العدو ، ولـكن فى نفس الوقت كانت قوات الرومان فى أقصى حالات الاجهاد وكان يتحتم عليهم أن يواجهوا مشاة هانيبال الموجودين فى الخط الثالث وهم فى أكمل قوة ونشاط . ولـكن سيبيو قام برباطة جأش غير عادية بالتفتيش على قواته ذات المستوى العالى من التنظيم حيث أمر بإرسال الجرحى إلى المؤخرة مع ارسال قوات المقدمة المجهدة إلى الأجنحة وقام بتكوين جبهة ممتدة قوية بعد أدماج القوة الرئيسية مع قوة المؤخرة حتى يستطيع توجيه ضربة قوية للعدو واختراق خطوطه وقد قال عنه بوليبيوس : ـ «لقد هاجم الخطين كل على الآخر بأقصى ضراوة وأكبر كمية نيران(١) وكان الجانبين تقريباً متساويين من حيث العدد والروح المعنوية والشجاعة والأسلحة واستمرت المعركة وقتاً طويلا دون أن تحسم لأحد الطرفين ، فكان الرجال يقاتلون ببسالة فى كلا الطرفين ويسقطوا قتلى دون أن يسمح أحد منهما بمرور الآخر عبره ولو خطوة واحدة » .

وأخيراً عادت فرسان ماسينيسا ولايليوس الرومانية بعد أن انتهت من مطاردة فرسان هانيبال ، وقامت بضرب مؤخرة مشاة هانيبال فتبعثروا وقتلوا فى أماكنهم وتمكن القليل جداً منهم الفرار بجلده وانتهت المعركة . انتهت بنصر سيبيو ويرجع الفضل أولا وأخيراً للفرسان الذين أكدوا النصر بالمرور خلال المدينـة كلها بتطهيرها من فلول الأعداء ، أما هانيبال نفسه فقد هرب .

أما سيبيو فلم يحاول الزحف نحو قرطاجة لافتقاره لوسائل وإمكانيات الحصار ، بالإضافة إلى رغبته فى فرض شروط معتدلة للسلام أكثر من رغبته فى فرض شروط إنتقامية .

---

(١) كمية نيران يقصدبها أقصى أستخدام للاسلحة . «المعرب»

التعليق على هانيبال وسيبيو

والآن سوف نناقش ونقارن بين مزايا كل من القائدين هانيبال وسيبيو وقد علق ليدل هارت على معركة زاما بقوله :ــ «فى تلك المعركة تقابل سيد الحرب مع أعظم منه» وحقيقة هذه العبارة أن سيبيو فاز على هانيبال فى المعركة الوحيدة التى تقابلا فيها ، ولذلك فليس من السهل تقييم المزايا القيادية لهذين القائدين ، ولكن من الواضح أن هانيبال كان أفضل كقائد تكتيكى لأن عبقريته التكتيكية فى معركة كانا لا يمكن مقارنتها بقيادة أى معركة عبر التاريخ الحربى كله . والجدير بالذكر أن جيش هانيبال فى معركة زاما كان أقل فى نوعيته من جيش سيبيو نتيجة لوجود عدد كبير من مشاته غير مدربة بالإضافة إلى أن فرسانه كانت نصف فرسان سيبيو مما أدى أنه لم يستطع استخدام تكتيكات الالتفاف التى حقق بها انتصاراته السابقة ولذلك كان عليه استخدام الفيلة واعتمد كل شىء فى سير المعركة على سلوك هذه الفيلة ، وقد أحدثوا له كارثة فادحة ، ونرى بعد ذلك أنه فى نهاية المعركة أبقى على أحسن قواته من المشاة فنجح فى التصدى للمشاة الرومانية وكاد أن يفوز بالمعركة .

أما سيبيو فلم يبدو منه أى خطأ أثناء معركة زاما ويكفيه أنه قام باعادة تنظيم قواته أثناء سير المعركة ، فكان ذلك يؤكد سيادته على مجرى القتال . ومهما كانت مقدرة سيبيو وسيادته فقد ساعدته العناية الإلهية التى أعادت فرسانه فى اللحظة الحرجة لمعاونة مشاته وقاما الإثنين بالحصول على النصر الذى يستحقانه بجداره .

أما هانيبال فقام بكل ما كان فى وسعه ، ولكنه فى عام ٢٠٢ ق . م بعد ١٦ عاماً من قيادة مستمرة عظيمة ، ألقى بنفسه فى هوة النسيان فى نفس الوقت وصل سيبيو وبدون منازع إلى القمة .

وقد كان سيبيو بالتأكيد أعظم التكتيكيين الرومان ، وأدرك أن الافتقار إلى الفرسان هى نقطة ضعف الجيش الرومانى ، بينما كانت فرق المشاة الرومانية متفوقة على أى مشاة أخرى شهدها العالم ، ولكن بدون فرسان أصبحت هذه الجيوش عاجزة إلى أبعد حد ولهذا السبب لم يكن الرومان يمثلون خصما قوياً للجيوش المقدونية فى القرن الرابع ق . م . وقد قام

سيبيو بإصلاح ذلك النقص محققاً النصر فى كل من باجراداس وزاما ، ولكن يجدر هنا أن نقول أن سيبيو بادراكه الحاجة إلى الفرسان مع استخدام أسلوب جديد لها ما هو إلا اعتراف بسيادة هانيبال فى هذا المجال ، لأن استخدام سيبيو للفرسان كان مماثلا للأسلوب الكلاسيكى الذى وضعه الإسكندر وهانيبال، وتشكيل الهلال الذى طبقه فى «اليبا» كان يشبه لدرجة كبيرة لتشكيل هانيبال فى كانا .

ولسوء حظ سيبيو أنه اعتمد بالنسبة للفرسان على حلفائه والمرتزقة بدلاً من اعتماده على الرومان المدربين . وفى حروب القرن الثانى ق . م (بعد سيبيو) وجد الرومان أنفسهم يواجهون بأعداء من المشاة فقط فنسوا تماماً دروس سيبيو التكتيكية . ولقد كان واضحاً أن كل من هانيبال وسيبيو أمتازا بقدرتهما على التعامل مع الجنود ، فقد قام هانيبال بغزو إيطاليا بجيش مشكل من عناصر مختلفة من كل أجزاء غرب البحر المتوسط . وقام بتدريب هذا الجيش وقاده نحو أعظم الانتصارات . كما قال بوليبيوس : — « استمر هانيبال فى إيطاليا يحارب روما لمدة ١٦ عاماً متواصلة دون أن يسرح جيشه ولو مرة واحدة بل احتفظ بأعداده الكبيرة تحت سيطرته بدون أن تظهر اى علامة استياء أو تزمر بين هذه القوات » .

ولقد كان بارعاً فى علم النفس ، ليس فقط لحفاظه على معنويات جنوده مرتفعة بل أيضاً لخداع وإرباك خصومه .

وكان كلا القائدين شجاع ومحبوب من جنوده وأظهر سيبيو تفهمه وإدراكه العميق للعامل الإنسانى فى الحرب فأخذ يجوب بين صفوف رجاله يثير فيهم الحماس ، وفى نفس الوقت أمر هانيبال ضباطه بالمرور على الجنود وتشجيعهم . وعلى أى حال ربما يرجع عدم قيام هانيبال بمثل عمل سيبيو إلى مشكلة اختلاف اللغة فى جيشه المتعدد الجنسيات .

وإذا كان هناك تفوق إمتاز به سيبيو على هانيبال هو بلاشك الاستراتيجية التى حسمت الأمر فى النهاية ، وقد أظهرت سيبيو على أنه واحد من القادة العظام فى التاريخ ، بينما كانت إستراتيجية هانيبال فى إيطاليا بمثابة الفشل الكامل ، لأن انتصاراته الثلاث المتوالية فى الفترة من ٢١٨ — ٢١٦ ق . م لم تحقق ما كان يأمله من حدوث شقاق وتصدع فى الشعب الرومانى ، وقد كان ماهربال على حق عندما قال لهانيبال بعد معركة كانا أنه لم يحسن استغلال النصر

ومن العجيب أن هانيبال لم يحاول قط التدريب على أعمال الحصار فلم يفكر فى احتلال روما ولكن كان يجب أجراؤها على الأقل ليخضع القلاع التى تعتمد عليها الاستراتيجية الرومانية الفابية[1] . وبعد معركة كانا فقد هانيبال المبادأة فأعطى الفرصة لفابيوس ليحول دفة الحرب ضده ، ووجد نفسه فجأة محاصراً فى جنوب إيطاليا ومن الواضح أنه لم يفهم أهمية القوة البحرية وعلى النقيض منه فقد أظهر سيبيو عظمته الحربية وبعد نظره فى الاستراتيجية ، بضرب قواعد العدو مباشرة عندما يكون ذلك ممكنا ، وفى كل مرة يقوم بذلك يحصل على نتائج باهرة . فكان استيلاءه السريع على قرطاجة الجديدة هى نقطة التحول للحرب فى أسبانيا .

نخطته فى إبقاء هانيبال فى جنوب إيطاليا مع توجيه ضربه إلى إفريقيا لتدمير عقر دار العدو لإجباره على وقف نشاطه فى إيطاليا كان ذلك عبارة عن استراتيجية رائعة لقائد عبقرى ، وقد كان سيبيو على قدر كبير من الذكاء عندما استدرج هانيبال إلى المعركة النهائية فى زاما وذلك بالسير خلال وادى باجراداس الخصب وتدميره ، فهدد بذلك أهم موارد قرطاجة وفى نفس الوقت سحب هانيبال بعيداً عن قرطاجة نفسها بينما قصر المسافة التى سيقطعها ماسينيسا بفرسانه لينضم لفرسان الرومان فيتحقق التفوق فى الفرسان التى سيكون لها دوراً حاسماً .

ويرجع النصر المطلق الذى فاز به الرومان على قرطاجة فى الحرب القرطاجية الثانية إلى صمود شعبها فى أعقاب كارثة كانا عام ٢١٦ ق . م وإلى تفوقها فى البحر وإلى استراتيجية سيبيو .

حرب العبيد الأولى

لقد كان كلا الجانبين فى زاما يعلم تماماً بأهمية هذه المعركة وكما كتب ليفى : — « قبل حلول الظلام سيعرف من سيضع القوانين للدول . . . روما أو قرطاجة ، ولن تكون هذه القوانين لأفريقيا أو لإيطاليا . . . بل سيكون العالم كله غنيمة للمنتصر » .

فمن المؤكد أن تلك المعركة حددت مصير غرب البحر الأبيض المتوسط ، مع وضع

---

(١) الاستراتيجية الفابية هى الاستراتيجية التى تعتمد على الحذر وتجنب الأشتباك بقدر الامكان .
« المعرب »

شروط للسلام تضمنت نزع سلاح قرطاجة مع دفعها تعويضاً، وأصبحت نوميديا محمية رومانية وقسمت أسبانيا إلى مقاطعتين رومانيتين ويقيم فيهما جيش رومانى بصفة دائمة ، كما خضع السكان هناك للضرائب والخدمة العسكرية الرومانية ، وهكذا انبثقت الإمبراطورية الرومانية بعد الحرب القرطاجية الثانية .

وخلال القرن الثانى ق . م خاضت روما حرباً متواصلة لمد نفوذها فى منطقة البحر الأبيض المتوسط والمحافظة عليها . وفى عام ١٤٦ ق . م دمرت قرطاجة تدميراً نهائياً ، وقامت فى مقدونيا ثلاثة حروب . وفى معارك سينو سيفالا عام ١٩٧ ق . م وبيدنا عام ١٦٨ ق . م انتصرت فرق الرومان التى تتمتع بخفة الحركة على فرق الاغريق القوية ، ولكن ظهر فى بعض هذه الحملات عدم كفاءة القيادة وسوء تنظيم الفرق وأكثر من ذلك تفشى الفساد فى الشخصية الإمبريالية الرومانية وعلى سبيل المثال ، فقد ذبح أواستعبد الكثير من ضحايا معركة بيدنا . وفى عام ١٦٧ ق . م ألغيت جميع الضرائب المباشرة فى إيطاليا ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت روما تعيش على الجزيات الإمبريالية وتجارة الرقيق ، ويحتم مثل هذا الإقتصاد إخضاع وإستعباد مناطق إضافية أخرى. وأصبحت أفريقيا ومقدونيا واليونان وآسيا الصغرى مقاطعات رومانية . وأصبح الرومان مكروهين بسبب حكمهم الإبتزازى وقامت ثورة فى أسبانيا فى عام ١٥٤ ق . م ضد الحكم الرومانى القاسى ، وبعد قتال ٤ سنوات استسلم بعض الثوار للقائد الرومانى «جالبا» الذى أمر بذبحهم ، ومع ذلك استمر الأسبان فى القتال بحرب العصابات بقيادة فيرباتوس ، ولكن فى عام ١٣٣ ق . م وبعد ثمانى سنوات من الحصار الرومانى لهم سقط معقلهم فى نومانتى ، وكما حدث مع قرطاجة ومع كورنيت ، فقد أبيدوا عن آخرهم .

وفى عام ١٣٥ ق . م قامت ثورة العبيد فى صقلية والتى عرفت بحرب « العبيد الأولى » ، والتى استمرت وقتاً طويلا ومضطرباً من التمرد والحرب الأهلية وانتهت الحرب فى نوميديا وقضى عليها كل من جايوس ماريوس وسولا فى الفترة بين ١١٢ — ١٠٦ ق . م .

ماريوس وتعديلات الجيش

وقام ماريوس فى الفترة مابين ١٠٢ — ١٠١ ق.م بصد غزوات القبائل الجرمانية وقام بتعديلات هامة فى الجيش فى الفترة بين ١٠٤ — ١٠١ ق.م وبصفة خاصة تنظيم الفرق ونظام التجنيد والتطوع وكان يهدف من ذلك إيجاد تنظيم للجيوش يلائم كل الظروف. وقد مهد قواد كثيرون من قبله لهذه التعديلات مثال لذلك ما قام به أميليوس باولوس فى بيدنا بتجميع السريا فى مجموعات أكبر.

وقام ماريوس برفع مرتب الوحدة التكتيكية الرئيسية بدلا من السرية (بها ١٢٠ جندى) إلى الكتيبة (بها ٦٠٠ جندى) لكى يعطى الفرقة أكبر قدر من التماسك مع احتفاظها بالمرونة وفى نفس الوقت قام بتحديد عدد جنود الفرقة ليكون ٦٠٠٠ مقاتل وبذلك صار هناك ١٠ كتائب فى الفرقة الواحدة، وكل كتيبة مقسمة إلى ستة مجموعات كل منها بها ١٠٠ رجل وكل مجموعة يقودها قائد يدعى « قائد المائة » وألغيت حربه القذف التى ظلت مجموعات المؤخرة تستعملها لأمد طويل وتم تسليح الثلاث خطوط بنوع متقدم ومتطور من الرماح، واختفت مجموعات الفيليت وكذا فرسان الفرقة، ومن الآن فصاعداً أصبح الحلفاء هم مصدر الفرسان والمشاة الخفيفة وأصبحت الفرقة المشاة الثقيلة أكثر تعاوناً وقوة والتى كانت وسيلة يوليوس قيصر فى فتوحاته كما أعطى ماريوس لكل فرقة علماً مميزاً به نسر لتستخدمه فى إعطاء الإشارات وكنقطة للتجمع وأصبحت هذه الأعلام بمثابة شعارات للفرق وفقدها فى المعارك يعتبر عاراً كبيراً. وكانت تشابه الأعلام التى تستخدم فى وقتنا الحاضر فى كثير من الجيوش أو النسور التى أعطاها نابليون لألويته، وأهم ما قام به ماريوس من تغيير فى الجيش هو التوسع فى نظام التجنيد والتطوع. ولما كان ماريوس نفسه من أصل فقير فكان نجاحه السياسى يدين للتأييد الشعبى، فلم يرض أن يكون جيشه من طبقة الأغنياء فقط ولذا فتح باب التجنيد والتطوع لكل من يرغب فى الإلتحاق بالجيش وأدى هذا التغيير إلى سرعة إحتراف الجندية، أما على السياسة فكان تأثيره ثورياً فقد إمتلأت العاصمة الامبريالية بأعداد غفيرة من الجنود الكسالى الذين تطوعوا فى الجيش وجعلوه مصدر رزقهم. وكان ولائهم كبيراً لقائدهم الذى أدخلهم الجيش وليس للدولة، لأن الدولة لم تكن قادرة على دفع أجورهم. ولذلك كان قائدهم يسلحهم ويتبعوه طالما كان ناجحاً،

ويسمح لهم بسلب الغنائم من الأعداء . وقد أدى هذا إلى ظهور عدد من الساسة العسكريين فى القرن الأول ق . م ومنهم ماريوس وسولا وبومبى ويوليوس قيصر . وكانت هذه البدعة أكثر من أى شيء آخر والسبب الرئيسى فى الصراع ، وقد كتب ساليست : —

« لقد ألقوا كل شيء . . . البشر والكهنة فى بحر من الفوضى والارتباك حتى وصلوا إلى درجة الجنون ، فأسفرت هذه الفوضى الأهلية عن حرب ودمار إيطاليا . »

وقد أدى تطور نظام المرتزقة عندالرومان أنهم هزموا أعداءهم كثيراً فى الخارج، ويعنى أيضاً أن سياسة روما الداخلية أصبحت تعتمد على القوة .

وقد اتسع مجال التطوع فى الجيش عندما منح الحلفاء حق التجنس بجنسية روما .

سولا الدكتاتورى

ومنذ عام ١٠٦ ق . م أصبحت العلاقات على غير ما يرام بين كل من ماريوس وسولا ، واصطدمت أطماعهما السياسية ، وفى عام ٨٨ ق . م قام ميتريديتس الرابع ملك بونتس (١) بغزو إقليم آسيا ، بينما ثار الرعايا الأحرار فى اليونان وقتلوا حاكمهم الرومانى . وعلى الفور انتخب سولا قنصلا ومنح القيادةالشرقية ، فامتلأ ماريوس غيرة عندما وصله هذا النبأ وكان يسحق تمرداً فى كامبانيا ، فما كان منه أن توجه فى ثورة غضبه إلى روما ، منتهكا التقاليد التى تنص على عدم دخول الجيش العاصمة ، وأطلق رجاله فى العاصمة وانتشر الماريانيون فى الشوارع يحاربون وأصبح ماريوس نفسه خارجا عن القانون فانطلق هاربا .

وفى أوائل عام ٨٧ ق . م بدأ سولا التقدم شرقاً ومعه خمسة فرق حيث استولى على أثينا ونهبها ، ثم هزم بعد ذلك أرشيلوس القائد البونتى عند كايرونيا ثم أوركومنيوس أيضاً . وفى تلك المعارك استغل سولاالتشكيلات الجديدة للفرق إلىأقصى حد . وأضاف إلى تكتيك المشاة مرونة وقوة دفع جديدتين . فى ذلك الوقت غدرت عليه روما وقررت عزله ولكنه لم يرض بالتخلى عن قيادته .

وفى عام٨٣ ق . م عاد بجيشه إلىجنوب إيطالياوكان ماريوس قدمات ، وفى نوفمبر عام ٨٢ ق . م دخل سولا إلى روما وهزم آخر خصومه فى معركة خارج بوابة كاين ، وقام

(١) بونتس : تقع شرق الأناضول

بقتل جميع الاسرى فى المدرج الرومانى ، ونصب سولا نفسه حاكما ديكتاتورى ، وقام بتأمين حكمه بالتخلص من ٣٥٠٠ من أعدائه بقتلهم وظل يحكم حتى اعتزل عام ٧٩ ق . م .

وأثبتت حكومة سولا بأنها حكومة مفيدة ، ولكن الحقيقة المؤلمة أنها كانت حكومة ديكتاتورية تؤيدها القوة العسكرية .

صلب ستة الاف سجين

كانت القوة الأساسية للفرق الرومانية مشكلة من الجنود المتطوعين الفقراء والكسالى وكانوا على استعداد لبيع أنفسهم لأى قائد حتى لو كان عديم الضمير ومجرد من المبادىء والأخلاقيات .

وقد استطاع جنايوس بومبيوس[1] أن يصبح أحد قادة المرتزقة .

وخلال للسبعينيات انفجرت ثلاث ثورات خطيرة ضد روما ، ففى عام ٧٦ ق . م أرسل بومبى إلى إسبانيا ليخمد التمرد الذى قام به القائد الرومانى السابق كونيتوس سيرتوريوس وكان هذا القائد من تلاميذ ماريوس ، وقام بتدريب جيشه على البراعة فى كل من تكتيك الفرق المشاة وحرب العصابات ، وكان يسيطر على كل أسبانيا واستطاع فى أول الأمر التفوق على بومبى ولكن فى عام ٧٢ ق . م أخمدت هذه الثورة .

وفى عام ٧٢ ق . م قام ماركوس لوسينيوس كراسوس بإخماد ثورة قام بها العبيد تحت قيادة المصارع سبارتكوس وقد حوصر العبيد بواسطة زلزال على أطراف إيطاليا واقتيدوا ليقوموا بأعمال الحفر على طول الطريق (من روما إلى كايوا) حيث صلب ٦٠٠٠ منهم . فى ذلك الوقت كان لوسيوس لوكولاس مشغولا فى إخماد الاضطرابات التى قام بها ميتريدتس واستطاع فى الفترة بين عام ٧٣ — ٦٩ ق . م من تطهير آسيا الصغرى . ولكن عندما بدأ التقدم نحو أرمينيا قام جنوده بالتمرد فاضطر إلى العودة قبل أن يكمل النصف الثانى من مهمته .

وكان لوكولاس قائداً كفأ وشجاعاً كما كان إنسانا يعترف بالقيم الإنسانية أكثر من

---

(١) جنايوس بومبيوس : — وهو أحد ضباط سولا وقد عرف بأسم بومبى « المعرب »

أن يكون قاهراً وغازياً ، كما كان فى نفس الوقت غاية فى الصرامة والنظام حتى يضمن ولاء المرتزقة وجنود روما المحنكين . وبعد عودته اعتزل الحياة العسكرية ليقضى بقية حياته فى هدوء وترف ونعيم .

وكانت أقوى شخصية فى روما خلال الستينيات هو بومبى ، فخلال حروب ميتريدتس أصبحت القرصنة مصدراً للازعاج والخطورة ، فكانوا يعملون فى جميع أنحاء البحر الأبيض فى تعاون قريب ، متخذين كريت وسيليسيا قاعدة لهم . وكانوا يمتلكون حوالى ١٠٠٠ سفينة مطلية بالذهب والفضة والأرجوان .

وكانوا يعاونون كل من سيرتوريوس وميتريدتس ، وأصبحت غاراتهم تتميز بالجرأة فسببت خسائر فادحة ، واستولوا على مدن وجزر منطقة بحر إيجة وقاموا بغارات على سواحل إيطاليا لاختطاف الأغنياء وعلى سبيل المثال اختطفوا يوليوس قيصر وهو صغير ، وأخطر من ذلك كله هو قطع واردات القمح عن روما لذلك وضع على عاتق بومبى عملية تصفية هؤلاء القراصنة .

القضاء على القراصنة

وقام على الفور بحشد ٢٧٠ سفينة وتكوين عشرون فرقة وقدراً كبيراً من المال (٦٠٠٠ تالنت) وقسم كل من البحر الأبيض والأسود إلى ثلاث عشرة قيادة كل منها تحت أمرة قائد يسمى ليجاتوس . وكان كل ليجاتوس عليه أن يحاصر سفن القراصنة مع إخضاع قلاعهم الموجودة فى منطقته . وكان هؤلاء القادة يعملون متعاونين لمنع سفن القراصنة من مساعدة بعضها البعض . وفى ربيع عام ٦٧ ق . م قام بومبى ومعه أسطول مكون من ستون سفينة وأخذ يجوب البحر المتوسط من الغرب إلى الشرق . وكان يستخدم أسلوباً تكتيكياً مستحدثاً بأن يجبر سفن القراصنة للدخول فى مدى الضرب لسفنه الأخرى المنتشرة فى المنطقة . وفى خلال أربعين يوما تم تطهير المنطقة الواقعة غرب إيطاليا . وقام بزيارة سريعة لروما لتفقد الأمور السياسية ثم استأنف عملياته من بروندزيوم (١) . ومع تحرك الرومان شرقاً تحول حصار موانى سيليسيا إلى هجوم شامل بينما كان الغرب فى حالة من الأمان ، وأخذت

(١) بروندزيوم وهى برنديزى

القراصنة فى الاستسلام عندما شاهدوا المعاملة الحسنة للأسرى. أما القراصنة الأقوياء المتهورين فقد هربوا إلى حصون مختلفة. فأعد بومبى قوة كبيرة معززة بأدوات الحصار وبعد أن هزم آخر القراصنة أمام شواطىء كوراسيزيوم، قام بحصار معقلهم الموجود على الشاطىء وكان عبارة عن قلعة مقامة على صخرة عالية منحدرة بحدة على البحر وتتصل بالشاطىء عن طريق برزخ ضيق، وباستسلام المدافعين فى هذه القلعة استسلمت باقى القلاع فى سيليسيا، وقد استغرقت عملية التطهير من بدايتها إلى نهايتها حوالى ثلاثة شهور. وقد أظهر بومبى مقدرة رائعة كقائد بحرى ليس لأنه من قادة الحرب البرية بل أيضاً لأن الرومان كانوا قليلى الخبرة فى معارك البحر. ولكن عندما استدعت الظروف لذلك، عادوا إلى قتال البحر ولكن عندما انتهت تلك الظروف عادوا ثانية إلى حياة الأرض واضعين السياسة الخارجية والاستراتيجية فى إطار يمكنهم من تحقيق أغراضهم من هناك. ولم يبنوا أسطولا كبيراً إلا عندما اضطروا للقتال مع القوة البحرية الكبيرة القرطاجية. واستطاعوا فى خلال ستون يوماً بناء ٢٠ سفينة من النوع ثلاثى المجاديف و ١٠٠ أخرى من السفن السريعة. وكانت الخطة التى اتبعوها هى وضع السفن الرومانية على طول خط سفن الأعداء بحيث يمكن لجنودهم من العبور بعد ذلك إلى سفن الأعداء عن طريق ممرات خشبية توصل بين السفينتين.

وحقق ديليوس نصراً مثيراً بالأسطول الجديد فى صقلية فقد أغرق أو أسر أربعة وأربعون سفينة معادية.

بينما ضاع النصر الثانى أمام رأس أيكونامس عندما فقد الأسطول على أثر عاصفة هوجاء وفقدت روما خلال تاريخها البحرى سفناً نتيجة للعوامل الطبيعية أكثر مما فقدته نتيجة للعدو، وكان انتصار دريبانا البحرى عام ٢٤١ ق. م خاتمة للحرب القرطاجية الأولى. وفى الحرب القرطاجية الثانية، (٢١٨ — ٢٠١ ق. م) ساهم تفوق روما البحرى فى تحقيق انتصارها الكامل، فضاعت الفرصة من هانيبال لإعادة تقوية نفسه فى جنوب إيطاليا فى الوقت كان الرومان يغزون أفريقيا. وقد أهملت روما أسطولها خلال القرن الثانى ق. م واعتمدت على أسطول حلفائها من رودس وبرجاموم. وعندما أصبحت روما المسيطرة على جميع بلاد البحر المتوسط، أهملت سيادتها للبحار ونتج عن ذلك إنتشار القراصنة.

أما فى نهاية عام ٥٩ ق . م وصلت أنباء الى روما بقيام هجرة من سويسرا عبر الجنوب الغربى للغال .

يوليوس قيصر يظهر على مسرح السياسة : — (أنظر اللوحة رقم ١٠)

يوليوس قيصر

كلف يوليوس قيصر حاكم أليريكوم والغال بهذه المهمة . وبمجرد أن انتهى من واجباته كقنصل فى هذا العام تحرك بسرعة فائقة إلى جنيف فى ذلك الوقت كان عمره ٤١ عاما وتجربته العسكرية السابقة محدودة ، ففى عام ٨١ ق.م خدم فى آسيا الصغرى ، وفى حرب ميتيلين حصل على وسام الوطنية لإنقاذه لحياة جندى من زملاءه ، ولكنه بعد ذلك ركز اهتمامه على الأعمال السياسية وضمن لنفسه مركز قنصل بعد أن توصل فى عام ٥٩ ق . م لإتفاق مع كل من بومبى وكراسوس لأنه أبن عم لماريوس . وقد شق يوليوس طريقه وأصبح قنصل عن طريق النفوذ السياسى وجمعه بين التهديد العسكرى والقدرة على الخطابة والتعامل مع طبقات الدنيا وعامة الشعب . ومن المحتمل عندما أسرع إلى جنيف عام ٥٨ ق . م مع تيتس لابينوس لم يكن فى نيته غزو الغال ، ولكنه كان طموحاً ويريد إكتساب شهرة ويكون لديه جيشاً قوياً حتى يستطيع البقاء متربعاً على قمة السياسة الرومانية .

وفى بداية صيف عام ٥٨ ق م أقام سلسلة من الحصون فى وادى الرون لمسافة ١٩ ميل ثم هزم السويسريين بعد ذلك عند أرميسى وتحول بعد ذلك إلى الغال فى صورة منقذ وليس فاتحاً ، ثم واصل تقدمه شمال الحدود القديمة لروما لتطهير الألزاس من الغزاة الجرمان الذين استوطنوها حديثاً واكتسحت ستة فرق ليوليوس فى تشكيل الخطوط الثلاثة سبعة قبائل جرمانية بالقرب من فيسونتيو .

وفى شتاء ٥٨ — ٥٧ ق . م ترك يوليوس فرقة فى تلك المنطقة مما أدى إلى حقد بيلجا[1] لهذا الاختراق للجيوش الرومانية . وفى ربيع ٥٧ ق . م هرع يوليوس قيصر شمالا ليواجه الجيش البيلجى المكون من ٣٠٠٫٠٠٠ مقاتل بقيادة جاليا عند نهر إيسن . وقد اتبع الجيش البيلجى أسلوباً بدائياً بربريا فقاتلوا بجماعات غير منظمة من المشاة ، ومعظمهم غير مسلحين

(١) بيلجا . — أحدى أجزاء التحالف الجرمانى للقبائل التى أستوطنت شمال الغال . «المعرب»

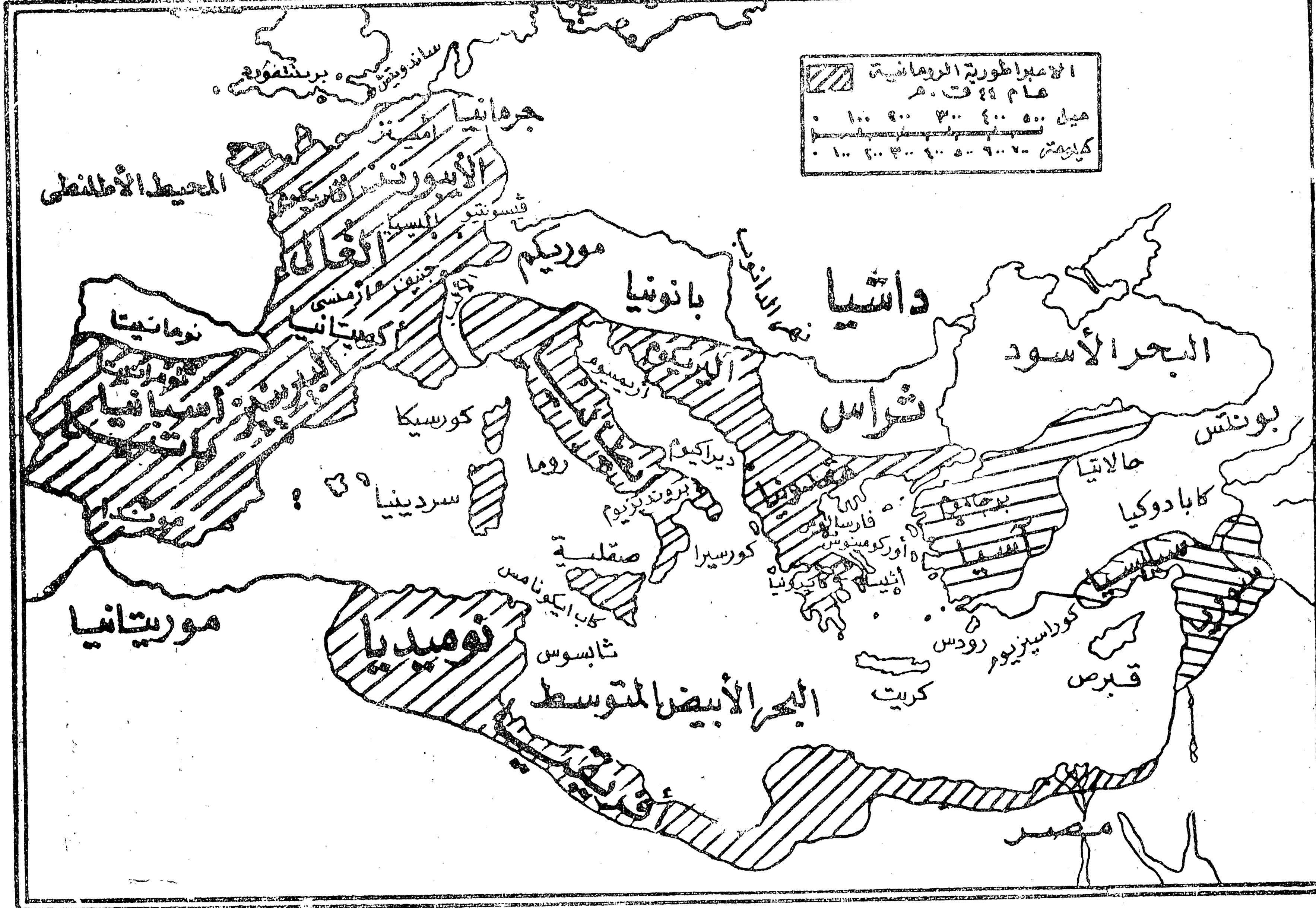

اللوحة رقم ١٠ - الامبراطورية الرومانية في عهد يوليوس قيصر

إلا بسيف طويل ودرع من الخشب أو الوتل[1] وكانوا يقاتلون وهم نصف عرايا ، فى نفس الوقت قادتهم يلبسون دروع واقعية للصدر من البرونز وعلى رؤوسهم خوذات مزخرفة . وقد كان أسلوبهم الوحشى البربرى فى القتال ينجح دائماً ، ولكن عندما طبقوه مع الرومان كما قال فوللر : « تحطمت الشجاعة على صخرة النظام » واستغل يوليوس الانشقاق بين قبائل البلجية فحارب كل قبيلة على حدى وفى نهاية عام ٥٦ ق . م تم له فتح كل الغال فيما عدا « ماسيف الوسطى »

يوليوس قيصر يغزو بريطانيا

وفى خريف عام ٥٥ ق . م قام يوليوس قيصر بأول رحلة له إلى بريطانيا وفى الواقع كانت رحلة استطلاعية . وفى يوليو عام ٥٤ ق . م أبحر سطول يمكن أن يقال عنه من أضخم ما شهده بحر المانش لما قبل حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ متجهاً نحو ساندويتش ويحمل خمسة فرق و ٢٠٠٠ فارس من الغال وكان البريطانيون منزعجين جداً من مواجهة هذا الحشد الضخم عند نزوله إلى الشاطىء فما كان من يوليوس أن طاردهم داخل البلاد ولكنه سمع خلال أربع وعشرين ساعة بأن سفنه دمرت نتيجة للطقس السىء وهنا تشجع البريطانيون وبدأوا حرب العصابات وكانت عنيفة يقودها كسفيلونس . وعموما فقد هزمهم يوليوس فى معركة بالقرب من برينتفورد واستولى على قلعة كسفيلونس على الجانب الآخر من نهر التيمز . وحان الوقت ليعود إلى الغال لذلك فرض شروطا معتدلة على البريطانيين ثم انسحب ولم يعد الرومان بعد ذلك الى بريطانيا لمدة مائة عام . ولم يحدث مطلقاً أن دفع البريطانيون ما فرض عليهم من الجزية . ويجب النظر لعملية الغزو الذى قام بها يوليوس لبريطانيا بشىء من العمق ويمكن تفسيرها بأنها مجرد تغطية للفشل .

ولم يكن عامل الوقت هو الاعتبار الوحيد لعودة يوليوس إلى الغال ولكن لأعتبارات أخرى أكبر وهى قيام الثورات التى تفجرت فى عدة أماكن هناك . وفى عام ٥٣ ق . ظهر أمبيوريكس قائد للمتمردين وكان يقود الأيبورنز وقد أباد فرقة رومانية كاملة

(١) الوتل عبارة عن قضبان مضفرة من الأغصان . « المعرب »

بالقرب من أمينزثم حاصر معسكراً رومانياً مستخدماً الأسلوب الرومانى فى الحصار . وقد قام يوليوس بفك هذا الحصار . فاضطر يوليوس أن يقضى باقى السنة فى سحق الأيبورونز . أما أمبيوريكس فقد دفع به نحو الأردين، كما جلد قائداً آخر للمتمردين حتى الموت . وبنفس النمط تمت تصفية الأيبورونز بتدمير محاصيلهم وماشيتهم كما يقول يوليوس :—

« لقد تم حرق كل ما يمكن أن يراه المرء من قرى صغيرة ومنازل وما حولها » وقد ساعد الانشقاق العميق بين المتمردين أن استطاع يوليوس النيل منهم ، ولكن فى عام ٥٢ ق . م ظهر قائد جديد لهم .. وتمكن بقسوته ونظامه أن يوحد بين ثوار الغال وكان يدعى أنتوى فرسنجتركس قائد الأرفيرنى .

فى بداية العام قام يوليوس بتقدم مفاجىء عبر التلال الثلجية ، مما أدى إلى ارباك العدو حتى أمكن محاصرة القلعة التى يحتلها أفاريكوم (بورج) وهنا قرر فرسنجتركس استخدام أسلوب حرب الانهاك والاستنزاف وتجنب مواجهة فرق يوليوس بقتال سافر ، وذلك باستخدام حرب العصابات . وحاول فك حصار أفاريكوم بأشعال النيران فى المنطقة حول المدينة كلها لحرمان الرومان من الطعام ، ولكن يوليوس أستولى على المدينة وقتل جميع سكانها واستولى على مخازن القمح بها . وأخيراً استطاع يوليوس محاصرة القلعة التى يحتلها فرسنجتركس نفسه فى باليسيا ولكنه هوجم بجيش قوى من الأعداء من الخلف وحاصره هو وقواته ، وبذلك أصبح يوليوس محاصراً بينما هو يحاصر القلعة إلا أنه سيطر على مساحة خمسة وعشرون ميلا من الخنادق والمواقع الدفاعية ، وفى النهاية تمكن من هزيمة الجيشين المعاديين داخل وخارج القلعة وكان هذا الانتصار الرائع بمثابة تحطيم السلسلة الفقرية للثورة الغالية وتم وضع سلام مبنى على الحرية وبذلك لم تعد الغال تمثل أى خطر على روما .

وفى نفس الوقت تغير الوضع السياسى فى إيطاليا تغييراً كاملا .

كارثة روما

وفى ربيع عام ٥٣ ق . م عبر كراسوس (١) نهر الفرات حيث اصطدم بالعدو عند كارا ،

---

(١) كان جيش كراسوس مكونا من ٢٨٠٠٠ من المشاة و ٤٠٠٠ فارس و ٤٠٠٠ من المشاة الخفيفة « المعرب »

وكان جيش العدو يتكون من ١٠٠٠ مقاتل من الرماة الثقيلة و ١٠٫٠٠٠ من الرماة الراكبين وخلف هؤلاء يوجد ١٠٠٠ جمل محمل بأعداد كبيرة من السهام كاحتياطى للقوات تحت قيادة سورناس . اتخذت القوة الرئيسية لجيش كراسوس تشكيل مربع وصمدوا أمام وابل من السهام الذى ظل ينهمر عليهم حتى هبوط الليل . وخلال الليل بدأ كراسوس فى الانسحاب نحو التلال ، ولكن الدليل الذى كان يقوده ضل الطريق ... وسقط كراسوس فى الفخ ، ثم اغتيل هو وأركانات حربه أثناء اجراء مفاوضات الاستسلام مع سور ناس وفر حوالى ١٠٫٠٠٠ مقاتل من جيش كراسوس الذى يقدر بحوالى ٣٦٫٠٠٠ مقاتل وكانت معركة كارا بمثابة كارثة للرومانيين إذا قورنت بكل من كودين فوركس وكانا .

وفى خريف عام ٥٠ ق . م عندما عاد يوليوس إلى ايطاليا ، لم يكن هناك سواه ... وبومبى يتصارعان على السلطة . وقد ذاع فى روما قسوة يوليوس قيصر فى الغال ، وتخوف الجميع أن يصبح سولا آخر وقد صرح بعض الشيوخ علانية بأنهم سيتهمونه بالخيانة العظمى بسبب عودته ، وفى هذه الظروف لن يكن هناك مفراً من حرب أهلية وخاصة أن يوليوس له جيشاً يدين له بالولاء والإخلاص ويتكون من تسعة فرق أما بومبى فله جيشاً مكوناً من عشرة فرق منها سبعة فى أسبانيا علاوة على سيطرة بومبى على الأسطول . وكان يوليوس يحظى بولاء شعبى أكثر مما يحظى به بومبى .

وفى يناير عام ٤٩ ق. م تأهب يوليوس للحرب وعبر نهر روبيكون(١) زاحفاً نحو الجنوب ، أما بومبى فلم تكن لديه الرغبة فى الدخول فى معركة سافرة مع فاتح الغال وقواته المحترفة المحنكة وذلك لأنه لم يشهد أى عمل حربى منذ عام ٦٢ ق. م علاوة على ضعف قواته من الناحية العددية والتدريب ، ولذلك قام فى نهاية شهر مارس بترحيل جيشه بحراً من بروند يزيوم ، فى الوقت الذى كان يزحف فيه يوليوس وجيشه نحوه. وفى خلال عشرة أسابيع من عبور يوليوس لنهر روبيكون تمكن من السيطرة على إيطاليا ودخل روما دون أى قتال .

وفى أبريل عام ٤٩ ق. م رحل يوليوس إلى أسبانيا ، وهناك خلال سبعة شهور أخضع

---

١) بالقرب من أريمنيوم « المعرب »

الفرق السبعة التابعة لبومبي دون أراقة أى دماء وضمن ولاءهم . وبعدها زحف سريعاً وعند نهر سيكوريس بالقرب من إليردا أوقع خصمه فى شرك فى أحدى الممرات الضيقة حيث استسلمت هذه القوات .

يوليوس قيصر وكليوباترا

وفى يناير عام ٤٨ ق . م عبر يوليوس وجيشه إلى مقدونيا ، حيث تسلل خلف سفن دوريات بومبي وأنزل سبعة فرق شمال كورسيرا . وحاصر جيش بومبي فى ديرا كيوم مدة من الوقت حتى بادر جيش بومبي بالقتال فى ٩ أغسطس ودارت أعنف المعارك فى الحرب الأهلية وخاضها الجيشان عند فارسالوس فى بتيسالى . وكان بومبي يرغب قبل وقوع هذه المعركة فى تجنب القتال ولكن ضباطه نفذ صبرهم ، وأدى هذا أن لحقت الهزيمة بجيش بومبي منذ البداية لاخفاق لابينوس فى دفع فرسانه الموجودين فى اليسار إلى المعركة . وفى اليوم التالى استسلمت جميع القوات المتبقية من جيش بومبي بينما فر بومبي إلى مصر . وبعد ذلك كان على يوليوس أن يتخلص من اتباع بومبي الموجودين فى مختلف المقاطعات ، فقام أولا بالسير فى أثره إلى مصر حيث قتله ووقع فى حب الملكة كليوباترا ، وبقى فى مصر تسعة شهور . وفى يوليو عام ٤٧ ق. م تمكن من هزيمة الفارناس المتمردين فى زيلا وأرسل بعدها رسالة إلى روما موجهة إلى أعضاء مجلس الشيوخ يبلغهم بانتصاراته العظيمة . مر حوالى عام على معركة فارسالوس فى ذلك الوقت وحد أتباع بومبي صفوفهم فى أفريقيا تحت قيادة لابينوس . وفى ديسمبر عام ٤٧ ق . م نزل يوليوس قيصر إلى أفريقيا بفرقة واحدة و ٦٠٠ فارس ، وفى البداية إصطدم بمقاومة عنيفة ، ولكن وصله فى الربيع التالى الإمدادات والتعزيزات فساعدته على إنهاء حملة أفريقيا بانتصاره فى ثابسوس .

وفى عام ٤٥ ق . م هزم آخر ما تبقى من أتباع بومبي فى أسبانيا عند موندا[1] وبذلك أصبح يوليوس قيصر سيد العالم كما أصبح دكتاتور روما الدائم .

وبالرغم من أن حكمه لم يكن بغيضاً إلا أنه اغتيل فى نهاية الأسبوع الثانى من مارس عام ٤٤ ق . م على يد كل من الجمهوريان بروتس وكاسيوس .

---

(١) موندا بالقرب من قرطبة « المعرب »

يوليوس قيصر كقائد وسياسى

بالرغم مما حققه يوليوس من نجاح وإنتصار كبير ، إلا أنه كان عرضة للنقد ، فقد فشل فى إجراء التغييرات الضرورية لإعادة تنظيم جيشه فكان يفتقر للمشاة الخفيفة مما إستغرق وقتاً أطول فى هزيمة الغاليين ، علاوة على أنه لم يقم بتدريب فرسانه للوصول إلى المستوى اللائق ، بل إعتمد على البرابرة فى الخيالة . وقد كان الاستطلاع فى جيشه رديئاً جداً وأهمل خطوط مواصلاته وأدى هذا الإهمال أن أسطوله كاد أن يفقد مرتين عند الساحل البريطانى ولم يكن لديه هناك أجهزة لإجراء الاصلاحات اللازمة ، علاوة على سوء الإمداد وقطع خطوط المواصلات عند كل من إليردا وديراكيوم لدرجة أن الكثير من جنوده كانوا يموتون جوعاً .

علاوة على ذلك كان يوليوس قيصر شاذا فى تفكيره الاستراتيجى ، فبعد أن قضى على الغال قام بقضاء الصيف فى جزيرة نائية ، ليس لها أى أهمية إقتصادية أو سياسية أو استراتيجية ، بينما كانت تندلع خلفه ثورات كثيرة . ولم يظهر يوليوس أى أبداع كرجل تكتيكى وتنظيمى ، فأهمل قوات الفرسان ، وقاتل فى جميع حروبه ضد مختلف أعداءه بالفرق المشكلة على ثلاث خطوط وهو التشكيل التقليدى المحض ولكنه بالرغم من ذلك كان أعظم قادة الرومان فى قيادة المشاة علاوة على قيامه بتطوير الفرق المشاة بعض الشىء .

وكان نهجه فى السياسة كنهجه فى القتال ، فعندما وصل إلى قمة السياسة كانت قراراته وأعماله سريعة . وكان جريئاً لأبعد الحدود ومندفعاً بل ومتهوراً ، وعلى العموم ساعدته خفة الحركة والمبادأة فى جميع حروبه .

وكانت شخصية يوليوس مميزة ومن أكبر عوامل نجاحه ، فمجرد أن يشعر جنوده بوجوده بينهم كان هذا يعطيهم التأكيد والثقة فى النصر . وكانت بشاشته وذكاءه من العوامل التى أدت إلى إخلاص رجاله له حتى النساء لم تستطع مقاومته . وكان فى نفس الوقت سياسى ماهر وله شعبية وموهبة خطابية فذة . وكان السبب الرئيسى فى أن الشعب الإيطالى تبعه فى الحرب الأهلية هى شعبيته وحبه لعامة الشعب . وكان يعتمد دائماً على القوة والبطش ومثال لذلك ماقام به فى الغال من بشاعة وقتل وإنتقام وبالرغم من ذلك فعندما

إنتصر فى الحرب الأهلية كان متسامحاً ومتساهلاً مع أعدائه ، ولذلك أصبح من المشكوك فيه أن يكون مختل العقل .

وبعد موته . . . تصارع مختلف السياسيين طمعاً فى إمبراطوريته ، إلى أن تمكن أخيراً إبن أخيه أوكتاڤيان من هزيمة أنطونيو وكليوباترا فى موقعة أكتيوم البحرية عام ٣١ ق. م وبذلك أصبح أول أباطرة روما .

الفصل السادس

الدفاع الرومانى ... والهجرات البربرية

عقدة ماجينو

لقد ظهر أن أوكتافيان[1] كان يفتقر إلى الصفات العسكرية التى يتمتع بها يوليوس قيصر إلا أنه كان يتميز بصفات رئيس الدولة والتى يفتقر إليها يوليوس .

وقبل أن نتكلم عن عهد أوكتافيان سنلقى نظرة سريعة على الأمبراطورية الرومانية فى حوض البحر الأبيض المتوسط بعد أن توسعت أبان عهد القيصر ، فنجد أنها كانت محصنة ومدافع عنها جيداً لتمركز الجنود على طول حدودها فأدى هذا أن إستمرت قوية لأكثر من ٤٠٠ عاما، إلا أن القوات إستمرت فى الدفاع مدة طويلة واستخدمت بطريقة سيئة فأثر ذلك على قدرتها القتالية ، وهذا يحدث دائماً فى جميع الجيوش التى تبقى قوتها مدة طويلة فى أوضاع الدفاع فتموت الروح الهجومية لديها ممهدة بذلك الطريق لما يسمى بعقدة ماجينو[2] ، وعلى مر السنين كثر دخول البرابرة الجيش الرومانى نتيجة لهبوط التعداد السكانى فى إيطاليا مع بغض الإيطاليون أنفسهم للخدمة العسكرية ، فأدى هذا أن أخذت التقاليد العسكرية الرومانية العريقة فى الانحلال تدريجيا ، لأن البرابرة قضوا على الضبط والربط والكفاءة التى تميزت بها الفرق الرومانية فى الماضى، فتغيرت شخصيتها تغييراً جذرياً. فأخذت الأمبراطورية تتآكل ببطء من الداخل وفى نفس الوقت من الخارج نتيجة للهجرات الغازية للشعوب البربرية حتى اضمحلت الأمبراطورية الرومانية فى الغرب سريعاً .

(١) أوكتافيان : لقد أطلق عليه اسم أغسطس .

(٢) ماجينو : هو الخط الدفاعى المحصن التى أنشأته فرنسا على حدودها مع ألمانيا وذلك قبل الحرب العالمية الثانية وقد اعتمدت عليه تماماً فى الدفاع عن أراضيها معتقدة أنه لا يمكن اختراق هذه التحصينات القوية ، فأدى هذا أن سيطرت فكرة الدفاع على جميع القوات الفرنسية متغاضين عن فكرة الهجوم ، فنتج عن هذا أن أجتاحت فرنسا فى أيام معدودات . « المعرب »

نعود ثانيا إلى أغسطس الذى تنبه إلى الحالة السيئة للجيش الرومانى والتى أصبحت أبعد ما تكون عن المستوى المطمئن ، فنجد أن الجيش كان مكونا أساسا من الحاشية الخاصة للامبراطور ومعظم جنودها قليلى الخبرة ومدد خدمتهم قصيرة .

رأى أغسطس من الضرورى تحصين حدود إمبراطوريته المترامية الأطراف والسيطرة على المناطق التى فتحت حديثا مع صد غارات وأعمال الغزو من الخارج ، فوجد أن كل هذا يتطلب وجود جيش منظم وجنود أكفاء ولهم مدد خدمة طويلة وفى نفس الوقت يدينون بالولاء للدولة أكثر من ولائهم للقادة العسكريين .

وفى عام ٣١ ق . م قدر أغسطس الموقف فوجد أن لديه ستون فرقة تحت السلاح ولكن تكاليف هذه القوات كانت أكثر بكثير من إمكانيات الدولة ، فى نفس الوقت تعدادها أكبر مما هو مطلوب لحماية الأمبراطورية الرومانية بالرغم من حدودها الطويلة[١] ، فى نفس الوقت درس الموقف الجغرافى والسياسى للامبراطورية الرومانية فوجد أن الحدود الغربية والجنوبية تتمتعان بحماية طبيعية لوجود الأطلنطى والصحراء الكبرى ، أما الحدود الشرقية فوجد أن من الأفضل إستخدام الوسائل الدبلوماسية لتأمينها بدلا من إستخدام القوة ، أما الحدود الشمالية فتحتم عليه وجود حامية قوية لتأمينها .

وبناءاً على هذه الدراسة قام بتخفيض الفرق إلى ثمانية وعشرون فرقة ، وأصبحت قوة الفرقة حوالى ١٦٨٠٠٠ جندى مع الاحتفاظ بحوالى ١٥٠ر٠٠٠ جندى كاحتياط وأغلبهم من الفرسان والمشاة الخفيفة ، وقد شكلت الفرسان فى كتائب يتراوح عددها من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ فارس . كما أعاد أغسطس تكوين الحرس البريتورى[٢] وشكله فى تسع كتائب وقوة الكتيبة ألف جندى إيطالى مختارين جيداً وأقوياء ، وكانوا هؤلاء يمثلون حامية روما وفى نفس الوقت الحرس الخاص للامبراطور . وكان يتقاضى الحرس أجوراً أعلى من باقى الجيش ، ولا يخرج للقتال إلا بصحبة الأمبراطور نفسه وقد شعر البريتوريون سريعا بقوتهم

---

(١) كانت تشمل جميع بلدان ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وقد امتدت ايضا على طول الدانوب والراين و خلال اسكتلندا .

(٢) الحرس البريتورى: وهو الحرس الخاص للامبراطور . « المعرب »

وتأثيرهم على سياسة الدولة حتى أصبحوا يتدخلون فى جميع مصالح الدولة ويسيرونها حسب هواهم ، لدرجة أن نيرون انتحر عام ٨٦ ب . م ليتجنب الإعدام بواسطة رجال الحرس[١] ولذلك لم يكن هذا الحرس محبوبا .

المدرعات فى عهد أغسطس

لو ألقينا نظرة على الأعمال التى كانت تقوم بها البحرية الرومانية لوجدنا أنها تنحصر فى الدوريات وحراسة المياه الصديقة ، إلا أنها كانت قوة لا يستهان بها ، فقد أنشأ أغسطس قاعدتين بحريتين جديدتين فى إيطاليا أحداها فى ميسينوم والأخرى فى راڤينا علاوة على وجود سفن تحت أمرة كل حاكم إقليم غير مجموعات من السفن تجوب الأنهار الموجودة على الحدود. وعلى كل فكانت مهنة البحرية فى ذلك الوقت غير محترمة لأن جميع جنود التجديف كانوا من العبيد بينما كان جنود الجيش يتمتعون بالهبة والإحترام .

أما إذا بحثنا سويا فى المعدات والاستراتيجية والتكتيك فى الجيش الإمبريالى الرومانى لوجدنا أنها لم تتغير لمدة ثلاثة قرون ونصف قرن وذلك منذ عهد سيبيو وماريوس والقيصر. فالجيش الرومانى كان يتحرك للقتال عادة فى طابور طويل حتى عام ٦٧ ب . م ، إلا أن فسبازيان وجوديا غيرا هذا النظام بتقسيم الجيش المتحرك إلى مقدمة وقوة رئيسية ومؤخرة والمقدمة[٢] تتحرك فى تنظيم معين فكانت تدفع فى الأمام مجموعات من مشاة وفرسان الفرق ثم وحدة من المهندسين فأمتعة الضباط الكبار تحت حراسة من الفرسان فالقائد العام وتصحبه نخبة منتقاة من المشاة والفرسان كحرس خاص له . يتبع المقدمة القوة الرئيسية للقوات بقيادة الفرسان فوحدة تحمل معدات وأجهزة الحصار على ظهور البغال ثم قائد الفرقة وأركانات حربه ثم الأعلام وعازفى الأبواق ثم جنود الفرقة نفسها فى تشكيل ستة صفوف ، أما المؤخرة فيسير فيها حرس المؤخرة من القوات المرتزقة وجميع أمتعة الفرقة. وكان التشكيل المتبع للقوات هو ستة صفوف إلا أنه يتغير فى الأرض الوعرة أو عند توقع هجوم العدو ويصبح أربعة

---

(١) لقد كان قائد الحرس سيجانوس من المقربين إلى تيبيريوس .

(٢) المقدمة تتشكل من مشاة خفيفة ورماة سهام من القوات الأجنبية .

الحرس البريتورى (الحرس الخاص للأمبراطور)

صفوف متوازية ليسهل إتخاذ تشكيل المعركة وبسرعة . وقد إستمر تشكيل القتال كما هو[١] حتى القرن الأول ب . م ، وخلال القرن الثانى ب . م عاد الجيش مرة ثانية إلى تكتيك كتائب المشاة الثقيلة ، وأصبحت القوات الأحتياطية المتحالفة فى ذلك الوقت على جانب كبير من الكفاءة وكان عليها القيام بمهمة الاستطلاع الأولى وتقدير الموقف بينما تقوم القوة الرئيسية من المشاة الثقيلة بخوض غمار المعركة وتحمل وطأة القتال الفعلى . وقد أستخدم فى ذلك الوقت تشكيل آخر وهو التشكيل المدرع[٢] ويستخدم فى التقدم والانسحاب لوقاية القوات من القذائف المتساقطة عليهم . وخلال القرن الثالث ب . م ظهر سلاح جديد وهو اللانسا[٣] وحل محل الحربة القديمة التى كان يطلق عليها بيلوم .

النساء يستعدن المعركة (أنظر اللوحة رقم ١١)

وبالرغم من قوة وازدهار الإمبراطورية الرومانية إلا أن حدودها الشمالية لم تحدد معالمها تماماً وذلك لأن أغسطس كان يهدف من ذلك الزحف إلى الأمام نحو نهر الدانوب والألب . وفى الفترة ما بين عام ١٧ — ١١ ق . م قام تيبيريوس[٤] بتأمين خط الدانواب ، وفى نفس الوقت قام درسوس[٥] بإقامة معسكرات محصنة على الراين مع تولى مهمة التقدم نحو الألب ، وبعد مسيرة طويلة وشاقة فى المناطق الجبلية والغابات وصل إلى نهر الألب فى عام ٩ ق . م وهناك مات ، وعليه اسندت قيادة الحملة فى ألمانيا لتيبيريوس إلا أنه فى خلال الفترة ما بين عام ٦ ، ٩ ق . م استدعى إلى بافونيا لإخماد ثورة خطيرة قامت هناك وخلال هذه الفترة تراخت سيطرت الرومان على ألمانيا وبطريقة خطيرة . وكان الشعب الألمانى لا يرهبه إستعراض القوى الرومانية ، ولذلك عندما تراخت القبضة الرومانية حول الجرمان نظامهم العسكرى الفطرى على الفور إلى طاقة هائلة وجبارة ولم يعتمدوا على أحد فى تكوينها ولم

---

(١) كانت الفرقة المشاة تتشكل للقتال فى ثلاثة خطوط .

(٢) التشكيل المدرع عبارة عن ساتر متحرك من الجنود الذين يحملون الدروع ، بحيث يرفع جنود الصف الأول الدروع حتى تصبح أمامهم ، بينما يرفعها جنود الصفوف التالية فوق رؤوسهم وبذلك يصبح هناك غطاء من الدروع يحمى جميع القوات .

(٣) اللانسا عبارة عن حربة خفيفة .

(٤) تيبيريوس هو الأخ الربيب لأغسطس .

(٥) درسوس هو شقيق تيبيريوس . « المعرب »

يكلوا مطلقا . وقد وصف تاكيتوس فى كتابه « جرمانيا وسجلات التاريخ » الحرب بين الرومان والجرمان بطريقة واقعية وحية وشاملة ، فكانت فلسفة الجرمان كما يقول : —

« أعمل ببطء وتأن وبجهد لتحصل بعرقك ما يمكن أن تحصل عليه بأراقة دمك »

وقد وصف أسلوب حربهم كما يلى :

« كان القليل من الجرمان مسلحين بالسيوف أو الرماح الطويلة ، أما الغالبية العظمى فيحملون الحراب القصيرة وكانت تسمى فى لغتهم « فراميا »[١] وهى سهلة الاستخدام وتستعمل فى الالتحام القريب وأيضاً من المسافات البعيدة. أماتسليح الجندى الراكب فكان الدرع والفراميا أما المشاة فكانوا لا يرتدون أى ملابس للقتال ولكن فى بعض الأحيان يرتدون معاطفا ويحملون دروعا ذات ألوان مختلفةو القليل منهم لديهم دروعا واقية للصدر ونادراً ما يلبسون خوذات معدنية وعند القتال يطلقون قذائفهم من مسافات بعيدة ولذلك افتقروا إلى الشجاعة . أما الجياد فكانت هى الأخرى تفتقر إلى الجمال والسرعة وهذا أدى أن أصبحت القوة الرئيسية لقواتهم تتكون من المشاة ويعاونها الفرسان . وكان تشكيل القتال لديهم عبارة عن خطوط متداخلة فمكنهم هذا من الانسحاب ثم متابعة الهجوم ثانية وبطريقة تكتيكية سليمة . وكان يعتبر ترك الجندى لدرعه أعلى درجات الخزى والعار ومن يفر من ميدان القتال ينهى عاره على حبل المشنقة . وكان لهم رموزاً معينة وشعارات تحمل أثناء المعركة لرفع معنويات الجنود . وكانت روابط الأسرة والنسب من أقوى الحوافز للشجاعة والأقدام ونجد أن بعض المعارك الخاسرة إستعادتها النساء بصلواتهن الدائبة وأصرارهن على المحافظة على أعراضهن » .

القرابين لآلهة الألمان

بعد رحيل تيبيريوس أظهرت ألمانيا ولفترة من الوقت الهدوء الخادع، ولكن آرمينيوس قائد تشيروسى عام ٩ ب . م نصب كمينا لثلاثة فرق رومانية فى غابة تويتو بور جرفالد[٢]

(١) فراميا : عبارة عن حربة قصيرة ذات رأس حديدية مدببة وحادة .

(٢) تقع غابة تويتو بورجرفالد شمال غرب ألمانيا . « المعرب »

أثناء سيرهم خلال أدغال ومستنقعات الغابة فى يوم عاصف راعد وقد قام الألمان باطلاق وابل من رماحهم على القوات الرومانية مع مهاجمتهم بكل قوتهم طوال هذا اليوم العاصف حتى لم يعد فى مقدور الرومان دفع الألمان بعيداً عنهم .

وأدى هذا أن انتحر كل من بوبليوس كوينتيلوس[١] وأركان حربه، أما الجنود الذين لم يلقوا مصرعهم أثناء المعركة ، فقد صلب بعضهم أما البعض الآخر فقد دفن حيا أو قدم قربانا لآلهة الألمان .

وفيما بين عامى ١٤ ، ١٧ ب . م قام جيرمانيكوس بمحاولة لاخضاع المنطقة الواقعة بين الرين والألب ولكن واجهته صعوبات جمة بسبب طبيعة المنطقة المملوءة بالغابات والمستنقعات وقد استغلها قائد الأعداء آرمينيوس استغلالا كاملا ولصالحه ، إلا أن جيرمانيكوس استطاع أخيراً الحاق الهزيمة بآرمينيوس عند أديستافيسو[٢] ، وقبل هذه المعركة قام جيرمانيكوس بمثل ما قام به هنرى الخامس فى اجينكورت ، فأخذ يطوف بجنوده متنكراً تحت إسم مستعار وقد اكتشف بالرغم من هبوط معنويات قواته إلا أنهم يكنون له كل اخلاص وولاء . وقد تسلل بعض رجال العدو إلى خطوط قواته وأخذوا يغرون القوات بالهروب والانضمام إلى الألمان وبذلك يضمن كل منهم زوجة ألمانية ومالا وفيراً وأرضا يمتلكها ، إلا أن الجنود ردوا على هذا العرض بقولهم : ـ « أننا لن نعجز على الحصول على النساء الألمانيات بعد معركة الغد » .

وفى صباح اليوم التالى وقبل خوض المعركة تحدث جيرمانيكوس إلى جنوده وأصدر لهم تعلياته وأوامره بخصوص المعركة وما سيتبعونه من تكتيكات مع العدو وقد وعدهم بالنصر مما أدى إلى رفع معنوياتهم .

معركة اديستافيسو (أنظر اللوحة رقم ١١)

تقع أديستافيسو فى سهل منحنى بين نهر الويزر والتلال مع وجود غابة فى مؤخرتها وقد وصف تاكتيوس المعركة : ـ

---

(١) قائد القوات الرومانية .

(٢) على نهر الويزر غرب هانوفر . « المعرب »

« لقد إحتل الألمان السهل ومخارج الغابة بينما إحتل الشيروسيكيون وحدهم التلال للقيام بالهجوم عند بدء المعركة . وقد تحرك الجيش الرومانى بدفع احتياطى من الغال والجرمان فى الامام يتبعهم حملة الأقواس المترجلين ثم أربعة فرق[1] رومانية فجير مانيـكوس نفسه ويحيط به كتيبتين من الحرس والفرسان ثم أربعة ألوية[2] أخرى .

وكانت تسير القوات فى حالة إستعداد كامل لاتخاذ تشكيل المعركة عند اصطدامها بالعدو. وعند إقتراب الرومان من أديستافيسو قامت وحدات الشيروسى بهجوم خاطف مركزعليهم، وهنا أمر جيرمانيـكوس أفضل فرسانه بمهاجمة أجنحة العدو بينما تلتف باقى فرسانه لمهاجمة مؤخرة العدو ، بينما بقى جيرمانيـكوس على رأس باقى الجيش ينتظر اللحظة الحاسمة للهجوم، وأثناء ذلك رأى فألا حسنا، فكان يطير ثمانية نسور نحو الغابة ، فعلى الفور صاح « إلى الأمام.. إتبعوا نسور روما .. » فعلى الفور إندفعت المشاة بالهجوم بينما كانت الفرسان تهاجم أجناب ومؤخرة الألمان ، فما كان من الشيروسيين أن فروا من المنحدرات بينما حاول آرمينيوس الأبقاء على سير المعركة ولكن قواته أصبحت بأكملها فى مواجهة رماة جيرمانيـكوس وتعرضت لوابل الرماح ، فما كان من آرمينيوس أن فر هو الآخر وأخفى معالم وجهه بتلطيخه بالدماء حتى يتجنب التعرف عليه بينما واجهت باقى قواته مذبحة مروعة ، فمن حاولوا عبور نهر الويزر تكفلت بهم رماح الرومان أو جرفهم تيار النهر ، أما الذين إرتضوا الخزى والذل وهرعوا يتسلقون الأشجار ليختبئوا بأغصانها مرتعدين فقد واجهوا أسوأ مصير لأنهم أصبحوا أهدافا سهلة وأخذت رماة جيرمانيـكوس يلهون برميهم بالسهام وإسقاطهم من فوق الأشجار وقد إستمرت عملية الذبح من الظهر حتى الغسق » .

وكان من الممكن أن يتقدم الرومان بعد ذلك نحو الألب ، ولكن وضح أن الألمان لن يقبلوا أبداً المهانة تحت حكم الرومان ، ولذلك تراجع الرومان بعد حملات جيرمانيـكوس شبه المنتصرة نحو الرين حتى يستطيعوا الاحتفاظ بحدود يسهل الدفاع عنها نسبياً .

---

(١) كانت الفرقة تتشكل من المشاة الخفيفة وحملة الأقواس الراكبين .

(٢) بانضمام المشاة الخفيفة ورماة الأسهم الراكبة إلى كل لواء فأدى هذا أن وصلت قوة اللواء إلى قوة فرقة . « المعرب »

اللوحة فيه الحدود الامبراطورية الرومانية والهجرات البربرية عام ٤٠٠ ب.م

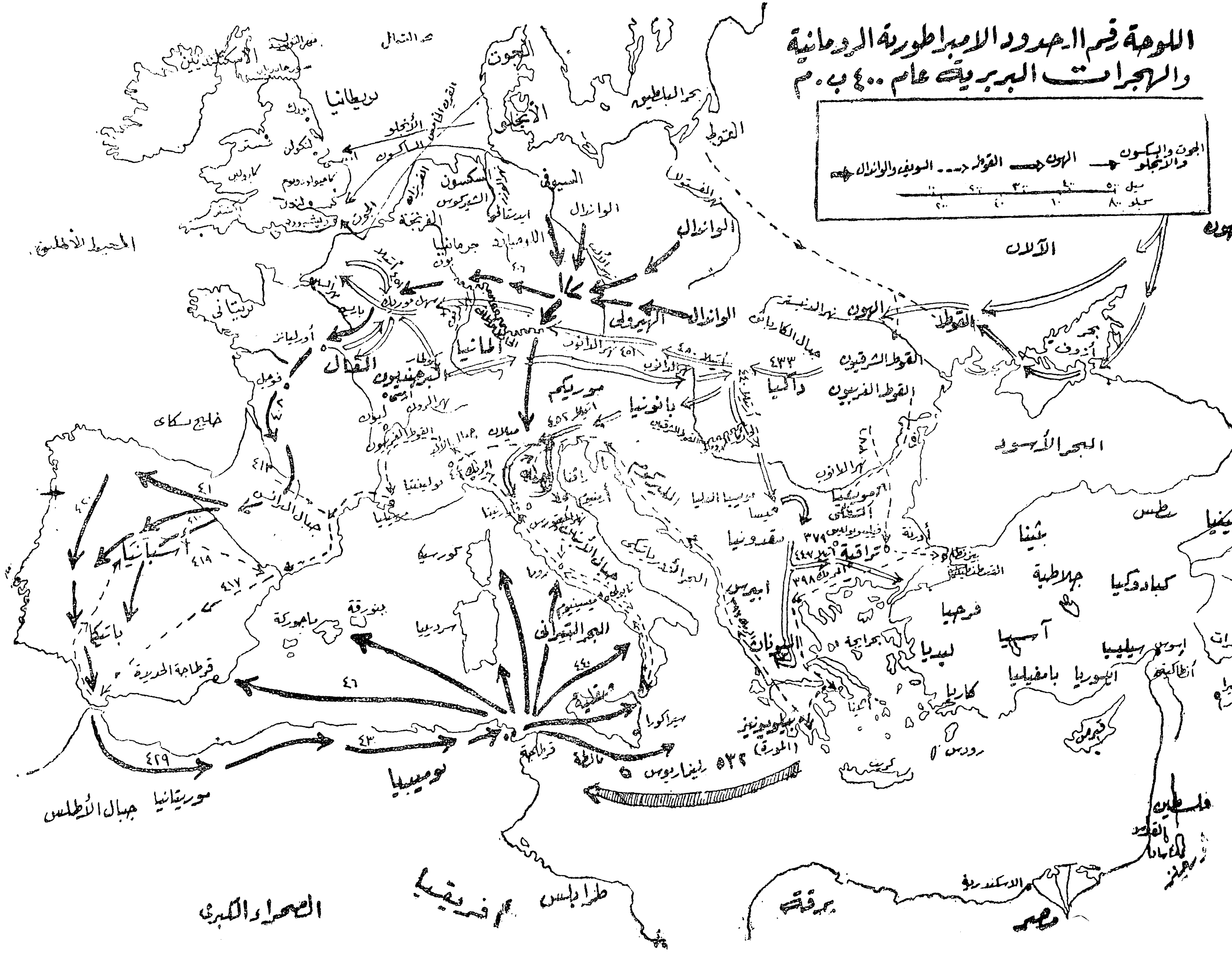

ومن المظاهر العميقة لتطور تاريخ ألمانيا وبالتالى تاريخ أوروبا هو فشل الجيوش الرومانية فى البقاء بألمانيا مما أدى أن الحضارة الرومانية لم تنفذ إليها .

الرومان يواجهون بريطانيا ورومانيا (أنظر اللوحة رقم ١١)

فى عام ١٤ ب . م توفى أغسطس ومن بعده لم تتوسع الأمبراطورية الرومانية إلا بغزو بريطانيا وداشيا[١] . وفى عام ٤٣ ب.م قام أولوس بلوبتوس بالنزول على الشاطىء البريطانى عند ريتشبورو ومعه أربعة فرق وقوات إحتياطية حليفة ، وبعد قتال إستمر يومين استطاع دفع القوات البريطانية إلى الغرب عبر نهر التيمز واستولى على مدينة كوميولودونوم[٢] وفى الفترة ما بين ٤١ — ٥٤ ب . م حضر الأمبراطور كلاديوس بمزيد من القوات وعدد من الفيلة ، واستطاع تدريجيا اخضاع جنوب بريطانيا من ليفكولن إلى اكستر[٣] . وفى عهد دوميتيان أصبحت قوة الداشيان تحت قيادة القائد دكيباليوس تشكل خطراً كبيراً على جبهة الدانوب ، فقدأبادوا فى عام ٨٧ب. م قوة رومانية كبيرة . وأدى هذا أن قرر الأمبراطور تراجان[٤] (٩٨ — ١١٧) مهاجمة دكيباليوس ، وقام بحملتين ضده الأولى عام ١٠١ والثانية ما بين عامى ١٠٥ — ١٠٦ .

وكانت مقاطعة داشيا من المقاطعات التي يصعب السيطرة عليها لوقوعها على الضفة الأخرى لنهر الدانوب وفى المسار الطبيعى للتحركات البربرية ، مما أدى أن قرر الأمبراطور أورليان فى عام ٢٧٣ تركها نهائياً .

الثورة فى فلسطين

وفى الفترة بين عام ٦٦ ، ٧٣ م إشتعلت الثورة فى فلسطين وكانت تتمتع بتحصينات منيعة ، وقال عنها سيدنى تونى : ـ « لقد كانت من أروع الأعمال الهندسية العسكرية » . ولذلك سخرت روما جميع إمكانياتها المتاحة من مهارات وموارد لإخماد هذه الثورة فكانت مدينة القدس محصنة بثلاثة أحزمة من الأسوار ، الخارجى منها سمكه ١٥ قدما وإرتفاعه ٣٠ قدماً ومزوداً بفتحات للرمى منها ومدعم بأبراج مربعة الشكل وعلى أبعاد مختلفة . وكانت

(١) داشيا : هى رومانيا حالياً . (٢) هى كولشستر الآن .
(٣) يسمى بطريق فوس . (٤) الامبراطور تراجان أسبانى الأصل . « المعرب »

معدات الحصار الرومانية تستطيع التعامل مع هذا المستوى من الأسوار .. وقد استعمل تيتوس آلات يمكنها قذف الحجارة زنة ١٠٠ كيلو لمسافة ربع ميل ، كما كان لديه ثلاثة أبراج حصار ارتفاع كل منها ستون قدما ومغطى من أعلى بشرائح من الحديد .

وقد أستطاع الاستيلاء على الأسوار الواحد تلو الآخر ، وفى أغسطس ٧٠ تمكن من الاستيلاء على القدس وذبح جميع سكانها ، وبالرغم من كل هذا فلم يتم سحق التمرد بالكامل فكان يوجد حتى عام ٧٣ فلول من هؤلاء المتمردين فى ما سادا[1] التى تعتبر معقلهم الحصين ، لأن هذه المدينة تشبه إلى حد كبير حصون العصور الوسطى وبالرغم من ذلك هاجمها الرومان ودخلوها إلا أنهم لم يجدوا بها أحداً من المدافعين أو المقاتلين بل وجدوا بدلا من ذلك جثث الجنود وعائلاتهم متناثرة فى أنحاء المدينة ، فقد قتل بعضهم البعض حتى لا يأخذهم الرومان أسرى وهم على قيد الحياة .

حائط الشيطان (أنظر اللوحة رقم ١١)

فى القرن الأول بعد الميلاد أستتب الأمن على الحدود ، وتحول الجيش الرومانى من جيش هجومى إلى حاميات دفاعية ، وأدى هذا أن أصبحت المعسكرات دائمة وزاد تعقيدها ، ففى عهد أغسطس كانت المعسكرات فى منطقة الراين لها أسوار عالية مبنية من اللبن ، إلا أنها بعد ذلك بنيت من الحجارة فى الفترة ما بين ٧٠ — ٩٦ . وكان التصميم العام للمدينة العسكرية أو المعسكر مثيراً ، لأنها تحاط بأسوار عالية وبخندق مائى أو أكثر مع تزويدها بالأبراج ولها بوابة رئيسية توجد فى مواجهتها مبانى الشئون الإدارية وكذلك مقر إقامة قائد المعسكر بالإضافة إلى المخازن الرئيسية للمعسكر . ويوجد داخل المعسكر طريقين متقاطعين وعموديين ، علاوة على طريق آخر يدور حول سور المعسكر من الداخل . أما ثكنات الجنود فتحتل الجزء الأكبر من المعسكر علاوة على وجود سوق عام بجوارها .

وفى الفترة مابين عام ٧٠ — ١٣٠ وخلال عهد كل من فيسبازيان ودوميتيان وهادريان إستمر العمل فى تقوية تحصينات الحدود وبالرغم من ذلك لم يكتمل الستار الحديدى الرومانى

---

(١) كانت قلعة ماسادا محاطة بمساحة كبيرة من الأرض ومسورة بحائط ضخم يعتبر كواق للقلعة .
« المعرب »

إلا فى السنوات الأولى من القرن الثالث ، فإذا ألقينا نظرة على الجبهة الألمانية فنجد أن خط التحصينات إمتد ٣٠٠ ميل بين نهرى الراين والدانوب ، وكان الجزء الغربى من هذا الخط عبارة عن متاريس مبنية من اللبن ومحاطة بالخنادق ، أما الجزء الشرقى والذى أطلق عليه « حائط الشيطان » فكان عبارة عن سور حجرى يبلغ سمكه ٤ أقدام وتم تقوية كل من الجزئين بأبراج عديدة للمراقبة والأشارة ومعسكرات مبنية من الحجارة . وقد أنشأت أسوار مماثلة على طول الحدود الشرقية والجنوبية للامبراطورية وكذلك فى شمال بريطانيا .

بودكيا تنتحر بالسم

يعتبر إحتلال وتحصين بريطانيا مثلا حياً للسياسة العسكرية الرومانية وتأمين حدودها المترامية الأطراف . وعلى كل لم يلق الرومان إلا مقاومة طفيفة فى الجنوب الشرقى لبريطانيا وقد اعتبر الرومان طريق فوس الخط الدفاعى الرئيسى لهم بالرغم من أنه مجرد طريق عادى، وكانت بريطانيا عامة تعتبر من الجبهات الهادئة بالنسبة للامبراطورية الرومانية ، وبالرغم من ذلك لم يستطع الرومان التقدم ما بعد طريق فوس . وقد قام شعب ويلز بمقاومة الرومان مدة ثلاثون عاماً تحت قيادة كاراكتاكوس . وفى عام ٦١ قادت بودكيا[1] ثورة وحشية ضد الرومان فى شرق بريطانيا حتى هذه الثورة قمعت بطريقة غاية فى القسوة، مما أدى أن بودكيا انتحرت بالسم وفيما بين عام ٨٠ — ٨٤ زحف القائد الرومانى آجريكولا نحو شمال بريطانيا حتى وصل إلى قلب اسكتلندا حيث حقق نصراً حاسماً على القبائل الكاليدونية المتحالفة عند مونس جرابيبوس، وقد أظهرت هذه القبائل حماقة كبيرة بدخولها مع الرومان فى معركة مفتوحة ، ولم يقاتلوهم بحرب العصابات ، وبعد ذلك عاد آجريكولا إلى بلاده مما أدى إلى انسحاب الرومان إلى جنوب نهر التويد وحتى ذلك الوقت لم ينشأ الرومان جبهة دفاعية متماسكة فى شمال بريطانيا .

وفيما بين عام ١١٥ — ١٢٠ قامت ثورة عارمة فى شمال بريطانيا هزت الرومان بعنف مما أدى أن حضر هادريان نفسه إلى بريطانيا ليخمد الثورة ، واستطاع إخمادها وإقامة جبهة دفاعية رومانية فى شمال بريطانيا . وقد أقام هادريان سوراً سمى باسمه وقد تم بنائه فى الفترة مابين ١٢٢ — ١٢٥ ويمتد مسافة ٧٣ ميلا من نهر تاين إلى سولواى ومبنى من الحجارة ويبلغ

---

(١) بودكيا أرملة زعيم قبيلة الأيسينى . « المعرب »

سمكه ½ ٧ قدما وفى أجزاء أخرى كان سمكه يزيد عن ذلك ، والجزء المخصص لسير الجنود على السور كان يقع على أرتفاع ١٥ قدما تقريباً ، وعندما يقترب السور من المدن يلتف حولها وقد تم إختيار مكانه بحيث يستفاد من الهيئات الطبيعية مثل قمم التلال أو الجروف الحادة ،وروعى أن تقع هذه الموانع الطبيعية دائماً شمال السور ، أما فى الأراضى المنخفضة فيتم حفر خندق بجوار السور لزيادة فاعليته وتم إنشاء ستةعشر حصناً[1] على طول السور ووزعت القوات عليها علاوة على وجود قلاع مقامة على السور تبعد عن بعضها ميلا رومانى[2] ويوجد بين كل قلعتين ثلاثة أبراج تستخدم كمراكز للمراقبة والإشارة . وكان يعتبر سور هادريان مانعاً أكثر من أنه خط دفاعى ، وعلى كل لم يتعرض هذا السور لعمليات غزو على مستوى

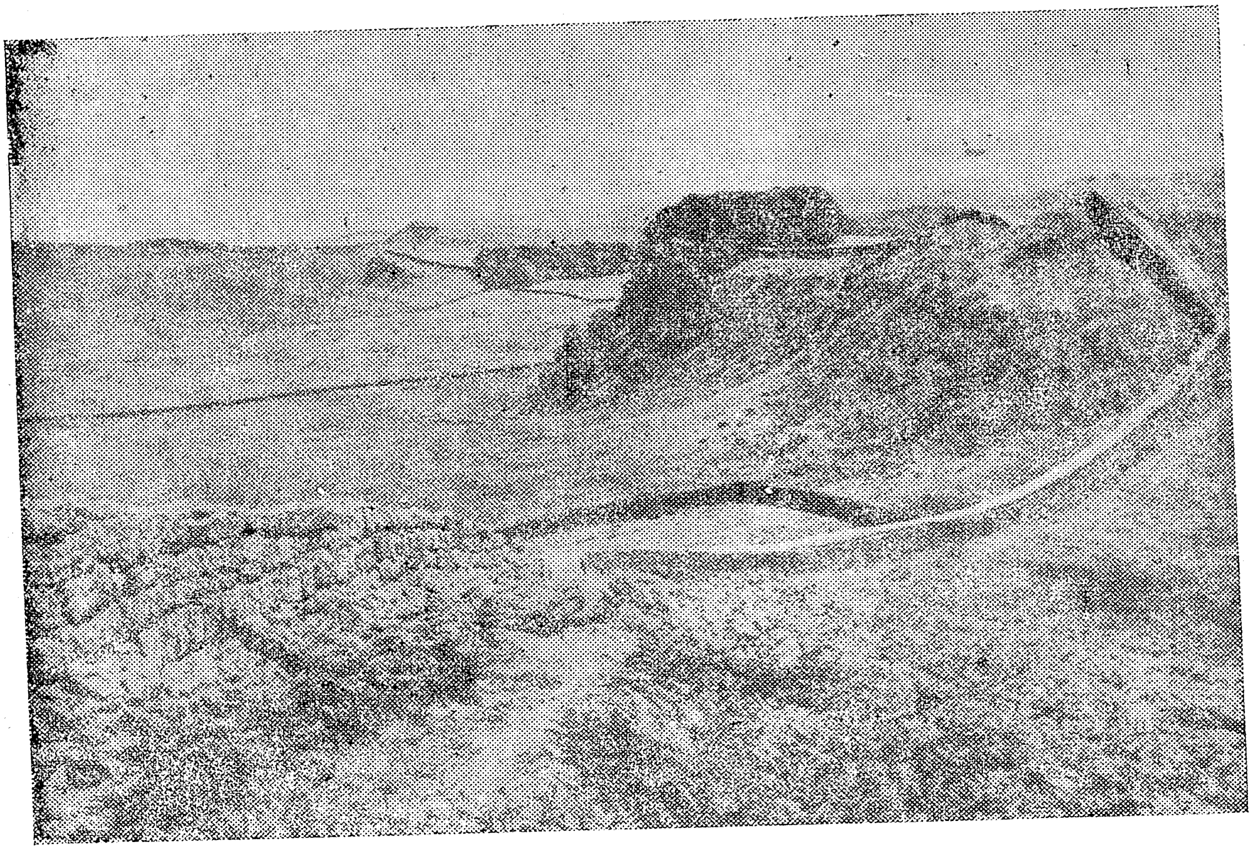

سور هادريان فى شمال بريطانيا

(١) كانت المسافة بين كل حصن حوالى أربعة أميال .
(٢) الميل الرومانى ألف خطوة . « المعرب »

كبير إلا أنه كان يشكل عائقاً صعب الأجتياز أمام الغارات الصغـيرة ويمثل مركز جيد للحراسة فقط .

وإذا ألقينا نظرة على شمال بريطانيا خلال القرن الثانى لوجدنا أن الفوضى أستمرت ونخص بالذكر ثورتان الأولى فى الفترة ١٥٨ — ١٦٠ والثانية فى ١٨٣.وفى الفترة٢٠٨— ٢١١ حضر الإمبراطور سيبتيميوس سيفيريوس إلى بريطانيا وأقام بها واستطاع السيطرة على الموقف وأعادة الأمن إلى شمال بريطانيا .

وقد أتم أخضاع بريطانيا بواسطة أربعة فرق رومانية ، ولـكن بعد عام ٨٥ بقى بها ثلاثة فرق ومعها قوات إحتياطية ضئيلة تقدر بحوالى ٣٥ — ٤٠ ألف جندى ، ووزعت هـذه القوات على ثلاثة حصون ، وهى حصن كارولين وشستر ويورك . وتدفع هذه القوات من هذه الحصون إذا أستدعى الأمر لأخماد الثورات التى تنشب ، وعلاوة على هذه الحصون كانت توجد حصون صغيرة يبلغ مساحة الحصن الواحد من ٧ هكتار[1] ويدافع عن هذا الحصن[2] من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ جندى من القوات الإحتياطية . وقد أقيمت معظم هـذه الحصون فى شمال بريطانيا وويلز على طول الطرق الهامة وفى المراكز الأستراتيجيـة . وقد أقام الجيش الرومانى شبـكة كبيرة من الطرق لخدمة الأغراض العسكرية وعلى سبيل المثال أنشىء فى شمال بريطانيا ثلاثة طرق رئيسية تربط بين المدن الرئيسية بها . وكان أنشأ الطرق الرومانية من أهم المنجزات التى حققها الجيش الرومانى والتى بقيت على مر الزمن حتى وقتنا الحالى ، ولم تتوان الإمبراطورية الرومانية فى هذا المضمار وفى جميع البلدان التى تحـكمها وبذلك أستطاع الجيش الرومانى من توحيد جميع هذه البلدان والمماليك تحت الحـكم الرومانى علاوة على نشر وبث الحضارة الرومانية .

قرعة العشرة

خلال القرنين الأولين للأمبراطورية لم تحدث إلا تغييرات طفيفة فى الجيش الرومانى وكانت هذه القوات توزع على أنحاء الإمبراطورية حسب الموقف العسكرى والسياسى للمناطق.

---

(١) الهـكتار . عبارة عن ٤٠٠٠ متر مربع

(٢) كانت المسافة بين هذه الحصون حوالى ١٥ إلى ٢٠ ميلا .

« المعرب »

وفى الفترة من ١١٧ إلى ١٣٥ قام هادريان ببعض التغييرات الهامة فى الأسلوب والنظام العسكرى والذى وضع أساسه من قبل أغسطس فقام أولا بتكوين قوات أجنبية ومجندة محليا مع دفعها للأمام وأستخدامها فى الخط الدفاعى الأول ، أما الفرق الرومانية فكانت تتمركز فى الخطوط الخلفية وفى الحاميات، وهذه الفرق تربط بالخطوط الأمامية بواسطة طرق جيدة ، ثم قام ثانيا بأذابه الفوارق التى تميز قوات الفرق الرومانية عن القوات الأجنبية المجنده محليا وثالثاً وجد أن الفرق كانت تشكل من الناحية النظرية من الجنود الرومان فقط على أن يخدموا فى مناطق غير التى جندوا منها ولكنه وجد من الناحية العملية أن الفرق تجند من المناطق التى ستتمركز فيها ، وقد أثبتت الظروف أن هذه الطريقة ملائمة تماماً للدفاع عن الحدود المكشوفة وذلك بأستغلال قوات من أهل المناطق المتاخمة لهذه الحدود للدفاع عنها لأن ذلك يعنى أنهم سيزودون عن أراضيهم وبيوتهم ولذلك غير هادريان هذه النظرية وأصبحت الفرق تضم مجندين من نفس المنطقة وكانت الجنسية الرومانية تمنح فوراً لمن يقيد أسمه فى سجل المجندين .

إلا أن هذه السياسة كان يهددها خطران : —

١ — أحتمال ضياع فكرة الوحدة الأمبريالية لعدم وجود ترابط بين القوات فى الجبهات المختلفة وأسوأ مثال يثبت ذلك ما حدث عام ٦٩ عندما ثارت الجيوش لمؤازرة ثلاثة مرشحين لمنصب الإمبراطور وذلك قبل أن يتمكن المرشح الرابع فيسبازيان من تأمين الموقف بواسطة جيوش الشرق والدانوب التى كانت تؤازره .

٢ — أنحلال قوات الحاميات وتحويلها إلى ميليشيا[1] محلية من الفلاحين الكسالى غير الأكفاء فى القتال ، فكانوا واثقين من دوام السلام الإمبريالى ومعتمدين على الحياة السهلة ، وقد حدث أكثر من مرة أن جنود المناطق رفضت الأنتقال إلى مناطق أخرى ، وأشتهرت فرق الحدود الشرقية بضعف كفاءتها وسوء تنظيمها إلا أن كوربيولو[2] جاء وأستطاع إستعادة النظام والضبط والربط بواسطة إجراءات غاية فى القسوة ، فكان عقاب

(١) ميليشيا : — قوات الحرس الوطنى .
(٢) كوربيولو قائد رومانى فى الشرق .

السرقة وعدم الكفاءة الجسمانية الجلد وينفذ بأوامر من قادة السريا ، أما الهروب من الخدمة العسكرية فعقابه الموت ، وأدى هذا أن أحدى جيوش الحاميات إكتسبت قدراً كبيراً من الصلابة بالتدريب المستمر الشاق فى المرتفعات الأرمينية فى فصل الشتاء .

وكان أقسى عقاب يمكن تطبيقه ما يسمى « قرعة العشرة[١] » وكان ذلك يحدث نادراً ولكن فى عام ٢٠ طبقت هذه القرعة بواسطة أبرونيوس[٢] بأن اختار واحداً من كل عشرة رجال من الكتيبة التى هربت أثناء المعركة وتم جلد كل من هؤلاء حتى الموت .

أما الوحدات التى ترتكب ما يلحق بها العار فكانت تسرح بأكملها ، فقد قام فيسبازيان بتسريح أربعة فرق فقدت نسورها أثناء المعركه أو اشتركوا فى التمرد الذى حدث فى الراين والذى قاده الزعيم كفيليس عام ٦٩ ، وقام على الفور بتشكيل فرقتين جديدتين حلا محلهم . ومن ضمن قوانين الضبط والربط أن يعزل قائد السرية المذنب من رتبته .

الخدمة العسكرية عشرون عام

وقد قام هادريان بصفة خاصة بمهاجمة ما فى الجيش من رفاهية وضعف المستوى القتالى للقوات ولكنه فى نفس الوقت قام بإعادة تنظيم وقت فراغ الجنود وجعل حياتهم أكثر صفاءاً ، كما قام بتحسين وضعهم القانونى وحالتهم الاجتماعية .

وعلى كل كانت الحياة فى الجيش تتصف بالأستقرار ولكنها كانت مملة وكئيبة ، فمثلا كان من الشروط الرئيسية للخدمة العسكرية أن مدتها عشرون عاما يتم بعدها تسريح الجندى من الجيش وخلال الأربع سنوات الأخيرة من الخدمة كان يعفى الجندى من جميع أعمال المعسكر المرهقة لأنه يعتبر محارب قديم محنك ويخدم فى الإحتياط .

وكان الجندى مجبراً على صرف ٧٥ ٪ من مرتبه ، فعليه أن يشترى طعامه وسلاحه وزيه العسكرى ويساهم أيضاً بمبلغ يدفعه سنوياً للمعسكر مع دفع مبلغ آخر يخصص لدفن الموتى من الجنود ، ولذلك كانت الفرصة ضئيلة أمام الجندى ليدخر من مرتبه إلا إذا قام بأعمال تجارية

---

(٣) قرعة العشرة : — أختيار الرجل الذى يقع فى قرعته رقم عشرة من بين عشر رجال وقتله

(٤) أبرونيوس حاكم أفريقيا « المعرب »

غير مشروعة ، وكان يوجد بنك فى المعسكر ليشجع الجنود على الإدخار به لتزداد مدخراتهم من المنح الإمبراطورية فى المناسبات وكان يتعامل معه قلة . وكان ممنوع على القوات من رتبة نقيب فأقل الزواج ، ولكن الكثير منهم كانت لهم علاقات نسائية وكان مسموح بها .

وكان يوجد بالجيش الرومانى عديد من المكافآت والقلادات والأنواط العسكرية ، فمثلا كان القائد المنتصر يسمح له بالسير على رأس موكب النصر فى شوارع روما تكريماً له ، ويمنح « إكليل الغار » للبطولة الفائقة فى الجيش الرومانى ، وتعتبر أكبر جائزة فى الدوله. وقد قام تيبريوس بتقديم « إكليل الغار » لريفيوس هلفيوس[1] عام ١٩ ، كما كان هناك نوط أطلق عليه « كورونا فالاريس[2] » وتمنح لأول جندى يتسلق سور العدو، أما نوط « كورونا أوريا[3] » فتمنح للنقباء الذين يبلون بلاءاً حسناً فى ميدان القتال ، كما كان هناك أنواع أخرى من القلادات تمنح للضباط منها « رأس الحربة المصنوع من الفضة » علاوة على أوسمة أخرى .

أما الجنود فيمنحون أساور أو عقود أو أقراص مزخرفة .

الصراع من أجل العرش

لقد وصف فيجيتس الكاتب العسكرى الأسلوب التى تتبعه الفرقة فى وقت السلم فقال : « كانت مشاة الفرقة تسير مسافة عشرة أميال ثلاث مرات فى الشهر وتزداد هذه المسافة بالتدريج حتى يكتسب الجنود اللياقة والسرعة فى التقدم والإنسحاب . وكانت الأوامر تعطى شفوياً أثناء التدريب فى الميدان ويختار الأسلوب التكتيكى المناسب للرد على هجوم العدو المفاجىء والكمائن غير المنتظرة . وكان هناك تركيز ملحوظ على التدريب على جميع أنواع الأسلحة والأسلوب التكتيكى المناسب للمعركة وذلك للوصول إلى مستوى عالى من الضبط والربط بين القوات » .

---

(١) ريفيوس هلفيوس جندى فى الجيش الرومانى أنقذ حياة زميل له فى إحدى المعارك فى أفريقيا .

(٢) عبارة عن قلادة مزدوجة من المعدن تلبس على الصدر .

(٣) القلادة المنفردة

ولم يهدأ النشاط العسكرى فى الإمبراطورية الرومانية على مر السنين وقد شهد القرن الثانى التطبيق الكامل لأهداف وتعاليم أغسطس وقد أكد جيبون قائلا : « لو أردنا تحديد الفترة التى تمتع فيها الجنس البشرى بقمة السعادة والرفاهية لوجدنا أنها تنحصر بين موت دوميتيان حتى إرتقاء كومودبوس العرش (٩٦ — ١٨٠) ».

وقد تغيرت الأمور فى نهاية القرن ، فبعد موت كومودبوس عام ١٩٢ كان الصراع على أشـــده على العرش ، فقام الحرس البريتورى بقتل بيرتيناكس وأحلوا محله ديديوس بوليانوس ولـكن كان هناك مرشحا ثالثاً وهو سيبتيميوس سيفيروس(١) .

وكان سيفيروس أفضل العسكريين الذين يطمعون فى كرسى العرش واستطاع هزيمتهم عند كل من إيسوس وليونز واستولى على العرش .وفى عهد سيفيروس سيطر الجيش بالقوة على مقاليد الأمور مما أدى أن حلت الـكوارث بسياسة روما الداخلية والخارجية لأنه خلال القرن الثالث تحتم على كل أمبراطور يريد الاحتفاظ بعرشه أن يرشو ويشبع جميع رغبات العسكريين ، ولذلك رفع سيفيروس أجور الجنود بنسبة الثلث كما صرح لهم بالزواج وزراعه مايمتلـكونه من أراضى بجوار معسكراتهم ، كما منح قادة السرايا مميزات مادية واجتماعية. وقبل موته أوصى إبنه كاراكلا بأن يعتنى بالعسكريين ويهمل باقى الشعب فيضمن السلطة ، وقد نفذ كاراكلا وصية والده . وفى بحر الستون سنة التالية ارتفع وهوى ما يزيد على واحد وعشرين من الأباطرة .

وتميزت هذه الفترة بالفوضى والبؤس ، فقد أشاع الجيش الرعب فى جميع أوجه الحياة المدنية فى جميع أنحاء الأمبراطورية ، فى نفس الوقت كان هذا الجيش يهوى هو الآخر فى متاهات الانحطاط حتى فقد كفاءته القتالية ، ففقدت الحدود أمنها إلى الأبد وحدث تضخم مالى وصل إلى حد الـكارثة نتيجة للارتفاع المتزايد والمستمر فى الأجور والتى أجبر عليها الأباطرة لتقديمها للجيش إذا أرادوا الاحتفاظ بعروشهم وتيجانهم . وفقدت التنظيمات والاصلاحات التى قام بها هادريان فى الجيش قيمتها وفائدتها . فأصبحت القوات المتمركزة باستمرار على الحدود تتكون أساساً من فلاحى هذه المناطق وأصبحوا لا يهتمون ولا يعيرون أى اهتمام بواجباتهم

(١) سيبتيميوس سيفيروس : — كان يشغل منصب حاكم بانونيا « المعرب »

العسكرية ، وأكثر من ذلك أصبحت القوة الدفاعية على الحدود غير فعالة فكان الضعف متفشى فى كل مكان ،واختفت القوة والعزم فى جميع الأمبراطورية فلم يكن هناك دفاع فى العمق أو قوات احتياطية لتقوم بالهجوم المضاد ضد المعتدى . وفى عام ٥٢٠ بدأت الروح القتالية للفرق فى التدهور ، وأصبحوا فى حاجة ملحة لتكتيك جديد ومستحدث ليستخدم ضد الأعداء الجدد الذين يقاتلون بأسلوب تكتيكى جديد ، أصبح غريبا بالنسبة للرومان . وقد كشف هذا عوامل النقص الموجودة فى القوات الرومانية وأسلوبهم التكتيكى .

وعلى العموم فقد قام ثلاثة(١) من الأباطرة فى النصف الثانى من القرن الثالث بإعادة تنظيم الجيش الرومانى مع دفع الأمبراطورية للامام مرة أخرى ، وقد نفذ هذا العمل بطريقة بغيضة ولا تقبل التردد أو الشك ، ولذلك استطاعت الأمبراطورية من الصمود أمام النهاية المدمرة لمدة قاربت على القرنين .

التنين البربرى

لقد اتخذت إجراءات صارمة لاستعادة النظام فى كل مكان من المحيط العسكرى والمدنى، ففى عهد دقلديانوس اصطبغت الحكومة المدنية بالصبغة العسكرية فأصبحت أقوى من ذى قبل. وفى عهد أورليان انتشر الطاعون فتسبب فى خفض القوى البشرية ، فاتخذ أورليان خطوة خطيرة جداً بتكوين القوات الاحتياطية من قبائل الوندال والألمان(٢) ، وبذلك قهر البرابرة الأمبراطورية عن طريق التسلل أكثر منه عن طريق الحرب . وفى ذلك الوقت اتخذ الأباطرة حرس خاص لهم من الجنود الألمان ، وقد سمح للجنود الألمان بالاحتفاظ بزيهم الوطنى وبتقاليدهم ، واختفى شعار النسر الرومانى وحل محله شعار التنين البربرى .

حاول دقلديانوس رفع حجم الجيش إلى ستون فرقة ، ولكن كان معظم هذه الفرق دون المرتب(٣) ولكنه نجح فى إنشاء شبكة طرق وإقامة التحصينات ، لأن العمل فيهما كان على قدم وساق . وأصبح الجيش فى هذه الفترة جيش طبقى يورث للابناء ، فكان يتحتم على أبناء

---

(١) الأباطرة الثلاثة هم جالينوس وأورليان ودقلديانوس

(٢) كانت هذه القبائل الجرمانية تزحف بكثرة وبصفة خاصة على الحدود الشمالية للأمبراطورية .

(٣) مرتب الفرقة المعتاد ستة آلاف جندى «المعرب»

الجنود ، أن يتبعوا أباءهم ليصبحوا جنود المستقبل ، وعادت قوانين التجنيد الماضية مرة أخرى إلى الحياة .

ملكة ميدان المعركة

لقد أدرك جالينوس الخطأ الاستراتيجى الممثل فى سياسة الحاميات والتى استمر العمل به على الحدود لمدة ٢٥٠ عاما فقام على الفور فى تشكيل الجيوش الاحتياطية وكان ذلك على حساب قوات الحدود التى أصبحت ضعيفة ، وأقامت هذه الجيوش الاحتياطية فى قاعدة فى شمال إيطاليا لتوفر الدفاع فى العمق مع قدرتها على القيام بالهجوم المضاد فى حالة الطوارىء، كما ألغى الأسلوب التكتيكى القديم وأدخل بدلا منه أسلوبا جديداً يتناسب مع أعدائه الجدد الذين يستخدمون الهجوم المفاجىء بالفرسان مع استعمالهم للقذائف النارية بعيدة المدى .

وقد قام جالينوس بخطوة حاسمة لجعل فرق المشاة فى المرتبة الثانية ، بينما أخذت الفرسان الصدارة ، وبذلك أصبحت الفرسان ملكة ميدان المعركة .

وتشكل فى عام ٢٥٨ فرقة من الفرسان سميت بـ « دالمتيان » وفرقة من حملة الرماح[١] سميت بـ « موريش » ، وكان الرماة الشرقيين[٢] هم عمادها وعلاوة على وجود فرق تستخدم حراب القذف الايرانية الطويلة ، وفرق أخرى من مشاة البربر[٣] ، وفرق من راكبى الجمال والفرسان الثقيلة ، علاوة على إدخاله لبعض الأنواع الجديدة من الأسلحة ، فاستبدل كل من حربة القذف والسيف القصير[٤] بالرمح والسيف البربرى[٥] .

فراغ القوى (أنظر اللوحة رقم ١١)

لقد أعاد تجهيز القوات سريعا جداً وتحت الضغط المتزايد للعدو على الحدود ، فنجد مثلا أن الأمبراطورية الساسانية الفارسية هددت روما بحرمانها من جميع مقاطعاتها الشرقية ، وفى عام ٢٦٠ سقط فاليران فى الأسر بواسطة الحاكم الفارسى سابور ، فضاعت هيبة

---

(١) كانت هذه الفرقة من المغاربة وتركب الخيول بدون سروج

(٢) هؤلاء الرماة يستخدمون الأقواس القوية المركبة

(٣) يستخدمون هؤلاء البربر التشكيلات المتداخلة فى القتال

(٤) كان يستخدمه جنود الفرق

(٥) يتدلى هذا السيف من ثوب المقاتل

« المعرب »

الفرسان الرومانية تأخذ الصدارة فى الجيش

الأمبراطورية الرومانية وظهر ضعفها بوضوح ، ولـكن لحسن الحظ أن إستطاع أودينا توس[1] صد هجمات القوات الفارسية ، ولـكن الموقف ساء جداً على الحدود الشمالية أيضاً ببدأ الهجرات البربرية .

ولو عدنا سويا إلى الوراء فسنجد أن القيصر بعد أن هزم الغال والتى تعتبر القوة الرئيسية لـكل من وسط وغرب أوروبا أحدث بذلك ما يسمى بفراغ القوى فى كل من شمال وشرق الحدود الرومانية ، لذلك بدأت شعوب جديدة فى التحرك داخل هذه المنطقة ، وجاءت أولى هذه التحركات من أسكندنافيا تحت وطأة تغير المناخ هناك وزيادة السكان ، إلا أن هؤلاء أنفسهم بدأوا التحرك فى القرن الثالث وبدرجـــة أكبر نحو الجنوب والغرب أمام التدفق الجديد للشعوب المهاجمة من آسيا ، بينما اندفع الفرنجة والألمان عبر نهر الراين وزحف القوط جنوبا عبر الدانوب وأجتاح القوط الشرقيون مناطق البلقان ونهبوا مدينة فيليبوبوليس وهزموا الأمبراطور ديكيسوس ، وقد قتل فى أحدى المعارك عام ٢٥١ ، بينما فقدت روما مقاطعة داشيا إلى الأبد .

ولـكن فى عام ٢٦٨ استطاع كلوديوس الأنتصار على القوط عندنا «يسوس» (فيشى) وبذلك أوقف تقدمهم .

وفى أقصى الغرب عبر الألمان نهر الراين واندفعوا جنوبا داخل إيطاليا نفسها إلا أن جالينوس هزمهم عند ميلانو عام ٢٥٨ ، إلا أنهم قاموا بهجوم آخر فى عهد أورليان إلا أنه هزمهم ولـكن لم تـكن هزيمة كاملة، فعلى الفور كون جيشا جديداً قويا وهزم الألمان هزيمة ساحقة عند نهر ميتادروس ، واستطاع إيقاف هؤلاء البربر بعد مجهود شاق وصل إلى الذروة وقد أدى وجود هــذا الجيش الرومانى الجديد المدعم إلى تأمين الأمبراطورية لمدة قرن آخر تقريباً .

انشاء القسطنطينية

خلال القرن الرابع وفى عهد قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٧) حدث تطوران هامان ، أولهما عندما نودى به أمبراطوراً فى يورك وقد تحتم عليه أن يهزم أولا جميع منافسيه

(٦) حاكم بالميرا (تدمر)

السياسيين قبل أن يحصل على عرش روما ، ويقال أنه فى أحد أيام عام ٣١٢ وبعد الظهر أثناء تقدمه نحو إيطاليا وفى مكان قريب من كولمار رأى فى السماء صليبا لامعاً وظهر فوق الصليب هذه الكلمات « من هنا إبدأ الفتح » ويقال أن المسيح ظهر له فى الحلم أثناء تلك الليلة وقال له أن يتخذ من العلامة التى رآها شعاراً له ، وبهذا الإلهام وباستخدامه أسلوب الألتفاف حول جناح خصمه ماكسنتيوس استطاع تحقيق نصراً ساحقاً ، اتخذ بعده تلك العلامة التى رأها شعاراً ووضعها على خوذته الشخصية وعلى دروع جنوده ، ونادى بعدها بإباحة المسيحية ، وفى نهاية القرن(٣٧٩ ــ ٣٩٥) جعل ثيودوسيوس الديانة المسيحية هى الديانة الرسمية للامبراطورية ، وقد أدى موضوع الديانة المسيحية إلى إزدياد حدة العداء بين البربر وشعب الأمبراطورية الرومانية ، لأن جميع البربر كانوا تقريبا من المسيحيين الآريوسيين المنشقين[١] .

أما التطور الثانى الذى حدث فى ذلك الوقت هو إنشاء العاصمة الثانية للامبراطورية على يد قسطنطين وأطلق عليها إسم القسطنطينية أو بيزنتيوم وكانت ذات موقع استراتيجى هام وخاصة فى مقاومة الغزاة البربر . ومن ذلك الوقت حتى عام ٤٧٦ كان يوجد عادة امبراطوريان ولكن فيما بعد أصبحت القسطنطينية العاصمة الوحيدة للامبراطورية الرومانية .

وإذا بحثنا سويا فى أسباب سقوط الأمبراطورية الرومانية لوجدنا أنها ترجع لأسباب كثيرة منها ضعفها الاقتصادى ودمار المدن وهبوط تعدادها السكانى وتشبعها بالثقافة البربرية مع إنشاء عاصمة ثانية للامبراطورية فساعد كل هذا على زوال روما القديمة ويمكن القول بأنه أدى فى النهاية إلى الضعف العسكرى ، ولكن الأسباب الرئيسية فى إنهيار روماعسكريا تكمن فى هزيمة الامبراطور فالنس أمام القوط[٢] عند أدريانوبل (أدرنة) عام ٣٧٨ . وقد تعرضت روما للنهب مرتين أولهما على يد ألريك[٣] عام ٤١٠ ، وثانيهما على يد الواندال[٤]

---

(١) كانوا من أتباع آريوس وهو أسقف من انطاكية وتوفى عام ٣٣٦ .

(٢) ينحدر القوط من الجنس الألمانى

(٣) ألريك أحد قادة القوط الغربيين

(٤) الواندال قبيلة جرمانية واجتاحت فرنسا وأسبانيا وشمال أفريقيا فى القرن الخامس الميلادى كما أحتلت روما ونهبتها عام ٤٥٥ « المعرب »

بقيادة جيسريك عام ٤٥٥ أو فى عام ٤٧٦ قام القـــائد أودكر بعزل روميلوس أغسطولوس آخر أباطرة روما .

وقد أجتاحت الشعوب البربرية[١] المقاطعات الرومانية ودفعها إلى ذلك سببين الأول الطمع فى الغنى والحضارة الرومانية وثانيا ضغط الهون[٢] عليهم ، وبذلك أصبح واضحا أن القوة الرومانية قد قربت نهايتها فى الغرب

سيف أرثر

أما مصير بريطانيا فقد تميز بما حدث للمقاطعات النائية الرومانية فى هذا العصر ، فبعد الهدوء الذى خيم عليها أبان عهدسيفيروس ما بين ٢٠٨ — ٢١١ ، وظلت فى سلام لم يعكره أى غازى لمدة مائه وخمسون عاما إلا أنها كانت من المقاطعات الثائرة المتمردة خلال القرن الثالث ، ولـكن قبل عام ٣٥٠ أصبح كل من البكت فى الشمال والاسكتلنديون فى الشمال الغربى مصدر للازعاج ولـكن فى عام ٣٦٨ أستطاع ثيودوسيوس أخماد هذا الأزعاج وتقدم حتى أقصى الشمال عند سورهادريان ، فى ذلك الوقت ابتدأت غارات السكسون على بريطانيا عبر بحر الشمال وكانت فى أول الأمر مجرد إغارات للسلب والنهب ولـكنها وتحولت سريعاً إلى عمليات غزو بهدف الإستيطان ولـكن القوات الرومانية الموجودة فى بريطانية قاومتهم مقاومة عنيفة ولـكن بدون جدوى . وفى الفترة ما بين عام ٤٠٦ ، ٤٠٧ عبرحشد هائل من البربر نهر الراين إلى داخل الغال وبذلك عزلت بريطانيا من الاتصال بالبحر المتوســط فأدى هذا تخلى روما عنها مع إيقاف إرســال أى مسئولين عسكريين أو قوات إليها .

ولو ألقينا نظرة على شعوب البربر لوجدنا أن مصدرها واحد للأسلحة الحديدية ؛ فـكانت هذه الأسلحة تأتى من على ضفاف الراين والدانوب ، فـكانت السيوف مزركشة برسومات كثيرة متشابه على شـكل طيور مفترسة أو ثعابين طويلة ملتفة حول نفسها أو حيوانات مفترسة تزود عن نفسها الأذى . وكان السيف طويلا ويتدلى من ثوب المقاتل

---

(١) يقصد هنا الواندال والقوط.

(٢) الهون هم شعب مغولى فى ترحال دائم سيطر على جزء كبير من أوروبا الشرقية والوسطى بقيادة قائدهم أتيلا . « المعرب »

ويعتبر سلاحه الرئيسى ، ولكن لندرة المعادن كان يحمل هذه السيوف القادة فقط . أما باقى الأسلحة فكانت تنتقل من جيل لآخر ، ومن أشهر هذه الأسلحة سيف آرثر وقد أطلق عليه «أكسكاليبور» ، وكان يستخدم أيضا السيف ذو الحد العريض والرماح القوية الصلبة لدرجة أن الضحايا كانت تبقى معلقة على الجدران أو الأشجار بعد اختراق الرماح أجسادهم .

وكان هناك سلاح شائع وهو الساكس عبارة عن سيف قصير عريض مقوس بدرجة طفيفة وذو حافة واحدة مسننة ويعتبر السلاح التالى للسيف . وقد حاربت شعوب الشمال بالحراب التى وصل طولها إلى ١١ قدما ، أما دروع القادة فكانت عادة غاية فى الزخرفة ، أما الخوذات فلم تكن لها أى قيمة أكثر من مجرد غطاء للرأس وتصنع من الشرائح المعدنية ، وكان بعض هذه الخوذات مزوداً بواق للرقبة والبعض الآخر مزوداً بقناع متحرك فى مقدمتها ، كما كان البعض منها محلى برسوم لرؤوس الحيوانات الضارية ، وكان الفرنجة لديهم سلاح آخر وهو بلطة القذف القصيرة الخفيفة . وكانت هذه الأسلحة لا يحملها كل القوات ، فمعظم الجنود يخوضون القتال وعلى رؤوسهم واق من الجلد ودرع مستدير من الخشب أو الأملود(١) المغطى بالجلد المدبوغ ، وكان سلاحهم الرمح أو الهراوة .

وكان معظم شعوب البربر تفضل القتال من فوق ظهور الخيل ، أما الفرنجة فكانوا يقاتلون فى حشود غير منتظمة من المشاة هزيلة التسليح ، أما ركوب الخيل فكان قاصرا على حرس الملك فقط .

والجيش يتشكل من وحدات كل وحدة بها مائة جندى ، ووحدات أخرى بها ألف جندى والوحدات تكون العشائر والجماعات ، وكان تشكيلهم للمعركة الشائع هو تشكيل حرف V وكانوا يقيمون تحصينات دائرية على التلال ، بينما يقيمون فى السهول تحصينات من العربات المقفلة ، ويتمتعون بلياقة جسمانية ممتازة تفوق جميع شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وقد كتب عنهم سيدو نيوس بأن الرجل منهم يبلغ طوله سبعة أقدام بينما يدهنون شعورهم بسائل رائحته كريهة ويأكلون كميات كبيرة ويتحدثون بطريقة جوهرية ، وبعض هذه الشعوب

---

(١) الأملود عبارة عن أغصان صغيرة مرنة

كانوا ملاحين مهرة ، وقد أرعبت سفن السكسون ذات الأشرعة الجلدية الشواطىء البريطـــانية وقد صنع القبائل المجاورة للبحر زوارق من تجاويف الأشجار وتحمل ثلاثون رجلا .

وقد تطورت إلى سفن شراعية كبيرة مصنوعة من ألواح خشبية مثل الفايكنج(١) وتحمل أكثر من مائة رجل .

أعظم الشعوب فى فن الحرب (أنظر اللوحة رقم ١١)

لقد وصل الواندال إلى أبعد ما وصل إليه باقى الجماعات ، ففى بداية القرن الأول تحركوا من البلطيق خلال الغال وأسبانيا ثم إلى شمال أفريقيا مع عام ٤٢٩ مسيطرين بأسطولهم على غرب البحر الأبيض المتوسط .

وفى عام ٤٥٥ قاموا بالإبحار تحت قيادة جيسريك حيث نهبوا روما ، وقد فقد الرومان فى ذلك الوقت السيطرة على البحر الأبيض المتوسط. كما أن الوقت من ناحية أخرى كان قد فات على صدور قانون فى القسطنطينية يحظر على شعوب البربر تعلم بناء السفن وكان عقوبتها الأعدام .

وفى عام ٢٥٣ — ٢٦٧ قام القوط بغاراتهم عن طريق البحر على كل من اليونان وآسيا الصغرى وكانوا أول من وجهوا الضربة إلى قلب الأمبراطورية الرومانية فكانوا أعظم الشعوب فى فن الحرب .

وفى عام ٣٧٦ وتحت ضغط شديد من الهون توسل القوط الغربيون إلى الامبراطور فالينس للسماح لهم بالإستيطان داخل الامبراطورية الرومانية ، وأذن لهم الأمبراطور بعبور الدانوب من داشيا والإقامة فى موسيا السفلى(١) بشرط نزع سلاحهم ، إلا أن القوط الشرقيون تقدموا بنفس الطلب ولكن الأمبراطور رفض هذا الطلب خوفاً من كثرة عدد البربر فى الأمبراطورية إلا أنهم قاموا بعبور الدانوب عنوة وهم مدججون بالسلاح، فما كان من القوط الغربيون أن انضموا إليهم. وفى عام ٣٧٨ اصطدم فالينس مع القوط عند أدريانوبل وكانت

---

(٢) الفايكنج هم قراصنة من أسكندنافيا

(١) موسيا السفلى بلغاريا حاليا

معركة رهيبة ، فقدفاجأ الجيش الرومانى القوط وهم معسكرين داخل نطاق كبير مسور بالعربات .

وبالرغم من التغييرات التى حدثت فى شخصية الجيش الرومانى وبالرغم من كل التجارب السابقة فى المعارك مع البربر والتى كان يجب أن يتعلم منها الجيش الرومانى إلا أن فالينس قاد قواته بنفس الطريقة الكلاسيكية الرومانية ، فقام بحشد فرق المشاة فى الوسط ، ووضع القوات الإحتياطية الراكبة الحليفة على الأجناب ، وقد وصل إلى علمه بأن جميع قوات العدو موجودة داخل ذلك المعسكر ولذلك قام بمهاجمتها ولكنه لم يعلم بأن فرسان القوط كانوا يطوفون بعيدا عن المعسكر بحثاً عن علف للخيول ، ومع بداية المعركة استدعوا على عجل وقاموا بمهاجمة الجناح الأيسر للرومان ، وقدوصف هجوم الفرسان بأنه كان كالصاعقة المنقضة من فوق قمم الجبال وقد سحق كل ما أعترض طريقهم ، وقد تفرقت فرسان الرومان وأكمل القوط اندفاعهم لسحق المشاة التى هرب جناحها الايسر ونجحوا فى سحق الفرق الموجودة فى الوسط (١) المندفعة من اليسار بمشاتهم المندفعة من الأمام وبذلك أصبحت الفرق الرومانية تواجه قدرها بعد أن أصبحت عاجزة عن الحركة .

وهذه المعركة ذات دلالة كبيرة تتمثل فى النصر الذى حققته الفرسان الثقيلة على المشاة وتلقى الضوء على المستقبل المظلم الذى ينتظر الجيش الرومانى ، وعلى كل فكان فرسان القوط أسبق من غيرهم فى عبور عتبه حروب العصور الوسطى ، ومن ذلك الوقت وما بعده حتى ظهور الرماة الإنجليز والرماحين السويسريين الذين تحدوا القوط فى القرن الرابع عشر ، فقد ظلت الفرسان الثقيلة طوال هذه المدة صاحبة المرتبة العليا فى أوروبا .

وعلى كل فيرجع بداية فن حروب العصور الوسطى إلى البربر أكثر منه إلى الرومان ، فالفارس المثقل بالدروع ويحمل حربته ومن وراءه اتباعه فقد نبع هذا من البربر ، وقد اشتقت المظاهر المميزة لهذه الحرب (من الفروسية والشعارات) من البربر أيضاً ، بينما كان كل هذا يتعارض مع تقاليد مشاة الرومان .

---

(١) أجبرت فرسان الرومان فى الجناح الأيمن على الانضمام على المشاه الموجوده فى الوسط فأصبحت قوة واحدة . « المعرب »

وعلى كل كان هناك سببان رئيسان وراء تطور الفروسية القوطية ووصولها إلى هذه القوة والعظمة ، أولهما أنه خلال هجومهم الطويل فى السهول الجنوبية لروسيا ووسط أوروبا أكتسبوا خبرة كبيرة فأصبحوا فرساناً ممتازين ، وثانيهما أنه يوجد بحوزتهم الركاب الذى يستطيع الفارس أن يحتفظ بتوازنه على ظهر حصانه وهو جالس على السرج الذى يتحمل ثقل دروعه والصدمات عند استعماله لحربته . ومن المحتمل أن يكون أصل مصدر الركاب هو الشرق ، فقد ظهر مع بداية القرن الرابع قبل الميلاد ، فى بعض صور النحت البوذية للقرن الثانى قبل الميلاد فرسان هذا العصر وهم يستخدمون عقداً من الحبال على شكل الركاب . وقد دخل الركاب إلى الغرب مع الجياد القوية القادمة من آسيا فى القرن الأول قبل الميلاد مع الأسكوذيون وقد حل القوط محل الأسكوذيون ومزجوا بين الأسلوب العسكرى الأسكوذى وما يتمتعون به من طاقة ، فأصبحوا يتصفون بالضراوة والكفاءة والتى أتبعوها فى هجومهم على الأمبراطورية الرومانية .

وقد طور البيزنطيون أسلوب قتالهم بعد معركة أدريا نوبل وأصبح على نمط أسلوب قتال القوط مما أدى أن الأباطرة اضطروا إلى نبذ أسلوب قتالهم(١) وحل فرق المشاة .

ولم يستطع الرومان مقاومة القوط بالقوة فاضطروا السماح لهم بالاستيطان بشروط مناسبة مع دفعهم للقتال ضد الشعوب البربرية الأخرى .

ولكن فى عام ٣٩٧ نجحت الجيوش الغربية الرومانية تحت قيادة «ستيليكو(٢)» من دحر القوط الغربيين تحت قيادة ألريك وطردهم من اليونان ، إلا أن ألريك أتجه نحو إيطاليا ولكن ستيليكو استطاع الإنتصار على ألريك بجيش عماده من المشاه عام ٤٠٢ عند بولينيتيا فى شمال إيطاليا ، وبعدها بأربعة سنوات حاصر عشرون ألفاً من رجال اللومباردى فى فلورنسا وأجبرهم على الاستسلام . وتحت ضغط الهون زحفت جماعات من قبائل السوفى والواندال والهيرول وعبروا جبال الألب إلى المناطق الجنوبية للأمبراطورية الرومانية ، وبكل حماقة

---

(١) أسلوب القتال الذى يعتمد على فرق المشاة

(٢) كان قائد وندالى على مستوى عال من المقدرة والكفاءة

قام الإمبراطور هونوريوس بقتل ستيليكو وذبح عدد كبير من القوط فى الجيش الرومانى مما أدى إلى تمرد ثلاثون ألفاً من المرتزقة القوط .

سوط الله (أنظر اللوحة رقم ١١)

فى عام ٤١٠ سقطت روما فى يد ألريك ونهبوا المدينة إلا أنهم احترموا المقدسات الدينية(١) ، ولكن بعد عام ٤١٠ خيم الهدوء المؤقت للحروب وأقام الواندال فى أفريقيا والبورجند فى بورجندى والفرنجة فى شمال فرنسا ، أما القوط الغربيون بعد سلبهم لإيطاليا أقاموا علاقات مع الإمبراطور ثم واصلوا زحفهم وكونوا مملكة فى أسبانيا وجنوب غرب الغال ، وبدا أن أوروبا أخذت تلتقط أنفاسها . ولكن فى منتصف القرن الخامس حدث أفظع غزو فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، فقد كون الهون جيشاً جراراً من الفرسان تحت قيادة خان عظيم وهو أتيلا(٢) وواصلوا غزوهم لعدة قرون واتجهوا نحو الغرب(٣) وقد خافهم جميع شعوب الغرب سواء أكانوا رومانيين أو البربر ، كما شعروا نحوهم باشمئزاز وبغض عميقين . وإذا ألقينا نظرة على أسباب غزو البربر والجرمان للإمبراطورية الرومانية لوجدنا أن السبب هو الاستمتاع بها وخيراتها ، أما السبب الرئيسى لغارات الهون فكانت للتدمير فقط .

وكان الهون فى الماضى غير منظمين ويحاربون فى صفوف البربر ، وكان هناك أعداد كبيرة منهم فى الجيش القوطى أثناء معركة أدريا نوبل ، كما كان الهون يشكلون أحياناً الاحتياطيات فى الجيش الرومانى نفسه . وقد أدى التزايد السكانى بينهم إلى دفعهم للقتال فنظموا جيشاً وهاجموا أوروبا .

وقد وصف أميانوس مارسيلينوس(٤) انطباعاته عن الهون قائلا : — « كانت دولة

---

(١) لقد أحترموا المقدسات الدينية لأنهم يدينون بالدين المسيحى

(٢) كان يطلق على أتيلا « سوط الله »

(٣) فيما بين ٢٠٧ ق.م و ٣٩ ب.م حاول المغول غزو الصين ولكن الصينيين أجبروهم على الأتجاه غربا

(٤) أحد الجنود الذين عاصروا هذه الحروب « المعرب »

الهون تفوق كل دول البربر فى وحشيتها ، فالجميع يتميزون بسيقانهم الملتصقة وأعناقهم القصيرة وملامحهم القبيحة التى تنذر بالشر ، أما إذا نظرت إلى ظهورهم المحدبة فستعتقد لأول وهلة أنك أمام أحدى الضوارى التى تمشى على قدمين وكانوا مدربين منذ طفولتهم على تحمل أقصى درجات البرد والجوع والعطش ، وملتصقين باستمرار بخيولهم التى تتميز بالجرأة وقوة الاحتمال وبشكلها الكئيب . وكل رجال هذه الدولة يعيشون ليل نهار على ظهور خيولهم حيث يتناولون طعامهم وشرابهم فوق سروجهم وعندما يأتى الليل يميلون إلى الأمام فوق عنق خيولهم ويذهبون فى سبات عميق .

وفى بعض الأحيان يقاتلون بأسلوب منظم ويملئون الجو بصيحات مرعبة ، وكانوا يستخدمون المفاجأة وخفة الحركة فى تحركاتهم ، فيتفرقون ويتجمعون مرة أخرى بسرعة فائقة فى مجموعات مرنة ، ويجب أن نعترف أنهم كانوا من أكفأ وأسرع أنواع المحاربين فى ذلك الوقت » .

لم يكن جيش الهون بتلك الضخامة العددية التى كانت تبدو عليه ولكن وحشيتهم ودمامتهم جعلتهم أشبه بالشياطين أو المخلوقات الدنيا من البشر . وكانت هذه الصفات تعتبر سلاحاً نفسياً رهيباً أثناء قتالهم . أما الصفة التى تميزوا بها فهى فى مقدرتهم الفائقة فى الحركة، سواء فى حركتهم كدولة محاربة رحالة مهاجرة وفى حرب متواصلة أو كقوة تكتيكية رهيبة وعلى كل فهذه القدرات جعلتهم قوماً مدمرين ، وساعدهم فى ذلك خيولهم التى تعدو بسرعة ٢٠ ميلا فى الساعة فكانت تقطع مائة ميل فى اليوم الواحد .

وكان فرسان الهون ذو مقدرة فائقة فى الهجوم والانسحاب علاوة على سهامهم المنقضة وقد أثبتوا فاعلية كبيرة فى مواجهة فرسان القوط وكان سلاحهم الرئيسى القوس (١) وكانوا من أبرع الرماة . وقد استخدموا السيوف الحديدية (٢) أيضاً .

(١) كان الفارس يحمل القوس المركب القصير القوى ويصنع من القرون القوية والقطع القصيرة المجدولة من الخشب المشدود إلى بعضه على شكل مزدوج .

(٢) يحتمل أن القوط سلبوها أو حصلوا عليها بطريق المقايضة من الشعوب الأوروبية ، فلم يكن لديهم الفرصة للقيام بأى صناعات معدنية . « المعرب »

وقد استخدموا أسوباً جديراً بالملاحظة فى القتال المتلاحم وذلك بقيام أحد رجالهم بارباك مقاتل العدو بواسطة الوهق[1] أو بواسطة شبكة ، وفى نفس الوقت يتفادى ضربات سيف مقاتل آخر من العدو ، وعلى كل كانوا لايحبون أستخدام الدروع ، والقليل جدا منهم من تحملها .

اتيلا وعروسه الجديدة

فى عام ٤٣٣ أصبح آتيلا حاكما لأمبراطورية الهون وسرعان ما فرض نفوذه على القوط الشرقيين والسلاف الموجودين بين الدون والدانوب وأيضاً على قبائل الجرمان فى الدانوب وفى أقصى الغرب . وأستمر آتيلا ينهب شعب الأمبراطورية الرومانية فكان يحصل على الجزيات والرشاوى من الجماعات التى تستوطن أطراف الأمبراطورية كما كان يؤجر الهون أنفسهم كمرتزقة فى الجيوش الأخرى ، وفيما بين ٤٤٠ — ٤٤٧ قام بغزو البلقان ولكن قوبل بمقاومة عنيفة فتحول إلى أقصى الغرب . وفى عام ٤٥١ عبر الهون الرين الأدنى على ظهر أطواف وتقدموا نحو أورليانز ، ولكن القوط الغربيين أنضموا إلى الرومان تحت قيادة إيتيوس وأستطاعوا صد الهون[2] بعد معركة دارت على سهل مورياك (شالون) ،ولايوجد سجلات دقيقة عن تلك المعركة فيما عدا ما كتب عنها : — « لقد كانت معركة وحشية وعنيدةومعقدة وضخمة. »وعلى كل لم يواصل إيتيوس أنتصاره فقد خشى أزدياد قوة القوط الغربيين بعد القضاء على الهون ، ونتج عن ذلك أن آتيلا غزا إيطاليا فى العام التالى ولكن أوقفته فى هذه المرة المجاعة والمرض التعزيزات التى وصلت للرومان من الشرق ودبلوماسية الأب ليو الأول ٠وفى عام ٤٥٣ أقترن آتيلا بزوجة جديدة وفى ليلة عرسه مات نتيجة أنفجار أحدى أوعيته الدموية، وقد علق شوكير على ذلك قائلا : « أنظروا ... آتيلا ، الفاتح العظيم ، لقد مات أثناء نومه مصحوبا بالخزى والعار . لقد نزف من أنفه نزيف الكسول ، ويجب على القائد أن يحيى متزنا ووقوراً » .

---

(١) الوهق عبارة عن حبل فى نهايته أنشوطة .

(٢) لم يكن الهون وحدهم بل كانوا معهم اللمبورد والهيرول والقوط الشرقيين « المعرب »

وبالرغم من الخاتمة المثيرة لغزوات الهون إلا أنها أتخذت شكلا دراميا ، لأن الحشد الكبير لقوات الهون هز دائما القوات الأوروبية التي كانت تجمع على عجل لقتالهم، فالجيوش التي تصدت للهون فى البلقان والتى هزمت كانت كلها خليط من قوات مختلفة . وقد قاتل آتيلا فى سهل موريالك فى أرض من أختياره وكانت ملائمة لأسلوب القتال التى ينتهجه الهون وعلى كل فكان آتيلا شخصية فريدة وبارزة وقد مكنه هذا من توحيد مثل هذا الشعب وقيادته طوال هذه المدة الطويلة ، وواضح أنه كان قائداً عسكرياً ممتازاً لهذا الشعب الأسيوى ولكن عندما واجهته قوات منظمة فشل أسلوب قيادته لذلك لا يمكن أن يعد من القادة العظام مثل جنكيز خان .

ولا تعد هزيمة الهون بأنها أنقذت روما ، لأنه فى عام ٤٧٦ قام أودوكر[١] بعزل رموليوس أغسطولوس وبذلك أنهى الأمبراطورية فى الغرب ، أما أودوكر فقد عزل هو الآخر بواسطة ثيودوريك[٢] . وعندما مات ثيودوريك قام جوستينيان[٣] ٥٢٧ — ٥٦٥ بمحاولة لأستعادة الأمبراطورية الرومانية فى الغرب وسعى وراء هذا الهدف الخيالى فأهمل حدود الدانوب والحدود الشرقية كما أن المقاطعات الشرقية[٤] التى أنهكتها الضرائب تعرضت لحرب لمدة عشرون عاماً ، وقد أنتجت هذه الحروب قائداً عظيما بارزاً هو بليزاريوس.

النظام الحربي

ظل الجيش البيزنطى محتفظاً بمقدرته لفترة من الزمن فى مواجهة حرب القوط ،وكان يتكون معظمه من المرتزقة ومن مختلف القبائل البربرية ومعظمه من الفرسان أما المشاة الثقيلة فكانت قليلة . إذا عدنا سويا إلى القائد بليزاريوس لوجدنا أنه تخرج من المدرسة الحربية للأمبراطورية الرومانية وتعين فى الحرس الأمبراطورى ، وفى عام ٥٢٠ طلب منه تدريب قوة من الفرسان الثقيلة المسلحة بالقوس والرمح حتى تصبح قوات مناوشة وأيضاً قوات صدمة ،فأضاف على تسليحهم

(١) أودوكر : قائد هيرولى لأحد الجيوش الرومانية وكانت تتشكل بالكامل من البربر .
(٢) ثيودوريك قائد من القوط الشرقيين وقد كون مملكة متمدينة فى رافينا
(٣) أمبراطور القسطنطينية
(٤) لقد تحولت الجيوش منها إلى الغرب وأفريقيا وأسبانيا وأيطاليا « المعرب »

السهام ذات الريش والتى تقذف باليد من مسافة قريبة ، وقد علمهم أستخدام السيوف العريضة الثقيلة عندما يصبح أستعمال الرمح دون جدوى ، وقد أدى هذا أن الأمر أصبح يحتاج إلى جندى قادراً وكفأ ليستخدم هذه الأسلحة الأربعة وفى نفس الوقت يجب أن يتحكم فى حصانه أثناء القتال وهذا تطلب منه مجهوداً كبيراً ليحصل على الجندى الملائم لهذه القوة الجديدة. وقد قام بتدريب رجاله على تثبيت أنفسهم على السرج بواسطة الركاب ويتحكمون فى حركة الحصان بواسطة تحريك الركاب فقط لأن استعمال القوس يتطلب أستخدام كلتا اليدين ، وعلى كل ساعده على ذلك أن السرج فى ذلك الوقت كان عريضاً ومريحاً . وكان الفرسان يحملون دروعاً تعلق باليد اليسرى ويرتدون دروعاً على شكل قميص بدون أكمام ويمتد حتى الأفخاذ ويرتدون أحذية طويلة مصنوعة من جلود الحيوانات والقوس يتدلى من فوق كتف الفارس فى حالة عدم استعماله بينما تحفظ السهام داخل جراب معلق مباشرة وراء السيف العريض وعلى الفخذ الأيسر ، وتحفظ السهام الاثنى عشر المزودة بالريش داخل جراب مشدود إلى الدرع ، أما الرمح فيحفظ داخل ما يشبه الدلو المصنوع من الجلد وعلى الجانب الأيمن للمقاتل . وقد أستخدم نفس أسلوب الهون فى الرماية بينما أستخدم أسلوب القوط فى القتال بالرمح . وأخذ يدرب الفرسان عمليا حتى تزداد مهارتهم فى التسديد والاصابة وكان يتم ذلك على أهداف على شكل دمى معلقة فى عوارض خشبية ، وكان على الفارس أن يشد قوسه عندما يقترب من الهدف ، ثم يطلق ثلاثة سهام متتالية على هذا الهدف المتأرجح ثم ينهى هجومه بالرمح أو بالاثنى عشر سهماً ذات الريش(١) وكان أجر الفارس ورتبته ومؤنه تمنح طبقاً للكفاءة فى التدريب .

وقد تعلم بليزاريوس مهنة القتال عن طريق الحرب التى دارت فى الدانوب والشرق ومثال لذلك أنه استنبط أسلوب تكتيكى جديد وأستخدمه ضد رماة الهون الراكبين فى بلغاريا ، فكانت المشكلة كيف يشتبك مع الهون عن قرب ؟ وقد نجح بليزاريوس فى أغرائهم بواسطة « طعم حى »(٢) فيندفع الهون نحوهم فى حماس حتى يصلوا إلى أرض من أختياره فيقطع عليهم خط الرجعة .

(١) كان يطلق على هذه السهام « السهام ذات الأجنحة »

(٢) الطعم الحى عبارة عن مجموعة من الفرسان يركبون جياداً سريعة جداً ، ويوضعون فى طريق تقدم الهون ليجذبون القوات لمهاجمتهم . « المعرب »

وقد أستطاع بليزاريوس التغلب على العربات التى يستخدمها الهون كمتاريس بأن يشعل رجاله النار فيها بأطلاق السهام المشتعلة عليها وكان يطلق السهم فى نفس الاتجاه التى تهب فيه الريح نحو هذه العربات .

حوت البوسفور

وقد ظل بليزاريوس يعمل مديراً للتدريب العسكرى لمدة أربعة سنوات ، وقد قضى هذه المدة فى الطوف بالحاميات على الحدود الشرقية لتنظيم وتنسيق أساليب تدريبها . وفى العمليات التى دارت مع الفرس كان النجـاح حليفه وبطريقة بارزة ، أما الفشل الوحيـد الذى لحق ببليزاريوس أنه حاول قتل حوت هائل كان يطلق عليه « بروفيرى » وكان يثير الرعب فى البوسفور وكان سبب هذا الفشل أن بحارته فقدوا أعصابهم ففشلوا فى تصويب المنجـانيق بالطريقة الصحيحة . وفى عام ٥٣٢ أسندت القيادة لبليزاريوس ليقاتل الواندال وخرج من بيزنتيوم[١] على رأس جيش جرار يقدر بحوالى عشرة آلاف من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان وكان معظمهم من المرتزقة ومن جنسيات متعددة ويمثلون الفلاحين وتباع القادة ، ويعتبر هذا الجيش أول جيش أقطاعى . وكانت المشاة ذات كفاءة كبيرة ونوعية ممتازة ومن مرتفعات قلقيلية وقد دربهم بليزاريوس،أما الفرسان فكان من بينهم ستمائة من الهون وأربعمائة من الهيرول ، كما كان هناك وحدة مشكلة من حوالى ألف وخمسمائة من الفرسان المدرعين كحرس ملـكى خلف بليزاريوس ،وكان رئيس أركانه يدعى سليمان من أرمينيا وكان من ضمن أفراد قيادته مؤرخ يدعى هوبروكبس وهو مؤرخ عهد جوستينيان . وقد أعتاد بليزاريوس فى جميع حملاته أصطحاب زوجته أنطوانيت وكانت أمرأة تتميز بالجرأة والشجاعة .

وقد أبحر الجيش عن طريق أيطاليا وصقليه بأسطول مكون من ٥٠٠ سفينة نقل مختلفة الأحجام وفى حراسة أسطول صغير مكون من ٩٢ قارباشراعياً[٢] سريعاً . وكان بليزاريوس يحب النظام ويقدسه وقد أدى هذا أن فرض نفسه على رجاله ومثال لذلك أنه أعدم أثنين من

(١) وهى القسطنطينية

(٢) كان يطلق عليه درمون ويقوم بالتجديف فى كل منه ٢٠ رجلا « المعرب »

الهون قتلا أحد الرجال أثناء حفلة شراب . ولم تقابل عملية الأنزال فى أفريقيا أى مقاومة تذكر، وتقدم الجيش نحو قرطاجة ، وفى كل ليلة تقيم القوات معسكرا على النمط الرومانى القديم المبيت فيه ، وعند الميل العاشر قبل قرطاجه ألتقى الرومان بالوانداال[١] الذين حشدوا ٨٠٫٠٠٠ من الجنود ، ولكن جيشهم كان أقل خبرة علاوة على أفتقاره للتدريب من جيش بليزاريوس وفى بداية المعركة أصطدم فرسان الرومان مع فرسان الوانداال فى وادى ضيق محصور بين جبلين وأستطاع الرومان هزيمة فرسان الوانداال هزيمة منكرة وقتلوا قائدهم[٢] ، فى نفس الوقت أندفع جيلمر بالوانداال فى احدى السهول القريبة لمهاجمة العدو ولكن السيل المنهمر من سهام قوات بليزاريوس أفزع الوانداال وشتتهم ولكن قوات الوانداال تجمعت ثانية واحتلت جميع مداخل الوديان فى مواقع دفاعية ممتازة ، وأصبح بليزاريوس بالرغم من تفوقه العددى فى موقف صعب للغاية ، ولكن الأمور تغيرت لصالحه عندما علم جيلمر بمصرع شقيقه فتملكه الحزن الشديد ورفض الإستمرار فى المعركة أكثر من ذلك ، وعلى الفور أستغل بليزاريوس هذه الفرصة لصالحه ، وقام بتقسيم قواته إلى قسمين وأرسلهم لاحتلال الهضاب المحيطة بمداخل هذه الوديان . وقام القسمين وفى وقت واحد بإطلاق سهامهم على الوانداال ثم أتبعه بهجوم كاسح من الفرسان والمشاة فأستطاع فى النهاية أبادة الوانداال . وفى اليوم التالى استسلمت قرطاجة ولكى يجنب بليزاريوس نهب المدينة ، أمر جنوده بعدم دخولها .

النصر الهاوى

وبعد انتهاء الحرب فى أفريقيا اشتعلت مرة أخرى فى إيطاليا ، فقام بليزاريوس بغزو القوط الشرقيين (٥٣٥ — ٥٤٠) بجيش لم يتعدى ٧٫٥٠٠ رجلا وبالرغم من العقبات والمكائد التى كانت موجودة فى البلاط البيزنطى ، وبالرغم من التردد وغيرة الأمبراطور جوستينيان .

(١) كان الوانداال من الفرسان المهرة ولكن فرسانهم كانت تقاتل بالرمح والسيف فقط بينما كانت رماتهم من المشاة .

(٢) كان قائد الفرسان شقيق الملك جيلمر وقد أصيب باحدى السهام ذات الأجنحة فى جبهته « المعرب »

وكان لهذه الحرب خاتمة مثيرة فقد دافع بليزاريوس عن روما دفاعاً مستميتاً بخمسة آلاف من رجاله دافعوا عن أثنى عشر ميلاً من أسوار المدينة لمدة عام كامل. وفى عام ٥٤٠ إستسلمت رافينا إلا أن الثورة اشتعلت فيها ، وقام بليزاريوس ومعه نارسيس[١] بمحاربة القوط لمدة أربعة عشر عاماً أخرى .

وعندما حل السلام ، كان عبارة عن سلام أنهاك بينما كان النصر خاوياً لأن الدمار والخراب الذى حل بإيطاليا جعلها غير قادرة عن الدفاع حتى عن نفسها ضد اللومبارد وقد قاموا باكتساح شمالها عام ٥٦٥ .

وعلى كل فقد تفانى بليزاريوس بكل قوته وطاقته لخدمة رئيس سياسى[٢] من الدرجة الثانية لأنه طلب منه تحقيق هدف استراتيجى وهمى. فنجد أن ماحصل ووصل إليه جوستينيان يعتبر أكثر مما يمكن السيطرة عليه . ويعتبر بليزاريوس مثال الجندى الكلاسيكى الوفى الكفء .

وفى عام ٥٤٠ قام الفرس بنهب أنطاكية ، وقد تم سحب القوات الرومانية من الحدود الشرقية فأدى هذا إلى ضعف الحدود . وعلى العموم فالحصون التى بناها جوستينيان وتقدر بحوالى سبعمائة لتدل على التقدم الكبير فى مجال الهندسة العسكرية .

وفى القرن الخامس أتم البيزنطيون بناء الدفاعات الكبيرة عن القسطنطينية ، وكانت على شكل حزام ثلاثى من الأسوار وخندقين مائيين ، واستطاعت هذه الدفاعات مقاومة الهجمات المتكررة حتى سقطت لأول مرة عام ١٢٠٤ .

وقد ألهمت أسواره مزاغل وأبراج القسطنطينية مهندسوا العصور الوسطى وأثرت تأثيراً كبيراً على تفكيرهم .

وفى النهاية فقد أدى فشل الأسلوب الذى أتبعه جوستينيان فى فتوحاته إلى الأطاحة بالستار الغربى للامبراطورية الرومانية علاوة على ضياع المجد العسكرى والحضارة الرومانية .

(١) نارسيس كان هذا القائد يبلغ من العمر ٨٠ عاما
(٢) يقصد جوستنيان « المعرب »

والآن وقد تبددت آخر الأوهام السياسية لأن الغزو اللومباردى لإيطاليا يعتبر آخر الهجرات البربرية .

ونعود ثانية وننظر إلى أطراف الأمبراطورية الرومانية فنجد أن شمال أفريقيا والقوط الغربيين وأسبانيا أخذوا ينتظرون غزو العرب لهم ، بينما عزز الفرنجة أنفسهم فى فرنسا أما الأنجلوسكسون فقد استقروا فى بريطانيا .وبالفعل نجد أن الحقبة الجديدة لحرب العصور الوسطى والتى تميزت بالفارس المدجج بالسلاح ويسير من خلفه أتباعه ، قد بدأت فعلا من قرنين من الزمان .

الفصل السابع

الحروب فى أوائل العصور الوسطى

ظهور محمد (عليه الصلاة والسلام) (أنظر اللوحة رقم ١٢)

إذا ألقينا نظرة على الأمبراطورية الرومانية لوجدنا أن غرب هذه الأمبراطورية أخذ يتفتت بينما شرقيها أخذ يزدهر وذلك بقيام الدولة البيزنطية التى أخذت تصارع من أجل البقاء مع العرب أولا ثم بعد ذلك مع الأتراك والبلغاريين . وبعد صراع مرير استطاع البيزنطيون تحقيق النصر على العرب ، مما أدى أن غير العرب طريق فتوحاتهم فتوجهوا إلى شمال أفريقيا فاتحين أسبانيا عام ٧١٣ وبعدها بسبع سنوات توغلوا فى جنوب فرنسا . فى ذلك الوقت ظهرت الفرنجة[١] مرة أخرى وبشكل ملحوظ إلا أنه فى القرن الثامن بدأ الفايكنج غاراتهم على بريطانيا وغرب أوروبا من أسكندنافيا ولم يستطع الفرنجة والإنجليز من صد هجماتهم بفاعلية وكفاءة إلا مع حلول القرن العاشر .

وخلال هذه الفترة المضطربة، أنجبت أوروباقادة ا كفاء بارعين ساهموا فى حمايتهاوسنشير إلى بعضهم خلال دراستنا لهذه الحقبة .

إذا نظرنا إلى الفترة ما بين القرن السابع والحادى عشر والقينا الضوء على الحرب التى نشبت فى أوروبا الغربية لظهر لنا مظهرا مثيراً وجديرا بالملاحظة وهو التألق المستمر فى مضمار الفروسية ، مع ظهور نظام الأقطاع والتبعية[٣] وبالرغم من هذا كانت توجدمناطق

(١) الفرنجة : موطنهم الأصلى شمال غرب أوروبا ثم نزحوا إلى داخل الغال الرومانى وهم ينتمون إلى القبائل الجرمانية .

(٢) كان فى ذلك الوقت الفارس هو الأساس فى تشكيل القتال وينتمون الى الطبقة النبيلة ويرفعهم الملك إلى رتبة عسكرية خاصة بعد اجتيازهم مرحلة تدريب معينه ويأخذوا على أنفسهم عهدا بالقيام بالأعمال المجيدة .

(٣) نظام التبعية : وهو ان أن يتبع الفلاحين ملاك الأرض اثناء الحرب ويقاتلوا فى صفوفهم .

« المعرب »

عديدة استمرت فى استخدام المشاة كعنصر رئيسى لقواتها . هذه مقدمة سريعة لتذكرنا بهذه الفترة ، وعلينا الآن العودة إلى عام ٦٢٢ ، فى هذا العام هاجر الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) مع أتباعه من مكة إلى المدينة وبدأ فى نشر الدعوة الإسلامية . وقد قاد النبى (عليه الصلاة والسلام) بنفسه ثلاثمائة من أتباعه وهاجم قافلة مكية وقد حقق أول نصر عسكرى للمسلمين . وفى عام ٦٢٨ وبقوة تقدر بألف وأربعمائة من أتباعه استطاع الرسول (عليه الصلاة والسلام) فرض شروطه على مكة وبذلك ضم إلى صفوف دعوته رجلين من أعظم الرجال وقدر لهما أن يكونا من أعظم قادة الفتوحات الإسلامية وهما خالد بن الوليد .. وعمرو بن العاص ..

توفى الرسول (عليه الصلاة والسلام) عام ٦٣٢ وبعد اثنى عشر عام أنتزع المسلمون كل من فلسطين وسوريا ومصر من الامبراطورية البيزنطية ، وبعدها تمكنوا من غزو الفرس والأطاحة بهم . وفى غضون مائه سنة أمتدت الإمبراطورية الإسلامية من بحر الأورال إلى أعالى النيل ، ومن تخوم الصين إلى خليج بسكاى . ولم تكن هناك سوى قوة واحدة لديها القدرة على مقاومة المسلمين فى ذلك الوقت وهى الامبراطورية البيزنطية بالرغم من فقدها للجزء الجنوبى الشرقى من امبراطوريتها .

المسلمون قوم لا يقهرون

وفى عام ٦٣٦ حشد الأمبراطور البيزنطى هرقل جيشاً مكوناً من خمسين ألفاً ليقاتل به العرب وكان جيشهم نصف عدد الجيش البيزنطى وبقيادة خالد بن الوليد ، والتقى الجيشان عند اليرموك(١) ، وقد أسفرت المعركة على هزيمة الجيش البيزنطى وتشتتت صفوفه ولاقوا حتفهم على أيدى أهل الصحراء وأدى هذا إلى تقلص جبهة البيزنطيين حتى وصلت جبال طوروس ، كما سقطت الأسكندرية(٢) فى قبضة عمرو بن العاص بالرغم من افتقاره لمعدات الحصار والخبرة فى فن الحصار نفسه . أما ليبيا وتونس فقاوموا العرب مدة ٢٥ عاما

---

(١) منطقة اليرموك من أشد بقاع العالم قيظا وغباراً

(٢) كان يحمى الاسكندرية أسوارا عالية وقوية وحامية مكونة من خمسين ألفا علاوة على الأسطول البيزنطى « المعرب »

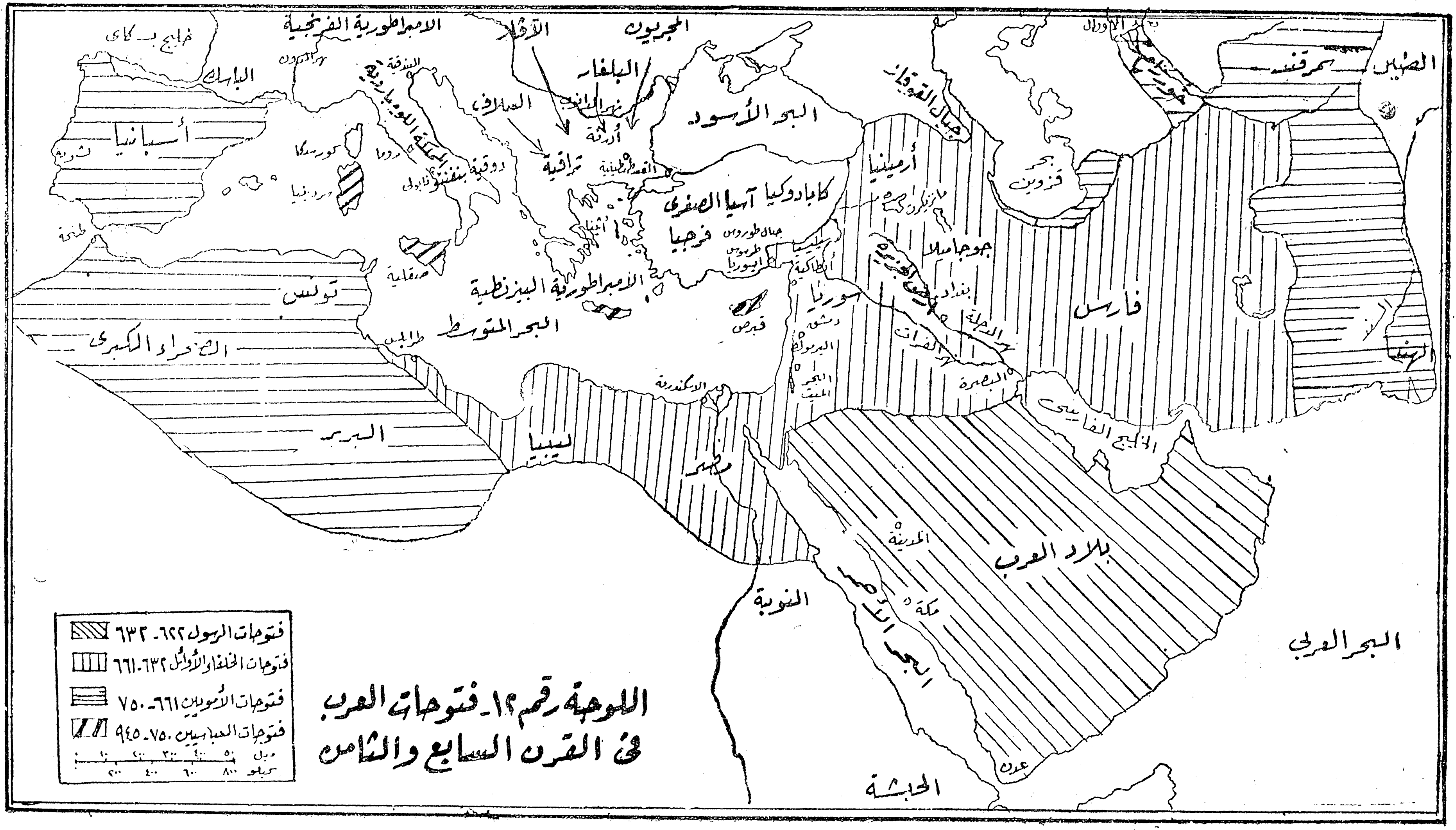

اللوحة رقم ١٢ ـ فتوحات العرب في القرن السابع والثامن

ولكنهم فى النهاية اعتنقوا الإسلام ، ومن العجيب أن القوة الرئيسية للجيوش الإسلامية فى فتح أسبانيا بين عامى ٧١٠ — ٧١٣ كانت مشكلة من الليبيين والتونسيين .

وقد طبق العرب وبذكاء خفة الحركة أثناء فتوحاتهم فكانوا يقاتلون من فوق ظهور الجمال والخيل وفى المناطق الملائمة لذلك مثل الأرضى المفتوحة فى شمال أفريقيا وغرب آسيا، إلا أن تنظيم قواتهم والأسلوب التكتيكى الذى اتبع فى المعركة كان بدائياً علاوة على افتقارهم للدروع القوية ، فمثلا كانوا يقاتلون عادة فى خط واحد كثيف ومتقارب وأحيانا يقاتلون فى خطين أو ثلاثة ، بينما تشكل كل قبيلة منهم وحدة منفصلة ، وكان أسلوب القتال عندهم أن يتحدى بطلى الجانبين كل منهما الآخر قبل بداية المعركة ، وقد يصل هذا التحدى أن يدخلا سويا فى قتال فردى بين الجيشين ثم يتبع ذلك قتالا عاما للجيشين .

ومن العوامل التى جعلت العرب قوم لا يقهرون شجاعتهم وإقدامهم وحشدهم لقواتهم ، قد وصفهم القائد البيزنطى نفقور فوقاس عندما يتوقعون النصر فهم قوم غاية فى الجسارة يصمدون بثبات فى صفوفهم ، ويقاتلون بإصرار باسل فى وجه أعنف الهجمات ، وعندما يلاحظون أن وحشية عدوهم بدأت تتراخى يحشدون قواتهم ويهجمون باستماتة » .

إذا ألقينا نظرة على مشاتهم فيما عدا الرماة من الأحباش نجدها غير فعالة وهزيلة التسليح، ولكن قوتهم كانت تكمن فى فرسانهم القوية التى تميزت بالتسليح الخفيف حتى مستهل القرن السابع وبالتالى أصبح لها قدرة فائقة على الحركة ، إلا أنه فى القرون اللاحقة تعلم العرب دروسا كثيرة من أشد أعدائهم صلابة وعناداً وهم البيزنطيون ، فأصبحوا يعتمدون وبدرجة كبيرة على الراكبين من رماة القوس ورماة الرمح وكانوا يرتدون دروعاً على شكل قمصان من السلاسل المعدنية ويضعون على رؤوسهم الخوذات والدروع على الساق لحمايتها ، إلا أن الخيالة العربية لم تصل فى تدريعها إلى مستوى تدريع الخيالة البيزنطية .

الاسلام يحرر الشعوب من العبودية

ومهما يكن من الأمر ، فنجد أن أهم مميزات الجيوش الاسلامية لم تكمن فى المعدات أو التسليح أو التنظيم بل كانت فى الروح المعنوية العالية النابعة من قوة إيمانهم بالدعوة

الإسلامية ، وفى خفة الحركة والتى ترجع إلى مهارتهم فى سرعة التحرك بالجمال والخيل ، وأيضاً فى قوة احتمالهم وجلدهم نتيجة لحياتهم الصعبة فى الصحراء والتى تعودوا عليها .

وعلى كل فهناك عوامل أخرى شاركت فى نجاح زحفهم غير العادى ، ذلك الزحف الذى كان عبارة عن نجاح تلو النجاح ، فكان العرب يندفعون نحو القتال ويحركهم أقوى دوافع الحرب ، ألا وهو الإيمان والعقيدة ، ومثل هذه النبضات المتلاحقة لم يكن من السهل أن تخبو سريعا .

فالكثير منهم ، وخاصة فى المراحل الأولى للفتوحات الإسلامية ، كانوا يؤمنون إيمانا راسخا بالدعوة الإسلامية متحمسين لها والغيرة عليها ، وأدى هذا إلى إعتناقهم مبدأ صلبا هو الجهاد فى سبيل الله ، وقد تغلغل هذا المبدأ فى قلوب أتباع الرسول « عليه الصلاة والسلام » .

وقد كان العامل الاقتصادى أحد أسباب الحروب التى قام بها العرب إبان القرن السابع ، وقد تمثل هذا فى القصة القديمة للازدحام السكانى فى شبه الجزيرة العربية .

وقد ظلت مناطق جنوب الجزيرة العربية لعدة قرون تعانى من الجفاف والقحط مما أدى أن سكان هذه المناطق زحفوا شمالا . ويعتبر الاندفاع العربى فى القرن السابع هو الرابع والأخير ، وكان من أعظم الهجرات السامية . وقد نزح هؤلاء بطبيعة الحال نحو الهلال الخصيب وذلك قبل أن يتدفقوا إلى وديان النيل والفرات ثم ما بعدها .

وقد وصلت الفتوحات الإسلامية مدى لم تصله فى أى عهد سابق ، وذلك ليس فقط لأنهم كانوا أكثر عددا بل أيضا لأنهم كانوا يستقبلوا فى كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية وذلك لما اتسموا به من تسامح .. وإنسانية .. وحضارة ، فزاد إيمان الشعوب بهم ، علاوة على تميزهم فى نفس الوقت بالصلابة والشجاعة فى القتال . وقد أدى كل هذا إلى إعتناق معظم الشعوب التى انتصر عليها العرب الدين الإسلامى ، وقد ظلت جميع المناطق التى فتحها العرب فى القرن السابع حتى يومنا هذا ، ماعدا إسبانيا تحتفظ بالدين الإسلامى وكذلك بالعادات والتقاليد والتراث الإسلامى .

النار الأغريقية

لقد أدرك العرب بعد معركة اليرموك أنه يجب الإستيلاء على القسطنطينية لأن ذلك سوف يوفر لهم أمناً محققاً ويتوجهم بالنصر والنجاح ، وبالرغم من هذا فالتهديد الأول الذى تعرض له العرب بعد ذلك كان من البيزنطيين • وإذا استرجعنا سويا التاريخ لوجدنا أن انتصار العرب المبكر فى الشرق الأدنى يرجع إلى أن الإمبراطورية البيزنطية والفارسية كانتا منهكتين نتيجة للحروب التى دارت بينهما • فنجد أن الإمبراطور البيزنطى هرقل بعد عام ٦٢٣ ، وبعد قيامه بستة حملات استطاع طرد جماعات البربر من حدوده الشمالية والشمالية الشرقية ، وقد انتهز الإمبراطور الفارسى كسرى فرصة هذا الوضع الحرج لغريمه وهاجمه من الشرق إلا أن الإمبراطور هرقل تمكن من دحره • فى ذلك الوقت قام العرب بهجومهم على الإمبراطورية البيزنطية ، وكان الجيش البيزنطى فى حالة من الإنهاك وكما أشرنا سابقا وانسحب الجيش البيزنطى بعد معركة اليرموك إلى خط طوروس ، وهناك أعادوا بناء قواتهم • وفيما بين القرن الثامن والحادى عشر أصبح للبيزنطيين جيشا وبحرية منظمة وعلى درجة عالية من الكفاءة وتعتبر من أعظم ما شهدته أوروبا ومنطقة البحر المتوسط •

وهذا ما اكتشفه العرب عن محاولتهم التوسع فى فتح هذه الإمبراطورية ، ففى عام ٦٦٨ هاجم العرب عدة مناطق من الإمبراطورية البيزنطية ولكنهم لم ينجحوا ، فأعادوا الهجوم بواقع مرة كل سنة بين عام ٦٧٢ ، ٦٧٧ ولكنهم فشلوا أمام الأسطول البيزنطى ، بالرغم من وجود تشابه كبير بين السفن الشراعية الكبيرة البيزنطية والعربية وعلى كل كان هناك نوعان من هـــذه السفن : — سفن صغيرة وتستخدم فى أعمال الاستكشاف ، وسفن كبيرة وتستخدم فى أعمال القتال وكان يطلق عليها « الدرمون » ومن النوع الكبير أيضاً سفن البامفيليه وطولها ١١٠ قدما وعرضها ١٤ قدما ولها دفة مساحتها ٣ أقدام ويقوم بالتجديف فيها مائة رجل موزعين على الجانبين ، وكان الرجال الذين يجدفون فى مقدمة السفينة مسلحين علاوة على جنود الإنزال[1] . وكان يوجد نوع ثالث أكبر من « الدرمون »

---

(١) مشاة البحرية

يبلغ طوله ١٤٠ قدما ويقوم بالتجديف فيها ٢٣٠ رجلا . ويرجع تفوق البيزنطيون فى البحرية إلى سببين :

أولهما لأن سفنهم كانت مجهزة أفضل ومتقنة الصنع .

وثانيهما أنهم كان يملكون سلاح « النار الإغريقية[١] » ، وكانوا يطلقون قذائف هذا المخلوط بأقواس مركبة بالسفينة من خلال أنبوبة أو ماسورة أو تقذف فى بواتق بواسطة المنجانيق ، وإذا اختلطت « النار الإغرايقية » بالماء تزداد إشتعالا .

ميناء البوق الذهبى (أنظر اللوحة رقم ١٢ ، ١٣)

استمرار الصراع دائراً بين العرب والبيزنطيين مدة طويلة وكان العرب منتصرين دائماً حتى وصلت الإمبراطورية العربية إلى ذوروتها فى عهد الخليفة الوليد (٧٠٥ — ٧١٥) وبات محتما أن الإمبراطورية البيزنطية سيصيبها الأضمحلال ، ولكن عجلة الحظ دارت فى جانب

اللوحة رقم ١٣ معركة القسطنطينية البحرية

(٢) عبارة عن مخلوط محرق غير معروف تركيبه بالضبط ، ولكن من المحتمل أن يدخل فى تركيبه الكبريت والقار والبترول والزنت والزيت ومادة صمغية والجير الحى ، وكان لدى الأغريق شىء كهذا لمدة طويلة ، وربما ترجع هذه المدة إلى الحصار المبكر لديليوم فى عام ٤٢٤ ق . م ولكن فيما يبدو كان هناك سوريا يدعى كاسينوس قام فى عهد قريب بتحسين وتطوير هذا المخلوط. « المعرب »

البيزنطيين عندما حاصر العرب القسطنطينية. ففي الفترة ما بين ٧١٧ — ٧١٨ بعد غزو العرب لآسيا الصغرى ، اضطر الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث إلى التنازل عن العرش لرجل عسكرى محترف هو « ليو الأيسوريانى » الذى قام على الفور بإصلاح وتدعيم تحصينات القسطنطينية الضخمة . وكان من المعروف قبل عصر البارود أن الأسوار والحصون لا يمكن اختراقها بواسطة الهجوم ، وكانت الوسيلة الوحيدة للاستيلاء على المدينة هو حصارها حتى تستسلم فى النهاية جوعاً .

ولكن إذا ألقينا نظرة على القسطنطينية لوجدنا أنها كانت مقامة على نتوء جبلى يمتد إلى داخل البحر وتحيطها المياه من ثلاث جوانب ، ولذلك أصبح سقوط هذه المدينة يتوقف على قوة وقدرة الأسطول المهاجم .

وعلى كل لا نعرف عدد سفن الأسطول العربى بالضبط ، ولكن من المؤكد أن العرب استطاعوا الحصول على عديد من السفن من جميع موانى شرق البحر المتوسط ومن المؤكد أن كان لهم السيادة فى هذه المنطقة والتفوق فى المعركة .

وفى أغسطس عام ٧١٧ هاجم القائد العربى مسلمة القسطنطينية براً بمهاجمة السور المقام على الشاطىء ، إلا أن نيران المنجانيق أجبرته على الأنسحاب ، فقام بمحاصرتها وأصدر أوامره للقائد البحرى سليمان بتقسيم أسطوله إلى قسمين ، قسم يرابط عنـــد أنثيميوس وأيتروفيس على ساحل آسيا الصغرى وذلك لقطع الأمدادات والمواصلات عبر البحر المتوسط إلى القسطنطينية ، بينما يمر القسم الثانى خلال البوسفور ويغلق الممر المائى بين القسطنطينية والبحر الأسود .

فى ذلك الوقت أقام ليو برجين على جانبى المدخل المؤدى إلى ميناء البوق الذهبى ، وعلق بينهما سلسلة حديدية تحت الماء كعائق للسفن ثم وضع أسطوله فى ميناء البوق الذهبى .

وفى أوائل شهر سبتمبر بدأت السفن العربية فى الأبحار إلى البوسفور وعندما وصلت إلى نقطة سيراجليو تقاذفتها تيارات قوية مما أدى إلى حدوث فوضى وأضطراب بين سفن الأسطول العربى، فى هذه اللحظة خفض ليو السلسلة الحديدية وأطلق سفنه لمهاجمة الأسطول العربى بقذائف من النار الإغريقية مما أجبر الأسطول العربى إلى الأنسحاب بعد أن فقد ٢٠

سفينة وبعدها عاد ليو بأسطوله إلى ميناء البوق الذهبى .لم يحاول بعد ذلك العرب القيام بمحاولة لغلق البوسفور مما أدى إلى وصول الأمدادات الكثيرة للمدينة المحاصرة عن طريق البحر الأسود، بينما أستمر العرب فى حصارهم للمدينة طوال الشتاء القارص ، وكان يعتبر حصـــار العرب للقسطنطينية فى هذا الوقت عمل جرىء لما كانوا يقاسونه من شدة البرد غـــير العادى فى هذه المنطقة .

وفى الربيع وصل إلى العرب بعض التعزيزات من شمـال أفريقيا فقرروا الأبحـار نحو البوسفور لأستـكمال تطويق القسطنطينية ، ولـكن كان معظم أطقم سفن التعزيز من المسيحيين المجبرين على القتال فافشوا سر خطة التحرك . وفى اللحظة الحاسمة أبحر أسطول ليو من ميناء البوق الذهبى وألتقى بالجزء الأكبر من الأسطول العربى أثناء تحركه نحو البوسفور وأستطاع ليو تحقيق النصر كاملا على العرب ، وتوج هذا النصر بنصر آخر برى ، فقد حقق حلفائه البلغاريون نصراً بريا على الجيش العربى فى المنطقة التى تقع بين القسطنطينية وأدرنه .

وأخذ البيزنطيون فى نشر الشائعات بين صفوف العرب بأن الفرنجة يزحفون بجيوشهم نحو العرب للقتال بجانب البيزانطيين لأنقاذ المسيحية ، وعندئذ دب اليأس فى قلب الخليفة العربى ، وبعد أثنى عشر شهراً من حصار القسطنطينية وبالتحديد فى أغسطس ٨١٧ رفع الحصار عن المدينة وأنسحب الأسطول العربى ، فما كان من ليو أن طـاردهم بأسطوله إلى ما وراء الهلسنت حيث أصطدم الأسطول العربى بعاصفة هوجاء قضت على الجزء الأكبر منه ولم يتبق إلا جزء ضئيل ، وكانت كارثة مفجعة لم ينسها العرب . وقد حقق ليو أنتصارا آخر على العرب عام ٧٣٩ عند أكرونون فى فريجيا مما أجبرهم على الجلاء عن غرب آسيا الصغرى وبذلك أطمأن ليو أن الإسلام لن ينتشر فى أوروبا الأغريقية لعدة قرون .

الجيش البيزنطى

لقد كان الفضل الأكبر للأنتصار فى القسطنطينية يرجع لليو ، فقد أستلم قيـادة الدولة البيزنطية فى لحظة عصيبة ، إلا أنه قادها بشجاعة وذكاء فى معركة دفاعية طويلة ضد عدو عظيم له شهره وتفوق كبير فى القوات ، ولـكنه كان لن يحقق هذا النجـاح إذا لم يـكن جيشه وأسطوله قد تم تأسيسهما وتنظيمهما من فترة طويلة وفى ظل التقاليد العسكرية الصارمة

وقد أعتمد ليو على القاعدة الوطيدة من الضبط والربط والكفاءة الموجودة لدى القوات وأقام عليهاصرح جيشه وأسطوله الكبيرين .

فإذا عدنا للوراء لوجدنا أن هذا الجيش قد أسسه بليزاريوس وموريس[١] وزاد من كفاءته هيرا كليوس وأنتصر به على السلاف والفرس (٦٢٢ — ٦٢٨) ثم أثبت هذا الجيش نفسه مقدرة وكفاءة أكثر من مرة وفى أكثر من معركة ضد الجيوش العربية المتفوقة ، وكانت فرسان بليزاريوس الثقيلة تشكل القوة الرئيسية للجيش البيزنطى على مر العصور ، وكان الفارس يرتدى قميصاً معدنياً من رقبته حتى الفخذين ويحمل درعا مستديراً متوسط الحجم وقلنسوة مزودة بخصله من الشعر ، ويرتدى فى يديه قفازاً طويلا يمتد إلى مابعد الرسخ وحذاء من الصلب فى قدميه .

وكانت جياد الضباط وقوات الخط الأمامى مزودة بمقدمة حديدية لحمايتها .

وجميع الجياد مجهزة بسروج مريحه وبها ركاب حديدى .

وكان الجنود يرتدون فى الطقس الحار سترات خفيفة من الكتان فوق دروعهم ،وتتغير هذه السترة الكتانية إلى معطف من الصوف فى الجو البارد .

وكان الفارس يستخدم أثناء الهجوم سيف من النوع العريض وخنجر وقوس قصير وجعبة مملوءة بالسهام وحربة طويلة مزخرفة ومزودة بسير جلدى عند جزءها السفلى الغليظ، وأحياناً كان يحمل الجندى بلطة وتثبت فى سرج الجواد . وكان يرتدى الجيش البيزنطى زى موحد[٢] مكون من معطف وعلم مثلث على رأس الرمح وخصله من الشعر[٣] على الخوذة .

وكان الفارس يجب أن يكون لائقاً جسمانياً حتى يستطيع حمل هذه المعدات الثقيلة ويقاتل بها .

وكان يخدم كل ضابط أو أربعة أو خمسة فرسان جندى وكان هذا باهظ التكاليف ولكن

(١) الأمبراطور الذى حكم فى الفترة ما بين ٥٨٢ — ٦٠٢

(٢) تشبها بالجيش الرومانى ومخالفا لجيوش الغرب قبل القرن السادس عشر

(٣) كانت هذه الخصلات متعددة الألوان وكل لون يرمز إلى وحدة من وحدات الجيش .

« المعرب »

الجيش كان يضحى بكل هذا فى مقابل أن يركز كل ضابط أو فارس كل طاقته للقتال ويظل دائماً فى حالة جسمانية جيدة وكان لذلك يمنح التغذية الصحية والجيدة . وكانت الدولة البيزنطية لا تجد هناك ضرراً فى منح قوات الجيش بعض الراحة والغنى على أن يتم تنظيم ذلك جيداً أو بذلك لا يؤدى إلى آثار ضارة على المبادىء العسكرية .

أما مشاة الجيش البيزنطى فلم تكن هى « ملكة ميدان القتال » ، لأن دورها كان محدوداً فى الدفاع عن الممرات والمناطق الجبلية وكذا حماية القلاع والمدن الهامة ،وكان معظم المشاة الخفيفة من الرماة ، وخاصة من رماة الرمح ، أما رماة القوس فكانوا أحياناً يرتدون سترات معدنية ولكن فى أحيان أخرى يرتدون سترة قصيرة مشدودة بحزام فى الوسط وينتعلون أحذية قوية ، ويحملون جعبه بها أربعون سهماً وبلطة معلقة فى أحزمتهم يستخدمونها فى حالة الإلتحام مع العدو على مسافات قريبة ويحمل واقياً مستديراً متدلى على ظهره لحمايته .

أما المشاة الثقيلة والتى كان يطلق عليها « سكوتاتوس » فكانت ترتدى رداءاً معدنياً وقفازات طويلة ودروعا للساق وخوذة حديدية مدببة من الأمام ومزودة بخصلة من الشعر من الخلف ويحملون دروعا مستديرة وكبيرة ، وكان سلاحهم الهجومى عبارة عن الرمح و السيف والبلطة(١) . وأسوة بالفرسان ، كان للمشاة أيضاً مجموعات كبيرة من تباع المعسكر(٢) ولكل وحده مكونة من ستة عشر رجلا عربتان محملتان بالعتاد والمؤن وأوانى الطهى علاوة على طاحونة يدوية للحبوب بالإضافة إلى معدات الحفر والحصار التى تتضمن المطارق والمجارف والفئوس والمناشير ، كما كان هناك جياد مخصصة لحمل الأمدادات فى حالة المسيرات الطويلة .

الخدمات الطبية والمهندسون فى الجيش البيزنطى

لقد أتبع الجيش البيزنطى نفس النظام التقليدى الرومانى فى إقامة المعسكرات المحصنة ، واقتضى هذا العديد من الأدوات والمعدات والأفراد ، فكان يسير بصفة دائمة مجموعات من المهندسين مع طليعة الجيش . وكان لهم نظام ثابت فى إقامة المعسكرات بأن يخطط المهندسون

(١) كان لها حدين ؛ حد قاطع والآخر مدبب الشكل .

(٢) مجموعة من الأفراد تسير مع الجيش دون أن يكون لهم صفة الجيش الرسمية أو الجنود المقاتلين .

« المعرب »

المعسكر ويحددوه بالحبال وعند وصول القوة الرئيسية للجيش توضع الجياد والعربات فى مركز المعسكر مع تنظيمها لتصبح الخط الدفاعى الداخلى ، فى ذلك الوقت تقوم القوات بحفر دفاعات المعسكر تحت حراسة بعض الجنود .

وكان يصحب الجيش علاوة على المهندسين وقوافل التموين وحدات طبية للقيام بالإسعافات للجنود ، فكل وحدة تتكون من أربعمائة رجل ، لها ضابط طبيب وسته أو ثمانية من حملة النقالات ، ومزودين بجياد تحمل زمازم مملوءة بالماء وسرج جانبى له ركابين فى جانب واحد حتى يمكن حمل الجريح بطريقة مريحة . وكان يمنح حمله النقالات مكافآت إضافية عن كل جريح يعودون به من ميدان المعركة ، ولم تكن هذه المكافآت تمنح بدافع من الإنسانية بل كانت الدولة يهمها أن يستعيد الجريح لياقته سريعا ليعود ثانية إلى القتال .

الأسلوب العسكرى البيزنطى

لقد كانت الفكرة الرئيسية للأسلوب العسكرى البيزنطى تكمن فى التنظيم المثير للتكتيك الذى يخوضون به القتال فى براعة وكفاءة . وكان هذا الأسلوب غير ثابت ويختلف فى معركة عن الآخرى ويتوقف على الأسلوب التكتيكى الذى سيتبعه الخصم ، ولذلك درسوا بعناية جميع الأساليب التكتيكية لأعدائهم المنتظرين ثم يخرجون بالأسلوب الذى سيتبعونه مع كل خصم .

وكانت لهم كثير من الكتب العسكرية أهمها كتاب موريس بعنوان «الاستراتيجية» نشر عام ٥٨٠ وكتاب ليو(١) الحكيم بعنوان « التكتيك » علاوة على كتب غاية فى الإثارة عن حرب الحدود وقد كتبه نفقور فوكاس(٢) .

لقد أعاد موريس تنظيم الجيش من حيث الهيكل العام مع وضع أسس للتجنيد ، فلم يكن بالجيش وحدات مستديمة أكبر من التى كان يطلق عليها « نوميروس » فرفع عدد رجال هذه الوحدة حتى وصل أربعمائة وأطلق عليها « تاجما » وجعلها الوحدة الأساسية للجيش .

---

(١) الأمبراطور الذى حكم ما بين عام ٨٨٦ — ٩١٢

(٢) لقد أنتزع كريت وسيليشيا من العرب وحكم كأمبراطور من ٩٦٣ — ٩٦٩

ثم قام بعد ذلك بتجميع عدد من هذه الوحدات فى مجموعة واحدة يتراوح عددها ما بين ستة آلاف إلى ثمانية آلاف وكانت تسمى « ميروس » وهى الفرقة .

أما بالنسبة للضباط فكان هناك سلماللرتب يبدأ من رتبة أطلق عليها « ديكوريون »(١) حتى رتبة أطلق عليها « مورارش »(٢) . ويتم تعيين الضباط من رتبة « سنتوريون »(٣) عن طريق الحكومة المركزية ، بينما كانت المصطلحات الفنية المستخدمة فى الجيش خليط من الكلمات الرومانية واليونانية والتوتونية وهذا يوضح التنوع الذى حدث فى عملية توارث الحكم فى الإمبراطورية البيزنطية .

البارونات المولعين بالحرب

لو ألقينا نظرة على الجيش فى عهد جوستينيان لوجدنا أن عدد المرتزقة التوتونيين انخفض فى الجيش البيزنطى بدرجة كبيرة نتيجة للحروب الكثيرة التى خاضها جوستينيان ولم يتبق سوى ثلاثة فيالق بربرية هامة وهى « الفوديراتى والاوبتيماتى والبكيلارى » ، وقد تولى الفيلقين الأخيرين مهمة الحرس الخاص للأمبراطور ، ولكن فى أول القرن العاشر حل محلها الفايكنج وكان يطلق عليهم « ڤرانجيان » . وقد حاول الكثير من الأباطرة الوصول إلى تجنيد كل الذكور فى الأمبراطورية ولكنهم فشلوا ، ووصلوا أخيراً إلى نظام يقضى بأن ترسل كل ولاية عدد معين من رجالها ليتلقوا التدريبات والقيام بالخدمة الفعلية فى الجيش الأمبراطورى عند الحاجة لهم ، ولذلك وقع عبء الدفاع عن مناطق الحدود على عاتق سكان هذه المناطق .

وقد وصف شاعر القرن العاشر « ديجينيس أ كريتاس » الحياة على جبهة الكابادوكيه:

« كانت توجد قلاع ضخمة تضم بين جنباتها البارونات المولعين بالحرب ، وقد سيطروا على المنطقة المحيطة بهم بواسطة هذه القلاع ولا يكفون عن القيام بالغزوات داخل الأراضى العربية فى كل من سيليشيا والعراق ، ويعتمدون فى هذه المعارك على جنود أكفاء أتو من كل من كبادوكسيا وإيسوريا ، وتراقية » .

(١) هذه الرتبة مسئولة عن ستة عشر جندياً .
(٢) هذه الرتبة مسئولة عن ألفين من الجنود .
(٣) هذه الرتبة تعادل نقيب

وفى عام ٦٥٠ بدأ الضغط العربى يتراخى على جبهة طوروس ، وفى ذلك الوقت كانت الأمبراطورية البيزنطية مقسمة إلى مقاطعات إقليمية كل منها لها إدارة عسكرية ومدنية منفصلة تسمى « ثيميس » وكل مقاطعة تقدم لجيش الأمبراطورية حوالى عشرة آلاف رجل من المقاتلين الممتازين . أما مناطق الحدود فقد قسمت إلى مناطق أطلق عليها اسم « كايسوارس »(١) .

تشكيل القتال للجيش البيزنطى

كانت النظرية التكتيكية مبنية أساساً على توجيه سلسلة من الهجمات بالفرسان الثقيلة ، وكان خط القتال يتشكل عادة من الفرسان فقط كما حدث عندما انتصر نقفور فوكاس على العرب فى جبهة طوروس عام ٩٦٥ .

وقد وضع ليو الحكيم المبادىء الرئيسية لتشكيل قوات الفرسان فى القتال ، فقسم القوة إلى خط قتال أمامى وخط قتال ثانى لمعاونة الخط الأول ، على أن تشكل قوة صغيرة خلف الخط الثانى كأحتياطى مع دفع مجموعات أخرى على جانبى القوات ويكون واجبها الإشتباك مع أجنحة العدو .

وكان الخط الأول يتحرك كتلة واحدة وبدون أى فواصل أو ثغرات بينما يتواجد فى الخط الثانى ثلاث ثغرات لكى يستخدمها الخط الأول فى حالة الإنسحاب ، وكان عمق كل خط من هذين الخطين يصل إلى عشرة صفوف ، وكان يتواجد مركز قيادة القائد العام دائماً مع الخط الثانى .

ويتم دفع نصف القوة تقريباً فى الخط الأول ، وعندما يتطلب الموقف التكتيكى غير ذلك، تجرى عملية موازنة للقوات التى تشكل فى العمق والقوات التى ستدفع على الأجناب ، وطبعاً كان هنا تغيير مستمر لتشكيل القتال ويتوقف ذلك حسب الموقف التكتيكى ونوع قوات العدو وأسلوبه فى القتال .

ونجد أحياناً أن الفرسان والمشاه يعملان سويا ، وتم استخدام هذا التشكيل أثناء قتال

(١) الكليسوراس منطقة يجب أن تتحكم فى ممر جبلى ويقام بها قلعة ؛ وكانت قيادة منطقة الكليسوراس هى طريق النجاح فى مضمار القيادة العسكرية « المعرب »

السلاف والفرنجة وذلك لأن جيوش الأعداء كانت قوتها الرئيسية تتشكل من المشاة المترجلة وقد استخدم نفس التشكيل أيضاً ضد غزوات العرب . وكانت المشاة فى هذا التشكيل تسير فى الوسط أما الفرسان فتعمل على الأجناب .

بينما كانت للمشاة فى داخلها تشكيل خاص أيضاً ، فالمشاة الثقيلة تسير فى الوسط بينما المشاة الخفيفة من الرماة وحملة الرماح تسير على الأجناب . وعندما كان ينتظر قيام العدو بالهجوم بفرسانة يتغير تشكيل المشاة وتسير الرماة وحملة الرماح خلف المشاة الثقيلة .

وكانت المشاة فى حالة الهجوم تقاتل فى خطين ، أما فى حالة الدفاع فتقاتل فى خط واحد كثيف وبالقرب من معسكرهم . وكانت المشاة تستخدم فى البلاد التى يكثر بها التلال والممرات والشعب لأنه يتعذر استخدام الفرسان ، وتقاتل فى تشكيل هلالى حيث توضع المشاة الثقيلة فى الوسط لحصر العدو فى المنطقة الوسطى بينما تطلق المشاة الخفيفة من حمله الرماح والرماه الموجودة فى أعلى الممرات وعلى أجناب العدو سيولا من قذائفها .

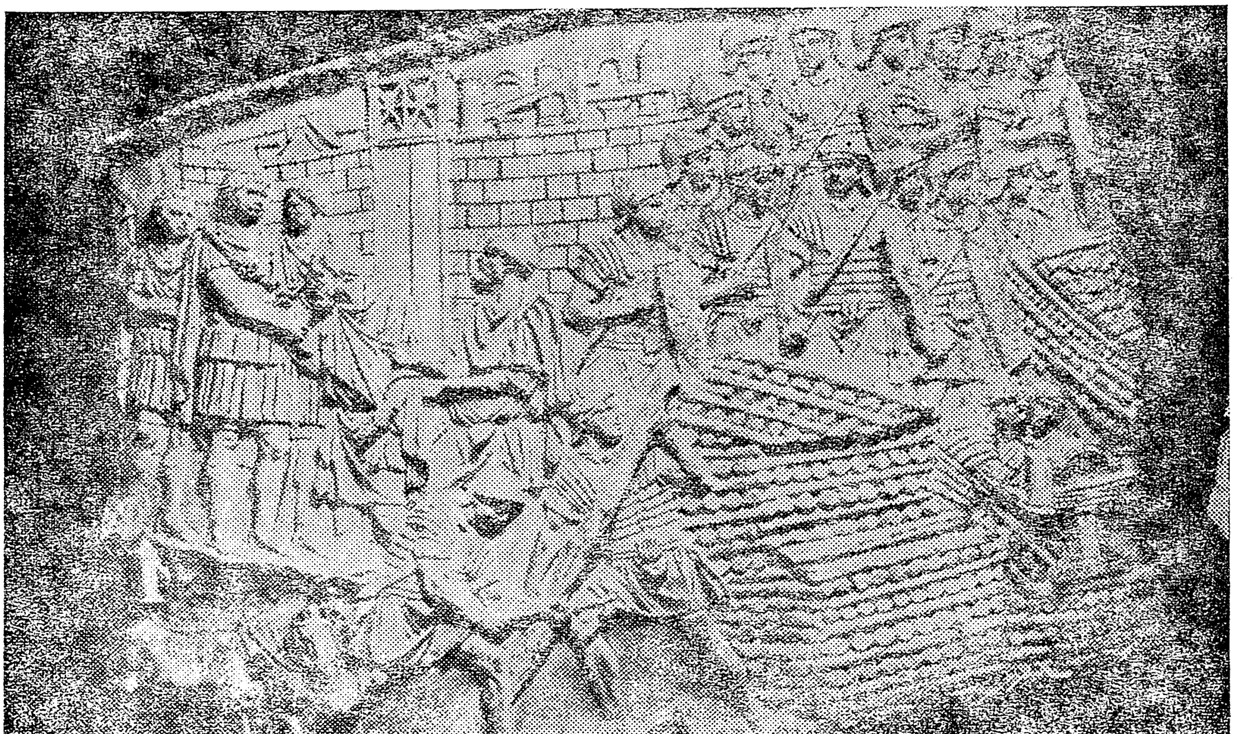

تشييد الحصون على حدود الإمبراطورية الرومانية

المهارة تفوق القوة العددية

لقد كان البيزنطيون يعدون من أكفاء الجنود التى شهدها أوائل عصور أوروبا الوسطى ، ولكنهم كانوا غير مثيرين للاعجاب وذلك بسبب استراتيجيتهم الدفاعية ولإستخدامهم لعقولهم قبل قوتهم أثناء القتال ، وقد قاتلوا معارك دفاعية لإبقاء العرب خارج آسيا الصغرى وأثناء طردهم للومبارد والفرنجة من المقاطعات الإيطالية ، والسلاف والبلغار والآفار والمجر والأتراك من اليونان والبلقان . وقد نجحوا إلى حد كبير فى الدفاع عن حدودهم بفضل ما تميزوا به من كفاءة ويقظة . وكان الدفاع عن حدودهم هى المهمة الرئيسيه للجيش البيزنطى ونادراً ما قاموا بالإعتداء على الدول الأخرى ، كما حدث على سبيل المثال فى منتصف القرن التاسع وفى نهاية القرن العاشر .

ولم يتأثر البيزنطيون بميول معاصريهم فى أوروبا الغربية نحو الحرب ، كما أنهم لم يعتبروا الشهامة والبسالة المتهورة والتى كانت سائدة فى هذا العصر هما الطريق الذى يحقق النصر بأقل التكاليف .

وكانوا متحمسين للدين ، ويعتبرون المهارة أهم بكثير من القوة العددية ولذلك وصلوا إلى حد كبير من المهارة فى نصب الكمائن والهجمات الليلية . وفى الواقع لم يكن أمامهم سوى هذا الأسلوب ، لأن وحشية العدو وأعداده الكبيرة كانا يمثلان الخطر المحدق بهم من جميع الجوانب ، وكانوا لا يدخلون أى معركة إلا إذا تأكدوا أن النصر سيكون لهم فى النهاية . وفى بعض الأحيان يلجئون لاستخدام الحيل والخدع الحربية كنشر الأنباء والمعلومات الكاذبة بين صفوف أعدائهم مع دفعهم للخيانة .

ولم يستخدموا مطلقا القسوة مع أسراهم وينفذون دائماً ما يعدون به ، وكانت الخيانة بالنسبة لهم سلاحا استراتيجيا وقد وضع الباحثون العسكريون البيزنطيون النظريات المختلفة لأساليب القتال مع أعدائهم المتعددين وعلى سبيل المثال وضع ليو الحكيم التعليمات بأسلوب القتال الذى يتبع مع البلغار والمجر والأتراك بعد أن وجد هذه الشعوب تقاتل بالفرسان الخفيفة فى السهول الشرقية والأوروبية والغربية والآسيوية وفى جماعات صغيرة لا حصر لها ، سلاحهم الرئيسى القوس ويستخدمون إلى جانبه الرمح والسيف المحدب مع تميزهم باليقظة والحذر

والكفاءة العالية فى أعمال الاستكشاف مع ولعهم الشديد بنصب الكمائن ، وكانوا يهاجمون الجبهة من جميع الإتجاهات ويمطرونها بسيل من السهام و بهجمات قصيرة متتالية قاتلة .

وبعد أن درس ليو الحكيم كل ذلك أوصى بقيام الفرسان البيزنطية الثقيلة بالالتحام مع فرسان العدو عن قرب حتى يستطيعوا الانقضاض عليهم فى أول فرصة مواتية وخاصة أن فرسان العدو تصبح عاجزة تماما بعد فقدها لخيولها .

وقد أوصى ليو الحكيم كل قائد بيزنطى يلتحم مع فرسان الأتراك أن يراقب أجنحته جيداً ، على أن يكون حذرا من الدخول فى أى مضيق أو ممر ضيق خوفا من الوقوع فى الكمائن المنصوبة وقد أوصى أيضاً بألا تقوم الفرسان بمطاردة العدو بدون تروى وعمل الترتيبات المسبقة ، لأن كثيراً ما تؤدى هذه المطاردة إلى الهزيمة ، لأن فرسان الأتراك كانوا دائما يقومون بانسحاب مخادع حتى يجذبوا البيزنطيين إلى أرض قتل من اختيارهم ثم يتجمعوا بسرعة وينقضوا عليهم .

وكانت تعليمات ليو ذات فائدة كبرى استفاد منها الضباط والجنود على السواء .

الزاب الأعظم

وقد وضع ليو أيضاً أسلوب القتال الذى يتبع مع قبائل السلاف الذين اعتنقوا المسيحية فى النصف الثانى من القرن التاسع وأصبحوا تابعين للامبراطورية البيزنطية وسببوا لها بعض القلاقل لمدة طويلة ، وبالرغم من افتقارهم للفرسان كانوا قوما لا يقهرون إذا قاتلوا فى الجبال .

فقد أوصى ليو بأن يتقدم الجيش البيزنطى بحذر فى ممرات الجبال خفوا من الكمائن التى ينصبها لهم رماة وحملة الرماح السلافيين ، أما فى السهول فكان يسهل على الفرسان البيزنطية دفع السلاف أمامهم لأفتقارهم للفرسان والتسليح مع سوء تنظيم قواتهم .

أما العرب فكانوا أشد أعدائهم بأساً وزاد هذا البأس بعد القرن الأول للفتح الإسلامى عندما شكل العرب جيوشهم على شاكلة الجيش البيزنطى وأصبح رماحيهم المدرعين قوة لا يستهاب بها علاوة على فرسانهم التى كانت أخف من الفرسان البيزنطية . وقد طبق العرب بعض الأساليب البيزنطية فى مجال التحصين وفى الحصار ، وبالرغم من كل هذا كان العرب

لا يقدرون المميزات الحقيقية لتنظيم القوات وتدريبها وأنها العامل المساعد للضبط والربط ، ولم يكن لديهم قوات متخصصة باستثناء الحرس الملكى .

وقد تميز العرب بحشد قوات كبيرة من جميع القبائل العربية ، أتصفوا بخفة الحركة والقوة والطاقة الروحانية والهجوم الخاطف الذى يشيع الرعب فى صفوف أعدائهم .

وقد أثر فشلهم فى فتح القسطنطينية عام ٧١٨ على قوتهم الدافعة وبالرغم من ذلك قاموا بعدها بمحاولتين جادتين لفتح ماوراء طوروس عام ٨٠٦ ، ٨٣٦ ولكنهم فشلوا فى ذلك . ولذلك نجد أن نبضات الفتوحات الإسلامية أخذت تضعف بعد عام ٧٥٠ وبشكل سريع عندما أنتزع العباسيين الخلافة من الأمويين بعد معركة دارت بينهما احدى عشر يوما عند الزاب الأعظم (١) . وقد أزدهرت الحضارة الإسلامية ازدهاراً كبيراً فى عهد العباسيين (٢) بينما أضمحلت القوة العسكرية لأن الخلفاء العباسيين كانوا لا يميلون للمواضيع العسكرية

العالم الأسلامى يتجزأ إلى خلافات :

والآن ، بدأ العالم الإسلامى يتجزأ ببطء إلى خلافات متعددة ، وأصبحت الهجمات العربية على آسيا الصغرى مجرد غارات أكثر منها محاولات للفتح . وكان ذلك من حسن حظ الإمبراطورية البيزنطية التى بدأت تضعف هى الأخرى تحت تأثير النزعات السياسية والدينية فى القرن الثامن والتاسع ومع بداية القرن العاشر ، فى ذلك الوقت وصلت الإمبراطورية البلغارية إلى ذروتها تحت قيادة سيمون الذى حاصر القسطنطينية عام ٩٢٣ ولكنه لم ينجح فى دخولها .

وفى عام ٩٤١ حوصرت المدينة مرة أخرى بواسطة أمير كييف وهو إيجور .

نعود ثانية إلى ليو الحكيم فنجد أنه وضع أفضل استراتيجية ضد غارات العرب وذلك بعد أن وجد الجيش العربى عندما حاول عبور طوروس كان يتقدم بسرعة مذهلة مع استخدام المفاجأة على أمل الوصول إلى هدفه قبل أن يأخذ سكان المنطقة حذرهم أو حتى قبل أن يعلموا بوجوده ، وجد ليو أن قادة المقاطعات البيزنطية لديهم أساليب ممتازة فى حراسة

---

(١) الزاب الأعظم بالقرب من جوجاميلا

(٢) كان مركز هذه الحضارة عاصمة العباسيين فى بغداد

حدودهم ، لذلك أوصى هؤلاء القادة بتجهيز قواتهم بمجرد وصول أنباء تحرك العرب ، على أن تقوم المشاة بسد الممرات بينما تحشد الفرسان فى منطقة متوسطة وتكون على اتصال دائم بقوات العدو وتقوم بالهجوم فى الوقت المناسب ، وإذا وجد القائد البيزنطى أن قوات العدو تفوقه عدداً عليه أن يتجنب الدخول معها فى معركة مفتوحة وليس هذا معناه عدم الاشتباك معها إطلاقا ولكن عليه بشتى الطرق الممكنة أن يحاول إعاقة تقدم العدو بأن يقوم مثلا بتوجيه ضربات خفيفة للعدو كلما سنحت له الفرص بذلك ، أو الدفاع عند المناطق الضحلة على الأنهار أو عند الممرات أو الشعب الضيقة أو بتدمير آبار المياه مع إقامة المتاريس على الطرق الرئيسية ، فى ذلك الوقت يمكن حشد مزيد من القوات من المقاطعات البعيدة ، والدخول مع العرب فى معركة متكافأة فى القوة ، وقد استخدمت هذه الطريقة وأمكن حشد حوالى ثلاثون ألفاً من الفرسان البيزنطيين فى عام ٨٦٣ من عشرة مقاطعات وأمكن بذلك تطويق الجيش العربى والقضاء عليه .

وقد أثبتت الخطوط الدفاعية البيزنطية قدرتها على الصمود فى وجه الهجمات المتتالية لجحافل العرب ، وكانت هذه الجحافل دائماً تتعرض لهجوم البيزنطيين أثناء تجولهم للبحث عن المراعى والعلف أو أثناء عودتها من الأراضى البيزنطية وهى محملة بالغنائم .

وقد أوصى نقفورفوكاس بالقيام بهجوم ليلى على العرب فى مثل هذا المواقف فقال : «أرسلوا ثلاثة مجموعات من المشاة لمهاجمة معسكر الأعداء من ثلاث جهات ، أما إذا كان العدو متحركا فادفعوا إليه بقوات مترجلة لمهاجمة مقدمته مع ترك مؤخرته فى كلتا الحالتين السابقتين بدون هجوم حيث الطريق إلى بلاده مفتوحا ، ودائما وبطريقة غريزية سيمتطى العدو جياده ويهرب فى أول طريق يراه ويؤدى به إلى الأمان » .

فى النصف الثانى من القرن العاشر انقلب الجيش البيزنطى من مدافع إلى مهاجم ضد كل من العرب والبلغار ، واستولى نقفورفوكاس فى عام ٩٦١ على كريت وفى عام ٩٦٥ على طرسوس وقبرص ، وفى عام ٩٦٩ على أنطاكية .

ومن أعظم ما شهدته الإمبراطورية البيزنطية من العسكريين البارزين كان بازيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٥٢) ، ففى عام ٩٩٥ أخمد تمرد قام به نبلاء آسيا الصغرى ، ثم أقام جبهة دفاعية قوية فى أرمينيا ثم تحول بعد ذلك ليقاتل البلغار .

أسر الامبراطور البيزنطى

وفى عام ١٠١٤ أستطاع بازيل من إبادة الجيش البلغارى عند بيلاسيتزا ، ولقب من ذلك اليوم بـ « قاتل البلغار » فقد قام بفقأ أعين ألف وخمسمائة من الأسرى وترك لكل مائة منهم رجلا بعين واحدة ليقودهم إلى قيصرهم .

وقد استمر الجيش البيزنطى فى تقدمه نحو الشرق ، وأخيراً انضمت أرمينيا عام ١٠٤٥ إلى الإمبراطورية البيزنطية ، وكان يتباهى الإمبراطور بأن رقعة الإمبراطورية اتسعت وامتدت أكثر من أى عهد سابق منذ الإمبراطور تراجان .

ولكن فى منتصف القرن الحادى عشر بدأ زحف عدو جديد على الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية وهو الأتراك السلجوقيين ، ولم تختلف أساليبهم عن أساليب الأتراك القدامى الذى شرحها ليو الحكيم قبل ذلك . وتمكن البيزنطيون لفترة من الوقت صد هجمات هذا العدو ، ولكنه فى النهاية أصبح يشكل تفوقا عدديا مخيفا ، ولسوء حظ البيزنطيين أن تربع على عرشهم فى هذه الفترة عام ١٠٦٨ إمبراطوراً جديداً هو رومانوس الرابع وقد أغفل وبحماقة التقاليد والقواعد التقليدية البيزنطية الخاصة بالكفاءة والحذر .

ففى ربيع ١٠٧١ دفع رومانوس بستين ألفا من الجنود إلى أرمينيا ليقاتل مائة ألف من الأتراك[1] ، وقبل أن يلتقى بالقوة الرئيسية للعدو كان قد فقد أعداداً كبيرة بسبب تحركاته التى أتسمت بالأهمال وعدم أجراء الترتيبات اللازمة لتحرك هذه القوة الضخمة . والتقى بالعدو عند ملازكرت واسفرت المعركة على دحر الأتراك وأجبارهم على الأنسحاب ، ولكن مع حلول الظلام ، جمع الأتراك شملهم واعادوا تنظيم صفوفهم مرة أخرى ، بينما كان البيزنطيون يعودون إلى وطنهم ويسيرون بدون نظام وغير متماسكين وهم مطمئنين لتحقيقهم النصر كاملا ومع خيوط الفجر الأولى كان الجيش البيزنطى مطوقا ، فطلب رومانوس من القائد الخائن للاحتياطى البيزنطى تقديم العون له ولكنه رفض مما أدى إلى تمزيق الجيش إلى أجزاء صغيرة وسقط الإمبراطور نفسه أسيراً .

(١) كان يقود الجيش التركى ألب أرسلان

بذلك أباد الأتراك صفوة الجيش البيزنطى وأصبحت العاصمة بدون قيادة ، فتدفق الأتراك داخل آسيا الصغرى وحولوها خلال عشرة سنوات إلى مساحة من الأرض القفر الخراب .

فرانسيسكا (أنظر اللوحة ١٤)

لو ألقينا نظرة فى ذلك الوقت على أوروبا الغربية ، لوجدنا أن الفرنجة منذ القرن السابع وهم يتبعون منوال البيزنطيين ، فأستطاعوا صد تقدم العرب بجيش قوته الرئيسية من الفرسان ، ولكن لم يستمر الحال على وتيرة واحدة ، فبعد أزدهارهم فى السيادة العسكرية والحضارية أصابهم الوهن ، وتم ذلك لتعرضهم لهجمات شعب بربرى آخر والذى يعرف بأسم الفايكنج .

فلو عدنا إلى الوراء لوجدنا بعد أن أنتصر كلوفيس فى فويية عند بواتييه عام ٥٠٧ وسيطر الفرنجة على الغال ، لم يتغير تنظيمهم وأسلوبهم العسكرى لمدة قرنين من الزمان .

وقد وصف أجاثياس الشاعر والمؤرخ الأغريقى فى منتصف القرن السادس حرب الفرنجة فى الحقبة الميروفنجية[١] قال : — « كان تسليح الفرنجة بدائياً جداً ، فلم يرتدوا القمصان المعدنية أو دروع الساق ، بل يحمون أقدامهم بشرائط من الجلد أو الكتان ، وفى النادر كانت لهم فرسان وقليلة ، ولكن مشاتهم تميزت بالبسالة والتدريب العالى وكانوا مسلحين بالسيوف والدروع ، ولكنهم لم يستخدموا قطا القوس ، أما قذائفهم فيستخدمون فيها الفأس أو الرمح الشائك[٢] » .

وكان من أبرز أسلحة الفرنجة فأس القذف والتى أطلق عليها « فرانسيسكا[٣] » وكانت تشابه التوماهوك[٤] وكانت الفرانسيسكا توزن بعناية حتى يمكن قذفها وأصابة الهدف بدقة متناهية علاوة على أستخدامها فى القتال المتلاحم . أما الدرع فكان عريضاً له شكل بيضاوى ومزود بحافه حديدية والسيف يصل طوله إلى ثلاثة أقدام وله شفرة مزدوجة وسن مدبب وبالتالى كان ممكن أستخدامه فى القذف والقطع ، كما أستخدم أيضاً الخنجر ذو الشفرة

(١) أسم العائلة الحاكمة الأولى التى تولت الحكم فى بلاد الغال .
(٢) كانت هذه الرماح قصيرة وتستخدم فى كل من الطعن والقذف .
(٣) كانت رأسها ثقيلة ولها شفرة واحدة طويلة مقوسة .
(٤) أسم الفأس الذى يستخدمه الهنود الحمر (قبيلة لتوماهوك) .

العريضة . أما خوذة الفرنجة فكانت مزخرفة ذات قمة مستديرة ولها بروز مدبب مقدمتها ويصل جزؤها السفلى حتى خلفية العنق .

وقد قاتلت جيوش الفرنجة حتى منتصف القرن الثامن بهذا المستوى من التسليح، ولكن فى حشد ضخم من القوات وتسير فى طوابير غير منتظمة من المشاة .

وكان الحكم الميروفنجى (٤٥٠ — ٩٥٠) حكماً ضعيفاً بربرياً مما أدى أن الفرنجة كانوا يقاتلون أنفسهم وليس أعدائهم الخارجيين لأنهم كانوا على حذر من الشعوب التى تقاتل من فوق ظهور الخيل وبدروع أكثر على الجسم . ولكنهم أجبروا على تغيير أسلوبهم فى القتال والتسليح بعد أزدياد أشتباكهم بتلك النماذج المختلفة من هذه الجيوش .

ومع نهاية القرن السادس بدأ الأثرياء فى أرتداء الدروع المعدنية على الصدر ولكن فى القرن السابع أختفت هذه الدروع المعدنية للصدر وأزداد أستعمال « البرونيا »[1] . ومع تطور الدروع ، تطور فى نفس الوقت أستخدام الخيل ، واول مرة يستخدم فيها الفرنجة الخيل فى المعركة التى خاضها كلوتيد الثانى ضد السكسون ، عام ٦٢٦ ، ولكن بعد ذلك بقرن على الأقل ، كان الأثرياء فقط يستخدمون الخيل كأداة نقل فقط لميدان المعركة ، وعند القتال الفعلى يهبطون من فوقها ويقاتلون مترجلين .

الملك شارلمان : (أنظر اللوحة رقم ١٤)

فى عام ٧١٨ هاجم العرب مملكة أكويتانيا ، ولم يهتم الفرنجة فى أول الأمر لهذا الهجوم ولكن أتضح لهم أن الموقف بدأ ينذر بالخطر بالنسبة لهم عندما قام الخليفة عبد الرحمن عام ٧٣٢ بقيادة جيش من العرب وصل به إلى تور ، فما كان من تشارلز مارتل[2] أن حشد قوة كبيرة من الفرنجة وتقدم بها ليقاتل العرب الذين كانوا فى طريقهم إلى بواتييه ، وتقابل الجيشان عند بواتييه وأستمرت المعركة سبعة أيام وكان العرب يقاتلون بفرسانهم الخفيفة بينما الفرنجة تصارعهم بمشاتهم . وقد وصف الكاتب أسيدورس بالكينسيس هجوم الخليفة عبد الرحمن فقال : — « وقف رجال الشمال بدون حركة وكأنهم حائط ثابت ، وكانوا يشبهون حزاماً من

---

(١) البرونيا عبارة عن قميص مكون من شبكة معدنية

(٢) كان يشغل منصب ناظر القصر الميروفنجى .

الثلج تجمدت أجزاؤه سويا وأصبح غير قابل للذوبان عند ألتحامهم مع العرب بالسيوف ، وشق الأسترازيون طريقهم ببسالة وسط القتال الضارى للعرب حتى عثروا على الملك العربى وصرعوه »

وكانت معركة دفاعية حقق فيها المشاة النصر ، ولم تتم أى مطاردة لقوات العرب بعد ذلك ، ولكن لا يمكن القول بأن الفرنجة هزموا العرب بنفس الأسلوب الذى أتبعه البيزانطيون سابقاً ، ونجد أيضاً أن العرب لم يتوغلوا داخل أراضى العدو إلا بالقدر الذى سمحت به مواردهم وأمكانياتهم .

فى عام ٧٤٣ قاموا مرة أخرى بالزحف نحو الرون للأستيلاء على ليون ، فى نفس الوقت لم يجلوا عن القاعدة العسكرية فى ناربون حتى عام ٧٥٩ .

وعلى كل ترجع أهمية معركة تور أنها أكدت ان تشارلز مارتل أصبح أقوى شخصية فى فرنسا . وفى عام ٧٥١ قام بيبين (١) بخلع الملك كلدريك الثالث الميروفنجى ، وفى عام ٧٦٨ قام تشارلز (٢) بأرتقاء العرش كملك على الفرنجة .

قوات الصدمة النفسية

عند دراستنا للنهضة العسكرية فى عصر شارلمان ، يصعب علينا فهم الحوافز الحقيقية التى دفعته لذلك ، ولكن نستطيع أن نرى بوضوح بعض العوامل الملموسة لذلك منها خوفه من الفوضى والخطر اللذان يهددان مملكته ، لأن جيرانه المعادين السكسون لا يستجيبوا إلا بالقوة ، علاوة على حبه لنشوة النصر والنجاح ، زد على ذلك أنه كان يعتبر نفسه حاكما على مستوى عالمى وشريكاً للبابا والوصى الذى أرسله الله إلى الأرض للفصل فى الأمور الدنيوية . فكان له مبشرين يسيرون بين صفوف جيوشه يؤمنون أيماناً راسخاً أنهم يمثلون قوات الصدمة النفسية ، وكان شارلمان يعتمد عليهم ويعتبرهم من القوات الرئيسية عند غزوه لشعب وثنى (٣) ، حتى يتثنى لهذا الشعب أعتناق المسيحية .

---

(١) بيبين أبن مارتل

(٢) تشارلز أبن بيبين وكان يعرف بأسم شارلمان .

(٣) كان يعتبر شارلمان تحول القوم الوثنيين إلى المسيحية ، تكملة رئيسية وحيوية لغزواته الحربية « المعرب »

اللوحة رقم ١٤ امبراطورية الفرنجة وغارات الفايكنج والمجريون والعرب

وقد احتفل فى روما على يد البابا فى عيد الميلاد لعام ٨٠٠ بتتويج شارلمان كأمبراطور . وكان شارلمان متعصباً وقاسياً والدليل على ذلك المذبحة التى قام بها عام ٧٨٢ فى فردان وراح ضحيتها أربعة آلاف وخمسمائة متمرد وثنى من السكسون فى يوم واحد ومثال آخر لذلك يتمثل فى القانون الذى اصدره ويعتبر فيه الهروب من العماد[1] أو أكل اللحم أثناء الصوم الكبير من الآثام التى تصل عقوبتها إلى الأعدام ، إلا أنه تغير بعد مدة وأقلع عن قسوته وتعصبه . وكان يعتبر شارلمان عبر العصور الوسطى نموذجاً للأمبراطور المسيحى ، وكانت حكومته تعتقد أعتقاداً راسخاً بأنها تمارس سلطة مقدسة أستمدتها من الرب، كما أنها أعتبرت جميع حروب شارلمان حروباً صليبية .

مذبحة رنسفال (أنظر اللوحة رقم ١٤)

لقد قام شارلمان بحملات كثيرة بين عامى ٧٦٨ ، ٨١٤ قاتل فيها اللومبارد والسكسون والأسبان والمسلمين والصرب والآفار ومقاطعات جنوب أيطاليا البيزنطية وريتانى والفرزيان ودوقية بنفينتو ، وفى النهاية زادت رقعة امبراطوريته حتى ضمت المناطق التى تتمثل حالياً فى فرنسا وبلجيكا وهولندا وسويسرا وألمانيا الغربية ومعظم إيطاليا وشمال أسبانيا وكورسيكا . وقد ذاعت شهرته فى الحرب التى خاضها ضد أسبانيا ، لأنها كانت حرب صليبية ضد المسلمين وسبب هذه الشهرة المذبحة التى قام بها رجال مؤخرة جيشه أثناء عودتهم إلى الوطن عند مضيق رنسفال فى عام ٧٧٨ ، وأصبحت هذه المذبحة موضوعاً شعرياً عرف بأغنية « رولان » ، ولكن لو ألقينا نظرة على الحرب التى دارت بينه وبين السكسون لوجدنا أنها كانت فى أول الأمر عبارة عن غارات مستمرة وجريئة لهذه الشعوب البربرية والوثنية (القاطنة لسهلى ألمانيا الشمالى بين الراين والألب) على حدود الإمبراطورية مما أضطره فى النهاية إلى تقوية هذه الحدود بإقامة مواقع قوية على طول نهر ليب مع إنشاء تحصينات قوية عند بادربورن وأرسبرج وسيجرج ، ومن هذه الحصون دفع قواته لمهاجمة السكسون لتأديبهم ، وكانوا يتصنعون الإستسلام والخضوع أثناء هذه الهجمات وعندما يكف عنها ينفجرون منطلقين فى أراضى الراين كما حدث فى عام ٧٧٨ ، ونتج عن ذلك أن قام شارلمان بغزو شامل لبلادهم فيما بين

(١) من طقوس الدين المسيحى

عامى ٧٨٢ ، ٧٨٥ حيث قاد بذكاء ثلاثة جيوش تقدم على ثلاث محاور مع إستغلال خفة حركتها والتعاون بينها مما أدى أن أصبح زحفا مدمراً وانهزم السكسون وكان يقودهم ويدوكيند .

شارلمان والاقطاع

لقد كان جيش شارلمان يختلف تماماً فى تنظيمه عن جيش جده تشارلز مارتل ، والفارق الأساسى كان فى القوة الضاربة لجيش شارلمان التى تمثلت فى الفرسان الثقيلة ، وكانت هى العنصر الرئيسى لجميع حملاته التى تنطلق لمسافات بعيدة لمهاجمة أعدائه من حملة الأقواس الراكبين من الآفار وقوات اللومبارد الثقيلة من رماة الحراب . وقد عرف أهمية الفرسان منذ عهد بعيد ، ولكن نفقات تشكيلها كانت باهظة ولذلك أصبحت مشكلة أمام الفرنجة وإستحال عليهم تذليلها . فكان يصعب على الفارس الحصول على الجواد القوى المناسب ليحمله هو ودروعه الثقيلة ، على أن يكون مدربا تدريباً كافياً حتى لايفزع أثناء المعركة ويكون سريع لإستغلال خفه حركته فى الهجوم ، وكان مثل هذا الجواد لابد أن يكون من سلاله معينة ولابد من تدريبه تدريباً خاصاً ، ومن المشكلات التى برزت أمام الفرنجه النفقات الكبيرة لأقامه الأصطبلات وتوفير العلف فى الشتاء مع وجود تابعين على الأقل لكل فارس ، واحد ليعتنى بدروعه والثانى يعمل كسائس لحصانة علاوة على كل هذا كانت الدروع غالية الثمن

وأكثر من ذلك ، كان يجب أن يكون الفارس قادرا على تكريس وقتاً طويلا للتدريب والخدمة العاملة فى الجيش، لذلك فى الحقبة الميرفينجية ،لم يكن هناك حاكماً فرنجياً على قدر من الثراء يستطيع تشكيل جيش من الفرسان الثقيلة . وقد حلت هذه المشكلة بإنشاء ونظام الأقطاع[1] . وقد أستفاد تشارلز مارتل من النظام الإقطاعى ، فضم إلى جانبه بعض

---

(١) لقد ظهر هذا النظام لكثرة وجود اللصوص والأشرار وفى ذلك الوقت ونشرهم الرعب بين الناس ، ولم يجد هؤلاء الناس من يحميهم ، فلجأوا إلى اللورد أو الكونت صاحب النفوذ فى المنطقة يطلبون منه الحماية ، وكان يكفل لهم الأمن والنظام فى مقابل تخليهم له عن ملكية أراضيهم مع الاستمرار فى زراعتها ، مع تعهدهم بتأدية بعض الخدمات المعينة ؛ وكانت مدنية فى بعض الأحيان ولكن كانت بصفة عامة ذات طابع عسكرى . «المعرب»

الشخصيات الهامة فى الدولة ، ثم جاء بعد ذلك شارلمان وتوسع فى تطبيق هذا النظام الاقطاعى فى إمبراطوريته ، فكان هذا النظام يجذب الأغنياء ومن يرغبون فى الحماية فى هذه الأوقات المضطربة .

وعلى كل فقد استفاد الجيش من هـذا النظام لأن ملاك الأرض كانوا يقدمون الأرض اللازمة للتدريب وخدمة الفرسان ، علاوة على تحسن نظام الجيوش بسبب نظام الإلتزام المتبادل « الحماية ... والخدمة » .

ومن الوثائق التى مازالت باقية حتى الآن والتى تدل على إستغلال شارلمان لنظام الأقطاع لصالحه ، رسالة أرسلها إلى أسقف التاش فولارد يطلب فيها أنضمامه لجيشه الملكى عام ٨٠٦ وتضمنت : —

«عليك الحضور فى يوم ٢٠ مايو إلى ستاسفورت على نهر البودا وتـكون مستعداً أنت ورجالك لخوض الحرب فى جانبنا ، وفى أى جزء نحدده فى إمبراطوريتنا ، ويـكون لدى كل فارس درع ورمح وسيف وخنجر وقوس وجعبة سهام ، مع تجهيز عرباتك بالجوارف والمعاول والأوتاد الحديدية المدببة ، علاوة على الأسلحة والمعدات والأمدادات الضرورية للقوات ، على أن تـكفى هذه المؤمن الجنود ثلاثة شهور .

وأثناء تقدمك إلينا عليك ألا تدمر أى ممتلـكات لرعايانا ولا تمس قواتك سوى المياه والعشب والأخشاب . وحتى تنال رضانا ورحمتنا ضع فى حسابك دائماً ألا يكون هناك أى أهمال » .

عبقرية شارلمان العسكرية

بعد أن فتح شارلمان إيطاليا قام بتجنيد قوة من فرسان اللومباردى فى جيشه ، وهـذا يدل على قدرته الفائقة فى القيادة لاستطاعته حث أعداءه التقليديين وهم اللومبار على الإنخراط فى جيشـه مع دفعهم بعد ذلك إلى المناطق البعيدة فى أوروبا الشرقيـة لمقاتلة الآفـار .

وعلى كل فكانت الفرسان الثقيلة تمثل العامود الفقرى لجيش الفرنجة بالرغم من قلة عددها إلا أن نوعيتها كانت ممتازة . وكان جميع الفرسان يزودون بالقمصان المعدنية والخوذات

والدروع والفئوس والحراب، وبالرغم من ذلك لم تختف تماماً طريقة الفرنجة القديمة فى تجنيد المشاة العنوى[١] .

ولـكن بعد تطوير نوعية التسليح خفضت أعداد المشاة فى الجيش . وحتى الآن لايوجد لدينا دليل واضح على الأسلوب التـكتيكى التى اتبعة الفرنجة فى المعارك ،ولـكن من المحتمل أن الرماةمن المشاة كانت تندفع لأجراء بعض المناوشات التمهيدية ، وبعدهاتنطلق الفرسان فى هجوم حاسم قوى وفى حشد .

وعلى كل كان يـكمن وراء نجاح شارلمان التنظيم الرائع لجيشه وجنوده المدربين تدريباً عالياً وأسلحتهم الممتازة المتطورة علاوة على عبقرية شارلمان الإستراتيجية والتى يمـكن الإستعاضة بها عن أى أسلوب تـكتيكى ممتاز .

ونجد أن شارلمان قام بفتوحات واسعة وكون إمبراطورية مترامية الأطراف وأستطاع المحافظة عليها بإقامة المواقع المحصنة على طول الحـدود وكذلك فى المناطق المضطربة مع أقامه الحصون فوق التلال المجاورة للأنهار . وكان يشيد هـذه القلاع فى مكان المدن الرومانيـة القديمة ومطابقة تماماً للمعسكرات الرومانية ولـكنها لم تـكن مبنيـة بطريقة قوية .

الفرار والعار

فى القرن التاسع بعد موت شارلمان ، تولى الحـكم ملوك ضعاف ، لـكن الهيـكل العام للجيش ظل كما هو ، ويتشكل أساساً من جيش إقطاعى من الفرسان ولـكن نوعية هذا الجيش تصدعت .

فقد عادت بعض نقط الضعف القديمة للعهد الميروفينجى فى الظهور ، ونتج عن ذلك أن الفرنجه لم تستطع هزيمة البيزنطيين فى شمال إيطاليا .

وقـد دون ليو الحـكيم بعض خصائصهم وأسباب فشلهم فقال : — « كان الفرنجـه واللومبارد قوم مفرطون فى البسالة والجرأة ، علاوه على إعتبارهم لأى إنسحاب عار كبير ،

(٧) التجنيد العنوى ، هولجوء الشعب لحمل السلاح دفاعا عن النفس عن تعرضه لهجوم مفاجىء للعدو دون أن يجد فرصة كافية لتنظيم صفوفه وفقا للقواعد العسكرية المقررة

وكانوا يخوضون القتال عندما تتهيأ لهم الظروف المواتية . وكان فرسانهم عندما يلاقون أى صعوبة فى القتال يترجلون ويقاتلوا مترجلين ويتآزرون ضد العدو والذى يفوقهم عدداً بدلا من الفرار من المعركة .

وكان فرسان الفرنجه يهجمون بشراسة وقوة شاهرين سيوفهم العريضة ورماحهم ودروعهم الضخمة فكثيرا ما يعدل أعداؤهم عن الدخول معهم فى قتال متلاحم قبل أن يتأكدوا أن الظروف ستكون فى جانبهم فى المعركة أو أنهم سينتهزون الفرصة عندما يسود الإضطراب أو عدم النظام فى صفوفهم .

وكانت الفرنجه يهجمون دائماً بحشد كبير من الفرسان أو المشاة ، وهذه الجحافل كانت صعبة القيادة ويصعب على القائد أن يناور بها ويرجع ذلك لعدم وجود تنظيم أو تدريب عسكرى لديهم ، فلم يكن لديهم قوات منظمة فى فصائل وكتائب وفرق مثل جميع الجيوش .

وكانت الفرنجه تصاب بالأضطراب والفوضى إذا فوجئوا بهجون على أجنابهم أو مؤخرتهم .

وكثيرا ما كان يحدث مثل هذا الهجوم المفاجىء لإهمالهم فى تحصين معسكراتهم وعدم وضع حراس حولها أو دفع أفراد للحصول على معلومات عن العدو مع مسح المدن التى يحتلونها .

وكانوا يقيمون معسكراتهم دون تحصينها ولذلك كان من السهل عزل أى معسكر بالقيام بهجوم ليلى .

وكانت قواتهم غير صبوره على الجوع والعطش ، ويكفى بضعة أيام من الحرمان ليكفروا بمبادئهم وقيمهم .

ولذلك كانوا يفتقرون للضبط والربط وإحترام قادتهم ، كما أن قادتهم بدورهم لم يكونوا فوق الشبهات ، فكانوا مرتشين . وبصفة عامة ، ولكل هذه الأسباب كان يسهل أنهاك جيش الفرنجة بالمناوشات والعمليات الطويلة فى المناطق المقفرة المهجورة مع قطع الإمدادات عنهم ، وهذا أسهل من محاولة تحطيمهم بضربة واحدة » .

الانفجار المثير للفايكنج (أنظر اللوحة رقم ١٤)

لقد قلنا قبل ذلك أن الإمبراطورية بدأت تتمزق بسرعة بعد موت شارلمان ، بسبب الحرب الأهلية التى سادت عصر خليفته لويس ، ولكن أهم أسباب هذا التمزق هو التأثير المشترك للغارات التى حدثت فى وقت واحد على الإمبراطوية ومن ثلاث جبهات خلال القرنين التاسع والعاشر من العرب والمجر والفايكنج . فالعرب احتلوا صقلية وجنوب إيطاليا وقاموا ببعض الغارات على الساحل الفرنسى المطل على البحر المتوسط ، أما فرسان المجر فقد أثاروا رعباً أشد فى المناطق الشرقية البعيدة كما قاموا بعد عام ٩٠٠ بغارات متكررة بعيدة المدى خلال ألمانيا إلى داخل بروفانس وبورجندى ، واستمرت تلك الغارات حتى تمكن السكسون بقيادة هنرى من صد فرسان المجر فى معركة عند نهر انستروت عام ٩٣٣، لكنهم هزموا تماماً عندما انتصر عليهم أوتو العظيم فى ليشفيلد عام ٩٥٥ .

لم يتبق غير الفايكنج الإسكندنافيين وكانوا يشكلون الخطر الحقيقى الرهيب على أوروبا ومع هؤلاء القوم . . . الفايكنج سوف نواكب الآن دراستهم .

الفايكنج يغزون أمريكا فى القرن الحادى عشر (أنظر اللوحة رقم ١٤)

ليس هناك حتى الآن تفسير مقنع يشرح لنا أسباب الانفجار المثير للفايكنج أو الاسكندنافيين ، كما كانوا يعرفون فى نهاية القرن الثامن .

وقد ظهرت من غاراتهم على كل أنحاء أوروبا أنهم يسعون أساساً وراء النهب والسلب أكثر من سعيهم وراء الإستعمار والاحتلال ، بالرغم من أن الكثير منهم استقر واستوطن فى بعض البلدان التى اجتاحوها ، وقد تم استكشاف ثلاثة سفن لهم عند ورشام فى إنجلترا عام ٨٧٩ .

وفى الجيل التالى نهبت أديرة لندسنارن ورموث فى إنجلترا وهوجمت كل من إيرلندا وفرنسا . ومن ذلك الوقت بدأت تلك الغارات فى الازدهار .

وفى عام ٨٣٢ قامت قوة كبيرة من الفايكنج تحت قيادة تورجست بغزو إيرلندا وبعدها بسنتين نهبت مدينة أوترخت .

وفى عام ٨٥١ عانت كل من لندن وكنتربرى من نفس المصير . وأصبحت تلك الغارات

خلال الخمسين سنة التالية متواصلة ، وبات محققاً أن الفايكنج سيغزون شمال وشرق إنجلترا .

وفى عام ٩١١ استولوا على المنطقة التى صار تسميتها بـ « نورماندى » وذلك بعد أن تنازل لهم عنها الملك الفرنجى تشارلز البسيط .

وفى النهاية أصبحت إنجلترا جزءاً من الإمبراطورية الإسكندنافية ويحكمها الملك الداعركى كنوت (٩٩٥ — ١٠٣٥) . وفى نفس الوقت قام الفايكنج بالإبحار إلى إيسلندا وجرينلاند وأمريكا وأسبانيا والمغرب وإيطاليا ونوفوجراد وكييف وبيزنطه .

سفن الفايكنج

إذا نظرنا إلى قوة الفايكنج لوجدنا أنها تكمن فى براعتهم فى فن الملاحة البحرية علاوة على أن سفنهم كانت من أعظم ما حققوه من منجزات فنية وتعتبر من أكبر مظاهر فخرهم .

وكانوا علاوة على براعتهم فى الملاحة يتميزون بالجرأة وقوة الاحتمال .

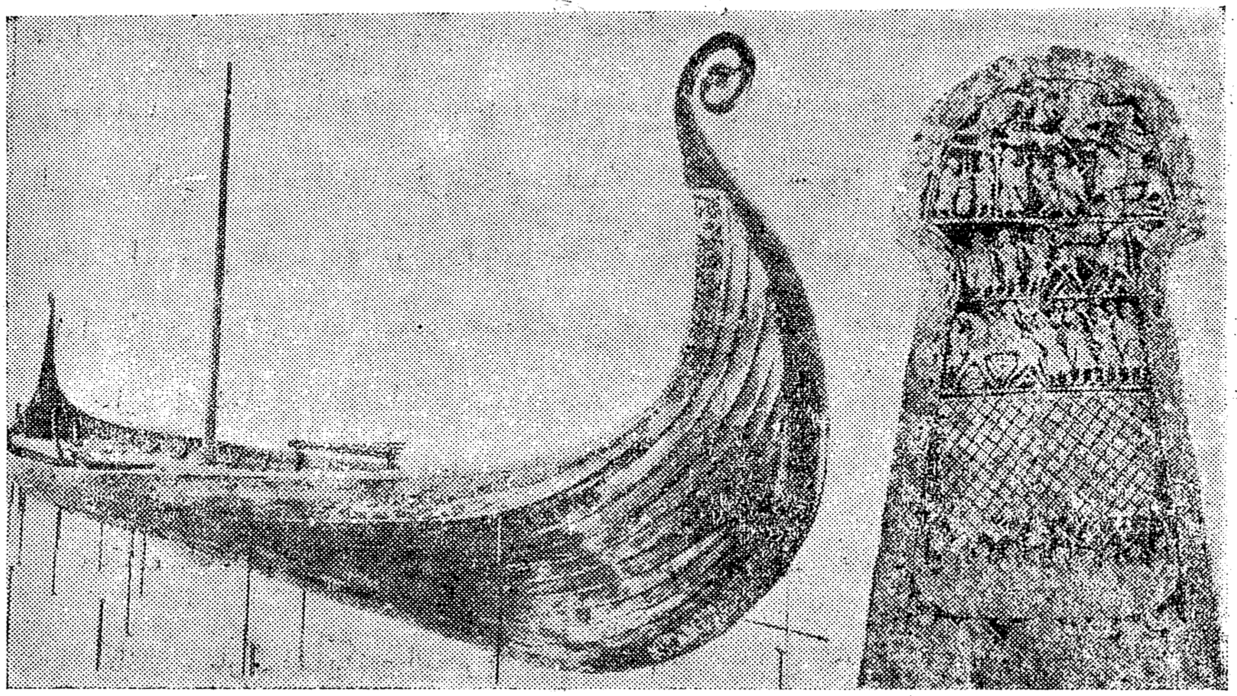

سفن الفايكنج

وقد كشف التنقيب على أنواع كثيرة لسفنهم وأكثرها إثارة النوع الذى يعرف بإسم « جوجشتاد » وهى إحدى السفن التى عثر عليها . ومازالت حتى اليوم محتفظ بهيكلها فى أوسلو وقد رأيتها بنفسى ويصل طولها إلى ٧٠ قدما وعرضها يبلغ ١٦ قدما وعمقها ٦ أقدام (من السياج إلى القاع) وكانت مبنية من الخشب البلوط ويصل وزنها إلى عشرين طناً ، وكانت على درجة عالية من التطور فى صناعتها .

لم يكن لهذه السفينة قاعاً على شكل ألواح مسطحة بل كان هناك عارضة قوية على شكل قطعة واحدة من الخشب تمتد فى القاع بمثابة العمود الفقرى للسفينة علاوة على أن مقدمة ومؤخرة السفينة يصنعان أيضاً من قطعة واحدة من الخشب ، وفى وسط السفينة توجد منصة يرفع عليها الصارى وطوله أربعون قدما ومصنوع من خشب الصنوبر ، أما الشراع فمن المرجح أن يكون شكله مربعاً ، أما لونه فالأساطير الأيسلندية القديمة تحكى عن أشرعة حمراء وأخرى زرقاء وبها شرائط حمراء . وكان يستخدم الشراع أثناء السير فى البحار أما عند القتال يطوى الشراع وتستخدم المجاديف .

وكان هناك ستة عشر صفاً من المجاديف ويصل طول بعضها إلى ستة عشر قدما والبعض الآخر أطول من ذلك ، وكل مجداف يعمل عليه رجلان . أما الدروع فكانت تعلق على طول سياج السفينة ومطلية إما باللون الأصفر أو الأسود . وكانت دفة السفينة عبارة عن لوح واحد من خشب البلوط مصنوعة على شكل يشبه شفرة مجداف كبير ومتصلة بجانب السفينة الأيمن بواسطة وتد على شكل حرف ٧ مثبت فى السفينة . ولم يكن هناك أى عارضات خشبية ليجلس عليها المجدفون ومن المحتمل أنهم كانوا يجلسون على صناديق أمتعتهم . ومع حلول القرن العاشر زاد حجم هذه السفن وأصبح البعض منها يحمل حوالى مائتى رجلا وتستطيع الإبحار لمسافة مائة وخمسون ميلا فى اليوم الواحد . أما الطعام فكان يحفظ على ظهر هذه السفن بواسطة الثلج والملح .

القتال المتلاحم والفايكنج (أنظر اللوحة رقم ١٤)

كانت معارك الفايكنج البحرية تقع دائماً بالقرب من الشاطىء وتتم فى ثلاث مراحل ، أولا يقوم القائد باستكشاف قوات العدو ويتخير أفضل موقع يهاجمه منه ثم يبدأ فى الاقتراب

منه مع استخدام المناورة للحصول على الاقتراب الملائم ، وكان دائماً يوجه القائد السفينة بنفسه خلال المعركة ، ومع ازدياد تقارب الأسطولين تبدأ عملية إطلاق القذائف ، وهي عادة عبارة عن وابل من السهام ، ولكن فى بعض الأوقات قد تكون كتل ثقيلة من الحديد أو الحجارة .

وفى النهاية يلقى الفايكنج بمرساة سفنهم لمسك سفن الأعداء ويبدأون فى حسم الموقف بالقتال المتلاحم .

وبعد انتهاء المعركة يبقى أسطول الفايكنج فى القاعدة التى شهدت المعركة البحرية وذلك إستعداداً لقيامهم بالغارات البرية . وعموماً كانت استراتيجية الفايكنج أن يبحروا فى طريق مائى هام ، والعيش بعيداً عن اليابس ونهب الأديرة والمدن التى تقع على شواطىء هذا الطريق المائى .

وعندما يصلون إلى مكان من المجرى لا يصلح للملاحة بعد ذلك أو يعرفوا بوجود تحصينات قوية تعترض طريقهم ، يتجهون بسفنهم إلى الشاطىء ويتركونها فى حماية حظائر من القضبان المدكوكة حولها ومعها بعض الحراس ، ثم يقوموا بالإغارة براً على المدن القريبة من الشاطىء .

وكانوا فى أيامهم الأولى إذا اصطدموا بقوة معادية كبيرة يعودون بسرعة إلى سفنهم وينطلقون عائدين إلى البحر ولكن فيما بعد أصبحوا أكثر جرأة .

وكان الفايكنج دائماً قليلى العدد وهدفهم الرئيسى النهب لذلك كانوا يتجنبون المعارك الكبيرة .

ولكنهم اعتادوا أخيراً بناء الحصون والمعاقل والقواعد التى عادة ما يعودون إليها بعد رحلاتهم الطويلة ومنها على سبيل المثال جزيرة أوسيل على مدخل نهر السين وبالقرب من روفين ، ونوار موتيير بالقرب من مدخل نهر اللوار ، وقلعة الشيرن التى استخدموها عند مهاجمة فلاندرز واستراسيا (١) . وكانت ثانيت (فى إنجلترا) من ضمن معاقلهم .

(١) الجزء الغربى من امبراطورية الفرنجة

وكان من الصعب جداً الإستيلاء على أحد هذه المعاقل والتى كانت عبارة عن حزام من المعسكرات المائية المحصنة بالأعمدة والخنادق ويدافع عنها جنود الفايكنج من حملة الفئوس .

وقد استطاع أرنولف[1] عام ٨٩١ الإستيلاء على إحدى حصون الفايكنج الهامة فى مستنقعات لوفان وقد اعتبر نصراً بطوليا . والأسباب الرئيسية لهذه المعركة أن الفايكنج استغلوا إنشغال أرنولف فى قتال السلاف على الحدود البافارية وقاموا بسلب وتخريب استرسيا مع ذبح عدد كبير من الفرنجة ، ولكن عندما وصلت هذه الأنباء إلى أرنولف عاد على الفور ويملأه الغضب والحنق وهاجم الفايكنج فى ديل وهزمهم . وبالرغم من أن معركة الديل كانت فى حد ذاتها غير ذات صبغة مميزة لأنها حدثت فى مستنقع وبالتالى لم تستخدم فيها فرسان الفرنجة إلا أنها كانت بالنسبة لى معركة ذات طابع مثير ، لأن مجابهتى الأولى للجيش الألمانى فى الحرب العالمية الثانية حدثت فى نفس هذا المكان .

فتيات الدروع

ومن المحتمل أن الفايكنج فى أول أمرهم كانوا فقيرى التسليح ، ولذلك كان من أهم أهداف إغاراتهم هو الحصول على الأسلحة والدروع ، وقد استولوا فى منتصف القرن على كميات غزيرة منها ، وتعلموا بعد ذلك فن صناعتها بأنفسهم .

وكان جميع محاربى الفايكنج يرتدون أردية طويلة من المعدن المجدول ، وفى بعض الأحيان كانت تماثل أرديه الفرنجة . وكانت الدروع التى يستخدمها الفايكنج فى البداية خشبية ومستديرة ، ولكنها تطورت حتى أصبحت رباعية الأضلاع وتطلى عادة بألوان ساطعة .

وسلاحهم الهجومى كان الفأس (البلطة) وتثبت على ساق المحارب ولكنها لم تكن التوماهوك الخفيفة التى كان يستخدمها الفرنجة . وكان الفأس سلاحاً قوياً وثقيلا له شفرة واحدة عريضة من الحديد ومقبض طوله خمسة أقدام ، وكان يكتب على تلك الشفرة بعض الحروف التوتونية القديمة التى تنطوى على معانى سحرية .

---

(١) أحد ملوك الفرنجة .

وكان الفايكنج يستخدمون أيضاً السيوف القصيرة والطويلة والحراب والأقواس الطويله والسهام ، ويعتبرون القوس من الأسلحة المفيدة والمشرفة لمن يستخدمها على عكس بعض الشعوب الأخرى مثل الإغريق . أما القوات الرئيسية للفايكنج كانت تشكل من المشاة ، لصعوبة نقل الخيول على سفنهم أثناء غاراتهم البحرية ، وبمجرد نزولهم إلى الشاطىء يأخذون فى جمع الخيول من المناطق المجاورة لاستعمالها كدواب النقل وتحقيق عنصر خفة الحركة . وكانت سياستهم دائماً دفاعية ، لأن قواتهم الرئيسية كانت من المشاة وتقاتل أعداء من الفرسان ولذلك كانوا يفضلون القتال فى تشكيل الدرع الساتر» وبالقرب من معسكرهم أو خلف مجرى مائى[1] أو على الجانب الحاد للتلال[2] . وكانو يفضلون القتال مع أعدائهم من الفلاحين الذين يجندون على عجل وبذلك يستغل الفايكنج قواهم الجسمانية الكبيره للتغلب عليهم . وكان لديهم فئتين رهيبتين من المحاربين ، الأولى ويطلق عليها «البرسرك[3]» أما الفئة الثانيه فكانت لا تقل غرابة عن الأولى لأنها كانت من فتيات الدروع[4] ومثال لذلك البطلة فيبجورج والتى كانت ترتدى الخوذة والرداء المعدنى والسيف التى أخذت تهاجم به البطل سوكنارسوتى وتكيل له الضربات القاتلة حتى فصلت فكه السفلى عن وجهه مما أدى أن وضع لحيته فى فمه وعض عليها ليمنع ذقنه من السقوط ، وقد قامت هذه البطلة بأعمال أخرى فذة ولكنها فى النهاية سقطت متأثرة بجراحها .

القادة العسكريين الجدد لأوروبا

وفى نهاية القرن التاسع أدرك الفرنجة والإنجليز خطورة الفايكنج ، فحشد الفرنجة قوة كبيرة من الفرسان الأكفاء فكانوا الأمل الوحيد لكبح إنطلاق الفايكنج ، لأن هجوم الفرسان هى القوة التى تستطيع كسر درع الفايكنج الساتر ، وعلى كل فلم يتعلم الفايكنج فن حرب الفروسية إلا بعد فوات الأوان بالرغم من أنه فى القرنين الحادى والثانى عشر كانت سلالتهم من النورمانديين من أبرع فرسان أوروبا .

---

(١) كما حدث عند أدينجتون عام ٨٧٨

(٢) كما حدث عند آشدون عام ٨٧١

(٣) يرجح أنهم كانوا فرقة ذات تنظيم خاص من الرجال المجانين والمختلفين عقلياً ؛ وكانوا يتميزون بالقوة والشراسة . وعلى كل فكلمة برسرك تعنى المسحور شديد الهياج .

(٤) مجموعة من النساء ترافق أبطال الفايكنج ويمكن ن يتحولن إلى مقاتلات شرسات « المعرب »

وفى عام ٨٦٦ أصدر شارل الأصلع مرسوما يقضى بأن كل فرنجى لديه جوداً يصبح تحت الطلب للخدمة العسكرية ، ويمكن القول أن منذ هذا التاريخ وأصبحت المشاة غير ذات أهمية فى فرنسا .

وقد نجح شارل فى صد هجمات الفايكنج وذلك ببناء القلاع على طول أنهار السين واللوار والأوز ، ومن أهم هذه القلاع تلك التى شيدت فى باريس . وفى الفترة مابين ٨٨٥ — ٨٧٦ قاومت باريس بنجاح حصار الفايكنج الكبير ، وقد استخدم الفايكنج إلى حد كبير نفس أسلوب فن الحصار الذى استخدمه جوستينيان منذ ثلاثة قرون ، نفس الأبراج والمنجانيق والكباش ولمحاولة أحداث فتحات فى الأسوار وحفر الأنفاق تحت موقع العدو . وبعد أن حاصر[1] الفايكنج باريس مدة طويلة هاجموها ولكنهم فشلوا .

فى نفس الوقت كان الفريد العظيم فى إنجلترا يستخدم أسلوباً مماثلا من التحصينات القوية لصد هجمات الفايكنج الدنمركيين ، وعلى أى حال فقد أعتمد على المشاة الثقيلة من الأيليت بدلا من الفرسان . وقد أثبتت تلك المشاة جدارتها ، فقد انتصرت فى آشدون وإدينجتون . وقد قام باتخاذ خطوة جريئة والتى أهملها الفرنجة فى ذلك الوقت ، وهى بناء أسطول قوى على غرار سفن الفايكنج .

وقد حقق أسطول ألفريد نجحاً كبيرا ، ولذلك ظلت إنجلترا لمدة ألف وخمسين سنة بعد موته تتمتع بأسطولها القوى والتى اعتمد عليه اعتماداً مطلقاً .

وعلى كل لو ألقينا نظرة على جميع المسارح فى أوائل القرن الحادى عشر لوجدنا أن أوروبا بدأت فى ذلك الوقت تلتقط أنفاسها وبطريقة أكثر إطمئناناً بعد أن تحررت أخيراً من غارات البربر المتتالية والتى دامت سبعمائة وخمسون عاماً وبدون هوادة ، أما فى الشرق فقد ظلت الدولة البيزنطية لفترة قصيرة محتفظة بقوتها العسكرية التى حققها لها بازل ، أما فى الغرب فقد آل نشاط الفايكنج إلى النورمانديين الذين أوشكوا على أن يصبحوا القادة العسكريين الجدد لأوروبا .

---

(١) لم يكن الحصار حول باريس كاملا وليس من جميع الاتجاهات «المعرب»

وهكذا ينتهى الجزء الثانى من الكتاب ، أما الجزء الثالث فضمنه مونتجمرى الآتى : —

* صلاح الدين الأيوبى يوحد مصروسوريا .
* معركة حطين .
* اختطاف ريتشارد قلب الأسد .
* الحرب الصليبية .
* النساء يأكلن أطفالهن .
* عظام بايو المقدسة .
* ويليـــام الفـاتح .
* حرب المائة عام .
* المباراة بين الجنة والجحيم .
* الصواريخ فى القرن ١٤
* ظهور جان دارك .
* القـــلاع المتحركة .
* الحمـــى الدبلوماسية .
* حرب الوردتين .
* مرجريت المجنونة .
* الملك البقـــال .
* القربينــــة .
* القراصنة المفوضين .
* الغليـــون .
* كنوز الأسطول الأسبانى .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء الثالث .

عميـد

فتحى عبد الله النمر

أسماء الفائزين فى مسابقة الجزء الأول

حل المسابقة :-

ج ١ : ١ — الروح القتالية العالية للجنود والضباط فى الميدان .

ج ٢ : ٢ — السياسيين .

ج ٣ : ٣ — البرازيل .

ج ٤ : ٢ — قبائل المابای من الطقوس الدينية

ج ٥ : ٢ — العراقيون .

ج ٦ : ١ — مدينة طيبة عام ١٦٣٠ ق.م .

ج ٧ : ٢ — أمينحوتب الأول .

ج ٨ : ٢ — تحتمس الثالث وملك قادش .

ج ٩ : ٣ — هو ديونيسيوس الأول .

ج ١٠ : ٢ — فيليب .

الجـوائز :-

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٣٣٣

باسـم : الأستاذ فتحى فولى محمد

العنوان : مدرس أول اللغة الإنجليزية بمدرسة الطبرى ـ منشية البكرى

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٦١٨٦

باسـم : مهندس / محمد إسماعيل محمد

العنوان : مصنع السكر ـ كوم أمبو

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٥٧٢٠

باسـم : محمد نزار كامل زغموت

العنوان : ٨٧ ش سراى المنيل شقه ٦٦

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه وعددها ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة ١٢٧٢

باسم : رائد نبيل محمد ماهر رفعت

العنوان : ٢٤٣ ش الحجاز شقه ١٤ ـ مصر الجديدة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٩٤٧

باسم : نانى أحمد وهيدى

العنوان : ٨ ش حمزة عليش شقة ٢٣ ـ منشية البكرى

٣ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣٣٥٨

باسم : عدلى فؤاد سيفين بشاى

العنوان : الشاطبى / جامعة الإسكندرية ـ الإسكندرية

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد (عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* هذا الكتاب يقع فى سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتجمرى لكل جزء مسابقة وجوائز مالية ، فمن لم يسعده الحظ فإلى اللقاء مع مسابقة جديدة فى الأجزاء التالية التى تظهر فى أول كل شهر .

مسابقة القراء

		عـــدد
الجائزة الأولى :ـــ	١٠ جنيهات مصرية	١
الجائزة الثانية :ـــ	٣ جنيهات مصرية	٢
الجائزة الثالثة :ـــ	٢ جنيـــه مصرى	٣

١ ـــ طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارىء أن يضع علامة (√) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ ـــ بعد أن يتم أختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع فى مظروف عليه طابع بريد وترسل فى بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالى :ـ

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ ـــ سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ ـــ سيتم نشر أسماء الفائزين فى الجزء التالى للكتاب .

٥ ـــ لقد رصد الفيلد مارشال مونتجمرى الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

المسابقة

نمرة ٠٠١٥٨٦

١ — من أشعل الحرب القرطاجية الثانية ؟

١ — سيبيو .

٢ — هانيبال .

٣ — أتيلا .

٢ — « تحطمت الشجاعة على صخرة النظام » من قال هذا ؟

١ — بومبي .

٢ — ليدل هارت .

٣ — فوللر .

٣ — الفراميا عبارة عن

١ — درع واقية للصدر .

٢ — حربة قصيرة ذات رأس حديدية مدببة وحادة .

٣ — خوذة معدنية تغطى الرأس والعنق .

٤ — لقد اسر فاليران عام ٢٦٠ بواسطة

١ — جالينوس .

٢ — أورليان .

٣ — سابور .

٥ — لقد هزم القوط الامبراطور فالنس عام ٣٧٨ في معركة

١ — أدريانوبل .

٢ — بيزنتيوم .

٣ — كارولين .

٦ — اول من استخدم « الطعم الحى » .

١ — أتيلا .

٢ — بليزارتوس .

٣ — ألريك .

٧ — من كان يقود القوات الاسلامية فى معركة اليرموك عام ٦٣٦ ؟

١ — عمر بن العاص .

٢ — خالد ابن الوليد .

٣ — أبو بكر الصديق .

٨ - لقد هوجمت القسطنطينية عام ٧١٧ بواسطة

١ — كسرى .

٢ — الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث .

٣ — القائد العربى مسلمة .

٩ — تاجما عبارة عن

١ — مجموعة من الأفراد تسير مع الجيش دون أن يكون لهم صفة المقاتلين

٢ — وحدة تتكون من ٤٠٠ جندى .

٣ — بلطة لها حدين ، قاطع وآخر مدبب .

١٠ — لقد استولى نقفور فوكاس عام ٩٦٥ على

١ — **أنطاكية** .

٢ — طرسوس وقبرص .

٣ — كريت ومالطة .

الاسم ________________________

العنوان ________________________

____

____

الحرب عبر التاريخ

A HISTORY OF WARFARE

الجزء الثالث

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكليات العسكرية

وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية

فى عيد العلم العاشر والحادى عشر

التصديق بالنشر

خطاب رقم ن/م ث/٦/١/ ٢٠٢١

رقم الإيداع ٣٢٩٠ / ١٩٧٢

المطبعة الفنية الحديثة

٥٠ شارع الرصيفي بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن : الفتوحات النورماندية والحملات الصليبية . . .	٢٢١
* قوم حياتهم الحرب	٢٢١
* ويليام الفاتح	٢٢٤
* عظام بايو المقدسة	٢٣٤
* قلاع الموت	٢٣٩
* النساء يأكلن أطفالهن	٢٤٤
* صلاح الدين الأيوبى يوحد مصر وسوريا . . .	٢٥٣
* معركة حطين	٢٥٧
* أختطاف ريتشارد قلب الأسد	٢٥٩
الفصل التاسع : حروب أواخر العصور الوسطى	٢٦١
* حروب المائة عام	٢٦١
* المباراة بين الجنة والجحيم	٢٦٦
* الصواريخ فى القرن الرابع عشر	٢٦٧
* قلعة الباستيل	٢٧٠
* تشكيل القنفذ	٢٧٥
* خنجر الأجهاز والرحمة	٢٨١
* ظهور جان دارك	٢٩٤
* القلاع المتحركة	٢٩٤
الفصل العاشر : عظمة اسبانيا	٢٩٨
* بوابة الأطلنطى	٢٩٨

تابـــع الفهرس

الموضــــوع	الصفحة
* القربينـــة	٣٠٤
* الحمى الدبلوماسية	٣٠٨
* العـرش المحطم	٣١٤
* حرب الوردتين	٣١٦
* مرجريت المجنونة	٣٢١
* الملك البقـــال	٣٢٦
* القراصنة المفوضين	٣٣٠
* الغليون	٣٣٢
* كنوز الأسطول الأسبانى	٣٣٨
الخرائط :	
* اللوحة رقم ١٥ : فتوحات النورمانديين	٢٢٥
* اللوحة رقم ١٦ : معركة هاستنجز	٢٣٥
* اللوحة رقم ١٧ : حدود الممالك العربية والصليبية والبيزنطية	٢٤٩
* اللوحة رقم ١٨ : معركة كريسى	٢٨٥
* اللوحة رقم ١٩ : أوروبا الغربية فى القرن السادس عشر .	٣٠١
* اللوحة رقم ٢٠ : معركة جاريجليانو	٣١١

الفصل الثامن

الفتوحات النورماندية والحملات الصليبية

قوم حياتهم الحرب

لقد وصلنا إلى فترة بالغة الأهمية فى التاريخ العسكرى ... أنها الفترة الرئيسية لمنتصف العصور الوسطى (عام ١٠٠٠ — ١٢٠٠) . فى هذه الحقبة من الزمن كان النورمانديون(١) من أبرز الشعوب فى الفن العسكرى ، وقد وهبتهم فرنسا عام ٩١١ دوقية نورماندى(٢) ليدافعوا عنهم ضد الفايكنج .

لقد كانت القوة الرئيسية لجيش الفايكنج من المشاة بالرغم من ذلك أصبح النورمانديون فرسانا مشهورين ، وعندما غزى الدوق ويليام إنجلترا كانت القوة الرئيسية لجيشه مشكلة من الفرسان النورمانديين .

وقد استخدم النورمانديون أسلوب القتال المتبع فى فرنسا بعد تطويره ، مع تطوير الكثير من الأساليب الأخرى ، ولذلك أصبحوا من أعظم الشعوب فى الفروسية والتحصينات الإستراتيجية .

ويعتبر القرن الحادى عشر والثانى عشر من العصور الذهبية لهم ، فقد قاموا خلال هذه الفترة بفتوحات واسعة ، حتى أصبح كل من جنوب إيطاليا وصقلية والجزر البريطانية وغرب فرنسا تحت الحكم النورماندى .

وقد لعبوا دوراً رئيسياً فى إعادة النشاط لأوروبا ، فكانوا قادة الحركة التى أثبتت بأن أوروبا أستعادت حيويتها ، وكانت ممثلة فى الحملات الصليبية .

---

(١) النورمانديون شعب يرجع أصلهم إلى رجال الشمال (الفايكنج)

(٢) لقد وهبتهم فرنسا هذه المقاطعة على النظام الإقطاعى لإقتناعهم بأن الطريقة المثلى للدفاع عن فرنسا ضد الفايكنج أن يضعوا فى طريقهم فايكنج آخرون . « المعرب »

وقد قال عنهم ويليام (حاكم مالمسبورى) : ـ «لقد كانوا شعباً تعود الحرب ولا يستطيع أن يعيش بدونها » .

ويعتبر هـذا الجزء من قصتنا مثيراً بالنسبة لى ، لأنه يملؤنى شوقا لأسرتى التى يرجع جذورها إلى نورماندى ، فيوجد فى مدينة فاليس الكثير من النصب التذكارية لشخصيات من آل مونتجمرى ، ومنهم روبرت مونتجمرى ، ابن شقيقة ويليام الفاتح ، والذى قاتل معه على الجناح الأيمن للجيش فى معركة هاستنجز . والأكثر غرابة أن خصمى روميل أصيب عام ١٩٤٤ فى قرية سانت فوى مونتجمرى بالقرب من ليزييه ، وقد أبعدته هذه الإصابة عن معركة نورماندى ، وكنت فى ذلك الوقت أقود القوات التى تغزو نورماندى .

الشخصية المهيمنة على الحرب

نعود إلى جيوش أوروبا وآسيا خلال السنوات ٤٠٠ — ١٠٠٠ ، فنجد أنها كانت تتشكل من المحاربين الراكبين وعناصر ضعيفة من المشاة ، رديئة التسليح والتجهيز ، وبات واضحاً أنه لابد من مرور عدة قرون لتصبح المشاة مرة أخرى ملكة ميدان القتال ، لأن الشخصية المهيمنة على الحرب كانت تتمثل فى الفارس ، وذلك بعد هزيمة المشاة من حملة الفئوس الأنجلو — سكسون فى معركة هاستنجز فى القرن الحادى عشر ، ولم تستعد المشاة مكانتها إلا بعد ظهور المشاة السويسرية والإنجليزية فى القرن الرابع عشر

وكان النظام الإقطاعى يعتبر الفارس الراكب الجندى المثالى والنموذجى بل والعمود الفقرى للجيش .

وإذا قارنا بين الجيوش فى ظل النظام الإقطاعى والجيوش الصليبية، لوجدنا فارقاً كبيراً ، فكان تنظيم الجيوش الصليبية مختلفاً لوجود عدد كبير من المتطوعين فى صفوفها ، وكانت تفتقر للتماسك لإختلاف أجناس الجنود ، ويملؤها الغيرة والمنازعات التى كانت قائمة بين قادة الجيوش الصليبية أنفسهم .

وعلى كل فعند دراستى للمعارك الصليبية التى وقعت من تركيا إلى مصر خلال سوريا وفلسطين ، لم تثر فى نفسى أى حماس لأنها فى الواقع لم تضف إلى التاريخ العسكرى إلا قدراً ضئيلا من التجارب والدروس المستفادة .

مملكة صقلية النورماندية (أنظر اللوحة رقم ١٥)

نعود إلى المغامرين النورمانديين فنجد أن فتوحاتهم وأعمالهم فى منطقة البحر المتوسط لم يكتب لها الحياة طويلا بالرغم من أنها أتسمت بالجرأة والبراعة ، وعلى كل سنجد أن النورمانديين الأوائل الذين توغلوا داخل جنوب أوروبا كانوا من الحجاج . ففى عام ١٠١٦ قامت جماعة منهم تتألف من أربعين رجلا أثناء عودتهم من حج بيت المقدس بالمرور على جنوب إيطاليا ، وكانت مدينة سالرنو محاصرة فى ذلك الوقت بالعرب ، فعلى الفور قاموا بجمع الأسلحة والخيول ومهاجمة العرب واستطاعوا تشتيتهم .

فى هذه الفترة لم يزد نشاط النورمانديين عن أعمال قطاع الطرق وأستخدموا فى ذلك الوقت بعض المرتزقة من اتباعهم ، ولكن فى عام ١٠٤٠ بدأت عائلة هوتيفيل [1] السيطرة عليهم وإصدار التوجيهات المحددة لنشاطهم .

سيطر النورمانديون على جنوب إيطاليا تحت قيادة زعيمهم جسكارد . وفى عام ١٠٥٣ زحف جيش بابوى من روما لطرد النورمانديين من جنوب إيطاليا ، وإلتقى الجيشان عند كفتاتى وهزم الجيش البابوى هزيمة ساحقة ، ولكن لم يستطع النورمانديون إستغلال النصر وفى عام ١٠٥٩ عرض جسكارد فروض الطاعة والولاء للبابا فى مقابل تنصيبه ملكاً على جنوب إيطاليا . وخلال فترة الصراع على التنصيب قام هنرى الرابع عام ١٠٨٤ بالإستيلاء على مقاليد الأمور فى روما وزج بالبابا جريجورى الرابع فى السجن بقلعة سانت أنجلو ، فى ذلك الوقت طلب من جسكارد القيام بتخليصه وطرد الألمان ، وعلى الفور تقدم جسكارد بجيشه نحو روما وطرد الألمان شمالا وأطلق سراح البابا . إلا أن روما عانت فى ذلك الوقت على أيدى النورمانديين وقواتهم الأهوال من مذابح ونهب يفوق الأعمال التى أرتكبها الوندال قبل ذلك .

---

(١) كان تانكرت بارون هوتيفيل عميد العائلة وقد رزق بإثنى عشر ولداً ولم يستطع النهوض بأعبائهم ، فرحل بعضهم (وليام ذو الذراع الحديدى ودروجو وروبرت وروجر) إلى الجنوب بحثاً عن الثروة . وفى عام ١٠٤٦ حصل روبرت المسمى بجسكارد على ثروة طائلة بعملة كمرتزق بعض الوقت وكقاطع طريق البعض الآخر فى جبال كالابريا فى جنوب إيطاليا حيث استوطن هناك وأصبح من ذوى النفوذ والسيطرة على هذه المنطقة . « المعرب »

نعود إلى صقليه فنجد أنه اكتمل فتحها فى ذلك الوقت ، فقدقام روجر الأول عام ١٠٦١ بمحاولة لفتحها وطرد العرب منها ولكنه تعثر فما كان من جسكارد أن قدم له العون ، إلا أنه فى عام ١٠٧٢ وصلوا إلى نقطة التحول عند حصارهم لبالرموو الإستيلاء عليها ، وعلى كل لم تسقط آخر معاقل العرب هناك إلا فى عام ١٠٩١ .

إذا عدنا إلى روجر الأول فنجد أنه كان يحكم ولاية إقطاعية فى صقلية وله جيش إقطاعى قوى مكون من جنود من الإغريق والعرب والنورمانديين ومحصنة بقلاع نورماندية لحماية المدن الهامة بها ، علاوة على إعتماده على أسطوله الضخم المكون من السفن الشراعية الكبيرة ، وعلى قوة جورج حاكم أنطاكية[1] .

وفى عام ١١٣٠ اعترف البابا بروجر الثانى ملكاً على صقيلة ومالطة وجنوب إيطاليا ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مملكة صقيلة النورماندية من الممالك الأوروبية التى تتمتع بحكم عادل وثقافة واسعة نتيجة للخليط الذى تكون من نشاط أهل الشمال مع خبرة أهل البحر المتوسط .

ويليام الفاتح

يعتبر أكبر غزو للنورمانديين هو غزوهم لإنجلترا فى عام ١٠٦٦ والذى أعتبر عام الغزو والنصر لهم عند هاستنجز وقدمر فى ذلك الوقت ٣١ عاماً على حكم ويليام لدوقيه نورماندى . وقد أكتسب هذا القائد شهرة واسعة لأنه كان تكتيكى ممتاز بل وأكثر من ذلك كداهية فى الإستراتيجية وحرب الخداع وقائد جرىء بعيد النظر صبورا ذو مقدرة فائقة على السيطرة على رجاله ، وكان صارما فى تنفيذ سياسته ، وقد كتب عنه فيما بعد فى تاريخ الأنجلوسكسون : —

« دعى الملك لبناء القلاع ، وكان شديد الصرامة مع قومه ، فارتفعت شكوى الأغنياء وتذمر الفقراء . ولكنه كان قويا بحيث لم يعرهم أى إهتمام » .

وقد كتب عنه من ناحية أخرى : « لقد حقق ويليام نظاماً وإستقراراً فى الأمن

---

(١) تقع أنطاكية فى شمال سوريا ، ويعتبر جورج من أبرع ما أنجبته صقلية من قادة البحر فى العصور الوسطى . « المعرب »

اللوحة رقم (١٥)

فتوحات النورمانديين في أوروبا

لايمكن أن ينسى ، فأى إنسان يستطيع التجول فى مملكته وجيوبه مملوءة بالذهب دون أن يصاب بأذى ، ولايجرأ أى فرد فى هذه المملكة أن يقتل زميله » .

ومن الطبيعى أن مثل هذا الوضع المشبع بالسلام لايتحقق إلا بعد سنوات عديدة من الحرب والتمرد والصراع . وفى عام ١٠٤٧ تمكن ويليام من إخماد الثورة البارونية عند فال دى ديون بالقرب من كان ، كما دار صراع دام بينه وبين جوفرى[1] حول الإستيلاء على « مانى » ، وفى عام ١٠٦٤ حسم ويليام القضية لصالح نورماندى بالإستيلاء على « لى مانس » .

وفى عام ١٠٦٦ بعد أن اكتسب ويليام خبرة طويلة من هذه الصراعات ، أصبح حاكما محنكاً وقائداً ناجحاً وعلى دراية بكل أشكال وأسلوب الحرب فى عصره ، ولذلك لم تكن حملته على إنجلترا مجرد غارة حماسية للاثارة ، بل كانت زحفاً للتوسع والفتح ، تم له التجهيز سلفاً بزمن طويل . وقدواتته الفرصة بعد موت إدوارد ملك إنجلترا فى الخامس من يناير عام ١٠٦٦ بالمطالبة بعرش إنجلترا من الناحية النظرية[2] ، فقد وجد نفسه أحق من هارولد « أمير ويسكس » والذى يعتبر أقوى شخصية فى إنجلترا ، ولكن الوتان[3] فى ٦ يناير أختار هارولد ملكاً على إنجلترا وتم تتويجه ، ولكن هارولد كان يفتقر إلى صفات الزعامه الوطنية .

عندما علم ويليام بذلك قرر غزو إنجلترا ، ولكنه قبل عبور بحر المانش بثمانية شهور أخذ يستعدمن الناحية العسكرية مع إطلاق دعاية واسعة له ولجيشه ، وقد حصل فى ذلك الوقت على مصدر ثمين للقوة المعنوية متمثلة فى البركة التى منحها له البابا ألكسندر الثانى والترحيب والتشجيع من كل من الإمبراطور الألمانى وملك الدانمرك .

غزو انجلترا

وعلى كل لم يكن التهديد النورماندى هو التهديد الوحيد الذى هدد هارولد فى هذا

---

(١) كان جوفرى يسمى بالمطرقة ويشغل منصب كونت أنجو .

(٢) لوجود روابط النسب والعهود السرية بينهما .

(٣) المجلس الوطنى الإنجليزى .

العام ، بل كان هناك خطر آخر فى الشمال ... فقد تحالف شقيق هارولد ويدعى توسيتج مع ملك النرويج المسمى هارولدهار درادا[١] . وأصبح من المتوقع أن تغزو النرويج إنجلترا . وفى شهر مايو أغار توسيتج على الهمبر . ولكن هارولد كان مقتنعاً بأن تهديد ويليام هو أكثر التهديدين خطورة ، لذلك حشد قوته البحرية فى بحر المانش وأخذت تقوم بدوريات طول شهر يونيه ويوليه وأغسطس مابين دوفر وجزيرة ويت . فى ذلك الوقت أصدر هارولد أوامره إلى أمراء ونبلاء وأيرلات[٢] المقاطعات بالإستعداد وتجهيز قوات الميليشيا[٣] للتحرك فى أى وقت وكانت الميليشيا يتم تجنيدها على أساس رجل واحد لكل ستمائة هكتار[٤] وتستدعى لمدة شهرين عند اللزوم .

وكانت هناك طبقة أخرى تعرف باسم « ثاجين »[٥] وكلتا الطبقتين الميليشيا و الثاجين يتبعان الملك بصفة مباشرة بالنسبة للخدمة العسكرية .

وكان الجيش الإنجليزى يقاتل دائماً مترجلا ، أما تسليح جنوده فيتكون من الحربة والرمح وسيف مزدوج الشفرة والفأس الثقيلة الدانمركية . وكانت الرماية تعتبر من الرياضيات الشعبية والمحببة بين الإنجليز ولكنها كانت تستخدم قليلا فى القتال . أما الدروع فكانت مستديرة أو رباعية التضليع ، وكان الأثرياء من المقاتلين يرتدون الخوذة والرداء المعدنى . وللملك حرس خاص من المحترفين علاوة على وجود مشاة مدربة تدريباً راقياً تسمى «الهاوسكارل» وقد بقى هؤلاء معه فى سيوسكس خلال صيف ١٠٦٦ .

نعود ثانية إلى الموقف العسكرى قبل المعركة فنجد فى ٨ سبتمبر بدأت المؤن فى النفاذ من الأسطول الإنجليزى الذى كان يجوب بحر المانش وأجبر على العودة إلى لندن للتزويد بالمؤن وإجراء بعض الإصلاحات التى أصابته أثناء سوء الأحوال الجوية فى شهر أغسطس .

---

(١) كان العدو اللدود للملك إنجلترا .

(٢) لقب إنجليزى يمنح للعظماء وهو أدنى من مركيز وأعلى من كونت .

(٣) قوات الحرس الوطنى ويطلق عليهم فى إنجلترا «فيرد» ويشكلون القوة الرئيسية للجيش الإنجليزى.

(٤) الهكتار مساحة من الأرض تبلغ ٤٨٤٠ ياردة مربعة أو نحو ٤٠٠٠ متر مربع .

(٥) هؤلاء فى مرتبة أعلى من المواطن العادى ولكن أقل رتبة من الطبقة الأرستقراطية .
« المعرب »

ولم يمض سوى أسبوع على وصول الأسطول الإنجليزى إلى لندن ، حتى علم هارولد بوصول ٣٠٠ سفينة نرويجية إلى ساحل يوركشير وسقوط كل من كليفلاند وسكاربورد ، وعلى الفور فرر هارولد ترك الساحل الجنوبى بدون حراسة والتحرك بكل قواته إلى الشمال ، وفى طريقه وصلته أنباء بأن اثنين من إيرلات الشمال وهما « أدوين » و « موركار » قد هزما فى معركة ضارية عند « فولورد » خارج « يورك » وأن مدينة يورك على وشك الاستسلام . وقد وصل هارولد إلى يورك فى الوقت المناسب ليمنع كارثة الاستسلام . وبعد ظهر ٢٥ سبتمبر استدرج القوات النرويجية إلى معركة عند « كوبرى ستامفورد » على نهر الدرونت والذى يبعد سبعة أميال من يورك .

وهناك حققت قوات الثاجين أعظم انتصاراتها ، وفى هذه المعركة لقى كل من هاردرادا وتوستيج مصرعهما ولحقت بقواتهما هزيمة ساحقة ، ولم يهرب منهما إلا عدد قليل عن طريق البحر .

نعود إلى ويليام فنجد أنه فى ٢٨ سبتمبر أنزل جيشه على الساحل الجنوبى الإنجليزى وطبعاً بدون أى مقاومة[١] ، فى نفس هذا اليوم كان هارولد وجيشه يستريحون فى يورك[٢] ويحتفلون بالنصر الذى حققوه على النرويجيين .

وقد دأب ويليام على الاستعداد لغزو إنجلترا من شهر يناير وكان يعمل على قدم وساق لتكوين جيش قوى والحصول على أسطول يتكون على الأقل من ٤٥٠ سفينة نقل ، ولذلك أصدر أوامره بالإلتزامات والواجبات التى يجب أن يقدمها تباع النظام الإقطاعى من حكام[٣] المناطق والمقاطعات .

علينا أن نلقى نظرة على قوات ويليام فنجد أن الفارس (الفارس النبيل) كان من أبرز جنود العصور الوسطى ويرتدى قميصاً طويلا من المعدن وخوذة ذات حافة أمامية وأحيانا

---

(١) لقد كان الساحل بدون حراسة بعد أن دفع هارولد جميع قواته نحو الشمال .

(٢) كانت تبعد عن الساحل الجنوبى بمسافة ٢٥٠ ميلا .

(٣) كان على كل بارون وكل أسقف منح أرض من ويليام أن يقدم عدداً معيناً من الفرسان أو المحاربين الراكبين ذوى الدروع الثقيلة لخدمة الدوقية . « المعرب »

ذات شكل مخروطى مع واق للأنف ، ويحمل درعاً على شكل الشراع ، مستدير عند القمة ومدبباً عندالقاع ويصل ارتفاعه من ٣ إلى ٤ أقدام ، وهذه الدروع مزخرفة ، والسلاح الرئيسى للفارس الرمح الذى يصل طوله إلى ثمانية أو تسعة أقدام وله رأس عريضةمن الحديدوكان يثبت من مؤخرته العريضة فى الركاب عند عدماستعماله .

ومع منتصف القرن الحادى عشر ، وصل سيف القرون الوسطى إلى ذروة تطوره ، وظل هكذا بدون أى تغيير لمدة أربعمائة سنة ، بشفرته المزدوجة ونهايته المدببة ، ووصل طوله إلى ٤٤ بوصة من المقبض إلى الطرف .

وكان يحمل الفارس بالإضافة إلى الرمح والسيففأساً ذات شفرة عريضة أو مقرعة ذات رأس حديدية وكان يفضلها الفارس دائماً .

ومع عام ١٠٦٦ استخدمت الفرسان النورمانديين بأسلوب ممتاز تحت قيادة ويليام ، ولكن صادفته مشكلة بالنسبة للفرسان وهو أن التقاليد الإقطاعية حددت خدمة الفارس داخل حدود الدوقية بأربعين يوماً فقط ، ولذلك أصبح واضحاً أن هذه المدة لن تكفى للقيام بغزو خارجى . ولكن لحسن حظه أن معظم البارونات كانت على استعداد للخروج معه ، علاوة على علم البابا بالغزو وموافقته عليه . وكانت توجد عوامل كثيرة دفعت كل هؤلاء على مساندة ويليام فقد أغراهم ثراء إنجلترا علاوة على الشعب النورماندى يتفجر نشاطاً ويشعر فى نفس الوقت بالضغط الاقتصادى الناتج عن إزدياد تعدد السكان ، وبذلك ضمن ويليام المتطوعين والمرتزقة ليس فقط من النورمانديين بل أيضاً من جميع أنحاء فرنسا وحتى من المغامرين النورمانديين فى جنوب إيطاليا .

وبكل هذه الإمكانيات استطاع حشد جيش بين ٢٠٠٠ — ٣٠٠٠ فارس من بينهم على الأقل ١٢٠٠ من النورمانديين وهؤلاء كانوا يشكلون النواة الصلبة لجيشه ، وحتى يكمل هيكل جيشه ، قام بتجنيد ما بين ٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ من المشاة وحملة الأقواس وربما أيضاً من رجال القوس النشاب[1] بالإضافة إلى الجنود الراجلين كل منهم مسلح بمفخس

(١) كان أقوى من القوس العادى ومشتق من المنجانيق والقوس العادى ، ويحتمل أنه استخدم قبل بداية القرن الحادى عشر بفترة وجيزة وكان القوس النورماندى يصل طوله إلى خمسة أقدام ، وعند استعماله يجب أن يجذب حتى الصدر . « المعرب »

وسيف ، وجميع مشاة النورمانديين يرتدون قمصاناً معدنية على عكس معظم جنود الإنجليز من الميليشيا .

المقامرة الجسيمة

فى نهاية أغسطس ١٠٦٦ حشد ويليام جيشه عند مصب نهر ديفيس لعبور بحر المانش عند أول فرصة ، ولكن الرياح الشمالية القوية منعته من الإبحار لمدة ستة أسابيع ، وخلال هذه المدة حافظ ويليام على استقرار النظام بين صفوف قواته مع احتفاظهم بقدرتهم القتالية ومستواهم العالى فى التدريب .

واستغل الرياح الغربية وتحرك بأسطوله حتى مصب نهر السوم ، وفى مساء ٢٧ سبتمبر تحولت الرياح إلى الجنوب فعلى الفور صعد الجيش إلى السفن ، وتحرك عابراً بحر المانش فى هذه الليلة ، وفى الصباح المبكر لليوم التالى ، نزل ويليام وقواته على الشاطىء الإنجليزى الخالى من القوات عند خليج بيفينسى[1] ، وعلى الفور تم تجميع وتركيب الحصن الذى جهز قبل ذلك ، فى الميناء الرومانى القديم وذلك لحماية سفن أسطوله .

وفى المساء طبقاً لما قاله الشاعر «واس» : — «أكل الجميع وشربوا ما فيه كفايتهم واحتفلوا بوجودهم على الشاطىء الإنجليزى » .

وفى اليوم ٢٩ سبتمبر تقدم النورمانديون إلى هاستنجر ، وبطريقة تلقائية نهبت المدينة ، بينما بقى الأسطول النورماندى تحت الحراسة فى الميناء .

فى ذلك الوقت كان هارولد لازال فى يورك ، يحاول تجميع قواته وإعادة القدرة القتالية لهم بعد معركتهم التى لم يمر عليها وقتاً طويلا عند كوبرى ستامفورد . فى العاشر من أكتوبر علم هارولد بنزول النورمانديين ، وفى اليوم التالى تحرك جنوباً ومعه حرسه ، ووصل إلى لندن بعد عملية الإنزال النورماندى بأسبوع .

وقد اضطر الانتظار فى لندن حتى يعيد الجيش حشد وتنظيم قواته عند « شجرة التفاح

---

(١) بضعة أميال إلى الغرب من هاستنجز . « المعرب »

العتيقة[1] » بعد تحركه هذه المسافة الكبيرة . ولم يصل هارولد نفسه إلى هذه المنطقة إلا فى الثالث عشر من أكتوبر .

والآن ، نلقى نظرة على استراتيجية هارولد وخططه التى قررها للمعركة ، سنجد أنه كان ينوى تنفيذ نفس الخطة التى استخدمها عند « كبرى ستامفورد » ، ويتضمن ذلك التقدم بأقصى سرعة ومهاجمة ويليام بأفضل ما لديه من قوات ، آملا فى تحقيق عنصر المفاجأة ، نعود إلى ويليام فنجد أن المعلومات التى وصلته من الجواسيس تتضمن أن هارولد وجيشه على بعد ٢٥٠ ميلا ، يستريحون من عناء معركة ضارية وبالتالى أصبح من المشكوك فيه أن يستطيع هارولد التقدم بسرعة وتحقيق المفاجأة .

ولو تخيلنا ما كان يدور فى رأس هارولد ، لوجدنا أنه قدر أن النورمانديين يتحتم عليهم خوض معركة حاسمة وبسرعة بقدر الإمكان ويجب أن ينتصروا فيها ، وذلك لأن ويليام وجيشه موجود حالياً على أرض إنجليزية معادية ، ويوجد خلفه بحر المانش الإنجليزى والذى يجوبه الأسطول الإنجليزى مرة أخرى ، ولذلك كلما طالت المعركة كلما زاد تعرض القوات النورماندية للاستنزاف وضعف روحهم المعنوية ، بينما ستتاح الفرصة لهارولد طوال فترة القتال للحصول على مزيد من القوات .

وعلى كل دخل ويليام فى مغامرة جسيمة ، وربما يقول البعض أنه دخل « مخاطرة محسوبة » ، وهم يستخدمون بذلك التعبير الذى كان يستخدمه أحياناً الجنرالات الأمريكيين خلال الحرب العالمية الثانية ، عندما لا تسير الأمور فى إطار خططهم .

وعلى كل فالمغامرة حتى الآن فى صف ويليام ، فقد ساعده الغزو النرويجى والطقس الإنجليزى غير المتوقع ، على تحقيق نزول سهلا على ساحل إنجلترا الجنوبى ، ولكن على ويليام بعد ذلك أن يثبت مقدرته القيادية بحسابات هادئة مع استخدام البراعة والذكاء .

---

(١) تقع على بعد ستة أميال شمال هاستنجز بالقرب من المدينة التى تعرف حالياً باسم « باتل » . « المعرب »

فنجد أن ويليام درس شخصية هارولد جيداً ، لذلك قرر أن يدفعه ليتبع أسلوباً متهوراً وعنيفاً معه ، فقام بتدمير سيوسكس[١] لأنها من الممتلكات الشخصية لهارولد ومن الطبيعى لن يقف مكتوف الأيدى ويراقب بهدوء المدينة وهى تعانى هذا الدمار وبذلك يتهور ويتبع أسلوباً طائشاً .

فى ذلك الوقت قدر ويليام الموقف بالنسبة لهارولد فوجد أن أفضل استراتيجية يتبعها هارولد هى الإنتظار فى منطقة ملائمة إلى الجنوب من لندن حتى يتم له حشد جميع قواته وفى نفس الوقت يهاجم أسطوله ، السفن النورماندية القابعة فى ميناء هاستنجز ويدمرها .

بعد ذلك يحاول استدراج الجيش النورماندى للقتال فى منطقة « ويلد[٢] » والتى يكثر بها الغابات بتحقيق النصر كاملا ، ومن دراسة ويليام لهارولد علم أنه لن يتبع هذه الاستراتيجية .

ومن الجدير تسجيله هنا ، أن الإنجليز نفذوا هذه الخطة التى قدرها ويليام بعد هذا التاريخ بثلاثة قرون ، عندما تعرضوا للغزو الفرنسى عام ١٣٨٦ ، وأيضاً فى الفترة ما بين ١٨٠٣ — ١٨٠٥ ولم ينجح أى من الغزوين .

شجرة التفاح العتيقة (أنظر اللوحة رقم ١٦)

نعود الآن إلى هارولد ، فنجد أنه قدر الموقف بالنسبة لخصمه ووجد أن ويليام يجب أن يبدأ المعركة بسرعة وإلا سيخاطر مخاطرة جسيمة ، قد تجره إلى كارثة مروعة وطبعاً كان خاطئاً ، بينما كان ويليام تقديره صحيحاً بالنسبة لهارولد وأنه لن يقوم باتباع الاستراتيجية الصحيحة والتى كان من الممكن اتباعها ، بل تصرف تصرفا طائشا متهوراً ، فقد زحف بقواته من لندن إلى هاستنجز مباشرة ، وقبل أن يصبح ثلث جيشه قادرا على القتال ولم يحقق المفاجأة التى كان يرجوها ، لأن قوات استطلاع ويليام أبلغته عن هذا التحرك .

---

(١) لقد دمر ويليام سيوسكس وهذا العمل يعتبر بعيداً عن الأخلاقيات ولكن فى نفس الوقت يدل على الدهاء .

(٢) ويلد بين هاستنجز ولندن .   « المعرب »

وفى ليلة ١٣ أكتوبر أخذ النورمانديون يصلون ويستعدون للمعركة ، وقبل شروق الشمس فكوا معسكرهم وتقدموا للأمام مسافة ستة أميال إلى « تل تيلهام » والذى يقع فى مواجهة «هضبة شجرة التفاح العتيقة» ، وبذلك حقق ويليام المفاجأة على الإنجليزوخاصة أن الكثير من قوات هارولد وصلت إلى المنطقة خلال الليل وكانت متعبة وتغط فى نوم عميق ، بينما الكثير من قوات الميليشيا قد وصلت لتوها إلى ميدان المعركة .

ولكى يحافظ ويليام على شرعية القتال ، أرسل مبعوثاً إلى هارولد يطلب منه التفاوض لإجراء تسوية سلمية على أن يتم ذلك خلال إحدى عشر ساعة ، وفى نفس الوقت استغل ويليام الفرصة ليثير بعض أعدائه ويخبرهم بأنهم حرموا من رضى الكنيسة لمعارضتهم غزوه .

وبالرغم من أن عنصر المفاجأة كان فى جانب ويليام ، إلا أن هارولد كان يتمتع باحتلال موقع دفاعى ممتاز [1] ،بإحتل جيشه الهضبة بالكامل وإقامة « الدرع الساتر » بجميع قواته وبمواجهة حوالى سبعمائة ياردة حتى يصبح من العسير على النورمانديين ضرب مؤخرته أو أجنابه ، بينما كانت القوات النورماندية تحتل تل تيلهام ويفصل بين الجيشين الوادى المستنقعى .

وكان تشكيل المعركة كالآتى :ـ حشد هارولد لوائين من أكفأ قوات المشاة[2] فى الوسط ووضع قوات من « الهاوسكارل»[3] على جانبى اللوائين بينما وضع قوات الميليشيا على الجناحين وكان يحتل كل مقاتل من قوات المقدمة مساحة قدمين من المواجهة ، أما عمق القوات فكان حوالى عشرة أو إثنى عشر صفا . وكان المجموع الكلى للقوات الإنجليزية حوالى ستة آلاف إلى سبعة آلاف مقاتل . وكان موقف قوات هارولد سيئا للغاية ، فالكثير منهم أنهكتهم

---

(١) لقد استطلع هارولد هذا الموقع بنفسه خلال الصيف ، واختار أرض المعركة والتى كانت عبارة عن هضبة تبعد ميل ونصف من هضبة شجرة التفاح العتيقة، وتنحدر برفق نحو الجنوب الحوادى مستنقعى.

(٢) كانت هذه القوات تتشكل من مجموعة «المقاتل» ومجموعة « دراجون ويسكس » وهى من المشاة ذات الكفاءة العالية .

(٣) كانت قوات الهاوسكارل لها شهرة واسعة كأرقى أنواع المشاة فى أوروبا ، لأنها عندما تدخل المعركة وتستنزف عدداً تصمد وتقاتل وهى مملوءة ثقة بالنصر . « المعرب »

المسيرة الطويلة من لندن فى اليوم السابق للمعركة ، والبعض الآخر لم يعاد تسليحه بالسلاح الملائم بعد معركة « كوبرى ستامفورد » ، علاوة على افتقار هذه القوات للرماة التى عاونت وبكفاءة فى معركة « كوبرى ستامفورد » ، والتى كان من الممكن أن تحدث الفوضى والدمار بين صفوف الفرسان النورماندية ، علاوة على أن قوات الميليشيا التى جمعت من الجنوب على عجل لم يكن لديها ما تقاتل به اللهم إلا الهراوات والعصى والمعاول . ولكن كانت جميع القوات الإنجليزية مؤمنة إيمانا راسخا بهدف واحد وهو ضرورة طرد هذا الغازى الغادر .

بعد أن اتخذ الجيش الإنجليزى مواقعه فى خط المعركة ، قام هارولد بالمرور خلاله مذكراً رجاله بأنه لن يحدث أى عواقب وخيمة طالما حافظ كل منهم على صلابة وتماسك هذا « الدرع الساتر » . . . ولكن دعونا نرى ما حدث .

عظام بايو المقدسة (أنظر اللوحة رقم ١٦)

وفى يوم ١٤ أكتوبر زحف النورمانديون مبكرين من هاستنجز وقسموا قواتهم إلى ثلاثة فرق ، إلى اليسار فرقة البريتانيين[(١)] تحت قيادة الكونت آلان (كونت بريتانى) وإلى اليمين فرقة الفرنسيين وبعض المرتزقة تحت قيادة أوستاك (حاكم بولونيا) وفى الوسط فرقة النورمانديين تحت قيادة ويليام نفسه ، وكانت كل فرقة تتشكل من ثلاثة خطوط ، فى المقدمة حملة الأقواس ثم المشاة الثقيلة ثم الفرسان .

وقد حمل الشعار البابوى فى مقدمة الجيش ، وقبل بداية المعركة بمدة قصيرة ارتدى الفرسان دروعهم الثقيلة وبذلك حافظوا على كامل قواهم ونشاطهم حتى اللحظة الأخيرة ، وأخيراً قام ويليام بتعليق عظام بايو[(٢)] المقدسة حول عنقه وكان يصحبه فى المعركة أخويه (غير الشقيقين) روبرت (كونت ماتين) وأودو (أسقف بايو) ، كما كان يصحبه أيضاً أصدقائه « ويليام جيفارد » و « ويليام ما ليت » .

---

(١) نسبة إلى بريتانى التى تقع فى شمال غرب فرنسا .

(٢) عظام رفات جثة القديس بايو .

« المعرب »

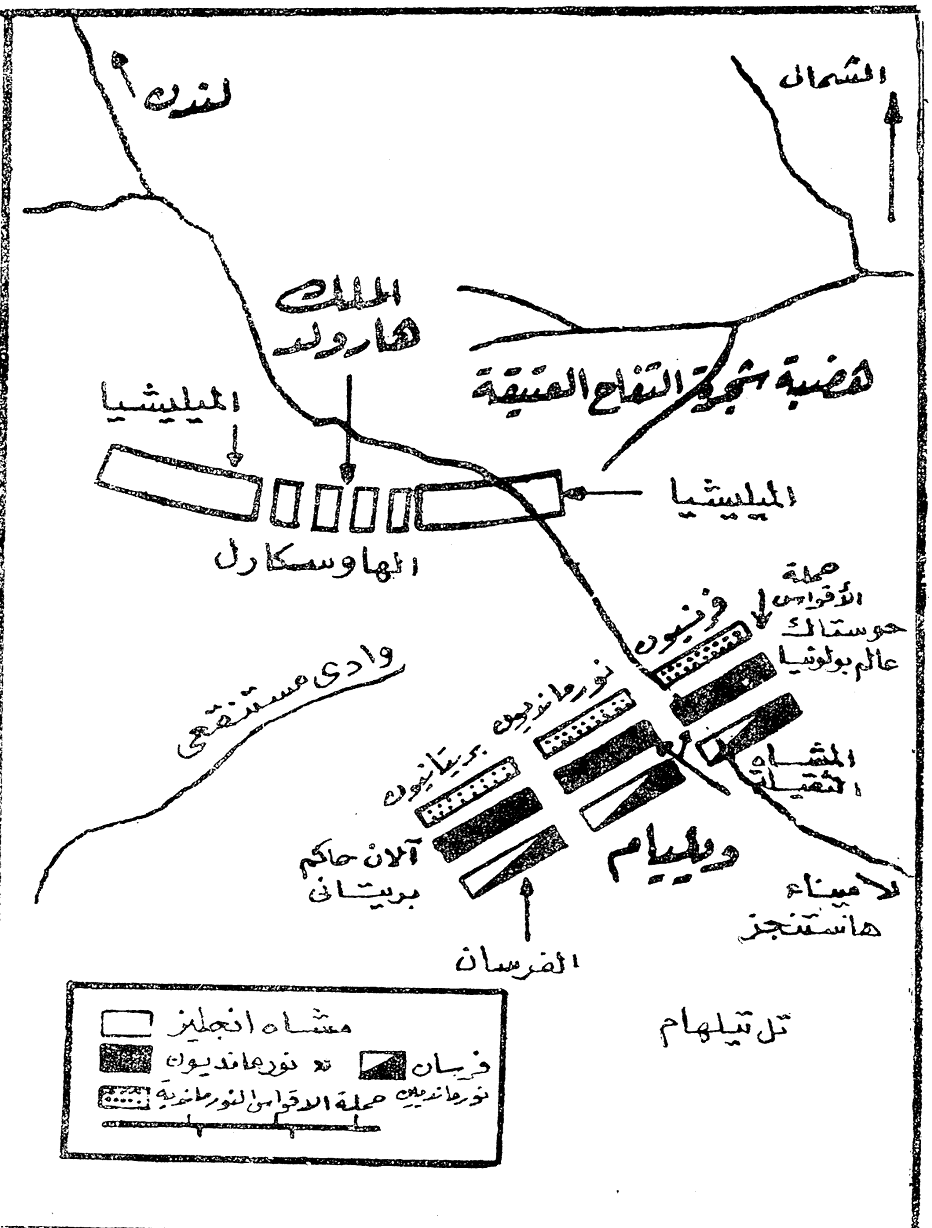

اللوحة رقم (١٦)

معركة هاستنجز

بدأ النورمانديون تقدمهم من « تل تيلهام » وانتشرت صفوفهم بشكل مستعرض لتغطية الخط الإنجليزى بالكامل وكان يسير فى مقدمة الجيش على أنغام قيثارته المغنى « تيليفر » ملوحاً برمحه من فوق حصانه منشداً « أغنية رولان » وظل كذلك حتى لقى مصرعه .

بدأ أول هجوم حقيقى حوالى الساعة التاسعة ، ومع إزدياد أقتراب النورمانديون بدأ رماتهم فى إطلاق سهامهم ، ولكن معظمها كان ينطلق إلى أعلى التل ويمر من فوق رؤوس الأنجليز أو تصدها دروعهم ، وعلى الفور تولت المشاة الثقيلة الهجوم ، ولكن كانت مقاومة الإنجليز فى غاية الصلابة ولذا نجحوا فى صدهم .

وقد وصف ويليام[1] هذه المعركة : — « لقد تلاشت صيحات الجانبين بين صليل الأسلحة .. وصرخات الموت ..

واشتعلت المعركة إلى أقصى عنفوانها .. وأغتنم الإنجليز فرصة موقعهم القوى وحافظوا على تماسك جبهتهم وصمدوا ببسالة ونجحوا فى صد القوات التى أشتبكت معهم من مسافات قريبة .. »

وفى الحقيقة فشل هجوم الرماة والمشاة الثقيلة النورماندية على درع الإنجليز الساتر ، وقد أصيبت المشاة والفرسان البريتانية بالذعر وتشتتوا هاربين ، ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى بات ظاهراً أن جيش ويليام يحيق به خطر الإنسحاب .

وأصبح الجيش الأنجليزى فى أمان طالما الدرع الساتر ظل متماسكا ، ولكن بعض جنود الميليشيا الجدد الموجودين على الجناح الأيمن تركوا مواقعهم بدون أوامر لمطاردة فلول الفرسان البريتانية المنسحبة أسفل المنحدر[2] ومن الطبيعى عندما تقوم المشاة المترجلة بمطاردة القوات الراكبة ، فهذا يعنى كارثة محققة لها .

فى ذلك الوقت فقد ويليام جواده وارتفعت الصيحات تقول ، بأنه قد قتل ، ولكنه على الفور إمتطى جواداً آخر بسرعة وأظهر نفسه بين رجاله واعاد أحكام قبضته على المعركة ، وقد نتج عن هذه المطاردة أن تصدع جزء من الجناح الأيمن للجيش الإنجليزى ، إلا أن

---

(١) لم يكن هذا الدوق ويليام الفاتح ، بل ويليام من بواتييه .

(٢) لم يكن من المعقول أن يصدر هارولد أوامره بالهجوم المضاد فى تلك المرحلة المبكرة من المعركة « المعرب »

باقى الجناح الأيمن ظل صامداً وبقوة . وعلى أرض الوادى الرخوة ، بدأت المشاة التى تقوم بالمطاردة فى الترنح والاضطراب ، فى ذلك الوقت أخذ ويليام يحشد فرسانه وقام بهجوم جديد بهم ، واستمرت الهجمات المضطربة لعدة ساعات(١) .

الخطة البيزنطية القديمة

لقد لعب ويليام دوراً بارزاً فى القتال ، وقتل تحته أكثر من جواد ، بينما لم يصب هو بأذى ، وطبقاً لما ذكره ويليام : — « لقد سيطر ويليام على المعركة ، وأخذ يرفع الروح المعنوية لرجاله ويقاسمهم أخطارهم ، بينما قاتل الإنجليز بثقة وبكل قوة وناضلوا باستماتة لمنع المهاجمين من اختراق صفوفهم ، تلك الصفوف التى كانت متقاربة ومتلاصقة لدرجة أن من يصرع منهم لم يوجد له مكان ليسقط فيه » .

وكما قال ويس : — « ظل كل منهما صامداً بقوة ويقاتل بطريقة يصعب معها أن يخمن المرء من منهما سيكون له الغلبة فى النهاية » ومع انتصاف النهار ، قرر ويليام استخدام الخداع متذكراً ما حدث فى الصباح عندما انسحبت قواته البريتانية مما أدى أن القوات الإنجليزية قامت بمطاردتها وتفكك الجناح الأيمن للجيش الإنجليزى وفقد تماسكه ، لذلك قرر القيام بانسحاب مخادع على الجانب الآخر . وكانت هذه فكرة بيزنطية قديمة ، وقد نجحت نجاحاً باهراً ، فمعظم الجناح الأيسر الإنجليزى وطبعاً بدون أوامر من هارولد هبطوا المنحدر إلى أسفل الوادى فى مطاردة لهذا الإنسحاب المخادع ، وعندما وصلوا إلى وسط الوادى استدارت الفرسان النورماندية وانقضوا عليهم فى هجوم وحشى كانت له آثار بعيدة . فى ذلك الوقت ظلت قوات الوسط من الهاوسكارل وجزء من الجناح الأيسر صامدة فى أماكنها كالحائط الصلب المتماسك .

وعند الغروب ، كان التعب قد أصاب الفرسان النورماندية علاوة على خوفهم من الفئوس الإنجليزية القاتلة . ومرة أخرى ظهر ويليام أنه قائد واسع الحيلة والدهاء ، فقد قرر دفع رماته

(١) كان فرسان القرن الحادى عشر لا تهجم فى حشد كبير متماسك ، بل يركبون إلى خط القتال فى مجموعات أو فرادى وأثناء القتال يستخدمون الرماح أولا ثم السيوف والفئوس والمقارع من المسافات القريبة . « المعرب »

التى فشلت فى الصباح بعد أن استعادوا نشاطهم وحيويتهم إلى القتال مجربا نوعاً آخر من الهجوم . فقام ويليام بوضع رماته وتوزيعهم على خط طويل مرن وبه عدة ثغرات حتى تستطيع الفرسان المرور منها . تقدم هذا الخط بسرعة صاعدا إلى أعلى الهضبة التى بها قوات الإنجليز بينما تسير الفرسان خلفه وبسرعة متوسطة تتلاءم مع سرعة المشاة ، وتوقف الرماة على بعد مائة ياردة من الخط الإنجليزى وأخذوا يطلقون سهامهم فى اتجاه رأسى نحو السماء وبالتالى تساقطت هذه السهام كالمطر فوق القوات الإنجليزية . وكما يقول ويس: — «كانت القوات الإنجليزية خائفة من فتح أعينهم أو رفع أيديهم التى تغطى وجوههم » .

وبعد ثوان من الاضطراب والرعب الذى أحدثته سهام الرماة فى القوات الإنجليزية شن الفرسان هجومهم مارين خلال الثغرات الموجودة بين رماتهم ، ولكن الإنجليز دافعوا باستماتة، إلا أن الجناح الأيسر للإنجليز أخذ يتصدع أمام القوات البولونية تحت قيادة أوستاك ..وأخيراً بدأ كل الدرع الساتر فى التمزق ، ولاذا الكثير من الميليشيا بالفرار ، أما قوات الهاوسكارل الإنجليزية فقد أنسحبت بطريقة منظمة إلى أن انطلق ويليام فى مطاردتهم وتمكن من بعثرتهم، وعندما عاد إلى ميدان القتال بعد حلول الظلام وجـد جثة هارولد عارية وممزقة ويصعب التعرف عليها .

المعركة التى غيرت مجرى التاريخ الانجليزى

والآن سوف نناقش باختصار القيادة لكلا الجانبين فى هذه المعركة ، ففى رأيى أن هارولد كان فى إمكانه هزيمة ويليام مع إلقائه هو وجيشه فى البحر ، وكان من المفروض تنفيذ هـذه الإستراتيجية بأسرع ما يمكن ، ولكن كان غير ممكن تنفيذها تكتيكياً بهذه الإمكانيات التى جهزت على عجل وبدون تخطيط محكم ومسبق . وقد سار هارولد وراء استراتيجية غير حليمة ودقيقة ، فنتج عن ذلك أن جميع خططه كانت مملوءة بالأخطاء ومعرضة للنقد ، ومن ذلك فلم يكن حكيما فى ترك الساحل الجنوبى بدون حراسة أو حتى مراقبة ودفع جميع قواته شمالا إلى يورك ، وأكثر من ذلك أنه لم يحسن إستخدام القوة البحرية بعد أن زودت بالمؤن وتم إصلاح الأعطاب التى أصابتها من عواصف شهر أغسطس ، فكان عليه أن يدفع أسطوله ليهدد سفن ويليام الراسية على الشاطىء وكان هذا كافياً ليثير الاضطراب ويخفض الروح المعنوية للنورمانديين ، وخاصة إذا تم ذلك فى الوقت المناسب ، وعلى سبيل المثال عندما كان جيش هارولد يقترب من قوات ويليام . ويمكن القول بأن هارولد أتبع استراتيجية

لا تلائمه بل تلائم ويليام ، وكأن ويليام يحركه ويجعله يرقص على نغماته . وعلى كل كان ويليام القائد الأفضل والأكثر خبرة من هارولد وكان بدون شك محظوظاً ولكنه جسوراً ... والجسارة تستحق الحظ . وقد أكمل ويليام فتح إنجلترا بعد انتصاره فى معركة هاستنجز ، وهذه المعركة غيرت مجرى التاريخ الإنجليزى .. وكان هذا التغيير إلى الأفضل.. فقد كان لدى النورمانديين الكثير ليقدموه إلى إنجلترا .

وقد تم تتويج ويليام الفاتح فى كنيسة ويستمنستر يوم عيد الميلاد ، وأصبح مسئولا من ذلك الوقت عن إنجاز أعمال كثيرة فى إنجلترا بعضها كان قاسياً ، ومنها على سبيل المثال إخضاع إكستر وغزو الشمال ..

وقام النورمانديون من المحاربين والإداريين ورجال الدين والتجار بتكملة الفتح بكل حماس ، وبذلك اختفى العنصر الاسكندنافى من الحياة الإنجليزية ، وبدأ يرتبط تاريخ وحضارة إنجلترا بتاريخ وحضارة فرنسا ، وأصبحت إنجلترا تخضع تماما للنظام الإقطاعى ، لصالح الملك أولا ثم للأمراء النورمانديين ثانياً .

وفى القرن الثانى عشر أصبحت الإمبراطورية النورماندية أعظم قوة فى أوروبا ،ووصلت إلى ذروتها فى عهد هنرى الثانى عندما أصبحت تمتد من اسكتلندا وإيرلندا خلال إنجلترا وغرب فرنسا إلى جبال البرانس على الحدود الأسبانية . ولكن فى عام ١٢١٤ تسببت حماقة أبناء هنرى (ريتشارد وجون) فى انهيار الإمبراطورية فى معركة بوڤين عندما انتصر عليهم فيليب أغسطس[١] ، وقد لحقت الهزيمة والعار بالملك جون (ملك إنجلترا) مما أدى فى النهاية أن تمرد فرسانه عليه .

قلاع « الموت »

إذا ألقينا نظرة على المجتمع النورماندى إبان منتصف العصور الوسطى ، سنجد أنه كان مقسم إلى ثلاث طبقات ، كما كان الحال فى جميع المجتمعات الأوروبية .

١ — المقاتلين .　　٢ — الرهبان .　　٣ — العمال والفلاحين .

وكانت الطبقة العسكرية تتبع سياسة دفاعية وتعتمد اعتماداً كاملا على القلاع التى ترمز

(١) كان فيليب أغسطس من أعظم رجال الدولة بين ملوك فرنسا　　« المعرب »

إلى قوتهم ، وكان هذا من الملامح الرئيسية للحكومة الإقطاعية ، ولذلك تطور فن هندسة المبانى العسكرية تطورا كبيرا فيما بين الأعوام ١٠٠٠ — ١٣٠٠ ، ولكن لم يكن هناك تطورا مماثلا فى مجال الأسلحة الهجومية وأساليب فن الحصار ،فقد أصبح الدفاع هو الأسلوب المميز للحرب فى هذه الحقبة من الزمان ، وأصبح الهجوم فى المرتبة الثانية، والمعارك الهجومية الضارية واسعة النطاق أصبحت نادرة الحدوث . وكانت القوات تفضل البقاء آمنة داخل التحصينات القوية بدلا من المخاطرة والقتال فى الأراضى المفتوحة . وكان الحكام الذين يمتلكون قلاعاً كثيرة مثل معظم ملوك إنجلترا يصبحون فى مركز القوى ، أما الحكام الذين لم يستطيعوا منع البارونات من امتلاك قلاع مستقلة ، كانوا معرضين دائماً لمتاعب جمة ، مثل معظم الأباطرة الألمان .

وفى القرن الثانى عشر ، لم تحقق المفاهيم التكتيكية سوى تقدما ضئيلا ، ومن دواعى الفشل المخيب للآمال أن تطبق الدروس المستفادة خلال الحرب العظمى فى الشرق على القتال الذى دار فى الغرب بالرغم من اختلاف كل منهما اختلافا تاماً . وعلى كل كان ينشب على فترات معارك ذات صبغة سياسية بارزة ، مثل الانتصارات التى حققها هنرى الأول (ملك إنجلترا) فى تنشيرى عام ١١٠٦ ، وعند بريعول عام ١١١٩ ، ولكن فى الحقيقة فمن الصعب أن يطلق عليها اسم « معارك » لأنها لم تكن أكثر من مجرد اشتباكات قصيرة لبضع مئات من الفرسان ولذلك لم يتأثر المؤرخ العسكرى بما سمى « بالمعارك » ، بقدر ما أثر فيه معارك الحصون والقلاع .

وقد إزدهرت من جديد فى كل من فرنسا وإنجلترا بناء التحصينات الخشبية وأعمال الحفر كأفضل استراتيجية ضد الفايكنج،وقد أقيم معظمها فوق بقايا التحصينات القديمة . ولكن مع منتصف القرن الحادى عشر طور النورمانديون الحصون ، وقدموا لأوروبا طرازاً جديداً وهى القلاع المسورة أو قلاع الموت ، كانت فى أول الأمر تحاط بخندق وتطور بعد ذلك الى حاجز دفاعى محاط بسور من الأعمدة الخشبية المتلاصقة والمثبتة فى الأرض . وكان للقلعة فناءين أحداها معد للخدمة وأمنناء مستودعات الإمداد حيث يوجد المخبز وحظائر الدجاج والأسطبلات والورشة ، أما الفناء الثانى معد لجنود الحامية ومن حوله توجد غرفة الحرس ومستودع السلاح .

وفى مركز القلعة يوجد حصن وهو عبارة عن برج ضخم ، ويعتبر الحصن الأخير للصمود اذا هوجمت القلعة ، ويعتبر المقر والمعقل للبارون وعائلته وأتباعه . والمدخل الرئيسى للقلعة عبارة عن كوبرى متحرك من الخشب بعرض الخندق ، ويمكن سحبه الى الخلف بواسطة المدافعين عن القلعة . وفى القرن الحادى عشر ، كانت معظم تحصينات القلاع من الخشب ، ولكن كان يوجد بعض الإستثناءات ، وعلى سبيل المثال تم استخدام الحجارة بدلا من الأخشاب عند إقامة القلعة عند برونى فى نورماندى . وقد إزداد بعد ذلك استخدام الحجارة لبناء القلاع لأن مصادر الأخشاب قد قلت علاوة على أن الخشب كان دائماً معرضا للحريق ، وأكثر من ذلك أن الأمراء استخدموا الحجارة طموحا منهم ورغبة فى أن يكون لديهم قلاعا قوية حصينة .

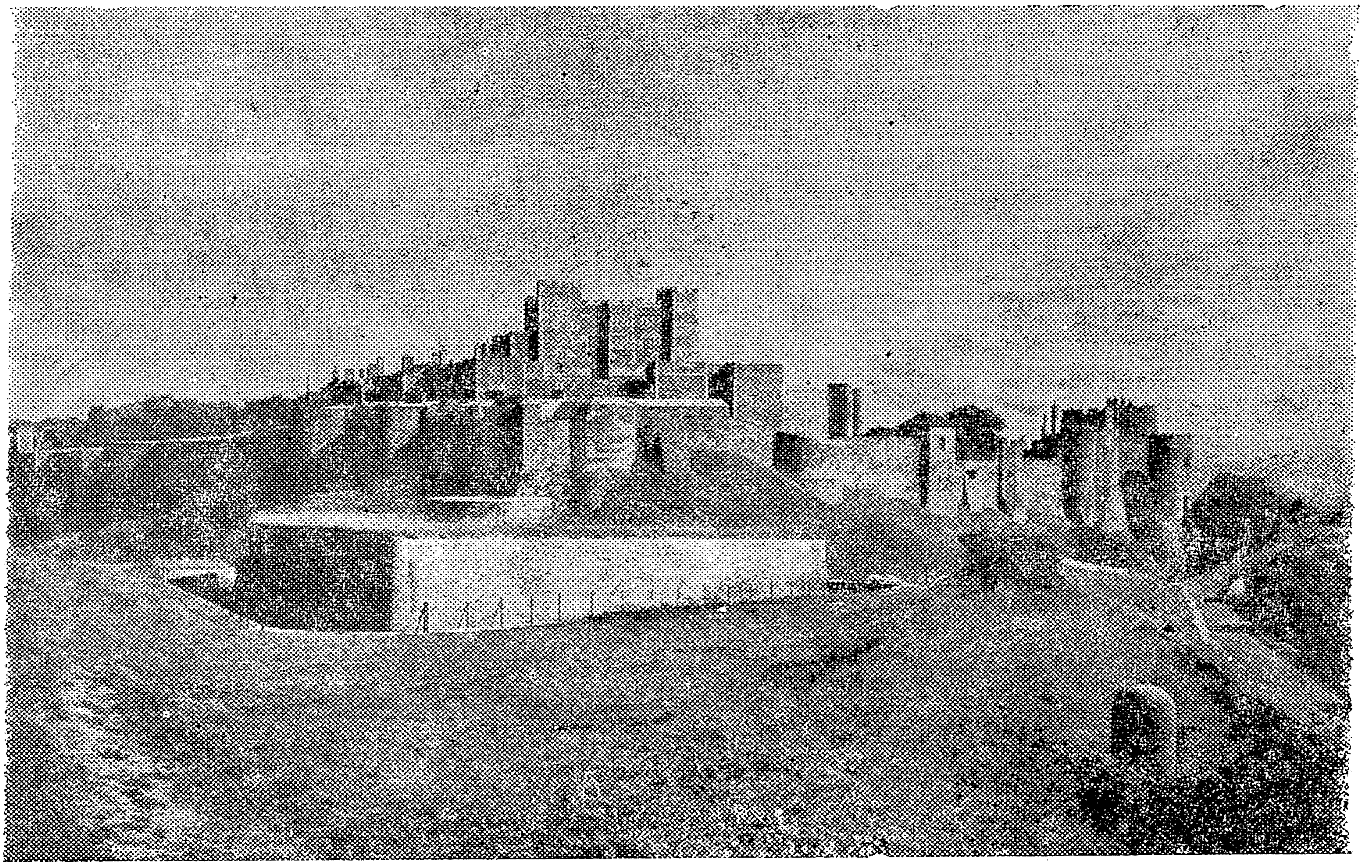

قلعة دوفر

برج لندن

ومنذ نهاية القرن الحادى عشر أصبحت القلاع الحجرية أكبر وأكثر تعقيداً ، وتعتبر قلعة تامورث مثالا للقلاع الحجرية الأولى التى كانت تعرف باسم (القلعة الصدفيه) ، وقد

بنيت فوق هضبة محاطة بسور دائرى ومزودة ببرج مربع الشكل فى جزءه الشرقى . وفى القرن الثانى عشر حل طراز آخر أكثر أحكاماً من القلاع ، وهو « الحصن المستطيل » محل « الطراز الصدفى » . وكان يبنى على أرض مستوية صلبة وليس فوق تل أو هضبة ، ومنها « برج لندن » الذى لايزال قائماً حتى الآن ، وقلعة كورف التى دافعت عنها ليدى بانكس وجنودها أكثر من ثلاث سنوات ضد جيش كرومويل وقذائفه عام ١٦٤٠

وكانت القلاع المستطيلة تبنى بطريقة غاية فى الضخامة مثل قلعة دوفر التي شيدت عام ١١٨٠ ، بحوائط إرتفاعها ٨٣ قدماً ومزودة بأبراج يرتفع كل منها ١٢ قدما أخرى ، والحوائط مقواة بدعامات (أكتاف) بسمك ٢٠ قدما ، وكان هناك ثلاثة أبراج أخرى لتدعيم المبنى الأمامى للقلعة . ويوجد قاعتين رئيسيتين كبيرتين فى الطابق الثالث ، وكنيستين صغيرتين فى الفناء الخلفى وبئر عمقه ٣٥٠ قدما حيث تنقل منه المياه إلى جميع القلعة خلال أنابيب من الرصاص .. وهذه القلاع المستطيلة كانت جوانبها معرضة دائماً للهجوم سواء من آلات تحطيم الأسوار (الكباش) أو بقصفها بقذائف المنجانيق ، فكان العدو يركز هجومه على جانب واحد فقط لأنه يعلم أن زوايا السور سوف تحميه من المدافعين على الأجناب الأخرى للقلعة المستطيلة وكانت هذه نقطة ضعف خطيرة ، أمكن التغلب عليها ببناء أسوار دائرية أو حوائط متعددة الزوايا وبذلك يمكن الحد نسبياً من هذا الخطر .

ومع منتصف القرن الثانى عشر تغير شكل القلعة ومثال لذلك قلعة هودان فى فرنسا والتى بنيت حوالى عام ١١٣٠ فكانت مربعة الشكل من الداخل أما أسوارها فكانت دائرية من الخارج مزودة بأربعة أبراج بارزة ومستديرة .

ويوجد فى السور الخارجى الدائرى فتحات محفورة وأيضاً فتحات أخرى فى الأبراج لإطلاق السهام ، وكانت هذه الفتحات أكثر فاعلية من الشرفات المفتوحة على أسوار الحصون ، لأن المدافعين عن القلعة كانوا يطلقون قذائفهم على العدو فى الخارج من هذه الفتحات فى نفس الوقت لا يستطيع العدو رؤيتهم مع توفير الحماية للمدافعين . وكانت هذه الفتحات فى طورها المبكر عبارة عن شقوق طويلة ، ولكنها أصبحت فيما بعد تحفر على شكل صليب لتتيح للرامى مجالا أفقياً أوسع .

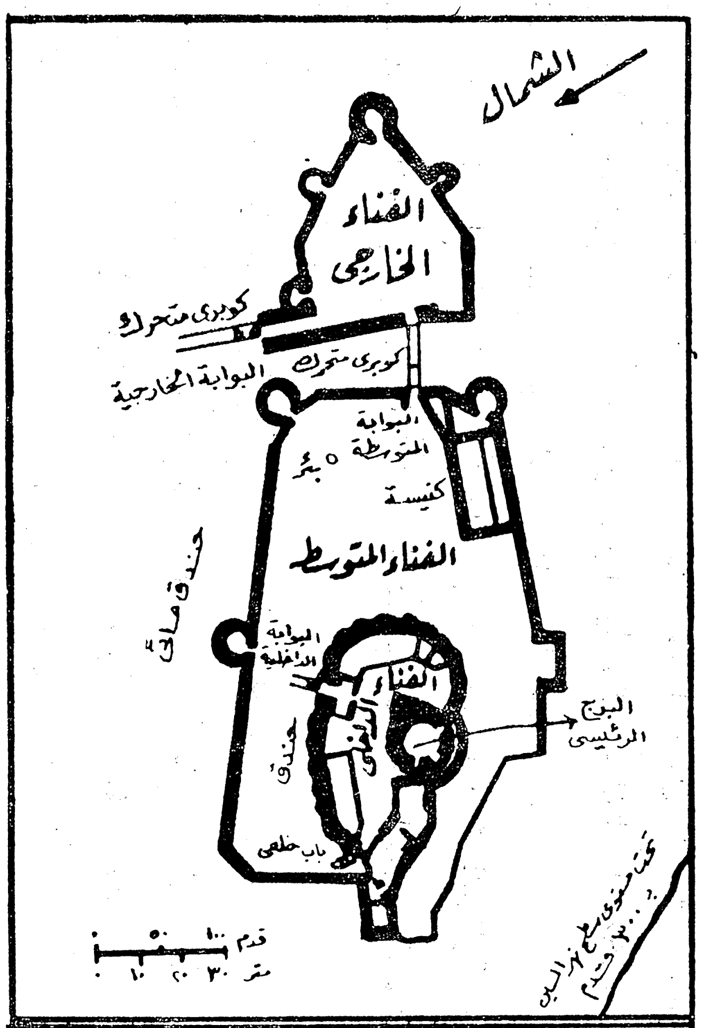

رسم تخطيطي
لقلعة شاتوجيلارد

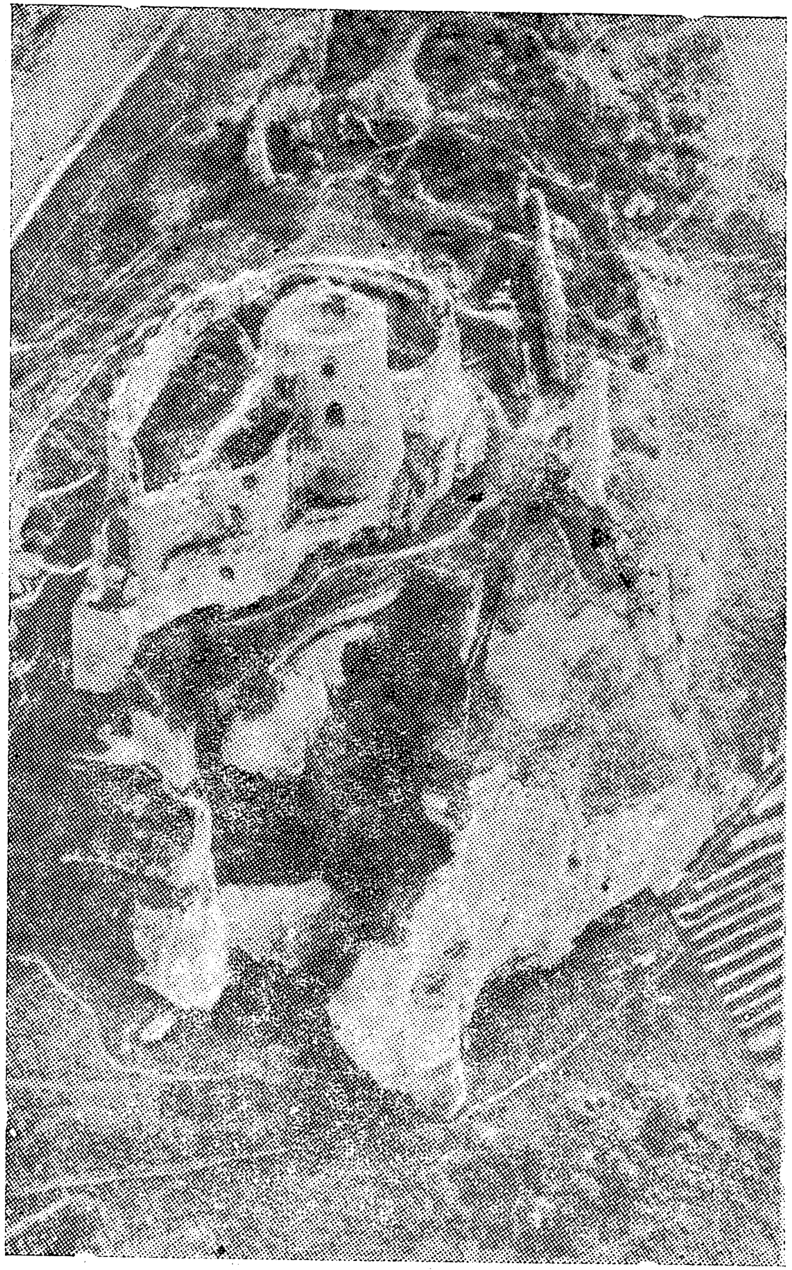

قلعة شاتوجيلارد

وفى نهاية القرن الثانى عشر ، إزدادت قوة كل من القوس وآلات قذف الحجارة ، وقام المهندسون العسكريون بالرد على ذلك ببناء ستار أضخم من الأسوار ومضاعفة المساحات التي تطوقها تلك الأسوار ، وتضاءلت بالتالى أهمية الحصون والإستحكامات ، ومثال لذلك قلعة « شاتوجيلارد » التى أكملها ريتشار الأول ملك إنجلترا عام ١١٩٨ والتى تضم جميع الخصائص المميزة لأفضل أساليب التحصينات لذلك العصر .

وقد أختيرت هضبة شديدة الأنحدار يبلغ إرتفاعها ٣٠٠ قدم فوق مستوى نهر السين لتشييد هذه القلعة وكان لها ثلاثة[1] أفنية متدرجة مع سفح الهضبة وأقيمت كلها فى الإتجاه المحتمل الهجوم منه .

كان الفناء الداخلى يحيط بالبرج الرئيسى المقام على أعلى حافة الهضبة ، ويطل جزء منه على المنحدر الشديد أما الجزء الآخر فيطل على الفناء الداخلى وكان هو الجزء الوحيد المعرض للهجوم ولذلك قوى بحائط سميك على شكل حرف ٧ مثل مقدمة السفينة حتى تنحرف القذائف بسبب الميل الحاد للجدران ، وكانت الدعامات المبنية تحت الأسوار تحمى المدافعين من أعمال الحفر التى يقوم بها العدو للوصول إلى داخل القلعة ، وكانت فتحات الرماة الموجودة فى السور يوجد أسفلها كوة لحماية السور من محاولة العدو تحطيمه وفى نفس الوقت يلقوا من عليها المدافعون بكتل القار الملتهب والقذائف فوق رؤوس المهاجمين أسفلهم . وكان يفصل بين الأفنية خندق مائى وحائط سائر ، وكانت الحوائط الساترة للفناء الخارجى والأوسط مدعمة بأبراج بارزة دائرية ، أما الفناء الداخلى فمزود بسلسلة متعاقبة من النتوءات البارزة ، والتى تؤدى وبطريقة أفضل نفس عمل الأبراج ، لأنها تمكن المدافعين من تغطية كل الأسطح خارج السور وفى جميع النقط .

النساء تأكلن أطفالهن

نجد أن معظم عمليات الحصار العديدة التى تمت فى العصور الوسطى لم تنجح ، باستثناء حصار فيليب أغسطس لقلعة « شاتوجيلارد » والإستيلاء عليها فى الفترة ١٢٠٣ — ١٢٠٤ ، وهذا المثال سيعطينا صورة واضحة لأساليب الحصار التى كانت تستخدم فى ذلك العصر ، وأنها تحتاج إلى عبقرية فذة لنجاح مثل هذه العمليات الضخمة .

وإذا ألقينا نظرة على أسلحة وأدوات وأساليب الحصار منذ سقوط الإمبراطورية

(١) كانت عبارة عن الفناء الخارجى والمتوسط والداخلى « المعرب »

الرومانية لوجدنا أنها بقيت كما هى وبدون تغيير جوهرى ، وأقصى ماوصلت إليه لم يتجاوز بعض المزيد من القوة ، وكانت تتمثل فى الكباش وأبراج الحصار[1] وسلالم التسلق والسقيفات[2] والساتر المتحرك[3] وآلات رمى القذائف ، وكانت هذه القذائف عبارة عن أحجار أوسهام « مزودة بريش فى مؤخرتها » أو أعمدة خشبية أو قذائف نارية أو حتى كتل الجيفة[4] . وكانت هذه الآلات يبدأ حجمها من المنجانيق الصغير الذى يصنع من جذوع الأشجار إلى قوس النشاب ، ولكن هناك شك كبير أن هذه الآلات فى العصور الوسطى كان لها نفس قوة وفاعلية الآلات الرومانية . وقد ظل أسلوب الإستيلاء على القلعة يتركز فى محاصرة وقصف الأسوار وأحداث المجاعة فى الداخل مع إستخدام أسلوب الخداع . وقد أثبت لنا التاريخ أن أسلوب أحداث المجاعة كان أقوى أسلحة الحصار . وسنأخذ مثالا لذلك حصار فيليب أغسطس لقلعة « شاتوجيلارد » الذى بدأ فى نهاية صيف عام ١٢٠٣ ، وكان الملك جون ، ملك دوقيه نورماندى الإنجليزية يعتبرها الدفاع الرئيسى له، وكانت خطة فيليب أن يضعف حامية القلعة أولا بواسطة المجاعة ، ولذلك قام جيشه بحفر خطين من الخنادق لعزل الحامية عن النهر ، كما شيد أبراجاً خشبية على مسافات متباعدة بين الخنادق ، وأدى هذا أن نشاط القلعة أخذ يقل ببطء وبعد مرور ثلاثة أشهر بدأت المؤن تنفذ من القلعة ، فأرسل قائدها « روجردى لاس » ١٤٠٠ أمرأة وطفل ورجل عاجز إلى خارج القلعة ، ولكن الفرنسيون رفضوا السماح لهم بالمرور فى نفس الوقت لم تستطع حامية القلعة أعادتهم إليها مرة أخرى خوفاً من الخديعة ، مما أدى أن هؤلاء المنكوبين أجبروا على قضاء شتاء قاسى بين القلعة وخطوط الفرنسيين ، بدون أى طعام أو مأوى ، فأضطروا إلى أكل كلابهم أولا وعندما نفذت الكلاب ، أكلوا أطفالهم .

وفى ربيع عام ١٢٠٤ بدأ فيليب هجومه الرئيسى على القلعة مستخدماً آلات ضخمة

---

(١) كان يطلق على الأبراج فى ذلك الوقت اسم « بيفرواس » .

(٢) كانت عبارة عن حجرة أعلى برج الحصار ومكتظة بالجنود .

(٣) حاجز وقائى متحرك يحتمى به الجنود الذين يحاصرون القلعة ضد القذائف المنهمرة عليهم ويطلق عليه « مانتليت » .

(٤) أجسام الحيوانات الميتة المتعفنة ويطلق عليها « كاريون » . « المعرب »

لرمى المقذوفات وأيضاً أبراج الحصار . وقوبل قصفه الأولى برد عنيف وبقذائف مماثلة من جانب المدافعين . وكان الأسلوب التكتيكى التى سيتبعه الفرنسيون بعد ذلك هو قصف وتدمير البرج البارز من الفناء المسور الخارجى وقد تم بنجاح ، وأندفعوا بعدة إلى الفناء المتوسط . وكان يوجد أمام الحائط لجانب القلعة الجنوبى بناء يحتوى على دورات المياه فى الطابق السفلى وفوقه كنيسة صغيرة ، وبعملية بحث على طول الخندق المائى عثر أحد الجنود الفرنسيين على نهاية المصرف الآتى من دورات المياه وزحف الجندى من خلال الأنبوبة ليخرج مباشرة تحت نافذة الكنيسة ، وبواسطة حبل أمكنه رفع بعض زملائه ، الذين إندفعوا إلى داخل الكنيسة وهم يصرخون عالياً ، وقد صعقت أفراد الحامية الضعيفة من هول المفاجأه ، ولم يبدوا سوى مقاومة ضئيلة ثم تراجعوا إلى الفناء المسور الداخلى . وبدأ الفرنسيون الآن فى تقويض حائط السور الأخير .

وردت الحاملة بإندفاعها نحو القوات الفرنسية حيث قاموا بطردهم إلى الخارج ، ولكن كانت قاعدة السور قد ضعفت الآن كثيراً . ، وما هى إلا بضع ضربات من المنجانيق القوى حتى تصدع السور وإندفع الفرنسيون من خلال الفجوة التى أنهارت من السور . وبعد قتال طويل ضار إستسلمت الحامية .

وبعد سقوط قلعة « شاتوجيلارد » أصبح من الممكن القول بأن الملك جون قد فقد نورماندى .

الحرب المقدسة

والآن فعلينا أن ندرس الحملات الصليبية ، ففى عام ١٠٧١ وبعد هزيمة البيزنطيين النكراء فى ملازكرت ناشد الإمبراطور الكسيوس الأول البابا مساعدة الغرب . ولكن حتى عام ١٠٩٥ لم يكن ممكناً للبابوية أن تستطيع تحويل إهتمامها بدرجة كافية عن نزاعها مع الإمبراطور الألمانى لكى تستجيب للامبراطور البيزنطى . . وفى ذلك العام دعا البابا أربان الثانى إلى إجتماع المجلس فى كليرمونت ووجه نداءه إلى أوروبا : — « لقد لحق العار بكل العالم المسيحى بعد إنتصار المسلمين فى الشرق ، وتدنست الأرض المقدسة العزيزة على كل قلوب المسيحيين والتى هى بحق ملك للمسيحية ، ومن الواجب انقاذ الأرض المقدسة

وأيضاً المدينة المقدسة بإزالة العار الذى لحق بالمسيحية ، وبالتالى ، فعلى الملوك المسيحيين أن يوجهوا أسلحتهم نحو هؤلاء أعداء الله بدلا من أن يشن الواحد منهم الحرب على الآخر كما يفعلون دائماً .. وعليهم الآن أن يضعوا جانباً تأنيب العالم المسيحى ويبدأوا فى تحطيم قوة الهجوم الإسلامى .. والحرب التى أدعوكم إليها هى حرب مقدسة ولتكن صرخة المعركة « تلك أرادة الله » وهؤلاء الذين يفقدون أرواحهم سينعمون بالجنة وستمحى عنهم جميع خطاياهم » .

وقد تقرر أن يبدأ الجيش المسيحى تحركه فى يوم رفع المسيح إلى السماء فى العام التالى تحت قيادة أدهمار أسقف لبوى ، ولكن لم توضع خطط مفصلة فالرب سوف يوفرها .

ولقد كانت هناك إستجابة هائلة لنداء البابا .. وفى عام ١٠٩٦ أرسلت فرقاً من جميع أنحاء أوروبا الغربية إلى الأراضى المقدسة عدا ألمانيا التى كانت غارقة فى حرب أهلية . وقادا كل من ريموند (كونت طولوز) وأدهمار أكبر قوة ، وخرجت من جنوب فرنسا .

بينما قادا كل من هوج[1] وروبرت[2] القوة المشتركة من شمال فرنسا . ومن منطقة الراين خرجت قوة ثالثة وقادها جدفرى (دوق اللورين الأدنى) وأخوه بالدوين ..

كما خرجت قوة رابعة من جنوب إيطاليا يقودها بوهمند (ابن روبرت جسكارد) ومعه ابن عمه تانكرد .

وفى أواخر ربيع عام ١٠٦٧ عبر البوسفور مابين ٢٥٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ جندى صليبى .

لقد كان هناك أسباباً عديدة للاستجابة إلى الحركة الصليبية ، فمنذ ١٠٠ سنة وربما

---

(١) كونت فرماندروز وشقيق ملك فرنسا .

(٢) دوق نورماندى ابن وليم الفاتح . «المعرب»

أ كثر أخذ تعداد السكان فى غرب أوروبا فى الإزدياد .. ولم يعد الإنتاج الزراعى قادراً على مسايرة ذلك الإزدياد ، ووصل القلق الناتج عن ذلك إلى ذروته بعد مجاعة عام ١٠٩٤ ، وأ كثر من ذلك فقد تحدد عدد قطع الأرض التى يمكن تقديمها كممتلكات إقطاعية . وزاد استياء وضيق الأبناء الشبان لطبقة النبلاء من هذا الموقف وأحسوا أنهم يريدون المغامرة للاستيلاء على أرض جديدة مع تطلعهم إلى حياة تمنحهم الإثارة بدلا من الملل الذى يعيشون فيه ، وتطوع الفلاحون أملا فى كسب حريتهم من العبودية المفروضة عليهم . ورأى الكثير من الآخرين ، وعلى الأخص تجار البندقية وجنوا فرصة سانحة لتحقيق الربح التجارى الذى سيأتى إما من تفكك الإمبراطورية البيزنطية أو من بيع الإمدادات للجيوش الصليبية .

ولكن الحافز الأول للأجيال الأولى للصليبيين كان بدون شك حافز الدين ، ولقد شهد القرن ١١ عودة الحياة إلى الرهبانية والبابوية والحج . وفى القرن ١٢ تغلغل هذا الحماس الدينى خلال السواد الأعظم من أهل أوروبا . وأوجد الشعور بأن أعداء المسيحية يدنسون الأرض التى شاهدت حياة المسيح حماساً متقداً للحرب الصليبية بالإضافة إلى أنها كانت فرصة للحج إلى الأراضى المقدسة .. وقد تبلور هذا الشعور فى الأنشودة والتى كانت رمزاً للحملة الصليبية الثانية .

« لقد حدد الرب لك يوماً تكون فيه عند الرها .. وهناك فلن ينجو من الخاطئين إلا من سيضرب بقوة ، ويخدمه حيث يطلب منه الخدمة » .

ولقد كانت طريقة القديس برنارد فى تجنيد المتطوعين الجدد هى أن يعظ فى صوت مدو قائلا « إنى أخبركم ... والرب يختبركم » .

ومنذ عهد شارلمان ازداد إرتباط الحروب الأوروبية بالعقيدة الدينية وتلوثها بالحيرة والشك .

وقد نشبت أ كثر من معركة فى عصر الكارولنيجيين فى جوغريب من الإثارة الدينية .

وقد عانى الدوق ويليام مصاعب جمة حتى حصل على موافقة البابا على غزوه لإنجلترا . كما حج هارولد قبل معركة هاستنجز إلى طريق ولتام المقدس ، وخلال المعركة نفسها ارتدى ويليام حول عنقه بعض عظام من رفات القديس بايو ، بينما قاتل أدو أسقف بايو مستخدماً مقرعة بدلا من السيف ، لأن من المفروض ألا يسفك القسس الدماء .

اللوحة رقم (١٧)
حدود الممالك العربية والصليبية والبيزنطية

الحملة الصليبية الأولى (أنظر اللوحة رقم ١٧)

لم تكن « معاهدة الرب » سوى محاولة تؤيدها الكنيسة من مدة طويلة لتنظيم والحد من أعمال السلب والنهب فى الحروب ولحماية النساء والفلاحين ورجال الدين والحجاج بالإضافة إلى المزارع والمبانى . وظهرت هذه المعاهدة فى أول الأمر فى جنوب فرنسا عام ٩٩٠ وكان يؤيدها نظام الرهبنة ذو النفوذ القوى . وفى عام ١٠٢٧ حرم المجمع الكنيسى فى إلن كل الحروب فى عطلات الأسبوع . وفى عام ١٠٤٢ أدخل ويليام تلك المعاهدة إلى نورماندى ثم حملها النورمانديون بدورهم إلى كثير من أجزاء أوروبا ، والتقط المجلس البابوى الفكرة ، وقرر بعد عدة إجتماعات وضع تنظيمات وتعليمات مفصلة ومتقنة . وعلى سبيل المثال فى القرن ١٢ قرر الذين قبلوا الهدنة عدم القتال فى ثلاثة أرباع العام وذلك خوفاً من أن تحرمهم الكنيسة من رضاها ولكنها لم تكن فى مجموعها سارية إلا فى المناطق التى للكنيسة سلطان عليها .

وعلى كل لم تكن هذه المعاهدة ذات تأثير واسع النطاق ، إلا عندما أصبح الملوك على درجة كافية من القوة لفرض مايقررونه هم فى سبيل السلام ، وبذلك أصبحت جهود الكنيسة ذات شأن عظيم .

وقد نجحت الحملة الصليبية الأولى ، بالرغم من عدم وجود علاقات طيبة مع البيزنطيين ولكن هذا النقص لم ييأسهم . وتقدم الصليبيون عبر آسيا الصغرى حيث قاسوا فى صبر وجلد هائلين عناء الجوع والعطش ، نتيجه لعدم كفاءة نظام الإمداد . وبعد هزيمة الأتراك عند دور دوريلايرم استولى الصليبيون على أنطاكية فى يونيه عام ١٠٩٨ وهناك أصيبوا بالدوسنطاريا كما حاصرهم الأتراك . وفى ذلك الموقف الحرج ترك القادة الصليبيون منازعاتهم وتناسوا منافساتهم واختاروا من بينهم قائداً عاماً للقوات الصليبية وهو بوهمند . وكما يقال ، فقد دب فيهم النشاط والحيوية وعادت إليهم القوة بأكتشاف الرمح المقدس (١) . وعلى

---

(١) يقال أن هذا الرمح الذى نفذ من جنب المسيح . « المعرب »

الفور خرجوا من حصارهم وهاجموا الأتراك يعاونهم القديس سان جورج وبعض القديسين الآخرين الممتطين جيادا بيضاء فأستطاعوا هزيمة الأتراك . وفى أوائل يناير ١٠٩٩ واصل الصليبيون تقدمهم نحو بيت المقدس . وفى يولية وبعد حصار دام خمسة أسابيع استولوا على المدينة ، وذبحوا جميع سكانها ، وبشكل عام لم يقابل الصليبيون حتى ذلك الوقت بمقاومة فعلية من المسلمين ، فقد كان من حسن حظهم أن أعدائهم المسلمين كانوا منقسمين على أنفسهم كما أنه فى ذلك الوقت ، كان خليفة مصر الفاطمى والذى يتبعه بيت المقدس ، يخشى أن يهاجمه الأتراك السلاجقة .

الرهبان المحاربين

وبعد أن أنهى الصليبيون مهمتهم بنجاح ، تحتم عليهم الدفاع عن الأراضى المقدسة ، ولكن الكثير من قادتهم ومعهم أتباعهم تركوا الجيش الصليبى الرئيسى ، وأعلن بوهمند نفسه أميراً على انطاكية ، بينما منح البعض الآخر أنفسهم لقب كونت وعينوا أنفسهم كونت للرها وطرابلس ، وفى عام ١١٠٠ أصبح بولدوين ملكا على القدس . وفى الحقيقة كانت هذه الولايات اللاتينية كما كانت تسمى ضعيفة وخاصة فى الدفاع عنها نتيجة لعودة الجزء الأكبر من الفرق الصليبية إلى بلادها بعد انتهائهم من حج بيت المقدس ، ووجد بولدوين نفسه مسئولا عن الدفاع عن بيت المقدس وليس معه سوى ٣٠٠ فارس فقط . ولم يجر تدعيم واستكمال الجيوش الصليبية بالمرتزقة إلا بعد الحملة الصليبية الثانية . وفى المراحل الأولى جرى شراء الدعم والمعاونة من الأسطول البندقى والجنوى للمحافظة على المدن الساحلية وإبقاء الإمداد مفتوحاً إليها . وقد زاد عدد الجيش الصليبى بعد إنشاء نظام الرهبان المحاربين ، وهم فرسان مستشفى القديس يوحنا (عام ١١١٣) وفرسان المعبد (عام ١١١٩) .

وقد أنشأ نظام فرسان المعبد[1] الفارس بورجندى « هيودى بايان » وقد تعهد بحماية الحجاج الذين أندفعوا أفواجاً إلى بيت المقدس .

---

(١) فرسان المسيح الفقراء ومعبد سليمان « المعرب »

وأقسم هؤلاء الفرسان على أنفسهم أن يعيشوا فى طهارة وفقر وطاعة طبقاً لتعاليم القديس بندكت ، وأن يقاتلوا بروح نقية . وعندما أيدهم القديس برنارد انضم إليهم سريعاً كثيراً من المتطوعين ، كما لاقوا مساندة رسمية من جميع أجزاء أوروبا . وهؤلاء هم الذين قدموا الأبطال المسيحيين الذين برزوا فى جميع المعارك الصليبية التى نشبت فى القرن ١٢ ، ولكنهم تزايدوا فى القرن ١٣ بدرجة كبيرة الأمر الذى أدى إلى تناقص شعبيتهم . وبناءاً على ذلك ، فى عام ١٣١٢ ألغى البابا كلمنت الخامس هذا النظام . أما الفرسان التيتنيون(١) فقد كتب لهم البقاء حتى القرن ١٩ .

القلاع الصليبية فى فلسطين (أنظر اللوحة رقم ١٧)

لقد تحتم على الصليبيين أستنباط استراتيجية تتلائم مع ما يعانونه من نقص فى القوة البشرية، ولذلك قرروا تجنب المعارك المفتوحة على قدر الإمكان والاعتماد على الحصون بدرجة فاقت اعتماد الغرب عليها . وقبل كل شيء كان من الواجب أولا إنشاء علاقات طيبة مع السكان المحليين . وكان هؤلاء معتادين تماماً على التغييرات المستمرة التى تتم فى حكامهم ، وبالتالى كانوا مستعدين لأن يكونوا رعايا مطيعين بالرغم من الاختلاف فى الدين . وكانت الولايات اللاتينية مشابهة لتلك التى أنشأها الغزاة النورمانديين فى انجلترا ، وهى حكم إقطاعى بواسطة أرستقراطية عسكرية ترتكز على القلاع . وتم اختيار كثير من أماكن القلاع الصليبية مثل تلك التى بنيت على الساحل ، لأغراض إدارية وإقتصادية واجتماعية أكثر منها لأسباب استراتيجية . ولم يكن هناك محاولة للدفاع بقوة عن الحدود على الجبال اللبنانية أو على نهر الأردن ، فقد كان معروفاً أن القلاع ما هى إلا مجرد قواعد أو ملاجيء للانسحاب إليها ، وليست مدن محصنة على الحدود لمنع تقدم العدو .

وفى الواقع ترك الطريق الجبلى من دمشق وعبر الأردن عند جنوب بحيرة طبرية بدون دفاع . ولكن قام الصليبيون أخيراً ببناء عدد كبير من القلاع على طول الحدود مثل كرك معاب وكرك الفرسان وبوفرت ومونت فيراند .

وخلال مدة خدمتى فى فلسطين عام ١٩٣١ ، ثم مرة أخرى عام ١٩٣٨ زرت العديد من مواقع القلاع الصليبية . وكم كان مثيراً أن هذه القلاع كانت الواحدة ترى التى تليها . وقد

(١) وهو نظام مشابه لفرسان المعبد وقد أنشأ عام ١١٩١ وكان نشاطهم الرئيسى فى شرق ألمانيا « المعرب »

استخدمت الإشارات المرئية للمواصلات ، ومن الواضح أن الرؤيا المتبادلة اعتبرت إحدى العوامل الهامة . وقد قرأت أن حصن الكرك عندما حاصره صلاح الدين عام ١١٨٣ كانت الحامية تتصل ليلا بالإشارات النارية عبر البحر الميت مع برج الملك داود فى بيت المقدس ، أى على مسافة ٥٠ ميلا ، كما استخدم الحمام الزاجل فى حمل الرسائل بين القلاع .

أما قلعة حصن كرك الفرسان والتى آلت إلى فرسان المستشفى بعد عام ١١٤٢ ، فكانت من أروع القلاع تحصيناً ، فقد كانت شاذة فى حجمها وقوتها وكتب عنها سيدنى توى قائلا : « يقع الحصن فوق تل حاد الميل من جهة الشرق ، والغرب والشمال ، بينما يتدرج الميل فى الجانب الجنوبى ، وأحيط الحصن بخندق مائى ثم أحيط بخطين من الأسوار القوية المزودة بالأبراج ، وطوقت الأسوار جناحين من المبانى بينما يسير الجناح الداخلى مع الارتفاع الحاد للتل ولذلك فهو أعلى كثيراً من الجناح الخارجى . وتسيطر الأبراج والشرفات على كل التحصينات » .

صلاح الدين يوحد مصر وسوريا

(أنظر اللوحة رقم ١٧)

إذا ألقينا نظرة على نجاح الصليبيين فى أول الأمر ، لنجد أنه راجعاً إلى تفكك العرب أكثر من رجوعه إلى شجاعة وإيمان الصليبيين . وفى عام ١١٢٧ بدأ الفشل يحيق بالصليبيين عندما خرج « عماد الدين زنكى » لتوسيع قوته فى سوريا مستوليا على الرها عام ١١٤٤ .

وقد كانت كارثة وصل مداها إلى الغرب ، فقام كل من لويس السابع ملك فرنسا والإمبراطور كونراد الثالث بالاستجابة لنداء القديس برنارد عام ١١٤٧ للقيام بحملة صليبية ثانية ، وقد فشلت تماما هذه الحملة . ويرجع ذلك لعدم إقتناع الصليبيون الجدد بنظام الولايات اللاتينية الدينى المتسامح علاوة على الاختلاف بين القادمين والمستوطنين على استراتيجية الحملة . فقد حث الصليبيون المستوطنين على الهجوم على « نور الدين » خليفة عماد الدين زنكى والذين رأوا فى قوته المتصاعدة خطراً جسيما . ولكن صليبيوا الحملة الثانية اقترحوا مهاجمة دمشق بالرغم من أن أميرها كان يتخذ موقفاً ودياً مع الولايات اللاتينية وعلى عداء

فى نفس الوقت مع نور الدين.

وفى النهاية نفذ الهجوم على دمشق بقوات ضعيفة مما أدى إلى فشله . وبعد هذا عادت معظم قوات الحملة الثانية إلى بلادها وعاد نور الدين مرة أخرى إلى أعماله الهجومية .

وفى عام ١١٥٤ استولى على دمشق ، وفى ١١٦٩ تحققت له السيطرة على مصر . وقد فشل الصليبيون فى تقدير الأهمية الاستراتيجية فى السيطرة على مركز المواصلات الصحراوية الممتدة شمالا وجنوباً فى شرق الأردن ، وهذا كان سيؤدى إلى منع توحيد قوى مصر وسوريا .

وفى عام ١١٧٤ أصبح صلاح الدين بعد موت نور الدين ملكا على مصر وسوريا . لقد كان صلاح الدين حاكما قديراً للغاية ومسلماً تقيا واستراتيجياً بارعاً ، فقد قام ببناء قوته العسكرية تلقائياً فى نظام وترتيب سليمين . وأعد شعبه للحرب المقدسة بتوجيه المواعظ الدينية القديرة . ومن هنا أصبح الصليبيون يواجهون تهديداً حقيقياً وخطراً أكثر من أى وقت مضى ، لأن أعداءهم فى الشمال والجنوب أصبحوا يعملون بخطة مشتركة ، كما تعرضت خطوط الإمداد الصليبية للخطر من أسطول صلاح الدين المصرى .

وفى تلك المحنة بدلا من أن يوحد الصليبيون صفوفهم ، بدأت قادتهم فى النزاع والتشاحن وخاصة ريموند (كونت طرابلس) وريجنولد (أمير قلعة الكرك) الذى وصل تشاحنهما إلى أقصى مدى ، علاوة على بعض العداءات الصغيرة بين صفوف الصليبيين . وعلى كل لم يبدأ صلاح الدين هجومه إلا فى عام ١١٨٧ عندما أثاره ريجنولد بنهبه لإحدى قوافل المسلمين ، وعندئذ زحف صلاح الدين عبر الأردن مدمراً قوة من الفرسان قوتها ١٣٠ فارساً، وكانت تضم صفوة فرسان المعبد ، ثم قام بعدها بحصار طبرية ، وأثار ذلك كل من ريجنولد وجاى دى لوزينان اللذان حثا الصليبيين على الزحف لتحرير القلعة المحاصرة . أما ريموند فقد اعترض قائلا بأن مثل هذا الزحف لن يؤدى إلا إلى السقوط فى فخ صلاح الدين ، لأن الصليبيين سيكونون أقل عدداً من أعدائهم بالإضافة إلى أن هذا الوقت هو أحر وقت فى السنة،

وسيعانون كثيراً من نقص المياه . وكان ريموند يفضل بقاء الصليبيين فى موقف دفاعى حتى تصبح ظروفهم ملائمة وفى ذلك الوقت يقوموا بالهجوم ، ولكن أهملت نصيحته الحكيمة . وفى ٣ يوليه عام ١١٨٧ قاد جاى دى لوزينان القوات الصليبية إلى أعظم كارثة وذلك فى معركة حطين .

الانسحاب المخادع

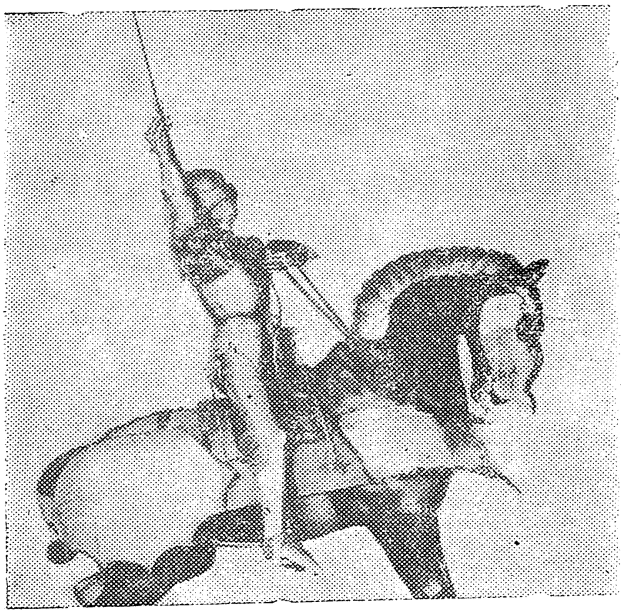

الفارس المدرع

لقد ذكرنا قبل ذلك أن النقص فى القوة البشرية عند الصليبيين أملى عليهم استراتيجيتهم كما كانت الفرنسان تمثل العمود الفقرى لقواتهم سواء منهم النزلاء الإقطاعيين أو أعضاء المنظمات الدينية العسكرية ، ونتيجة للنقص فى الفرسان تم استكمالهم بقوات من المرتزقة أو من المسلمين المرتدين عن دينهم . وقد تطور كفاءة فرسان القرن ١٢ إلى حدما منذ عام ١٠٦٦ ، وأصبحت دروعهم أكثر إحكاماً وإتقاناً ، ووصلت القمصان المعدنية حتى الركبة ، كما أن أطراف الجسم أى الأيدى والأرجل ، أصبحت تحميها قطع من الدروع على شكل شبكة ، كما أصبحت القلنسوة المعدنية ضيقة لحماية الرقبة . كما أن الخوذات المخروطية الشكل قد حلت محلها الخوذات الضخمة على شكل القدور وكانت هذه الخوذة على شكل أسطوانة حديدية مسطحة من أعلاها . وغطت الخوذة كل رأس الفارس مع وجود فتحات لتمكين الرؤية والتنفس . أما حصان الفارس فكان من فصيلة خاصة يطلق عليه اسم « ديستربيه » ويحميه أيضاً رداء معدنى أو قماش سميك يشبه الألحفة ، كما زاد طول الرمح زيادة طفيفة .

وإذا نظرنا إلى القوة الضاربة الرئيسية للقوات الصليبية لوجدنا أنها تتمثل فى صدمة هجوم الفرسان الثقيلة بالرغم من أن هجوم الفرسان الثقيلة كان لا يزال يجمع بين عدة هجمات فردية ولم يتطور بعد إلى الهجوم فى حشد .

أما جنود المشاة فكانوا يقومون بأعمال المعسكر والحصار . وأهم مجموعات المشاة كانت مجموعة رماة السهام وخاصة حملة النشاب المرتزقة من شمال إيطاليا .

أما القوة الرئيسية فى الجيوش الإسلامية فتمثلت فى رماة السهام الراكبة وكانوا أخف تجهيزاً من الفرسان الصليبية بالإضافة أن خيول المسلمين كانت أسرع وأسهل فى الاستخدام وكان الرامى الراكب بجانب قوسه يحمل درعاً صغيراً مستديراً ورمحاً قصيراً وسيفاً وهراوة .

وكانت المشكلة الرئيسية لدى المسلمين هى عدم وحدة القيادة ، وعلى سبيل المثال فشل الأمراء والقادة المسلمون فى عام ١١٠٤ فى استغلال نصرهم عند أران نتيجة لتشاجرهم على الأسلوب مع تناحرهم على غنائم المعركة . وقد كان صلاح الدين هو القائد الأول بدون جدال لقوات المسلمين .

وكان المسلمون يقومون عادة بالمبادأة بالهجوم التكتيكى مستغلين تفوقهم وخفة حركة فرسانهم الخفيفة وأثناء تقدم الصليبيين كان المسلمون يرهقونهم بالهجمات المتكررة ، وعند الالتحام بهم فى المعركه يطوقونهم من كل جانب .

وكما ذكرنا قبل ذلك أرتكزت القوة الهجومية الصليبية على الفرسان الثقيلة ولذلك استخدم المسلمون تكتيكات المراوغة ليتجنبوا التعرض لصدمة الخيالة الثقيلة وأيضاً لتفتيت تماسك عدوهم . وشملت هذه التكتيكات اتخاذ التشكيلات المفتوحة والمرنة غير المنظمة مع المحافظة على البقاء على مسافة معينة من العدو تمكنهم من القيام بهجوم مفاجىء فى اللحظة المناسبة . وكانوا يقومون بعمليات إنسحاب خداعية ، وفى بعض الأحيان كانوا ينسحبون لايام وذلك بغرض جذب الصليبيين فى النهاية إلى الأراضى الوعرة والضيقة لاستنزافهم وإرهاقهم ثم ينقضون عليهم بعد ذلك .

وقد حدث مثل هذا ضد قوات لويس السابع أثناء تقدمه فى أسيا الصغرى ، فقد نصب المسلمون الكمائن مع القيام بأعمال القناصة طوال تقدمه .

ولما كانت أقواسهم ليست قوية بدرجة كافية تمكنها من اختراق دروع العدو فكانوا عادة يوجهونها إلى خيل العدو .

أما التكتيكات الصليبية والتى وضعها وطور معظمها بوهمند خلال الحملة الصليبية الأولى

فقد كانت فى مجموعها تكتيكات دفاعية ، وقد صممت للرد على تكتيكات المسلمين . وقادت الأفكار العسكرية والتجارب البيزنطية إلى تغييرات معينة فى التكتيكات الفطرية الغربية ، وعلى سبيل المثال فقد روعى الحرص واليقظة أثناء المسيرات والحذر والاهتمام أثناء التقدم والفتح للمعركة لتجنب التطويق أو المفاجأة فأصبحت القوة الصليبية تتحرك مع وجود حرس قوى على الأجناب والمؤخرة ، ويتكون من رماة السهام الذين يقومون بتغطية صفوف الفرسان حتى يحين اللحظة المناسبة لينطلق هؤلاء الفرسان بهجومهم .

وتكتيكات المضايقة التى اتبعها المسلمون كانت من أبغض ماعانى منه الصليبيون ، ولكن لم يكن من السهل كبح الفرسان الصليبية من القيام بعمليات فردية متهورة ، وكان منع ذلك ضرورياً ، لذلك وضع فرسان المعبد عقوبات قاسية على أى فارس يترك الصفوف بدون أوامر . وبالرغم من ذلك لم يستطع ريتشارد قلب الأسد أبان الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٩١ فى معركة أرسوف من منع فرسان المستشفى من الهجوم قبل الأوان . وعادة كان الصليبيون ينجحون عندما يكون النظام مستتباً مع وجود تنسيق وتعاون بين المشاة والفرسان . ولكن بصفة عامة كانوا يتحاشون خوض المعارك المفتوحة التى كان عددهم فيها أقل من عدد عدوهم .

وعلى أى حال ، فكان المسلمون عادة يوقفون حملاتهم فى بداية الشتاء ولذلك كان هناك بعض الأمل فى إمكان دفعهم بعيداً . ومع ذلك فقد كان من الأمور السيئة للروح المعنوية السماح للمسلمين باكتساح المناطق المحيطة بالحصون الصليبية .

معركة حطين

وبعد قرن من التجربة طور الصليبيون أخيراً مبدأ سليما للحرب ضد المسلمين . ولكن فى معركة حطين ألقى جاى دى لوزينان بالخبرة والعقل السليم جانباً ، لكى يقوم بإنشاء جيش يتكون من ١٢٠٠ فارس و ٢٠٠٠ فارس محلى خفيف ، و١٠٫٠٠٠ من المشاة ، فقام بتجريد جميع الحصون من قواتها الرئيسية وبذلك ترك قوات قليلة وضعيفة بالحصون ، كما أهمل الاستراتيجية المتبعة فى تجنب المعارك المفتوحة والبقاء بالقرب من الحصون . وقاد

جاى جيشه إلى تلال جبل الجليل الجرداء والتى ينعدم فيها الماء حيث قبع صلاح الدين ومعه ٢٠٫٠٠٠ رجل .

وعندما أبلغ صلاح الدين عن تقدم جيش جاى ، أرسل إليه وحدات خفيفة مهمتها مناوشة العدو والبدء فى مضايقته وإنهاكه .

وبدأت أولى الهجمات الإسلامية فى قيظ النهار . وبعد قليل أصاب الصليبيون الظمأ بعد أن فقدوا جميع الماء الذى يحملونه ، وأصابهم التعب ولذلك فقدوا تماسكهم ، وبدأت طليعة جيشهم تتقدم ببطء وضعف ، ولكن القوة الرئيسية للجيش الصليبى قد فقدت الترتيب المتماسك الهام لنظام السير . وأخيراً أصبح حرس المؤخرة ومعظم قوات المنتصف محاصرين بجحافل من حملة الأقواس المسلمين . فى ذلك الوقت كانت القوة الرئيسية للجيش الصليبى[١] قد أصبحت منهكة وعسكروا على ميول أحد التلال والذى يوجد على قمته نتوئين ويعرف هذا التل بإسم « قرون حطين » وهناك قضوا ليلة لم يتذوقوا فيها طعم النوم علاوة على عدم وجود ماء لهم أو لخيولهم .

فقد استمر المسلمون فى قصفهم بوابل من السهام ، مع الاستمرار فى مضايقة أعصابهم بالقيام بالسخرية منهم بصوت عالى مع إشعال النيران فى الأعشاب والأشجار الصغيرة المحيطة بهم مما زاد الدخان الخانق من متاعب الصليبيين .

وفى الصباح كان لا يزال صلاح الدين رافضاً الاشتباك مع الصليبيين ، واستمر رماته[٢] فى أمطار العدو وبدون توقف . وفى حالة اليأس وبتفكير طائش قرر جاى ، كمحاولة لوضع نهاية للعذاب الذى يقاسيه مشاته ، أن يطلق فرسانه فى هجوم على المسلمين ، ولكن لم يتحقق من هذا الهجوم أى شىء . وعندما تفهمت قوانه الموقف على حقيقته بدأ الفزع يتطرق لبعض الجنود ، وبدأت بعض المشاة الصليبية القيام بتصرفات مذعورة ، ولكن جاى أوقف ذلك الإنهيار برفعه عاليا صليب الولاء ، وقام الفرسان بمعاودة الهجوم وبدا لفترة وكأن المسلمين

---

(١) وهم فرسان المعبد والمسلمين المرتدين . « المعرب »

(٢) وصل لرماة المسلمين ٧٠ جملا محملة بالسهام كأمداد لهم . « المعرب »

يواجهون المتاعب ، ولكن فرسانهم تدخلت واشتبكت فى القتال بعد حصارها للفرسان وتجمعت الفرسان الصليبية المطوقة حول صليب الولاء فى ذلك الوقت قام المسلمون بتوجيه الضربة القاتلة . وقام ريموند مع بعض الفرسان الذين لم تجرح خيولهم بهجوم يائس لفتح طريق للهروب خلال قوات المسلمين . ولكنهم وقعوا فى قبضة المسلمين وأيضا صليب الولاء .

اختطاف ريتشارد قلب الأسد

وحتى الآن فكل ما حققه صلاح الدين هو تدمير القوات الصليبية .

وفى نهاية ١١٨٧ كانت كل مملكة بيت المقدس تقريباً فى يده . . وسقطت المدينة نفسها فى أكتوبر من ذلك العام ، وعومل سكانها معاملة غاية فى الرحمة . أما فى الغرب ، فقد ارتفعت فوراً النداءات بحملة صليبية فورية ولقيت تلك النداءات بعض النجاح وفعلا خرج الإمبراطور فردريك باربروسا من ألمانيا عام ١١٨٩ ولكن المسلمون قضوا على معظم جيشه فى آسيا الصغرى .

أما فيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا فقد وصلا إلى الأراضى المقدسة وأعاد ريتشارد الإستيلاء على عكا ويافا ولكنه اضطر للعودة قبل بيت المقدس . ويوضح الشجار المستمر بين زعماء الصليبيين درجة الإنحطاط والإنحلال التى حدثت فى الفكرة الصليبية . . . هذا بالإضافة إلى تصرف الإمبراطور هنرى الذى خطف ريتشارد وهو فى طريق عودته إلى بلاده والاحتفاظ به كرهينة للحصول على الفدية . وأيضاً فى عمل فيليب الذى انتهز فرصة غياب ريتشارد وأغار على نورماندى . ولكن فى النهاية كانت عقلية البندقية التجارية والتى تستهدف الربح فقط ، هى التى منعت الصليبيين من التقدم أبعد من القسطنطينية .

حتى أنه فى إبريل عام ١٢٠٤ نسى بلدوين الغرض الأساسى من دخوله القسطنطينية وقام بدلا من ذلك بالإستيلاء على العرش وتنصيب نفسه إمبراطوراً .

ولقد كانت هناك حملات صليبية أخرى فى القرن ١٣ ، كما استرد المسيحيون بيت

المقدس ولكن لفترة قصيرة .وفى الواقع أحيا القديس لويس ملك فرنسا (١٢٢٦ـــ١٢٧٠) الأفكار السامية للحركة الصليبية بالرغم مما يقوم به الآخرون أمثال الأمبراطور فردريك الثانى وسيمون دى مونتفرت من عدم احترام هذه الأهداف والتقليل من قيمتها أكثر من أى وقت مضى . ولكن القصة معقدة ومتشابكة وتاريخها العسكرى لا يقدم إلا فائدة إضافية قليلة . أما التطورات الحقيقية والهامة فكانت تأخذ مجراها فى ذلك الوقت فى الغرب .

الفصل التاسع

حروب أواخر العصور الوسطى

حرب المائة عام

كانت الحروب خلال أواخر العصور الوسطى فيما بين معركة بوفين (١٢١٤) ومرات (١٤٧٦) هي القاعدة السائدة فى جميع أنحاء أوروبا تقريباً . ولذلك تعتبر هذه الفترة ذات أهمية وفائدة خاصة وذات طابع مثير . فقد تلى تحلل وسقوط الإمبراطورية الرومانية المقدسة قيام صراع فى القرن ١٣ بين البابوية وأسرة هوهنستاوفن الإمبراطورية ، ثم حروب الاستقلال السويسرية والتى خاضتها عصبة مقاطعات أقاليم الغابات الثلاث بعد عام ١٢٩١ . وأيضاً حروب البوهميين[١] والهسيين والتى دارت بين عامى ١٤١٩ و ١٤٣٦ وتوحيد قوة الدولة الإنجليزية بعد قيام إدوارد الأول بفتح ويلز (١٢٧٧ — ١٢٩٥) بالرغم من فشل المحاولة الإنجليزية لفتح اسكتلندا (١٢٩٦ ــ ١٣٢٨) . وأخيرا جاء الصدام الكبير بين فرنسا وانجلترا ، وقد عرفت أعمال الغزو الإنجليزى التى حدثت بين عامى ١٣٣٧ ــ ١٤٥٣ بإسم حرب المائة عام .

ولقد كان التأثير السياسى النهائى لكل هذه الحروب هو بقاء ألمانيا فى حالة أكثر تفككا مع فقدان روما للكثير من نفوذها المعنوى والدينى بينما عبرت انجلترا وفرنسا إلى مابعد مرحلة الإقطاع التى كانت تميز مجتمع العصور الوسطى لكى تصبحا من الدول القومية[٢] الرائدة فى أوروبا .

ومن وجهة النظر العسكرية كانت هذه الحروب على جانب عظيم من الأهمية ، لأن المائة عام ما بين ١٢٥٠ و ١٣٥٠ كانت حقبة ثورية فى تاريخ فن الحرب . فقد ترك كل من

---

(١) الاسم مشتق من بوهيميا أى انتسابهم إليها .

(٢) وهى الدولة المكونة من قومية واحدة لا قوميات متعددة . «المعرب»

الفارس ونظام الإقطاع أما كنهما لرجل المشاة والأسلحة النارية ونظام الاحتراف . وأصبح واضحاً من الناحية الاستراتيجية إمكان كسب المعارك الدفاعية بالأسلحة المتوفرة بشرط إغراء العدو على الهجوم ، ولكن لتحقيق النصر فى الحملات كان العمل الهجومى ضرورياً . أما من الناحية التكتيكية فقد انتقلت السيادة إلى أسلحة القذف الجديدة والتى أصبحت هى العامل الحاسم فى المعركة بدلا من الصدمة .

وفى آخر الأمر كان المدفع سيثبت أنه أقوى آلة حربية للسنوات الـ ٦٠٠ التالية . وبالرغم من أن المدفعية كانت فى بداية القرن ١٥ مؤثرة إلا أن القادة لم يشعروا لمدة طويلة بالتأثير الكامل للأسلحة النارية ، وقد تركز الاهتمام فى هذه الفترة على التطور الثورى للمشاة ، وذلك بانتزاع كل من رماة السهام وحملة الرماح من المشاة السيادة على ميدان المعركة من الفرسان الثقيلة التى ظلت تسود الميدان لمدة ١٠٠٠ عام .

لقد أكدت معركة هاستنجز السيادة المطلقة للفرسان الثقيلة والتى كانت قد بدأت منذ معركة أدرنه عام ٣٧٨ .

وأصبحت المشاة سلاحاً محتقراً بين القادة . . ولم يدرك أى قائد فى أوروبا الغربية قبل منتصف القرن ١٣ الدروس المستفادة من الحملات الصليبية والتى أظهرت أن المجموعة التكتيكية المكونة من المشاة والفرسان والتى تم تنسيق عملهما سويا بمهارة لهو أعظم بكثير من أن يعمل كل منهما منفصلا ، وعلى كل حتي ذلك الوقت كان هناك بعض عناصر المشاة المحنكة والمحترفة فى الأراضى الواطئة وفى شمال إيطاليا . ومن الجدير بالذكر أن ويليام استخدم فى معركة هاستنجز حملة الرماح الفلاندريين واستخدمهم أيضاً فيليب أغسطس فى معركة بوفين عام ١٢١٤ ، واستمر حملة الرماح الفلاندريين فى كسب المعارك خلال القرن ١٣ . وعلى أى حال ، فى ذلك الوقت حل محلهم حملة النشاب من مدن إيطاليا الشمالية وخاصة من جنوا .

وارتدى الجنويون[1] قلنسوة من الصلب وسترة معدنية للوقاية ، واستمر سلاحهم

---

(١) نسبة إلى جنوا .

(النشاب) فى التطور المستمر حتى نهاية القرن ١٥ ، وعموما فقد استمر النشاب[١] عبارة عن صورة مصغرة للمنجانيق . وقد كان سلاحاً ثقيلا بطيئاً فى التشغيل ولا يعمل فى الطقس الممطر ، ولكن كان له بعض المزايا ، فكان دقيقاً حتى مسافة ١٠٠ ياردة كما يمكن استخدامه بواسطة رجال قليلوا التدريب نسبيا وفى نفس الوقت لا يحتاج لاستخدامه إلى رجل ذى قوة كبيرة مثل القوس الطويل وعموما كان النشاب سلاحاً جيداً وخاصة فى أعمال الدفاع من وراء فتحات الرمى فى الأسوار .

انهيار نظام التجنيد الاقطاعى

وقد تواجدت على مر العصور وحدات ممتازة من المشاة ، ولكن فى العادة لم يحسن استخدامها ، وعلى كل لم تستخدم المشاة فى معظم المعارك الهامة التى حدثت فى القرن ١٣ مثل معركة مارشفيلد[٢] عام ١٢٧٨ ولكن كانت هناك حالات أخرى كان يستخدم فيها طرف واحد من المتحاربين المشاة مثل معركة ليناو عام ١١٧٦ . وبصفة عامة كان المجندون المشاة من الفلاحين الجهلة قليلى الخبرة ولذلك استخدموا فى الأعمال الحقيرة أو كان أقصى ما يمكن استخدامهم فى أعمال المناوشة كما حدث فى معركة بنفنتو عام ١٢٦٦ . ومن الطبيعى إذا قارنا المشاة بالفرسان لوجدنا أنها تفتقر بوضوح إلى خفة الحركة . ولكن من الغريب أن معظم القادة لم يدركوا مقدرة المشاة الدفاعية بالرغم من أن رمح المشاة كان أطول من رمح الخيالة بالإضافة إلى خوف الخيل من السهام .

ففى عام ١٢٣٧ فى معركة كورتينوفا تمكنت وحدات من مشاة حلف شمال إيطاليا المحتشدة معاً من الثبات بعناد وضد الهجوم المفاجىء لفرسان فردريك الثانى الذين لم يتمكنوا من الإنسحاب إلا تحت ستر الظلام .

وعبر التاريخ ، فقد كانت تظهر أحياناً قدرات تكتيكية ممتازة للمشاة ، ومثال جيد

---

(١) يتكون من قوس قوى صغير مركب بالعرض على نهاية جذع شجرة ، وقد صنع القوس فى النهاية من الصلب ، ويجذب إما بواسطة وتر وبكرة أو بعامود له زناد بسيط ، ومن هذا القوس ينطلق سهم قصير مربع من الخشب برأس حديدية ومزود عند نهايته بريش جلدية .

(٢) المعركة التى انتصر فيها رودلف حاكم هاسبورج وأوجد بها السلطة لعائلته فى الداوب والتى استمرت حتى عام ١٩١٨ . «المعرب»

مرة أخرى معركة ليبانو عام ١١٧٦ عندما أعطت المشاة الميلانية بثباتها الفرصة للفرسان اللومباردية لتتجمع وتلحق الهزيمة بصفوة فرسان جيش باربروسا .

وإذا نظرنا إلى الفرسان الثقيلة فسنجد أنهم انقسموا إلى رتبتين الفارس والرقباء(١) .

وفى القرن ١٣ كان الرقباء يركبون خيلاً أخف ويرتدون دروعاً أقل من الفارس ولكن فى القرن ١٤ وحدت المعدات والتجهيزات وأصبحت التفرقة فى المصطلح الفنى أمراً اجتماعيا محضاً ، كما أصبح جميع الرجال مجهزين بكل مايمكن أن يجهز به الفارس الثقيل ، وأصبحوا جميعاً طبقة تستخدم للأغراض العسكرية وأطلق عليهم « الفرسان المدججين بالسلاح » . واستمرت الدروع فى تطور مستمر .

وفى عام ١٢٠٠ أفسحت الخوذة المخروطية الشكل الطريق لظهور الخوذة التى تغطى الرأس بالكامل الشبيهة بالقدروالتى أضيف إليها جزء متحرك أمامى لتغطية الوجه عام ١٣٠٠ كما استكملت السترة المعدنية الطويلة بمعطف يرتدية الفارس فوق دروعه وأيضاً بثوب محشو سمى « الجمبوز » وبالنسبة للجنود الفقراء فكانوا يرتدون الجمبوز فقط بدون درع معدنى .

وفى هذا الوقت أصبحت الدروع أكثر ليناً ورقة وملاءمة للجسم ، وقد سبق أن ذكرنا أن درع الصدر كان منشأه القرن الرابع ولكن فى عام ١٢٥٠ بدأ الرجال فى تطوير الدروع المعدنية وذلك بأن أضافوا إليها وقايات للركبة والذقن ومرفق الذراع ، ثم بعد ذلك ظهرت الحلة المصفحة الكاملة والتى كانت لاتقاوم حتى لاحظ الفرنسيون فى معركة بنفيتو وجود ١٢٠٠ فارس ألمانى مزودين بالحلة المصفحة وكان زحف هؤلاء لا يقاوم إلا أنهم وجهوا طعنات سيفهم المستقيمة إلى الجزء الذى لا يغطية الدروع وهو الأبط . وقد استخدمت الفرسان الخفيفة مثل البانزراتى الألمانية والهوبيلار الإنجليزية فى المناوشات والاستطلاع فقط ، ولم يكن لها أبداً أى دور رئيسى فى تكتيكات العصور الوسطى .

---

(١) كانوا فى الواقع أتباع وحاشية البارونات والأساقفة ورؤساء الأديرة . « المعرب »

وفى القرن ١٣ كان جيش الفرسان لا يزال يعتمد فى تحقيق النصر على عاملين هما ثقل وزن دروع الفارس وقوته الجسمانية . فكانت مجموعات الفرسان تندفع نحو العدو بقوة مع ضربه بقسوة بالسيوف أو الفئوس الضخمة . واتبع بعض القادة تكتيكا مختلفاً بتقسيم فرسانهم إلى ثلاث فرق ويتوقف النجاح على التوقيت الذى يندفع فيه كل فرقة للهجوم فى أثر السابقة لها .

ومن الأمثلة للقادة الأكفاء فى ذلك الوقت هو سيمون دى منت فورت ، فقد كان حاسماً . سريعاً رابط الجأش ، وقد انتصر فى معركة لويس [1] التى دارت ضد هنرى الثالث فى عام ١٢٦٤ ويرجع ذلك لحسن اختياره لأرض المعركة ومفاجأته للعدو مع دفع قوات الاحتياطى فى الزمان والمكان المناسبين . وإذا أخذنا مثالا آخر فسنجد أنه فى معركة بنفنتو عام١٢٦٦ أضعف كلا الجانبين فرسانهم بتقسيمها إلى ثلاثة فرق كل فرقة قوتها ١٠٠٠ فارس بدلا من حشدهم فى مجموعة واحدة ، وبدأت المعركة بمناوشة تمهيدية بين مشاة الجانبين والتى لم تؤثر على سير المعركة الرئيسة [2] ، وبعد ذلك دفع كلا الجانبين فرسانهما تباعا واستطاع شارل هزيمة مانفرد لأنه وضع توقيتاً أفضل لهجوم فرق فرسانه . وقد كان هذا ومثله النظام التكتيكى العادى المتبع فى أوروبا بعد عام ١٣٠٠ ، ولكن فى نهاية هذا القرن ظهرت أفكار وتصورات تكتيكية جديدة فى سويسرا وانجلترا .

أما فى فرنسا فقد ألتزم القادة بجمود بالأساليب التكتيكية القديمة حتى لاقوا الكوارث المتلاحقة .

ومع القرن ١٣ بدأ نظام التجنيد الإقطاعى فى الإنهيار ،بالرغم من أن الجيوش الفرنسية ظلت أساساً تتشكل وتعمل بهذا النظام الإقطاعى حتى حرب المائة عام . وعلى كل أصبحت التعهدات والارتباطات الإقطاعية مضطربة ومشوشة ، ولذلك أصبح النظام الإقطاعى نفسه لا يعتمد عليه لسوء نظامه ، فنجد أن الفرق المكونة طبقاً لهذا النظام بدأت تميل إلى طاعة سيدها الإقطاعى وليس الملك،وأصبحت فترة خدمتها لصالح الملك لاتتجاوز ٤٠ يوما . وكان

(١) أدى انتصاره فى هذه المعركة إلى استطاعته إقامة البرلمان .

(٢) معظم سجلات التاريخ العسكرى لم تذكرها . « المعرب »

من الأسباب الرئيسية لانهيار نظام التجنيد الإقطاعى أن المجندين من الفلاحين كانوا غير محترفين فأصبحوا غير أكفاء فى استخدام أسلحتهم .

بالرغم من أن الكثير من الفرسان لم يكن لديهم أى شاغل آخر غير خوض القتال ، ولكن اتباعهم من الفلاحين كان لديهم مشاغل أخرى كثيرة ، الأمر الذى لم يتح لهم إلا وقتا قليلا للتدريب على استخدام الاسلحة . وعلى كل زاد الاعتماد على المرتزقة .. وفى انجلترا كان من دواعى سرور الملك أن سمح لرعاياه باستبدال الخدمة الإقطاعية بدفعهم ضريبة سميت (البدلية) وبهذه الأموال كان يستأجر المغامرين وقواتهم المرتزقة. وتكونت طبقة من المرتزقة فى جميع دول أوروبا من أولاد النبلاء الصغار والذين ليس لهم الحق فى إرث الأرض ومن اللاجئين الهاربين من نظام العبودية ، وفى الحقيقة كان هؤلاء الرجال محترفين متمرسين ومدربين جيداً للعمل والقتال معاً ويخدمون من يدفع لهم أجورهم طوال المدة المتفق عليها. وكثيراً كانوا يمثلون مصدراً كبيراً للازعاج ، لأن معظم المجندين المرتزقة أصلهم من المجرمين ، وعندما يحل السلام تتحول هذه الجيوش الخاصة إلى عصابات من قطاع الطرق . وكان من أحد أسباب عدم شعبية الملك جون أنه جلب إلى إنجلترا حملة النشاب المرتزقة ، وتواجد هؤلاء الوحوش حتى عهد الحاكم التالى . كما أن فرقة روجردى فلور والمعروفة باسم « الفرقة العظيمة » كانت تتشكل من جماعات المرتزقة التي سرحت فى نهاية الحروب الصقلية وبلغت قوتها أكثر من ١٠٠٠ رجل .

المباراة بين الجنة والجحيم

كان أفضل تدريب على استخدام الأسلحة يتم فى المباريات والمنافسات التى كانت تقام بين الفرسان (التورنامنت) .

وفى القرن ١٣ أصبحت هذه المباريات أشبه بالحروب أكثر من أنها رياضة ، وذلك لأن الفرسان كانوا يسلحون أنفسهم ويقاتلون تماما مثلما كانوا يفعلون فى المعركة الحقيقية . وكان هناك أنواع عديدة من المباريات منها « المثاقفة[1] » حيث يسدد كل فارس رمحه ثلاث مرات ضد الخصم وإذا لم يسقط أحدهما من على حصانه كانا يترجلان ويسدد كل منهما للآخر ثلاث ضربات بالسيف أو بالبلطه أو بالمقرعة . ويوجد نوع آخر يسمى « المباراة أو

(١) قتال بين فارسين يهاجمان بعضهما بالثاقف وبالرماح لإظهار الشجاعة والبراعة أو طمعاً فى الجائزة « المعرب »

الدورة » ويتم بنفس الأسلوب المتبع فى « المثاقفة » ولكن بمجموعة من الفرسان .

وكان ويليام الوصى على إنجلترا فى عهد هنرى الثالث والملقب بـ «المارشال» من أشد المولعين بهذه المباريات ، وقضى سنوات عديدة يخوض الواحدة تلو الأخرى ، لدرجة أنه قاتل فى أحدها لمدة ١٤ يوماً محققاً شهرة واسعة عبر شمال فرنسا ومحققا ثروة كبيرة . وفى إحدى المباريات استطاع أسر ١٢ فارساً و١٠ خيول واحتفظ بهم للحصول على فديتهم . وقد كان للعامة أيضاً مبارياتهم الحربية وتلك إما على شكل مباريات فى القتال بالنبوت[1] أو بالسيف والترس ، أو طعن دمى فوقها دلو[2] من الماء بالرمح . وكانت الحملات الصليبية توصف أحياناً على أنها «مباراة بين الجنة والجحيم » ومع مرور الوقت وإزديادرخاء الحياة مع إزدياد الجرحى والمصابين فى هذه المباريات ، فقد وضعت لها قواعد وأحكام متقنة ومدروسة

ومع القرن ١٥ أصبحت هذه المباريات أكثر شعبية ولكنها أقل خطورة . فأصبح يفصل بين الفارسين المتقاتلين سور خشبى مع استخدام رماح هشة سهلة الكسر كما صممت السروج بحيث يمكن للفارس أن ينزلق إلى أسفل من عند ذيل الحصان . وحتى مع كل هذا ، ففى إحدى المباريات عام ١٥٥٩ لقى الملك هنرى الثانى ملك فرنسا مصرعه على يد أحد أجدادى النورمانديين ومن الطبيعى كان على جدى أن يهرب بسرعة من البلاد ، ولقد كان ذلك من سوء الحظ . وعلى كل أصبحت المباريات بعد ذلك مهرجانات أكثر منها قتال .

وآخر ماشهد التاريخ من هذه المباريات تلك التى قام بتنظيمها «إيرل أجلينتون» فى عام ١٨٣٩ ، وقد سافر المشتركون إلى ضيعة اللورد فى القطار . وقد كتبت الصحافة عنها تقول : «فى داخل القاعة القوطية انتشرت النساء الجميلات بين الفرسان المدرعين » . ولسوء الحظ منعت الأمطار من تنفيذ الكثير من البرنامج .

الصواريخ فى القرن ١٤

من بداية القرن ١٣ أصبح وضع الفارس الشرعى مرتبطا بفكرة الفروسية ، وقبل

---

(١) سلاح إنجليزى قديم عبارة عن عامود ضخم طوله بين ٦ — ٨ قدم وفى رأسه قطعة من الحديد .
(٢) للتبارى على دقة الإصابة لدرجة لا ينسكب الماء من الدلو . « المعرب »

ذلك كان الفارس مجرد رجل يؤدى خدمة عسكرية مقابل منحه قطعة من الأرض . ولكن إذا رجعنا إلى القرن ١٢ لوجدنا أن الحروب الصليبية والأنظمة التى أنشأت مثل مجموعات فرسان المعبد قد أضفت على عمل الفارس أولا شيئاً من الاحترام ثم بعد ذلك شيئا دينياً ومقدساً . وأصبحت النظرية القائلة بأن الفارس رجلا ذو صفات خاصة من الشجاعة والشهامة ويؤدى شعائر معينة قبل دخوله إلى طبقة الفارس أمراً مقبولا .

واستمرت الطريقة القديمة لمنح لقب الفروسية كما هى وذلك من أجل صالح القتال فى المعركة ، وكان يتم ذلك فى احتفال خاص لمنح الرجل لقب فارس ويطلق على مثل هـذا الاحتفال « الاحتضان » ويعنى ذلك أن الرجل أصبح فارساً يمكنه خوض القتال فى ميدان المعركة . وكان المرشح يركع أمام فارس آخر حيث يلمسه بسطح السيف على كلا كتفيه مردداً عبارة التنصيب القصيرة والتى كانت عادة تأخذ شكل الموعظة أو النصيحة . ولكن الآن أصبحت هناك طريقة أكثر اتقاناً وتفصيلا ، ويصف سيلدون هـذه الشعائر قائلا : « كانت احتفالات منح ذلك الشرف نوعين (الرسمية) و (المقدسة) ، فالرسمية تتمثل فى احتفالات التنصيب وفيها يتسلم الفارس الجديد الأردية والأسلحة ومهازى للخيل وغيرهما ، أما المقدسة فتتمثل فى الصلوات المقدسة التى تتم فى الكنيسة قبل منح المرشح لقب الفارس رسمياً » .

وتتضمن الاحتفالات السابقة أيضا صلوات المساء وتسلم الأسلحة من خدام الكهنة فى الكنيسة ، والقسم على حماية كل ماهو ضعيف أو طيب أو مقدس . وقد كتب جون سالسبورى : —

« لأى غرض أقيمت الفروسية ؟ أقيمت لحماية الكنيسة وأخذ العهد الأخلاقى بحماية الفقراء والمحافظة على السلام وإراقة الفارس دمه فى سبيل مواطنيه » .

ويعتبر الوصف الذى أورده سالسبورى للفرسان وصفاً رومانتيكيا ، أما أنشودة رولان فقد كانت أكثر واقعية فى التعبير عن الصفات التى تجعل الفارس مثاليا ، وهى فى الحقيقة قصة ممتازة تصور الخيانة والبطولة وتؤكد فضيلة البسالة الشخصية والإخلاص للرفاق والثقة فى مساعدة القديسين . وكان ذلك أفضل تعبير عن روح الفروسية والذى يعكس مدى

الفخر والاعتزاز لما حققته الفروسية لأوروبا مع حلول القرن ١٣ . فقد حققت الفروسية ثبات الحدود ونقاء النظام السياسي وإمكانيات التقدم الإقتصادى والتى كانت نتيجة للأمان ، وعلى كل كانت الفروسية قوة دفع للأفضل ، فقد أشعرت الطبقات العليا بأنه من الضرورى وجود مستوى من الأمانة والأخلاق لديهم كشىء يعادل امتيازاتهم .

ومن تطورات القرن ١٣ ظهور شعارات النبالة ، وقد تطور هذا الأمر مع ظهور الخوذة الكبيرة التى تخفى وجه المقاتل بالكامل ، مما جعل من الضرورى أن يحمل الفارس علامة مميزة . واتخذ الفرسان شعارات متنوعة وكانت ترسم على دروعهم أو تطرز على معاطفهم (عباءتهم) ، كما وضعت شارات زخرفية فوق قمة الخوذ .

وكان ريتشارد قلب الأسد أول ملك يرسم شعار إنجلترا(١) وكان هذا النظام مفيد فى الإرشاد والتنظيم لأن أتباع كل فارس كانوا يتجمعون حول شعاره أو رايته .

ويمكن القول أن أخطر تطور فى تاريخ الحرب كان فى اختراع بارود المدفع ، ولكن عندما نشرت المعادلة الأصلية لتركيب البارود ، مرت على العسكريين دون أن يلاحظوها . وعلى كل فغير معروف بالتأكيد المكتشف الأول للبارود أو الذى فكر فى استخدامه كقوة للقذف من أنبوبة ، وأيضا غير معروف متى وأين استخدمت المدافع الأولى فى القتال؟ وأول من سجل معادلة تركيب البارود فى العالم الغربى هو الراهب الإنجليزى «روجر بيكون» فى كتاب له عام ١٢٦٠ . والمعادلة عبارة عن : خاط ٧ أجزاء من الملح الصخرى (نترات البوتاسيوم أو الصوديوم) + ٥ أجزاء من الفحم النباتى + ٥ أجزاء من الكبريت .

ويمثل هذا الخليط سيمكننك إنتاج لهباساطعاوصوتا مدويا . ولكن خوفا من الكنيسة أخفى بيكون معادلته بطريقة شفرية مع تغيير حروفها . وقد مر ٥٠ عاما قبل ظهور أول مدفع ، وفى بحث قام به رجل إنجليزى عام ١٣٢٦ ويدعى « والتردى مليويكى » ظهر رسم لأول أنواع المدافع ، وعرفت هذه المدافع بإسم « قارورة القوة » أو « الفازة » ، لأنه كان يشبه فى شكله الفازة ذات جسم متنفخ وعنق ضيق .

---

(١) ثلاثة أسود ذهبية مرسومة على أرض حمراء . « المعرب »

وظهر المدفع فى الصورة مركب على منضدة من الخشب ويعمر بسهم ذا ريش معدنية من النوع الذى تطلقه الأقواس، ويقف بجوار المدفع الجندى الذى يشغله وهو على وشك إطلاقه بدفع قضيبا ساخنا فى درجة الأحمرار فى ثقب محفور لإشعال البارود منه . وقد عثرنا على وثيقة فلورنسية لنفس العام تأمر مجلس المدينة ببحث إنتاج مدافع وقذائف حديدية. وبالتحديد فالمرة الأولى التى أطلق فيها مدفع فى قتال كان فى عام ١٣٢٤ عند « متز » بفرنســـا . وازدادت أصوات المدافع عبر ١٥ سنة التالية ، ومن الأرجح أن إدوارد الثالث استخدم المدفعية ضد الأسكتلنديين فى معركة بيرويك عام ١٣٢٧ ، ولـكن من المؤكد أن الفرنسيين استخدموا المدافع والهاونات فى إطلاق السهام على الإنجليز فى معركة « كويسنوى » عام ١٣٤٠ .

كما استخدم إدوارد المدفعية عند حصاره لـكاليه عام ١٣٤٦ . ولقد كان هناك سلاح نارى آخر هو « ريبولدكوين » ويتـكون من عدة أنابيب معدنية مركبة على نوع من العربات الحربية ، وكان من الممكن إطلاقها معا فى وقت واحد ، ويبدو هذا السلاح وكأنه أحد أنواع بطاريات الصواريخ البدائية ، وهى تشبه ما استخدمه الجيش الـكندى عند نهر الموز والجيش البريطانى الثانى عند عبور نهر الراين عام ١٩٤٥ .

وقد أصدر ادوارد أوامره عام ١٣٤٥ بصنع ١٠٠ من هذا السلاح ، وبالتالى فقد بدأت الأسلحة النارية فى الاستخدام بشكل منتظم فى منتصف القرن ١٤ ، ولـكنها لم تحدث تأثيراً فعالا على مجرى الحرب لعدة سنوات .

قلعة الباستيل

وأخيراً حطمت المدافع قوة ومناعة الحصون والتى كانت العنصر الثانى العظيم فى فنون الحرب النورماندية .

وقد عاش الحصن كقوة يعتد بها أطول مما عاشه الفارس ، وفيما بين عامى ١٢٦٠ و ١٣٢٠ شيدت حصونا ضخمة وقوية لم يشهدها أى عصر . . ، وأصبح الآن القاعدة الرئيسية فى بناء التحصينات هو بناء سلسلة من الأسوار القوية الساترة المتحدة المركز ، كما أعطى اهتماما كبيراً بالتحصينات الخارجية . فالخندق المائى أصبح عادة على شكل بحيرة

وأصبحت بيوت الإقامة داخل الحصن على شكل مربع قوى وتـكونت من ثلاث أو أربع طوابق ومحاطة من أعلى بأبراج مزدوجة ، أما عن طرق الاقتراب إلى الحصن فكان يعترضها كوبرى متحرك أو أكثر ثم البوابة والتى تحميها مجموعة من الشرفات كل منها على شكل كوة لإطلاق القذائف على المهاجمين علاوة على الأبواب المكونة من القضبان الحديدية عند مدخل الحصن ، بالإضافة إلى الفتحات المائلة إلى الخارج فى السور . وعادة كان الفناء الأوسط الذى يحيط به الأســوار يضم مدينة كاملة ، مثل مدن فلينت وكونواى وكيرنارفون .

وهذه القلاع التى بنيت إبان حروب إدوارد الأول الويلزية (١٢٧٧ — ١٢٩٥) قد خدمت غرضاً استراتيجيا يشابه غرض الحصون التى شيدها الفرسان التيتونيون والتى استخدمت لصد وإبعاد البرابرة البروسيين، ويصف سيدنى توى حصن كيرفيلى الذى شـيد

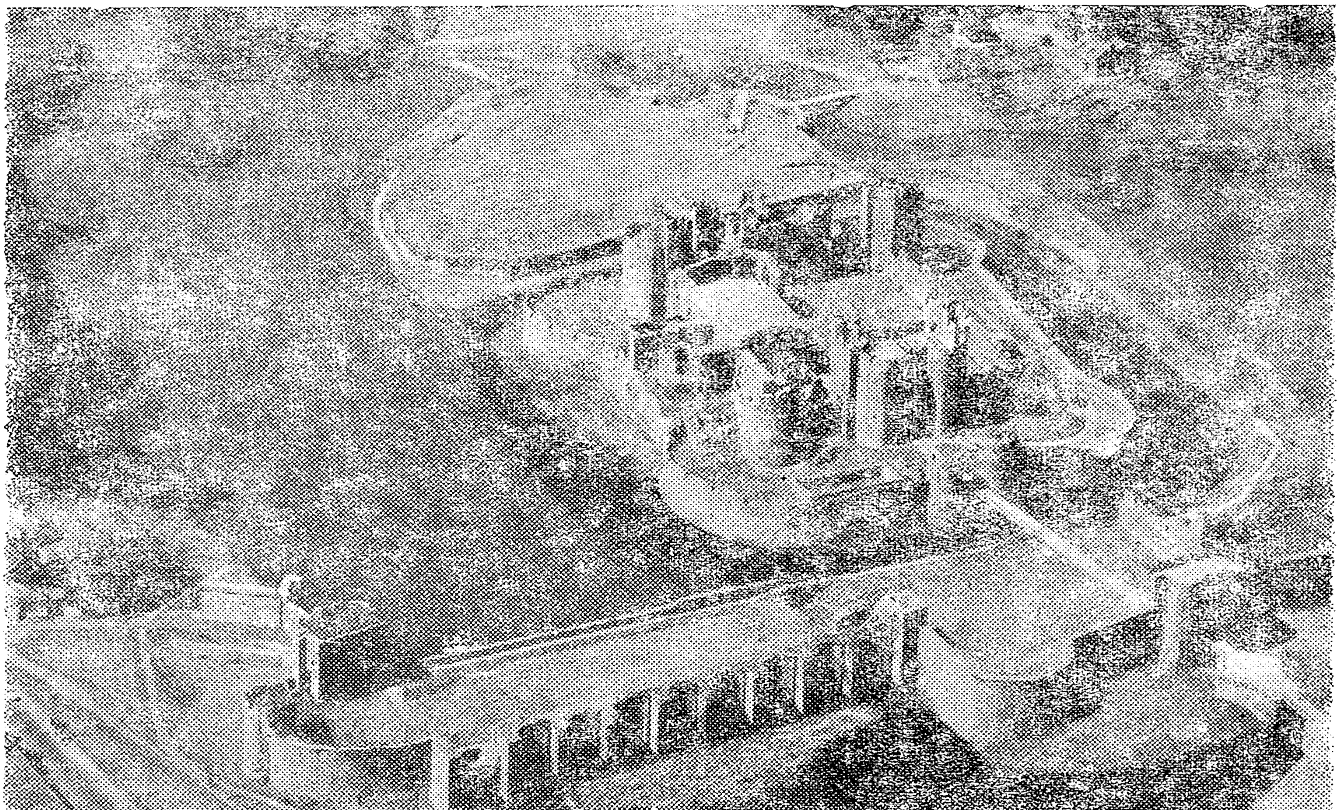

قلعة كيرفيلى

فى الفترة بين عامى ١٢٦٧ – ١٢٧٧ ويعتبر من أقدم وأفضل الحصون المتحدة المراكز :— «شيد الحصن على جزيرة فى بحيرة، والبحيرة يغذيها مجرى مائى ويدافع عنها سور ضخم أو خزان مكوناً الحصن الأمامى . والجزء الرئيسى من الحصن مستطيل ومحاط بخطين من الأسوار، الداخلى مزود ببرج فى كل ركن وبمخفر كبير عند البوابة ، أما السور الخارجى فعبارة عن قوس يمتد شرقاً وغرباً فى خط يوازى السور الداخلى .

ويوجد فى السور الخارجى بوابة شرقية وجنوبية . ويوجد فى أبراج السور الداخلى مسقط رؤيا واضح بدرجة أنه يمكن مسح كل الوجه الخارجية للسور إذا ما أطلقت السهام من الكوات والشرفات .

والسور الخارجى أقل إنخفاضاً وأقل سمكا من الداخلى ، وفى مكان الأبراج تأخذ الأسوار فى الإمتداد الدائرى حول الأركان ، و البوابة الشرقية تواجه الحصن الأمامى . ويمر طريق الاقتراب من على كوبرى متحرك ، أما البوابة الجنوبية فتواجهها تحصينات خارجية تقف فى نفس البحيرة . وبالإضافة إلى البوبات الرئيسية فكان هناك ثلاث بوابات جانبية للفناء الداخلى ، ويحمى كل مدخل أبواب حديدية ترفع وتنزل . وتجلب الإمدادات للقلعة عن طريق البوابات الجانبية فى السور الخارجى أو للهروب باستخدام القوراب الى خارج القلعة .

أما السور الضخم ، وهو سور الوقاية ، فمدعم على جناحه الأيمن بسلسلة من الدعامات الضخمة ، أما الجناح الأيسر فمدعم بثلاثة أبراج قوية ، ويعتبر هذا السور الضخم من أكثر الأعمال الهندسية العسكرية قوة وتأثيراً ، ويجرى من خلال هذا السور ثلاث قنوات لتنظيم مستوى الماء فى البحيرة بواسطة بوابات عند مدخل كل قناة .

ولم يحدث أبدا أن اقتحمت قلعة كيرفيلى ، وليس فى ذلك غرابة ، فكان من الضرورى لمهاجمتها عبور خندقين مائيين وثلاث أسوار تضمنت كل التحسينات والتطورات فى أساليب الدفاع .

وفى القرن ١٤ كان لا يزال يبنى مثل هذه التحصينات القوية ، مثل قلعة الباستيل فى

فى باريس (١٣٧٠ — ١٣٨٣) ، وكانت ذات بناء مستطيل ويوجد بأسوارها ثمانية أبراج قوية .

وكانت الأسوار عالية مثل الأبراج ومتوجة بسلسلة متعاقبة من الشرفات إطلاق القذائف على المهاجمين ، علاوة على خندق مائى واسع . ولاشك أنه كان من الممكن أن يصمد الباستيل بسهولة فى ١٤ يوليه ١٧٨٩ إذا توفر قليل من الروح الدفاعية .

ونجد أيضاً أن الكثير من كنائس القرنين ١٣ ، ١٤ محصنة ، مثل كتدرائية «ألبى» وقديس «ماريس» بالقرب من «أرليس»، وحتى المدن المدنية الجديدة فى إيطاليا اتخذت هندستها ظواهر دفاعية كثيرة ، ففى سان جيمجنانو كان هناك على الأقل ٢٠ منزلا بها إبراج محصنة . وحتى خلال عصر النهضة بنيت كثيراً من منازل المدن بأسوار عريضه ونوافذ مزودة بحواجز قوية . ومع ذلك ، فمع حلول القرن ١٤ ، تغلبت متطلبات الاستقرار والرفاهية على متطلبات ودواعى الأمن .

ثورة فى تاريخ التكتيك

ومن صدق القول أنه قبل المنتصف الثانى للقرن ١٣ لم يدرك أى قائد فى غرب أوروبا الأمكانيات التكتيكية الكامنة فى تنسيق العمليات بين المشاة والفرسان ، ذلك إذا تغاضينا عن ذكر أن المشاة كانت غالبا ما تستخدم وحدها كسلاح رئيسى بالرغم من الدروس التى قدمها كل من « ليننانو » و«الصليبيين» . وعلى العموم فقد تغير الموقف الآن تغيرا مثيراً ، ويرجع ذلك أساساً إلى المفاهيم التكتيكية لكل من إدوارد الأول ملك إنجلترا ورودلف أرلاش الزعيم السويسرى .

وفيما بين عامى ١٢٨٢ و ١٣٤٦ كسبت المشاة سلسلة رائعة من الانتصارات المنطقية والتى كانت بمثابة ثورة فى تاريخ التكتيك .

ففى معارك كورتراى (١٣٠٢) وومورجاتن (١٣١٥) ولوبين (١٣٣٩) استطاع حملة الرماح من المشاة هزيمة الفرسان المدججين بالسلاح ، كما هزم حملة الأقواس الطويلة ، حملة الرماح الراكبين فى قنطرة أورين (١٢٨٢) وفالكيرك (١٢٩٨) وتل هاليدون (١٣٣٣) .

وفى النهاية جاءت معركة كريسى (١٣٤٦) لتعلن لأوروبا سقوط نجم ظل يتألق فى ميدان المعارك زهاء الألف سنة وهى الفرسان الثقيلة. وأظهرت المعركة فوق كل شك أن الفرسان وحدها لا يمكنها تحقيق النصر ضد رماة السهام الذين يعاونهم فرسان مدججين بالسلاح ومحتلين مواقع قوية .

ففى بواتييه (١٣٥٦) وأجنكورت (١٤١٥) أكد حملة الأقواس الإنجليزية الطويلة قوة نظامهم التكتيكى . وفى نفس الوقت فى أوروبا الوسطى استمر السويسريون من حملة الرماح فى كسب الانتصارات مستخدمين فى ذلك تكتيكا مختلفاً، وبعدهم بفترة وجيزة فى أوروبا الشرقية وضح الهسيون والبوهميون باستخدامهم المدافع فى معركة سدمور (١٤١٩) ظهور طريقة ثالثة يمكن بها أن تتغلب المشاة على الفرسان بسهولة . وكانت معركة كورتراى عام ١٤٠٢ هى أول هزة قوية تلقاها الفرسان الثقيلة بأوروبا الغربية وذلك عندما دمر جيش فلمنكى والذى يتكون من المشاة حملة الرماح ، جيشاً فرنسيا من الفرسان . وقد تحصن الفلمنكيون فى موقع قوى خلف مجرى مائى ، ولكن القائد الفرنسى أمر فرسانه بالهجوم ، مصدقا مبدأ العصور الوسطى المبتذل وهى « مائة فارس تساوى ألف رجل على الأقدام » ، وعندما وصلت الفرسان إلى المجرى المائى غاصوا فى المستنقع ، وعندما هاجمتهم المشاة الفلمنكية برماحها الثقيلة كان الفرسان فى حالة عجز تام . ولقد أثارت هذه المعركة مناقشات كثيرة ، ولكن فى النهاية وقع اللوم على المستنقع أكثر مما وقع على الفلمنكيين . وتهرب الفرنسيون من المبدأ القائل بأن المشاة الجريئة المحتلة مواقع دفاعية قوية ويقودها قائد فطن وذكى يمكنها هزيمة الفرسان بسهولة .

وعندما هزم الفرنسيون بعد ذلك الفلمنكيين بدا ذلك وكأنه يؤكد أن معركة كورتراى كانت خروجا عن الطبيعة . أما الصدمة الثانية والتى تلقتها الفرسان وتشابه هزيمة كورتراى ، فقد كانت فى النصر الذى حققه السويسريين الاتحاديين من حملة الرماح على سادتهم النمساويين عند مورجارتن عام ١٣١٥ . وفى هذه المعركة أهمل القائد النمساوى الدوق ليوبلد القيام بالاستطلاع قبل دفع جيشه فى ممر جبلى ضيق وشديد الإنحدار ، بالإضافة إلى طبيعة أرضها الزلقة وذلك خلال شهر نوفمبر (الذى وقع فيه المعركة) . وسد السويسريون الطريق وأوقعوا النمسلويين فى كمين .

وكان عدد الفرسان النمساوية أكثر ولكن أذهلتهم المفاجأة وسادهم التخبط والتحركات العشوائية (وذبحهم رجال الجبال وسلخوهم مثل الخراف فى المجزر) . ومرة أخرى ألقى اللوم على الأرض التى كانت غير ملائمة والقيادة الضعيفة .

تشكيل القنفذ

ومهما كان فقد وضح النصر السويسرى على سادتهم الإقطاعيين عند لوبين عام ١٣٣٩ الأمور فوق كل شك . فالمعركة هناك دارت بين المشاة والفرسان على منحدر مكشوف ومفتوح ، ولما كان السويسريون أقل عدداً من النمساويين فقد أتبع القائد السويسرى رودلف خطه دفاعيه فوضع فرسانه القليلة على اليمين حيث المنحدر أكثر ميلا ، بينما وضع المشاة على اليسار فى المكان الذى يتوقع فيه الهجوم المعادى الرئيسى . وكانت خطته أن ينتظر العدو حتى يبدأ فى صعود المنحدر الحاد، وفى هذه اللحظة ينقض عليهم بهجوم مركز . وعندما دارت المعركة حالف النجاح الفرسان البرنيون[1] فى اليمين أما فى اليسار فسرعان ماعانى رجال مقاطعات الغابات المتاعب عند أصطدامهم مع الفرسان البارونية ، وبدأ هجومهم عند سفح التل يتعثر وحاصرتهم الفرسان النمساوية ، وأضطر السويسريون للوقوف ظهراً لظهر وهم شاهرون مطردهم[2] ، وأشتهر هذا التشكيل بعد ذلك وسمى بالتشكيل القنفذى . ودار قتال متلاحم شديد الضراوة ، ولكنهم صمدوا بقوة حتى أتى البرنيون لنجدتهم . وهاجم البرنيون مؤخرة وأجناب الفرسان النمساوية محققين النصر فى هذه المعركة . وقد كان قتال متكافئاً ، وأستطاع الفلاحون السويسريون أسر ٢٧ علماً أقطاعياً و٧٠ خوذة مزينة .

وحتى معركة لوبين كان السويسريون لا زالوا يستخدمون المطرد ولكن كان طول المطرد ٨ أقدام فقط ، فى هذا الوقت غير السويسريون المطرد بالرمح الطويل (المنخاس) وبلغ طوله ١٨ قدما وينتهى برأس من الصلب طولها ١٠ بوصة ويستخدم أفقياً وكان فعالا ضد الفرسان . وفى تلك المعركة أقام السويسريون حاجزاً صلباً لا يخترق من الحراب المشهرة والتى تخرج سويا من الصفوف الأربعة الأولى . وكان هذا الحاجز مؤثراً سواء كحائط دفاعى أو أثناء التقدم فى

---

(١) نسبة إلى مدينة برن السويسرية .

(٢) سلاح قديم مكون من رمح ثقيل برأسه منخس وفأس حرب . «المعرب»

حشد . ولقد كان هذا الأسلوب التكتيكى السويسرى غاية فى الكفاءة والسهولة ، ومشابها لأسلوب التكتيكى الأسبرطى والرومانى . وقد أعطتهم دروعهم الخفيفة (بسبب الفقر أصلا) قدرة فائقة من خفة الحركة مما أدى إلى مبادأتهم بالهجوم فى أغلب الأحيان . ووصفهم ميكافيلى بأنه « لا توجد قوات أبداً أسرع منهم فى السير أو فى الفتح لتشكيل المعركة » . وكانوا يسيرون فى مجموعات قتالية منتظمة ، كما كانوا أول قوات حديثه تسير وخطواتها تتبع الموسيقى . وكان أسلوبهم العادى فى الهجوم هى التقدم على شكل مجموعات متوازية وكل مجموعة عبارة عن ثلاث طوابير متوازية والتى تبعد عن بعضها للخلف بقليل . وهذا التشكيل أعطاهم وقاية للجنب ومع توفير أحتياطى للطابور المهاجم فى المقدمة .

تعاقدات الألزام

ولم يلق حملة الرماح السويسريون أية هزائم جدية خلال القرنين التاليين لمعركة لمورجارتن (١٣١٥) ولكن النزاع بين المقاطعات ونظامهم فى القيادة الذى يعتمد على مجلس أعاق السويسريون من متابعة أنتصاراتهم إستراتيجياً ، ولم يتمكنوا أبداً من أقامة قوة سياسية من الدرجة الأولى من أنفسهم ، وتحولوا بدلا من ذلك إلى مجموعات كبيرة من الجنود المرتزقة فى أوروبا . فى عام ١٣٨٦ عند سمباك حققوا نصراً آخراً هاما ، وفى هذه المرة كان النصر على الفرسان المترجلين . ولم يفهم القائد النمساوى خلال المعركة أن الأنتصارات السويسرية السابقة كانت راجعه إلى أسلحتهم وتشكيلاتهم الخاصة ، وقدر بدلا من ذلك أن قواته لو قاتلت على أقدامها فمن المفروض أن تكون قادرة بتجهيزاتها ومعداتها الأثقل على صرع الفلاحين السويسريين . ولكن قبل أن يحدث الأشتباك ، كان النمساويون قد أصابهم الأنهاك وأستنزفت قواهم تحت ثقل دروعهم ؛ وكانت تجربة جلبت عليهم كارثة .

وفى عام ١٤٧٦ حقق حملة الرماح السويسريون أعظم انتصارين مشهورين على كل انتصاراتهم وهما انتصارهما على شارل المتهور حاكم بورجندى عند جرانسون وموراث . وكانت إنجلترا هى المسرح الذى أعلنت فيه ثورة المشاة الأولى على نفسها . وكان المسئول عن هذه الثورة هو أدوارد الأول (١٢٧٤ — ١٣٠٧) فاتح ويلز والمنتصر فى معركة فالكيرك عام ١٢٩٨ . وكان أدوارد الأول قائداً بارعاً ومنظماً عسكرياً من الدرجة الأولى

فى حملته عام ١٢٦٥ بابفشام برهن على ما يتمتع به من أدراك وتصور أستراتيجى بارع ، فقد أستطاع بسلسلة من المناورات السريعة أن يعوق جيشين معاديين من الألتقاء وتوحيد صفوفهما ، بينما ظل محتفظاً طوال هذا الوقت بجبهة دفاعية على ساحل نهر طولها ٥٠ ميلا، وتمكن بهذه الطريقة من تحطيم أحد الجيشين ثم دار بسرعة لاصطياد بسيمون دى مونت فورت فى أحدى مخاضات النهر . ومرة أخرى فى حرية الويلزية (١٢٧٧ — ١٢٩٥) أظهر أدوارد إدراكه وتفهمه للأستراتيجية الصحيحة عند بنائه شبكة منظمة من الطرق والحصون ولاحظ أنه لن يستطيع قهر رجال الجبال الويلزية بالجيش التقليدى لهذا العصر (أى بجيش من الفرسان) والذين حددوا مدة أشتراكهم فى القتال بفصل الصيف فقط. ولذا قام بأبتكار فكرتين على جانب كبير من الأهمية ، وهما أعتماده على جيش محترف مؤجر ومتعاقد على القتال طوال العام ، واستغلاله لإمكانيات القوس الطويل . وقد بدأ احتراف الجيوش مع تزايد أعتمادها على المرتزقة ، كما أن عدم ملاءمة القوات الإقطاعية العادية للحملة الويلزيه أرغمت أدوارد الأول على التخلى عن هذه الطريقة من التجنيد الإقطاعى . وعلى كل حال كان النظام الأقطاعى نفسة يتحطم لأسباب أقتصادية ودستورية عديدة . كما أنه فى القرن اللاحق جعلت العوامل الأقتصادية التخصص والجيوش المحترفة ضرورة أكثر من قبل وذلك عندما أصبحت الأنواع الجديدة من الدروع باهظة التكاليف بالإضافة إلى الهبوط الحاد فى تعداد سكان أوروبا تحت وطأة الطاعون . وكان حل أدوارد الأول لمشكلة التجنيد هو تشجيع الكثيرين من باروناته الإقطاعيين على استبدال خدمتهم الإقطاعية بضريبة « البدل » والتى أشير إليها فى بداية هذا الفصل ، كما طلب من باروناته الآخرين إحضار قوات أقل ولكن أفضل ، وتعهد على التعاقد معهم للخدمة بعد أنتهاء خدمتهم الإلزامية حسب تعهدات الأقطاع ، وفى سبيل ذلك سيدفع لهم أدوارد أجورهم أثناء هذه المدة الأضافية.

وأول هذه التعاقدات العسكرية عرف بأسم « الألزام » وتم عام ١٢٧٧. وطور أدوارد الثالث هذا النظام خلال حروبه الفرنسية والاسكتلندية . وكانت هذه التعاقدات العسكرية عبارة عن أتفاقيات مكتوبة ومحددة بين الملوك والضباط المحترفين ، وفى تلك الأتفاقيات يحدد

تماما حجم القوة التي سيتم استخدامها ومكان ونوع ومدة الخدمة ومعدلات الأجور والمنح.. إلخ . . وغالباً ما كانت القوة التى تقدمها مثل هذه الاتفاقات تتكون من جميع الأسلحة وتضم فى صفوفها مهناً مختلفة مثل الصناع والجراحين والقسس والمترجمين بالإضافة إلى رماة السهام والفرسان المدججين بالسلاح ، وتراوحت مدة الخدمة من ٤٠ يوما (حسب قانون الإقطاع القديم) إلى ما تحدده مشيئة الملك. وعلى سبيل المثال تعاقد فى عام ١٩٦٠ أيرل حا كم كنت على خدمة الملك لثلاث شهور فى مقابل الأجور المعتادة للحرب ، وطبقاً للاتفاقية تعين على أيرل أن يقدم ٦٠ فارساً و١٢٠ من رماه السهام على أن يمتطى الجميع الخيول . ومن عام ١٣٤٠ فصاعدا لم يعد هناك أى عناصر إقطاعية فى جيوش أدوارد الثالث ، وأصبحوا يتكونون تقريباً من رعاياة بالأضافة إلى جماعات قليلة من المرتزقة الأجانب . وقد خدموا جميعاً طبقـــا لتعاقدات « الألزام » وتحت قيادة ضباط محترفين وعلى جانب عال من المقدرة والكفاءة .

وخلال حرب المائه عام كان تعداد فرنسا يبلغ خمسة أضعاف سكان إنجلترا إلا أن الفرنسيين تمسكوا بنظام التجنيد الإقطاعى ، وبذلك لم يتوفر لديهم مشاة منـــاسبة ، وبالرغم من أن فرسانهم كانت أكثر عدداً من فرسان الإنجليز إلا أنهم كانوا أضعف تنظيما وأقل تدريباً .

المعركة الرهيبة

أما الابتكار الثورى الثانى لإدوارد الأول فكان فى جعله القوس الطويل هو السلاح الرئيسى للانجليز .

ففى إيفشام (١٢٦٥) كان الرماة الإنجليز لازالوا مسلحين بالقوس النشاب ، ولكن فى الحروب الويلزية (١٢٧٧ — ١٢٩٥) وصل القوس الطويل إلى مقدمة الأسلحة الإنجليزية ، يعود النصر الإنجليزى عند قنطرة أورين (١٢٨٢) إلى هذا السلاح ، وفى الحقيقة كان أصله من أسلحة ويلز .

وقد بلغ ارتفاع القوس الإنجليزى الطويل ستة أقدام وأربعة بوصات ، وكان يتطلب لجذبه قوة عضلية تساوى حوالى ١٠٠ رطل ، ويصنع عادة من خشب الطقوس[١] وخشب الدردار .

(١) شجرة دائمة الخضرة من الفصيلة الصنوبرية .

«المعرب»

وكان عرض القوس ١ ½ بوصة وسمكه ١ ¼ بوصة ، ذات شكل مسطح منبسط من الخارج ومستدير من الداخل . ونهايات القوس مدببة مسكوة بقرن لتثبيت وتر القوس . ومن المرجح أن الوتر كان يصـنع من خيط القنب الملفوف عليـه حبل رفيع من الـكتان .

أما السهم أو القصبة فـكان طولها ٣٠ بوصة وتنتهى برأس صغيرة على شـكل معين ومثبت فى نهايتة ثلاث ريش من ريش الأوز . ولا شك أن مثل هذا القوس الذى يبلغ طوله ٦ أقدام يحتاج إلى رجل قوى وطويل جداً ، ويحتاج للعمل به إلى جذبه فى حركة واحدة تقريباً حتى زاوية الفك السفلى ثم يصوب ويطلق ، وقد بلغ المدى الدقيق ٢٥٠ ياردة بينما كان أقصى مدى هو ٣٥٠ ياردة والدرع الوحيد الذى كان يرتديه حملة الأقواس الطويلة هو غطاء معدنى للرأس وعباءة ملبدة أو محشوة ، وفى بعض الأحيان ارتدوا حلة مصفحة كاملة ، وحمل الرماة إلى جانب القوس سيفاً وفى بعض الأحيان حملوا هراوة برأس حديديه ولحماية أيديهم كانوا يرتدون عليها واق من الجلد ، كما أبقوا شعرهم قصير حتي لا يمنع الوتر من الإشتباك والتعقد مع شعرهم ، وبهذا خلقوا تقليدا عسكريا بريطانيا .

ومنذ عام ١٢٥٢ فصاعدا أصبح لزاما على كل من يمتلك ٤٠ شلنا إمتلاكا حراً أن يمتلك قوساً ، وبذلك أصبح جميع الفلاحين الصغار والذين يملـكون أرضاً صغيرة ويزرعونها عبارة عن ميليشيا من الرماة .

وكان يتم التدريب على الرماية فى أوقات مختلفة وإجباريا ، وكان يأخذ صوراً مختلفة مثل الرماية على نقار خشب أخضر اللون يوضع فوق برج الـكنيسة وذلك بعد صلاة الأحد ، أو على شكل مباراة الروفر(١) .

وقد عرفت الطاقات التـكتيكية لنيران المقذوفات بصورتها الـكاملة خلال حروب إدوارد الأول بويلز .

فالسيل المنهمر من السهام كخطوة مبدئية يثير أعصاب جنود العدو ثم يدمر تلاحمهم وتماسكهم ، كما يكون غطاء لتقدم الفرسان .

(١) جولف العصور الوسطى والذى يتقدم فيه الرماة من ميدان إلى ميدان ويطلقون أسهمهم على هدف بعد الهدف . « المعرب »

وفى ديسمبر ١٢٨٢ عند قنطرة أورين استطاع الإنجليز بقيادة أدواردمورتيمر وجودن جيفارد أن يهزموا أهل ويلز .

وكان حملة الرماح من أهل ويلز محتشدين فى موقع قوى على أحد المنحدرات ، ولكن فاجأهم الإنجليز بإطلاق بوابل من سهام الأقواس الطويلة عليهم من الجنب ، وبعد ما تحقق الإنجليز من تأثير سهامهم أطلقوا فرسانهم لمهاجمة أهل ويلز . وبنفس الأسلوب تقريباً استخدم فى القتال فى معركة بالقرب من كونواى عام ١٢٩٥ ، كما أن أدوارد الأول نفسة حاول عام ١٢٩٨ أن يطبق نفس هذه التكتيكات الجديدة ضد الاسكتلنديين فى فالكيرك ، وفى هذه المعركة صمد وليام ولاس فى مواجهة الإنجليز بأقوى موقع دفاعى ممكن . وانتظم الاسكتلنديون فى أربعة مجموعات كبيرة من حملة الرماح، وكان الموقع الاسكتلندى على ميل حاد وفى مؤخرته غابة وأمامه أرض سبخة. أما إدوارد الذى كان بعيداً عن قاعدته وتنقصه الإمدادات علاوة على أنه كان مصاباً بكسر فى ضلعين من ضلوعه ، وبالرغم من ذلك فقد قرر القيام بالهجوم .

وبدأت المعركة بالتفاف الفرسان الإنجليزية من يمين ويسار السبخة ليهاجموا الاسكتلنديين من كلا الجانبين ولكن حملة الرماح الاسكتلندية صدوهم بسهولة . وبدلا من أن يأمر إدوارد بهجوم ثان من الفرسان ، أحضر رجاله من حملة الأقواس الطويلة ، ومن مسافة قريبة جداً أطلق هؤلاء سهاما مركزة على نقطة معينة فى حشود العدو ، وسرعان ما سقط الكثير من الإسكتلنديين وشاعت الفوضى والاضطراب بين الباقين ، وفى هذه اللحظة قام فرسان الأنجليز بهجوم ثان على الأجزاء الضعيفة من جبهة العدو نتيجة للسهام الإنجليزية المركزة ، وهذا الهجوم حسم المعركة وانتهت بمذبحة رهيبة .

أما هزيمة الإنجليز على يد الاسكتلنديين بقيادة بروس عند بانوكبيرن عام ١٣١٤ ، فسببها أن إدوارد الثانى عاد إلى إتباع أسلوب القتال القديم وعدم تنسيقه العمل بين رماته وفرسانه ، ولكن ذلك لم يكن سوى ذلة مؤقتة .

ففى عام ١٣٣٢ أحدث إدوارد فى معركه دبلن تطوراً كبيراً فى الأسلوب الإنجليزى الجديد بإشراك الرماة مع الفرسان (بعد أن تترجل) فى تشكيل دفاعى ، فوضع

الفرسان المترجلة فى الوسط بينما انتشر رماة السهام على الجناحين على شكل هلالى متباعدين وغير متماسكين حتى لاتشجع العدو على الهجوم عليهم، إذا كانوا فى حشد . وعند ما بدأت المعركة وتركزت فى الوسط ، قام الرماة وفى وقت واحد بإطلاق سيل من سهامهم على أجنحة الطوابير الاسكتلندية ، ففقد الاسكتلنديون صوابهم وأخذوا يتخبطون ببعضهم ، وهنا اندفع الفرسان الإنجليزية بهجوم حسم المعركة .

وفى العام التالى كرر إدوارد الثالث بمعاونة كبار الضباط الذين قاتلوا معه فى دبلن مور ، هذه الخطة التكتيكية فى معركة تل هاليدون وحصل على نفس النجاح الذى حققه فى دبلن مور .

خنجر الاجهاز والرحمة (أنظر االوحة رقم ١٨)

وفى عام ١٣٣٧ بدأت حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا ، وقد سببت الخصومات والخلافات والعداء أن أصبح هذا الصراع الطويل أمراً ذا أهمية وطنية لكلا الجانبين . وتضمنت المشكلة الوضع الإقطاعى للدوقية الإنجليزية فى جيين (فى جنوب غرب فرنسا) وإدعاء إدوارد الثالث بحقه الشرعى فى عرش فرنسا ، والمعاونة الفرنسية للاسكتلنديين والنزاع حول تجارة الصوف الفلمنكى ، وحرب الحدود الطويلة بين التجار الإنجليز والفرنسيين فى بحر المانش .

وتطورت هذه الحرب من غزوات إنجليزية قليلةغير متصلة إلى حرب تدمير واستنزاف كبيرة ولكن ليست ذات معارك حاسمة .

وفى الواقع وصلت الحرب لأن تكون فى الحقيقة عبارة عن أعمال نهب متكررة للمزارع والأديرة فى كل من نورماندى وبريتانى وا كويتين، وتقوم به جماعات من الجنود المحترفين المتوحشين .

وكانت أول معركة كبيرة فى هذه الحرب هى المعركة الحربية التى دارت رحاها خارج سلويز عام ١٣٤٠ .

وظلت السفن على نفس طراز سفن الفايكنج لمدة ١٥٠ عاماً بعد معركة هاستنجز ، كما لم يحدث أى عمليات بحرية كبيرة فى المياه الشمالية .

ولـكن فى القرن ١٣ نشبت حربا شـبه متواصلة فى بحر المانش ذات ضراوة إلى حد ما .

وفى هذا القرن تطور بناء السفن حتى أصبحت سفينة القيادة لإدوارد الثالث والمسماة « توماس » حمولتها حوالى ٢٧٥ طن وطاقمها مكون من ١٣٧ رجلا . كما أصبح للسفن جوانب عالية وأسطح مرتفعة عند مقدمتها ومؤخرتها . وعادة ما كانت القوة الدافعة فى السفينة هى شراع مربع واحد كبير . وكانت التـكتيكات المستخدمة فى البحر هى نفس التـكتيكات المستخدمة على البر ولم يكن الاختلاف إلا فى نوع التسليح . وقد قاتل الفرنسيون عند سلويز بالسيوف والرماح وبعض من القوس النشاب ، بينما قاتل الإنجليز بفرسانهم المترجلين . ولـكن اعتمد الإنجليز أساساً على حملة الأقواس الطويلة[1] وكان إدوارد الثالث يتولى القيادة بنفسه ، وكان لدى الإنجليز ١٤٧ سفينة بينما كان لدى الفرنسيين ١٩٠ سفينة . ونظم كلا الجانبين أسطولهما فى ثلاث مجموعات ، ولـكن الفرنسيين ربطوا سفن كل مجموعة مع بعضها بحيث تـكون لديهم ثلاث أرضيات عائمة كبيرة لجنودهم ، أما الإنجليز فاتخذوا تشكيلا أكثر مرونة ويتـكون من سفن متعاقبة تحمل الرماة والفرسان المترجلة . كان الأسلوب التـكتيكى الإنجليزى فى إطلاق قصف أولى للمقذوفات من على مدى بعيد بهدف إضعاف قوة العدو ، ثم بعد ذلك يتم الاقتراب منه حتى يتمكن جنودهم المسلحين بالرماح والسيوف من إعتلاء سفن العدو ومقاتلة جنوده . وبعد قتال دام ثمان ساعات إنهزم الفرنسيون . وفقد الفرنسيون فى هـذه المعركة ثلاثة أرباع رجالهم وسبعة أثمان سفنهم .

وبالرغم من أنه لم يحدث معارك برية كبيرة إلا بعد أبتداء الحرب بحوالى ١٠ سنوات إلا أنه حدثت حملات عديدة أعطت لـكلا الجانبين الفرصة ليشعر بالآخر . ولقد تشابه تسليح ومعدات فرسان كلا الجانبين ، وكانت البدلة المدرعة والتى على شـكل زردات معدنية فى طريقها إلى التحول إلى ألواح معدنية لها شـكل ملائم للجسم ، وأصبحت الخوذة أكبر

---

(١) تطلق سهاماً خاصة مزودة برؤوس عريضة لتقطع الأشرعة وحبال الأشرعة والصوارى للسفن المعادية . « المعرب »

وأكثر قوة ومتانة بينما صغر حجم الدرع وأصبح المهاز من المظاهر البارزة لهذا العصر . وكانت الأسلحة الرئيسية عبارة عن سيف ورمح طوله ١٤ قدماً أو خنجر طويل أو خنجر المسمى « خنجر الأجهاز والرحمة » . وتشكلت الوحدات التنظيمية من أتباع الفرسان وكانت تنقسم إلى مجموعات أو « مرازيق » كل منها تتألف من ثلاثة أو أربعة مقاتلين . وكان لدى الجانبين الإنجليزى والفرنسى بعض الأسلحة النارية ، ولكن لم تكن لهذه الأسلحة أى فائدة تكتيكية فى هذا الوقت . أما نقطة الإختلاف بين الإنجليز والفرنسيين والتى تفوق بها الإنجليز هى التدريب والتجنيد ونوعية المشاة ، فالمحترفون الإنجليز كانوا على جانب كبير من النشاط والحيوية نتيجة للنجاح الذى حققوه فى أسكتلندا ، بينما كان مجندوا الأقطاع الفرنسى لم يكن لديهم أى خبرة قتالية منذ ٢٥ عاماً اللهم إلا بعض الحملات القليلة فى داخل جيين . وكان لدى الفرنسيين وحدات من المشاة حملة النشاب بينما كان لدى الإنجليز قوة كبيرة من الرماة الذين يستخدمون سلاحاً مداه ضعف مدى القوس النشاب ويعطى ستة أضعاف معدل نيران النشاب .

وقبل وقوع الصدام الكبير الأول بين الجانبين فى معركة كريسى عام ١٣٤٦ ، تلقى الفرنسيون درسين قاسيين ذاقوا فيهما طعم المرارة الحادة من قوس الإنجليز الطويل . ففى عام ١٣٤٢ عند موقعه مورليه ، وضع إيرل نورثامبتون رجاله فى خنادق دفاعية على سلسلة مرتفعة خلف أحد المستنقعات ، وقد وضع فى الوسط فرسانه المترجلين بينما وضع الرماة على الجناحين . وعند بدأ القتال قصف الرماة سيل منهمر من سهام الأقواس الطويلة على فرسان الفرنسيين المهاجمة مما أدى إلى حدوث إضطراب مرعب وفى هذه اللحظة إنقض عليهم من أعلى الفرسان الإنجليزية . ومرة أخرى تصيد الفرنسيون أحد الطوابير الإنجليزية عند « سانت بول دى ليون » فى بريتانى وحاصروه ، ولكن الإنجليز ثبتوا وأمطروا عدوهم بوابل من السهام ونتج عن ذلك أن القتال أصبح مذبحة حقيقية للفرنسيين .

وفى الفترة من ١٣٤٥ — ١٣٤٦ بدأ أدوارد الثالث يفكر فى إستراتيجية طموحة ، وذلك بمهاجمه فيليب الرابع ملك فرنسا على خطوط خارجية أى فى كل من بريتانى وغاسقونيا والفلاندر . وقام كل من إيرل نورثامبتون وسيرتوماس داجورت بحملات ناجحة فى

بريتانى بينما عمل إيرل دربى فى الجنوب الغربى . وفى عام ١٣٤٦ أثير فيليب وتقدم نحو دربى، ولكنه اضطر إلى العودة شمالا فى يوليه عندما وصلته أنباء نزول أدوارد الثالث قرب شربورج ومعه أكثر من ١٠،٠٠٠ مقاتل، وعلى الفور دفع من دربى بحمله خداعية فى إتجاه بوتييه .

وبعد كل هذه الهجمات ، كان أدوارد يأمل أن يحث ذلك فيليب فيقدم شروطاً للاتفاق أو يقابله فى معركة حاسمة ، ولكن إستراتيجية كانت غير محددة المعالم . وتقدم الجيش الإنجليزى على جبهة عريضة ، وكان تقدمه هذا من خلال كثير من الأراضى التى قاتلت عليها جيوش الحلفاء بعد غزو نورماندى فى يونيه ١٩٤٤ . ودمرت القوات الإنجليزية جميع قواعد السفن والسفن نفسها على طول الساحل ، وتم الإستيلاء على كان فى ٢٦ يوليه ، واستمر الزحف حتى نهر السين وبعد هذا واجهت أدوارد المشاكل ، فقد عاد الكثير من سفنه إلى إنجلترا ولم يعد لديه مواصلات مأمونة فى الخلف ، فى نفس الوقت كان يتقدم من الجنوب جيش فرنسى كبير . وهنا برز له السؤال التالى ألا يكون من الاكثر أمنا التحرك بعيداً إلى الشمال الشرقى نحو الفلاندر ، فهذا يعطيه الأمل فى الإتصال بقوة الإنجلو — فلا ندريه والتى كانت تتقدم جنوباً من أبرس ؟ ولكن لم يكن فى استطاعته كما كان يأمل عبور نهر السين عند روفن نتيجة لتدمير الكوبرى الموجود بها .

ولكن ذلك لم يثبط من عزيمته ، وبسرعة قرر التقدم بجيشه بمحاذاة نهر السين حتى يجد مكانا صالحاً للعبور والذى وجده عند بوس بالقرب من باريس، وعبرت القوات الإنجليزية ولحسن حظه أن فيليب فشل فى مهاجمته ، فتقدم أدوارد بأقصى سرعة فى إتجاه السوم . وفى ٢٢ أغسطس وصل إلى ابيفيل ، أما فيليب فى ذلك الوقت كان عند مدينة أميئس . وفى ٢٣ أغسطس وصلت مقدمة الفرنسيين إلى ايرينى بعد ان غادرتها مؤخرة الإنجليز بساعتين . والآن أصبح موقف ادوارد حرجاً لأن عليه عبور نهر السوم والذى يعتبر فى الواقع عائقاً كبيراً . وانني اعرف هذه المنطقة جيداً فقد خضت على ارضها غمار حربين عالميتين ، ولذا يمكننى ان اتصور بجلاء مشاعر واحاسيس ادوارد . ولكن فى تلك اللحظة العصيبة لم ينقذ ادوارد سوى شجاعته وقراره السريع الحاسم . ففى ليلة ٢٣ اغسطس عرض مكافأة كبيرة

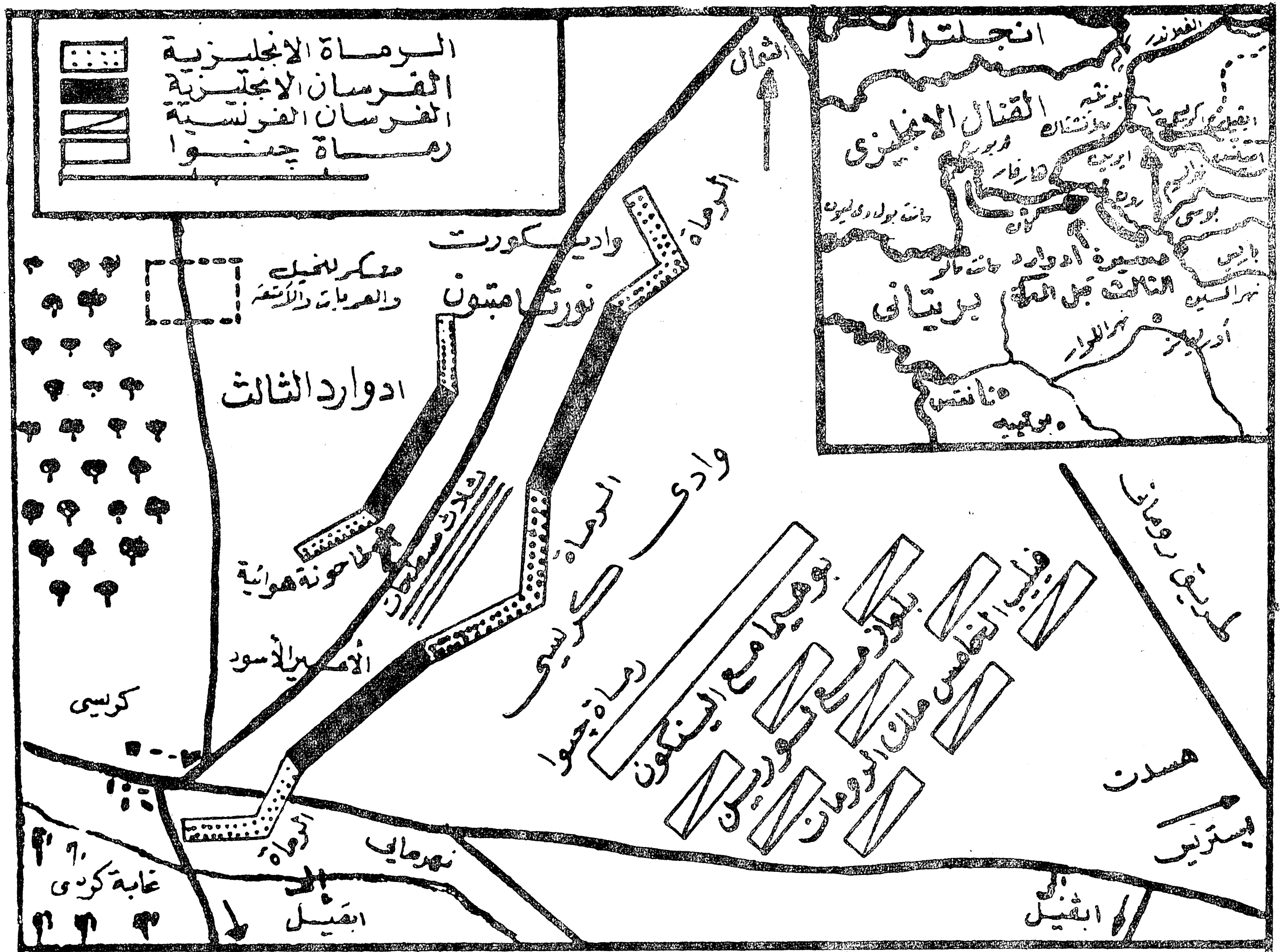

اللوحة رقم ١٨ – معركة كريسي

لأى شخص يدله على مخاضه لعبور السوم ، وفعلا تقدم أحد السكان الفرنسيين وخان بلده وأرشد الإنجليز ليلا عن مكان على نهر السوم عند قرية بلاشتاك التى تبعد ١٠ أميال اسفل ابفيل ... وكان النهر هناك عريضاً جداً ويحتل العدو الضفة الأخرى بقوة مكونة من ٥٠٠ فارس و ٣٠٠٠ من المشاة . وفى صباح اليوم التالى تقدم الرماة الإنجليز للعبور، وبالرغم من بلل اوتار الأقواس ووصول المياه إلى وسط الأفراد فقد استطاعوا تطهير الضفة المقابلة مما ساعد الفرسان فى شق طريقهم من ورائهم . ثم بدأ حرس المؤخرة فى عبور النهر وهى تقاتل فى نفس الوقت القوات الفرنسية القادمة من الخلف . والأمر الغريب أن القوات الفرنسية لم تقم بعد ذلك بمطاردة تالية للقوات الإنجليزية .

ولقد كان العبور الإنجليزى وعدم وقوع قواتهم بين براثن القوات الفرنسية عند بلانشتاك عملا ممتازاً اشتركت فى ابرازه جميع اسلحتهم .

الحائط الانجليزى المدرع (انظر اللوحة رقم ١٨)

وفى ٢٥ اغسطس أستراح الجيش الإنجليزى عند حافة غابة كريسى بينما كان الجيش الفرنسى موجود عند بونثيه والتى تقع على بعد ١٠ اميال شمال ابفيل . قد قرر ادوارد ان يخوض المعركة مع الفرنسيين ، ويبدو واضحاً ان فيليب وصل ايضاً إلى نفس القرار . وكان ادوارد يشعر بأنه مضطر للدفاع عن إملاك جدته فى كريسى آن بونثيه وهذا بالإضافة الى ارتفاع معنويات جيشه بعد معركه بلانشتاك . وقد علم ادوارد ايضا ان الفرنسيين أوقفوا التقدم الأنجلو/ فلا ندرى على مسافة ٥٥ ميلا الى الشمال وهذا يعنى انه لا يتوقع اى مساعدة منهم .

ولكن فى نفس الوقت كان الأصدقاء من الفلاندريين على مسيرة ٣ ايام فقط إلى الشمال علاوة على عدم وجود اى عوائق طبيعية فى حالة الإنسحاب شمالا .

وفى صباح ٢٦ أغسطس ١٣٤٦ أعد أدوارد الثالث جيشه للمعركة ، وكان لديه فرصة إختيار المكان وأيضاً الوقت الكافى لحشد وفتح قواته للقتال . وعلى الفور اختار موقعاًدفاعياً قويا لسببين، الأول أنه يعلم أن عدوه يفوقه عدداً والثانى أن ذلك الموقع سوف يلائم أسلوبه التكتيكى . وكان هذا الموقع الدفاعى عبارة عن سلسلة مرتفعة من الأرض تمتد حوالى

٢٠٠٠ ياردة فى إتجاه الشمال الشرقى من قريه كريسى إلى مجموعة المنازل واديكورت .

وكان هناك نهير يسمى ماي يجرى من الشرق إلى الغرب مارابكريسى ، وكان هذا النهير يبعد عن نهاية السلسلة الجنوبية (الجناح الأيمن الإنجليزى) بمسافة حوالى ١٠٠ قدم وفى هذا المكان كانت السلسلة حادة الميل ولأسفل ولكن فى الشمال الشرقى كان الميل يتدرج حتى يصبح قليلا جداً عند الجناح الأيسر الإنجليزى .

وخلف السلسلة بمسافة بضعة مئات من الياردات كانت توجد غابة . وزاد من القوة الطبيعية للسلسلة وجود ثلاثة مسطحات مدرجة من الأرض فى المنتصف . وكانت هذه المسطحات والتى يبلغ طول الواحدة منها حوالى ٣٥٠ ياردة ، أقيمت أصلا بغرض الزراعة ، ولذا كان من الصعب جداً على الفرسان أن تتغلب عليها واجتيازها وبذا حمت القرية والمجرى المائى الجناح الأيمن للانجليز تماما . أما الجناح الأيسر ولو أنه كان أضعف كثيراً إلا أن ذلك لم يكن له قيمة كبيرة نظراً لضرورة تقدم الفرنسيين على طول طريق ابيفيل — هسدن الذى يقع على اليمين . وهذا الخط الدفاعى الكبير الممتد حوالى ٢٠٠٠ ياردة لم يكن لدى أدوارد أكثر من ١٢٠٠٠ — ١٣٠٠٠ مقاتل فقط لإحتلاله ، ولكن استطاع أدوارد التصرف بأن ترك المسطحات يدافع عنها عدد قليل من الرجال مما أدى أن العدد الكلى لجيشه كان كافيا للدفاع عن المنطقة كلها . وقرر أدوارد أن يستخدم أسلوب معركتى تل هاليدون وموريلكس بأن يستخدم الفرسان مترجلين ، لذلك ترك الخيل والأمتعة الثقيلة فى معسكر محصن فى الخلف بالقرب من النهر . ووضع مجموعة الفرسان الأولى والرئيسية على اليمين فى أسفل الميل وعلى مسافة حوالى ٣٠٠ ياردة فقط من قاع الوادى وكان قائد هذه القوة الأمير الأسود البالغ من العمر ١٧ عاما ، وكان يعاونه كل من جدفرى هاركورت وايرل ورويك . بينما وضعت المجموعة الثانية من الفرسان المخضرمين على اليسار وإلى حد ما فى أعلى الميل تحت قيادة ايرل نورثا مبتون . ووضعت المجموعة الثالثة من الفرسان(١) خلف منتصف الخط بقليل لتكون احتياطى للقوات .

ووضعت الرماة فى تشكيلات متداخلة ، فوضع جزء منهم فى الوسط للربط بين مجموعتى

---

(١) فرقة الملك . « المعرب »

الفرسان الأمامية بينما وضع جزء آخر على أجناب مجموعتى الفرسان الأمامية وبذا ربطوا الفرسان بالقريتين فأصبح الموقع يرتكز جانبيه على قريتى (كريسى ووادیكورت) ، كما وضع جزء آخر من الرماة على جانبى المجموعة الثالثة لفرسان أدوارد . وقد بلغت النسبة بين الرماة والفرسان الإنجليزية حوالى ٢ : ١ .

وجرى حفر شراك خداعية أمام مجموعة فرسان الأمير الأسود ، أمامركز قيادة أدوارد فكان فى طاحونة هوائية تقع على أعلى نقطة على السلسلة وتبعد حوالى ٧٠٠ ياردة من قرية كريسى ، ومن هذه البقعة أستطاع أدوارد السيطرة على كل الخط الإنجليزى علاوة على طريق الإقتراب المنتظر الفرنسى وهو الطريق القادم من ابيفيل .

وبعد أن تم للقادة توزيع وتحديد أماكن قواتهم وتمركزهم فى الخط الدفاعى ، أمتطى الملك أدوارد حصانه مارا على طول الموقع الدفاعى مشجعا جنوده ، لأن عرشه وملكه يعتمد على تصرف قواته فى هذه المعركة ، وحتى حلول منتصف اليوم لم يكن هناك أى أثر للعدو ، وبناء عليه منح أدوارد رجاله إذنا بترك الصفوف لتناول وجبه من الطعام . وترك كل رامى قوسه وجعبة السهام فى مكانه بينما ترك كل فارس خوذته . وموعد صلاة المساء أى حوالى الساعة ٤½ مساء أنهمرت الأمطار فجأة ، فهرع الرماة لتغطية اوتار أقواسهم ، وكان لا يزال لا يوجد أثر للعدو .

أما فيليب والذى ضللته مخابراته ، أعتقد أن الإنجليز بالقرب من نهر السوم ، وأصدر أوامره بالتقدم من ابيفيل عند الفجر ، ولكن افراد استطلاعه اخذوا يبحثون عن الإنجليز فى الإتجاه الخاطىء . ولم يتقدم الفرنسيون إلا بعد إنتهاء المطر مباشرة آتين من ابيفيل فى اتجاه مجرى مائى . وعندما ابصرهم ادوارد من مركز قيادته فى الطاحونة امر بالنفير فى الأبواق وهرع الجنود الإنجليز إلى أماكنهم .

أما جيش فيليب الإقطاعى فكان تحت قيادة مجموعة لامعة من الأمراء والنبلاء ، فكان بصحبته كل من الملك جون (ملك بوهيميا) وابنه شارل (ملك الرومان) وجيمس الثالث (ملك مينوركا) والكثير من فرسان فرنسا ومنطقة الراين المشهورين . وكان أفضل قوات الجيش الفرنسى هى فرسان الحرس الملكى و ٦٠٠٠ جندى مرتزق من حملة

النشاب من جنوا ، أما العدد الكلى للجيش الفرنسى فهو غير مؤكد على وجه التحديد ولكن يتراوح بين العدد الذى أوردته السجلات الإنجليزية المعاصرة للتفاخر وهو ١٠٠٫٠٠٠ وبين العدد الذى أقترحه البروفسير لو لحفظ ماء الوجه أى ١٢٫٠٠٠ . أما أنا فأعتقد أن الرقم ٤٠٫٠٠٠ هو الرقم الذى يمثل تقريباً الحقيقة .

وقد لوحظ من على بعد أن الجيش الفرنسى المتقدم يسوده بعض الإضطراب وسوء النظام ، ومن الممكن أن يكون ذلك سبب تغييرهم اتجاه سيرهم ، وساء الموقف أكثر عندما شاهد فيليب الحشد والنظام الإنجليزى مما أدى أن قرر من الأفضل تأجيل المعركة حتى اليوم التالى ، وأطاعت مقدمة الجيش هذا الأمر بينما لم تطعه المؤخرة . ووجد رجال المقدمة أنفسهم مجبرين على مواصلة التقدم تحت ضغط المؤخرة وبدون أوامر محددة وواضحة . وأكثر من ذلك كان الاقتراب الفرنسى نحو جبهة الإنجليز فى زاوية مائلة مما أضطرهم إلى الدوران لليسار نصف دورة فى آخر لحظة حتى يمكنهم مواجهة الخط الإنجليزى فى شكل مباشر . ولم يمكن تجنب عدم الإنتظام خلال هذا الدوران الذى وصل إلى حالة من الفوضى فى الميل الأخير . وغير معروف بالضبط التشكيل الفرنسى الذى واجه الإنجليز بل أنه من أكثر الأمور غموضاً . ولكن من المحتمل وعلى أساس نظرى أن الفرسان الفرنسية انقسمت إلى ثلاث مجموعات ، قاد المجموعة الأولى ملك بوهيميا وكونت الينكون بينما قاد المجموعة الثانية الكونت بلوزا ودوق اللورين ، وقاد المجموعة الثالثة الملك فيليب نفسه ومعه ملك الرومان، وفى المقدمة سار حملة النشاب من جنوا . وواجهت شمس الغروب المنخفضة أعين الفرنسيين ، الأمر الذى يشكل خطراً جسيماً فى المعركة سواء أكانت معركة دفاعية أو هجومية . وقد قمت باتباع هذا الأسلوب التكتيكى فى معركة خطر مارث فى مارس ١٩٤٣ حيث دفعت هجومى المضاد ضد آخر مواقع الألمان القوية عند النهاية الشمالية لتلال «ماتماتا» ليهاجم من اتجاه الشمال الشرقى بعد الظهر ، فى الوقت التى كانت فيه أشعة الشمس الإفريقية آخذة فى الرحيل ، وبكل بريقها وسطوعها ينفذان مباشرة فى أعين الألمان .

ولنعد الآن إلى فيليب وإدوارد ، فنجد أن الإنجليز أنتظروا فى سكون بينما تقدم الفرنسيون وهم يطلقون صيحات المعركة وهم واثقين على الأقل من تفوق عددهم . وعندما

أصبح رماة جنوا فى مدى القوس الطويل[1] ، أطلقت أول قصفة انجليزية ، وما هى إلا دقائق حتى بدأ رماة جنوا فى التخبط والاضطراب وساد الذعر عندما أطلق الإنجليز مدفعهم[2] . وتقول الوثائق « أن المدفع أحدث صوتاً كصوت الرعد » .

ولقد كان ذلك حدثاً هاماً وخطيراً بالرغم من أن تأثير المدفع لم يتجاور مجرد أحداث صوت كصوت الرعد . وبالرغم من هذا واصل فرسان الفرنسيون تقدمهم خلال رماة جنوا التى أصابها الهرج مما أدى أن الخيل وطئت الكثير من رماة جنوا ، بينما استمر القوس الطويل فى عملية إبادة الفرسان الفرنسية .

وتقول الوثائق « ترك الرماة الإنجليزية سهامهم تطير حرة كيفما اتفق ، ولم يضيع لهم سهماً واحداً ، لأن كل سهم ينطلق كان يعنى نهاية رجل أو حصان . . وهكذا سقط الفرسان الفرنسية قتلى أو جرحى دون أن يبصروا قاتليهم » .

ومن المرجح أنه لم يصل رجل واحد من المجموعة الأولى للفرسان الفرنسية إلى مسافة الإلتحام مع الإنجليز ، ولكن الموجة الثانية للفرسان الفرنسية هاجمت وهى تخوض فى جثث وأشلاء الموجة الأولى . ولم يكن استمرار المعركة يعنى فى الواقع أكثر من مواصلة حشود الفرسان الفرنسية بهجمات انتحارية ، وقد عرف الإنجليز بعد المعركة أنهم دمروا من بداية المعركة حتى نهايتها حوالى ١٥ هجوماً فرنسياً متوالياً . وباندفاع مستميت وشجاعة يائسة أنطلق الفرنسيون إلى أعلى الميل محاولين فى كل مرة الوصول إلى فرسان الإنجليز بطريقة بعيدة عن الطرق التقليدية ، ويرجع السبب الفعلى إلى أنه لم يكن فى استطاعتهم أو خيلهم مواجهة سهام الإنجليز . فالرماة الإنجليزية يطلقون أولا قصفاتهم لبعثرة العدو وإبطاء قوته الدافعة ، وبعد ذلك يقصفون أجنحة المهاجين . واستطاعت مجموعات قليله من أشجع الفرسان الفرنسية مثل جماعة أتباع ملك بوهيميا ، من الوصول إلى مواقع الفرسان الإنجليزية ولكن ليقتلهم رجال أكثر عدداً وراحة منهم . وقد عرقلت كل موجة هجوم فرنسية تاليه البقايا المنسحبة من الهجمة السابقة واستمرت الهجمات

(١) قبل أن يتمكن رماه جنوا من استخدام سلاحهم ضد الإنجليز .

(٢) كان أول مدفع يستخدم فى معركة هامة . « المعرب »

الفرنسية لوقت طويل حتى أنها استمرت بعد حلول الظلام ، ولكن أكثرها كان عشوائياً وبدون تأثير فى حين ظل الحائط الإنجليزى المدرع ثابت دون أن يضطرب أو يتذبذب .

وراقب أدوارد الواثق من أسلوبه التكتيكى سير المعركة من طاحونته ، وفى المساء دفع مجموعة الفرسان الموجودة على اليسار إلى أسفل قليلا جاعلا إياها تدور لتواجه الجنب الفرنسى الأيمن ولكى ترفع الضغط عن فرسان الأمير الأسود ، ولكن إدوارد لم يحتاج أبداً لإستخدام أحتياطيه الذى ظل فى مكانه فى الوسط . وقد أبقى أدوارد جميع قواته فى حالة تأهب كامل طول الليل ، لأنه لم يدرك الموقف الحقيقى حتى هذا الوقت . وانتهت المعركة ولم تحدث أى مطاردة للقوات الفرنسية . وفى ٢٧ أغسطس كان الضباب منتشراً وأمضى الإنجليز هذا اليوم فى تطهير ميدان القتال .

نهاية عصر الحصون المنيعة

إذا ألقينا نظرة على معركة كريسى لوجدنا أن جيشاً إنجليزياً مدرباً ومسلحاً جيدا وواثقاً من نفسه ويقوده قائد مجرب وخبير تقريباً بمعظم أساليب التكتيك الجديد لهذا العصر ، أستطاع أن يلحق الهزيمة بالجيش الفرنسى الأكبر منه عددا ولكنه حشد على عجل فى نفس الوقت غير مدرب ومتعدد الأشكال والجنسيات ومتأخرا عن زمانه علاوة على قيادته الغير حازمة .

وعلى كل كان السبيل الوحيد الحكيم الذى يجب أن يتخذه فيليب هو التوقف خلال ليلة ٢٦ أغسطس وفى الواقع قد أمر به فعلا ولكن كانت لدى بعض مرؤوسيه أفكارا أخرى . وعلى العموم فمن الواضح أن فيليب كان يفتقر إلى أحكام قبضته على جيشه وهى ضرورية جدا وخاصة فى المعركة التصادمية .

ونتج عن ذلك أن اندفع الجيش الفرنسى دون أن يفتح فى تشكيل المعركة المناسب وأيضاً بدون السيطرة الضرورية فى المعركه . ومن الناحية التكتيكية كانت معركة كريسى القمة المنطقية لسلسلة الإنتصارات التى حققتها حملة الأقواس الطويلة منذ معركة قنطرة أروين أى منذ ٦٤ عاما . واتبع إدوارد انتصاره فى كريسى باستيلائه على كاليه[1] . ولكن كانت

(١) كانت رأس شاطىء عسكرى وتجارى مفيد للانجليز لـ ٢٠٠ عاماً مثل جبل طارق فى العصور التالية . « المعرب »

النتيجة الاستراتيجية لمعركة كريسى فى حرب المائة عام هى معنوية فوق كل شىء ، فقد برز الإنجليز فى شكل الشعب العسكرى القيادى لأوروبا ، وأصبح واضحاً أنهم لن يتخلوا عن مغامراتهم فى فرنسا حتى يتمكن الفرنسيون من إيجاد وسيلة لطردهم خارجها .

وقد ظل إدوارد الثالث قائداً عاما للانجليز حتى عام ١٣٦٠ وهى السنة التى هدأت فيها ثائرة الحرب بعض الوقت نتيجة لمعاهدة كاليه . ومما يذكر أن الأمير الأسود حقق نصراً عظيما عن بوايتيه عام ١٣٥٦ . وظلت معنويات الجيش الإنجليزى عالية كما سبق . وقد ظل إدوارد الثالث ينتهج إستراتيجية ثابتة وواحدة لمدة ٢٢ عاما ، وهى فترة طويلة تماثل مدة الحرب النابليونية ، بينما كان جنوده يتبعونه واثقين دائماً من قيادته . وأكثر من ذلك فكان الترابط والولاء من أبرز مظاهر أفراد قيادته العليا الذين منهم دربى ووريك ونورثامبتون وهوكود وشاندوس.

إلا أن الحرب تجددت مرة ثانية عام ١٣٦٩ ، وجرى قتال متقطع عديم الجدوى ، بل أن معظم هذا القتال كان عبارة عن قطع الطرق والسلب والنهب . واستمر هذا الحال حتى جاء غزو هنرى الخامس عام ١٤١٥ مغيرا من مظهر هذا القتال . وكانت الشخصية السائدة والمسيطرة قبل قدوم هنرى هى نبيل فرنسا « برتراند دى كويسلين » وكانت أستراتيجيته فى الحذر مع تجنب المعارك الكبيرة الضارية والتركيز على الإنقضاض على الطوابير الإنجليزية المنعزلة ، مما أدى فى عام ١٣٧٧ إلى انقاص الممتلكات الإنجليزية بجنوب فرنسا إلى مجرد منطقة لا يتجاوز نصف قطرها ٢٠ ميلا حول بوردو . وعلى العموم لم يعتن الفرنسيون بتجديد جيشهم ليلاحق بركب التطور فى نفس الوقت رفض الإنجليز الذين لم يهزموا فى معركة حقيقية التخلى عن غزوهم لفرنسا . وكثيرا ما تقدم قواد انجليز بطابور من الرجال خلال ارض العدو، ولم يتعدى أكثر من مرور تدميرى، وأكثر هذه المسيرات شهرة كانت مسيرات جون جنت عام ١٣٧٣ ، فقد تحرك من كالية ومعة ١٥٠٠٠ مقاتل ليخلص جيين ولكن الشتاء هاجمه أثناء مسيرته فى السلسلة الجبلية فى وسط فرنسا ، إلا أنه أستمر فى التقدم عبر الوادى ليصل إلى بورد وبعد أن قطع ١٠٠٠ ميل فى ٥ أشهر ونصف ، وقد فقد خلال هذا التقدم نصف جيشة دون أن يشتبك فى معركة واحدة .

وإلى حد ما فقد حدث بعض التطور فى تكتيكات ودروع الفرسان الفرنسية بعد معركة كريسى ، وذلك للمحاولة للتغلب على مشكلة السهام الإنجليزية . وعلى عام ١٤٠٠ إكتملت عملية النقل من الزرد إلى الدرع المصفح وأصبح الفارس الفرنسى فى داخل الدرع من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، ولكن كان معنى تحقيق مطلب الأمان والوقاية فقد عنصر خفة الحركة والذى يفوق فى أهميته أى عنصر آخر .

فالأكثار من دروع الوقاية معناه تحمل الجندى الراكب أثقالا تجعله عاجزاً عن الحركة. وفى معركة بواتييه عام ١٣٥٦ قام الملك جون (ملك فرنسا) بمثل ما قام به النمساويين فى معركة سمباك وذلك بأن أمر فرسانة بالقتال مترجلين وكانت النتيجة هزيمة نكراء له وللنمساويين .

وقد حاول جون أن يهزم المشاة بنفس أسلوبها ولكن بدون أن يفهم كيف تكسب المشاة ، ويعنى هذا أنه ضحى بأثمن ما لديه من عناصر خفة الحركة والصدمة . وعلى أى حال ظل الفرسان الفرنسية تعمل مترجلة لمائه عام لاحقة ، كما نبذ استخدام الرمح . وفى معركة أجنكورت لم يجد رماة الإنجليز [1] أى صعوبة فى هزيمة الفرسان الفرنسية المترجلة المنقادين معا فى شكل قطيع أخذ يتعثر فى الأوحال ، وفى النصف الثانى من حرب المائة عام أى من عام ١٤١٥ بدأت المدفعية تؤثر على شكل الحرب ، وتطور المدفع من شكله القديم الذى يشبه الفازة وأصبح ذو شكل إسطوانى ، كما أن تقدم طرق سبك المعادن جعل من الممكن صناعة مدافع قوية وكبيرة بدرجة يمكنها من قذف مقذوفات زنة ٢٠٠ رطل . وفى مستهل حملة هنرى الخامس ضد فرنسا عام ١٤١٥ قام بحصار هارفلير ، وعندما فشلت الأساليب التقليدية فى تقويض الأسوار ، لجأ إلى المدفعية ، وكان لديه ١٠ مدافع ، منهم ثلاثة بصفة خاصة حجمها كبير وقد سمى كل مدفع بأسم معين مثل « لندن » و « بنت الملك » . وفى حصار هارفلير نظم كبير المهندسين جيلس عملية قصف منظمة وثابتة ليلا ونهارا ، وركز القصف بصفة خاصة على الأسوار المحيطة بالبوابة . وبعد ٢٧ يوما كانت البوابة والحصن الأمامى قد أصبحا حطاما ، وبعد ذلك أشعل جيلس النار فى أجزاء السور الخشبى بأستخدام دانات حارقة . وعندما أقتحمت

---

(١) فى هذه المعركة أصيب الرماة الإنجليز بالدوسنطاريا . «المعرب»

القوات الإنجليزيه المدينة من مكان الصدع الذى أحدثته المدفعية استسلمت المدينة . ومع تحطيم مدفعية هنرى لأسوار هارفلير أنقضى عهد الحصون المنيعة ، ولكن لم يحدث حتى نهاية القرن ١٥ رد فعل مضاد من المهندسين العسكريين .

ظهور جان دارك

وبحلول عام ١٤١٩ ، كان هنرى الخامس قد أعاد الإستيلاء على نورماندى ، ولكنه مات عام ١٤٢٢ .

ومنذ وفاته حتى ١٤٥٣ استطاع الفرنسيون تدريجياً طرد الإنجليز خارج الأراضى الفرنسية .

وكانت جان دارك إحدى الشخصيات القائدة فى إلهام الفرنسيين ورفع معنوياتهم لاسترداد أرضهم .

وكانت جان دارك فتاة قروية قدمت نفسها إلى بلاط الملك الفرنسى الكسول شارل السابع . وعندما قابلت جان دارك الملك أخبرته أنها تعلم كيف تكسب الحرب . ويبدو أن ظهورها فى نفس الوقت الذى ضرب الحصار حول أورليانز فى عام ١٤٢١ قد أثار حمية الفرنسيين وهبوا لتطهير وسط فرنسا من الإنجليز وقد قال الدوق النيكون أن جان دارك كانت خبيرة فى تمهيد المدفعية .

وأخيراً . . أسرت القوات الإنجليزية جان دارك وأحرقت حية فى عام ١٤٣١ . وعلى كل لا يمكن الجزم ما إذا كانت لدى جان دارك مقدرة إلهية أو أنها كانت مجرد آلة فى أيدى القادة الفرنسيين ، ولكن هناك شىء واحد واضح وهو أنها أعادت بالتأكيد الروح المعنوية للجيش الفرنسى والتى كانت حطمتها السلسلة الطويلة من الكوارث ، ويبين هذا الأمر أن جان دارك كان لديها عبقرية سيكولوجية .

القلاع المتحركة

وقد كان تفوق الفرنسيين فى المدفعية هو السبب الرئيسى لنجاحهم فى الحرب . ومن رجال المدفعية الأوائل البارزين هو « جان بيرو » الفرنسى ، وقد ذاعت شهرته لأول مرة فى الحصار الفرنسى الناجح لمايو فى عام ١٤٣٩ ، وكما يقال أنه فى عامى ١٤٤٩ — ١٤٥٠

أى فى عام واحد قاد « بيرو » وشقيقه ٦٠ عملية حصار ناجحة خلال استعادة فرنسا للنورماندى .

وفى معركة كاستيلون عام ١٤٥٣ كان لدى الجيش الفرنسى تحت قيادة بيرو ٢٥٠ مدفعاً . وتكبد الإنجليز خسائر فادحة بسبب نيران المدفعية الفرنسية المتقاطعة والأمامية . وعلى العموم لقد استخدمت مدفعية الميدان قبل هذا الوقت بعدة أعوام فى شرق أوروبا كوسيلة ثالثة تستخدمها المشاة لهزيمة الفرسان الثقيلة .

وفى بوهيميا تولى جون زيسكا القيادة العسكرية لحركة الهسيين(١) عام ١٤١٩ وبعد عدة اشتباكات فى شوارع براغ انسحب زيسكا ومعه ٤٠٠ من أتباعه و١٢ عربة تحمل المدافع إلى معقل الهسيين المنيع فى الجنوب عند « طابور » .

وعند قرية سدومر ألتقت قوات زيسكا مع ٢٠٠ فارس ملكى ، وهناك نشر زيسكا قواته بقدر ما أمكن أن توفر له الأرض من حماية لأجنابه ، كما نظم عرباته التى تحمل المدافع فى شكل متشابك مكونة حصناً ، وكان النصر من نصيب الهسيين .

ومع عام ١٤٢٠ تم تنظيم مدينة « طابور » فى مجتمع يعيش فى حالة استعداد دائم للحرب. وأعلن البابا الحرب المقدسة لإستئصال جذور الهسيين، وتجمعت لهذا الغرض قوات كاثوليكية كبيرة .

وفى سنوات الحرب التالية ، بدأ زيسكا يظهر كمفكر عسكرى ثاقب الفكر . وضرب عرض الحائط بأسلوب العصور الوسطى الذى يتضمن عدم إمكان هزيمة الفرسان وقداستطاع هزيمتهم بالموارد التى كانت تحت يديه .

وقد لمعت له فكرة عمل عربة محصنة عندما شاهد الفرسان وهم بلا حول ولا قوة أمام التحصينات ، وقد استخدم فى ذلك عربات الفلاحين العادية ، وركب المدافع على ظهرها ورتبها فى شكل دائرى ، تماما كما فعل الرواد الأوائل الأمريكيون بعده بـ ٤٠٠ سنة .

---

(١) كانت ثورة دينية ووطنية وشعبية . « المعرب »

وفى الدفاع فقد أعطى نظام العربات المحصنة المتشابكة والمدافع عنها بالأسلحة النارية مزايا القلعة الحصينة علاوة على خفة الحركة .

وكان لدى زيسكا عين ممتازة فى اختيار الأرض المناسبة والتى عادة ماتكون قمة تل صغير وقد ملئت الثغرات بين العربات بحواجز تحمل معهم ، وكل عربة تحمل مدفعين صغيرين أو ثلاثة ، أما المدافع الكبيرة فركبت على عربات خاصة . ولقد كان زيسكا أول قائد استخدم مدفعية الميدان فى تنظيم وأسلوب منذ تجربة الإسكندر الأكبر فى « هايدباس » . وعلى كل فكان الجيش الهيسى يتكون من عدد بسيط من الفرسان للاستطلاع ومشاة من حملة النشاب ، وبالرغم من ذلك كان الجيش منظما بطريقة تتميز بالكفاءة والفاعلية .

وفى عام ١٤٢٠ ، عندما رضى زيسكا عن مستوى تدريب جيشه بدأ التحرك إلى براغ مستخدما نظامه الجديد ، وعند « فيتكوف » هزم الملكيين .

وفى نهاية الحملة عام ١٤٢١ كان الهسيون يسيطرون على معظم بوهيميا . واستمرزيسكا فى القيادة بالرغم من إصابته بالعمى نتيجة سهم أطلق عليه ، مخططاً لمعاركه على أساس المعلومات الدقيقة الصحيحة عن قوات العدو وأماكنها والتى كان يعرفها من إجابات معاونيه رداً على أسئلته .

وفى عام ١٤٢١ هزم الصليبيين عند تل فلدار ، وفى عام ١٤٢٢ هزم الملك عند كونتاهوراً .

وفى عامى ١٤٢٣ — ١٤٢٤ حدثت عدة خلافات ومنازعات بين الهسيين ، واستطاعت مجموعة الطابوريين بقيادة زيسكا هزيمة مجموعة الكالكستين (العشاربنين) ، واستمرت الحروب حتى عام ١٤٣٦ عندما اتفق الهسيون مع روما على شروط معقولة .

وفى عام ١٤٢٤ توفى زيسكا بمرض الطاعون وعمره ٤٨ عاما فقط ، واجتاح كل الجيش حزن عميق ، حتى أن جنوده بعد موته أطلق عليهم « اليتامى » . وبدون شك فقدوا قائداً عظيما ، فقد كان زيسكا رجلا شجاعاً ذا شخصية فذة وعلى خلق عظيم ، وقد حرر نفسه من قيود التقاليد القديمة ، واستطاع بعبقريته أن يستغل مصادر قوته المحدودة لإنتاج أسلوب تكتيكى منظم جديد ناجح .

وقد أثر تأثيراً فعالا على الأسـلوب التـكتيكى والاسـتراتيجى فى شرق أوروبا لمدة ٢٠٠ عاماً .

انقضى القرن ١٥ فى تثاقل بينما بدأ البارود فى قلب كل التقاليد والأساليب التـكتيكية رأساً على عقب .

ومن الأسلحة الثلاثة التى دمرت الفرسان الثقيلة (الرمح الطويل والقوس الطويل والمدفعية » ولـكن الأخيرة ظلت على قيد الحياة فترة أطول من الباقين . وانتهى العمل بالقوس الطويل كسلاح رئيسى للانجليز بمرسوم من مجلس شورى الملـكة أليزابيث الأولى عام ١٥٩٥ . أما حملة الرماح الطويلة السويسرية فقد ظلوا على حالهم لفترة من الوقت فى الجيوش النظامية الأوروبية حتى القرن ١٧ .

وعلى أى حال فقد تساوى كل من حملة الأقواس وحملة الرماح الطويلة فى كونهم أجداد رجل المشاة الأوروبى لما بعد العصور الوسطى ، فالبندقية ذات السونـكى جاءت من التزاوج بين مبدأ القذف والرمح . كما أن التحالف بين البارود والمواد الأخرى للدولة أدى إلى بدايات الحرب الحديثة .

الفصل العاشر

عظمة أسبانيا

بوابة الأطلنطى (أنظر اللوحة رقم ١٩)

جونز الفو القرطبى

كانت أسبانيا خلال القرن ١٦ هى الدولة القائدة فى تاريخ الحروب الأوروبية بعد أن كانت بلاداً غامضة ومتخلفة خلال العصور الوسطى .

ففى بداية القرن حصلت أسبانيا تحت حكم فيليب وإيزابيلا على وحدتها كما توفر لها هدف واضح جرىء . ووصلت إلى ذروة بأسها فى ١٥٥٠ تحت حكم شارل الأول ، وظلت محتفظة بأهميتها تحت حكم فيليب الثانى بالرغم من أنه فى عام ١٦٠٠ بدأت الشمس فى الأفول عن إمبراطوريتها المترامية .

وقد كان لأسبانيا دوراً رئيسياً فى كل الحروب الوراثية — الوطنية العظمى والتى دارت فى أوروبا أبان القرن ١٦ مثل الصراع بين الفلواز والهيبسبرج (١٤٩٤ — ١٥٥٩) والحروب الدينية الفرنسية (١٥٦٢ — ١٥٩٨) وحرب الاستقلال الهولندية (١٥٦٨ — ١٦٠٩) ، وأكثر من ذلك ففى الهجوم التجارى الجديد للاستعمار الأوروبى ، فكانت السفن الأسبانيه وفى أعقابها السفن الإنجليزية هى المسئولة عن التطور والتوسع الهائلين للأفق الاستراتيجى والسياسى الأوروبى والذى شمل كل من الأطلنطى والقارة الأمريكية المستعمرة حديثاً .

ومرة أخرى أخذت أسبانيا الدور القيادى فى التطور الذى ساد الأسلوب العسكرى البرى والبحرى سواء من الناحية التكنولوجية أو التكتيكية . وفى ذلك الوقت برز سؤلا هام وهو ماهو مستقبل المدفعية وأثرها على القتال ؟ .

وفى معركة جركينولا عام ١٥٠٣ أظهر بوضوح جونز الفو القرطبى والمعروف لدى الأسبان بالقائد العظيم أن المدفع اليدوى (بندقية اليد) والمعروف فى ذلك الوقت بإسم « القربينة » سيظل لسنوات عديدة هو السلاح الرئيسى المسيطر على المعركة .

وفى تلك الحقبة ، أدى تطور السفن الشراعية الكبيرة المسلحة بالمدافع أن استطاع الأوروبيين القيام بغزوات لا تقاوم فى بحار العالم .

وهذه السفن وصفها البروفسير كيبولا بأنها عبارة عن «جهاز متكامل سمح لطاقم صغير نسبيا أن يسيطر على هذه الحشود من الطاقة الساكنة ويحولها إلى طاقة حركة وتدمير» وهنا فسوف نجد أن سير فرانسيس دريك كان من أعظم المبدعين فى كل من مجالى الملاحة والتكتيك لهذه السفن الثورية .

وقد أصبحت الحروب البرية بالكامل تقريباً بعد عام ١٥٢٥ عبارة عن أعمال حصار ومناورة مع تجنب المعارك المفتوحة ذات المدى الكبير . وقد برز فى الجزء الأخير للحروب الأوروبية من القرن ١٦ ثلاثة قواد من أعظم قادة هذه الحروب وهم :— اسكندر بارما وأمبروجيو سبينولا وموريس ناسو وكان الإثنان الأولان فى خدمة أسبانيا .

وعادة ، يكون التفسير الذى يوضح كيف أرتقى أى شعب إلى العظمة العسكرية فى جوهرة أمراً غامضاً ومبهماً ، ولكن بالنسبة لعظمة أسبانيا فكان هناك سبب أو سببين لذلك .

فقد كانت قسطلة(١) أرضاً قاحلة جرداء تنتج قوما أقوياء فى صلابة ، كما أن الأسبان قد انتهوا توهم من عمل استغرق ثلاثة قرون وهو إعادة فتح بلادهم من العرب.

وفى عام ١٢٤٨ أستولى الأسبان على ميناء سيفيل والذى يعتبر بوابة الأطلنطى ، وفى عام ١٤٩٢ سقطت غرناطة ، آخر مراكز المقاومة المغربية .

وبذلك أصبح وراء الأسبان قوة دافعة تدفعهم للنجاح العسكرى .

وقد ركز الاسبان كل طاقتهم للحرب ، ولم تؤثر احتياجاتهم الاقتصادية على ذلك ،

---

(١) قسطلة إحدى مقاطعات أسبانيا . « المعرب »

لأن معظم التجارة كانت لاتزال فى ذلك الوقت فى أيدى المغاربة ، علاوة على أن الاقتصاد الريفى فى أنحاء البلاد لم يكن فى حاجة إلا لقدر ضئيل من العمالة ، يضاف إلى ذلك أن الأسبان كانوا يتوقعون أن الحرب ستكون أمراً مريحاً .

اضرب واهرب (أنظر اللوحة ١٩)

وخلال الحرب الإيطالية والتى نحن الآن على وشك مناقشتها ، فقد أمكن ولأول مرة ظهور اتجاه أوروبى عصرى واضحاً ومميزاً نحو الحرب،فقد كان هذا عصر الواقعية السياسية وعصر ميكافيلى ومبدأ « مصلحة الدولة العليا » . وحدث تطور بالنسبة للفصل فى المنازعات والتى كانت قاصرة على الكنيسة وأنشأت عدة قوانين دولية ودبلوماسية مع عودة الخدمة السرية ، وبالرغم من كل هذا فقد إندثرت الأساليب القديمة بصعوبة بالغة . وعلى كل فقد ظلت الأسلحة النارية ينظر إليها ولمدة طويلة على أنها خطر يهدد بجبن وبصورة لا أخلاقية مبادىء الكنيسة المسيحية والنظام الاجتماعى ، وبالرغم من هذا فقد استخدمت هذة الأسلحة وصنعت .

وفى عام ١٥٠٢ لخص روبرت بلزاك فى نظريته العسكرية الاتجاه الجديد ، وتم ذلك من وراء ستار من التفسير الملطف ولكن بطريقة أخلاقية ، فائدة استخدام الأسلحة النارية والتشكيلات الحديثة ، وضرورة القسوة فى مثل هذه الأمور للحفاظ على النظام . وقد شجع بلزاك المحافظة على المعاهدات ، ولكنه حذر قرائه بألا يعتمدوا على خصومهم من القوى الأخرى . وقد قال بنفس التحرر من العاطفة « إن النجاح فى الحرب يعتمد على أن يكون لديك أموالا كافية » .

وفى عام ١٤٩٤ قام شارل الثامن ملك فرنسا بغزو إيطاليا ، وقد ألتقى بمقاومة طفيفة قبل احتلاله لفلورنسا .

ويرجع سبب ضعف مقاومة الشعب الإيطالى للفرنسيين أن « سافونارولا » وصفهم بأنهم مثل الأشوريين القدامى أى أنهم « سيف الله » . وتقدم شارل إلى روما ، وفى العام التالى وبعد أن استولى على نابولى قرر أن يخلص نفسه من إيطاليا . وأثناء تقدمه شمالا مزق الفرنسيون جيشاً إيطاليا عند « فورنوفو » .

اللوحة رقم (١٩) أوروبا الغربية في القرن السادس عشر

ومهما كانت الحجج والتفسيرات ، بأن الدوافع التى حركت شارل فى الفترة (١٤٩٤ — ١٤٩٥) وكذا خلفاءه من بعده لويس الثانى عشر وفرانسيس الأول كانت الزهو بقوتهم العسكرية مع إمكانيات سلب الغنائم ونهب الثروات من أمة غنية متفرقة سهلة المنال .

وتفاصيل حروب ٦٠ سنة التالية ستكون فى النهاية قصة مملة تروى غزوات على طريقة «إضرب ثم أهرب» وأشكال من التحالفات المعقدة متغيرة الألوان وتحالفات مضادة تصل إلى أن يقتل الأخ أخاه .

وهذا العدوان الفرنسى لم يؤدى فقط إلى دفع كل الدول الإيطالية الصغيرة إلى الحرب ولكن أثار أيضاً ملك أسبانيا الذى ادعى أن نابولى من ممتلكاته وكذا الأمبراطور الذى كانت له مصالح تجارية تعتمد على تأمين المواصلات فى شمال إيطاليا والألب . وانتهز السويسريون الفرصة التى ستجلب لهم مالا وفيراً بعملهم كمرتزقة ، وقاتلوا مع الجانبين بدون تمييز .

وبعد عام ١٤١٩ تطورت الحروب الإيطالية إلى صراع أوسع بين الفلواز والهابسبورج وذلك عندما أصبح الملك شارل الأول ملك أسبانيا أيضا الإمبراطور شارل الخامس بالإضافة إلى كونه حاكما للبلاد الواطئة ولديه إدعاء يجعله يطالب بحكم بورجندى وشمال إيطاليا . ولكن من وجهة النظر العسكرية فالإهتمام بهذه الحروب مركز على بعض المعارك والحملات المعينة خلال المرحلة الأولى فى الصراع الإيطالى .

خدام الوطن

وفى عام ١٤٩٥ أنهى النصر الفرنسى تحت قيادة شارل الثامن عند فورنوفو على جيوش البندقية وميلان المجمعة تحت قيادة كونزوجا ، عصر حروب المرتزقة ، فعبر ٢٠٠ سنة السالفة أديرت الحروب بين المدن الإيطالية بواسطة عصابات من فرسان العصور الوسطى تحت قيادة جنود محترفين بأسم «الكوندتيرى[١] . وأصبح الكثير من حملات تلك الفترة ذو مظهر

---

(١) الكوندتيرى يعنى قائد جماعة من الجنود المرتزقة وقد أطلق عليهم هذا الاسم فى أوروبا بين القرن ١٤، ١٦ . «المعرب»

« علمى » إلى حد كبير لدرجة أن المعارك لم تكن أكثر من مجرد مناورات تستسلم فيها الجيوش عند ما يظهر من الناحية الفنية أنها قد طوقت أو أصبحت معزولة عن قيادتها . وكانت تلك الحملات ، كما كان يطلق عليها سير تشارلز أومن « مباريات فى الشطرنج تقبل فيها الهزيمة التامة من العدو وبالنذر اليسير من الدماء المسفوكة » ولذلك تلقى الإيطاليون صدمة عنيفة ووحشية عندما عبر الفرنسيون ومعهم المرتزقة السويسريون الألب بنيه الأستيلاء على المدن باقتحامها وذبح الأسرى. وقد نصب الإيطاليون كميناً محكماً عند « فورنوفو » ، ولكن عندما تلقى الإيطاليون الضربة التى وجهها إليهم الفرسان الفرنسية الراكبة[1] عزقوا كما يحدث للقش تحت ضربات شوكه الدراس ، ولكنهم تعلموا درساً قاسياً . وبالرغم من أن بعض قادتهم مثل « بروسبير كولونا » كان يفضل المناورة المعقدة وقد أحتفظ بها إلا أن الإيطاليين لجأوا الآن إلى الأسلوب الواقعى والعملى للحرب ، كما جهزوا أنفسهم بالأسلحة الحديثة والأسلوب التكتيكى العصرى لحملة الرمح وحملة القرابين .

وفى الفترة ما بين ١٤٩٤ — ١٤٩٥ فقد أظهر التقدم الكاسح لشارل الثامن على طول إيطاليا صعوداً وهبوطاً ما يمكن أن يعمله جيش حديث مزود بمعدات حديثة للحصار . وخلال السنوات القريبة من ذلك الوقت أدخل « جال دى جويتلاك » تطورات فنية معينه على أسلحة المدفعية ، وقد بهت الإيطاليون عندما رأوا المدفع الجديد[2] . ولكن كانت أهم هذه التطورات هى أدخال عربة المدفع والأكتاف ومرتكز الدوران لرفع المدفع وأيضاً فى أستخدام المقذوفات المعدنية بدلا من القوازف الحجرية . وفى ذلك الوقت كانت أسوار المدن لا زالت عالية حسب نظام العصور الوسطى ، كما كان يدافع عنها حملة القوس النشاب بصورة رئيسية وبالطبع لم يكن فى أستطاعة المدن الأيطالية أن تقوم بأى دفاع فى مواجهة الحصار الذى ضربه شارل .

---

(١) مرة أخرى امتطى الفرسان الخيول ليقاتلوا بها بعد مرور قرن من الكوارث نتيجة لقتالهم وهم مترجلين

(٢) كان المدفع أخف وزناً ومصبوب جميعه من البرونز وتجره الخيول ، مما أمكن لهذه المدافع المحافظة على سرعة تقدم مساوية لسرعة تقدم باقى الجيش ، كما أن النيران كانت تطلق على فواصل زمنية قصيرة جداً . « المعرب »

وكان الفرنسيون أيضاً فى مقدمة الدول الأوروبية فى مجال إستخدام مدفعية الميدان ، ففى معركة فومنى (١٤٥٠) أجبر القصف الغير محتمل لمدفعين فرنسيين (من نوع كولفيرن) حملة الأقواس الطويلة من الإنجليز على بعثرة تشكيلهم ، كما أن الأنتصار الفرنسى عند « رافينا » (١٥١٢) كسب بطريقة مشابهة ، فقد كان الجيش الأسبانى البابوى مخندقا فى مواقع دفاعية ولكنه أجبر نتيجة قصف المدفعية إلى ترك الموقع الدفاعى والقيام بالهجوم مسبباً لنفسه كارثة مروعة . وفى معركة مارنيانو (١٥١٥) لعبت مدفعية الميدان الدور الحاسم فى أنتصار الفرنسيين تحت قيادة فرانسيس الأول على السويسريين ، وأبان ذلك الوقت كان للسويسريين شهرة كبيرة فى اوروبا ، أضف إلى ذلك أن أنتصارهم على الفرنسيين عند نوفارا (١٥١٣) قد عزز ما حققوه من أنتصار على البور جنديين عند كل من جرانسون وموراث وقد أنتصروا على الفرنسيين بالقيام بهجوم مخادع لأخفاء تقدم ثلاثة طوابير من حملة الرماح الطويلة فى تشكيل متوازى حيث باغتت فرسان الفرنسيين محدثة دماراً وفوضى شديدة ، وتابع السويسريون أنتصارهم حتى ديجون وهناك أشترى الفرنسيون توقفهم بثمن خيالى . وكتب المؤرخ الفلورنسى جويكارديني يقول : — « لم يحدث قط فى تاريخ الأمة السويسرية أن قررت شيئاً يمثل هذه العزيمة والتصميم ؛ وقد حقق النصر قوات قليلة وبدون فرسان أو مدفعية على قوات كبيرة ومنظمة . وغامر الكثيرون وليس فى أعتبارهم سوى الجرأة والبسالة ليجعلوا من عملهم هذا أعظم بكثير من أعمال البطولة الخالدة المسجلة للرومان » .

وفى ذلك الوقت قرر الإمبراطور مكسيميليان أن الطريقة الوحيدة لهزيمة السويسريين هى التعامل معهم بنفس طريقتهم ، فأدخل فى جيوشه فرقا من حملة الحراب والتى سماها « خدام الوطن » . وكان الأختلاف الوحيد بين الألمان والسويسريين هو فى طريقة إستخدامهم للحربة ، فالألمان يحملونها فى وضع منخفض ثم يوجهونها عند الطعن الأعلى ، بينما أمسكها السويسريون فى وضع متوسط وعند الطعن كانوا يوجهونها لأسفل قليلا . وسرعان ما كشف الألمان النقاب عن نزعاتهم للقتال كمرتزقة مثل السويسريين تماما .

القربينة

وعلى أى حال ، كانت نوفارا آخر نصر بارز لحملة الرماح الطويلة السويسرية ، كما عرفتهم

حملة فرانسيس الأول (١٥١٥) بمستقبل مختلف . فقد عبر فرانسيس الأول وجيشه جبال الألب ماراً بمنطقة كول دى أرجنتير العالية ليفاجىء عدوه بظهوره بغتة فى مؤخرته ومعه ٣٠٫٠٠٠ مقاتل و ٧٢ مدفع . وعند ماريجنانو كانت لديه قوة متفوقة جداً للصمود أمام مرتزقة ميلانو الذين يعملون فى صفوف السويسريين ويرجح أن السويسريين لم يكن لديهم أكثر من ١٥٫٠٠٠ مقاتل ، وكالعادة بدون فرسان . وعلى أى حال كان تنظيم السويسريين يسوده الأضطراب نتيجة لأضاعتهم يوم أو يومين فى مناقشة أقتراح فرانسيس بضرورة تسليمهم دوق ميلانو له ، وكان هناك نسبة كبيرة من قادتهم موافقين على ذلك ، فى ذلك الوقت كان جزء كبير من القوات أنسحب ، أما الباقى فقد جمعوا قبل المعركة مباشرة . وقد دارت هذه المعركة على مدى يومين ولم تكن سوى عملا عشوائياً مضطربا ، ولكن المبدأ الرئيسى الواضح والذى أستطاع الفرنسيون هزيمة السويسريين به هو إيقاف هجوم حملة الرماح السويسرية ثم صدهم بقصفات متعاقبة من مدفعية الميدان وهجمات الفرسان .

وكانت « ماريجنانو » قاسية للسويسريين ، ولكنها لم تكن معجزة حربية بارزة لأن الفرنسيين كانوا متفوقين عدديا بنسبة ٢ : ١ أضف إلى ذلك قيام السويسريين بأنسحاب ماهر من الميدان .

والآن علقت آمال عريضة على مدفعية الميدان ، ولكنها كانت آمال غير مدروسة أو ناجحة . ولقد كان ميكافيلى على حق عندما أشار إلى جمود مدفعية الميدان وعدم توفر خفة الحركة لديها الأمر الذى يجعل أى قائد تكتيكى ذكى قادراً على التعامل معها . وحتى تصبح المدافع أكثر قوة وضراوة فقد صنعت بأحجام كبيرة ، وكان هذا أمراً سليما إذ كان الغرض تحطيم الأسوار ، ولكن لم يكن هناك حتى الآن فرق مميز بين المدافع التى تستخدم فى الحصار . وحتى القرن ١٧ لم يطرأ أى تطور على مدفعية الميدان سواء من حيث الحركة أو سرعة النيران .

أما فى بداية الحروب الإيطالية ، فقد تطور أخيرا المدفع اليدوى (القربينة) إلى سلاح ذو طاقة كبيرة جدا . وفى حرب المائة عام كان هذا السلاح غير عملى وغير مؤثر [1] ولكن

---

(١) كان السلاح ضخما وثقيلا ويتطلب رجلين لتشغيله.

أدخلت عليه الكثير من التطورات والتحسينات ، فأنقص وزنه بحيث أصبح ٣٠ رطل ، وأصبح الدبشك قصيرا بحيث يمكن لرجل واحد أن يسنـــده إلى كتفه ، كما زادت طول الماسورة إلى أكثر من ثلاثة أقدام كما أنقص العيار(١) ، وأعطى هذا بالتالى مدى أبعد ودقة أكثر . ولكن أكثر التطورات أهمية هو أختراع فتيل الأشعال الذى يعمل بالزناد. وقبل ذلك كانت طريقة أطلاق السلاح هى نشر مادة ليفية منقوعة (تسمى الفتيل) فتحترق من غير دخان ، وبما أنها ملامسة للبارود فيشتعل هو الآخر فيقذف بالطلقة . ويتطلب أنجاز هذا العمل إلى ثلاث أيدى وثلاثة عيون على الأقل لأمساك البندقية فى وضع التنشين الصحيح مع أشعال الفتيل . أما الفتيل الذى يعمل بالزناد فقد أعطى المستخدم الفرصة لتزويد قدرته القتالية نتيجة عملية الأطلاق الأوتوماتيكى . واصبحت هذه العملية تتم بمجرد جذب الزناد والمثبت بمشبك الفتيل مما يجعله يضغط إلى أسفل ويشعل البارود فى الماسورة . وقد عرف مدفع اليد المزود بهذه الوسيلة بأسم «القربينة» .

اهم مقاتل فى المعركة

وأول رجل قدر الأمكانيات التكتيكية لرجل المشاة الذى يستخدم القربينة ثم أقام بتكملة هذه الإمكانيات بنظام تكتيكى ناجح هو « جونز الفو القرطى الأسبانى ». ففى عام ١٤٩٥ أرسل جونزالفو ليدافع عن المصالح الأسبانية فى جنوب إيطاليا ، وكان جيشه مشكلا من حملة القوس النشاب والفرسان الثقيلة وأخرى خفيفة تدعى « جنيتور » مسلحة بالرماح القصيرة . وعند سمينارا هزم بواسطة جيش فرنسى مشكل من الفرسان الثقيلة وحملة الرماح الطويلة وأجبرت هذه الهزيمة جونزالفو على التفكير ملياً ، وخلال بضعة أعوام كان قد غير من طبيعة جيشه بصورة جوهرية .

وقد وصل إلى إستنتاج بأن مفتاح النصر يقع فى إستخدام حملة القرابين ، وبناء عليه زاد من عددهم زيادة كبيرة فى جيشه ، وزودهم بأحدث القرابين كما كان لدى كل رجل يستخدم القربينة أدوات نظافة وكيس رصاص وفتيل وقضيب للتنظيف وبارود فى أنابيب

(١) يقصد تصغير حجم القذيفة .

(٢) أنشأت هذه الفرسان الخفيفة أصلا لقتال المغاربة فى أسبانيا الجنوبية . « المعرب »

صغيرة معلقة على حزام عريض للكتف ذو جيوب بالإضافة إلى ذلك سلاحهم بالسيف

وقد لبس الجنود بغرض الوقاية خوذة ولكن لم يستخدموا الإدروعا قليلة أخرى على الجسم وقدر جونز الفو أنه باستخدام عدد كافى من الجنود المسلحين بالقرابين ومحتلين مواقع دفاعية منيعة يمكنهم صد هجوم أى عدد من حملة القوس النشاب أو الرماح الطويلة أو الفرسان ، تماماً مثل ماقام به حملة الأقواس الطويلة من الإنجليز .و قد كان جنود القرابين يحتاجون إلى تدعيم من حملة الحراب والذين كانوا أحسن المقاتلين فى القتال المتلاحم فى هذا الوقت ، فإذا حدث ونجح العدو فى الإقتراب من حملة القرابين كان على حملة الحراب تدعيمهم ، كما أنهم كانوا ضروريين فى الهجوم المضاد . ووجد أن أهم أنواع الخيالة هى الخيالة الخفيفة والتى تفيد فى الإستطلاع ومناوشة ومضايقة العدو، فاحتفظ بعدد منها فى جيشه .

وعند « كريجنولا » فى عام ١٥٠٣ أختبر جونز الفو نظامه الجديد ضد الفرنسيين . وفى هذه المعركة تخندقت وحدات المشاة الأسبانية[1] فى الميول السفلى لتل مرتفع نوعاً . وأسفل هذه المنحدرات مباشرة كانت تجرى قناة ترتفع ضفتيها وقويت حافتيها بالتراب وأكوام النبات المعترش ليكون فى شكل المتاريس .

وأغوى « جونز الفو » العدو للقيام بالهجوم بأرساله أعدادا وفيرة من الخيالة الخفيفة لمضايقة الفرنسيين وسحبهم للامام . وقامت الفرسان الفرنسية وحملة الحراب بهجوم متهور طائش ظانين أن قوى أندفاعهم سوف تحطم الخط الأسبانى الثابت والذى بدا ضعيفاً ، وعندما دخلوا فى مرمى القرابين الأسبانية فتحت عليهم نار حامية ، وقد لقى قادة الطوابير المتقدمة من الفرنسيين مصرعهم تحت وابل الطلقات ، ومن أفلت من الطلقات سقط فى القناة . وكرر الفرنسيون هجماتهم ، ولكنهم كانوا يحصلوا على نفس النتيجة بالإضافة إلى أن إحدى الطلقات أودت بحياة قائدهم « نيمور » . وعندما بدأ النصر الأسبانى يتضح معالمه ، أصدر جونز الفو أوامرة لرجال المقدمة بالخروج من مواقعهم والتقدم ليكملوا تدمير العدو .

وكانت معركة كريجنولا ذات مغزى سياسى قليل ، لأن الجيوش المستخدمة كانت صغيرة

(١) وضعت صفوف قليلة من حملة القرابين فى الأمام وخلفهم حملة الحراب . « المعرب »

نسبياً ولكنها كانت نقطة تحول رئيسية فى تاريخ الحرب . فقد رفع جونزالفو القرطبى مركز جندى المشاة المسلح بالقربينة حتى أصبح أهم رجل مقاتل فى المعركة . وهذا المركز ظل يحتفظ به رجل المشاة لأكثر من ٤٠٠ سنة ،

وقد سبب الجمع بين مدافع الماكينة والأسلاك الشائكة فى حرب١٤/١٩١٨ إلى إهتزاز مركز الجندى المشاة بعض الشىء ولكنه عاد مرة أخرى إلى مركزه فى حرب ٣٩/١٩٤٥ عندما أخذت مركبة القتال المدرعة تجول فى ميدان المعركة معاونة أياه فى كسب الأرض فى مواجهة الأسلحة الصغيرة . ومن ثم فقد فهم الدرس القائل بان المعارك تكسب بالجمع الماهر لكل الأسلحة ، ولو أن واحداً منها قد يكون فى فترات معينة أكثر أهمية من الآخرين وسيظهر دروس مثل هذا وأكثر فى السياق التالى لسردنا .

الحمى الدبلوماسية (أنظر اللوحة رقم ٢٠)

وفى نهاية عام ١٥٠٣ أظهر جونزالفو مرة أخرى وبوضوح قدرته العسكرية الرائعة ، وذلك فى حملة ومعركة جاريجليانو .

وكانت الفلول الفرنسية لمعركة كريجنولا قد تم تدعيمها بقوة ، وفى أكتوبر تعقب جونزالفو جيشاً فرنسياً ضعف حجم جيشه إلى أسفل وادى جاريجليانو ، وكان العدو متجهاً نحو نابولى ، ولكن نتيجة لأمطار الخريف الغزيرة فقد قرر بدلا من محاولة التقدم عبر الطريق الجبلى أن يتجه إلى الساحل ثم يتقدم على طول الساحل ، وعندما أدرك جونزالفو ذلك، دفع جيشه عبر الجبال بأقصى سرعة ليصل ويعبر النهر قبل العدو .

وفى أوائل نوفمبر حدثت المواجهة بين الجيشين وبينهما اللسان المنبسط السفلى لنهر جاريجليانو . أنشأ الفرنسيون كوبرى عائم ولكن نيران المدفعية والقرابين الأسبانية منعتهم من العبور ، وخلال ذلك الوقت أزداد الطقس سوءاً ، وقام الفرنسيون بمحاولة أخرى لعبور النهر ولكنهم فشلوا فتوقفوا بعدها عن أى محاولة للعبور .

ونهر جاريجليانو معروفاً جداً لجيوش الحلفاء التى حاربت فى إيطاليا فى شتاء٤٣/١٩٤٤،ويصب النهر فى البحر جنوب كاسينو ، وكان يشكل جزءاً من الطرف الجنوبى للخط الدفاعى الألمانى

المسمى « خط الشتاء » والذى يمتد من أرتونا على الأدرياتيك ثم خلال الجبال فى إتجاه الجنوب إلى مصب نهـر جاريجليانو واللسان المنبسط العلوى لما يسمى فى هـذه الأيام بنهر « ليرى » .

ومن المعروف أن فى فصل الخريف والشتاء تصبح الأنهار فى إيطاليا عبارة عن بحار من الطين ، وذلك ما أعرفه جيداً ، فالجيش الثامن الذى كنت أقوده كان مجبرا على عبور نهر « سانجرو » قبل أن يتمكن من الإستيلاء على أرتونا ، وقد تعودنا على القول بأن الطقس كان عدواً أشد صعوبة وقسوة من الألمان .

ولنعد الآن إلى معركة جونزالفو ، فنجد أن بعد محاولة الفرنسيين الفاشلة لعبور النهر توقف كلا الجيشين لمدة ستة أسابيع يحرس كلاهما الضفة الموحلة لنهر جاريجليانو ، واستمر الطقس رطبا وباردا وبصورة غير عادية .

وكان جونزالفو يعلم بأن الإنسحاب ولو حتى إلى الأرض الأجف فى أسفل التل سيكون مميتا لأن القوات الفرنسية المتفوقة لو تمكنت من عبور النهر فيصبح مصير نابولى محتوما، وفى ذلك الوقت لعبت الروح المعنوية الدور الحاسم .

وقد أقام جونز الفونفسة فى كوخ يبعد حوالى ميل عن شاطىء النهر وكان يزور المواقع الأمامية يوميا ناصحا وحاضا ومبقيا جيشه العاطل المبتل فى روح معنوية عالية .

أما على الجانب الآخر فقد فقد الضباط الفرنسيين ما كانوا يتمتعون به من أثارة ، وتراجع الكثير منهم ليعيشوا فى منازل مريحة بالمدن القريبة .. أما القائد العام المركيز مانتو فقد أصيب بحمى « دبلوماسية » جعلته يسلم القيادة إلى المركيز « سالوزو » وسرعان ما انحلت الجنود الفرنسية ، وترك الكثير منهم خطوطهم التى أنتشرت فى غير نظام بعيدة فى الخلف[1] .

وفى مثل هذا الجو كان يبدو من غير المحتمل تماماً قيام الأسبان بالهجوم حيث كان عددهم أقل كثيراً ولذلك السبب إتخذوا موقف الدفاع وبالتالى فقد أهملت اليقظة الفرنسية

(١) بعيدة عن جانب النهر الموحل . « المعرب »

كارثة سويسرا (أنظر اللوحة رقم ٢٠)

وأدرك جونزالفو التدهور الفرنسي وخطط هجوماً مفاجئاً ، وتم تجهيز أجزاء كوبرى عائم خلف الخطوط الأسبانية بمسافة كافية وتحت أشراف إخصائي المدفعية والهندسة العسكرية « بدرونا فارو » ، وصنعت أجزاء الكوبرى صغيرة وخفيفة بدرجة مناسبة ليمكن حملها على البغال ، وكذا يمكن تجميعها وتركيبها بسرعة .

وفى عيد الميلاد أقيمت هدنة لمدة يومين ساد فيها بعض الشعور من الصداقة والمودة بين الجيشين ، ولكن الجنود الفرنسيين إستمروا فى الإحتفالات لعدة أيام

وفى ٢٧ ديسمبر ،حرك جونزالفو الجزء الأكبر من الجيش الأسبانى وأجزاء الكوبرى إلى النهاية الشمالية للموقع الأسبانى ، وكان ذلك فى مواجهة أقصى يسار الفرنسيين عند قرية «سوجو» حيث يضيق النهر قليلا والأرض أقل تشبعاً بالمياة علاوة على إمكان أخفاء التجهيزات . وحدد جونزالفو موعد بدأ الهجوم فى فجر ٢٩ ديسمبر .

وتولى ألفيانو المقدمة وبناء الكوبرى بينما تولى جونزالفو قيادة المعركة الرئيسية . بينما إحتلت قوات المؤخرة الخنادق على طول النهر وفى مواجهه القوة الفرنسية الرئيسية على أن تعبر هى الأخرى من نفس مكان القوة الرئيسية إذا سارت الأمور سيراحسنا .

وسارت الخطة طبقاً لما هو مرسوم ، فعند الفجر تم اقامة الكوبرى ، وكانت المشاة الفرنسية الضعيفة فى « سوجو » غير مستعدة لمقاومة الطليعة الأسبانية من الفرسان الخفيفة عندما أنقضت عليها . واندفع الفيانو بسرعة وعنف على طول مجرى النهر ومن خلال عدة قرى يحتلها المشاة السويسرية والتى لم يعطها الفيانو الفرصة والوقت لتفتح للمعركة . فى ذلك الوقت كان معظم الفرسان الفرنسية فى الخلف بعيداً عن النهر ، وإستطاع سالوزو بجهد كبير جمع عدد ضئيل منهم ولم يقوموا إلا بهجوم واحد ولكن كان بدون جدوى .

وقامت الفرسان الأسبانية الخفيفة بمطاردة العدو لمسافة ١٠ أميال قبل أن تتمكن قوة فرنسية كبيرة من ايقافهم عند مضيق فورميا . ولكن فى ذلك الوقت كانت مشاة

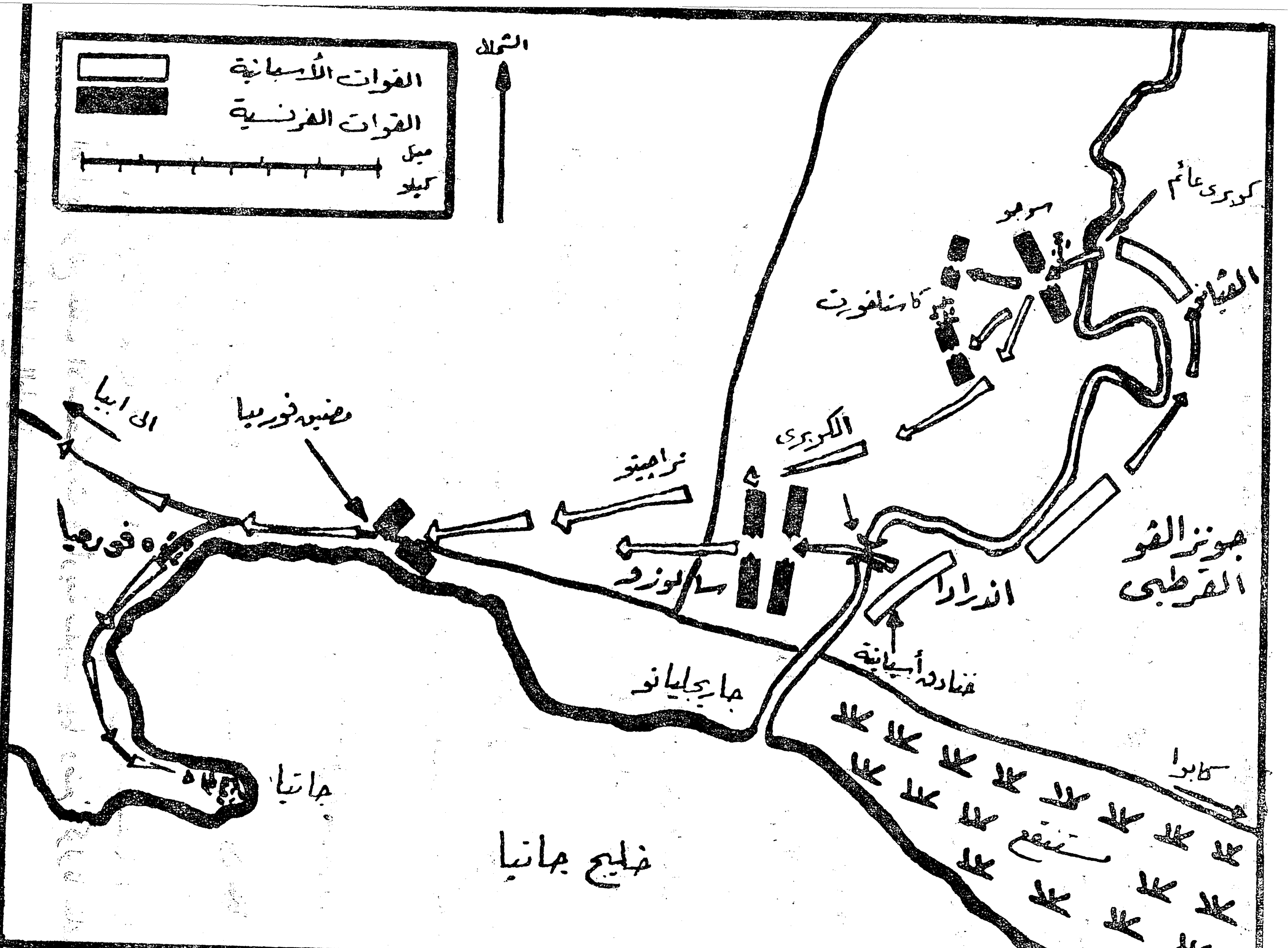

اللوحة رقم ٢٠

معركة جاريجليانو

جونزالفو أصبحت مستعـدة للمعركة الرئيسية كما أن وحدات المؤخرة قد عبرت النهر هى الأخرى .

ويمكن القول بأن المعركة الحقيقية فى جاريجليانو هى التى دارت فى ممرفورميا . ولـكن بعد ساعتين من القتال الشاق أخترق الموقع الفرنسى واستمرت المطاردة حتى «جاتيا» وأسر عدد كبير من الفرنسيين وتم الإستيلاء على عدد من المدافع .

وكانت معركة جاريجليانو آخر حملات جونز الفو، وفى نفس الوقت كانت التتويج المناسب له كقائد عظيم .

وفى عام ١٥١٥ مات جونزالفو القرطبى وهو مكلل بالمجد والشرف، ومن بعده فقد اعترف بأسلوبه التـكتيكى فى العالم . واستمرت أسبانيا فى زيادة نسبة حاملى القرابين . وقد وضح باستمرار وبصورة مذهلة كفاءتهم وتأثيرهم .

وفى عام ١٥١٣ فى معركة لاموتا ضد البندقية طردت الفرسان الأسبانية فى الواقع خارج المعركه ، ولـكن حملة القرابين وحمله الحراب الأسبانية استطاعوا أنتزاع النصر فى هذا اليوم بطريقتهم .

ففى الوقت الذى وصل فيه العدو إلى خط المشاة الأسبانية ، قد أصبح محطماً ويتعثر تحت وابل من نيران القرابين الأسبانية لدرجة أنه لم يتمكن من الصمود أمام الهجوم النهائى الذى شنه حملة الرماح الطويلة الأسبانية .

وبانتهاج أسلوب جونزالفو ، حقق الأسبان نصرهم[1] على السويسريين عند بيوكا كا عام ١٥٢٢ .

وقد جهز كولونا موقعاً دفاعياً جيداً عند ممر ضيق مغمور يجرى بين حافة حديقة وبعض الأراضى المزروعة وأمامه ممر مائى .

وحوّل حافة الحديقة إلى إستحكامات مع وضع بعض المدافع خلفها ، واحتلت حملة القرابين مواقع خلف الاستحكامات فى أربعة صفوف بينما وضع كولونا خلفهم وحدات متتالية من حملة الرماح الطويلة .

(١) كان يقود الأسبان كولونا الإيطالى .

وتقدم حملة الحراب السويسرية فحصدتهم أولا نيران المدفعية ثم نيران القرابين ، أما الذين أستطاعوا مواصلة التقدم أضطروا لخوض مياه المجرى ليجدوا أنفسهم وقد وقعوا فى مجزرة ، فقد أخذ حملة القرابين الأسبانية فى أصطيادهم حيث كان الأسبان فى مكان مرتفع لم يسمح لحراب السويسريين حتى من لمسهم .

وقد قتل عدد كبير من السويسريين وهم يقومون بهذا الاقتحام اليائس ، وفى نهاية المعركة ، هبط عليهم حملة الحراب الأسبانية حيث أجهزوا عليهم . ويعتبر يوم بيوكا كا كارثة مروعة للسويسريين ولم يتمكنوا من بعدها من أستعادة ثقتهم وحبهم للقتال السابقة وقد كتب جوكورديتى عن ذلك : ـ

« لقد عادوا إلى جبالهم وقد نقصت أعدادهم ، ولكن الأهم من ذلك نقصت جرأتهم » .

وفى زيورخ وجد المصلح زوينجلى[١] جمهوراً متعاطفاً ومؤيداً لإستنكاره لتجارة المرتزقة المفسدة وعلى أى حال عندما لم يجد السويسريين بديلا لحرفتهم كمقاتلين داخل وطنهم أضطروا على الاستمرار فى توفير المجندين لكل جيوش أوروبا خلال القرن ١٦ . وقد ظلوا

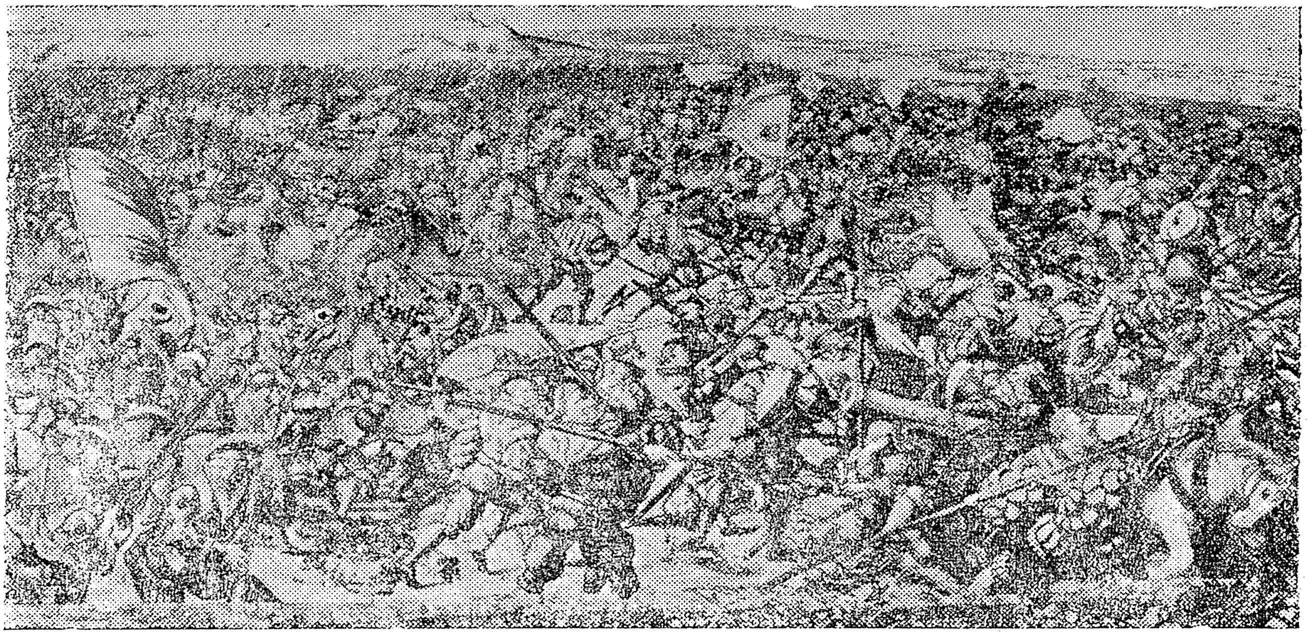

المشاة الأسبانية تهاجم الجيش الفرنسى فى معركة بافيا

(٢) كان قسيساً فى الجيش عند أول هزيمة سويسرية فى مارينيانو . « المعرب »

محتفظين بسمعتهم كقوات جيدة تتميز بالثبات ولكن فى المستقبل أصبح الدور التكتيكى لحملة الحراب عبارة عن الخدمة فى وحدات صغيرة مع عدد مساو تقريباً من حملة القرابين وببطء وعلى مضض عود السويسريون أنفسهم على هذا العمل الثانوي الأقل مرتبة وشأناً عما كانوا عليه ، ولم يكن لديهم فيه بناءاً قياديا مناسبا . وقد كان هناك نوع من سوء التقدير والخطأ فى مراعاة العرف الديمقراطى ، فالقيادة لم تكن فى يد فرد واحد بل كانت فى يد لجنة من العسكريين القدامى ، ولذا لم يكن هناك سوى عدد ضئيل من الضباط والصف ضباط .

ونتيجة لذلك أستمر السويسريون ممتازين فى عدد بسيط من أساليب المناورات القديمة والمدربين عليها جيداً ، ولكن كانت تنقصهم المرونة والقدرة على التحسين والتطور ، وبالتالى كانوا غير قادرين فى المعركة على تغيير خططهم لتوافق المواقف التكتيكية المتطورة .

العرش المحطم (أنظر اللوحة رقم ١٩)

أما الأسبان ، فكان الأمر بالنسبة لهم على عكس ذلك ، فقد أثبتت معركة بيوكوكا صلاحية أسلوبهم الجديد .

فالهزيمة التى ألحقتها حملة القرابين الأسبانية بمعظم المشاة المشهورة فى أوروبا أعطتهم دليلا واضحاً آخر على بسالتهم ومثال لذلك النصر الذى حصلوا عليه تحت قيادة المركيز بسكارا على الفرسان الفرنسية خارج بافيا عام ١٥١٥ . وفى هذه المعركة لم ينتصروا بالانتظار خلف ساتر يمكنهم منه صد الهجوم المعادى ، ولكنهم حققوا النصر بقيامهم بمفاجأة الفرنسيين فى أرض مفتوحة مطوقين جناحى الجيش الفرنسى ثم أمطروا صفوف الفرسان المحتشدة بقصفات من النيران غير المتوقعة ، كما دمروا المشاة الفرنسية وأسروا فرانسيس الأول ملك فرنسا .

والآن لم يعد هناك شك فى مدى النجاح المتواصل الذى حققه أسلوب جونزالقو القرطبى ضد الفرسان وجميع أنواع المشاة .

وبدأ رماة السهام والفرسان الثقيلة فى الإختفاء بسرعة من جميع الجيوش الأوروبية تقريباً ليحل محلها حملة القرابين وحملة الحراب . ولما كان معظم الجنود تفضل بالطبع

أن تقوم هى بإطلاق النيران عن أن يطلق عليها النيران ، لذا كان من السهل تجنيد حملة القرابين ، أما حملة الحراب فقد تأقلموا على عملهم التكتيكى الجديد ألا وهو تدعيم حملة القرابين بدلا من قيامهم هم أنفسهم بالهجوم فى أنساق . ويجدر القول هنا أن دروع الجسم لم تعد توفر أى وقاية ضد الرصاص الجديد علاوة على أنها تسبب عرقلة الحركة وتفقد خفة الحركة ولذلك نبذ إستعمالها تقريباً بعد المرحلة التى لم تعد أكثر من أنها أشكال للزينة والزخرفة .

وأصبحت القوة الدفاعية لحملة القرابين هى الاعتبار التكتيكى المهيمن فى أذهان القادة ، لذا أصبح الدفاع مرة أخرى هو صاحب اليد العليا فى الحرب ، مما نتج عنه أنه بعد معركة بافيا أصبحت معارك الأرض المفتوحة شيئاً نادر الحدوث جداً ، أما معركتى كيرسول (١٥٤٤) ونيوبورت (١٦٠٠) كانتا فقط المثالين الوحيدين لذلك فى نهاية هذه الحقبة . وظل حملة القرابين فى النظام الذى أنشأه جونزالفو القرطبى أقوى أنواع القوات بأساً ، وكان الأسبان أفضلهم جميعاً . ولكن بعد عام ١٥٢٥ كانت الفرصة ضئيلة أمام حملة القرابين عموماً لكى يثبتوا مقدرتهم فى ميدان القتال اللهم إلا فى بعض الاشتباكات الصغيرة الثانوية .

فى الثلاثة أرباع الأخيرة من القرن ١٦ أنجبت الحرب فى أوروبا بعض القادة العسكريين القادرين ، ولكن لم يكن هناك حملات حتى يمكن عمل مقارنة معها كما حدث فى الحروب الإيطالية . وفى المرحلة الثانية من الصراع بين أسرة فلواز وأسرة هبسبرج أى فيما بين عام ١٥٢٥ ، ١٥٥٩ مرت فى الحقيقة ١٤ سنة لم يحدث فيها أى قتال على الإطلاق . وبمقتضى معاهدة كاتو — كمبرسيس عام ١٩٥٩ أستولت فرنسا على بورجندى وبعض قلاع الحدود والتى منها كاليه . وفى سبيل ذلك تنازلت فرنسا عن أدعائها فى سافوى وأيطاليا . ومن وجهة النظر السياسية فكانت تلك الفترة الطويلة من الأحداث المتلاحقة ذات طابع سلبى على نحو فريد ، فجميع الأطراف أمتنعت عن توجيه أنتباهها لأمور أكثر أهمية . وربما كان عبور آلاف من الرجال ذهاباً وإياباً من خلال الألب قد ساهم فى نقل أفكار ومعلومات المقاومة الإيطالية إلى شمال أوروبا . أما فرنسا فقد تركتها الحروب وقد

ذهب هيبة عرشها وهى محطمة تعانى الأفلاس والانقسام الدينى ومليئة بالجنود العاطلين .

وهكذا كان المسرح معداً لتجدد القتال ، ففى عام ١٥٦٣ بدأت الحروب الفرنسية الدينية وكانت عبارة عن تسعة مراحل من الحروب الأهلية . وقد نشبت هذه الحروب بعناد مزعوم حول حق العبادة بناءاً على ما يمليه الضمير ، ولكن كانت أهم النتائج هى نجاح هنرى السادس فى المحافظة على السلطة المطلقة للتاج . وقد وصف ف . هـ . هـ . جرين هذه الحروب فى عبارات يمكن أن تكون مناسبة لمعظم حروب هذه الفترة :ـ

« حروب مشوشة ومعقدة ، وإذا فحصناها لوجدنا تفاصيلها مملة ، ولكن فى بعض المناسبات مثيرة ومفعمة بالحركة . . وفى بعض الأحيان تظهر أخلاصاً زائداً للمبدأ . . ولكنها عادة ينعدم فيها الإخلاص تماماً . وفى كثير من الأحيان تتجلى فيها أعماق غدر الإنسان وطمعه فى أشرس صورها وأكثرها إثارة للاشمئزاز » .

حرب الوردتين

فى نفس الوقت ، أى بعد عام ١٥٦٨ حارب الهولنديين ليحصلوا على أستقلالهم من أسبانيا . وقد منعت التعهدات الملاحية الأسبانية من تركيز كل قوتها لتدمير الثورة الهولندية وقد أدى هذا أن خسرت أسبانيا الحرب . وتخلص الهولنديون من عبوديتهم بعد صراع بطولى .

وفى عام ١٥٨٤ بدا وكأن كل شىء يهوى نحو الضياع ، فقد أستسلمت الولايات الكاثوليكية فى الجنوب (بلجيكا) ، ومات أول زعيم وطنى هولندى وهو « ويليام الصامت » ، فى نفس الوقت كان القائد الأسبانى العظيم اسكندر دوق بارما يزحف فى صورة قاسية للاستيلاء على «أنفرس» و«جنت» ولكن الصراع انتقل إلى البحر وإلى المقاومة اليائسة لسكان المدن ضد أعمال الحصار الأسبانى . ومع عام ١٥٩٠ بدأ المد فى التحول ، وتحول دوق بارما نفسه ليأخذ دوراً فى الحروب الفرنسية ، فى نفس الوقت عثر الهولنديون على قائد ممتاز هو موريس ناسو . وقام الهولنديون بحملتى حصار رائعتين مضافا إلى ما حققوه من أنتصارات فى « تيرنهوت » (١٥٩٧) و « نيوبورت » (١٦٠٠) مما كان له أكبر الأثر فى دفعهم إلى الأمام . ولم تستطع القيادة الباهرة « لأمبريجيو

سبينولا » الأسبانى من منع الهولنديين من الحصول على الإستقلال نتيجة الأمر الواقع والذى حدث فى هدنة عام ١٦٠٩ . ويمكن القول بأن هـــذه الحروب شاهدت تجديداً للابتكارات التى ظهرت خلال الحروب الإيطالية .

كما أن المرتزقة كان لهم دوراً رئيسياً فى خوض هذه الحروب ، ويضاف إلى ذلك أن جميع الجيوش أصبحت خليطاً متعدداً من جنسيات وأمم مختلفة . واستمر الطلب على السويسريين فى إيطاليا وفرنسا حيث إعتبروا مصدراً للضباط الممتازين ولحملة القرابين . وفى ألمانيا كان هناك سلاماً داخلياً فى الفترة ما بين ١٥٥٥ و ١٦١٨ ، لسبب واحد وهو أن أى شقاق فى الرأى لمواجهة التهديد التركى سيكون حدثاً قاتلا ومدمراً . وقد حارب أعداد كبيرة من الفرسان وحملة الرماح الألمـــان كمرتزقة خارج ألمانيا وخاصة مع الجيوش البروتستنتينية فى فرنسا والأراضى الواطئة . أما دور انجلترا فى تاريخ الحرب البرية خلال القرن ١٦ فقد كان بصفة عملية معدوماً ، فكانت انجلترا بلداً متخلفاً نسبياً ويبلغ عدد سكانها ٤ مليون بينما كان تعداد أسبانيا ٧ مليون وفرنسا ١٠ مليون . وبعد قتال تافه فى حرب الوردتين (١٤٥٥ — ١٤٨٥) أهتمت عائلة تيودور الجديدة بالأمور الداخلية للبلاد والتى كانت تتلخص فى إدخال المذهب البروتستنتى واحلال حكومة برلمانية بدلا من الحكومة الإقطاعية . وبخلاف بعض المغامرات القليلة الفاشلة تماماً تجنبت إنجلترا التورط فى السياسات الأوروبية .

وقد أدى عدم إحتفاظ أسرة تيودور بقوات وطنية على تخلف الإنجليز وبشكل كبير ولمدة طويلة فى الفنون العسكرية ، حتى أن حاملى الأقواس الطويلة لم يخلوا أما كنهم لحملة القرابين إلا فى عهد الملكة أليزابيث الأولى (١٥٥٨ — ١٦٠٣) . وعلى أى حال فكانت القوات الإنجليزية المرتزقة والمغامرون مثل « فرانسيس فـــير » مشهورين فى الحروب الهولندية .

وقد جعلت أسطورة جونزالفو القرطبى التـــكتيكات الدفاعية هى الأمر الطبيعى .

وفضل القادة المناورة والهجمات الخداعية أو محاولة الهجوم على العدو أثناء التقدم أو قطع مواصلاته أو إعاقته عن أن يقوموا بهجمات مباشرة وبالمواجهة ولم تتغير التطورات الفنية

التى حدثت فى الأسلحة النارية من هذا الموقف . وعلى أى حال ، فقد نشبت الحرب الهولندية على أرض تكثر بها المستنقعات والقنوات والسدود الأمر الذى يجعلها تلائم إلى حد كبير المعارك الدفاعية .

وفى فرنسا فقد أدى القيادة الضعيفة والنظريات العسكرية الغيرسليمة إلى وجود أسلوب قتالى سيء . وقد عبر الجندى الفرنسى « لانوى » عن إستياءة من مواطنيه قائلا : ـ « منذ مدة طويلة ويقرأ الشباب الكثير من الروايات عن المغامرات الطائشة المملوءة بالغراميات والقتال بدون هدف ، أما كبار السن فهم أيضاً يقرأون منذ مدة ويعيدون القراءة لميكافيلى وبدون ملل » .

وفى الواقع اشتهرت القيادة فى السنين الأولى للحروب الفرنسية بعدم القدرة المستمرة والقصور والعجز .

ففى معركة دروكس (١٥٦٢) إستطاع كل طرف أسر قائد الطرف الآخر . كما نفذت حملات صغيرة جداً فى نفس الوقت ولكنها لم تكن منسقة فى أية إستراتيجية شاملة . ولم تكن هناك أى دولة خلاف أسبانيا تستطيع أن تجند أو تتحمل دفع أجور أكثر من جيش وطنى عامل وصغير جداً

وسببت النسبة العاليةمن القوات المرتزقة فى كل الجيوش إلى أفتقارها إلى المبادأة والروح الهجومية ووحدة الهدف الإستراتيجى ، وحتى القوات الأسبانية الوطنية كانت تمتنع عن الخروج للقتال عندما يلوح لها أنها لن تحصل على أجورها .

وقد أدى التمرد الأسبانى عام ١٥٧٦ إلى تدمير مروع لأنفرس ، كما كانت قلة الأموال سببا فى ضياع حملات عديدة ، فكان بخل وشح كل من فيليب الثانى واليزابيث الأولى يثيران سخط قادتهم ويثبط من عزيمتهم .

وكان أقدر رجل عسكرى فى ذلك الوقت هو بارما الأسبانى ، ولكن نادراً ماتوفرت لديه أموال كافية . وكثيراًما وصلته أوامرمن ملك أسبانيا لم يضع فيها أى إعتبار للاستمرار الإستراتيجى ، ومثال ذلك الأوامر بالوقوف على أهبة الإستعداد لغزو إنجلترا عام ١٥٨٨ ثم

نقله إلى فرنسا فيما بين عامى ١٥٩٠ — ١٥٩٢ . وقد منعته هذه الأوامر من تنفيذ مهمته الأساسية وهى هزيمة الهولنديين الثائرين .

وخلال القرن ١٥ أستطاع فن الحصار التغلب على الحصون ، وأستمر ذلك حتى الفترة من ١٤٩٤ — ١٤٩٥ التى قام بها شارل الثامن ملك فرنسا بحملته ، إلا أن الموقف تغير فى القرن ١٦ عندما قام المهندسون العسكريون برد فعل بنائى على وجود المدفع ، وبسرعة سارت التحصينات العلمية على طول خطوط جديدة ، ومرة أخرى أصبحت التحصينات عالية ومنيعة وقد أدى هذا العامل بالإضافة إلى النظام التكتيكى الدفاعى وقلة الأموال لدى كل حكومات أوروبا إلى سيطرة الإستراتيجية الدفاعية بعد الحروب الإيطالية ؛ أو بالأحرى إلى ذلك النوع من الإستراتيجية طويلة الأمد والمناورات السياسية ، وفضلت هذه عن أستراتيجية الحصول على نتائج سريعة بقوة السلاح . ومن الطبيعى إلتجاء الناس إلى قلاعهم الحصينة ، أما القادة فإن لم يكن هناك ظروف قاهرة تجبرهم على الخروج ليواجه كل منهم الآخر ، فكانوا لا يجرأون على الخروج كل من قلعته . ونجد بعد بافيا (١٥٢٥) كثر ذكر الحصارات فى سجلات الحرب والتى توجت بحصار « سبينولا » لأوستند والذى أستمر ثلاثة أعوام (١٦٠١ — ١٦٠٤) .

وأصبح المبدأ الرئيسى فى التحصينات الجديدة من عام ١٥٢٠ فصاعداً هو بنائها فى شكل مندمج ومنخفض ، وكان الإنخفاض فى الواقع يصل إلى مادون مستوى سطح الأرض وذلك لتصبح هدفاً صعباً للمدفعية ، كما كانت الأسوار والجدران سميكة بدرجة كافية لتتحمل القصف المعادى وكذا إرتداد مدافع الحصن بعد إطلاقها . وقويت التحصينات الأمامية مع عمل ممرات مغطاة ومنحدرات خفيفة وخنادق أكبر ، وإستخدم المدفع فى الدفاع ، وبنيت الأسوار بنتوءات بارزة وريدانات[1] وقمم بغرض السيطرة على أوسع مدى ممكن ، وفى معظم الحالات كان يعاد تجهيز حصون العصور الوسطى ، وكمثال رودس والذى أعيد بنائها فى شىء مختلف على البناء السابق .

ويعتبر حصن ديل مثالا للحصون الجديدة فى هذه الفترة ، وهو واحد من سلسلة حصون

---

(١) جداران يشكلان زاوية بارزة . « المعرب »

بناها هنرى الثامن للحراسة خوفا من أن الرياح قد تقذف بأسطول معادى نحو الساحل الجنوبى الإنجليزى .

بينما يكون الأسطول الإنجليزى محجوزاً فى الميناء . وكان حصن ديل يتكون من بنائين داخل بعضهما كل منهما شكل وردة ذات ستة وريقات مع وجود برج دائرى فى المنتصف وكان هناك ما يقرب من ١٤٥ مدفع مركب على طول الأسطح المطوقة للحصن وبالتالى يمكن

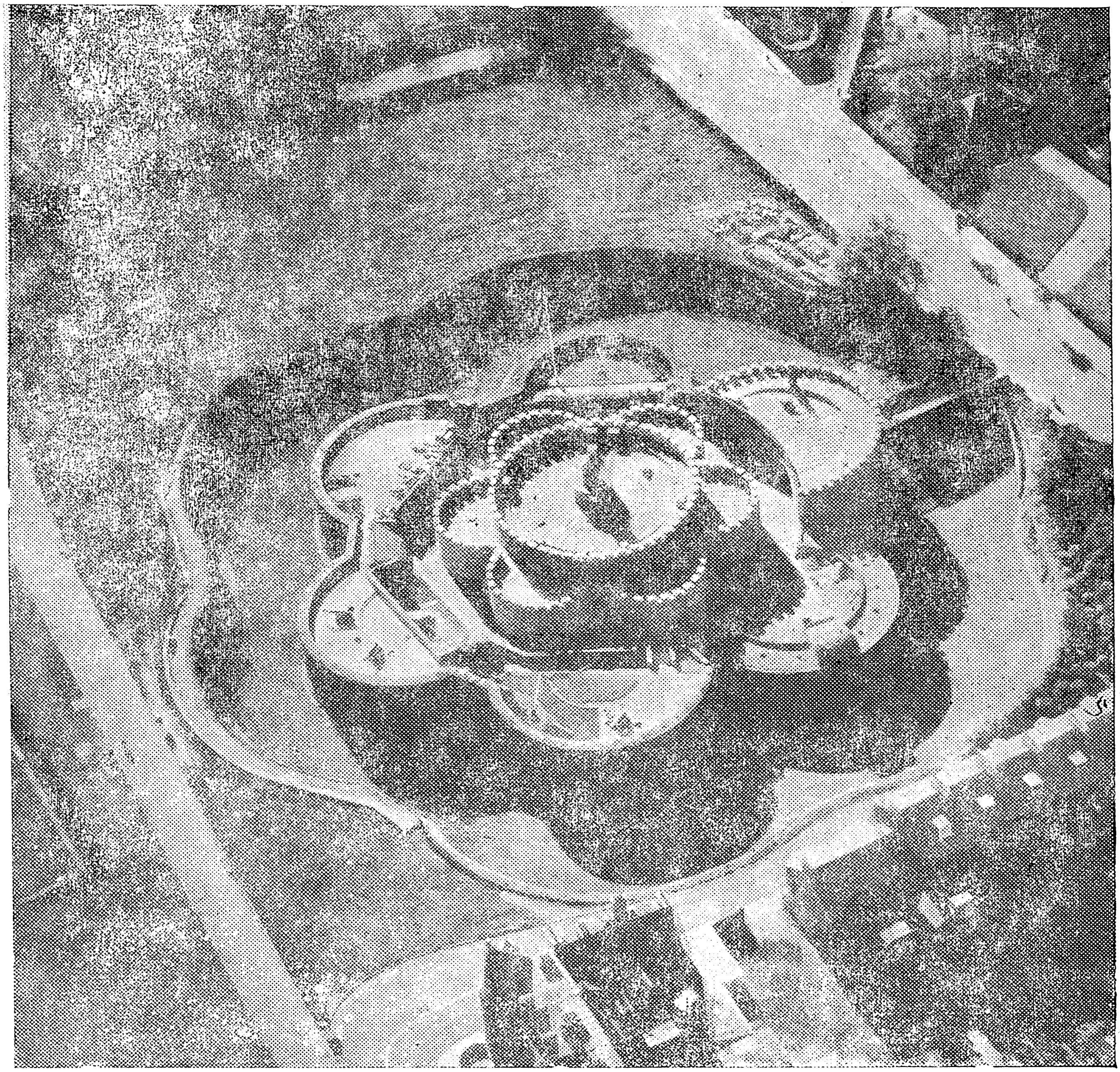

حصن ديل

لهذه المدافع السيطرة على جميع طرق الأقتراب المؤدية إلى الحصن بشكل متدرج . وكان البحر يلتفت حول جزء من السور الخارجى ، كما كان باقى الحصن محاط بخندق مائى عميق ولذلك كان الدخول عن طريق كوبرى متحرك . وفى فرنسا كانت قلعتى الهافر والفيترى أمثلة لكثير من الحصون الجديدة التي بنيت فى القرن السادس عشر . وفى هولندا كانت الحصون بصفة خاصة قوية نتيجة إحاطتها بالماء من جميع الأتجاهات . وفى عام ١٥٧٤ أمكن فك الحصار المضروب حول ليدن بقطع السدود مما سبب إغراق الماء للمحاصرين .

مرجريت المجنونة (أنظر اللوحة رقم ١٩)

لم يكن هناك تطور فى المدفعية يلاحق الزيادة فى قوة التحصينات ، ففى القرن ١٥ حقق المدفع البرونزى ذو العيار الكبير سيادة لاحد لها ، كما صنع مدفعاً فى الفلاندر سمى « مرجريت المجنونة »[1] . وقد تحسنت بعض الشىء كفاءة المدفعية فى الأعوام التالية لعام ١٥٢٠ بأنتاج بارود خشن كان أحتراقه أسرع وقوة دفعه للمقذوف أكبر ، كما زاد من دقة المدافع أدخال فنون أكثر دقة لصب وثقب الماسورة . ومنذ ذلك الحين ظل تصميم المدفع الذى يعمر من الفوهة لا يتغير لمدة ٣٠٠ سنة التالية . ولم يكن هناك توحيد فى شكل قطع المدفعية ، ففى عام ١٥٥٠ وصلت المدفعية البريطانية إلى ١٦ نوعاً أبتداء من « المدفع الملكى » زنة ٤ طن والذى يطلق قذيفة زنة ٧٦ رطل إلى « الرابينت » زنة ٣٠٠ رطل والذى يطلق قذيفة زنتها ١٥٠ جراماً . وكان المدفع المستخدم فى السفن من نوع « كولفيرن » و « الصقر » ذات المدى الصغير . وفى مستهل القرن ١٦ عندما قرر هنرى الثامن الرغبة فى الحصول على مدفع قوى بدرجة كافية « لقهر الجحيم » تعين عليه أن يطلب مثل هذا المدفع من صانعها الفلمنكى « هانس بوبينرتير » ، وهذه علامة على التخلف العسكرى الإنجليزى فى ذلك الوقت .

ولكن فى عام ١٤٥١ حدث تطور هام وهو أن « ويليام لافيت » بدأ فى صنع مدفع حديدى فى غابة « أشدون » وبالرغم من أن المدفع الحديدى ثقيلا جداً وسريع الكسر وأقل كفاءة من المدفع البرونزى إلا أنه كان أقل ثمناً وأكثر مطلباً وشيوعاً . وفى الواقع فى عام

---

(١) كان طول هذا المدفع ١٨ قدم وعيار الماسورة ٣٣ بوصة ويزن أكثر من ١٥ طن .
« المعرب »

١٥٧٤ جرى تصدير عدداً كبيراً من المدافع الحديدية بدرجة أن هذا الأمر أفزع السياسيين وجعلهم يمنعون هذه التجارة . وكان أفضل المدافع فى ذلك الوقت المدافع الألمانية المصنوعة فى مصانع « بيك » بمدينة أوجسبورج و « وساتلر » بمدينة نورمبرج ، كما أن الألمان أخترعوا أيضاً المورتر[1] (القاذف القصير) ، أما أسبانيا فلم يكن لديها مصانع على مستوى جيد لبناء المدافع ، وبالتالى فقد عانت معاناة مريرة بسبب ذلك النقص .

وبشكل عام ، فى الفترة التى تلت الحروب الإيطالية كانت الخيانة والخداع والتجويع أكثر أساليب الحصار نجاحاً عن أسلوب القصف بالنيران . ولم يكن معدل نيران المدفع قد فاق حتى ذلك الوقت المنجانيق والمعروف بأسم « باليستا » والتى ظلت تستخدم أحياناً . وفى عام ١٥٤٦ نشر « نيكولو تارتاجليا البندق » بحثاً هاما عن علم حركات المقذوفات ، وفيها علم رجال المدفعية كيفية تقدير المدى والأرتفاع بأستخدام آلة الربع دائرة . وبالرغم من الحصار كان عملا مجهداً ، بالأضافة إلى تراكم المزايا ضد القائم بالحصار ، فأن حروب تلك الحقبة قد أنتجت أستاذين عظيمين هما « أسكندر بارما » (أسبانيا) و « موريس ناسو » (هولندا) . وفى عام ١٥٨٦ أستولى « بارما » على أنفرس بعد حصار دام ٤ شهور ، وذلك ببناء كوبرى من القوارب على مصب « نهر شلدات » قاطعاً بالتالى أتصال المدينة بالبحر ، الأمر الذى سهل له الأستيلاء عليها . وبعد ذلك بأربعة سنوات كان « بارما » بعيداً عندما بدأ خصمه « موريس ناسو » فى سلسلة من الحملات الناجحة .

وقد بدأ بمدينة « بريدا » ، وفى هذا المدينة أستخدم « ناسو » الخداع بأحضار رجاله المخبئين فى قوارب مكسوة بالأعشاب حتى رصيف الميناء مباشرة . وخلال شهر يونيه ويوليه ١٥٩١ أستولى على مدن ديفينتروزوخن وكلاهما شمال نجمين .. وبعد ذلك دفع موريس قواته بأقصى سرعة مستخدما قوارب نقل البضائع إلى هلست (غرب أنفرس) أى على النهاية الأخرى لخط التحصينات الأسبانية . وسقطت هلست بعد ٥ أيام ، وأستدار بعد ذلك موريس منطلقاً نحو نجمين وأستولى عليها فى ستة أيام أخرى . وكانت الطريقة العادية لموريس هى تركيز نيران مدفعية شديدة على قطاع صغير من سور الحصن ، وبهذا يحدث صدعا فى التحصينات ،

---

(١) وهو مدفع قصير مصمم ليقذف القذيفة فى خط مرور عال أشبه بالخط المقوس على العدو . « المعرب »

كما كان يغرى ضحاياه على التسليم بمعاملتهم بالأحترام الكامل وبتحريم عمليات النهب . وفى العام التالى ، بينما كان بارما مشتبكا فى قتال فى فرنسا حيث أصيب هناك بجرح قاتل،أستولى موريس على حصنين رئيسيين آخرين فى الأراضى الواطئة . وقد ساعدت حملات موريس الهولنديين فى السنوات التالية على طرد الأسبان كلية خارج البلاد الواقعة شمال نهر الرين الأدنى ونهر الوال ، وبالرغم من مهارة سبينولا فى فن الحصار فلم تتمكن أسبانيا من استعادة هذه المناطق ثانية .

اختفاء فرسان العصور الوسطى (أنظر اللوحة رقم ١٩)

وحتى عام ١٦٠٠ على الأقل كانت المشاة الأسبانية[١] يعتبرون من أفضل الجنود فى أوروبا فى أى قتال مفتوح يحدث . وكانت ثقتهم بأنفسهم ومهاراتهم فى الأسلوب التكتيكى التقليدى لذلك الوقت شيئاً بارزاً ورائعاً .

وبالرغم من بعض الظروف الصعبة ، فقد تمكنوا من إكتساح كل ما أعترض طريقهم خلال الأشتباكات الصغيرة التى نشبت فى بداية الحرب الهولندية . ويحدثنا التاريخ عن أحد أعمالهم الفذة والتى فاقت فى بطولتها ماقام به ويلنجتون فى عبور نهر بيداسو فى عام ١٨١٣ ، وهو تقدم ٣٠٠٠ مقاتل أسبانى تحت قيادة « موندرجوان » لتحرير مدينة « تيرجوس » فى عام ١٥٧٢ .

فقد خاضت المشاة الأسبانية ستة أميال خلال ماء يصل إلى وسط الجنود بل إلى أعلى من ذلك عالمين فى نفس الوقت بأنه إذا وصل المدقبل تمام عبورهم فسوف يغرقون جميعاً . ولم يحدث ظهور المسكيت[٢] أى تغيير فى أسلوب التكتيك ، بالرغم من أن المسكيت كبندقية كانت مداها ودقتها أكبر من القربينه ، ولكن كانت لها عيوبا منها ثقلها الكبير حتى أنه كان من الضرورى وضعها على سبية ، كما أن معدل نيرانها أقل من معدل القربينة[٣] . وفى الأعوام التالية لعام ١٥٧٠ كان لدى الأسبان ١٥ حامل مسكيت لكل ١٠٠ حامل قربينة . ولكن فى عام ١٦٠٠ كانت النسبة متساوية فى معظم الجيوش .

---

(١) يقصد هنا حملة القرابين وحملة الرماح .

(١) المسكيت مشاة أسبانية تستخدم بنادق من الطراز القديم .

(٣) كان معدل النيران ٤٠ طلقة / ساعة .

« المعرب »

ومن الصور المميزة لهذا العصر أنه فى عام ١٥٣٤ كان يوجد فى اللواء[١] الأسبانى ١٣ قسيساً بينما كان الطاقم الطبي يتكون من ثلاثة فقط . وخلال تلك الحقبة لم تنتج فرنسا أى مشاة جيدة ، ولكن بعد عام ١٥٩٠ قام موريس ناسو بتدريب عدد من صفوة المشاة الهولندية . وفى معركة نيوبورت (١٦٠٠) كانت المشاة الهولندية مع رجال « فير » الإنجليزية ندا قوياً للمشاة الأسبانية . وعبر هذه السنين كان هناك ميل إلى خفض حجم وحدات كل من المشاة والفرسان . وظهر فى الجيش الأسبانى بدلا من الوحدات الكبيرة أيام جونزالفو القرطبي ، كتائب أصغر حجما يقود كل منها ضابط برتبة عقيد .

ومنذ ذلك الوقت ، بدأت فرسان العصور الوسطى الثقيلة تختفى بسرعة . وقد سخرت قصة « دوت كيشوت » والتى طبعت عام ١٦٠٥ من الفارس المدرع المنقرض وعصر الفروسية المندثر .

واستبدل الرمح القصير بالمسدس[٢] وأصبح السلاح الرئيسى للفرسان .

وبالطبع اختلف المسدس عن القربينة فى الحجم بالأضافة إلى أنه يعمل بالزناد الدولابى والذى كان تطورا هاما فى الأسلحة النارية ، فبدلا من الحصول على النار من مادة سريعة الإلتهاب كان يحصل عليها بنفس طريقة قداحة السجاير ، فعند جذب الزناد تتحرك عجلة دائريا لتشعل لهباً من قطعة من كبريتور الحديد والتى استبدلت بعد ذلك بالصوان[٣] ، وحيث أن هذه الطريقة غالية علاوة على ضعفها فلم تستخدم للقرابين أو المسكيت .

وسرعان ما اتجهت جميع الجيوش فى استخدام المسدس كسلاح رئيسى للفرسان ، وكان أفضل مستخدمى المسدسات هم فرسان الألمان المعروفين بإسم « ريتر » ، وكان يحمل كل فارس ثلاث مسدسات ويرتدى درعا أسود .

وكانت المناورة التكتيكية الخاصة بهؤلاء الفرسان هى التى تعرف بإسم «الكرا كول[٤]»

---

(١) يتكون اللواء الأسبانى من ٣٠٩٦ مقاتل .

(٢) المسدس سلاح ألمانى كان أول ظهوره فى وضوح فى معركة موهلبرج عام ١٥٤٧ .

(٣) حجر القداحة .

(٤) تشكيل الخط نصف دائرى . « المعرب »

وتنطلق تلك الخطوط بشكل متعاقب نحو العدو ، كل منها يطلق نيرانه ثم ينحرف بحصانه بعيداً ويتجه إلى الخلف ليعيد التعمير ويتشكل ثانية ، ولكن كانت لهذه الطريقة أخطارها الكثيرة فكان من الممكن أن تؤدى هذه المناورة المعقدة إلى الاضطراب ، كما أنها احتاجت لرجل شجاع يستطيع أن يصل بحصانه قريباً بدرجة كافية من العدو ليكون فى داخل المدى المؤثر لمسدسه .

وهذا التشكيل العميق يتناقض مع مبدأ تكتيكات الصدمة حيث تضيع القوة الدافعة للصفوف الخلفية فى هذا التشكيل ، بالإضافة إذا توافر للعدو مدافع أو حتى قرابين فسوف يعنى ذلك خسائر جسيمة فى صفوف هؤلاء الفرسان .

وعلى أى حال فقد انتصر القائد الفرنسى البروتستنتى هنرى نافار خلال الحروب الدينية فى معركة كوتراس عام ١٥٨٧ باستخدامه حملة المسدسات فى ثلاث مجموعات يتكون كل منها من ٦ صفوف .

أما أعدائه من الفرسان فقد أصطفوا فى خط طويل من صفين ، واستطاع حملة المسدسات التابعة لهنرى نافار بالرغم من قلة عددهم أن يحطموا خط العدو الضعيف فى ثلاث نقط هاجمت فيها الثلاث مجموعات ، ثم درات فرسان نافار إلى الجنب حيث طوقت فى هجمات جانبية بقية قوات العدو .

وفى الحقيقة ، قررت الفرسان مصير معظم معارك الحروب الفرنسية ، لأن نوعية المشاة كانت رديئة بصفة عامة وبالرغم من ذلك لم يكن مستوى الفرسان المقاتلة عالياً لأن كثيراً جداً من الضباط النبلاء كانوا مهملين وغير منظمين ومشاكسين . وبصفة عامة لم تصلح أرض هولندا لعمليات الفرسان .

ولكن كانت أبرز الحوادث خلوداً فى الحروب الهولندية عندما قتل « سير فيليب سيدنى » أثناء هجوم بطولى ١٠٠٠ فارس انجليزى [1] عند « دار نسفيلد » بالقرب من « فلوشنج » عام ١٥٨٦ .

وخلال الأعوام الأولى من هذه الحروب لم يكن هناك أى شىء ند للفرسان الأسبانية ولكن موريس ناسودرس هذه المشكلة وبالتالى لم يهمل عنصر الفروسية أثناء تطويره للقوات الهولندية .

---

(١) لقد كانت مأساة بالنسبة للانجليز فى ذلك الوقت . « المعرب »

وفى معركة تيرنهوت (١٥٩٧) استطاعت الفرسان الهولندية طرد الفرسان الأسبانية خارج ميدان القتال ، وتحولت بعدها لتنضم على المشـــــاة ليحطما ســويا المشاة الأسبانية .

وفى معركة نيوبورت عام ١٦٠٠ وضح تفوق الفرسان الهولندية والذى قرر نتيجة أكبر معركة بعد معركه بافيا عام ١٥٢٥ . بينما لم يتعد صراع المشاة عن الكثبان الرملية ، قامت الفرسان الهولندية بهجمات متكررة على الأسبان على الطريق الساحلى حتى تمكنوا فى النهاية من دحرهم تماماً .

وأثناء ذلك وخلال الصراع المحتدم بين مشاة الطرفين بدا أن عجلة الحظ أخذت تتأرجح بعيداً عن الهولنديين ، ولكن قامت فرسانهم بهجوم آخر من خلال الكثبان على خط المشاة الأسبانى الثالث الضعيف واخترقته مما حقق لهم النصر فى كل أنحاء الميدان .

وقد كان هنرى نافار جريئاً ومتهوراً ولكنه بشكل عام كان قائداً ناجحاً للفرسان مؤمناً بأن الوسيلة لتحقيق النصر هى القيام بهجمات مندفعة من نوع مورات .

ويعتبر دفاعه عن مضيق أركوى عام ١٥٨٩ ممتازاًفى نوعه ولكنه كأستراتيجى فكان من الدرجة الثانية ، فبدلا من متابعة انتصاره فى إيفرى عام ١٥٩٠ بتقدم سريع نحو باريس أخذ أجازة لمدة أسبوعين لكى يضع ٢٢ علماً تحت أقدام عشيقته فى بيرن .

وقد فاقه بارما فى المناورة ، ففى عام ١٥٩٠ أجبره بارما بالمناورة على سحب قواته بعيداً عن باريس ، وفى عام ١٥٩٢ خلص «بارما» « روبن » بنفس الطريقة ،وعموماً ففى أى مكان تصادما فاق « بارما » «نافار» ، فقد كان بارما سيد المناورات الاستراتيجية علاوة على علمه الغزير بفن الحصار والهندسة العسكرية .

الملك البقال

وننتقل الآن إلى تاريخ الحروب البحرية والتى ستعطينا فائدة أكبر من التطورات العسكرية التى حدثت فيما بين أعوام ١٥٢٥ — ١٦٠٩ .

وفى القرنين ١٥ ، ١٦ حطمت أوروبا أخيراً حصار الشعوب الأجنبية مثل القوط والعرب

والفايكنج والمغول والأتراك والذى استمر طوال العصور الوسطى . وليس هناك أى تغير للزحف الأوروبى الجديد خلال بحار العالم ، ولكن يمكن أن نقول أن الملاحين والفاتحين كانوا يشعرون بدافع أدخال المسيحية إلى العالم الوثنى ، علاوة على قيامهم بأعمال مجيدة لأنفسهم ولبلادهم ، ودفعهم الفضول والشوق إلى المضى قدما ، ولكن كان أقوى دافع لديهم جميعاً هو الرغبة فى الثراء والاستعمار الأوروبى كان عملا تجاريا يموله المضابون وينفذه المغامرون .

ويعتبر وصف فرانسيس الأول لمانويل ملك البرتغال على أنه « الملك البقال » وصفا صلفاً وفظاً ولكن من الناحية التاريخية كان تحليله لهذا الملك صحيحاً .

فكانت التجارة هى التى وفرت الطاقة ، والدين هو الذى وفر الذريعة ، وقد اعتمدت الوسائل التنفيذية على التطورات الحديثة فى التكنولوجيا فى السفن والمدافع .

وجاء أول اندفاع هجومى من أسبانيا والبرتغال .

وفى عام ١٤٩٣[١] تقررت رحلة كولمبس إلى باهاما ، ويوحى هذا الأمر بأنها كانت لخلق منفذ عادل ومريح للطاقة القسطالية نحو عالم جديد .

وفى عام ١٥٠٩ أقيمت أول مستعمرة أسبانية فى أمريكا . وفى هذا الوقت كان يوجد فى القارة الأمريكية دولتين وطنيتين فقط ذات قيمة وهما الإمبراطورية الأزتيكية[٢] فى المكسيك وإمبراطورية الإنكا[٣] .

وقد تم الإستيلاء على هذه الإمبراطورية الواسعة فى أقل من ٥٠ عاما وظلت سليمة ٣٠٠ سنة .

أما الإمبراطوريات الأوروبية[٤] التى ظهرت فى القرن ١٦ فقد بقيت أساساً إمبراطوريات بحرية تجارية حتى القرن ١٨ .

ولم يكن تعداد أوروبا كبيراً بدرجة تكفى لاحتلال الأعماق الداخلية للقارة الجديدة بالمعنى الحقيقى ، كما لم يكن لديهم نفس التفوق الساحق فى تكتيك الحرب البرية مثل ما كان لهم فى حروب البحر ، وكانت الشعوب غير الأوروبية تفوقهم فى الحرب البرية .

(١) فى السنة التالية بالذات لسقوط غرناطة .

(٢) وقد قهرها هرنادو كورتيز فيما بين عامى ١٥١٩ و١٥٢٢ .

(٣) وقد ضمها إلى أسبانيا فرانسيسكو بيزارو خلال الأعوام من ١٥٢٢ إلى ١٥٣٢ .

(٤) وهى الأسبانية والبرتغالية والإنجليزية والهولندية . «المعرب»

الكارافيل

وكانت السفن الكبيرة المزودة بالأشرعة الرباعية والمسلحة بالمدافع والتى يعمل عليها بحارة مهرة ولديهم معلومات ملاحية متقدمة هى المفتاح الرئيسى لكل هذه المغامرات . والبرتغاليون هم الذين نفذوا أول الاكتشافات الملاحية الحاسمة ، وكان الأمير هنرى (الملقب بالملاح) يرعى بحارتة ويجمع لهم الكثير من المعرفة عن طريق بلاطه فى مدينة بساجريس فيما بين أعوام ١٤٣٠ — ١٤٤٠ .

وقد قام فاسكودى جاما برحلته الشهيرة إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح فى عامى ١٤٩٧ — ١٤٩٨ .

وقد كان بحارة العصور الوسطى فى الواقع مرشدين ، وليسوا ملاحين فكانوا يسيرون بمحاذاة الساحل ويحددون اتجاهاتهم بالبوصلة على العلامات الأرضية المعروفة ، ولكن عندماظهرت الآلات والخبرات الجديدة فى القرن ١٤ ، ١٥ حولتهم إلى ملاحين . وأدى التحسين فى صنع الأشرعة إلى إمكان تغيير اتجاه السفينة طبقاً لاتجاه الريح ، وقد حافظت الدقة على مسار السفينة المضبوطة أثناء هذه المناورة .

وفى عام ١٤٥٦ كان البرتغاليون يستخدمون الاسطرلاب[1] ، والربع دائرة لقياس الارتفاع الزاوى للنجم القطبي وكوكبه صليب الجنوب فوق الأفق ، وذلك بغرض تحديد خط العرض .

وأنشأت مدارس للملاحة فى لشبونة وسيفيل . وعلى أى حال ، فلم يكن يوجد حتى الآن طريقة لقياس خط الطول ، وبقيت الخرائط بالتالى بدائية غير متطورة .

وكان على البحارة فى القرن ١٦ الاعتماد فوق كل شىء على التخمينات المحسوبة إلى حد ما طبقاً لحساب خطوط العرض وعلى المعلومات المتوفرة لديهم عن الرياح والتيارات البحرية . وقد استخدمت الكارافيل فى الأيام الأولى للاستكشافات وشكلت بعض التقدم عن سفن العصور الوسطى التجارية .

وكانت الكارافيل سفينة قصيرة بدينة ذات ثلاث صوارى ومزودة بأشرعة رباعية ،

---

(١) آلة فلكية قديمة لقياس ارتفاع الشمس والنجوم . « المعرب »

وبمدافع مركبة فى مقدمة ومؤخرة السفينة . وبالتدريج تحسنت ونظمت خطوط تصميمها وبنائها كما زادت منطقة الشراع لتعطى سرعة أكبر . وكان المدفع صغير الحجم أو متوسط ولكنه عموماً كان من نفس النوع المستخدم فى البر .

وبطبيعة الحال كان الأمر لا يزال محتاجا لمزيد من التطورات ، ولكن لم توجد فى ذلك الحين أى سفينة أخرى فى العالم تستطيع منافسة هذا التجميع القوى لخفة الحركة وقوة التدمير .

وفى عام ١٥٠٩ مزق الأسطول البرتغالى تحت قيادة « فرانسسكو دى ألميدا » الأسطول المصرى خارج ميناء ديو[١] ، وهكذا حل البرتغاليون محل العرب ، وسيطروا على المحيط الهندى .

ولم تكن الفتوحات الأسبانية فى المكسيك وبيرو مجرد سلسلة من الأعمال العسكرية فقط بل كانت أعمال خداع كبيرة . فلم يكن مع كل من كورتيز وبيزارو أكثر من جماعة من المغامرين لا تزيد قوتهم عن ١٠٠٠ رجل ، كما لم يكن مع أى منهم إلا بعض الخيل والأسلحة النارية العتيقة ، ولكنهما استطاعا تكوين الإمبراطورية الأسبانية باستغلال معتقدات أعدائهم الخرافية لإدخال الخوف إلى قلوب أعدائهم .

وقدر صور بيتر شافير هذا بقوله : « لم تكن الطاقة الملتهبة لحديد[٢] أسبانيا ضد سهام البيرويين الضعفاء المسالمين تمثل صورة تاريخية ، بل كانت صورة مأساة دامية وكان الخوف من آلهة بيضاء غريبة تمتطى خيولا وتطلق من آلات صغيرة جداً رعداً وبرقاً هو السبب الحقيقى لاستسلام زعماء الهنود ، وفى نفس الوقت رحبت الشعوب المذعورة لهذه المناطق بالفاتحين البيض كمحررين لهم من قبضة حكامهم . كما لعب إدخال الجدرى عمداً بواسطة الأوروبيين إلى القارة الأمريكية والتى لم يكن لدى سكانها الهنود أى حصانة ضد هذا المرض ، دوراً فى كسر شوكة مستوطنى القارة الأمريكية .

ولكن مهما كانت الظروف ، فإنها قصة تستحق مكانا بارزاً فى سجلات الشجاعة والقيادة واساليب الحرب النفسية .

---

(١) تقع جنوب كراتشى بحوالى ٣٠٠ ميل .
(٢) يقصد بنادق الأسبان .

القراصنة المتوضين

وفى المناسبات التى تصادمت فيها الأسلحة الأسبانية مع هنود جنوب أمريكا ، كان التفوق الأسبانى الفنى يظهر فى صورة مذهلة ، فلم يكن لدى الهنود من الأسلحة إلا المقلاع والقوس والحراب ذات الرأس السبجى (١) والفئوس ، بينما كان لدى الأوروبيين مدافع وسيوف من الصلب ويركبون الخيل .

وعندما حاصر كورتيز عاصمة الأزتيك (٢) الحصار الأخير فى عام ١٥٢١ قام بصنع ١٣ سفينة شراعية لمعاونة قواته أثناء هجومها على طول ثلاث ممرات من الطرق المرتفعة والتى تربط المدينة بالخارج .

وبلغ طول السفينة ٤٢ قدماً وأقصى عرض لها ٩ أقدام والجزء الطافى منها من ٤ـــ٧ قدما . وزودت بعض هذه السفن بصارى واحد بينما زود الباقى بصاريين وكان عدد طاقمها ٢٥ فرداً مسلحين بالقرابين والنشاب ، كما ركب مدفع صغير على مقدمة السفينة . واعتبر كورتيز هذه السفن هى « مفتاح النصر فى الحرب » ولذا خصص ثلث قوته الإجمالية و ٨٠٪ من مدفعيته لهذه السفن .

وقد لعبت هذه السفن فى الواقع دوراً حاسماً فى الحصار والقصف مما أدى إلى إضعاف مقاومه تنوختيتلان .

كما دمرت هذه السفن أسطولا كبيراً من القوارب الهندية سواء باختراقها بمقدمتها القوية أو بنيران المدافع .

وقد أدت هذه السفن المهمة التكتيكية للفرسان وذلك بمعاونتها لجنب ومؤخرة القوات المهاجمة على الطرق الثلاث ، كما أنها فى الليل تقوم بحراسة الرجال أثناء راحتهم ، بالإضافة إلى حمل الأمدادات وقطع خطوط مواصلات العدو مع قيامها بواجبات الاتصال ، وعملت أيضاً كوبرى عائم .

---

(١) السبج زجاج بركانى ذو لون أسود .
(٢) كانت تسمى تنوختيتلان وتقع فوق جزيرة على بحيرة تكسكوكو ، وهى فى مكان المكسيك الحالية . « المعرب »

وفى النهاية تمكنت قذائفها من تدمير تحصينات المدينة مخترقة طريقها وتقدمت على طول القنوات المؤدية إلى قلبها .

ولقد كان حصار كورتيز لتنوختيتلان عملية برمائية جديدة فى مفاهيمها ونفذت فى براعة فائقة . وهى حتى وإن بدت كعملية ارتجالية إلا أنها أوضحت بجلاء القوة الساحقة المتولدة من تجميع المدافع والسفن .

أما المنافســـة المسلحة بين القوى الإستعمارية الأوروبية نفسها فقد بات مؤكداً أنها ستحدث إن عاجلا أو آجلا . ويعود ذلك لسبب واحد وهو أن التوسع فى المصالح الأوروبية فى المناطق الجديدة كان يعتبر توسع فى الأفق السياسى والاستراتيجى الأوروبى . وخلال الحروب بين الفلواز — الهبسبرج أى بعد حوالى عام ١٥٢٠ ، أغار الفرنسيون والأسبان على مستعمرات وسفن بعضهما البعض ، كما أن شروط معاهدة كاتوا — كمبرسيس أستبعدت من المسرح كل ما هو ليس أوروبى . وقد حدث بعد الفترة الأولى من الأستكشافات من أعمال الماضى وفتور الاهتمام « بالقارة الجنوبية العظمى » و « بالممر الشمالى الغربى » أن أصبحت اهتمامات الحكومات الأوروبية تجارية بحتة . أما المناطق الغنية وخاصة منطقة الكاريبى ، فقد أصبحت مناطق تنافس بين القوى الاحتكارية المعادية . وقد نجح البرتغاليون بصفة عامة فى تجنب الحرب ، فلم تكن لديهم أى مطامع سياسية فى أوروبا ، هذا بالإضافة إلى وجود أتفاق بينهم وبين الأسبان على العمل فى مناطق مخصصة لكل منهما . وفى عام ١٥٨٠ أتحد العرش الأسبانى والبرتغالى ونتج عن ذلك قوة بحرية متحدة واحدة رهيبة . وفى نهاية القرن ١٦ فقط بدأت الأمبراطورية الهولندية البحرية فى ارتقاء سلم التطور بعد حصولها على استقلالها من أسبانيا ، بينما كانت إنجلترا هى المنافس الرئيسى لأسبانيا فى هذه الفترة . وقد لخص سير « والتر رالى » الغرض الاستراتيجى لجميع أطراف التنافس فى مضمار البحرية قائلا : « من يسيطر على البحار سيسيطر على التجارة ، ومن يسيطر على تجارة العالم سيسيطر على ثروات العالم وبالتالى سيسيطر على العالم قاطبة » .

وفى الأعوام التالية لعام ١٥٤٠ طور الأسبان مناجم الفضة فى جنوب أمريكا ، وفى وقت قصير تضاعف عدد السبائك العابرة للأطلنطى . وأصبحت التجارة الأسبانية الرائجة

مغرية لكل من التجار المتطفلين وأيضاً لكثير من القراصنة المفوضين[1] . وفى الأعوام التالية لعام ١٥٦٠ أزداد بسرعه حجم النقل البحرى التجارى الأسبانى فى الباسفيك ، وبالرغم من أن إنجلترا كانت فى الجزء الأول من القرن متخلفة تجارياً ، ولم تلعب إلا دوراً بسيطاً فى الاستكشافات الأولى والتوسع التجارى ، إلا أن ماحدث من هبوط مفاجىء للأسعار فى سوق أوروبا الشمالية فى حوالى عام ١٥٥٠ ، أثار الإنجليز وحثهم على أستكشاف وأستغلال العالم الجديد .

وفى أول الأمر أهتموا بشمال الأطلنطى ولكن فى الأعوام التالية لعام ١٥٦٠ تواجدت المصالح البريطانية بقوة فى الكاريبى .

وقد سار تطور القوة البحرية البريطانية فى القرن ١٦ بطريقة عفوائية ، وكان أهم عامل مؤثر منذ التاريخ هو وجود بريطانيا على حافه الأطلنطى ، الأمر الذى جعل تفكيرها البحرى يتجه إلى الشراع وليس إلى المجداف . وأستخدمت السفن الشراعية فى القتال ونقل البضائع نظراً لقدرتها الأكبر على البقاء فى البحر وتحمل الأحوال الجوية . وجاء هنرى السابع (١٤٨٥ — ١٥٠٩) ليزيد من حجم السفن الشراعية إلى حوالى ١٠٠ طن كما وسع منطقة الشراع . وقد جعل بورتسموث القاعدة البحرية البريطانية وأنشأ فيها أول حوض جاف . وشجع هنرى السابع الملاحين ، وأيضاً كسياسة مرسومة شجع طبقة جديدة من الأثرياء ، الذين قامت مؤسساتهم ببناء القوة البحرية البريطانية فى الأعوام التالية .

ولكن ظلت السفن الإنجليزية التجارية الكبيرة المسلحة المعروفة باسم « القرقور » هى سفن القتال أيام حكم هنرى ، ولكنها لم تكن أكثر من نقطه قوية متحركة ، ولم تكن لديها خفة حركة كبيرة .

الغليون

لقد كانت أعظم خطوة فى تكوين القوة البحرية البريطانية تلك التى قام بها هنرى الثامن (١٥٠٩ — ١٥٤٧) ، فبعد أن حصل هنرى على بعض الأنواع الجديدة من المدافع وجد أنها أثقل من أن توضع فى المقصورات الضعيفة الرقيقة المعدة للمدفع فى سفن القرقور ،

---

(١) قرصان يفوض من قبل الحكومة لمهاجمة سفن الأعداء والإستيلاء عليها . « المعرب »

ولذا فقد ركبها على طول السطح وأيضاً فى مكان نقل الحمولة بعد شق فتحات خاصة فى الجزء الطافى من السفينة .

وبذلك أصبحت سفن هنرى الثامن هى أول سفن مسلحة بالمدافع على جانبيها .

وزود المدفع بعربة ذات عجل حتى يمكن إدارة المدافع إلى الداخل لأعادة التعمير ، وأيضاًلإمكان ارتداد المدفع فيما بين السنادات على السطح ، وأمكن بذلك التغلب على مشكلة نقص القوة الضاربة للسفينة الشراعية . كما أن هنرى الثامن جعل سفنه أكثر قدرة على المناورة بإزالة جميع مقصورات المدافع جاعلا جسم السفينة أنسيابياً ، وبذلك كان يمكن للسفينة الأبحار فى أتجاه معاكس للريح تقريباً . وذلك النوع الجديد من السفن المتطورة من حيث القدره الهجومية ومرونة المناورة كان يطلق عليها أسم « الغليون » .

وفى عام ١٥٥٠ كانت هناك غلايين ذات حمولة وصلت إلى ٦٠٠ طن ، وفى الأعوام التالية لعام ١٥٨٠ كانت هناك بعض الغلايين مثل « النصر » والتى وصلت حمولتها إلى أكثر من ١٠٠٠ طن .

ولقد كانت هذه سفن « هوكنز » و « دريك » وأستخدمت أيضاً سفن شراعية مسلحة صغيرة كانت تعرف باسم « البيناك » .

وقد أنشأ هنرى الثامن نظاما بيروقراطياً ليكمل به قائد البحرية ، وهو مجلس البحرية ومراقبة الحسابات . أما الأسبان فى الأعوام التى تلت عام ١٥٥٠ أدخل الأدميرال الأسبانى « الفارودى بازان » الغليون للخدمة فى الأسطول الأسبانى ولحماية النقل البحرى لبلاده عبر الأطلنطي . وفى الأعوام التالية لعام ١٥٦٠ أنشأ الفارو أول نظام ثابت للقوافل البحرية المسلحة .

وحتى عام ١٥٦٩ ، ظلت العلاقات الأنجلو — أسبانية ودية فى شيء من التجاوز ، وكان الأدميرال « سير جون هوكنز » من أبرز شخصيات هذه الفترة ، وأدخل بعض التحسينات على الغليون . وفى عامى ١٥٦٢ ، ١٥٦٤ أنشأ عن طريق الاكتتاب والتبرع أساطيل جابت أرجاء الكاريبي بنجاح كبير . وعندئذ أعد هوكنز رحلة ثالثة قامت بتمويلها اليزابيث نفسها ، وفى تلك الرحلة بدأ ظهور « فرانسيس دريك » فى الكاريبي .

وفى عام ١٥٦٨ بينما كان الإنجليز يقومون بإصلاح سفنهم فى « سان جوان دى أليا » فى (خليج المكسيك) باغتتهم قوة أسبانية كبيرة بهجوم عنيف لم ينجو منهم سوى جزء صغير جداً أستطاع العودة إلى إنجلترا .

وكانت هذه نقطة التحول . . ومنذ عامى ١٥٦٩ — ١٥٨٠ بات واضحاً أن هناك عداءاً شبه رسمى بين إنجلترا وأسبانيا فى مياه الكاريبى . وأعلنت اليزابيث صراحة أنها تؤيد أعمال القراصنة الإنجليز طالما لم تؤدى أعمالهم إلى إثارة حرب علانية ، ومما زاد من حدة هذا العداء الأختلافات الدينية وتزايد معاملة الأسبان السيئة للأسرى .

وفى ذلك الوقت ، برز فرانسيس دريك كقائد بحرى بارز فى عصر الغليون . وأصبح أسمه بعد ٢٠ عاما من المغامرات الناجحة يثير الرعب فى قلوب الأسبان ، كما صار يتردد اسمه كقول مأثور على ألسنة المواطنين الإنجليز ، وقد جلب هـذا عليه غيره بعض المنافسين الأقل تألقاً . ومن أهم ما قام به دريك من أعمال تطويره لفن واستراتيجية وتكتيك البحرية البريطانية . وفيما بين عامى ١٥٧٢ — ١٥٧٣ أنتقم لكارثة « سان جوان دى أليا » وذلك بقيامه بسفينتين و ٧٥ رجلا بغارة ناجحة على « نومبرى دى دواس » ذلك المرفق الحيوى للمواصلات البحرية الأسبانية . واستمر لعدة شهور بعدها فى نهب سواحل المستعمرات الأسبانية وتدمير سفنهم ، حتى أنه فى أحد المناطق نزل إلى البر ليتحالف مع المواطنين واستولى على قافلة أسبانية هامة محملة بالفضة . . وفيما بين عامى ١٥٧٧ و ١٥٨٠ قام دريك برحلته الشهيرة حول العالم ، واستمر طوافه على متن السفينة « جولدن هيند » بعد أن فقد سفينتين فى مضايق مجلان .

سير فرانسيس دريك

ثم أغار على الشاطىء الباسيفيكى لجنوب أمريكا حيث أكتشف أن الموانى بهذا الشاطىء غير مجهزة للوقوف فى وجه مدفعية سفينته ، وضمن باستيلائه على سفينة نقل الفضة الضخمة « كاكافيج » النجاح المالى للرحلة . كما كانت هناك ثروات أكبر كثيراً تتلمس

طريقه خلال جزر « مولو كاس » . وعندما عادت السفينة « جولدن هيند » إلى نهر التيمز ألقى دريك مراسيها خارج « دبتفورد » . وأعلنت اليزابيث عزمها على منح فرانسيس دريك رتبة « السير » على ظهر السفينة ، وتم ذلك فى ٤ أبريل عام ١٥٨١ . وجعلت اليزابيث دريك يركع أمامها ثم أعطت السيف لدبلوماسى فرنسى ليقوم بلمس أكتاف دريك ، ومن المحتمل أن يكون هذا العمل بغرض توجيه أهانة مباشرة لملك أسبانيا وأيضاً لتوريط الفرنسيين معها .

ولكن يبدو أن الستار قد بدأ يرخى سدوله معلناً على نهاية ذلك العهد من الرخاء والاطمئنان .

فقد كانت السفن والبحارة الإنجليزية فى وضع أفضل من أى وقت مضى ، ولكن الأسبان أيضاً أتخذوا الإجراءات التى تكفل لهم التعامل مع المغيرين الإنجليز ، فانشأت أسبانيا سفناً أكبر للنقل وجهزتها بالمدافع ، كما ألتزمت بنظام دقيق لإبحار القوافل . فكان يغادر أمريكا إلى أسبانيا أسطولان كبيران فى أوقات محددة من العام يصحبهما أسطول من الغلايين لحمايتهما .

وظل الأسبان لمدة طويلة يرفضوا التخلى عن السفن الشراعية المزودة بالمجاديف[١] .

وعلى كل إذا كانت قوة التحمل هى مفتاح الاستراتيجية ، نخفة الحركة ضرورية للتكتيك .

وفى الفترة التى شهدت المعركه البحرية العظمى « لبانتو » فى البحر المتوسط ضد الأتراك عام ١٥٧١ ، كان الأسطول الأسبانى يتكون كله من القواديس[٢] ، وعلى أى حال فقد أعترف فى الأعوام التى تلت عام ١٧٥٠ بمزايا السفن الشراعية ، كما عملت التجارب لإنتاج سفينة سميت « الغلياس »[٣] ، وكانت تطلق نيرانها من الجنب من فوق رؤوس المجدفين . ونتيجة لإتحاد البرتغال وأسبانيا عام ١٨٥٠ حصلت أسبانيا على عدد

(١) كان سبب ذلك أنهم من أهالى البحر المتوسط الذين اعتادوا على السفن ذات المجاديف .

(٢) سفن شراعية كبيرة ذات مجاديف .

(٣) سفينة جامعة لخصائص الغليون والقوارس .

« المعرب »

كبير من الغلايين . وأخيراً فى عام ١٥٨٧ عندما ثبت الفشل التام للغلياس تحول الأسبان كلية من القوادس إلى الغليون.

احراق لحية ملك أسبانيا

وفى عام ١٥٨٠ كانت لا تزال اليزابيث غير راغبة فى التعجيل بقيام حرب علنية وقد ضيعت الفرصة لتوجيه ضربة كبيرة للقوة الأسبانية البحرية برفضها الإنضمام إلى فرنسا للقيام بغارة على جزر الأزور ، وبالرغم من ذلك فقد تدهورت العلاقات بسرعة ، وفى عام ١٥٨٥ أستولى فيليب ملك أسبانيا على معظم التجارة الإنجليزية فى أسبانيا ، كما خرجت الأخبار الصادقة ، بأنه يخطط لغزو انجلترا وذلك أعلنت الحرب رسمياً بين الطرفين .

كان الإنجليز يستخدمون الأساطيل فى العهود الماضية لمجرد نقل ومساعدة القوات فى قتالها البرى ولكن الآن أصبحت هناك أستراتيجية بحرية خاصة مع عدم إرتباطها بالقتال البرى ،فاستخدمت السفن البريطانية فى نظام وترتيب لقطع المواصلات البحرية الهامة للعدو ، وهى استراتيجية الأقتراب غير المباشر والتى تشبه ما اتبعته أسبرطة لهزيمة أثينا فى الحروب البيلوبونيز . وهاجمت السفن الإنجليزية خطوط المواصلات التى تربط الجيش الأسبانى فى الأراضى الواطئة وقاعدته فى أسبانيا .

وكانت الحملة العسكرية الإنجليزية التى أرسلت لمعاونة الهولنديين فى عام ١٥٨٥ جزءاً مكملا لهذه الأستراتيجية . وفى نفس الوقت أستمرت أنجلترا فى أتباع سياسة دريك فى قطع الموارد الأمريكية عن أسبانيا . وفى عام ١٥٨٥ ابحر دريك ومعه ٢٠ سفينةو ٢٣٠٠ رجل إلى الكاريبى للاستيلاء على هافانا[(١)] ، وقد نجح فى إلحاق الدمار بالسفن والمنشآت الأسبانية هناك ، ولكن لم يكن معه قوات تكفى لتحقيق النجاح كاملا .

وهذا يدل على تردد الملكة لحرمانها دريك من الرجال التى تكفى لنجاح مهمته با لكامل .

وكان من الأفضل بدلا من أرسال قوات بريطانية كبيرة إلى الأراضى الواطئة ، التأكد

(١) كانت هافانا المركز التجارى الأسبانى الرئيسى فى الكاريبى . المعرب .

فقط أن الهولنديين يثبتوا القوات الأسبانية هناك ، بينما توجه إنجلترا مجهودها الرئيسى إلى الكاريبى . منذ عهد هنرى الثامن والبحرية البريطانية تتضاءل بطريقة ملحوظة ، وكانت أليزابيث تعانى من النقص المالى ، وفضلت أن ترسم سياستها البحرية على أساس مشاركة المؤسسات التجارية الخاصة ذات رأس مال مشترك لهذا الأمر ، وقد مولت كل رحلات دريك بهذه الطريقة ، وبذلك أعيد بناء الأسطول البريطانى .

وقد كانت إستراتيجية الأسبان فى هذا الحرب تدمير مخربى الأمبراطورية فى عقر دارهم وذلك بتوجيه ضربة ضد إنجلترا بغزوها بأسطول كبير بالتعاون مع جيش بارما المتمركز فى الأراضى الواطئة . ومنذ وقت طويل كانت تجرى الإستعدادات اللازمة لذلك حتى أنه فى عام ١٥٨٨ رفضت خطتان للغزو .

وإنتشرت الشائعات عن الإستعدادات الأسبانية فى كل أوروبا ، وفى عام ١٥٨٧ قام الإنجليز بمحاولة للقضاء على الغزو فى مهده ، فقد ترك دريك أسطولا صغيراً لمراقبة الساحل الفلمنكى وأبحر هو ومعه ٢٣ سفينة فى مهمة تعتبر من أبرع ما قام به على الإطلاق : — « إحراق لحيه ملك أسبانيا » . وكانت تعليمات دريك كما يلى : —

« تدمير تجمع أسطول ملك أسبانيا فى مراكزه المتعددة ، ومنعه من التزود بالمؤن وتتبع سفنه فى حالة إتجاهها نحو إنجلترا » .

وفى ميناء كاديز وجد حوالى ٨٠ سفينة من مختلف الأنواع يجرى تجهيزها ، ولكن لم توجد سوى ١٢ قادس فى حالة إستعداد للقتال ، واستغل دريك المفاجأة ودخل بسفنه إلى داخل الميناء ، وحاربت القواديس بشجاعة مثالية ولكن هزمتها نيران مدفعية الغلايين ، ثم دمر دريك كل ما أمكن العثور عليه فى الميناء ، وخسر الأسبان ٣٠ سفينة ، وأمضى الأسطول الإنجليزى وقتاً طويلا على الساحل الأسبانى ، ولكن الأمراض وقلة المون أجبرته على العودة لإنجلترا .

ولقد كانت حملة دريك عبارة عن المثل الأول للسياسة الإستراتيجية البحرية الرئيسية البريطانية المقبلة ، وهى مهاجمة العدو على نفس ساحله .

وأهم النتائج المباشره لهذه المعركة هو قرار الأسبان بالتخلى عن القواديس والإتجاه إلى

الغلايين واضطر الأسبان إلى البدأ من جديد فى التجهيز للأرمادا[١] .

وفى عام ١٥٨٨ ألح دريك على تكرار هذه الإستراتيجية الدفاعية الهجومية ولكن تردد الملكة ثم قيام ريح غير مواتية أبقت الأسطول الإنجليزى فى مياه بلاده .

كنوز الأسطول الاسبانى (أنظر اللوحة رقم ١٩)

وبدت الأرمادا الأسبانية التى أبحرت أخيراً للمانش فى مايو ١٥٨٨ كقوة رهيبة .

وقد أستطاع فيليب بقدرته الإدارية من بناء ٦٥ غليون بعد كارثة كاديز . ولم يكن مع الأرمادا سوى ٤ قوادس ومثلها من نوع الغلياس ، ولكن الحجم الكلى للأرمادا وصل إلى ١٣٠ سفينة عندما أشترك حشد من سفن البيناك الصغيرة وسفن النقل معها .

وقد جمعت هذه السفن من كل من أسبانيا والعالم الجديد . وكان إجمالى الأسطول البريطانى فى بلايموث ١٩٧ سفينة بينها ٣٤ من سفن الملكة أما الباقى فكانت سفناً خاصة، وتضمن الأسطول حوالى ٢٥ غليوناً من الدرجة الأولى و٤٠ سفينة قتال أخرى جيدة جداً ، أما الباقى فلم يخض القتال . وبلغت حمولة أكبر السفن فى كلا الجانبين حوالى ١٠٠٠ طن ، وبالتالى فقد تساوت القوة القتالية للجانبين إذ بلغت لكل منهما من ٦٠ — ٧٠ غليوناً منهم ٣٠ سفينة بالغة القوة .

ومهما كان فقد كانت السفن الأسبانية أكثر إرتفاعاً عن سطح الماء ومقدمتها أكبر الأمر الذى جعلها أقل فى المناورة عن الغلايين الإنجليزية . ، كما كان هناك عامل غاية فى الأهمية وهو أن الإنجليز كان لديهم بحارة أكثر خبرة فى الملاحة بالشراع علاوة على تفوق نوعية القيادة فى الجانب الإنجليزى .

وكان القائدان العامان الشرفيان هما « دوق مدينا سيدونيا » « واللورد هوارد أفنجهام » وهما سيدان من النبلاء يمتازان بالكياسة والذوق ولكن تنقصهما الخبرة البحرية، أما القائدان الحقيقيان فكانا « دييجو دى فالديز » الأسبانى وهو أحد رجال البحر ذو الخبرة العظيمة ولكن كان عاجزاً على السيطرة على مرؤوسية ، « ودريك » الإنجليزى والذى كان فى ريعانه .

(١) الأرمادا هى الأسطول الأسبانى الكبير . المعرب

ولقد كانت هناك فوارق ملحوظة فى تسليح كلا الأسطولين والتي ترجع إلى إختلاف المفهوم التكتيكى لكل منهما

وكان الهدف التكتيكى الأسبانى هو قصف العدو من مدى قصير حتى يتم تدمير أشرعته وصوارية وأيضاً إضعاف القدرة القتالية لرجاله ، ثم الإقتراب بعد ذلك من سفن العدو والأمساك بهاثم أعتلائها ، ولذلك فقد سلحوا كل غليون بحوالى ٤٠ مدافع ثقيل قصير المدى .

أما الهدف التكتيكى الإنجليزى فكان يتركز فى قصف جسم سفن العدو على أن يتم ذلك من أبعد مدى ممكن بهدف أغراقها ، ولذا سلح الإنجليز سفنهم بمدافع أخف ولكن ذات مدى أطول .

وهكذا تفوق الأسبان فى الوزن وتفوق الإنجليز فى المدى .

وفى ١٩ يوليه عام ١٥٨٨ ظهرت الأرمادا أمام مياة ليزارد ، ولبعض الوقت فقد لزم الأسطول الأنجليزى ميناء بلا يموث بسبب الرياح الجنوبية الغربية ، وقضى الضباط ذلك الوقت فى ممارسة لعبة البولنج (١) .

ولكن فى ٢٠ يوليه خرجت السفن الإنجليزية من الميناء فى إتجاه الأرمادا .

وصمم دريك على أنتزاع المبادأة من الأسبان بالوصول إلى مهب الريح بالنسبة للاسبان، وجاءت أولى لحظات تفوق الملاحة البريطانية عندما شق أسطولهم طريقه فى حركات متعرجة قصيرة فى مواجهة الأسطول الأسبانى ليعبر من جانب إلى آخر ويصبح فى مهب الريح بالنسبة للاسطول الاسبانى. وانتشرت الأرمادا على شكل هلال متجه غربا ، وهكذا أصبحت الأرمادا مجبرة على خوض القتال من مؤخرتها حسب الوضع الملائم لسفن الإنجليز على طول المانش .

وقرر الإنجليز إستغلال خفة حركتهم المتفوقة ومدى نيرانهم الأطوال ، وساروا لمدة خمسة أيام فى أثر العدو ، ويوماً بعد يوم يتصيدون أقوى سفن المؤخرة الأسبانية .

---

(١) لعبة تدحرج الكبرة على مسطح لتصيب عدد من القوائم الخشبية وتسقطها.

وفى أول الأمر كان الإنجليز يقومون بالهجوم فى مجموعات صغيرة ولكن الأسطول بعد ذلك نظم فى أربعة مجموعات ، وكان ذلك بمثابة البداية التكتيكية المتماسكة للأسطول[1] . ومرة بعد الأخرى تفوقت السفن الإنجليزية فى الملاحة على سفن الأسبان .

ولكن لم تؤدى تكتيكاتهم المختارة أكبر مما أدت إليه تكتيكات عدوهم .

وقد أظهرت التجربة العملية أن المدفع الإنجليزى كان أخف من أن يلحق دماراجسيما من المسافة التى اعتبرت مسافة الضرب المؤثر ، وعلى كل لم يجرؤ الأسطول الإنجليزى على الإقتراب من الأرمادا إقتراباً كافياً الافى ٢٩ يوليه بعد فراغ الذخيرة من الأسبان .

وفى النهاية أغرق الإنجليز ١١ سفينة فقط من الأسطول المهزوم ولم تكن التكتيكات الأسبانية سوى فشلا ذريعاً ، لأنها كانت مجرد تطبيق لنظام سفن القوادس فى القرون الوسطى ، ولذلك لم تقترب أى سفينة أسبانية إقتراباً كبيراً من السفن الإنجليزية لتتعامل معها الند بالند كما كان مرسوماً فى الخطة .

وحصل الإنجليز على الأفضلية فى الصراع ، وقد حققوا أغراضهم فى كل مرة بتفوقهم فى فن الملاحة الذى دعمه عجز عدوهم وضعف كفاءته الواضحة .

فبعد أن انتزع دريك المبادأة الأولى بقى محافظاً عليها بالأبحار فى مهب الريح بالنسبه للأسبان ، وقد عاونه على ذلك ثبات هبوب الريح البروتستنتينية .

وفى ٢٥ مايو أجبر دريك الأسبان على عبور السلونت والتوجه إلى المانش مباشرة وبالتالى منعهم من الدخول فى أى مرفأ آمن ، الأمر الذى كانوا يحتاجونه ، وساعد على ذلك عدم وجود توقيتاً زمنياً لتجمع جيش بارما على الساحل الفلمنكى .

وفى ٢٩ يوليه جاءت اللحظة الحاسمة عندما تبعثرت الأرمادا بنيران مدافع السفن الإنجليزية أمام مياة جرافلين قبيل الفجر ، وهنا تملك الذعر الأسبان . وفى النهاية استطاع الإنجليز التوغل بين سفن العدو نتيجة لعدم كفاءة الأسبان والتى تسببت فى

(١) لم يكن قد ظهر بعد مبدأ تقدم المجموعة فى خط واحد للأمام بحيث يمكن لكل سفينة فيه أن تعطى جنبها بالتعاقب لتوجيه النيران المعرب

نفاذ الذخيرة . وعلى كل كانت أكبر الخسائر التى لحقت بالأرمادا من العواصف التى قابلتها أثناء فرارها حول شمال إسكتلندا .

وقد أنقذت هزيمة الأرمادا إنجلترا البروتستنتينية وعرشها الوطنى . ولكن تبددت كل نتائج هذا النصر خلال ١٥ سنة الباقية للحرب . وحلت المتاعب مرة أخرى بسبب تكرار رفض اليزابيث لإنتهاج إستراتيجية ذات عزم وتصميم .

وقد كتب رالى قائلا : ــ « لقد عملت الملكة كل شىء بالنصف[١] ، أدت غزواتها الضعيفة السريعة أن تعلم الأسبان كيف يرون موطن ضعفهم وبالتالى كيف يدافعون عن أنفسهم » .

ولم تعد من سفن الأرمادا ١٣٠ سوى ٥٢ سفينة معطبة . ولكن فى وقت قصير وغريب إستطاع ثراء أسبانيا أن يبنى أسطولا جديداً وعظيما من الغلايين .

وفى نفس الوقت وكما يحدث كثيراً بعد أى نصر باهر ، خفضت نفقات الأسطول البريطانى ، وأصبحت هناك حملات ضعيفة وغير ملائمة ترسل خارج مياه بريطانيا . فكان يجب ألا يحدث مطلقاً تلك العملية التى إشتبك فيها جرينفيل خارج جزر الأزور عام ١٥٩١ مع الأسطول الأسبانى ، ففى هذا الإشتباك كان الأسطول البريطانى يتكون من حوالى ١٦ سفينة بينما كان لأسطول الأسبانى مكونا من ١٤٠ سفينة . وإستطاع الكثير من السفن الإنجليزية الهرب ولكن السفينة « ريفنج » أسرت بعد أن ظلت تقاتل طوال اليوم وأغرقت إحدى سفن العدو .

وأخيراً إستطاع الأسبان الأمساك بها ثم الإستيلاء على هيكلها الضخم وقد أصبح غير صالح للعمل . وعندما حل السلام فى ١٦٠٣ كانت إنجلترا قد فقدت السيطرة على البحار التى حققها لها دريك .

ولم يحدث مرة أن حقق القراصنة الإنجليز حلمهم بالإستيلاء على كنوز الأسطول الأسبانى . وهكذا خسرت إنجلترا الحرب البرية والبحرية لوقت طويل . وبالتالى الحرب التجارية ضد أسبانيا .

---

(١) يقصد أنها كانت تعمل شىء بعد أن تهبط به إلى النصف أولا . : المعرب :

ولم يكن ذلك يعنى كثيراً ، لأنه فى هذا الوقت كانت هناك عوامل أخرى كثيرة أدت إلى أفول نجم أسبانيا ، وكان السبب الرئيسى لذلك التضخم المالى الذى أوجده التدفق غير المنظم لسبائك الذهب والفضة من العالم الجديد .

وعلى أى حال ، فكان حكم مثل هذه الامبراطورية المترامية الأطراف والدفاع عنها ضد السلب والنهب من جميع الأمم مهمة مرهقة . وسرعان ما أدى ضعف الكفاءة السياسية إلى الحيرة والتردد بل إلى الإضطراب

وكانت هزيمة الأسبان على يد الهولنديين ضربة قاسية . ولكن مع ذلك ولوقت ليس بقصير ، وحتى بعد هزيمة الأرمادا ومعركة نيوبورت ، ظلت كفاءة الأسلحة الأسبانية فى البر والبحر ولوقت طويل تتمتع بسمعه كبيرة وإحترام جميع الدول .

وهكذا ينتهى الجزء الثالث من الكتاب ، أما الجزء الرابع فضمنه مونتجمرى الآتى : —

* الموت الأسود .
* الأنكشارية .
* مدفع أربان الوحشى .
* العثمانيون يحاصرون فينا .
* مؤذن وقائد أسطول .
* بيع القوة البشرية .
* الحظ يفضل الرجل الجرىء .
* قتل جوستاف .
* أغتيال والنشتين .
* نهاية حرب الثلاثين عاماً .
* عاهرة بابل الصغيرة .
* الملك الهازم لنفسه .
* حرب الأرث الأسبانى .
* نصف القمـــر .
* أختراق عالم الخوف .
* المبارزة بالمدفعية .
* لايعرفون سوى كيف يموتون .
* رسالة إلى الزوجة « سارا » .
* عملاق عصره .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء الرابع .

عميـد

فتحى عبد الله النمر

مسابقة القراء

		عدد
الجائزة الأولى : —	١٠ جنيهات مصرية	١
الجائزة الثانية : —	٣ جنيهات مصرية	٢
الجائزة الثالثة : —	٢ جنيه مصرى	٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارىء أن يضع علامة (√) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم أختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع فى مظروف عليه طابع بريد وترسل فى بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالى :—

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين فى الجزء التالى للكتاب والذى يظهر فى أول كل شهر .

٥ — لقد رصد الفيلد مارشال مونتجمرى الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء السبعة التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

أسماء الفائزين فى مسابقة الجزء الثانى

حل المسابقة :—

ج ١ : ١ — سـيبيو .

ج ٢ : ٣ — فـولار .

ج ٣ : ٢ — حربة قصيرة ذات رأس حديدية مدببة وحادة .

ج ٤ : ٣ — سـابور .

ج ٥ : ١ — أدريانوبل .

ج ٦ : ٢ — بليزارتوس .

ج ٧ : ٢ — خالد بن الوليد .

ج ٨ : ٣ — القائد العربى مسلمة .

ج ٩ : ٢ — وحدة تتكون من ٤٠٠ جندى .

ج ١٠ : ٢ — طرسوس وقبرص .

الجـوائز :—

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ٦٠٠٧

باسـم : عبد الحميد رشـاد سيد أحمد

العنوان : عمارة رقم ٦ شقة ٦٠٩ / مدينة نصر

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٢٦٠٥

باسـم : محمد عبد المنعم أحمد جودة

العنوان : ٣٣٣ ش رمسيس العباسية طالب بالمعهد العالى للفنون الجميلة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٢٧١٥

باسـم : حسام أحمد فؤاد كامل

العنوان : ٨٨ (أ) شارع العباسية شقة ٣

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه وعددها ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة ١١١١

باســم : مصطفى محمد عبد العزيز حسن

العنوان : ٧ شارع الصباغ بعابدين / القاهرة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٧١٥

باســم : محمد عبد الموجود محمد إسماعيل

العنوان : مساكن القللى الشعبية بلوك ٣ مدخل ٢ شقة ٢

٣ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٧٠٤

باســم : ملازم أول محسن محمود محمد أبوريا

العنوان : ١٠٨ ش ترعة الذمر — أول الهرم — الجيزة

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد (عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* هذا الكتاب يقع فى سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتجمرى لكل جزء مسابقة وجوائز مالية لها ، فمن لم يسعده الحظ فإلى اللقاء مع مسابقة جديدة فى الأجزاء التالية التى تظهر فى أول كل شهر .

المســـابقة نمرة ٠٠٤٢٢١

١ — لقد لقي كل من هاردرادا وتوستيج مصرعهما في معركة

١ — الهمـــبر .

٢ — كوبرى ستامفورد .

٣ — هاستنجز .

٢ — نزل وليام الفاتح وقواته على الشاطئ الانجليزى في يوم

١ — ٢٨ سبتمبر ١٠٦٦ .

٢ — نهاية أغسطس ١٠٦٦ .

٣ — ١٣ أكتوبر ١٠٦٧ .

٣ — لقد استولى على قلعة «شاتو جيلارد» في الفترة ١٢٠٣ - ١٢٠٤ بواسطة

١ — فيليب أغسطس .

٢ — ريتشارد الأول .

٣ — كرومويل .

٤ — في ٣ يوليه عام ١١٨٧ قاد جاى دى لوزينان القوات الصليبية الى اعظم كارثة في

١ — معركة بيت المقدس .

٢ — معركة حيفا .

٣ — معركة حطين .

٥ — الاحتفال الخاص لمنح الرجل لقب فارس يطلق عليه

١ — الجمبـــوز .

٢ — الهسية .

٣ — الاحتضـان .

٦ — أول من سجل معادلة البارود في العالم هو

١ — الراهب الإنجليزى روجر بيكون .

٢ — والتر دى مليويكى .

٣ — سيلدون .

٧ — اول مرة يطلق فيها مدفع فى القتال

١ — فى عام ١٣٢٤ عند « متز » .

٢ — فى عام ١٣٢٧ عند « بيرويك » .

٣ — فى عام ١٣٤٠ عند « كويسنوى » .

٨ — أول قائد قدر الامكانيات التكتيكية لحملة القرابين هو

١ — فرنسيس الأول .

٢ — جونزالفو .

٣ — مكسيميليان .

٩ — مرجريت المجنونة هى

١ — أسم ملكة إنجلترا .

٢ — أسم ملكة هولندا .

٣ — أسم مدفع .

١٠ — قام دريك برحلته الشهيرة حول العالم

١ — فى ٤ أبريل ١٥٨١ .

٢ — بين عامى (١٥٧٧ و ١٥٨٠) .

٣ — بين عامى (١٥٠٩ و ١٥٤٧) .

الاسم ____________________

العنوان ____________________

____

____

الحرب عبر التاريخ

A HISTORY OF WARFARE

الجزء الرابع

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكليات العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
فى عيد العلم العاشر والحادى عشر

التصديق بالنشر

خطاب رقم ن/م ث/٦/١/٢٠٢١

رقم الإيداع ٣٢٩٠ / ١٩٧٢

المطبعة الفنية الحديثة

٢٠ شارع الأوسية بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الحادى عشر : الاتراك العثمانيين	٣٤٣
* الموت الأسود	٣٤٣
* أرطغـــول	٣٤٤
* الأنكشارية	٣٤٦
* مدفع أربان الوحشى	٣٥١
* سليم الأول يغزو مصر	٣٥٨
* سقوط جزيرة رودس	٣٦١
* العثمانيون يحاصرون فينا	٣٦٣
* مؤذن وقائد أسطول	٣٦٤
* قطع رأس على باشا	٣٦٧
الفصل الثانى عشر : الحروب الاوروبية فى القرن السابع عشر	٣٧٣
* بيع القوى البشرية	٣٧٣
* الحظ يفضل الرجل الجرىء	٣٨٣
* قتـــل جوستاف	٣٩٢
* أغتيال والنشتين	٣٩٤
* نهاية حرب الثلاثين عاماً	٣٩٧
* عاهرة بابل الصغيرة	٣٩٩
* الملك هازم لنفسه	٤٠٣
* سـيدة البحار	٤٠٦
* منقـــذ البحرية	٤١٠

الموضـــــوع	الصفحة
الفصل الثالث عشر : عصر مارلبورو	٤١٣
* حرب الأرث الأسبانى	٤١٣
* نصف القمـــر	٤١٧
* الجيش الدولى	٤٢١
* اختراق عالم الخوف	٤٢٤
* المبارزة بالمدفعية	٤٣٦
* لا يعرفون سوى كيف يموتون	٤٣٩
* رسالة إلى الزوجة « سارا »	٤٤١
* عمـــلاق عصره	٤٤٥
الخرائط :	
* اللوحة رقم ٢١ : الإمبراطورية العثمانية	٣٥٩
* اللوحة رقم ٢٢ : تخطيط رودس	٣٦٢
* اللوحة رقم ٢٣ : (أ ، ب) معركة لبانتو	٣٦٨
* اللوحة رقم ٢٤ : ألمانيا أثناء حرب الثلاثين عاماً . .	٣٨٢
* اللوحة رقم ٢٥ : تشكيلات المشاة للمعركة لجيش جوستاف	٣٨٦
* اللوحة رقم ٢٦ : معركة بريتنفيلد	٣٨٩
* اللوحة رقم ٢٧ : إنجلترا فى نهاية الحرب الأهلية . .	٤٠٢
* اللوحة رقم ٢٨ : حملة مارلبورو	٤١٨
* اللوحة رقم ٢٩ : معركة بلنهيم	٤٣٤

الفصل الحادى عشر

الاتراك العثمانيين

الموت الاسود

إذا تأملنا فى النطاق الذى ضربه البرابرة حول أوروبا فى العصور الوسطى ، لوجدنا أن هذا الحصار رفع أسرع فى الشمال والغرب عنه فى الجنوب الشرق . ومع حلول عام ١٠٠٠ امكن أمتصاص واستيعاب المعتدين القادمين من الشمال . وفى عام ١٥٠٠ مكن التقدم التكنولوجى أوروبا الغربية من انتهاج إستراتيجية هجومية عالمية . ولكن الهجوم التركى على الجنوب الشرقى كان أكثر شراسة ورعباً وأطول أمداً . وقد نعتبر الحملات الصليبية سلسلة من التحركات الدفاعية ، وقد نجحت الحملات الأولى لأنها فاجأة العدو ، ولكن فيما بعد إزداد التردد والحيرة خلال هذه الحملات . وعلى كل فالفشل الذى منى به أعنف هجوم مضاد قامت به أوروبا فى العصر الوسيط ليؤكد بأس وقوة هذا العدو .

ولقد كان للأتراك ، قبل كل شىء ، التفوق العددى الساحق ، فهم عبارة عن مجموعة ضخمة من الشعوب شبه الرحل ، والذين يتميزون بلغتهم الخاصة ، وقد زحفوا نحو منطقة شرق البحر الأبيض قادمين من آسيا الوسطى تحت ضغط التوسع المغولى ، وتحت إغراء ضعف العرب .

وكان لدى الأتراك فى الغرب(١) أعدادا لا تحصى من القوة البشرية ، على عكس أوروبا الذى أخذ التعداد بها يتناقص بطريقة مخيفة فى الفترة مابين ١٣٤٧ ، ١٣٥١ تحت ضربات منجل الموت الأسود(٢) ، وأكثر من ذلك فكانت معنويات الأتراك مرتفعة ، بل أنها كانت تفوق معنويات خصومهم الأوروبيين . ولم يكن الأتراك شعباً بدائياً بل كانوا الورثة

---

(١) لقد اعتبر الأتراك فى الغرب رأس الحربة لهذا الشعب التركى النازح من الشرق .

(٢) الطاعون . « المعرب »

لانصهار وإندماج حضارتين ناضجتين ، هما حضارة الإسلام وحضارة السهول . ولم يكن هناك أى أمل فى إمكان نزع سلاح المقاتل التركى المسلم العنيف والمملوء بالقوة والنشاط وتحويله عن عنفه سواء أكان ذلك بواسطة الفروسية والتى أصبحت اندفاعاً خالياً من المتعة والتشويق أو بتأثير سلبية العقيدة الأرثوذكسية والتى كانت نتاج الحضارة البيزنطية المشرفة على الموت .

ولكن السبب الرئيسى فى فشل أوروبا الطويل فى القيام بأى تقدم ضد مهاجميها الأسيويين كان مرجعه أسباب تكنولوجية . فعبر المراحل المتعددة للتاريخ ، كانت التكنولوجيا الحربية الأسيوية تتفوق على مثيلتها لدى الأوروبيين ، فيما عدا مرحلة واحدة عندما شكل الأسكندر فرسانا خفيفة الحركة بالإضافة إلى قوة احتمال عالية مع توفر هدف تكتيكى واضح. ماعدا هذا فقد انتصرت خفة الحركة الأسيوية فى كل صدام كبير حدث فى الشرق ، كما حدث فى « كارا » و « حطين » ، بل وحتى فى العصور الوسطى المتأخرة عندما أصبح الفارس الأوروبى مدجج بالسلاح والدروع ثقيلة ، فوجد الفارس الأسيوى الممتطى حصان المراعى الخفيف من السهل عليه الدوران حول الفارس الثقيل بل وتطويقه . ويمكن أن نرجع النجاح المستمر للأتراك ، فى العصر الذى كان الأوروبيون يتوسعون على جبهات أخرى ، إلى إدراكهم السريع وقبل الأوروبيين للتأثير الثورى لإستخدام الأسلحة النارية .

وبالرغم من أن الأتراك من أصل آسيوى ، إلا أنه لابد من ربط تاريخهم العسكرى مع الأوروبيين . ففى الفترة مابين ١٣٠٠ ، ١٥٠٠ وهى الفترة التى وصلت فيها القوة العسكرية التركية إلى أوجها ، فقد زحفوا نحو أوروبا على جبهتين هما الدانوب والبحر المتوسط ، أما جبهتهم الشرقية فقد أعتبروها كمؤخرة لهم . وقد وجهوا استراتيجيتهم فى ذلك الاتجاه بناءاً على اعتبارات أوروبية . وفى الحقيقة كانت الإمبراطورية العثمانية هى القوة السياسية والحربية القائدة فى منطقة جنوب شرق أوروبا .

ارطغول

فى عام ١٠٧١ انتصر الأتراك السلاحقة على البيزنطيين فى معركة « ما نزكيرت » ، وقد أدى هذا النصر إلى فتح الطريق للتقدم التركى عبر آسيا الصغرى . وكان هذا التقدم فى أوله مجرد استغلال فرصة سانحة وليست سياسة مخططة . وقد اهتم الأتراك السلاجقة بالجزيرة العربية أكثر

من اهتمامهم بالدولة البيزنطية ، ولكن الكثير من المحاربين الأتراك كانوا يفضلون أراضى الأناضول لجاذبيتها وخلوها من الوسائل الدفاعية ، ولذلك تحرك القادة الأتراك وأتباعهم نحو الغرب ، فكانوا يبحثون عن موطن لهم وفى نفس الوقت كانوا متأثرين بعقيدة الجهاد فى سبيل الإسلام ، ويدينون بالطاعة لقواعد « الفتوة »[١] . وعلى كل لم يعترفوا بسلطة السلطان السلجوقى عليهم إلا بقدر ضئيل ، لذلك عندما قضى المغول على السلاجقة عام ١٢٤٣ لم يؤثر هذا على الغزاة الأتراك المندفعين نحو الغرب . وفى نفس الوقت لم تستفد أوروبا على الإطلاق من هذا الحدث . وسرعان مارحل المغول ولكن ضغطهم القوى كان هو السبب الرئيسى فى تدفق الأتراك نحو الغرب ، وبالتالى فقد حث كل من الضغط المغولى والإيمان بالعقيدة الإسلامية الغزاة الأتراك على مهاجمة الإمبراطورية البيزنطية المتداعية .

وقد نشأت الدولة العثمانية من ضمن عدة قوى غازية صغيرة ، وقد أسسها القائد الشبه أسطورى أرطغول ، وواصلت مسيرتها على طريق الشهرة والمجد بواسطة خلفائه عثمان (١٢٨١ — ١٣٢٦) وأورخان (١٣٢٦ — ١٣٦٢) . ولم يمض وقتاً طويلا على سقوط السلاجقة حتى برز العثمانيون كزعماء للأتراك ، ويرجع ذلك بصفة مبدئية إلى موقعهم الغربى الذى مكنهم من البقاء على قيد الحياة بعد التدمير والمذابح المغولية ، كما أصبح موقعهم هذا منطقة تجمع للمجاهدين الآخرين . ولكن رجع ذلك أيضاً إلى عبقرية زعمائهم الأولين والذى عرفوا كيف ينظمون ويقودون الطاقة التركية المندفعة غربا . ولم تكن أوروبا إبان ذلك الوقت أو حتى بعده فى حالة تسمح لها من صد الخطر التركى . كما أن نهب القسطنطينية على يد الصليبيين عام ١٢٠٤ كان اعلانا بتلاشى القوة السياسية والحربية البيزنطية . واكتملت الكارثة عندما استولى الأتراك على منطقة غرب الأناضول والتى كانت أهم مصدر للطعام والقوة البشرية للامبراطورية البيزنطية . وقد أدى انشقاق أعدائهم إلى سهولة التقدم التركى العثمانى . وكان الاختلاف الدينى بين الغرب والإمبراطورية البيزنطية هى المشكلة الأولى، لأن بيزنطة كانت تحتضن العقيدة الأرثوذكسية المنشقة ولذلك أصبح لدى أوروبا عذرها فى عدم مساعدة بيزنطة .

---

(١) مجموعة مبادىء وعقائد روحية عسكرية تشبه قواعد الفروسية ولكنها أكثر منها قوة ونشاطا . « المعرب »

وقد أدى السعى الدائب لبيزنطة من أجل الاتحاد مع روما إلى إضعاف معنويات الشعب البيزنطى . زد على ذلك أن البلغار والصرب لم يكن يكنون لبيزنطة أى حب ، أى أنه من أول الأمر قد فشل أهل أوروبا الغربية فى فهم أن مصير بيزنطة سيكون محتوما بدون مساعدتهم ، وحتى عندما أدركوا ذلك أخيراً أغلظوا قلوبهم وواصلوا اختلافهم معها . كما كتب البابا بيوس الثانى : — « من الذى يوحد أهل البندقية وأهل الأرجوان .. ؟ ومن الذى يصالح الألمان على الهنغاريين (المجر) والبوهميين .. ؟ وإذا قدت جيشاً صغيراً ضد الأتراك فسوف تلحقك الهزيمة بسهولة ، أما إذا كان جيشك كبيراً فسرعان ما سيتخبط فى خضم الفوضى والاضطراب . » وعلى أى حال كان الأوروبيون يعلمون أنهم يواجهون قوة حربية متفوقة . وعندما تصدوا للتقدم العثمانى ، لم يفعلوا أكثر من إعادة التجربة المحزنة للحملات الصليبية ، فهذا التصدى لم يجر عليهم سوى سلسلة متعاقبة من الهزائم المدوية .

الانكشارية (أنظر اللوحة رقم ٢١)

فى عام ١٣٠١ بدأ العثمانيون فى طرد البيزنطيين من آسيا الصغرى ، ولم تلتق فرسانهم بأى مقاومة فعالة أثناء اكتساحها لطول البلاد . وبالرغم من صمود بعض المدن لبضع سنوات ، مثل الجزر المعزولة ، إلا أن الأتراك أخضعوا وبسرعة جميع التخوم الداخلية . ومع حلول عام ١٣٥٦ كان الأتراك مستعدين للعبور إلى أوروبا . وفى ذلك الوقت قبل الأتراك الالتفاف حول مدينة القسطنطينية العظيمة ، واستولوا على «أدرنة» وبدأت الحشود التركية الهجرة إلى البلقان . وفى نفس الوقت نشر « أورخان » قوته ونفوذه فى آسيا ، مكملا بذلك عملية الإلتحام الكلى لكل أتراك آسيا الصغرى فى قوة واحدة . وبعد ذلك أندفع العثمانيون إلى الأمام نحو الدانوب ، وتحددت معالم هذه الانتصارات التركية على الصربيين عند نهر «ماريتزا» (١٣٧١) وعند « قوص أوه » (١٣٨٩) ، وبتدمير « بايزيد الأول » لجيش صليبى مكون معظمه من الهنغاريين عند « نيكوبلى » (١٣٩٦) . أما القسطنطينية فقد حوصرت وأصبح مصيرها أمراً محتوماً . وقد جهز الأتراك أنفسهم ثلاث مرات لدخولها ولكن كانت أحداث أخرى هامة تغير هذا التهجيز . ولقد كانت هناك فرصة عظيمة لأوروبا لكى تحطم القوة العسكرية العثمانية وذلك عندما غزا « تيمور لنك »(١) آسيا الصغرى وهزم « بايزيد » عند

(١) تيمورلنك خان المغول وهو نصف تركى بالمولد . « المعرب »

أنقرة ، ولكن لم تتحرك أوروبا . وسرعان ما انتعشت القوة العثمانية من جديد وحقق العثمانيون انتصارين ساحقين آخرين عند « فارنا » (وارنه) (١٤٤٤) وعند « كوسوفو » (قوص أوه) (١٤٤٨) ، مما أدى أن محمد الثانى أخذ على عاتقه عملية الإستيلاء على القسطنطينية بعد أن تأكد أن أوروبا لن تحاول التصدى لهذه العملية .

وإذا نظرنا إلى النظام العسكرى العثمانى ، فسوف نجد أنه كان أساساً من خلق قائدين هما « أورخان » و« مراد الأول » ، ولم يكن هناك أى تمييز أو اختلاف بين الوظائف المدنية والعسكرية فى الدولة العثمانية فتلك الدولة تدين فى نشأتها إلى الزحف وراء الفتوحات ثم تطورت ونظمت للقيام بمزيد من الفتوحات . وكان السلطان هو القائد العام للجيش أكثر من وضعه كإمبراطور ، أما هيئة قيادته العسكرية فتكونت من رؤساء الإدارات الحكومية. وإذا تأملنا جنود الجيش التركى لوجدنا أنهم يدينون بالولاء للسلطان أكثر من ولائهم للدولة ، ويشبه هذا النظام نظام أوروبا الإقطاعى ولكنه نفذ فى صورة أفضل كثيراً . ولقد كان معظم الجيش يتكون من الميليشيا النظامية والتى تستوطن الأرض لقاء الخدمة العسكرية وحسب ما يطلب منها .. وهؤلاء الذين يمنحون الإقطاعيات كانوا يتدرجون فى الألقاب إبتدأ من ملاك المقاطعات الصغيرة مثل « التيمارا » و « السنجق »، حتى تصل إلى أعلى لقب وهو « البكلر بكوات »(١) . أما القوات ذات النظام الإقطاعى فكانت ممثلة فى الفرسان ويشكلون القوة الرئيسية التى يرتكز عليها الجيش ، وتواجد أيضاً جماعات من القوات الغير نظامية من المشاة والتى أطلق عليها « بالباشبوزق » والفرسان التى أطلق عليهما « الأكيبى » وهؤلاء لم يكن يدفع لهم أجراً بل يخوضون القتال من أجل الغنائم والنهب.. أما صفوة قوات الجيش التركى فكانت ممثلة فى فرق الحرس الشخصى للسلطان، وسميت المشاة فى هذه الفرق بالإنكشارية(٢) بينما سميت الفرسان « بالسباهى »

وكانت الإنكشارية بحق هى أكثر القوات شهرة فى الجيش التركى ، فقد كانوا مشاة محترفة . وهذه حقيقة ملفتة وجديرة بالملاحظة إذا راعينا الظروف التى نشأت فيها هذه الفئة

---

(١) كان البكلربكوات يحكمون مقاطعات كبيرة ويقودوا الوحدات القادمة من مقاطعاتهم فى الحرب.

(٢) لقد سماهم الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية « بنى تشارى » وبالتركية « تليجارى » أى الجيش الجديد ثم حرف فى العربية فصار انكشارى . « المعرب »

وعادات الأتراك فنجد أنه قام بتنظيمها قوم لايعرفون فى حياتهم سوى تقاليد الفروسية وفى وقت مثل القرن ١٤ حيث كانت المشاة محتقرة فى معظم دول الغرب .

ومن الممكن أن تكون آخر وقفة ضارية للفرق البيزنطية والتى طال تدهورها قد علمت « أروخان » أن يقدر إمكانيات الطاقة الكامنة فى قوة المشاة الجيدة . وكانت طريقة تجنيد الإنكشارية شاذة ولكنها كانت سليمة كما ظهر بعد ذلك .

فقد كانوا يأخذون وهم أطفال من العائلات المسيحية وغالباً ما كانت من مدن البلقان ، ثم يجرى تدريبهم فى مجتمعات خاصة ، وبعد ذلك ينضمون إلى نظام الدراويش الدينى حيث يتلقون فى معسكراتهم الشبيهة بالأديرة بالتعاليم التى تجعلهم مسلمين متعصبين ، كما كانوا يتلقون ايضاً أفضل ما يمكن لرفع لياقتهم البدنية علاوة على تدريب عالى على إستخدام الأسلحة . ولما كانوا هم الحرس الشخصى للسلطان فقد إحتلوا مكانة مميزة فى الدولة الأمر الذى جعلهم لايتبعون إلى أى إدارة حكومية أخرى بالإضافة إلى أنهم مسئولون عن المحافظة على النظام فى العاصمة وبالرغم من ذلك لم يكونوا مدللين وأجرهم كان ضئيلا ، فى نفس الوقت كان عليهم إتباع القوانين الإسلامية والخاصة بضبط النفس فى شكل صارم والإمتناع عن شرب الخمر و كبح الشهوات .

وعليهم تكريس ولاءهم المطلق للسلطان مع التمسك الكامل بإحترافهم كجنود للسلطان .

وعلى كل كان الإنكشاريون القدماء يتلقون شرفا عظيما ومعاشات كافية .

وفى النصف الأول من القرن ١٦ وصلت الإنكشارية إلى أوج تألقها وأصبح عددها يتراوح ما بين ١٢٫٠٠٠ ، ١٥٫٠٠٠ .

وفى وقت السلم كان يتمركز نصف هذا العدد فى المقاطعات بينما يتمركز النصف الآخر فى العاصمة . وكانت « الأورطة » هى الوحدة التكتيكية الرئيسية وقد تراوح حجمها فى فترات مختلفة من ١٠٠ إلى ٣٠٠٠ مقاتل . وإتخذت ألقاب الضباط ، ألقاب المشرفين على الأعمال فى قصر السلطان ، فهى كانت تدل على أنهم يعيشون على إنعامات السلطان وأنهم

أولاده مثل « رئيس طهاة الحساء » و « كبير حراس الدموم »[1] و « شوربجى باشى » و « عشى باشى » و « سقا أغاسى » و « أودة باشى » .

أما قائد الإنكشارية فكان يطلق عليه « أغا » ولم يكن ضروريا أن يكون هو نفسه إنكشارياً ، ولكن الترقيات الأخرى داخل الإنكشارية فكانت أما بالجدارة أو بالأقدمية .

وتنوعت دروع الإنكشارية مع مضى الوقت ، وكان سلاحهم الرئيسى هو القوس المركب الصغير والذى كان يفوق مداه كل الأنواع الأخرى من الأقواس .

وكان من الضرورى على طائفة الرماة التى أسسها « مراد الثانى » أن يطلق المرء الذى يريد الانضمام إليها سهما لمسافة ٦٣٠ ياردة ولم يكن ممكناً تحقيق هذا المدى إلا بإستخدام قوس خفيف مع وجود ريح خلفية .

ومن المعروف أن المرمى المؤثر للسهم أثناء القتال أقل من ذلك بكثير ، وعندما ظهرت القرابين وثبت أنها عملية سلحت بها الإنكشارية ، ولكن ظلت السيوف والخناجر الطويلة من الأسلحة الثابتة .

وفى أوقات متفرقة كانت هناك أنواع أخرى من الأسلحة إستخدمتها الإنكشارية وأيضاً « الباشبوزق » وتضمنت المقلاع والقوس النشاب والرمح القصير والسيف المستقيم والمنخاس والبلطة والنبوت والمنجل والمدرس والسوط ، ولكن إستمرت الأسلحة النارية هى الأسلحة الرئيسية .

ولم تكن الرجال مثقلة بالدروع الواقية ، فى القرن ١٥ ، ١٦ كانوا يحملون درعاً صغيراً مستديراً وعلى رؤوسهم خوذة معدنية على شكل الطربوش ذات سن مدببة فى قمتها وفى النادر يلبس نوع خفيف من الدروع على الجسم .

وكان لكل قسم فى الجيش زى خاص ملون ، كما كان الجنود يضعون على ملابسهم رمز فرقهم ، فمثلا كان رمز الإنكشارية « معلقة خشبية » ، كما أحبوا لدرجة كبيرة الوشم .

---

(١) الدموم هى الكلاب التى تستخدم فى مطاردة المجرمين . « المعرب »

وكانت الغالبية العظمى للجيش التركى من الفرسان ، وكانت « السباهى » هى صفوة هؤلاء الفرسان وكانت تعمل كنواة للباقى .

وفى الأعوام التالية لعام ١٥٢٠ تراوح عدد « السباهى » بين ١٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠ فارس . وكان كل فرد من السباهى مسئولا عن تجنيد وتدريب ما بين ٢ — ٦ فارس إضافى ، وكان هؤلاء يسيرون معه إلى المعركة فى شكل شبيه بالفارس الغربى وصحابته من حمله « الرماح » .

وكان السباهى هم الحرس الشخصى للسلطان ، كما كانوا يمنحون أجوراً عالية ، ولم يكن يسرى عليهم نظام تجنيد وتدريب الإنكشارية .

وكان القوس والرمح والسيف القصير من الأسلحة الرئيسية للفرسان ، ولكن لم يحمل الفرسان أى دروع دفاعية ، وإلى جانب الفرسان كان هناك أسلحة متخصصة مثل المدفعية ومشاة الأسطول وصانعى الأسلحة والدروع والحدادين والمسئولين عن امداد الجيش بالطعام والفرق الموسيقية ، وفى فترة معينة قام « تتار القرم » بتزويد الأتراك بوحدات من لدنهم . وبلغ المجموع النهائى لكل الرجال فى كل أسلحة ووظائف الجيش التركى وذلك فى ذروة مجدة أى أيام محمد الثانى (١٤٥١ ــ ١٤٨١) وسليم الأول (١٥١٢ ــ ١٥٢٠) وسليمان العظيم (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) فى حدود ٣٠٠٠٠٠ رجل .

وكانت الدولة العثمانية دولة هائلة العدد بحيث سارت عملية التعبئة فيها بمنتهى السرعة وكاملة وبدرجة ملفتة للنظر .

أما القوات المحترفة من المشاة والفرسان والتى تعتبر النواة للجيش التركى فقد بلغ عددها حوالى ٢٥٫٠٠٠ رجل ، وكان هؤلاء غاية فى القسوة والوحشية مع أعدائهم ولكن كانوا أيضاً على مستوى عال من التدريب والضبط والربط ومشبعين بالحماس الدينى ويدينون بالولاء المطلق للسلطان .

وقد تأثر المراقبون الأوروبيون وبشكل عميق جداً بالجيش التركى وكتب جيوفيو عنهم : ـ « لقد فاق جنود الأتراك جنودنا لأسباب ثلاثة ، الطاعة الفورية لقادتهم — عدم الإهتمام

بأرواحهم أثناء المعركة ـ إمكانهم العيش ولمدة طويلة بدون الخبز والنبيذ قانعين بالشعير والماء فقط » .

وفى عام ١٤٥١ أصبح محمد الثانى سلطاناً ، وعمـــره ١٩ عاماً ، وبالرغم من أنه كان قاسيـاً قليـل الـكلام يميـل إلى الشرب إلا أنـه كان طموحا ثابت العـزم وجندياً قديراً .

وعندما تولى العرش جعل هدفه الرئيسى استكمال فتح الإمبراطورية البيزنطية بالإستيلاء على القسطنطينية ، ونجاحه فى ذلك عام ١٤٥٣ لم يـكن شيئاً مثيراً وغير عادياً ، فقد ظلت المدينة محاصرة منذ أمد طويل بالأتراك الذين جلبوا جيشاً قوياً بلغ أكثر من ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ رجل،فى ذلك الوقت كان يدافع عن أسوارها البالغ طولها ١٤ ميلا ٧٠٠٠ فرد فقط . وإذا كان هناك عنصر إثارة رئيسى فى سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك فهو فى زوال الحضارة اليونانية نهائياً .

وقد أظهرت هذه العملية بوضوح وجلاء إنقضاء عصر الفروسية . ولم تحاول أى قوة مسيحية رفع الحصار .

ومن وجهة النظر العسكرية فإن النقطة الرئيسية الجديرة بالملاحظة فى هذا الحصار هى أنه كان حدثاً يمثل نقطة تحول فى تاريخ المدفعية .

مدفع اربان الوحشى

كان السبب الرئيسى فى عجز أوروبا على صد الأتراك هو أن الغزاة العثمانيين كانوا متقدمين فى إستخدام الأسلحة النارية عن أى شعب آخر فى أوروبا . وقد انتقل وإنتشر فن المدفعية من المسيحيين إلى المسلمين فى أسبانيا ومنها على طول شمال أفريقيا .

ومع عام ١٣٦٤ كان العثمانيون يصنعون مدافعهم فى آسيا الصغرى ، وفى عام ١٣٨٩ إستخدم الأتراك مدفعية الميدان عند كوسوفو (قوص أوة) . وعموماً فى القرن ١٥ كانت المدفعية تناسب هدم الأسوار فقط وسرعان ما أدرك الأتراك هذا واستمروا يعتمدون فى القتال على خفة الحركة والفرسان وتفوقهم العددى ولـكن فيما يتعلق بأعمال الحصار فقد تعلموا سريعاً كيف يستخدموا السلاح الجديد (أى المدفعية) وبتأثير جيد .وقد كانت الأسوار

الثلاثية للقسطنطينية تعد من أقوى تحصينات العصور الوسطى . وقد ظهر خلال حصار عام ١٤٢٢ أن المنجانيق لن يكون مؤثراً ضد هذه الأسوار .

وفى الحقيقة قبل ظهور المدفعية كانت التحصينات البيزنطية هى الوحيدة التى توفر الراحة والطمأنينة للبيزنطيين ، ولكن عندما قام محمد الثانى بتجهيز معدات حصار ثقيلة لحصار القسطنطينية ، أيقن سكانها أن نهايتها قد قربت .

وفى عام ١٤٥٢ حضر مهندس هنغارى أسمه أربان[١] إلى الإمبراطورقسطنطين وعرض خدماته ، ولكن لم يكن بمقدور قسطنطين أن يدفع له ماطلبه أو يقدم له مايلزمه من المواد الخام المطلوبة .

وعلى ذلك قام أربان بعبور البوسفور والإجتماع بالسلطان وعرض عليه خدماته ، فقدم له محمد الثانى أربعة أضعاف الأجر الذى طلبه كما أعطاه كل المعاونة الفنية التى يحتاجها وبالتالى أصبح أربان أول الغربيين الخائنين الذين كثروا بعد ذلك ليبيعوا خدماتهم للأتراك كخبراء فنيين .

ومع بداية ١٥٤٣ وفى مدينة أدرنه أنتج أربان أكبر مدفع شوهد حتى ذلك الوقت الذى وصل طول ماسورته ٢٧ قدماً وذوقدرة على إطلاق كرات من الحجارة زنتها أكبر من ١٠٠٠ رطل .

وعندما جرب المدفع انطلقت القذيفة لمسافة ميل ، ويقال أن دوى المدفع بلغ من الشدة بحيث تسبب فى إجهاض الحوامل حتى مسافة ١٢ ميل . وقد سر محمد الثانى بهذا المدفع ودفع مدفع أربان الوحشى إلى القسطنطينية يجره ٦٠ ثوراً .

وخلال الحصار تحطم هذا المدفع ولكن لم يهم هذا كثيراً بسبب كفاءة وتأثير باقى المدفعية التركية . وواصل الأتراك القصف بدون توقف لمدة ٦ أسابيع مركزين نيرانهم على أكثر النقط المعرضة فى الأسوار . وكانت مدافعهم تتميز بالضخامة غير العادية ، وكان من الصعب جداً وضع هذه المدافع فى مربضها وخاصة عندما حولت الأمطار الأرض اليابسة إلى أرض رخوة .

---

(١) كان أربان يعد من أحسن وأكفأ صناع المدافع فى العالم . « المعرب »

وحيث أن مواسير المدافع كان يصيبها التشقق إذا لم تترك لتبرد بين الطلقات فلم يكن من الممكن إطلاق المدفع الكبير أكثر من سبع مرات يومياً . ولكن القذيفة الواحدة منها كانت تسبب دماراً هائلا .

وفى غضون أسبوع كان السور الخارجى للقسطنطينية قد دمر بالكامل فى عدة نقط ،

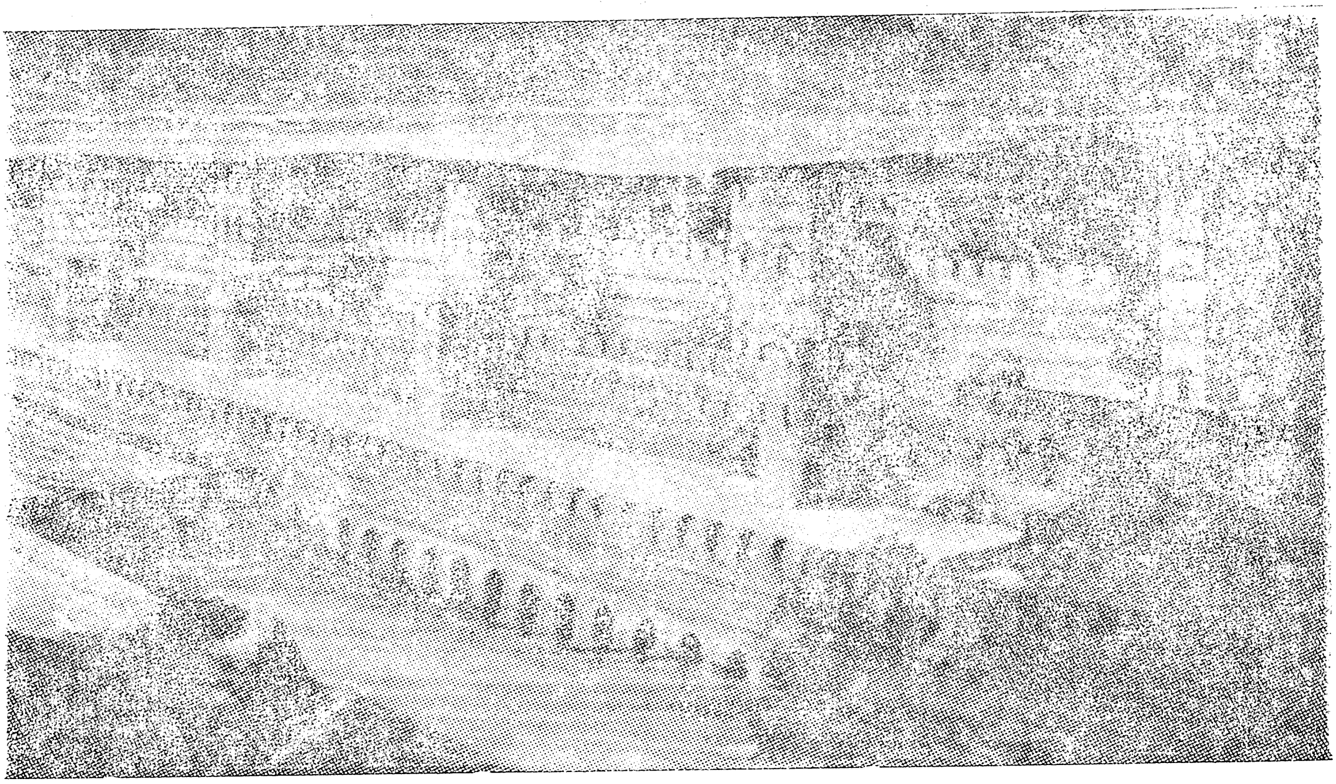

أسوار القسطنطينية الثلاث لمقاومة نيران مدفعية الأتراك

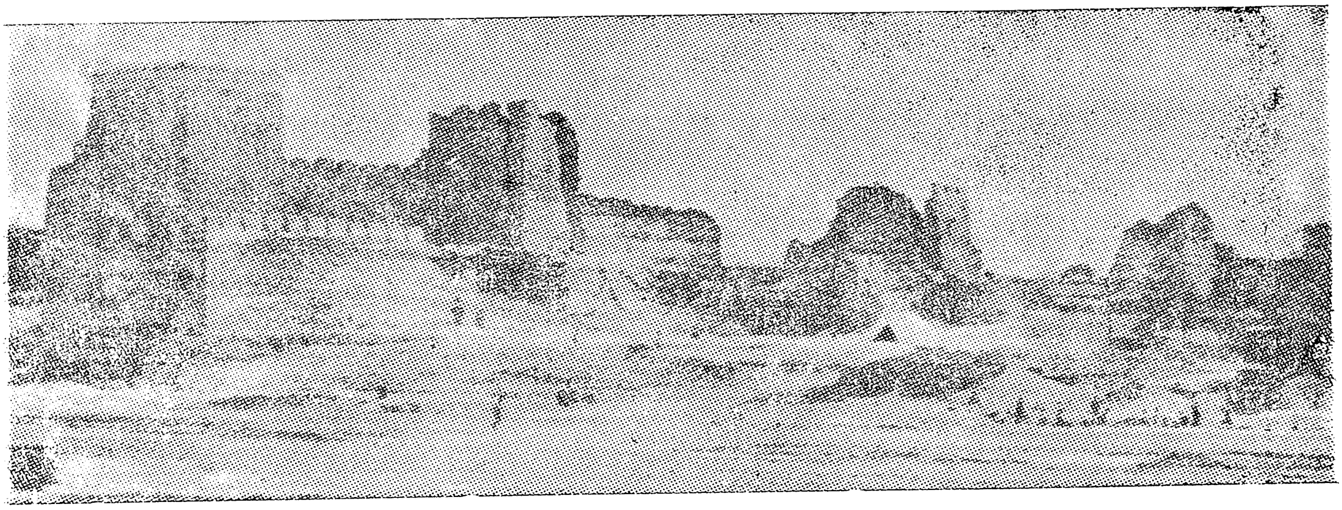

بقايا أسوار القسطنطينية اليوم

ولكن المدافعين بدأوا فى شجاعة نادرة فى إقامة متاريس ترابية وحواجز من القضبان المغروزة خلف السور الخارجى واستمر العمل به ليل نهار ولكن القصف التركى المنهمر دمر تدريجياً جميع التحصينات .

وبرهن الأتراك على عبقريتهم الفنية بتعويمهم المدافع على أرضيات مربوطة بكوبرى عائم عبر مياه البوق الذهبى ، معززين بذلك عمليات قصفهم من زاوية جديدة . وقد أخطأ محمد مرتين عندما أعتقد بأن القصف التركى قد أحدث تدميراً كافياً ، مما أدى أن الهجوم الأول والثانى التركى لم ينجح ولكن نجح محمد فى الهجوم الثالث .

وكان الإستيلاء على القسطنطينية مقدمة لتقدم تركى عنيف ملىء بالإثارة والذى أدى إلى عظمتهم العسكرية .

وتم غزو اليونان والصرب خلال ١٥ سنة التالية ، وفى عام ١٤٦٨ إنهارت مقاومة الألبانيين تحت قيادة جورج اسكندربك .

وفى الغرب توقف التوسع التركى بسبب فشل محمد فى الإستيلاء على بلغراد ، أما فى الشرق فقد طهرت « طرابزون » فى عام ١٤٦١ وكانت آخر منطقة مسيحية ذات قيمة فى آسيا الصغرى ، ولم تواصل القتال سوى بعض المعاقل القوية البعيدة والمعزولة فى المورة وآسيا الصغرى مثل قلعة كورديل(١) ولكن تم تصفية هذه المعاقل تدريجياً . وبالرغم من قسوة محمد على الأفراد وصرامته فى انتزاع الجزية من المسيحيين بأن يقدموا أطفالهم إلى الإنكشارية ، فإنه كان فى نواحى عديدة يعتبر فاتحاً متسامحاً غير متعصب . فقد سمح بالديانة الأرثوذكسية ، باستثناء تحول بعض المعابد اليونانية إلى مساجد فى نفس الوقت لم يمس البناء الهندسى للآثار اليونانية والبيزنطية الرئيسية .

وقد ظل البارثون(٢) قائماً حتى الحصار البندقى للاكروبوليس (عام ١٦٨٧) عندما انفجر لأن الأتراك استخدموه كمخزن للذخيرة فتحول إلى انقاض .

---

(١) لقد دافعت عنها فتاة قروية لعدة أسابيع .

(٢) هو هيكل لآلهة أثينا الموجود فى أثينا نفسها . « المعرب »

الحرب بين الاتراك والبندقية

وخلال هـذا الوقت ، فإن التطور فى القوة البحرية فى شرق البحر المتوسط أحدث توازنا مع تقدم القوة التركية على البر .

وفى أول الأمر وكامتداد طبيعى للزحف الغازى المتأصل فى الأتراك فقد نزل بعضهم إلى البحر كقراصنة .

وعندما بدأ التوسع داخل أوروبا فقد بات من الضرورى أن يكون للعثمانيين قوة بحرية ولو حتى لحماية عملية عبور البوسفور .

وفى عام ١٣٥٢ أنشأ العثمانيون رأس جسر عندغاليبولى والتى استغلت بعد ذلك كقاعدة بحرية لهم .

وبعدها أخذت القوة البحرية التركية فى النمو ، وأصبحت هناك سياسة محددة وواضحة لغرض السيطرة على التجارة بين البحر الأسود والغرب وأيضاً لضرب الحصار على القسطنطينية .

وفى هذا الوقت كانت البندقية هى القوة البحرية الأوروبية الرئيسية فى البحر المتوسط. وقد دمر « بيترو لوريدانو » جزءاً كبيراً من الأسطول التركى خارج غاليبولى ، فأصبح الأتراك بصفة مؤقتة محصورين فى شرق تندوس . ولـكن كانت التجارة هى الشاغل الأول للبندقية ولذا بذلت جهداً كبيراً للحفاظ على السلام فى الشرق .

وفى عام ١٤٣٠ انشغلت البندقية فى صراع مع الدول الإيطالية المنافسة ، ومرة أخرى تمكن الأتراك من التقدم غرباً بسبب تفـكك أعدائهم . وفى الواقع ، ومع حلول عام ١٤٥٣ كانت السفن التركية قادرة على ذرع الأدرياتيك ذهاباً وإياباً بدون أى عقبات . وكان من الأسباب الحكيمة التى أعطت الثقة لمحمد الثانى لمحاصرة القسطنطينية هو وجود أسطول قوى لديه يمكنه من قطع المواصلات البحرية للمدينة . وبالطبع لم يكن لدى الأتراك أى تقاليد بحرية محلية خاصة بهم ، ولذا عندما وصلوا إلى البحر المتوسط اتبعوا بدون اى نقد أو تعديل التقاليد البحرية العتيقة لسفن القوادس .

ولم يأخذوا تصميم السفن فقط بل اتخذوا أساليبها التكتيكية أيضاً . وبشكل جوهرى

فلم يحدث أى تغيير رئيسى فى الأسلوب التكتيكى للسفن فى الفترة مابين معركة ليديا عام ٤٩٤ ق . م ومعركة لبانتو عام ١٥٧١ بعد الميلاد .

وعلى كل فقد اقتبس البيزنطيون فكرة السفن ثلاثية المجاديف عن الرومان والأغريق وجعلوها السفينة الرئيسية لأسطولهم واطلقوا عليها إسم « الدرمون » وزادوا من حجمها حتى وصلت حمولتها الطافية من ٧٨ إلى ١٧٥ طن ، كما زاد عدد المجاديف من ١٠٠ إلى ٢٠٠ .

وعندما أفل نجم الدولة البيزنطية أصبحت كل من جنوا والبندقية القوتين البحريتين القائدتين فى البحر المتوسط ، وأطلقوا على سفنهم إسم « القوادس » واستخدموا فيها صفاً واحدا فقط من المجاديف ، ولم يستخدم الشراع إلا فى الإبحار فقط ، أما فى القتال فكان عادة ما يخفض الصارى .

وفى البندقية كان هناك بعض الانتباه الحاسد للتطور الأوروبى فى الأشرعة ، وعليه ظهر الغلياس [1] فى القرن ١٤ .

ولكن نتيجة لعدم الخبرة ومقاومة التجديد استمرت السفن ذات المجاديف فى السيطرة على مياه البحر المتوسط . وكانت تكتيكات القوادس بسيطة ، وقام أمهر ممارسيها ويدعى « روجريو دى لوريا » بتطبيقها حرفياً خلال الحروب الصقلية والتى دارت فى العشرين سنة الأخيرة من القرن ١٣ .

وكان المبدأ الرئيسى فى هذه التكتيكات هو التقدم فى خط أو تشكيل هلالى والاصطدام بسفن العدو بأمل تحطيم أو إعطاب مجاديفها .

وكان يتم قصف السفينة بوابل من القذائف وبعدها يتم اعتلاء السفينة بالصعود على سطحها والإستيلاء عليها وأسرها .

وكان أغلب المقاتلين من حملة المقلاع وحملة القوس النشاب . وقد أدخل بعض التحسينات لمقاومة وسائل إقتحام سطح السفن مثل استخدام صابون سائل لجعل أسطح السفن منزلقة ، وأيضاً استخدام أسهم مشتعلة ذات النصل العريض لتدمير الصوارى والأشرعة . أما التغيير

(١) الغلياس عبارة عن هجين للقوادس والغليون . « المعرب »

الوحيد الذى تم بعد ذلك هو زيادة طفيفة فى حجم سفن القوادس ، وإحلال مدفع صغير محل المنجانيق فى مقدمة السفينة ، ولكن لم تتغير التكتيكات ، واستمرت نتيجة القتال تتوقف على أسلوب الإلتصاق بسفن العدو وتسلق أسطحها .

وعندما استولى الأتراك على القسطنطينية ، فقد حصلوا بذلك على مركز كبير لبناء السفن ،وبذلك فيمكن القول بأن عهد محمد الثانى قد شهد نموا هاما فى القوة البحريةالتركية. وسار التقدم للسيطرة التركية على البر ، تقدماً آخراًوموازيا له وهو التقدم والتفوق البحرى حتى وصل إلى أبعد مدىفى الجنوب وذلك بالسيطرة على مياه بحر إيجة وباحتلال العديد من الجزر والسواحل فى شرق البحر المتوسط .

واستولى الأتراك على تجارة البحر الأسود ومنعوا تصدير الإمدادات الحربية والبحرية إلى الغرب .

وقامت الحرب بين الأتراك والبندقية فيما بين عامى ١٤٦٣ ، ١٤٧٩ والتى منيت فيها البندقية بالهزيمة لأنها لم تدرك مقدار سرعة نمو الأسطول التركى ، بالإضافة إلى التفوق العددى للأتراك وعدم معاونة الدول الإيطالية الأخرى لهم نتيجة لحسدهم لثراء البندقية . وفى تلك الحرب ، فكان أعظم المكاسب التى حصلت عليها الأتراك هى استيلائهم على نجور وبونت عام ١٤٧٠ والتى كانت قاعدة البندقية فى الدردنيل ، ثم احتلالهم للساحل الألبانى بعد ذلك بثمانى سنوات .

وفى عام ١٤٨٠ فشل محمد الثانى فى الاستيلاء على رودس والتى كان يدافع عنها فرسان سان جون .

وعندما توفى عام ١٤٨١ كان يجهز الغزو على نطاق أكبر لجنوب إيطاليا . ومن حسن حظ الأوروبيين أن السلطان التالى بايزيد الثانى (١٤٨١ — ١٥١٢) كان رجل سلام لأن الأوروبيين خلال ٣٠ سنة التالية أخذوا يتناحرون من أجل سلب الغنائم الإيطالية مهملين تماماً مسألة الشرق . وبالرغم من ذلك ظل تطور القوة التركية فى البر والبحر مستمرا خلال حكمه .

سليم الاول يغزو مصر (أنظر اللوحة رقم ٢١)

وبالرغم من أن الشعب التركى قدجاب البحار إلا أنه كان يحب المحافظة على القديم وغير مجدد ، ولم يكن لديه أى طموح لمشاركة أوروبا فى التوسع بالمحيطات والذىحدث منذ حوالى عام ١٥٠٠ .

وفى نفس الوقت كان يطمع فى السيطرة على شعوب وتجارة منطقة البحر المتوسط ، لكن لا يمكن أن يتجاهل ازدياد قوة أسبانيا والبرتغال ، لأن القوة الأسبانية أخذت تمد مخالبها على طول ساحل شمال أفريقيا وبطريقة تنذر بالخطر .

ففى عام ١٥٠٩ استولى بدر على « نافار » و « أوران » ، وفى العام التالى سقطت طرابلس . وأكثر من ذلك عندما دخلت البرتغال المحيط الهندى بدأ هناك خطر حقيقى فقد أصبح من الممكن أن يطوق الغربيون الأتراك إذا سيطروا على مؤخرتهم وربما يتمكنوا من الإنضمام إلى الفرس[1] أعداء الأتراك .

وفى الحقيقة لم يخطر هدف تطويق الأتراك بخلد الساسة الأوروبيين ، ولكن كان السماح بمثل هذا العمل يشكل خطراً عظيما على الدولة العثمانية .

وعلى كل فقد أعطى سليم الأول القاسى كل إهتمامه خلال حكمه القصير (١٥١٢ — ١٥٢٠) للجبهات الشرقية والجنوبية لإمبراطوريته ، وتم هذا فى وقت كانت فيه أوروبا معرضة أكثر من أى وقت آخر لتلقى طعنة من الخلف ، وهكذا أتيحت لأوروبا فرصة هدوء أخرى على الدانوب والأدرياتيك وعلى كل كان هذا التحول بالتأكيد يتمشى مع هدف الأتراك فى التوسع فى اتجاه أوروبا ، ولذلك لكى يضمن سليم الأول تأمين ظهره ، فقد بدأ أولا فى التعامل مع الفرس واستطاع هزيمتهم عند سهل جان دران الواقع غرب عاصمتهم تبريز ، ولكنه لم يستغل النصر والتقدم داخل الأراضى الفارسية الشرقية ، وبدلا من ذلك فقد بدأ فى تحقيق غرضه الرئيسى ألا هو غزو المماليك فى سوريا ومصر . وإذا ألقينا نظرة على المماليك لوجدنا أن أعدادهم كانت قليلة وليس لديهم أى مشاة كما لم يكن لديهم فى الواقع أى أسلحة نارية بالرغم من أن البندقية حاولت أن تبيع لهم المدافع .

(١) أصبح الفرس فى ذلك الوقت على درجة من القوة . « المعرب »

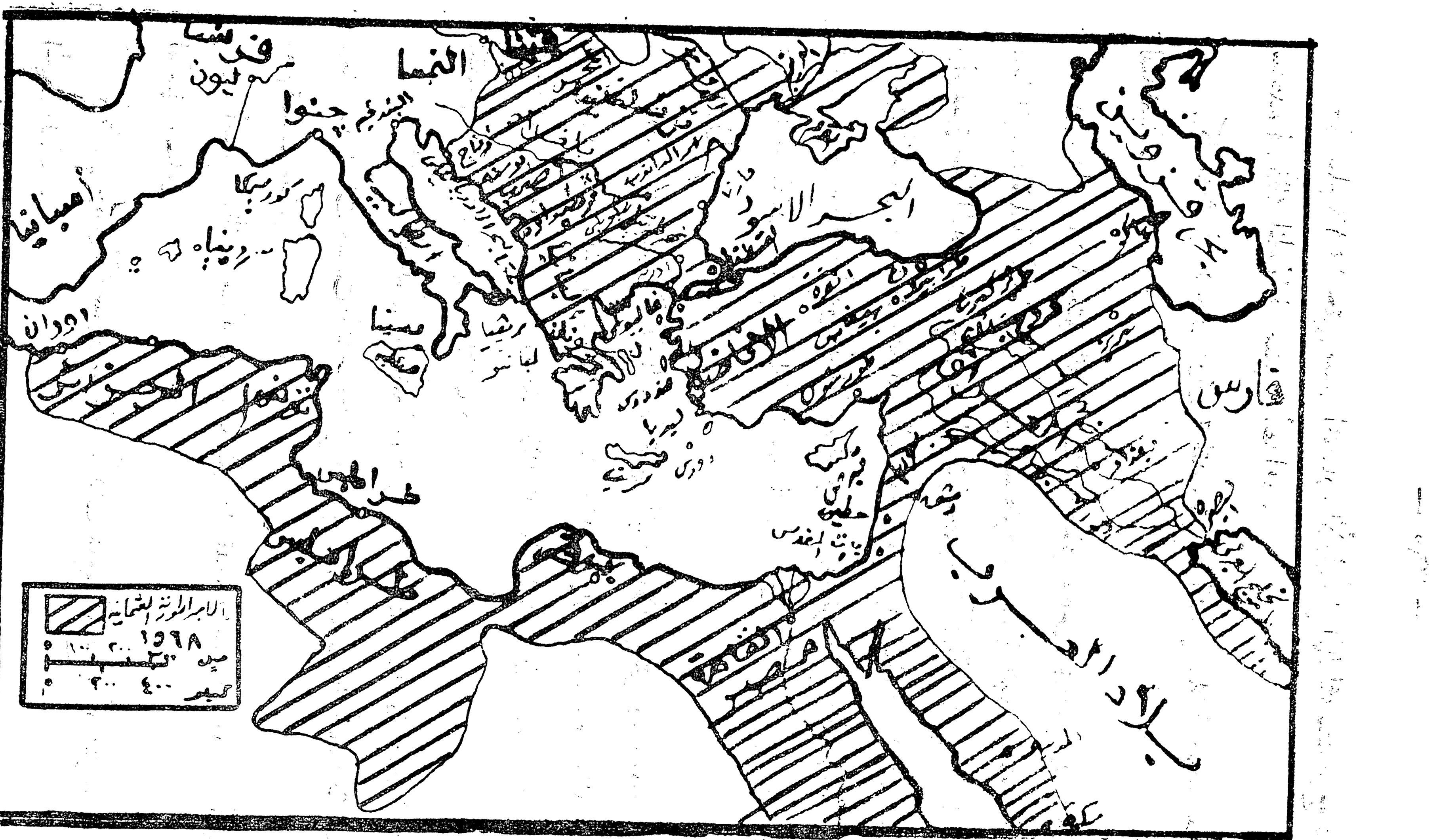

اللوحة رقم ٢١ - الامبراطورية العثمانية

وفى عام ١٥١٦ حقق سليم انتصاره الأول على المماليك عند مرج دابق فى سوريا ، وقد ساعده فى ذلك الخونة فى صفوف أعداءه .

وكما حدث فى « جان دران » فقد حقق له النصر صلابة وثبات مشاته والتأثير الفعال للمدفعية .

وفى عام ١٥١٧ حقق النصر الثانى ودخل مصر . وكان غزو سليم لمصر جزءاً من استراتيجية شاملة تهدف إلى تحقيق السيطرة على شرق البحر المتوسط والشرق الأدنى ، ولتحقيق هذا الهدف كان يجب على القوة البحرية التركية أن تلعب دوراً حيوياً ، ولذا قرر سليم أنه من الضرورى مقابلة التحدى الأسبانى على طول الساحل الشمالى لأفريقيا . وكان احتلاله لمصر هو المرحلة الأولى من هذه الاستراتيجية . وأمكن تعزيز هذه المرحلة فى عام ١٥١٩ عندما استطاع السلطان سليم استمالة « خير الدين باربروسا[١] إلى جانبه وعينه السلطان حاكما على الجزائر .

وقد حقق ايضاً الأتراك السيطرة على البحر الأحمر حتى يستطيعوا صد أى تهديد برتغالى قادم من الجنوب الشرقى . ولكن حتى الآن لايزال هناك ضعفاً بالغاً فى خطوط المواصلات التركية فى منطقة البحر المتوسط ، ذلك الضعف الذى كان مصدره استمرار سيطرة فرسان القديس جون على جزيرة رودس .

ولم يلق الحصار الكبير لقلعة رودس عام ١٤٨٠ بواسطة محمد الثانى سوى الفشل ، ومنذ ذلك الوقت تحسنت دفاعات الجزيرة كثيراً مع تقوية التحصينات بحيث يمكنها الصمود أمام قصف المدفعية .

وأصبح هناك حائطاً ارتفاعه حوالى ٣٠ قدماً وسمكه ٤٠ قدماً وأقيم فى مكان السور الأصلى الساتر .

وكان يوجد بهذا السور شرفات ركبت عليها المدافع ، كما عمق وعرض الخندق المائى المحيط بالقلعة .

أما النقط الخارجية للقلعة فى الجانب الغربى والجنوبى فقد قويت باستحكامات أمامية

---

(١) كان أبرز قراصنة ساحل شمال أفريقيا . « المعرب »

تحميها خنادق أخرى مائية وميول حادة . وبلغ عدد القوات المدافعة ٧٠٠ فارساً بالإضافة إلى عدد آخر من القوات الأخرى والتى رفعت القوة الإجمالية للمقاتلين فى القلعة إلى ٦٠٠٠ رجلا ، كما كان هناك مخزوناً كبيراً من الذخيرة .

ولم يكن هناك أى فرصة للمدافعين عن القلعة لتلقى الإمدادات والتعزيزات من أى مصادر خارجية فى حالة حدوث حصار بواسطة قوة لديها السيطرة البحرية .

سقوط جزيرة رودس (أنظر اللوحة رقم ٢٢)

فى عام ١٥٢٠ توفى سليم الأول ، ولابد أنه كان واضحاً لدى خليفته «سليمان العظيم» أن مهاجمة رودس والإستيلاء عليها ستكون مهمة بالغة الصعوبة ، ولكن الاستراتيجية التركية كانت تتطلب أن يكون لديهم قلاع فى شرق البحر المتوسط لتأمين خطوط مواصلاتهم ، لذلك قرر سليمان فى يونيه ١٥٢٢ القيام بهذه المهمة .

وبدأ الحصار بإنزال قوة بلغت حوالى ١٠٫٠٠٠ مقاتل على الجزيرة ، وكانت هذه القوة مقدمة للقوة الرئيسية للجيش ، وكانت مهمتهم القيام بالتجهيزات للقوة الرئيسية مع إستطلاع مواقع المدفعية الموجودة فى الجزيرة .

وأخيراً تشكلت قوة الحصار من ٥ فرق تركية ، وحوصرت القلعة من البر ، وحفرت الخنادق على أقرب ما يمكن من أسوار القلعة وخارج مرمى نيران المدافعين بقدر الإمكان ، وإنتشرت قوة كبيرة من المدافع التركية الثقيلة حول القلعة بينما أبحرت القوادس التركية لكى تكمل عمليه الحصار .

وقد كان قائدا الدفاع هما الرئيس الأكبر للفرسان « فيليه دى ليل أدام » والمهندس الإيطالى « جبرائيل مارتينيو » . وظلت مقاومة القلعة صامدة وباصرار ، ولكن مع نهاية شهر أغسطس كان الأتراك قد ردموا الخندق الأمامى واندفعت مجموعات منهم نحو الاستحكامات الرئيسية تحت ستر قصف المدفعية ورد عليهم المدافعون بقصف مضاد . وظل هدير المدافع ينطلق من الجانبين ، ثم دار اشتباك متلاحم مستميت بين جنود الطرفين ، وقد فقدت مواقع ثم استردت ثم فقدت ثانية . وبشكل عام صد المدافعون أربع هجمات للأتراك خلال شهر سبتمبر .

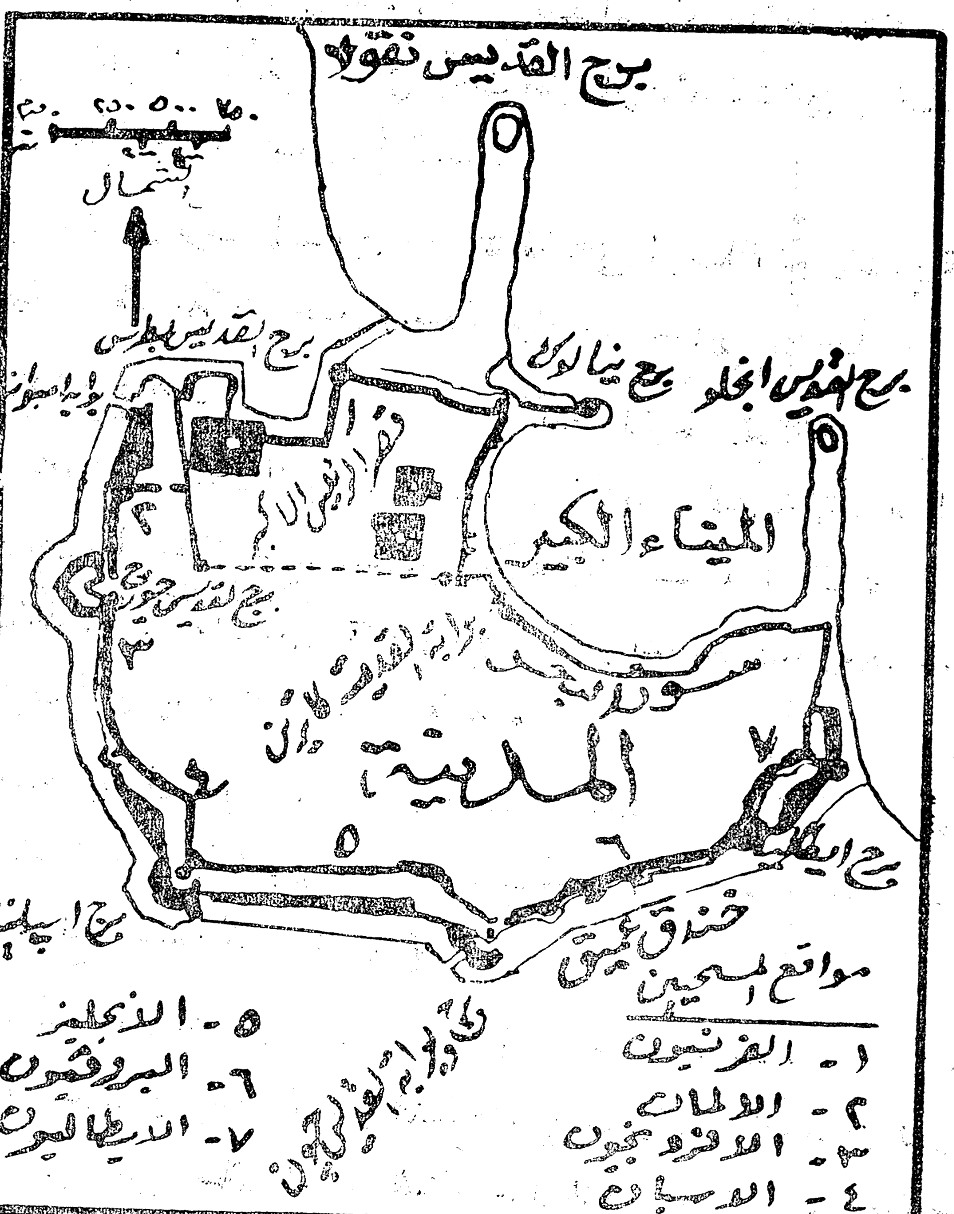

اللوحة رقم ٢٢

تخطيط لتحصينات رودس

وفى أكتوبر أطلق الأتراك بثلاث هجمات أخرى ، ثم قاموا فى نوفمبر بهجوم عام ضخم ، ولكن كانت كلها غير ناجحة . ولكن بالرغم من ثبات المدافعين عن القلعة إلا أن عددهم نقص حوالى المنصف بالإضافة إلى نقص الذخيرة والطعام بشكل خطير .

وفى الجانب التركى بدأت تثبط عزيمة سليمان ، كما سأم جيشه القتال . وإقترب الشتاء ولذلك قرر سليمان عرض شروط سخية إذا استسلمت القلعة ، وقبلت القلعة عرضه . وأقيمت هدنة لمناقشة التفاصيل والتى كانت تتلخص فى إمكان الحامية الرحيل بكل ممتلكاتها ، كما وعد سليمان السكان الذين يرغبون فى البقاء بمعاملة طيبة . وفى ٢١ ديسمبر أى بعد الحصار بستة أشهر تم التصديق على معاهدة الاستسلام . ولم يبق على قيد الحياة فى القلعة بعد هذه المعركة سوى ١٨٠ فارس و ١٥٠٠ من باقى الرتب الأخرى . وقد نفذ سليمان وعده ورحل الفرسان إلى مالطة وعومل من بقى من السكان معاملة كريمة . وقد كان دفاعا عظيما ونبيلا .

وقد أنقذ قبول الرئيس الأكبر للفرسان شروط سليمان الكريمة ، سكان الجزيرة من النهب والقسوة التركية . وقد حقق الأتراك ما كانوا ينشدونه من ضمان السيطرة التركية على شرق البحر المتوسط والتى توافق تماما استراتيجيتهم .

العثمانيون يحاصرون فينا

والآن وبعد أن إنتهى السلطان من مهمته فى رودس ، فقد أصبح شاغله الرئيسى تطوير النظام الداخلى للامبراطورية وبالرغم من ذلك فكانت فترة حكمه أيضاً فترة توسع بحرى وعسكرى . وفى عامى ١٥٢٥ — ١٥٢٦ قاد حملة تركية رئيسية على جبهة الدانوب ، والتى كانت الأولى من ضمن سلسلة حملات تركية كثيرة خلال الخمسين سنة التالية . ولم تلق تلك الحملة أى مقاومة موحدة سواء من بارونات الحدود ولا من دول شرق أوروبا . وبالرغم من توفر فترة إنذار كبيرة ، فالهنغاريون لم يجهزوا جيشاً قويا فى الوقت الذى وصل فيه الأتراك إلى بلغراد فى يولية ١٥٢٦ . وعلى طول الدانوب فقد دافعت بعض القلاع دفاعا مستميتاً ، ولكن الجحافل التركية كان تعدادها أكبر بكثير من العدو . وفى ٢٩ أغسطس تقابلت جيوش سليمان والملك لويس ملك هنغاريا عند سهل موهاكس . واصطف جيش

سليمان البالغ تعداده ٧٠٫٠٠٠ رجل فى تشكيل عميق . وكان الأتراك يشكلون قواتهم بهذا العمق فى جبهاتهم الشرقية . وكان التشكيل يتكون من خطين من الفرسان يدعمهما الانكشارية والسباهى وإنتشرت المدفعية خلف هذه القوات . أما الجانب المسيحى فكان الجيش يتكون من ٣٥٫٠٠٠ رجلا وقد اصطف فى خطين طويلين كل منهما عبارة عن خليط من الفرسان والمشاة .

وقامت الفرسان الهنغارية بهجومها الأول مما أدى إلى بث الفوضى والاضطراب بين صفوف فرسان الأتراك ، فعلى الفور أمر لويس بالتقدم العام ولكنه أساء تقدير عمق الجيش التركى ، وكان نتيجة هذا الخطأ أن الانكشارية دمرت بسهولة صفوة الجيش الهنغارى والتى اخترقت مؤخرة الفرسان التركية وا كتمل النصر ، ولقى الكثير من الزعماء الهنغاريين والبوهيميين مصرعهم . والآن، لم يعد هناك أى عائق يقف فى طريق الأتراك إلى فينا . وفى عام ١٥٢٩ زحف الأتراك بالسيف والنار وحاصروا فينا . ولكن الدفاع المستميت عنها وهجوم الشتاء جعلا سليمان يرفع الحصار ، خاصة وأنه أصبح الآن بعيداً جداً عن الوطن . وعلى ذلك فإن الحدود الفعلية الغربية للإمبراطورية العثمانية ، لم تمتد أكثر من خط يمتد من زناج على الأدرياتيك ثم إلى الشمال الشرقى حتى جران على الدانوب .

مؤذن وقائد اسطول (أنظر اللوحة رقم ٢١)

بينما قام سليمان بتوسيع جبهة الإمبراطورية الجنوبية الشرقية حتى البصرة ، فكانت العراق (أرض الجزيرة) فى حد ذاتها مكسباً ثميناً ، لأن حصوله على ميناء يطل على الخليج الفارسى قد دعم الاستراتيجية البحرية التركية فى الصراع ضد البرتغاليين والذى ورثه سليمان من سليم الأول . وفى عام ١٥٢٦ تحالف سليمان مع « باهادور »[1] . وفى عام ١٥٣٨ أنطلق أسطول تركى كبير لحصار البرتغاليين فى « ديو » ولكن الحملة لم يقدر لها النجاح ، مما أدى أن الأتراك نبذوا سياسة اعتراض سبيل البرتغاليين فى المحيط الهندى ، وعلى أى حال فقد وجد الأتراك أنهم قد بالغوا فى تقدير الخطر فى هذا الإتجاه حيث أن البرتغال لم

(١) هو ابن طاهر الدين محمد الشهير ببابر صاحب دلهى وكان أميراً لولاية جوجارات الهندية . « المعرب »

تكن مهتمة بإقامة إمبراطورية برية بل كان يهمها أكثر من ذلك تحقيق مكاسب سلمية والتى تجلبها تجارتها البحرية .

ولكن كانت المنافسة على قدم وساق فى البحر المتوسط بين الأتراك وأسبانيا بعد أن حلت أسبانيا محل البندقية كقوة بحرية أوروبية عنيفة ورهيبة ، ولذلك تابعت القوة التركية البحرية فى حكم سليمان توسعها غربا بقوة ونشاط . وكان وكلاؤها الرسميين هم القراصنة من البربر وخاصة خير الدين باربروسا ، الذى سرعان ما بنى أسطوله ووسع من نشاطه . أما الأدميرال الشهير « أندريا دوريا »(١) كان فى خدمة أسبانيا وقاد أسطولا مسيحياً مشتركا ولكنه هزم عند « بريفيا » أمام الساحل الألبانى فى عام ١٥٣٨ . ومن ثم اعترفت البندقية بالسيطرة التركية على البحر المتوسط شرق إيطاليا ، ولم يحدث بصفة فعلية أن استطاعت أى قوة بحرية أن تقف أمام خير الدين باربروسا فى الفترة من ١٥٤١ حتى وفاته عام ١٥٤٦ . ومع حلول عام ١٥٥١ كان لدى الأتراك قائدا جديدا هو القرصان « طرغول » والذى استولى على طرابلس كما ألحق بأندريا هزيمة نكراء . وأخيراً تم الصلح بين فرنسا وأسبانيا عام ١٥٥٩ ، ولكن الحروب لم تتوقف بين أسبانيا والقراصنة الأتراك . ولقد جاهد أيضاً فيليب الثانى ملك أسبانيا لزيادة قوة وحداته البحرية وذلك فى كل من الأطلنطى والبحر المتوسط .

وفى عام ١٥٦٥ بدأ المد فى التحول أخيراً ، ففى هذا العام بذل الأتراك محاولة ضخمة للاستيلاء على مالطة ، والتى تعتبر المركز الحيوى الحاكم للمواصلات بين شرق وغرب البحر المتوسط والتى كان لايزال يتشبث بها فرسان القديس جون . واستطاع الفرسان الصمود حتى وصل الأسطول الأسبانى لتحرير الجزيرة . وقد لقى طرغول مصرعه خلال القتال . وكم كان ابتهاج الغرب بذلك ، ولكنه كان ابتهاجا حذراً لأنه كان يبدو من المؤكد أن الأتراك سينتقمون انتقاما رهيباً فى العام التالى .

ولكن فى عام ١٥٦٦ مات سليمان وخلفه سليم الثانى السكير . وفى عام ١٧٥٠ حول سليم اهتمامه إلى قبرص والتى كانت أهم وآخر معقل بندقى ، وهرعت البندقية تطلب العون

---

(٢) لقد ولد فى البندقية . « المعرب »

من روما وأسبانيا . وفى مايو ١٥٧١ شكلت القوى الثلاث[1] تحالفاً دائماً ، وأنفقت القوى الثلاث على تجهيز أسطول مشترك تحت قيادة دون جوان[2] البالغ من العمر ٢٦ عاماً ، وفى نهاية أغسطس عام ١٥٧١ تجمع الأسطول المسيحى تحت قيادة دون جوان فى مسينا ، وفى ١٦ سبتمبر أبحر فى اتجاه « كورفو » . وفى نفس الوقت كان يتجمع أسطول تركى عند ليبانتو فى خليج كورنثه ، تحت قيادة الأدميرال « على باشا »[3] . وكان الأسطول المسيحى مكوناً من أكثر من ٢٠٠ قادس و ٦ غلياس و ٢٤ سفينة نقل كبيرة و ٥٠ سفينة خفيفة تعمل بالمجاديف ، أما إجمالى البحارة فقد وصل إلى ٥٠٫٠٠٠ بحار ، وقد عمل هؤلاء تحت ظروف قاسية ومروعة ، فقد قيد معظمهم بالأغلال فى مقاعد التجديف ، أما عدد المقاتلين فقد وصل إلى ٣٠٫٠٠٠ وكان معظمهم وأفضلهم من الأسبان .

أما الأسطول التركى ، فكان أكبر بعض الشىء إذ بلغ ٢٥٠ قادس و ٤٠ غليون و ٢٠ سفينة تجديف صغيرة وكان إجمالى المقاتلين حوالى ٢٥٫٠٠٠ رجل ، والتغيير الوحيد الذى طرأ على القوادس منذ القرن ١٣ هو زيادة الحجم والتسليح ، وأصبحت حمولة القادس ١٧٠ طناً بينما كانت حمولتها قبل ذلك ١٤٠ طناً ، بينما زاد طولها من ١٢٨ قدماً ليصبح ١٣١ قدماً كما أصبح بها ٧٥ مجدافا بدلا من ٦٠ مجدافا .

وكانت سفن الجانبين متماثلة أساساً فى النوع ولكن يوجد بعض الاختلافات الفنية الهامة ، فقد كان بالقادس المسيحى ٥ مدافع مركبة فى المقدمة وتطلق نيراناً مباشرة للأمام بينما كان بالقادس التركى ٣ فقط .

ولم تكن هناك سفن من نوع « الغلياس » إلا فى الأسطول المسيحى والتى تحمل ٢ مدفع فى الأمام و ٦ فى المؤخرة و ١١ مدفع أخف على كل جانب . كما كان جنود الأسطول المسيحى أفضل تسليحاً إذ يحمل معظمهم القرابين ، ولكن فى نفس الوقت كان القوس

(١) البندقية وروما وأسبانيا .

(٢) وهو الأخ الغير شقيق لملك أسبانيا .

(٣) كان يعمل مؤذناً وأعجبت بصوته إحدى زوجات السلطان ، فارتفع بمساعدتها حتى أصبح قائداً للأسطول . « المعرب »

التركى سلاحا قويا وذو معدل أسرع من النيران . وهكذا كان لدى الأتراك سفناً أكثر وهيبة أكبر ، ولكن من المؤكد أن المميزات الفنية كانت فى الجانب المسيحى .

قطع راس على باشا (أنظر اللوحة رقم ٢٣ ا ، ب)

وفى صباح ٧ أكتوبر عام ١٥٧١ شاهد الأسطولان بعضهما أمام مياه « سكروفيا »[١] وتأهب الطرفان للقتال . وكان الأسطول المسيحى يتشكل فى ثلاثة مجموعات تسير جنبا إلى جنب فى خط وينتشر على مواجهة حوالى ٤ أميال وكان دون جوان فى الوسط ويقود ٦٣ قادساً ، وإلى اليسار كان « أجستينو بارباريجو » يقود ٦٣ قادساً أيضاً وإلى اليمين كان « جيوفانى أندريا دوريا » يقود ٦٤ قادساً ، أما فى الاحتياط فقد كان المركيز « سانتا كروز » يقود ٣٥ قادساً . وإلى الأمام على مسافة ½ ميل انتشرت ٦ غلياس فى مقدمة جميع الأسطول .

أما الأتراك فقد تشكلت فى ثلاثة مجموعات رئيسية ، ٩٠ قادس فى المنتصف تحت قيادة على باشا وفى اليمين ٥٥ تحت قيادة محمود باشا وفى اليسار ٦٠ تحت قيادة علوش باشا ، أما فى الاحتياط فكان يوجد ١٠ قوادس و ٢٠ فوستا[٢] ، ولكن تشكيل الخط التركى كان أطول من الخط المسيحى .

وقام قائد كلا الجانبين بالتفتيش على أسطوله ، حاضين رجالهم على الاستبسال فى القتال موقدين حماسهم الدينى ومثيرين جشعهم وحبهم للمال . ومن على سطح سفينة القيادة نادى دون جوان على عازفى الأبواق وأخذ يرقص بمرأى من الجميع وهو يرتدى كامل دروعه رقصة الغليارة[٣] .

وماهى إلا لحظات حتى اندلعت المعركة فى الساعة العاشرة صباحا . ووقع الاشتباك الأول فى الشمال قرب الشاطىء حيث دفع للأمام كل من اليسار المسيحى واليمين التركى . وأطلق غلياسان مسيحيان النيران ثلاث مرات وبعدها غرق قادس تركى . وكانت سفن

---

(١) فى فم خليج كورنثة وتقع غرب لبانتو بحوالى ٢٥ ميلا .

(٢) سفينة خفيفة تعمل بالمجاديف .

(٣) رقصة مرحة قديمة . « المعرب »

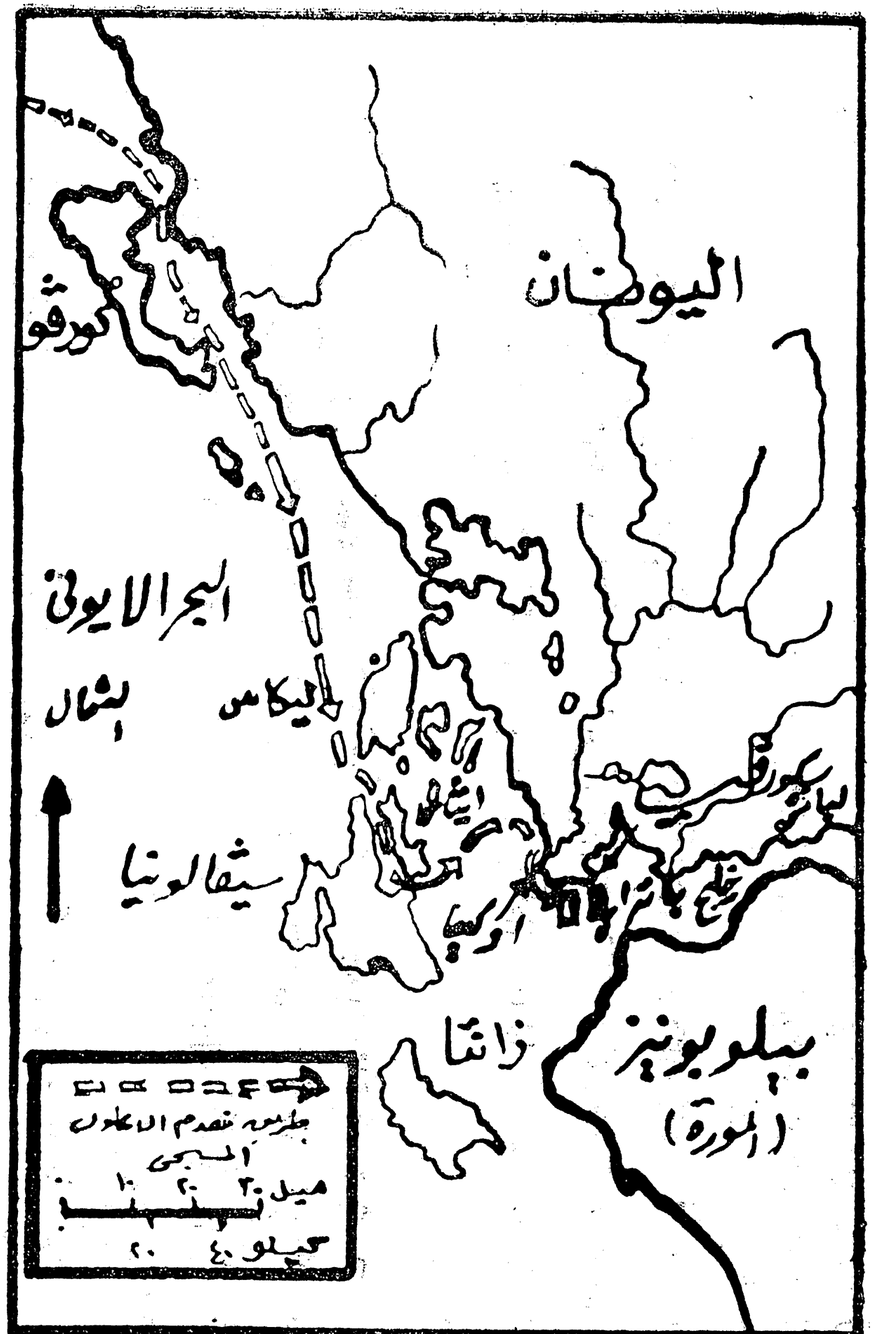

اللوحة رقم ٢٣ أ

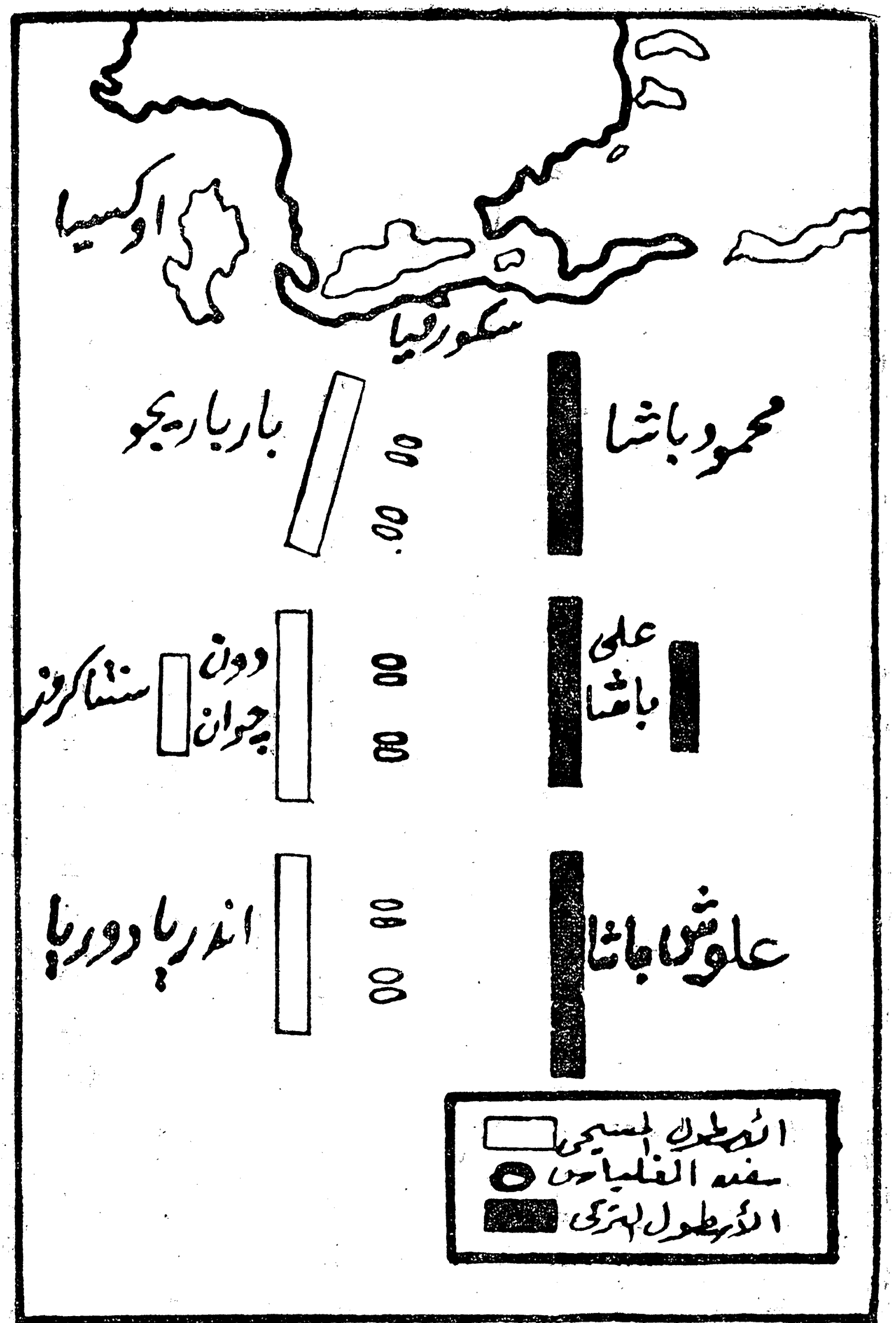

اللوحة رقم ٢٣ ب

الغلياس المسيحية مسلحة بدرجة كبيرة ومرتفعة عن سطح الماء بحيث أصبح من الخطورة والصعوبة أن يتسلقها الأتراك . وكان أمل الأتراك أن يقوموا بعملية مرور سريعة خلال الأسطول المسيحى. ولكن عندما تقدمت سفن الغلياس التركية تراجعت سفن الغلياس المسيحية إلى الخلف ودارت ببطء فى الإتجاه الآخر وأخذت تصب بنيران مدافعها حشود القوادس التركية ، مما نتج عنه عندما تقابلت مع المجموعة الرئيسية المسيحية كان معظم السفن التركية قد أصابها العطب وأنتشرت الفوضى بالخط التركى .

وعندما تقابل الطرفان دار قتال يائس صاخب لمدة ساعة ولقى بارباريجو مصرعه ولكن المسيحيين لم يفزعوا لذلك واستمروا فى القتال بينما بدأ الضعف يحل بالأتراك . ويبدو أن بعض العبيد المسيحيين تمكنوا من الإستيلاء على بعض الأسلحة وحطموا بها أغلالهم وانضموا إلى القتال ضد الأتراك . وقد أغرى قرب الشاطىء الكثير من الأتراك على الفرار إلى الشاطىء حيث تعقبهم المسيحيون ، واكتمل النصر فى اليسار ، حيث أسرت أو أغرقت جميع السفن التركية هناك .

فى نفس الوقت ، كانت المعركة قد اندلعت فى المنتصف ، واشتعل القتال بصورة خاصة حول سفينتى القيادة لكلا الجانبين ، وتوجهت كلا منهما نحو الأخرى لتمسكا ببعضهما ، وتعالت الصيحات وارتفع الضجيج من طلقات القرابين ووابل السهام وضرب المدفعية . ودار قتال بشكل عام بالسيوف يحاول كلا الجانبين إعتلاء سفينة الآخر ، وانتشر القتال حتى شملت حوالى ٢٥ إلى ٣٠ سفينة فى منطقة لا تتجاوز مساحتها ٢٥٠ × ١٠٠٠ ياردة . وأكثر من مرة وصل رجال على باشا واحتلوا مقدمة سفينة دون جوان ، ولكن « سانتا كروز » الذى لم تغب عينيه عن المعركة قد أرسل ٢٠٠ رجل مسيحى إلى سطح سفينة دون جوان لتعزيزها ، واستمر القتال عنيفا لأكثر من ساعة ونصف، وببطء بدأ المسيحيون يمسكون بالزمام ، ولكنهم طردوا ثلاث مرات خارج سطح قادس على باشا إلا أنهم نجحوا فى إجتياحها وتحطيمها وقتل معظم الأتراك بنيران القرابين ، واستولى دون جوان على العلم التركى وسحب سفينة قيادة على باشا مربوطة فى سفينته ، أما على باشا فقد قطعت رأسه فى نهاية القتال . وفى الساعة الواحدة بعد الظهر كان المسيحيون قد حققوا النصر كاملا فى المنتصف .

ومنذ البداية وقد أدرك « جيوفانى أندريا » أن هناك خطورة من أن يطوقه الخط التركى الأكثر إمتداداً ولذا أخذ يتحرك تدريجياً نحو الجنوب ، وبدأت المعركة وهو لايزال يناور بمجموعته ،وقد أدى تأخير « جيوفانى » فى الاشتراك فى المعركة أن بعض قادته المرؤوسين شكوا فى شجاعته . ولكن دارت للخلف ١٥ سفينة من التى على يسار مجموعته لتنضم إلى معركة المنتصف ، وبالتالى ترك علوش باشا محاولة تطويق المسيحيين وأسرع خلف السفن المنشقة ، وسرعان ما أغرق ١١ سفينة من هذه السفن المنشقة نتيجة لتفوقه العددى بنسبة ٥:١ . ولكن أفسد هذا النصر إلى حد ما القائد المسيحى « هوبندتو سورانزو » عندما فجر مخزن ذخيرة سفينته مدمرا بالتالى العديد من السفن التركية بالإضافة إلى سفينته .

والآن تحرك علوش إلى المنتصف ، ولكنه عندما وصل وجد أن المعركة قد انتهت وخسرها الأتراك . وهناك هاجمه جيوفانى من الخلف بينما هاجمه إحتياطى « سانت كروز » من زاوية أخرى ، فعلى الفور ترك علوش الصراع الغير متكافىء وخلص نفسه بكل سرعة وانطلق بعيدا عن المعركة .

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر كانت المعركة قد انتهت ، وبدأ الطقس يسوء بطريقة تنذر بالخطر ، وركز المسيحيون جهدهم فى تأمين غنائمهم والبحث عن ميناء أمين . وبلغ مجموع السفن القوادس التركية التى وقعت فى الأسر وفى حالة صالحة للاستعمال ١١٧ قادس بالإضافة إلى ٢٧٤ مدفعا .

وتعتبر معركة لبانتو مفيدة لأسباب عديدة ، وقد كتب أوليفر وارنر فى « معارك البحر العظيمة » قائلا :—

« فى معركة لبانتو ، وكما هو فى معظم المعارك البحرية الأولى ، كانت الأساطيل مثل الجيوش ، فقد كانت تشكيلاتها جامدة بينما كان القادة عسكريين ، وقد بنيت التكتيكات على الخبرة المستمدة من التجارب على الأرض .

أما البحارة فكان واجبهم فقط توجيه السفن إلى حيث يطلب منهم ، أما القتال فكان يخوضه القادة والجنود . »

موت النظام العسكرى التركى

إذا عدنا إلى « دون جوان » لوجدنا أنه تلقى تدريبه الأول لجندى . وفى الواقع كانت معركة لبانتو أول وآخر معركة بحرية رئيسية له ، ولكنه كان قد اكتسب خبرة أثناء قتاله ضد القراصنة الجزائريين وكذا ضد المغاربة فى غرناطة . وتوفى دون جوان بعد معركة لبانتو بسبع سنوات فى الأراضى الواطئة . ومهما كانت الآراء حول مقدرته على قيادة الأسطول فى المعركة ، فإنه بالتأكيد كان قائدا عظيما .

فقد كان عليه أن يتغلب على مشاكل ومصاعب أسطوله المشاكس المحب للنزاع والخصام . فقد كان الجنويون والإيطاليون منافسين قدماء ، كما بدأت المتاعب والمصاعب عندما سد النقص الموجود فى القوة البشرية بسفن البندقية بقوات إيطالية وأسبانية وأدى هذا إلى حد التضارب والتقاتل مع حلفائهم . واحتاج الأمر إلى دبلوماسية وحزم من جانب دون جوان لكى يستطيع جمع الأسطول فى جهاز مقاتل ثم الإبقاء عليه هكذا . وكان تلقينه لقادته المرؤوسين شاملا ولاذعا ، وكان يستخدم سبورة فى شرح الأساليب التكتيكية التي ستستخدم فى مختلف الاحتمالات فى المعركة .

وفى النهاية ، أبحر يطوف حول أسطوله فى سفينة شراعية سريعة مظهرا نفسه لرجاله رافعا من روحهم المعنوية .

ولقد كانت لبانتو نصراً سلبيا ، فهى وإن كانت قد منعت وجود سيطرة تركية كاملة على غرب البحر المتوسط إلا أنه لم يتبعها هجوم إستراتيجى من القوى المسيحية ولذلك سرعان مابنى الأتراك أسطولا جديدا . واستمر الأتراك فى بث الرعب فى مياه البحر المتوسط حتى الأعوام التالية لعام ١٦٥٠ عندما بدأت الأساطيل الإنجليزية والهولندية العمل فى هذه المنطقة .

وعلى أى حال فقد تدهورت القوة البحرية التركية وكان السبب الرئيسى فى ذلك الفشل فى متابعة التقدم والتطور التكنولوجى فى أوروبا . فقد استمر الأتراك والإيطاليون فى إستخدام القوادس حتى بداية القرن ١٩ .

ولم يصب التصدع القوة البحرية التركية فحسب ، بل كان هناك تصدع أكثر خطورة

فى الجيش التركى نفسه وكان لنفس سبب التخلف التكنولوجى . وكمثال فعندما تطورت الأسلحة النارية فى أوروبا الغربية بإدخال أنواع جديدة من مدفعية الميدان علاوة على إدخال السونكى . فقد فشل الأتراك فى ملاحقة هذا التطور وتطويعه بما يلائمهم ، بل ظلوا على ضعفهم التكنولوجى القديم والممثل فى إنتاج مدافع ضخمة يصعب تشغيلها ، علاوة على وجود ضعف كبير فى القيادة التركية ، فإن سليم السكير الذى حكم فى الفترة ما بين ١٥٦٦ـ١٥٧٤ كانت تعوزه المقدرة ، ومن بعده جاء الكثير من السلاطين الذين تركوا مسئولياتهم كحكام وكقادة ميدانيين ، وانغمسوا فى الملذات تاركين نظام الدولة ينهار . وجاءت لحظة حاسمة فى عام ١٥٨٢ عندما أجبر مراد الثالث الانكشارية على أن يقبلوا فى صفوفهم المصارعين والبهلوانات الذين أدخلوا البهجة والسرور على الشعب أثناء إحتفالات ختان ابنه .

وكانت النتيجة انهيار الضبط والربط والروح المعنوية والكفاءة القتالية . وفى عام ١٦٦٤ عند « سان جوثار » فى هنغاريا ألحق الألمان تحت قيادة « مونت كوكوللى »(١) هزيمة ساحقة بالأتراك .

وكانت هذه الهزيمة نقطة تحول حاسمة فى التاريخ العسكرى التركى ، كما أن حصار فينا عام ١٦٨٣ كان آخر إستعراض عدوانى يقوم به الأتراك فى أوروبا والذى لم يلق سوى الفشل . ومع حلول القرن ١٨ وصل الحال بالأمبراطورية العثمانية إلى أنها أصبحت غير قادرة حتى على حماية حدودها .

وفى النهاية مات النظام العسكرى التركى عام ١٨٢٦ وذلك عندما تمردت الإنكشارية مما دفع السلطان محمد الثانى أن يحمل العلم المقدس للواء محمد (عليه الصلاة والسلام) ويقود بنفسه أهل القسطنطينية لقمعهم .

وإستمرت سلالة أرطغول فى إحتلال العرش التركى من بعده حتى عام ١٩٢٢ . ولكن منذ عام ١٨٢٦ فيمكن أن نقول أن الجيش التركى أصبح من نفس نوع جيوش أوروبا .

وإلى هذا الحد . . وحتى هذا التاريخ ، فسوف نترك الأتراك ، ولكن سوف نقابلهم مرة أخرى .

---

(١) لقد تعلم كل دروس حرب الثلاثين واستفاد منها فى قتاله مع الأتراك . « المعرب »

الفصل الثانى عشر

الحروب الأوروبية فى القرن السابع

بيع القوى البشرية

جوستاف أدولف

يتناول هذا الفصل موضوع فن الحرب فى فترة كل من حرب الثلاثين عاماً والحرب الأهلية الإنجليزية والحروب البحرية الأنجلو ـ هولندية. وهى مرحلة غير قائمة بذاتها تاماً ، لأنه كان هناك تطورا متواصلا منذ حرب « موريس ناسو » إلى الحروب التى حدثت فى عصر « مارلبورو » .

ولكن من المفيد دراسة سنين القرن ١٧ فى حد ذاتها . وقد أنجبت هذه الفترة شخصية لامعة واحدة هو « جوستاف أدولف » ملك السويد وهو أحد القادة العظام ، كما كانت أيضاً غنية بالقادة البريين والبحريين ولكن كانوا أقل تألقاً بكثير من جوستاف ولكنهم كانوا ممتازين وهم « والنشتين وبابنهايم وروبرت وكونديه وتورنى وكرومويل وترمب وبلاك » .

وقد رأينا أن الفترة السابقة لهذة الفترة بزغت الأسلحة النارية وثبت نجاحها ، ولكن فترتنا الحالية أنبثقت فيها التكتيكات الحديثة والوسائل التكتيكية لإستخدام الأسلحة النارية ، بالإضافة إلى ذلك التوسع الكبير ومدى ومجال الحرب ممثلة فى التنظيم والاستراتيجية وكذا التأثير السياسى والإجتماعى والإقتصادى على الحياة القومية .

وكان من التطورات المذهلة للقرن ١٧ هو الزيادة الضخمة فى حجم الجيوش . ونذكر هنا أن الجيش الذى سيطر به فيليب الثانى على غرب اوروبا كان تعداده ٤٠٫٠٠٠ رجل

بينما إحتاج لويس الرابع عشر إلى ٤٠٠ر٠٠٠ رجل لتحقيق نفس الغرض .وكان أساس هذه الزيادة يرجع لإتساع مدى الإستراتيجية وتزايد ثروات الدول .

وكان على كل الدول التي ترغب في البقاء أن تنضم إلى سبق الكمية ، فحتى الدول الصغيرة إنضمت إلى السباق مثل براندبرج التي زادت عدد جنودها من ١٩٠٠ إلى ٨٠ر٠٠٠ وذلك خلال مائة سنة فقط .

وأصبحت تلك الجيوش إلى جانب زيادة حجمها ، جيوشاً دائمة . وأصبحت عادة معظم الدول الإحتفاظ بأفضل قواتها في إطار نظام ثابت على طول مدار السنة وذلك لسببين :—

١ ـ أن التكتيكات الجديدة تحتاج إلى مدة أطول للتدريب .

٢ ـ أن هذه الطريقة أكثر إقتصاداً بالنسبة للدول .

زد على ذلك أن هذه القوات كانت تحمى الحدود وتكون مستعدة لحملات الشتاء .

ومع زيادة نطاق الحرب ، فقد كبرت بالتالى إلتزاماتها الإقتصادية وأصبح الأمر باهظ التكاليف. ولكي تكون الدولة العسكرية ذات كفاءة قتالية عالية كان ذلك يكلفها كثيراً ، لذلك خصص جوستاف أودلف أكثر من نصف ميزانيته للنفقات العسكرية ، أما بالنسبة للمناطق التي يقيم فيها الجيش سواء أكانت معادية أو صديقة ، فكانت مواردها من الطعام والوقود والإحتياجات الأخرى تمتص حتى الجفاف .

ولكن كانت هناك فوائد بالرغم من ذلك ، فالحاجة إلى إطعام الجيوش الكبيرة كان حافزا لتنشيط الزراعة ، كما أدت مطالب التسليح إلى خلق مجال للتوسع الصناعى . فالسويد على سبيل المثال وجدت إستخداماً مربحاً لثرواتها الطبيعية من النحاس والقصدير والحديد ، وغاباتها الشاسعة المنتجة للفحم النباتى وأنهارها التي يمكن أن تقدم الطاقة وتوفر النقل .

وقد لعب التاج دوراً فعالا في تطوير صناعة الأسلحة ، وأصبح الخبراء الأجانب من أصحاب النفوذ في هذه المشاريع .

وفى الفترة بين ١٦٢٦ و ١٦٤٦ إرتفعت صادرات السويد من المدافع الضخمة المصنوعة من الحديد المسبوك من ٢٢ طن مترى فى السنة إلى ١٠٠٠ طن مترى . وساعد هذا التصدير أيضاً على تطور صناعة السفن السويدية ووسائل الشحن . وأكثر من ذلك فقد وفرت الحرب مصدراً رئيسياً للعمل ، سواء فى القوات المسلحة أو فى الوظائف الحكومية كما أصبح من الممكن للبلاد الصغرى والفقيرة مثل سويسرا واسكتلندا أن تبيع القوى البشرية للدول العظمى .

وكانت هناك إلتزامات اجتماعية مثيرة تضمنتها الحرب ، فقد أصبحت الحرب أحد الوظائف بل الحرف الرئيسية للجماهير ، فنجد أن كتائب الفرسان قد فتحت أبوابها على مصراعيها لكل من يستطيع امتطاء ظهر الحصان واستخدام السلاح النارى . ومع ذلك لم يسمح بناء الجيش بأى تحرك اجتماعي إلا بصعوبة بالغة .

ففى كل مكان فى أوروبا نجد أن الطبقات الفقيرة من النبلاء والأسر الأرستقراطية فرصة سانحة لحفظ ذاتها ، وذلك بالانخراط فى سلك الضباط وجعلوه حكراً مقصوراً على طبقتهم منشئين مبادىء وقواعد خاصة بالشرف والمبارزة والواجبات والمزايا .

ومن هنا ولد التسلط العسكرى أى سيطرة الطبقة العسكرية وتقديس الفضائل والمثل العسكرية .

وكانت المعانى الضمنية لكبر الجيوس والقوات البحرية فى الشئون الإدارية والسياسة أيضاً ذات مغزى فأصبح من الصعب وجود جيش كبير إلا إذا كانت لدى الدولة القدرة على جمع كمية كبيرة من المال وأدى هذا إلى تضاعف الوظائف المختصة بالأمور العسكرية .

وأصبحت بالتالى المجالس البيروقراطية أقوى وأطول فى البقاء . وقد كتب ج . ن . كلارك « لما كانت الدولة الحديثة محتاجة لجيش عامل ودائم ، فأدى هذا أن خلق الجيش الدولة الحديثة ، وهذا طبعاً لأن كلاهما محتاج للاخر » .

وقد أدت المطالب المالية الكبيرة الحاجة للتجنيد والمعدات أن زاد تدخل الحكومات فى شئون رعاياها ، ومثلا فالاحتياج إلى صنع البارود والمدافع على مختلف الأعيرة ، جعل من

الضرورى إقامة شركات إحتكارية لصناعة الأسلحة وتحت إشراف الدولة . وفى معظم الدول ، فقد أدى إزدياد قوة الحكومات إلى كبت الديموقراطية ، كما فى فرنسا على سبيل أو بشكل أبرز فى بروسيا ، حيث أصبحت القيادة العامة للجيش هى قلب لكل حكومة .

وكانت ثورة انجلترا الكبرى هى محاولة ناجحة لكبح الميل المتزايد للملوك المحتاجين للمال مما أدى إلى إنتهاك الحريات العامة .

وقد كانت معظم جيوش القرن ١٧ جيوش دول وليست جيوشاً وطنية . فيما عدا إنجلترا ، لم يكن القائد الأعلى للجيش (الملك) مسئولا أمام الشعب . وفى هذا العصر ، عصر الحكم المطلق أو الاستبداد[1] زاد مدى الاستراتيجية بالرغم من سوء المواصلات والاتصال . وعلى كل حال تطلب الأمر قدراً كبيراً من بعد المدى وخفة الحركة مما أدى إلى تطور أسلوب التكتيكات الهجومية مما شجع القادة على المضى فى أثر العدو والبحث عنه وتدميره فى ميدان القتال . ولكن ارتبط هذا التطور بتطور أوسع مدى للسياسات الاقتصادية وأيضاً بطموح الحكام المطلقين فى السيطرة على جيوش كبيرة . ومثل هذه الجيوش كان من الصعب أن تعيش فقط على حساب البلاد التى تعمل فيها ، وبالتالى فقد أصبح من الحيوى حراسة خطوط إمدادها وتجارتها الخارجية ، بينما كان مرغوبا فى حرمان العدو من خطوط إمداده وتجارته . وأصبح فى الحقيقة الحروب عبارة عن وسيلة للاثراء . والنظرية الاقتصادية التى تتضمن « بأن الدولة تصبح غنية إذا ضمنت لنفسها أكبر قدر من موارد العالم المادية حتى ولو تم ذلك بالوسائل الشريفة أو القذرة » ، فقد اعتنقها معظم السياسيين فى هذه الفترة .

وقد امتدت عمليات حرب الثلاثين عاما عبر جميع أنحاء وسط أوروبا . فقد خطط الأسبان للاستيلاء على جوتبرج ولذا فقد زحف الأمير بيكولوميني[2] من الفلاندر إلى بوهيميا .

---

(١) النظرية السياسية لذلك ، أن السلطة الكاملة يجب أن تكون فى يد فرد واحد ليدير شئون الدولة كما يحلو له .

(٢) قائد نمساوى .

« المعرب »

وكان جوستاف أودلف أستاذاً قديراً فى الجمع بين الاستراتيجية القصيرة المدى والتى تسعى وراء معركة فاصلة، والاستراتيجية طويلة المدى والتى تسعى لدفع العدو إلى الخلف ودحره على جميع الجبهات .

اول جيش وطنى

وفى عام ١٦١٨ بدأت حرب الثلاثين عاماً فى ألمانيا، وكان سببها فى الأصل إلى الاختلافات الدينية بين الكاثوليك والبروتستنت، ولكن تشابكت السياسة مع الدين . وزاد تدخل فرنسا بالرغم من أنها لم تعلن الحرب علانية حتى عام ١٦٣٥ . ومع اتساع نطاق الحرب أصبح مظهرها السياسى يمثل مركز الصدارة، وقد تطورت هذه الحرب بعد ذلك إلى صراع للسيطرة على أوروبا وذلك بين كل من الإمبراطور الرومانى المقدس « فرديناند الثانى » وتعاونه أسبانيا وبافاريا ، وبين فرنسا وتعاونها دول بروتستانتية مختلفة بالإضافة إلى تأييد البابا . وإذا ألقينا نظرة على تفاصيل هذه الحرب لوجدنا أننا أمام صورة بالغة التعقيد وذلك بسبب ما أصاب أوروبا من التفتت السياسى .

وكانت هذه الحرب تهدف إلى تحطيم وسط أوروبا سياسيا ولكن قام « ريشيليو[1] » فى عام ١٦٣٠ بضربة معلم عندما أغوى «جوستاف أودلف» ملك السويد بالدخول فى الحرب ضد الإمبراطور « فرديناند الثانى » . فقد كان « ريشيليو » يدرك تماماً أن « جوستاف » بلا شك أفضل القادة العسكريين فى أوروبا .

وفى ذلك العام (١٦٣٠) كان عمر «جوستاف» ٣٦ عاماً ، وقد توج ملكا وعمره ١٧ عاما، ومنذ توليه العرش خاض حروبا كثيرة مع الدنمرك وبولندا وروسيا وذلك لمنع أيا منها من السيطرة على البلطيق . وقد اتبع دراسته النظرية لفن الحرب بالخبرة العلمية لهذا الفن فى ميدان المعركة. وتضمنت دراساته كتابات « اكسانوفون » والتى قال عنها ليدل هارت « ربما كانت من أعظم ما كتب عن الحرب » .

وقد ظل « جوستاف » على اتصال دائم مع كل تطور علمى وتكنولوجى يظهر فى ذلك الوقت . وفى الحقيقة كان « جوستاف » أول قائد عالج فن الحرب بحيث تتمشى مع عصر

(١) رئيس وزراء فرنسا . « المعرب »

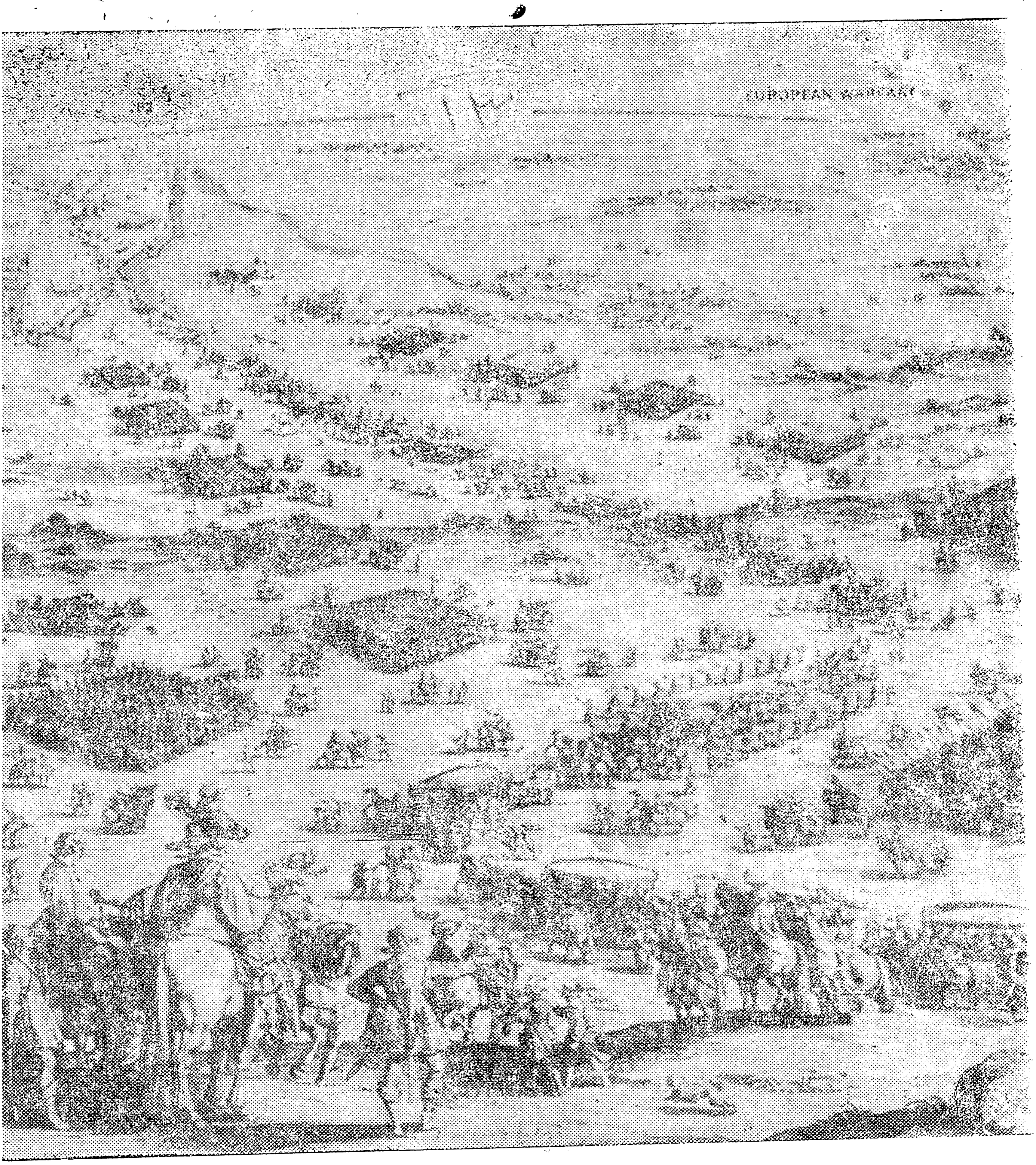

الجيش الوطني فى حرب الثلاثين عاماً ، ويظهر كبر حجم الجيوش فى ذلك الوقت

النهضة ، كما أن آراؤه عن التنظيم والتدريب والتكتيك كانت كلها آراء أصيلة وعلى قدر كبير من الذكاء . وأكثر من ذلك فقد كان قمة من النشاط والمهارة فى استخدام وتطبيق هذه الآراء ، علاوة على أنه شجاعاً وعاطفيا وملتهب حماس ، ويتمتع بكل حب واحترام من كل شعبه .

وقد كان إنساناً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ويحركه إيماناً راسخاً ولكن دون أى تعصب . وقد قيل عنه : — « كان يسبح للرب أولا ثم بعد ذاك ينهض بكل الأعباء من أجل رجاله وكانت عيناه تتركز على الفور على احتياجات جنوده الحالية وخطط أعدائه القادمة » .

وكان من أسباب نجاح « جوستاف » هو فهمه العميق للتنظيم والإدارة ، ولما لم تكن السويد فى إمكانها توفير جيشاً كبيراً من المرتزقة يكفى لمواجهة جيوش أعدائها الكثيرة ، لذلك أوجد « جوستاف » نظاماً جديداً للتجنيد ، والذى أصبح فى النهاية أول جيش وطنى تتولى الدولة الإنفاق عليه من تجهيز وإطعامه وصرف الرواتب . وقد استخدم القسس والحلفين المحليين كمندوبين للتجنيد ، وبذلك استطاع تجنيد أكثر من ٤٠٫٠٠٠ سويدى . وكانوا لهم أجسام قوية ويتميزون بشجاعة نادرة ، وكانت أعمارهم تتراوح بين ١٨ — ٣٠ سنة .

أما عمال الصناعات الخاصة مثل صناعة الذخيرة والنقل فقد أعفوا من الخدمة العسكرية. وفضلا عن أن الجيش بهذه الطريقة كان أكثر اقتصاداً ، فقد ظل أساسه جيشاً وطنياً . وكنتيجة لذلك كانت الروح المعنوية للجيش مرتفعة عن الروح المعنوية لجيوش الأعداء والتى كانت تتكون أساساً من الجنود المرتزقة .

وكان الجيش السويدى يختلف فى تكوينه وتجهيزه عن باقى جيوش أوروبا ، لأنه كان يسير وفقاً للأفكار والمفاهيم التكتيكية للملك السويدى والتى كان أهمها قوة النيران وخفة الحركة . وجعل من المسكيت[1] السلاح الرئيسى ، كما زاد عدد حملة المسكيت إلى حملة الرماح . وفى نفس الوقت سار « جوستاف » على غرار « موريس ناسو » وأنشأ وحدات صغيرة

(١) البندقية القديمة . « المعرب »

ووحدات فرعية . وبالتالى فكانت السرية تتكون من ٧٢ حامل المسكيت و ٥٤ حامل الرماح .وكانت الكتيبة تتكون من ٤ سرايا ، والآلاى يتكون من ٨ كتائب ، واللواء يتكون من ٢ إلى ٤ آلاى .

أما نفس المسكيت فقد أصبحت أقصر وأخف بحيث لم تعد هناك حاجة إلى وجود المسند ، كما اصبحت عملية تعميرها أكثر بساطة ، وأصبحت هناك مواصفات قياسية للاجزاء الميكانيكية وذخيرة المسكيت . وقصر الرمح من ١٦ إلى ١١ قدماً كما قل حجم الدرع .

أما الخيالة فتكونت من الفرسان المدرعين «الكوراسيير[١]» و« الدراجون[٢]» .

وكان « جوستاف » أول قائد عظيم يدرك أهمية مدفعية الميدان جاعلا منها سلاحا رئيسياً ثالثاً ، وعاونه فى ذلك قائد عبقرى فى المدفعية وهو «تورستنسن» ، والذى كان عمره فى عام ١٦٣٠ حوالى ثلاثين عاما .

وكانت مدافع الميدان تصنع فى ذلك الوقت بشكل أقصر وتوضع فى عربات أخف وزنا لزيادة خفة الحركة بحيث أصبحت مميزة عن مدافع الحصار ، وقد أنقص عدد الأعيرة كما وحدت المدافع ونظمت سويا ، وعلى ذلك فقد تراوح وزن مدفع الحصار السويدى ما بين ١٥ إلى ٦٧ هندردويت[٣] ، بينما كان وزن مدفع الميـــدان مابين ١٢ ، ١٨ أو ٢٧ هندردويت .

أما القطع الأصغر فكانت على شكل مدفع ميدان حوالى أربعة أرطال ، وتعمل بذخيرة متصلة وقد سمى هذا النوع بمدفعية الآلايات .

وكان من الممكن تحريكه بحصان واحد أو بثلاث رجال ، وأمكن استخدام طلقات المسكيت كذخيرة لها وهى أما ٨ طلقات فى قنبلة عنقودية أو علبة صغيرة بها ٦ طلقات . وبالإضافة إلى كل ما سبق كان يوجد فى جيش «جوستاف» سلاح للمهندسين وكانت أفراده

---

(١) الكوراسيير فرسان مسلحة بالسيف والمسدس .

(٢) الدراجون فرسان مسلحة بالمسكيت .

(٣) الهندردويت وحدة وزن تساوى ١١٢ باوند فى إنجلترا، والباوند يساوى حوالى ٤٥٣ جرام . « المعرب »

من الخبراء المدنيين الذين يطلبون عند الحاجة ، وكان يوجد بالجيش معدات قياسية ومساعدات جديدة مثل الخرائط ونظارات الميدان ، وعلى ذلك فقد كان العلم والتكنولوجيا فى جيش جوستاف يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالحرب . واستخدم التدريب الأولى كوسيلة لبناء الضبط والربط وزيادة كفاءة الرتب الصغيرة وبث روح الاستبسال فى الجيش . ولاشك أن الضباط فى مثل هذا الجيش الكبير المشكل من وحدات صغرى كانوا أكثر عدداً وأهمية من الماضى ، ولذلك انبثقت فكرة الرتب والتسلسل القيادى . كما قال ميخائيل روبرت : — « لم يعد الجيش ينظر إليه كجموعة متوحشة أو مجموعة من الأفراد العدوانيين ، بل كتنظيم معقد يتعين على كل جزء فيه أن يستجيب بذكاء إلى النبضات القادمة من أعلى » . فأصبح لابد أن يكون للضباط الكبار معرفة تامة بالعلوم والجغرافيا بل وحتى الديبلوماسيه ، ولهذا أنشأت عدة أكاديميات حربية فى أوروبا خلال القرن ١٧ .

وكان جوستاف لايستطيع أن يتحمل ضعف الكفاءة ، ولذا كان على استعداد ليرقى الضباط نتيجة لجدارتهم . فى نفس الوقت ألقيت مسئولية كبيرة على ضباط الصف ، لم تحدث منذ أيام الرومان . وتطلبت الأساليب التكتيكية مناورات مرنة وضبط وربط جيد للنيران والذى كان التدريب ضرورياً لتحقيقه .

وقد تعين على الضباط أن يتولوا تدريب جنودهم نظرياً وعملياً على طول مدار السنة . ومن الخطوات الهامة التى حققت الانتظام والتماثل هو إدخال الزى الرسمى الموحد وعلامات الأسلحة ، مما أدى إلى ازدياد الروح المعنوية وحب الوحدة .

وساعد الزى العسكرى الذى أدخله جوستاف كثيراً فى تأكيد وجود ضبط وربط جيد مع روح معنوية عالية . وعلى كل حال ليس هذا بالشىء الغريب على الجيش السويدى والذى أختير رجاله من أفضل شباب الأمة ويقودهم ضباط أصاغر لامعين تحت قيادة قائد أعلى ملهم . ولكن لم يترك كل ذلك للفرصة أو المصادفة أو السير كيفما أتفق ، ففى « مقالات عن الحرب » والتى كتبها جوستاف بنفسه ، فقد منع شرب الخمر والدعارة وأمتهان المقدسات . أما المخالفات البسيطة فكان عقوبتها إنسانية ، فقد حرم عقوبة الجلد ، بينما كان عقاب النهب

اللوحة رقم ٢٤

المانيا اثناء حرب الثلاثين عام

والاغتصاب واحتقار الطقوس والتعاليم الدينية المقدسة ، الموت ، بينما كانت طقوس الـكنيسة تعقد بانتظام والتى كان المقصود منها خلق تأثير حضارى مهذب .

الخط يفضل الرجل الجرى (أنظر اللوحة رقم ٢٤ ، ٢٥)

وقد أصبح من الضرورى بسبب إزدياد حجم الجيوش وإتساع مدى الإستراتيجية أن ينظم المسئولين عن الأمـــداد أعمالهم فى صـورة شبيهة أ كثر بطريقـة رجال الأعمال .

وأصبح من الضرورى على الدولة توحيد السلاح المستخدم وتزويد الجنود به بدلا مما كان يحدث فى الماضى بأن يترك ذلك للجنود أنفسهم . وكما ذكرت ، فقد كان من المستحيل عملياً على جيش فى القرن ١٧ أن يعيش على حساب قوت الدولة ، ولأسباب إنسانية فقد كان ذلك من الأشياء الغير مستحبة . وتضمنت إصلاحات جوستاف نظاماً بارعاً لمصادرة المؤن وجمعها فى مخازن إمداد وفى أماكن ملائمة . وكمبدأ أيضاً فقد تمركز جيشه فى معسكرات محصنة على غرار الرومان ، وأدت هذه الإصلاحات إلى خفض درجة الفقدان والخسارة كما قللت من الفظاعة والوحشية .

كما ساعدت الجيش فى الإستقرار ، لأنه لم يعد محتاجا للانتشار على طول البلاد للبحث عن المراعى والمأوى .

كما زادت خفة الحركة نتيجة لإنقاص عدد كبير من تباع المعسكر . وعملياً لم يعمل بهذا النظام دائماً فـكثيراً ما أضطر السويديون إلى النهب وأيواء جنودهم فى مساكن المواطنين بالإكراه . ولـكن كان هذا النظام خطوة عظيمة للأمام فى مبدأ الإمداد الحربى والإدارة العسكرية ، كما أدخل جوستاف أيضاً أفـكاراً جديدة وحيوية فى مجال الخدمات الطبية بتوفير طبيب جراح لـكل آلاى ، كما خصص عشر غنائم من الحرب للانفـاق على المستشفيات العسكرية .

أما فى مجال السياسة الخارجية ، فقد كان أمام جوستاف هدفين توأمين هما تدعيم النفوذ السويدى والدفاع عن البروتستنتية .

وفى عام ١٦٣٠ إضطر لدخول حرب الثلاثين عاماً ، نتيجة لقيام الجيشان الإمبراطوريان

الكاثوليكيان واللذان يقود كل منهما والنشتين وتيلى بإحتلال كل ألمانيا حتى البلطيق بالإضافة إلى الإجراءات الوحشية التى إتخذت ضد البروتستنتيين . وقرر جوستاف أن أفضل طريقة للدفاع عن البلطيق هى قيامه بالهجوم وذلك بغرض نقل الحرب بعيداً عن السويد ، وخاصة أنه سيكون من الصعب الدفاع عن سواحلها الطويلة ،بالإضافة أن الملك لايرغب فى أن يرى شعبه يقاسى ويلات الحرب . كما أنه فى بلد كألمانيا والتى مساحتها واسعة فإن التفوق العددى للعدو لن يكون له أثر كبير . وقد قدر جوستاف الموقف .

والنشتين

« كان لدى العدو بلداً واسعة يريد إحتلالها ، ومدنا عديدة ليحرسها .

وهذا يتطلب منه عدداً كبيراً من القوات . كما أنه ليس من الحكمة الإندفاع وراء الحقيقة القائلة بأن قوة العدو هى أكبر فى شهرتها عنها فى حقيقتها . وأن مجرد خسارة معركة كبيرة واحدة مع العدو ستضعه فى مركز حرجاً جداً » . وكان على جوستاف أن يثبت صدق إدراكه وبصيرته ، ولكنها كانت حسابات غاية فى الجرأة والشجاعة ، وذلك بنزوله عند مصب نهر الأودر فى صيف ١٦٣٠ ومعه ١٣ر٠٠٠ جندى فقط ، بينما بلغت قوات العدو المشتركة فى مواجهته ١٠٠ر٠٠٠ جندى. وفى ذلك الوقت كان الإمبراطور مفرط فى ثقته بنفسه وفى جيشه ، ومن الأرجح أن ريشيليو خدعه ودفعه لطرد والنشتين والذى كان الإمبراطور يخشى قوته المتزايدة . وبذلك أزيل نصف أعداء جوستاف من المسرح بدون أن يطلق طلقة واحدة .

بل أن جيش جوستاف إستطاع تجنيد عدد من جنود والنشتين والذين أصبحوا بدون عمل بعد عزل قائدهم ، وعادة مايفضل الحظ الرجل الجرىء .

أما الأمراء البروتستنتيين فى ألمانيا فقد ظلوا متشائمين وخائفين من أن يقدموا العون لجوستاف .

وكانت إستراتيجية جوستاف هى التقدم بحذر وفى تشكيل منتظم ، أى جعل

إستراتيجيته تتلائم مع موارده . وأمضى العام الأول فى القيام بعمليات على الساحل الجنوبى للبلطيق مؤمناً قاعدته وخطوط مواصلاته ، وجالبا بالتدريج المزيد من الرجال إلى ألمانيا . وفى مايو ١٦٣١ كان مستعداً للمعركة ، فتحرك جنوباً بهدف حصار « مجد بورج » التى يحصارها « تيلى » . وتقدم الجيش السويدى الجيد التنظيم وتحت إدارة حازمة وتوفر الإمدادات ، ولكن فى اللحظة الأخيرة قلب الأمير السكسونى البروتستنتى « جون جورج » هذه الإستراتيجية رأساً على عقب ، وذلك برفضه السماح لجوستاف بالمرور من داخل ساكسونيا . وسقطت مجد بورج فى أيدى القوات الإمبراطورية التى قامت فى الحال بتدمير المدينة بعد الإستيلاء عليها وهذا أفسد نجاح تيلى مما أدى أن حصل جوستاف على تأييد الساكسونيين . ومرة أخرى وفى يوليه إنطلق الجيش السويدى سالكا طريقاً آخر نحو « ليبزج » ، وما أن حل شهر سبتمبر حتى تقابلت قوات جوستاف مع جيش تيلى عند « بريتنفيلد » والتى تقع شمال ليبزج بخمسة أميال . وكان تيلى يأمل فى تفادى خوض المعركة. ولكنه كان تقريباً قد دفع إليها بسبب تهور نائبه فى القيادة « بابنهايم » ، الذى إنطلق للاستطلاع فى الأمام وعاد ليبلغه بأن العدو يتقدم بسرعة كبيرة نحوهم وأنه لامناص من المعركة ، ولم يكن هذا صحيحاً .

هجوم الصدمة الحاسم

وكانت هذه الصورة عكسية تماماً لإستطلاع ملك السويد الماهر الكفء ، فكان جوستاف فى الظروف الهامة يقوم بالإستطلاع بنفسه ، وكان لديه نظام يقوم بمقتضاه القادة المرؤوسين بإمرار المعلومات إليه وإلى زملائهم فى سرعة ووضوح . كما كانت الأوامر بالجيش السويدى هى الأخرى مثالا يحتذى به ، فكل فقرة مرقمة تغطى نقطة واحدة وباختصار ووضوح وبتسلسل منطق .

وهذا النظام ساعد تأمين الحماية المتبادلة وفى نفس الوقت حقق مبدأى حشد القوى والإقتصاد فى القوى أثناء الهجوم . وكانت الإستعدادات والإستطلاع السويدى قبل معركة بريتنفيلد على درجة كبيرة من الكفاءة . وخاض جوستاف المعركة فى الوقت الذى اختاره أو فى الوقت الذى كان العدو سىء الإستعداد .

وكان لدى جوستاف ٤٧٫٠٠٠ جندى ، منهم ١٠٫٠٠٠ سكسونى ليست لهم خبرة كافية بالحرب ، ولكن الباقون كانوا جنوداً سويدية وقد وضع جوستاف ثقته فيهم .

وقد غرس فيهم خلال خدمتهم الطويلة معا كل آرائه التكتيكية سواء أثناء التدريب أو فى المعركة الفعلية .

وقد بدأ جوستاف من حيث توقف موريس ناسو وفى مجالات كثيرة فى الحرب . فقد أتبع نظام ناسو الخاص بتشكيل الوحدات الصغيرة، ولذا ألغى جميع أسلحة المشاة عدا المسكيت والمنخاس . ولكن كان موريس قائداً من طراز القرن ١٦ وكان هذا أقصى ماوصل إليه . وقد استمرت مشكلة إيجاد تكتيكات هجومية تلائم عصر الأسلحة النارية ، وحل هذه المشكلة يعتبر من أهم وأعظم ما شارك به جوستاف فى تصوير الفن الحربى الحديث . وقد وفرت الأسلحة النارية فى هذا الحل القوة الضاربة الرئيسية للمشاة ، وبالتالى زاد عدد حاملى المسكيت .

ومرة أخرى أصبح الرمح سلاحاً هجومياً ، ولكن ظل الواجب الرئيسى للرماحين هو تغطية جنود المسيرة وحمايتهم من أى هجوم أثناء تعمير بنادقهم . وقد تم إختراع تشكيل مرن وكفء للواء المشاة وهو على شكل (٢) ويظهر ذلك فى اللوحة رقم ٢٥ ، وجمع هذا التشكيل بين حاملى المسكيت وحاملى المنخاس للقيام بواجباتهم المختلفة وفى صورة أكثر

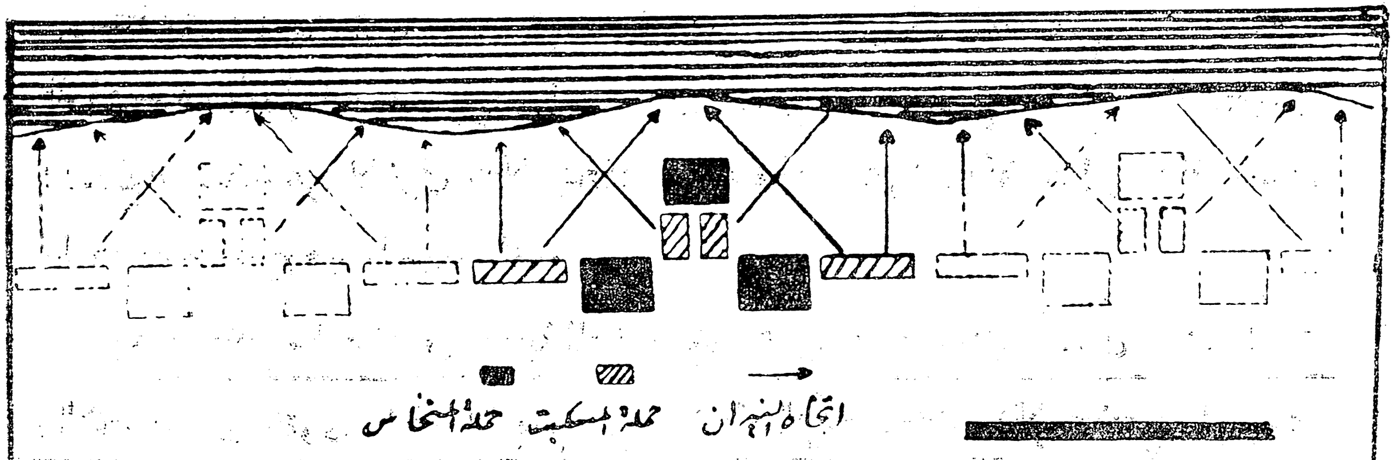

اللوحة رقم ٢٥
تشكيلات المشاة للمعركة بجيش جوستاف

إقتصاداً . وكانت وحدات حملة المنخاس المتقدمة فى الوسط تمثل جداراً أو حاجزاً للوقاية فى الدفاع ، وفى نفس الوقت تصبح رأس حربه فى الهجوم ، فى نفس الوقت حمت وحدات حملة المنخاس الأخرى أجناب حملة المسكيت ، بذا كان يمكن لحملة المسكيت وهم محميون تماماً أن ينقضوا على جبهة العدو بوابل من قذائفهم من أى نقطة مواجهة للعدو ، ويمكنهم أيضاً حشد النيران وضرب العدو من زوايا مختلفة .

وكما لوحظ أن اللواء المشاة بهذا التشكيل أصبح يمثل « قلعة صغيرة متحركة بأسوارها وإستحكاماتها الأمامية » وإلى جانب نيران حملة المسكيت فكان فى إستطاعة جوستاف أن يحدث صدمة أخرى بالنيران ، بما لديه من مدفعية الميدان والتى تميزت بخفة حركتها وبمعدلها العالى من النيران ، زد على ذلك أن دخان المدافع يمكنه إلى حد ما من إخفاء تحركات القوات التى فى الخلف .

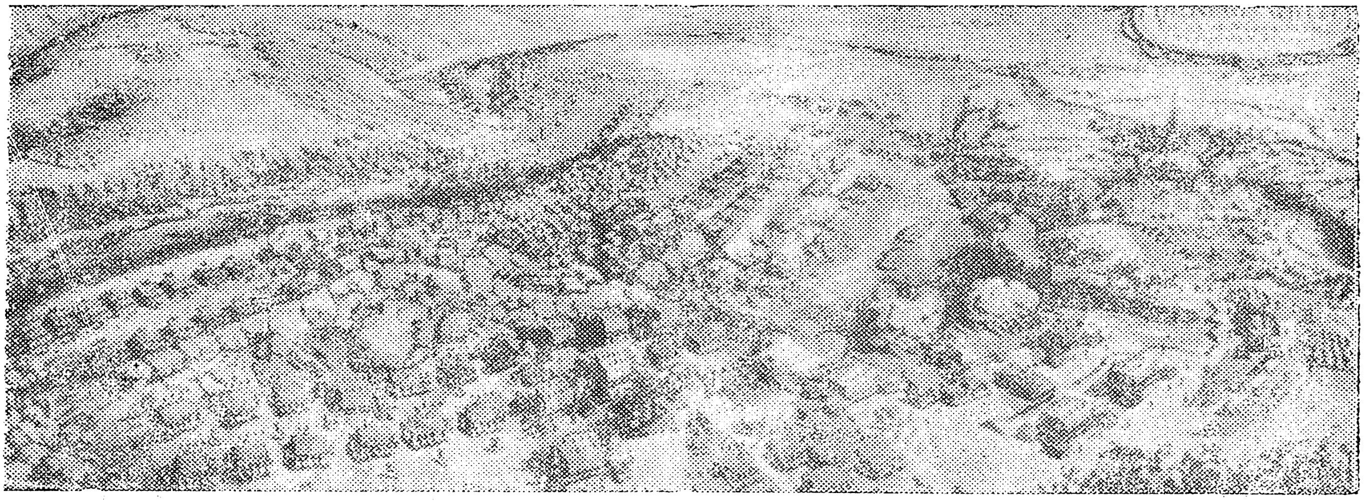

تشكيلات المعركة لقوات جوستاف

وقد أعاد جوستاف تنظيم الفرسان ، فقد ألغى نظام النصف دورة (الكرا كول) والذى كان يقوم به الفرسان المسلحين بالمسدسات واستخدم بدلا منه الهجوم بأقصى سرعة مع إستخدام السيف كسلاح رئيسى ،وإستخدم المسدس كسلاح مكمل للسيف خلال الإشتباك . وقد كان ذلك العودة إلى الإستخدام الصحيح والذى يحقق أكبر فائدة من سرعة وقوة صدمة الفرسان .

وقد حققت الفرسان واجباً تكتيكياً مزدوجاً ، فكان عليها القيام بأعمال التطهير الأولى فى المواجهة لإفساح الطريق لإقتحام المشاة ثم القيام بعد ذلك بما يطلق عليه بهجوم الصدمة الحاسم .

وقد كان جوستاف على يقين تام بأن التشكيل الكثيف المحتشد ما هو إلا مضيعة للقوة البشرية ويشل القدرة على المناورة كما أنه معرض بصفة خاصة لنيران المدفعية ، وعلى ذلك إستخدم جوستاف التشكيل الخطى للقتال أى على شكل خطوط ، مكرراً فيها الألوية والتى فتحت على شكل حرف (T) مع مجموعات صغيرة من الفرسان .

وفى نفس الوقت دعم هذا الخط بالإحتياطيات . وكان عمق حملة المنخاس ٦ صفوف والفرسان ٤ صفوف مع وجود فواصل بين الصفوف . أما حملة المسكيت فكان عمقهم ٣ صفوف ، وبهذا الشكل كان يمكن ضبط وتنظيم قوة النيران والحركة والصدمة وتوجيهها بحرية وبطريقة أكثر إقتصاداً .

المناورة الضخمة (أنظر اللوحة رقم ٢٦)

كانت أرض المعركة فى بريتنفيلد عبارة عن سهل قليل التموج وعارى من الأشجار . وقد وضع جوستاف الجنود السكسون(١) فى أقصى اليسار ، ثم يليهم اليسار السويدى تحت قيادة هورن ، والذى يتشكل من ٣ آلايات من الخيالة تنتشر بينهم جماعات من حملة المسكيت ويدعمهم آلايين من الخيالة فى الخط الثانى .

أما قوات المنتصف فكان يقودها جوستاف وكانت مشكلة من الخط الأمامى وبه ٤ ألوية من المشاة فى تشكيل حرف (T) ، والخط الثانى وبه ٢ لواء مشاة وآلاى فرسان ، وفى الخط الثالث وبه ٣ ألوية مشاة وخلفهم ٢ آلاى فرسان . أما قوات اليمين فيقودها « بانر » ويتكون خطه الأمامى من ٦ آلايات من الفرسان وتنتشر بينهم جماعات من حملة المسكيت ، وفى الخط الثانى آلاى من الفرسان ، وفى الخط الثالث ٤ آلايات من الفرسان وكان أمام كل آلاى مدفعيته(٢) .

(١) كان لايعرف تشكيلهم على وجه التحديد .
(٢) كانت تتكون من مدفعين ٤ رطل .

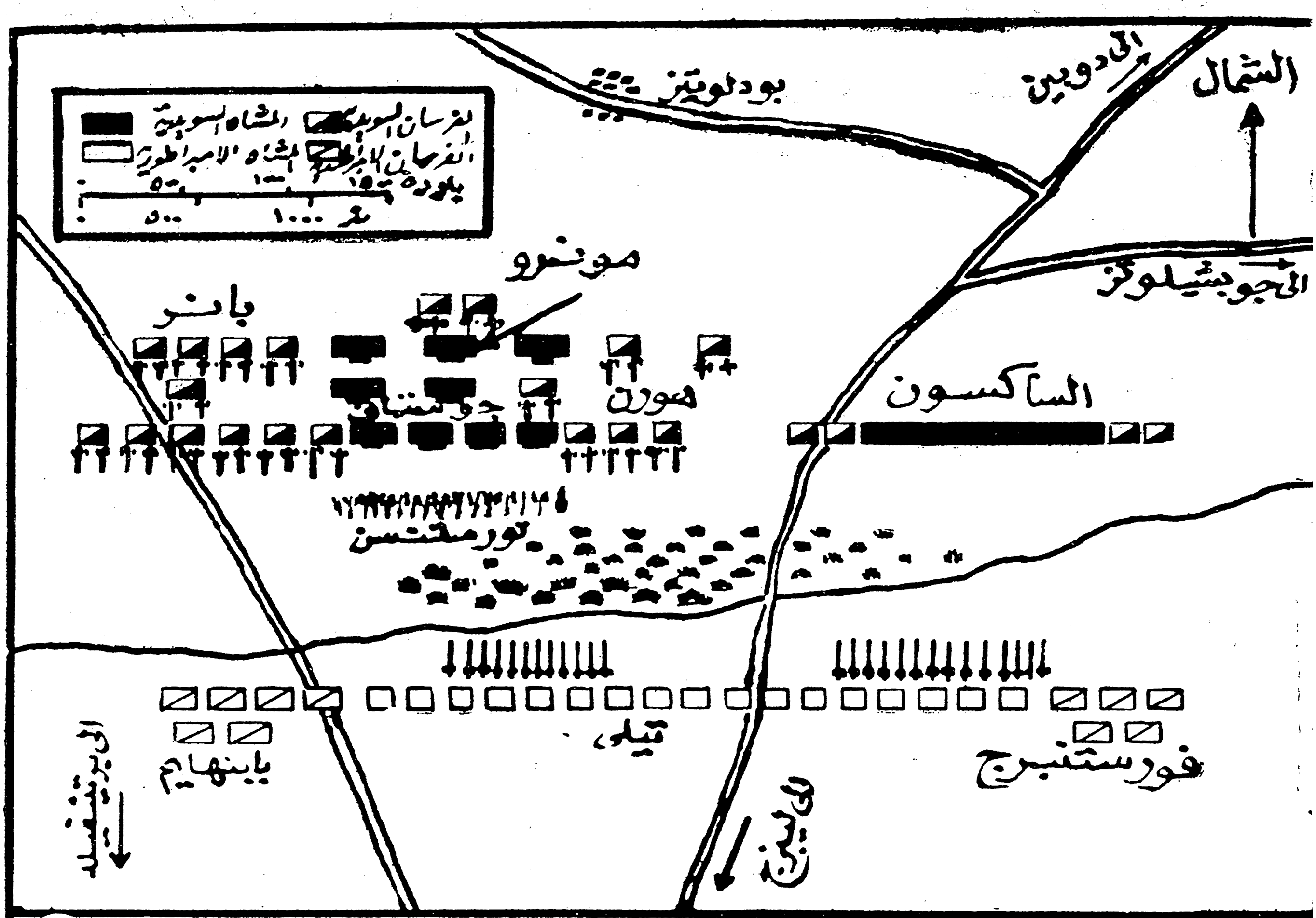

اللوحة رقم ٢٦ - معركة بريتنفيلد

أما مدفعية الميدان الثقيلة فكانت تحت قيادة « تورستنسن » وحشدت أمام منتصف القوات .

وكان فى مواجهة ذلك ، جيش الحلفاء ويتكون من ٠٠٠ر٤٧ جندى ، فكان جيش تيلى الإمبراطورى يتكون من ٠٠٠ر٤٠ رجل[1] . وكان تيلى البالغ من العمر ٧٠ عاما قائداً جيداً فى مجال الأساليب التقليدية الأسبانية ، وكانت شخصيته مثيرة ومهيبة بوجنتيه الغائرتين ورداءه الضيق ذو اللون الأخضر القاتم . وقد شكل تيلى جيشه فى خط واحد أو خطين من ١٧ آلاى من المشاة . وشكل كل آلاى منها مربعاً عمقه ٥٠ رجلا . أما الفرسان فقد وضعها تيلى على الأجناب وهكذا فتح الجيشان فى تشكيل القتال يواجه كل منهما الآخر وعلى مواجهة طولها أكثر من ٢ ميل . وارتدى السويديون زيهم الأخضر بينما ارتدى الإمبراطوريون رمزهم والذى كان وشاحاً أبيض . وبالرغم من وجود اختلاف بسيط فى العدد بين الجيشين إلا أن السويديين تفوقوا بشكل واضح فى المدفعية[2] . وكان كلا القائدين ذو خبرة وتجربة وواثقاً من نفسه . وعلى كل حال فقد توقفت نتيجة المعركة على أى من الأسلوبين التكتيكيين سيثبت تفوقه على الآخر ، فأحدهما يعتمد على الحشد والآخر يعتمد على خفة الحركة .

وقضى جوستاف الليلة السابقة للمعركة فى عربته يناقش المعركة القادمة مع كبار ضباطه. ومع بزوغ شمس ١٧ سبتمبر ١٦٣١ ، وبعد انتهاء شعائر الصلاة وانتهاء جوستاف من إعطاء تعليماته الأخيرة لضباطه ، بدأ الجيش السويدى يتقدم للهجوم . وكان لابد عليه من عبور مجرى مائى موحل أولا ، وهنا فشل « تيلى » فى استغلال هذه الفرصة ليهاجم السويديين أثناء عبورهم المجرى المائى . وتمت عملية العبور بدون حوادث بخلاف مصادمة صغيرة جرت بين بعض الفرسان الإمبراطورية وقوات استطلاع جوستاف . وكانت المرحلة الرئيسية الأولى للمعركة هى معركة تراشق بالمدفعية ، وقد بدأت هذه المعركة عند الظهر واستمرت لأكثر من ساعتين وتفوق السويديون على خصومهم نتيجة لإطلاق مدافعهم ٣ طلقات بينما يطلق العدو طلقة واحدة . وأخيراً ، انهارت قوة احتمال الفرسان الإمبراطورية الموجودة فى اليسار تحت

(١) ٠٠٠و٣٠ رجل مشاة و٠٠٠و١٠ فارس

(٢) كان لدى السويديون ٥٤ مدفعا بينما كان لدى عدوهم ٢٦ مدفعا .

« المعرب »

وطأة نيران المدافع السويدية لدرجة أن بابنهايم قائد هذا الجانب لم يستطع البقاء أكثر من ذلك فى مكانه ، وبدون أى أوامر من « تيلى » تحرك ومعه ٥٠٠٠ مقاتل إلى مسافة أبعد قليلا إلى اليسار ، ثم قام بهجوم على الجناح السويدى الأيمن .

ووجد جوستاف فرصة قيمة لإظهار وتطبيق مادرب به قواته على المناورة وخفة الحركة ، وبسرعة دفع الفرسان الأحتياطية لتشكيل زاوية قائمة مع الخط الأمامى . وبعد سبع هجمات على هذا المعقل المكون من خليط من الفرسان وحملة المسكيت تبعثرت وتحطمت فرسان بابنهايم المدرعة .

وعندئذ قام « بانر » بهجوم مضاد دفع به الجناح الأيسر من فرسان الإمبراطور إلى خارج الميدان .

وفى نفس الوقت كان الموقف فى الجناح الأيمن على عكس ما عليه فى الجناح الأيسر لقوات « تيلى » ، فقد قامت الفرسان على الجناح الإمبراطورى الأيمن بقيادة « فورستنبرج » بهجوم ، وفى خلال نصف ساعة أجبرت الساكسون على الفرار . ونتيجة لذلك أصبح اليسار السويدى مكشوفا علاوة على نقص عددهم . وكان « تيلى » يسيطر على جيشه بجهد جهيد ، أما الآن فقد أدرك الفرصة المواتية التى ظهرت أمامه . وبعد أن لاحظ أن يمينه قد تخطى ليسار العدو الذى ضعف بهرب الساكسون ، فقد أمره بالألتفاف حول السويديين ومهاجمة مؤخرتهم ، بينما تحركت مشاته الموجودة فى المنتصف لمهاجمة الجنب الأيسر السويدى. ولكن مع بداية هذه المناورة الضخمة ، أظهر جوستاف إمكانه القيام برد فعل ناجح فى معركة متقلبة ومتطورة على الأقل بنفس ما يقوم به « تيلى » ، كما كان تشكيله المترابط والمنظم يفوق بدون شك حشود عدوه .

وعلى الفور أصدر جوستاف أوامره إلى « هودن » بأن يلتف يساراً لمواجهة الجبهة الجديدة التى أقامها « تيلى » ، وفى نفس الوقت جاب جوستاف لوائين من المشاة من المنتصف لتدعيم اليسار .

ولما كانت وحدات جوستاف الأصغر لديها قدرة على المناورة وخفة الحركة أكبر بكثير من المربعات الإمبراطورية ، لذلك فقد خسر تيلى ما ظنه فى لحظة مكسباً أكيداً .

وقد وصف مونرو[1] كيف دار القتال : — « وقفت مجموعات العدو بثبات تنظر إلينا من مسافة قريبة ، وشاهدت لوائنا الآخر وهو يلتف ويتخذ مواجهته ضدهم ، واستعدوا فى تصميم لأستقبالنا بقصفه من المدفعية والمسكيت . ولـكن بتقدير ألهى أطلقت عليهم النيران مرتين قبل أن يعكروا صفونا . وأمطرهم جنودنا بوابل من نيران المسكيت والتى قوبلت بالرد بالمثل ، ولـكن ذلك لم يستطع أن يوقف تقدم لواؤنا داخل صفوفهم والتى كانت تتساقط تحت طعنات حملة المنخاس » .

قتل جوستاف (أنظر اللوحة رقم ٢٤ ، ٢٦)

وكانت هذه أصعب وأقصى مرحلة فى القتال ، وتأرجحت نتيجة المعركة حسب سيرها ، وقرر جوستاف المخاطرة بـكل شىء وتوجيه ضربة حاسمة . فقد أصبح جناحه الأيمن آمنا الآن بعد هزيمة بابنهايم ، فعلى الفور جلب جوستاف من هذا الجناح ٤ آلايات من الفرسان وقادهم بنفسه فى هجوم عظيم فى اتجاه أعلى المنحدر أى فى اتجاه مدفعية العدو. وا كتسح جوستاف المدفعية الإمبراطورية ثم أنطلق من خلالها حول اليسار الإمبراطورى. وأستخدم « تورستنسن » المدفعية الإمبراطورية بعد أسرها ضد القوات الإمبراطورية وبالتالى صب عليهم نيرانا مركزة من اليمين ومن المدافع السويدية التى فى المنتصف . وبينما كان يجرى هذا أستمر هجوم اليسار السويدى ضد منتصف « تيلى » . وقد أستمر الحشد الملتصق من المشاة الإمبراطورية تقاتل فى شجاعة بالرغم من الهجوم عليها من المواجهة واليسار بالمدفعية والمشاة والفرسان السويدية ولـكن فى النهاية تحطم وهزم جيش « تيلى » . ولم يطاردهم السويديون طويلا ، وقد بلغت الخسائر النهائية لجيش « تيلى » ١٣٫٠٠٠ جندى علاوة على فقده كل مدفعيته وقوافل أمتعته.

ولقد كانت معركة بريتنفيلد ذات مغزى سياسى كما كانت لها مغزى عسكرى أيضاً ، فقد أنقذت هذه المعركة شمال وغرب ألمانيا من السيطرة الهبسورجية والـكاثوليـكية . ولم يتابع جوستاف نصره بالتقدم إلى فينا عاصمة الإمبراطورية البعيدة حيث كان عليه أن يمر من خلال بلاد تحف بالمخاطر . وقام جوستاف بدلا من ذلك بتعزيز موقفه بالقرب من وطنـــه وذلك بأحتلاله لمنطقة الراين وتمـكن بالتالى من قطع الأتصال الأسبانى مع الأراضى الواطئة وكبح

---

(١) القائد الاسكتلندى لأحد الألوية السويدية التى جلبت من المنتصف لتدعيم اليسار « المعرب »

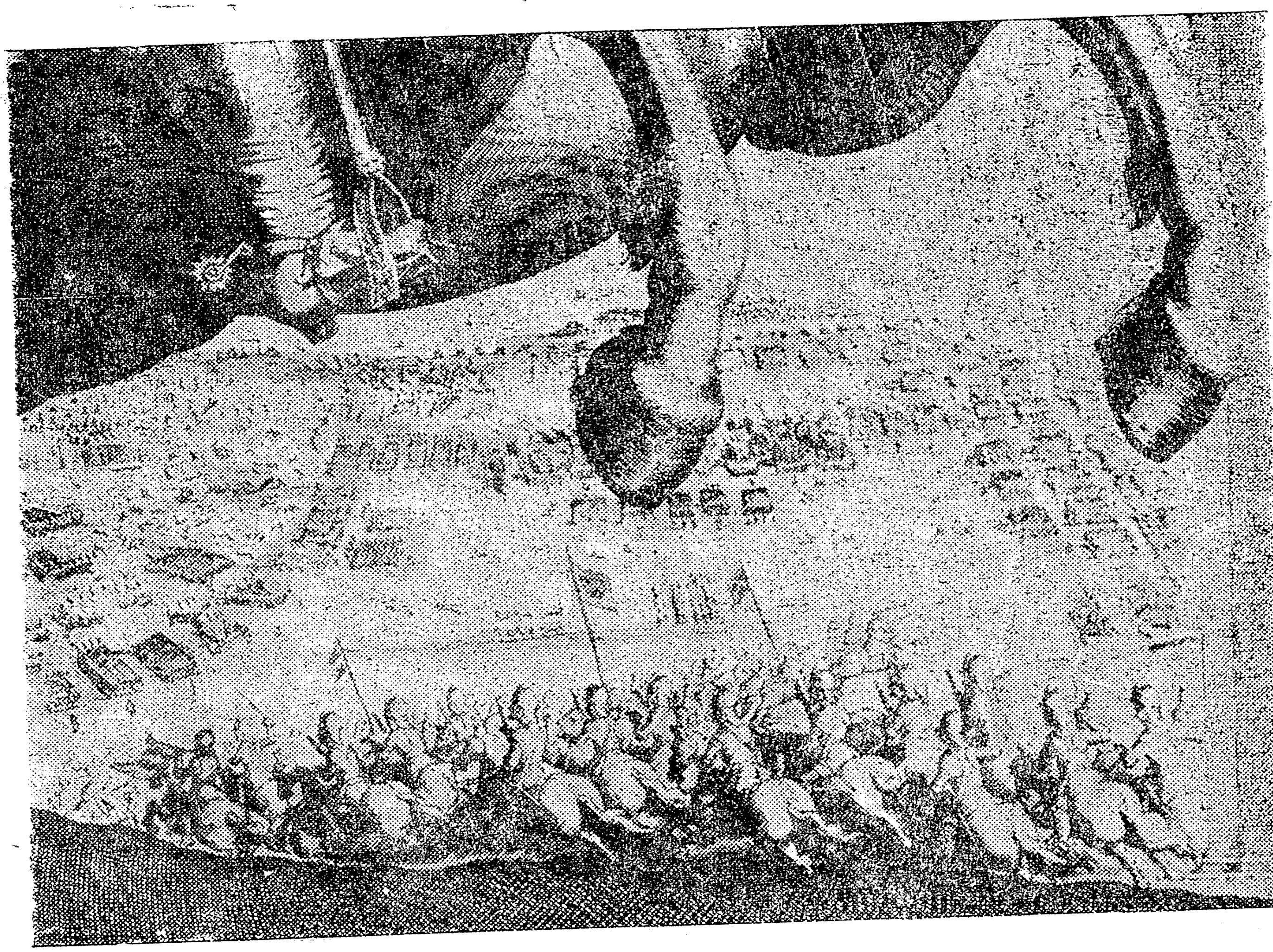

فرسان جوستاف تقــوم بالهجوم فى معركة بريتنفيلد

خطط ريشيليو . وما أن حل ربيع عام ١٦٣٢ حتي كان تيلي قد كون جيشاً جديداً وباغة جوستاف عند نهر ليش بجيش منظم تنظيما ذكياً ، وفى عبقرية حشد جوستاف قواته واستطاع أن يستر عملية العبور للنهر . وفى المعركة التى تلت دمر جيش تيلي وقتل تيلي نفسه . وبعد ذلك تقدم جوستاف إلى جنوب نهر الدانوب . وقد ذعر «فرديناند» وأستدعى « والنشتين». وأستطاع والنشتين دفع السويديين إلى الخلف قرب مدينة ليبزج . وهناك حقق جوستاف بالجيش السويدى نصره العظيم الثانى ، وذلك فى معركة عند « لوتزن » والتى دارت بينه وبين جيش والنشتين فى نوفمبر ١٦٣٢ . ولـكن كان نصراً سلبياً نتيجة لقتل جوستاف فى هذه المعركة .

وقد قام جوستاف بأعمال كثيرة خلال مجرى حياته والتى بدأت فى نفس عمر الأسكندر ولم تدم إلا وقتاً قصيراً ، ولـكن أقل ما توصف بها هو أنها كانت مثيرة ومذهلة ومؤثرة .

فجوستاف هو مؤسس التنظيم العسكرى الحديث وبشكل خاص فيما يتعلق بنظام التجنيد والأمداد وكذا التدريب الحربى الحديث . كما أنشأ التسلسل القيادى الكامل للضباط وأيضاً تعليمات المعركة . وقد يكون هناك آخرون من أصحاب العبقريات الإستراتيجية أو الوسائل التكتيكية الماهرة إلا أن جوستاف قد دخل التاريخ كأعظم صانع للجيش فى عصره . فقد كان يشكل السلاح طبقاً لما يريده ثم يستخدمه فى المعركة بمنتهى الكفاءة كما رأينا . وكان جيشه بتشكيله الخطى المكون من وحدات صغيرة مسلحة بأسلحة مختلطة ، يعتبر أول جيش فى عصر الأسلحة النارية يجمع بين التأمين والهجوم الناجح ، أى يجمع بين القوة للحماية مع القدرة على الحركة وأيضاً القوة فى الضرب .

وقد سار تطور الجيوش الأوروبية الحديثة وبطريقة مباشرة مع أسلوب وتنظيم الجيش السويدى الذى خلقه جوستاف .

اغتيال والنشتين

وبالرغم من هزيمة « والنشتين » فى معركة لوتزن إلا أنه أصبح الآن أقوى رجل فى شمال أوروبا ، ويعتبر والنشتين شخصية غاية فى الإثارة ، فقد أستطاع كسب عطف الإمبراطور والحصول على لقب « دوق » ، بالرغم من أصله المتواضع بفضل علاقات غرامية سرية قوية ، وطموحه الضخم وموهبته الطبيعية فى أنتهاز الفرص . وفى أوائل الحرب عندما كانت الأمور يشوبها السوء بالنسبة لفرديناند ، عرض والنشتين عليه أن ينشأ ويجهز له وبدون تكاليف جيشاً من ٥٠٠٠٠ جندى ليكون فى خدمة فرديناند وفى وقت قليل أستطاع والنشتين جمع الجيش الذى وعد به من المرتزقة نتيجة لسمعته العسكرية الطيبة التى حصل عليها فى جنوب شرق أوروبا وأيضاً لمعرفة الناس بأنه اقطاعى كريم . وفى عام ١٦٢٧ تمكن والنشتين واقعياً من نزع سلاح البروتستانت فى شمال ألمانيا واكتسح البلاد حتى البلطيق .

وعندئذ رأى أن هناك أحتمال دخول السويد الحرب ولم يسىء تقدير قوتها . وقد حاول بناء أسطول أمبراطورى فى البلطيق وهذا يدل على ما يتمتع به من بصيرة أستراتيجية ممتازة . وكان هذا هو التهديد الذى واجه جوستاف عند نزوله فى ألمانيا بأسطوله الصغير فى

صيف عام ١٦٣٠ . وبالتالى لم يكن طرد فرديناند لوالنشتين فى ذلك الوقت إلا « ضربة حظ » رائعة للسويديين .

وقد قبل والنشتين طرده بدون أى تبرم . وعاد إلى إدارة ممتلكاته وإدخال الحضارة إلى « مولدافيا » . وفى أثناء ذلك أرسل لفرديناند خطة ترمى إلى عقد تحالف مع الدانمرك لتوجيه ضربة من البحر إلى قاعدة جوستاف ، ولكن فرديناند رفض هذه الخطة . وظل والنشتين ينتظر الفرصة الملائمة . ومع حلول عام ١٦٣٢ كان فرديناند قد فقد كل ما كسبه والنشتين لصالح الأمبراطورية ، وعليه فقد أستدعاه فرديناند للخدمة . وللمرة الثانية أنشأ والنشتين جيشاً من ٤٠٫٠٠٠ رجل على نفقته الخاصة ، ولكنه أصر فى هذه المرة على أن تكون له القيادة العليا لجميع قوات الأمبراطورية أى حتى أعلى من الإمبراطور نفسه . وقد كانت حملة والنشتين فى « لوتزن » عملية أستراتيجية بارعة . ففى صيف ١٦٣٢ كان السويديون يحتلون « بافاريا » والساكسون يحتلون « بوهيميا » ولم يوجه والنشتين ضربة مباشرة إلى عدوه الرئيسى ولكنه ركز أولا على تسديد ضربة للساكسون . وتمكن من طردهم من بوهيميا كما أجبر أميرها على الإنضمام إلى الجانب الأمبراطورى . وبعد أن حرم والنشتين جوستاف من حليفه الرئيسى لم يهاجمه بل تحرك شمالا مهدداً خطوط المواصلات السويدية فأجبر جوستاف على مغادرة بافاريا وفى أعقابه مكسميليان[1] لتتبع والنشتين . وعند « نورمبرج » أتخذ الجيشان مواقع دفاعية قوية فى مواجهة بعضهما . حيث يسعى كل منهما إلى تجويع خصمه . حاول جوستاف الدخول فى معركة مع والنشتين الذى رفض الأشتباك وفى النهاية قام جوستاف بهجوم كثيف على مواقع العدو بالرغم من نقص الإمدادات القاتل. وصد هذا الهجوم وانسحب جوستاف تحت وطأة جوع قواته وقوة إرادة والنشتين .

وقد علق والنشتين على هذا الإنسحاب بقوله : « لقد تثلمت قرون الملك (جوستاف) وفقدت حدتها » . وتحرك جوستاف جنوبا إلى الدانوب ، ولكن تجددت المعركة بين الإرادتين ، ومرة أخرى كسبها والنشتين . وتحول والنشتين شمالا وتقدم إلى ساكسونيا وبدا أنه سيهدد خطوط مواصلات جوستاف على البلطيق . ونجحت الخطة وسحب

(١) حاكم بافاريا

والنشتين مرة أخرى جوستاف من الأراضى الأمبراطورية . ولكن جوستاف عوض فشله بإجبار والنشتين على الدخول معه فى معركه عند « لوتزن » فى وقت كان لا يتوقعه والنشتين .

ومع حلول عام ١٦٣٣ أعاد والنشتين بناء جيشه معوضاً خسائره فى « لوتزن » ، وبدا وكأنه سيحصل على نصر مؤكد للامبراطوريين . وهزم والنشتين السويديين عند «ستمينو» وأصبح على وشك عزلهم تماما عن البلطيق ، ولكن فرديناند أستدعاه فى غضب لحماية الجنوب . وفى عام ١٦٣٤ طرد فرديناند والنشتين مرة ثانيه خوفاً من أن تطغى شخصيته عليه بالإضافة إلى الغيرة لنجاحه والريبة فى شخصيته التى تشبه اللغز . ولم يمض بعدها وقتاً طويلا حتى أغتيل والنشتين . وليس من السهل تقييم والنشتين ، فقد كان ضعيفاً فى الناحية التكتيكية ، وبالرغم من أنه كان منظماً عسكرياً جيداً إلا أنه لم يكن بدرجة جوستاف . ولكنه كان إستراتيجياً قديراً للغاية ، وكان لديه هدفاً سياسياً واضحاً وهو الحصول على السلام الدائم .

وربما كان والنشتين أقل فائدة إذا درسناه كجندى عنه إذا ما درسناه كشخصية مغامرة وبدرجة ملفتة للنظر سواء فى الناحية العسكرية أو السياسية . ولا شك أن الأمر كان يتطلب شخصية قوية تستطيع التفوق على دهاء جوستاف وحنكته وفى نفس الوقت لتجذب فى سهولة آلاف من الرجال لتتبعه وتجعل الأمبراطور الرومانى المقدس يقبل تعاقداً مهيناً . وقد استطاع والنشتين عمل كل هذا ، كما قال ريشيليو : — « إن مجرد وجوده وصرامته بالإضافة إلى صمته جعل الرجال يطيعونه » . وقد ذهب إلى الحرب لجمع المال ونجح فى ذلك حتى أنه أصبح ملكا من ملوك المال وزعيما حزبياً قوياً ، وكان مثالى فى تطبيق فكرة التسامح الدينى علاوة على أنه سعى إلى توحيد ألمانيا .

وكان يعتقد أيضاً فى نجمه وحسن طالعه ، وربما كان هذا الخط المنحرف الخيالى هو الذى دمره فى النهاية .

نهاية حرب الثلاثين عاما

وربما إذا كان قد عاش والنشتين أو جوستاف كانا قد نهيا الحرب بسرعة وبطريقة أو بأخرى .

ولكن لم يكن ريشيليو أو مازرين(١) يستطيعا الوصول إلى هذه النهاية قبل أن تتمكن فرنسا من السيطرة على الضفة اليسرى لنهر الراين . وبعد موت والنشتين تأرجحت عجلة الحظ ، ولكن منذ ١٦٣٩ أستطاعت كل من فرنسا والسويد الحصول تدريجيا على الأفضلية على النمسا وأسبانيا . وبالرغم من أن فرنسا لم تشتبك فى حرب منذ أيام هنرى الرابع إلا أنها منذ عام ١٦٤٣ أصبح لها جيشاً عصرياً على يد « ليتيلير » وزير الحرب ، مسايراً الكفاءة التى تسير بها باقى خطوط الدولة .

إلا أن فى عام ١٦٤٣ بدد دوق « كوندى »(٢) ما تبقى من الهيبة الأسبانية العسكرية محققاً فى نفس الوقت مكسباً أستراتيجياً عظيما وذلك بانتصاره عند « روكروا » بالقرب من « سيدان » فى منطقة الآردن الغربية . وقد واصل الجنود الفرنسيين تحت قيادة « كوندية » فى تعلم التكتيكات الجديدة فى مجال كل من النيران والحركة . وتوفر لفرنسا قائداً ممتازاً آخر وهو « تورين » .

وقد أكملت قدرته كاستراتيجى بارع ، عبقرية كونديه التكتيكية . وظل الجيش السويدى أيضاً قوياً للغاية والذى يقوده « تورستنسن » والذى كسب نصراً هاما عند « جانكاو » فى عام ١٦٤٥ . وبعد مفاوضات طويلة ومعارك عديدة ، وضعت حرب الثلاثين عاما أوزارها بمعاهدة ويستفاليا عام ١٦٤٨ .

وعندما تحقق السلام فيمكن أن يقال أن فرنسا هى التى خرجت من الحرب بنصيب الأسد ، فقد أصبحت حدودها ثابتة وتمتد على طول البرانس وجزء من الراين ، كما أصبح جيشها من أقوى جيوش أوروبا. وبرزت أيضا كل من السويد وبراندبرج كقوتين كبيرتين. ومنذ ذلك الوقت وأصبح تاريخ ألمانيا السياسى والعسكرى هو تاريخ دويلاتها المتقدمة ،

(١) الذى خلف ريشيليو فى عام ١٦٤٢ .

(٢) كان يعرف بدوق دانجيان وكان عمره ٢١ عاما « المعرب »

وأصبح الأمبراطور الرومانى المقدس لايسيطر عمليا إلا على النمسا . كما حول الهيبسبورجيون انتباههم فى السنوات التالية وبدرجة متزايدة نحو الشرق معوضين أنفسهم عما أصابهم من انهيار فى أوروبا الغربية وذلك على حساب الأمبراطورية العثمانية المتداعية .

وربما يكون أسوأ عاقبة لحرب الثلاثين عاما هو مصير أهل ألمانيا . فقد دارت على أرضها المعارك بين الجيوش الكبيرة المتعادية ، وكان النهب والتدمير لمدة ثلاثين عاما ضرورة إدارية ، فلم يكن لدى الجيوش القدرة الإدارية التى تستطيع بها مجاراة نوايا قادتها بالرغم من مجهودات جوستاف ووالنشتين . وحتى قبل أن تبدأ هذه الحرب تنبأ « هيوجوتيوز » بهذا الموقف مسبقاً . وقد كتب كتابا قدم فيه مجموعة من القواعد والمبادىء التى تصلح لتكون إتفاقاً دولياً ، وكان الغرض منها تخفيف ويلات الحرب بعض الشيء . ولكن كان حتى حدود التصرفات التى اقترحها مرعبة إلى حد كبير . وكمثال فقد قبل قتل أسرى الحرب والمدنيين . كما لاحظ أن الحياة الإنسانية قد اتخذت اتجاهاً « بغيضاً ووحشياً وقصيراً » ولم تكن العاطفة الدينية ضرورية كعامل مؤثر إنسانى كما كان يأمل جوستاف . ولم يصلح أى عقاب روحى يمكن أن يسود فى مواجهة الضروريات السياسية والإدارية . ويمكن أن نصور فى حالة فردية فظائع هذه الحرب عندما أحرقت « مجدبورج » وبها ٣٠٫٠٠٠ شخص حتى الموت . ولكن إذا جمعنا فظائع حرب الثلاثين عاما لوجدناها أسوأ كثيراً من ذلك فقد مات ٨ مليون شخص فى ألمانيا ، بينما بقى فى بوهيميا حوالى ٦٠٠٠ قرية فقط من مجموع ٣٥٫٠٠٠ قرية ، وقد قاست المناطق الغنية أكثر من المناطق الفقيرة . وحقيقة بقيت البروتستنتينية الألمانية ، ولكن قاست الحضارة الألمانية فى نواحى أخرى بعمق بل وربما دمرت تماما .

أما أنجلترا ، فلحسن الحظ ، بقيت بقدر الأمكان بمنأى عن حرب الثلاثين عاماً . .

ولكن فى أغسطس ١٦٤٢ بدأت فيها الحرب الأهلية . فكان يوجد خلاف قديم بين الملك شارل الأول وبين بعض القطاعات المعينة من الأثرياء والبارزين من رعاياه . ومنها مجموعات البيروتنية(١) والبرلمانيين(٢) . وقد تطور الأمر وظهر لشارل أن معظم مؤيديه من

(١) كانوا يطالبون بحرية العقيدة وبأن تصبح كنيسة الدولة أقل كاثوليكية فى ميولها .

(٢) كانوا يطالبون بحريات عامة أكثر وبطريقة حكم أكثر كفاءة من حكم شارل المطلق السيء .

« المعرب »

المناطق البعيدة عن لندن ، أما مؤيدوا الثورة الكبرى فكان معظمهم فى المراكز الصناعية والموانى وخاصة لندن . ولم ينحاز غالبية الشعب الإنجليزى إلى أى الطرفين مقدماً . واعتبر كلا الجانبين أن السيطرة على لندن هى مفتاح النصر . وفى مستهل الحرب لم يتمكن أى منهما من تكوين أكثر من حفنة من القوات ذات النوعية الجيدة . وتوفر للبرلمانيين ميزة فى مواردهم المالية والتى أستمرت طوال الصراع ، أما الملكيين فكانت لهم ميزة كبيرة فى وجود فرسان يقودها « روبرت » أمير الراين ، ولكن سرعان ما ضاعت هذه الميزة لإرتفاع مكانة « أوليفر كرومويل » .

عاهرة بابل الصغيرة (أنظر اللوحة رقم ٢٧)

وكان كرومويل من ملاك الأرض فى شرق أنجليا .

كرومويل

وفى عام ١٦٤٢ كان عمره ٤٣ سنة وبالرغم من ذلك لم يشغل منصباً قياديا فى البرلمان أو حتى لديه خبرة عسكرية سابقة. وكان كرومويل بيروتانيا نشيطا ، حاد المزاج لا يتردد فى أبداء رأيه بصراحة وبشكل مباشر . وقد أنضم إلى جانب البرلمانيين كقائداً للفرسان . وحضر القتال عند « أدجهيل » فى أكتوبر ١٦٤٢ . وأدت تجربته فى هذه المعركة الدموية ذات التخطيط الأحمق إلى سخطه مع الإستغراق فى تفكير عميق . وقد رأى كرومويل ضرورة إنشاء البرلمان قوة من الفرسان لتكون قادرة على هزيمة فرسان الملك .

وكان روبرت يسير على نهج جوستاف فى أحلال هجوم الفرسان بالسيف كالسلاح الرئيسى محل مناورة الفرسان المسلحة بالمسدسات والمعروفة باسم « النصف دورة » كما كان روبرت نفسه قائداً ممتازاً وشجاعا ، عنيداً جامحاً . وقد عرف بمعطفه القرمزى الكثير لزخرفة وجواده الأسود وقرده المدلل والذى سماه البيروتانيون « عاهرة بابل الصغيرة » .

ونتيجة لتفكير كروموبل أنشأ فى شتاء عامى ١٦٤٢ ، ١٦٤٣ فى شرق أنجليا آلايا من الفرسان . وقد أختار كروموبل أفراد هذا الآلاى بعناية فائقة فكان يقول : « لن يصلح لجنود هذا الآلاى الفاسدون والسكارى ولا من يطلق عليهم أسم الجنتلمان » وكان مبدأه يتضمن : — « قليل من الرجال المخلصين أفضل من مجرد الأعداد الكبيرة ومن الأفضل أن يرتدى القائد معطف بسيط غير مزخرف فى نفس الوقت يعرف ويؤمن بالهدف الذى يقاتل من أجله ، ويكرس حبه وإخلاصه لكل ما يتعلمه » .

وكان الدين أساس الضبط والربط ، أما التدريب فكان صارماً وقاسياً . وسلحت رجاله بالسيف والقربينة[1] وزوج من المسدسات ، وكانوا مدربين على كيفية إستخدام هذه الأسلحة بمهارة باهرة ، أما دروعهم الوقائية فكانت عبارة عن لوحة معدنية للصدر وأخرى للظهر وخوذة ومعطف من جلد الجاموس ، وكانت تدفع لهم الأجور بانتظام . كما حوفظ على الضبط والربط وفى صرامة متناهية ، وكانت عقوبة النهب قاسية . وفى مايو ١٦٤٣ دخل الآلاى أولى تجاربه فى صدام دام مع الجيش الملكى عند جرانتام . وقد عبر عنها كروموبل بقوله : —

« هبطنا عليهم مندفعين ، بينما وقفوا بصلابة لأستقبالنا ، ولكن رجالنا أنقضوا عليهم بعنف وقد هزمناهم على الفور بفضل ما حالفنا من العناية الإلهية » .

وبعدها كتب كروموبل إلى صديق يقول له : — « إن لدى صحبة محببة لنفسى من المسيحيين المخلصين المتزنين وهم بحق جنود ممتازين » .

وفى أحدى المرات ذكر لى السير ونستون تشرشل بأننى شخصية كرومولية لأننى على حد قوله : —

« أننى أسعى دائماً إلى شيئين . . . تمجيد الله . . واستخدام الذخيرة » .

أما الإختبار الحقيقى لفرسان كروموبل « ذو الأجناب الحديدية » (وقد سموا بهذا الإسم فى يولية عام ١٦٤٤) عند « مارستون مور » ، ولم تكد المعركة تبدأ حتى اكتسح روبرت بهجومه ثلاثة أرباع جيش كروموبل وأطاح بهم خارج ميدان القتال ، وقام بمطاردتهم

(١) طولها حوالى ٢ ½ قدم

لمسافة كبيرة ، أما ربع الجيش البرلمانى الذى ثبت كان من ضمنه الآلاى الذى شكله كرومويل وتقدم هذا الآلاى ليهاجم والركبة فى الركبة وبسرعة مناسبة وليس فى اندفاع متهور بينما لم يمسك الصف الأمامى بنيرانه إلا فى اللحظات الأخيرة ، وفى هذه اللحظة أنقض الآلاى على جناح المشاة الملكية محطماً إياه بعد قتال ضارى طويل . وإذا كان روبرت هو الذى أدخل تكتيكات الفرسان السويدية إلى إنجلترا ، فكرومويل هو الذى استطاع وضعها فى أفضل استخدام .

والآن فقد ذاعت شهرة كرومويل سواء كمدرب أو كقائد للفرسان ، بينما حالت المكائد ومظاهر التردد من أن يستغل البرلمانيين النصر عند « مارستون مور » حتى نهاية الحرب . ولكن فى الشتاء التالى استطاع كرومويل إقناع البرلمان باصلاح الجيش . وأصبح « فيرفاكس » وليس كرومويل ، قائداً للجيش النظامى الجديد ، الذى شكل على غرار النظام الذى وضعه كرومويل فى شرق أنجليا .

وفى ذلك الجيش الجديد تكونت الفرسان من ١١ آلاى وضم كل آلاى ٦٠٠ فارس مسلح ومدرب ومجهز على نفس طريقة « الأجناب الحديدية » فيما عدا القربينة التى نبذ أستخدامها بشكل عام . وكان هناك آلاى واحد من الدراجون وقوتهم ١٠٠٠ مقاتل ومسلحين بالمسكيت والسيف ، واستخدموا الخيل للانتقال أو لأعمال المناوشة ، ولكن كانوا يقاتلون عادة وهم مترجلين .

أما قوات المشاة فتكونت من ١٢ آلاى ، وبلغت قوة كل آلاى أكثر من ١٠٠٠ رجل ، وكانت نسبة حملة المسكيت[1] إلى حملة المنخاس فى الآلاى نسبة ٢:١ . وقد أستبدل الفتيل كطريقة للأشعال بالزناد الدولابى الدوار الذى يشتعل باحتكاك حجر الصوان بلوحة معدنية الأمر الذى ينتج لهباً . وأصبح هذا السلاح أكثر شيوعاً لرخصه وأمنه وضمانه . ووصل مدى المسكيت إلى ٤٠٠ ياردة ولكنها إستخدمت فى المعركة على مسافات أقصر من ذلك . وفى الجيش الجديد لم يرتد حملة المسكيت أى دروع للوقاية بل أرتدوا معاطف حمراء

---

(١) كانت المسكت المستخدمة من النوع الجديد أى القصير والخفيف « المعرب »

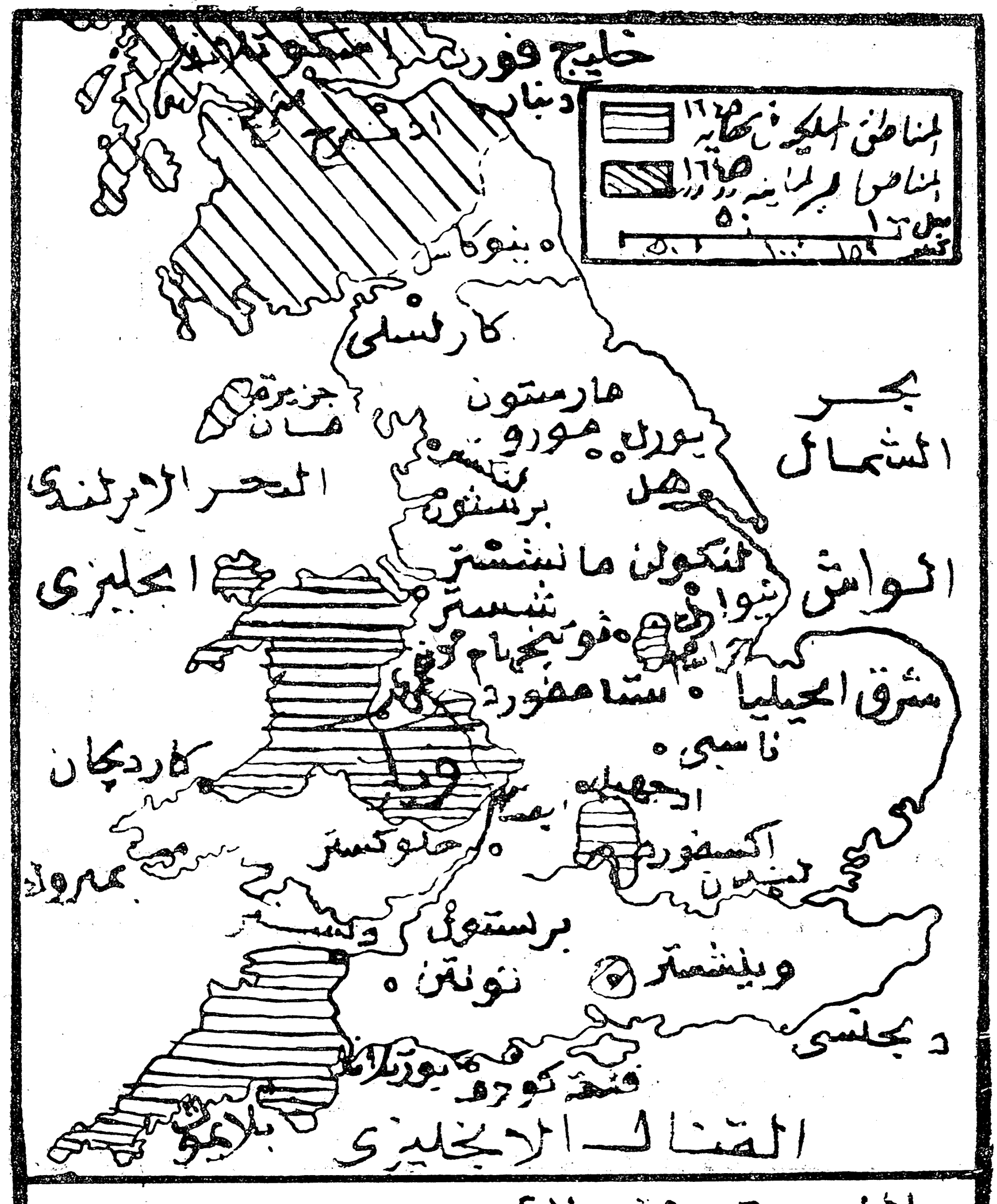

اللوحة رقم ٢٧
انجلترا في نهاية الحرب الأهلية

وأصبح الزى الرسمى حتى نهاية القرن ١٩ . ونبذ إستخدام الخوذة المعدنية وحل محلها قبعة من اللباد عريضة الحافة .

وأصبح حملة المنخاس مسئولين عن الدفاع عن حملة المسكيت وكانوا يستخدمون منخاسا طوله ١٦ قدماً وذو رأس على شكل معين، وتزودوا أيضاً بسيوف ودروع وقائية ثقيلة . وكان يقاتل مشاة « الجيش الجديد » فى تشكيل خطى بعمق ٦ صفوف . أما بالنسبة لتنظيم المدفعية فكان هناك أربع فئات لمدافع الميدان ، وتتراوح هذه الفئات من « الكولفيرن » والذى يقذف كرة زنتها ١٨ رطلا لمدى يصل إلى ٢٠٠٠ خطوة بواقع مرة فى كل ستة دقائق إلى « الدريك » والذى كان زنة كرة المقذوف ٣ أرطال بواقع مرة فى كل أربع دقائق . ومن الأرجح أن مدفعية الميدان الإنجليزية كانت أقل فى خفة الحركة ولكن أكثر دقة من مثيلتها السويدية. وقد تم تشكيل وحدات لديها معدات قوية للحصار . وكان طاقم المدفع يتكون من المدفعجى و ٢ مساعدين يتولون أمر البارود والقذيفة .

الملك الهازم لنفسه (أنظر اللوحة رقم ٢٧)

كانت سلطة القائد العام فى الجيش البرلمانى مطلقة ، كما كان الترقى للضباط بالأقدمية بينما يرفت غير الصالحين منهم وبدون رحمة . وكانت هذه الفترة هى الوحيدة من نوعها فى الجيش البريطانى لما قبل نهاية القرن ١٩ حيث كان من الممكن أن يترقى رجل ممتاز ومن أصل متواضع إلى رتبة الضباط . وكان التطوع هو أساس نظام التجنيد بشكل عام . وكان المسئول عن التدريب « سكيبون » ، بينما أحتفظ الضبط والربط بطابعه الدينى ، وكان منصب « رئيس إستطلاع الجيش » أو « مدير المخابرات » من المناصب الكبيرة فى الجيش ، كما اعتبرت الإدارة الحكيمة من الأهمية بمكان وفى المرتبة الأولى . فقد أصبح وليام كلارك والذى بدأ كسكرتير للجنرال مونك ، سكرتيراً لشئون الحرب (١) حتى بعد عودة الملك إلى عرشه نتيجة لعدم أمكان الإستغناء عنه فى توجيه إدارة الجيش .

وفى يونيه عام ١٦٤٥ تمكن الجيش الجديد من هزيمة الملكيين عند « نسبى » ، وكان أسلوب المعركة تكراراً لما حدث فى « مارستون مور » . ففى أول الأمر إكتسح روبرت

---

(١) وهو المركز الذى تطور فيما بعد وأصبح وزارة الحرب « المعرب »

الميدان ولكن كرومريل صمد فى موقعه لما كان يجيش فى نفسه من حماس دينى ، ثم هاجم فى اللحظة المناسبة محتفظاً بسيطرته على جنوده حتى النهاية . .

ونخرج من «مارستون مور» و « نسبى » بأن كرومويل قائد ممتاز للفرسان . ويرجع ظهوره كقائد ناجح إلى الفترة التى تلت هزيمة شارل الأول ، أى فى الفترة التى إستمر فيها القتال ضد الإسكتلنديين والملكيين وكان فيها كرومويل قائداً عاما .

وفى عام ١٦٤٨ عند« برستون » أستطاع كرومويل أن يهزم عدواً أكبر عدداً ولكنه غير مستعد وتقوده قيادة هزيلة . وإذا كانت هناك مظاهر جديرة بالملاحظة فى هذه المعركة ، فهى مظاهر حدثت قبل المعركة وبعدها . فقبل المعركة قطع كرومويل ٢٥٠ ميلا خلال أرض صعبة وطقس سىء فى ٢٦ يوماً بغرض مفاجأة العدو قبل أن ينظم صفوفه . وبعد أن هزم كرومويل عدوه قام بمطاردته بدون هوادة حتى يتأكد أنهم لن يستطيعوا إعادة تنظيم أنفسهم كجيش مقاتل مرة أخرى .

وفى عام ١٦٥٠ عند « دنبار » فاجأ العدو كرومويل وهو فى موقف لا يحسد عليه ، فقد حاصرته قوات العدو بقيادة قائد قدير هو « ليسلى » فى وادى يطوقه البحر وكانت قوات « ليسلى » تفوق جيش كرومويل بنسبة ٢ : ١ . وبدأ الضعف يتسلل إلى معنويات رجال كرومويل تحت وطأة الطقس الردىء والتكتيكات الغابية[1] ، ولكن كان ليسلى مشا كله هو أيضاً ممثلة فى الطقس وعقول رجال الكنيسة الغير عسكرية والذين ألحوا عليه طوال الوقت بالهبوط ومهاجمة كرومويل . ورضخ ليسلى لرغبتهم وترك موقعه أعلى التل وتحرك بجيشه إلى أسفل منتشراً على شكل قوس يمتد ٣ ميل من سفح التل إلى البحر . وهنا أدرك كرومويل أن هذا التحول من جانب ليسلى قد أعطاه الفرصة لكى يهاجم ويشق طريقه قتالا إلى خارج الوادى .

وأصبح الجيش الأسكتلندى هدفاً معرضاً وممتداً بدون نظام ، وهذا ساعد الجيش الإنجليزى المنظم والأكثر إحكاماً على مفاجأة جناح العدو الأيمن الأقرب إلى البحر بالهجوم ثم الدوران بعدها إلى الداخل موجهاً ضربته إلى المنتصف . وكانت هذه هى خطة كرومويل.

---

(١) التكتيكات التى تتجنب الأشتباك بقدر الأمكان . « المعرب »

وقد أمضى الجيش الأسكتلندى الذى لم يتوقع حدوث أى شىء فى ليلة عاصفة ، فاطمأن ولم يستعد للمعركة .

وعند الفجر انقضت عليهم مقدمة(١) الجيش الإنجليزى ولمدة دقيقة أو دقيقتين لم يكن بمقدور الأسكتلنديون حتى الرد على النيران الإنجليزية نتيجة لعدم اشتعال فتائل بنادقهم وتبع هذه الفترة قتالا عنيفاً وصدت أول موجتين للمشاة الإنجليزية ، وعندئذ دفع كرومويل باحتياطيه إلى ميدان المعركة ، وقد وصلوا فى الوقت المناسب لحسم المعركة . وعلق شاهد عيان قائلا : — « لم أشهد قط هجوماً رهيباً للمشاة مثلما رأيت » . ثم هاجمت الفرسان الإنجليزية وأصبح الأسكتلنديون كما وصفهم كرومويل : — « لقد جعلهم رب الجنود كالجذامة(٢) أمام سيوفهم » . وانتهت المعركة فى غضون الساعة ، وقتل ٣٠٠٠ اسكتلندى بينما أسر ١٠٫٠٠٠ آخرين ، واستولى الإنجليز على ١٥٫٠٠٠ قطعة سلاح وجدت فى أرض المعركة .

وقد تم هذا النصر نتيجة لعملية المفاجأة التى حسبت بعبقرية ، فقد كان انتصاراً للأعصاب الأقوى والضبط والربط الأعلى .

وربما يكون من أعظم مآثر كرومويل العسكرية والتى لفتت الأنظار ، تلك الإستراتيجة التى قادت إلى معركة « وركستر » عام ١٦٥١ .

ففى يونيه من ذلك العام عثر كرومويل على ليسلى ومعه قوة كبيرة من الأسكتلنديين المتمركزين بقوة فى التلال الواقعة جنوب « ستيرلنج » وكان كرومويل تواقا لاستدراجه للقتال ، فعلى الفور لم يهاجم كرومويل قاعدته وعبر خليج « فيرث » ممهداً بذلك مواصلات ليسلى مع الشمال . وأصبح ليسلى يواجه الآن أحد أمرين : إما القتال فى موقعه الضعيف الآن عند سترلنج أو التحرك جنوباً . وسقط ليسلى فى الشرك المنصوب له وغزا إنجلترا . وقد قدر كرومويل أن الجيش الملكى الأسكتلندى لن يجمع امدادات كثيرة لما سيلقاه من تأييد شعبى ضعيف ، بينما سيستطيع كرومويل جمع قوات احتياطية وإمدادات كثيرة من إنجلترا.

---

(١) كانت مشكلة من ٦ آلاف من الفرسان و ٣ آلاف من المشاة .

(٢) الجذامة ما يبقى من الزرع بعد الحصاد . « المعرب »

وتقدم الملكيون حتى « وركستر » وبدأت قواتهم تتضاءل تدريجيا حتى وصل مجموعها إلى ١٢٫٠٠٠ رجل فقط ، أما كروموبل الذى تحرك جنوباً ثم اتخذ مساراً أكثر ميلا نحو الشرق فى اتجاه « وركستر » وأخذ يجمع قوات كثيرة من مختلف الجهات أثناء تقدمه .

وقام « لمبرت » و «هاريون » ومعهما ١٢٠٠٠ رجل بهجمات متكررة على مؤخرة الملكيين حتى أنهكهم ، بينما قام « فليتوود » بسد الطريق إلى لندن فى مواجهتهم . وأخيراً سقط الملكيون فى الفخ عندما وصل كروموبل إلى « إيفشام » والتى تقع على بعد عدة أميال من« وركستر » حيث استطاع فى نهاية أغسطس أن يشكل جيشاً قوامه ٢٨٫٠٠٠ رجل . ولم يمض على ذلك بضعة أيام حتى نشبت المعركة ، وكم كانت معركة قاسية ولكن نتيجتها كانت محتومة . وقد أنهت معركة « وركستر » المقاومة الملكية المسلحة . وأصبح كروموبل من هذا الوقت حتى موته عام ١٦٥٨ حاكما على إنجلترا . وخلال حكمه ، فقد تحول نجاحه السياسى تحولا غير عادى ليصبح هازماً لنفسه ، لأنه بينما كان يتطلع لإعطاء بلاده حكما دستوريا مقبولا ، فقد ظل الجيش هو السند الوحيد لقوته . وكان هذا مشكلة أجهدته فلم يستطع إرضاء أى من العسكريين أو المدنيين ، وتحولت شجاعته ومهارته العسكرية لتصبح تردداً وعنفا سياسيا . وشعوره المطلق بصلاحيته ورغبته المتقدة فى عمل الصواب خدمته كرجل عسكرى ، ولكن خانه هذا الشعور وتلك الرغبة الآن .

ومن المحزن أن كروموبل سوف يذكر أكثر لدكتاتوريته السيئة الحظ عن تذكره لمثاليته وشجاعته وعبقريته كمدرب وكقائد للفرسان وكاستراتيجى . ولكن هناك ظاهرة واحدة من أعماله برهنت على فاعليتها وقدرتها على البقاء ألا وهى تطوير القوة البحرية وإنشاء الإمبراطورية .

سيدة البحار

فى النصف الأول من القرن ١٧ ، كان الشعب الهولندى هو أمهر الشعوب فى فن البحر ، ذلك الشعب الذى استطاع استغلال موقعه الجغرافى الممتاز ونزعته الوطنية للتجارة ولأعمال البحر ، ووصل فى عام ١٦٥٠ إلى ذروة الثراء نتيجة لسيطرته سيطرة فعلية على النقل

البحرى الدولى وعلى مستعمرات فى أجزاء كثيرة من العالم . وعلى أى حال فقد بنى الشعب الهولندى نجاحه فى الفترة التى انشغلت فيها إنجلترا وفرنسا فى كبح قوة أسبانيا مما عاد بالكسب على هولندا . ولكن عندما تلاشى التهديد الأسبانى وجدت هولندا نفسها تواجه شبح المنافسة من عدة دول على رأسها إنجلترا .

ومن الناحية الاستراتيجية كان لإنجلترا موقعا لا يبارى إذا سارت فى سياسة بحرية طموحة .

أما فرنسا فكان عليها أن تركز قبل كل شىء على المشاكل فى داخل أوروبا وحماية حدودها .

أما إيطاليا فكانت لا تزال تجوب مياه البحر بسفن القوادس . وكانت هولندا دولة « صغيرة » ومفككة إلى حد ما ويجب عليها أن تتحد وتحمى حدودها البرية .

أما إنجلترا فكانت عبارة عن جزيرة ذات موقع ممتاز ، فهى تستطيع من موقعها خارج ساحل أوروبا أن تراقب خصومها فى الشمال كما يمكنها من موقعها الداخلى اعتراض أساطيلهم . وتوفر أيضا لإنجلترا موانى جيدة وسواحل آمنة بالرغم من أنها كانت محتاجة للدفاع عنها .

وقد بدأ التحدى الإنجليزى لهولندا فى عهد شارل الأول الذى كون أساطيله من ضريبة السفن [1] الشهيرة وذلك فى الثلاثينيات من القرن ١٧ .

وبعد فترة الإنشغال نتيجة للحرب الأهلية جدد كرومويل السياسية البحرية الهجومية يؤيده فى ذلك رأى عام تجارى . وقد كانت النقطة الرئيسية فى النزاع مع هولندا هى الميول الاحتكارية ومشكلة حقوق الصيد فى بحر الشمال . وأوجدت المصادمات العرضية على خلق شعور عنيف بالعداوة والتعصب .

وفيما بين عامى ١٦٥٠ ، ١٦٥٢ أقر الإنجليز ثلاثة قوانين بحرية تهدف إلى اقصاء

---

(١) ضريبة تفرض على المرافىء وغيرها لتعزيز الأسطول الوطنى .

« المعرب »

هولندا من إحتكار النقل البحرى . وقد خشى الإنجليز أن ترد هولندا على هـذا بالانتقام وقطع وصول أخشاب بناء السفن من البلطيق، ولذا فتح كرومويل استيراد الخشب من أمريكا الشمالية ، كما أرسل حملة للاستيلاء على جاميكا . وفى نفس الوقت عمل برنامج ضخم لبناء السفن ، وفى عام ١٦٥٢ كان قد أضيف ٣٠ سفينة قتال جديدة إلى الأسـطول الإنجليزى المتـكون من ٣١ سفينة والذى ورثه كرومويل من شارل الأول . وفى تلك الفترة تطور تصميم السفن الحربية من غليون الأرمادا ، وأصبح الاختلاف الرئيسى للسفن الحربية فى عهد شارل الأول فى الحجم فقط .

وقد صنعت آنذاك أول سفينة إنجليزية من ثلاثة أسطح وتحمل ١٠٢ مدفع أى تزيد ثلاث مرات تقريباً عن عدد مدافع سفينة دريك . ولـكن سرعان ما تبين أن هذا النوع والذى سمى « سيدة البحار » به من المدافع ما يفوق حجمه لذا كان إبحاره سيئاً . وفى فترة الخمسينيات بنيت سفن أصغر وكانت تحمل مابين ٣٠ — ٦٠ مدفعاً . ولـكن عادت السفينة ذات الأسطح الثلاثية مرة أخرى إلى الوجود .

وفى الفترة ما بين ١٦٦٠ — ١٦٧٠ بنيت ٩ سفن كان حمولتها أكثر من ١٠٠٠ طن . أما هولندا فلم تستطع بناء سفن ذات حمولات كبيرة لضحالة مياه سواحلها وبالتالى لم يكن لديها سفن ذات الأسطح الثلاثية ، ولم يكن فى إمكان سفنها حمل أكثر من ٨٠ — ٩٠ مدفعاً على الأكثر ، وكانت هذه السفن أقل كفاءة عند الإبحار ضد اتجاه الريح . ولـكن هولندا طورت منذ القرن ١٦ الشراع والصارى بدرجة كبيرة ، فقد كبرت منطقة الشراع مع إضافة شراع ثانى مزينى [1] وأيضاً شراعا مثبتا فى كل من مقدمة ومؤخرة السفينه . ولم يطرأ على هذه الأشرعة إلا القليل حتى معركة الطرف الأغر .

وفى عام ١٦٧٠ وصلت المدافع إلى الشكل الذى ظل محتفظة به لحوالى ٢٠٠ سنة بدون

---

(١) المزين هو الشراع المنصوب على صارى فى مؤخرة السفينة « المعرب »

تغيير . وأصبح المدفع يسبك كقطعة واحدة وبماسورة ذات تجويف أملس ، أما السطح الخارجي للماسورة نتناقص عرضه تدريجيا من الترباس حتى فم الماسورة ، ومحور ارتكاز المدفع كان مثبتا فى جسم الماسورة ويوضع كراسى تحميل فى عربة المدفع . وأصبح رفع وخفض المدفع يتم برفع الماسورة إلى أعلى بواسطة مسامير ضخمة ثم بعد ذلك بايلاج أوتاد خشبية معلمة فى درجات أسفل الماسورة . وكان المدفع يوجه يميناً ويساراً بواسطة تحريك العربة بالكامل حركة دائرية .

والآن أصبحت المنافسة بين الإنجليز والهولنديين صريحة وعنيفة ، وفى عام ١٦٥٢ نشبت الحرب ، وعبء كل منهما أسطولا من حوالى ٨٠ سفينة ، وكانت سفن الأسطول الإنجليزى أفضل فى التسليح والنوع ، أما السفن الهولندية ذات الغاطس القليل أستطاعت استخدام الملاجىء ذات المياه الضحلة فى المانش كمأوى لها ، وكان الأدميرالان الهولنديان «مارتين ترومب» « وميشيل دى ريتر » يعتبرا أكفأ قادة البحر فى العالم . فكان «ترومب» قائداً بارعا سريعا هادىء التفكير بينما كان « ريتر » رياضيا ورساما للخرائط وداهية واسع الحيلة . وكان ضباط الجانب الهولندى قباطنة تجاريين لديهم خبرة كبيرة ، بينما كان الضباط الكبار فى الأسطول الإنجليزى فى الأصل جنوداً ومقاتلين جيدين ولكن لم تكن لديهم أى خبرة بالبحر .

وكان القائد الإنجليزى عقيداً فى المدفعية إسمه « روبرت بلاك » وانخرط فى الحرب البحرية وعمره ٥٠ عاما .

أما غرض إنجلترا من الحرب ، فقد عبر عنه ببساطة « جون مونك » قائلا : — « إن ما تريده لهو أكثر من مجرد التجارة التى يتطلع إليها الهولنديين » . وأصبحت استراتيجية إنجلترا بالتالى هى الحصول على السيطرة البحرية فى مياه المانش الإنجليزى ، وحماية قوافلها التجارية فى هذه المياه .

وكان على الهولنديين تسديد ضربة لهذا التحدى الإنجليزى ، ولذلك سعى كلا الجانبين لتدمير أسطول الآخر فى المعركة .

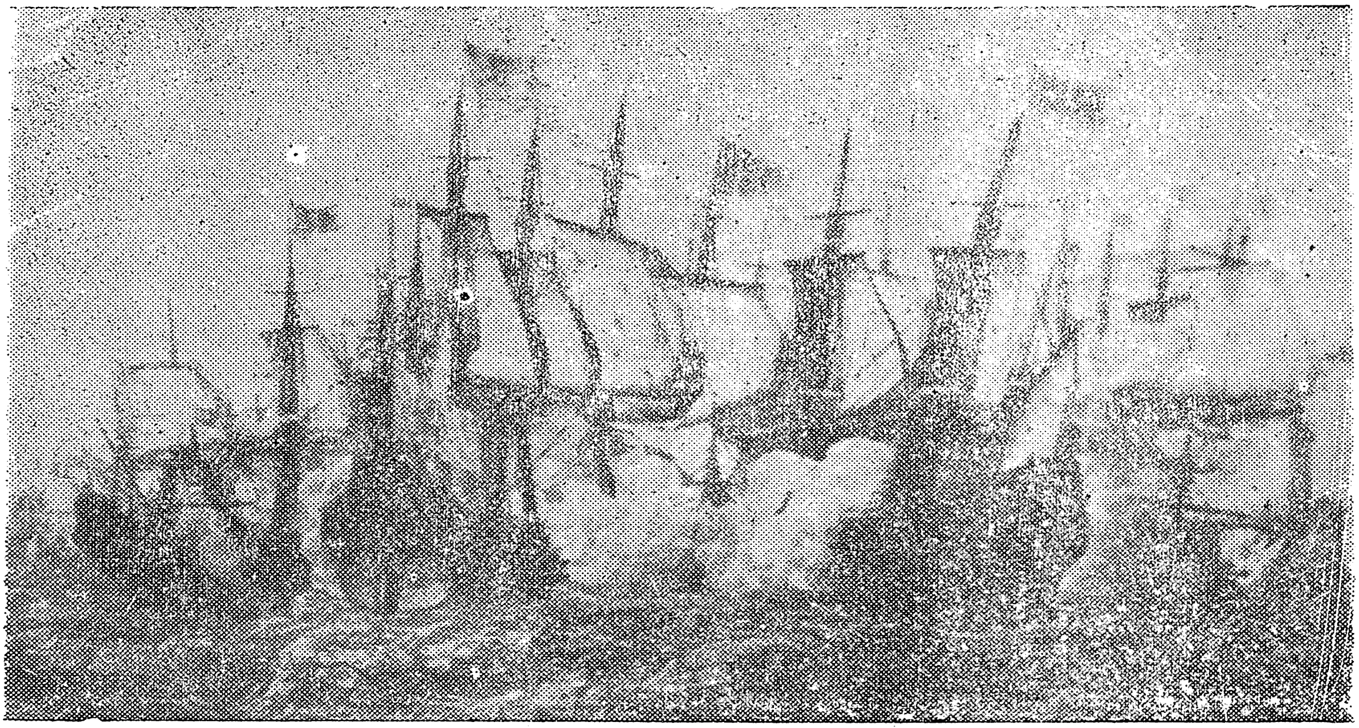

معركة بورتلاند بين الأسطولين الإنجليزى والهولندى

منقد البحرية

ومن الناحية التكتيكية استخدم الإنجليز تشكيلات الخط المتقدم ، ولكن الخبرة والنظام لم يتوافرا بشكل كاف لتحقيق هذا التشكيل ، ولذا من الناحية العملية قاتلت السفن الإنجليزية فى مجموعات محشودة تعتمد كل منها. على مؤازرة الأخرى وتسعى إلى عزل مجموعات العدو وقصفها ثم إعتلائها . وكان الطرفان يدركان ميزة الإبحار مع اتجاه الريح خلال المعركة وكان الهولنديون أفضل فى استغلال هذه الميزة لكونهم ملاحين أفضل من الإنجليز .

واستغل الهولنديون ميزتهم ووجهوا قذائف مدافعهم إلى أعلى بغرض تدمير صوارى وأشرعة العدو حتى يصبح من المستحيل عليه الهرب فى عكس اتجاه الريح . ونجحت هذه التكتيكات الهولندية فى المعارك الأولى .

وعلى سبيل المثال فى نوفمبر ١٦٥٢ استطاع « ترومب » ومعه أسطول متفوق من هزيمة « بلاك » أمام مياه « دنجينس » .

وبعد هذه المعركة علق « ترومب » مكنسة فى أعلى صارى سفينته دلالة على أنه كنس

ونظف البحار من عدوه . ولكن فى فبراير عام ١٦٥٣ أنقلب الوضع بإنتصار « بلاك » أمام مياه « بورتلاند » . وفى هذه المعركة كان « ترومب » يحرس أسطولا تجاريا بـ ٧٥ سفينة قتال عندما أعترضه « بلاك » ومعه ٥٥ سفينة قتال . وفى الحقيقة كان الإنجليز أقل عدداً ولكن سفنهم الحربية أفضل كما لم تكن معهم قافلة تجارية تعوق تحركاتهم . ودارقتال متواصل بين « جريسنيز » و « بورتلاند » وكان القتال فى اليوم الأول غير حاسم نظراً لأن الأسطول الإنجليزى كان لايزال متفرقا . ولكن فى صباح اليوم التالى تجمع الأسطول الإنجليزى وفى نفس الوقت بدأ البارود فى التناقص لدى الهولنديين . وخاض « ترومب » عملية إنسحاب رائعة ، قامت فيها سفنه بالقتال فى معركة مؤخرة عنيدة إلى أن نفذت الذخيرة وتحولت عملية الإنسحاب إلى هزيمة منكرة . ولكن « ترومب » نتيجة لمهارته الملاحيه العالية تفادى الكارثة الكاملة لقواته ، فقد إستطاع التخلص من المعركة فى النهاية بعد أن خسر ١١ سفينة قتال و ٣٠ سفينة تجارية . ومنذ ذلك الوقت أصبح الإنجليز أكثر مرانا على تكتيكات الخط المتقدم . وقد أجبر إنتصارات آخران للانجليز وموت « ترومب » أن تتفاوض هو لندا من آجل السلام فى أوائل عام ١٦٥٤ . وأدرك الإنجليز الآن أن الحرب البحرية تتطلب إدارة حديثة وسفناً ملائمة وبحارة محنكة ، وتطلب هذا فى الواقع أشراف الدولة على الأسطول . وسار برنامج بناء السفن بخطى واسعة للامام ، ومع حلول عام ١٦٦٠ كان الأسطول الإنجليزى يتكون من ٢٣٠ سفينة قتال . كما أصبحت الدولة هى التى تعين القادة وتوفر أماكن بناء السفن وتجهيزها وترميمها ، كما أصبحت الدولة مسئولة عن أعالة الأسطول وتجنيد أفراده . وكان التجنيد يتم أساساً بواسطة كتيبة التجنيد[1] .

وأدخلت الدولة التحسينات على أحوال البحارة من رعاية صحية للمرضى والجرحى والعجزة منهم كما منح البحارة رواتب شهرية .

وفى عام ١٦٦٠ أصبح شارل الثانى ملكا على إنجلترا واستمر فى إتباع سياسة كرومويل البحرية وقد أعطى الأسطول لقب « البحرية الملكية » . وفى عام ١٦٧٣ أصبح « صمويل بيبز »

---

(١) كتيبة يقودها ضابط مكلفة بإكراه الأفراد على الالتحاق بالجيش أو الاسطول . « المعرب »

سكرتيراً لمكتب البحرية[1] والمسيطر على إدارتها ، فقام بأدخال إصلاحات هامه تضمنت إختبارات للضباط وتحديد حد أدنى لمدة خدمتهم .

واضعاً بذلك قواعد الخدمة الدائمة للضباط البحريين المحترفين . وقد أطلق عليه مؤرخ حياة « صمويل بيبز » « السير أرثر برنيانت » لقب « منقذ البحرية » .

ومرة أخرى عام ١٦٦٥ دخلت إنجلترا الحرب مع هولندا ، ولم تتغير الإستراتيجية فى هذه الحرب عما كانت عليه فى الحرب السابقة (١٦٥٢ — ١٦٥٤) وكان القائدان الإنجليزيان هما « جيمس » دوق يورك شقيق الملك و« جورج مونك »وهومن العسكريين . أما الأسطول الهولندى فكان يقوده « دى ريتر » . وفى عام ١٦٦٧ قام «دى ريتر »بعملية رائعة إذ أبحر فى مياه نهر التايمز حيث أستولى ودمر أفضل قطع الأسطول الإنجليزى الذى أصابه الشلل .

وبعدها ، جاءت معاهدة « بريدا » ولكنها لم ترضى الإنجليز بالرغم من تخلى هولندا عن إقليم « نيو أمستردام »[2] وأعطاء إنجلترا كل ساحل أمريكا الشمالية المطل على الأطلنطى . وإندلعت الحرب الثالثة الإنجليزية الهولندية فى الفترة ما بين ١٦٧٢ — ١٦٧٤ ، وفى هذه الحرب تحالفت فرنسا مع إنجلترا . وبعد أربع معارك بحرية ضارية فضلت إنجلترا السلام ، ولكن القتال استمر بين هولندا وفرنسا من عام ١٦٧٤ حتى عام ١٦٧٨ . وخلال فترة الحياد بالنسبة لإنجلترا أستطاعت إنجلترا أن تتخطى هولندا وتسبقها فى القوة البحرية والتجارية .

ولكن أصبح على إنجلترا الآن أن تواجه فرنسا وسوف نرى فى الفصول التالية باقى المسيرة .

---

(١) وزير الحربية .

(٢) لقد أعيد تسميته إلى نيويورك على اسم الأدميرال الانجليزى .

الفصل الثالث عشر

عصر مارلبورو

حرب الارث الأسبانى

فى عام ١٦٥٠ ولد « جون تشرشل » وهوابن السير «ونستون تشرشل» أحد أصحاب الأرض فى « دورست » . وفى عام ١٧٢٢ مات « جون تشرشل » كأول دوق لمارلبورو . ومن بين جميع الشخصيات العسكرية التى ظهرت على مسرح الأحداث فى ذلك الوقت ، والذين سنتناولهم بالدراسة ، سنجد أن مارلبورو كان أعظمهم جميعاً ، فقد كان عبقرياً فى المواضيع العسكرية مع تمتعه بمهارة دبلوماسية فذه . ودائماً كنت أعتبره صاحب الفضل فى رفع الجيش البريطانى حتى أصبح فى المقام الأول بالنسبة للجيوش الأوروبية . وقد رأينا فى الفصل ١٢ ظهور السويد كقوة رئيسية بقيادة «جوستاف » كما أصبح الجيش الفرنسى أقوى الجيوش فى أوروبا ، أما فى هذا الفصل سوف نرى أفول نجم السويد خلال حكم شارلز الثانى عشر والتدهور المؤقت لفرنسا .

وسوف نرى أيضاً تأثير التحصينات على الحرب والذى طورها فوبان . وجاء «مارلبورو » ليمنع هذا العامل (تأثير التحصينات) من شلل مقدرة القيادة العسكرية . وكان ذلك العصر هو عصر الفرسان ، ولكن عندما ظهر السونكى المجوف فى النصف الثانى من القرن رفع من منزلة جندى المشاة ووضع نهاية لحاملى الرماح .

وبعد حرب الثلاثين عاماً ، كان العامل الرئيسى فى سياسة أوروبا هو النزعة العدوانية لفرنسا خلال حكم الملك لويس الرابع عشر . وفى الفترة مابين توليه سلطاته الملكية الكاملة فى عام ١٦٦٠ ووفاته عام ١٧١٥ لم يسبب أحداً إزعاجاً لمدة أطول مما فعله لويس الرابع عشر ، فقد أشعل أربعة حروب كبرى هى : —

١ — حرب الأيلولة : — (١٦٦٧ — ١٦٦٨) وهو الأسم الذى أطلق على الحرب التى نشبت نتيجة لمطالبته ببعض الأراضى الأسبانية .

٢ — الحرب الهولندية : — (١٦٧٢ — ١٦٧٨) .

٣ — حرب التحالف الأعظم : — (١٦٨٨ — ١٦٩٧) .

٤ — حرب الأرث الأسبانى : — (١٧٠١ — ١٧١٣) .

وفيما بين فترات توقف القتال ، ظل نشاط لويس السياسى موجها لتحقيق مطامعه من الحرب وهى المجد .. والثروة .. وتوسع فرنسا للوصول إلى حدودها الطبيعية على نهر الراين وجبال الألب والبرانس وكذلك كسر الحلقة التى يكونها الهسبرج . واتحدت جميع دول غرب أوروبا لمقاومة الفرنسيين ، ولكنهم لم يصمدوا فى الحروب الثلاث الأولى قبل عام ١٧٠٠ ، فقد كان لدى فرنسا قـــوة بشرية كبيرة وموارد طبيعية أكثر من أى دولة أخرى .

علاوة على أن لديها خطوطاً إستراتيجية داخلية وحكومة مركزية مطلقة . وأكثر من ذلك فكان بعض رجال لويس ذوى قدرات غير عادية . مثل « كولبرت » و « لوفوا » كانا إداريين من الطراز الأول ، و « كوندى » و « تورين » كانا من أبرز قادة العصر ، ثم يأتى « فوبان » عبقرى الهندسة العسكرية .

وكان « كولبرت » و « لوفوا » وزيرين لدى لويس وقد قدما له خدمات حيوية من حيث التبرير المنطقى لسياسته وتوفير الوسائل لتحقيقها . وقد وجـه « كولبرت » أهتمامه بشكل أساسى بالموارد المالية والأسطول . وبعد الحروب الهولنـدية لم يطرأ أى تغيير فى التصميمات الرئيسية للسفن الحربية . فالدولة يمكنها تحقيق السيطرة والتفوق البحرى بمجرد زيادة عدد سفنها وقواعدها وتحسين وتطوير تنظيمهـا . وقد طور « كولبرت » البحرية الفرنسية بزيادة حجم الأسطول من ٢٠ سفينة حربية فى عام ١٦٦١ إلى أكثر من ٢٧٠ سفينة فى عام ١٦٩٠ . وهذا الأسطول أستطاع هزيمة الأسطول الأنجلو هولندى المشترك فى يونيه ١٦٩٠ عند « بيتشى هيد » إلا أن الحلفاء أخذوا بثـأرهم فى مايو ١٦٩٢ فى معركة « لا هوج »(١) . ومن ذلك المعركة وأصبحت إنجلترا من أقوى الدول البحرية ، وأصبح لها السيطرة المطلقة على البحار فى حرب الأرث الأسبانى .

(١) بالقرب من سانت فاست على الشاطىء الشرقى من شبه جزيره كوتنتين بنورماندى « المعرب »

النصر المفاجيء (أنظر اللوحة رقم ٢٨)

وكان أختصاص « لوفوا » فى إدارة الجيش ، وقد سار على نفس النزعه التى بدأت فى عصر جوستاف نحو زيادة الحجم والمركزية والتماثل والأحتراف . ففى معركة « ركروا » حقق « كوندى » النصر على الأسبان عام ١٦٤٣ بجيش مكونا من ٢٣٫٠٠٠ مقاتل . وفى عام ١٦٧٢ قام لويس بغزو الأراضى الواطئة بقوة تعدادها ١٢٠٫٠٠٠ مقاتل ، وكان ٧٥٪ منهم من المشاة ولهم مدفعية ميدان خاصة بهم . أما فى نواحى التجنيد والتنظيم فقد أمكن القضاء على الفساد والتقاليد الإقطاعية بقدر الإمكان ، بوجود مراقبين من ذلك الطراز الشهير الذى كان يطلق عليه « مارتينت » (ويعنى الضابط الصارم المتشدد) . وكانوا يشرفون على التدريب وفرض النظام الصارم بالقوة ، كما أنشأ نظام المستودعات للأمداد . ودرب الجيش تدريباً شاقا . وحل الزناد محل الفتيل فى البنادق والتى أصبحت السلاح الرئيسى للمشاة ، وأنشأت وحدات لقذف القنابل اليدوية وزادت أهمية المهندسين ، وأدمجت المدفعية بصورة أوثق مع باقى الجيش . وفى تلك الحقبه كان الأساس الحقيقى للقوة هو القدرة العسكرية ، وكان أمن السلطة الحاكمة يرتبط أرتباطاً وثيقاً بحجم وقوة الجيش العامل . وقد أدت كفاءة وزارة الحرب الفرنسية إلى نجاح الجيوش الفرنسية فى ميدان القتال قبل تسعينيات القرن ١٧ .

وفى النهاية فإن القيادية العسكرية الماهرة لكل من « كوندى » و « تورين » هى التى أحرزت تلك الأنتصارات . وكانت موهبه هذين القائدين متعادلة ، فكان « كوندى » تكتيكياً بارزاً بينما كان « تورين » أستراتيجياً ممتازاً ومنظماً فريداً . وبروح الأقدام ولكن بهدوء وسعة الإدراك كان « كوندى » مصدر الإلهام لرجاله فى معارك حربية كثيرة وعلى مدى ٣٠ عاما بعد معركة « ركروا » .

تورين

وعلى العموم ، ففى حرب هذه الحقبة التى كانت فيها المواصلات رديئة والتحصينات القوية التى توفر النجاح لطراز معين من القادة ، برز « تورين » الذى يتميز بالصبر وبعد النظر ولمع أسمه فى الحروب

الأهلية عام ١٦٥٠ حينما قاتل ضد « كوندى » فقد أثبت أنه جندى أفضل من « كوندى » .

وإذا ألقينا نظرة على تورين لوجدنا أن مقدرته تكمن فى المناورة . فقد كان هدفه دائماً خلق موقف للقتال فى أكثر الظروف ملاءمة وفى الوقت والمكان الذى يختاره. ولتحقيق هذا الغرض ، درب رجاله على السير لمسافات طويلة ، وكان يضع خططه دائما بمنتهى الحرص وحسن التصور . وكان جنوده يعرفون ذلك جيداً ويثقون فيه ثقة عمياء ، لأنه كان يحرز أنتصاراته بأقل الخسائر فى الأرواح . وفيما بين ١٦٥٣ — ١٦٥٨ خلال الحروب الأهلية وفى مواجهته جيش يفوقه عدداً وعده وتحت قيادة « كوندى » ، نجح « تورين » فى المحافظة على جيشه متماسكا وعوض النقص فى العدد بخفة الحركة ، وبمداومة الأتصال بالعدو وأعاقة نشاطه حتى توفرت له القوة الكافية لقهره فى المعركة .

وفيما بعد ، زاد تورين من مجال نشاطه ، أما جرأته فقد قال عنها نابليون « أنها زادت بالخبرة على مر السنين » . ومع أتساع رقعة الأرض الألمانية ، أستطاع أن يستفيد أستفادة كاملة من عاملى الوقت والمسافة . وكان أعظم منجزاته هى حملة « تورخيم » عام ١٦٧٤ — ١٦٧٥ . ففى عام ١٦٧٤ كان واجب تورين هو تثبيت قوات العدو المتحالفة على جبهة نهر الراين الألمانى بينما كانت القوات الفرنسية تهاجم فى مكان آخر . وبعد أنتصاره فى معركتين صغيرتين أضطر للأنسحاب فى نوفمبر بعد أن تلقى العدو أمدادات كبيرة . وأثناء أرتداده للخلف إلى اللورين ، تحركت قوات العدو إلى معسكرات الشتاء وأنتشرت فى الألزاس . وكان الطقس سيئاً ونقصت الأمدادات ، ولم يتوقع العدو نشوب قتال فى ذلك الوقت ولا حتى فى باريس . ولكن تورين وجد الفرصة سانحة لتحقيق نصر مفاجىء . وقام بتجميع قوات أضافية بصعوبة بالغة حتى أصبحت قوته ٣٣٫٠٠٠ فى مواجهة قوات العدو التى تتألف من ٥٧٫٠٠٠ مقاتلا .

وفى نهاية ديسمبر تحرك عبر الجبال لتطويق العدو ، وخرج من ممر « بلفورت » الجبلى إلى الألزاس ولم يستطع الحلفاء حشد سوى جزء صغير من قواتهم بسرعة بالقرب من « كولمار » حيث هاجمهم تورين فى « تورخيم » ونتج عن أنتصاره أنه فى بحر ١٠ أيام لم يعد هناك أى جندى ألمانى على الضفة اليسرى لنهر الراين . وكان هذا هو آخر عمل بطولى ناجح لتورين

حيث لقى مصرعه فى الحملة التالية عام ١٦٧٥ . وعلى أى حال فى هـذا العصر فرضت قوة التحصينات قيوداً على القيادة العسكرية الإيجابية الماهرة .

نصف القرن ((أنظر اللوحة رقم ٢٨))

بعد أختفاء كوندى وتورين من مسرح الأحداث عام ١٦٧٥ ، كانت الشخصية العسكرية البارزة هى المهندس « سباستيان دى فوبان » . وكان فوبان هو المسئول عن أقامة التحصينات المنسقة للأجزاء المعرضة من الحدود الفرنسية طول فترة تزيد عن ٣٠ عاما من العمل النشط . فقد قام بتقوية الثغرة بين « الجورا » والفوسجس والتى تضـــمنت « بلفورت » و « نيف بريساش » وأماكن أخرى . وخلال سنواتى العشرة التى قضيتها فى منظمة دفاع الأتحـاد الغربى وفى منظمة حلف شمال الأطلنطى ، قمت عدة مرات بأستطـلاع جبـال « الجورا » و « الفوسجس » وتحركت بالسيارة عبر ممر « بلفورت » بغية التعرف جيداً على المنطقة . وفى تلك الحقبة التى أكتب عنها الآن . وربما قبلها ، كان هذا الممر يعتبر طريق أقتراب جيد إلى المنطقة من جهة الشرق وكان لابد الدفاع عنه جيداً ، أما اليوم فليست له قيمة أستراتيجية لوجود القوات الجوية وأزدياد مدى وقوة الأسلحة الحديثة ، وبصفة عامة وسائل القرن العشرين فى شن الحرب .

وكانت « ثيونفيل » و « متز » من المناطق الرئيسية فى النظـام الدفاعى الآخر على أمتداد نهر « المورل » ، وفى الألزاس الشمالية . وكانت الفلاندرز منطقـة ذات أهمية خاصة للفرنسيين ويجب عليهم التحـكم فيها وإغلاقها ، لأنها عبارة عن سهل حصباً تستطيع أى دولة بحرية معادية لفرنسا أن تجمع قواتها فيه وتدفعها منه دون أن يعترضهم أى عوائق طبيعية . ولم يـكد يحل عام ١٧٠٢ حتى كان لدى فرنسا أكثر من ٣٠ حصنـاً من الدرجة الأولى وحوالى ٥٠ مدينة وقلعة أقل تحصينا فى تلك المنطقة بحيث أصبحت عبارة عن حاجز فرنسى هائل لا يمـكن أختراقه . وقد طور فوبان عدة أفـكار حديثه فى التحصين، ومنها بناء متاريس من الطين بدلا من الحجارة التى تتحطم وتتحول إلى شظايا خطوة قاتلة ، فى حين أن الحوائط الطينية أرخص وأكثر أمناً ، كما كان من السهل بناء حوائط ضخمـة منها . أما الفـكرة الثانية أن جعل حوائط الحصون على شـكل زاوية بدلا من الشـــكل

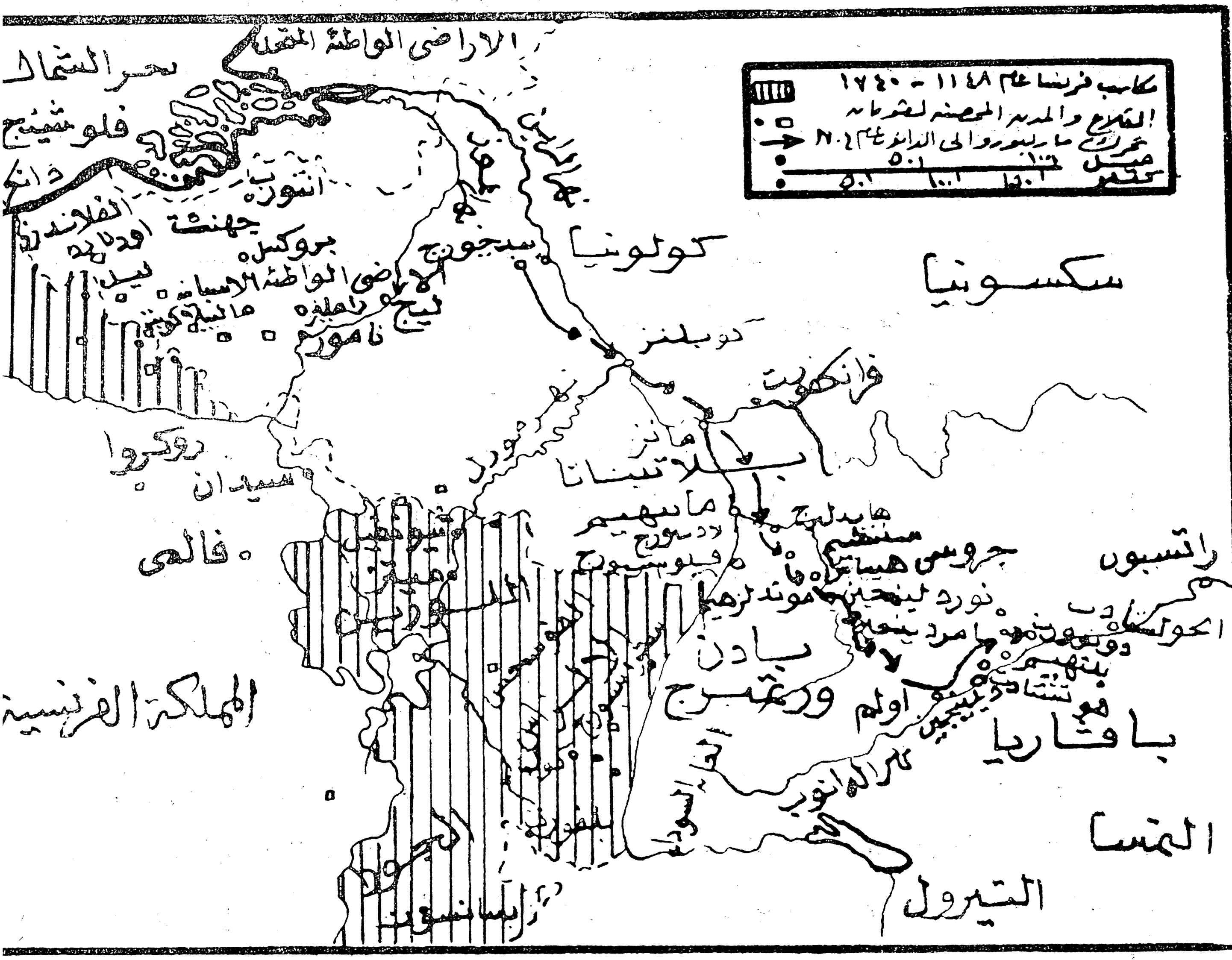

اللوحة رقم ٢٨ - **حملة مارلبورو**

التقليدى الدائرى ، مما يجعل من الممكن تغطية جميع أجزاء الأسوار بالنيران الجانبية ضد المهاجمين . وقد طبقت هذه الأفكار الجديدة إلى حد ما فى حروب منتصف القرن ١٦ ، ولكن حتى هذا الوقت لم يحاول أحد أن يتناولها بتفكير عميق وتطبيقها على أوسع نطاق .

وقد حولت أساليب فوبان هذا النوع من فن الحرب إلى تمارين هندسية وجعلت الدفاعات أضخم من أن تتيح للعدو القيام بالهجوم بالمواجهة . وقد استفاد فوبان دائماً وإلى أقصى حد من طبيعة الأرض لمساعدة الدفاع . وقد التزم فوبان ببعض القواعد الأساسية فى التحصين ، ولكنه لم ينتهج تخطيطاً ثابتاً . وظل مبقياً على التصميم الأساسى التقليدى للحصن من سياج داخلى ومتراس وخندق مائى ومتراس خارجى . وكان الحصن يظل سليما حتى يتمكن العدو من كسر الجزء الأكبر من تحصيناته .

ولذلك فكانت نتيجة الحصار تتوقف إلى حد كبير على قدرة هذا الجانب أو ذاك على الصمود أكثر من الآخر . وكان فوبان يميل إلى مد التحصينات الخارجية إلى أقصى بعد ممكن ، طالما توفر الوقت والمكان والمال ، وبذلك سوف يجبر العدو على أن يبدأ عمليات الحصار من مسافات بعيدة كما ضاعف الموانع فى طريقه ، وهكذا كانت العقبات تقف دائماً

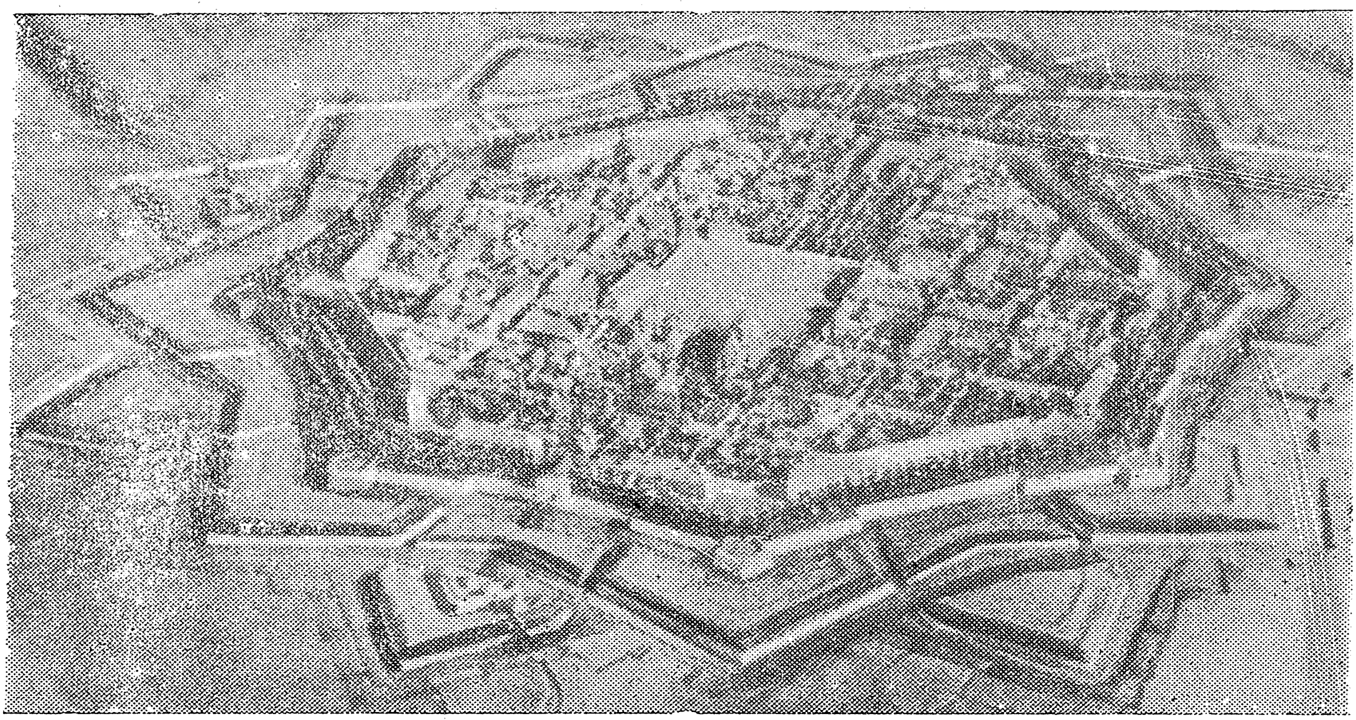

حصن من تصميم فوبان

حجر عثرة فى طريق حصول العدو على أرض . فإذا سقطت التحصينات الخارجية فى يد العـــدو ، فسوف تظل السيطرة عليها مستمرة بواسطة النيران من التحصينات المركزية الرئيسية .

وقد مكنت مهارة فوبان الهندسية وعينه الخبيرة بالأرض من تصميم التحصينات بطريقة تجعل أى مواجهة محمية من الجنب ومدعمة بواسطة التحصينات التى خلفها وعلى أجنابها . وكان العنصر الرئيسى فى التصميم أياً كان حجمه أو مكوناته عبارة عن مثلث رأسه للخارج وبلا ضلع داخلى .

وكانت الرأس الخارجية للحصن تشكل هدفا صعباً للعدو وتجبره على تركيز قواته بطريقة تعرضها للخطر ، بينما كان كل ضلع يصنع زاوية مع الآخر بحيث يمكن تغطية منطقة الحائط فيما بينه وبين مواجهة النتوء التالى .

وكانت هذه هى القاعدة فى الحصون الكبيرة التى تقام عند كل زاوية من الهيكل الأساسى المخطط للتحصين والذى كان متعدد الأضلاع . وكانت تنتشر حصون أخرى صغيرة بين الحصون الكبيرة وعلى أمتداد مواجهة التحصينات بحيث تكون متقاربة من بعضها بقدر كافى يجعل كلا منها قادرة على تغطية الآخر بنيران الأسلحة الصغيرة .

وكان هناك مثلثات أخرى تعددت فى الحجم ، أطلق عليها « نصف القمر » وتحيطها خنادق جافة تبرز للأمام وتغطى كل منها الأخرى ومحمية من الخلف . وكانت التحصينات المتكررة من هذا الطراز تمتد عادة إلى مسافة ٣٠٠ ياردة من مركز التحصينات الرئيسى ، وكانت تشكل مواقع قوية أمام قوات الحصار . وأحسن مثال لأعمال فوبان فى التحصينات هى « نيف بريساش » و « ليل » . كما كان فوبان أيضاً أستاذاً بارعا فى فن الحصار الهجومى فكانت الطريقة المضادة للحصار قبل عصر فوبان ، عبارة عن الأقتراب من الأسوار بواسطة خنادق متعرجة إلى أن تصل المدافع إلى مدى الضرب المؤثر . وطالما أن العدو المحصور لديه القدرة على تركيز النيران على خندق الحصار ، فكان الهجوم يصبح قليل الفاعلية وباهظ التكاليف فى الأرواح . والابتكار الذى قدمه فوبان هو أستخدام خنادق تصل بينها خنادق متعرجة ، وبذا أصبح فى أمكان المهاجم تركيز نيرانه ضد نقطة معينة فى

الدفاع وكذا شن هجمات متفرقة فى وقت واحد . كما أن فوبان هو الذى أدخل استخدام نيران السكترما ، بإطلاق الطلقات فوق الدروة الأمامية لتسقط على المدافعين المخندقين خلفها.

وكان من المعتاد بمجرد أن تحدث ثغرة فى الدفاعات ، يطلب من المدافعين الإستسلام فى أحتفال عسكرى ، وإذا لم يذعنوا ، يقتحم المهاجمون الدفاعات بلا هوادة . وعند دراسة تحصينات فوبان فسوف يبدو أنه إذا أريد مهاجمتها فيجب أن يتولى التخطيط للهجوم مهندسون حتى يمكنهم من خلال تطبيق المعادلات الرياضية أن يوصلوا خنادقهم ويضعوا بطاريات المدفعية فى أماكن معينة بحيث يجد القائد المدافع عن الحصن وقد وقع فى ورطة .

وظلت أساليب فوبان فى التحصينات والحصار شائعة الإستعمال حتى أواخر القرن ١٩ عندما غيرت زيادة مدى المدفعية من مشاكل الدفاع والهجوم ، وكان ذلك النوع من التحصينات يمكن التغلب عايه بشكل عام . ولكن الحصار الناجح كان يتطلب دائماً وقتاً طويلا ومهارة خاصة فى الرياضيات كما ذكرت . وكانت النتيجة أنه فى نهاية القرن ١٧ أدت التحصينات الكثيفة والقوية للحدود الفرنسية إلى أبطاء سرعة الحرب حيث أعاقة الحركة ووفرت الحماية بملاجئها وسواترها ، وأمتصت القوة البشرية .

الجيش الدولى

أثناء حرب التحالف الأعظم (١٦٨٨ — ١٦٩٧) حدث عدد قايل من المعارك ذات الأهمية ، ولكن حدث الكثير من عمليات الحصار ، وبدا أن الفرنسيين ينتهجون استراتيجية ناجحة ، فى الحرب التالية التى بدأت فى عام ١٧٠١ قاموا بإعادة تطبيقها مرة ثانية . ولكن فى هذه الحرب (حرب الأرث الأسبانى) كان يقود جيش الأعداء المتحالفين ضد فرنسا أحد عباقرة قادة الحرب وقد أظهر مقدرة عظيمة عندما واتته الفرصة ، وقد تخطى كل القيود التى كانت تفرضها الحرب فى ذلك الوقت .

مارلبورو

وكان هذا الرجل هو مارلبورو .

بدأ مارلبورو خدمته العسكرية عام ١٦٦٧ وكان أمامه المجال فسيحاً ليحصل على خبرة واسعة ، فقد أستفاد من خدمتـــه كعقيد فى سلاح المشاة تحت قيادة تورين عام ١٦٧٤ — ١٦٧٥ .

وكان مارلبورو يميل إلى الصمت ، ويصعب معرفة ما يجول بنفسه ، وكان له بعض العيوب ، ولكنه كان يكرس جهده فى جميع الأوقات للعناية بالرجال الذين تحت إمرته ولخدمة بلاده بلا كلل . ومن صفاته الظاهرة أنه كان هادئاً قادراً على ضبط نفسه ، كثير المجاملة وشخصيته جذابه .

وكان جندياً متمكناً تماماً من مهنته ، وكان ينظر إلى مشاكل الحرب فى صورة شاملة ككل وعلاقتها ببعضها فى نفس الوقت لا ينسى التفاصيل الجوهرية التكتيكية أو الإدارية . وأكثر من ذلك كان ذا مزاج معتدل . فى ذلك العصر واجه فن القيادة تعقيدات متزايدة ، فبينما أستمرت الزيادة السريعة فى حجم الجيوش وفى مدى الأستراتيجية فتنظيم الجهاز الإدارى لم يساير هذه السرعة . علاوة على ذلك كانت وسائل المواصلات فى أوروبا بطيئة ، والسياسة معقدة لدرجة أن القائد وخاصة فى الجيش المتحالف ، كان يتحمل مسئوليات عديدة كدبلوماسى ، وفى نفس الوقت كان عليه أن يتعامل مع الساسة فى وطنه وقد كتب ونستون تشرشل (١) فى موضوع ممارسة القيادة : —

« إنها عبارة عن الحصيلة الديناميكية للقوى المتعددة الدائمـــة التغيير والتى يتعين أستيعابها باستمرار ، لأنه يوجد عوامل مؤثرة كثيرة منها أعداد ونوعيات الجنود وروحهم المعنوية وأساحتهم وثقتهم فى قادتهم وطبيعة الوطن وحالة الطرق والوقت والطقس ومن خلف كل هذا تقف سياسة الدولة ، والمصالح الخاصة ذات الأهميـــة والتى يتعين على الجيش حمايتها » .

وكانت القيادة شخصية ومباشرة ، أما نظام قادة وأركانات الفيالق والفرق فقد جاء بعد ذلك . وكان القائد العام فى ذلك الوقت يجب أن يكون قادراً على فحص كل منطقة

(١) السليل الشهير لمارلبورو

معركته وإرسال أوامره بواسطة نظام من الفدائيين والسعاة . وكان عادة ما يقف بحصانه فى المعركة وفى أكثر مناطق القتال نشاطا ويكون غالبا تحت تأثير النيران واضعا نصب عينيه موقع وظروف كل وحدة وعلى مواجهة من ٤ إلى ٥ أميال ، مراقبا العدو ، ويتصرف تبعا لتطور الموقف التكتيكى .

وكان الأمر يتطلب قائداً على مستوى رفيع فى فن الحرب ليتمكن من السيطرة الكاملة على كل هذه العوامل بالوسائل التى كانت متيسرة فى تلك الأيام .

وفى تلك الحقبة ، كانت الجيوش تتكون من جنسيات مختلفة، كما لو كان «جيشادوليا» . فمن بين ٤٠٠٠٠ رجل الذين أقرهم البرلمان البريطانى كنصيب إنجلترا فى القوة المتحالفة فى بداية الحرب ، كان هناك فقط ١٨٠٠٠ منهم بريطانى . وكان يسود بريطانيا شعور قوى ضد العسكريين حيث كان ينظر إلى الجيش المستديم ، بعد تجربة القرن ١٧ ، على أنه تهديد للحرية ، وعلى النقيض من ذلك ، كان المجتمع الفرنسى يميل إلى النزعة العسكرية .

وكان البرلمان البريطانى يناقش بتدقيق ، وبشىء من الغيرة ، مشروعات إنشاء الجيوش قبل إقرارها ، كما كان التجنيد صعبا . ولم تغير الانتصارات الباهرة التى كان يحققها الجيش البريطانى من موقف إنجلترا . وكان هناك تجنيد إجبارى فى أضيق الحدود وكان الغرض منه على وجه العموم هو تشغيل المجرمين فى أعمال مناسبة . وكانت الأفواج تنشأ وتجهز بواسطة زعماء المقاطعات وتسمى بأسمائهم . وكان الفوج يتكون عادة من كتيبة واحدة مكونة من ٧٠٠ — ٩٠٠ رجل . وكان هناك دائما قدر كبير من الإحتيال فى النواحى الإدارية ، مثل الضباط الذين يسحبون أجورا ومؤن ومهمات لتسليمها إلى قوات لا وجود لها ، بينما تختلس مرتبات وتموينات ومهمات الوحدات الموجودة فعلا . وفى الواقع ، فإن ما حدث فى عام ١٧١٢ هو أن خصوم مارلبورو فى البرلمان أثاروا ضده إتهامات بالاختلاس ، عندما فقد مركز القوة وبناء على ذلك طردته الملكة « آن » من جميع مناصبه ، ولكن ثبت بعد ذلك أن كل هذه التهم كانت باطلة كلها . كما أعلن ج . م . ترافليان : « لم يحدث فى تاريخ إنجلترا أن استفادت بريطانيا من أحد أكثر من مارلبورو مقابل كل جنيه تقاضاه . . » وفى الحقيقة فإنه فعل الكثير لكى يقضى على ظاهرة الاختلاس بين صفوف جيوشه .

وحرب الأرث الأسبانى لجديرة بالدراسة من الناحية الإقتصادية ، إذ أنه فى هذه الفترة كانت مؤسسات البنوك والائتمان تجتاز تطورا سريعا ، فبنك إنجلترا أسس عام ١٦٩٤ ، وفى هذا المضمار كان الانجليز والهولنديون يتفوقون على الفرنسيين[١] . وكانت هذه الحرب حافز للنمو والأزدهار المالى ، وكذا أضفت النشاط والتنوع فى مختلف مجالات التجارة والصناعة مثل صناعة المنسوجات وتربية الخيول والتعدين والعتاد الحربى . ولكنها لم تسبب تدميرات لالزوم لها لأن ذكريات حرب الثلاثين عاما جعلت الرجال تلطف من أهوال حرب الأرث الأسبانى على قدر الإمكان .

وقد حدثت بعض أعمال السلب ولكن التدمير المنظم كان قليلا جدا . وكان النظام صارما بالرغم من تأخر المرتبات عادة ، ولكن مستودعات الأمداد أصبحت الآن منظمة بكفاءة ، مع إعطاء عناية خاصة لتدبير الأصناف الجيدة من المهمات مثل الاحذية والملابس الثقيلة . وكان الجيش يشكل نسبة صغيرة جدا من مجموع السكان فى الدولة ومنفصلا عنها وقد كتب ج . م . ترافليان يقول : « كانت أوروبا سيئة التنظيم وأفقر من أن تدفع ضريبة دم كبيرة ، وكان نظامها المالى أضعف من أن تنفق منه مقادير كبيرة على حساب ثروة وسعادة الأجيال القادمة » .

وفى هذه الفترة أزدهرت الفرسان أزدهارا عظيما بالرغم من أن المعارك التى حدثت فى الأراضى المفتوحة كانت قليلة نسبيا وبالرغم من أن القادة كانوا يضعون ثقتهم الرئيسية فى المشاة . وقد أستمرت الفرسان الفرنسية متمسكة بتقليد الدوران نصف دورة[٢] والذى كان سائدا فى القرن ١٦ ، والذى يعتمد فيه الفارس على الأسلحة النارية أكثر من سيفه . أما الفرسان الإنجليزية والتى دربها مارلبورو ، فقد أتقنت تكتيكات كل من جوستاف وكرومويل ، فقد دربت على الهجوم فى خط بعمق ثلاثة صفوف ثم الاندفاع بأقصى سرعة نحو العدو مع إستخدام السيف فقط . وكانوا يسلحون بالمسدسات ولكنهم لايستخدمونها إلا فى الأغارة

(١) لم يؤسس بنك فرنسا حتى عام ١٨٠٠ .

(٢) لقد حدث ذلك فى معركة بلنهيم

« المعرب »

أو عند التعرض لهجوم مفاجىء . وفى البداية كان الفرسان لا يرتدون أى دروع على أجسامهم. ولكن فى عام ١٧٠٧ أدخل ماربورو الدروع الواقية للجزء الأمامى لجسم الفارس . وكان رجال الدراجون يقوموا بالهجوم وهم ممتطين جيادهم أو يترجلون عند الوصول إلى ميدان المعركة والقتال من على الأرض كحملة بنادق . وقد حدث تغييران هامان بعد ذلك فى معدات المشاة ، التغيير الأول عام ١٦٥٠ حيث حلت البنادق ذات الزناد محل البنادق ذات الفتيل كسلاح نموذجى للمشاة ذى جهاز تفجير أكثر ضمانا ويعمل بصورة أفضل فى الجو الرطب ويعطى معدلا أعلى من النيران . أما التغيير الثانى والذى حدث فى نفس الفترة تقريبا ، فهو ظهور السونكى . وفى أول الأمر كانت المدية تثبت فى فم ماسورة البندقية . وجاء التغيير الحيوى الهام باختراع السونكى ذو الحلقة عام ١٦٧٨ ، وكان يثبت بإحكام على الماسورة من الخارج مما كان يتيح للجندى إطلاق النيران مع وجود السونكى . وبذلك أصبح حملة الرماح زائدين عن الحاجة لأن حملة البنادق أصبحت قادرة على أداء نفس عمل الرماحين .

وفى عام ١٧٠٤ إختفى حملة الرماح من الجيش البريطانى أما الفرنسيون ، فبالرغم من إدخالهم للسونكى ، إلا أنهم كانوا أكثر بطأ فى إستخدامه . وكان على جنود المشاة على مدى ١٥٠ عاما التالية القتال وهم مسلحون فقط بالبنادق ذات الزناد والسونكى ويحملون أكياسا من الجلد تحوى كل منها على ما بين ٤٠ ، ٦٠ خرطوشة من الورق ولا يرتدون أى دروع لوقايتهم .

أما الكتائب الجديدة فتميزت بخفة حركة أكبر من ذى قبل فلم تعد مثقلة بحمل الرماح وفتائل الأشغال . وقد أدت خفة الحركة والأعتماد على قوة النيران أكثر من قوة الصدمة إلى زيادة إحتمال إنتصار القوات جيدة التدريب على القوات المتفوقة عدديا ، وهذا ما أعطاه ماربورو حق قدره وكرس له كل اهتمامه فى شهور الشتاء الستة (١) لتدريب مشاته على الضرب المؤثر والتنشين بدقة واطلاق النيران بالفصائل المجمعة التى تتكون من ٥٠ رجلا . ودربت الأفواج أيضاً على أن تتشكل فى مربعات إذا تعرضت لهجوم الفرسان . وكان كل فوج يتضمن إلى جانب حمله البنادق ، سرية من قاذفى القنابل اليدوية ، وكانوا يختارون من الرجال الذين يتمتعون بلياقة

---

(١) فى غير موسم المعارك « المعرب »

بدنية جيدة ، وكانوا يعتبرون إلى حد ما قوات عاصفة .

وأصبحت التشكيلات الخطية فى ذلك الوقت أمرا مألوفا حيث أن الغرض منها كان إستغلال قوة النيران الجديدة إلى أقصى حد ، وقد أستغرق تدريب الجندى وقتا طويلا لكى يتفوق فى التكتيكات الخطية ، لأن ذلك يتطلب شجاعة وخبرة ومرانا . وأصبحت المواجهات أوسع لتفادى تزايد قوة نيران الأسلحة الصغيرة وأدى هذا أن الجندى يجد نفسه غالبا منعزلا عن رفاقه ، وعندما يحدث ذلك يظهر الخوف ، ومن هنا يبرز أهمية الضبط والربط الذى يكون هدفه اختراق عالم الخوف .

خداع اوروبا (أنظر اللوحة رقم ٢٨)

وقد أيد مارلبورو مزج المدفعية مع الأسلحة الأخرى والذى بدأ منذ عهد جوستاف ، وقد أدى العقيد « بلود »[1] وضباطه وجنوده خدمات جليلة له . وقد تغلبوا على صعوبات الأرض فى عام ١٧٠٤ عند السير عبر الغابة السوداء إلى الدانوب ، وقد قاتلوا خلال مستنقعات بلنهيم وهذا يدل على أنهم كانوا خبراء فى مهنتهم . وكانت مدفعية الميدان تطلق على المسافات البعيدة قنابل على شكل الكرات ، أما على القطاعات القريبة فكانت تطلق قنابل عنقودية ، والتى كانت تسمى فى ذلك الوقت « الحجل » . واختلفت الأسلحة الثقيلة للحصار عن مدفعية الميدان ، فكانت مواقع الحصار الثقيلة عادة ما تنقل خلال المجارى المائية . وكان مارلبورو يهتم إهتماماً كبيراً بالإستخدام التكتيكى لمدفعية الميدان ولذا كان يختار مواقع بطارياته بعناية واهتمام . وواجه مارلبورو موقفاً إستراتيجياً صعباً فى حرب الأرث الأسبانى عندما كان هو القائد العام للجيوش المتحالفة لبريطانيا والمقاطعات المتحدة الهولندية والنمسا وبادن وكذلك قوات صغيرة ألمانية ، وكانت فرنسا وأسبانيا متحدتين وقادرتين على العمل على خطوط إستراتيجية داخلية ، وفى عام ١٧٠٣ أنضمت إليهما بافاريا ، وامتلكت فرنسا فى الجبهة الشمالية سداً قوياً من الحصون المقامة فى الأراضى الواطئة الأسبانية .

وكان يحمى هذه الحصون جيش مكون من ٩٠٫٠٠٠ رجل ، وفى الجنوب كان الأسبان فى إيطاليا ، أما فى الشرق فى عام ١٧٠٣ فلم يوجد سوى بعض الخلافات التى منعت الفرنسيين

---

(١) كان يقود مدفعية مارلبورو . « المترجم »

والبافاريين تحت قيادة فيلرز ، (وهو من أقدر القادة) من التقدم إلى فينا بقوة كبيرة . وانقسم الحلفاء إلى جبهتين تفصلهما مسافة واسعة ، كما كانوا غير متفقين فى سياستهم . وأول مشكلة واجهت مارلبورو كانت مع الساسة والقادة الهولنديين والذين رغبوا فى الإحتفاظ بجيشهم بالقرب من وطنهم . ومراراً وتكراراً طوال فترة الحرب كان ينظر إلى خطط مارلبورو بحذر بل وقد صوت الهولنديون ضده وأصبح مارلبورو فى موقف لا يحسد عليه بسبب موقف الهولنديين المعوق بالإضافة إلى عدم معاونة الساسة البريطانيين له أحياناً ، بينما كان قائد العدو وهو لويس الرابع عشر توفرت له سلطة مطلقة وجهازاً مركزياً للحرب .

والإستراتيجية التى إتبعت فى الجنوب هى إرسال حملة حربية إلى أسبانيا وأسطول إنجليزى فى البحر المتوسط للسيطرة على البحار المحيطة بمسرح الحرب مع حصر العدو داخل نطاق الإستراتيجية البرية .

وفى عام ١٧٠٤ تم الإستيلاء على جبل طارق ، ومنذ ذلك الوقت وصاعداً إهتمت بريطانيا بالبحر المتوسط .

وقد خطط مارلبورو والذى كان فى الأراضى الواطئة ، لنقل الحرب إلى أقصى الشرق لكى يبعد التهديد الذى كان على وشك الإنقضاض على هولندا ، فى نفس الوقت لكى ينسق العمليات مع النمسا ويهاجم فرنسا فى أكثر مناطقها تعرضاً أى فى الركن الشمالى الشرقى .. وقد نجح مارلبورو فى عامى ١٧٠٢ — ١٧٠٣ فى طرد الفرنسيين من وديان الماس والراين السفلى بالرغم من أعاقة الهولنديين له . فى ذلك الوقت أصبحت النمسا فى خطر داهم ، لذلك كانت إستراتيجية مارلبورو هى السعى وراء معركة فاصلة مع الفرنسيين على الدانوب وبالتالى يدفع خطرهم عن النمسا .

ولم يكن هناك ما يعوق تنفيذ فكرة القيام بحملة على الدانوب ، فقد كان كل شىء مجهزاً لذلك ، فقد هدد فينا من إتجاه أولم (على الدانوب) ممثلا فى جيش مشترك فرنسى بافارى يتكون من ٤٥٠٠٠ [1] رجل تحت قيادة الأمير « ماكس أمانويل » والمارشال « مارسين » .

---

(١) لقد دعم بسرعة وأصبح حوالى ٥٧٠٠٠ رجل « المعرب »

وكان من الضرورى والحيوى إنقاذ فينا لأنه لو قدر وهزمت النمسا وخرجت من الحرب فيصبح فى أمكان الفرنسيين تجميع كل قواتهم على الجبهة الشمالية . ولما كانت الحرب الدفاعية أو البطيئة الحركة تلاءم لويس الرابع عشر لموقعه المتوسط المحصن القوى ، فقد بات واضحاً أنه لابد للحلفاء من القيام بالهجوم . ولكن كان هناك عقبتان من الناحية العملية أمام الحلفاء ، فكان الساسة الهولنديين فى حالة ذعر وهلع كبيرين ، وكان على مارلبورو التغلب على شكوكهم وترددهم .

وثانيا كان يجب على الجيوش المتحالفة لتصل إلى الدانوب أن تشق طريقها خلال وسط الفرنسيين الذى سيعرض جنبهم للهجوم .

وكانت طريقة مارلبورو لتحقيق غرضه هو العمل بسرعة واستخدام الخداع مع الصديق والعدو ، وعلى الفور أخبر الهولنديين بأن حملته ستكون على نهر الموزل ، وبعد معارضة شديدة زودوه بوحدة هولندية . أما الغرض الحقيقى فكان سراً لا يعرفه سوى القليل من الشخصيات السياسية البارزة .

ووعد مرغريف (حاكم بادن) لويس بمساعدته كما خرج الأمير يوجين من فينا لمقابلة مارلبورو .

وبدأ التحرك رسميا فى ١٦ مايو عام ١٧٠٤ من « بدبورج » والتى تقع غرب كولونيا بـ ٣٠ ميلا .

وكان مجموع قوات مارلبورو ٤٠٫٠٠٠ رجل ، وبفضل العمليات التى تمت عامى ١٧٠٢ — ١٧٠٣ أمكن للحلفاء التقدم بدون عقبات عبر وادى نهر « الموسى » (أسفل نامور) وعلى طول نهر الراين حتى نقطة تقابله مع « نهر النكار » قرب مانهايم ، ولكن كانت عملية نقل الجيش إلى منطقة « هايدلبرج » يحفها المخاطر ، فكان عليه عبور مواجهة الجيش الفرنسى بقيادة « فالروى »[1] ، وكانت السرعة هى سر النجاح .

وقد ساعد فى ذلك كثيراً ، نقل المدفعية الثقيلة والإمدادات بواسطة النقل المائى ، كما كتب ترافليان : — « كانت هناك مرحلتين لخداع أوروبا » . المرحلة الأولى حتى كوبلنز

---

(١) كان فالروى ليس بالقائد الماهر ذو الخبرة فقد هزمه مالبورو هزيمة منكرة فى راملیز فى مايو ١٧٠٦ « المعرب »

حيث كان متوقعا أن يتحول الجيش عندها صاعداً نهر الموزل ، ولكى يعطى هذا الأنطباع شونت هناك مخازن ضخمة من المؤن والذخائر . ولكن عند وصول الجيش إلى « كوبلنز » واصل سيره جنوبا ونقلت المخازن خلفه عبر الراين . وحتى ذلك الحين كانت الوجهة الظاهرية للجيش ليست الدانوب ، بل الألزاس . ولكى يتمم مارلبورو هذه المرحلة من الخداع ، أقام كوبرى من القوارب عبر الراين عند « فيلبسبورج »(١) . وفعلا ، حدث رد فعل على الفور فقد حرك « فالروى » جيشه أولا من الأراضى الواطئة لتغطية نهر الموزل ، ثم بعد ذلك لينضم إلى مارشال « تالارد » فى الدفاع عن الألزاس . وأرسل الهولنديون تدعيمات لمارلبورو وبشكل ظاهر ، وفى ٣ يونيه فقط كشف السر . وفى هذا التاريخ عبر الفرسان نهر النكار عند « لادنبورج » فى منتصف الطريق بين « مانهيم » و « هايدلبرج » وبدلا من تقدمهم إلى « فيلبسبورج » واصلوا التحرك فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى « سنشيم » ومنها فى أتجاه نهر الدانوب ، وتم التقدم فى براعة واتقان . وقد اثار انتباهى دائماً هذا التقدم ، ولقد طرت فوق طول الطريق متمعناً من الجو مسالكه ، وقد حصلت على منظر جيد للأرض من أعلى وهناك أجزاء معينة من الطريق أعرفها جيداً حيث قمت بأستطلاعها من قارب بخارى فى الراين وكذا بالسيارة ، وخاصة المناطق القريبة من « كوبلنز » و « مانهيم » و « نهر النكار » . وقد أدى هذا التقدم التكتيكى إلى أرباك وحيره المارشالات الفرنسيين . وهذا التحرك العظيم للأعداد الغفيرة من الجنود عبر مسافات طويلة ليعتبر مثالا جيداً للقدرة الإدارية . وقد عمل مارلبورو بأقصى سرعة منذ بداية الربيع ليجهز الترتيبات الدبلوماسية والإدارية لحملته ، ليضمن السماح له وقواته بالمرور والمساعدة من كل الحكام الألمان المعنيين . وكانت الكبارى كلها فى حالة جيدة وفى أماكنها الصحيحة ، وكانت المؤن متوفرة وجاهزة وفى أماكن الأحتياج إليها . أما النواحى المالية فقد رتبت مع أصحاب البنوك الألمانية ، وكان كل شىء يدفع فى الحال وبدون أى تأخير . ونتيجة لكل ذلك أستقبل جيش مارلبورو من الأهالى أستقبالا حسناً ، وعند مدخل بافاريا كانت هناك أحذية جديدة فى أنتظار الجيش .

وظهر الجيش فى شكل جيد والجنود فى نظام ممتاز بفضل الضبط والربط القاسى والتدبير

---

(١) كانت على بعد حوالى ٢٠ ميلا جنوب مانهيم . « المعرب »

المسبق للعناية باحتياجات الجنود خلال تقدمهم سواء من غذاء أو ملبس أو وسائل الراحة والترفيه .

ومع بداية تقدم الجيش بدأت الوحدات الألمانية الحليفة تنضم إليه وعلى مراحل؛ وعند « مندلشيم »(١) فى ١٠ يونيه لحق الأمير « يوجين » بركب مارلبورو ، وكانت المقابلة الأولى لهذين القائدين العظيمين. كان يوجين أصلا من مقاطعة « سافوى » ، وتلقى ثقافته فى بلاط لويس الرابع عشر ثم حول خدماته إلى الإمبراطور الرومانى المقدس بعد أن لقى الأهمال والأزدراء من الملك لويس ، وخلال مهنة الجندية عبر ٥٠ عاماً كان هدفة المهيمن عليه هو ألحاق هزيمة ساحقة بفرنسا . وكان يوجين تكتيكياً ماهراً وقائداً شجاعاً ، وربما كانت شهرته فى هذه الأيام أكثر من شهرة مارلبورو لأنه حارب ضد الأتراك سنين عديدة وعند انتصاره عليهم فى « زنتا » عام ١٦٩٧ أستطاع طردهم من المجر . وكان يعتبر يوجين الرجل الثانى لمارلبورو لما لديه من مهارة وخبرة عسكرية كبيرة وروح توافة للمقامرة ، فى نفس الوقت كان خياله إلى حد ما محدوداً ولذلك كان على أستعداد للأذعان لمن يفوقه من ناحية العبقرية .

ولم يمض يوم أو يومين على لقاء القائدين عند جروس هيباش حتى أنضم إليهما قائد ثالث هو « مرغريف بادن لويس » وقد سبق ذكره ، وكان أيضاً جندياً محنكا ، ولكنه غير محب للمغامرة وعنيد .

النصر باهظ التكاليف : (أنظر اللوحة رقم ٢٨)

وحدد القادة الثلاثة الإستراتيجية المستقبلة وتضمنت تحرك يوجين إلى الراين ليثبت « فاليرى » و «تالارد»، بينما يتقدم مارلبورو والمرغريف لويس شرقاً فى بافاريا لحمل « ماكس أمانويل » على تغيير وجهته . وقد أتفق مارلبورو والمرغريف لويس على تبادل ممارسة القيادة على جيشهم المشترك يوماً بعد يوم ، وتلك طريقة غريبة ومن الصعب أنها راقت مارلبورو . وعلى أى حال ،وطبقاً لما ذكره السير ونستون تشرشل « لقد كان هناك فهماً أكيداً بأن الإدارة المسيطرة على الحملة كانت فى يد مارلبورو ، الذى كان لديه الجيش الأكبر بالأضافة إلى أنه حضر مجازفا بنفسه لأنقاذ الإمبراطورية » . ولسوف نرى فيما بعد على كل حال ، كيف أستطاع

(١) فى منتصف المسافة بين الراين والدانوب

مارلبورو التخلص من لويس قبل بلنهيم . ورحل يوجين فى أتجاه الراين ، بينما واصل الجيش الرئيسى طريقه فى أتجاه الجنوب الشرقى أى فى أتجاه الدانوب وذلك خلال أرض غير مرتفعة. أما الجزء الصعب الوحيد فى المسيرة كان فى مستجمع مياه الأمطار فى الممر الشديد الأنحدار بعد « جيسلنجن » شمال « آولم » بحوالى ٢٠ ميل ، وهناك أنهمرت الأمطار على الجياد التى أخذت أقدامها تنزلق على الأرض ففقدت قدرتها على الأتزان، بينما كافح الرجال لتحريك المدافع والعربات فوق الأرض التى تحولت إلى بركة من الطين . ومع نهاية يونيه هبط إلى وادى الدانوب ٧٠٫٠٠٠ رجل . وفى أول يوليه كان مارلبورو فى « امردينجين » بينما كان « مارسين » و « ماكس » على الضفة الجنوبية وعلى بعد ١٠ أميال أعلى النهر عند « ديلينجين » وأصبح الآن يقف مارلبورو إلى الشرق من عدوه . وفى نفس الوقت أقرب من عدوه إلى فينا . وكان مارلبورو قد عقد العزم على أن يكون أول تحرك له للأستيلاء على « دونوورث » على الدانوب وتقع على مسافة ١٥ ميلا فى أتجاه مجرى النهر وإلى الشرق منه لأن الأستيلاء عليها سيؤمن له خطاً جديداً لمواصلاته فى أتجاه الشمال عبر « نورد لينجين » إلى منطقة وسط ألمانيا الصديقة والمضمونة ، كما تضعه فى مكان مفتوح على الدانوب ويصبح له رأس جسر إلى بافاريا . ولم يكن لديه وقت ليضيعه . فقد كان « تالارد » ومعه ٦٠٫٠٠٠ رجل على وشك التحرك شرقاً عبر الراين من « ستراسبرج » . بينما لن يكن فى أمكان يوجين ومعه ٣٠٫٠٠٠ رجل فقط من أيقافه . وما هو أكثر أهمية من ذلك أن « مارسين » فطن للأهمية الحيوية لدونوورث ، وأرسل فعلا ١٤٫٠٠٠ مقاتل للأستيلاء عليها فى ٣٠ يونيه ، فى نفس الوقت كان جيش مارلبورو على استعداد للتحرك . وكان مارلبورو فى وضع يسبق مارسين بعشرة أميال إلى المدينة . وفى فجر ٢ يوليه تحرك شرقاً للأستيلاء على « دونوورث » ، وكان على القوات أن تقطع ١٥ ميلا فى طريق مرعب ، ثم فى نهايتها تقتحم تحصينات منيعة ، وكان المفتاح إلى دونوورث هو التل الحصين سسلنبرج ذو القبة المرتفعة والذى يمر بجوار حائط المدينة . وقد تم الأستيلاء عليه فى نهاية النهار بعد ساعة ونصف من القتال الوحشى والدموى . وقد ذكر عن هذا القتال :ـ « كان الرجال تذبح أو تتمزق عند فوهات المدافع ، بينما كانت السونكيات تخترق الأحشاء . »

وقد اندفع الحرس الأمامى للجيش ليقتحم على الفور وعلى مواجهة حادة ضيقة ، مجبراً المدافعين على التركيز على هذه النقطة بينما ألتف باقى الجيش للهجوم من الخلف ، ونجحت الخطة ، وكان النصر باهظ التكاليف . ولكن كان مارلبورو يعلم متى تصبح الأهداف جديرة بالتضحيات والخسائر الجسيمة ، ويعرف أيضاً أن الجنود سوف يتقبلون هذه الخسائر بشرط أحرازهم للنصر . ولكن هناك حدود للتضحية بأرواح الرجال . وأتذكر الآن بعض القادة الذين كان يطلق عليهم « الجنرالات البارعين فى القتال » ! أبان حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وكانوا يستخفون أستخفافا كاملا بالأرواح البشرية وسوف أعالج هـذا الموضوع فى تفصيل أكثر فى الفصلين ٢٠ ، ٢١ .

الاحتياطى الاستراتيجى (أنظر اللوحة رقم ٢٩)

والآن أصبحت الطرق مفتوحة كما كان يريد مارلبورو سواء من الأمام أو الخلف ، كما أصبح يتمركز فى موقع قوى بين الفرنسيين وفينا . ولم يمض يومان على عبور « تالارد » لنهر الراين حتى كانت هذه المعلومات بين يدى مارلبورو . وبات ضروريا وبسرعة فصل « ماكس أمانويل » عن تحالفه مع الفرنسيين . ولتحقيق ذلك قام الجيش المتحالف لمارلبورو باجتياح وتدمير بافاريا فى يوليه . ولكن كان الأمير ماكس على إستعداد لترك شعبه يعانى أهوال الحرب لفترة وجيزة حيث كان يتوقع أن يقوم تالارد لنجدته . ولم تخدم هذه الوسيلة الحربية البغيضة والتى كرهها مارلبورو بشدة أى غرض مفيد . وفى أوائل أغسطس إنضمت قوات «تالارد» مع قوات «مارسين» « وماكس أمانويل » . وفى ١٠ أغسطس تحركوا شمالا لعبور الدانوب عند « ديلينجين » .

وكان «تالارد» القائد العام ، ويتمتع بذكاء وبقدر أكبر من الإحترام ، ولكنه كان دبلوماسيا أكثر منه جندياً محترفاً ، كما لم تكن لديه السلطة الكاملة على جيشه ، والتى كانت من الأمور الضرورية جداً خلال الحرب . وفى اليوم الثانى أى يوم ١١ أغسطس وصل يوجين إلى الشرق فى نفس الوقت الذى وصل فيه « تالارد » . وقد كتب يوجين من « ميونستر » إلى مارلبورو شارحاً الخطوط العريضة للموقف وناصحاً له بالإنضمام عليه بأسرع ما يمكن . وقد أسرع مارلبورو للإستجابة لطلب يوجين بالإنضمام عليه لأنه كان منذ ثلاث

سنوات وهو يحترق شوقاً حتى يجد فرصة لمقابلة الفرنسيين فى معركة مفتوحة كاملة . وفى ١٢ أغسطس كان الفرنسيون والبافاريون يعسكرون عند بلنهيم الواقعة على الدانوب وإلى الشرق من « هوتشستادت » وعلى مسافة حوالى خمسة أميال أعلى النهر من « ميونستر » . ولم يكن لديهم رغبة أكيدة فى القتال ، ولايتوقعون أن ينشب الحلفاء معركة نظراً لقوة موقعهم . وأكثر من ذلك ، كما تناهى إلى علمهم ، بأن لويس بعيداً عنهم ويقوم بحصار أنجولستادت ومعه ١٥٫٠٠٠ جندى ، وفى الحقيقة أن مارلبورو تعمد التخلص من ذلك الزميل البطىء حتى يعطى لنفسه الحرية فى القتال . وخلال ذلك اليوم أستطلع مارلبورو ويوجين الموقف من فوق برج كنيسة تابفهنم ووضعا خططهما .

وعسكر الجيشان الفرنسى والبافارى فى سهل مفتوح أنتهى منه الحصاد حديثاً ، وكان يقع مباشرة خلف مجرى سيل يسمى « نيبيل » ويصب فى الدانوب من الشمال . وإنتشر الجيشان على مواجهة أربعة أميال ؛ وتمركز جيش تالارد نفسه فى الميلين الواقعين بين قرية « بلنهيم » على ضفة الدانوب وقرية « أوبرجلو » ، بينما تمركز جيش مارسين وماكس من « أوبرجلو » وشمالا حتى قرية أخرى تسمى « لوتزينجين » وإلى الشمال من « لوتزينجين » كانت هناك تلال مكسوة بالغابات ، وبالتالى فقد كانت هناك حماية طبيعية لكلا جانبى الموقع الدفاعى القوى للفرنسيين والبافاريين ، علاوة على أن القرى كانت عبارة عن حصون قوية ويمر مجرى النيبيل من أمامها ، كما كانت هذه الحصون لديها تفوق فى المدفعية . ومهما كانت قوات الطرفين أكثر وأقل كفاءة ، فكان تعداد كل قوة متضادة من الجيشين من ٥٠٫٠٠٠ إلى ٦٠٫٠٠٠ رجل .

لقد وضح لمارلبوروويوجين أن توزيع جيوش الأعداء غير سليم ، فكانت موزعة بشكل غير متصل ، وقد تم وضع الفرسان على الجناحين طبقاً للعرف الجارى فى كل جيش ، عداجيش تالارد الذى وضع فرسانه على يساره لعدم وجود مكان على يمينه نظراً لوجود النهر . وكان هذا يعنى فى الواقع أن مركز الجيوش المشتركة حول « أو برجلو » يتكون بشكل سائد من الفرسان ، ومن المسلم به أن الأرض كانت مناسبة لمعركة الفرسان .

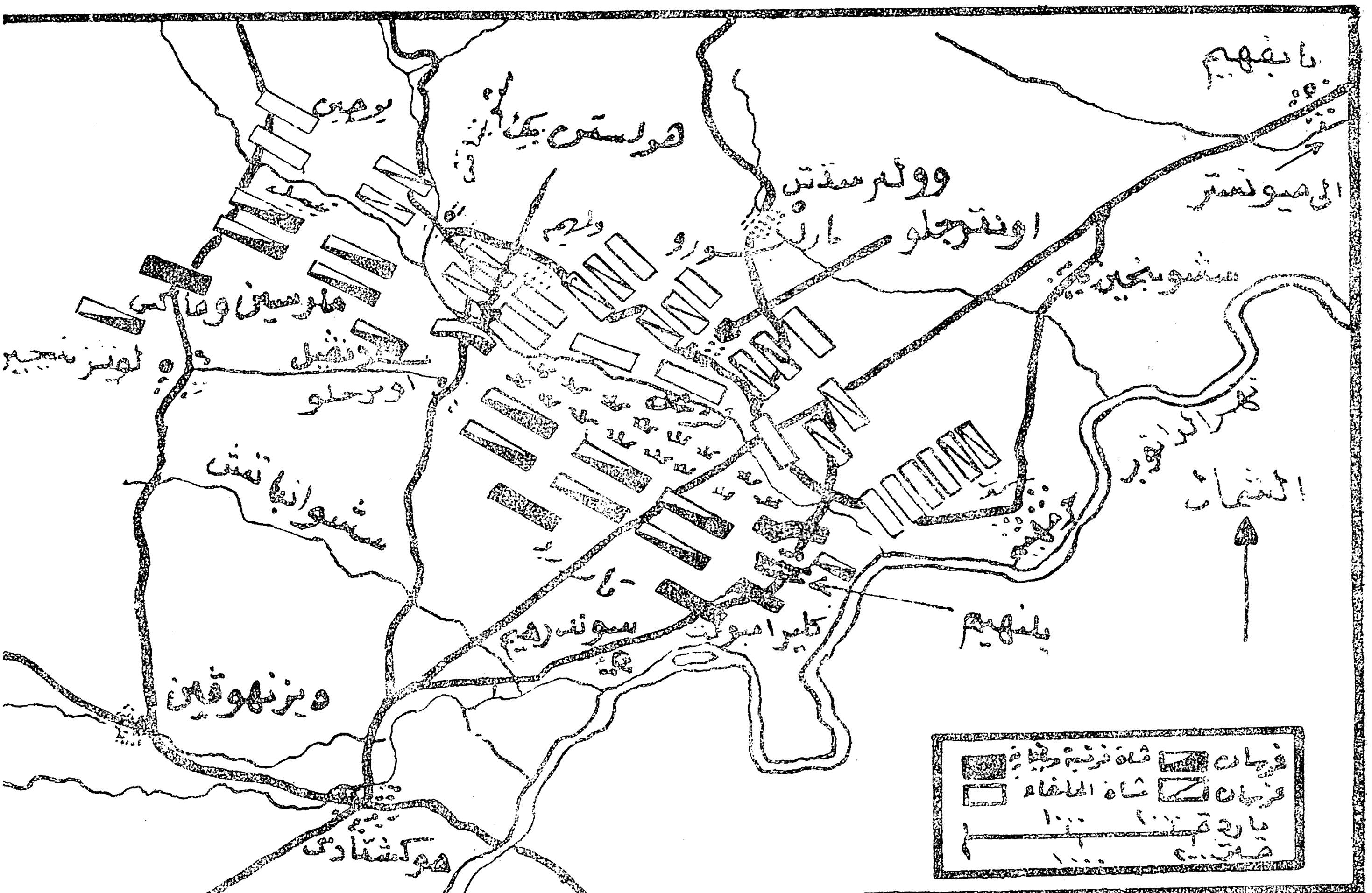

اللوحة رقم ٢٩ - معركة بلنهيم

ومظهراً آخر من مظاهر ضعف تخطيط الفرنسيين ، فكان جيش تالارد يبعد حوالى ١٠٠٠ ياردة إلى الخلف من النيبيل . ولسوف تكون من المفيد فى هذه المرحلة أن ندرس بشىء من التفصيل توزيع القوة الفرنسية البافارية ، لأن تفكير تالارد يحتاج إلى شىء من التعليق . وقد جاء فى بعض المراجع الرسمية بأن سبب وجود جيش تالارد على مسافة ١٠٠٠ ياردة خلف مجرى النيبيل ، لأنه لم يتوقع حدوث هجوم عليه فى ١٢ أغسطس أو حتى فى ١٣ أغسطس ، لذلك أعتقد أنه لاحاجة تدعوه لإتخاذ الحذر من المفاجأة والتى تعتبر من أهم العوامل المؤثرة فى الحرب . وكان هناك قاعدتين تكتيكيتين رئيسيتين تشكلان دائماً جزءاً من تفكيرى العسكرى .

١ — يجب على القوة الموجودة فى حدود مسافة الهجوم من العدو أن يتم توزيعها وتنظيمها فى تشكيل قتال ملائم ، بحيث تكون مستعدة فى جميع الأوقات للقتال بسرعة إذا فوجئت .

٢ — يفقد المانع ٥٠٪ من قيمته إذا ما وضعت القوات بعيدة عنه وإلى الخلف منه ، وهذا سيتيح للعدو إستطلاع طرق الإقتراب المؤدية إليه وبالتالى يستطيع العبور بدون أى تدخل .

وقد أفادنى هاتين القاعدتين فى أكثر من مناسبة فى الحرب . وقد يكون من المفيد أن أذكر مثالين لذلك ، فالمثال الأول فى أفريقيا ، فقد قاتل الجيش الثامن تحت قيادتى شاقا طريقه من العلمين حتى واجه فى مارس ١٩٤٣ خط ماريث المشهور على الحدود التونسية . وهناك أوقفنا روميل ثم قام بمهاجمة جيش أيزنهاور ودفعه إلى أقصى الشمال موقعاً هزيمة فادحة بإحدى الفيالق الأمريكية فى منطقة « جافصة » . وبدأنا نضع فى اعتبارنا عدم الاستخفاف بخصمنا روميل ، وكان لديه قوات قوية فى الشمال وفى المدى المؤثر للضرب على قواتى ، وكان من الممكن أن يستدير ويتحول جنوبا ليشن هجوما مفاجئاً ضدنا ، والذى إذا نجح فسوف يؤخر نهاية الحرب فى أفريقيا ، وهذا هو ما فعله تماما . ولكن قواتنا كانت موزعة فى تشكيل ملائم وعلى أستعداد للقتال بسرعة ، فما كان من روميل أن إنسحب .

أما المثال الثانى فكان فى شمال غرب أوروبا ، ففى ديسمبر ١٩٤٤ كانت جيوش الحلفاء على عتبة ألمانيا تخطط لعبور الراين ، فى ذلك الوقت كان هتلر نجح فى بناء وإعادة تجهيز أحتياطى استراتيجى من بعض الفرق المدرعة ، وكنا نعلم ذلك ، ولكننا لم نستطع أن نتحقق من مكان تمركز هذه القوات .

وكانت الجيوش الإنجليزية والكندية تحت قيادتى فى القطاع الشمالى من مواجهة الحلفاء وحالتها جيدة من التوازن التكتيكى ، ولذلك لم تتواجد لدى أى مخاوف . ولكن لم يكن الحال كذلك على الجبهة الأمريكية ، لأن جيوشهم كانت موزعة فى تجمعين رئيسيين ، وقد فتح كل منهما فى تشكيل المعركة للهجوم وكان يوجد بينهما ثغرة حوالى ١٠٠ ميل عبر الأردن والتى كان يغطيها فيلق واحد فقط مشكل من ٤ فرق ضعيفة .

وبعد أن درس هتلر الموقف أختار هذه الثغرة بالذات ليدفع فيها بهجومه الكبير ، وفوجئت الجيوش الأمريكية ، وأنشطرت جبهتهم إلى قسمين ، وتكبدوا خسائر فادحة تتراوح بين ٨٠٫٠٠٠ مقاتل ولى كلمة عن المواقع والموانع ، فخلال عملية الإنسحاب من بلجيكا إلى دنكرك فى مايو ١٩٤٠ كنت فى ذلك الوقت قائداً للفرقة الثالثة البريطانية . وكنت دائماً أحرص كل الحرص فى التأكد من أن نيران ودوريات قواتى تعوق الألمان من الاستطلاع القريب للمواقع والموانع التى أنشأتها على النهر ، ونتيجة لذلك لم نجد صعوبة فى الإحتفاظ بمواقعنا حتى حان وقت الإنسحاب فانسحبنا إلى مواقع أبعد .

المبارزة بالمدفعية (أنظر اللوحة رقم ٢٩)

لنعد الآن إلى أحداث قصتنا التى أدت إلى معركة بلنهيم . كان الجيش الفرنسى بقيادة تالارد فى المدى المؤثر للجيوش المتحالفة والتى يقودها القائدان العظيمان مارلبورو ويوجين . ولم يأخذ تالارد أى احتياط ضد المفاجأة ، ولو أنه دفع بقواته إلى الأمام حتى حافة النهر فى يوم ١٢ أغسطس لأصبحت عمليات جيش مارلبورو صعبة جداً فى أقامة الجسور وما سيتبعها من عبور الجيش . وكما ذكرت قبل ذلك أن تالارد كان ذكياً ، ولكن فى هذه المرة كان فى غاية الغباء بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان .

أما مارسين وماكس فقد عملا بتعقل أكثر بكثير فى الجزء الشمالى من الجبهة . فقد

أحتفظنا بالأرض الصلدة الملاصقة للحافة السبخية للنهر حتى يمكنهما تدمير قوة العدو قبل أن تستجمع نفسها بعد خوضها لهذا النهر الضحل الذى يشبه المستنقع . لاحظ مارلبورو ويوجين ذلك وقررا نتيجة لتحمسهم للقتال ولثقتهم فى مهارة رجالهم مهاجمة العدو ومفاجأته فى الصباح التالى الموافق ١٣ أغسطس[١] .

بدأ تحرك جيوش الحلفاء قبل الفجر ، ومع شروق الشمس كان هناك تسعة قولات من الجنود قد تدفقت داخل السهل على شكل مروحه متخذين تشكيل القتال ، وتحركت جميع المشاة الدانمركية والبروسية والفرسان النمساوية تحت قيادة يوجين شمالا فى اتجاه لوتزنجين لتشكيل الجناح الأيمن للهجوم .

أما القوة الرئيسية المكونة من الإنجليز والهولنديين والهانوفريين والهسيين تحت قيادة مارلبورو فقد تقدمت مباشرة إلى الضفة الشرقية من النيبيل . وبالرغم من أن تالارد لم يكن يتوقع الهجوم ، إلا أنه فى الساعة السابعة لم يعد لديه أدنى شك فى أن هجوماً سيقع لا محالة . وهب الفرنسيون على عجل يستحثون أنفسهم للعمل بسرعة . وأضطرب تفكيرهم بسبب هذه المحنة والخطر الجاسم عليهم ، ونجحت المفاجأة ، ووجد مارلبورو ما كان يأمله ، فكانت مواقع العدو موزعة بمحاذاة خيامهم .

وقد كان هناك دفاع قوى عن بلنهيم ممثلا فى ٩ كتائب مشاة ويعاونها ٧ كتائب أخرى بالإضافة إلى ١١ كتيبة فى الإحتياطى . وفى المنطقة بين بلنهيم وأوبرجلو كان لدى الفرنسيين ٤٤ سرية فرسان فى خطين تدعمها ٩ كتائب مشاة وأربع سرايا من الفرسان المترجلة بينما دافع عن أوبرجلو ٣٢ سرية فرسان و ١٤ كتيبة مشاة . وإلى اليسار كان هناك ٣٢ سرية فرسان و ١٧ كتيبة مشاة وأخيراً كان يوجد فى لوتزينجين ٥١ سرية فرسان و ١٢ كتيبة مشاة .

وبينما كانت طوابير يوجين تشق طريقها نحو لوتزينجين فوق الأرض المشجرة والمكسرة ، كان مارلبورو يراقب أوضاع أنتشار الفرنسيين والبافارين ، وكان الجناح الأيمن

---

(١) فى نفس التاريخ الذى تولى فيه مونتجمرى قيادة الجيش الثامن فى الصحراء الغربية فى مصر عام ١٩٤٢ ، وقد سجل سيرونستون تشرشل فى مذكرات هذا التطابق ارمنى الغريب . « المـ ـ »

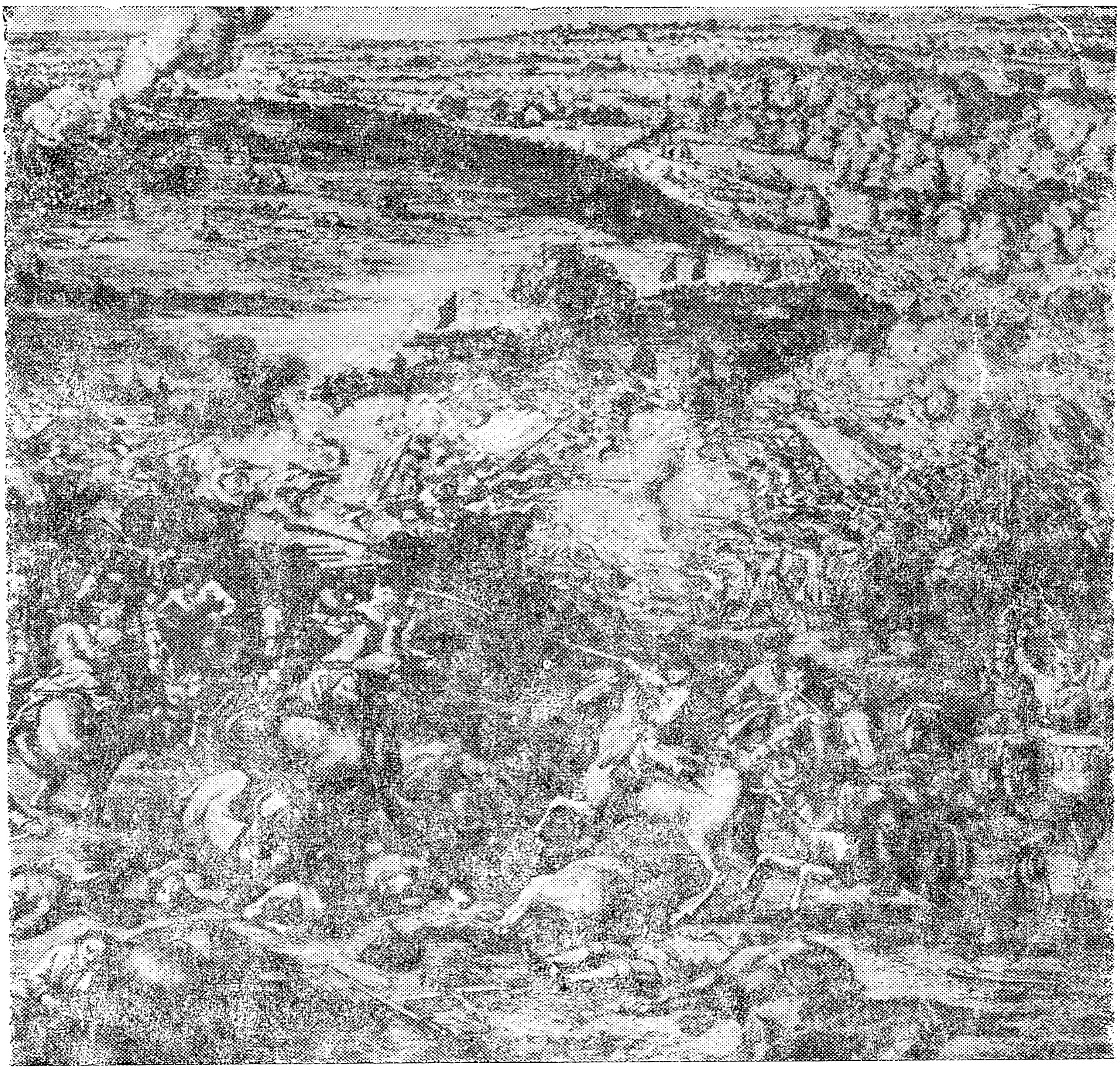

معركة بلنهيم

للعدو قويا وبشكل خاص لوجود قوات كبيرة فى قريتى « أوبرجلو » و « بلنهيم » . بينما كان على يوجين أن يقاتل العدو بقوة فى الشمال محاولا بقدر الإمكان تطويقه من الخلف . وكان الجزء الحاسم من المعركة قد اصبح وشيك الوقوع بين مارلبورو وتالارد فى أقصى الجنوب ، وتوقع مارلبورو مقاومة تالارد له أثناء عبور النيبيل ، وبناءاً عليه فقد نشر مارلبورو جنوده فى تشكيل غير عادى من أربع خطوط .

فى المقدمة كان هناك ١٧ كتيبة مشاة واجبها عبور النيبيل والإستيلاء على الضفة الغربية ، ويأتى من خلفهم خطين من الفرسان ، الخط الأول مشكل من ٣٦ سرية والخط الثانى مشكل من ٣٥ سرية وكان مهمتهما القيام بالهجوم الرئيسى . ثم جاء تشكيل الخط الأخير المكون من ١١ كتيبة من المشاة وكان عليه البقاء على الضفة الشرقية لنيبيل لتغطية أى إنسحاب محتمل للفرسان . ومع بداية المعركة ، كان على المجهود الرئيسى للهجوم أن يوجه إلى القريتين ، وكان هذا سيفاجأ العدو ، كما حدث قبل ذلك ضد أقوى جزء من سشلنبرج . وإذا أمكن تطويق حاميتى القريتين ، فلن يستطيعا القيام بهجوم مضاد على أجناب تقدم الفرسان التى ستتمكن من أختراق منتصف الخط الفرنسى البافارى . وبدأت أول أحداث المعركة فى الساعة العاشرة صباحاً بتحرك قولات اللورد « كتس » المشكلة من المشاة عبر النيبيل فى مواجهة بلنهيم حيث كانت ضفة المجرى متماسكة إلى حد ما ، ولكن كان لا يمكن بدء الهجوم الرئيسى حتى يصل الجناح الأيمن بقيادة يوجين إلى المكان الملائم . وعلى مدى أربع ساعات وحتى الظهر جرت مبارزة بالمدفعية مسببة خسائر فادحة ، بينما مضى المهندسون العسكريون فى جيش مارلبورو فى تركيب ستة كبارى فوق المجرى المائى . وأثناء ذلك كان الرجال يقومون بالصلوات والتضرع إلى الله ، وأخذ مارلبورو يتفقد الخطوط ، وعند أحدى النقط أختفى عن الأنظار نتيجة للأتربة والدخان المنبعث عن سقوط قنبلة بالقرب منه . وكانت الشمس حامية ، وانتظر الجميع فى توتر ولكنه ظهر ولم يصبه خدش .

لا يعرفون سوى كيف يموتون

وأخيراً وبعد الظهر بقليل وصل رسول من قبل يوجين ليبلغ مارلبورو بتمام الإستعداد ، وعليه أصدر مارلبورو أوامره بالتحرك للهجوم . وعلى اليسار تقدم للأمام أول ألوية كتس

نحو بلنهيم ، وكانت الأوامر تقضى بألا يطلق النيران حتى يصلوا إلى السياج المحيط بالفرنسيين. وعندما كان المهاجمون على مسافة ٣٠ خطوة من العدو ، وإذا بقصفة نيران فرنسية تدمر ثلث قوة المهاجمين ، ولكن على الفور تدعم الهجوم بلوائين آخرين .

فى ذلك الوقت كان المركيز « دى كليرا مبولت » قائد الفرنسيين فى بلنهيم قد أرسل يستدعى السبع كتائب لمعاونة كتائبه التسعة الأولى . واستمر القتال بوحشية كما حدث فى سشلنبرج .

وعندئذ فقد « كليرا مبولت » صوابه واستدعى أحتياطيه الأخير المكون من ١١ كتيبة. وواصل جيش مارلبورو هجومه ولكنه لم يستطع اختراق طريقه إلى داخل القرية ، ومع ذلك فقد استمروا فى تنفيذ مهمتهم وهى كسر مقاومة العدو .وبوصول ١٢٠٠٠ جندى فرنسى لمؤازرة قوى الحامية الأصلية أصبحت القرية مكتظة بالفرنسيين بدرجة أن أصبحت حرية الحركة مستحيلة . وهنا أمر مارلبورو بتثبيت ومحاصرة القوات فى بلنهيم حتى لا تكون لديهم القدرة على المشاركة فى المعركة فى أى مكان آخر . وبينما كان هذا القتال العنيف يجرى على الجانب الأيسر طوال اليوم ، كان يوجين يقوم بدور مماثل على مواجهة أوسع فى الجانب الأيمن . وخاض قتالا ضاريا طوال اليوم لحصار وكسر مقاومة العدو بين « أوبرجلو » و « لوتزينجين » مراقباً فى نفس الوقت المعركة الرئيسية التى تدور بعيداً إلى الجنوب وعلى أستعداد لأمداد هذه المنطقة بالقوات إذا دعت الضرورة لذلك ، وربما يحتاجها مارلبورو بالرغم من أنه كان يصعب عليه شخصياً توفيرها .

وأخذت التطورات الحاسمة مكانها فى الوسط عند قرية « أوبرجلو » وجنوبها ، وكان مارلبورو يقود بنفسه القوات فى هذا المكان وفى نفس الوقت يراقب ما يجرى من أحداث عند بلنهيم . وقد ركز مارلبورو أهتمامه بالعمليات فى الوسط والتى عاونه فيها قادته المرؤوسين بكفاءة رائعة وخاصة لورد « أوركنى » وشقيقه « تشارلز تشرشل » . وعلى العكس من ذلك أخذ « تالارد » فى التحرك ذهابا وإيابا عبر مختلف أجزاء جبهة القتال ، دون أن تكون له السيطرة الكاملة على أى منها وغير مدرك فى الحقيقة لما يدور .

وبدا واضحا الآن أن تالارد قد ارتكب خطأ فادحا فى بداية المعركة فى السماح للخطوط

الأولى من مشاة وفرسان العدو فى منطقة الوسط بعبور النيبيل دون أن يتصدى لها فيما عدا نيران المدفعية . وقد تكون فكرته أنه كلما زادت قوات العدو التى تعبر المجرى المائى إلى حد معين كلما زادت القوات التى يمكن تدميرها ودفعها للخلف فيه وذلك عندما يطلق فرسانه الأكثر عدداً فى هجوم مضاد .

وإذا كان ذلك فعلا قد دار برأسه ، فذلك يعنى أنه أساء تطبيق ذلك التكتيك عمليا لأن ما حدث أنه لم ينفذ الهجوم إلا بعد أن تشكلت قوات الحلفاء على ضفة المجرى التى يتمركز عليها قواته . وبينما كان القتال دائراً على أشده ، ترنح واضطرب قوات الحلفاء فى عدة نقط إلا أن تالارد لم يتمكن من دفعها إلى الخلف .

وفى الواقع فقد أستطاع المزيد من قوات مارلبورو العبور وبدأوا فى كسب الأرض بأعدادهم المتفوقة وبتكتيكهم الأفضل .وبفضل الترتيبات الطويلة السابقة عملت المشاة والفرسان فى تعاون وثيق .

فدفعت الفرسان فى المقدمة حيث انقضت على العدو ، بينما وضعت المشاة خلفهم كأحتياطى ومشكلة فى صفوف بينها فواصل حتى تستطيع الفرسان فى حالة الإنسحاب المرور من خلالها وإعادة تشكيل وتنظيم نفسها فى الخلف ثم القيام بهجوم تالى ، وفى ذلك الوقت تقوم المشاة بستر فرسانهم بإطلاق وابل من النيران المركزة على فرسان العدو التى تكون فى أثر فرسانهم .

وكان يستطيع أيضاً رجال المشاة المدربين على استخدام السونكى الوقوف والتصدى لفرسان العدو فى قتال متلاحم بشكل أكثر كفاءة من قبل .

بينما لم تؤدى المشاة الفرنسية دورها كما يجب فى هذه المرحلة من المعركة ، فقد كانت عبارة عن ٩ كتائب من المجندين صغار السن والذين قال عنهم ترافيليا : — « لا يعرفون شىء عن المعارك سوى كيف يموتون فى مواقعهم » .

رسالة الى الزوجة « سارا »

وفى وقت مبكر من بعد الظهر جاءت ذروة المعركة ، عندما تقدمت ١٠ كتائب مشاة من الحلفاء بقيادة أمير « هولستين بيك » لاقتحام قرية أوبرجلو ، وهنا قامت ٩ كتائب

من المشاة الفرنسية والإيرلاندية بقيادة المار كيز دى بلانفيل بهجوم مضاد يائس من القرية واستطاعت رد المهاجمين على أعقابهم حتى مجرى النيبيل مرة أخرى .

وفجأة أصبح الجانب الأيمن فى وسط قوات مارلبورو معرضاً للهجوم ، ولاح خطر إنشطار جيش مارلبورو ، ولاحظ مارسين ذلك ، فقام على الفور بتجميع قوة من الفرسان بالقرب من أوبرجلو . وأدرك مارلبورو ذلك الخطر فأرسل رسالة عاجلة إلى يوجين يطلب منه تدعيمه بالفرسان .

وعندما بدأ رجال مارسين فى الإندفاع نحو مجرى النيبيل لشن الهجوم ، فإذا بلواء الفرسان الذى أرسله يوجين قد وصل فى اللحظة الحرجة وأشتبك معهم ووجه ضربته نحو جنبهم واستطاع طردهم ، وعلى الفور استجمعت مشاة هولستين بيك قواها وعاودت الهجوم مجبرة خصمها على العودة للخلف داخل أوبرجلو وتثبيتهم داخلها . ومن الأرجح أن يكون مارلبورو هو القائد الوحيد من الحاضرين الذى فهم أن النصر فى المعركة أصبح يتوقف على نتيجة هذا القتال .

وأصبح هناك أعداد كبيرة من قوات العدو محصورة فى بلنهيم وأوبرجلو ، كما استطاع يوجين تثبيت جناح العدو الأيسر ، ولم يعد الآن أمام جيش مارلبورو إلا أن يركز قوة ساحقة فى الوسط لتحقيق النصر كاملا .

ولكن مارلبورو أخذ ينتظر الفرصة المناسبة ، وثبت الموقف فى الوسط لكى يعطى لرجاله فسحة من الوقت لتأخذ أنفاسها ويعيد تنظيم القوات والتكتيكات على كل جبهة القتال ، مع تجهيز التشكيلات التى ستقوم بالضربة الحاسمة .

أما يوجين فكان لا يزال أمامه الكثير من العمل الشاق فى الجانب الأيمن . ولم تكد الساعة تعلن الرابعة بقليل حتى كان رجال يوجين يقاتلون حول وخلف « لوتزينجين » . وفى ذلك الوقت أحضر مارلبورو آخر قواته عبر النيبيل ، ووضعها على الجبهه الواقعة بين بلنهيم وأوبرجلو ، وشكلها كالآتى : — خطين من الفرسان وصل مجموعهم إلى ٩٠ سرية ومن ورائهم وضع ٢٣ كتيبة مشاة فى خطين آخرين .

وكان فى الجانب الآخر وفى مواجهتهم يوجد لتالارد ٦٠ سرية فرسان على الأكثر وتسع كتائب مشاة .

وعندما أدرك تالارد أخيراً تكتيكات مارلبورو ، أحضر مشاته ودفعهم مباشرة إلى جنوب أوبرجلو لصد الهجوم .

أما مارلبورو فلم يكن قد أكمل بعد فتح فرسانه فى تشكيل القتال ، ولذا أرسل ٣ كتائب مشاة وبعض المدفعية لتتعامل مع مشاة تالارد .

ولفترة وجيزة ، كانت المشاة الفرنسية لها الأفضلية فى الصدام ، ولكن فرسانهم لم ينتهزوا هذه الفرصة للقيام بالهجوم .

وما أعلنت الساعة الخامسة والنصف حتى كان مارلبورو مستعداً . وقد دمرت مدفعية مارلبورو تقريباً آخر ماتبقى من التسع كتائب الفرنسية الباسلة ، ثم انقضت بعدذلك فرسان مارلبورو فى هجوم كاسح .

ومن فوق أرض لوتزينجين المرتفعة كان مشهد السهل على مرآى من أعين قوات الجانبين . ومع تحرك فرسان الحلفاء للأمام فى خط كبير والفخذ فى الفخذ وبسرعة متوسطة وهى تكسب الأرض ، فما كان من الفرسان الفرنسية أن انطلقت هى الأخرى لتقابلها . والفرسان الفرنسية كانت هزيمتهم محققة حتى ولو كان أعدادهم أكثر من فرسان مارلبورو ، لأن هجوم الفرنسيين كان عبارة عن إندفاع لسرايا فرسان فردية تقف وقفة قصيرة فى اللحظة الأخيرة لتطلق نيران مسدساتها ، وفى هذا التوقف للفرنسيين تزيد فرسان مالبورو سرعتها ضاربين خصومهم بأقصى ما يمكن أن تحققه الصدمة الناتجة من سرعتهم وثقل تشكيلهم المجمع ، معتمدين على السيف فى قتالهم .

أما الثغرات التى حدثت فى خط جبهة مارلبورو نتيجة تحرك الفرسان للقضاء على الفرنسيين كانت تملأ على الفور من الخلف ودفع الفرنسيون للخلف بسرعة ، وأخذوا يتراجعون ولكن سرعتهم زادت حتى وصلت إلى سرعة الهروب .

وتحت ضغط قوات مارلبورو اندفع الشاردون من الوسط الفرنسى نحو الدانوب وأخذوا يتساقطون من فوق المنحدرات ويتخبطون فى المستنقعات .

أما المارشال تالارد والذى كان يشق طريقه إلى بلنهيم إحساساً منه بالواجب فقد وقع

فى الأسر وأحضر إلى القائد العام للحلفاء ، فى تلك اللحظة كان مارلبورو يخط رسالة[1] إلى زوجته سارا وهو على ظهر جواده : — « لا يتسع لى الوقت لأقول أكثر ، ولكن أرجوك أن تبلغى إحترامى للملكة ، وتحيطينها علماً بأن جيشها قد حصل على نصر باهر . وأن السيد تالارد وجنرالين آخرين موجودين فى عربتى وأننى لازلت فى أثر الباقى » .

وفى اللحظة التى تحطم فيها وسط الفرنسيين ، غير اللورد « أوركنى » اتجاه قواته المشكلة من الإنجليز والأسكتلنديين وانضم إلى كتس وتشرشل فى تطويق بلنهيم لمنع أى إنسحاب من القرية إلى ضفاف الدانوب .

أما « كليرا مبولت » ، فقد أصابه الذعر وقفز فى النهر حيث غرق ، ولم تكد الساعة تعلن التاسعة مساءاً حتى استسلم جميع الضباط الفرنسيين الموجودين فى بلنهيم .

وأمكن أسر ٩٠٠٠ رجل غير جريح من قوات العدو الموجودين فى القرية . أما أوبرجلو فقد تم أجتياحها فى زحف كبير . وبقى الآن كل من مارسين وماكس واللذان شهدا ما كان يجرى فى المعركة بالرغم من بعدهما عن مركز الهزيمة ، ففى حوالى الساعة السابعة قاما بعملية إنسحاب منظمة نحو الغرب ، ولم يتم مطاردتهما لعدم وجود إحتياطى عند مارلبورو ، علاوة على حلول الظلام وتحتم عليه التعامل مع عدد كبير من الأسرى بالإضافة أن جيش مارلبورو قد خسر حوالى ٤٥٠٠ قتيل و٧٥٠٠ جريح أى ٢٠ ٪ من قوته . بينما كانت خسائر الفرنسيين حوالى ٤٠٠٠٠ من بينهم ١٤٠٠٠ أسير أى ٧٠ ٪ من قوتهم بالإضافة إلى فقد ٦٠ مدفع .

وكانت معركة بلنهيم معركة حاسمة وعميقة النتائج .

ففى بداية عام ١٧٠٤ كان لويس الرابع قاب قوسين أو أدنى من تحقيق مطامعه للسيطرة على أوروبا ، فقد كانت أسبانيا والأراضى الأسبانية الواطئة وإيطاليا فى حوزته ، كما أن إمبراطور النمسا بدا على وشك أن يتهاوى تحت قدميه .

ولكن لويس بعد الحملة التى قام بها هذا العام ، قرر اتخاذ موقف الدفاع نتيجة لعلمه بأن

---

(١) لقد كتبت هذه الرسالة على ظهر فاتورة حساب أحد الفنادق « المعرب »

جيشه أصبح أقل تفوقاً علاوة على أن اقتصاده أصبح مجهداً . وكان يلتمس فقط سلاماً محترماً لكي يحافظ على حدوده .

وبتلك الحملة التي سار بها مارلبورو إلى الدانوب ، وعلى الأخص تلك الساعات الثلاث التي استعاد فيها زمام الموقف في أوبرجلو وأطلق بعدها هجوم الفرسان ، فقد بدد بذلك السحابة التي كانت تخيم كالسيف المسلط على أوروبا لمدة أكثر من أربعين عاماً . أما الجنود البريطانيون الذين ظلوا في طي النسيان حوالي القرنين والنصف الماضيين في أوروبا، قد حققوا الآن مكانة مرموقة كأفضل جنود في العالم .

عملاق عصره

ولكن حتى الآن فالحرب لم تضع أوزارها بعد ، وقد تعين على مارلبورو أن يخوض القتال في الأراضي الواطئة في الفترة من ١٧٠٥ — ١٧١١ ، بكل المشاكل القديمة والخاصة بجبن الهولنديين وتحصينات الفرنسيين .

وكان من الصعب خلق المعارك بالرغم من تحقيقه لثلاثة إنتصارات كبرى في راميلايز (١٧٠٦) وأودينارد (١٧٠٨) ومالبلاكويت (١٧٠٩) . وكانت الحرب في معظمها حرب حصار ومناورات صغيرة ، ولكن على الرغم من هذه الحرب التي لا تلائم طبيعته إلا أن عبقرية مارلبورو تفوقت . وعلى سبيل المثال ففي عام ١٧٠٨ إقترح أن يتبع إنتصاره في «أودينارد» بتقدم مباشر إلى باريس ، ولكن هذا الاقتراح لم يوافق عليه القادة الآخرون الذين أصروا على محاصرة « ليل » .

وبينما كان يوجين يقوم بالحصار الفعلي ، غطى مارلبورو عملياته ، وذلك لحمايته من تلك القوة الأكبر منه والتي يقودها كل من المارشال « فيندوم » و « بيرويك » . ومن يوليه حتى ديسمبر ظل مارلبورو يصد ويبعد القوة الفرنسية التي أخذت تحاول نجدة المدينة ، وذلك بالقيام بالمناورة التي تجلى فيها الإقتصاد وبعد النظر بشكل غير عادي ، وفي كل مرة كان يتجنب الضربة القاتلة للعدو قبل أن يقوم بها .

ولم يمض على ذلك وقتاً طويلا حتى بدأت العلاقات بين مارلبورو ورؤسائه السياسيين تسوء ، لأن استراتيجيته لإنهاء الحرب لم تتفق مع سياسة أي حزب من الأحزاب السياسية

فى إنجلترا ولذلك فى نهاية عام ١٧١١ أعفى من القيادة .

وقد استحوذ مارلبوروانتباه جميع المؤرخين العسكريين لأنه كان عملاق عصره ، ولكن كان هناك قائدين أقل منه بعض الشيء فى حرب الأرث الأسبانى يستحقان الذكر ، الأول هو « أيرل من بتربورو » والذى قاد الحملة البريطانية على أسبانيا عام ١٧٠٥ ، وفى العامين اللاحقين أخضع وقهر كل من برشلونه وفالينسيا والشاطىء الشرقى فاتحاً بذلك الطريق إلى مدريد . ويرجع تحقيق هذه المكاسب المثيرة وبقدر قليل من القوات إلى الجسارة والجرأة والمهارة فى الخداع ، كما أنها رجعت أكثر من أى شىء آخر إلى سوء القيادة والضعف الغير عادى فى المهارة العسكرية لدى الجانب الآخر .

وقد استولى « بتربورو » على فالينسيا دون أن يطلق قذيفة واحدة حيث أقنع الجنرال الأسبانى « لاس تورمى » والذى كان معه ٧٠٠٠ رجل بالإنسحاب لمدة تقرب من شهر أمام قوة لم تزد أبداً عن ١٣٠٠ رجل بل لم تزد فى أحد النقط عن ١٥٠ رجلا .

وقد قام « بتربورو » بخداع « لاس تورمى » بأن دفع بعض ضباطه عمداً لكى يأسرهم « لاس تورمى » حيث قاموا بتحذير القائد الأسبانى من خطورة وضخامة جيش « بتربورو » ونجحت المكيدة .

وأثارت أعمال بتربورو الرائعة فرحافى لندن وذلك فى الوقت الذى كانت الحرب فى الأراضى الوطئة تتقدم ببطء شديد ، ولكنها كانت فى الحقيقة شيئاً خياليا أكثر من كونها واقعاً حقيقياً .

أما الشخصية الثانية والتى كانت أكثر أهميه هى المارشال « فيلارز » والذى كان إلى حد بعيد أقدر جنرال لدى لويس الرابع عشر بعد « كوندى » و « تورين » . وهو الذى وضع فينا فى خطر عند انتصاره فى ألمانيا عند « فريد لينجين » عام ١٧٠٢ وعند «هونشستادت» عام ١٧٠٣ . وكيفما كان فقد كان فيلارز جندياً محترفاً أكثر من كونه أحد رجال البلاط ، كما أن سرعة إهتياجه وفظاظته قد جعلاه محبوباً بين رجاله أكثر من حب رؤسائه السياسيين له . ولبعض الوقت فقد أجبر « فيلارز » على الإنزواء وعدم الظهور على مسرح الأحداث .

ولـكن فى عام ١٧٠٩ تولى القيادة الرئيسية على الجبهة الشمالية ، وفى الواقع لم يستطع أن يكون أفضل من مارلبورو ، ولـكنه أقام دفاعاً قوياً جداً . وكان مغامراً لا يتردد فى خوض المعارك ، ولـكن كان فى نفس الوقت حذراً بدرجة مناسبة .

وفى عام ١٧٠٩ عندما كان جيشه يشـكل الخط الدفاعى الأخير الفرنسى قبل باريس وكان قوام جيشـه أقل من عدد أعدائه إلى حد كبير ، وبالرغم من أنه كان يعانى شخصياً من جرح خطير حدث له فى المعركة إلا أنه أدار معركة « مالبلا كويت » وجعل انتصار مارلبورو وجيوشه فى هذه المعركة نصراً باهظ التـكاليف .

وفى عام ١٧١٠ استمر فى صد العدو ، وأيضاً فى عام ١٧١١ عندما شيد فيلارز خطه الدفاعى الشهير « خط الذروة » والذى امتد من شاطىء سكاردى إلى نامور . وقد استغرق مارلبورو طوال مدة حملته وهو يحاول إختراق هذا الخط .

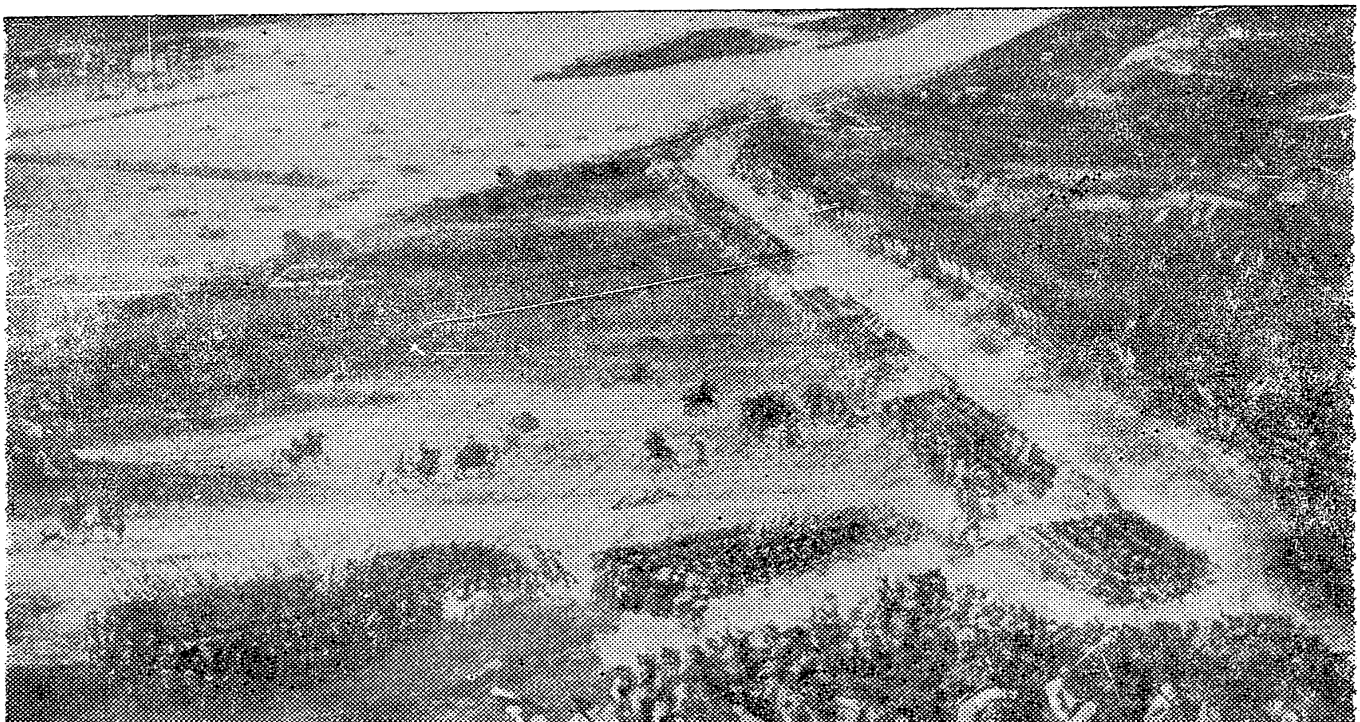

الجيش السويدى يهاجم الجيش الروسى.

وعندما رحل مارلبورو عن المسرح ، استطاع فيلارز النيل من يوجين والتفوق عليه فى عام ١٧١٢ ، وهزمه فى معركة دنين[١] دافعاً الحلفاء للخلف . وهكذا بعد أن خسرت فرنسا كل حملات الحرب ، جاءت فى النهاية وانتصرت . وشكراً لقوة ومناعة تحصينات فوبان وقيادة فيلارز ، وبذلك حصلت فرنسا على شروط معقولة فى المعاهدة الأخيرة «معاهدة أوتريخت» عام ١٧١٣ . وقد عاصرت الحرب الشمالية العظمى بين السويد وروسيا (١٧٠٠ — ١٧٢١) حرب الأرث الأسبانى ، بل استمرت فترة أطول منها . وكانت الدولة الموسكوفية[٢] مجبرة على التوسع إلى أن تجد لنفسها حدوداً يمكن الدفاع عنها . وحدث بالفعل صداماً بينها وبين السويد فى خمسينات القرن السابع عشر ، تلك القوة الكبيرة الراسخة فى الشمال . وسوف أتعرض فى هذه الحرب لشخصية عسكرية واحدة وهى شخصية شارلز الثانى عشر . ففى عام ١٦٩٧ أصبح ماكا على السويد وعمره خمسة عشر عاماً . ومن المؤكد أنه كان يتمتع بصفات شخصية استثنائية ، كما أنه ورث التقاليد العسكرية التى حوفظ عليها منذ عصر جوستاف . وكان مغرماً بالحرب بكل ما فيها من قسوة ومخاطر كما كانت لديه قوة احتمال كبيرة . وتوفرت لديه الرغبة أيضاً فى القيام بنفسه بكل الأعمال البطولية ذات الطابع المتهور والتى كان يطلبها من جنوده . ولكنه كان غير حكيم فيما يتعلق بالتورط فى الحرب مع روسيا .

وقد أتبع « بطرس الأكبر » الاستراتيجية المتمتعة « بقداسة القدم » والتى تتضمن تجنب المعركة وأغراء العدو بالتقدم إلى قلب المناطق المترامية والمفتوحة فى روسيا وبالتالى يجعل العدو يواجه مشاكل المسافة والطقس والدمار والغارات المتكررة التى تشن عليه عبر خطوط المواصلات الطويلة . وكما علق نابليون : — « لقد أنتهك شارلز معظم مبادىء القيادة » .

وكان شتاء عام ١٧٠٨ — ١٧٠٩ قاسياً وبشكل غير عادى ، جعل الجيش السويدى يعانى منه بطريقة مرعبة .

وجاءت الطامة الكبرى فى يونيه ١٧٠٩ عندما كان السويديون يحاصرون « بلتافا »

---

(١) فى فرنسا جنوب غرب فالينسيينز .

(٢) نسبة إلى موسكو

فى أوكرانيا وأطبق بطرس عليهم بقوات كبيرة متفوقة ، وجرح شارلز شخصياً وفر جنوباً ملتمساً حماية الأتراك ، ولم يجد جيشه ما يفعله سوى الاستسلام . وفى الوقت المناسب عاد مرة أخرى إلى السويد وحيداً . ولكنه استمر فى خوض القتال إلى أن لقى مصرعه على يد أحد القناصة خلال حملته فى النرويج عام ١٧١٨ .

وانتهت حرب الشمال العظمى عام ١٧٢١ بمعاهدة « تايسنادت » ، وكانت هذه علامة أضمحلال السويد وأنبثاق روسيا كقوة كبيرة جديدة فى أوروبا .

وقد أعتبر بعض الكتاب شارلز الثانى عشر على أنه أحد القادة الكبار نظراً لقيادته وانتصاراته فى ميادين القتال ، وأنا لاأوافقهم على هذا لأن هذا كثير بالنسبة له . فلم يبدو أن كان لديه أبدا استراتيجية محددة واضحة ، فقد غالى فى تقدير القوة العسكرية للحلفاء وقلل من قيمة القوى الكبرى لمقاومة الروس ، كما فعل كل من نابليون وهتلر فيما بعد . ولم يفهم ماهى السياسة الدولية . . ؟ كما كان يفتقر إلى الحكمة والذكاء . وسيكون تعليقى الأخير عليه أنه لم يكن لديه أى اعتبار بالنسبة لأرواح جنوده ، كما أنه هو الذى أوصل السويد إلى حافة الدمار .

مسابقة القراء

		عدد
الجائزة الأولى :—	١٠ جنيهات مصرية	١
الجائزة الثانية :—	٣ جنيهات مصرية	٢
الجائزة الثالثة :—	٢ جنيه مصرى	٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارىء أن يضع علامة (✓) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم أختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع فى مظروف عليه طابع بريد وترسل فى بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالى :—

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين فى الجزء التالى للكتاب والذى يظهر فى أول كل شهر .

٥ — لقد رصد الفيلد مارشال مونتجمرى الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء السبعة التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

أسماء الفائزين فى مسابقة الجزء الثالث

حل المسابقة :ـ

ج ١ : ٢ — كوبرى ستامفورد .

ج ٢ : ١ — ٢٨ سبتمبر ١٠٦٦ .

ج ٣ : ١ — فيليب أغسطس .

ج ٤ : ٣ — معركة حطين .

ج ٥ : ٣ — الاحتضـان .

ج ٦ : ١ — الراهب الإنجليزى روجر بيكون .

ج ٧ : ١ — فى عام ١٣٢٤ عند « متز » .

ج ٨ : ٢ — جونزالفـو .

ج ٩ : ٣ — أسم مـدفع .

ج ١٠ : ٢ — بين عامى (١٥٧٧ و ١٥٨٠) .

الجـوائز :ـ

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣٩٠٤

باسـم : ناجى عبد المطلب

العنوان : ١٤ ش الدكتور عبد العزيز إسماعيل / مصر الجديدة

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٤٢٧

باسـم : بدر محمـد على

العنوان : ٦٦ ش الفراعنة بالإسكندرية

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٨٤٠

باسـم : حسن عبد الجـواد

العنوان : شارع النـادى بطنطا

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه وعددها ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٥٥٧

باسم : وجيه زكى محمود

العنوان : شارع البحر بدمياط

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٩٥٢

باسم : حسن ممدوح

العنوان : بيروت ص . ب ٢١٣

٣ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣١٢٨

باسم : فواز على جوشه

العنوان : العراق — بغداد ص . ب ٤٢٣

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد (عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* ونظراً لوجود بعض القراء خارج جمهورية مصر العربية سيتم إرسال جوائزهم عن طريق البريد الموصى عليه .

* هذا الكتاب يقع فى سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتجمرى لكل جزء مسابقة وجوائز مالية لها ، فمن لم يسعده الحظ فإلى اللقاء مع مسابقة جديدة فى الأجزاء التالية التى تظهر فى أول كل شهر .

هكذا ينتهى الجزء الرابع من الكتاب ، أما الجزء الخامس فضمنه مونتجمرى الآتى : —

* حرب جنكينزابر .
* شراء الرتب العسكرية .
* المرض والقيادة .
* المعركة التى خالفت كل قواعد الحرب .
* الحرب تحسم بالمعارك .
* حرب العبقرية الفردية .
* معركة أبو قير البحرية .
* الرجال تستخرج من أحشاء الأرض .
* نابليون يحتل نصف مليون ميل مربع .
* إمساك الثور من قرنيه .
* جانكيز خان .
* اختراق سور الصين العظيم .
* رسالة صن — تزو .
* حرب الأفيون .
* اليابان وفن الحرب .
* ضحية بشرية لآلهة الحرب .
* التنين الأصفر .
* ملحمة الحرب .
* الطبقة الكهنوتية .
* بابور النمر .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء الخامس .

عميد

فتحى عبد الله النمر

المسابقة نمرة ٠٠١٥٠٠

١ — مؤسس الدولة العثمانية هو القائد

١ — عثمان .

٢ — أرطغـرل .

٣ — أورخان .

٢ — فى مدينة ادرنه عام ١٥٤٣ انتج اكبر مدفع شوهد حتى ذلك الوقت بواسطة

١ — أربان .

٢ — قسطنطين .

٣ — البارثون .

٣ — حوصرت فينا بالجيش العثمانى تحت قيادة السلطان سليمان وكان تعداده

١ — ١٠٠ر٠٠٠

٢ — ٣٥ر٠٠٠

٣ — ٧٠ر٠٠٠

٤ — كان يقود الاسطول المسيحى فى معركة لبانتو عام ١٥٧١

١ — بارباريجـو .

٢ — دون جوان .

٣ — أندريا دوريا .

٥ — دارت معركة بريتنفيلد بين القائدين

١ — جوستاف وتيلى .

٢ — تورستنسن وبابنهايم .

٣ — فورستنبرج وموترو .

٦ — « لقد تثلمت قرون الملك جوستاف وفقدت حدتها » من قال هذا ؟

١ — مكسميليان .

٢ — ولنشتين .

٣ — فرديناند .

٧ — كانت خسائر حرب الثلاثين عاما في المانيا

١ — ٤ مليون فرد .

٢ — ٩ مليون فرد .

٣ — ٨ مليون فرد .

٨ — لقد أطلق البيرتانيون أسم « عاهرة بابل الصغيرة » على

١ — أمـير الراين .

٢ — قرد كروموبل .

٣ — جوسـتاف .

٩ — لقد تم تحصين الثغرة بين « الجورا » و « الفوسجس » بواسطة

١ — تورين .

٢ — كوندى .

٣ — سباستيان دى فوبان .

١٠ — كان يقود جيش الحلفاء ضد فرنسا فى حرب الارث الاسبانى

١ — مارلبـورو .

٢ — روبرت بلاك .

٣ — جون مونك .

الاسم ______________________

العنوان ______________________

____

____

الحرب عبر التاريخ

AHISTORY OF WARFARE

الجزء الخامس

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكليات العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
فى عيد العلم العاشر والحادى عشر

التصديق بالنشر

خطاب رقم ن / م ث / ١٦ / ٢٠٢١

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٤٥١	**الفصل الرابع عشر : الحروب الاوروبية القرن الثامن عشر** .
٤٥١	* حرب جنكينزاير . . . .
٤٥٣	* شراء الرتب العسكرية . . . .
٤٦٠	* عصر العقل والرضا الذاتى . . . .
٤٦٣	* المرض والقيادة . . . .
٤٦٩	* المعركة التي خالفت كل قواعد الحروب . . . . .
٤٧٨	* الحروب تحسم بالمعارك . . . .
٤٨٠	**الفصل الخامس عشر : عصر نيلسون ونابليون ويلنجتون** . .
٤٨٠	* حروب العبقرية الفودية . . . .
٤٨٢	* معركة أبو قير البحرية . . . .
٤٩٢	* الرجال تستخرج من أحشام الأرض . . . . . .
٥٠٢	* نابليون يحتل نصف مليون ميل مربع . . . . . .
٥١٣	* أمساك الثور من قرنيه . . . .
٥١٨	* نابليون . . . .
٥٢١	* ويلنجتون . . . .
٥٢٣	* نيلسون . . . .
٥٢٥	**الفصل السادس عشر : المغول — الصينيون — اليابانيون** . .
٥٢٥	* جانكيز خان . . . .
٥٣١	* اختراق سور الصين العظيم . . . .
٥٤١	* رسالة صن — تزو . . . .

تابع الفهرس

الموضوع	الصفحة
* حرب الأفيون	٥٤٣
* اليابان وفن الحرب	٥٤٦
* ضحية بشرية لآلهة الحرب	٥٤٩
* التنين الأصفر	٥٥٣
الفصل السابع عشر : الهند	٥٥٦
* ملحمة الحرب	٥٥٦
* الطبقة الكهنوتية	٥٦١
* القائد بابور النمر	٥٦٦
* الفراش واللهب	٥٧٢
الخرائط :	
* اللوحة رقم ٣٠ : أمريكا الشمالية فى القرن الثامن عشر .	٤٥٦
* اللوحة رقم ٣١ : وسط أوروبا فى عهد فريدريك الأكبر .	٤٦٧
* اللوحة رقم ٣٢ : معركة لوثن	٤٧٠
* اللوحة رقم ٣٣ : معركة أبو قير البحرية	٤٨٤
* اللوحة رقم ٣٤ : حملة أوسترليتز عام ١٨٠٥ . . .	٤٩٧
* اللوحة رقم ٣٥ : معركة أوسترليتز	٥ ٣
* اللوحة رقم ٣٦ : إمبراطورية نابليون	٥٠٥
* اللوحة رقم ٣٧ : حرب شبه الجزيرة	٥١٠
* اللوحة رقم ٣٨ . آسيا	٥٣٢
* اللوحة رقم ٢٩ : الهنـــد	٥٥٨

الفصل الرابع عشر

الحروب الأوروبية فى القرن الثامن عشر

حرب جنكينزاير

يتضمن هذا الفصل ثلاث موضوعات رئيسية عريضة عن الحرب فى القرن الثامن عشر. ونبدأ بالتنافس على الإمبراطورية بين بريطانيا وفرنسا والذى كان أساساً مسألة إستراتيجية بحرية وحربا اقتصادية وعلى المستوى العالمى لأول مرة . وكانت الشخصيات الرئيسية هى « جورج أنسون » والذى كان بحارا ممتازاً وخبيراً فى التنظيم البحرى ، و « ويليام بيت » والذى كان من كبار قادة الحرب السياسية، و «جيمس وولف »الرجل العسكرى . ثم يأتى الموضوع الثانى وهو بروسيا ، وسوف نتتبع تطور الدولة العسكرية البروسية وتأثير ذلك على المجتمع ، كما سنحلل صفات وأفكار فريدريك الأكبر (١٧٤٠ — ١٧٨٦) مستندين فى ذلك وبشكل خاص إلى إنتصاره فى « لوثن » فى سيلزيا عام ١٧٥٧ . وأخيرا سوف نفحص عملية الإنتقال من الحروب ذات العلاقة بالسلالات الحاكمة ، إلى الحرب القومية ، كما حدث عام ١٧٩٢ فى حروب الثورة الفرنسية عند « فالمى » حيث حارب الجيش الشعبى الفرنسى ضد البروسيين والنمساويين كأمة مستعدة للقتال دفاعا عن ديموقراطيتها . وأنهت معاهدة أوتريخت عام ١٧١٣ محاولة فرنسا للسيطرة على أوروبا ، ولكنها تركت المصدر الآخر للاحتكاك مفتوحا على مصراعيه ، ألا وهى مسألة التجارة والمستعمرات . وكان التنافس وبشكل رئيسى بين بريطانيا وفرنسا، بينما تورطت أسبانيا فترة من الوقت كحليفة لفرنسا ، أما هولندا ففضلت فى ذلك الوقت الابتعاد عن الصراع .

وكانت الأعوام بين ١٧١٣ — ١٧٣٩ أعوام من التوسع العام فى السفن والتجارة والقواعد ، ومن الناحية النظرية كانت فترة سادها السلام . ولكن التوتر أخذ يزداد فى مناطق حيوية ومعينة وهى : — جبل طارق ومينورقه وغرب أفريقيا وشمال أمريكا والهند .

وبعد سلسلة من الاشتباكات الصغيرة أندلعت الحرب « حــرب جنكينزاير » (١٧٣٩ — ١٧٤٤) فى البحر الكاريبى والتى أندمجت مع الحرب الأوسع نطاقا وهى حرب « التتابع النمسوى » (١٧٤٠ — ١٧٤٨) . وبعد وقفة قصيرة لتجميع القوى أندلع الصراع مرة أخرى فى حرب « السبع سنوات » (١٧٥٦ — ١٧٦٣) ، ثم استمر ثانية فى حرب « الاستقلال الأمريكية »(١) (١٧٧٥ — ١٧٨٣) .

وكانت لكل هذه الحروب مظاهر سياسية أخرى كما تشير أسماؤها ، ولكن كانت الظاهرة الرئيسية منها جميعا هى التنافس الإستعمارى الانجليزى الفرنسى . وذلك ما أدركه « ويليام بيت » ، كما أدرك أيضاً حلول عصر الحرب العالمية وذلك عندما تحدث عن « كسب كندا على ضفاف الألب » وقام بتنفيذ ذلك عمليا باستخدام حليفته بروسيا لتجذب إليها فرنسا بأعداد كبيرة حتى أصبحت فرنسا ضعيفة فى أمريكا . وقد ورد سؤال فى الفصل الأول من الكتاب وهو « لماذا تنشب الحرب ؟ » وقد درسنا العديد من أسبابها ، وألقينا الضوء على صفات معينة فى الطبيعة البشرية وظروفها التى تجعل الرجال يلجأون إلى الحرب ، ولكننا لم نتعرض لتلك الحرب التى أندلعت بسبب « أذن رجل » ومهما كان من أمر ، فذلك هو ماحدث فى حرب جنكينزار(٢) ، وربما تكون القصة غير معروفة لبعض القراء . ففى عام ١٧٣١ بينما كانت إحدى السفن الشراعية الانجليزية « ريبيكا » عائدة إلى إنجلترا من الهند الغربية ، هاجمتها سفينة حراسة أسبانية ، حيث قام قائد السفينة بنهب مخازن السفينة وقطع أذن الربان الإنجليزى « روبرت جنكينز » . وفور وصوله إلى إنجلترا ، قدم جنكينز بشكواه إلى الملك الذى لم يهتم كثيرا بهذا الأمر . ولكن بعد سبع سنوات أعاد جنكينز قصته أمام لجنة من مجلس العموم ، وهنا تسببت روايته فى حدوث هياج سياسى كبير ، وزادت الصحافة من اشتعاله إلى الحد الذى جعل هذا الحادث سببا مساعدا للحرب بين بريطانيا وأسبانيا عام ١٧٣٩ ، والتى تحولت فى النهاية إلى حرب « التتابع النمسوى »

---

(١) انتهت هذه الحرب عمليا باستسلام كورنواليزفى يوركتاون عام ١٧٨١ .

(٢) أى أذن جنكينز .

« المعرب »

شراء الرتب العسكرية

وفى القرن ١٨ كان تعداد الشعب الفرنسى حوالى ٢٠ مليون نسمة ، بينما كانت إنجلترا خمسة ملايين فقط ، إلا أن ميزة الموقع الجغرافى لبريطانيا فاقت قيمة الميزة العددية فى الصراع على البحار . وكان على فرنسا أن تعطى إهتمامها السياسى والعسكرى الأول إلى أوروبا ، بينما كانت إنجلترا فى الجانب الآخر يمكنها أن تكتفى فى هذا المسرح بأن تقدم العون لحلفائها (النمسا وبروسيا) لتناوش فرنسا . وأدى هذا إلى إنقاص جيش مارلبورو وهبوط قوته ، ولم يعد يرسل إلى أوروبا إلا قوات صغيرة فقط مما أدى أن هذه القوات لم تعد تلعب إلا أدوارا تافهة . وكان الأسطول هو القوة الرئيسية لبريطانيا فى القرن ١٨ ، وقد أعطاها موقعها كجزيرة فى المحيط الغربى ميزة إستراتيجية كبيرة منذ البداية . وكما كان يحدث دائما فى سنوات السلم ، فقد ترك الأسطول البريطانى يهبط مستواه إلى حالة سيئة قبل عام ١٧٣٩ ، بالرغم من أنها كانت تملك من الناحية النظرية ١٢٤ سفينة حربية إلا أنه فى الحقيقة كانت هناك ٨٠ فقط صالحة للخدمة، ومن هذه الـ٨٠ لم يكن هناك سوى ٣٥ سفينة فى الخدمة بشكل فعلى ، بينما كانت السفن الفرنسية متفوقة فنيا على السفن البريطانية ولديهم ٥١ سفينة حربية مشيدة حديثا . وفى عام ١٧٤٤ كتب أحد الخبراء الانجليز فى المدفعية قائلا : « لقد ظهر بشكل واضح أن سفننا ذات ٧٠ مدفعا كانت متفوقة قليلا عن سفنهم ذات ٥٢ مدفعا . » ولم يحدث فى القرن ١٨ سوى تقدم طفيف فى تصميم السفن فيما عدا إختفاء السلوقية[1] المرتفعة ، بالإضافة إلى إدخال تغاليف قاع السفن بالنحاس عام ١٧٦١ لزيادة سرعتها واحتمالها . وحتى منتصف القرن ١٩ تقريبا ، كان الفرنسيون فى الحقيقة أفضل بناة السفن فى العالم . وكان هناك تنافس كبير بين ضباط البحرية الانجليزية على قيادة السفن الفرنسية المأسورة مثل السفينة « تريبل[2] » . وفى تلك الحقبة أستخدمت الفرقاطة كطراد سريع . وقد بنيت الاستراتيجية الفرنسية لتتمشى مع قلة سفنهم ، فكانوا يتجنبون المعارك أثناء حماية تجارتهم مع التوسع فى ممتلكاتهم الاستعمارية البرية . بينما كانت الاستراتيجية البريطانية على النقيض من ذلك لأنها هجومية ، هدفها قطع مواصلات العدو وتدمير أسطوله فى البحر . أما الأسلوب التكتيكى

---

(١) السلوقية هى أعلى مقدم السفينة .

(٢) حمولتها ١٥٩٠ طن ولها سطحين وثلاثة صوارى و ٧٤ مدفعاً . « المعرب »

فقد اتبع الجانبان تشكيل الخط المتقدم . كما أن تعليمات القتال المستديمة للأدميرالية البريطانية نصت على عدم خروج أى سفينة من ذلك التشكيل للإشتباك مع العدو فى جميع الظروف والأحوال . ففى المعركة ، كان البريطانيون دائما أكثر ميلا للمبادأة بالهجوم ، وعلى أى حال فكان جمود تكتيكات الخط دائما تعوق تحقيق النصر الحاسم . أما الانتصارات البحرية البريطانية فى الفترة مابين ١٦٩٢ — ١٧٨٢ فقد تحققت بواسطة الرجال الذين تجاسروا على تجاهل التعليمات المستديمة للقتال وكسروا الخط لإصطياد وتدمير العدو . وفى عام ١٧٣٩ ظهر أن كلا من أفراد البحرية الفرنسية والبريطانية كانوا متساويين تقريبا فى نوعيتهم الرديئة ، وقد دب الفساد فى القيادة العليا لبحرية كل منهما نتيجة لنظام شراء براءات الرتب العسكرية وكذلك التعيين فى الوظائف تبعا للمركز الاجتماعى . أما أطقم السفن فقد جند معظمها بالإكراه ، وكان أفضل رجال البحرية هم الذين يجلبون من البحرية التجارية ، وأسوأهم المجرمين والعاطلين . وقد اعتبر الدكتور جونسون أن الرجل الذى يتطوع فى البحرية ، قد تطوع ليذهب إلى الجحيم . وعلى العموم ، أثناء القتال فقد أثبت البحارة البريطانيين أنهم أفضل نوعية من الفرنسيين والأسبانيين . وفى عام ١٧٣٩ استولى الأدميرال إدوارد فيرنون على قلعة وميناء « بورت بللو » فى برزخ « بناما » بعملية برمائية رائعة . وفيما بين عامى ١٧٤٠ و ١٧٤٤ قام الكومودور جورج أنسون برحلته البحرية الشهيرة .

التجارة هى الخندق الأخير

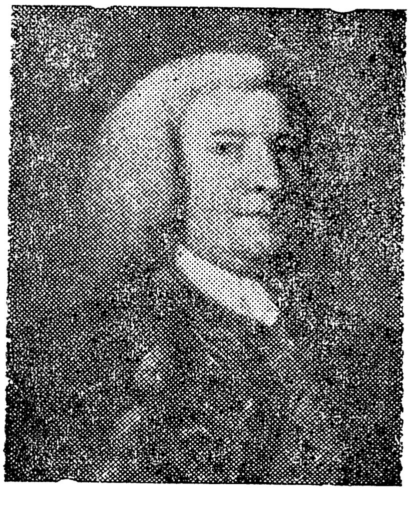

جورج أنسون

وكان أنسون قد أرسل عام ١٧٤٠ كقائد سرب من ست سفن للإغارة على الأسبان فى أمريكا والبحار الجنوبية . وكانت هذه الرحلة تشبه كثيرا لرحلة سير دريك وتغلب أنسون بقوة شخصيته فى القيادة على عقبات ضعف نوعية رجاله ومعداته . وأستطاع أن يلحق دماراجسيما بالأسبان ، بما فى ذلك إستيلاءه على الغليون « مانيلا » المحمل بالكنوز . وفى النهاية وبعد مخاطرة عظيمة عاد إلى إنجلترا عن طريق « الكاب » بسفينة واحدة ، بعد أن طاف حول الكرة الأرضية جالبا معه أثمن شحنة غنمها أحد فى

التاريخ . وقد كانت هذه الرحلة ميدانا لتدريب العديد من مشاهير رجال البحر فى المستقبل ، والذين منهم : — « كيبيل » و« هايد باركر » و« ساوندرز » . وفى عام ١٧٤٧ تولى أنسون القيادة فى أول معركة أمام مياه « كاب فاينستر » حيث حقق النصر بكسر خطه فى اللحظة المناسبة . وكان تفكيره الاستراتيجى الجديد يتضمن تدمير العدو فى البحر مع فرض الحصار على موانيه الرئيسية . ومن عام ١٧٤٥ حتى وفاته عام ١٧٦٢ ظل لورد أنسون فى الأدميرالية، حيث أدخل إصلاحات هامة ، كما انتشلت البحرية البريطانية تحت رعايته من حالتها الفاسدة. وقد أعيد تنظيم الترسانات البحرية ، كما تحسنت حالة السفن التى ارتفع عددها إلى ١٠٠ سفينة أى ضعف مالدى فرنسا وتكاد تساوى قوة الأسطولين المشتركين لفرنسا وأسبانيا . وقد دعم نظام تجنيد البحارة بتقديم المنح المالية لهم ، كما أصبح هناك ضبط وربط جيد ومحكم ، وقضى إلى حد بعيد على الفساد الناتج عن ملكية وتوارث المصالح والسلطات ، وأعطيت الفرصة لعدد كبير من الشباب النابه للوصول إلى أعلى رتب ومراكز الخدمة . فى ذلك الوقت أيضاً كان الفرنسيون لايزالون يشيدون السفن ، ولكن لم تحدث الإصلاحات الأخرى الضرورية فى أسطولهم .

ولذلك عندما بدأت حرب « السنوات السبع » عام ١٧٥٦ كان وضع إنجلترا أقوى من فرنسا فى البحر ، وبالرغم من ذلك كانت الأحداث الأولى للحرب نتيجة لعدم إتقان الإجراءات كارثة لبريطانيا ، وقد فقدت جزيرة « مينورقة » بسبب الأسطول البريطانى الضعيف ، وقدم الأدميرال « بينج » ككبش الفداء حيث حوكم أمام مجلس عسكرى ليعدم رميا بالرصاص . وكان تعليق فولتيرا « هذا لتشجيع الآخرين » ولم يذهب موت بينج هباءاً لأن ذلك شجع أخوانه الأدميرالات على إهمال تعليمات الأدميرالية عندما تستدعى الحاجة . وفى الحقيقة قد أهملت أنا شخصيا تعليمات وزارة الحرب ، ومع ذلك فقد بقيت على قيد الحياة ، لأن النصر فى كل مرة تحقق فى المعركة ، وقد يكون هذا هو الفارق . وعلى أى حال ، فالتشجيع الحقيقى لبريطانيا جاء عندما تسلم « ويليام بيت » السلطة عام ١٧٥٦ . وقد كان « بيت » زعيما حربيا عظيما ورجل دولة من الطراز الأول، ومثل تشرشل جاء « بيت » إلى الحكم فى ساعة حالكة من تاريخ بريطانيا ، وكتشرشل أيضاً قام بتوحيد القوى وقيادة

الشعب البريطانى بخطبه الرائعة . وكما قال بغرور ولـكن فى صـــدق : — « أعرف إنى أستطيع إنقاذ هذا البلد ، وأنه لايوجد أحد آخر يستطيع ذلك » وقد يقول البعض أنه كان أفضل من تشرشل كرجل إستراتيجى لحرب عالمية ، ولـكنى أشك فى هذا . وقد رأى « بيت » أن المصلحة الحقيقية لبريطانيا تـكمن فى السيطرة التجارية ، وأن التجارة يجب أن تـكون « الخندق الأخير » ،وأن الحرب فى أوروبا سوف تفيد إنجلترا كثيراً بأنها ستحول إنتباه وموارد فرنسا عن الحرب فى باقى أنحاء العالم ، ولهذا الغرض قدم « بيت » مساعدات مالية لبروسيا ، ولـكنه لم يعطى إلا قدرا قليلا من التدخل العسكرى المباشر ، وبذلك إستطاع المحافظة على قوة بريطانيا سليمة ؛ وأمـكنه فى ذلك الوقت أن يلقى بجهدها الأكبر

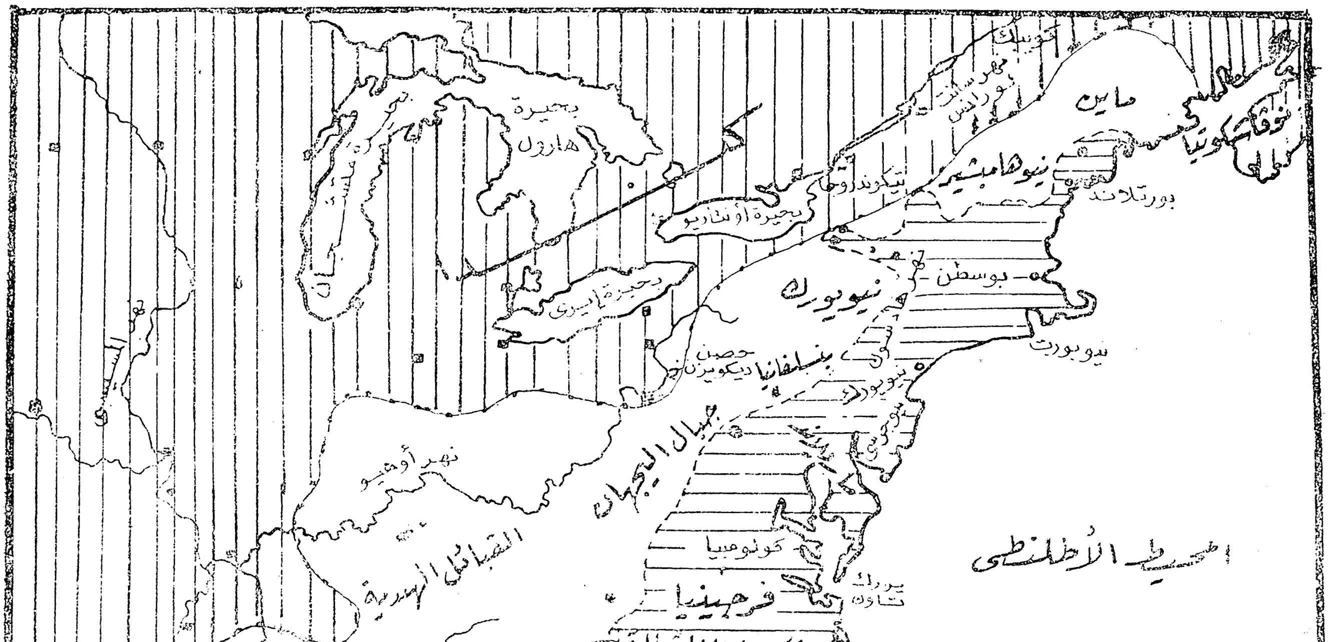

اللوحة رقم ٣٠ أمريكا الشمالية فى القرن الثامن عشر

فى الهند ، وأكثر من ذلك فى أمريكا الشمالية . وسوف يكون هناك فصلا كاملا من الكتاب عن الحرب فى الهند ، ويكفى أن نذكر الآن أن بريطانيا نجحت نجاحا عظيما فى الهند تحت قيادة « روبرت كليف » . والآن سنركز الانتباه على أمريكا الشمالية .

أبرع العمليات البرمائية فى التاريخ (أنظر اللوحة رقم ٣٠)

يجب أن نفهم الموقف الإستراتيجى فى أمريكا الشمالية فى ذلك الوقت ، فالمستعمرات الإنجليزية كانت محصورة فى شريط ضيق يمتد من الشمال إلى الجنوب بين جبال اليجهان والمحيط الأطلنطى ، وكان لدى الفرنسيين كندا فى الشمال ولويزيانا فى الجنوب . وكان هدف الفرنسيين إحتلال وادي نهرى الأوهيو والمسيسبى لكى يوصلوا بين مستعمراتهم ومنع التوسع الإنجليزى غرباً .وسعى الإنجليز لإفسادهذه الإستراتيجية بقطع مواصلات الفرنسيين فى الأطلنطى وشق طريقهم بالقوة نحـــو الغرب . ولكن لم يقدر لهم النجاح حتى ذلك الوقت .

وفى عام ١٧٥٤ خرجت حملة من «فرجينيا» إلى « أوهيو » تحت قيادة جورج واشنطون ولكن هذه الحملة هزمت .

وفى السنة التالية لاقت قوة أكبر نفس المصير ، وأصبح واضحاً «لبيت» فى عام ١٧٥٧ أنه يجب بذل مجهوداً كبيراً فى أمريكا لأنه قرر غزو كندا . وقد تم إبعاد الأسطول الفرنسى من الحرب وذلك بحصار « برست » و «طولون» وبالغارات الإنجليزية على طول إمتداد الساحل الفرنسى على الأطلنطى . ووضع « بيت » خطة هجوم ذو ثلاث شعب على الفرنسيين فى أمريكا وساعده فى وضعها قادته المساعدين وهم : — لورد أنسون (القائد العام للبحرية) ولورد ليجونير (القائد العام للجيش) . وكانت العملية الرئيسية من هذه العمليات عبارة عن هجوم برمائى على كندا الفرنسية من الشمال حتى نهر سانت لورانس ، وكان طريق الإقتراب المؤدى إليها تسيطر عليه مدينة لويسبرج المحصنة على طريقة فوبان وبها ٤٠٠ مدفع . وقد قاد حملة ١٧٥٨ ضباط من الشاب نسبياً وعلى جانب عظيم من المقدرة ، فقد قاد « أمهرست » و « وولف » ١١٫٠٠٠ رجل بينما قاد « بوسكاون » ٢٢ سفينة .

وسقطت لويسبرج أمام أول عملية مشتركة من الدرجة الأولى .أما الشعبة الثانية للهجوم

التى تمت فى نفس الوقت فى ذلك الصيف كانت حملة من القوات النظامية ومن الميليشيا بقيادة « جون فوريس » للاستيلاء على قلعة « ديكويزن » وفتح الطريق إلى أعالى وادى أوهيو . وبعد أعمال بطولية فذة نجحت هذه الحملة وأعيد تسمية قلعة « ديكويزن » بقلعة « بيت » ثم بعد ذلك « بيتزبرج » . أما الشعبة الثالثة من الهجوم ، فكانت حملة « أبركرومبى » من الجنوب فى إتجاه « نيكوندروجا » و « كويبك » والتى فشلت . وفى عام ١٧٥٨ تم إنجاز ما فيه الكفاية للمضى نحو فتح كندا . وفى عام ١٧٥٩ ركزت بريطانيا كل جهودها للزحف إلى أعلى نهر سانت لورانس فى أتجاه كويبك ، وتولى القيادة الميجر جنرال جيمس وولف البالغ من العمر ٣٢ عاماً . وإذا أستعرضنا تاريخ حياته فنجد أنه بدأها فى ١٤ عاماً فى مشاة البحرية ، ثم نقل وهو ملازم إلى البحرية وعين فى فوج سفولك وعمره ١٥ عاماً ، وعندما بلغ ١٦ عاماً حضر القتال فى معركة « ديتنجن » .

وعمره ١٨ عاماً حضر معركة « كلودين » ، وعمره ٢٣ عاماً قاد فرقة رماة اللانكشير . وكان جندياً محترفاً وطالباً مجداً فى دراسة فن الحروب ، كما كانت لديه خبرة كبيرة فى الفن العسكرى من عمر مبكر ، وكان أيضاً مثقفاً وبارعاً فى ميادين أخرى ، فكان كاتب نثر جيد . وبالرغم من إخلاصه لرؤسائه ووطنيته العميقة ، فقد كان ميالا للصراحة الجريئة والنقد . وكان وولف من حسن حظه أنه دائماً كان على صواب ، كما كان محظوظاً بنفس القدر لأن « بيت » كان يشجعه ولا يقف فى طريقه بسبب امتعاض وحقد الضباط الأعلى منه .

ويعتبر الإستيلاء على كويبك عام ١٧٥٩ من أبرع العمليات البرمائية فى التاريخ ، وكان الجزء الخاص بعملية المرور الأولى للأسطول الذى يقوده « شارلس ساوندرز » خلال التيارات والمياه الضحلة لنهر سانت لورانس هو أبرع هذه العمليات ، ففى نهاية يونيه نزل وولف ومعه ٩٠٠٠ جندى على الجانب الجنوبى من النهر ، وكانت كويبك فى مواجهتهم فوق مرتفعات « أبراهام » ويدافع عنها حوالى ١٦٠٠٠ رجل تحت قيادة قائد قدير هو « مونتكالم » وتعاونهم مدفعية قوية . وكان مصدر قوة وولف هو تحكمه فى النهر ، مما مكنه من تحقيق المفاجأة . وقد استقر الفرنسيون فى الحصن ثابتون وقد يكون ذلك أحكم . فى ذلك الوقت ظل وولف يبحث لعدة أسابيع عن طريقة للاستيلاء على كويبك بحيث لاتكون عملية

إنتحارية ، وعند نهاية يوليه بدأ ييأس ،وكانت صحته سيئة للغاية. وفى أغسطس وصله تدعيم من ١٢٠٠ رجل وفى أوائل سبتمبر قرر المخاطرة بهجوم عبر ممر صغير متعرج يصعد الجرف نحو أعلى النهر على مسافة ميل ونصف من كويبك . وكان هذا المريبدو من المتعذر تسلقه بدرجة جعلت الفرنسيون يدافعون عنه بقوة صغيرة فقط. وفى ليلة ١٢/١٣ سبتمبر عبر الجيش النهر وقام بعملية إنزال مفاجئة ، وعند الفجر بدأ يظهر الجيش فوق المرتفعات . وباختصار قررت هذه المعركة نهاية كندا نتيجة قصفة نيران واحدة أطلقت فى توقيت ملائم تماماً ، أما وولف فقد قتل .

أكبر قوة أمبريالية فى العالم .

لقد كان وولف جندياً عظيما ولسوف أجد من الصعوبة وضعه ضمن « القادة العظام » لأن شهرته بنيت على منجزات سنة واحدة ، وكما كتب عنه ليدل هارت « لقد لمع عبر سماء التاريخ مثل الشهاب » .

وعلى العموم ، فالدارس للحرب وللطبيعة البشرية سوف يجد قيمة كبيرة فى سنين كفاح وولف الأولى عندما كان يعد نفسه ليكون مستعداً للفرصة عندما تسنح ، وعندما جاءت الفرصة كان مستعداً .

وفى « وسترهام » حيث ولدعام ١٧٢٧ أقيم له تمثال فى المروج بالقرب من الكنيسة ، وكنت دائماً أقف أتطلع إليه عند زيارتى لشارتويل حيث منزل السير ونستون تشرشل . ولم يكن وولف قوى الجسم بل كان فى الواقع مثل نيلسون ضئيل الجسم ولكنه لا يعرف الخوف فى القتال. وأثبت أن الروح العظيمة يمكن أن تتواجد فى الجسد الضئيل . وكنت عادة أناقش ويفل فى موضوع القيادة وكنت أؤكد أنه لا يمكن كسب المعارك إذا كان القائد فى حالة صحية سيئة ، وكان ويفل يرد على ذلك بقوله بأن نابليون كان دائماً يشعر بالمرض ولا يمكن مقارنة وولف بالقادة العظام مثل مارلبورو أو ويلينجتون لأنه لم يخض معركة على مستوى معاركهما الكبيرة ، أما المعركة التى أدت إلى الإستيلاء على كويبك فقد نشبت بين قوات توازى فى مجموعها فرقة واحدة من فرق منتصف القرن ٢٠ . والمعركة الفعلية لم تتعد سوى ربع ساعة تقريباً ، ولم يكن هناك أدنى شك فى نتيجتها بعدأن أطلق الإنجليز قصفتهم الأولى المروعة ،

أما الخسائر فكانت طفيفة حوالى ٦٥٠ من الإنجليز وحوالى ١٥٠٠ من الفرنسيين . وبالرغم من نطاقها الصغير ومدتها القصيرة ، فقد غيرت من تحالف كندا الذى انتقل من فرنسا إلى إنجلترا وبالتالى فقد كانت من أعظم المعارك فى العالم .

ومن المثير بشكل خاص دراسة الثلاثة أو الأربعة أشهر للحملة والتى أدت إلى هذه المعركة ، وكذا صفات قادة الجانبين ، والذى كان وولف أهمهم ، ولكن كان هناك أيضاً « بواجينفيل » والذى كان أركان حرب « مونتكالم » ، و« جيمس كوك » الملاح الذى طاف البحار بعد ذلك . ولم يكن الإستيلاء على كويبك سوى أحد مظاهر نجاح الجيوش البريطانية عام ١٧٥٩ . وفى هذا العام أثمرت إستراتيجية بيت ليس فقط بفتح كندا ، ولكن بسلسلة من الإنتصارات فى جميع أنحاء العالم . ففى « ميندن » بأوروبا ساهمت المشاة البريطانية فى نصر للحلفاء . وفى لاجوس هزم « بوسكاون » أسطول طولون الفرنسى ، كما حطم هوك أسطول « برست » فى خليج « كويبرون » ، ونتيجة لذلك بقى الفرنسيون بدون قوة بحرية حتى نهاية الحرب .

واستولى الإنجليز على « جوادلوب » فى الهند الغربية و«جورى » فى غرب أفريقيا . وفى مستهل عام ١٧٦٠ كانت معركة « داندواش » بمثابة ضربة قاضية للفرنسيين فى الهند . ومن وجهة النظر الإنجليزية فقد إستمرت الحرب حتى عام ١٧٦٣ .

وفى عام ١٧٦٣ تم التصديق فى معاهدة « سلام باريس » على جميع مكاسب إنجلترا من الحرب تقريباً عدا مكاسبها فى الهند الغربية . وبالرغم من إقصاء بيت من منصبه عام ١٧٦١ على يد ملك جديد وحقد خصوم سياسيين ، خرجت إنجلترا من الحرب فى شكل أكبر قوة إمبريالية فى العالم .

عصر العقل والرضا الذاتى

وكالعادة ، بعد أن انتصرت إنجلترا فى هذه الحرب العظمى أهملت قوتها العسكرية والبحرية . وقد كان هناك تناقضاً واضحاً بين إدارتها لحرب « الإستقلال الأمريكية » (١٧٧٥ — ١٧٨٣) وبين ماسجل عن حرب « السبع سنوات » ، فقد ظهرت المشاكل الإدارية للقتال على مثل هذه المسافة الضخمة ، ولكنها لم تكن أسوأ مما كانت عليه فى

الحرب ضد الفرنسيين. وأهم من كل هذا ،مشكلة النقص الكامل للقيادة العسكرية والسياسية الجيدة ، مما أدى أن إنجلترا لم تستطع أن تسحق بسرعة ذلك التمرد الذى بدأ فى أول الأمر كمجرد ثورة بسيطة وتلقى تأييداً ضعيفاً .

وقد كانت هناك نقطة طريفة فى هذه الحرب ، أيهما كان أسوأ فى المعدات وأسوأ فى القيادة؟ القوات الأمريكية أو القوات الإنجليزية ..؟وعلى أى حال فقد نضج جورج واشنطون كقائد بالرغم من أنه لم يكن سوى جندى متوسط الكفاءة ، كما أن الأمريكيين أنفسهم لم يتعودوا إلا هذا النوع من القتال والتى يتمشى مع طبيعة أرضهم .

بينما كان الإنجليز يقاتلون وهم مرتدين الأردية الحمراء وفى تشكيلات منضمة عقيمة ، كان الأمريكيون هم أيضاً يموهون أنفسهم باللون الأخضر ويقاتلون كجنود غير نظاميين. وكان العامل الحاسم فى الحرب هو تدخل فرنسا ثم أسبانيا والولايات الهولندية المتحدة ضد إنجلترا فى عام ١٧٧٨ ، ولم يكن فى استطاعة الأسطول البريطانى كبح الأسطول الفرنسى الذى أعيد بناءه من جديد ومعه أساطيل حليفة تعاونه ، وأصبحت الحرب نوعاً آخر من الحروب

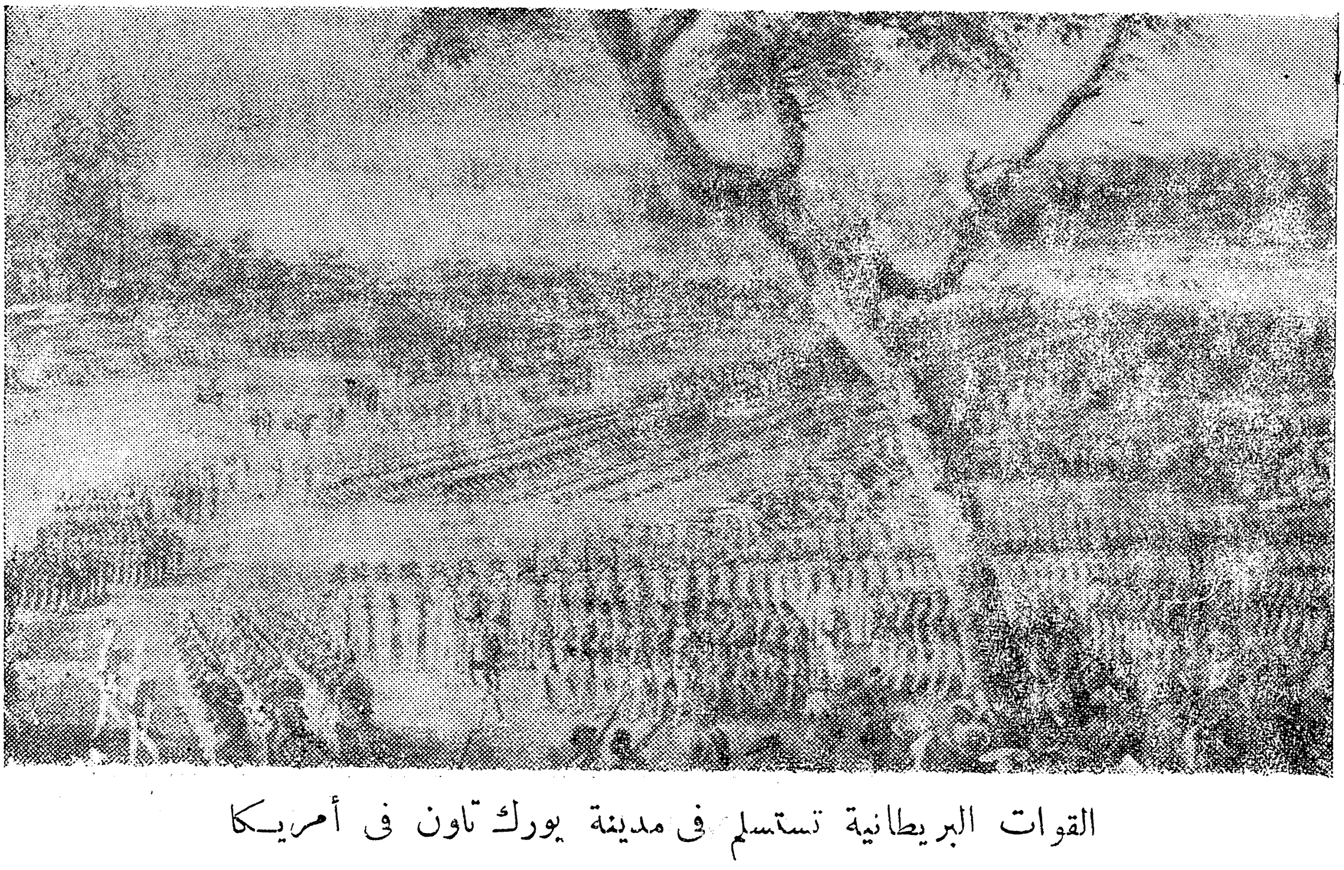

القوات البريطانية تستسلم فى مدينة يورك تاون فى أمريكا

العالمية . واستماتت إنجلترا فى الحفاظ على مستعمراتها المترامية الأطراف . وفى عام ١٧٨١ أجبر الجنرال « كورنواليز » قائد القـــوة البريطانية الرئيسية فى أمريكا على التسليم فى مدينـــة « يورك تاون » وذلك عندما أصبح جيش واشنطن الـكبير خلفه وبذلك أصبحت مواصلاته البحرية مقطوعـــة .

وقد أنقذ الأدميرال « رودنى » الموقف إلى حد ما بانتصاره على الأسطول الفرنسى خارج دومينيكا عام ١٧٨٢ ، مما أدى إلى إنقاذ « جامايـكا » وفى نفس الوقت حطم هيبة الأسطول الفرنسى . ومع ذلك فـكانت بريطانيا محظوظة لأنها بموجب معاهدة فرساى فى السنة التالية لم تخسر أكثر من مستعمراتها الأمريكية فقط . ومن الطبيعى أن يـكون فن الحرب فى القرن ١٨ محدوداً على الأرض ، بنفس القدر فى البحر . وتميزت الحرب بفقدها عنصر الإثارة والعنف ، فقد كان هذا العصر هو عصر العقل والرضا الذاتى . وقد وقع هذا العصر بين عصر التعصب الدينى فى القرن ١٧ وعصر التعصب القومى فى القرن ١٩ .

وقد حدثت معظم حروب أوروبا نتيجة لأسباب تتعلق بالسلالات الحاكمة ، ولذلك كانت أهدافها محدودة .

وكانت إدارة الحرب مقيدة بالتقاليد والعادات المتبعة ، كما كان التركيز فى الإستراتيجية والتكتيك منصباً على المناورة وتجنب الإفراط فى القتال ، بمعنى عدم البحث عن العدو لتدميره .

أما حرب الحصار فقد كان لها نصيب كبير فى ذلك العصر . وأصبحت الجيوش نتيجة لنموها وكبرها جامدة وقد فقدت خفة الحركة وفى نفس الوقت باهظة التـكاليف . وبقدر الإمـكان منع تأثير الحرب من أن يمتد إلى الحيـاة المدنية . وكان تجنيد الجيوش يتم من النبلاء والصعاليك وهى الطبقات الوحيدة المستعدة والمتيسرة فى ذلك الوقت .

وكانت القومية تأثيرها ضعيفاً على ولاء الجنود لها ، ولذلك كان من الضرورى التركيز على التدريب الشاق والضبط والربط والقواعد الجامدة والقاسية حتى على الأقل لغرس الـكفاءة ومنع الهروب من الخدمة ، أما الضباط فتفشى فيهم الفساد وتجنب العمل مع وجود هوة عميقة تفصلهم عن الجنود ممثلة فى تعاليهم وتـكبرهم وعدم كفاءتهم . وبـكل هذه الأبعاد ، كانت حرب القرن ١٨ فى مجملها عادية وضعيفة . ومهما كان فلم يـكن من المستحيل أمام الرجـل

العبقري أن يحقق شيئاً فى هذه الظروف ، ويبرهن على ذلك وبوضوح سيرة أعمال المركيز « دى ساكس » « وفريدريك الأكبر »

المرض والقيادة

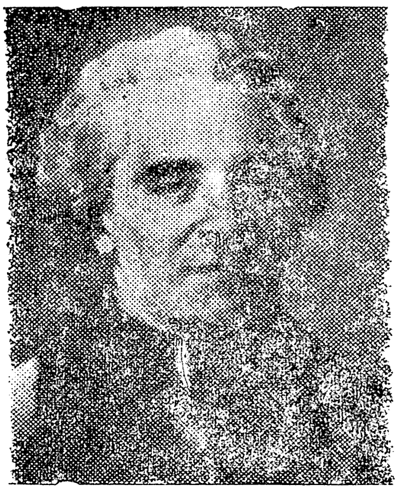

المركيزدى ساكس

كان ساكس يخدم تحت قيادة يوجين وبيتر الأكبر ، وحقق شهرته الأولى بهجومه الليلى المفاجىء والإستيلاء على براغ . وأصبح أبرز القادةالفرنسيين فى حرب «التتابع النمسوى» (١٧٤٠ — ١٧٤٨) . وفى عام ١٧٤٥ أحرز أشهر إنتصاراته على البريطانيين فى «فونتنوى». وفى العام التالى إكتسح الأراضى الواطئة . وفى عام ١٧٥٠ توفى تاركا عدداً كبيراً من الأبناء غير الشرعيين ، والتى كانت منهم واحدة هى أم جدةجورج صائد. وعلى العموم فقدأهملت دراسة سيرته العسكرية ، ويرجع ذلك لأن المؤرخين كانوا يميلوا لتوجيه إهتمامهم بفريدريك الأكبر ملك بروسيا ، والذى كانمعاصراً له. وفىأربعينات القرن ١٨ وخلال سنوات توليه القيادةالعليا فى الميدان ، كان يعتبر أحدأوائل قادة عصره . والسبب الرئيسى الذى يجب أن يذكر ساكس من أجله هو كتابه الذىنشر بعدوفاته بتسعة أعوام « أفكارى الخيالية » وسبق لى فى جزء متقدم من هذا الفصل ذكر وجهة نظرى والخاصة بعدم إمكان كسب المعارك إذا لم يكن القائد فى صحة جيدة . ولكن يبدو أن ساكس مثله فى ذلك مثل وولف لا يوافق على رأيي لأن صحته كانت متدهورة وكان يعانى كثيراً من الإستسقاء . وفى الحقيقة أعجزه هذا المرض فى معركة « فونتنوى » بدرجة لم يستطع إمتطاء حصانه ، واضطرإلى التفتيش على قواته وهو راكباً عربة مكشوفة. وقدقرأت أن مغامراته الغرامية فى شبابه ساهمت فى إعتلال صحته . أنه لمثال أضعه أمام كلمن يطمع للوصول إلى القيادة العليا فى مهنة الجندية .

وفى كتابه « أفكارى الخيالية » أدان ساكس تقريباً كل مواطن الضعف فى حرب القرن ١٨ ، ودافع عن المبادىء الصحيحة والتي نسيت كلها منذ العصر القديم ، والتى أيضا

لم تطبق عمليا حتى مجيء نابليون . وقد استنكر العبودية للعرف والتقاليد واستنكر فوق كل شيء الجمود وعدم الحركة . وأعلن أنه قد أضاع وقتا طويلا جدا فى تحصين المدن وكان من الأفضل الدفاع عن المواقع ذات القوة الطبيعية .

وأكد أن خفة الحركة وسهولة المناورة وكفاءة الأمداد هى المتطلب الرئيسى للنصر الحاسم ، « وأن الدور الرئيسى يعتمد على الأرجل وليس على الأذرع » . ورغبة فى أن يكون جيشه نموذجى فى القرن ١٨ فشكله من ٤٦٠٠٠ جندى فقط ، « لأن العدد الكثير يزيد فقط من الإرتباك والتورط فى المتاعب .

ومثل هذا الجيش يجب أن ينظم بشكل مرن أى فى نظام ألوية أو فرق ، مع الاستفادة من القوات الخفيفة التسليح ، وعلى القائد أن يخلق الفرصة المناسبة ولا ينتظر ظهورها ، ويجب أن يركز قوته ضد مواطن الضعف ، وعليه مطاردة العدو لتدميره . وأدرك ساكس بوضوح عامل الروح المعنوية والتوازن الحساس بين عزيمة الاندفاع إلى الأمام وغريزة العودة للخلف . وأكد أن هناك أشياء صغيرة يمكن أن تكون من العوامل المساعدة الكبيرة لرفع الروح المعنوية مثل استخدام الدرع والموسيقى ، والشارات ، وتسميه الكتائب بأسماء مستديمة بدلا من تسميتها بإسم القائد الحالى ، والخدمة الوطنية ، والترقية بالجدارة . وكل هذه الأشياء مطبقة ومألوفة الآن ولكنها كانت فى ذلك الوقت غير طبيعية ، وهذا يدلنا على ندرة نوعية وكفاءة العقلية العسكرية لساكس .

فريدريك الاكبر (أنظر اللوحة رقم ٣١)

وفى عام ١٧٤٠ أصبح فريدريك الثانى والملقب «بالأكبر» ملكا على بروسيا وترجع الخلفية التاريخية الأساسية لمنجزات فريدريك العسكرية إلى التنظيم الإدارى والاجتماعى والذى تمت بواسطة اثنين من أسلافه من عائلة « هوهنزولين » وهما « الأمير الأكبر فريدريك ويليام » (١٦٤٠ — ١٦٨٨) والملك« فريدريك ويليام الأول» (١٧١٣ـــ١٧٤٠).

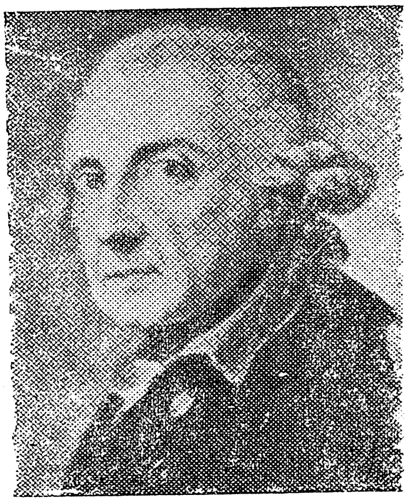

فريدريك الأكبر

وكانت الأرض الأصلية المبعثرة لبراندنبرج وبوميرانيا فقيرة اقتصادياً ولا يتوفر فيها دفاعات طبيعية ولذا إذا أراد حكام عائلة هوهنزوليرن (١) الإحتفاظ بمركزهم السياسى قوى وجب عليهم إنشاء حكومة وجيشاً قويين . وهذا ماحدث ، فقد جعل الأمير الأكبر من نفسه سيداً مطلقاً لجهاز حكومى واحد مركزاً على تنظيم إمداد الجيش وأمكن تنفيذ هذه العملية بواسطة الاتفاق الذى تم بين الحاكم والنبـــلاء والذى كان يطلق عليهم « الجونكرز (٢) » .

وفى عام ١٦٥٣ منح هؤلاء النبلاء الأمير السلطة المطلقة والإمكانيات المادية لتكوين جيش دائم ، على شرط أن يقصر سلك الضباط عليهم ، ويخضع الفلاحين فى ضياعهم لعبودية الأرض .

أما الطبقة المتوسطة فى شرقى نهر الألب فكانت ضعيفة لتقاوم هذا الاتفاق . وكان هذا بداية الاستبداد والعسكرية فى بروسيا . وكان دليل ظهور الجيش البروسى الجديد فى أوروبا هو انتصارهم على السويديين فى « فهربلن » عام ١٦٧٥ .

وفى عهد فريدريك ويليام الأول زادت قوة الدولة البروسية زيادة هائلة ، فقد تضاعفت الميزانية ورفع حجم الجيش من ٣٨٫٠٠٠ إلى ٨٠٫٠٠٠ رجل .

أما فريدريك الثانى قبل أن يصبح ملكا عام ١٧٤٠ كان مولعاً بالأدب الفرنسى والعزف على الفلوت أكثر من ولعه بالتدريب على القتال ، ولكنه ما أن أصبح ملكا حتى تحول سريعاً إلى واقعى قاسى ومخلص بشدة للتقاليد البروسية والتى أخذت تستقر . وكانت الأوراق الرابحة لبروسيا هى جيشها ومليكها . وكان تعداد سكانها بين الدول الأوروبية يأتى فى المرتبة ١٣ .

وبالرغم من أن نواة أفواج الجيش البروسى قد جندت من مقاطعات بروسيا ، إلا أن غالبية رجال هذا الجيش جندوا من الخارج ، وباختطافهم عند اللزوم . وكانت الوظيفة الأولى للبورجوازيين البروسيين والفلاحين هو الإنتاج الإقتصادى . وفى الجيش كان معظم الضباط

---

(١) لقد انخفض قيمة عائلة هوهنزوليرن فى حرب « الثلاثين عاماً » .

(٢) الجونكر هو عضو الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية الروسية . «المترجم»

بروسيين من أصل نبيل ، وقد اعتمد عليهم فريدريك أكثر من اعتماده على رجاله ، وقد سر هؤلاء النبلاء بالخدمة العسكرية مقابل ما يتمتعون به من امتيازات . وكانت كل أسرة نبيل ترسل على الأقل أحد أبنائها إلى المدرسة الحربية . وقد تم غرس فى نفوس الضباط حب الوحدة الوطنية بالإضافة إلى الضبط والربط ، كما تلقوا تعليما عسكريا عمليا . وكان فريدريك يعتبر أن أفضل ما يمكنه عمله لرجاله هو تدريبهم حتى يصبح كل منهم إنسانا آليا عالى الكفاءة « يخاف من ضباطه أكثر من خوفه من الأخطار المعرض لها » . وقد كان لهذا التدريب العسكرى القاسى هدفين أساسيين : —

أولا : ففى الجيش المكون أغلبه من العناصر الأجنبية التى تفتقر إلى العزيمة الصادقة والروح المعنوية العالية فكان الإكراه والقسوة فقط هما اللذان يخلقان الضبط والربط واليقظة والتماسك .

ثانيا : كان فريدريك يدرك تماماً أن خفة الحركة هى مفتاح النصر فى ظروف ذلك العصر ، وأن طابور المعركة المتماسك هو وحده الذى يحققها ويجب أن تكون التشكيلات والتقدم فى أراضى الاستعراض مثل تلك التى تتم فى ميدان القتال . وصحيح كان النظام صارما وحياة الجنود قاسية ولكن فريدريك نجح مع رجاله ، لوجوده بينهم فاكتسب معرفة وخبرة كبيرة بهم .

أما السلاح الرئيسى للجيش البروسى هو السونكى (١) وبمضى الوقت طور فريدريك نوعية الجيش البروسى، ولكن الإدارة التى آلت إليه عام ١٧٤٠ كانت جيدة ما فيه الكفاية مما جعله يشعر بالثقة الكاملة فى استخدامها . وفى هذا العام غزا أراضى سيليزيا النمساوية المجاورة وكان تبريره الوحيد لذلك أن « سيليزيا » سوف تكون مكسباً إقتصادياً واستراتيجياً نفيساً لبروسيا . وبهذا العدوان بدأت حرب « التتابع النمساوى » فى أوروبا ، وسرعان ما اتسعت الأبعاد السياسية لهذه الحرب ، ولكن فريدريك ظل يضع هدفه الرئيسى نصب عينيه ، واحتفظت روسيا بسيليزيا بعد انتصارها فى «مولوتيز» (١٧٤١) و « هوهنفر مدبرج »

(١) السونكى المركب على البندقية من أيام مارلبورو ولكن أدخل الجيش البروسى تعديلا طفيفاً مثل استخدام القضيب الحديدى لتنظيف البندقية (حربى التنظيف) . « المعرب »

(١٧٤٥). ولم يحل السلام إلا فى عام ١٧٤٨ ولـكنه لم يكن أكثر من هدنة ، لأن النمسا لم تـكن راضية عن هذا الوضع .

وفى عام ١٧٥٦ دخلت بروسيا الحرب مرة أخرى ، وقدمت إنجلترا لها العون المـالى ولـكن كان عدوها هذه المرة النمسا وفرنسا وروسيا وسكسونيا . وكانت هذه الحرب هى حرب « السبع سنوات » (١٧٥٦ ــ ١٧٦٣) .

المبادأة والمفاجأة

(أنظر اللوحة رقم ٣١)

ومرة أخرى ، كان فريدريك القائد الأعلى للقوات فى هذه الحرب ، وكان يتمتع بمصدر قوة ضخم عند تخطيط وتنفيذ استراتيجيته وذلك لأنه الحاكم المطلق لحكومة ذات كفاءة عالية واتجاه عسكرى علاوة على قيادته لجيش كفء .

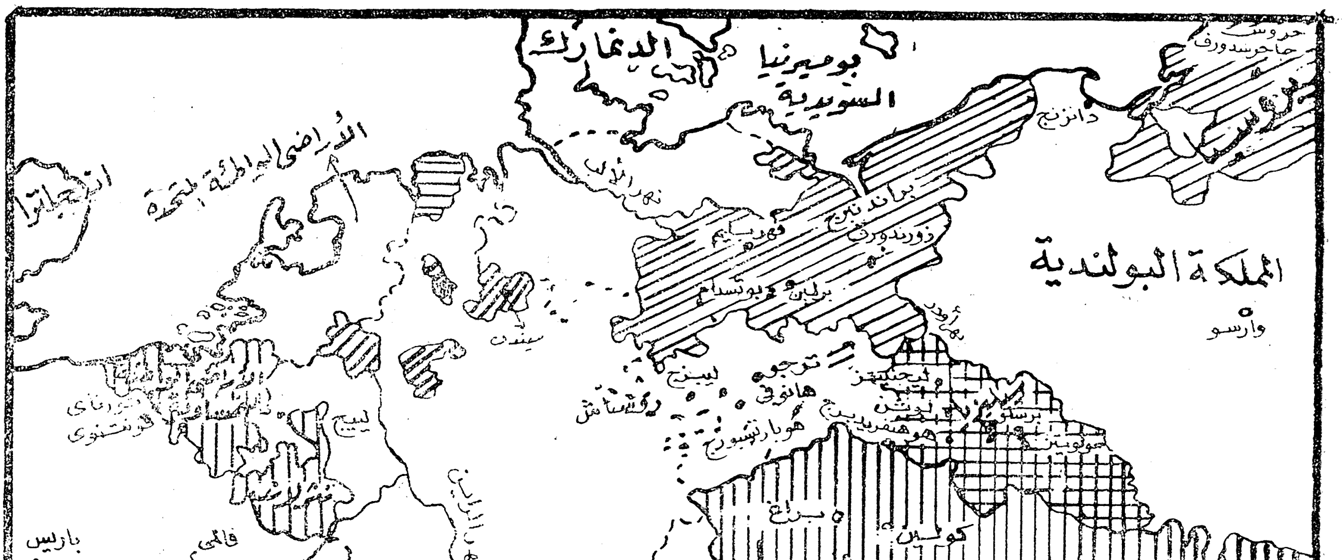

اللوحة رقم ٣١ وسط أوروبا فى عهد فريدريك الأكبر

وكان يؤمن بأن هدف الاستراتيجية هو تدمير قوات العدو وليس فقط إحتلال أو الدفاع عن قطعة من الأرض ، وهذا الرأى يخالف كل معاصريه عدا ساكس ووولف . وكان جوهر استراتيجيته يكمن فى عاملين — القوة . . وخفة الحركة . وإذا قامت روسيا بهجوم قوى حاسم على أرض العدو فسوف يعطيها هذا عنصر المبادأة كما سيجبر قائد العدو على إخضاع تحركاته لتحركات فريدريك . وإلى جانب ذلك كان لفريدريك أعداء كثيرين فى هذه الحرب فإذا انتظرهم ليهاجموه فى تنسيق فيعنى هذا تعرضه أكثر من أى وقت للتدمير . وحيث أن فريدريك يتميز بخطوط مواصلات داخلية جيدة داخل بلاده ، فقد كان أسلوبه هو التحرك بسرعة وضرب أحد أعدائه بقوة ثم بعد ذلك التحرك بسرعة مرة أخرى لمواجهة عدو آخر .

وهكذا أفتتح الحرب بنفسه بغزو سكسونيا بدون إعلان الحرب عليها ، ثم بعد ذلك هزم النمسا فى معركة براغ عام ١٧٥٧ ولكن بعد ذلك فى هذا العام هزمه النمساويون والذين كانوا يتفوقون عليه عدديا بدرجة كبيرة عند كولن ، ثم هزمه الروس أيضاً عند « جررس جاجر سدورف » .

وعلى أواخر خريف عام ١٧٥٧ بدا أن نجم روسيا أخذ يأفل ، ولكن نوعية الحكومة وشجاعة الملك وجودة الجيش مكنهم من الاستمرار قدما فى الحرب . وفى نوفمبر كسب فريدريك والذى كان لا يزال فى موقف الهجوم ، نصراً كبيراً على الجيش النمساوى الفرنسى المشترك عند « روسباش » فى سكسونيا .

وفى ديسمبر دار على القوات النمساوية الأخرى بقيادة الفياد مارشال « دون » و « تيشالز » حاكم اللورين وهزمهم عند « لوثن » فى سيليزيا . وكانت تكتيكات فريدريك وكذا استراتيجيته دائماً هجومية ، ويرجع ذلك لاعتقاده بأنه إذا حصل على المبادأة ، فيمكن لقواته ذات التدريب العالى وخفة الحركة واستخدام أسلحتها جيداً فتستطيع هزيمة أى عدد من قوات أعدائه البطيئة ، وكان هذا ممكنا نتيجة لإتقان جنوده طابور المعركة . وكان دائماً يردد فريدريك : — « الكتيبة البروسية هى بطارية متحركة لأن سرعة تعمير الجنود للبنادق تجعل النيران المنتجة تعادل ثلاثة أضعاف نيران العدو » . وهذا أعطى البروسيون التفوق على العدو بنسبة ٣ : ١ . واستخدم فريدريك « الوضع المائل » استخداما

جيداً فى المعركة ، ولكن ليس هناك دليل يثبت أنه مبتكر هذا الأسلوب التكتيكى . وأكثر الاحتمالات أنه طور من طريقة « أباميننونداس » القائد الطيبى . ويعتمد نجاح هذه الطريقة على خفة الحركة وقد شرح فريدريك هذا الأسلوب التكتيكى كما يلى : —

« ثبت جناحاً واحداً أمام العدو وقوى الجناح الآخر الذى سيقوم بالهجوم ، وبهذا الجناح الأخير قم بأقصى ما يمكنك من العمليات ضد جناح واحد للعدو على أن تفاجأه بالهجوم من الجنب . ويمكن بهذه الطريقة أن جيشاً مكوناً من ٣٠٫٠٠٠ مقاتل أن يهزم جيشاً من ١٠٠٫٠٠٠ مقاتل فى وقت قصير جداً ، ومزايا هذه الطريقة هى :

١ — يمكن لقوة صغيرة قتال قوة أكبر منها بكثير .

٢ — يمكنها الانقضاض على العدو فى نقطة حاسمة .

٣ — إذا ما هزمت ، فيهزم جزء واحد فقط وباقى ¾ الأخرى لاتزال غير مجهدة ويمكنها ستر إنسحاب القوة التى هزمت » .

وبشكل فعلى ، كان فريدريك فى جميع معاركه أقل عدداً من عدوه . وفى الواقع كانت كل أوروبا بالفعل تحارب ضده خلال حرب « السبع سنوات » ، وعندما يهاجم جيشاً معادياً ضخماً فى موقع دفاعى قوى ، فقد كان يحاول تحقيق المستحيل ، كما حدث فى « لوثن » . ولكن انتصاراته فى « روسباش » و « لوثن » أثبتت صحة أساليبه فى القتال ، كما كانت من الأعمال التكتيكية الممتازة .

المعركة التى خالفت كل قواعد الحرب (أنظر اللوحة رقم ٣١ ، ٣٢)

وفى معركة « لوثن » كانت احتمالات الفوز بعيدة بشكل كبير عن جيش فريدريك . فمنذ معركة « روسباش » فى أوائل نوفمبر تمت هزيمة قوتين بروسيتين أخريتين ، مما رفع الروح المعنوية للنمساويين وبشكل ملحوظ . وكان الجيش النمساوى فى معركة « لوثن » بقيادة « دون » و « تشارلز الموريني » يتكون من ٨٤ كتيبة مشاة و ١٤٤ أورطة فرسان و ٢١٠ مدفع وكان عددهم يتراوح بين ٦٠٫٠٠٠ و ٨٠٫٠٠٠ رجل . أما جيش فريدريك فكان يتكون من ٢٤٠٠٠ رجل مشاة فى ٤٨ كتيبة ، ١٢٠٠٠ من الفرسان فى ١٢٨ أورطة و ١٦٧ مدفعاً ويتراوح عددهم ٣٦٫٠٠٠ رجل فقط . ولكن فريدريك بالرغم من

قلة عدد جيشه وبمجرد وصوله بالقرب من العدو فى سيليزيا وهى الأرض التى يعرفها جيداً ، كان مصمماً على الدخول فى معركة حتى ولو أدى به ذلك ، كما أعترف لضباطه « أن يخوضها ضد قواعد الحرب ». وفى ٤ ديسمبر احتل النمساويون موقعاً فى خطين أمام نهر «سشويدنتز»

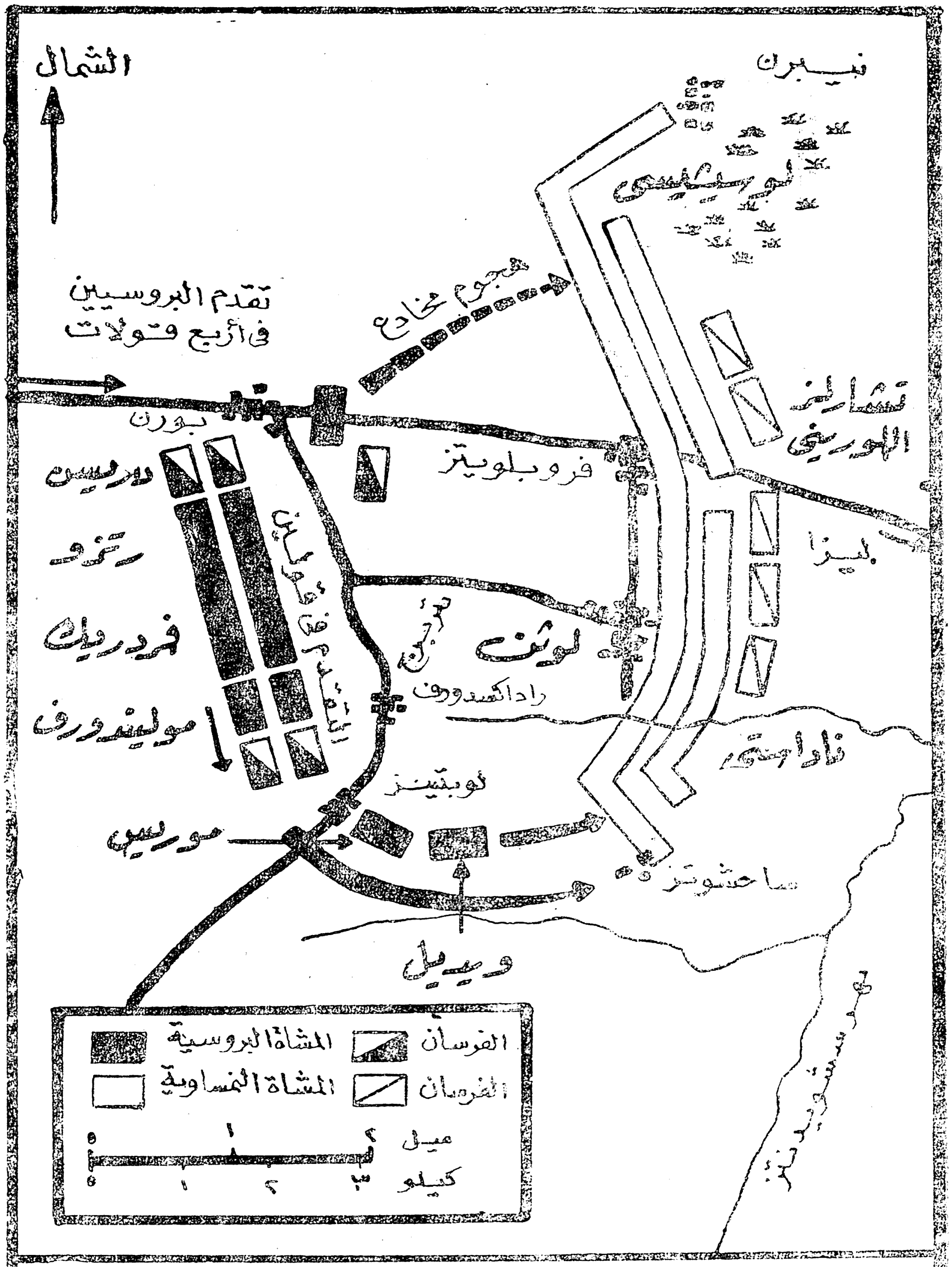

اللوحة رقم ٣٢
معركة لوثن

بمواجهة خمسة أميال ونصف وقد امتد من مستنقعات « نيبرن » فى الشمال إلى قرية « لوثن » ومنها جنوباً حتى « ساجشوتز » . وكان موقعاً دفاعياً قوياً بالرغم من طوله بعض الشىء . فى الخامسة من صباح ٥ ديسمبر عام ١٧٥٧ تقدم فريدريك من الغرب مباشرة وعلى امتداد طريق « برسلو » ، وكانت خطته القيام بهجوم مخادع على الجناح الأيمن النمساوى لتثبيته بينما يحشد قواته ويتحرك أمام مواجهة العدو الطويلة ليضربه بقوة كبيرة فى الجناح الأيسر . واصطدم الحرس الأمامى البروسى[1] تحت قيادة فريدريك نفسه مع العدو عند قرية « بورن » وسط ضباب الفجر . وانقض البروسيون على الفور بالرغم من عدم تأكدهم من القوات المعادية هل هى قوات أمامية أو جناح العدو الأيمن . وقد ظهر بعد ذلك أنها لم تكن سوى تشكيل متقدم للعدو يتكون من خمسة أفواج وسرعان ما أمكن تمزيقه وسقطت « بورن » . ومنها وبعد تبدد ضباب الفجر استطاع فريدريك رؤية كل مواجهة مواقع العدو . أما أرض المعركة فكانت تنحدر لأسفل خلف بورن وبذلك أمكن إخفاء تقدم الأرتال البروسية الأربعة الرئيسية عن النمساويين .

ومع وصول جيشه الرئيسى أرسل فريدريك الحرس الأمامى لمطاردة أوائل الشاردين النمساويين مع القيام بهجوم مخادع على الجناح الأيمن للعدو ، ونتيجة لاعتقاد « لوسشيسى » قائد الجناح الأيمن النمساوى أنه على وشك أن يواجه هجوماً شاملا ، فقد قام بطلب نجدة سريعة من الجناح الأيسر ، وأرسلت له مع بعض الفرسان التى تعمل فى الجناح الأيسر . وقد كان ذلك نجاحاً كاملا للخطوات التمهيدية لفريدريك والذى بدأ بعدها يضع الجزء الرئيسى من خطته موضع التنفيذ . فقام بتشكيل أرتاله الأربعة فى رتلين والتف بهما إلى اليمين فى اتجاه الجنوب ثم دفعهما إلى يمين العدو ، وتم كل هذا وهما مختفيان عن الأنظار نتيجة لانحدار الأرض . ووصف أحد الذين حضروا هذه المناورة للجيش البروسى : — « أنه من المستحيل على المرء أن يشاهد منظراً أكثر جمالا من تقدم الجيش البروسى ، فكانت كل رؤوس الأرتال موازية كل منها للأخرى ، وعلى مسافات متساوية من الخط الذى يسيرون بمحاذاته ، والفرق كلها تسير بدقة حتى أنها بدت وكأنها فى استعراض عسكرى » .

---

(١) كان يتكون من ١٠ كتائب مشاة و ٦٠ أورطة فرسان . « المعرب »

وكان القادة النمساويين يتوقعون هجوماً مباشراً بالمواجهة ، وعنـد ما لم يحدث ذلك وصلوا إلى إستنتاج أن الجيش البروسي قرر عدم الهجوم . وفجأة ، صحوا من وهمهم عندما أصبحت رؤوس الأرتال البروسية على مرى البصر وهى تلتف حول جناحهم الأيسر ، مابين «لوبتيتز» و « ساجشوتز » ، وطلب « ناداستى » قائد الجناح الأيسر النمساوى العون ، إلا أنه بعد منتصف النهار بقليل أقتحمت المقدمة البروسية تحت قيادة « ويديل » وفى معاونتها بطارية من ست مدافع والتى سرعان ما تبعها « موريس » أمير ديسسو ومعه ست كتائب مشاة دفاعات « ساجشوتز » . وأشتبك « ناداستى » مع طلائع الفرسان البروسية والتى تتكون من ٤٣ أورطة تحت قيادة « زيسين » ، ولـكن بعد قتال متأرجح هزم الجنـاح الأيسر النمساوى هزيمة منكرة . وأكتظ الميدان بين « ساجشوتز » و « لوثن » بالشـاردين النمساويين والذين طاردتهم الخيالة البروسية الخفيفة ويتقدم خلفها المشاة والمدفعية البروسية . أما تشارلز اللوريني والذى أصابه الفزع الشديد وهو فى الوسط فقام على الفور بأستدعاء القوات التى كان أرسلها إلى الجناح الأيمن ، وأخذ يرسل المشاة ، كتيبة تلو الأخرى للدفاع عن « لوثن » ، حتى أصبحت القرية مزدحمة جداً بالمدافعين مما أدى إلى أنتشـار الفوضى والأضطراب بين صفوفهم ومواقعهم ، ومع ذلك فقد قاوموا الهجوم البروسى بشجاعة مستميته ، مما أدى أن فريدريك أضطر لدفع قوات أكثر مما كان محدداً لهذه المرحلة ، ولـكن تم الأستيلاء على القرية أخيراً بهجوم بارع قام به حرس « موليندورف » . وكان التقدم التالى للبروسيين شمالا لازال صعباً ، لأنه أثناء الدفاع عن « لوثن » كان لدى الجناح النمساوى الأيمن الوقت لوضع بطارية مدفعية على التل الواقع أعلى القرية . وتحت سـتر نيران المدفعية أستطاعت المشاة النمساوية أن تتشكل فى أتجاه ملائم أى بزواية قائمة على مواجهتهم الأصلية . وأصدر فريدريك أوامره لرتله الأيسر بالتقدم ، المشاة بقيادة « رتزو » والفرسان بقيـادة « دريسن » ، ولـكن نيران المدفعية أوقفتهم . وعلى الفور رد فريدريك على ذلك بتنظيم نيران مدفعيته[1] من فوق ربوة إلى الغرب قليلا من لوثن تسمى « بتربرج » .

وقد أجبر تأثير نيران هذه المدفعية وبمعاونه هجوم القوات البروسية الجناح الأيمن النمساوى

---

(١) وتضمنت عشر مدافع فوق الثقيلة . « المعرب »

على التقهقر للخلف . ومع الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم ، أخذت القوات النمساوية فى الأنهيار ، وقام « لوسيشيسى » بآخر محاولة ، فلبرهة من الوقت أصبحت مشاة « رتزو » فى موقف حرج ، جعل « لوسيشيسى » يتأهب لأطلاق فرسانه للهجوم على جانبهم الأيمن . ولكن كانت أورطة فرسان « دريسين » الأربعين مختفية خلف قرية « رادا كسدورف » وأنطلقت فى اللحظة الحاسمة تحت ستر نيران بتربرج وأنقضت على قوات « لوسيشيسى » من ثلاث جهات وأنزلت بهم هزيمة نكراء . أما باقى المشاة النمساوية فقد هوجمت بنفس الطريقة من جميع الأتجاهات ، وبحلول الظلام كان الجيش النمساوى يلوز بالفرار بأقصى سرعته ، بينما تابع فريدريك أنتصاره فى هذه الليلة حتى « ليزا » فقط . وفى ٦ ديسمبر أعطى فريدريك جيشه قسطا من الراحة ، وبعد ذلك وعلى مدى ثلاثة أيام قام بتطهير بقايا جيش العدو فى الريف المجاور . وفى ١٩ ديسمبر سلمت برسلو ، وبذلك أصبح أستيلاء البروسيين على سيليزيا مؤمناً . ووصف نابليون معركة لوثن بأنها : — « معركة عظيمة فى حركتها .. ومناوراتها .. ونتائجها . » وأضاف قائلا : — « إنها وحدها لكافية لتخليد فريدريك ووضعه فى مصاف أعظم القادة » . ولكن بالرغم من أن هذا النصر كان نصراً تكتيكياً باهراً إلا أنه لم يكن أستراتيجياً حاسما ، لأن الحرب أستمرت خمسة سنوات أخرى ، خاضت فيها بروسيا الحرب وحدها ضد خصوم أكبر بكثير مما سبق ، وفى أحد المراحل عام ١٧٥٩ أحتل الروس بالفعل برلين .

ولكن درأ فريدريك الهزيمة بشجاعته التى لا تقهر وبالأنتصارات التالية فى « زورندورف » (١٧٨٥) وفى ليجنيتز (١٧٦٠) وفى ترجو (١٧٦٠) . وفى عام ١٧٦٢ غيرت روسيا موقفها ، وفى معاهدة « سلام » هوبرتسبرج » فى العام التالى أحتفظت بروسيا بسيليزيا والتى تعتبر أحد أكبر الفتوحات التى حدثت فى أوروبا .

خفة الحركة وقوة النيران

لقد خرج الجيش البروسى بعد حرب « السبع سنوات » منهكا ولكن راضياً عن نفسه ، فقد أحتفظ بنظمه وعقائده الراسخة . فى الناحية الأخرى كانت هناك فرنسا حيث صدم الكثيرون فيها من أحداث الحرب ، وبدأت فترة جديدة من إعادة التفكير وإعادة التنظيم .

وكان إستخدام فريدريك للمدفعية التى تجرها الخيول أبتكاراً بالغ الأهمية ، وذلك الابتكار أنعكس على التحسينات الفنية التى أدخلت على المدافع الثقيلة التى صنعت فى السنوات اللاحقة ، كما أنعكس أيضاً على خفة الحركة والأهتمام بها .

وقبل حرب ١٧٤٠ أبتكر « جان دى ماريتز » طريقة جديدة لثقب مواسير المدافع بمثقاب جاعلا بذلك الماسورة أكثر قوة والقذيفة أكثر دقة بالنسبة إلى محيط القذوف . وأثبت فيما بعد عالم الرياضيات البريطانى بنيامين روبينز أن عبوة أصغر ومدفع أخف يمكن الأنطلاق إلى نفس المسافة التى تطلق إليها عبوة كبيرة من مدفع ثقيل . وأدى كل من هذين الاكتشافين إلى أنقاص حجم المدافع بدون فقدانها فاعليتها . وجاء « جريبوفال » المفتش العام للمدفعية الفرنسية ليطبق هذه الطرق بعد عام ١٧٦٥ ، جاعلا مواسير المدافع أقصر طولا بغرض أن يجعل المدفعية سلاحاً أكثر فى خفة الحركة . وصنعت أيضاً عربات المدافع لتسير بشكل أكثر نعومة ، وحلت الخيول محل الثيران لجر هذه العربات . وهكذا أصبحت المدفعية قادرة على السير جنباً إلى جنب مع قوات المشاة كما لم يعد هناك فاصل كبير فى السرعة بينها وبين الفرسان . وأكثر من ذلك فقد أصبحت أكثر قدرة الآن على المناورة فى المعركة . ولم يمنع ذلك تزايد أعداد المدافع ، وقد ساعد على هذا التطور اكتشاف صهر المعادن بفحم الكوك والذى جعل من المتوفر مدافع من الحديد أحسن وأرخص بدلا من البرونز كما كان سابقاً .

ولم يطرأ تطور فنى مشابه فى الأسلحة الصغيرة ، ولكن زادت قوة النيران نتيجة للخبرة والتدريب . وأوحت دروس حرب « الأستقلال الأمريكية » للأوروبيين بمزايا المشاة خفيفة التسليح . وقد ثبت أن مثل هذه القوات لو دربت تدريباً عالياً على المناورة وإستخدام الأرض فأنها سوف تصبح عنصراً مكملا للارتال الملتصقة للقوة الرئيسية وبذا تزيد كثيراً من فاعلية الجيش فى المعركة .

وقد أوحت التطورات فى المدفعية والقوات الخفيفة بالأبتعاد عن الأفكار التكتيكية التقليدية للقرن ١٨ . وفى عام ١٧٧٨ أقترح « دى تيل » فى كتابه عن « أستخدام المدفعية الحديثة » نظاما لعمل المدفعية المتحركة والمشاة معا . وطبقاً لهذا الأقتراح كان على المدفعية أن

تبدأ المعركة بفتح النيران على مسافة ١٠٠٠ ياردة حيث تقصف من الجنب كل أمتداد خط العدو . وجاء الجنرال « جريبوفال » يحث على أستخدام المدافع الخفيفة الجديدة ذات المواسير القصيرة ، بالرغم من أنها سوف تكون أقل دقة على المسافات البعيدة إلا أنها ستكون أكثر قدرة على الحركة وأكثر فاعلية فى المسافات القصيرة . وكان هناك جدل كبير فيما يتعلق بالجمع بين خفة الحركة وقوة النيران ، وأثار ذلك ما يمكن تسميته بمشكلة تركيز القوى . وأقترح « نولارد » نبذ نظام التشكيل الخطى وأستخدام الأرتال المتوازية ، والتى يمكن بالهجمات المركزة أختراق خط العدو فى نقط مختلفة ، على أن تملأ الفواصل بين الأرتال بالمشاة الخفيفة . وقد تطلبت تشكيلات الأرتال نوعا جديداً من التدريب العملى للمعركة ، وكتاب جوبرت فى عام ١٧٧٢ المسمى « بحث عام فى التكتيك » شرح قواعد مبسطة للتحركات التى يمكن بواسطتها القوات أن تتشكل بسرعة وبدون أرتباك من تشكيل الخط إلى تشكيل الرتل وبالعكس . وأوحت المبادىء التكتيكية الجديدة للهجوم وخفة الحركة ، بأستراتيجية السعى وراء المعركة بدلا من المناورة ، ويمكن بتطوير قوة النيران أجراء عمليات التثبيت بأعداد أقل من القوات . وهكذا أصبح بامكان القائد أن يقسم قواته الرئيسية إلى أرتال هجوم منفصلة ، مع شبكة متقاربة من المجموعات المنتشرة ، والتى إذا أستطاعت التحرك بسرعة كافية ، فتصبح قادرة على إيقاع العدو فى الشرك وأجباره على الدخول فى المعركة . وافترح جوبرت بأن القائد البارع هو الذى يتجاهل القلاع والتى أقلقت الكثير من قادة القرن ١٨ ، والتحرك مباشرة نحو عاصمة العدو ، والتى هى الهدف الرئيسى . وأدت التحسينات الكبيرة فى المواصلات خلال النصف الثانى من القرن ١٨ وخاصة بالنسبة للطرق والقنوات أن جعلت هذه الإستراتيجية أكثر واقعية . كذلك كان هناك تزايد فى الإنتاج الصناعى والزراعى وبالتالى أصبحت الجيوش قادرة على العيش فى الدولة التى تقوم بالعمليات بها ، ومن ثم تستغنى عن أثقال كبيرة من الذيل الإدارى . ومن ناحية أخرى فإن هذه الأفكار الإستراتيجية الأكثر طموحاً وتعقيداً تطلبت تحسيناً ضخماً فى التنظيم الإدارى فى وقت السلم .

الثورة الفرنسية

وظلت هذه المبادى العسكرية الجديدة مثاراً للمناقشة لأنها أبحاث غير مجربة حتى قيام

حرب « الثورة الفرنسية » عام ١٧٩٢ لتحطيم كل القديم فى كل المجالات وخاصة فى القوات المسلحة ، بتطهير سلك الضباط . فقد كان على الأقل ثلثى ضباط الجيش الفرنسى قبل الثورة من النبلاء ، وهذا كان فى حد ذاته سبباً هاما للسخط الثورى. وفى عام ١٧٨٩ ألغيت امتيازات النبلاء ، وما أن حل عام ١٧٩٤ حتى ترك ⅔ الضباط النبلاء الجيش .

وبذلك فتحت أبواب الرتب العليا لذوى المقدرة العسكرية . وقد أشعلت الثورة الفرنسية الحماس فى الأمة الفرنسية للديموقراطية ، فتغيرت تماماً السمة المميزة للجيش وأصبح الحرس الوطنى الجديد ، والذى كان نظام تجنيده بالتطوع هو قلب الجيش الجديد القوى، وبعد فترة وجيزة أصبحت غالبية المجندين من المتطوعين . وكانت الصفة الجديدة والمميزة لهذا الجيش الوطنى القائم على التطوع هى اندفاع الجنود خلف ضباطهم بدلا من دفعهم بواسطة ضباطهم . وتفجرت الحرب فى أبريل ١٧٩٢ بين فرنسا من ناحية والنمسا وبروسيا من ناحية أخرى . وكان سبب اندلاعها خشية حكام النظام القديم من الثورة ، وكره زعماء الثورة الفرنسية للنظام القديم .

ومن أجل ثورة الشعب على الطغيان والاستبداد ، فقد هب الفرنسيون ليتطوعوا للقتال . ولم يحقق الفرنسيون سوى نجاح طفيف فى المراحل الأولى من الحرب ، فقد كانت أساليبهم السياسية مضطربة ، كما تفشى التضخم المالى ، كما كان الجيش يفتقر إلى القادة والنظام والتدريب والأمدادات . فالقوة الفرنسية الأولى التى أرسلت لملاقاة العدو عند « تورناى » و « ليبج » انقلبت على أعقابها هاربة . ولكن مع ذلك فقد كان لدى الفرنسيين الشجاعة والحماس والأفكار الصائبة وبالتالى فقد تحسنوا بسرعة . ودخلت بكثرة أفكار « جريبوفال » و « جوبرت » و « دى نيل » فى كتاب التدريب الرسمى والذى صدر للجيش عام ١٧٩١ . وجاء الاختبار بين الجديد والقديم ، عندما واجه الجيش الفرنسى بقيادة « دوموريز » البروسيين والنمساويين بقيادة « برنزويك » عند « فلمى » فى شمال شرق فرنسا وذلك فى شهر سبتمبر ١٧٩٢ . وكان الدوق « برانزويك » قائد الجيش البروسى النمساوى يعتبر إلى حد بعيد من قادة المدرسة القديمة وفى نفس الوقت أحسن قادة العصر ، نظراً للمناورة الغير مصحوبة بإراقة الدماء والتى قام بها خلال حملته الناجحة فى هولندا عام ١٧٨٧ . أما

« دو موريز » فكان نهارا للفرض فى نفس الوقت رجلا شجاعا وأفكاره تقدمية وقدير فى القيادة . وكان كلاهما يطالب بأحقيته فى الحصول على لقب القائد العظيم ، وفى الحقيقة فإنه لايحق لأى منهما المطالبه به ، لأن القوات المتضادة أخذت تناور حوالى شهر ضد بعضها . وقد تميزت عمليات الفرنسيين بالتهور والتضارب وعدم الفاعلية ، أما التحركات البروسية فكانت بطيئة للغاية ، تخضع لنظام إمدادات عقيم . وقد ضاع من برنزويك على الأقل ثلاثة فرص للوصول خلف عدوه أو تدميره . وعلى أى حال فعلى ٢٠ سبتمبر بلغ دوموريز إلى موقع دفاعى عند « فالمى » حيث وضع قواته كما كان يرغب تقريبا . وساد الجيشين بعض الإضطراب ، وفى الواقع لم تكن معركة « فالمى » أكثر من تراشق هائل بالمدفعية . وبعد التراشق بالمدفعية فى فترة الصباح أمر « برنزويك » مشاته بالتقدم ، ولكنه سرعان ماسحبهم من أمام نيران المدفعية الفرنسية ، وتوقف فجأة عن القتال بعد أنتصاف النهار بالرغم من أن المعركة لم تكن قد بدأت بشكل فعلى .

وبالرغم من أن معركة فالمى ليست معركة رئيسية إلا أنها كانت إنتصارا فرنسيا لأن « برنزويك » قرر قراراً صائباً ، بأنه لن يستطيع أن يزحف إلى باريس بمثل هذا الجيش وخط المواصلات الطويل وفى هذا الوقت من السنة . وكسبت الثورة الفرنسية فترة راحة حيوية ، كما كان النجاح فى صد العدو يعتبر عاملا نفسيا ذات أهمية كبيرة للفرنسيين .ودعم ثقة الفرنسيين بأ نفسهم نصر آخر حققوه عند جيمابيس . ومع حلول عام ١٧٩٣ كانت جميع القوى الكبرى تقريبا فى أوروبا تتجمع ضد فرنسا ، وكان رد الفرنسيين على ذلك هو قانون ٢٣ أغسطس ١٧٩٣ . وهو البيان الذى أعلن بدء عصر الحرب الشاملة : — « سوف يقاتل الشباب ، وسيقوم الرجال المتزوجين بصنع الأسلحة ونقل الإمدادات وستصنع النساء الخيام والملابس وتخدم فى المستشفيات وسيقوم الأطفال بتحويل خيوط الكتان القديمة إلى ضمادات وسيحمل كبار السن من الرجال إلى الميادين العامة لإثارة وإذكاء روح البسالة والشجاعة فى المقاتلين ، ونشر الكراهية للملوك والحث على وحدة الجمهورية . وسوف تتحول المبانى العامة إلى ثكنات ، والميادين العامة إلى مصانع للعتاد الحربى وسوف تسلم كل الأسلحة النارية ذات الأعيرة المناسبة إلى القوات ، وسوف يحافظ على الأمن الداخلى بواسطة بنادق الصيد والأسلحة البيضاء ، وسوف تأخذ كل الخيول المسرجة للفرسان ، وكل خيول الجر

الغير مستخدمة فى الزراعة لتجر المدفعية وعربات الإمداد .

الحرب تحسم بالمعارك

وأحب أن أختتم هذا الفصل ببعض الملاحظات عن فريدريك الأكبر القائد العسكرى البارز .

ومن المفيد أن نتأمل إذا كان فريدريك قد تأثر بكتابات ساكس الذى كان يكبره بستة عشر عاماً ، والاجابة على الأرجح بالنفى ، حيث أن كتاب « أفكارى الخيالية » طبع عام ١٧٥٧ أى فى العام التى تمت فيه معركة لوثن ، وكان ذلك بعد موت ساكس بحوالى ٧ سنوات ، وبعد تولى فريدريك الملك بـ ١٧ عاماً .

وفى القرن ١٨ ، كان هناك اختلاف بسيط بين الجيوش الأوروربية من حيث الأسلحة والتكتيك وتنظيم الإمداد وبالتالى أصبح أدارة الحرب تتطلب قيادة ذات كفاءة .

وفى هذه الظروف تطلبت الاستراتيجية الحربية قائداً ذات صفات عقلية كبيرة ، وهذه الصفات لم تتوفر فى ذلك الوقت إلا فى إثنين فقط هما « مارلبورو » و « فريدريك الأكبر » وكلاهما جمع بين المهارة فى المناورة مع الإيمان بأن المعركه هى العنصر الحاسم فى الحرب .

وبالنسبة لفريدريك فكانته كقائد كانت مرتبطة بظهور قوة بروسيا العسكرية وأضمحلال الجيش الفرنسى . ويعود ذلك أيضاً إلى نجاح جيش بروسيا ولكن قبل كل شىء إلى الحقيقة التى تعتبر الواجب الرئيسى للملك هو أن يكون جنديا قبل كل شىء . ويمكن تفسير إنجازات فريدريك الكبيرة بخروجه على الاستراتيجية العادية للقرن ١٨ . وكان يؤمن بأن « الجوع ينهك الرجال أكثر مما تنهكهم الشجاعة » وركز على أهمية تجويع قوات العدو (القوات وليس المدنيين) وذلك بالمناورة التى تبعدهم عن مصادر إمدادهم . ولكنه رأى أيضاً أن المناورة وحدها لا يمكن فقط أن تضع الحكم الحاسم بل « تحسم الحرب فقط بالمعارك » ولا تحسم إلا بها .

وكانت رغبته فى المعركة هى التى جعلته فريداً عن القادة العسكريين الآخرين فى عصره.

وحصل على نجاح مبكر فى وقت الحرب المحدودة لأنه كان يختلف عن الآخرين ، فقد كان مستعدا للمخاطرة ودفع جنوده للمعركة فى أى وقت يجده مواتيا . وكان هذا مشابها لإقتراب نابليون إلى الحرب الذى سنبحثه فى الفصل التالى . ويمكن القول أن ظمأ فريدريك للمعركة ، كان سيكون انتحاراً لو كانت جنوده ومعداته الحربية أقل من تلك التى لدى خصومه أو حتى مساوية لهم .

ولكن البروسيون ركزوا إهتمامهم على التدريب للقتـــال وعلى النظام والضبط والربط فكان ذلك يعد مكسباً كبيراً لهم . وقد أنتج هذا جنوداً يمكنهم السير أسرع ، وتغيير تشكيلهم من رتل إلى خط أكثر سرعة ، والتعمير واطلاق النيران بسرعة وفاعلية أكثر من جنود أى جيوش أخرى . وقد أعطت خفة الحركة والدقة لفريدريك مجالا كبيراً للبراعة العسكرية ، على عكس نابليون لم يكن لديه رصيداً لا ينضب من أرواح الرجال . وكان فريدريك مجبراً على القتال فى عدة جبهات خلال حرب « السبع سنوات » علاوة على عدم تساويه مع أى خصم من خصومه الثلاث سواء فى المال أو فى القوة البشرية ، فقد كان عليه التحرك بسرعة من موقع إلى آخر موجها سلسلة من الضربات لكى يمنع إتصالا مميتاً بين الجيوش المضادة له . وإذا كان قد نجح فى ذلك ، فيرجع إلى مقدرته وكفاءته الذهنية ، وإلى قوة تحمل جنوده . وقد قاتل حرباً دفاعية متخذاً مظهر الحرب الهجومية . ونستطيع أن نختم القول بأعلاننا بأن فريدريك كان القائد المتفوق فى الحقبة التى تناولناها فى هذا الفصل .

الفصل الخامس عشر

عصر نيلسون ونابليون وولينجتون

حرب العبقرية الفردية

لم يكتف الثوار الفرنسيون بطرد أعدائهم خارج أراضى فرنسا ، بل واصلوا الحرب فى أوروبا من أجل الديمقراطية والسلب والمجد. واستمرت أوروبا تعانى من الحرب من عام ١٧٩٢ حتى ١٨١٥ .

وهذه الفترة شهدت العديد من أشكال التحالف وانتقال الدول بين الجانبين . وكانت الدولة الثابتة فى القتال ضد فرنسا هى بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وكانت كل مرة تكون تحالفاً يضم اثنين أو ثلاثة منها فى كل وقت على حدة ، وكانت بريطانيا هى الدولة المتزعمة للقتال ضد فرنسا فى جميع الأوقات. وفى الطرف الآخر ، كرس الفرنسيون كل استراتيجيتهم فى البر والبحر بقيادة القائد السياسى والعسكرى العظيم نابليون لإلحاق الهزيمة ببريطانيا وتميزت الحرب بالعبقرية الفردية أكثر مما تميزت بالأنظمة أو العوامل الفنية العسكرية . وقد ظهرت خلالها شخصيات تميزوا بالذكاء والبراعة ؛ ولكن سوف نركز دراستنا على ثلاثة منهم : — نيلسون . . . ونابليون . . . وولينجتون .

وكان من الطبيعى أن يبدأ المجهود الرئيسى لبريطانيا فى حربها مع فرنسا فى البحر .

وقد ساعد على ذلك أن البحرية الإنجليزية كانت فى حالة أفضل من جيشها . وفى الواقع نادراً ما كان الأسطول الإنجليزى فى حالة جيدة من التجهيز والاستعداد ، فكان لديه ٥٥ سفينة حربية مستعدة للقتال ، كما تم القضاء وبدرجة كبيرة على الفساد وعدم الكفاءة الإدارية . وعلى العكس نجد الأسطول الفرنسى ضعيفاً ، بينما كان فى الحرب الأمريكية منافساً

قويا للأسطول البريطانى . ومع حلول عام ١٧٩٣ وصل الأسطول الفرنسى إلى حالة من عدم الإستعداد واللياقة لم يشهدها من قبل نتيجة لعملية التطهير الثورية والتى جردته من أحسن عناصره ، وما تبقى بعد ذلك لم يكن على المستوى الجيد ، علاوة على السفن غير المصانة جيداً . واستعاض عن ذلك بالجيش الذى كان يعتمد على الحماس والكثرة العددية . وكان لدى الفرنسيون ٤٢ سفينة قتال فقط يفتقر معظمها إلى الضباط الأكفاء والبحارة المدربين . واستخدم الفرنسيون أسطولهم لمهاجمة السفن التجارية البريطانية والتهديد بغزو إنجلترا . أما الإستراتيجية البحرية البريطانية فى الحرب فكانت ذات ثلاث سمات وهى : تأمين الملاحة للسفن البريطانية ، مهاجمة السفن المعادية ، حماية شواطئها من الغزو . كما حاولت بريطانيا أيضاً استخدام القوة البحرية لتمنح جيشها خفة الحركة ، وبناءاً عليه فقد قامت بعدة عمليات عبر البحار فى « الفلاندرز » و « الهند الغربية » و « الساحل الفرنسى » . ولكن هذه العمليات فشلت فتخلى الإنجليز عنها ، وركزوا جهودهم على حصار الساحل الفرنسى لخنق التجارة الفرنسية ، وإجبار الأسطول الفرنسى على الدخول فى معركة إذا جرؤ على مغادرة الميناء .

وفى الفترة من عام ١٧٩٤ إلى عام ١٨٠٥ أحرزت البحرية البريطانية ست انتصارات رئيسية ، وهكذا كانت هذه الفترة على نقيض فترة المائتى عام السابقة منذ هزيمة الأرمادا ، حيث كانت المعارك البحرية ذات المدى الواسع والحاسم نادرة الحدوث . وظلت السفينة الحربية القديمة محتفظة بنفس صفتها الفنية تقريباً ، ولكن البحارة البريطانيون اكتشفوا أخيراً طريقة فعالة لاستخدامها بكفاءة . وأحد العوامل وراء ذلك هو إدخال نظام الإشارات الشامل ، والذى صممه « كمبنفلت » و « هو » .

وقد استطاعت القادة بكفاءة الإشارات من الإنتقال من التشكيلات الجامدة والسابق وصفها ، إلى التشكيلات البحرية الواسعة والمعقدة والمرنة ولكن مسيطر عليها بواسطة القادة .

أما العامل الثانى فهو القدرة الفائقة التى تميز بها بعض قادة البحر البريطانيين وخصوصاً « هو » و « نيلسون » . وتم إحراز أول نصر إنجليزى بفضل « ريتشارد هو » فى « أول يونيه

المجيد » عام ١٧٩٤ . وكان « هو » يقود ٣٤ سفينة داخل المحيط الأطلنطى حينما أبصر على بعد ٢٥ سفينة فرنسية . وحصل على المبادأة باستخدام نظام الإشارات مع إستخدام تكتيكا جديداً ، وهو إقتحام خط العدو فى اتجاه مضاد للريح . وأصبح بحصوله على موقع مضاد للريح قادراً على اختيار اللحظة المناسبة للانقضاض على العدو فى تشكيل مائل ، واستطاع قطع خط العدو فى نقط متتالية ، وبعد ذلك تشتبك كل سفينة بريطانية مع إحدى السفن المعاديه فى قتال متلاحم من اتجاه الريح ، أى من الموقع الذى يمنع هروب العدو فى اتجاه الريح . وقد سهل نظام الإشارات التنسيق التام للأسطول البريطانى والتى تطلبتها مناورات هذه المعركة .

وكانت معركة « أول يونيه المجيد » نقطة انطلاق فى تطور تكتيكات السفن . وقد نجح « هو » فى إدماج خط الاقتراب التقليدى مع نظام تدمير السفن بالقتال المتلاحم معها. واستولى على ست سفن معادية كغنائم مع تدمير سفينة معادية واحدة. ونتيجة لهذه المعركة ولمعركتين أقل منها عام ١٧٩٥ سلم الفرنسيون لبريطانيا بالسيادة فى البحر ، ومنذ ذلك الحين والأسطول الفرنسى قابع فى موانيه متخذا موقف الدفاع .

معركة أبو قير البحرية (أنظر اللوحة رقم ٣٣)

وبالرغم من ذلك ، ففى عام ١٧٩٧ انخفضت معنويات الإنجليز وآمالهم فى الحرب فكان الفرنسيون متفوقين تماماً على البر فى الأراضى الواطئة (هولاندا) وأيضاً فى إيطاليا ، ولم يعد هناك أى قوات بريطانية فى أوروبا . بينما انضمت أسبانيا إلى فرنسا ، واضطرت بريطانيا إلى التخلى عن البحر المتوسط .

وفى شتاء عام ١٧٩٦ — ١٧٩٧ تمكن أسطول « برست » الفرنسى من اختراق الحصار البريطانى ولم يمنعه سوى العواصف من غزو أيرلندا . ولكن « السير جون جرفيز » أنقذ الموقف فى فبراير ١٧٩٧ بانتصاره على الأسطول الأسبانى أمام مياه رأس « سانت فنسنت » . ولكن مرت بريطانيا بفترة غاية فى الخطورة ، وذلك عندما تمردت البحرية الإنجليزية فى أسطول المانش عند « سبتهد » وبعد ذلك فى أسطول بحر الشمال عند « نور » . فقد ساد الإستياء بين البحارة نتيجة لعدم العدالة فى التجنيد والأجور المنخفضة والنظام

الصارم . وقد أجيبت طلباتهم المعقولة والخاصة برفع الأجور وحسن المعاملة ، وبالرغم من ذلك فقد استمرت كتيبة التجنيد الإجبارى والسجون فى إمداد البحرية بأغلب المجندين .

وأخفيت أنباء هذا التمرد عن العدو فترة طويلة كافيـة لـكى لا يتم فك حصـار « تـكسيل[1] » .

وفى أكتوبر حقق الأدميرال البحرى « دونـكان » النصر الرئيسى الثالث فى الحرب أمام مياه « كمبرداون » (جوتلاند) مكررا تـكتيكات « هو » الجديدة . وأصبح « جرفيز[2] » اللورد الأول فى الأدميرالية عام ١٨٠١ . وكرس نفسه لإصلاح وإعادة تنظيم الترسانات البحرية وجعل الإدارة سهلة واقتصادية ، وقد وفر بهذه الطريقة القواعد الرئيسية للقوة البحرية البريطانية حتى عام ١٨٠٦ . وكان « جرفيز » ضابطاً بحريا عظيما ، ومقاتلا واستراتيجياً وقائدا وإدارياً ، وكان له عين خبيرة فى الحـكم على الرجال ، وكان هو أول من تعرف على « نيلسون » وشجعه .

نيلسون

لقد ولد « هوارشيو نيلسون » عام ١٧٥٨ وألتحق بالبحرية عندما بلغ ١٣ من عمره وسرعان مابدأ الطموح يملأه ، ولم يحل عام ١٧٩٣ حتى أصبح قائدا لسفينة حربية ، وفى عام ١٧٩٧ أشترك فى معركة رأس « سانت فنسنت » وكانت خطة جريفز فى هذه المعركة هى أختراق خط العدو ، ثم التحول للهجوم قبل أن يستعيد العدو ترابطه . وكان مواقع نيلسون فى الخط الإنجليزى قرب المؤخرة ، ومن هذا الموقع أستطاع رؤية سفن المقدمة البريطانية وأنها لن تتمكن من العودة بعد تغيير إتجاهها قبل أن يغلق العدو الثغرة التى أحدثها الأسطول البريطانى وساءل نفسه : — هل يترك الخط بدون أوامر ويحاول منع وقوع هذا الخطر

---

(١) غرب جزيرة فريزيان .

(٢) كان فى ذلك الوقت لورد سانت فنسنت . « المعرب »

الدائم وأخيراً قرر أن يفعل ذلك ؛ وإندفع بسفينته بمفردها داخل الثغرة وأشتبك نيلسون بمفرده وبمدافعه ٧٤ مع سبع سفن للعدو ، حتى أنضم إليه بقية الأسطول البريطانى . وكان نتيجة قرار نيلسون الرائع والواقعى والشجاع هو تحقيق النصر كاملا ، مما أدى أن «جرفير» قام بتهنئته .

وفى أوائل ١٧٩٨ ، ترددت الأنباء عن الحملة التى يجهزها نابليون فى طولون . فى نفس الوقت قرر البريطانيون العودة إلى البحر المتوسط وذلك بعد الأنتصارات التى حققها البريطانيون

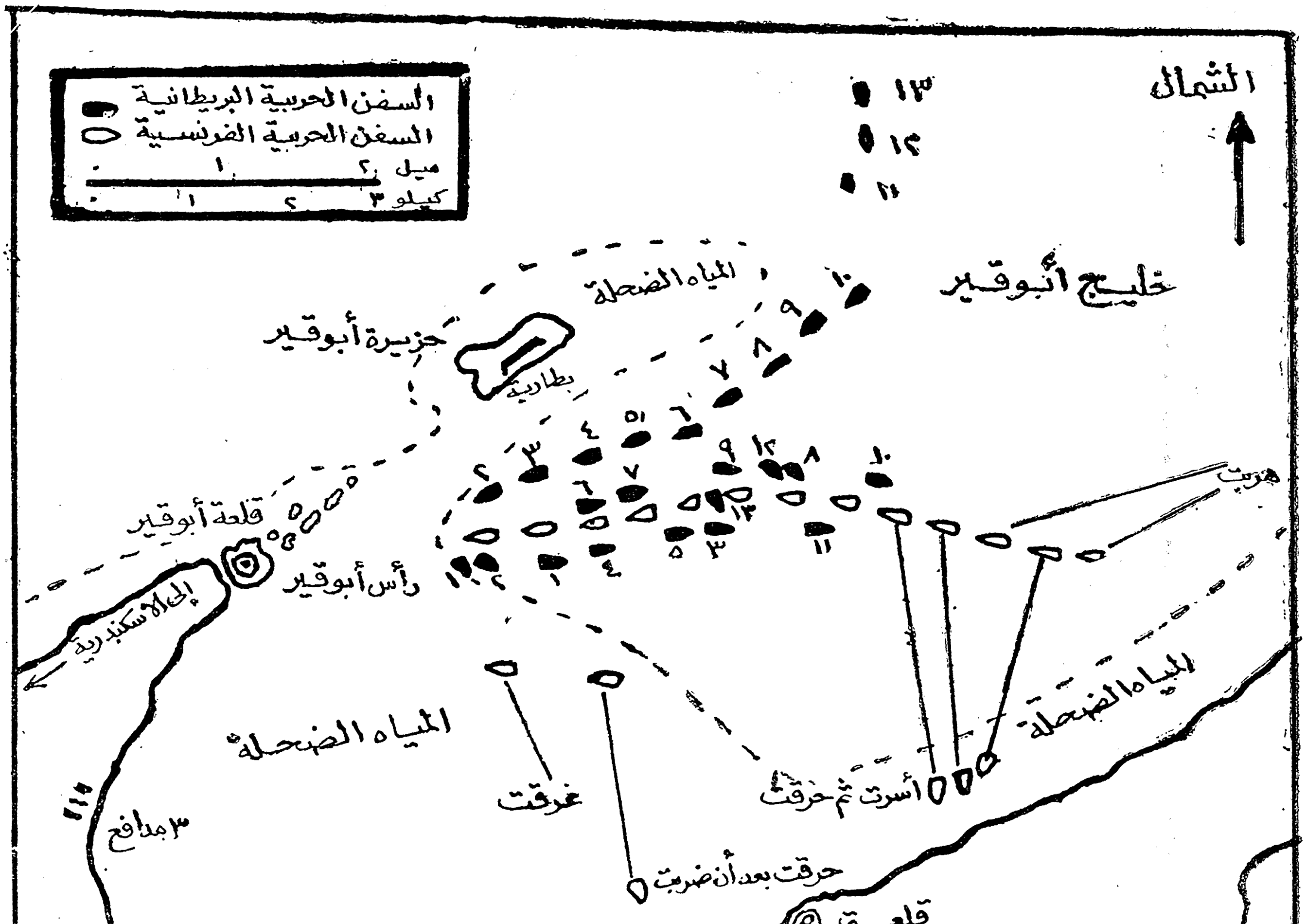

اللوحة رقم ٣٣ معركة أبوقير البحرية

فى العام السابق . وأرسل أسطولا من ١٣ سفينة بقيادة « نيلسون »[1] إلى البحر المتوسط إلا أن نابليون أنتهز فرصة هبوب عاصفة هوجاء وأبحر بجيشه البالغ حوالى ٣٥٫٠٠٠ رجل وبأسطول طولون المكون من ١٣ سفينة إلى مالطة وبعدها إلى مصر . وبعد مطاردة طويلة ذهابا وأيابا شملت نصف طول البحر المتوسط عثر نيلسون على الأسطول الفرنسى فى خليج أبو قير وكان ذلك فى وقت متأخر من بعد ظهر أول أغسطس عام ١٧٩٨ . قرر نيلسون الهجوم فى نفس الليلة ، وجرى تخطيط المناورة المؤدية إلى المعركة بعناية تامة ، كما وضع ثقته فى جميع قادة السفن . وأيقن أنه يستطيع الإعتماد على قدرتهم ، وطلب منهم إستخدام مبادأتهم الشخصية فى إطار الخطة التكتيكية الموضوعة . وكان خط الفرنسيين مكونا من ١٣ سفينة حربية راسيه فى الخليج ، وكانت مقدمة الأسطول راسية بالقرب من رأس أبو قير الصخرى ولا يفصلها عنه سوى المياه الضحلة ، وقد أعتقد الأدميرال « برويز » أنه لا تستطيع أى سفينة المرور بين أسطوله والشاطىء . أما البريطانيون ففكروا بأسلوب مختلف ، فما أن بدأ الليل يرخى سدوله حتى قاد الكابتن « فولى » أربع سفن خلال المياة الضحله إلى مؤخرة الفرنسيين بينما بقى نيلسون فى الخارج مع بقية الأسطول . وتم الهجوم على السفن الفرنسية الجامدة فى أماكنها من كلا الجانبين فى وقت واحد . وبدأ الفرنسيون يتخبطون فى حالة إضطراب وفوضى فى الظلام ، ولم يعملوا سوى انتظار الهجوم عليهم . وعند الفجر كانت المعركة قد أنتهت ودمر الأسطول الفرنسى بالكامل ماعدا سفينتين أستطاعتا الفرار . ونتيجة لهذا النصر ، فقد سقط عدد كبير من القوات الفرنسية فى الشرق فى الفخ وأصبح البحر الأبيض المتوسط بحراً بريطانيا ، ودعم السيطرة البريطانية أحتلالهم « لمينورقه » عام ١٧٩٨ و « مالطة » عام ١٨٠٠ .

معركة الطرف الأغر (أنظر اللوحة رقم ٣٦)

وكانت عملية نيلسون التالية فى « كوبنهاجن » عام ١٨٠١ ، فكانت بريطانيا تعتمد إلى حد كبير على أسكندنافيا فى موارد ولوازم بحريتها ، وقد أدرك نابليون هذا جيدا ، وكانت له السيطرة على البر وحاول أغلاق الملاحة فى وجه السفن الأسكندنافية المتجهة إلى بريطانيا.

---

(١) حصل نيلسون فى ذلك الوقت على رتبة اللواء البحرى . « المعرب »

وبناءا عليه ، أرسلت حملة إنجليزية إلى « كوبنهاجن » بقيادة « سير هايد باركر » ويرافقه نيلسون نائبا له ، وأرسلت هذه الحملة فى وقت كان الفرنسيون غير مستعدين . وأستطاع نيلسون إقناع باركر ليسمح له بقيادة أسطول من السفن الخفيفة ضد الأسطول الدانمركى ، والذى كان راسيا وغير مستعد ولكنه فى حماية مدافع قلعة « كوبنهاجن » .

وبعد حسابات دقيقة للوقت والتيارات البحرية والمد أبحر نيلسون ليصب نيرانا دقيقة على العدو . وفى ذروة الأحداث فقد باركر أعصابه وأرسل إشارة إلى نيلسون يطلب منه الانسحاب . وضع نيلسون التلسكوب أمام عينه التى لا يرى بها وأعلن أنه لم ير أى إشارة ، وأستمر فى عملياته بأعصاب هادئة حتى أستسلم له كل الأسطول الدانمركى . فى ذلك الوقت أستمر النجاح العسكرى الفرنسى فى البر ، بينما أفسد هذا النجاح وهدده الخطر المتزايد للقوة البحرية البريطانية والتى لم تقهر . بين عامى ١٨٠٣ ، ١٨٠٥ وضع نابليون عدة خطط لغزو

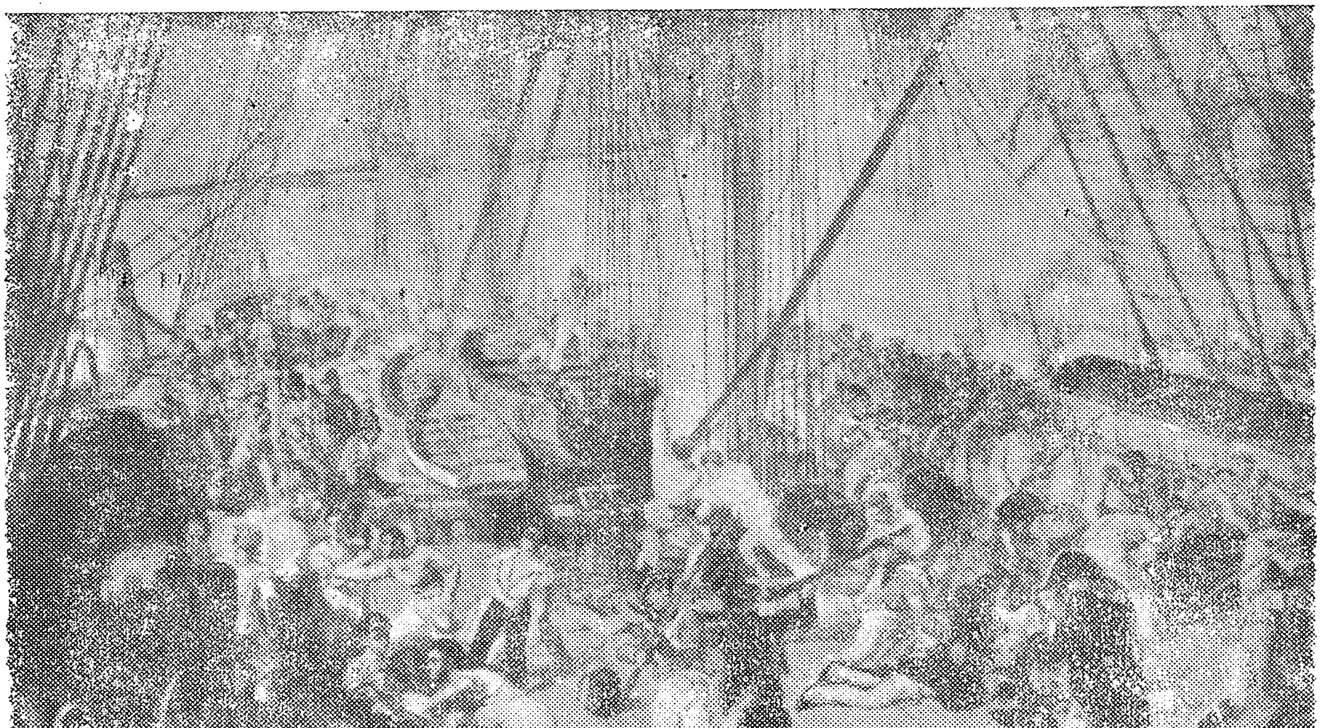

معركة الطرف الأغر حيث قتـــل نيلسون

بريطانيا ، وتمركز جيش كبير عند بولونى ، ولـكنه كان لايستطيع مهاجمة لندن إلا بعد أن يسيطر على بحر المانش . وبحلول صيف عام ١٨٠٥ تخلى نابليون عن أمل القيام بغزو فعلى لبريطانيا ، ولـكنه ظل مؤمنا بأهمية تحطيم السيطرة البريطانية على البحار ، ولذلك فقد أحتفظ بالجزء البحرى من خطة الغزو . وكان السبب فى ذلك هو محاولة تحطيم حلقة الحصار على كل من « طولون » و « بريست » ثم يوحد الأسطولين ضد أسطول المانش . وكانت هذه الخطة غير واقعية . وعلى أى حال فقد أستطاع أسطول طولون الفرنسى بقيادة « فيليتوف » أختراق حلقة الحصار ، وانطلق نيلسون فى أثره وأجبره على الدخول فى معركة عند « الطرف الأغر » فى ٢١ أكتوبر . وقد دار القتال عند « الطرف الأغر » طبقا للأسلوب التـكتيـكى المستحدث ، وهو أختراق خط العدو ثم الدوران والدخول معه فى قتال متلاحم شديد . وكانت هذه المعركة من أنجح المعارك سواء فى التنسيق بين السفن أو فى التطبيق الـكامل للأسلوب التـكتيكى المستحدث . وقد تم فيها أسر وتدمير ١٨ سفينة من بين ٣٠ سفينة معادية . وفى مثل هذا النوع من المعارك ، فإنه لامناص من وقوع خسائر فادحة بسبب مايحدثه القصف المتلاحق ومايؤدى إليه تلاصق السفن ووجود القناصة من مذابح كبيرة بين الأفراد حتى أن نيلسون نفسه لقى مصرعه فى هذه المعركة . وقد اكتسب نيلسون شهرة مؤكدة كقائد ملهم وبحار بارع ومقاتل مبدع شجاع ، وقد قال عنه « جوزيف كونراد » : — « لقد كان بطلا فى أدائه لواجبه » .

وكانت معركة « الطرف الأغر » أحد المعارك الرئيسية الأخيرة فى تاريخ الشراع ، وأكثرها دقة وكمالا . وكان من أعظم نتائجها أن بريطانيا أصبحت مسيطرة تماما على البحار وليس للفترة التى تلت المعركة فقط ، بل أيضا لبقية القرن ١٩ ، الأمر الذى أمن وزاد من تجارتها . وأكثر من ذلك فقد أستطاعت بريطانيا أن تدعم أوروبا بالأمدادات مع تأمين المواصلات وبذلك ساهمت مساهمة كاملة فى المجهود الحربى لأوروبا ضد نابليون والذى أصبح الآن مقيدا باستراتيجية برية ، وبالتالى أصبح مؤكدا أن هلاكه النهائى محتوما .

استعد بحذر واضرب كالصاعقة (أنظر اللوحة رقم ٣٦)

وفى نوفمبر ١٧٩٢ أى بعد شهرين من معركة « فالمى » و « جيمابيس » أعلنت الجمعية

الفرنسية أنها سوف « تمنح التأييد والمساعدات لجميع الشعوب التي ترغب فى إستعادة حريتها » وبناءاً عليه أعلن الفرنسيون الحرب على أوروبا ، تدفعهم الرغبة فى تأكيد أمنهم القومى والتوسع وتحقيق المبادىء المثالية . وكانت مصادر قوة فرنسا فى شعبها الذى يبلغ تعداده أكثر من ٢٥ مليون[1] نسمة و٧٣٠٠٠٠ر بندقية من طراز عام ١٧٧٧ ، وأكثر من ٢٠٠٠ر٢ قطعة مدفعية من تصميم « جريبوفال » وقدر كبير من الحماس الذى يلهب صدور الجماهير وعدد من القادة المخلصين الأكفاء .

وكان أقـــدر هؤلاء القادة والذى برز فى الفترة من (١٧٩٢ حتى ١٧٩٧) هو « لازاركارنوت » عضو لجنة الأمن العام والذى رأى أنه : — « يجب تنظيم حماس وطاقة الشعب . » وكان رجلا إداريا وعبقريا ويستطيع العمل لستة عشر ساعة يوميا . وقدأستطاع معالجة المشكلات الرئيسية ومنها أدماج المجندين الجدد من المواطنين مع الجنود النظاميين القدامى ، وذلك فى جيش قومى واحد ، كما نظم هذا الجيش فى شكل وحدات ، وأنشأ نظام تدريب الضباط على الأسلحة المتخصصة ، مع ربط الصناعة والزراعة بالحرب . وأرتفع عدد الأفراد تحت السلاح من ٣٠٠٠٠٠ر٣٠٠ فى بداية عام ١٧٩٣ إلى أكثر من ¾ مليون فى عام ١٧٩٤ . وفى عام ١٧٩٨ أنشأ نظام الخدمة الوطنية ويسرى على جميع الشباب غير المتزوج والبالغ عمرهم من ٢٠ إلى ٢٥ عاما . وهـكذا حقق « كارنوت » نجاحاً فى تنظيم القوات بحيث أصبحت هذه الأعداد الـكبيرة منذ البداية مصدرا للقوة أكثر منها عبئا معوقا . وتم تدريب الجيش على القواعد الجديدة لـكل من « جوبيرت » و « بوارست »،وكانت الأسلحة كافية . وحلت مشكلة الأمداد بإنشاء نظام يعتمد فيه الجيش على موارد الأرض التى يقاتل أو يتواجد بها . وفى الفترة بين عامى ١٧٩٣ — ١٧٩٤ كان « كارنوت » مسئولا أيضاً عن الاستراتيجية ، بمعنى أنه كان ينسق ويربط بين تحركات ١٢ جيشا . وكان يؤمن بأن « الصفة القومية المميزة للرجل الفرنسى هى أن يهاجم طوال الوقت . » وقد تم الإستفادة من الأعداد الغفيرة الفرنسية والحماس لديها إلى أقصى حد ، وكذلك بخفة الحركة التى زادت بإختفاء الذيل الإدارى . ومنذ مارس عام ١٧٩٣ كانت هناك سلسلة متعاقبة من الانتصارات

---

(١) يعادله فى ذلك الوقت مجموع تعداد شعوب النمسا بروسيا وبريطانيا . « المعرب »

الفرنسيه. وتحولت النجدات الحربية لتكون إبتهاجات بطولية بالنصر . وقد كتب « مارمونت » عن ذلك فيما بعد قائلا : — « لقد سرنا ونحن محاطون بنوع من الأشعاع الذى لازلت أشعر بدفئه كما كنت أشعر به منذ ٥٠ عاما مضت . » وكتب جندى مشاه من الحرس : — « كنا نقاسى ولكن كنا نخورين بما نعانيه ، وكنا نحاول أن نضحك مما نقاسيه . وشاركنا ضباطنا فى متاعبنا . » وكانت تكتيكات هذا العصر بسيطة ولكنها مكلفة فى الأرواح ، ولكنها كانت أيضاً تلائم الأعداد الجرارة من القوات المتحمسة ويقودها ضباط فى مقتبل العمر لديهم طاقة وشجاعة أكثر مما لديهم من خبرة ومهارة .

وكان يبدأ الهجوم بتقدم حشد مندفع غير مترابط من الرماة المهرة ، ثم تستعد المدفعية لستر التقدم الرئيسى ، حيث تتشكل المشاة فى أرتال عميقة يتقدمهم ضباطهم ثم تندفع وسنا كيها مثبتة فى بنادقهم ، بينما يصرخ الجنود للمحافظة على روحهم المعنوية . وقد برز فى تلك الفترة عدد كبير من القادة الممتازين وكان عمرهم يتراوح بين ٢٠ ، ٣٠ عاما وهم : — « هومش » و « جوردان » و « أوجيرو » و « مودات » و « ماسينا » و « نابليون » وآخرين .

وتعتبر حياة « هومش » نموذجا مميزا لهذا العصر ، فقد استرعى إنتباه « كارنوت » مبكرا ، فقد حقق إنتصارات فى « فروسشويلر » و « ويزيمبورج » بأتباعه حكمته الشخصية التالية : « أستعد بحذر . . وأضرب كالصاعقة . » وفى عام ١٧٩٧ أصبح قائدا لواحد من أشهر جيوش الجمهورية الفرنسية وهو . — « جيش سامبروموس » . وقد دفع النمساويين للخلف حتى « فرانكفورت » ولكنه توفى فى هذا العام وعمره ٢٩ عاما . وكانت وفاة « هومش » إيذانا بإنتهاء عصر الثورة وبداية العصر النابليونى .

الدكتاتور العسكرى لفرنسا

(أنظر اللوحة رقم ٣٦)

ولد « نابليون بونابارت » عام ١٧٦٩ فى « كورسيكا » ، وفى الفترة بين عام ١٧٧٩ وعام ١٧٨٥ ألتحق بالكليات العسكرية فى فرنسا وبعد ذلك ، خدم كملازم مدفعية فى « أوكسون » و « فالينس » ، وقد تتلمذ على كتابات « رويبنز » و « بورست » و « دى نيل » و « جريبوفال » و « جويبرت » . وكان نابليون يدين بفضل كبير إلى كتابات جويبرت الخاصة أفكاره عن الأهمية العسكرية للشعور القومى وخفة الحركة وتكتيكات الأرتال وموضوعات أخرى كثيرة .

نابليون

وكان نابليون دارسا متحمسا للتاريخ العسكرى شديد الإيمان بقيمة دراسة هذا التاريخ، كما قرأ أيضاً كتابات « روسو » وكان يؤيد أكثر حزب متطرف فى الثورة ، وكانت أول شهرته العسكرية فى فك حصار طولون عام ١٧٩٣ ، عندما هاجم بطارية مدفعية إنجليزية وخرج منها بجرح فى فخذه من طعنة سونكى . وقضى بعدها بعض الوقت فى إيطالية ، ثم توجه إلى باريس حيث كون صداقات مع ذوى النفوذ ، متجنبا فى نفس الوقت القيام بالأعمال التى لاترجى منها فائدة . وتزوج هناك من « جوزفين دى بوهارنى » عام ١٧٩٦ ، والتى كانت أرملة لجنرال ثورى . وبعد الزفاف بيومين عين نابليون ليقود جيشا فى إيطاليا . وكان عمره آنذاك ٢٦ عاما . وفى بداية حملته كان معه ٣٨٫٠٠٠ مقاتل لكى يواجه بهم ٤٧٫٠٠٠ من النمساويين والسردانيين،وإلى جانب قلة عدد جيشه كان ضعيف التجهيز . وبعد ستة أسابيع من القتال ، أمكن لنابليون أن يقول لجنوده وبدون مبالغة كبيرة : — « لقد كسبتم المعارك بدون المدافع ، وعبرتم الأنهار بدون الكبارى ، وقمتم بمسيرات قهرية بدون أحذية ، وعسكرتم كثيرا بدون طعام . » وفى الحقيقة لقد تم أحراز ١٢ إنتصارات فى ١٢ شهرا والتى كان أشهرها « لودى » و « كاستيلون » و « وباسانو » و « أركولا » و « ريفولى » وتم تطهير شمال ووسط إيطاليا من النمساويين . وتقدم نابليون إلى مسافة حوالى ٨٠ ميلا من فينا قبل أن يبدأ مفاوضات السلام . وإذا نظرنا إلى عوامل نجاحه لوجدنا أنها تكمن فى سرعة التحركات والمرونة فى المناورة والقدرة على حشد القوات والقيام بأقوى إندفاع فى أضعف نقاط العدو . وقد رفعت هذه الإنتصارات المستمرة الروح المعنوية للفرنسيين بدرجة خيالية كما أدارت رأس نابليون بدرجة كبيرة وقد قال فى سانت هيلانه : — «لقد أدركت فقط فى المساء بعد معركة « لودى » بأننى مخلوق متفوق ولديه المقدرة والطموح على القيام بأعظم الأعمال : » وقد لاءمت المرحلة التالية والتى كانت الحملة المصرية عام ١٧٩٨

ميول وشعور نابليون . ولم تكن هذه الحملة من الناحية الاستراتيجية ذات معنى ، كما أفسد نصر نيلسون فى أبى قير أى قيمة للنصر فى معركة الأهرام . وفى عام ١٧٩٩ ترك نابليون جيشه وأسرع عائدا إلى فرنسا حيث تعين عقب إنقلاب سياسى فى منصب « القنصل الأول للدولة » ، وكان ذلك يعنى بأنه أصبح الدكتاتور العسكرى لفرنسا. وفى الحقيقة كان كقنصل أول ، حاكما قديرا وعلى درجة عالية من الثقافة . ومن بين الكثير من منجزاته وأهمها فى القيمة قيامه بجعل الإدارة المدنية الفرنسيةوالقانون والتعليم والكنيسة أكثرعدلاوكفاءة . وقد إنتهت حرب « التحالف الثانى » فى أوروبا بعد هزيمة النمساويين عند « مارنجو » و « هوهينليندن » عام ١٨٠٠ . وفى عام ١٨٠٢ تمت هدنة مع بريطانيا .

لقد كان نابليون رجلا ذكياً جداً ونشيطاً وقوى الإرادة ، حتى أنه سيطرعلى جميع المحيطين به ، كما كان يتمتع بأكتفاء ذاتى مستقل فى رأيه عن الآخرين ، وقد قال عنه « كولينكورت »[١] : — « كان دائماً يستغل كل وسائله وكل مميزاته وكل إنتباهه فى كل لحظة يقوم فيها بالعمل أو المناقشة ، وقد وضع الأثارة والإهتمام فى كل شىء .» وكان نابليون أستاذاً فى الإستراتيجية ، وكان مدى وسرعة وتنسيق عملياته فريدة وفذة . وعندما أصبحت الطرق أحسن حالا قرر أن يتحرك بسرعة ، وبالمناسبة كان هو شخصياً عبقرياً فى إنشاء وشق الطرق . وعند وضع الخطط كان يعتمد على المعلومات التى يزوده بها هيئة قيادته ، والتى رأسها رئيس أركانه « بيرثيير » و « كونت دارو »[٢] ، وكان يراعى أن تكون هذه المعلومات حديثة ، فكان يسهل الحصول فوراً على كل ما يختص بأى موضوع مطلوب . وكان يسبق تنظيم أى حملة بحث تفصيلى دقيق . أما الأوامر النهائية فكان يصدرها نابليون بنفسه ، وكانت تتضمن كل شىء مثل مسافة وطريقة التحرك لكل فيلق .

وكان نابليون يهتم جداً بالأسلحة والزى والأعداد والموارد المالية وإدارة المناطق المحتلة. وكان من عادته إملاء عدة سكرتارين فى وقت واحد وأيضاً كان لا ينام لعدة أيام متوالية ، وكان يعتبر الفترة الطويلة التى تستنفد فى تحضير وتجهيز الحملة على أنها ذات أهمية بالغة .

---

(١) لقد رافقه عن قرب لمدة عشرة سنوات .

(٢) كان ضابط إدارى عبقرى .   « المعرب »

الرجال تستخرج من احشاء الأرض

كانت إستراتيجية نابليون دائماً هجومية ، وقد دارت حملاته الأولى فى إيطاليا خلال مناطق ضيقة نسبياً وبأعداد صغيرة نسبياً . ومن الممكن فى إيطاليا نشر ٣٥٫٠٠٠ مقاتل على مواجهة ٢٠ ميلا ، بينما كان نابليون يناور لحشد قوة متفوقه عند النقطة الضعيفة للعدو والتى تكون فيها مواجهته أكثر إمتداداً . وكان دائماً يضع نصب عينيه ما يطرأ من تطورات فى المناطق المجاورة . كما كان يخطط لحملاته بحيث تعطى أقصى مميزات سياسية يمكن الحصول عليها مباشرة بمجرد إنتهاء القتال الفعلى بنجاح . وقد قال وزير خارجيته « تاليران » بأنه كان يستغل إنتصاراته بطريقة تامة بحيث يحولها بشكل شامل إلى إنتصارات سياسية . وبعد عام ١٨٠٥ أبتكر نابليون أسلوب إستراتيجى جديد يلائم الجيوش التى تتكون من ٢٠٠٫٠٠٠ مقاتل وتتناسب مع المدى المتزايد لأغراضه السياسية . وقد إستخدم لأول مرة تشكيل الفيلق ذو الاكتفاء الذاتى والذى يتكون من فرقتين أو ثلاثة . وظلت السرعة والتحرك الدقيق من سر نجاحه . وكان يستخدم فيلقا قوياً كحرس أمامى ليثبت العدو ، بينما يناور بالفيالق الأخرى لتشتيت قوات العدو ، أو الإلتفاف على جانبها أو تطويقها أو توجيه ضربة قاضية مدمرة نهائية . وكانت تكتيكات نابليون هجومية أيضاً وتستغرق تحضيراً طويلا . وكان يعمل أقصى مافى وسعه لتحديد سير المعركة مقدماً ، كما كانت لديه حاسة دقيقة فى تقدير الوقت خلال القتال . كما قال : — « أن لحظة واحدة يمكنها أن تحدد مصير المعركة . » و « خلال الإشتباك توجد لحظة تصبح فيها أقل مناورة عملا حاسماً وتحقق النصر ، إنها مثل نقطة الماء التى تجعل الأناء يفيض » . وكانت نظرته للأرض بارعة . وكتب « كولينكورت » : — « كان يبدو وكأنه يستخرج الرجال والجياد والمدافع من أحشاء الأرض . » ، وكانت المشاة هى السلاح الرئيسى فى جيوش نابليون، ومن حيث المبدأ أستخدمت المشاة فى تشكيل مختلط[١] . وكان التشكيل الخطى[٢] له مزايا هو إنتاج أقصى قوة نيران من القوات ، بينما فى تشكيل الأرتال لايستطيع إستخدام سوى صفين من البنادق أو نحو ذلك .

---

(١) تشكيل مكون من بعض الكتائب فى تشكيل الخطوط وآخر فى تشكيل الأرتال .
(٢) كانت تستخدمه معظم الجيوش الأخرى . « المعرب »

ولكن من ناحية أخرى فالقوات التى ينقصها التدريب لاتطلق نيرانها بثبات ، كما أن الصدمة النفسية الناجمة عن القوات المحتشدة فى أرتال كانت كبيرة . وقد دافع « جوبرت » عن الأرتال فى أحوال معينة ، كما أنها أثبتت جدارتها فى حروب الثورة . ومنذ الحملات الإيطالية ومابعدها أستخدمت الجيوش الفرنسية التشكيل المختلط بنجاح كبير ، مغيرين تكتيكات هذا التشكيل تبعاً للأرض ومقاومة العدو . وكان الأسلوب الرئيسى المعركة هو قيام مجموعات من الرماة المهرة بمناوشة ومضايقة العدو ، ثم تتقدم الكتائب فى تشكيل الخط لتحتوى ذلك العدو وتضعفه إلى حدما وتمنعه من تجميع قواته ، وعندئذ تندفع الأرتال لإختراق خط العدو والذى أستنزف وفقد ترابطه . وقد أثبتت هذه التكتيكات نجاحاً دائماً فى المعارك .

وكان تسليح المشاة هو البندقية(١) ذات الماسورة الملساء والتى تعمر من أمام ولهازناد ذوصوانة ، ولم تكن لها فاعلية كبيرة لأن الصوان كان يحتاج بإستمرار إلى تغييره ، كما أن الماسورة تصبح شبه مسدودة نتيجة لإستعمال البارود الخشن . أما البارود نفسه كان يصبح عديم القيمة إذا ماأدركته الرطوبة . وكان الجندى المدرب تدريباً عالياً لايستطيع أن يطلق سوى طلقتين فى الدقيقة . وفى الحقيقة لم يشغل نابليون نفسه كثيراً بتطوير قوة نيران الجيش بواسطة التدريب ، فى نفس الوقت كان المرمى المؤثر المقذوف لايتجاوز ٢٠٠ ياردة ، وهذه المسافة تكون نسبة الخطأ فيها يصل إلى ٩ أقدام . ولذا أخترعت البندقية الأكثر دقة ، ولكنها كانت بطيئة فى العمل وغاليه الثمن ، وبالتالى كان إستعمالها نادراً . وبما أن نابليون كان ضابط مدفعية ، فكان دائماً يجعل المعاونة الرئيسية للتشكيلات من المدفعية ، وقد كان سعيد الحظ لأن التقدم التكنولوجى والصناعى فى عصره وصل إلى الحد الذى مكن القائد من إستخدام المدفعية بإسراف . وحتى ذلك الوقت ، كانت المدفعية توزع على طول مواجهة التشكيل لتعرقل قوات العدو أثناء تشكيلها وتضعف مواجهته قبل أن يبدأ المعركة الرئيسية . وقام نابليون بأعادة تنظيم المدفعية فى آلايات ، واستغل خفة الحركة للمدفعية التى تجرها الخيول والذى وضعه « جريبوفال » . وفى المعركة كان نابليون يحشد مدفعيته ، ففى معركة

---

(١) طراز القرن ١٨ . « المعرب »

« برودينو » كان لديه ٢٠٠ مدفعاً ، وأستخدمها فى فتح الثغرات فى صفوف العدو قبل دفع أرتال المشاة .

ومع مرور الوقت ، بدأت نوعية قوات نابليون فى الهبوط ، لذلك أصبح يعتمد بشكل كبير على المدفعية معلقاً عليها أهمية تكتيكية متزايدة فى نفس الوقت لم يكن هناك جديد فى المدافع ذاتها ، فكانت مواسيرها ماساء وتعمر من الأمام وتستخدم البارود الخشن ، كما أن نيرانها لم تكن سريعة أو دقيقة ، فكان من الممكن إطلاق مقذوفين فى الدقيقة ويصل المقذوف زنه ١٢ رطلا إلى مسافة ٣٥٠٠ ياردة .

أما الفرسان ، فظلت محتفظة بوظيفتها السابقة وهى الإستطلاع وتوفير الحماية فى التقدم والإنسحاب والقيام بعمليات صغيرة وعلى مسافة من الجيش الرئيسى . وقد أستلزم الأمر وقتاً طويلا لبناء قوات الفرسان بعد الثورة ، لأن ذلك الأمر كان باهظ التكاليف كما كان أفراد آلايات الفرسان تتألف من الطبقة الأرستقراطية . وقد جاء نابليون وغير تنظيم الفرسان وكلفها بمهام هامة فى المعركة . وبظهور نظام الفرقة ، كوحدة مستقلة وتتشكل من جميع الأسلحة وبقوة ٦٠٠٠ إلى ٩٠٠٠ رجل ، فقد أصبح الأمر يحتاج إلى وحدات من الفرسان أصغر مما كانت عليه فى الماضى وتكون مرتبطة أكثر وذات مرونة مع قوات المشاة ، ولذلك شكلت الفرسان الخفيفة « الشوسير »(١) و « الهوسار » فرسان الفرق والفيالق .

أما الفرسان الثقيلة فقد خفضت إلى النصف ، وسلح هذا النوع بالسيوف ودرع للصدر ودرع للظهر . ولكنها لم تخصص للفرق بل أحتفظ بها فى تشكيلات مجمعة للقيام بالهجمات القوية فى اللحظة المناسبة فى القتال .

أما الفرسان المتوسطة (الدراجون) فأصبحت مجرد مشاة راكبة وشكلت هى وبعض الفرسان الخفيفة لتكون الإحتياطى الرئيسى للفرسان ، والتى كانت مهمتها متابعة النجاح بمطاردة نشطة للتأكد من القضاء على فلول الجيش المنهزم تماماً ، كما حدث فى حملتى « ألم » و « جينا » . وكان من أعظم ضباط فرسان نابليون هو « مورات »(٢) والذى جعله بعد ذلك ملكاً على نابولى .

---

(٢) هم القناصة من الفرسان .

(١) زوج أخت نابليون وكان متهوراً وله نزوات ولكنه كان قائداً ملهماً . « المعرب »

الطريق مفتوحا للنابغين

وكان أحد مبادىء الثورة « الطريق مفتوحاً للنابغين » ، وقصة حياة نابليون لتؤكد حقيقة هذا المبدأ ، وقد قيل أنه يمكن لكل رجل فى الجيش الفرنسى حمل «عصا المارشالية» لو ثبت كفاءة وإمتيازاً .

ومثال لذلك فمن بين ٢٦ مارشالا الذين صنعهم نابليون لم يكن من بينهم سوى أثنين فقط من طبقة النبلاء .

وعلى أى حال ، بالرغم من أيمان نابليون بالنبوغ أكثر من الأصل ،إلا أنه سرعان مافقد أيمانه بمبدأ المساواة.

فقد كانت المارشالات غارقين فى الإمتيازات إبتداءاً من وسام الشرف الجديد إلى كرسى العرش فى مملكة .

وكانت المدارس العسكرية مثل مدرسة «سانت كير» مخصصة للنابغين . وشكلت آلايات ممتازة وخاصة آلايات الحرس الجمهورى ، ولم يكن مسموحاً بعمل أى مقاتل فى الحرس الجمهورى إلا إذا كان قد إشترك فى أربعة حملات على الأقل أو يكون قد جرح مرتين أو قام بأعمال مجيدة تميزه عن غيره .

وكان المقاتل فى الحرس الجمهورى يحصل على مرتب أعلى مّن أى مقاتل فى أى آلاى آخر علاوة على المعسكرات والتعيينات الأفضل ، كما كان له شرف حراسة الأمبراطور . وتعددت المناصب والرتب فى الجيش ، كما كان هناك أزياء فاخرة للاحتفالات ، وقد أساء كل ذلك للمبادىء الأصلية للثورة ، ولكنها كانت مفيدة لرفع الروح المعنوية . وكان الكثير من المارشالات وآخرون غيرهم جنوداً أكفاء ، فإلى جانب « بيرثيير » و « مورات » واللذين سبق الإشارة إليهما ، فكان هناك أربعة آخرون يستحقون الذكروهم «دافوت» و«ماسينا» و« نى » و « سولت » . وقد حارب « دافوت » أولا مع نابليون فى مصر ، حيث كرس نفسه تماماً لخدمة سيده . وكانت صفاته هذه هى التى تميزها ضباط وحدته ، وكان منظماً على الضبط والربط ، تهابه القوات ولكنه محترم بينهم ، وإلى جانب ذلك كان مقاتلا صلباً ، وأستطاع أن يفهم عقلية نابليون تفهما عميقاً وتاماً . وفى عام ١٨٠٦ أحرز إنتصاراً هاماً على

البروسيين عند « أورستادت » بالرغم من المصاعب الكثيرة التى قابلته ، كما قام بعمله بشكل خارق فى روسيا .

وقد قال نابليون عن « ماسينا » : — « أنه يتميز بصفات عسكرية ، لا يملك الفرد أمامها إلا أن يركع » .

وكان مساعداً مفيداً لنابليون فى إيطاليا عام ١٧٩٦ ، واستطاع صد جحافل جيش « سوفوروف » الروسى الرهيب فى سويسرا ، ولكن هزمه ويلنجتون فى أسبانيا . والآن فقد وصلنا إلى القائد الثالث « نى » وكان قائداً عظيما للفرسان ، وعندما تولى قيادة حرس المؤخرة أثناء الإنسحاب من موسكو عام ١٨١٢ ، أثبت جداره تستحق وسام نابليون « أشجع الشجعان » ، ولكن جاءت معركة « ووترلو » لتظهر ضعف « نى » ، فقد أختفت حكمته عندما فقد كل شىء ، وقد حوكم بعد ذلك أمام مجلس عسكرى وأدين وأعدم رمياً بالرصاص فى ٧ ديسمبر عام ١٨١٥ فى باريس . أما « سولت » فكان منظماً بارعاً وتكتيكياً قديراً . وهناك آخرون يستحقون الإشارة إليهم أمثال « مارمونت » خبير المدفعية و « أوجارو » القائد الشجاع المقدام . وعلى أى حال فإن جميع هؤلاء ساروا تحت ظل نابليون ، ولولا عبقرية وألهام نابليون لما أصبحوا فى هذه المكانة العالية .

نابليون ينصب نفسه امبراطورا (أنظر اللوحة رقم ٣٤ ، ٣٥)

وفى عام ١٨٠٥ شرع نابليون فى إنشاء إمبراطوريته ، وفى صيف هذا العام تحالفت كل من بريطانيا والنمسا وروسيا ضده . وفى ذلك الوقت أصبح واضحاً له أنه لا أمل له فى غزو إنجلترا ، ولذلك وجه إنتباهه إلى الشرق . ومع حلول أغسطس كانت هناك قوات ضخمة تحشد ضده ، ولكنها كانت لاتزال متفرقة . وكان محور القتال الرئيسى سيكون وادى الدانوب ، الذى يجرى عبر النمسا ممتداً نحو روسيا . وكانت قوات « مسينا » البالغة ٥٠٫٠٠٠ مقاتل تستطيع حجز ٨٤٫٠٠٠ نمساوياً فى إيطاليا ، وكان يقودهم « الأرشيدوق شارلز » أقدر قادة العدو . ومن ناحية أخرى كان على نابليون أن يتعامل مع جيش نمساوى يتكون من ٥٨٫٠٠٠ مقاتل على جبهة الدانوب تحت قيادة « ماك » ، وكذلك جيشين روسيين ، أحداهما تحت قيادة « كونوسوف » والذى كان على وشك التقدم خلال « غاليسيا » والآخر

كان يحشد فى بولندا ، كما كان هناك عمليات أخرى تنذر بالخطر فى الأراضى الواطئة وفى جنوب إيطاليا ، ولكنها لم تكن ذات أهمية رئيسية ، كما كان فى إمكان نابليون السيطرة عليها . قدر نابليون موقفه فوجد أنه إن لم يقم بتوجيه الضربة أولا فمن المحتمل أن يحشد العدو حوالى ١٤٠٠٠٠ مقاتل فى أوائل الشتاء فى « آلم » للاندفاع داخل فرنسا ، وقدر نابليون مسافة تحركه إلى « آلم » من « بولونى »(١) فوجدها أقل مما لدى الروس ، وبناءاً عليه قرر أن يضرب مبكراً وبسرعة مسدداً الضربات لأعداءه قبل تجمعهم ، وذلك بالقيام أولا بالقضاء على الجيش النمساوى عند « آلم » وبعد ذلك يتحرك هابطاً الدانوب ليسدد ضربة إلى الروس . وقد

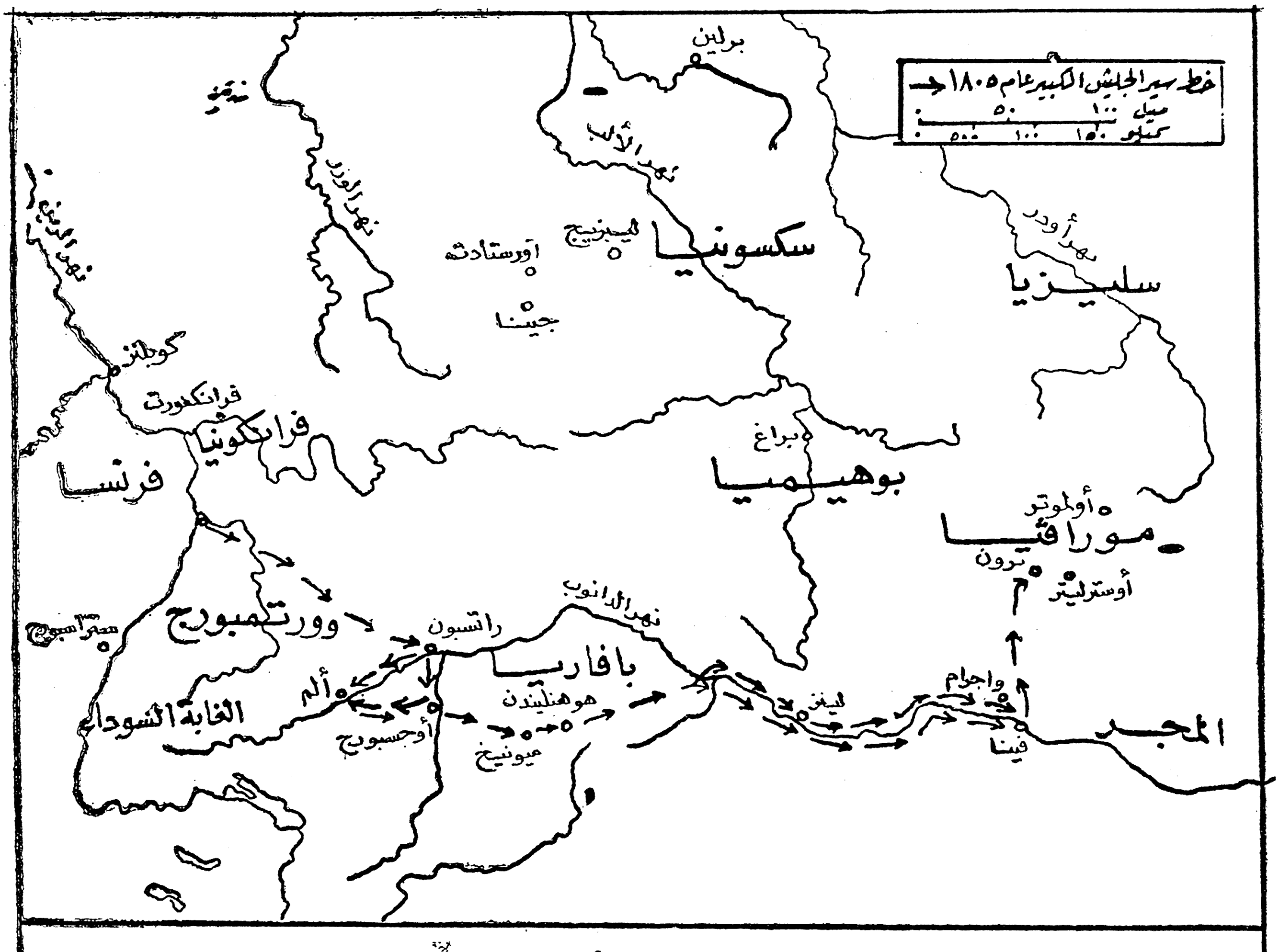

اللوحة رقم ٣٤ حملة أوسترليتز عام ١٨٠٥

(١) كان جيشه لا يزال محتشداً هناك . « المعرب »

عاونت نابليون هيئة قيادته إلى أقصى حد ، عند تخطيطه لتحرك ١٥٠٠٠٠ر مقاتل من ساحل المانش إلى الدانوب فى أواخر صيف ١٨٠٥ . وحتى يخفى قوته ونواياه عن النمساويين ، فتجنب سلوك الطريق المباشر خلال الغابة السوداء ، بل تحرك خلال « فرانكونيا » و « وورتمبورج » فى اتجاه الجنوب الشرقى ، حتى وصل إلى الدانوب خلف « آلم » مطوقاً ومفاجأ مؤخرة النمساويين . وتحرك « جيشه الكبير » فى سبعة أرتال متفرقة ، ويحمى جنب المشاة المتحركة ٢٢٠٠٠ر من الفرسان و ١٠٠٠ مدفع تجرها الخيول ، وكان يقودها « مورات » . وأنطلق فى الأمام مع الفرسان ٧٠٠٠ رجل من الحرس تحت قيادة « بيزيرى » ومعهم نابليون . وقد دفع مختلف أنواع القوات بشكل تدريجى فى المسافة بين «مانهيم» حتى « ستراسبورج » وفى ٢٤ مسيرة بحيث تتحرك شمال الغابة السوداء ثم تتقدم بعد ذلك سويا على مواجهة ٨٠ ميلا وقد وضعت الأمدادات فى أماكن الوقفات المخططة سالفاً .

وقد أغوى أنحراف الفرنسيين فى الغابة السوداء « ماك » للتقدم إلى أعلى الداوب ليقطع إتصالهم مع الخلف ، إلا أن « الجيش الفرنسى » تابع برنامج مسيرته بكل دقة . وكان نموذج التقدم اليومى مشابهاً لتقدم جيش مارلبورو إلى الدانوب عام ١٧٠٤ ، وذلك ببدأ المسيرة عند الفجر ، وقطع مسافة ٨ إلى ٢٥ ميلا فى اليوم ، ويتم التوقف عند منتصف النهار فى معسكر معد . وكانت الروح المعنوية عالية فى الجيش الفرنسى حتى المراحل النهائية عندما أصبحت الأمدادات أقل انتظاماً والطقس ردئياً .

وفى ٧ أكتوبر عبرت الأربع فيالق الأولى نهر الدانوب ، وفى ٩ أكتوبر طوقت القوات الفرنسية « آلم » .

وقامت الفرسان الفرنسية بمطاردة ١٨٠٠٠ نمساوى حاولوا الهرب ، وتم استسلام ماك بعد عشرة أيام ومعه ٣٠٠٠٠ر رجل والذين بقوا من جيشه ، وهكذا حقق نابليون المرحلة الأولى من استراتيجيته بأنتصار كامل وبدون أراقة للدماء .

والآن بدا أحتمال تعبئة البروسيون أنفسهم أيضاً للحرب ضد فرنسا . وقد عزز ذلك من رأى نابليون بأن العمل الهجومى الجرىء والسريع هو أنسب خطة . وفى ٢٦ أكتوبر أنطلق الجيش الفرنسى سريعاً فى اتجاه فينا ، ولكن الرجال قد أدركهم التعب علاوة على الطقس

معركة أولم وهى قمة لعبقرية نابليون العسكرية والاستراتيجية

الشتوى الممطر ، وأهم من كل ذلك وجود جيش « كوتوسوف » المكون من ٦٥٫٠٠٠ روسى أمامهم .

وأصبحت الحملة الآن قتالا أكثر منها مسيرة للنزهة . قرر نابليون تطويق « كوتوسوف » ، ولكن الروس واصلوا محاولة عرقلة تقدم الفرنسيين وذلك بالقتال التعطيلى ثم الانسحاب للخلف ، وفى أحد المواقع كاد الروس أن يقطعوا تقريباً الاتصال بين فيالق

« مورتير » . ودخلت القوات الفرنسية فينا فى ١٤ نوفبر واستولت على مستودعات عسكرية قيمة ، ولكن فى هذا الوقت تلقى نابليون أنباء « الطرف الأغر » وكان جيشه قد أصبح فى وسط أوروبا المعادية .

ووجد نابليون نفسه أنه لن يستطيع اللحاق بكوتوسوف قبل أن يدعمه الجيش الروسى الثانى ، ومن المحتمل أن يعزز بجيش بروسى أيضاً . وفى الواقع بدا كما لو أن نابليون قد وقع فى الفخ . ولكنه نصب فخاً مضاداً فى « مورافيا » حيث كانت أرضها تصلح للدفاع لوجود موانع طبيعية بها ، فتوقف هناك ليريح جيشه ، وأخذ يحاول إيجاد طريقة لاستفزاز العدو ودفعه لمهاجمته . وقد وصلته أنباء بأن الجيش الروسى النمساوى الموجود عند « أولموتز » يتزايد حجمه بشكل مستمر وقد بلغ تعداده حالياً ٨٥٠٠٠ ويتوقع أن يلحق بهم ٦٠٠٠٠ من بولندا مع احتمال وصول ٨٠٠٠٠ نمساوى من خلال جبال الألب لمساعدتهم ، أما البروسيون فكانوا فى ذلك الوقت قد بدأوا فى تعبئة قواتهم وأصبح أمام نابليون حوالى شهراً ليلعب بهم. وكانت خطته هى إغراء الروس لمهاجمته وذلك بأن يظهر أمامهم بجبهة ضعيفة ، بحيث لا يسمح لكوتوسوف بأن يرى أكثر من ٥٠٠٠٠ مقاتل عند « برون » وهى فيالق « لاننز » و « سولت » و « الحرس » وثلاث فرق من الفرسان ، ولكن فى الحقيقة كان يوجد أكثر من ٢٠٠٠٠ الف آخرين تحت قيادة « برنادوت » و « دافوت » فى الاحتياط ، وقد انتشروا فى فيالق على مسافة من ٤٠ إلى ٦٠ ميلا فى الخلف ، ولكنهم مستعدون للتحرك فى ظرف ٢٤ ساعة من إصدار الأمر لهم ، وبذلك سوف يعتقد العدو أن لديه تفوقاً عددياً بنسبة ٢:١ بينما فى الحقيقة كانت الأعداد متساوية تقريباً .

واعتباراً من ٢١ نوفبر كان نابليون واثقاً تماماً بصلابة الأرض التي يقف عليها ، وقرر فى ذهنه المدخل التكتيكى العام للمعركة التى كان يخطط لخوضها . وكانت المنطقة بين « بدون » و « أولموتز » ذات شكل رباعى ، بحيث يحد هذه المساحة من الشمال خط مستقيم من المرتفعات ذات الغابات وتعرف بإسم جبال مورافيا ويسير إلى جنوبها مباشرة الطريق الرئيسى ويتفرع منه فى اتجاه الجنوب الشرقى وصلة إلى قرية أوسترليتز وذلك على مسافة ٣ أميال .

ويوجد مجريان مائيان يهبطان من الجبال ويلتقيان إلى الجنوب قليلا من الطريق ليكونا مستنقع نهرى يسمى «جولدباش» والذى يجرى فى اتجاه الجنوب إلى أن يصل إلى بحيرات ضحلة سبخة تحدد الطرف الجنوبى للمنطقة. وكان هناك سبع قرى على نهير الجولدباش والموضح أسماؤها على الخريطة .

ولم يكن المجرى المائى يشكل مانعاً ولكنه كان يحدد قسمى تضاريس الأرض فإلى الغرب منه سهل منبسط يمتد إلى مدينة « برون » المحصنة جيداً ، والتى كانت محتلة بالفرنسيين وإلى شرق « الجولدباش » هضبة ، تسمى « براتزن » وترتفع تدريجيا ٣٥٠ قدماً من المجرى ثم تنخفض بانحدار شديد فى الجانب الآخر .

واستقر قرار نابليون أن تتمركز قواته على الجانب الشرقى « لجولدباش » ومتخذاً « برون » قاعدة له .

وقد كان من الصعب على الحلفاء المجتمعين عند « أو لموتز » مقاومة أغراء محاولة قطع طريق الفرنسيين إلى فينا وقطع أيضاً طريق إنسحابهم إلى الجنوب الغربى وذلك بمهاجمة جناح الفرنسيين الأيمن .

وتعمد نابليون أن يعرض طريق مواصلاته مع فينا لخطر القطع ، وجمع قواته مع بعضها على الطريق وعند سفوح الجبال لكى يزيد من إغراء الحلفاء لطى جناحه الأيمن بقواتهم الرئيسية . وقد كان واثقاً لو أنهم بلعوا الطعم فسوف يتمكن من هزيمتهم هزيمة ساحقة فى أرض من اختياره .

وفى معسكر الحلفاء دار نقاش كثير ، حول تولى « القيصر الكسندر الأول » القيادة العامة وحول صواب الهجوم من عدمه . وجادل « كوتوسوف » فى إرجاء أى خطوة لحين وصول التعزيزات وفى نفس الوقت يزداد استنزاف الفرنسيين . ولكن الكسندر الشاب المتكبر والمنساق وراء تملق حاشيته ، اقتنع بأن نابليون قد وقع فعلا فى الفخ . وكانت القوات الروسية منهكة نتيجة للسير المستمر لمدة شهور ، ولكنها كانت مع ذلك تضم جنوداً ممتازين .

وفى عام ١٧٩٩ وتحت قيادة « سونوروف » طهر الروس شمالى إيطاليا ، حيث قاتلوا

فى حشد وكأنهم آلات هدم الأسوار . ولسوء الحظ أن أقدر قائد فى جانب الحلفاء كان غير موجود وهو «الأرشدوق شارلز» ، وقدعهدبوضع تفاصيل خطة الهجوم إلى «ويروزر» رئيس الأركان النمساوى .

نابليون يحتل نصف مليون ميل مربع (أنظر اللوحة رقم ٣٥ ، ٣٦)

وبدأ تقدم الحلفاء فى أول ديسمبر ، وفى المســاء أوجز « ويروزر » مخططه التــكتيكى .

وكان جيش الحلفاء يتـكون من ٩٠٫٠٠٠ مقاتل أغلبهم من الروس ، ٢٧٨ مدفع . وكانت الخطة تقضى بالاقتراب من جناح الفرنسيين الأيمن من الشمال الشرقى ، وتعبر مقدمة الجيش نهير «الجولدباش» فيمابين «تلنتيز» و«سوكولنيتز» ثم تغير اتجاههافى ثلاثةأرتال وتهاجم الفرنسيين من الجنب من اتجاه الجنوب . وكان على الرتل الرابع الاشتباك مع مواجهة

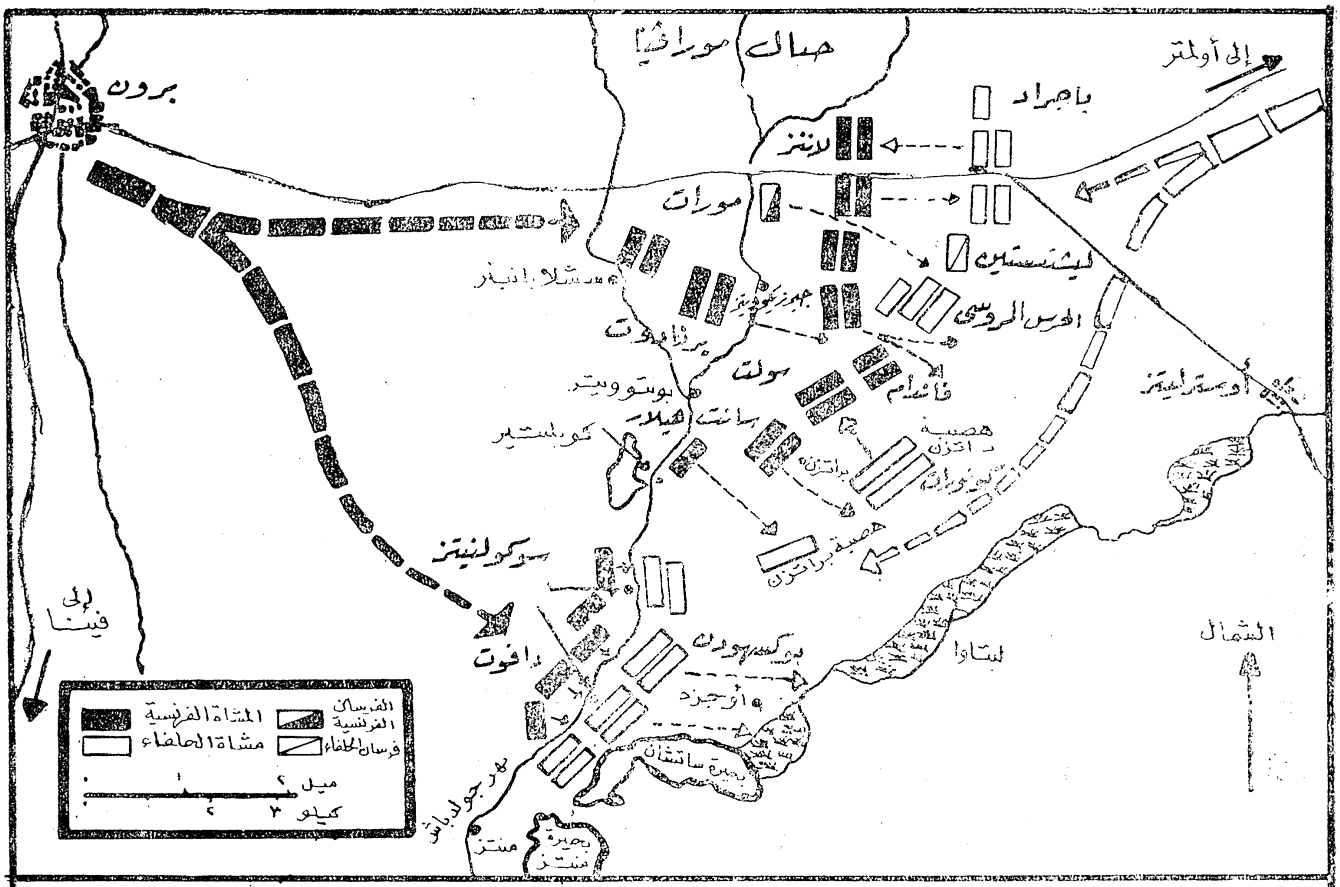

اللوحة رقم ٣٥ معركة أوسترليتز

الفرنسيين الممتدة أمام «البراتزين» بينما يقوم فيلق آخر فى الشمال بتثبيت الفرنسيين الموجودين على جانبى الطريق .

وفى ليلة أول ديسمبر كان « كوتوسوف » وعدد من كبار الضباط الروس سكارى وكم كانت بداية سيئة للمعركة .

وفى أول ديسمبر تأكد نابليون أن العدو يتحرك ، وكان فيلق « برنادوت » قد انضم إليه فعلا ، بينما كان « دانوت » فى الطريق ، وخلال فترة بعد الظهر تفقد نابليون جيشه ممتطياً حصانه على رأس مجموعة من قادة الفيالق وضباط أركانحربه ، مرتدياً زياً أخضر وأبيض وأحمر وكان مدركا لصورة أسطورته ، وتجاهل مظهر جنوده القذر ، ولكنه اهتم فقط بالفحص المتكرر للأسلحة للتأكد من صالحيتها للعمل . وكان من المفروض أن يكون قلقاً لعدم وصول فيالق « دانوت » بعد ، ولكن فى الحقيقة كان يعتمد على تنسيق وخفة حركة جيشه ، لأنه فى الرابعة بعد الظهر وصلته أنباء أن أمام «دانوت» تسعون ميلا وسوف يقطعها فى يومين .

وكان تعداد القوات الفرنسية مجمعة ٦١٫٠٠٠ مقاتلا و١٣٩ مدفعا . وبالرغم من تفوق الحلفاء عدديا إلا أن قوات نابليون كانت محتلة أوضاع سليمة للمعركة القادمة بالإضافة إلى الميزة الكبرى لدى نابليون وهو معرفته بخطة عدوه وعلمه بأنها رديئة ، ولسبب بسيط وهو أنه فرضها عليهم . وتولى « سولت » قيادة الوسط أى فى مواجهة « برانزين » ، وتواجدت مع سولت قوة كبيرة كأحتياطى ، وتواجد « لانز » على اليسار مع «مورات » ومعهما معظم الفرسان .

أما « دانوت » فكان على اليمين . ومع غروب الشمس أعلن نابليون بياناً على قواته رافعاً الستار فيه عن مخططه : « إن المواقع التى نحتلها قوية ، وعند تقدمهم لطى جناحى الأيمن فإنهم سوف يعرضون جنبهم لى » . وأثناء الليل وعندما أبلغ بأن الروس لازالوا متحركين جنوباً ، دفع بعض قواته التى فى الوسط إلى اليمين قليلا .

وبعد حلول الظلام وقع حادث مثير ، فقد شبت النيران فى القش ، فقام بعض الجنود الفرنسيين بنشر النيران ، اعتقاداً منهم بأنها بعض الألعاب النارية احتفالا بذكرى

تتويج الإمبراطور ، ولعدة دقائق اشتعل اللهب بعنف ، وفى موجة عارمة من الحماس والإخلاص هتف لنابليون ٣٠٠٠٠ رجل من قلوبهم . وطبقاً لما كتبه نابليون بعد ذلك : — «إن معركة « أوسترليتز » لم تكن سوى نتاج للخطة التى وضعت لحملة مورافيا » . ودارت المعركة فى ٢ ديسمبر كما كان يرجو . وكان هجوم الحلفاء قوياً ومستمراً بالرغم من أنه كان غير متقن التنظيم ، وكانت قيادة الحلفاء أثناء الهجوم فى حالة يرثى لها . وقد صمد «دافوت» بقوات قليلة بالجناح الأيمن الفرنسى طول النهار . كما حجب وسط الفرنسيين بموجة من الضباب إلى أن هاجم رجال « سولت » فى « تشكيل مختلط » ،المشاة والمدفعية الروسية من الجنب عند « براتزين » محققين مفاجأة تامة . وأثناء الصباح وصل الحلفاء هجومهم على الجناح الأيمن الفرنسى ، ولكن الفرنسيين عززوا أنفسهم أفضل فى المنتصف وقطعوا جيش العدو إلى جزءين .

وأصبح الشمال هو آخر منطقة سيدور فيها القتال ، وقد ساد الصراع بشكل متكافىء وصعب . وما انتصف النهار حتى كانت فرسان « مورات » والتى تعمل بين اليسار والوسط وقد عزلت الجناح الأيمن للحلفاء عن وسطهم . وعندئذ بدأت القوات الروسية هناك بالإنسحاب ببطء .

وكان نابليون نفسه فى ذلك الوقت عند « براتزين »وقامت فرقتين من الوسط الفرنسى بقيادة « سانت هيلار » و « فاندام » بضغط مضاد على البقايا المهزومة لوسط الروس على المنحدر الشرقى . وكل ما تبقى عمله الآن هو معاونة ونجدة الجناح الأيمن للفرنسيين وتأكيد هزيمة الحلفاء التامة فى جميع المواقع . وتم صد آخر هجوم مستميت للحرس الإمبراطور الروسى على « براتزين » ، عندئذ تحول الوسط الفرنسى لتدمير الجناح الأيسر للحلفاء ، وشقت بعض المشاة الروسية طريقها فى اتجاه الجنوب ، ولقى البعض الآخر حتفهم غرقاً عندما بدأت البحيرات المتجمدة فى الذوبان تحتهم ، وقد تم أسر غالبيتهم .

وبالرغم من اقتناص الجناح الأيسر للعدو فقد استطاع جناحه الأيمن الإنسحاب بإنتظام . وتردد « مورات » والذى لم يتلق أى أوامر فى ترك الوسط لتطويق جناح

العدو . وفى الساعة الخامسة توقف إطلاق النيران . وبلغت خسائر الحلفاء ٢٧٫٠٠٠ رجل و ١٨٠ مدفعا بينما كانت خسائر الفرنسيين حولى ٧٠٠٠ . وكانت النتيجة المباشرة لمعركة « أوسترليتز » هو خروج النمسا من الاتحاد فى ديسمبر ١٨٠٥ .

وفى عام ١٨٠٦ حاولت بروسيا منع نابليون من السيطرة الكاملة على ألمانيا ، وحشدت جيشاً من ١٣٠٫٠٠٠ رجل ، وكانت لا تزال غارقة فى المجد التاريخى لفريدريك الأكبر . وفى حملة استغرقت ثلاثة أسابيع تم سحق البروسيين بعد هزيمتهم فى معركتين عند « جينا » و « أورستادت » ، ثم قام نابليون بمطاردة سريعة واحتل برلين . وفى العام التالى استطاع الفرنسيون الذين يقاتلون الآن فى شمال شرق أوروبا انتزاع نصراً محدوداً ودمويا من الروس فى « أيلو » .

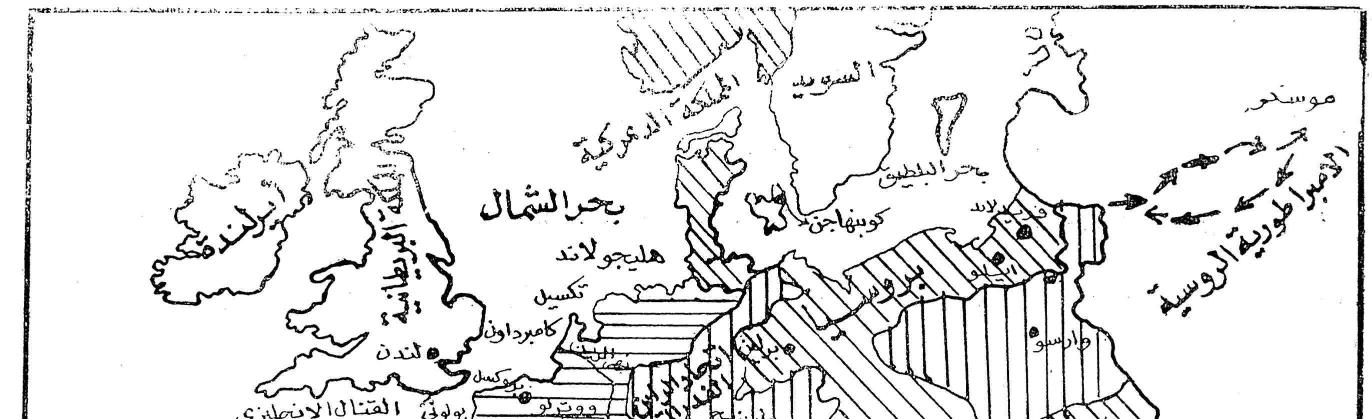

اللوحة رقم ٣٦ امبراطورية نابليون

وفى يونيه عام ١٨٠٧ هزمهم نابليون مرة ثانية عند «فريدلاند» مكبدهم خسائر فادحة حوالى ٢٥٠٠٠ رجلا ، وقد فكر بعدها القيصر أنه من الأفضل الوصول إلى تفاهم مع نابليون. وأدت الانتصارات فى عام ١٨٠٥ — ١٨٠٧ من رفع نابليون إلى ذروة المجد . ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ١٨١٢ ظل نابليون سيداً على كل غرب أوروبا ، وامتدت إمبراطوريته من «سيفيل» إلى «وارسو» ومن «نابولى» إلى «البلطيق» أى حوالى نصف مليون ميل مربع يعيش فوقها ٤٤ مليون من الرعايا ، وقد تمت إصلاحات قيمة ودائمة فى كثير من هذه المنطقة مثل :— المساواة أمام القانون ، وإلغاء الرق ، والتسامح الدينى ، والتعليم العام ، وتوحيد نظم القضاء ، وإنشاء الطرق ، والرسوم الجمركية فى المناطق ، والجيوش القومية وهذا قليل من كثير .

القرحة الأسبانية

وعلى أى حال ، فقد ظلت مشكلة بريطانيا بدون حل ، وفى نوفمبر ١٨٠٦ عندما كانت أوروبا تحت سيطرة نابليون ، بدأ نابليون حربا اقتصادية شاملة ضد عدوه الرئيسى بريطانيا. وكان غرضة هو إغلاق القارة الأوروبية فى وجه السفن والتجارة البريطانية . وقد أعلن «مرسوم برلين» أن الجزر البريطانية «فى حالة حصار» وحظر تبادل كل أنواع التجارة معها ، والإستيلاء على كل البضائع التى تنقل بين بريطانيا ومستعمراتها . ولو استطاع نابليون تحقيق ذلك فلا خلاف فى أنه سوف يخضع البحر بالقوة البرية . إلا أن الإنجليز قابلوا هذا العمل بالمثل ، فعلى الفور وسع نابليون نطاق هذه العمليات . ولكن فى الحقيقة طالما سيطرت بريطانيا على البحار ، فلن يستطيع نابليون تجويعها حتى الهزيمة ، لأنه لن يتمكن من قطع الإمدادات من الطعام والمواد الخام القادمة من مستعمراتها إليها . ومن الممكن التنبأ ببداية سقوط نابليون ، وفى أى مرحلة من حياته تقريباً ، ويمكن أن نعتبرها قد بدأت مع لحظة طموحه الزائد المميت فى ذلك المساء بعد معركة «لودى» عام ١٧٩٦ . وقد يرجع الخطأ الفعلى إلى عام ١٨٠١ عندما فرض نابليون معاهدة السلام المهين على النمسا بدلا من الاتفاق معها وتوحيد قواتهما لهزيمة إنجلترا . وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما كان يتمتع به نابليون من عبقرية ، فمن الممكن القول بأنه لم يصدر منه أى تصرف غير منطقى أو شاذ ،

إلى أن بدأت رأسه تدور بنشوة الإنتصار فى « أوسترليتز » و « جينا » وأصبح طامعا فى السيطرة على العالم ، ومن ثم ذهب إلى أسبانيا وموسكو . ولكنه طرد من روسيا بشكل مشين فى عام ١٨١٢ ، ولكنه فى عام ١٨١٣ كون جيشا جديداً .

وفى عام ١٨١٣ عانى من أول هزيمة شخصية ورئيسية فى معركة عند « ليبزج »، وفى عام ١٨١٤ كان عليه الدفاع عن حدود فرنسا نفسها . وفى ذلك الوقت أدت مطالب التجنيد الأجبارى والأنانية الواضحة فى أطماعه ، إلى فقد تأييد الأمة الفرنسية له، ولكن النمسا فى ذلك الوقت عرضت شروطاً طيبة للسلام والصلح ، وحتى هذه المرحلة لم يكن قد تحطم نابليون بعد ، لأن الحملة التى قام بها فى هذا العام كانت من أبرع حملاته ، فقد أعاد أسلوبه فى تقسيم أعدائه وهزيمتهم على أجزاء . ولم تفشل عبقرية نابليون العسكرية حتى عام ١٨١٥، ولا يوجد خط واضح للسقوط السياسى ، ولكن نابليون أرجع ما أصابه من أنهيار إلى القرحة الأسبانية.

حرب شبه الجزيرة (أنظر اللوحة رقم ٣٧)

وفى الأنتصار الذى حققه عام ١٨٠٦، وقع خطأ صغير تلته سلسلة من الأحداث التى قوضت قوة نابليون ، وبعثت الشجاعة فى صفوف أعداءه . ففى هذا العام رفضت البرتغال قبول « نظام نابليون الأوروبى » وشأنها شأن معظم دول أوروبا لا ترغب فى الخضوع لفرنسا ، كما كانت ترغب فى التجارة مع بريطانيا ، وخالفت وقاومة الأغلبية . وفى عام ١٨٠٧ أرسل نابليون جيشاً بقيادة « جونوت » إلى شبه الجزيرة ، وفى العام التالى عزل ملك أسبانيا على أثر حركة خيانة .

وقد بدأ كل من الشعبين الأسبانى والبرتغالى يثور ويرفض الفرنسيين ، ومنذ هذا الحين وبدأت الجيوش الفرنسية تتعرض لهجمات رجال العصابات وأنتقادات رجال الدين ، وصعقت أوروبا عندما سلمت فرقتين فرنسيتين للأسبان عند « بايلين » ، وأدى هذا التسليم إلى خفض الروح المعنوية « للجيش الكبير » . وكان هذا هو الموقف فى شبه الجزيرة فى عام ١٨٠٨ عندما نزلت بها الحملة البريطانية بقيادة « سير جون مور » . وفى أول الأمر تولى نابليون القيادة فى أسبانيا ، ونجح تقريباً فى أصطياد قوات « مور » عند « كورونا » ولكن الاحداث فى أوروبا أبعدت نابليون عن شبه الجزيرة ، وكان ذلك الأمر مؤلماً لدرجة أن

« ويلنجتون » عبر عن ذلك بقوله بأن نابليون يعادل وجودة على رأس جيشه ٤٠٠٠٠ رجل. ولم يعد نابليون بعد ذلك مطلقاً إلى شبه الجزيرة. وحتى ذلك الوقت كانت المساهمة الفعالة البريطانية للمجهود الحربي لحلفائها فى أوروبا قاصراً فقط على المعاونة المالية ، ولكن الآن نتيجة للتأييد العام القوى ضد الفرنسيين وتوفر مواصلات بحرية آمنة ، أصبح البريطانيون أنفسهم قادرين على أن يطأوا بأقدامهم أرض أوروبا. وفى أغسطس عام ١٨٠٨ نزل إلى البر « سير آرثر ويليسلى »(١) فى البرتغال ومعه ١٣٠٠٠ مقاتل وهزم الفرنسيين عند « فيميرو » وبالرغم من ذلك وبغباء رؤساء « ويلنجتون » أستطاع « جونوت » من تخليص جيشه بمعاهدة « سنترا ».

دوق ويلنجتون

لقد ولد ويلنجتون من أسرة إرلندية أرستقراطية عام ١٧٦٩ أى فى نفس عام مولد نابليون ، وتلقى تعليمه فى « أيتون » حيث أظهر تفوقا يبشر بالنجاح فى العلوم الرياضية والموسيقى ، ولكنه ترك هذه المدرسة وهو فى سن ١٥ عاما ، وفى عام ١٧٨٧ ألتحق بالجيش ولم يكن ذلك نتيجة الأختيار أو الطموح ولكن نتيجة لرغبة العائلة لأنها المهنة العادية للأبن الأقل ذكاء فى العائلة . ولم يقم إلا بالقليل من الخدمة النظامية فى وحدته ، ولكنه فى عام ١٧٩٦ ذهب إلى الهند وكان عمره ٣٠ عاما ، وهناك بدأ يزاول مهنته بشىء من الأحتراف ، بدراسة كل المراجع القيمة فى العلم العسكرى وكل ما كتب عن الهند. وفى ذلك الوقت يقال عنه : — .. أنه مشرق ، ومرح ، وغير متحفظ بين أصدقائه الخصوصيين ، ولكنه متحفظ فى العلاقات العامة ، وكان محتفظاً دائماً بسرعة الخاطر ولكنه كان يخفى حساسيته تحت مظهر خارجى فقط ، وكان يسيطر بقوة على فتوره الطبيعى وعواطفه الجياشة بضبط نفسه القوى » . وفى الهند تلقى تدريباً عسكرياً وحقق لنفسه سمعة محلية ضخمة .

ولم يسبق لأى قائد بريطانى أن استنبط أسلوبا تكتيكياً للتعامل مع جماعات فرسان

(١) لقد أصبح بعد ذلك دوق ويلنجتون « المعرب »

« المرثا » ، ولـكن ويلنجتون وجد الحل بالتشكيل الخطى . وكانت خطوط أمداده جيدة التنظيم فأستطاع الدخول إلى مسافات طويلة فى قلب أراضى العدو ، وفى نفس الوقت تيسر له خفة الحركة داخل خطوط العدو . ومن أبرز معاركه هى أقتحـامه لأحد الحصون الهندية الجنوبية المنيعة المسمى « أحمد ناجار » ، وأنتصاره أيضـاً فى معركة « أسامى » الدموية عام ١٨٠٣ . ولم يمضى وقتاً طويلا حتى تحقق السلام بشروط فى مصلحة بريطانيا ويرجع الفضل فى ذلك لأنتصارات ويلنجتون . وفى عام ١٨٠٥ عاد ويلنجتون إلى إنجلترا بعد أن مضى تسع سنوات فى الهند . وبالرغم من أن الشهرة التى أكتسبها فى الهند لم تـكن لها قيمة فى إنجلترا ، إلا أنه أصبح يمتلك قدراً كبيراً من الخبرة والتجربة فى المعارك الضارية ضد عدو يفوقه عدداً علاوة على تنظيم الأمداد والتحرك الإضطرارى وفن الحصار وأستمالة الحلفاء الذين يصعب التعامل معهم . وفيما بين عام ١٨٠٥ وعام ١٨٠٨ شغل نفسه بالسياسة وأصبح السكرتير الأول لإيرلندا . وأهتمامه بالسياسة هو الذى أمن له مناصبه التاليـة أكثر من وظيفته فى الجيش . وفى عام ١٨٠٦ ، ١٨٠٧ أشترك فى الحملات العقيمة على شمـال غرب أوروبا ، وبعد ذلك فى الحملات فى شبه الجزيرة ، وحقق نجاحا كبيراً هنـاك عام ١٨٠٨ ، ولـكنه فى أبريل عام ١٨٠٩ عاد ليقود ٢١٫٠٠٠ مقاتل .

فى الجانب الاخر من التل

وفى هذه الحقبة اختلف الجيش البريطانى فى نواحى كثيرة عن الجيش الفرنسى ، ومن أبرز هذه الأختلافات أن الجيش البريطانى لم يـكن جيشاً قومياً ولـكنه كان محترفا صغيراً من الطراز العتيق ، كما كان هناك تناقض بارز بين حياة ويلنجتون ونابليون ؟ وكانت الرتب العسكرية فى الجيش البريطانى يتم الحصول عليها بالشراء أو النفوذ الشخصى ، وكانت لا تتيسر إلا لهؤلاء من أصل رفيع . وبصرف النظر عن فترة التدريب الأساسى لمدة ستة شهور وبعض القرارات الأجبارية للنشرات ووزارة الدفاع ، فلم يكن هناك أى تدريب آخر للضباط . ولا يمكن القول بأن الجنود كانوا يجندون من طبقات المجرمين ، ولـكنهم على العموم لم يـكونوا من أحسن عناصر الشعب ، وعلى أى حال فقد نجح النظام ، بالرغم من عدم وجود عنصر البراعة والفوارق الاجتماعية . وعمل الضباط والجنود معا بشكل مرضى فى معظم الأحيان ، كما تحقق

الضبط والربط بالمعاملة والعزيمة الممتازة ، بالرغم من أنه كان قاسياً فى بعض الأحيان، وبشكل عام كان الجيش فى حالة جيدة من الكفاءة القتالية . وقد كان ذلك تحسناً ملحوظاً عما كان عليه الوضع فى الماضى ، والذى يعتبر من منجزات كل من « الجنرال مور »و« دوق يورك» و « يلنجتون » .

وفى عام ١٨٠٣ ، فى معسكر عند « شور نكليف » أحدث « مور » ثورة فى الضبط والربط والتدريب ، وذلك بتعمده الاعتماده على التعاون بدلا من الأعتماد على الأجبار ، مؤكداً بالنتائج التى وصل إليها من الروح المعنوية العالية والكفاءة بأن ذلك كان أفضل الطرق. وكان « دوق يورك » الرأس المدبرة للجيش ، وكان رجلا كفأ وقد أنشأ الأكاديمية العسكرية وكلية أركانحرب ، كما شجع إرتقاء الضباط الصغار الموهوبين . وقد أهتم ويلنجتون نفسه

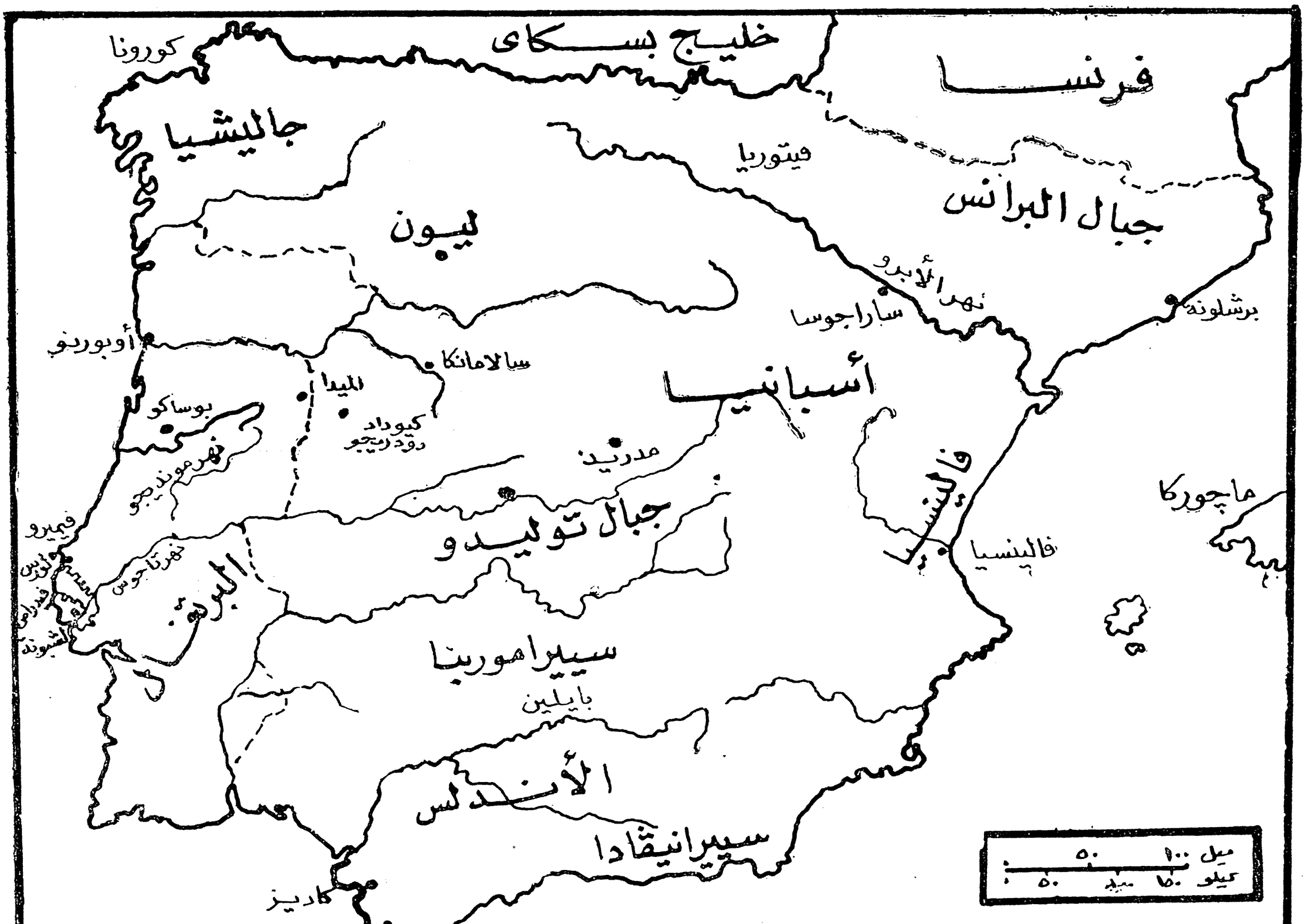

اللوحة رقم ٣٧ حرب شبه الجزيرة

فى شبه الجزيرة بالعناية بقواته وتدريبها . أما النواحى المالية والنقل والأمداد فقد تولاها ضابط الأمداد القدير الجنرال « كندى » والذى نادراً ما فشل فى توفير الأمدادات الكافية للقوات من ملابس ومأكل وأوعيه للطهى وخيام وبطاطين وأحذية ومرتبات .على عكس الفرنسيين فقد أستخدم الإنجليز نظام مستودعات الأمداد ، كما كانوا يدفعون ثمن الأمدادات المحلية . وتلك السياسة كانت حكيمة لأنها تكسبهم تأييد المواطنين سكان مناطق العمليات كما حدث فى منطقة جنوب غرب فرنسا نفسها عام ١٨١٤ .

وكان من أهداف الضبط والربط القاسى لويلنجتون هو منع إفراط الجنود مثل السكر الزائد والذى يؤدى إلى الضرر بصحتهم ، ومرة أخرى على عكس نابليون إعتقد ويلنجتون أن من المفيد جداً أعطاء جنوده تدريباً كاملا فى إستخدام أسلحتهم . وكانت الوحدة الأساسية فى الجيش البريطانى قبل « حرب شبه الجزيرة » هو اللواء والآلاى . وكان الزهو فى تقاليد الآلايات القديمة عاملا هاما فى المحافظة على الروح المعنوية العالية وعلى كل كانت المشكلة أن الجيش البريطانى لم ينجز سوى نجاحاً قليلا فى الميدان منذ حرب « السبع سنوات » .

ولكن جاء ويلنجتون ليضع نظام الفرق . وكانت الفرقة عبارة عن تشكيل يضم جميع الأسلحة والخدمات ، ولديها إكتفاء ذاتى ، ويمكن فصلها عند الضرورة من القوات الرئيسية ، وأصبحت قادرة بالتدريب على المناورة الواسعة . وقام ويلنجتون بأدماج قوات برتغالية فى الفرق البريطانية لزيادة أعداد قواته فى شبه الجزيرة ، وكان يتم ذلك عادة بمعدل لواء برتغالى واحد يضم بعض الضباط البريطانيين إلى لوائين بريطانيين ، كما كان لديه فرقة واحدة مكونة من البرتغاليين فقط . وتولى الجنرال « بيرسفورد » تدريب وتنظيم القوات البرتغالية بجدارة . وكان ويلنجتون يشكل أحيانا فيلقا ، ولكن كان هذا الأمر إستثنائيا ، بينما ظلت الوحدة الأساسية للجيش هى الفرقة . وفى النهاية كان لديه عشر فرق ، ومن بين أحسن قادة الفرق المعروفين كان : — « هيل » و « جراهام » و « بيكتون » و « جروفارد » . ويعتبر ويلنجتون أيضاً المسئول عن ادخال أول سلاح للمهندسين والشرطة العسكرية فى الجيش . وأصبحت هيئة قيادة ويلنجتون وجهاز مخاراته أكثر كفاءة مع أزدياد خبرتهم فى شبه

الجزيرة . وكان هناك تفاهما وثيقا بين ويلنجتون « وموري »[1] والذى لم يهتم فقط بتنظيم المعسكرات وبتحرك القوات ولكنه كان مسئولا أيضاً عن المخابرات الطبوغرافية ، كما كان مساعدا هاما لويلنجتون فى التخطيط الإستراتيجى والتكتيكى . وكان هناك أعضاء آخرين فى هيئة قيادة ويلنجتون ويراهم يوميا وهم : — « مدير التعيينات ورئيس إدارة الجيش ومدير الخدمات الطبية وقائد المدفعية وقائد المهندسين . ولم يختلف ويلنجتون عن نابليون كثيرا فى إهتمامه بالتفاصيل الهامة للتحضيرات ، وفى قدرته على إنجاز كمية كبيرة من العمل ؛ كما كان أفضل من نابليون فى التفاوض . أما مساعدوه فكانوا أسعد حالا من مساعدى نابليون . ولم يكن لويلنجتون رئيسا للأركان على عكس « نابليون » و « بلوتشر » . وفى أعم لأركان حرب[2] فقد أشترك ثلاثة فى إدارتها وهم : — السكرتير العسكرى ورئيس إدارة الجيش ورئيس الأمداد والتموين . ولم يكن ذلك ليناسبنى على الإطلاق ، ولكن يبدو أن ذلك كان مناسبا منذ ١٥٠ عاما مضت عندما لم تكن الحرب معقدة كما أصبحت عليه فى منتصف القرن العشرين . وكان ويلنجتون يعلق أهمية كبيرة على معلومات المخابرات عن العدو ، إلى جانب الإستعداد بين القوات خلف الخطوط .

وقد قال بعد ذلك أن من أسباب نجاحه يرجع إلى اهتمامه بدراسة مايحدث : — « فى الجانب الآخر من التل . » وبناءا على ذلك أنشأ نظام مخابرات جيد . وفى بداية حرب « شبه الجزيرة » لم يكن هناك خرائط يعتمد عليها للمنطقة ، ولكن مساعدوا « مورى » عالجوا تدريجيا هذا الموقف فى المناطق التى تدور عليها العمليات . وكانت تسبق تحركات الجيش عمليات استطلاع ذات كفاءة ممتازة ، ويرسل كل يوم إلى الأمام دوريات من الفرسان وضباط فرديين ، ولم تكن مهمتهم استطلاع الأرض فقط بل اكتشاف أوضاع قوات العدو أيضاً . وكان من الممكن الحصول على المعلومات الجيدة بالثمن من مجموعات الفدائيين ومن سكان القرى ، لأن الأنباء تنتقل بسرعة وبدقة بين المواطنين . وقد أنشأت شبكة من الأشخاص الموثوق بهم فى كل شبه الجزيرة . وهكذا كانت معظم

---

(١) مدير الامداد والتموين .

(٢) عادة يشرف على عمل اركان حرب ومديره رجل واحد « المعرب »

المعلومات التى تجمع يتلقاها ويلنجتون شخصيا وكان يطلب دائما معلومات على أعلى مستوى من الدقة .

اسماك الثور من قرنية (أنظر اللوحة رقم ٣٧)

وكانت إستراتيجية ويلنجتون فى شبه الجزيرة مقيدة بالتفوق العددى لأعدائه . فقد بدأ ومعه ٣١٫٠٠٠ رجل ولم يتجاوز جيشه فى أى وقت عن ٨٠٫٠٠٠ رجل ، فى حين لم يقل الجيش الفرنسى عن ٢٥٠٫٠٠٠ رجل تحت قيادة « ماسينا » أو « مارمونت » أو « سولت » . وأعتمد ويلنجتون على البرتغال كقاعدة رئيسية لعملياته ، وكان يجب عليه التمسك بالبرتغال أولا ثم الزحف منها إذا استطاع . أما « مور » فقد أعتبر البرتغال يتعذر الدفاع عنها ، ولكن خالفه ويلنجتون فى ذلك .

وكان هناك خمس ثغرات فى حدود البرتغال الجبلية ، ولكن ويلنجتون أيقن أنه يستطيع تنظيم منطقة دفاعية بمساعدة الأسبان والبرتغاليين ، وكانت الضرورة الأولى هى تطهير البلاد من الفرنسيين بسرعة فى ذلك الوقت بأى شكل من الأشكال حتى يتوفر الوقت لتجهيز الدفاعات . وفى « أبورتو » هوجم « سولت » ، وتقدم ويلنجتون إلى داخل أسبانيا ، وبحماقة وقع حلفاءه الأسبان فى براثن الهزيمة مما أدى إلى فقد أسبانيا الجنوبية ، ولكن ويلنجتون أستطاع احراز النصر عند « تالافيرا » ثم أنسحب عائد إلى البرتغال . ومع حلول شتاء عامى ١٨٠٩ — ١٨١٠ أصبح متوقعا أكثر من أى وقت مضى قيام الفرنسيين المنتصرين فى أسبانيا والنمسا بحشد قوات ضخمة لانزال ضربة قاضية بجيش ويلنجتون فى البرتغال . ومن إنجلترا أرسل لويلنجتون تعزيزات بلغت حوالى ١٠٫٠٠٠ رجل ولكن لم يكن متيسرا أكثر من ذلك . وقرر أن يكون موقعه عام ١٨١٠ بالقرب من الحدود ، ولكنه جهز أيضاً موقعا دفاعيا قويا بدرجة كبيرة لحماية لشبونة[1] . وأنشأ العمال البرتغاليون الدفاعات تحت إشراف المهندسين البريطانيين ؛ وكانت عبارة عن خطين من الحصون المتبادلة المتعاونة علاوة على متاريس تمتد لمسافة ٣٠ ميلا عبر التلال فيما بين

(١) كان يعرف بخطوط « تورس فيدراس » « المعرب »

« تاجوس » والبحر . وفى عام ١٩٥٦ ، خلال خدمتى فى حلف شمال الأطلنطى ، أستطلعت الموقع على طول « التورس فيدراس » وقد راعتنى قوته الطبيعية الكبيرة . وفى مايو ١٨١٠ تولى « ماسينا » قيادة « الجيش البرتغالى الفرنسى » . وبدأ الزحف ليقذف بويلنجتون فى البحر . وقاوم ويلنجتون الإغراء بمحاولة إنقاذ حصون الحدود الأسبانية وهى « كيوداد » و « رودريجو » و « الميدا » . وفى سبتمبر تقدم « ماسينا » على رأس ٧٢٫٠٠٠ رجل داخل البرتغال على ثلاثة محاور ، مما أدى أن ويلنجتون أنسحب أمامه ومعه ٤٩٫٠٠٠ رجل . وعند نهر « مدنديجو » أيقن ويلنجتون أنه قادر على خوض المعركة ، وهناك على مرتفعات « بوسا كو » هزم « ماسينا » . وكان ويلنجتون ممتازاً فى مجال التكتيك بنفس القدر من الأمتياز فى المجالات الأخرى للقيادة . وكان كل من نابليون وويلنجتون يؤمنان تماما بقوة النيران ، وقد أستخدمت قواتهما بشكل عام نفس البندقية والسونكى ، والتى كان البريطانيون يسمونها « براون بس » ، أما الأختلاف بينهما أن قوات ويلنجتون كان لديها ضبط وربط عالى ومدربة تدريبا راقيا يجعلها تستطيع الصمود فى خط واحد أمام أرتال الفرنسيين ، وكان من السهل إجراء الحسابات التى تحقق أنهم سينتصرون ، لأنهم كانوا يستطيعون إنتاج قوة نيران تعادل على الأقل أربعة أضعاف ما للعدو . وكانت تكتيكات ويلنجتون العادية تتضمن وضع قواته الرئيسية فى خط مزدوج من المشاة والذى يشكل على المنحدر الخلفى للمرتفع ، حتى يصبح مختفى عن نظر ومدفعية العدو ، ويدفع أمام الخط مناوشين بينما تحمى الفرسان البريطانية والمدفعية الأجناب . وكانت هذه هى أوضاع قواته عند « بوسا كو » ، ولم يستخدم حشد المدفعية على طريقة نابليون على الرغم من أن خفة حركة مدفعيته المحموله على الخيول كانت تفوق مثيلتها الفرنسية وأثرت عليها ، وحيث أن فرسانه لم تكن وفيرة العدد ، فلم يتبع ويلنجتون إنتصاراته بالمطاردة . وقد وصف « بوجداد »(١) التأثير الذى أحدثه جيش ويلنجتون على أعدائه بقوله : — « تخير الإنجليز بشكل عام مواقع دفاعية جيدة ولها سيطرة مؤكدة ، ولم يظهر منها إلا جزءا قليلا من قواتهم .

---

(١) أصبح بعد ذلك مارشالا فرنسيا

وبدأت المدفعية العادية العمل ؛ وسرعان مانقوم نحن على عجل وبدون دراسة للموقف ،بالتقدم مباشرة لمسك الثور من قرنيه ، وعلى مسافة ١٠٠٠ ياردة من الخط الإنجليزى يهتاج الرجال وينادى كل منهم على الآخر ويسرعون فى السير لدرجة أن الأرتال بدت فى إضطراب قليل . أما الإنجليز فيظلوا ساكنين تماما بينما أسلحتهم معدة ، ومن فرط إنتظامهم فكانوا يبدون كحائط أحمر طويل ، وبدون شك فهذا الثبات يحدث تأثيراً على الجنود صغار السن ، وسرعان ماأقتربنا منهم وصحنا :ــ(يحيا الإمبراطور . . إلى الإمام.. إلى السونكى . .) وترفع الجنود قبعاتها العسكرية من على أفواه البنادق ، ويبدأ الرتل فى العدو ، وتعم الفوضى بين الصفوف وتحدث الإثارة إصطرابا ، وكانت النيران تطلق أثناء تقدمنا . وظل الخط البريطانى صامتاً وثابتاً راسخا بينما أسلحته معدة ، حتى عندما أصبحنا على بعد ٣٠٠ ياردة منهم ،وبدا وكأنهم يتجاهلون العاصفة التي على وشك الهبوب . وكان التناقض صارخاً، وشعر كل منا فى أعماق أفكاره ، وكما لو أن العدو يطلق نيرانه منذ مدة طويلة ، وأن هذه النيران التى حبست لمدة طويلة سوف تكون غير سارة عندما تأتى ، وفتر حماسنا ، وتغلب على أذهاننا القوة المعنوية للثبات الذى لايهزه أى شىء (حتى لوكان مظهرا فقط) . وفى اللحظة من الهياج الشديد وضع الحائط البريطانى أسلحته فى الكتف ، وثار شعورلا يوصف فى نفوس كثيرمن رجالنا ، وبدأ الانجليز فى إطلاق النيران . واكتسحت دفعات نيران العدو المركزة والثابتة صفوفنا ، وهلك معظمنا ، وحاولنا إستعادة التوازن، وعندئذ أنطلقت ثلاث هتافات تصم الآذان مزقت صمت عدونا . وعند الهتاف الثالث كانوا فوقنا ، مطاردين إنسحابنا الغير منظم » .

نفى نابليون

وبعد الانتصار فى « بوساكو » ، أثار ويلنجتون دهشة أعداءه وكذا جيشه بمواصلة الانسحاب و « ماسينا » يتبعه حتى خطوط « التورس فيدراس » حيث توقف فى النهاية هناك .

وخلال شتاء ١٨١٠ — ١٨١١ واجه الجيشان بعضهما ، وكان البريطانيون فى وضع آمن وإمدادهم جيد ، بينما الفرنسيون كانوا بعيدين عن قواعدهم وليس فى إستطاعتهم التأثير على الخطوط الدفاعية .

وفى مارس ١٨١١ انسحب « ماسينا » وبدأ ويلنجتون الزحف الطويل البطىء والذى أدى فى ثلاث سنوات إلى النصر فى عام ١٨١٤ . وقد تم استعادة مناطق الحدود «الميدا» و« كيودار » و «رودريجو » و « باراجوت » فى عامى ١٨١١ ، ١٨١٢ ، وتم هــذا بالمناورات الكثيرة والحرص المستمر الدائم على المحافظة على قاعدة العمليات البرتغالية .وقد نجح الإنجليز بسبب الخلافات بين المارشالات الفرنسية فى أسبانيا والتعليمات المضللة التى يرسلها نابليون لقواته عن موسكو ، ولكن ذلك لا يمنع القول بأن نجاح العمليات يعود إلى إنجازات ويلنجتون وجنوده . وعبقريته الدفاعلية ومهارته فى المناورة لا تعنى أنه لا يضرب بشدة عندما تحين اللحظة المناسبة للمعركة . وبعد إنتصارين كبيرين عند « سالامانكا » فى عام ١٨١٢ وعند « فيتوريا » فى عام ١٨١٣ طهر ويلنجتون شبه الجزيرة من الغزاة الفرنسيين .

وإن الاستعراض الذى قام به نابليون فى أسبانيا والذى حاول جاهداً أن يقنع به نفسه كان ذو تأثير بالغ الدمار على مسار حياة نابليون ، لأنه كان استنزافاً خطيراً لقوته ، وعلى سبيل المثال ، فلو أنه لم يرسل قوات إلى شبه الجزيرة فى عام ٨٠٩ فإنه كان من الممكن تجنب الفشل عند « اسلينج » .

وكانت أسبانيا بمثابة أرض تدريب يمارس فيها مارشالاته العصيان وتقبل الهزيمة . وقد جاء إختراق جيش ويلنجتون لجنوب غرب فرنسا عام ١٨١٤ فى نفس الوقت الذى ضغط فيه نابليون إلى الخلف أى إلى داخل حدود فرنسا الشمالية الشرقية . وأكثر من ذلك فإن شجاعة ونجاح شعبى أسبانيا والبرتغال أثار الشجاعة فى شعوب أوروبا . فكان الألمان قد خضعوا نتيجة الخوف والبطش ، ولكن فى عام ١٨٠٨ ظهرت موجة قوية من القومية ضد الفرنسيين الأجانب ، والتى مثلها بطريقة مصغرة « فيتش » فى روسيا « وهوفر » فى النمسا ، وخلاف الكسندر مع نابليون . وفى عام ١٨١٢ أوقع الروس هزيمة كبرى بنابليون فى حملة موسكو حيث دمروا معظم « الجيش الكبير » الأصلى ، وتبعتها هزيمة « ليبزج » عام ١٨١٣ . وفى عام ١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش ، وفى مايو من نفس السنة وصل الامبراطور المخلوع إلى جزيرة « إلبا » ، حيث أعترف به ملكاً عليها ،وأصبح السيد المطلق

تقهقر نابليون وجيشه من موسكو

لأوروبا يحكم قليلا من الأميال المربعة ، ولم يتجاوز عمره ٤٥ عاماً . وننقل كلمات سير ونستون تشرشل فى المجلد الثانى من (الأزمة العالمية ١٩١١ — ١٩١٨) :— « فربما كان بوسع أوروبا أن تقول « حقاً أيها الفرنسيون إن هذا كافياً للتاريخ ، ولكنه لم يكن كذلك » .

وفى عام ١٨١٥ عاد نابليون ، ليتاقى هزيمته النهائية الحاسمة على أيدى الجيوش المتحالفة بقيادة « ويلنجتون » و « بلوخر » عند « ووترلو » بالقرب من « بروكسل » .

وكانت هذه أول مرة يتقابل فيها القائدان الكبيران وجهاً لوجه فى معركة ، ولم يكن أى منهما فى أحسن حالاته فى هذه الحملة .

وكانت المعركة متكافئة إلى حد كبير للطرفين ، ولكن النتيجة كما وصفها ويلنجتون هى أن « نابليون لم يفعل شيئاً سوى أنه تحرك للأمام على الطريقة التقليدية القديمة أى فى أرتال ، وقد هزم بالطريقة القديمة أيضاً » . وحل السلام بأوروبا بعد ٢٣ عاماً ، ونفى نابليون إلى « سانت هيلانه » حيث توفى هناك عام ١٨٢١ . وعاد ويلنجتون ليواصل طريقه السياسى حيث أصبح رئيساً للوزراء من عام ١٨٢٨ إلى ١٨٣٠ وحصل فيها على الحقوق المدنية للكاثوليك . ومثل عدوه المهزوم المتوفى، أصبح ويلنجتون أسطورة أكثر فأكثر، إلى أن توفى عام ١٨٥٢ .

لقد تعرضنا فى هذا الفصل إلى ثلاثة من القادة الذين ستظل أسماؤهم تعيش عبر التاريخ . وأنه من الغريب أن أكثر إثنين شهرة فى عصرهم هما نابليون وويلنجتون وقد ولدا فى نفس عام ١٧٦٩ ، وأنه من الغريب أيضاً أنه خلال الصراع الطويل بين الجيوش البريطانية والفرنسية فى عصرهم لم يلتق الأثنان فى معركة مطلقاً إلا عند « ووترلو » فى يونيه ١٨١٥ ، وهى آخر معركة حاربها كل منهما . وقد قمت بدراسة كل منهم بعمق منذ كنت طالباً بالكلية الحربية الملكة « بساندهيرست » فى عام ١٩٠٧ . ولكى أختتم هذا الفصل سوف أعطى رأيي الشخصى عن جوانب معينة فى سيرتهم .

نابليون

لقد كتبت الملايين من الكلمات فى محاولة لكشف النقاب عن سر نجاحه ، والكثير من الكتاب كانوا ناقدين بقسوة . ولكن عندما يقال كل شىء ، فلا بد من الإعتراف بأنه لايوجد إلا نادراً جداً من أمثال نابليون و لا يوجد أفضل منه . وكانت له شخصية ساحرة ، وكل ما أتصل به كان يبهر فى الحال بالمقدرة والذكاء الخارق له، فمثلا عندما تولى قيادة الجيش الفرنسى فى إيطاليا عام ١٧٩٦ لم يكن قد تجاوز بعد ٢٦ عاما ووجد أن الجيش لم يتقاضى مرتباته ويفتقر إلى الملبوسات والأحذية وجائع وقارب التمرد ، ولم تمض سبعة أيام حتى تحول السخط الغاضب إلى تعاون تلقائى ، فلقد أعاد نابليون للجيش روحه ، وتعتبر الحملة التى تلت ذلك فى إيطاليا عامى ١٧٩٦ — ١٧٩٧ من أبرع الحملات التى شهدها العالم فى ذلك الوقت .

وكان نابليون بمثابة عبقرية عسكرية ضخمة إنطلقت من عقالها لتبسط يدها على العالم ، ذلك العالم الذى لم يعد كما كان عليه قبل مجىء نابليون. وكان نابليون أستاذاً فى الإستراتيجية بنظرة تكتيكية رائعة للأرض . أما أسلوبه فكان بسيط فى جوهره ، خفة الحركة والحشد والروح المعنوية ، وكلها واضحة فى حملاته فى أوروبا « بالجيش الكبير » ، وبالرغم من انه كان دائماً يواجه قوات تفوقه عدداً فى مسرح الحرب إلا أنه نادراً ما كان يخوض معركة دون أن يتوفر له التفوق المحلى فى نقطة الصراع . وقد كتب المارشال « سا كس » فى « أفكارى الخيالية » : — « إن الحرب يجب أن تدار بحيث لايترك أى شىء للفرصة » ومن خبرتى فى القيادة العامة فى الحرب فإنى لا أوافق على هذا الرأى . وكان نابليون أكثر حكمة فقد كتب فى احدى حكمه : — « أمن لنفسك جميع الفرص الممكنة للنجاح عندما تقرر القيام بمعركة هامة . » وعند هذا الحد يبرز سؤال : — إذا ما إتخذت كل الإجراءات المنطقية لتأمين النصر ، فما هو القدر الذى يترك للفرصة ؟ .

ومن هنا يتدخل الحظ ، ولكنك يجب ألا تتوقع الحظ إذا لم تكن جسوراً .

وعلى كل لم تكن كل أحكام نابليون سليمة ، فقد أرتكب أول أخطاءه الكبرى بغزو أسبانيا عام ١٨٠٨ .

وقبلها بزمن طويل قال أحد ملوك فرنسا عن أسبانيا : — « إنها الدولة التى تهزم فيها الجيوش الصغيرة ، بينما تموت فيها الجيوش الكبيرة جوعاً . » وقد عهدت الحملة إلى سلسلة من المارشالات ، ولكن ذلك لايمنع من إلقاء المسئولية عليه على الأقل فى بعض الكوارث التى حلت بالجيوش الفرنسية . وإن السبب وراء هزيمة الجيش الفرنسى الكبير بصرف النظر عن ويلنجتون وجنوده ، هى حرارة وأشعة الشمس المحرقة والمقاومة المتعصبة للأسبان غير النظاميين ، فكانوا يقتلون حوالى ١٠٠ جندى فرنسي يومياً ، فى نفس الوقت كان نابليون مشغولا فى شمال أوروبا بشكل عاقه عن التدخل شخصياً فى أسبانيا ، وقد أفرط فى نفس الوقت فى توسعه . وفى عام ١٨١٣ ترك الفرنسيون أسبانيا .

ننتقل الآن إلى كارثة نابليون فى روسيا عام ١٨١٢ . ولم أفهم مطلقاً منطق نابليون فى ذلك الوقت . وفى رأيى توجد أحد القواعد الرئيسية للحرب تقول : — « لا تزحف إلى

موسكو » . وقد كسر هتلر هذه القاعدة وعاش ليندم عليها . ولم يكن الطقس وحده هو الذى أدى إلى هزيمة نابليون فى روسيا ، بل كانت أخطاء نابليون نفسه ، وما نتج عن ذلك من فقد الضبط والربط فى « الجيش الكبير » ، فقد بدأت أعمال السلب والنهب فى اليوم الأول لدخول موسكو .

وقد حدث أيضاً ضعف فى الروح المعنوية فى الجيش الفرنسى عندما علم الجنود بإضمحلال صحة[1] قائدهم . وفى روسيا ، وجد نابليون ظروفاً لم يكن معتاداً عليها ، أراضى مترامية الأطراف مع طرق قليلة ورديئة وبدون إمدادات ، ونظام لدولة ممتدة بدون قلب يمكن أن يسدد له ضربة حاسمة . ويعتقد الكثير من النقاد أنه فشل فى تكييف نفسه لهذه الظروف ، وهذا دليل على أن عبقريته لم تكن عبقرية خلاقة ، فكان يستطيع اقتباس جهاز عسكرى ويحسنه ويتلاعب به بمهارة لاتصدق ، ولكنه لم يستطع إختراع جهازاً جديداً . وفى كتاب « السير والتر سكوت » عن « حياة نابليون »[2] . قصة طريفة عن رحيله إلى جزيرة « إلبا » ، فقد أعطى طاقم السفينة منحة ، ونهض القبطان ليشكره مضيفاً : — « إننى واثق أننا جميعاً نتمنى لك حظاً أسعداً فى المرة القادمة » ، ولكن لم يقدر لهذه المرة القادمة أن تأتى . وأخيراً نأتى إلى معركة « ووترلو » ولم يكن نابليون فى هذا الوقت مثل ما كان عليه سابقاً .

ويمكن للمرء أن يخمن ماالذى كان يحدث لو أنه قابل ويلنجتون فى معركة وكان نابليون فى كامل قوته ونشاطه ...؟؟

وعلى كل لن أتعرض لمعركة « ووترلو » إلا عند الحديث عن « ويلنجتون » . ولقد صدر الكثير من الأحكام على نابليون وأعماله . وكان يبدو لى دائماً أنه كان طموحاً جداً . وقد صمم أن يعرف فى العالم على أنه أعظم القادة على الأطلاق .

إلا أن هذا الطموح دفعه إلى الهزيمة النهائية . ولكن بقى هناك شىء واحد يمكن

---

(١) لقد عاود لمرض السرطان نابليون فى ذلك الوقت . وقد كان السرطان أخيرا سببا فى القضاء على حياته بعد ذلك .

(٢) لقد نشر بعد بضع سنوات من موت نابليون. «المعرب»

أن يقال دون أى ريب : — « إن إنتصاراته لم تباريها أى إنتصارات أخرى ، وطالما بقيت هناك جنديه فيظل يذكر نابليون كواحد من أعظم القادة » .

ويلنجتون

كان « ويلنجتون »رجلا مختلفاً كثيراً عن نابليون . فبينما كان الأخير مدفوعاً بطموح أنانى ، فكان المبدأ الرئيسى لحياة ويلنجتون هو « الواجب »، ولم يهتم بأى طموح شخصى، ولم يبدو أنه يتحرك بدافع الرغبة لكسب الأطراء والثناء أو رفع نفسه إلى مناصب الشرف والقوة . وكجندى ، فكان حذراً ، وعلى درجة عالية من المقدرة الإستراتيجية .

وفى الهند تعلم فن الحرب على المستوى البدائى ، وكان واثقاً متزناً ثابتاً أكثر من كونه ذكياً . وكرجل تكتيكى فقد جمع بين الثبات والذكاء ، وفوق ذلك كان أستاذاً فى الدفاع ، ولكن عندما تحين له الفرصة يتحول إلى مهاجماً جسوراً ، كما حدث على سبيل المثال عند « سالامانكا » فى يوليه ١٨١٢ .

وإنه لمن الغريب والذى يدعو للتساؤل لماذا كان فى بعض الأوقات يبدى كثيراً من الملاحظات التى تنتقص من مقدرة جنوده؟، وعلى سبيل المثال كتب قبل « ووترلو » : — «إن لدى جيشاً سيء السمعة » ويزعم أنه قال أيضاً بعد« ووترلو » : — «لقد كسبت معركة « ووترلو » فى ميادين الألعاب الرياضية فى أيتون » . وأنه لمن الخطأ والتحقير من شأن ويلنجتون أن تنسب هذه الجملة إليه ، وفى الحقيقة فهذه الكلمات أستخدمها لأول مرة الكاتب الفرنسى « مونتا لمبرت » فى كتاب نشر بعد سنوات من موت « ويلنجتون » وتضمن الكثير من الإساءة إلى سمعته . وعلى أى حال فإن من أبعد الأشياء عن تصورى أن يستخدم ويلنجتون هذه الكلمات على الإطلاق بعدالمعركة ، لأنه لا يوجد أحد يعلم أفضل منه، الدور الذى ساهم به الإنجليز من ضباط وصف وجنود من جميع الرتب لتحقيق النصر . وإننى أوافق « جون لافين» عندما قال فى كتابه « روابط القيادة » من أن الجيش البريطانى هو الذى كسب تلك المعارك العديدة التى فتحت الطريق أمام ويلنجتون من أسبانيا إلى فرنسا عبر جبال البرانس . وأنا أقول ذلك دون أى محاولة منى للتقليل من عبقرية ويلنجتون التكتيكية والقيادة وصفاته العسكرية التى ظل يتسم بها طوال الحملة . وإن كلمات «لافين» لهى تقدير رائع للجندى البريطانى فى تلك الأيام .

وسوف أختتم ببعض الملاحظات عن « ووترلو » ، لأن دارس التاريخ سوف يجد أنه لايستطيع دراسة معركة « ووترلو » والتى نشبت فى ١٨ يونيه عام ١٨١٥ ، دون الأخذ فى الإعتبار لما وقع من أحداث فى كل من « لجنى » و « كوارتر براس » فى ١٥ ، ١٦ يونيه ، وبدون هذه الإعتبارات سيصبح ذلك كمن يدرس قصة شكسبير «هاملت» دون الإلتفات إلى شخصية « الأمير » ، ولا يمكننى أتصور معركة نشبت فى منتصف القرن ٢٠ بتلك الطريقة التى تم القتال بها فى ووترلو . وأنها لنقطة جيدة للتساءل عن من أرتكب أخطأ أسوأ .. ويلنجتون .. أو نابليون ؟؟ .

فى ليلة ١٥ يونيه ، كان ويلنجتون يرقص فى حفلة راقصة فى « بروكسيل » أقامها دوق ودوقه « رشيموند » ولم يكن جيشه قد فتح بعد لتشكيل المعركة ، كما أنه غير مستعد للقتال بكفاءة إذا فوجىء بهجوم ، بالرغم من أن نابليون وجيشه كانا على مسافة قريبة ، وذلك بعد عبوره الحدود البلجيكية فى هذا الصباح . وأحرز نابليون مفاجأة كاملة ووضع جيشه بين جيش « ويلنجتون » و « بلوخر » واللذان كان جيشاهما بعيدان عن بعضهما بدرجة كبيرة لاتمكنهما من القيام بمقاومة مؤثرة مشتركة فيما لو أستخدم نابليون بسرعة المبادأة التى حصل عليها ، ولكنها لم تستخدم .

ولم يحدث قط أن كان هناك نصراً فى متناول قبضة أى قائد مثل ما كان موجود فى ١٥ يونيه ، فالنصر كان موجوداً على طبق من الفضة فى إنتظار نابليون ليأخذه . وكان على ويلنجتون أن لايلوم إلا نفسه لسماحه بوجود هذا الموقف . وبالنسبة لى ، فإننى لاأصدق أن يحدث مثل هذا الإهمال من قائد عظيم مثل ويلنجتون . ومع ذلك وبالرغم من كل شىء ، فقد تحول النجاح الفرنسى الساحق بعد ثلاثة أيام إلى كارثة ، ويرجع ذلك إلى سلسلة من الأخطاء والإهمال ، والتى يجب أن يقع اللوم فيها على نابليون . ولقد تساءلت أحياناً كيف كان نابليون يفكر فى كل ماحدث فى منفاه فى « سانت هيلانه » حيث كان لديه كثير من الوقت لإعادة التأمل ؟

وقد قرأت أنه قال : — « بالرغم من كل شىء فكان يجب على كسب هذه المعركة . » ومن المؤكد أنه كان سيكسب لو أنه تعقب البروسيين بعد « لجنى » بكل جيشه وأرهق جيش بلوخر بالدرجة التى تجعله غير قادر على الظهور مرة ثانية فى ميدان القتال كقوة مقاتلة مؤثرة

لفترة من الوقت وعلى وجه التحديد ليس فى ١٨ يونيه لمساعدة ويلنجتون عند ووترلو .

ترى ما الذى سيقوله ويلنجتون لو قدر لى أن أخاطبه اليوم وأعرض عليه الموقف فى ١٥ يونيه كما أراه أنا ، وأقول له أن استراتيجية نابليون قد ضللته . ؟

ترى هل سيكون جوابه صفعة من يده ؟ . . . ربما . . .

وعلى أى حال وبالرغم من تعليق على أخطاءه فى « ووترلو »، فإنى دائما أعتبر ويلنجتون أفضل من أنجبته بريطانيا لحقبة طويلة من الزمن ، ولازلت على نفس نظرتى إليه اليوم وأنا أسطر صفحات هذا الكتاب .

نيلسون

منذ صباى ونيلسون يحتل فى مخيلتى منزلة أبطال الأساطير ، وعندما بدأت دراسة الحرب تبين لى مدى ماقدم هذا البحار لبريطانيا . وأن السر وراء قوة نيلسون هو فهمه للرجال وبالتالى تفهمهم له . وكان يعرف كيف يكسب قلوب الرجال . وكان يبدو أن لديه تأثير مغناطيسى على كل الذين يخدمون معه ، فكان يقود بالحب والقدوة . وكان لايوجد شىء لايقوم به من أجل الذين يخدمون تحت قيادته .

فى نفس الوقت يتفانوا جميع قباطنته وبحارته فى خدمته . ونجد أن الانتصارات الكبيرة فى البر والبحر تسبب الإعجاب والاحترام للقائد الأعلى المنتصر ، ولكنها لاتستثير دائما العاطفة أو الحب . والمقدرة على كسب الولاء ، والخدمة النابعة من صميم قلوب المرؤوسين لم يكن ينظر لها دائما كصفة ضرورية للقائد البحرى ، فقد قرأت أنه كان هناك أدميرالات ناجحين يحققون النصر من خلال جنود يعملون تحت وطأة الخوف من الفشل . إلا أن التأثير المذهل لنيلسون على رفاقه ربما يكون هو السبب فى تحقيق إنتصاراته الفريدة علاوة على إستخدام ذكاءه أيضاً . ففى اللحظة التى كان يخطو فيها فوق ظهر السفينة ، كانت تشع منه قوة مغناطيسية ، فتصبح المجموعة المتنافرة من الرجال الذين ليس لديهم غرض مشترك ، رابطة من الأخوة ، ولايقتصر هذا الإشعاع على سفينته فقط بل كانت تنتشر فى كل سفينة فى الأساطيل التى يقودها . إن صفات القيادة التى لدى نيلسون أعجبتنى دائماً وكثيراً .

والقيادة البحرية تشبه قيادة الجيوش البرية فى أن المادة الخام التى يتعامل بها القائد

البحرى هى . . الرجال ، وأنها أساساً مشكلة إنسانية كبيرة . . هى كيف تكسب قلوب بحارتك ؟ ولقد كانت تلك هى مشكلتى فى القيادة . . . كسب قلوب الجنود ، ومنذ قيادتى لفصيلة من ٣٠ رجلا فى إحدى معارك عام ١٩١٤ . وعلى كل فكانت قيادة البحرية تختلف كثيراً فى أيام نيلسون .

فبمجرد إشتباك سفينة فى القتال الضارى فلا يمكن عمل شىء لها ، حيث لا يمكن رؤية الإشارات من خلال دخان المعركة ، ولا يمكن للسفن ذات الصوارى المكسورة والأشرعة الممزقة أن تستجيب لسفينة القيادة حتى لو سمح الهدوء المؤقت للمعركة برؤية الإشارات . وكانت مهمة نيلسون فى البحر أصعب بكثير من القادة التاليين له والذين قادوا سفنا سريعة الحركة فى عصر البخار ، لأن لو فرض أنه يريد تعديل خط الاقتراب فكان لا يستطيع معالجة ذلك بالإشارة . وإننا معشر الذين نعيش فى عصر الوقود والمواصلات اللاسلكية ميالين لأن نتناسى الظروف المختلفة التى كانت تسود عصر الشراع .

أما عن إنتصارات نيلسون ، فهناك آخرون أكثر قدرة على الكتابة بعمق فى مجال البحر ، ولن أقوم بمجرد المحاولة . ولو كان مقدرا لنيلسون أن يموت فى معركة ، فلن يكون هناك مكاناً أكثر ملاءمة من سفينته التى تحمل علمه كقائد عام للبحرية . وقد مات وهو يعلم أن الأسطول الذى قاده فى المعركة والرجال الذين أحبهم قد كسبوا نصراً كبيراً . وعندما سقط فى ٢١ أكتوبر عام ١٨٠٥ ، يوم إنتصاره الساحق فى الطرف الأغر ، ترك بريطانيا ولها السيادة المطلقة على بحار العالم بدرجة أن نهاية نابليون أصبحت مؤكدة ، بالرغم من أن ذلك إستغرق عشر سنوات أخرى والسبب فى هذه الفترة الطويلة أن نابليون كان محصوراً فى إستراتيجية برية .

ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أنادى بنيلسون كأعظم قائد بحرى لكل العصور .

الفصل السادس عشر

المغول — الصينيون — اليابانيون

جانكيز خان (أنظر اللوحة رقم ٣٨)

جانكيز خان

حتى الآن لم تأخذ دراستنا للحرب إلى وراء مايطلق عليه « الشرق الأدنى » لذلك فسوف ننتقل بعيداً إلى الشرق الأقصى ، لندرس كما يشير عنوان هذا الفصل تاريخ الحرب لثلاثة شعوب آسيوية . وبالرغم من أنهم جميعاً ينتمون إلى جنس واحد إلا أن كل منهم يختلف عن الآخر إختلافاً كبيراً . وقد طفت كثيراً فى الصين واليابان وإستطعت مشاهدة عن قرب الشعوب التى تعيش اليوم فى هذه البلاد ، وسوف أتحـدث عنهم بتفصيل أكثر فى السطور القادمة .

ودراسة الخريطة سوف تتيح للقارىء رؤية دولة (المغول) والتى سوف ندرسها أولا . وإننى لاأعرفها جيداً ولكنى طفت « بمنغوليا الداخلية » وحلقت بالطائرة فوق طول سور الصين العظيم والطرف الجنوبى لصحراء جوبى ، وشاهدت جزءاً من منغوليا الخارجية من الجو . وكان(المغول المنغوليون)فى الأزمنة الغابرة مجتمعا يتألف كله من المحاربين ، وربما كان اكثر مجتمعات العالم نجاحا . وقد أنجبوا « جانكيز خان » أحد القادة والفاتحين العظام النادرين .

أما الصينيون فكانوا على العكس من ذلك ، شعب بطبيعته غير ميال للحرب وكانوا

يشعلوا الحرب على مضض وتحت ضغط الظروف التاريخية ، ولم يسهموا مساهمة رئيسية فى فن الحرب ، اللهم فيماعدا آراء أحد كبار العسكريين النظريين مثل « صن تزو » ، وعلى أى حال فإنه من المفيد دراستهم كشعب مسالم فريد . أما المجتمع اليابانى فكان مجتمعا يغلب عليه الطابع العسكرى . وأنجبت اليابان طرازاممیزاورائعامن المحاربين من نوع «الساموری»(١) كما قدموا على الأقل جنرالا واحداً يستحق الذكر هو « هيديوشى » .

ومن الحقائق المثيرة أنه فى الفترة التالية للقرن ١٦ ، عندما واجه المغول والصينيون واليابانيون التطور الجديد للتكنولوجيا العسكرية المتفوقة فى أوروبا هجرت كل من هذه الشعوب الحرب تقريباً، واستمرت النظم الحربية فى تدهور حتى القرن ١٩ ،أى إلى النقطة التى سوف نبحثها هنا . وستتم دراسة التاريخ العسكرى للشعوب الآسيوية من منتصف القرن ١٩ وما بعده أى عندما بدأت تضفى السمة الغربية على حروبهم . وقد جاء المغول من سهول وسط آسيا الواسعة ومن الضرورى ان يكون سكان هذه المنطقة والتى تعيش على المراعى من راكبى الخيول ، وزاد من صلابتهم قوة المناخ الشديد الحرارة والبرودة ومعيشتهم طول حياتهم فى الخيام وعلى ظهور الخيل . وأصبح محتم عليهم أن يكونوا مقاتلين لأن الأرض جدباء وبالتالى كان هناك سعى دائب للبحث عن بقاع جديدة ،ولذا فلابد من تنافس القبائل والشعوب المختلفة من أجل البقاء ، علاوة على التقلب اللانهائى للأنتقال من أجل المراعى والصراع عليها، وكان يبرزمن حين إلى آخر ،قائداًقوياً بدرجة يستطيع ان يحجب الرؤساء الآخرين مع توحيد قبائل الاتراك والمغول(٢) . مثل الكريات والنايمان والميركيت وآخرين .

ففى القرن الرابع كان اتيلا قائد « الهون » او « الهينج نو » كما كانوا يعرفون فى هذه الأطراف النائية من العالم ، وهم أنفسهم الذين إنحدروا منهم القبائل المجرية فى القرن التاسع . وقد أستطاع جانكيز خان أن يوحدهذه القبائل الرحل فى اتحاد كامل ولكن كان أتحادا كله شرور عام (١١٦٢ — ١٢٢٧) . وعند مولده أطلق عليه والده والذى كان أحد الزعماء

---

(١) هو المحارب الأرستقراطى

(٢) لقد تلاحظة أن مونتجمرى يذكر كلمه المغول مرة ويذكر المنغول مرة أخرى وهو يعنى أنهما واحد «المعرب»

المغوليين الثانويين أسم « تموشين » . وعندما خلف والده وهو فى الثالثة عشر من عمره كان عليه أن يقاتل من أجل إرثه ، وكان من الناحية البدنية متينا وشجاعا وواسع الحيلة لجميع أبناء جنسه ، وكان يتميز بثقته فى نفسه وطموحا وبليغا ، كما أظهر تفوقا غير عاديا فى كسب الأتباع الأوفياء وإنهاء الخلافات لتطلعه إلى وحدة أكبر . وفى عام ١٢٠٦ وعندما كان فى الرابعة والأربعين وبعد عمل وقتال متواصل إستطاع الحصول على لقب « خان » على جميع القبائل ، وعندئذ إتخذ إسم « جانكيز خان » . وأنه لمن المثير التأمل فى أن عدداً قليلا جداً من قادة الماضى كانوا « قادة عظماء » بالرغم من أن الجنس البشرى كان يشن الحروب منذ نشأته ، ونتيجة لعدم وجود قادة بارعين فى أوروبا خلال العصور الوسطى لبس المقاتلون الدروع ، ونسوا خفة الحركة ، وأهملوا قوة النيران ، وأصبحت المفاجأة مستحيلة عمليا . ولكن فى هذا الوقت بالضبط ظهر فى آسيا رجل عسكرى عبقرى وعظيم ، وهو « جانكيز خان » ، والذى كان مكانه فى الصف الأول من العسكريين العظام ، وزعيما عظيما ، والذى تعتبر حملاته نماذج فى فن الحرب ، ولسوف نرى الآن كيف قام بأعماله . كان الشعب المنغولى بدائياً وهمجيا . وفى الماضى كانت القبيلة التى تنتصر على الأخرى يتبع هذا النصر عادة التخريب والمذابح . وسرعان ماجاء « جانكيزخان » وأظهر تفوق فى تفكيره باستخدام إنتصاراته بطريقة بناءة وذلك بتوحيد شعبه ورفع ضحاياه ليصبحوا من رعاياه ، وكان هذا الطابع من القيادة يجعل هؤلاء فخورين بوضعهم الجديد .

وقد وحد هذه القبائل الرحل بقوة عزيمته وأرهابهم بقوته ، وفى نفس الوقت بتقديم المكافآت الكبيرة لهم. كما قام بتنظيم رابطة الأخوة بين جميع القبائل من أجل الحرب . ولم يكن خضوع القبيلة لجانكيز خان شكلياً ، فكان كبار رجال القبيلة يحضرون للخدمة فى هيئة أركانه أو فى حرسه ، كما كانت الجزية تدفع لخزينته. وعلى القبيلة أيضاً تجهيز نفسها لتكون وحدة فى القوة المقاتلة الكبيرة . وكانت القبائل تحصى بعدد خيامها ، ويخصص لها أراضى للرعى . أما السلطة داخل القبائل فكانت تعطى بالإختيار أو التأييد ، وكان هناك نظام يكفل الحفاظ على أمن الأفراد ، وهو نظام عادل ومرن وضع قوانينه جانكيز خان عام ١٢٠٦ تحت اسم « ياسا » . وتحت ظروف الحرب كان الأمراء والشيوخ ورؤساء القبائل

يقودون وحدات «الترمان»[1] وأيضاً يقودوا الألوف أو المئات . وكان النظام العشرى سائداً إعتباراً من « التومان » حتى الرتل المكون من عشر رجال . وكان رئيس القبيلة مسئولا على المحافظة على رجاله مدربين بصفة دائمة ومجهزين بالمهمات والمعدات طبقاً للنظام الموضوع لذلك ، وكان عليه أن يجيب فوراً على إستدعاء الخان للحرب . وكان الخان لديه « تومان » خاص به مكون من نخبة « التومانات » . وكان أعلى الضباط درجة فى قيادة الجيوش يطلق على الواحد منهم « أورلوك » وكان عددهم حولى ١١ . وعندما توحدت القبائل الرحل عام ١٣٠٦ كان جانكيز خان يحكم إمبراطورية تمتد لمسافة ١٠٠٠ ميل من الشرق للغرب ، أى من جبال خنجان (شرق صحراء جوبى) إلى سلسلة جبال الطاى (شمال شرق بحيرة بلكاش) والتى ضمت ٣١ قبيلة . وكان السلم بالنسبة لهذا الشعب ماهو إلا إستعداد للحرب .

راكبو السهام

وكان كل رجل فى الجيش المغولى فارساً ، وكان بعضهم أثقل تسلحاً من الآخرين .

قوات المغـــول وتستخدم الحربة المعقوفة

(١) وحدة تتكون من ١٠٠٠٠ رجل وهى أكبر وحدة فى الجيش «المعرب»

وتحسنت معداتهم جميعاً عندما أصبحوا أكثر خبرة وثراء . أما الدروع فكانت قليلة ، فالرجال يرتدون ثياباً من جلد الغنم ، وسترات فضفاضة من الجلد المدبوغ ، ودرع من شريحة جلد مصقول .

وكان البعض يرتدون قمصاناً من الحرير الخام الذى لا يخترقه رؤوس السهام ولكن ينغمس معه فى اللحم ، مما يخفف من خطورة الجرح . وكانت تستخدم الدروع المستديرة بواسطة الجنود الذين يقومون بواجب الحراسة ، وقوات الصدمة فى الخط الأمامى وأيضاً بواسطة حرس الخان فقط .

وكانت الأسلحة الرئيسية للمغول هى الحربة المعقوفة والسيف المعقوف ، والذى له سن مدبب الأمر الذى جعله مناسباً لكل من الطعن والقطع ، وقوسين ، أحدهما للاستخدام من فوق ظهر الخيل والآخر للضرب الأكثر دقة من على الأقدام . وكان هناك ثلاثة أنواع من السهام كل منها يلائم حالة معينة من حيث المدى وضد مختلف الدروع . وإلى جانب هذا توفر لكل رجل بلطة تتدلى من حزامه ، ووهق[1] وصندوق يحتوى على شمع وأوتار احتياطية للقوس ، مبارد لشحذ السهام وإبرة خيط ، وقربة مانعة للماء لحمل الملبوسات الإحتياطية والتى يمكن نفخها لعبور الأنهار . وأخيراً يحمل معدات للطعام كالآتى : — مخلة لفرسه ووعاء شخصى لطهى طعامه ، وتعيينه الرئيسى من الطعام والذى يتكون من اللحم المقدد والمدخن وكتلة من اللبن المجفف . وأصدر جانكيزخان أمراً بمسئولية الزوجة فى وقت السلم ويتضمن رعاية مؤن وملابس زوجها ، تكون جاهزة على الدوام . وفى فترات السلم احتفظ بلياقة الرجال مع تدريبهم على إستخدام أسلحتهم بصيد الحيوانات المتوحشة . وبالتدريج تعلم المغول من أعدائهم سكان المدن فن الحصار ، وحملت جيوشهم فيما بعد بعض آلات إطلاق القذائف والمنجانيق وذلك فى أجزاء على ظهور الدواب . وكانت الصفات المميزة لقتال المغول هى خفة الحركة والتنسيق .

وعند وصف الحملات التى قام بها هؤلاء الفرسان الذين زحفوا خلال أراضى ليست لها

---

(١) عبارة عن قطعة من الحبل وتستخدم فى تقييد الجواد وفى أصطياد العدو أو لسحب الأمتعة الثقيلة . «المعرب»

خرائط من الصين حتى البحر المتوسط ، ويصعب قياس المسافات بالأميال ويرجع جزء من سر ذلك التنسيق الذى كان يسود حملاتهم إلى الموهبة الغريزية لهؤلاء القوم الرحل فى معرفة العلامات الأرضية والاتجاهات .

وكان لديهم جهازاً عالى التنظيم للتجسس والاستطلاع والاتصال ، وكانت المعلومات العامة ترسل باستمرار إلى جانكيزخان من أتباعه الحكام المرؤوسين ، أما الرسائل الخاصة للخان ورسائل الجواسيس فكان يعهد بتوصيلها إلى سعاة الخان الخصوصيين ؛ والذى يطلق عليهم « راكبوا السهام » وكانوا يحصلون فى كل مكان على الأولوية وأيضاً على المساعدات المتمثلة فى تقديم أجود الخيول والمؤن المتوفرة .

وكان فى إمكان هؤلاء السعاة قطع مسافات فى أيام تتطلب عادة أسابيع . وكانت أجسادهم تلف بالضمادات لمساعدتهم فى ركوبهم الطويل ، كما كانوا ينامون على ظهور خيولهم . ومع توسع فتوحات المغول ، أصبح جزءاً هاماً من سياسة الخان المحافظة على الطرق وحمايتها وخاصة طرق القوافل القديمة التى ضمها إلى شبكة الطرق الآسيوية حيث وضع عليها مخافر دائمة . وفى وقت الحرب ، يتقدم مسيرة الجيش بعض عناصر الاستطلاع ويبدأوا سيرهم قبل الجيش بـ ٥ أيام .

وقد أستفاد جانكيزخان فى إستفادة كاملة من الجواسيس ، وهنا كان الباعة المتجولين ذو نفع كبير له .

وتحت إلحاح الرغبة فى السيطرة ، وتحت ضغط الحاجة للابقاء على جذوة الحرب متوهجة فى شعبه حرض المغول ضد الصينيين . وكانت أسرة كين الحاكمة فى الصين ضعيفة سياسياً ، ولم يحاولوا التدخل (كما كانت السياسة الصينية الماضية) ، لمنع اتحاد القبائل الرحل فى الشمال والغرب .

وعلى أى حال كان « جانكيزخان » إستراتيجياً حذراً ، فلم يكن لديه معلومات مؤكدة عن قوة الصين ، ولكنه اكتشف أن جيوشها مكونة من عدد ضخم من الجنود المترجلين وأنها تعتمد إلى حد كبير على الحصون القوية . وكان فن الحرب الصينى غير مألوف للمغول .

وفى عام ١٢٠٧ قام الخان بتجربة ، بأن قاد جيشا مغوليا قويا إلى ولاية «هسى هسيا[١]» . وفى ميدان القتال هزم فرسان المغول كل ماوقف أمامهم ماعدى المدن المحصنة . وقد إستفاد « الخان » من هذه التجربة ودرب فى السنين القليلة التالية بعض ضباط المغول على حرب الحصار ، باستخدام المنجانيق والنفط والسلالم وأكياس الرمل .

ومع حلول عام ١٢١١ وبعد أن تعلم جيشه الكثير وقهر ولاية « هيسى هسيا » ، وبعد أن أمن أجنابه قام بمغامرته الكبرى ضد الصين الكبرى .

اختراق سور الصين العظيم

وفى هذا الوقت برز وتطور نموذج غزوات المغول ، إلا أن هذا الغزو الذى سنتحدث عنه الآن يعتبر أكبرها وأعظمها جميعا ، والذى كان موجها ضد الصين . وقد دعى المجلس للانعقاد فى مقر قيادة « الخان » ونوقش الموقف بحضور جميع كبار الضباط ، وتم وضوح الهدف ، وإختيرت المحاور لسير القوات ، وتحدد شكل المجموعات التى ستتخذها الفرق ، كما وضعت الخطوط العريضة للخطة .

وكانت المخابرات قد عكفت على دراسة الموقف لفترة من الوقت قبل إنعقاد المجلس . وبدأ « الهورد[٢] » التحرك ، وكانت أول قوات تحركت هى عناصر الاستطلاع والتى تكونت من حوالى ٢٠٠ فارس يسيرون فى أزواج حيث انتشروا فوق المناطق المجاورة ، وسار بعدهم الحرس الأمامى المكون من «ثلاث تومانات» أى ٣٠٫٠٠٠ محارب منتقين جيداً ومجهزين ومع كل منهم جواد إحتياطى ، غير الذى يركبه . وكان قادة « التومانات » الثلاثة فى عام ١٢١١ هم « موهولى » و «سابوتاى » و «شبى نويون» ، وتولى الأخيران منهم القيادة العليا قبل بلوغهما سن ٢٥ . وتلى الحرس الأمامى القوة الرئيسية والتى تكونت من ثلاث فرق بلغ مجموعها الكلى ١٦٠٫٠٠٠ مقاتل .

وكان جانكيزخان على رأس الفرقة الوسطى والتى تتكون من ١٠٠٫٠٠٠ مقاتل . وكان علم جانكيزخان الخاص عبارة عن تسع ذيول « قوناسن»[٣] بيضاء . وخلال الحملة

(١) وهى جزء شبه مستقل من الأمبراطورية الصينية فى الشمال الغربى .

(٢) يطلق هذا الأسم على غزاة المغول

(٣) نوع من الثيران الضخمة والتى تقطن فى وديان التبت

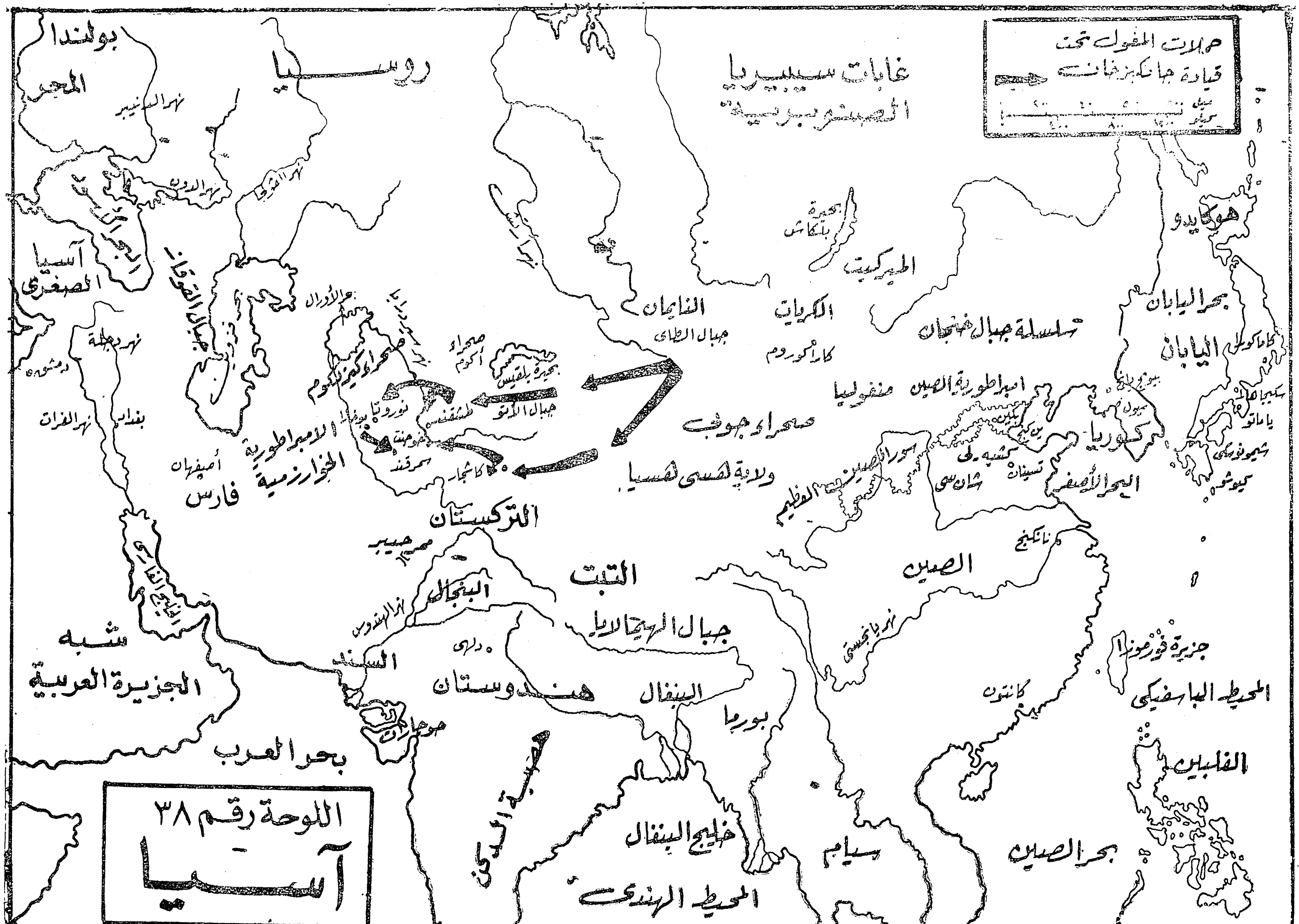
اللوحة رقم ٣٨
آسيا
حملات المغول تحت
قيادة جانكيزخان
غابات سيبيريا
الصحراء السيبيرية
روسيا
بولندا
المجر
آسيا الصغرى
جبال القوقاز
نهر دجلة
نهر الفرات
بغداد
فارس
أصفهان
الامبراطورية الخوارزمية
صحراء الكيزلكوم
بحيرة بلقيس
جبال الألتاي
صحراء أكوم
سمرقند
كاشجار
التركستان
الناميان
جبال الطاى
الكرايات
كاراكوروم
الميركيت
بحيرة بايكال
سلسلة جبال خنجان
امبراطورية الصين
منغوليا
صحراء جوب
ولاية لهسى لهسيا
سور الصين العظيم
بكين
كوريا
البحر الأصفر
بحر اليابان
اليابان
هوكايدو
الصين
نانكنج
نهر يانجستى
كانتون
جزيرة فورموزا
المحيط الباسفيكى
الفلبين
بحر الصين
سيام
بورما
البنغال
خليج البنغال
المحيط الهندى
هضبة الدكن
هندوستان
دلهى
السند
البنجاب
نهر السندوس
التبت
جبال الهيمالايا
شبه الجزيرة العربية
بحر العرب
الخليج الفارسى

كان القائد الأعلى على إتصال مستمر بكل قادة الفرق بواسطة سعاة «راكبى السهام» .وكان يوجد عدة طرق إقتراب تستخدمها القوافل للدخول إلى الصين ، وفى عام ١٢١١ إخترقت الفرق المتقدمة طريقها خلال « سور الصين العظيم » وعلى خطوط منفصلة تقدم «شان-سى» و « تشيه - لى » على محور « بكين » . ولم يكن لدى جيش « جانكيز خان » أى إحتياطى من المؤن عدا ما يمكن العثور عليه فى الطريق ، ولكن كان ذلك كافيا . وكان لكل قائد فرقة حرية التصرف للمناورة والإشتباك مع العدو فى قطاعه ، ولكن الهدف الرئيسى كان واضحاً وهاما . وكانت تأتى رسالة من القائد الأعلى فى أى لحظة تستدعى هؤلاء القادة للقيام بعمل معين . وكانت هذه القولات المنفصلة تستطيع أن تتحول بسرعة لتعاون بعضها نتيجة لخفة حركتها .

وكان الجيش المغولى يطبق تماماً المبدأ القائل « سر مجزءاً وقاتل متحداً » . وفى الحقيقة هـذه حكمة « فون مولتكه » رئيس أركان حرب الجيش أيام قيادة بسمارك . أما تكتيكات المغول فكانت بسيطة ، ولكنها شديدة الفاعلية والتأثير . وقد خططوا دائما لمفاجأة العدو ، وتحركوا نهاراً وليلا بسرعة ، كما كانوا يجمعون « توماناتهم » بدقة مطلقة . وإذا لم يحقق لهم هذا التخطيط النصر ، فسيقومون على الفور بتطويق العدو بالالتفاف حول أحد أجنابه . كما أستخدموا أيضاً تكتيكات الفرس القديمة الخاصة بالانسحاب الخداعى ، فكانوا ينسحبون لأيام ، ثم يستديروا مرة أخرى وينشروا قواتهم على شكل المروحة ليطوقوا أجناب العدو . وعادة ماتهاجم فرسان المغول فى تشكيلاتها تحت ستر وابل من قذائف أقواسهم وحرابهم . وكانوا يسيطرون على تحرك التشكيلات بواسطة الإشارات(١) . وفى الواقع كان طابور المعركة عندهم جيداً ، وتقسم القوات فى خمس صفوف ، ورجال الصفين الأماميين كانوا تدريعهم ثقيلا .

وبعد حدوث صدمة الهجوم الأولى ، يصبح الصراع مائعاً وغير منتظم ، . كل رجل يقاتل من أجل نفسه مستخدما سيفه ، ويحاول إيقاع خصمه على الأرض باستخدام حبله ذى الأنشوطة أو خطاف حربته .

---

(١) أعلام أثناء النهار ومصابيح أثناء الليل «المعرب»

المغول يهاجمون الامبراطورية الاسلامية (أنظر اللوحة رقم ٣٨)

وبهذا الأسلوب إنطلق الزحف السريع الأول إلى داخل الصين ، وتم التغلب على كل المقاومات ، ولكن ظل المغول على ضعفهم أمام التحصينات . وأخذ السكان الصينيين يتحصنون داخل مدنهم ، مما أدى إلى تعثر سير القتال المغولى حتى وصل إلى التوقف . وسقطت بعض المدن بالخداع والذى كان المغول خبراء فيه . ولكن كما حدث لهانيبال أمام روما ، توقف جانكيزخان وقواته أمام « ين كنج[1] » العاصمة وإستمر هذا الموقف مدة خمسة سنوات من ١٢١١١ إلى ١٢١٦ .

وكان المغول ينسحبون فى كل خريف ويعودون فى الربيع التالى مكتسحين كل ما فى طريقهم فى تشكيل أرتال منفصلة تتقدم عبر الأرض المفتوحة . وفى كل عام كان تدميرهم يزداد ويستولوا على مدن أكثر ، إلا أن المدن الرئيسية واصلت الصمود بالرغم من إضطراب السياسيين المحليين . ولكن فى النهاية فى عام ١٢١٦ ، أذل الإمبراطور الصينى « كين » نفسه ودفع جزية كبيرة جداً ، للتخلص من المغول . وحصل « جانكيزخان » على زوجة من الدم الإمبراطورى الصينى ، بينما ترك «موهولى» والذى كان قائد تومان ، كنائب للملك وحاكم عسكرى للصين . وعاد « جانكيزخان » إلى عاصمته « كارا كوروم » والتى تقع فى شمال صحراء الجوبى ، ومعه الغنائم الثمينة التى وعد بها رجاله ، كما جلب معه الحرفيين والتكنولوجيين والمدرسين الصينيين ، أما الأسرى الذين ليس لهم قيمة فقد ذبحهم . والآن، وقد تم له إخضاع الشرق ، وتأكد من هدوء الموقف فى قلب مقاطعاته ، حول إنتباهه إلى الغرب ، إلى القوة الإسلامية الكبرى إلى «إمبراطورية الخوارزميين» والتى تقع خلف جبال الهيمالايا .

وكان الشاه « علاء الدين محمود » من الفاتحين والذى كان حكمه يمتد من الخليج الفارسى وبغداد حتى جبال الهيمالايا .

وكانت هذه الفترة من أخطر الفترات التى مرت بها القوة الإسلامية حيث كان الصليبيون ينسحبون من كل مكان فى أقصى الغرب . ولم يكن جانكيزخان يعلم إلا القليل

---

(١) سميت بعد ذلك بكين « المعرب »

عن العالم الإسلامى ، سوى أن التجار من حين إلى آخر يحضرون منه ببضائع قيمة من المنسوجات والجياد والمصنوعات المعدنية الممتازة مثل السيوف والدروع . وربما كانت معلومات علاء الدين محمود أقل من المغول ، ولكنه لم يخشاهم فكان لديه جيشا جرارا يقدر بحوالى ٤٠٠ر٠٠٠ مقاتل .

وفى ربيع عام ١٢١٩ ، أصدر جانكيزخان[1] أوامره إلى قبائله بالتجمع فى الجنوب الغربى أى عند منابع نهر « أرتش » . وتجمع فى هذه البقعة ما يقرب من ربع مليون رجل ومعهم تجهيزات أحسن مما كانوا عليه فى أى وقت مضى ، فتواجد مع كل رجل ثلاثة خيول ، كما كان هناك قافلة من المدفعية المحملة على ظهور ثيران التبت الضخمة . ولكى يحول الخان الأنظار عن تجمعه ، أرسل قوة بقيادة « جوجى » فى إتجاه السهول السفلى لنهر « سير داريا » حيث نهبوا الأراضى المنخفضة الواقعة بين صحراء « أكوم » وسلسلة جبال « الأنو » ، وإعتقد الشاة أن هذا هو الغزو الرئيسى ، وأرسل إبنه « جلال الدين » لتسديد ضربه لهذا الغزو ، وناوشه المغول ثم إختفوا خلف حشائش السهل التى إندلعت فيها النيران . وتحير الشاة ولكنه خدع بهذه العملياتوقام بدفع قواته على طول خط نهر « سير داريا »، وبذلك لم تعد دفاعات الخوارزميين قوية فى أى مكان . وهـــذه الفرصة قد تمناها جانكيزخان وقد إستغلها عندما بدأت العمليات الفعلية . وبدأ المغول زحفهم فى الخريف ، وقد أعترض طريق تقدمهم أعلى جبال فى العالم وهى هيمالايا ولذلك تحرك الجيش المغولى الرئيسى فى اتجاه الغرب فى مسيرة طويلة وشاقة إلى بوابات « زونجاريان[2] » ولكى يبقى الرجال على أجسادهم دافئة إرتدوا جلد الغنم مع تناول « الكومس[3] » .

ولخداع العدو طبقاً لاستراتيجية « الكماشة » ، أرسل جانكيزخان مجموعة من ٢٠ر٠٠٠ رجل بقيادة « شيبى نويون » للالتفاف حول الجبال والاقتراب من مقاطعات الخوارزميين من إتجاه الجنوب الشرقى أى من « كاشجار » حتى « خوجنت » . وكان توقيت وتنسيق

---

(١) كان يبلغ من العمر فى ذلك الوقت ٥٦ عاما.

(٢) الممر المؤدى إلى داخل شمال التركستان .

(٣) لبن أنثى الخيل بعد تخميرة « المعرب »

عمليات المغول دقيقا لدرجة أن القوتين[1] وصلتا إلى نقطتهما المختلفة على الحدود الخوارزمية فى شهر يناير وفبراير عام ١٢٢٠ .

وقد شكلت مجموعة « شيبى نويون » تهديداً مباشراً لمدينتين خوارزمتين رئيسيتين وهما « طشقند » و«سمرقند » فى المنطقة الغربية من «توكستان» . ورد الشاة على ذلك بتحريك قوات إضافية إلى الجنوب ، وفى نفس اللحظة عبر جانكيزخان ومعه القوة الرئيسية الحدود الشمالية فى ثلاث أرتال .

وفى فبراير ظهر على الجانب الأيسر للشاة رتلان قوة كل منهما ٣٠٫٠٠٠ مقاتل بقيادة « جوجى » و « جاجاتاى » وشرعا فى العمل أسفل نهر « سير داريا » مدمرين القوات المتفرقة للخوارزميين عن آخرها ، مواصلين زحفهم بعد ذلك للانضمام إلى قوة « شيبى نويون » . فى نفس الوقت تحرك الرتل المتبقى وقوته ٤٠٫٠٠٠ بقيادة «جانكيزخان » جنوبا إلى بوخارا ، وكان من الصعب إكتشاف عبوره إلى صحراء « كيزلكوم » فكان رتلى « جوجى » « وجاجاتاى » يحجبانه . ولم يعلم الشاة عن ذلك إلا فى أوائل أبريل بعد أن خرج الخان وقواته من الصحراء فى الجنوب حيث أستولى على « نوروتا » ثم أقترب من « بوخارا » . وفى ١١ أبريل أستولى على« بوخارا » . وقد ذهل الشاة من هول المفاجأة ، فقد حوصرت قواته بواسطة ثلاثة أرتال تجمعت من ثلاث إتجاهات ، كما قطعت إتصالات الشاة مع مقاطعاته الغربية ، وفرهو شخصياً فى إتجاه الغرب ، بينما أعيد تجمع المغول عند « سمر قند » .

وحملة جانكيزخان قد توجها النجاح الكامل . وكان جوهر إستراتيجية هذه الحملة يكمن فى خفة الحركة الغير عادية ، والتنسيق البارع لتحركات أربعة أرتال كل منها يستر ويكمل الآخرين ، وقد فوجىء العدو فى كل قتال بقوات متفوقة . وإستغرق الأمر وقتاً طويلا لقهر أمبراطورية الشاة ، فقد قام « سابوتاى » « وشيبى نويون » بمطاردة الشاة نفسه ليل نهار حتى إنتهى به المطاف على إحدى جزر بحر قزوين ، حيث توفى . أما بقية حملة المغول فقد سارت ببطء غرباً ، يستولون على المدن الواحدة تلو الأخرى . وكانت السياسة

(١) بقيادة كل من « شيبى نويون » الخان «المعرب»

المتبعة هى سياسة الإرهاب والرعب . وأعلن جانكيزخان نفسه فى جميع المساجد بأنه « سيف الله » .

وفى الإمبراطورية الخوارزمية لم يبق المغول إلا على الأفراد الفنيين والخبراء أو ماشابه ذلك ، وما عدا ذلك من السكن والحضارة فكان نصيبها الإبادة ، وعندما لم يتبق بشر ذبح المغول الحيوانات . ولكن بالرغم من ذلك كانت المقاومة شديدة والتى إستمرت حتى ديسمبر ١٢٢١ عندما فقد « جلال الدين » الإبن الشجاع للشاه آخر قواته فى معركة عند نهر السند . فى نفس الوقت إلتف كل من « سابوتاى » و « شيبى نويون » حول بحرقزوين عبر القوقاز فى إتجاه نهر الدنيبر وأوروبا قبل أن يستدعيهما جانكيزخان . وأثناء عودتهم للوطن أتموا أكبر حملة فرسان فى التاريخ بشق طريقهم بصعوبة ، عابرين شرقاً وجنوباً خلال أراضى القبائل الروسية الرحل .

القائد تيمور المغولى

وبعد أن فتح جانكيزخان المنطقة الواقعة بين التبت وبحر قزوين والخليج الفارسى قرر العودة إلى أرض الوطن ، لأنه إعتقد أنه لم يعد هناك مناطق أخرى ليفتحها ، ولكنه فى الحقيقة خاض حرباً واحدة أخرى عندما تحرك ليخمد ثورة « هيسا » ومنها إلى جنوب الصين . وقد توفى جانكيزخان عام ١٢٢٧ ، وقد جعل من نفسه وبقوته الشخصية حاكما مطلقاً للسلالة العسكرية ، فقد أستطاع قهر أعظم إمبراطورية فى العالم التى إمتدت من الخليج الفارسى إلى المحيط الهادى ، ومن غابات سيبريا إلى جبال هيمالايا . ولا يوجد أى خطأ فى سجله العسكرى ، وبالتأكيد كان قائداً عظيما شأنه فى ذلك شأن أى قائد أو زعيم عظيم آخر سجله التاريخ ، إلا أنه وحشياً وبربريا ، ومن أشرس الشخصيات فى تاريخ عصره ، وليس هناك فائدة من محاولة إخفاء الحقيقة . وقد كان مغرما بالسيطرة وليس بالحضارة ، وعندما لا يروق له شىء يدمره على الفور . ومن ناحية أخرى ، فإنه كان من المستحب أن يكون المرء مغولياً فى عصر جانكيزخان . وقد قال جانكيزخان : — « إن قمة السعادة للانسان عندما يهزم أعداءه ويدفعهم أمامه » .

وكان له صفات سياسية خلاقة ، فقد قام بتوحيد القبائل المتوحشة ، ووضع لها قوانين

عادلة ، وعلى أى حال فقد تلت موجة غزوات المغول المرعبة موجة من السلام فى آسيا ، وتميزت بالتسامح الدينى والعنصرى ، ومواصلات سهلة وطمأنينة إقتصادية . وفى عهد « أجوتاى »[1] ، عاد «سابوتاى» إلى أوروبا ، وإ كتسح فى حملات بارعة[2] أوروبا حتى الأدرياتيك وبولندا . وبعد عام ١٢٤١ إنسحب المغول من أوروبا فيما عدا روسيا . وتميز عهد « كوبلاى خان »[3] بأ كبر توسع للسيطرة المغولية . ولـكن بعـده بدأت الامبراطورية المغولية فى الانحلال . ومع حلول النصف الثانى من القرن ١٤ ، ظهر فاتح مغولى كبير آخر وهو « تيمور » والذى إستعاد السيطرة على جنوب آسيا غرب جبال الهيمالايا . ولـكن بعد ذلك لم يظهر من بين فرسان المغول قائداً آخر مطلقاً ، وعادوا بسرعة أقل قليلا عما ظهروا بها ، إلى خمولهم وضآلة شأنهم الأصلية .

الأمة المحبة للسلام

نأتى الآن إلى الصينيين ، وقبل دراسة أسلوبهم فى الحرب يجب علينا أن نعرف بعض الشىء عن الملايين المحتشدة التى تعيش فى هذه الدولة الشاسعة ، أنه جنس يبلغ تعداده اليوم حوالى ربع سكان كوكبنا والذى يحتل رقعة من الأرض أ كبر من أوروبا ، ويتـكون من شعوب مختلفة كثيرة وتتحدث لهجات محلية مختلفة مع كل مدينة وكل مقاطعة على أرض هذا البلد ، وللصين حضارة عمرها آلاف السنين قبل مولد المسيح . وليست الصين الحقيقية هى الصين ذات الموانى والمعاهدات السابقة ، والتى جعلها الأجانب عملياً ملـكهم ، ولا هى المدن الـكبرى ، ولـكن فى الحقيقة هى الأرض التى تضم آلاف القرى المتناثرة فى جميع أنحاء الدولة ، والأسرة هى الوحدة الأصلية ويأتى بعدها القرية .

والتاريخ السياسى للصين فى الأيام الغابرة إنما هى قصة طويلة من أعمال النزاع الداخلى والعصيان ، مما أدى إلى ضعف الدولة فى صراعها المتصل لحماية حدودها ضد القبائل الرحل القادمة من الشمال والغرب . ولـكن القرون المتعاقبة من القتال على الحدود أحدثت تغييرات

---

(١) أبن جانـكيزخان

(٢) تشابه تقريبا حملات جانـكيزخان

(٣) حفيد جانـكيزخان

هامة فى التنظيم العسكرى ومهارة عسكرية معينة لهذا الشعب . وهذا ما سنراه عندما نبسط قصة هذا الشعب .

نستطيع أن نلخص صفات هذا الشعب الضخم المتنوع بناء عما جاء فى تاريخهم القديم بأنه شعب فى جوهره « محباً للسلام » ، وكان هناك مبرر قوى لتفضيل الصينيين للسلام ، فكانوا فى قارة آسيا يحتلون منطقة غنية وصالحة للمعيشة . وفى تاريخهم المسجل الذى يصل إلى ثلاثة آلاف سنة ، إندلع الكثير من الحروب ، ولكنها كانت حروب ترجع إلى وجود أعداء طامعين على حدودهم مثل المغول أو الثورات بسبب عدم الاستقرار السياسى . وقد كان الشعب الصينى شعباً خلاقاً فى فنون السلم وليس فى فنون الحرب ، فكانت دياناتهم الكبرى « الكونفوشيوسية » و « البوذية » و « الطاوية » ، كلها أساسها المحبة والسلام . وفى الواقع فإن حبهم التقليدى للسلم إزداد بالتدريج رسوخاً ، مما أدى أنهم لم يذكروا إلا القليل فقط من الجانب الحربى فى تاريخهم . وإن أقدم الحقب التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة تاريخ الصين هى تلك الحقبة الخاصة بحكم سلالة « شو » (من عام ١١٢٢ إلى ٢٥٦ ق . م) . وقد كان المجتمع الصينى القديم مجتمعاً إقطاعياً . وكان طبقة النبلاء والكبار يستحوذون على ولاء وخدمات جميع الفلاحين الذين على أرضهم فى السلم والحرب .

وكانت الحروب التى سمع عنها قبل عام ٥٠٠ ق . م . ذات صفة « بطولية » تذكرنا بحروب الإغريق القدماء التى صورها « هوميروس » . وتوفر للأرستقراطيين وقت فراغ ليقيموا فيه المباريات الحربية ، وخاصة الطبقات الأدنى من هذه الطبقة التى يطلق عليهم « شيه » وكانوا شبيهين بأبطال « هوميروس » ، وفرسان القرون الوسطى ومغامروا الهنود الحمر .

وإن مجرد وجود عرف بآداب وقواعد الحرب لدى الصينيين والذى يطلق عليه « لى » ليشير إلى أن الحرب لم تكن أمراً خطيراً ، بل كان قتالهم لمجرد التسلية أو الشرف أو التفاخر . وقد أستهجنوا التكتيكات الدنيئة مثل مهاجمة العدو أثناء عبور النهر أو إقتناص

خصم أكبر سناً . وفى عام ٦٣٢ ق . م تحدى أحد جنرالات « شو » ، حاكم مقاطعة « تش » فقال : —

«هل تسمحوا سعادتكم بمباراة بين فرساننا وفرسانكم ؟» . وتذكرنا هذه الطريقة بصور القتال الذى ذكره « هو ميروس » عن الأغريق . وكان البطل الإرستقراطى يتجه للمعركة مكسوا بدرع من الجلد راكبا عربة قتال ذات أربعة خيول ، وكان سلاحه قوس قوى ، ويرافقه سائق للعربة ، وأحياناً يصحبه حامل رمح أيضاً ، ويتبع كل عربة سرية من الجنود المترجلين والمسلحين بأسلحة خفيفة .

ومن المرجح أن هناك تغييرات هامة حدثت فى أوائل القرن السادس ق . م ، وأدى تهاوى أسرة « شو » إلى نزاع على السلطة بين النبلاء الكبار ، فى نفس الوقت كان يتطلب منهم صد غارات القبائل المعادية على الحدود ، وسوف يتكرر مثل هذا الموقف فى تاريخ الصين . وعرفت الفترة من ٤٠٣ إلى ٢٢١ ق ، م بفترة « الحرب بين المقاطعات » . وكانت الحرب فى ذلك الوقت ابتعدت عن طابع التسلية وأخذت طابع الجد الرهيب . وبقيت العربات الحربية لبعض الوقت كأقوى قوة ضاربة ، إلا أن المشاة التى كان أغلبها من الفلاحين الصلبى العود أخذت تزداد أعدادها بشكل كبير حتى أصبحت لها أهمية تكتيكية كبيرة .

وقد قاتل الجنود المترجلين بالرماح والسيوف القصيرة والأقواس والسهام . وأدى ظهور الحديد فى حوالى هذا الوقت إلى إدخال التحسينات على الأسلحة والدروع . وفى عام ٢٤٩ ق . م سقط حكم أسرة « شو » ، وتولت أسرة « تشن » السلطة . وتحتم على الصين توحيد جبهتها لمواجهة الأعداء الخارجيين ، ولهذا كان يجب عليهم القضاء على النظام الإقطاعى. وأصبحت الصين آنذاك أمة تحت السلاح ، ووحد الإمبراطور « شى — هونج — تى » جميع أجزاء الدولة المختلفة فى إمبراطورية فى عام ٢٢٨ ق . م . أما شعب مقاطعة « تشن » على الحدود الشمالية الغربية ، فقد تعلموا دروسا كثيرة من القبائل المجاورة حتى تشربت دماءهم بالطابع القبلى لدرجة أن الشكل القبلى للفروسية تجلى واضحاً فى الحرب الصينية بشكل بدأت معه العربات الحربية فى الإختفاء تدريجيا .

وشهدت نفس الفترة تطوراً فى التحصينات وأعمال الحصار . وكانت أجهزة الحصار هى المنجانيق وسلالم التسلق وغيرها . وظهرت فى هذه الفترة التحصينات ذات القوة الرائعة ، ومن أشهرها سور الصين العظيم والذى أمتد فى أجزاء منه فوق الجبال وعبر الممرات الضيقة، ولمسافة ١٦٠٠ر١ ميل على طول الحدود الصينية المتاخمة للقبائل الرحل جنوب صحراء جوبى . وبشكل عام فكان عرضه عند القاعدة حوالى ٢٥ قدما و١٧ قدما عند القمة ويصل إرتفاعه مابين ٢٥ إلى ٣٠ قدما ، وترتفع شرفات إطلاق القذائف خمسة أقدام فوق السور ، كما توجد على إمتداده أبراج على مسافات منتظمة . وتقول الأساطير أن الإمبراطور « شى ـ هوبج ـ تى » من أسرة « تشن » (٢٤٦ — ١٠ ق . م) هو الذى بنى هذا السور . ونظراً لأن الصينيين كانوا بناة عظاما للمدن ونظراً لاتخاذهم باستمرار موقف الدفاع فى حروبهم ، فقد بنوا كثيراً من التحصينات الكبيرة .

وهذه الحصون ، كما ذكرنا آنفا هى التى صدت المغول بعد ذلك بألف عام . أما حصون المدن التى تشيدت فى عهد أسرة « منج » (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤ ميلادية) فكانت أكبر حجما وفيها الكثير من مثيلتها الأوروبية فى ذلك الوقت . وعلى سبيل المثال فكانت أسوار مدن « نانكنج » و « سيان » و « تسينان » يصل عرضها من ٥٠ إلى ٧٠ قدما ، وإرتفاعها ٧٠ قدما فى بعض الأماكن، ولم تكن البوابات قوية بدرجة كبيرة ولكن كان يحميها عدد كبير من الجنود . وقد فحصت بنفسى أجزاء من سور الصين العظيم سيراً على الأقدام وقمت بدراسة تحصينات كل من « تانكنج » و « سيان » .

ومنذ حوالى عام ٥٠٠ ق . م ، عبر « صن — تزو » عن الخبرة الصينية العسكرية فى رسالته العسكرية الشهيرة والتى كان اسمها « فن الحرب » . وكان « صن — تزو » ضابطا ناجحا ويرجح أنه وصل إلى رتبة عالية ، ولكنه لم يكن قائداً بارعا . ويتألف كتابه من ١٣ فصلا ، كل منها يحتوى على عدد من الحكم والمبادىء . ومن الجدير بالملاحظة وبصرف النظر عن أهمية الكتاب العسكرية ، فإنه يعتبر من أعظم الأعمال الأدبية الصينية الكبيرة . وظل هذا الكتاب لمدة ٢٥٠٠ عاما يفتن أعظم العقليات الصينية . ومن بين الكثيرين [1] الذين

(١) لقد علق عليه الكثير ومن القادة العسكريين الصينيين

كتبوا تعليقات عليه « توفو » أحد كبار شعراء عهد « تانج » . ونجد أن الجمل فى هـــذا الـكتاب محـكمة ، وفى بعض الأحيان مبهمة ، وفى أحيان أخرى بسيطة بدرجة مخادعة ، ولـكنها دائما حافلة بالحـكم العسكرية المدروسة والتى لم يحاول الأوروبيون تعلمها حتى عصر نابليون . وتبحث رسالة صن — تزو فى أسس الإستراتيجية والقيادة، وتناقش الاعتبارات التى يجب أن يضعها القائد فى ذهنه عند بدأ أى حملة سواء أكانت عوامل سياسية عريضة أو خاصة بالأمداد ، وأيضاً التحركات الإبتدائية . ويوضح هذا البحث أن الهدف الاستراتيجى الصحيح هو الاسراع بتحقيق الهدف السياسى من الحرب ، وتحقيق السلام المضمون ، وليس الهدف هو الحرب الطويلة المدمرة . ويجب الحصول على النصر بأقل التـكاليف فى الأرواح وبأقل تدمير ممـكن ، ولذلك يبرز أهمية المخابرات أو « المعرفة المسبقة » .

وإذا كانت الخدع الحربية ستساعد فى تحقيق الهدف ، فيجب عدم أغفالها . ويبدو أن الصينيين مثل المغول كانوا مغرمين على وجه الخصوص بالحيل ، والتى تضمنت إستخدام النار ، مثل إشعال النار فى الحيوانات وإرسالها نحو العدو . وأعطى « صن — تزو » قيمة كبيرة للقائد المستقيم المتـكامل ، إلا أنه كان يسلم فى النهاية بأن « كل الحروب مبنية على أساس الخداع » وتذكرنا هذه الفقرة بسياسة نابليون فى خداع وتضليل العدو ، الأمر الذى ظهر بوضوح فى تـكتيكاته عند « أوستر ليتز » فى ديسمبر ١٨٠٥ . ومهما كان الأمر ، فلا يوجد أمامى دليل على أن نابليون درس كتابات « صن — تزو » . وقد خصص « صن — تزو » فقرات كثيرة من كتابه للتحركات فوق الأنواع المختلفة من الأراضى ، وكيفية إستخدام الأرض ومعرفة المواقع الضعيفة والقوية لدى العدو . وكان يرى الحرب على أنها صراع بين القيادة : —

« القائد البارع هو الذى يفرض إرادته على العدو ولا يسمح للعدو بفرض إرادته عليه . »

وقد أورد « صن — تزو » فى كتابه بعد الملاحظات السيكولوجية التى تتسم بالتبصر عن العلاقة بين الضباط والجنود، مثل كيف يعرف القائد العلامات التي توضح حالة الروح المعنوية بين قواته وظروفهم . والجملة الآتية تبين السمة المميزة لحـكمة « صن — تزو » وهى جزء من نصيحة يوصى بها القائد : —

« إن قرار القائد يشبه بالضبط التوقيت الجيد والصحيح لإنقضاض الصقر على ضحيته

ليضربها ويقضى عليها ». وكنت أعنى التحدث مع « صن ـ تزو » ، ومن المؤكد أننا كنا سنتلاقى فى الكثير من وجهات النظر فى موضوع إدارة الحرب كما أنه كان متفهماً للعامل الإنسانى . وقد درس ويفل آراء سقراط (٤٧٠ — ٣٩٩ ق . م) وكان يناقش دائما ويؤكد ما وضعه هذا الرجل الحكيم بالنسبة للشئون الإدارية ، وكان ويفل يعتقد إعتقاداً راسخاً بأن الشئون الإدارية من النقط الرئيسية والحقيقية فى فن القيادة وإنها تأتى قبل التكتيك . وإننى لا أعتقد أنه قد درس « صن ـ تزو » . وعلى كل فوجهات نظر سقراط وويفل ذات أهمية كبيرة لى . وقد تعودت أن أفكر وأنا فى الصحراء عامى ١٩٤٢ — ١٩٤٣ أن روميل كان سيء الحظ فى أنه كان مجبراً فى أغلب الأحيان على القتال فى الوقت الذى لا يتناسب مع شئونه الإدارية فى الخلف ومع مارغب فى إنجازه فى المعركة فى المنطقة الأمامية ، ذلك بسبب القصف الجوى للحلفاء الذى أغرق السفن التى حملت له المؤن والوقود عبر البحر المتوسط .

حرب الافيون

وتشتهر فترة ١٤٠٠ سنة التالية لسقوط أسرة « شو » بأنها أنجبت بعض الجنود الممتازين فى الصين ، وعلى وجه الخصوص فى فترات الحروب الأهلية والتى حدثت أثناء سقوط وإرتقاء الأسرة الحاكمة . ولكن الصعوبات التى تكتنف البحث التاريخى لما يجرى فى تلك الأيام يجعل من الصعوبة الكتابة عنها بشكل مرضى وقد قيل أن « يوشى » قد خدم أسرة « تشن » كقائد عسكرى نظامى لمدة ٣٥ عاما أى فيما بين عام (٢٩٤ — ٢٦٠ ق . م) وكانت أهم أعماله هى إنتصاره على جيش « شو » المكون من ٤٥٠٫٠٠٠ مقاتل عند « شانج بنج » . وفيما بعد جرد من رتبته وأنزل إلى رتبة جندى وذلك لرفضه قيادة عملية غزو كان يعرف أنها سوف تفشل . ومن الشخصيات المشهورة الأخرى كان « شانج شين » و « هان هسين » و « تسو كونج » . وأصبحت الصين تحت حكم أسرة « هان » قوة ضخمة متحدة ، وخصوصا فى العهد الزاهر لـ « ووتى » (١٤٠ — ٨٦ ق ، م) ، ثم مرة أخرى بعد ذلك تحت حكم أسرة « تان » فى القرن السابع الميلادى .

ولكن لا يوجد دليل على أن فن الحرب الصينى ، قد تطور تطوراً هاما أبعد من المرحلة

التى وصل إليها تحت حكم أسرة « تشن » ، فقد كان الميل العام نحو السلام يزداد رسوخا ، كما أن التوسع كان يتم بالمحالفات والإلتقاء الحضارى أكثر من أن يتم بقوة السلاح . وقد غزا المغول الصين فى القرن ١٣ وواجهتهم مقاومة عسكرية ضعيفة فهزموا الصينيين بسهولة. وبمجرد إستقرار المغول فى الصين ، أخذت صفاتهم وشخصيتهم العسكرية تقل نتيجة للكره العميق والمتأصل فى الحضارة الصينية لكل شىء عسكرى . وبالرغم من أن الجيوش المشتركة من المغول والصينيين قد أعتدت على اليابان وبورماوجاوة فى عصر « كوبلاى خان » (١٢٥٩ — ١٢٩٤) إلا أنها لم تنجح فى النهاية . وفى عــام ١٣٦٨ طردت أسرة « مينج » المغول .

وقد أدت فتوحات المغول إلى فتح أول طرق الإتصال بين أوروبا فى القرون الوسطى والصين ، إلا أنه من وجهة نظر التاريخ العسكرى فإن أول إتصال هام حدث عندما وصل البرتغاليون إلى بحار الصين فى نهاية القرن ١٥. وفى عام ١٥١٧ وصل أسطول برتغالى إلى ميناء « كانتون » حيث أطلقت مدافعه طلقات لتحية الميناء . وقد بدأ الصينيون إستخدام البارود منذ القرن العاشر ، ومن المعروف أنهم إستخدموا المدافع عام ١٣٥٦ . ولكن فى القرن ١٥ ، جاء التفوق الأوروبى التكنولوجى الكبير المفاجىء فى مجال المدافع والسفن ليضع الأوروبيين فى المقدمة بكثير على الأسيويين فى إدارة الحرب . وقد أستجاب الصينيون لهذا التقدم بتشكك بعض الشىء ، وبالرغم من علمهم بضعفهم الحربى فى مواجهة العالم الخارجى ، فقد أصروا على مبدأ السلام ، وتجاهلوا بقدر الإمكان الموقف الجديد فى أوروبا ، ومؤمنين أنفسهم خلف ستار من الخوف من الأجانب وكذلك خلف ستار من العجرفة الثقافية . ومن ناحية أخرى فقد حاولوا بجدية إكتشاف السر العسكرى لأوروبا لكى يصلوا إلى مستواهم . وكانوا دائما على إستعداد لدفع أى ثمن من أجل المدافع . ولفترة من الوقت كانت سياسة أوروبا هى عدم البوح بسر تفوقهم الفنى ، ولكن كان يمكن دائما العثور على رجال يبيعون الأسرار ، وفى الواقع قد علم « الجزويت » الصينيين صناعة وإستخدام الأسلحة النارية . كما قام الأب الإيطالى « الفونسو فاجنونى » (١٥٦٦ — ١٦٤٠) بتعليم « هان لين » ، والذى كتب بحثين عن إستخدام الأسلحة النارية . وفى أربعينات القرن ١٧ ،

أقام عضو الجزويت الألمانى « تشال » مسبك للمدافع بالقرب من القصر الإمبراطورى بشرط أن يسمح له بمتابعة عمله التبشيرى . ومع ذلك كان الصينيون بطاء فى فهم وإتخاذ الفنون الغربية للحرب . لم يرغب هذا المجتمع المحافظ المحب للسلام والذى يتكون من الحكماء والفلاحين فى التحول إلى الصناعة من أجل القوة العسكرية فحسب . وأخذ رد الفعل السلمى يزداد مع زيادة الإتصال بالأوروبيين .

وفى القرن ١٧ كتب الأب « ريكى » : — « كانت العسكرية أحد الأوضاع الاجتماعية التى تلاقى كل إحتقار بينهم . » وكان ينطبق نفس الشىء على البحر والبر ، فكانت سفنهم الشراعية المعروفة باسم « الينك » صالحة للابحار والملاحة فى جميع الأجواء ، ولكنها لم تكن سفينة صالحة للحرب ، ولم يقدر لها أن تستخدم لذلك . وفى نهاية القرن ١٦ أقتنع الصينيون بوضع مدافع على سفنهم ، ولكنهم لم يجروا التعديلات المنطقية الضرورية لذلك . وقد علق البرتغالى « جرونيمو رومان » على ذلك بقوله : — « كانت مدافعهم رديئة الصنع بدرجة أن الطلقة لم تستطع إختراق الدرع العادى ، وهذا بالإضافة إلى أنهم لايجيدون التصويب » . وأستمر هذا الوضع حتى منتصف القرن ١٩ ، والصينيون لم يكن لديهم الرغبة فقط بل كانوا غير قادرين على القيام بحرب حديثة . وفى النهاية وبتأثير العدوان الجشع للقوى الأوروبية وخاصة بريطانيا وجد الصينيون أنفسهم مجبرين على تحويل فن حربهم ليكون غربيا . وقد أدى الذل الذى عاناه الصينيون فى « حرب الأفيون » ضد بريطانيا ، إلى إيقاظها ومعرفة الواقع مع دفعها إلى تقليد الغرب . وكلمة أخيرة عن الصين اليوم ، فكنت مشتاقا ومهتما بالقراءة عنهم لأعرف إلى أى مدى وضعت الحرب سماتها على تاريخهم ، وخاصة أنهم بطبيعتهم شعب غير محب للحرب . وكانت الصين أمة تقتضى تقاليدها القديمة إلى تقدير طبقة المحاربين تقديراً تافها إلا أنها اليوم تبدو وقد كرست موارد هائلة ووقت كبير وجهد ضخم للقتال . ومن ملاحظاتى الشخصية على الصينيين فيوجد فى تركيبهم إتحاد غريب ، فهم شعب صناعى يتسم بالصفاء الشديد فى مجموعه ، ولكن هناك البعض منهم يميل إلى المشاكسة وأشك فى أن أى مؤرخ لأى دولة قد سبق له ودون بأن سباحة زعيمهم فى نهر كبير ، هى عامل من عوامل الزعامة ! !

وقد فقد الملك جون أمتعته فى نهر « واش » ولكن هل سبح كروmويل فى نهر التايمز وبسرعة ٩ أميال فى الساعة ؟ وأنه لمن المثير أن نفكر لماذا تفرط الصحف الصينية فى الأطراء على سباحة الرئيس « ماو » ، وهى نوع من الرياضة البدنية والتى لم تكن شهيرة فى المعتقدات الصينية وكأحدى العلامات التى توضح البراعة والحيوية فى الزعيم .

وقد قمت بنفسى بالسباحة مع « ماوتسى تونج » فى نهر « يانجتسى » فى سبتمبر ١٩٦١ ، وبقدر ماأذكر فقد سبح للمتعة وكل مافعله تقريبا هو الطفو فحسب مع التيار وهذا أقصى مايمكن أن يفعله فى مثل سنه . ويوجد تضارب غريب فى مكان ما . . إلى أين تتجه الصين . . ؟ . . أنه حقا للغز . . لغز صينى . . .

اليابان وفن الحرب (أنظر اللوحة رقم ٣٨)

وأخيراً نأتى إلى اليابان . . . فبينما الحضارة الصينية قديمة قدم الزمن ، وليس معلوما بالتأكيد من أين أتت أصل هذه الأمة . . ؟ إلا أننا سوف نجد أنفسنا عند دراسة اليابان متأكدين من المعلومات الحقيقية . فقد جاء اليابانيون من الهضبة العليا للقارة الآسيوية حيث وجدوا هذه الجزر يحتلها « الأينو »[1] . ودار صراع فى الجنوب مع هذا الشعب إنتهى بإخضاعه وهروبه إلى موطنهم الحالى فى أقصى الشمال فى جزيرة « هوكايدو » . ولم يتم إخضاع هذا الشعب بشكل نهائى إلا فى حوالى عام ٨٠٠ ميلادى . وقد نتج من هذا القتال القاسى المستمر عبر السنين سلالة يابانية عسكرية تتصف بالنظام الصارم والضبط والربط ، ومن المرجح أن ذلك كان نابعا من أصلهم وتعاليمهم المغولية .

وعبر التاريخ اليابانى كانت العلاقات مع كوريا وثيقة ، وقد جلبت سلسلة من الهجرات من هذه الدولة إلى غربى اليابان عائلات ومجموعات والتى كانت غير راضية عن الحياة فى موطنها الأصلى ، وقد وصلت الحضارة الصينية عن طريق كوريا ، والتى بدأت بالحضارة البرونزية ثم بعد ذلك الحديدية . وبالتالى فقد أكتسبت هذه الدولة الأسلحة والأدوات الحديدية ، مما زاد من قوتها العسكرية مع تحسن طرق الزراعة بها . ومع ظهور النظام الإقطاعى ، إنتشرت دراسة علم الحرب بشكل سريع ، وإتجه الشعب اليابانى نحو الصين للاستفادة بكثير من

(١) جنس بدائى من صيادى الحيوانات والسمك «المعرب»

فنون الحرب ، وبالتدريج أخذوا يحسنوا ويطوروا هذه العلوم المستوردة. وبما أنهم من شعوب الجزر ، فقد قاموا بعملية تطوير لموهبتهم الطبيعية القوية فى الأعمال البحرية .

ويتناقض تاريخ اليابان مع تاريخ الصين فى أن الحرب كانت دائماً عنصراً بارزاً ، وكان ذلك إلى حد كبير نتيجة للبيئة . وتمتد مجموعة جزر الأرخبيل اليابانية لأكثر من ١٠٠٠ ميل ، ولكن الجزء الأكبر من الأرض كان جبليا ومجدبا . ويمكن أن يعزى إلى حد بعيد ، كثرة الحروب بين سكانها إلى التنافس من أجل المناطق القليلة من الأراضى الصالحة لزراعة الأرز . ولم يحد التأثير السلمى للبوذية فى اليابان من الشعور بالحاجة إلى القتال . وهناك عامل ثان رئيسى وهو أن الجزر تزخر بالموانى الطبيعية الجيدة . ولهذا أصبح الشعب اليابانى من البحارة وسكان الجبال الخشنين وعودهم صلب . وقد أدت الرياح والتيارات السائدة فى بحر الصين ، إلى صعوبة الإتصال مع الأراضى الأسيوية الرئيسية ، بالرغم من أن اليابانيين كانوا دائماً يهتمون بشبه الجزيرة الكورية ، للمحافظة على نفوذهم هناك ، ولمنع إحتلالها بواسطة القوى المعادية الكبرى وخاصة الصين . وعلى العموم فقد طور المجتمع اليابانى نفسه فى عزلة عن العالم وبشكل مميز فى إتجاه عسكرى قوى . وفى القرن الأول ق.م كان يوجد فى اليابان حوالى مائة قبيلة . وفى هذا الوقت بدأ رؤساء القبائل الطامعين فى إستيراد السيوف الحديدية والدروع من الصين . وأستمر التنافس بين القبائل ، ولكن فى القرن الرابع الميلادى نجح شعب « كيوشو » فى إخضاع باقى العشائر ، وأنشئت حكومة مركزية فى « ياماتو » والتى تقع فى الجزيرة الرئيسية . وفى عام ٣٦٩ تم غزو كوريا الجنوبية بنجاح ، وفى عام ٣٩١ تقدمت القوات اليابانية شمالا حتى « بيونج يانج » . وعلى أى حال فكانت هذه الفترة هى الذروة بالنسبة لليابانيين ، لأنه بعد ذلك بوقت قصير أنسحب اليابانيون من كوريا ، ولم تظهر قوتهم العسكرية لمدة ١٢٠٠ سنة . وخلال القرون القليلة التالية فكر حكام « ياماتو » فى مد حكمهم على كل شعوب مجموعة جزر الأرخبيل ، وتذكر الأساطير أن هذا الوقت كان عصر طويل من الفوضى والإضطراب . وبإنتهاء هذه الفترة ، ظهر أسلوب عسكرى يابانى مميز ، وفى عام ٧٠٢ أعلنت قوانين محددة لإنشاء جيش دائم كفء . وكان المقاتل اليابانى القديم فارساً أرستقراطيا ، مدرع تدريعاً قوياً ويمتطى ظهر جواده ، وبالرغم من مرافقة الأتباع

للفارس إلا أنه كان يقاتل بمفرده . وكان سلاحه الرئيسى هو القوس .

أما فى القتال المتلاحم فكان يستخدم السيف . وفيما بعد فى القرن الثامن ، وتحت تأثير البوذية تواجدت إتجاهات لرفض إستخدام السلاح بين الطبقات العليا ، وبذلت محاولة لتنظيم الفلاحين كاحتياطى ضخم للدفاع القومى ، على النمط الصينى . إلا أن هذه المحاولة فشلت لأستياء المجندين الفلاحين من هذا الأمر بالإضافة إلى إفتقارهم إلى المعدات ، وبالتالى فقد ألغيت هذه الفكرة وبدلا من ذلك ، طلب من كل مقاطعة الإبقاء على قوة من الجنود النظاميين المدربين .

وعندئذ ، كان المقاتلون الحقيقيون يجلبون من الطبقات العليا. وبدأت عملية عزل الفلاحين وظهور الطبقات المحاربة فى اليابان تظهر بشكل متزايد وواضح . وفى القرن التاسع الميلادى دخل المجتمع اليابانى فى مرحلة طويلة من تطوير النظام الإقطاعى . فالحكومة المركزية الضعيفة كانت تعنى إستقلال الطبقة الأرستقراطية ، ويعنى أيضاً عدم الإستقرار لطبقة الفلاحين . فى نفس الوقت كان يجرى إعادة الإستيلاء على الأرض ، وأقوى الرجال هم الذين أستطاعوا إقتطاع أرض خاصة لهم فى شكل مقاطعات ، وتركزت مظاهر التبعية والولاء حول الإقطاعيات الكبيرة بما فى ذلك الأديرة والعشائر ، وشكلت الجيوش الخاصة ، وإنطلقت المنافسات والإنتقام بدون قيد. وفى هذا المجال برزت عشيرتين على وجه الخصوص وفى مقدمة المتنافسين ، وهما عشيرة « التايرا » وعشيرة « الميناموتو » ، واستمر الصراع بينهما فى شكل حروب خاصة ومتتالية وثورات لمدة ٢٥٠ عاماً .

إلى أن أصبحت لـ « الميناموتو » السيادة على البر ، بينما تسيدت « التايرا » فى البحر. وأخيراً فى عام ١١٨٥ نجحت « الميناموتو » فى هزيمة « التايرا » فى البحر فى معركة « دان نويورا » فى مضايق « شيمونوسكى » ، وقد حشدت « الميناموتو » عدداً كبيراً من السفن واستغل قائدهم « يوشيتسن » عودة المد إستغلالا بارعاً . وفقدت « التايرا » منذ ذلك الوقت القيادة واكتسحت « الميناموتو » كل مايعترضها . وبعد عام ١١٩٢ أقام زعيمهم

« يوريتومو » نظام« الباكوفو »[1] فى« كاما كورا» . وإتخذ لنفسه اسماً «شوجن»[2] . وظل الأمبراطور فى مقره بمدينة « كيوتو » لايزيد عن ألعوبة فقط .

ضحية بشرية لآلهة الحرب

وعلى مدى قرنين ونصف من القتال المستميت فوق بلاد وعرة ، تعلم اليابانيون الكثير عن الحرب .وأصبح المحاربون يكونون طبقة لها إمتياز خاص ،وقدعرفوا بإسم «ساموراى»، وكان سلاحهم الرئيسي هو القوس والذى أختلف حجمه تبعاً لطول الفرد ، ولكن كان أقصى طول حوالى ٧½ قدم ، ويصنع من خشب البقش أو الخيزران مع لف حبل حوله . ويلى القوس فى الأهمية فى القتال السيف ذو الحد الواحد والمحدب قليلا . ومع حلول القرن العاشر كان فن صناعة السيوف قد وصل إلى مستوى عال ، وفى القرن ١٣ وصل إلى حد الكمال على يد أثنين من مشاهير صناع السيوف وهما : — « مسامون » و «هو شيمتسو » اللذان قدماسيوفا متقنة التوازن مصنوعة من صلب ممتاز ومقوى . وكان « السامور » يكرس وقتاً طويلا ليكتسب مهارة كبيرة فى إستخدام السيف .

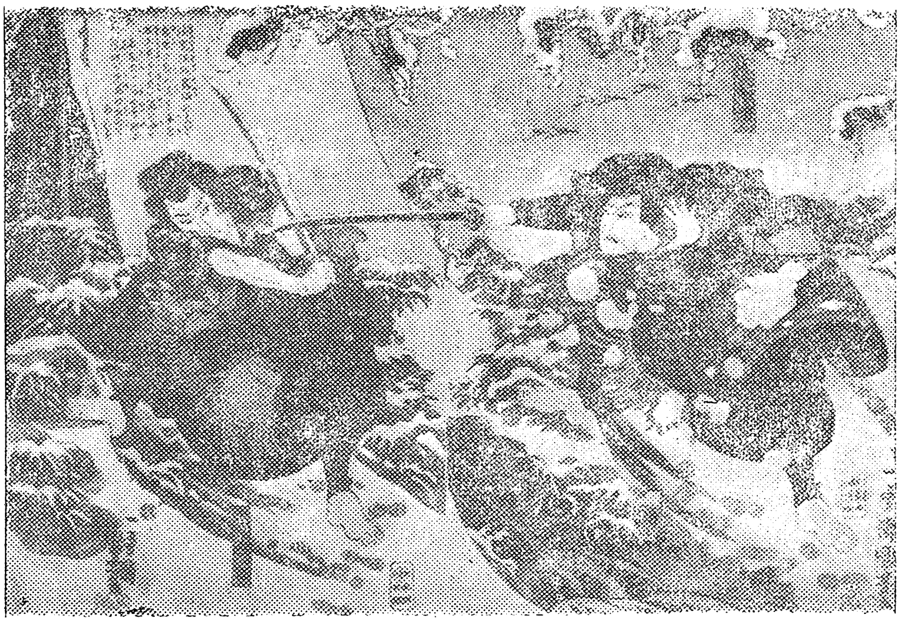

اكتسب الساموراى مهارة فائقة فى القتال بسيوفهم المقوسة الحادة

(١) وهو شكل من أشكال الحكومات العسكرية

(٢) وهو القائد العام الذى يخضع البرابرة

«المعرب»

وكان لديهم نوعان من السيوف ، سيف طويل ، طوله ٣ أقدام أو أكثر ومخصص للقتال ، وآخر أقصر لإستخدامه فى قطع رأس الضحية أو للانتحار به ، وكان السيف يعتبر مساوياً لروح المقاتل . وقد درب الساموور على المصارعة اليابانية أيضاً ، وهى فن تعجيز أو صرع العدو ، بإستخدام كف اليد بأقل جهد عضلى لتحويل العدو إلى مجرد كتلة وقوة عاجزة عن الحركة .

أما الدرع الواقى للساموور فكان عبارة عن ثوب من الحديد والجلد متصلة ببعضها بأربطة من الحرير أو الجلد ، وخوذة معدنية ذات قرون ، وزينت بعض الدروع وطعمت بمعادن نفيسة . ولم يكن لدى اليابانيون أبداً خيول حرب أصيلة ، وأمتطوا فى المعركة خيولا صغيرة وقوية ، والتى كانت فى بعض الأحيان مدرعة . وعادة ماتضمنت الخطط التكتيكية على المفاجأة والكمائن ، وفى أغلب الأوقات كان الجيشان يسعيان إلى معركة مفتوحة . وكانت كل حملة لا بد أن تبدأ بقربان بشرى لآلهة الحرب . كما كانت هناك مراسيم ذات طابع خاص وقوى تميز معارك الساموراى ، وعلى سبيل المثال فإن علامة الإنتباه للانقضاض على العدو كانت إطلاق سهم واحد متبوعاً بأنشودة تصدر بنبرة حادة .

وكانت الإشارات تتم بواسطة أعلام مزينة بصور مثل « التنين » ، وكذلك بقرع الطبول والأجراس . وقبل القرن ١٥ كانت المعركة تشابه مباراة ضخمة لمبارزات متعددة بالسيف . وكان كل ساموور يختار خصما واحداً ، وعليه أن يعلن اسمه وألقابه ومآثره وربما يندد بعدوه . ثم يدخل الأثنان فى مبارزة حتى الموت دون تدخل أحد . وكان يعتبر شرفاً خاصاً للمقاتل الذى يكون أول ساموور فى المعركة . وفى النهاية يقدم كل ساموور رؤوس ضحاياه إلى قائده . ويتضح لنا من هذا أن فى هذه المرحلة من تطورهم لم يكن لديهم أى تنظيم للفرق أو أى مناورات تكتيكية تقوم بها الوحدات ، فكان المقاتل الفردى هو كل شىء . ولهذا فإنه ليس بمستغرب أن هذا العصر لم يظهر فيه أى قادة يستحقون الذكر .

وظهرت مجموعة من مبادىء السلوك الفردى فى طبقة الساموراى وذلك للآداب الشخصية وللارتباط والإلتزام مع بعضهم ومع رئيسهم الإقطاعى ، والتى عرفت باسم

« ببوشيدو »[١] ، وكانت تختلف عن تقاليد الفروسية ، والتى لم يكن بها تركيز قوى على الإحترام المطلق ، بعكس الساموراى فكان يصل الإحترام إلى درجة أن السامور يموت فى سبيل سيده ، وكان عليه أيضاً أن يقاتل حتى الموت بدلا من التسليم . وإذا حدث وأستسلم فيصبح هدفاً لأقصى أنواع الإزدراء ، حتى يصبح غير جدير بأن يعامل معاملة آدمية ، ولهذا السبب كانت معاملة اليابانيين لأسراهم فى حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ سيئة للغاية . وإذا لحق هذا العار بالسامور فيجب عليه الإنتحار على طريقة « هارا كيرى »[٢] .

وأعتباراً من القرن ١٢ أصبحت الهارا كيرى ظاهرة متزايدة وسائدة ، وأصبح ينتحر مئات من الساموراى معاً بدلا من الإستسلام .

اليابان تصنع المدافع

وقد أثبت « يوريموتو » القائد المنتصر للميناموتو عام ١١٨٥ ، أنه رجل دولة عسكرى جدير بالاعتبار ، فقد نجح فى إقامة حكومة مركزية قوية فى نفس الوقت احتفظ بالإقطاع اليابانى فى الصورة العسكرية .

ولذا كانت اليابان فى القرن التالى قوية بالقدر الكافى لمواجهة المغول ، وكانت الأمة على أهبة الاستعداد عندما قام « كوبلاى خان » بأول غزو مغولى عام ١٢٧٤ . وقد قاوم اليابانيون لمدة يوم واحد طويل وبعزم الإنزال المغولى على جزيرة « كيوشو » وهبت عاصفة فى اليوم التالى فانسحب المغول إلى كوريا . ولم تكن التجربة على أى حال مشجعة ، لأن القوات المغولية كانت متفوقة عدديا ، وأثبتوا أنهم أفضل فى التقال من اليابانيين . وأصبح من المحتم قيام المغول بغزو آخر ، واستعد اليابانيون لمجابهته لمدة سبع سنوات ، فقاموا ببناء سور حجرى على امتداد شاطىء خليج « ها كوزا كى » ، وعندما عاد المغول مرة أخرى عام ١٢٨١ كانت القوات اليابانية بكل احتياجاتها قد حشدت فى هذه المنطقة . وعلى مدى سبع أسابيع ظل المانع صامداً ، بينما ألحقت السفن اليابانية الدمار بالعدو بعيداً عن الشاطىء ، وأخيراً وكما حدث من قبل أجبر المغول على الإنسحاب وتحطمت سفن أسطولهم بفعل العواصف .

---

(١) تعنى طريق المحاربين .

(٢) أن يطعن نفسه بسيفه الخاص بذلك .

ومنذ أن أنقذت هذه الريح المواتية اليابان مرتين ، سميت « كاميكازا[1] » . وقد سمى الطيارون الانتحاريون اليابانيون والذين هاجموا السفن الأمريكية فى المحيط الباسيفيكى فى حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ « كاميكازا » أيضاً . ولم يحاول المغول بعد ذلك التحرش باليابان ، ولكن بدأت فترة أخرى من الفوضى الوطنية عندما جاءت إلى السلطة صف جديد من «الشوجنز[2]» عام ١٣٣٨ ولم يكن لهم حق المطالبة بولاء الأمراء الإقطاعيين والعسكريين ، وتجددت الحرب الداخلية . وكما يحدث فى العصور الأخرى من عدم الاستقرار العام ، فقد أخضع الرجال الأقوياء من هم أضعف منهم .

وأنشئت جيوش خاصة وكبيرة من الساموراى . ويعد تاريخ اليابان فى القرن ١٤ ، ١٥ ، ١٦ قصة متكررة مملة من أعمال النزاع والشقاق دون أى أحداث أو أشخاص غير عاديين ، إلا أنه هناك شيئاً يمكن أن يثير الانتباه فى هذه الحقبة هو إعادة ظهور طبقة من الجنود الفلاحين وتدعى « أشيجارو » ، وقد قاتل الكثير منهم فى مجموعات وذلك ببساطة من أجل أنفسهم فقط ، ولأنهم فقراء كان تدريبهم ضعيف ودروعهم قليلة ولم يستخدموا سوى سلاح واحد فقط أما السيف أو الحربة أو المطرد . وكانوا فى أغلب الأحيان يميلون إلى أعمال الحريق والنهب . إذن فقد كان هذا هو الحال فى اليابان شقاق وإضطراب وغليان عظيم فى أول إتصال لها بالعالم الغربى .

ففى عام ١٥٤٣ دفعت الرياح بثلاثة من البرتغاليين كانوا فى سفينة شراعية صينية بعيداً عن طريقهم حيث نزلوا فى اليابان . وكانوا يحملون البنادق من نوع المسكيت ، وبالرغم من أن اليابانيين بدون شك كانت لديهم من قبل بعض المعلومات عن المدافع والبارود الصينى إلا أنهم دهشوا لرؤيتهم هذه البنادق .

وبما أن الشعب اليابانى لم يكن يؤمن بحب السلام والحضارة المحافظة المزدهرة كما كان الشعب الصينى ، لذلك كان متشوقاً لتعلم أى وسيلة فعالة للقتال . وقد علق «مندس بينو» :— « شعب أدمن الحرب بطبيعته ، وفى الحرب تنتابهم نشوة لا تنتاب أى دولة نعرفها » .

---

(١) تعنى الريح الألهية

(٢) القادة العسكريون

« المعرب »

وسرعان ما أدرك اليابانيون والكوريون مدى تفوق الأسلحة النارية الأوروبية على أقواسهم وأسهمهم . وكتب أحد قادتهم ويدعى « إيياسو » إلى ملك سيام يقول : «إننى فى إحتياج إلى المدافع والبارود أكثر من إحتياجى إلى القماش المطرز بالذهب » . ولم يمض وقتا طويلا حتى كان البرتغاليون وغيرهم من التجار يبيعون الأسلحة لليابان . وقبل نهاية القرن كانت اليابان تصنع الأسلحة بنفسها .

التنين الاصفر

وقد أتاحت الفترة الطويلة من الفوضى والصراع الداخلى ، الفرصة للرجال ذوى المقدرة من ارتقاء مراكز السلطة بالرغم من إنحدارهم من أسر مغمورة غير أرستقراطية . ومرة أخرى ، بحلول النصف الثانى من القرن ١٦ أخذ الشكل السياسى فى اليابان يبدد المجموعات الرئيسية الإقطاعية ، وأخيراً أصبحت الدولة تحت سيطرة سلطة سياسية واحدة قوية . وكان السبب فى تحول اليابان من الصراع والفوضى إلى الوحدة يرجع إلى ثلاثة رجال هم : ـ

« نوبوناجا » و « هيديوشى » و « إيياسو » . وولد « نوبوناجا » عام ١٥٣٤ ، وبدأ أعماله بالدفاع عن مقاطعته الصغيرة ، ثم نقل الحرب بعد ذلك إلى أراضى أعدائه ، وبحلول عام ١٥٥٩ كان قد حقق السيطرة على مقاطعة « أرواري » .

وقد أثرت شجاعة وقدرة « نوبوناجا » فى رجلين هما «هيديوشى (١) » و« إيياسو (٢) » مما أدى إلى دخولهما فى خدمته . واستطاعوا سويا من السيطرة على الدولة . وفى عام ١٥٧٣ أصبح «نوبوناجا » قائداً عاما بالرغم من عدم وجود موهبة عسكرية غير عادية لديه ، أما « هيديوشى » و « أيياسو » فأصبحا من قواده . وكان «نوبوناجا » مستعداً للتعلم بذكاء من الأوروبيين ، وعلى يديه بدأ التطور الرئيسى لصناعة الأسلحة النارية اليابانية وأيضا إدخال التحصينات وبناء السفن على الطراز الأوروبى .

(١) كان أبن حطاب

(٢) كان زعيما فى شرقى اليابان

وفى عام ١٥٨٢ أغتيل « نوبوناجا » وبدأ التقدم الذى أحرزه نحو الوحدة يتعرض للخطر، إلا أن « هيديوشى » و « إيياسو » هبا للثأر لمقتله ولإستكمال عمله. وهنا برز «هيديوشى» كرجل عظيم سواء كقائد عسكرى أو كرئيس دولة ، وكان من أبرز صفاته «الصبر والتنظيم والقيادة » . وجاءت اللحظة الرئيسية لنجاحه فى عام ١٥٨٧ عندما سحق جزيرة « كيوشو » والتى تعتبر زعيمة المنشقين ، وكانت عائلة « شيمازو » على رأس عشيرة «ساتزوما» ،وطلبت عائلة « شيمازو » السلام ، وهنا أظهر « هيديوشى » شهامة وإدراكا سياسياً عندما سمح لهم بالإستسلام بشروط معقولة . إلا أن « هيديوشى » لم يكن قد أشبع طموحه بعد ، وكان حلمه فى ذلك الوقت فتح الصين ، وبدأ فعلا هذا العمل عام ١٥٩٢ بغزو كوريا ، ونجحت العمليات البرية نجاحا كبيراً ، فقد قطعت القوات اليابانية مسافة ٢٠٠ ميل إلى «سيول» عاصمة كوريا فى ظرف ثلاثة أسابيع . وبينما كان اليابانيون فى قمة نجاحهم فى البر، لاقوا كارثة كبرى فى البحر . فكان الشعب الكورى يجيد مهنة البحر ، كما كان لديهم أدميرالا بارعاً وهو « يى — صن » والذى كان رجلا أستراتيجياً وتكتيكياً وقائداً ذات صفات غير عادية، وكان أيضاً موهوباً فى الاختراع الميكانيكى . وكانت التكتيكات البرية الآسيوية لازالت عبارة عن الرمى بالسهام وإختراق السفن وإعتلائها ، ولم تكن المدافع قد ركبت بعد على السفن . إلا أن « يى — صن » أخترع سفينة يمكنها مقاومة كل أساليب الهجوم السابقة وفى نفس الوقت توفر لديها أيضاً قوة هجومية كبيرة . وكان جسم سفينته مصمماً على أساس السرعة الكبيرة والقدرة على المناورة ، كما غطى السطح بدرع من صفائح الحديد « كالسلحفاة » ، لا يتأثر بالنار أو السهام أو المقذوفات ، مع وجود خوازيق على السطح لإعاقة المهاجمين . أما مقدمة السفينة فقد قواها لدرجة يمكن إستخدامها فى الاصطدام بالسفن المعادية ، كما توجد فتحات لرمى السهام على طول دوران جسم السفينة . وقد قاتل البحارة اليابانيون بشجاعة إلا أن سفن « يى — صن » المدرعة بالحديد أحدثت تدميراً تاماً لأسطول اليابانيين . وأدى الانتصار الكورى فى البحر إلى شل هجوم « هيديوشى » البرى . وفى عام ١٥٩٧ عاد مرة أخرى لغزو كوريا إلا أن الكوريين والصينيين قاتلوا هذه المرة بفاعلية أكبر فى البر ، كما حاقت كارثة مماثلة باليابانيين فى البحر .

وتوفى « هيديوشى » عام ١٥٩٨ بعد أن أنجز أعمالا عظيمة عسكرية وإدارية فى بلده

على الرغم من مغامراته الفاشلة والتى اتسمت بعدم التعقل، والتى أدت إلى نهاية محزنة لقصته وبعد موت « هيديوشى » حدث صراع قصير على السلطـــة ، ولـكن فى عام ١٦٠٠ كسب « ايياسو » معركة « سكيجاهار » وأسس أسرة « توكوجاوا » . وكانت سياسة « توكوجاوا » غريبة وقد أستمرت فى السلطة حتى عام ١٨٦٧ ، وتضمنت تجميد المؤسسات الاجتماعية والسياسية لليابان وعزلها عن باقى العالم ، وبذلك أتاحت الفرصة للسلام لمدة ٢٥٠ .

ولـكن خلال هذه الفترة تأخرت تـكنولوجيتها كثيراً ، وكثيراً جداً عن باقى العالم ، وأصبح جيشها من الساموراى لايلائم العصر بشـكل كبير ، وأيضاً قوتها القتالية الغير فعالة . وعلى أى حال ففى عام ١٨٥٣ وصل إلى اليابان أسطول من السفن الأمريكية بقيادة العميد البحرى « بيرى » ، وأضطر اليابانيون إلى الإستجابة الإيجابية لحضارة العالم الغربى الحديث . ترى ما الذى يمكننا أن نخرج به من هذه الدراسة القصيرة للشعوب الآسيوية .. ؟؟ نجد أن المغول فى العصور الغابرة ، واليابانيين فى القرن العشرين تظهر لنا أنه من الممـكن أن تأتى لنا قوات شجاعة وجيدة التدريب من الشرق . والدرس الذى يجب ان نتعلمه هو ألا نحتقر أو نقلل من شأن القوى الآسيوية ، لأن ماحدث فى الماضى ممكن أن يحدث ثانية . فمن الممـكن أن تأتى قوة غازية من مناطق آسيا الشاسعة مرة ثانية ، والتى سيتعين على العالم الغربى قتالها . ولـكن لن يكون هناك داع لحدوث مثل هذا العمل لو استخدمت الحـكمة والتعقل فى تناول المشكلات العالمية فى القرن العشرين، وخاصة إذا أمكن تفهم التنين الأصفر .. أو الدولة الصينية تفهما جيدا وعميقاً .

الفصل السابع عشر

الهنـــــــــد

ملحمة الحرب (أنظر اللوحة رقم ٣٩)

تبلغ مساحة شبه القارة الهندية ١½ مليون ميل مربع وقد أستوطنها على مر العصور القديمة شعوب من ثمانية أجناس مختلفة على الأقل وأعتنقوا ديانات عديدة مختلفة ويتكلمون مايقرب من ٢٠٠ لغة ولهجة مختلفة ولهذا فإنه غير مجدى محاولة كتابة تاريخ عام لفن الحرب فى الهند خلال فصل واحد. ولذلك قررت تركيز الضوء على صور معينة من فن الحرب والتى كانت سائدة وبارزة فى فترات معينة من هذا التاريخ. وأخترت فن الحرب للهندوس القدماء فى الفترة مابين عام ٥٠٠ ق. م و ١٢٠٠ بعد الميلاد، وأيضاً تلك الفترة الخاصة بالشعوب التركية الإسلامية التى فتحت الهندوستان فيما بين عام ١٠٠٠ — ١٦٠٠ ميلادية وأقاموا إمبراطورية المغول، وكذلك فترة إمبراطورية المارثيون فى القرن ١٨. أما قصة فن الحرب الهندى بعد القرن ١٨، فسيكون له فصل خاص مثلها فى ذلك مثل بقية آسيا، حيث أن التأثير الأوروبى أصبح سائداً.

وهناك عدة عوامل معينة تراود أفكارنا يجب أن نتفهمها. فقد أثر على سير الحرب فى الهند وبدرجة كبيرة العوامل الطبيعية والجغرافية وتحرك السكان والمناخ. وتقع الهندوستان بين جبال الهيمالايا وسلسلة جبال فنديا وهى عبارة عن سهل واسع خصب وبدون أى دفاعات طبيعية. وربما يكون عدم كفاية المواصلات هو السبب فى أن الهندوستان كانت باستمرار تقريبا مسرحا لصراع سياسى مضطرب بين المقاطعات الصغيرة. وكانت الممالك تتآكل عادة لأسباب داخلية؛ إلا أنه كان هناك عامل هام أدى إلى عدم الاستقرار السياسى وهو التحرك المستمر للسكان من الشمال إلى الجنوب. وأصبحت الحدود الشمالية الغربية بدون قوات لحراستها حتى فرضت السيطرة البريطانيـــة نفوذها فاختلف الأمر. ومنذ العصور

الأولى والشعوب المهاجرة تعبر ممرات هذه الحدود . فنجد أن الأغريق ثم الأتراك ثم الهون ثم المغول ثم الإيرانيون قد سلكوا نفس الطريق ونفس الممرات . وفيما بين عام ٢٤٠٠ ق . م وعام ١٥٠٠ بعد الميلاد هزم السكان الأصليين للهند على أيدى الغزاة الأجانب مما أدى إلى فرارهم جنوبا . وعموما فكانت جبال « فنديا » تعوق تحركات الغزو إلى حد ما ، علاوة على ذلك توجد مناطق جافة ومملوءة بالتلال فى جنوب الهند مثل هضبة « الدكن » و« الفيجاهاناجار » وهى غير ملائمة لتحرك قوات كبيرة بها وتلائم حرب العصابات . والعامل الرئيسى الأخير الذى أثر على الحرب فى الهند هو المناخ ، فكانت الأمطار الموسمية (بين يونيه وسبتمبر) تجعل تحرك الجيوش من الناحية العملية مستحيلا . وأفضل الفصول لإجراء الحملات هو شهرى أكتوبر ونوفمبر عندما تنضج المحاصيل ويخضر العشب ويكون من الممكن المعيشة داخل المنطقة . ومن الجدير بالذكر أن سلالات الخيول فى الهند كانت دائما من نوع أقل جودة من مثيلاتها فى غرب ووسط آسيا . وكانت الحرب من أكثر الموضوعات إنتشاراً فى سياسة وأدب الهندوس القدماء . وظهر أنه كان هناك صراع لا ينتهى بين القوى المختلفة فى الهندوستان ، ولكن أحيانا ما كان ينجح رجل واحد من « الموريا » أو « الجوبتا » أو « الهارشا » فى إخضاع وتوحيد كل أهالى المنطقة ، ولكن كان لا يستمر هذا طويلا . وليس هناك أى مراجع عن التاريخ السياسى للهند فى الفترة ما بين ٥٠٠ ق . م وعام ١١٠٠ بعد الميلاد ، وكان ذلك غير ممكن لأن الهندوس ليسوا مؤرخين ، إلا أنه كانت هناك أضواء يلقيها كاتب أجنبى [١] على بعض الفقرات من تاريخ الهندوس . وبالرغم من هذه الصعوبة ، فمن الممكن إكتشاف قدر معين من مواقف الهندوس من الحرب والأسلوب المستخدم فيها وذلك عن طريق كتب فن الحكم مثل كتاب « الأرزاساسترا » والذى وضعه « كوتيليا » والذى يضم الفترة بين ٣٠٠ ق . م و ١٠٠ بعد الميلاد يشير فيه إلى شهرة الحرب وإنتشارها .

وكان الجيش يعتبر سادس السبعة عناصر الرئيسية المكونة للدولة . وإذا نظرنا إلى

---

(١) لقد كتب عن الهندوس الرحالة الصينى البوذى « هسون تسانج عام ٦٣٥ ميلادية « المعرب »

اللوحة رقم ٣٩ الهند

تعاليم مذهب « ماندالا » لوجدنا أنها نموذج مصغر لأفكار الهندوس من حيث العلاقات بين الدول . وفى الواقع هى تعاليم للكفاح والنضال من الدرجة الأولى . وإذا جنح ملك للسلم فهو فى النهاية كاذب مناقض لنفسه ، فقد ذكرت التعاليم : — « لاهيبة ولا إحترام للملك الذى لايقهر أعدائه لأنه إذا لم يقم بهذا سيغرق كالبقرة فى مستنقع من الطين » . وفى سطور أخرى للتعاليم : — « لايوجد مطلقا شيء اسمه حكم أو قاعدة ، بل هناك فقط الصراع من أجل المكانة التى يسعى إليها المقاتل » ويعتبر « كوتيليا » من المصادر المفيدة والهامة ، لأنه ضمن نظريته السياسية بحثا عسكريا . أما الاعتماد على ملاحم اللغة الأدبية الهندية القديمة أمثال « المهابهاراتا » فهو مشكوك فيه ، وتكمن الصعوبة هنا فى إمكانية التمييز بين ما هو حقيقى من الناحية التاريخية وبين ما هو خيال جامح من الناحية الأدبية . ويمكن مقارنة « المهابهاراتا » « بالألياذة »و « النبلونجنليد » فى أنها ملحمة شعرية كبيرة عن موضوع الحرب .

ومن المحتمل أن يكون هناك « عصر بطولى » فى الحرب الهندية شبيه بعصور البطولة فى حرب الإغريق والصينيين عندما كانت المعارك عبارة عن مبارزات بين راكبوا العربات الحربية من النبلاء يصاحبهم توابع على الأقدام . ولكن أصبح المقاتلون يتبعون قائدا أعلى فى جيش منظم وقد ظهر ذلك فى الحقائق الأولى للتاريخ السياسى الهندى وذلك فى غزو الاسكندر الأكبر فيما بين عام ٣٢٧ ق . م وعام ٣٢٥ ق . م حيث عبر الاسكندر جبال « الهندوكسن » وأستولى على مدينة « تاكسيلا » ثم هزم الملك « بوراف » (بورش) فى معركة نهر « جهلوم » (هيداسبس) . وكانت العربات الحربية لاتزال تمثل قوة ذات شأن فى جيش « بوراف » ، وأقدم هذه العربات كان خفيفا ومصنوعا من دعائم حشبية مربوطة إلى بعضها بسيور جلدية ويجرها زوج من الخيول ، وطاقم العربة مكون من سائق ورامى القوس .

وفيما بعد أصبح للعربة أربعة خيول كما كبها ستة رجال (١) . ولقد عجزت العربات الحربية

---

(١) أثنين حاملى الدروع وأثنين رماة السهام وأثنين لقيادة العربة والأخيرين يمركان العنان ليصبحا حملة للرماح أثناء القتال والحاجة إليهما . « المعرب »

الهندية فى معركة « جهلوم » عن التحرك فى الوحل ، ولكن على أى حال ظلت العربات الحربية تستخدم فى الهند حتى القرن الثامن ميلادى ، وكانت لها ثمانية أحجام ولها أطقم يتراوح عددها بين رجلين وأثنى عشر رجلا .

فيلق من الفيلة

وفى المعركة بين الإغريق والهنود دخل الملك « بوراف » المعركة راكباً فيلا . وفى هذا الوقت كان ينظر للفيلة فى الجيوش الهندية على أنها قوة هجومية رئيسية . وإحتفظت الفيلة بهذا المقام عند الهندوس ثم عند المسلمين بعد ذلك ، إلى أن بدأ تأثير الأسلحة النارية فى القرن ١٧ يطغى عليها ويثير الشكوك عن صلاحية إستخدامها . وفى معركة « جهلوم » تشكل الخط الأمامى الهندى من ٨٥ فيلا ، يفصل بين كل فيل وآخر ١٠٠ أقدم ، وإحتلت هذه الفواصل بمشاة من حملة الحراب . وقد كان لدى « ساندرا جوبتا موريا » (٣٢٢ — ٢٩٨ ق.م) فيلقا من الفيلة مكونا من ٩٠٠٠ فيل ، وقد إستمر العدد فى التزايد .

وعلى ظهر كل فيل يوجد قائد وثلاثة مقاتلين مسلحين بالأقواس والسهام ، وأحياناً كانت تستخدم الحراب والرماح والمدى والقدور المملوءة بالزيت والحجارة ، وكانت الفيلة مكسوة بدروع معدنية متقنة الصنع وتحمل صناديق الذخيرة . كما كانت توضع على ظهرها السجاد الفاخر وتلف العقود حول رقبتها وتعلق صور شعارات النبلاء .

وكانت أجود سلالات الفيلة توجد فى شرق الهند ، كما كان هناك برنامجا كاملا ورسمياً لترويض الفيلة وتدريبها عسكرياً ، ويبدأ هذا التدريب من المراحل الأولية من الرقود على الأرض والجلوس ثم الركوب عليها ثم قيامها بعد ذلك ، إلى « الساميانا »(١) و« فدهافدها »(٢) و« هستيبيودها »(٣) وغيرها من الوسائل التى تقتضيها الحاجة .

وبدون شك كان « بوراف » قائداً شجاعا ، بل ربما كان أقدر القادة الهنود ، إلا أنه فى

---

(١) التحرك للامام وللاجناب أو القيام بتحركات متعرجة
(٢) ألقاء الضحية أرضا وسحقها بالقدمين .
(٣) القتال فى تشكيلات

« المعرب »

معركة « جهلوم » واجه جيشاً ظافراً محنكا ويقوده قائد عبقرى متفوق (الاسكندر الأكبر) وبالتالى كان من الصعب عليه أن يأمل فى النصر ، وعلى كل وضع « بوراف » قواعد سيئة للجيش الهندى باعتماده على الفيلة فى تحقيق النصر . ومن الغريب إعتماد خلفاء « بوراف » إلى حد كبير على الفيلة بالرغم من أنها لم تؤد أى عمل له قيمة فى معركة « جهلوم » . ومن المؤكد أن للفيلة قوة ومظهراً مرعباً ، فهى تستطيع وطء الرجال تحت أقدامها وسحق الموانع ، وإلقاء الرعب فى قلوب الجنود القليلى الخبرة والخيول الغير مدربة . وقد أستخدمها الأغريق بعد الأسكندر فى غرب آسيا وأوروبا ، وقد سبق لنا تتبع دورها الضئيل . وقد يكون للفيلة بعض القيمة ، ولكنها مملوءة بالعيوب ، وخاصة عند الإعتماد عليها كقوة هجوم رئيسية فى المعركة . فمن الصعب السيطرة عليها دائما ، وخاصة عند ما تجرح حيث تستدير وتنطلق مذعورة وتسبب إضطراباً فى قواتها . وقد رأينا فى الفصل الخامس كيف سببت فيلة هانيبال فى معركة زاما عام ٢٠٢ ميلادية الفوضى والاضطراب فى الجيش القرطاجنى نتيجة لذعرها . والقائد الذى يركب فوق الفيل يراه جنوده جيداً وبذلك يثير هممهم ويرفع معنوياتهم ، ولكنه فى نفس الوقت يكون هدفا واضحاً ومعرضاً للعدو ، وخاصة بعد ظهور الأسلحة النارية .

الطبقة الكهنوتية

وكانت الغالبية العظمى فى الجيوش الهندوسية تتكون من جنود المشاة المترجلة . ومن الواضح أنه كان هناك إختلافات كبيرة فى المهام والمفاهيم التكتيكية بين محترفى مهنة الحرب وبين المتوحشين وقطاع الطرق من قبائل الأدغال .

وكانت جنود المشاة الأقل درجة يوضعون فى وحدات خاصة لتستخدم كقوة عمال ولحمل المهمات وجمع الطعام وحفر الخنادق . وفى « عصر البطولة » لم تقم المشاة بدور إلا بقدر أكثر قليلا من المتفرجين ، ولكن من الجائز أن الشعراء كانوا مغرمين فقط بوصف قتال الأبطال . وعلى أى حال ، فى تاريخ لاحق بدأ الاعتماد يتزايد وبشكل كبير على المشاة وخاصة فى الأراضى الوعرة وفى الدفاع عن الحصون وفى المعارك التى يكون فيها التفوق العددى عاملا حاسماً . ومنذ الفترة المظلمة أى قبل الميلاد بأربعة آلاف عام وحتى

القرن ١٩ ميلادى ، كان القوس هو السلاح الرئيسى فى الهند . وصنعت الأقواس القديمة من الخشب ، أو فى أكثر الحالات من الخيزران والذى كان فى متناول اليد بسهولة علاوة على قوته ومرونته الكبيرة . وفيما بعد ظهر القوس المركب المصنوع من المعدن والقرون والخشب وبه وتر من خيوط القنب أو الحرير أو جلد الحيوان ، أما السهام فتصنع من سيقان البوص أو الخشب ومزودة بالريش فى مؤخرتها ومثبت فى مقدمتها مستدق من القرون أو العظام أو الخشب أو المعدن فى أشكال مختلفة مثل « أردها — كاندرا » (رأس هلالية الشكل) أو « سوكيموخا » (رأس مدببة الشكل) أو « كاكا — توندا » (رأس على شكل منقار الغراب) . واستخدمت أحياناً السهام المشتعلة ، ولم يكن هناك طول ثابت للقوس ، وهناك أدلة على وجود أقواس قصيرة . وقد وصف أريان الأقواس الهندية فى عام ٣٢٦ ق . م كالآتى : —

« كان طول القوس فى مشاة الجيش الهندى يساوى طول حامله ، وكان الرجل يثبت القوس على الأرض ويخطو فى مواجهته بالقدم اليسرى ثم يطلق السهم بأن يشد الوتر كثيراً .

وكان طول هذا السهم يقل قليلا عن ثلاثة أذرع ، ولا يوجد أى شىء يستطيع مقاومة السهم الهندى سواء أكان درعا أو الصفائح الواقية للصدر . وحيث أن الرامى يحتاج إلى كلتا يديه لذلك كان لا يحمل أى درع » .

والمشكلة التى تغلب بها الإنجليز على الهنود فى معركة « أجينكورت » هى نفسها التى أعجزت الهنود عند « جهلوم » وهى إرتخاء وتر القوس بفعل مياه الأمطار . وقد تسلح جنود المشاة الهندية إلى جانب الأقواس بأسلحة أخرى وبالتدريج أخذ السيف ينافس القوس فى الأهمية ، وقد أشتهرت السيوف الهندية فى الأدب العربى كما كان الإقبال على اقتنائها كبيراً ، وظهرت أشكال كثيرة نتيجة لتخصص مناطق مختلفة فى صناعتها . وطبقاً لما قاله اريان كانت السيوف المستخدمة فى القرن الرابع ق . م . من النوع القصير عريض النصل . كما ان « كوتيليا » ميز بين ثلاثة انواع : — الأول مقوس الشفرة وحاد من الداخل وهو النوع الذى سبق « الكوكرى » ، والثانى سيف طويل مستقيم ، والثالث له رأس على شكل ورقة الشجر .

أما غمد السيوف فيصنع عادة من الجلد . وإرتقى فن إستخدم السيف إلى مستوى بارع ، وفى « الماهابهارتا » يوجد وصف لـ ٢١ حركة تؤدى بالسيف .

وكان هناك أيضاً نماذج عديدة من الحراب والرماح مثل « السكونتا » ذات النهايات الست الحديدية ، وغيرها من ذات الرؤوس المتعددة الزويا . ولم يصل طول الحربة الهندية قط طول الحربة المقدونية « الساريسا » أو الرمح الأوروبى فى القرن ١٧ . وفى الحقبة القديمة كانت المقرعة والهراوة لهما نفس أهمية السيف ، وكان يمكن قذفها أو إستخدامها للطعن أو للضرب بعنف .

وظهرت البلطة كسلاح « أرستقراطى » ، بينما استخدمت أحياناً المقلاع وحلقة الرمى وقرص الرمى . أما الدروع فكان الجميع يحملونها فيما عدا رماة الأسهم والفقراء جداً . وكان الدرع يصنع من جلد الثيران أو النمور ومن الخيزران أو النباتات المتسلقة المجدولة ، كما زينت بالشعارات وإختلفت اختلافا كبيراً فى الشكل والحجم .

وكان الأغنياء فقط هم الذين لديهم درع للجسم ، بينما كان لدى الآخرين بعض أشكال من الدروع المصنوعة من السلاسل ، ولكن كانت الأردية المحشوة بالقطن المضروب أكثر شيوعا فى الاستخدام .

وكان الهندوس القدماء ينظرون إلى الفرسان على أنها متفوقة على المشاة ولكنها فى مرتبة أدنى من العربات الحربية والفيلة . والسبب الرئيسى فى ذلك هو نقص الخيول الممتازة فى الهند . ومن المرجح أن فرسان « بوراف » كانوا يمتطون خيولا صغيرة الحجم[1] ، ولذا كان من السهل على فرسان الأعداء هزيمتهم لأنهم يمتطون خيولا متفوقة فى القوة البدنية .

وقد سرد « كوتيليا » بعض وظائف فرسان الهنود منها « إزعاج العدو أثناء تقدمه وعند توقفه وتجميع القوات والقيام بالتطريق وأعمال أخرى متنوعة ، ومهاجمة مؤخرة العدو والإنقضاض على الجيش المهزوم وحماية قواتهم إذا هزمت » . وعلى كل عندما تطور معرفة الاستخدام

(١) تعرف باسم بونى

الصحيح للفرسان إرتفع المستوى تدريجياً . وكان هناك نوعين من الفرسان ، الثقيلة ، والخفيفة ، الأولى تتمركز فى وسط الخط للقيام بالهجوم ، وبينما وضعت الثانية على الأجناب لحراستها وللتطويق والمطاردة ، وأستخدم الرمح الطويل فى الهجوم كما أستخدم السيف أثناء الألتحام ، ولكن لم يستخدم الهندوس مطلقاً رماة راكبين . وكانت صفات خيولهم الضعيفة هى نقطة ضعفهم الكبيرة ، ويمكن تعليل الكوارث التى حلت بالهندوس على أيدى الأغريق والأتراك ، بأن سببها جيوش يمتطى فرسانها خيولا جيدة ويسيطرون عليها جيداً ، فهزمت جيوشاً يمتطى فرسانها خيولا ضعيفة .

وكانت القوات الهندوسية المجندة تنقسم إلى ستة فئات : — القوات التى ترث مهنة الجندية والمرتزقة ، والحرس المحلى ، والفرق التى تمثل رؤساء الإقطاع والحلفاء ، والقوات المأسورة أو التى أغريت من العدو ، ورجال قبائل الغابات .

ولم يكن هناك أى تمييز بين هذه الفئات ، ولكن التمييز الحقيقى كان موجوداً بين القوات النظامية المحترفه والتى يبقيها الحكام ، وبين القوات الإضافية المجندة أو الإقطاعية التى تقضى الحاجة لتجنيدها .

ومن الوجهة العملية كان من الممكن على أعضاء أى طبقة الخدمة فى الجيش ، ولكن الرجال من الطبقات الدنيا كانوا يقومون بالأعمال الحقيرة. ومن الجدير بالذكر أن «البراهمة» وهم الطبقة الكهنوتية ، كانوا يشكلون عدداً من كبار القادة البارزين ، والذين منهم على سبيل المثال «بوسياميترا» القائد العام فى عهد آخر ملوك أسرة « الموريان » ، «برهادراسا» ، وكان الجيش مقسما إلى وحدات على أساس عشرى .

ويؤكد كوتيليا بأن الشجاعة يمكن غرسها حتى فى الجبناء بالضبط والربط والتدريب .

وكانت المرتبات كافية وتدفع بانتظام ، كما كانت تمنح المكافآت فى المناسبات من الأراضى والنقود والأوسمة . وكقاعدة عامة كانت الدولة تتكفل بمعاونة من كان يعولهم الجندى الذى قتل أو من يصاب بعجز .

هلاك السند

وكان أكثر الأوقات شيوعاً للقيام بالحملات الحربية هو شهر أكتوبر بعد إنتهاء

الرياح الموسمية ، وكثيراً ما يتغير هذا التوقيت بفعل الظروف السياسية . وكانت الجاسوسية على درجة عالية من التنظيم سواء الدبلوماسية أو العسكرية .

ويصف كوتيليا كيف كان الجواسيس يتقصون مواقع العدو وتعداده ، ويذكر أيضا كيف كان هؤلاء يرسلون بالرسائل للخلف مكتوبة بالشفرة ويحملها الحمام الراجل ، وكانوا ينشرون المعلومات والإشاعات الكاذبة لخفض الروح المعنوية للعدو ، كما يقومون باستمالة وإغواء الشخصيات المهيمنة على الجيش بجميع الوسائل الغير مشروعة . وهنا أمثلة كثيرة فى التاريخ الهندى عن عمليات فرار بالجملة والتحول من جانب إلى آخر . وقبل التحرك كانت تجرى إستشارة مفصلة مع المنجمين ، وبعدها يقوم الملك أو القائد بأداء طقوس دينية لاسترضاء آلهة الحرب .

ووسيلة النقل فى الجيش كانت الفيلة والجمال والجياد الصغيرة والثيران والعربات التى تجرها الثيران .

وكان هناك حشد ضخم من توابع المعسكرات مثل الرهبان والمنشدين والتجار والعاهرات. وكان منظر الجيش الهندى أثناء تحركه يستحق المشاهدة ، فكانت تسير الفيلة الملكية والفرسان من النبلاء تكسوهم الدروع الكاملة الفخمة والجواهر الثمينه والرياش والحرائر والأحزمة والمظلات الكبيرة .

وكان الحشد كله يتحرك ببطء ، ومع قدر كبير من الموسيقى والصياح ، ويصف مؤلف « كالينجاتوباراتى » المشهد فيقول : «أخذت الأبواق تدوى والطبول الكبيرة تهدر وأطلقت المزامير « والقرب » أصواتاً حادة حتى صمت آذان الفيلة .

وإنتشرت مجموعات كبيرة ومتجاورة من المظلات والأعلام حتى حجبت ضوء النهار ومن المرجح أنه لم يكن هناك تخطيط ثابت للمعسكرات الحربية ، ولكن وعلى العموم كانت تختار الأرض بجوار نهر حيث تقام الخيام فى صفوف وتعين الحراسات . ومن الصعوبة بمكان أن نقرر التشكيلات والتكتيكات التى كانت مستخدمة فى المعركة من المراجع المختلفة .

فقد أطلق « المهابهارتا » العنان لشعره الخيالى فى وصف التشكيلات المتعاقبة والتى

تسمى « المالك الحزين[١] » و« شبه المعين » و « الصقر » و « التمساح » . أما « كوتيليا » فقد تحدث بطريقة أكثر واقعية عن أربعة تشكيلات أساسية وهى « العارضة » و « الأفعى » و « الدائرة » و « المجموعة المستقلة » وكل منها لها طابع خاص . وكان هناك العديد من أشكال الفتح للمعركة ، ومن المحتمل جداً أنه كان يبذل جهد ووقت كبيرين فى القيام بالتشكيل المطلوب كما إستلزم الأمر براعة كبيرة . ولكن بمجرد بدء القتال يفقد النظام بين القوات ، وقد قرأت أن طبقة الأبطال كانت تندفع نحو بعضها ، بينما يلتحم باقى حشود الرجال فى صراع مع الأعداء .

ولاشك أن التكتيكات الأولية كانت معروفة لديهم وخاصة مهاجمة أضعف النقط ، ولكن لا توجد دليل مباشر على ذلك ، كما لم أعثر على وصف لمعركة هندية كتبها رجل عسكرى .

وقد إستخدمت الآلات الموسيقية لإثارة حماس المقاتلين ولقطع الوقت أثناء السير ، وإصدار إشارات بالأوامر .

وبذلت عناية كبيرة من أجل تقوية روح الشجاعة والوطنية وعبر عن ذلك فى الأمثال مثل : « إن النصر هو مصدر الفضيلة الدينية وأعظم أنواع السعادة » . وإذا حدث وسقط أحد قائد الجانبين ، كما حدث للملك « داهير » ملك السند فى عام ٧١٢ ميلادية ، فجيشه يصبح عرضة للتفرق . وإننا نعلم أن الجراحين كانوا يرافقون الجيش ، وكان أسرى الحرب يعاملون معاملة حسنة .

بابور النمر (أنظر اللوحة رقم ٣٩)

وسوف يشعر القارىء مما كتب أن هناك الكثير من المعلومات المشوشة عن الحرب الهندية القديمة ولكن الحقيقة الثابتة أنهم كانوا قوماً مولعين بالحرب إلا أنهم لم يصلوا إلى مستويات رفيعة . وأهم نقط ضعفهم فى تكوين وتنظيم جيوشهم وتكمن فى إعتمادهم الزائد على الفيلة وفرسانهم الضعيفة والنظام الإقطاعى فى التجنيد مما أدى إلى فقد وحدة القيادة وتوحيد المهمات والتنظيم .

---

(١) نوع من الطيور

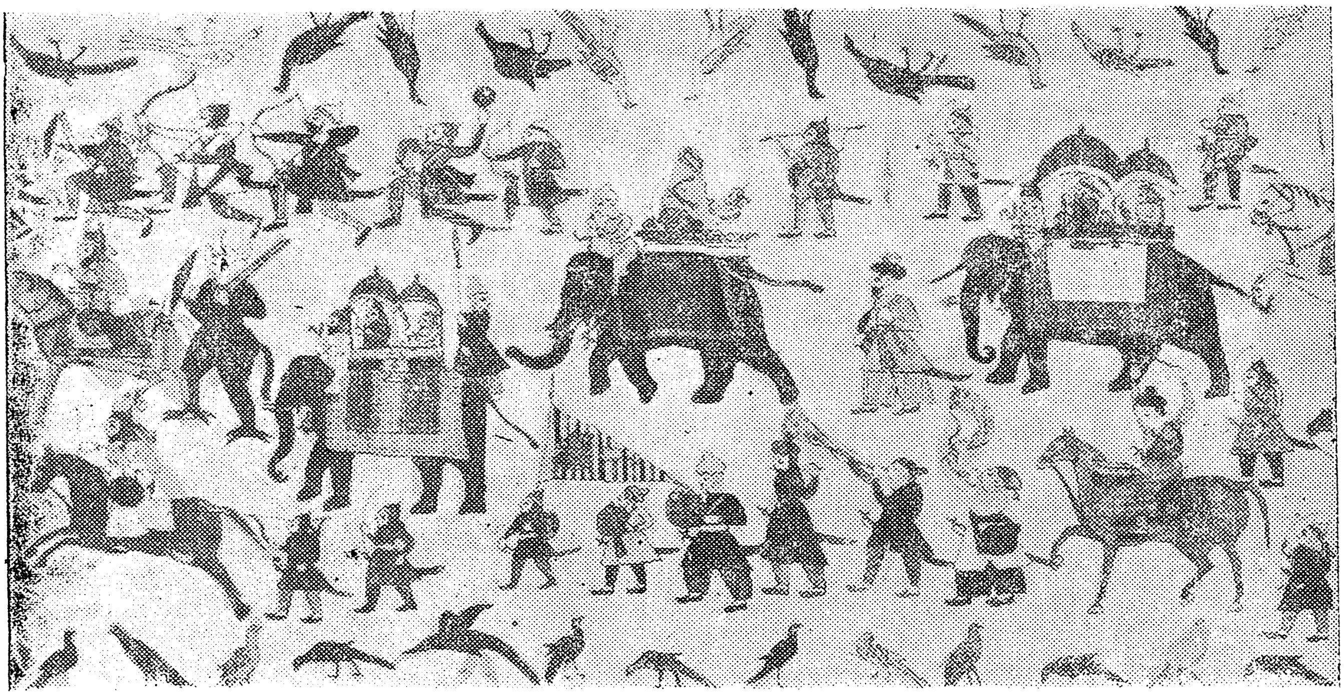

الجيش الهندى أثناء التحرك للقتال

وكان جنود الهنود وقادتهم لا ينقصهم الشجاعة ، ولكن يبدو أن الشخصيات العسكرية الكبيرة مثل « شندراجوبتاموريا » الذى طرد الإغريق ، و « سكندا جوبتا » و « ياسود هارمان » اللذان طردا الهون ، كانوا يفتقرون إلى بعد النظر وعدم الفهم القوى للاستراتيجية والتكتيك .

وعلى سبيل المثال لم تكن هناك قبضة هندية محكمة على ممرات الحدود الشمالية الغربية ، كما أن الجيوش كانت تتحرك بشكل بطىء وكسول. ولم يكن هناك إمبراطورية هندوستانية واحدة ظلت على حال ثابت ، حتى ولا فى أزهى العصور ، ولم يكن هناك شخصيات كبيرة إستطاعت تحقيق الأمن لكل المقاطعات ، ذلك الأمن الضرورى للوحدة الحقيقية وللقوة العسكرية ، وقوة السياسة الخارجية .

وكانت الحروب الهندية عبارة عن أعمال صغيرة ودارت فيها القتال بحذر ، وكانت هذه الحروب من شأن السياسيين بينما كان يجهلها الفلاحين الذين يزرعون الحقول .

ومع حلول عام ١٠٠٠ ميلادية بدأت الحضارة الهندوسية تأخذ شكلا مرضياً محافظة على الطابع القديم . وقد كشف الغزاة المسلمون كل نقط الضعف هذه . لقد تطور الفتح التركى

الإسلامى للهند فى شكل محدد واضح ، وسار بشكل تدريجى إبتدأ من القرن العاشر وتم فى القرن السابع عشر فقط . وقد أغرت بلاد الهند الغنية المنقسمة على نفسها رجال القبائل التركية .

وبدأ الأتراك بالقيام بغارات متكررة عبر الحدود ، والتى تحولت إلى غزوات إنهزم فيها أقوب ملك هندى فى معركة ضارية . وكان الفتح الأول نقطة إنطلاق للتقدم التالى ، وأخذت المقاطعات الهندية الواحدة بعد الأخرى ، بتقدم قوات المسلمين جنوباً وشرقاً .

وإستمر هذا المنوال حتى القرن ١٧ ، عندما بدأ رجال قبائل الغابات « آسام » فى كبح جماح قوات المغول التى بدأ يسودها التحلل والتمزق . وكان غزاة الموجات الأولى تستقر وتتحول إلى هنود ، ولكن كان يتم إجتياحهم بواسطة موجات تالية آتية من الشمال الغربى .

وإستمرت سلسلة الغزو والفتح بدون عائق لمدة ثمانية قرون ، وكان كل من يتصدى لهؤلاء الغزاة لا يستمر طويلا ، ومن حين لآخر كان يقوم فاتح بارع من المسلمين باجتياح كل ما هو أمامه فى موجة مدمرة .

وهنا يبرز لنا أربعة أسماء من هؤلاء الفاتحين ، وأول هؤلاء ، وربما كان أعظم الأتراك المسلمين الفاتحين للهند ، هو السلطان « محمود غازى » (٩٩٧ — ١٠٣٠) والذى يقال أنه قاد ١٧ حملة فى الهند . وهو الذى عبر بالمسلمين نهر « الهندوس » الذى يعتبر العائق الطبيعى الوحيد أمام سهول « الهندوستان » الغنية .

وحقق السلطان محمود أعظم انتصاراته على قوات « اناندبال » فيما بين « أند » و « بيشاور » عام ١٠٠٨ .

وفى النهاية كانت إمبراطوريته تمتد من فارس حتى نهر « الجانجز[١] » ، وقد كان قائداً

(١) الجانجز أحد الأنهار العظيمه فى الهند وينبع من جبال الهيمالايا ويصب فى خليج البنغال وطوله حوالى ١٥٠٠ ميل وهو من الأنهار المقدسة عند الهندوس « المعرب »

الأتراك المسلمون يهزمون الهندوس على نهر الجانجز

بارزاً ، قادراً على أثر جنوده وإكتساب أخلاصهم ، كما كان هو شخصياً مقاتلا شجاعاً .

أما الفاتح العظيم الثانى فهو « شهاب الدين غورى » ، والذى زحف عام ١١٩٠ نحو « تارين » بالقرب من « دلهى » حيث هزمه الملك الهندوسى « برزفيراج » بجيش يفوق كثيراً جيش شهاب الدين . ولكن الشيء الغريب أن الهندوس لم يستغلوا انتصارهم بشكل فعال ؛ أو بأى منطق إستراتيجى . ولكن بعد ١٨ شهرا إستطاع شهاب الدين أن يأخذ بثأره فى معركه « تارين » الثانية .

وفى النهاية تم له فتح كل السهل الشمالى الهندى . ومر قرنان قبل أن يظهر فاتح عظيم آخر من الشمال الغربى وكان « تيمور المغولى » والذى إجتاح الهندوستان فى خمسة أشهر فى عام ١٣٩٨ ، ناهباً مدينة دلهى ، إلا أنه عاد بعدها إلى عاصمته فى « سمرقند » . وأخيراً

هبط على الهند الحفيد السادس « لتيمور » وهو « بابور النمر » فى عام ١٥٢٥ . وهزم السلطان الأفغانى فى « دلهى » عند « بانيبات » فى عام ١٥٢٦ . وقبل وفاته عام ١٥٣٠ ، كانت مقاطعات « بابور النمر » تمتد من نهر « الأوكسوس » حتى حدود البنغال ، ومن جبال« الهيمالايا » إلى « جوالور » . وقد وضع « بابور النمر » أسس أمبراطورية المغول والتى أتم تكوينها حفيده « أكبر » .

الصاروخ سلاح هندي قديم

وكان الأتراك قادرين على هزيمة الهندوس ، لتمتعهم بشكل خارق بالصفات الحربية الضرورية والتى كان يفتقدها الهندوس . وقد وجدوا فى الهند الرضا والتسامح والذى قابلوه بالإخلاص المتعصب للدين الإسلامى .

وبصرف النظر عن حماسهم كمعتنقين لهذا الدين والذى ينبع من أعماقهم ، فكان الأتراك يتسمون بصفات المجتمع المتماسك المؤمن بالقضاء والقدر والمحتقر للموت ، كما تميزوا بالجديه والاعتدال فى كل نواحى الحياة ، الشىء الذى ينقص كل الهندوس .

وكان الأتراك قوم ذوى طاقة ونشـــاط ، وتوفر لديهم خفة الحركة بركوبهم خيول « تركمانية وعربية» سريعةوقويه . وكانت جيوشهم فى الواقع عبارةعن حشودمن حاملى الأقواس الراكبين ويستخدمون نفس الأسلوب الفعال للايرانيين والهون والمغول . وكان قوسهم المركب لا يقل جودة عن أى سلاح لدى الهندوس وإستخدموه بشكل أكثر تأثيراً ، وتوفرت لديهم الشجاعة مثل الهندوس ، وعلى عكس الهندوس كان الأتراك قادرين على إنتاج الضباط الكبار وعلى درجة عالية من البراعة العسكرية ، ومن حين لأخر ، قادة عباقرة .

أما جوهر الاستراتيجية التركية فكان فى خفةالحركة المسيطر عليها عبر مناطق شاسعة ، أما تكتيكاتهم فكانت عادة كما فى الغرب ، هى قيام حاملوا الأقواس الراكبون بإزعاج وإرهاق العدو بأعمال التطويق والمراوغة من على بعد ثم بعد ذلك إقتناص النصر بهجوم كبير بالفرسان الثقيلة .

وكانت التكتيكات التركية فى معركة « تارين » الثانية طبق الأصل من تكتيكات معركة « مانزكرت » ، وهى نفسها التى اتبعت فى عهد« تيمور » وكان لها أيضاً نفس الأثر .

وكان الأتراك فقدوا باستقرارهم فى الهند تلك الصفات العسكرية التى يتميز بها سكان السهول الواسعة ، وإلى حد ما تأقلموا على ظروف الحياة فى الهند ، وهى حياة القدماء الغير متغيرة . وأكثر من ذلك أن أثر ظهور الأسلحه النارية على حربهم .

وكان جيش « بابور » فى معركة « بانيبات » يختلف عن جيوش أسلافه ، فكان لديه عددا أقل من الفرسان الأتراك بالرغم من أنهم ظلوا يحتفظون بمكانتهم كصفوة القوات ، وكان لديه بعض الواحدات من الهنود المحليين ، والذين قاتلوا بأقواسهم وسيوفهم وحرابهم التقليدية ، كما كان لديه أيضاً مشاة مسلحة ببنادق ذات الفتيل ومدافع صغيرة تحمله على عربات، بينما بقى إستخدام الفيلة . وبالرغم من أن الفرسان أصبح ينظر إليهم بأهمية أكثر من ذى قبل إلا أن خفة الحركة قد إنخفضت .

ومع حلول القرن ١٨ لم يكن الجيش المغولى يختلف فى مسيرته عن طراز الجيش الهندى القديم . وقصة الأسلحة النارية فى الهند تختلف إلى حد ما عن مثيلتها فى الصين واليابان . فالمواد الحارقة مثل النفط فقد عرفت من زمن بعيد ، كما أن الصواريخ سلاح هندى قديم وقد أستخدمت فى الجيش المغولى وأيضاً فى جيوش« المارسا » فى القرن ١٨ .وكان الصاروخ عبارة عن أنبوبة من الحديد طولها قدم واحد وقطرها بوصة واحدة ومثبته إلى عصا من الخيزران ، ويصل مدى الصاروخ الى ١٠٠٠ ياردة ، ومن الطريف أن هذا الصاروخ كان خطراً على مستخدمه بنفس خطورته على العدو . ولكن إذا حدث بطريق الصدفة وأنفجر بين صفوف العدو فقد يشيع الفزع بين القوات الغير مدربة و تجعل الخيل تفر مذعورة أو ربما تتسبب فى إضرام النيران فى معدات العدو. ودخلت المدافع الخفيفة إلى جنوب الهند فى تاريخ مبكر . ففى ستينات القرن ١٤ أستخدمت فى هضبة الدكن بواسطة «راجا فيجاهاناجار» ، وكان طاقمها من الأتراك والأوروبيين . وبعدها أحضر البرتغاليون والأتراك المدافع إلى الهند وبأعدد كبيرة ، ولم ينجح الهنود مثل باقى الآسيويين فى أجادة إستخدام المدافع فى الحرب البحرية (لايعرف سوى القليل عن البحرية الهندية بدرجة أنها لاتستحق محاولة مناقشتها). أما فى الاستخدام البرى للمدفعيه ، فقد أتبع الهنود الأساليب الصغيرة والتى كان يتبعها الأتراك الغربيين. واستخدم «بابور» المدافع بمهارة ومن الأرجح أنها كانت أول مدافع تظهر فى شمال الهند

وكان ذلك فى معركة « سكرى » حيث أستدرج « الرجبوتيين »[1] ليهاجموا موقع محصن تحتله المشاة والمدافع[2] . وكان لدى « بابور » فى عام ١٥٢٦ هاون ضخم والذى أطلق ثلاثة مرات فقط فى المعركة ثم أنفجر بعد ذلك .

وكان الأتراك فى الهند يشاركون أولاد عمهم الغربيين فى ميلهم للمدافع الضخمة ، وقد صنعت بعد ذلك بعض المدافع فى الهند والتى بلغ وزنها ٤٠ وأحيانا ٥٠ طن مترى . وفى النهاية نجح الهنود فى صناعة مدافع متينة ، وأدخلوا فى تكتيكاتهم إستخدام المدافع الخفيفة المحملة على الفيلة والجمال ، وكانت بعض القوات الهندية حتى تمرد عام ١٨٥٧ لازالت تستخدم القوس والسهم بفاعلية مثل البنادق .

وبعد موت « بابور » كان لايزال هناك بعض الهندوس مثل « الراجبوتيون » والمسلمون مثل « الأفغانيون » والذين لم تضعف معنوياتهم بوفاته ، وكانوا على إستعداد لمواصلة القتال للحصول على الاستقلال عندماتظهر أى بارقة ضعف فى قوة المغول . وبعد مدة بدأت تحدث عملية إستيعاب للأجناس وعمليات مختلفة للتحالف السياسى ، وبدأت الجيوش المتقابلةتشابه كل منهما الآخر . ولكن عندما تمسك الاتراك المسلمون بتقاليدهم المميزة كان تفوقهم دائما واضحا ، ولكن عندما بدأوا يفتقدون للعناصر التكتيكية البارعة وأعتمدوا على الفيلة كقوة رئيسية ، بدأوا يلاقون المتاعب .

الفراش واللهب

وفى عام ١٥٦٥ وقعت معركة « تاليكوتا » فى هضبة الدكن ونتج عنها سقوط « فيجا هاناجار » وقيام سلطنة للمسلمين على الهندوس وظهور جيش إسلامى هندى فى أفضل صورة .

وكان « حسين نظام شاة » قائدا بارعا ولم يرهبه تفوق عدوه عليه بأربعة أضعاف ، وعلى كل وضع مدفعيته المتفوقة كثيراً فى الأمام وحجبها عن أعين العدو بواسطة فرسان

---

(١) هم أفراد الطبقة الهندوسية العسكرية الحاكمة وملاك الأرض

(٢) تشبه الخطة التكتيكية وأسلوب جوافزالفو القرطبى « المعرب »

الاتراك من حاملى السهام والذين كانت مهمتهم إغراء العدو بمهاجمتهم . وكانت فرسانه جيدة التجهيز والتدريب ومشكلة فى فرق ولها إحتياطى قوى لتوجيه الضربة الحاسمة الأخيرة . وفى « أورانجذب » فى عامى ١٦٥٨ — ١٦٥٩ حقق ثلاثة إنتصارات[1] على جيوش مشابهة لجيشه ، وكانت مدفعيته المتفوقة وإدراكه التكتيكى يحسمان الموقف لصالحه . كما تكشف إنتصارات الملك نظام فى (« راتانبور » و « بالأبور »عام ١٧٢٠و « شكارخيرا » عام ١٧٢٤ ») نواحى القوة والضعف فى الجيش المقابل . وكان لدى الملك « نظام »مدفعية جيدة وتنظيم فعال وفرسان ممتازين ، وكان أفضلهم حقا هم المسلمون . وكان لديه أيضاً ضباط متمرسين وبارعين ، أما هو فكان تكتيكيا بارعا . وفى معركة « راتانبور » طوى موقع جيش « سيد ديلاور على» حتى قبل بدء القتال ، كما نصب شركا بارعا بالمدفعية . وكان « الراجبوتيون »على درجة كبيرة من الشجاعة ، ولكنهم فى نفس الوقت كانوا على نفس الدرجة من الغباء . وكان تكتيكهم الوحيد هو الأندفاع للأمام فى حشد ، وأكثر من ذلك كانوا مجهزين تجهيزا بدائيا . وبسبب هذه الشجاعة وذلك الأندفاع ، فكانوا عندما يتقدمون نحو عدو مجهز تجهيزا جيداً بالمدفعية ، يضحون بأرواحهم مثل الفراش الذى يندفع نحو اللهب . وكانت قوة صدمه هجوم الراجبوتيون يحتاج دائما من أعدائهم تركيز كل قوتهم الدفاعية ضد فيلتهم ودروعهم ومدفعيتهم .

وعندما تفقد القيادة البارعة فى الجانب التركى ، فكان الميزان يتأرجح فترة طويلة بين الجانبين ، إلا أنه فى النهاية يتحقق النصر بالتفوق فى الأسلحة والإدراك التكتيكى . وحتى جيش « الملك نظام » فقد تشرب بقدر كبير بالصفات الهندية التقليدية . وقد ظهر ذلك عندماهزم « المارسيون » قوات « الملك نظام »نتيجةلقتال« المارسيون »بأسلوب مماثل إلى حد كبير لأسلوب المغول والأتراك الأصليين غزاة الهند ، وكان المارسيون من جنوب غربى الهند وفقراء جداً على عكس سكان الشمال الأغنياء .

وفى منتصف القرن١٧شكلهم«سيفاجى»فى قوةعسكريةجديدة وعندما قاتل ويلينجتون المارسيين عام ١٨٠٣ لم يكونوا على نفس الحال التى كانوا عليهامن قبل . وكان المارسيون فى أفضل

(١) لقد كسب بهذه الأنتصارات عرش دلهى

حالاتهم فى القرن ١٨ ، وتعتبر حملة « بالخد » فى عامى ١٧٢٧ ، ١٧٢٨ والتى تفوق فيها « باجى راو الاول » على « الملك نظام » رائعة فى خفة الحركة الاستراتيجية ، فكان جيش « باجى راو » يتكون كله من قوات راكبة ، ومسلحة بالسيف فقط عدا بعض الوحدات والتى سلحت برمح وقوس ودرع مستدير . وكان لكل فارسين جواد إحتياطى . وتحرك جيشهم بدون أثقال من المدفعية أو المؤن أو حتى المدافع الخفيفة أو الدروع الدفاعية ، وأعتمدوا فى معيشتهم على النهب . وقد حقد « باجى راو » على حكم « الملك نظام » على الدكن ، كما كان متخوفاً من سياسته .

وقد قام « باجى راو » بالضربة الأولى ، ففى أكتوبر عام ١٧٢٧ بمجرد إنتهاء موسم الأمطار ، إقتحم مقاطعة « أساف جاه » المؤيدة لحكم الملك نظام . وتحرك المارسيون الخفاف التجهيز بسرعة كبيرة متجنبين المدن الرئيسية والحصون ، يتعيشون على المنطقة التى يمرون بها فينهبوها ثم يحرقوها . ولم يهزموا سوى مرة واحدة على يد « أيواز خان » (نائب نظام) القائد القدير وذلك فى أوائل نوفمبر .

ولكنهم فى خلال شهر إستعادوا قوتهم كاملة وواصلوا تقدمهم بسرعة شرقاً وشمالاً وغرباً بتغييرات مفاجئة فى إتجاههم . فى ذلك الوقت دفع « الملك نظام » بقواته وتتبعهم بعض الوقت ، ولكن أربكته التحركات الخاطفة والغير متوقعة للعدو حتى أجهدت رجاله . وفى نهاية يناير غير « الملك نظام » من استراتيجيته ، فأوقف تتبع قوات المارسيون المراوغة وإتجه مباشرة إلى قلب أراضيهم حول « بونا » التى إستولى عليها وخربها . وتلقى « باجى راو » رسالة عاجلة للعودة . ولكنه بفهم إستراتيجى جيد لم يعر أى إهتمام لنداءات بلاده وبدلا من العودة قابل حركة « الملك نظام » بحركة مضادة إذ هدد بدوره عاصمة « الملك نظام » وهى : « أورانج أباد » ، وكما كان متوقعاً ترك « الملك نظام » أقليم « بونا » وعاد لينقذ « أورانج أباد » ولم يستولى « باجى راو » على العاصمة تماما ولكنه نهب المنطقة المجاورة . وحاول الملك نظام مرة أخرى أقتناص « باجى راو » حتى هرع المارسيون وطوقوا قواته . وظل « الملك نظام » محافظاً على تماسك قواته ، إلا أنه إستسلم فى مارس ١٧٢٨ لليأس ، وعاد المارسيون إلى ديارهم ، محملين بالغنائم ، وكان من شروط السلام التسليم لهم ببعض مطالبهم الإقليمية .

نهاية الاستعمار الفرنسى فى الهند

ومن الواجب ذكر الحصون فى الهند ، حيث كان بعض حصونهم تماثل فى القوة أفضل حصون أوروبا فى القرون الوسطى .

وأكثر هذه القلاع شهرة التى كانت مقاومة فوق التلال والتى منها على سبيل المثال حصن « ماندو » (فى جوجارات) ويرتفع التل الذى يقع عليه « ماندو » إلى ١٠٠٠ قدم فوق سطح السهل . ويعطى الحصن منظراً قوياً ورهيباً عند النظر إليه من أسفل ، بأسواره القوية ومزاغله وبواباته وخاصة جانبه الجنوبى شديد الإنحدار .

وقد بنيت التحصينات بواسطة « شاه هوشانج غورى » (١٤٠٦ — ١٤٣٥) . ومن الواضح أن تشييدها كان صعباً للغاية نظراً لارتفاع التل ووعورة الأرض .

وتتمثل القوة الرئيسية لحصن « ماندو » فى سوره القوى المزود بشرفات لإطلاق النيران والمبنى من البازالت الرمادى المقام على حافة التل فى نهاية الجرف فوق الخندق المحيط بالحصن وقوى فى نقطة منه بنتوءات وبعدد البوابات المدافع عنها بالقوة الرئيسية لماندو .

ومن أعلى الشرق كانت تجرى قناة واسعة عميقة إلى داخل وسط المدينة ، وكان يحميها ممر مرتفع أطلق عليه « الدرجات السبعمائة » والذى بنى على طول مصبها . أما المدخل الرئيسى فيقع فى الجانب الشمالى حيث يخترق المنحدر الحاد ممر يقع عليه ثلاثة بوابات متتالية .

وأعلى هذه البوابات كانت « بوابة دلهى » وهى قنطرة ضخمة مبنية من الحجر الجيرى الأحمر ، أما البوابتان الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية فكانتا قويتان ، كما أن ممر « تارابور » كان ضيقاً وعميقاً ، وقد ساعد على سهولة الحراسة وجود منعطفات على شكل زاوية قائمة وفى نطاق البوابات .

وكانت الأبواب مصفحة بالحديد وبصفوف من المسامير الحديدية لحمايتها من إقتحام الفيلة . وإذا قدر لمهاجم ودخل الحصن ، فسيتعرض لهجوم من المؤخرة متمثلا فى المدافعين عن السور الغربى .

وتحتوى قلعة « ماندو » نفسها على أماكن ومساجد جميلة وكثيرة ، وكان القرن ١٥ من أبهى وأعظم أزمنتها .

وفى عام ١٥٦٧ إستولى عليها « باهادور[1] » ، ومع حلول القرن ١٧ بدأت مبانيها فى التصدع وإحتاجت إلى ترميم . ومن بين القلاع العديدة المشهورة فى الهند «أجرا» و«داولت أباد» و « مادورا » . ولم يكن فن الحصار الهندى يزيد عن إستخدام المنجانيق، والمدفعية الثقيلة فيما بعد . وكان دائما أعظم الاستراتيجيين الذين مروا على الهند كانوا يتجنبوا التعرض لحصونها الهائلة ويقومون بالألتفاف من حولها .

وأخيراً يجب علينا أن نتعرف على الأوروبيين الأوائل فى الهند . وكان البرتغاليون هم أول القوات التى قدمت إلى الهند . وفى السنوات الأولى من القرن ١٦ ، أنشأ « البوكويرك » أول سلطنه برتغالية واسعة فى الهند معتمدا على التفوق البحرى، وفى القرن ١٧ حل الهولنديون محلهم كأبرز قوة أوروبية فى الهند . وفى ذلك الوقت تزايد عدد الأوروبيين المتطوعين للقيام بخدمات للحكام المحليين الهنود ، وبشكل خاص كصناع للمدافع أو كرجال مدفعية . وفى منتصف القرن ١٨ أصبح الطريق خاليا للصراع الاستعمارى بين بريطانيا وفرنسا ، حيث أصبح الهولنديون فى ذلك الوقت ضعفاء ، كما أن الجيش المغولى أصبح ثقيلا وبطيئا ويفتقر للقيادة البارعة . كما أن أسلوب المارسيون فى الحرب فقد حيويته ، ولم يعد قادراً على الصمود فى وجه قوات مدربة ومجهزة بأحدث الأسلحة النارية . وأستغل الفرنسيون والبريطانيون فى صراعها التفكك السياسى فى الهند .

وكانت القواعد الرئيسية لبريطانيا فى الهند هى « مدراس » و« بومباى » و« كالكوتا » ، أما القواعد الفرنسية الرئيسية فكانت « بوندشيرى » . وكان الفرنسى «جوزيف دوبليكس» أول أوروبى يقوم بتدريب قوات هندية على الطريقه الأوروبية للحرب ، وذلك بأعداد كبيرة وبنجاح كبير . وكان بارعا أيضاً فى الدبلوماسية بين الحكام المحليين الهنود ، وذلك بأكتساب حلفاء له ، وفى نفس الوقت يوقع بين الحكام وبعضهم لصالح فرنسا .

---

(١) حاكم جوجارات

وجاءت حرب الأرث النمساوى فى أوروبا (١٧٤٠—١٧٤٨) لكى تعطى الفرنسيين المبرر لمهاجمة البريطانيين فى الهند . وأستولى « دوبليكس » على « مدراس » . وعلى أى حال لعبت « شركة الهنـــد الشرقية البريطانية » دور الفرنسيين . وبدأ الانجليزى « سترنجر لورنس » فى تكوين قوات من السباهيين[1] . وبرز بعد ذلك الانجليزى « روبرت كايف » كدبلوماسى وكعسكرى أقدر من « دوبليـكس » . ولم يقطع السلام فى أوروبا الصراع الاستعمارى فى الهند . وقد نجح كل من « دوبليـكس » و « دى بوزى » لفترة فى الدكن .

ولكن فى عام ١٧٥١ أثبت « كيف » شجاعته وبراعته فى القيادة بدفاعه البطولى عن « أركوت » بـ ٢٠٠ من البريطانيين و ٦٠٠ من السباهيين . وبحلول عام ١٧٥٦ تغير الموقف ، فقد أستدعى « دوبليـكس » للعودة إلى فرنسا ، وأصبح الفرنسيون بدون قائد بارع . ولاح فى الأفق تهديد ، كان فى نفس الوقت فرصة سانحة عندما جلس « سراج الدولة » على عرش البنغال ، والذى كان ضد البريطانيين ، وأستولى على كالـكوتا بجيش قوته ٥٠٫٠٠٠ رجل ، وقد سجن أسراه فى « القلعة السوداء » المشهورة ، وعاملهم معاملة سيئة . وأنطلق « كايف » على رأس حملة لنجدة المدينة ، وأعلنت الحرب مرة أخرى فى أوروبا ، وصمم « كايف » على إستغلال الفرصة ومتابعة التقدم وأستطاع الإستيلاء على « تشاندرا ناجار »[2] ، وبعدها بدأ يعمل على إضعاف مركز « سراج الدولة » فى البنغال بأثارة نزاع بين حاشيته .

وكانت النتيجة إغراء أحد القادة الـكبار وهو « ميرجافار » الذى وعد بمعاونة الانجليز . وفى بلاسى تقابل « كايف » مع جيش « سراج الدولة » وكان لدى « كايف » حوالى ٨٠٠ أوروبى و ٢٠٠٠ من السباهيين و ٨ قطع من المدفعية فى مقابل ٣٤٠٠٠ جندى مشاة و ١٥٠٠٠ فارس و ٥٣ مدفعا . وكانت الأعداد التى يواجهها « كايف » تدعو إلى اليأس ، إلا أن البريطانيين تمركزوا فى مواقع جيدة فى ستر مزرعه للمانجو ، وحدث بطريق الصدفة أن سقط المطر غزيرا مما أدى تعطيل المدفعية الهندية ، وفجأة أصاب الذعر « سراج الدولة »

(١) القوات الهندية المدربة بواسطه الأوربيين والتى بقيت فى خدمتهم .

(٢) قلعة فرنسية « المعرب »

وأنطلق هاربا . وتولى « ميرجافار » (والذى كان يجلس على الحاجز يراقب الأمور) قيادة عملية الإنسحاب المجهز من قبل .

وكانت القيادة فى الجانب الهندى رديئة لدرجة أن معركة « بلاسى » كانت مجرد مناوشة وبعض أعمال الشغب من حشد مضطرب . وأعقب ذلك إنتصارين آخرين حققهما كل من الأدميرال « بوكوك » و « السير أيركوت » قضيا تماما على الوجود الفرنسى وفتح الطريق أمام توسع السيطرة البريطانية على الشعوب الوطنية فى الهند .

ترقبوا

القرارات المميته

بقلم : — الجنرال س . ل مارشال

ومجموعة من الجنرالات الألمان

تعريب وتعليق : — العميد فتحى عبد الله النمر

يتضمن هذا الكتاب

* شرح الأخطاء العسكرية التكتيكية والأستراتيجية التى أرتكبها هتلر فى الحرب العالمية الثانية وأدت إلى هزيمته .

* لأول مرة فى التاريخ يشترك الجنرالات الألمان مع الجنرالات الأمريكان فى تأليف كتاب .

* ترجم هذا الكتاب إلى أكثر من لغة لأنه المصدر الوحيد الصادق والحقيقى عن أسرار الحرب العالمية الثانية .

* يقع الكتاب فى ستة أجزاء يصدر على أجزاء فى أول كل شهر مع جوائز للقراء . الثمن ١٠ قرش للجزء الواحد

هكذا ينتهى الجزء الخامس من الكتاب ، أما الجزء السادس فضمنه مونتجمرى الآتى : —

العميد فتحى النمر

* أعمدة المجتمع الجديد . . .
* كلاوزفيتر وجومينى . . .
* الآلة الجهنمية . . .
* حرب القرم . . .
* الجرثومة العسكرية . . .
* الحرب الأهلية الأمريكية . . .
* الموت فى سبيل المبدأ . . .
* بؤرة المشاعر الوطنية . . .
* التكنولوجيا العسكرية . . .
* حرب البوير . . .
* الجنرال الأبيض . . .
* الحرب الروسية اليابانية . . .
* حرب لأنهاء الحرب . . .
* خطة شليفن . . .
* غاز المستردة . . .
* صرخات الموتى الأخيرة . . .
* حرب الغواصات . . .
* التخبط الروسى . . .
* سر القطار المغلق المتجه إلى روسيا . . .
* مصطفى كمال أتاتورك . . .
* لورنس والعرب . . .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء السادس .

عميد

فتحى عبد الله النمر

مسابقة القراء

		عدد
الجائزة الأولى :ـ	١٠ جنيهات مصرية	١
الجائزة الثانية :ـ	٣ جنيهات مصرية	٢
الجائزة الثالثة :ـ	٢ جنيه مصرى	٣

١ ـ طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارئ أن يضع علامة (√) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ ـ بعد أن يتم أختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع فى مظروف عليه طابع بريد وترسل فى بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالى :ـ

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ ـ سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ ـ سيتم نشر أسماء الفائزين فى الجزء التالى للكتاب والذى يظهر فى أول كل شهر.

٥ ـ لقد رصد الفيلد مارشال مونتجمرى الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء السبعة التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

أسماء الفائزين فى مسابقة الجزء الرابع

حل المسابقة :—

ج ١ : ٢ — أطغول .

ج ٢ : ١ — إربان .

ج ٣ : ٣ — ٧٠ر٠٠٠ .

ج ٤ : ٢ — دون جوان .

ج ٥ : ١ — جوستاف وتيلى .

ج ٦ : ٢ — ولنشتين .

ج ٧ : ٣ — ٨ مليون فرد .

ج ٨ : ٢ — قرد كرومويل .

ج ٩ : ٣ — سباستيان دى فوبان

ج ١٠ : ١ — مارلبورو

الجـوائز :—

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ٠٢١٢٣

باسـم : شريف عادل عبد العاطى

العنوان : ٨ شارع الجوهرى جسر السويس / الزيتون

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٨٧٨

باسـم : النقيب محمود رضا عبد المطلب

العنوان : الوحدة رقم ٢٦٨٨ ج ٥٨

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٥٠٤

باسـم : أميره منير صالح

العنوان : ١٥ شارع محمد يوسف سليم — مصر الجديدة

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه وعددها ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٤٨٩

باسـم : سعد إبراهيم ميخائيل (القوات المسلحة سابقا)

العنوان : ٥ شـارع باسيلى حنا الله — ألماظة — مصر الجديدة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٤٤٢٩

باسـم : محمد أحمد الليبى

العنوان : ص . ب ٨٤٤ — بنى غازى — ليبيا .

٣ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٤٣٠٨

باسـم : سعيد إبراهيم الأصبغ

العنوان : ص . ب ١٤٢١ الـكويت

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد (عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* ونظراً لوجود بعض القراء خارج جمهورية مصر العربية سيتم إرسال جوائزهم عن طريق البريد الموصى عليه .

* هذا الـكتاب يقع فى سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتجمرى لـكل جزء مسابقة وجوائز مالية لها ، فمن لم يسعده الحظ فإلى اللقاء مع مسابقة جديدة فى الأجزاء التالية التى تظهر فى أول كل شهر .

المســـابقة نمرة ٠٠٢٨١٢

١ — كان أبرز القادة الفرنسيين في حرب « التتابع النمسوي (١٧٤٠ - ١٧٤٨) هو

١ — المركيز دي ساكس .

٢ — لورد أنسون .

٣ — لورد ليجونير .

٢ — من قال هذا : — « ان لحظة واحدة يمكنها ان تحدد مصير المعركة . »

١ — ويلنجتون .

٢ — نابليـون .

٣ — نيلسون .

٣ — كان تعداد القوات الفرنسية في معركة أوسترليتز .

١ — ٦١٫٠٠٠ مقاتل + ١٣٩ مدفعا

٢ — ١٠٠٫٠٠٠ مقاتل + ٢٠٠ مدفعا

٣ — ٩٠٫٠٠٠ مقاتل + ٢٧٨ مدفعا

٤ - التقى ويلنجتون مع نابليون لأول مرة في معركة

١ — كورونا .

٢ — ووترلو .

٣ — أولم .

٥ — « التومان » هي

١ — قوانين جانكيز خان .

٢ — معركة بين المغول والصين

٣ — وحدة تتكون من ١٠٫٠٠٠ رجل

٦ — انتشرت الديانة « الكونفوشيوسية » في

١ — اليابان .

٢ — الهند .

٣ — الصين .

٧ — يمتد سور الصين العظيم حوالى

١ — ٦٠٠ر١ ميل .

٢ — ٨٠٠ ميل .

٣ — ٢٠٠٠ ميل

٨ — هضبة الدكن تقع فى

١ — تركيا .

٢ — الهند .

٣ — اليابان .

٩ — كتاب « الأرزاساسترا » فى الحكم والفه

١ — الموريــا .

٢ — الجــوبتا .

٣ — كوتيليــا .

١٠ — « فدها فدها » عبارة عن

١ — ألقاء الضحية أرضا وسحقها بالقدمين

٢ — التحرك للأمام وللأجناب أو القيام بتحركات متعرجة

٣ — القتال فى تشكيلات

الاسم ________________

العنوان ________________

____

____

رقم الايداع ٤٠٣٨ لسنة ١٩٧٢

المطبعة الفنية الحديثة
٢ شارع الأزهرى بالتوفيقية ت ٨٦٤٨٧١

الحرب عبر التاريخ

A HISTORY OF WARFARE

الجزء السادس

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحي عبد الله النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكليات العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
فى عيد العلم العاشر والحادى عشر

التصديق بالنشر

خطاب رقم ن / م ث / ٦ / ١ / ٢٠٢١

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥٧٩	**الفصل الثامن عشر : بدايات الحرب الحديثة**
٥٧٩	* أعمدة المجتمع الجديد
٥٨٤	* كلاورفتيز وجوميني
٥٨٩	* الآلة الجهنميـة
٥٩٥	* حرب القرم
٦٠١	* فون مولتكه
٦٠٢	* الجرثومة العسكرية
٦٠٨	* التخبط الدامى
٦١٥	* الحرب الأهلية الأمريكية
٦١٨	* الموت فى سبيل المبدأ
٦٢٤	**الفصل التاسع عشر : الدروس القاسية**
٦٢٤	* بؤرة المشاعر الوطنية
٦٢٧	* التكنولوجيا العسكرية
٦٣١	* ظهور الغواصات
٦٣٣	* الحروب الصغيرة
٦٣٦	* حرب البوير
٦٣٩	* الجنرال الأبيض
٦٤٢	* الحرب الروسية اليابانية
٦٤٧	* تأثير القوة البحرية على التاريخ

تابـــع الفهرس

الموضـــوع	الصفحة
الفصل العشرون : الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . .	٦٥٢
* حرب لأنهاء الحرب	٦٥٢
* خطة شليفن	٦٥٦
* غاز المستردة	٦٧٢
* صرخات الموتى الأخـيرة	٦٧٤
* حروب الغواصـات	٦٨٦
* التخبط الروسى	٦٨٩
* القطار المغلق المتجه إلى روسيا	٦٩٣
* مصطفى كمال أتاتورك	٦٩٥
* لورانس والعرب	٦٩٦
* اليوم الأسود للجيش الألمانى	٧٠٤
الخرائط :	
* اللوحة رقم ٤٠ : وسط أوروبا فى القرن ١٩ . .	٦٠٥
* اللوحة رقم ٤١ : معركة جرافيلوت ـ سانت بريفات .	٦١٠
* اللوحة رقم ٤٢ : الحرب الأهلية الأمريكية . .	٦١٩
* اللوحة رقم ٤٣ : البلقان (١٨٧٦ — ١٨٧٨) . .	٦٤٠
* اللوحة رقم ٤٤ : الحرب الروسية اليابانيـة ١٩٠٤ .	٦٤٤
* اللوحة رقم ٤٥ : خطة شليفن والجبهة الغربية .	٦٥٥
* اللوحة رقم ٤٦ : معركة تاننبرج	٦٦٠
* اللوحة رقم ٤٧ : الحرب فى شرق وجنوب شرق أوروبا.	٦٦٦
* اللوحة رقم ٤٨ : الحرب فى الشرق الأوسط . .	٦٩٩

الفصل الثامن عشر

بدايات الحرب الحديثة

اعمدة المجتمع الجديد

وصلنا الآن فى دراستنا للحرب إلى المرحلة التى أصبحت الحرب فيها مهنة إحتراف ومعقدة بدرجة كبيرة . ومع حلول القرن ١٩ بدأت الدلائل تشير إلى إزدياد حدة الحرب وتأثيرها المتزايد على المجتمع . وقد أدت الثورة الصناعية والكثافة السكانية أن المجتمعات نظمت نفسها من الناحية الحربية وبطريقة أكثر تكاملا ، وأصبحت الجيوش مجهزة وأسلحة أكثر قوة عما قبل .

وقد تطور هذا النوع من الحروب بشكل رئيسى بأوروبا وأمريكا ، إلا أنه إنتشر بنفس الشكل بعد ذلك فى جميع بقاع العالم . وفى الواقع شهدت الفترة من ١٨١٥ — ١٨٤٨ سلام نسبى فى أوروبا . وعلى أى حال ، فقد حدثت خلال هذه الفترة تطورات عامة أثرت تأثيراً مباشراً على ظهور الحرب الحديثة . وبدأت الأفكار الإستعمارية والقومية تقوى ، كما إنبثقت التغييرات الثورية فى الجيوش والمعدات مع كبر التعداد السكانى وظهور الوسائل الفنية الجديدة فى الصناعة . وأدت وسائل المواصلات الجديدة إلى زيادة سرعة تقدم الحياة بشكل شامل . وظهر المفكرون العسكريون والسياسيون والذين إستغلوا هذه العوامل بعد أن وضعوا لها مختلف التفسيرات والمبررات . وقبل عام ١٨٤٨ لم تكن هذه التطورات سوى أفكار تجريبية ، إلا أن جرب الكثير منها فى القتال الذى دار فى السنوات العشر اللاحقة تقريباً . وأخيراً حددت الوسائل الجديدة والتى استخدمت فى الصراعين الرئيسيين الكبيرين اللذين حدثا فى القرن ١٩ وهما الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) والحرب الفرنسية — البروسية (١٨٧٠ — ١٨٧١) الطريق إلى ما هو محتمل

حدوثه فى الصدام بين القوى الكبرى ، وهو الإحتمال الذى تحول إلى حقيقة فى النصف الأول من القرن ٢٠ .

وربما كانت أكثر الجذور الإجتماعية أهمية فى التطورات الجديدة هى الزيادة فى تعداد السكان . ففى الفترة من ١٧٥٠ — ١٨٠٠ زاد سكان أوروبا من ١٤٠ مليون إلى ١٧٠ مليون ، وفى عام ١٨٥٠ وصل تعداد سكان أوروبا إلى ٢٧٤ مليون . وفيما بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٧٠ زاد التعداد بنسبة ٣٠ ٪ . وفرضت هذه الزيادة الهائلة من السكان ضغوطاً كبيرة على الحياة الوطنية ، وتواجد سيل متدفق من الهجرات إلى خارج أوروبا ، غربا إلى أمريكا الشمالية حيث وصل التعداد إلى ثلاثة أضعافه بين عامى ١٨٣٠ ، ١٨٧٠ وشرقا إلى آسيا ، وبدون شك قللت هذه الهجرات من التوتر فى أوروبا ولكن من ناحية أخرى أعطت حافزاً للاستعمار . أما الأعداد التى بقيت فى أوروبا فقد وفرت الأيدى العاملة للمصانع الجديدة . وجاء الإنتاج الضخم لهذه المصانع ليحدث تطوراً ثورياً فى صناعة السلاح ، وبالإضافة إلى ذلك توفر عدد كبير من الرجال الصالحين للتجنيد حيث قبل وأقر مبدأ التجنيد العام . ولم يكن تزايد أعداد المجندين بالأمر الهين والسهل لأنه خلق معه مشاكل فى النقل والإمداد وأيضاً فى التحرك التكتيكى للجيوش ، أضف إلى ذلك تزايد تأثير ونفوذ الرأى العام فى تصريف وإدارة الأمور ، والذى برز كعامل جديد تعين على القادة العسكريين والسياسيين أن يضعونه فى حسبانهم . وقد وفر السلم النسبى فى أوروبا بين عامى ١٨١٥ ، ١٨٤٨ الفرصة لأن تحل الأمور سلمياً . وكانت أوروبا تحكم بواسطة حكام محافظين وخاصة مترنيخ (النمسا) والذى تآمر ليحافظ على التسوية الدبلوماسية التى وصل إليها مؤتمر فينا ، وليخمد شعلة القومية والحرية والتحول الإجتماعى . وكان الشاغل الأول للدول الكبرى هو تطوير صناعتها وتجارتها ، وحلت التجارة الحرة محل النظام التجارى المركنتلى [1] فى الشئون الإقتصادية .

وبدا أن مصالح جميع الشعوب المادية تتطلب المعايشة السلمية مع بعضها . وتميزت

---

(١) نظام إقتصادى نشأ فى أوروبا خلال أضمحلال الإقطاع لتعزيز ثروة الدولة عن طريق التنظيم الحكومى الصارم لكل الإقتصاد الوطنى. «المعرب»

العلاقات الإقتصادية بين الدول المنافسة مثل ما تميزت بالإعتماد المتبادل . وفى بريطانيا أعلن الأمير « ألبرت » عند إفتتاحه « المعرض الكبير » فى عام ١٨٥١ عن إعتقاده بقرب تحقيق « الوحدة البشرية » ، وخطط أتباع الفيلسوف « سان سيمون » إلى إعادة تنظيم المجتمع الأوروبى ، ونادوابالمهندسين ورجال المال على أنهم أعمدة المجتمع الجديد والذى هو مجتمع السلام الطبيعى الجديد . وهنا برزت بريطانيا ، كأقوى قوة بعد خروجها منتصرة من الحروب النابوليونية بالإضافة إلى كونها الدولة القائدة فى الثورة الصناعية ، وكان يلائمها تماما أن يسود السلام بقاع العالم . وتكفلت البحرية البريطانية والتى لم يتحداها أحد منذ معركة « الطرف الأغر » بالحفاظ على السلم البريطانى بحراستها للبحار والتدخل لمساعدة القضايا التى تستحق التدخل وعلى سبيل المثال إزالة الرقيق من البرازيل .

الحروب الاستعمارية

وعلى أى حال فلم يتجنب القتال كلية بين عامى ١٨١٥ ، ١٨٤٨ ،فوجدت القومية التى اتخذت من الحرية والرومانسية مخارج فى ثورات عديدة ، ولكن هذه الثورات قهر معظمها على يد القوى الكبرى الإستبدادية . وعلى سبيل المثال ، فقد أخمدت النمسا فى عام ١٨٣١ ثورة فى الولايات البابوية ، وفى نفس العام حطم الروس البولنديين بعد مقاومة مستميتة يائسة فى « أوسترولنكا » . وفى عام ١٨٤٨ إندلعت موجة كبيرة من النشاط الثورى ، وعادت المتاريس للظهور مرة أخرى فى شوارع معظم مدن أوروبا ، وذلك لتوقعات ماركس بحرب طبقية ومبادىء « لامارتين » الجمهورية .

ولكن القوى الرجعية سحقتها بحسم بعد الكثير من حمامات الدم ، وبالرغم من ذلك ، فقد كان هناك تعاطفاً مع بعض الحركات . وقد أيدت الإمبراطورية العثمانية كفاح اليونانيين من أجل الإستقلال ، ولم يكن ذلك التأييد من « بيرون » فقط بل أيضاً من الأسطول البريطانى بقيادة « سير إدوارد كودرنجتون[١] » ، كما كان هناك تعاطفاً مع ثورة بلاد أمريكا الجنوبية لتحرير أنفسها من الإرتباطات الأسبانية والبرتغالية . وكانت هناك حرب لمدة ١٥ عاماً فى جنوب أمريكا والتى حدث خلالها قتال ضارى على الهضبة

(١) الذى دمر القوى البحرية لتركيا وحليفتها مصر فى خليج نافارين عام ١٨٢٧ . « المعرب »

العالية « بيرو » و « بوليفيا الحديثة » . وفى عام ١٨١٦ بدت أسبانيا وكأنها على وشك إستعادة سيطرتها ، ومن ناحية أخرى كان هناك محرران عظيمان هما « جوزيه دى سان مارتين » و « سيمون بوليفار » يجهزان جيوشهما .

وبعد أكثر من عامين من التدريب والتخطيط غزا « سان مارتين » شيلى وذلك من خلال مرتفعات « الأندز » ، ونفذت هذه العملية فى أكثر الظروف مشقة وعلى مواجهة ٥٠٠ ميل . وبعد أن حشد قواته فى إحكام ودقة فاجأ عدوه عند « شاكابوكو » فى فبراير ١٨١٧ . وبعدها حررت « بيرو » بمساعدة أسطول بقيادة بحار بريطانى غريب الأطوار ولكنه جرىء وهو « توماس كوشران » . وفى نفس الوقت فى الشمال ، زحف « بوليفار » ومعه قوة مختلطة من المرتزقة الأجانب خلال السهول الحارة والموحلة لأورينكو » ، ومن فوق القمم العالية الكئيبة القارسة البرد لجبال « الأندز » .

ويمكن كتابة قصة مثيرة عن هذه المغامرات وعن بطولة المحررين ، ولكن كان القتال بعيداً جداً عن ذلك النوع الخاص بالحرب الحديثة . وبصفة عامة فإن نفس الشىء ينطبق على الحروب الإستعمارية ، كما توضح السطور التالية .

ففى هذه الفترة إستأنفت الولايات المتحدة تنفيذ هدفها الجلى وهو مد حدودها إلى الحافة الغربية لقارة أمريكا الشمالية ، إلا أن ذلك أدى إلى حدوث الكثير من القتال وخاصة ضد الهنود الحمر والمكسيكيين . ومن أشهر ما وقع من أحداث خلال هذا القتال ، الدفاع عن « الامو » فى تكساس (١٨٣٦) وصمود اللواء السابع الخيالة الأمريكى بقيادة « كستر » عند نهر « ليتل بيج هورن » فى « مونتانا » (١٨٧٦) ضد قبائل السيوكس والشيني .

وفى جنوب أفريقيا خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن ١٩ أجبر البريطانيون قبائل البوير على ترك « الكاب » والإتجاه شمالا ، وبذلك تورط البوير فى قتال مشوش مضطرب مع قبائل « البانتو المحاربة » .

وقد إلتحمت قبائل « الزولو » فى شكل قوة محاربة رهيبة بواسطة « شاكا » ، ولكن أمكن فى النهاية للبوير بقيادة « بيت رتيف » سحق خليفته « دينجان » عند نهر

« بلود » . وحدث قتال دامى قبل أن يتمكن البريطانيون من قهر « المورى » فى نيوزلندا وذلك فى ستينات القرن ١٩ . وقد إنشغلت القوات البريطانية فى الهند بصفة مستمرة .

وفى عام ١٨٣٧ نشبت الحرب الأفغانية الأولى وبدأت معها حقبة جديدة من الحرب والغزو وإستمرت لمدة ٢٠ عاماً . وكان لابد من تأمين الحدود الشمالية الغربية ، ولذا وضعت السند تحت السيطرة فى عام ١٨٤٣ ، وذلك عندما إستطاع « شارل نابير » ومعه ٣٠٠٠ مقاتل من سحق ٣٠,٠٠٠ بلوخستانى عند « مينى » وقد اعتبرت من أروع إستخدام للأسلحة فى التاريخ الهندى .

وفى عام ١٨٤٩ هزم السيخ عند « جوجرات » ، إلا أن موقف بريطانيا فى الهند تعرض للخطر نتيجة للتمرد الذى قام به الجيش الوطنى فى ما بين عامى ١٨٥٧ — ١٨٥٨ . وحققت الحملات التى كلفت بقمع هذا التمرد بعض الاستخدامات الرائعة للأسلحة وخاصة فى تطهير وسط الهند بواسطة « سير هيوروز » . وأخذ البريطانيون أيضاً السبق فى المنافسة العامة التى دارت بين القوى الأوروبية لإستغلال الصين حيث وقعت حرب الأفيون بين عامى ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ ، وفى ثورة « التاى بنج » فيما بين عامى ١٨٥٠ ، ١٨٦٤ . وبينما هاجم البريطانيون والفرنسيون الصين من الجنوب والشرق ، إختطف الروس ما يمكنهم خطفه فى الشمال والغرب . ولم يعق روسيا ويؤخر عملياتها فى الصين سوى إنشغالها فى البلقان والمقاومة العنيفة لرجال العصابات المسلحين فى القوقاز تحت قيادة الزعيمين المسلمين الباهرين « كاظم الله » و « شاميل » ، إلا أن روسيا كانت تتبع الآن أيضاً خطاً واضحاً للتوسع إلى داخل التركستان وسيبيريا . وتعطى قصة الحروب الإستعمارية فى القرن ١٩ الكثير من الدروس المستفادة وليس فقط فى وصف الشخصيات العظيمة وأعمال البطولة ، بل تروى أيضاً الكثير من الأحداث المثيرة ، فقد أظهر التصادم بين الحروب الأوروبية والبدائية بجلاء أنه لا يمكن للأعداد أو الشجاعة أن تصمد أمام الأسلحة والنظام المتفوقين . ويمكن ملاحظة أن الأهالى الوطنيين فى بقاع العالم بدأوا فى التعلم من تجاربهم الغير سارة ، وأخذوا يصبغون حروبهم بالصبغة الأوروبية .

كما أن هذه الحروب الإستعمارية كانت أيضاً فرصة للأوروبيين أنفسهم ليجربوا

فنونهم وأفكارهم الحربية الجديدة ، ولكن ظل تيار التطور الرئيسى محصوراً فى أوروبا وفى الجزء القديم من الولايات المتحدة الأمريكية .

كلاوزفتز وجوميني

ومع حلول عام ١٨٤٨ إنتهت فترة السلام فى أوروبا وذلك عندما سقط رجال الحكم الذين صنعوا إتفاقية فيننا ، وإنتقل زمام الأمور الآن إلى أيدى رجال أمثال « بالمرستون » و « نابليون الثالث » و « كافور » و « بسمارك » .

ومرة أخرى بدأ نجم القومية يتألق ، وإختل التوازن السياسى عندما بدأت القوى تتطلع بحقد وغيرة إلى الإمبراطورية العثمانية المتداعية . ومن عوامل إختلال التوازن أيضاً اتحاد وألمانيا الذى كان بمثابة التحدى لموقف فرنسا وخلال ١٧ عاماً حدثت أربعة حروب هامة :—

حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) والتى وقعت بين كل من إنجلترا وفرنسا وتركيا متحالفين ضد روسيا ، والحرب الإيطالية فى عام ١٨٥٩ والتى كان الخصمين الرئيسيين فيها هما فرنسا والنمسا ، والحرب بين بروسيا والنمسا فى عام ١٨٦٦ ، والحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ — ١٨٧١) .

وبدأت الحرب الأوروبية الآن تشعر بتأثير النظريات العسكرية التى وضعها كل من « جوميني » و « كلاوزفتز » ، وأيضاً بتأثير الثورة الصناعية والإنفجار السكانى .

وفى القرن ١٩ كان على الفكر العسكرى أن يأخذ فى الاعتبار التطورات الجديدة ذات الأهمية الرئيسية ، ألا وهى الزيادة الهائلة للسكان وإزدياد وقوة القومية وإنتشار المواصلات السريعة وظهور الاختراعات الفنية والإنتاج الغزير .

ويمكن القول بأن الأعوام التالية لعام ١٨١٥ تعتبر فى الحقيقة فترة تفكير عسكرى أصيل ومبدع وحاسم .

وفى عام ١٨٣٢ صدرت الطبعة الأولى من كتاب « فون كلاوزفتز » (فى الحرب[١]) .

---

(١) صدر هذا الكتاب بعد وفاته. « المعرب »

وفى عام ١٨٣٧ ظهر كتاب « هنرى جومينى » « ملخصات لفن الحرب » . وقد أدلى هذين المفكرين بتأملات عميقة لما شاهداه فى الحروب النابوليونية . وقد أصدر « جومينى » السويسرى المولد ، كتابه الأول عن النظريات العسكرية وهو فى سن ٢٥ عاما ، ثم انضم فى عام ١٨٠٥ إلى هيئة أركان المارشال « ناى » وحضر معركة « أوسترلز » . وأثارت عبقريته وغروره حسد « بيرثير » ولذا فقد ترك الفرنسيين لينضم إلى الروس حيث ظل فى خدمتهم لعدة سنوات .

وبعد عام ١٨٢٩ عاش فى بروكسل بقية حياته حيث كتب أعظم كتبه ، وظل ببروكسل حتى توفى بها عام ١٨٦٩ .

أما « كلاوزفتز » فقد إنضم إلى الجيش البروسى فى عام ١٧٩٢ وعمره ١٢ عاماً ، وتولاه بالرعاية « شارنهورست » فى أكاديمية برلين للضباط . وبعد معركة « جينا » (١٨٠٦) تولى كلاوزفتز دوراً رئيسيا فى إصلاح الجيش البروسى . وفى عام ١٨١٥ كان من ضمن ضباط الأركان فى معركة « ووترلو » . ومن عام ١٨١٨ حتى وفاته فى عام ١٨٣٠ ظل مديراً للمدرسة الحربية البروسية . وبالرغم من أن تجارب « كلاوزفتز » و « جومينى » كانت متماثلة إلا أن كلا منهما إستخلص مدخل نظرى مختلف إلى الحرب .

وحيث أن آراء هذين المفكرين كان لها تأثير عميق على التفكير العسكرى فى عصرهما ، وكذلك فى الأعوام الأولى للقرن ٢٠ ، فربما يساعد القارىء الغير العسكرى أن يلم ببعض المعلومات عن ميولها المختلفة نحو الحرب .

فالكتاب الذى وضعه « جومينى » يعتبر أساساً تحليلا فنياً لإدارة الحرب ، إعتمد فيه على دراسته لحملات فردريك الأكبر ونابليون ، إلا أنه لم يوفق فى إدراك أنه بحدوث الثورة وظهور نابليون فقد بزغ عهد جديد على فن الحرب ، كما فاته تفهم ما إستجد من عوامل جديدة فى عصره ، وبالتالى فقد رجع بالفكر العسكرى إلى الوراء أى للقرن ١٨ ، وعلى كل فيعتبر مدخل إلى الفكر العسكرى ، وقد وجد فيه الكثير من العسكريين المحترفين فى القرن ١٩ راحة وأمنا .

وقد ركز كتابه تركيزاً شديداً على الرياضيات أكثر من العوامل المادية والنفسية .

وطبعاً لا يمكن للمرء ، كما تعلمت أنا شخصياً ؛ أن يدير حربا ناجحة بمثل هذه الطريقة .

ورأيي أن « جوميني » فشل فى إدخال العوامل الغير معروفة والغير متوقعة ؛ وبذلك فلم يتمسك بالحقيقة القائلة بأنه « لا يوجد شيء مؤكد فى الحرب سوى شيء واحد فقط ألا وهو أن كل شيء بها غير مؤكد » .

أما كلاوزفتز فقد دخل بطريقة عكسية ، فبالرغم من تعامله بالرياضيات ، إلا أنه كان أكثر تعمقاً فى الحرب كظاهرة إجتماعية ونفسية ، ويرجع ذلك إلى أنه كان لديه تفهم عميق لهذه العوامل. كما بدا له الشعور الإنسانى أكثر إثارة وأعظم أهمية من مجرد الخطوط والزوايا. وقد أدرك أن الحرب لا يمكن فهمها بل لا يمكن عزلها عن حليفتها الاقتصادية والاجتماعية وأيضاً عن دوافع الساسة وحوافز البشر . وكان يؤمن بأن تدمير قوات العدو المسلحة هو الهدف الأول للقيادة ، وأن أفضل وسيلة للوصول إلى ذلك هو بالهجوم المباشر ، (ودعنا من القادة الذين قهروا أعداءهم بدون إراقة دماء) . وقد أكد أهمية الحشد والتركيز فى وسائل نابليون ، ولكنه فاته أهمية الفتح المرن والذى فهمه جيداً نابليون . وقد أرجع الكثير ، المذابح الدموية[1] التى حدثت فى الجبهة الغربية فى حرب ١٤ — ١٩١٨ إلى تفكير كلاوزفتز العسكرى . كما فات على كلاوزفتز مثل « جوميني » بعض النقط الهامة فى تحليله العملى للعمليات ، وربما كان السبب أنه كان يكتب من وجهة نظر بلده ألمانيا . وأيضا غفل عن عامل القوة البحرية ، وفشل فى إعطاء الاهتمام الكافى بعنصر تحرك القوات لتحقيق الحشد وفضل عليه الحشد الفعلى المبدئى .

وفى هذا الصدد كتب : « لا يوجد فى الاستراتيجية قاعدة أكثر بساطة من المحافظة على حشد القوات » .

وفى الفترة التى سبقت مباشرة عصر الآلة ، فإن هذه الملاحظة ، مقترنة بملاحظة أخرى وهى : — «التفوق العددى يصبح كل يوم أكثر حسما » قد أدت إلى الطريق المدمر والذى قاد إلى الأساليب المرعبة والعنيفة الخاصة بحرب ١٤ ، ١٩١٨ . ولكن عندما يتقرر ثم ينفذ كل شيء فإنى أعتبر ليدل هارت على حق عندما أشار إلى أن الكثير من اللوم يجب أن يوجه إلى هؤلاء القادة العسكريين العديمى المؤهلات والذين ترجموا تفكير كلاوزفتز خطأ

(١) كان يسميها ليدل هارت بـ « قبور الطين » «المعرب»

آخذين بدون تغيير جمله المروعة كقرائن وأدلة لهم دون فهم سياق معانيها أو دراسة مبرراتها إلا أنه يجب أن نضع فى الاعتبار أن لغة كلاوزفتز فى الكتابة كانت صعبة الفهم ، وأنا نفسى قد ذكرت فى الفصل الثانى أننى لم أستطع فهمه ولذا لجأت إلى المؤرخين من بلدى .

ومن المؤكد أن كلاوزفتز قد أدرك أن القوة العسكرية ترتبط جزئياً بالقوى الاقتصادية .

وفى الدولة الحديثة فإن كلا من القوة العسكرية والقوة الاقتصادية أمر ضرورى ، ويجب أن يكون هناك توازن دقيق لهاتان القوتان ، وهذه الحقيقة كثيراً ما كنت أثيرها لرؤسائى من السياسيين عندما كنت رئيساً لأركان حرب الجيش البريطانى فى الفترة ١٩٤٦ — ١٩٤٨ ، وأيضاً عندما خدمت فى منظمة الدفاع الغربية خلال الأعوام ١٩٤٨ — ١٩٥٨ .

مباراة فى أختراق السفن

ومع ظهور الثورة الصناعية ، بدأ تيار دافق من الاختراعات فى الأسلحة والمدرعات ووسائل الاتصال والمواصلات . وفى مجال الحرب البحرية ، شهد القرن ١٩ التحول من الشراع إلى البخار . وقد قاوم البريطانيون[1] عملية التحويل هذه لأنه كان لديهم أقوى أسطول شراعى فى العالم ، وبالتالى فسوف يتعرضون لخسارة رهيبة لحدوث أى تغيير . وهكذا فنجد أن الذى قاد هذا الاتجاه الجديد فى تسيير السفن بالبخار هى القوى البحرية الأضعف أى فرنسا والولايات المتحدة .

وحاول المهندس السويدى «جون أريكسون» إثارة إهتمام الأدميرالية البريطانية بالمروحة الدافعة ولكنه لم ينجح ، إلا أن هذه الأداة أخذتها أمريكا ، وفى عام ١٨٤٣ دشنت الولايات المتحدة أول سفينة حربية تسيرها المروحة الدافعة وهى السفينة « البرينكتون[2] » . وأعطتها المحركات البخارية قوى تساوى ٤٠٠ حصان بينما بلغت سرعتها ١٣ عقدة .

---

(١) لقد كان البريطانيون قادة العالم فى تطبيق واستخدام فن البخار فى نواح أخرى غير البحرية.

(٢) وهى سفينة شراعية ذات صار واحد ومجهزة بعشرة مدافع بينما مروحتها بستة ريش. «المعرب»

وتبع ذلك فى أربعينيات القرن ١٩ تغير نظرة كل من فرنسا وبريطانيا للحرب البحرية .

وفى عام ١٨٤٤ أنزلت إلى البحر أول سفينة بريطانية بمروحة دافعة وهى السفينة « الدوينتلس » .

وفى عام ١٨٥٠ أنزلت إلى البحر كل من بريطانيا وفرنسا سفناً من هذا النوع للخدمة مع أساطيلهما . وكانت السفن الحربية الأولى التى تسير بالبخار سفناً ذات مروحة دافعة وبمحركات غير جيدة الصنع وتستهلك كميات كبيرة من الوقود تجعلها دائماً شبه معتمدة على الشراع .

ومع ظهور السفن الحديدية أصبح الأمر محتاجاً إلى محركات أكثر قوة . وفى خمسينيات القرن ١٩ ظهرت المحركات المزدوجة التى تتألف من أسطوانتين أو أكثر ، ومع حلول عام ١٨٧٠ كانت قوة المحرك قد تضاعفت تقريباً ، وفى ذلك العام تخلت البحرية البريطانية تماما عن السفن الشراعية .

وفى عشرينيات القرن ١٩ أدرك ضابط مدفعية فرنسي وهو العقيد « بيكسانس » أن أفضل طريق لجعل الأسطول البريطانى الخشبي بدون قيمة هو تسليح السفن بمدافع تطلق قذائف متفجرة بدلا من الطلقات المصمتة .

وكانت هذه القذيفة الجديدة تشبه قذيفة الهاون ، مملوءة بالبارود وتنفجر بواسطة طابة زمنية ، وكانت تطلق من مسار مسطح من مدفع ، وبالتالى فقد كانت أكثر دقة ، وأظهرت التجارب كفاءة هذه القذيفة الجديدة واستخدمتها البحرية الفرنسية عام ١٨٣٧ وتبعتها البحرية البريطانية والأمريكية . وكان العمل المضاد لإدخال هذه القذيفة هو تزويد السفن بدرع لحمايتها . وأثبتت هذه القديفة فى « سيبستابول » عام ١٨٥٤ فى حرب القرم تأثيراً كبيراً ضد السفن الخشبية حتى أن الفرنسيين والبريطانيين قاموا ببناء بطاريات عائمة مغطاة بألواح حديدية .

وفى عام ١٨٥٧ سار الفرنسيون شوطاً أبعد وبدأوا فى بناء أسطول حديدى . وبنيت أربع سفن من نوع « جلوار » وكانت سفن بخارية خشبية حولت إلى حديدية وذلك بتغطية

جسم السفينة بحزام من الحديد سمكه ٥ سم . وواصلت فرنسا تقدمها فى مجال تطوير السفن التجاربة المصفحة ، ومضت بريطانيا فى أثرها . وحيث أن قذائف المدافع المتفجرة أدت إلى ظهور السفن الحديدية ، فقد كان لا بد بالتالى من جعل نيران المدافع أكثر قوة . ولهذا صمم اريكسون برجاً دائرياً للمدفع ، ومع حلول عام ١٨٧٠ ظهر المدفع ٧ بوصة . والآن أصبحت تكتيكات عصر الشراع عتيقة لا تلائم التطورات الجديدة .

وقد أظهر القتال فى « هامبتون رودس » عام ١٨٦٢ خلال الحرب الأهلية الأمريكية بين السفينتين « الميرماك » و « والمونيتور » قيمة أبراج المدافع التى تدور وذلك فى تحقيق إطلاق النيران من جميع الاتجاهات .

وفى عام ١٨٦٦ تقابل أسطولى إيطاليا والنمسا المتكونان من السفن الحديدية فى معركة « ليسا » فى الأدرياتيك . وجعلت دروع السفن نيران المدافع غير مؤثرة ، وتحولت المعركة لتصبح مباراة فى إختراق السفن وإغراقها أى على نفس نظام الغلايين القديم . وكنتيجة لهاتين العمليتين أدخل الفرنسيون إلى سفنهم برج المدفع الدائرى والعامود المخترق ، وخلال وقت قصير تبعت بحريات أخرى مسار الفرنسيين . وقد تم التغلب على مشاكل الصدأ وبطء الحركة ، ولذلك جاءت نتيجة ربع قرن من التطوير فى السفن الحربية ، السفينة البريطانية «ديفستيشن» والتى دشنت عام ١٨٧٥ . وقد وصفت هذه السفينة بأنها قطعة من التحصينات الغابية لا يمكن إختراقها ، فكأنها أبراج مركبة على منجم فحم مقاتل . وبلغت حمولتها ٩٣٣٠ طن ، والتى كان الدرع يمثل ٢٧ ٪ منها ، وتواجد بها عامود إختراق قوى ، كما حملت ٤ مدافع زنة المدفع ٣٥ طن وذلك فى برجين أماميين وبرجين خلفيين ، وبذلك كان يمكن توجيه النيران لجميع الاتجاهات . أما سرعتها فقد بلغت ١٥ عقدة . وبذلك لم تكن « الديفستيشن » بالهدف الكبير أمام العدو ، وكانت عبارة عن منصة مدافع عائمة لإطلاق النيران .

الالة الجهنمية

كما ظهرت ثلاثة إختراعات أخرى فى الحرب البحرية جديرة بالذكر .

ففى عام ١٨٥٥ قام الروس فى البلطيق بأول إستخدام جدى للألغام العائمة . وفى عام ١٨٦٣ أنزلت إلى البحر أول غواصة إخترعها « برون ليبولنجير » .

وفى عام ١٨٦٤ خلال الحرب الأهلية الأمريكية ، ظهرت الغواصات النصف طافية مع الجنوبيين وأنزلت بسفن الشماليين خسائر فادحة، وكانت تسمى «دافيد». وجرب الأمريكيون فى كلا الجانبين أيضاً إستخدام الطوربيدات والتى ظهر أولها والمسمى « السمكة » فى عام

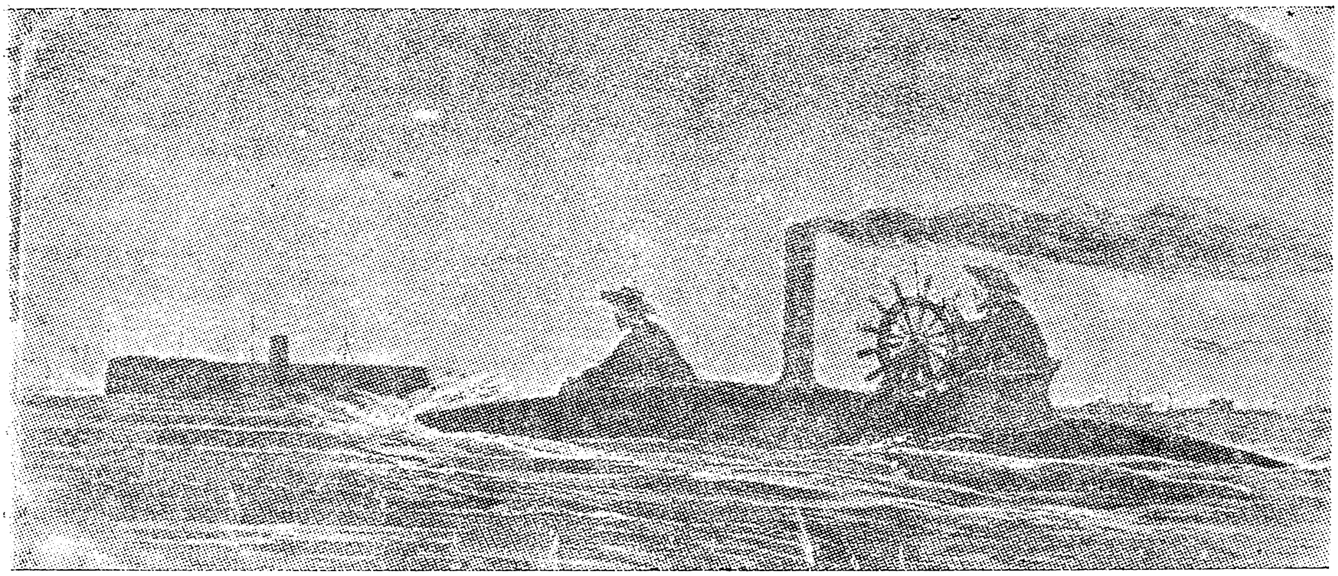

الغواصة « دافيد » نصف طافية التى ظهرت فى الحرب الأهلية الأمريكية مع الجنوبيين

١٨٦٦ . وقد استغلت هذه الاختراعات فى أول الأمر بواسطة دول بحرية صغيرة ، ثم أخذها البريطانيون بعد ذلك . وهكذا فى الوقت الذى كانت فيه الحرب البحرية آخذة فى التغير فى منتصف القرن ١٩ ، حافظت بريطانيا على مكانتها كأقوى قوة بحرية ، إلا أن التغييرات فى التكتيكات البحرية ، لم تكن قد جربت تماما فى صراع رئيسى وفى معارك بحرية كبيرة .

وفوق كل ذلك ، فقد بدأ يحدث مايطلق عليه بسباق التسلح . فكان معظم القرن ١٩ ، ومثله فى القرن ٢٠ ، لم يكن ، كما عبرت عنه كلمات «أوزوالد سبنجلر» سوى «حرب بدون حرب» أى حرب المزايدة فى المعدات والاستعداد ، حرب الأرقام وخفة الحركة والوسائل الفنية. فالتقدم فى المعادن وعلم حركة المقذوفات والهندسة الدقيقة أدى إلى إمكانية إدخال التحسينات على الأسلحة النارية .

وقد كانت بنادق القرن ١٨ وعصر نابليون ذات القدح الصوانى والتى تعمر من الماسورة بطيئة فى التعمير ولا يعتمد عليها فى الجو الممطر ، كما أنها كانت غير دقيقة . وجاءت أول

مرحلة من التحسينات عند التحول من القدح الصوانى إلى الطابة الطرقية والتى كان لا يؤثر فيها البلل . وقد أدخلتها معظم الدول فى بنادقها على عام ١٨٤٢ ، وفى نفس الوقت فهمت وقدرت الدقة الكبيرة الممكن الحصول عليها من المواسير المششخنة . وبدأت التجارب فى كل مكان لإنتاج طلقة مخروطية لتلائم تعمير البندقية المششخنة بحيث تنزلق مارة بالششخنة قبل خروجها من الفوهة .

وفى عام ١٨٥٠ صمم ضابط فرنسى يدعى « مينى » طلقة ذات تجويف عميق فى قاعدتها والتى تملأ بغلاف من الحديد .

وعندما كانت البندقية تطلق الطلقة كانت الأخيرة تتمدد لتملأ جروف ششخنة الماسورة خالقة بذلك أحكاماً ضد تسرب الغاز وكانت هذه الطلقة سهلة التعمير لأنها لا تتطلب حشر الطلقة.

وفى عام ١٨٥٣ إستخدم البريطانيون البندقية « الأنفيلد » والتى تطلق رصاصة « مينى » المعدلة ، ولكنها كانت تعمر من فوهة الماسورة ، وقد إستخدمت هذه البندقية فى حرب القرم

وفى عام ١٨٥٧ كان أحد دوافع التمرد الهندى ، هو إشاعة بأن الطلقات التى صرفت حديثاً للبندقية الأنفيلد كانت مشحمة بدهن البقر (١) . وفى ذلك الوقت أصبحت البنادق ذات مدى أكبر ودقة أكثر بكثير مما قبل ، إلا أن معدل نيرانها ظل بطيئاً لأنها تعمر من فوهة الماسورة .

وفى عام ١٨٣٩ جاء إختراع « جوهان دريزى » فى تعمير البندقية من الخلف خطوة هامة جداً . وفى عام ١٨٤٢ إستخدم البروسيون النوع المعدل من بنادق « دريزى » والمسماه « ببندقية الأبرة » (٢) فى الحرب مع الدانمرك على أرض « سشلسويج — هولستين » (١٨٤٨ — ١٨٤٩) وسروا منها . وأهم ظاهرة للتعمير من الترباس هى إمكان إطلاق نيران أسرع والعمل بسهولة أكثر من وضع الرقود . واكتمل تطور هذه البندقية بإضافة خزنة للطلقات والتى نفذت أولا فى أمريكا خلال الستينيات .

وفى عام ١٨٦٦ إستخدم الفرنسيون بندقية متطورة من النوع الذى يعمر من الخلف .

---

(١) البقر يقدسه الهندوس.

(٢) لقد سميت هكذا بسبب طريقة التفجير وإطلاق الرصاصة . «المعرب»

وقد سميت هذه البندقية على إسم مخترعها « مسيوشا سيبوت » وقد حقق هذا النوع مدى أكبر لعيارها الأصغر وترباسها الأكثر إحكاماً للغاز . وبعدئذ إخترع العقيد الإنجليزى « بوكسر » مظروف نحاس للطلقة والذى يتمدد ليسدالترباس تماماً . وإستخدم البريطانيون فى عام ١٨٧١ هذه الذخيرة للبندقية « المارتينى — هنرى » ، ولم يمض وقتاً طويلا حتى كانت جميع دول أوروبا تقريباً تستخدمها . وفى الحرب الفرنسية — البروسية كانت الجيوش مجهزة عادة ببنادق أكثر دقة ووصل مداها ٢٠٠٠ ياردة[١] ، كما كان فى إمكان هذهالبندقية الجديدة إطلاق معدل عالىمن النيران بواسطة الجنودفىوضع راقداً أووهم واقفين فى الخنادق. وشهدت هذه الفترة تطورات كبيرة فى مضمار الأسلحة المتكررة[٢] الإطلاق وخاصة فى أمريكا .

وفى عام ١٨٣٢ سجل صمويل « كولت » تصميمه لمسدس الذى تدور فيه الساقية عند تعمير الطارق . وفى عام١٨٣٥ أى خلال القتال ضد الهنود« السيمينول »فى فلوريدا ظهرت بوضوح مزايا هذا السلاح . وعرض « كولت » مسدساته المختلفة فى المعرض الكبير بلندن عام ١٨٥١ وباع بعضاً منها للبحرية البريطانية والتى أشترتها من أجل حرب القرم . وفى حوالى نفس الوقت صمم مدفع رشاش فى بلجيكا وكان « مدفع آلى » . وبدأت فرنسا فى إستخدامه قبل نشوب الحرب « الفرنسية — البروسية » بقليل . وفى الحقيقة إنحدر هذا المدفع الرشاش من سلفه المعروف باسم « الآلة الجهنمية » ، وتكون هذا السلاح من عدة أسلحة مركبة معاً وتعمر فى وقت واحد عن طريق إدخال شريط حديدى مثقوب مملوء بالطلقات داخل « مغلاق المؤخرة »[٣] ،

وفى عام ١٨٦٢ صمم « ريتشارد كاتلنج » فى أمريكا مدفعاً رشاشاً أفضل ، ويتكون

---

(١) كان المدى المؤثر سابقا ٦٠٠ ياردة.

(٢) وهى المسدس والبندقية التى يمكن إطلاق النار منها عدة مرات دون الحاجة إلى إعادة التعمير .

(٣) كتلة ترباس مشتركة للكل .

هذا المدفع الرشاش من عدة مواسير تدور حول محور مركزى . وكانت الخزنة عبارة عن خزان فوق المدفع يغذيه بالطلقات التى يدفعها داخل جهاز إعادة التعمير وقذف الطلقات الفارغة ، وذلك بتحريك المستخدم ليد إدارة المواسير .

ويمكن لهذا المدفع أن يطلق ٦٠٠ طلقة فى الدقيقة، وقد استخدم خلال الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) بواسطة كلا الطرفين المتحاربين .

الطلقة ذات المخلب

وقد أحدث التطور فى البنادق من الطابة الطرقية والششخنة والتعمير من الترباس تأثيراً بالغاً فى نفوس رجال المدفعية . وبعد عام ١٨١٥ أجريت تجارب فى أوروبا وأمريكا لإنتاج أسلحة مدفعية مششخنة تعمر من الترباس ، ولكن كانت مشا كل أجهزة التعمير من الترباس ذات ثلاثة أوجه ، فهى أولا تجعل المدفع أثقل وبالتالى أقل فى خفة الحركة ، وثانياً كان إنتاج نظام يحكم ويمنع تسرب الغاز عند الترباس أمراً صعباً ، وأخيراً كان القيام بتغيير أساسى فى المدفعية أمراً مكلفاً للغاية ، إلا أنه أمكن تخطى هذه العقبات تدريجياً فى النصف الثانى من القرن ١٩ . ومع حلول عام ١٩٠٠ كان قد تم تطوير المدافع وهى نفسها التى استخدمت فى حربى ١٤ — ١٩١٨ ، ٣٩ — ١٩٤٥ . وليست قصة هذا التطور هى سرد لتقدم مندفع ولكن كانت عبارة عن سلسلة من الخطوات المترددة والتى عادة ما كانت تنكص على أعقابها .

وفى فرنسا إحتفظ نابليون الثالث لأسباب تتعلق بالتكاليف وخفة الحركة بمدافعه البرونزية القديمة والتى كانت تعمر من الماسورة ، بعد أن عدلهم العقيد « دى بوليى » عام ١٨٤٢ وذلك بزيادة عمق الششخنة وإستخدام الطلقة ذات المخلب . وإستخدم هذا النوع المعدل بنجاح فى معركتى « ماجنيتا » و « سلوفيرينو » عام ١٨٥٩ . وإستخدمت بعد ذلك معظم الدول الأوروبية المدافع التى تعمر من الماسورة عن تلك التى تعمر من الخلف . وفى إنجلترا صمم أخيراً « ويليام أرمسترونج » نظاماً لصنع مدفع يعطى قوة إضافية ولكن بدون إضافة وزن جديد ، وجعل ذلك من السهل التحول للتعمير من الترباس . وكانت طريقة « أرمسترونج » هى تركيب قميص حديدى أسطوانى ساخن فوق الماسورة ، فعندما يبرد

تصبح الماسورة تحت ضغط وبالتالى يسمح للماسورة بتحمل عبوة أكبر . وإستخدمت بريطانيا هذا الإختراع عام ١٨٥٩ ، كما إستخدمت مدافع أرمستروبج عيار ٩رطل و١٢ رطل خلال العمليات فى الصين عام ١٨٦٠ . أما روسيا وبروسيا ففضلتا إستخدام المدافع المصنوعة من الصلب والتى تعمر من الخلف والتى صنعت فى مصانع « كروب » بمدينة « آسن » . وفى عام ١٨٧٠ أعيد تجهيز المدفعية البروسية والتى كانت تعانى الضعف عام ١٨٦٦ عند قتالها مع النمسا ، بإدخال مدافع « كروب » بواسطة المفتش العام الجنرال « فون هندرسون » ، ولكن حتى مدافع كروب هذه لم يثبت صلاحيتها تماماً .

وفى نفس العام وصل البريطانيون إلى أن التعمير من الخلف باهظ التكاليف ومعقدا جداً ولذا فقد عادوا إلى التعمير من الماسورة . وتأكدت صحة النتيجة التى قررها البريطانيون عندما سببت أجهزة الترابيس الخاطئة خسارة فادحة فى هذه المدافع عندما تعطلت عن العمل خلال الحرب الفرنسية ـــ البروسية .

وهكذا كان القرن ١٩ فترة إختراعات فى الأسلحة والدروع وأكثر من ذلك ، فالإختراعات الجديدة إنتشرت فى أوروبا بشكل أسرع من أى وقت مضى . فقد كان الإنتاج الجديد للأسواق المتعددة ظاهرة أساسية للعصر الصناعى الجديد ، كما كان الإنتاج من الفحم والصلب قد أرتفع إلى درجة كبيرة جداً .

وكان « صمويل كولت » مثالا جيداً لنوعية الصانع الجديد ، فقد أنتج بضاعته على نطاق واسع علاوة على أنه كان بائعاً ماهرا. وخلال الحرب الأهلية الأمريكية أشترى منه الشماليين ٣٥٫٠٠٠ مسدس و ١١٣٫٩٨٠ مسكيت و ٧٠٠٠ بندقية . وكان هناك مظهراً آخر للثورة الصناعية وهو تطور المواصلات ، وقد إستمرت عمليات تحسين الطرق والتى بدأت مع نهاية القرن ١٨ كنتيجة لإزدياد سفر الأهالى للعمل والمتعة . ومع منتصف القرن ١٩ كانت أعمال إقامة خطوط السكك الحديدية تسير بخطى واسعة فى كل من أوروبا وأمريكا ، وفى فرنسا كملت معظم الخطوط الرئيسية للسكك الحديدية على عام ١٨٥٩ .أما فى ألمانيا،فقد تم إقامة خط حديدى طوله ٥٤١٠ ميل طبقاًلتخطيط دقيق وضعته الحكومة وتم فى عام ١٨٥٥. وفى الفترة مابين ١٨٣٠ ـ ١٨٦٠ إنتهت أمريكا من إنشاء خطوط للسكة الحديدية طولها ٣٠٫٠٠٠

ميـــــل . وأخـذت شركة السـكة الحديدية أيضـاً مسئولية خـطوط التلغراف والذى أخترعه « مورس » فى عام ١٨٣٢ ، وعلى الخمسينيات تطورت بسرعة شبكة الخطوط فى أوروبا وأمريكا .

حرب القرم

وفى منتصف القرن ١٩ بدأت فترة جديدة من الحرب ، وكان لابد بالتالى من إيجـاد حلول عملية لبعض المشكلات الأساسية المعينة منها : — ماهى القواعد التى ستـكون عليها مبادىء التجنيد والتدريب مع التزايد الـكبير فى أعداد الرجال ؟

هل يتعين تزويد كل هذه الأعداد بالأسلحة الجديدة ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما هو الدور التـكتيكى للمشاة المسلحة بالبنادق وأيضاً المدفعية ؟ وماهو الدورالتى ستلعبه الفرسان ؟ كيف يتم تدريب الضباط ؟ كيف ستؤثر المواصلات الجديدة على التخطيط الإستراتيجى وخاصة السكة الحديد ؟ تلك المشا كل التى واجهها القادة العسكريين لأوروبا ، بينما تحركوا إلى العصر الحديث ببطء وعلى مضض . ففى الفترة السابقة لعام ١٨٤٨ ،لم يحدث أى حرب كبيرة ، حيث التهديد الرئيسى للحكم كان يأتى من الداخل فى شكل ثورات تحررية ، وكانت مهمة الجيوش بالتالى هى المحافظة على السلام فى داخل البلد .

فقد كان يفضل إبقاء الجيوش صغيرة حتى لاتعديها الأفـكار الثورية . وهـكذا أنقص الحجم الـكبير للقوات الوطنية التى عملت خلال الفترة النابليونية لتصبح الآن جيوشاً محترفة صغيرة . ومن كل القوى الـكبرى لم تحتفظ سوى روسيا وبروسيا فقط بمبدأ الجيوش الضخمة ، وكانوا يؤمنون ، كما أومن أنا ، بأنه لا يمـكن أن يكون لديك جيشاً جيداً بدون مشاه جيدة . وأ كثر من ذلك ، فطالما ظل الطراز القديم للجيش يحقق نجاحاً فى ميدان القتال فى أى صورة ، كلمازاد ذلك من تأييد نزعة مقاومة التجديد . وعلى أى حال فلم تـكن السنوات مابين ١٨٣٠ — ١٨٦٠ خالية من العسكريين الأكفاء . وفى الحرب الإيطالية (١٨٤٨ — ١٨٤٩) أظهر الفيلد مارشال راديتزكى (القائد النمساوى) أنه وجيشه أكفاء وقادرين للغاية . فعندما أنفجرت الثورة فى شمال إيطاليا فى عام ١٨٤٨ كان لدى « راديتزكى » قوات قليلة نسبياً علاوة

على تفرقها فى مناطق مختلفة ، ولـكنه تفادى بتحركات سريعة ونشطة تـكتيكات العدو لتطويق قواته ، ثم جمع قواته ليوجه عدة ضربات متتالية للقوات المعادية .

وبعد إخلائه لميلانو تجنباً الوقوع فى الفخ ، تعمد الحفاظ على بقاء قوات البيدمونتيين فى مربع المدن المحصنة : — « مانتو » و « بيسشيرا » و « فيرونا » و « ليجنانو » . وعندما تم له تعزيز قواته أبقى « البيدمونتيين » مقيدين وخاضعين للمراقبة بينما تحرك شرقاً ليدمر القوات البابوية والنابولية والمتركزة على خط مواصلاته بالقرب من فسينزا ، ومن ثم طهر وادى رينتا ، ثم تحول ثانية ضد « البيدمونتيين » بعد حشده لقوات كبيرة وبسرعة لاختراق جبهتهم عند « كوستوذا » . ولم يكتف بهزيمتهم على هذه الجبهة بل تابع إنتصاره بدفعهم أمامه إلى منطقتهم وأعاد إحتلال ميلانو بعد ٤ شهور لتركه لها . وإنفجرت الثورة مرة أخرى فى العام التالى ، ونفذ « راديتزكى » سلسلة مشابهة لتلك المناورات المؤثرة التى مكنته من إخماد الثورة . وإنتهت مناورات هذا العام أيضاً بإنتصاره عند « نوفارا » . وربما كان الأكثر إثارة من هذه الإنتصارات أن الفيلد مارشال النمساوى كان يبلغ من العمر ٨٢ عاماً . وقد أظهرت أيضاً إنجازات « جاريبالدى » وفرقة القمصان الحمراء التابعة له ، أنه لايزال الأفضل العمل بدون الجيوش الـكثيفة ، ومنها : — إنتصـــارات « سيرو » و « سانت أنتونيو » فى ١٨٤٦ والتى أكدت إستقلال « أرجواى » ، وتقهقره الماهر خلال وسط إيطاليا فى ١٨٤٩ والإستيلاء على صقليه ونابولى فى ١٨٦٠ .

أما الجيش الفرنسى ، فقد كان لديه أسطورة نابليون ، وسجل حافل بالنجاح على مدى ٣٠ عاماً فى أفريقيا الأمر الذى جعله يقنع نفسه بأنه لايقهر . وقد أرسلت أول حملة فرنسية إلى الجزائر عام ١٨٣٠ والتى كانت منظمة بطريقة بطيئة وعلى شـكل قولات ، وقد واجهت المتاعب عند إصطدامها بالقوات الوطنية الخفيفة الحركة والتى قادها الأمير « عبد القادر » ، ولـكن تحول المد فى عام ١٨٣٦ نتيجة لحملة « بوجود » فى غربى الجزائر والتى إستغرقت ستة أسابيع .

وكانت طريقة القائد الفرنسى « بوجود » هى القيام باندفاعات هجومية سريعة بأرتال سريعة ومجهزة بمعدات خفيفة وتحمل إمداداتها على ظهور الدواب . وبعد عام ١٨٤٠ عندما

أصبح حاكما عاماً طبق وسيلته هذه بتركيز أكبر ونجاح أكثر . ووفرت أفكاره عن الحرب فى أفريقيا كتيب نفع أجيالا من الجنود الفرنسيين المستعمرين . وظهرت فى أفريقيا أنواع جديدة من الكتائب مثل :— «زواى[1]»و«يتركوس»و« سباهى»[2]و«شوسيردى أفريك[3]» . وحافظ جنود فرنسا على سمعتهم نتيجة لشجاعتهم .

وناقضت أيضاً وسائل القادة النشطة أمثال «بوجود»و«كاروبورت» و«ما كاهون» و «يوربا كى» عقلية القادة البريطانيين والألمان لتلك الأيام والتى نقصها الأفكار الحية . وأبلت القوات الفرنسية فى حرب القرم بلاءاحسنا أفضل من بلاد باقى الأمم . وأظهرت المشاة الفرنسية فى تشكيلات إشتبا كها بطريقة القناصة خلال الحرب الإيطالية عام ١٨٥٦ خفة حركة وذكاء مثيرين . وبالرغم من إضطراب القيادة فى «سولفرينو» فقد أكتسحت المشاة الفرنسية المهاجمة النمساويين أمامهم قبل أن تتمكن الأخيرة من إطلاق نيران بنادقها . ومع ذلك فحرب القرم، والحرب الفرنسية — النمساوية لعام ١٨٥٩ فى إيطاليا كشفتا النقاب عن حالة غير مرضية للأمور فى كل الجيوش والتى كان لا يمكن تجاهلها لمدة أطول . وفى الحقيقة وفرت حرب القرم درساً هادفاً فى كيفية إشعال الحرب بدون إستعداد . فقد كان التنظيم الإدارى فى كلا الجانبين مهلكا . وأرسل الحلفاء حملة بحرية للأستيلاء على سيباستبول بدون عمل أستطلاع مقدما الماء على كلا جانبى البرزخ والذى كان ضحلا بدرجة لا يسمح لسفنهم بالرسو . ولم يكن لدى البريطانيين أى وسائل لنقل الطعام والذخيرة ، وعانت القوات بشكل واضح من نقص التجهيزات اللازمة لحملة شتوية

وكانت حرب القرم أول حرب أستخدم فيها التلغراف ، إلا أنه لم يخفف من التخبط فى الشئون الإدارية والاستراتيجية . وقد كشفت هذه الحرب الضعف المذهل فى الجيوش المحترفة للقوى الكبرى . وفقد أدى التخبط التكتيكى إلى واحد من أكبر الكوارث

(١) مشاة فرنسية كانت مشكلة فى الأصل من جنود جزائريين يرتدون ملابس شرقية مزركشة
(٢) فرسان بجيش السلطان العثمانى الخاص
(٣) قناصة أفريقيا

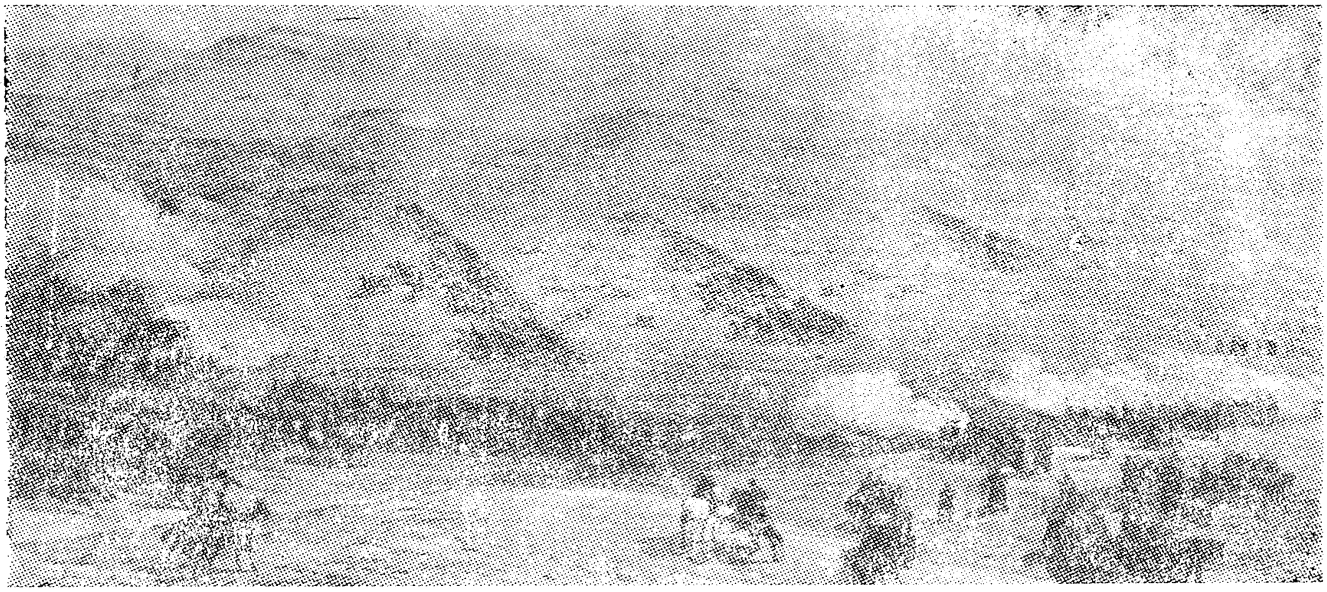

هجوم اللواء البريطانى على « با كلافا »

العسكرية شهرة على مر الزمن ، وهو هجوم اللواء البريطانى الخفيف عند « با كلافا » بينما المدفعية الروسية تقصفه من ثلاثة جهات ، والتى علق عليها الجنرال الفرنسى « بوسكيت » والذى شاهد عملية الهجوم بقوله : — «كان ما حدث رائعاً ولكنه لم يكن حرباً على الأطلاق».

وكانت حرب القرم واحدة من أكثر الحملات سوءا فى الإدارة فى كل التاريخ المسجل ، ولم يقدم الفرنسيون تحت قيادة نابليون الثالث فى عام ١٨٥٩ عرضاً أفضل . ففى الحقيقة حركوا قواتهم إلى إيطاليا بسرعة مستخدمين السكة الحديد ، ولكن بدون تجهيز الأمدادات الملائمة فلم يكن لدى الوحدات الأولى أغطية ولا معدات للطهى أو ذخيرة .

وإحتاج الأمر لتمزيق القمصان لربط الجروح عند « سولفرينو » ، بينما كانت المعدات الطبية فى نفس الوقت مكدسة على أرصفة جنوة . وكان أحد الأسباب وراء الخسائر الفادحة فى الأرواح عند « سولفرينو » هى أنها كانت ببساطة معركة تصادمية . وهو حدث نادر الحدوث فى تاريخ الحروب فى ذلك الوقت ، فلم يتوقع كلا الجانبين أن يضطروا للقتال الفورى. وقد كان المعدل الرهيب للخسائر فى الأرواح فى هذه الحروب بمثابة النداء الذى أحدث الثورة فى الخدمات الطبية .

وفى القرم ، أرسلت بريطانيا وفرنسا جيوشاً وصل عددها إلى ٤٠٥٫٠٠٠ رجل ، قتل

منهم فى الحرب ٢٥ر٦٠٠ بينما مات ٣٨ر٨٠٠ من الأمراض. وهرعت « فلورنس نيتيانجل » تاركة عزلتها من شارع هارلى لتذهب ومعها ٣٨ ممرضة مدربة ليمرضن القوات فى القرم ، وتلك كانت من أحد النتائج الملحوظة لهذه الحرب وهى التقدم الكبير نحو تحرير المرأة. وقد شاهدت كل حرب منذ ذلك الوقت مكسباً ملحوظاً للنساء فى موضوع التحرر الاجتماعى والمسئولية العامة . وكنتيجة لجهود أحد رجال البنوك السويسرية المحبين للسلام وخير البشرية وهو « هنرى دونانت » والذى تأثر بعمل « فلوانس نيتيانجل » وروعه المذبحة التى حدثت فى « سولفرينو » فقد أسست « لجنة الصليب الأحمر الدوليـة » . ووافقت ١٢ دولة على إتفاقية جنيف الأولى فى عام ١٨٦٤ . وخلال الحرب الفرنسية — البروسية عنى الصليب الأحمر بأكثر من نصف مليون مريض وجريح .

مدرسة تدريب كل الدولة على الحرب

وفى الفترة التى تلت عام ١٨٥٩ ، كان أكثر الجيوش فى سرعة الأصلاح والكفاءة هو الجيش الألمانى . ولم تتورط بروسيا فى الحرب الإيطالية عام ١٨٥٩ ، ولكنها راقبت سير الحوادث باهتمام . وكان من المنتظر أن تكسب كسباً سياسياً نتيجة إنهيار أحد الأطراف الرئيسية فى الصراع وهما فرنسا والنمسا . وكان الكثير من البروسيين يدركون أن حالة جيشهم لن تمكنهم من ذلك نتيجة لصغر الجيش البروسى المحترف ، كما أن الميليشيا كانت مستاءة سياسياً ومدربة جزئياً . وعلى أى حال ، ففى عام ١٨٥٨ أصبح الأمير ويليام وصياً على شقيقه المجنون ، وأدخل ويليام إلى الحكومة البروسية حماساً بعقله المحترف والذى يهوى الأمور العسكرية ويمكن مقارنته بالنظام الذى وضعه فريدريك وويليام الأول .

وتحت حكم ويليام ظهر ثلاثة رجال وصلوا إلى السمو ، وحافظ هؤلاء الرجال على بروسيا كدولة عسكرية إستبدادية ، كما حققوا لها السيادة السياسية فى التحالف الألمانى . وهؤلاء الثلاثة هم : — « فون رون » وزير الحرب بعد عام ١٨٥٩ ، و « فون مولتكه » رئيس الأركان العامة ، ورئيسهم السياسى « فون بسمارك » والذى شغل منصب رئيس الوزراء من عام ١٨٦٢ . وقرر « ويليام » و « رون » زيادة قوات بروسيا عدديا مع إحترافها . وكانت وسيلتهم فى ذلك جعل الخدمة العسكرية لمدة طويلة وإجبارية مع إنفاق أموال أكثر

على المعدات والتدريب. وقرر الوصى : — « إن الضبط والربط والطاعة العمياء أمور يمكن غرسها وإعطائها الدوام بواسطة طول التعود فقط » . وأخذ الأمر منهما عدة سنوات حتى حصلا على مايرغبان فيه من الجمهور . وتعمد بسمارك إستخدام الحرب كأداة لسياسته . وكانت نتائج حروبه المتعمدة مع الدانمرك (١٨٦٤) والنمسا (١٨٦٦) وفرنسا (١٨٧٠) توحيد ألمانيا تحت القيادة البروسية ، كما أنها أصبحت أيضاً قوة صناعية رئيسية . وفى عام ١٨٦٨ ظهر إلى الوجود جيش الاتحاد الألمانى الشمالى . وقد أقنعت الدول العديدة والمستقلة إسميا والتابعة للاتحاد على تتبع الخط البروسى ، وكان إلتزام ولكن لم يكن الحماس له متكافئاً بين دول الإتحاد على أى حال ، وكانت نسبته مرضية . ووضع التعهد الإلزامى العام بالخدمة العسكرية موضع التنفيذ ، ووصف الجيش بأنه « مدرسة لتدريب كل الدولة على الحرب » . وكانت الخدمة فى القوات المسلحة العاملة ثلاث سنوات تبدأ من سن ٢٠ ، يقضى بعدها المجندون أربع سنوات أخرى فى خـــدمة الإحتياط، ثم ينقلون بعدها إلى صفوف الجيش الدفاع الشعبى أو الميليشيا . وكانت مـدة الخدمـة فى جيش الدفاع الشعبى خمسة سنوات .

وقد أشرفت القوات المسلحة إشرافا كبيراً على جيش الدفاع الشعبى وكان الأخير فى الحقيقة جيشاً إحتياطياً ثانياً . وعندما جاءت التجربة العملية عام ١٨٧٠ وضع « رون » فى الميدان أكثر من مليون ضابط وجندى ، وسلحت المشاة بالبندقية « دريزى » والتى ظهرت كفائتها فى عام ١٨٦٦ أى عندما أطلق البروسيون ستة طلقات مقابل كل طلقه واحدة أطلقها النمساويون ، وبالتالى فقد أكتسح البروسيون النمساويين فى الميدان عند « سادوا » ، كما سلح الجيش أيضاً بأحدث مدافع أنتجتها مصانع كروب ، وكانت هذه مدافع تعمر من الترباس . وعلى أى حال فلم يكن حجم الجيش ميزة بدون التنظيم الكفء . وكانت عمليات التدريب والتعبئة وفتح القوات وإمدادها تمثل مشاكل ضخمة. ولذلك فقد أصبحت القيادات على جانب كبير من الأهمية وفى شكل لم يعهد من قبل . كما كان على التنظيم القيادى أن يأخذ فى إعتباره المساحات المتزايدة والتى أصبحت تجرى عليها العمليات نتيجة لكبر حجم الجيوش وتوزيع القوات الإستراتيجية وهى أمور جعلته السكة الحديد ممكنة ، هذا بالإضافة إلى

الإنتشار التكتيكى الشىء الذى جملته نيران البنادق ضرورة ملحة . وأصبح ولابد من تفويض القادة المرؤوسين مسئوليات أكبر ، كما أنه أصبح من الضرورى أن يستجيب هؤلاء لأفكار ووسائل قادتهم الأعلى وفى نفس الوقت دون إعاقة لمبادأتهم .

وأصبحت الآن مشاكل الأمداد والمواصلات مشكلات فنية مما أستلزمت الإحتياج إلى خبراء فى كل ميدان ، ولكن كان لدى الجيش البروسى فى رئاسة أركانه مجموعة من الخبراء المهرة القادرين على التعامل مع كل المشاكل المتعلقة بالتدريب والتخطيط والمواصلات .

فون مولتكة

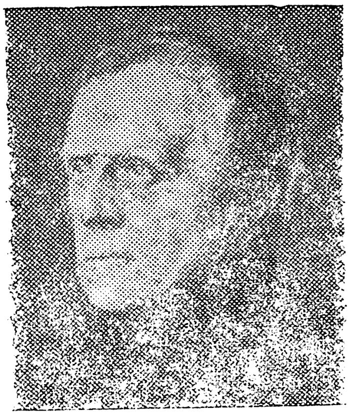

وفى عام ١٨٥٧ ، عين فون مولتكه رئيساً لأركان الجيش البروسى .

وكان ذكاءه وفطنته لامعين ، بالإضافة إلى فهمه العميق لمهام وأعمال الأركان حرب ، ووجه كل إهتمامه الشخصى إلى عمله مستغلا مستواه العالى .

ونظر إليه مرؤوسية كمثلهم الأعلى ، وكان رجلا على ثقافة عالية وعلى درجة عنيفة من الضبط والربط . ودرب مولتكه ضباط الأركان حرب فى الجيش الألمانى حسب ماأوحت له مخيلته. وكان يختار كل عام ١٢ من خيرة خريجى أكاديمية الأركان ويدربهم تدريباً خاصاً ؛ بحيث يعملون بعد ذلك تحت إشراف مولتكه الشخصى ، وكل من لايثبت جدارته ينقل إلى الوحدات .

فون مولتكه

ولكن كان يتعين على كل ضباط الأركان حرب أن يمضوا فترة بسيطة مع جنود وحداتهم قبل حصولهم على أية ترقيات ، وبذلك لم تكن الصلة مقطوعة بين ضباط الأركان حرب وجنودهم . وقد نفذت أفكار مولتكة إلى عقول كل أفراد الجيش ، حتى أنه مع عام ١٨٧٠ وصل الجميع إلى ما كان يسعى إليه . كما أتم تدريب معظم قادة الألوية والفرق تحت إشرافه ، هذا علاوة على وضع رئيس أركان مؤهل بجوار كل قائد جيش أو فيلق .

ولقد كانت عملية تدريب الأركانات حرب وقادة الجيش من أعظم الأدوار التى شارك بها مولتكه فى الحروب التى تعين على بلاده أن تخوضها ، وكان لهذا التدريب أهمية كبيرة عندما جاء الوقت لوضع خطط الحرب . وتضمنت هذه الخطط التعبئة السريعة الفعالة للجيش ، والعمل الكفء المنتظم للسكة الحديد ، والفتح التعبوى للجيش لمقابلة أى أخطار خارجية . وعلى عام ١٨٦٦ كان مولتكه قد حقق درجة عالية من اللامركزية فى خطط التعبئة ، وعلى عام ١٨٧٠ كان جهاز التعبئة قد بلغ حد الكمال ، فقد كان قد تم تلقين قادة الفيالق تماماً .

وتوفرت لدى كل وحدة فى الجيش العامل والدفاع الشعبي وإدارات الأمداد والمواصلات أوامر كاملة والتى لاتحتاج للبدء فى تنفيذها إلا لمجرد توقيت وكلمة كودية فقط . وأدرك البروسيون منذ وقت طويل أهمية السكة الحديد ، ولذا كانت الإعتبارات الإستراتيجية فى ذهنهم عند إنشائهم الكثير من شبكات السكة الحديد .

وفى حملة النمسا عام ١٨٦٦ ، وقع البروسيون فى نفس الأخطاء التى وقع فيها من قبلهم الفرنسيين فى إيطاليا عام ١٨٥٩ حيث فشلوا فى التنسيق بين تحرك القوات والإمدادات بالسكة الحديد ، إلا أن مولتكة تعلم من هذه الأخطاء .

وأقيمت إدارة خاصة (إدارة خطوط المواصلات) فى رئاسة الأركان تحت قيادة أحد معاونيه الرئيسيين .

وفى عام ١٨٧٠ كانت التعبئة بوسائل السكة الحديد ناجحة بدرجة كبيرة بالرغم من تشابك خطوط الأمداد وإزدحامها فى بعض النقط . ومن عام ١٨٥٨ إلى ١٨٨٠ لم يكف مولتكه عن تطوير وتعديل خططه بإستمرار وجعلها حديثة مع تنسيق فى نفس الوقت أعمال أركانه وإداراته . وفى الواقع كانت بروسيا قادرة فى أى دقيقة على التعبئة وفتح جيشها لتسديد ضربة إتجاه أى من أعدائها الرئيسيين وهم فرنسا والنمسا وروسيا .

الجرثومة العسكرية

أما فى فرنسا ، فبدأ الإصلاح العسكرى متأخراً عن بروسيا . وحاول الفرنسيون بعد

حملتهم الإيطالية عام ١٨٥٩ إقناع أنفسهم لفترة بأن كل شيء فى حالة جيدة وبدرجة كافية ، على الرغم من أن ضعف الجيش الفرنسي فى تلك الحملة كان واضحاً جداً أمام أعين الألمان خلف الراين . ولم يمض فترة طويلة حتى جاءت لحظة اليقظة من ذلك الوهم عندما شاهد الفرنسيون ما قام به البروسيون ضد النمسا عام ١٨٦٦ ، بالإضافة إلى الظواهر الأكثر سوءاً وضعفاً للتدخل الفرنسي فى الشئون المكسيكية فيما بين عامى ١٨٦١ و ١٨٦٧ . ومن عام ١٨٦٦ عمل نابليون الثالث والمارشال نيل وزير الحرب لتوصيل الجيش الفرنسي إلى المستوى البروسي ، إلا أن عمليات الإصلاح هذه تعين عليها مواجهة معارضة داخلية وكان ذلك بدرجة أكثر مما حدث فى بروسيا حيث كان نظام الحكم فى فرنسا أكثر تحرراً ، وبالتالى كان لا يمكن تجاهل الرأى العام الفرنسي بنفس طريقة بروسيا . وقد أدت الأزياء الزاهية وإنتقال القوات الرومانتيكى إلى أنحاء العالم البعيدة ، إلى بعث بعض مشاعر عصر نابليون الأول . ولكن ظل الرأى العام الفرنسي حذراً . وإهتمت الطبقات المتوسطة قبل كل شيء بالثراء والسلام وبالتالى لم يكن الجيش مقبولا إلا إذا كانت نفقاته لا تحتاج إلى أموال إضافية ، وأيضاً إذا كان يمكن لمن يرغب فى تجنبه فعل ذلك .

ومنذ عام ١٨١٨ كان مسموحاً للمجندين فى فرنسا بارسال بديل، وكنتيجة لذلك أصبح الجيش بمعزل عن الأمة بينما كان عنصر الضباط فى نفس الوقت محتقراً . وفى عام ١٨٦٦ تنبهت السلطات الفرنسية إلى المشكلة ووجدت أنه بينما تستطيع بروسيا أدخال ١٫٢٠٠٠٠٠ جندى مدرب إلى القتال ، كانت فرنسا لا تستطيع دفع سوى ٢٨٠٠٠٠ رجل فقط ، كما يجب سحب جزء من هذه القوات الصغيرة لمقابلة الإحتياجات فى الجزائر وإيطاليا والمكسيك .

إلا أنه عندما إقترح « نيل » تطبيق نظام التجنيد العام بنفس النظام المتبع فى بروسيا إتهمته الجمعية التشريعية بإنه يريد تحويل فرنسا إلى معسكرات . وكان رده على ذلك بأنه إذا لم يأخذ الفرنسيون حذرهم فسوف تتحول فرنسا إلى مقابر . وفى يناير ١٨٦٨ سن قانون جديد يستدعى بمقتضاه إلى الخدمة العسكرية سنوياً ١٧٢٠٠٠ رجلا ولمدة خمسة سنوات عاملة وأربعة سنوات فى الخدمة الإحتياطية

وكان هذا النظام من المفروض أن يوفر على عام ١٨٧٥ قوة معبأة للجيش مقدارها ٨٠٠٫٠٠٠ رجل ، كما سيدرب أيضاً ٥٠٠٫٠٠٠ فرد آخر والذين سيأخذون ممن هربوا من الإستدعاء للعمل فى « الحرس المتنقل » وهؤلاء كانوا يعادلون جيش الدفاع الشعبي البروسى. ودار جدل طويل حول إقتراح المارشال « نيل » ولكن خفف النواب إقتراح نيل بدرجة أن الشبه بين القانون المقرر وإقتراح نيل أصبح ضعيفاً . وظلت مدة الخدمة خمسة سنوات ، ولكن فترة التدريب السنوية كانت أسبوعين فقط ، وحتى هذه كان يمكن بسهولة تجنبها. ولتجنب جرثومة العسكرية فقد حدد بأن يكون تدريب الرجال يوما واحداً فقط فى كل مرة وفى بعض الظروف كان يمكن للمجندين من العودة إلى منازلهم فى المساء . وبعدموت نيل عام ١٨٧٩ نبذ خلفه الجنرال « ليبويف » موضوع « الحرس المتنقل » .

ومع حلول ١٨٦٠ أصبح لدى فرنسا جيشاً محترفا قوامه حوالى نصف مليون جندى . وبالتأكيد كان الجيش مجهزاً جيداً ، وتواجدت كميات وافرة من الملابس والطعام والذخيرة . وتم صنع مليون بندقية من نوع « شاسيبوت » ، وبالرغم من أن المدفعية لم تكن قد أعيد تجهيزها إلا أن ما تواجـــد منها لم يكن بأى حال سيئاً . ومن ناحية أخرى وبالرغم من التحذيرات المستمرة من الملحق العسكرى الفرنسى فى برلين ، فلم يبدأ الفرنسيون إلا بشق الأنفس العمل على تطوير مجالات أعمال الأركان حرب والتى أصبح الجيش البروسى فيها الآن ممتازاً ، وعلى سبيل المثال ، تدريب الضباط وتنظيم الأمداد والمواصلات بالسكة الحديد وأجهزة التعبئة ونظام الفتح التعبوى . وكانت شجاعة الجنود الفرنسيين معروفة ولكن كان معروف أيضاً عدم نظامهم . كما كان مستوى التعليم فى الكليات العسكرية (سانت كاير ومتز وسامور) ضعيفاً . هذا علاوة على أن الذين كانوا يحضرون هذه الدورات التعليمية ، كانوا قلة من النوابغ أو الضباط الأغنياء فقط ، وقد كان معظم الضباط الفرنسيين رجالا شجعان كبار السن والذين أرتفعوا فى الحروب الإستعمارية نتيجة لشجاعتهم وإندفاعهم أكثر من خبرتهم الفنية فى مهنتهم . وفى عام ١٨٧٠ كان الجيش الفرنسى معداً بصورة أفضل للحرب عن أى وقت مضى منذ الحروب النابوليونية ، ولكنه لم يكن معداً لحرب حديثة .

الفرصة الذهبية (أنظر اللوحة رقم ٤٠)

لقد كان السبب الظاهرى لنشوب الحرب بين فرنسا وبروسيا فى يولية ١٨٧٠ يرجع إلى الإثارة الدبلوماسية حول خلافة العرش الأسبانى ، إلا أن السبب الحقيقى أن كلا الدولتين قد وصلتا إلى عمق أكبر فى معاداتهما لبعضهما ، وكان كل من نابليون الثالث وبسمارك يبحثان عن مجرد مبرر لأشعال الحرب . وكان نابليون يخشى أن تصبح بروسيا زعيمة لألمانيا المتحدة ، بينما كان يرى بسمارك فى الحرب مع فرنسا فرصة سانحة تمكنه من تنظيم صفوف

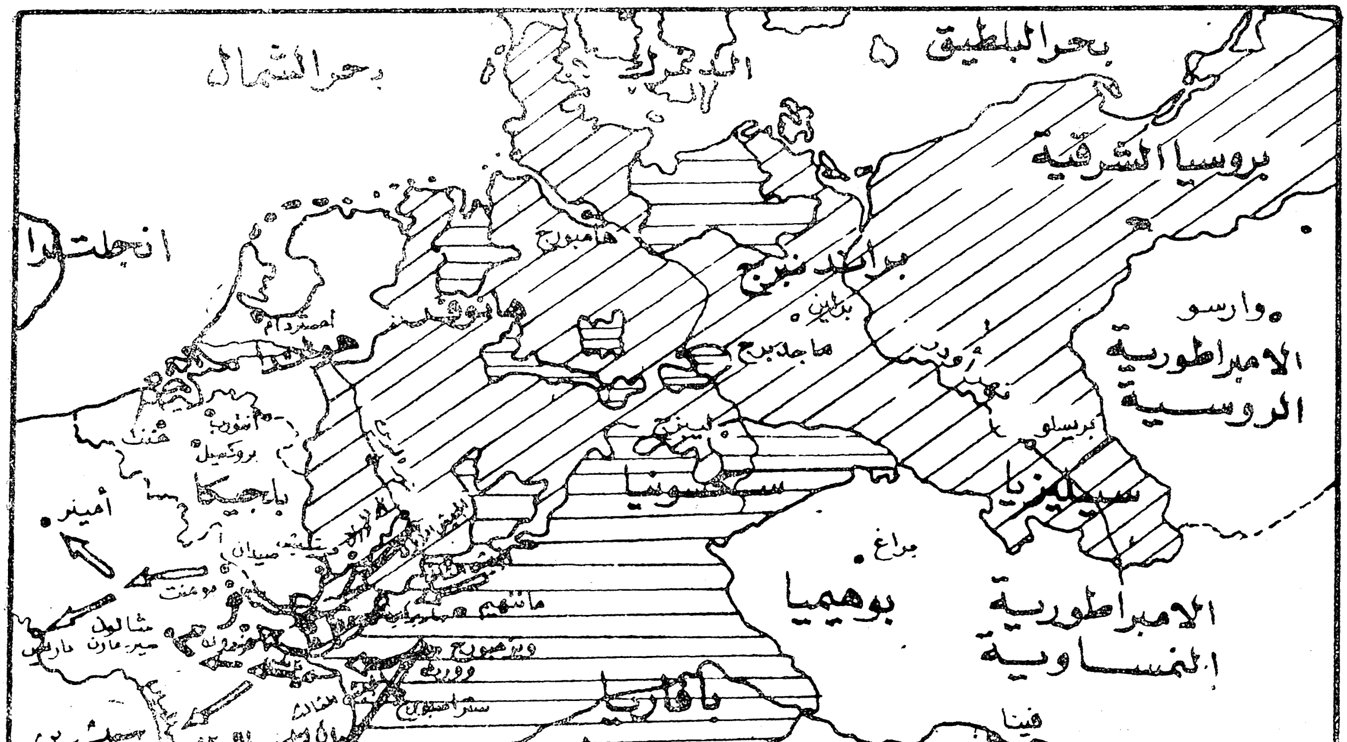

اللوحة رقم ٤٠ - وسط أوروبا فى القرن ١٩

الألمان وضمهم إلى برنامجه الخاص بوحدة ألمانيا ، أما مولتكة ورون فكانا واثقين من إمكان هزيمة الجيش الألمانى للفرنسيين ، وأخيراً تواجدت الفرصة .

وفى ١٩ يولية أعلن نابليون الحرب ، وبعد أسبوع فى « متز » أمر بنفسه بتقدم القوات الفرنسية عبر الراين بالقرب من « ستراسبورج » بغرض منع إتصال الوحـــدات الألمانية الموجودة فى الشمال والجنوب ، ولـكن لم تسر تعبئة الفرنسيين بسرعة إستراتيجيتهم ، وفى أول الأمر لم تـكن هناك جيوش فرنسية فى الألزاس وعلى نهر الموزل . وأمـكن فقط تجميع ٣٠٠،٠٠٠ رجل ولـكن بعد أن أصبح الوقت متأخراً جداً . أما التعبئة البروسيـة والتى نظمها مولتكة بعبقرية من قبل فتمت بـكفاءة عالية ، وكانت كل وحدة وكل تشكيل تسير وفقاً لتعليمات محددة ودقيقة لما سيتم بالضبط . وإلى اليمين وعلى طول نهر الراين تقدم الجيش الأول والذى يتـكون من فيلقين وفرقة فرسان تحت قيادة الجنرال فون «ستينمتز» نحو الموزل بين « ترير » و « ويتليش » . أما الجيش الثانى تحت قيادة الأمير فريدريك تشارلز والذى يتـكون من أربع فيالق وفرقتى فرسان تجمع على الرين بين « متز » و « مانهيم » ثم يتحرك بعد ذلك بقليل هذا الجيش ليتصل بالجانب الأيسر للجيش الأول وذلك حول « همبورج » . وتجمع الجيش الثالث تحت قيادة ولى عهد بروسيا والذى تـكون من ٤ فيـــالق وفرقة « ورتمبرج » وفرقة « بادن » وفرقة فرسان عند الراين على الجناح الأيسر . وأحتفظ بفيلقين أضافيين كأحتياطى للجيش الثانى . وتم تعبئة الجيوش الثلاثة وبلغ أجمالها ٣٨٤،٠٠٠ رجل ، وتم نقلها إلى المنطقة الأمامية غرب الراين فى ١٨ يوما . هذا بالإضافة إلى توفر السكك الحديدية والتى كانت ستجلب ٣ فيالق أخرى فى ثلاثة أسابيع تالية .

وقد أدرك مولتـكة مبكراً المحاولة الفرنسية التى تستهدف إحداث الأضطراب فى تعبئة قواته ، ولـكن بتفوق أستراتيجيته وبعد نظره الإدارى أزيل هذا الخطر تماما كما أعطى البروسيين المبادأة الأفتتاحية . وأنتهت خطط مولتـكة التفصيلية للتقدم عند هذه النقطة أى عند نقطة فتح جيوشه فى مواجهة عاصمة عدوه وبطريقة تمكنها من مهاجمة العدو المقترب فى أى صورة وبقوة . وكانت ترتيبات مولتـكة بسيطة ومرنة . وكان يأمل فى خوض معركة فاصلة فى منطقة « السار » حيث يحشد الجيوش الألمانية الثلاثة لتحطيم الفرنسيين الأقل

عدداً . ولكنه أعتقد أن من الخطأ محاولة وضع خطط تفصيلية سابقة كثيرة لمدد بعيدة ، حيث أن الموقف بعد الصدام الأول مع العدو لابد سيتمخض عن عوامل لايمكن التهكن بها .

وعلم قادة الجيوش بخطته العريضة ، كما توفرت لديهم تعليمات للعمليات ولكنه أعطى لهم حرية التصرف فى نطاق الهيكل العام للخطة كما توقع منهم أن يحصلوا على المبادأة. أما الفرنسيون فقد ظهر فشل خطتهم الأولى وأصابهم شيء من الحيرة فيما يفعلونه .

ولكن عندما حشدوا حوالى ٢٠٠٫٠٠٠ رجل فى المنطقة الأمامية بدأوا القتال الذى أخذ صورة إستطلاع بالقوة فى ٢ أغسطس عند «ساربروكين» ولكن لم يحقق هذا إلا القليل . والآن أعتقد مولتكة أن الفرنسيين على وشك القيام بهجوم قوى ، ولذلك فقد قرب الجيش الثانى الموجود فى المنتصف من مواقعه المتقدمة وأمر الجيش الأول والذى كان أضعف الجيوش الثلاثة وأبعدها للأمام بالتوقف . بينما حرك للأمام الجيش الثالث ، والذى لم يكن قد كمل تمركزه عبر الحدود أى إلى داخل الألزاس الشمالية عند « ويزمبورج » حيث نشب أول إشتباك جدى للحرب فى ٤ أغسطس ، وبعد يومين طوق الجيش الألمانى الثالث والمندفع أماما إلى « وورث » جزء من الجناح الفرنسى الأيمن الذى يقوده « ما كماهون » . ودار قتال وحشى ، فكان يعاود كل جانب الهجوم مرة بعد الأخرى وتكبد الأثنين خسائر فادحة. وقامت الفرسان الفرنسية بهجومين بطوليين ولكن بدون فائدة .

وفى النهاية بسبب إستخدام الألمان المتفوق لمدفعيتهم وأيضاً نظامهم الجيد فى فتح النيران أن أضطر الفرنسيون إلى إيقاف القتال والأنسحاب . وفى هذه المرحلة توقف تماما سير الأمور كما رسمها مولتكة . ففى ٦ أغسطس أى فى نفس يوم معركة « وورث » ، إشتبك بتهور «ستينمتز» وجيشه الأول ضد قوات فرنسية مخندقة فى مواقع قوية عند « سبيشيرن »وتبعد ٣٥ ميلا إلى الشمال ، وبسرعة حضر قادة التشكيلات الألمانية المجاورة لمعاونة الفرقة القائدة المهاجمة ، وعلى بعد الظهر أجبر الألمان الفرنسيين على الأنسحاب ، ولكن كانت الخسائر الألمانية فى «سبيشيرن» أكثر من خسائر الفرنسيين، كما أن مجموعة الإستطلاع الألمانى فقدت كل أثر لتحرك الجناح الأيمن الفرنسى بقيادة « مكماهون » ، وإفترض مولتكة أن اليمين

الفرنسى يتحرك إتجاه الشمال الغربى لينضم إلى اليسار الفرنسى تحت قيادة « بازين » بالقرب من « متز » على نهر الموزل .

بينما كانت الحقيقة هى أن « مكماهون » كان يتحرك إلى الوراء فى إتجاه الجنوب الغربى. وفى الواقع لم يكن الإستطلاع الألمانى المعتمد على الفرنسان جيداً ، وخلاصة النتيجة أن القوات الألمانية كانت تجرب ضباب المعركة أثناء تحركها للأمام . وفى ١٤ أغسطس وقعت المعركة الثانية الغير متوقعة عند « كولومبى » شرق « متز » والتى كسبها الألمان كما حدث من قبل . وعلى مساء ١٥ أغسطس لم يعد هناك أى شك فى أن « بازين » ينسحب من « متز » ، ولكنه لم ينسحب نحو «فردون» بالسرعة التى توقعها مولتكة ،لأنه عندما دفع فى ١٦ أغسطس بالجيش الألمانى الثانى عبر الموزل جنوب « متز » لمطاردة « بازين » وجد أن قواته متجمعة بقوة على مسافة أقل من عشرة أميال غربا . وحدث ما هو متوقع للجيش الثانى ، فقد أخذ يتخبط لدرجة أصبح معزولا ، وكانت تلك فرصة ذهبية لبازين ليهاجمه من الجنب بقوات متفوقة ، ولكنة ترك الأحداث تتحول . فقد أصطدم فيلق ألمانى بقوة فرنسية قوية عند « مارس — لا — تور » عبر الموزل وإلى الغرب من « متز » ، وجرى الأشتباك على نفس طريقة « سبيشرين » فقد قاتل الألمان بعناد حتى جاءت قوات أضافية لمعاونتهم ، وأستطاعوا مع نهاية اليوم كسب بعض الأرض ، وخسر كل جانب فى هـــذا القتال حوالى ١٦٠٠٠ مقاتل .

التخبط الدامى (أنظر اللوحة رقم ٤٠ ، ٤١)

الآن قرر «بازين » الصمود وخوض القتال ، وأصدر أوامره لقواته بالتخندق فى مواقع قوية غرب « متز » مباشرة .

وهذا الموقع عبارة عن سلسلة مرتفعة تمتد حوالى ٧ أميال بين قريتى « جرافيلوت » إلى الجنوب و « سانت — بريفات » إلى الشمال ، وتنحدر السلسلة برفق إلى الغرب ، بينما تنحدر بحدة إلى الشرق .

وفى ١٨ أغسطس كانت الدفاعات الفرنسية قد كملت ، فقد تم حفر الخنادق لإطلاق النيران وخنادق المواصلات ، كما كانت بطاريات المدافع محمية بالدشم . وحولت بعض بيوت

المزارع إلى مايشبه القلاع الصغيرة . وواجه كل جانب فى الواقع خلال المعركة والتى كانت على وشك الحدوث مؤخرته الاستراتيجية . فنجد أن الألمان ، قاموا بتحرك واسع فى الجزء الجنوبى الغربى منذ ٦ أغسطس ، وعندما لم ينسحب الفرنسيون كما كان متوقعاً ، فقد وجد الجيشان الألمانيان الأول والثانى أنهما قد طوقا بالكامل الجانب الأيمن لقوات «بازين» . ومع الأضواء الأولى لفجر ١٨ أغسطس ، وبينما كان الأمير « فريدريك تشالز » لازال يعتقد أن بازين ينسحب غرباً ، فقد دفع الأمير بجيشه شمالا فى أرتال متوازية قوية غرب السلسلة المرتفعة والتى تقع خلفها قوات « بازين » وعلى ذلك فقد عرض فريدريك قواته لخطر مروع إلا أن « بازين » أخفق فى القيام بالهجوم عندما حانت له الفرصة كما حدث تماما فى« مارس ـ لا ـ تور » .

وفى هذه المرة نوى الألمان خوض القتال بمجرد إصطدامهم بالعدو ، ولأول مرة إشتبك الجانبان بكل ما لديهما من قوات فى معركة واحدة . وكان لدى الألمان ، بعد إزالتهم الجناح الأيمن الفرنسى وإبعاده عن الميدان بالانتصار فى « وورث » ، ١٨٨ر٣٠٠ رجل و٧٣٢ مدفع وذلك ضد ١٢ر٨٠٠ جندى فرنسى و٥٢٠ مدفع . وحدث عند « أمانفيل » الاشتباك الأول بين الفيلق القائد للجيش الثانى مع الفرنسيين .

وفى البداية أعتقد الألمان أن هذا هو أقصى يمين الموقع الفرنسى ، وقبل إنتصاف النهار بقليل هاجم فيلق « مانستين » التاسع المواقع الفرنسية والتى يقودها «لادميرولت»ومخندقة خلف « فرنيفيل » .

وعلى الفور أدرك «مانستين» أن الفرنسيين متحصنين بسانت بريفات بقوة وقد يهاجمون أجناب القوات الألمانية . وبات الوقت متؤخراً جداً لمولتكه ليغير أوامر الهجوم ، وهى الأوامر التى أعطيت على أساس إفتراض إمكان طى الموقع الفرنسى المتمركز على « جرافيلوت » من الشمال .

وفى الساعات الأولى للقتال حول « أما نفيل » صدت نيران البنادق الفرنسية الألمان فى الأرض العراء كما فقد الألمان بعض المدفعية فى هجوم مضاد ، وتحولت المعركة فى هذه المنطقة لتصبح تراشقا بالمدفعية والتى تحملتها بصمود كلا الجانبين ، بينما جلبت قوات أكثر من الجيش الألمانى الثانى لمعاونة يسارهم .

ومع الساعة الثالثة كان « مانستين » قد عزز بقوات إضافية وسرعان ما طرد الألمان الفرنسيين من قرية « سانت — مارى — أوكس — شين » وعلى الساعة الخامسة كانت المشاة الفرنسية بدأت تخرج بأعداد كثيفة من « سانت — بريفات » وقامت المدفعية الفرنسية بعمل أقصى ما يمكنها لحمايتهم من النيران المركزة عليهم من ١٨٠ مدفع ألمانى . وفى نفس الوقت حول « جرافيلوت » من الشمال والجنوب فتحت المدفعية الالمانية للفيلقين ٧ ، ٨ منذ الظهيرة نيراناً متواصلة من ١٥٠ مدفعاً على المواقع الفرنسية وإستمر القصف حتى حلول

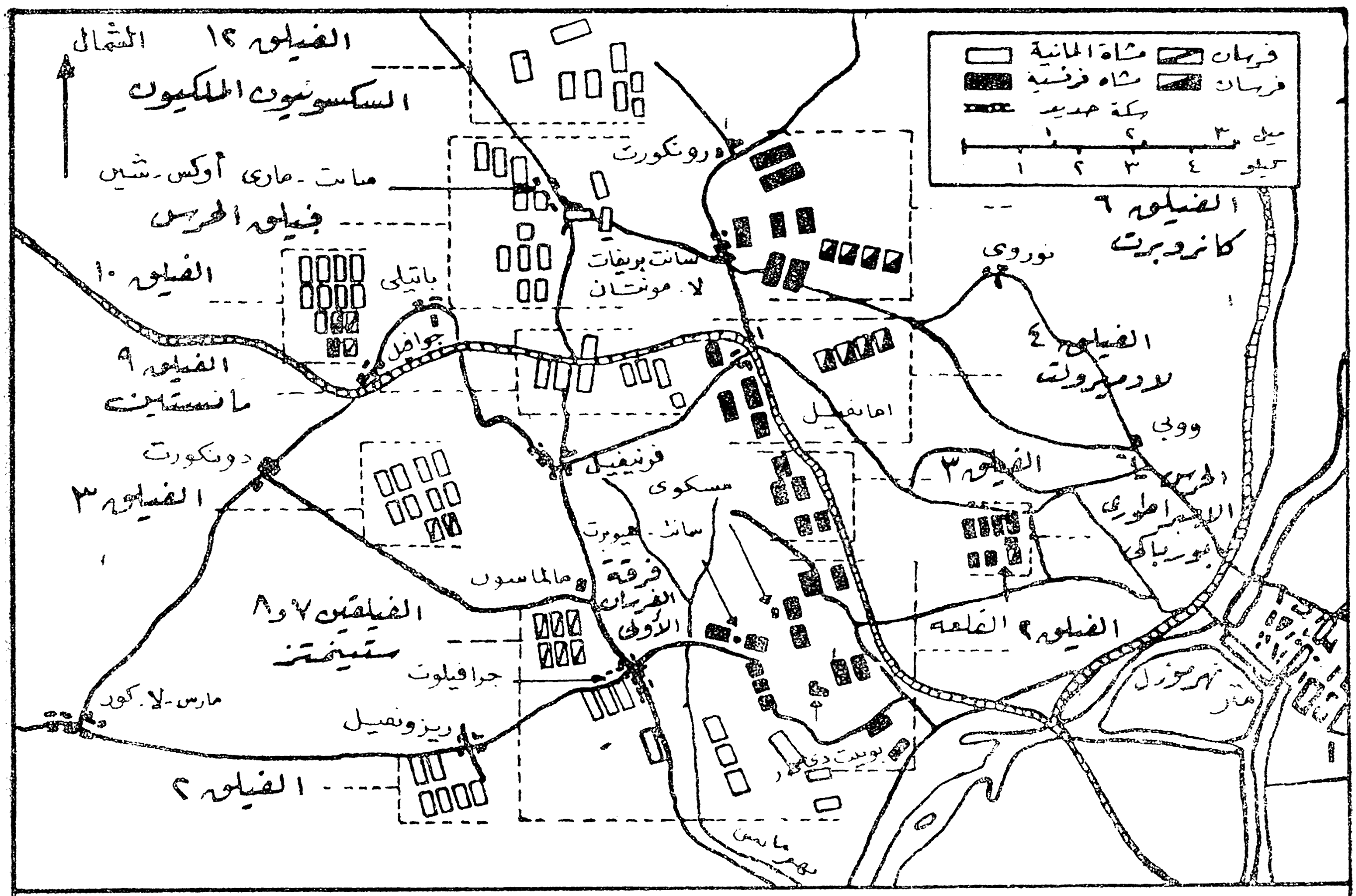

اللوحة رقم ٤١ - معركة جرافيلوت - سانت بريفات

الظلام ، ولم يتمكن الألمان من مشاهدة تأثير نيرانهم إلا فى اليوم التالى وكانت كالآتى : — « فى « مسكوى » و « بوينت دى جور » وجد بعض الجنود الفرنسية وهم محترقين فى مواقعهم الدفاعية ، كما كان هناك عدد كبير من الجرحى الذين شوهتهم النيران الناتجة من القصف . وفى كل مكان كانت هناك بنادق وسيوف مبعثرة ، وأعداد من الجربنديات والخراطيش وبقايا عربات المدافع التى نسفت علاوة على مدافع محطمة وعدد كبير من الخيول النافقة

والمقطعة» . وعلى الرغم من ذلك ، فلم تستطع المدفعية أو هجمات المشاة من زحزحة الفرنسيين عن المواقع المواجهة « لجرافيلوت » فى ١٨ أغسطس . وصدت جميع الهجمات الألمانية ضد تلك المنطقة عدا الموقع المتقدم فى « سانت — هيوبرت » والذى سقط قبل الغروب ، وكان هذا المكسب الوحيد الذى تم بواسطة الجيش الألمانى الأول تحت قيادة « ستينمتز » .

وفى الوادى الضيق لنهر « مانس » وعلى بعد قليل إلى الجنوب قام « ستينمتز » بسلسلة من الأخطاء الفاضحة ، فقد أعتقد أن سقوط سانت — هيوبرت هى علامة لتحلل المقاومة الفرنسية ، فأمر كل المشاة المتوفرة والمدفعية التابعة للفيلق السابع بالهجوم على طول محور طريق ضيق والموصل إلى الوادى الضيق .

فأرسل معهم الفرقة الاولى فرسان والتى كانت ستطارد الفرنسيين المهزومين حتى «متز» مسددة بذلك الضربة القاضية . ولم يتمكن سوى عدد ضئيل جداً من الالمان من شق طريقهم إلى « سانت — هيوبرت » ، ولكن توقف الباقون نتيجة الاضطراب والتشوش الدامى اللذين حدثا فى الوادى الضيق .

وعلى الساعة الخامسة أصبح واضحاً فشل هجوم الجيش الالمانى الأول وبدأ الالمان بالتالى فى الانسحاب .

وفى خلال ساعة تعرض المكسب الالمانى فى « سانت — بريفات » أيضاً للخطر عندما أمر الامير أغسطس أمير « وورتمبرج » فيلق الحرس بالتقدم إلى « سانت — بريفات » وقبل أن يتم التنسيق مع هجوم السكسون فى الشمال .

وعندما تقدمت مجموعات المناوشة لفيالق الحرس صاعدة المنحدر نحو الخط الفرنسى حتى وقعت مذبحة البنادق الفرنسية ، وسقط الضباط من على خيولهم بينما قتل الرجال وهم يحاولون صعود الميل ، وأخيراً توقف الهجوم عندما وصل إلى مسافة حوالى ٦٠٠ ياردة من « سانت — بريفات » وذلك بعد أن خسر الالمان ٨٠٠٠ رجل فى ٢٠ دقيقة . وهكذا على الساعة السادسة كان الفرنسيون قد صدوا الالمان على طول كل الخط من «جرافيلوت» إلى « سانت — بريفات». وأصبحت اللحظة مواتية الآن لقيام الفرنسيين بهجوم مضاد إلا

أنه للمرة الثالثة على مدى أربعة أيام أخفق بازين فى الإمساك بفرصته ، ويبدو أن قوة إرادته وقوته الدافعة قد شلها ثقل المسئولية ، أما هو فقد أدعى بأنه كان منهكا. ورفض التقدم للامام من مركز قيادته عند « بلابفيل » قائلا بأن الخطوط الدفاعية تقوم بعملها بنجاح ، وبدا له هذا كافياً .

وعندما سأله قادته المرؤوسين عن أوامر جديدة أظهر تردداً وعدم قدرة على الوصول إلى قرار ، بينما كان قادته المرؤوسين أنفسهم يفتقرون إلى المبادأة اللازمة لتكملة النصر .

وحتى بالرغم من عدم قيام الفرنسيين بهجوم مضاد ، فقد كان موقف الألمان فى الجنوب على وشك الإنهيار التام . وبعد أن ألقى «ستينمتز» بجميع قواته فى التخبط الدامى فى وادى المانس ، فقد أرسل يطلب من القيادة الملكية السماح له بإلقاء قوات جديدة من الفيلق الثانى والتى وصلت لتوها إلى المعركة .

وكان ستيمنتز قد ضلل الملك بتقرير ذكر فيه أنه إستولى على كل المواقع الفرنسية عدا المرتفعات ، وحيث أن مولتكه ظل صامتاً أثناء طلب « ستيمنتز » فقد صودق على طلبه . وكان الفرنسيون فى ذلك الوقت قد استعدوا لمقابلة أعدائهم ، فكانوا يرون خوذ أعدائهم وهى تلمع تحت أشعة شمس الغروب .

وقوبل الهجوم الألمانى بنيران قاتلة من المدى المؤثر ، وتراجعت المشاة الالمانية بدون نظام ثم بدأت بعض الخيول تجمح ، وفجأة تحطم النظام فى الفيلق السابع والثامن . وإنطلقت الفرسان وعربات المدفعية تعدوا هاربة إلى الخلف خلال «جرافيلوت» وجرت المشاة الالمانية إلى الخلف أى إلى أسفل الوادى ، ولكن ظل الفر ... ون لا يقومون بهجوم مضاد وإستطاع الفيلق الثانى مقاومة هذه الموجة من الذعر ، ولكن وجد الجنود فى الظلام أنفسهم يطلقون نيرانهم على القوات الالمانية التى فقدت النظام . ولم تفعل قوات الفيلق الثانى أكثر من التمسك بمواقعها ، وعلى الساعة التاسعة والنصف أوقفت القوات نيرانها . وشق الملك وهيئة قيادته طريقهم إلى « ... زونفيل » فى الخلف فى إنتظار سماع هزيمة الجيش الاول ، ولم يتبدد ... الليل عندما علم مولتكه أخيراً من الامير « فريدريك تشارلز »

بانهيار اليمين الفرنسى ، وفى الواقع ساعد الضغط القوى لفيلق الحرس الموقف الالمانى بشكل كبير ، فعندما قام السكسون بهجومهم الجانبي من الشمال لم يكن الفرنسيون على إستعداد لمواجهتهم بعد .

وفى نفس الوقت حطمت نيران المدفعية كل المحاولات الفرنسية للتحرك للأمام بين « أمانفيل » و«سانت بريفات» . وبناء عليه قرر « كانروبرت » قائد اليمين الفرنسى أنه لابد من التراجع، وطلب من « بورباكى » قائد الحرس الإمبراطورى والذى كان فى الاحتياط ستر إنسحابه ، الأمر الذى لم يكن فى مقدور « بورباكى » عمله .

أما الهجوم الأخير للفرسان الفرنسية فقد منى بالفشل تحت وابل نيران البنادق الألمانية. وبعد الساعة الثامنة إستولى الألمان بسرعة والذين بلغت قوتهم ٥٠٫٠٠٠ رجل على «سانت — بريفات» ، وتم ذلك باقتحام الألمان الموقع الفرنسى بالسونكى . وأنسحب اليمين

معركة سانت — بريفات وقد أقتحمها الألمان بعد دفاع مستميت للفرنسيين

الفرنسى فى رتل متعثر على طول طريق « ووبى »،وعند « أما نفيل » أى فى اليسار الفرنسى

البعيد رفض «بورباكى» فى ثورة من الهياج معاونة «لادميرولت»، فى الوسط، وهنا أيضاً بدأ الفرنسيون فى الانسحاب.

وكان إنسحاب اليمين الفرنسى إنسحابا منظما إذا قورن بهزيمة الألمان عند «جرافيلوت»، كما كان الألمان أيضاً غير منظمين بدرجة تمكنهم من مطاردة الفرنسيين، ولكن كانت الهزيمة كافية لتقرير نتيجة معركة «جرافيلوت» و «سانت — بويفات» لصالح الألمان. وعلى ١٩ أغسطس إنسحب باقى جيش بازين إلى داخل دفاعات «متز» وقد خسر الألمان حوالى ٢٠٫٠٠٠ من الأرواح أى أكثر مما تكبده الفرنسيون، ولكنهم كسبوا ميزة إستراتيجية حاسمة عند نهاية المعركة، فقد أصبحوا قادرين على خنق جيش بازين فى متز، أى إلغاءه هو وجيشه تماما من باقى الحرب.

ولايحتاج فشل بازين فى القيادة إلى مناقشة أخرى ويكفى القول بأن القوات الفرنسية أظهرت كفاءة قتالية والتى كانت تستحق قيادة أفضل. وكان مولتكه محظوظا بتحقيقه هذا النصر لأنه فى الواقع لم يسيطر على الأحداث فى أى وقت منذ ٦ أغسطس منذ معركتى «وورث» و «سبيشرين»، كما أنه فى يوم ١٧ أغسطس لم يفعل الألمان شيئا أكثر مما فعله الفرنسيون بحيث يستحقون عليه النصر. وقد أظهرت المعركة أن مولتكه كان يتصف بخصائص المدرب والمنظم للجيوش الكبيرة أكثر من خصائصه كقائد عام فى ميدان القتال، وقد أدت سنوات العمل السابقة المضنية إلى غرس الفهم التلقائى والذى أظهره الضباط الألمان المرؤوسين فى هذه الحملة، وقد أدى هذا إلى أصلاح أخطاء «ستينمتز» و «فريدريك تشارلز» مرارا نتيجة السرعة والذكاء والإخلاص الذى أبداه قادة التشكيلات والوحدات الألمانية فى معاونة بعضهم وأيضاً نتيجة لضبط وربط وشجاعة القوات التى كانت ثقتها مطلقة فى ضباطها. وفى هذه الأثناء أنسحب «ماكماهون» بعد هزيمته فى «وورث» فى إتجاه باريس، حتى وصل إلى «شالون — سير مارن»، وهناك توفر له الوقت ليبنى جيشه فى أربعة فيالق، وفى ٢٣ أغسطس أمر بالتقدم فى إتجاه الشمال الشرقى لتخليص بازين. وكما أشار ليدل هارت فقد جنى مولتكه الفائدة الناتجة من المناورة الواسعة. وقد واصل الجيش الألمانى الثالث تقدمه بعد «وورث» ودار جنوبا وبالتالى فقد عبر الحدود ولم يشترك فى

مرحلة العمليات التى وصلت إلى قمتها عند « جرافيلوت » و « سانت — بريفات » ، وقد وضعته هذه المناورة فى موقع ممتاز ، فقد أصبح فى إمكانه الدوران ومهاجمة جانب أومؤخرة جيش « ماكماهون » إذا تقدم .

وفى نفس الوقت بدأ « ماكماهون » يواجه بعض القوات الألمانية المتحركة خارج«متز» وعلى نهاية أغسطس وقع « ماكماهون » فى المصيدة بالقرب من الحدود البلجيكية ،ودارت معركه عند « بومنت » فى ٣٠ أغسطس . وحتى الآن كانت القيادة الألمانية تعمل فى جوغير واضح إلى حد ما . وفى سبتمبر دارت معركة « سيدان » على نهر الموز ، وحوصرالفرنسيون فى قطعة ضيقة من الأرض ، وبدأ الألمان فى قصفهم بالمدفعية من خارج مدى البنادق الفرنسيه، وفى اليوم التالى أستسلمت القوات الفرنسية ، ووقع منهم فى الاسر ١٠٤٠٠٠ر١٠٤ منهم الامبراطور نابليون الثالث بينما خسر الالمان ٩٠٠٠ فقط . وقد تمكن الالمان من هزيمة الفرنسيين فى عمليات دارت على مدى شهرين ، نتيجة لعدم وجود جيش منظم آخر لدى فرنسا . وعلى أى حال ، فقد أمتدت الحرب لستة أشهر أخرى قبل الوصول إلى نهايتها .

وفى هذه الاثناء أعلنت الجمهورية فى فرنسا ، وأثار وزير الحرب « كامبيتا » المقاومة . وطال حصار « متز » و « باريس » وبدأ الفرنسيون يضحون بأرواحهم فى شجاعه باسلة ضد محاصريهم من الالمان ، وفى الريف أثار الفدائيون الفرنسيون حرب عصابات ضد الألمان . وهرب « كامبيتا » من باريس ببالون لتنظيم جيش فى اللوار . وفقط فى يناير وفبراير ١٨٧١ أستسلم آخر الفرنسيين فى باريس وفى اللور . وأعلن ويليام نفسه إمبراطورا فى قاعة المرايا بفرساى . وفى ١ مارس سار الألمان فى زهو خلال شوارع باريس . وخلال حكومة باريس الإشتراكيه (١٨ مارس — ٢٧ مايو ١٨٧١) قاتل الفرنسيون بعضهم البعض ودارت بينهم المذابح على مرآى من الالمان .

الحرب الاهلية الامريكية

(أنظر اللوحة رقم ٤٢)

وحدثت حرب عظيمة «حديثة» أخرى فى أمريكا الشمالية . وترجع جذور الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) إلى التوتر المتزايد بين نوعين مختلفين تماما من المجتمع تربطهما معا حكومة واحدة . وجاءت مشكلة الرقيق خلال خمسينيات القرن ١٩ إلى زيادة كره النظامين لبعضهما . وفى إنتخابات الرياسة عام ١٨٦٠ فاز الجمهوريون بالرياسة والذى كان

برنامجهم مرتبطا بالمصالح الاقتصادية فى الشمال ، وبالتالى فصلت ١١ ولاية جنوبية نفسها من الاتحاد .

وفى فبراير ١٨٦١ أنتخب « جيفرسون دافيز » أو « رئيس » للولايات الامريكية الكندفدرالية فى الجنوب . وأقيمت العاصمة فى « مونتجمرى » بولاية « الباما » . وفى الشمال تولى « لينكولن » منصب رئيس « الولايات المتحدة الامريكية » وظلت العاصمة كما هى فى « واشنطن » .

وكان تعداد سكان الشمال أكثر من ١٨ مليون ، أما الجنوبيين فلم يزد عددهم عن ٩ مليون ، ثلثهم من الزنوج العبيد .

وكان الشمال يمتلك ٩٠ ٪ من القدرة الصناعية للبلاد وثلثى خطوط السكة الحديد ، وأيضاً السيطرة على البحار ومعظم موارد المناجم . وأحتاج الجنوب بالأخص للاسلحة ، فمن بين ١٣٥٫٠٠٠ قطعة سلاح نارى أستولى الجنوب عليها بالتوالى من ترسانات الحكومة كان منها ١٠٫٠٠٠ بندقية حديثة فقط ، أما الباقى فكانت من الانواع الملساء القديمة التى تعمر من فم الماسورة . وبعد وقت أستطاع الجنوبيون الشجعان الاستيلاء على أسلحة أكثر ولكنهم بقوا فى نقص خطير .

ولكن كان الجنوب يقاتل من أجل الدفاع عن الحياة وبيوتهم من الغزاة ، بينما قاتل جنود الشمال من أجل فكرة تجريدية ألا وهى مبدأ الاتحاد ، ولهذا السبب إستطاع الجنوب بسهولة خلق مقاتلين متحمسين . علاوة على ذلك كانت نسبة كبيرة من الجنوبيين من الفرسان المهرة والذين أعتادوا الحياة فى الجو الطلق المفتوح وفى العراء . ولكن يجب فهم بعض الحقائق المعينة ، فقد أعتبر لينكولن أن مشكلة الرقيق سوف يحلها الوقت والفكر السليم ، ولكن إذا حدث إنشقاق الاتحاد إلى دولتين ، فلن تعود الوحدة أبداً . وفى هذه الحالة سوف تصبح شمال أمريكا مثل أوروبا التى تمزقها الخلافات والغيرة والمنافسة الاقتصادية والحرب . وناضل لينكولن للابقاء على الإتحاد ، وبعد توليه منصب الرئاسة ، أجل مشكلة الرقيق لأطول فترة ممكنة . وفى إبريل عام ١٨٦١ أنفجرت الحرب عندما قامت قوات من « الولايات الكندفدرالية » بالهجوم

على إحدى حاميات « الولايات المتحدة » عند « فورت سمتر » بكارولينا الجنوبية . وأطلق الجنوبيون النار على علم الولايات المتحدة ثم أنزلوه ، ووضعوا مكانه علما أبيض ، وإستسلمت الحامية الشمالية .

وكان ذلك شيء زائد عن الحد ، وهرع الشمال إلى السلاح ، وفعل أهل الجنوب نفس الشيء . وبدأت الحرب الأهلية الامريكية أو كما يفضل الكثير فى هذه البلاد أن يطلقوا عليها « الحرب بين الولايات » . وقد كتب الكثير عن هذه الحرب ،وهى بالتأكيد تستحق الدراسة ، ولكنى أنوى تناولها بشكل مختلف إلى حد ما عن الطريقة التى تناولها بعض الدارسين ، وذلك بدراسة الشخصيات والقيادة والجيوش أكثر من التكلم عن سير الحرب وتفاصيل المعارك التى دارت ، وكثيراً ماأهملت مثل هذه الدراسة ، والتى من المحتمل أن تكون ذات فائدة وبالأخص للقارىء الغير عسكرى . وعلينا أن نتناول أولا الرئيسين ، فقد كان « دافيز » فى الجنوب مؤهلا تأهيلا ممتازا للتصرف فى الامور ، فقد تخرج من « وست بوينت[1] » ، وخدم لعدة سنوات فى الجيش النظامى، وبعدها أصبح وزيرا للحرب فى واشنطن ثم رئيساً للجنة الشئون العسكرية بمجلس الشيوخ بعد ذلك . كما كان على علم تام بجيش الولايات المتحدة وكان دافيز أيضاً قادرا على إختيار الرجل المناسب للمناصب الاكثر مسئولية . ولم يختار فقط الرجال المناسبين بل أيدهم فى أوقات محنهم ، فلم يحدث مطلقا أن عزل قائدا بسبب ملاقاته الهزيمة ، ولذلك ظل نفس القادة الذين تولوا القيادة فى بداية الحرب فى مناصبهم حتى النهاية ، فيما عدا القادة الذين قتلوا مثل « جونسون » و « جاكسون » . وأكثر من ذلك فقد كان لدى « دافيز » أعظم مفكر ومنظم عسكرى أمريكى فى تلك الايام هو الجنرال «لى» وقد إحتفظ به خلال سنوات الحرب الاولى كرئيس للأركان وكان مقره العاصمة ؛ وفى رأيي أن هذا القرار كان له علاقة كبيرة بالنجاح الاولى للجنوبيين ؛ وفيما بعد ، فى يونيه ١٨٦٢ عهد إلى الجنرال « لى » بقيادة جيش فرجينيا الشمالى .

أما فيما يتعلق بلينكولن ، فالصورة مختلفة تماما ، فقد كان محامياً وسياسياً ممتازاً ،

(١) هى الكلية الحربية الأمريكية «المعرب»

إلا أنه لم يـكن لديه أى خبرة عسكرية عملية ، ولا يعلم أى شىء عن الجيش ، ولم يـكن يعرف سوى عدد ضئيل جداً من ضباط هذا الجيش . وكثيراً ما تمت تعييناته للمناصب القيادية على أسس سياسية . وعندما كان الرأى العام يصرخ مطالباً بإقالة قائد مهزوم كان لينـكولن عادة يوافق ، ولذا كان من النادر إعطاء القائد الذى فشل مرة ، فرصه ثانية ، ولذلك نجد أن قادة الجيش فى نهاية الحرب لم يتولوا قيادة عليا فى بدايتها . وفى الواقع تعتبر هذه الطريقة قاسية فى التخلص ، بالرغم من الجائز أن أفضل الرجال هم الذين وصلوا إلى القمة فى نهاية الأمر ولـكن من تخلص منهم كان بعضهم جيداً جداً ، وبذلك إختفى العديد من الرجال الجيدين أثناء ذلك العملية ، وكان الشمال هو الخاسر بفقدهم . وبالنسبة لى فإن دراسة محاولات لينـكولن لإيجاد القائد الذى يستطيع تحقيق النصر فى المعارك لذات أهمية كبيرة ، لأن هذا الأمر كان هو السبب الرئيسى لوجود القادة وخلقهم .

وفى هذا الصدد بدأ لينـكولن بـ « سكوت » وهو رجل مريض يبلغ من العمر ٤٤ عاما وبعد سكوت توالت الشخصيات الآتية على المسرح العسكرى وهم : « ماكدوويل » و « ماكلين » و « هاليك » و « بوب » و « بيرنسيد » و « هوكر » و « ميدى » .

وأخيراً عثر لينـكولن على ضالته وهو الجنرال « يوليسيس جرانت » والذى وصل إلى منصب القيادة عبر الطريق الصعب ، بادئاً حياته كقائد آلاى وإنتهى كقائد عام . وكان « جرانت » جندياً وقائداً بحق فهو من النوع الذى يهتم بمرؤوسيه ويصدر أوامره بما يتلاءم مع خبراتهم ومهاراتهم . ومن بين جميع قادة الجانبين ، فقد تميز «جرانت» بقدرته على قيادة قوات صغيرة بمثل قيادة القوات الـكبيرة فى المعركة وتحت أى ظروف صعبة أو متقلبة ، وأخيراً له مقدرة عظيمة على قيادة وإدارة عمليات عدة جيوش مختلفة . ولم يكن يؤمن بهيئة قيادة كبيرة ، ونجده فى عام ١٨٦٤ كان يقود خمسة جيوش تعمل فى منطقة مساحتها تعادل نصف مساحة أوروبا بينما كانت هيئة قيادته تتـكون من ١٤ ضابطاً . وهـكذا وجد لينـكولن أخيراً القائد الذى يحتاجه ولـكن ليس قبل فبراير ١٨٦٤ ، وعين لينـكولن جرانت لقيادة جيوش الشمال . ويعتبر كلا من جرانت وشيرمان أفضل قائدين ميدانيين أنجبتهما الحرب بين الولايات . وخدم كلاهما تحت لواء لينـكولن .

الموت فى سبيل المبدأ (أنظر اللوحة رقم ٤٢)

وعندما بدأت الحرب ، كان على كلا الجانبين القيام بإنشاء جيش ، والذى كان فى كلتا الحالتين

لابد أن يتكون من المتطوعين . وفى عام ١٨٦٠ كان إجمالى جيش الولايات المتحدة النظامى حوالى ١٦٠٠٠ رجل فقط ، وكان الجزء الأكبر منه منتشراً وموزعاً فى وحدات صغيرة على الحدود الهندية ولا يمكن سحبها . وفى الشمال والجنوب كانت هناك وحدات كثيرة من الميليشيا ، إلا أنها تفتقر إلى التدريب والضبط والربط . ولقد كانت هناك ميزة

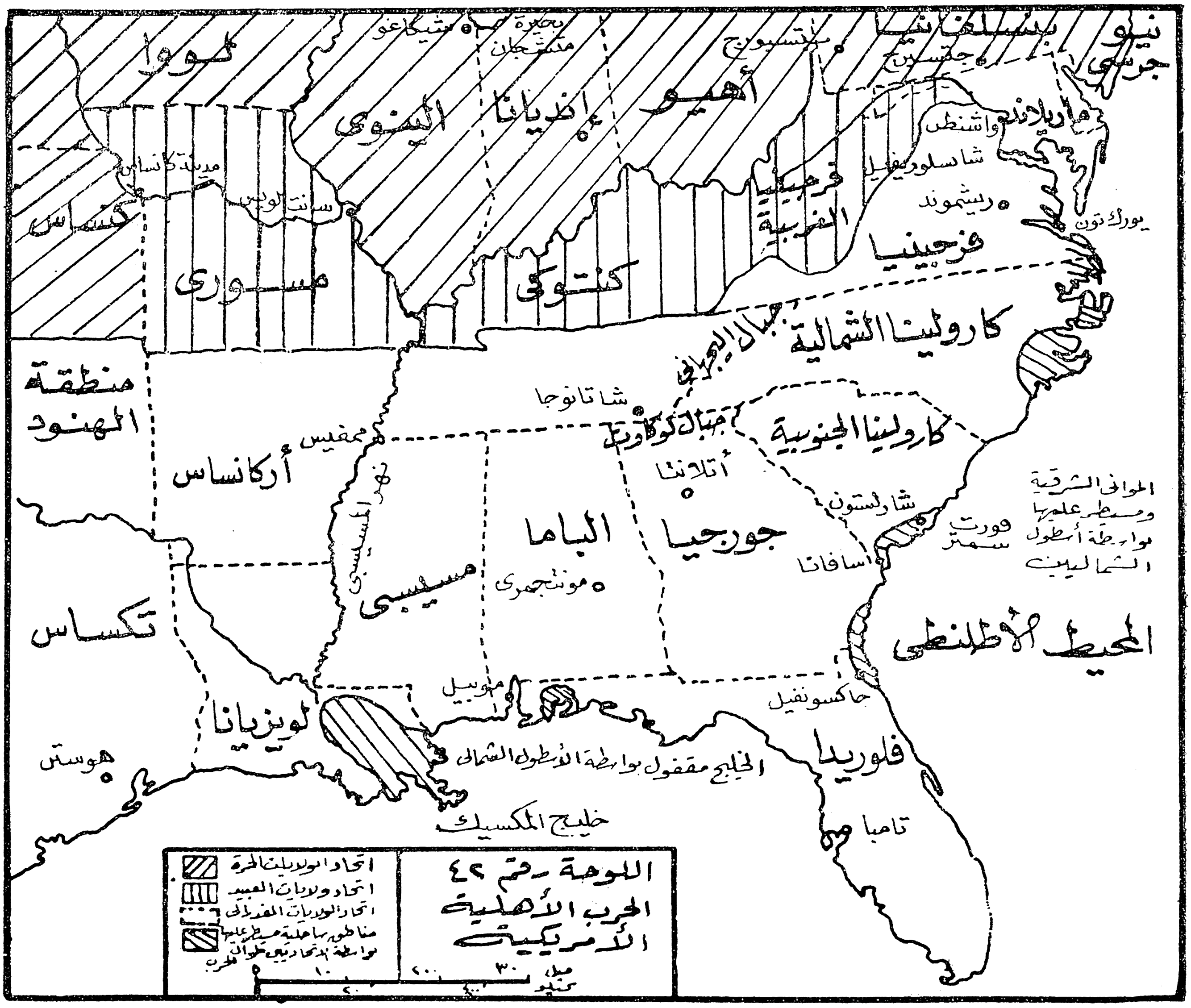

كبيرة للجنوبيين هو إستطاعتهم التحرر من الروتين الحكومى لوزارة الحرب فى واشنطن كما توفر لدافيز الجنرال « لى » ليساعده فى تنظيم قواته خلال سنوات الحرب الأولى ، بينما لم يكن لدى لينكولن مثل هذه الميزة . وقد لعبت فى هذه الحرب الجغرافيا والإستخدام الإستراتيجى للسكة الحديد والقيادة والتكتيكات دوراً كبيراً . كما أن الحرب فى المسرح الغربى كانت أكثر مرونة وخفة حركة من الشرق حيث أنها دارت على مناطق واسعة . وكانت

السيطرة على الأنهار من الأهداف الإستراتيجية الرئيسية وبالأخص بالنسبة للشمال حيث كان لديه معظم السفن التجارية والبحارة المدربين ومؤسسات بناء السفن والإصلاح .

وعندما أنضمت فرجينيا إلى الجنوبيين ، جعل دافيز من مدينه « ريشموند » العاصمة للجنوب . وكم كان ذلك خطأ جسيماً باختيار العاصمة قريبة جداً من الحدود ويسهل الوصول إليها من البحر خصوصاً وأن القوة البحرية كانت لدى الشماليين . وقد كانت مدينة أتلانتا أكثر ملاءمة أو من الأفضل أن تظل العاصمة كما هى فى « مونتجمرى » . وأصبحت العاصمتان بالتالى على مسافة حوالى ١٠٠ ميل من بعضهما . وكانت النتيجة أن وجه كل جانب مجهوداً مضاعفاً للاستيلاء على عاصمة الآخر ، ولو نجح أحداهما فى ذلك فسيكون ذا أهمية معنوية كبرى . ولو قدر أن سقطت واشنطن يوما ما ، لأنهارت عزيمة الشماليين فى الحصول على النصر ، وكما أظهرت الأحداث فقد هددت واشنطن أكثر من مرة .

ولكن كان لدى الشماليين فى شخصية لينكولن الرجولة الحقة والشجاعة الهائلة والعزيمة القوية والذهن المخلص . وربما أن الشماليين بدون لينكولن كانوا توقفوا عن النضال . وفى الأسابيع الأخيرة للحرب سقطت « ريشموند » .

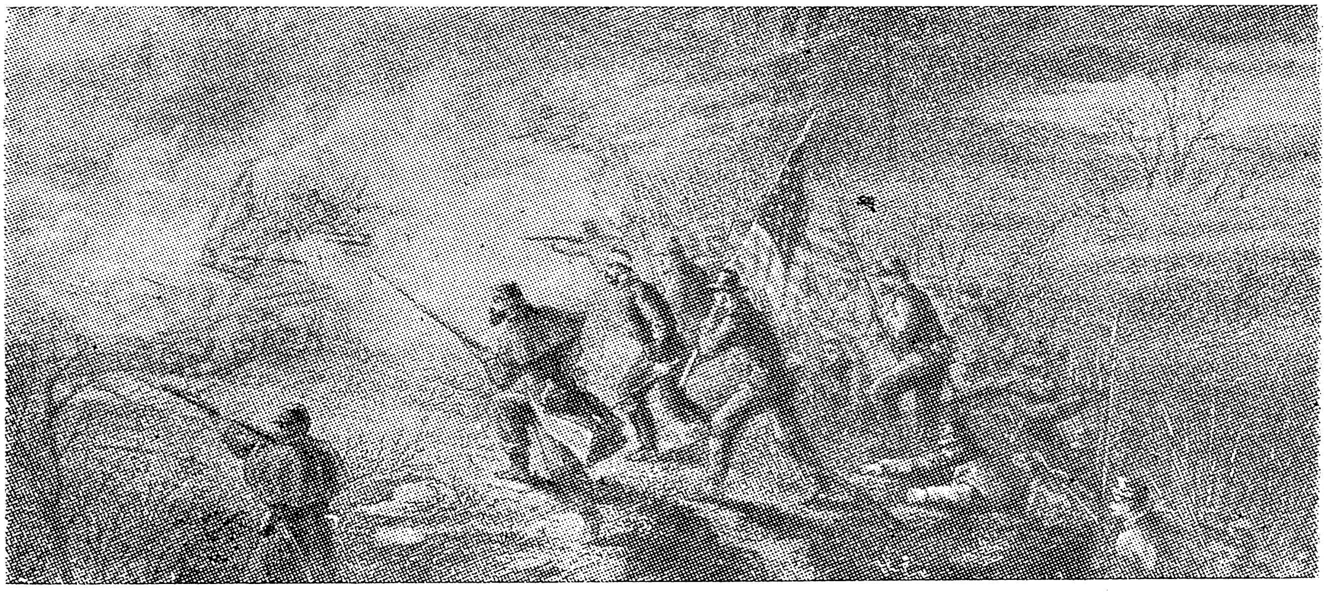

قوات الشمال تحت قيادة جرانت تهاجم الجنوبيين

وقد شاهدنا فى بداية هذا الفصل التقدم الهائل الذى طرأ على الأسلحة النارية والذى

حدث خلال الخمسين عاماً التالية لمعركة « ووترلو » . وقد أحدثت هذه التحسينات ثورة فى الاسلوب التكتيكى ، وإختفت تشكيلات المشاة الجامدة وذلك الطراز العتيق من حرب الفرسان وهو إحداث الصدمة فى الصفوف بالفرسان .

وأصبح الفأس والجاروف أدوات ضرورية للمعركة واستخدمت كل من المتاريس والتى كانت بارتفاع الصدر ، وحفر الخنادق لتوفير الحماية والوقاية للجندى • وقد خرج من الحرب الأهلية الامريكية كثير من الدروس المستفادة ، ولكن العسكريين المحترفين فى أوروبا لم يعيروها اهتماماً قائلين أنها كانت حرباً لم يخضها محترفين • وكان عليهم التعلم من الطريق الصعب ، وهذا بالتأكيد ما حدث كما سنرى فى الفصلين القادمين .

لقد تناولنا بإيجاز الشخصيات المختلفة لدافيز ولينكولن الزعيمين السياسيين . وسوف أختتم هذا الفصل ببعض الملاحظات عن « لى » و « جرانت » القائدين العسكريين • ورأيي فى « لى » أنه لم يكن حازماً بما فيه الكفاية مع قادة فيالقه ، ولم يكن أيضاً جيداً فى إنتقاء الرجال • وبعد مصرع « جاكسون » فى معركة « شانسلور سفيل » كان لديه ثلاثة مختلفين من قادة الفيالق وهم « أويل » و «هيل» و «لونجستريت» والذين فشلوا فى أن يكونوا على مستوى مسئولياتهم فى « جتسبرج » ، وبشكل عام فقد كان حكمه صائباً دائماً ، ولكنه لم يكن يحب إصدار الاوامر المشددة لمرؤوسيه ، وظهر هذا بوضوح تام عند « جتسبرج » وهى المعركة التى كان « لى » فيها فى أسوأ حالاته • وأنا أتفق مع المؤرخ الامريكى « دوجلاس فريمـــان » والذى كتب أنه لم يكن لدى جيش الجنوب فى « جتسبرج » قائداً عاماً • وبعد ذلك فلم يكن لدى « لى » أية مميزات تجعله يأمل فى النصر عندما أستدعى لمواجهة جرانت ، أعظم قادة الشمال المنتصر ، وخاصة أن « لى » فى ذلك الوقت كان بطلا للقضية الضائعة • ومهما كان الحال ، فلم يكن فى إمكان « لى » التغلب بنجاح على قائدين مثل « جرانت » و« شيرمان » ، فى وقت واحد • ومن الصعب فهم لماذا توقف الجنرال « لى » هذه المدة الطويلة عند « ريشموند » وقد أدرك جرانت أنها كانت مسألة شرف بالنسبة « للى » لدرجة أن الصمود الاخير هو للدفاع عن العاصمة

الجنوبية . وفى مقابل ذلك، فقد ذكر فوللر بأن الجنرال «لى» كان خائفاً من سحب جنوده من خنادقهم حتى لا تفر الجنود .

وطالما ظل الجنوبيون يواجهون العدو فلن يتوقفوا عن القتال ، ولكن حالما تراخى الضغط الخارجى فقد يصبح إغراء قوى بالفرار . وأننى لأجد هذا الرأى صعب التصديق . وقد كشفت دراستى للحرب عندما تواجدت قيادة على المستوى الرفيع ، بأن ما يسمى « بالجندية » كانت من الدرجة الأولى . وعلى كل حال كان الجنود فى الجانبين جنوداً ممتازين بالفطرة ولديهم العزيمة والأستعداد للقتال فى سبيل المبدأ الذى يؤمنون به ، والموت عند الضرورة فى سبيل هذا المبدأ . ولى كلمة أخيرة عن « الحرب بين الولايات » فهى تستحق أن يدرسها العسكريين فى أيامنا الحالية .

ولقد كان نصر الشمال فى الحرب الاهلية الامريكية نصراً للقومية والحرية والصناعة. ومن وجهة النظر الحربية فقد أخرجت هذه الحرب الكثير من التجارب والدروس تماماً مثل ما فعلت الحرب الفرنسية — البروسية . وقد ظهر تأثير نيران البنادق فى « سانت — بريفات » وفى « جتيسبورج » فى قوة الدفاع الجديدة .

وبدا أن مصير هجوم الفرسان على النمط القديم كما حدث فى « وورث » معلق للعثور له على مهام تكتيكية جديدة ، وهو الشىء الذى لم يلق اهتماماً فى أوروبا . بينما قدر تماماً فى أمريكا ، حيث كيف قائد الفرسان فى الجنوب « ناثان ب فورست » الموقف التكتيكى لفرسانه باستخدامهم أساساً كمشاة راكبة . وفى هذا الوقت كان يجب أن توضع فى الميزان القوة الدفاعية للمدافع الرشاشة إلا أن القوة التدميرية للمدفعية الثقيلة الحديثة بدأت تحس بشكل أكبر . كما ظهر فى هاتان الحربان أن وجود السكة الحديد قد يكون ميزة أو خسارة وذلك حسب إستخدامها . ويرجع النصر الخاطف البروسى عام ١٨٧٠ إلى التعبئة الممتازة والرائعة لمولتكة والتى تمت بوسائل السكة الحديد . وكان هذا العامل يساوى أى عامل آخر من العوامل التى سببت النجاح .

ومن ناحية أخرى فإنه من أحد الاسباب التى جعلت الشماليين غير قادرين على القيام بتقدم سريع لفترة طويلة هو أن الجيش كان مقيداً وبشكل قاس بالخطوط الثابتة

المؤدية لرؤوس السكة الحديد. ولم يحقق الشماليين نصرا سريعا إلا عندما قطع شيرمان إعتماده على رؤوس السكة الحديد . وأدى تزايد أحجام الجيوش إلى إزدياد صعوبة خفة الحركة ، وأدى هذا إلى زيادة أهمية الأركانات حرب وقادة الفرق والفيالق ، وهى أمور ظهر أن الألمان تعودوها بشكل أفضل من الفرنسيين. أما التطورات الفنية فى الحروب البحرية ، فلا يمكن الحكم عليها فى هذه الفترة ، حيث لم يكن لها أى دور تقريبا فى الحرب الفرنسية — البروسية إلا أن الحصار البحرى الذى فرضه الشمال على الولايات الجنوبية قد ساعد الشمال بدون شك فى هذه الحرب التى كانت بشكل جزئى حربا بين إقتصاديين . وفى الواقع كانت الحرب الأهلية حافزا قويا لزيادة وكبر القوة الإقتصادية فى الولايات الشمالية .

ومع عام ١٨٧١ ، جربت الحرب الحديثة ولكن بشكل واسع وفى مظاهرها المختلفة ، وبقى أن نرى هل الدروس المستفادة من هذه التجارب قد استخدمت أو استفاد منها ! لقد استخدمت ولكن لم يحدث هذا سريعا . . .

الفصل التاسع عشر

الدروس القاسية

بؤرة المشاعر الوطنية

لقد قررت إعطاء هذا الفصل هذا الإسم لأن القوى الكبرى كان عليها تعلم الكثير بعد إنتهاء الحروب الثلاثة التى أشرت إليها فى الفصل السابق وهى : — « حرب القرم » و « الحرب الأهلية الأمريكية » و « الحرب الفرنسية البروسية » . وخلال الربع الأخير من القرن ١٩ إنشغلت القوى الاوروبية كثيراً لإكتساب مناطق فى أفريقيا وآسيا مما ورطها فى « حروب محدودة »[1] فى هذه القارات. وقد أدت هذه الحروب المحدودة إلى أهمال هذه الدول دراسة الدروس المستفادة من المعارك الرئيسية المذكورة عالية ، وأكثر من ذلك فشلت الدول الكبرى فى تفهم دروس « حرب البوير » . وتحضرنى هنا كلمات « ميترلنك » التى تقول : « إن الماضى مفيد لى عندما أفكر فى الغد حتى أرسم مستقبلى » وبمعنى آخر : يجب على الامم أن تتعلم من الماضى لكى تخطط للمستقبل بحكمة » .

ويعنى إهمال هذا المبدأ أن السبيل إلى النجاح فى المستقبل سوف يمر بطريق شاق وصعب، يكون الثمن فيه هى أرواح الرجال . وقد كانت السنوات فيما بين ١٨٧٠ و ١٩١٤ سنوات من « السلام المسلح » فى أوروبا كما تخللها حروبا صغيرة متعددة فى أماكن متفرقة من أنحاء العالم . وفى البداية ساد السلام أرجاء أوروبا بواسطة السياسة الإيجابية لدبلوماسية بسمارك إلا أنه عندما سقط فى عام ١٨٩٠ زاد التوتر داخل أوروبا ولكن على أى حال حوفظ على بقاء السلام بسبب الجمود الذى نشأ عن توازن القوى بين المعسكريين المسلحين . وأثناء هذا الوقت زادت القوى الأوروبية من مصالحها ، ووجدت متنفساً لتوترها فى مناطق أخرى

(١) هى الصراعات المحددة الهدف أو المنطقة بسبب عجز المتنافسين عن أشراك كل قواتهم الوطنية « المعرب »

من العالم ، ومن تلك المناطق التى كان مجال المنافسة فيها كبيراً هى شرق آسيا وشمال أفريقيا والبلقان. وطالما كان هناك متسع من الأرض ، كان المستعمرون الأوربيون يتجنبون قتال بعضهم البعض ، ويركزون عملياتهم العسكرية ضد الأهالى الوطنيين . وعلى أى حال ، ففى خلال هذه الفترة وجد الإستعمار أنه يتعين عليه أن يتقلص بعض الشىء بسبب ظهور قوتين صناعيتين وكبيرتين على المسرح العالمى خارج أوروبا . ففى عام ١٩٠٤ — ١٩٠٥ أستطاعت اليابان هزيمة روسيا فى حرب خاض غمارها عدد من الرجال أكثر من أى حرب سابقة فى التاريخ ، وحدث نفس الشىء عندما حرمت الولايات المتحدة الأمريكية أسبانيا من آخر مستعمراتها الهامة على كوبا فى حربهما عام ١٨٩٨ ، وكان ذلك إشارة إلى أنه لم يعد بمقدور القوى الاستعمارية الأوروبية أن تجد متنفسا لتوترها فى حلبة صراع إستعمارى واسعة . فقد بدأ العالم خارج أوروبا يزدحم بالشعوب وبالقوى الصناعية والعسكرية . ومن الملاحظ أنه أمكن بنجاح تفادى حدوث الحروب واسعة النطاق فى هـذه الفترة ، بالرغم من الضغط العنيف الذى ساد أوروبا من العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، فقد إرتفع تعداد سكان أوروبا بمعدل ١٠ ٪ كل عشرة سنوات ، بينما إستمر التصنيع فى النمو ، مع زيادة الإنتاج العالمى إلى أربعة مرات فيما بين ١٨٧٠ و ١٩٠٠ . كما أن التفاعل المتزايد بين نمو السكان والوسائل الصناعية والعلوم النظرية قد أدى إلى ظهور صناعات جديدة كلية مثل الصناعات الكهربائية والكيماوية ومصادر جديدة للطاقة مثل ماكينة الاحتراق الداخلى .

وأدى هذا إلى ظهور الألمنيوم والإطارات المملوءة بالهواء المضغوط واللاسلكى. وفى تلك الفترة أيضاً دخلت الصناعات الحربية بصفة خاصة مرحلة من النمو حيث سيطرت على السياسات فى نفس الوقت تأثرت هى بالسياسة .

وتربع على قمة صناعة السلاح فى العالم الشركات الكبيرة مثل «أرمسترونج» و «كروب» و «كريسوت» .

ونظراً لأن الدول الكبرى لا تسمح عن طيب خاطر لبعض منها لتصبح أقوى من الأخرى ، ونتيجة للاختراعات الجديدة وتزايد القدرة الإنتاجية فقد أدى هذا أن إندفع

الجميع بسرعة فى سباق عالمى للتسليح ، مع التنافس فى إنشاء السكك الحديدية والتبارى فى أحجام الجيوش .

وفى الفترة التى تلت ١٨٧٠ ادخل نظام التجنيد الإجبارى (على الطريقة الألمانية) فى كل مكان فيما عدا بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية .

وفيما بين عام ١٨٧٠ — ١٨٩٨ تضاعفت المؤسسة العسكرية الألمانية إلى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه أى إلى أكثر من ثلاثة ملايين رجل ، بينما وصلت فرنسا إلى نفس الرقم ، وفى روسيا إلى أربعة ملايين ، وفى النمسا إلى أكثر من مليونين .

وبوجه عام فى خلال ٢٥ عاما أصبح مجموع ما يمكن أن تدفعه دول أوروبا إلى ميدان القتال حوالى ١٠ ملايين رجل .

وتم تعديل طريقة التجنيد بصعوبة بالغة خوفا من السياسة الشعبية وخاصة مشاعر الطبقات المتوسطة .

وفى الواقع أصبحت القوات المسلحة بؤرة للمشاعر الوطنية الكثيفة فى كل الأمم ، وقد ظهر ذلك بوضوح فى فرنسا فى قضية « دريفوس » خلال تسعينيات القرن ١٩ .

على كل حال كان هناك إعتراض عملى بخصوص الحجم الكبير للجيوش لأنها لاتلائم الحروب الاستعمارية ، ولهذا السبب فضلت بريطانيا الاحتفاظ بقوات صغيرة محترفة والتى تخدم مدة طويلة .

ولكن بريطانيا لم تكن أقل شعوراً بالقومية عن القوى الاخرى ، فقد كان سلاحها البحرى رمزاً قومياً للبريطانيين كما مثلت الجيوش بالنسبة لشعوب أوروبا .

وفى الفترة ما بين عام ١٨٧٤ — ١٨٩٦ زادت نفقات القوى الاوروبية على الدفاع بنسبة ٥٠ ٪ .

وأدت السرعة فى سباق التسلح إلى وجود هواجس كبيرة مما دعا إلى عقد مؤتمر (١) لنزع السلاح فى « الهوج » عام ١٨٩٩ .

---

(١) لقد دعى قيصر روسيا إلى عقد هذا المؤتمر متأثرا بكتاب وضعه ى.س. بلوش عن أهوال حرب المستقبل. « المعرب »

وتم الموافقة فيه على بعض القواعد البسيطة للتخفيف من أهوال الحرب ، إلا أنه لم يتم الاتفاق على تقييد التسلح . وبدلا من ذلك ذكر ممثل الولايات المتحدة أن حكومته : — « لا تعتبر تقييد إستخدام الاختراعات العسكرية أمراً موصلا للسلام العالمى » .

التكنولوجيا العسكرية

وحدث تنظيم للجيوش الاوروبية جميعاً بمثل ما حدث للاعداد والمعدات . وكانت الفروق بين هذه الجيوش مجرد تفاصيل أو تنازلات صغيرة للتقاليد أو روح الفريق . وظلت المشاة الفرنسية محتفظة بسراويلها الحمراء ، إلا أن معظم القوات فى الميدان كانت ترتدى الملابس الكاكى ، وقد استخدم أولا بواسطة البريطانيين فى الجبهة الهندية عام ١٨٤٨ .

وقد وضح للجميع مدى الحاجة إلى هيئة الأركان على مستوى عالى من الكفاءة . وكانت هيئة الأركان العامة الالمانية لإجراءاتها المنظمة هى النموذج ولكنها فى نفس الوقت مرنة علاوة على سيطرتها على التدريب ورئيسها القوى .

وظهرت أكاديمية نيقولاس للأركان فى بطرسبورج ، وكلية أركان حرب فى كامبرى ، وكانا يعادلان الاكاديمية الحربية البروسية .

ووصلت هذه المنشآت التعليمية إلى مستوى أعلى من ذى قبل ، وذلك بتشديد شروط القبول فيها بالتوسع فى المناهج الدراسية .

وإزداد التخصص بشكل كبير فى الجيوش مع الاعتماد على الطبقات المتوسطة فى ضباطها .

وفى بريطانيا جاء إلغاء شراء الرتب العسكرية كأحد الإصلاحات العظيمة والكثيرة والتى أدت إلى كفاءة الجيش خلال الفترة التى كان فيها «إدوارد كاردويل» فى وزارة الحربية وفيما بعد عندما كان كل من « السير جارنت » و « ولسلى » و « اللورد روبرت » قائداً عاماً للقوات المسلحة .

وكان الفيلق (١) هو الوحدة الرئيسية فى الجيوش الاوروبية ، ومنظما ولديه الاكتفاء

---

(١) يتكون الفيلق من حوالى ٣٠٠٠٠ رجل . « المعرب »

الذاتى بحيث يمكنه القتال بكفاءة فى حالة إنفصاله عن الجيش الرئيسى وعادة مايرتبط الفيلق بمنطقة إقليمية معينة ومن ثم لم يكن قائده مسئولا فقط عن تنظيم وتدريب وحداته ولكنه كان مسئولا أيضاً عن التجنيد والإمداد والنقل .

وإذا نظرنا إلى أحد الفيالق فنجده يتكون من فرقتين تضم كل منها لواءين من المشاة ولواء من الفرسان وآلاى مدفعية ميدان ، علاوة على وجود وحدات تحت القيادة المباشرة للفيلق وهى آلاى مدفعية ثقيلة ووحدات مهندسين وإمداد ، ووحدات طبية ، ووحدات تلغراف ، وأطقم للسكة الحديد والبالونات وراكبى الدرجات والكبارى وبعض الخدمات الأخرى الإدارية والمساعدة .

وأصبح التسليح فى نهاية القرن قريباً من أن يكون موحداً ، فقد سلحت أفراد المشاة بالبندقية عيار ٨ مم أو ٩ مم ذات الخزنة، وسلحت مدفعية الميدان بمدافع من الصلب من عيار ٨ سم بينما سلحت مدفعية الحصار والمدفعية الثقيلة ، بمدافع وهاونات وهاوترزات بأعيرة من ١٥ سم إلى ٢١ سم .

وفى الفترة ما بين ١٨٧٠ — ١٩١٤ ضمن سباق التسلح إستمرار تطور التكنولوجية العسكرية والبحرية .

وفى عام ١٩٠٠ وصلت البنادق والمسدسات والقربينات ومدافع الماكينة إلى درجة من التطور بحيث أستخدمت هى نفسها خلال حرب ١٤ — ١٩١٨ . وكانت التطورات الرئيسية فى البندقية هى طريقة التعمير من الخزنة التى إخترعها « جامس لى » والعيار الصغير للطلقات التى أصبحت أخف وزناً وبالتالى سارت فى خط مرور مسطح وبسرعة أكبر . وقد استخدمت بريطانيا هذا النوع من البنادق الذى يجمع بين الخاصتين فى عام ١٨٨٧ ، ثم استخدمتها القوات الأخرى بعد ذلك بوقت قصير .

وفى عام ١٨٨٤ إستخدم الفرنسيون البارود عديم الدخان والذى كان العنصر الرئيسى فيه هو « النتروسليلوز » فى شكل حبيبى ، وأدى هذا التطور فى الواقع إلى تغيير شكل ميادين المعارك .

وكان هناك أيضاً تطورات رئيسية فى المفرقعات ، عندما إخترع « الفريد نوبل »

الديناميت عام ١٨٦٠ ثم صناعة « الـكوردايت » فى عام ١٨٩٠ . أما أبرز التطورات فى المسدسات فقد كان فى ظهور مسدس « بورتشاردت » الأتوماتيكى فى عام ١٨٩٣ ، والذى كان البشير بظهور المسدسات الحديثة التى تستخدم الغازات الناتجة من الإطلاق فى تشغيل الحركة الميكانيكية أوتوماتيـكياً .

وفى عام ١٨٩٨ ظهر نوع مبسط من هذه الأنواع صنعه « ماوزر » ، وكان هذا أول مسدس أوتوماتيكى شائع وموثوق فيه ، وإستخدم فى حرب البوير فى جنوب أفريقيا على نطاق واسع مع تعديله ليصبح كالقاربينة بإضافة ماسورة طويلة وخزنة تسع عشر طلقات . وتم إنتاج وتجربة مدافع ماكينة متعددة حتى توصل « هيرمان س ماكسيم » فى عام ١٨٨٣ إلى تصميم تم الموافقة عليه . وقد استخدم فى هذا النموذج خاصية إرتداد المدفع فى عملية التعمير الآلى ، وكان الإطلاق والتعمير يتمان بصفة مستمرة طالما كان الزناد مضغوطاً عليه . ووضعت الطلقات فى شريط مرن بينما بردت الماسورة بواسطة الماء ، وعلى الفور عرفت مميزات هذا السلاح .

وفى عام ١٨٩١ أقر الجيش البريطانى طراز خاص خفيف الوزن وكان وزنه ٤٠ رطل فقط ويطلق ٦٥٠ طلقة فى الدقيقة . وبتعديلات طفيفة أصبح مدفع « ماكسيم » هو المدفع الرشاش فيكرز ، والذى استخدم فى كلا الحربين العالميتين .

وأصبح هذا المدفع أكثر المدافع إستخداما فى حرب الخنادق ، ومن المحتمل أن يكون هذا السلاح هو السلاح الوحيد الذى سقط أمامه أكبر عدد من الجنود قتلا .

وفى عام ١٨٧٠ إنقسمت الآراء حول أيهما أفضل ، المدافع التى تعمر من الأمام أم التى تعمر من الخلف ، إلا أنه بعد مرور عشر سنوات لم يعد هناك مجالا للشك فى أن المدافع التى تعمر من الأمام غير مرضية سواء فى البر أو البحر ، نظراً لخطورة إحتمال التعمير المزدوج ونظراً للاحتياج إلى المواسير الطويلة للحصول على أكبر قدر من سرعة القذيفة ومدى أكبر. واستخدمت المدافع عيار ١٢ رطل فى مدفعية الميدان البريطانية وكان المدفع يزن ٣٨ هندردويت ويجره ست خيول .

وفى عام ١٨٩٠ إستخدمت عربات للمدافع ذات الإرتداد الهيدروليـكى .

عربة مدفع ذات أرتداد هيدروليكي تتحرك فى ميدان المعركة

أما الفرنسيون فكان لديهم مايشابه ذلك ولكن بتحسينات أكثر وهو مدفع الميدان ٧٥ مم .

وفى عام ١٨٩٠ كانت معظم الجيوش الأوروبية مجهزة بالمدافع التى استخدمتها فى حرب ١٤ — ١٩١٨ مع تعديلات طفيفة عليها . وفى هذه الفترة إتجهت الحرب لأول مرة إلى الجو . فقد أدركت الدول قيمة عمليات الاستطلاع الجوى ، وفى بريطانيا وفرنسا وألمانيا تم صنع بالونات ومناطيد ، كما أنشأت أول مدرسة للبالونات الحربية فى « وولوتش » عام ١٨٧٨ ، بينما صنع الألمان منطادهم الشهير « زبلن » .

ومنذ عام ١٩٠٩ إتسع سباق التسلح بجد فى مجال الحرب الجوية . وبعد نجاح طيران الأخوين « رايت » بالطائرة ، كانت فرنسا هى أول دولة قدرت قيمة قوة الطائرة فى الأغراض العسكرية .

ومن عام ١٩٠٨ حدث تقدم سريع فى تصميم الطائرات من حيث السرعة والمدى والكفاءة .

وفى عام ١٩١٤ وصلت سرعة الطائرات إلى ٧٥ ميلا فى الساعة ، ويمكنها القدرة على البقاء فى الجو لمدة ساعتين أو ثلاث ، ولكنها لم تكن قد استخدمت بعد فى الحرب ، إلا أن الرأى العسكرى كان يميل إلى وجهة النظر التى تقول أنها قد تكون مفيدة أساساً فى الاستطلاع .

وفى عام ١٩١٤ كانت القوات الجوية البريطانية مشكلة من قسمين ، جناح بحرى وهو للخدمات الجوية للبحرية الملكية، والفيلق الجوى الملكى وهو خاص بالجيش.

ظهور الغواصات

وخلال سبعينات القرن ١٩ تزايدت قدرة الدانات على الاختراق ومن ثم بدأ الاتجاه فى بناء السفن يميل إلى تغطية بدنها بدروع حديدية وصلت فى بعض الأحيان إلى ٢٤ بوصة . وعلى أى حال فإن التقدم الكبير الذى طرأ على صناعة الصلب فى السنوات العشر اللاحقة أدى إلى توفير ألواح مدرعة رقيقة من الصلب ولكن أخف وزناً وقوية بدرجة كافية. وظهرت مشكلة توفير الأمان وخفة الحركة ، وهما مطلبان متعارضان .

وفى عام ١٨٩٠ نبذت بريطانيا إستخدام المنصات العائمة المركب عليها المدافع وذلك عندما بنت فى نفس العام سفينتها الحربية «رويال سوفرين» ، والتى بنيت على نظرية إرتفاع الجزء الطافى من السفينة. وتبعت البحرية البريطانية البحريات الأخرى .

ومع تزايد حدة سباق التسلح العالمى عام ١٩٠٠ ، وصلت حمولة السفن الحربية إلى ١٥٫٠٠٠ طن وسرعتها إلى ١٨ عقدة ، كما حملت مدافع عيار ١٢ أو ١٣ بوصة ذات سرعة إطلاق عالية .

وإنزعجت بريطانيا من تحالف روسيا وفرنسا ، إذ أن أسطولهما المشترك كان أكبر من أسطولها ، مما جعلها تنفذ برنامجاً ضخماً لبناء السفن فى عام ١٨٩٩ ، مما زاد من حدة السباق البحرى .

وفى عام ١٩٠٤ إستطاعت أن تبنى نموذج «الدريدنوت» للبوارج الحربية وكان تسليحها

الرئيسى ١٠ مدافع من عيار ١٢ بوصة . وقد تفوقت هذه السفينة فى تصميم جميع البوارج الحربية السابقة ، وظلت نموذجا للسفن الحربية الرئيسية حتى حرب ٣٩ — ١٩٤٥ .

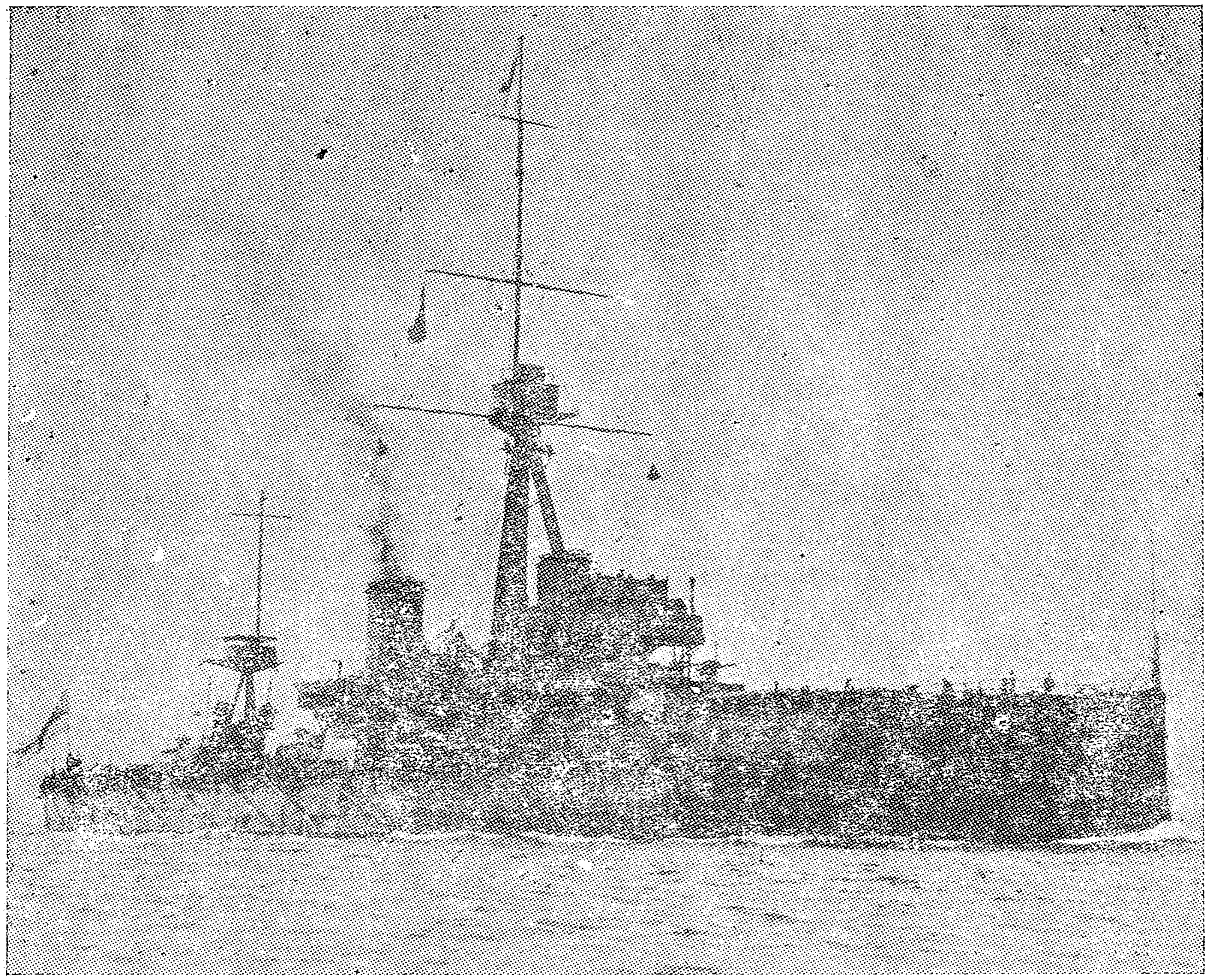

بارجة حربية من نوع «الدريدنوت» المسلحة بـ ١٠ مدفع عيار ١٢ بوصة

وأدى إدخال التوربين البخارى والتحول من الفحم إلى النفط إلى زيادة السرعة من ١٨ عقدة إلى ٢٥ عقدة، وأصبح من الممكن للسفن البقاء فى البحر مع السير بسرعات عالية لفترات طويلة .

وفى السنوات التى سبقت عام ١٩١٤ أصبحت كل من بريطانيا وألمانيا على قمة المتنافسين فى السباق البحرى .

وخلال عام واحد صنعت بريطانيا وحدها ثمان سفن جديدة . وكان على القوى الأوروبية

أيضاً التنافس على القواعد فى جميع أرجاء العـالم ، وقد تلاءم ذلك تماماً مع ميولهم الاستعمارية .

وفى عام ١٨٧٧ إستخدم الروس الطوربيدات بفاعلية ضد السفن التركية الثابتة ، ومن بعدها أصبحت زوارق الطوربيد من العناصر العادية فى الحروب البحرية . أما التطور الحقيقى الذى طرأ على الغواصة فقد بدأ عام ١٨٧٧ باختراع الدفة الأفقية والتى جعلت من الممكن السيطرة على قيادتها .

وأصبحت الغواصة فى النهاية سلاحاً ذا قوة مؤثرة كبيرة بفضل البطاريات القابلة للشحن والماكينات التى تعمل بالبترول . وكان الفرنسيون هم الرواد فى هذا المجال ، ففى عام ١٨٩٩ أبحرت الغواصة « جوستاف زيدى » بسرعة ٨ عقدة وعلى عمق ٦٠ قدم تحت السطح .

وفى عام ١٩٠١ كان لدى فرنسا ٢٣ غواصة بما فيها الغواصات الجارى بناؤها . وأمرت بريطانيا ببناء خمسة غواصات فى هذا العام ، أما ألمانيا فلم تقتنع بفاعلية هذا السلاح . ولـكن بحلول عام ١٩١٢ فان تجربة مناورة الغواصات أقنعت المفـكرين البحريين فى جميع الدول ، بقيمة الغواصات كسفينة مهاجمة ، ولم تعد هناك بحرية رئيسية تخلو منها .

الحروب الصغيرة

ومن بين المؤلفات العسكرية الغزيرة التى ظهرت فى هذه الفترة، كتاب الميجور جنرال « سير تشارلز كولويل » إسمه « الحروب الصغيرة مبادئها وتطبيقها » عام ١٨٩٦ . وقد إهتم هذا الـكتاب بالحملات العديدة التي قامت بها القوى الاستعمارية .

وكانت معظم هذه الحملات فى شكل عمليات غير نظامية . وقد استخدمت أحدث المعدات العسكرية وموارد الثروة للمجتمعات الصناعية ضد قوات الشعوب البدائية . أما العمليات المدبرة فـكانت نادرة ، لأنه مهما كانت شجاعة المواطنين فان النتيجة النهائية لمثل هذا القتال ستـكون هزيمة منـكرة للمواطنين .

وهذا الطراز من الحرب كان له مشاكل غير عادية منها صعوبة الإمداد والنقل فى الأحراش والمستنقعات والصحراء ، كما أن الطقس وحده يعتبر عدوا لا يقهر . وعندما يتجنب العدو القتال المفتوح ويعتمد على المراوغة والاختفاء والـكمائن وأعمال القناصة ، والإغارة ، فسوف

يصبح من الصعوبة الحفاظ بالروح المعنوية عالية . وبصفة خاصة فلم يكن من السهل العثور على هدف معادى محدد ، فلا يوجد تشكيل رئيسى للعدو للبحث عنه وتدميره ، فى نفس الوقت لن تفيد توجيه ضربة إلى العاصمة ولهذا كانت القوات النظامية مضطرة إلى تناسى تدريبها التكتيكى المناسب للحروب الأوروبية وإتباع أسلوب حرب العصابات ، والحرب الوحشية. والحل لمشكلة عدم توفر الهدف فى مثل هذا النوع من الحروب هو توجيه الضربات لمصادر إمداد العدو وأماكن مأواه وملاذه ، ولا شك أن إفساد المحاصيل وتدمير القرى وحرمان العدو من قطعان ماشيته ، له تأثير كبير ، ولكن من الناحية الأخرى جعلت هذه الطريقة الحرب وحشية ومكروهة .

وقد عارض القادة العسكريون من نوع حكام المستعمرات أمثال « لياوتى » و« كتشنر » اللجوء إلى هذه الطرق ، نظراً لأنهم كانوا ينظرون إلى الإدارة المستقبلة للمنطقة عندما يتم إخضاعها .

وقد يكون من المفيد تجنيد السكان المحليين فى جانب الأوروبيين ، نظراً لاستطاعتهم التعرف على الأرض وعلى عادات العدو ، هذا بالرغم من أنهم قد يكونوا غادرين .

ومن ناحية أخرى كانت الأفضلية التكتيكية فى جانب التشكيلات المرنة الغير ملتصقة ومن لديه خيول أفضل ومدفعية ميدان خفيفة وبنادق ذات خزن ومدى طويل . أما من الناحية الإستراتيجية فكانت هناك قاعدة هامة وهى مواصلة الهجوم لأن الجانب الجرىء سوف يحرز المبادأة ويثبط همة العدو ، لأن العدو سيرجع عدم الهجوم عليه إلى الخوف منه. وكان أقدر القادة فى هذه الفتره هو « ميخائيل سكوبليف » (١٨٤٣ — ١٨٨٢) الفاتح الروسى للتركستان . وفى عام ١٨٧٧ كان سكوبليف قد خدم سبع سنوات فى هذه المنطقة ، والنتيجة التى خرج بها من تجربته فيها هى : — « أن السيد المطلق فى آسيا هو الذى يقبض على رقبة الشعب بدون رحمة » . وفى عام ١٨٨٠ قاد حملة ضد التركمانيين الذين يفوقونه عددا وبشكل كبير ، بينما كانت الأرض لم تزد عن كونها صحراء قاحلة خالية من المؤن .

ميخائيل سكوبليف

وقد تحرك ببطء وبصبر ولكن دون أن يمنح العدو على الأطلاق أى فترة راحة ، وحققت هذه الحملة نجاحاً

كاملا . وفى ١٨٩٨ قام كتشنر بنفس العمل ولم يتخل قط عن الإستراتيجية الهجومية ضد الدراويش، ومن الناحية التكتيكية لم يكن الهجوم حيويا ، وعندما وصل كتشنر الخرطوم إتخذ موقفاً دفاعياً ضد هجمات الدراويش الوحشية والتى حطمتها نيران القوات الإنجليزية المصرية. وقد كان من المحتمل وقوع كارثة دائما ، أمام المقاتلين الشجعان أمثال أهالى نيوزلندة والدراويش وسكان الجبال فى الجبهة الهندية ، وقبائل الزولو المنظمين تنظيما عالياً ويتمتعون بعقلية تكتيكية.

قبائل الزولو فى إحدى هجماتها الوحشية

وكان الحل المناسب هو إقامة دفاع صلب لإغراء قوات العدو لمهاجمتها وبالتالى يسهل تدميرها ، أو الهجوم بعزم ، إلا أن التردد كان قاتلا . ففى « مايواند » فى الهند عام ١٨٨٠ تحركت قوة بريطانية من مواقعها الدفاعية ، ولكنها فشلت فى الهجوم وكانت النتيجة إبادتها . وفى عام ١٨٩٦ فى « أدوا » إرتكب القائد الإيطالى كثيرمن الأخطاء فى مواجهة الأحباش ، فقد إستخف بقوة العدو وسمح لقواته بالأمتداد والأنتشار من غير نظام ، وكانت النتيجة هى هزيمة رجاله ١٥٠٠٠ هزيمة منكرة . وقد كان رجال « الزولو » مقاتلين ممتازين

يجمعون بين التنظيم والتدريب والمرونة والضبط والربط مشابهين فى ذلك قوات فريدريك الأكبر . وكانت لديهم خفة حركة مذهلة ، نظراً لتحركهم على الأقدام بقفزات سريعة تقارب سرعة الخيل ، علاوة على معرفتهم التامة بالأرض ، وكان أسلوب هجومهم فى المعركة هو تحرك المنتصف ببطء نسبياً ، حتى تعطى الفرصة للأجناب لتطويق العدو . وفى عام ١٨٧٩ إكتسح جيش كبير من الزولو قوة بريطانية مكونة من حوالى ٦٠٠٠ رجل بقيادة اللورد « تشلمسفورد » عند « أسندلوانا » حيث تمكنت قوات الزولو إخفاء تقدمها تماما عن البريطانيين . وبعد ذلك فى نفس العام ، إنتقم تشلمسفورد لهزيمته السابقة بإنتصاره عند « الوندى » حيث أثبتت البندقية تفوقها الساحق على « الإسيجاى »[1] . وفى عام ١٨٦٥ إجتاحت قوة روسية قوامها ٢٠٠٠ رجل مدينة طشقند والتى كان بها ٣٠٠٠٠ من المدافعين وهذا يظهر ما يمكن عمله عندما تشترك الأسلحة الحديثة مع التكتيكات الهجومية الحازمة . وعلى أى حال فقد كان الدفاع على وجه العموم أفضل الأساليب التكتيكية إذ أنه أكثر ضماناً وأقل تكلفة فى الأرواح .

حرب البوير

وعلى الرغم من أن حرب البوير (١٨٩٩ — ١٩٠٣) حدثت على نطاق يفوق درجة الحروب الصغيرة إلا أنها تضمنت للكثير من الصفات التى ميزت الحروب الإستعمارية الغير نظامية . فقد إتحد البيض من سكان إفريقيا وأصبحوا يعارضون بريطانيا بعنف ، بسبب السياسة الإستعمارية التى إتبعها أساساً « سيسيل رودس » ، والتى تهدف إلى مد السيطرة من الكاب حتى القاهرة .

ولم يكن الأمر يقتصر على ذلك ، بل كانت هناك بعض المناوشات السابقة لحرب البوير عام ١٨٨١ ، وحملة جامسون عام ١٨٩٥ . أما حرب البوير فى شكلها ونطاقها الكاملين فقد بدأت فى أكتوبر عام ١٨٩٩ . وقد كان رجال البوير فلاحين أقوياء ورماة مهرة بأستخدامهم بنادقهم الماوزر علاوة على أنهم غير مقيدين ولذلك لم يعقهم طرق الحرب التقليدية . وكانوا يعرفون أرضهم معرفة وطيدة وهذا جعلهم خصما عنيداً صعباً حتى بالنسبة

(١) الاسيجاى رمح رفيع تستعمله القبائل الأفريقية

لأمة لها موارد كبريطانيا. ولجأ البوير إلى حرب العصابات على نطاق واسع ؛ وكانت فكرة الحرب الشعبية منفذة إلى أقصى حد لدرجة أنه كان مدون فى قائمة الفدائيين البوير ٨٥٫٠٠٠ إسم . وكان جميع المقاتلين أشداء وفرسان من الدرجة الأولى ولكنهم كانوا يقاتلون مترجلين ويتميزون بحاسة طبيعية للأساليب التكتيكية البسيطة . وكانوا على نحو غير متوقع ، أقوياء فى المدفعية ، فقد ساعدهم فى هذا المجال وغيره عدد من المغامرين والخبراء الأوروبيين .

وكان نقطة ضعفهم تكمن فى عدم التنظيم والضبط والربط ، حيث كانوا يكرهون النظام . فلم يستطع ضباطهم الاعتماد على ما هو مدون من الرجال فى السجلات للدخول بهم المعركة لأنهم كثيراً ما يتخلفون . ولم يعانوا من مشـــكلة الإمدادات وذلك لقتالهم على أراضيهم .

وفى عام ١٨٩٩ لم تكن القوات البريطانية فى جنوب أفريقيا تتعدى ١٠٫٠٠٠ رجل وكانت هذه القوات جيدة التسليح بأسلحتهم الصغيرة ، ولكن كان لدى البوير مدفعية أفضل . كما لم يكن الجنود البريطانيون مدربين تدريبا كافياً للتعامل مع مقاتلين جيدى التسليح ولهم مقدرة مثل البوير ، فقد كان التدريب البريطانى غير كافى ليخلق المبادأة الذكية ، كما كتب أحد الضباط الأركانحرب يقول : « لقد جعلنا الجندى غبياً فى نواح كثيرة ، وذلك لأننا نبدأ بالافتراض بأنه غبى وبالتدريج نعلمه أنه كذلك وبالتالى فانه يعتبر نفسه غبياً » .

وفى هذه الحرب أتبع البوير مبدأ الهجوم ، ومع حلول الخريف كانوا قد حققوا نجاحاً سريعاً حيث دفعوا القوات البريطانية إلى الأحماء فى مدن « ليديسمث » و « كمبرلى » و « مافيكنج » . وحاول « بولر » القائد العام البريطانى إقتحام نهر « توجلا » عنوة ، وكان سينجح لولا نظرته الغير عميقة للامور وأعتقد أن خسائره من الأرواح كانت كبيرة جداً . وفى ديسمبر هزم « بولر » على يد « بوثا » عند « كولينسو » .

وفى ٢٤ يناير ١٩٠٠ حلت « ببولر » كارثة عند « سبيون كوب » ، وقد أطلق الأستاذ « سيريل فولز » على هذا اليوم « أعظم يوم فى تاريخ البندقية » . فى ذلك اليوم خاض البوير هجومهم من مسافات قريبة جداً بواسطة نيران البنادق فقط هازمين القوات البريطانية حتى

بدون الحاجة إلى القيام باقتحام نهائى . ومثل هذا النجاح هو شهادة تقدير للسلاح الذى أستخدموه فى نفس الوقت يرجع لمهارتهم فى الرماية . فقد كان البوير يصيبون الهدف حتى ولو تعرض الجندى لحظه بسيطة أمامهم ويقتلونه بطلقة واحدة فقط. وفى أوائل عام ١٩٠٠ وصلت أخيراً التدعيمات البريطانية إلى جغوب أفريقيا .

وكان التنظيم الذى وضعه « كاردويل » للجيش مصمم على أساس إمداد حاميات إستعمارية صغيرة وليست كبيرة ، مما أدى إلى صعوبة إنشاء قوات كبيرة بسرعة ، لتصبح مناسبة لقتال مثل هذا العدو المراوغ العنيد . والدرس المستفاد التى خرجت به بريطانيا من هذه الحرب هو يجب الإحتفاظ باحتياطى كبير جيد التدريب فى هذه المناطق .

ومع حلول عام ١٩١٤ كانت بريطانيا فى موقف مناسب تستطيع معه القيام بحرب كبرى. وإلى جانب التدعيمات وصل قائد عام جديد هو الفيلد مارشال « روبرتس »[١] .وقد أحضر « روبرتس » معه منظم من الطراز الأول كرئيس للأركان وهو الجنرال كتشنر ، وكذا مهندس سكك حديد بارع وهو العقيد « جروارد »[٢] . وأعيد تنظيم المواصلات والنقل ، وفى فبراير بدأ « روبرتس » حملته بخداع العدو أولا ثم بحشد قواته فى النهاية فى الغرب ، جنوبى نهر « مودر » ، وإستطاع فك حصار المدن المحاصرة . وعلى نهاية الصيف كان قد تم الإستيلاء على جميع المعاقل الرئيسية للبور ، مع هزيمة قوات البوير عند « دايموند هيل » فى « بلفاست » حيث هرب رئيس البوير إلى أوروبا ، وبدا أن الحرب قد أنتهت عملياً، وعاد « روبرتس » إلى إنجلترا تاركا كتشنر لينهى بقاياها .

وفى الحقيقة لم تكن الحرب قد إنتهت بعد ، فقد واصل البوير حرباً غير نظامية لمدة حوالى عامين تحت قيادة قائد حرب عصابات بارع يدعى « كرستيان دى ويت » ، وقام البوير بغارات غاية فى المهارة لتحركهم بسرعة وبسرية ونجحوا فى تدمير السكك الحديدية ، وقطعوا الطرق فعزلوا القوات البريطانية عن بعضها ، متجنبين فى نفس الوقت المطاردة ، واضطر كتشنر فى تكرار طلب التدعيمات التى وصلته من المستعمرات البريطانية ومن

---

(١) أنه قائد محنك وكان يقود الجبهة الغربية فى الهند

(٢) كان كندى الجنسية .

بريطانيا نفسها . ولكى يحصل كتشنر على خفة الحركة ، فقد جعل مشاته راكبة على نفس طريقة البوير ، ولكنه لم يتمكن من القضاء عليهم. وقرر كتشنر قطع سبل الحياة على البوير بأتباع تلك الطريقة المنبوذة الخاصة بإتلاف الحقول وإعتقال المدنيين فى معسكرات حيث ظروف الحياة لا تطاق. وحتى ذلك الأسلوب لم يفلح فى إنهاء مقاومة البوير. وأخيراً توصل كتشنر إلى الحل ، فقد قسم القطر بانتظام إلى حظائر كبيرة محاطة بالأسلاك الشائكة وبها حاميات فى حصون صغيرة فى مناطق مختارة . وتقدمت القولات البريطانية ببطء . ولكن بتمكن عبر كل قسم ، حيث تقضى على جميع قوات العدو فى القسم. وفى مايو ١٩٠٣ تم الصلح فى « فرينجنج » بتقديم شروط سخية وأمكن المحافظة عليها. وكانت الكفاءة متساوية لدى الطرفين، ولكن تفوقت مهارة كتشنر وتنظيمه الشامل على البوير .

الجنرال الابيض (أنظر اللوحة رقم ٤٠)

ومع وصول الأمبراطورية العثمانية إلى المراحل الأخيرة من الإضمحلال ، أصبحت البلقان مركزاً متزايداً من الخطر .

فقد أدى الفراغ الذى ترتب على ضعف الأتراك إلى إختلال المنزان السياسى لأوروبا فى القرن ١٩ . كما أن القومية والوطنية بعثت النشاط والحيوية فى شعوب البلقان ، بينما كانت روسيا والنمسا تتطلعان بنهم إلى الأمبراطورية العثمانية المضمحلة ، أما ألمانيا ففكرت فى توسيع مجال نفوذها ، بينما كانت بريطانيا مهتمة بالمحافظة على مصالحها فى الدردنيل وقناة السويس. وفى الفترة (١٨٧٦ — ١٨٧٨) حدثت أزمة ذات طابع مميز ، فقد تمرد البلغار على الأتراك وسرعان ما تم سحق هذا التمرد، إلا أن الفظائع التى إرتكبها الأتراك فى سحق التمرد أثارت موجة من الكره والسخط فى جميع أنحاء أوروبا . وثارت كل من الصرب ورومانيا .

وفى مايو ١٨٧٧ إنتهز الروس الفرصة وهاجموا تركيا . وعبر الروس نهر الدانوب ولكن إستطاع الأتراك إيقافهم عند مدينة « بلفنا » .

وكان الروس يجهلون خلال تقدمهم وجود فيلق مساوى لضعف قوتهم بقيادة عثمان باشا يسد عليهم الطريق .

وقدر عثمان باشا بأنه يستطيع إيقاف العدو عند « بلفنا » بينما تحشد القوات التركية

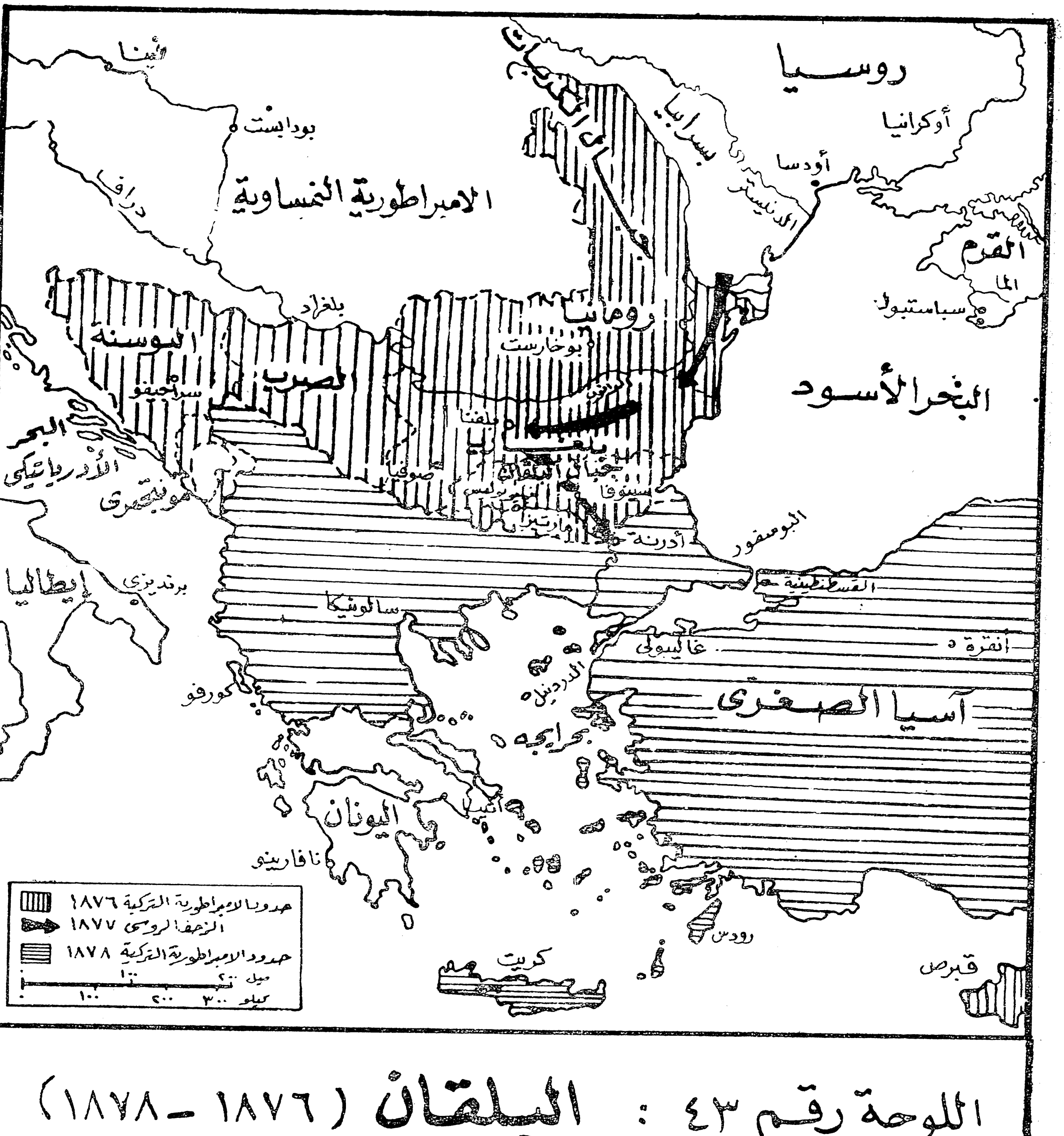

اللوحة رقم ٤٣ : البلقان (١٨٧٦ - ١٨٧٨)

للدفاع الرئيسى عن الإمبراطورية ، وعلى سبيل المثال عند « أدرنه » . وإختار لذلك موقعاً دفاعياً ممتازاً كما دعمه بتحصينات ميدانية .

وكانت القوات التركية بما لديها من بنادق المرتينى ومدافع الميدان كروب والتى تعمر من الخلف أفضل تسليحاً من أعدائهم .

وسرعان ما أصبح عددهم يتزايد بدرجة ملحوظة ، حتى تمكنوا من صد الهجوم الروسى الأول على « بلفنا » فى ٢٠ يوليه ، وبلغت خسائرهم ٣٥ ٪ من قواتهم المهاجمة . ولقد كان هجومهم الثانى أكثر حذراً ، بالرغم من أنه تم بشجاعة إلا أنه كان غير بارع فى فكرته ، ولم يجد الأتراك أى مشقة فى الاحتفاظ بمواقعهم .

وفى سبتمبر كان لدى عثمان ٥٦٫٠٠٠ رجل كما تمكن من إقامة ١٨ معقلا حصيناً . أما الروس فكان لديهم ٨٤٫٠٠٠ رجل وقد مهدوا لهجومهم بقصف لمدة أربعة أيام . ولم ينجح سوى قسم واحد من هجوم الروس وهو الذى يقوده « سكوبليف » فى قطاع التلال الخضراء ، والذى قام بنفسه باجراء عملية إستطلاعه .

وكانت خسائره فى الهجوم فادحة ولكنه أشرك الاحتياطيات بمهارة ، وفى اللحظة الحاسمة قاد رجاله بنفسه إلى أهدافهم .

وعلى أى حال لم تسقط « بلفنا » بعد . وبعد أن وصلت قوات روسية كبيرة وأحكمت حلقة الحصار قدر عثمان أنه لن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك . ولذلك إضطر الأتراك فى ديسمبر إلى الإنسحاب ، وتم توقيع هدنة فى نهاية يناير ١٨٧٨ ، عندما أصبح الروس فى ذلك الوقت بالقرب من القسطنطينية .

وإذا تمعنا فى هذه الحرب فسنجد أنها تقدم لنا الجديد من السمات المثيرة والهامة ، وأحداها هو مهارة وقيادة «سكوبليف » الملهمة ، فقد تنكر فى زى تركمانى ذات مرة فى التركستان وإستطلع بدون خوف أرض العدو ، والطريق الذى كان على رجالة سلوكه أثناء الهجوم .

والآن بعد إتمام مهمته فى الهجوم على « بلفنا » ، عبر فى شهر يناير جبال البلقان وسط عواصف ثلجية ليهزم الأتراك عند « ستوفا » حيث أسر ٣٦٫٠٠٠ رجل و٩٠ مدفع . وقد

كان رجال سكوبليف يحبونه إلى درجة العبادة ، هذا الجنرال ذو الرداء الأبيض ويمتطي جواداً أبيض والذى يشاركهم دائما أعنف مراحل القتال ضراوة .

وفى عام ١٨٨٢ توفى سكوبليف بمرض فى القلب وكان عمره ٣٩ عاما. وإلى جانب قيادته الماهرة ، فهناك جانب آخر يستحق الإشارة به وهو شجاعة الجنود الروس الذين كانوا يعاودون مهاجمة أقوى مواقع الأعداء المرة تلو الأخرى ويسيرون طوال الليل فوق الجبال وتحت الثلوج .

وقد أثار نجاح المقاومة التى أقامها الأتراك دهشة أوروبا المعاصرة ، وأشارت تحصينات عثمان باشا الميدانية إلى طبيعة القتال فى المستقبل بين الجيوش المسلحة بالبنادق . وتعلم الروس من الأتراك أن البندقية يجب أن يكملها الجاروف .

وقد أدت فترة صمود الأتراك إلى دفع خصوم روسيا وأساساً بريطانيا ، لتقديم التأييد السياسى فى آخر لحظة للامبراطورية العثمانية ، وكنتيجة لذلك حدث نوع من الاضطرابات اختلفت مظاهرة فى دول البلقان وأوروبا .

الحرب الروسية اليابانية

أما الموقف فى الشرق الأقصى فكان مضطربا بسبب قلق الدول الأوروبية بانبثاق اليابان والتى تابعت يقظتها بخطى سريعة نحو التقدم منذ وصول أسطول « بيرى » لها عام ١٨٥٣ .

ففى عام ١٨٧١ ألغى نظام الإقطاع ونتيجة لذلك تقاعد حوالى مليونين من الساموراى ، وأنشىء جيش وطنى عام ١٨٧٣ . وبدأ تجنيد كل الذكور من السكان ، بدلا من قصر الخدمة العسكرية على الساموراى .

وقد وفرت ألمانيا المعدات والتدريب للجيش اليابانى بينما وفرت بريطانيا الأسطول اليابانى .

أما التصنيع فقد تقدم بسرعة وفى عام ١٩٠٣ وصل تعداد اليابان حوالى ٣٥ مليون نسمة. ومع تطور قدرات اليابان نمت أيضاً أطماعها ، وبدأت تنشد فرض نفوذها على شرق آسيا ، وكان من الطبيعى أن يكون أول إهتمامها بكوريا ، نقطة الانطلاق الرئيسية إلى أرض آسيا .

وقد جربت اليابان قواتها بنجاح ملحوظ فى الحرب الصينية اليابانية عامى ١٨٩٤ — ١٨٩٥، إلا أنه فى نفس ذلك الوقت كانت روسيا تمد خط سكة حديد سيبيريا إلى الشرق الأقصى ، وأجبرت الصين لتأجر لها شبه جزيرة « لياوتونج » .

ووجدت روسيا واليابان نفسيهما وقد دخلا فى تنافس مباشر ، وقد تمكن اليابانيون من معرفة عدم فاعلية منافسيهم ، وذلك بملاحظة دور الروس فى معالجة ثورة « جماعة البوكسر الصينية(١) » عام ١٩٠٠ .

وساءت العلاقات بسبب موضوع «مجالات النفوذ » فى أشباه الجزر ، وفى النهاية، فى فبراير ١٩٠٤ بدأت اليابان الحرب مع روسيا بدون إعلان رسمى . وكان شيئاً مثيراً للدهشة أن تقوم قوة ناشئة مثل اليابان وحدها ، بتحدى أكبر قوة فى تعدادها فى قوى أوروبا القديمة ، ولكن اليابان قدرت الأمور جيداً .

ففى عام ١٩٠٢ وقعت معاهدة مع بريطانيا تعهدت فيها بمساعدة اليابان لو تدخلت قوة ثالثة ضدها .

وكان اليابانيون يقاتلون بغرض محدد للغاية وهو تأمين السيطرة على نطاق معين .وكانت هذه الحرب فى صالح اليابان ، فقد كانت المسافة بين القاعدتين الروسيتين « موسكو » و « بورت آرثر » أكثر من ٥٫٠٠٠ ميل ، وبالطبع كان الروس يمتلكون موارد أكبر فى الرجال والمواد ، ولكن كان لديهم مشـــكلة رهيبة وهى كيف يمكن جلبهم إلى مسرح الحرب .

وعندما بدأ القتال كانت هناك ثغرة فى سكة حديد سيبيريا وهى التى حول بحيرة « بيكال »، وعلى الرغم من المجهود الجبار للمهندسين الروس فى السكة الحديد ، فكان يستغرق نقل كتيبة من موسكو إلى «بورت آرثر» شهراً .

وفى عام ١٩٠٤ إستطاعت اليابان أن تدفع على الفور إلى الميدان بحوالى ٣٠٠٫٠٠٠ رجل يشكلون ١٣ فرقة ، علاوة على ٤٠٠٫٠٠٠ رجل مدرب فى الاحتياط ، بينما زادت القوات الروسية المتيسرة من ٨٣٫٠٠٠ رجل إلى ٢٥٠٫٠٠٠ مقاتل فى نهاية هذا العام .

---

(١) كانت هذه الثورة تهدف إلى طرد الأجانب من الصين دفعة واحدة وإلى الابد ، «المعرب»

وتساوت المعدات فى كلا الجانبين تقريباً من ناحية الـكفاءة ، ولـكن كما أظهر القتال ، فـكانت القيادة اليابانية المشكلة على الطريقة الألمانية أفضل من الروسية ، كما كانت الروح المعنوية لليابانيين مرتفعة .

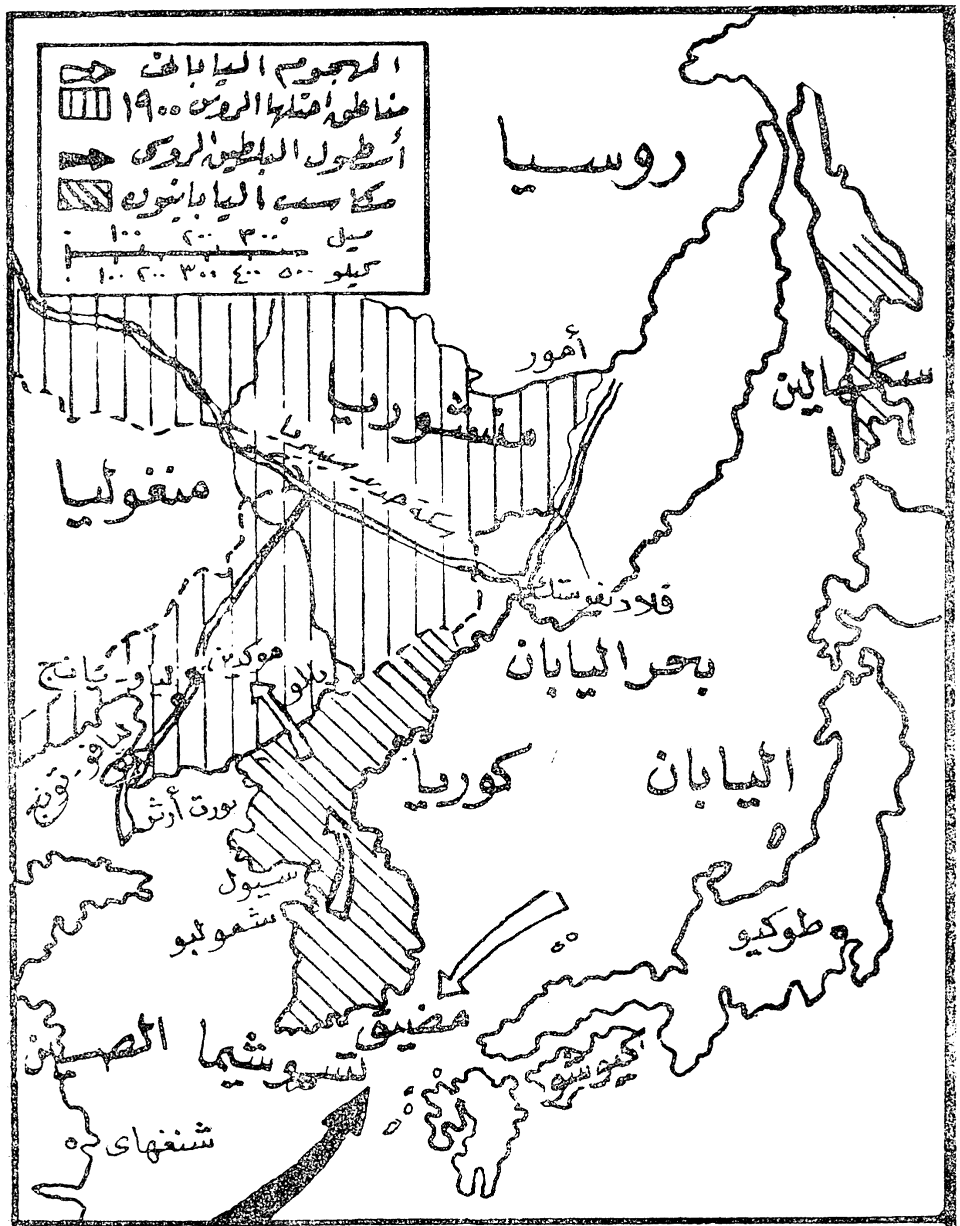

(اللوحة رقم ٤٤)
الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤

وكانت القوة البحرية عاملا حيويا ، نظراً لأن طرق المواصلات اليابانية مع آسيا تعتمد على السيطرة البحرية .

وقد تفوق الأسطول اليابانى قليلا فى الحجم والخواص على الأسطول الروسى فى الشرق الأقصى ، المتمركز فى « بورت آرثر » مع وجود قسم منفصل فى « فلاديفوستك » ، بينما كان لدى الروس أسطولا آخر فى بحر البلطيق والذى يمكنه الوصول إلى مسرح العمليات على الرغم من الوقت الطويل الذى تستغرقه الرحلة البحرية .

وكان هدف اليابان توجيه ضربة حاسمة لبورت آرثر وبالتالى يزيلوا أى تهديد لليابان نفسها وتأمين حرية تحركات قواتها البرية ، وبذلك تنتصر فى معركة رئيسية ضد روسيا فتقتنع روسيا باحترام اليابان فى الشرق الأوسط .

وجرت العمليات الأولى الهامة فى البحر . ففى بداية الحرب ، أخذ الأسطول اليابانى الرئيسى بقيادة الأدميرال « توجو » المبادأة ، ففى ليلة ٨ فبراير فاجأت زوارق الطوربيد اليابانية الأسطول الروسى فى بورت آرثر ، ملحقة دماراً جسيما ببارجتين وطراد روسى ، وفى نفس الليلة أغرق طراد روسى وأعطب آخر فى ميناء « شمولبو » فى كوريا ، بينما كانت السفن الروسية فى ميناء « فلاديفوستك » محصورة بالجليد .

وأقام اليابانيون حصاراً محكماً على « بورت آرثر » . وقد سمح لهم ذلك بإنزال قواتهم بدون إعاقة فى كوريا حيث دفعوا الروس للخلف حتى نهر « يالو » . وقد كان حصار « بورت آرثر » فى الشتاء بمثابة إختبار للأسطولين ، فقد إشتبكت البوارج اليابانية مع البطاريات الساحلية ، كما حاول كل جانب تدمير سفن الآخر باستخدام الطوربيدات والألغام .

وفى مارس تولى الأدميرال «مكاروف» قيادة الأسطول الروسى وقام بسلسلة من الغارات المفاجئة خارج الميناء مما سبب قلقاً شديداً « لتوجو » .

ولكن فى منتصف شهر إبريل نسف لغم سفينة القيادة الروسية ، وقتل الأدميرال « مكاروف » ، وكان موته كارثة للروس .

وفى أغسطس أدى خروج الأسطول الروسى من الميناء إلى نشوب معركة ولكنها لم تكن حاسمة من الناحية التكتيكية نظراً لأن القتال تم فيها من مسافات بعيدة، ولكن إنسحاب الأسطول الروسى ثانية إلى بورت آرثر؛ كان بمثابة نصراً إستراتيجياً لليابانيين. وحافظ اليابانيون على حصارهم وحققوا هدفهم باستمرار بإقصاء القوة البحرية الروسية عن دائرة العمليات والذى كان أمراً حيوياً بالنسبة لليابانيين.

وفى يونيه ١٩٠٤ تم نقل قوات برية يابانية كافية لعملية حصار «بورت آرثر» من البر. وكان «أوياما» قائد القوات البرية اليابانية، جنديا عالى الكفاءة وجسوراً ويشجع قادة جيشه المرؤوسين على إستخدام مبادأتهم الشخصية فى حدود توجيهاته العريضة. وكان منهم الجنرال «توجى» االذى كان قائدا موهوبا فى المعركة.

أما فى الجانب الروسى فكان «كوروباتكين»(١) القائد البرى الروسى، ذكيا ولكنه كان يميل إلى الحذر بشكل غير مناسب وتنقصه الثقة بنفسه. وقد كان الحصار الطويل لبورت آرثر صراعاً مريراً، إستخدم فيه اليابانيون الديناميت ووصلت الخسائر ٥٢٫٠٠٠ رجل، وفى النهاية إنتصر اليابانيون.

وفى أول يناير ١٩٠٥ سلم الروس ميناء «بورت آرثر» ووقع منهم فى الأسر ٢٤٫٠٠٠ رجل و٥٤٦ مدفع، بالإضافة إلى ما تبقى من أسطولهم. وفى نفس الوقت كانت اليابان تسعى إلى المعركة الكبرى التى ستجعل الروس يوقفون الصراع وذلك بعد معركة «لياو-يانج» والتى إستمرت أسبوعين فى أغسطس.

وبعد معركة «شا-هو» فى أكتوبر، قرر «كوروباتكين» الإنسحاب إلى «موكدين» فى مارس ١٩٠٥ والتى كانت آخر الحروب على البر، ومن حيث حجم العمليات فكانت أكبر المعارك التى تمت حتى ذلك الوقت، فقد وصلت قوة كل من القوتين المتقابلتين حوالى ٣١٠٫٠٠٠ رجل فقد إنتشروا على جبهة طويلة لأكثر من ٤٠ ميلا وكانت محصنة تحصيناً قوياً ومنيعاً.

وفى هذه المعركة بدأ اليابانيون الزحف، وكان أسلوب تكتيكهم عبارة عن القيام بفتح نيران البنادق من على مسافة حوالى نصف ميل على الموقع المراد مهاجمته، بينما ينطلق

(١) كان واحد من ضباط أركان حرب سكوبليف «المعرب»

الجنود فى دفعات يعدون للأمام وأجسامهم منحنية ، ثم ينبطحون أرضاً بإشارة من اليد ، مع المحافظة على النظام والضبط والربط الصارم . وإستغرقت الكتيبة أكثر من ثلاثة ساعات للوصول إلى مسافة ربع ميل من الهدف ، حيث يبدأ الاقتحام من هذه المسافة . وعند « موكدين » نجح « توجى » فى إجبار الجناح الروسى الأيمن على الإنسحاب للخلف كما فشل هجوم مضاد قوى قام به الروس ، وبعده قام الروس بانسحاب منظم مسيطر عليه جيداً .

تاثير القوة البحرية على التاريخ

أما أسطول البلطيق الروسى بقيادة الأدميرال « روز هستفنسكى » فقد كان فى رحلته الطويلة حول نصف العالم، ومشغولا إلى حد كبير بمشا كل الحياد والتزود بالفحم. وبعد سقوط « بورت آرثر » أعاد « توجو » سفنه إلى اليابان لإعادة تجهيزها . أما الأسطول الروسى(١) فكان لا يقهر ... على الورق فقط ، على الرغم من الشائعات القائلة بعدم كفاءة هذا الأسطول وسوء ضبطه وربطه ، لذلك كان قلقاً .

وفى ٢٧ مايو ١٩٠٥ عندما أقترب الروس من مضايق « تسوشيما » كان أسطول « توجو » فى إنتظارهم ، ولم يكن لدى « توجو » سوى أربع بوارج فقط ولكن كان هذا النقص يعوضه التفوق فى الطرادات .

وفى الواقع تميزت السفن اليابانية بالسرعة ، إذ أن بعض السفن الروسية كانت قديمة وبالتالى كان على الأسطول الروسى السير بسرعة السفن القديمة البطيئة . ودخلت السفن الروسية إلى المعركة ، والفحم مكدس عالياً على أسطحها الأمر الذى خفضها فى الماء ، وأفقدها الكثير من قدرتها على المناورة ، وعلى العموم كان الأسطول به بعض الاضطراب. وبدأ القتال بالاشتباك مع الطرادات ، ونتيجة لتفوق سرعة اليابانيين إستطاع خط الأسطول اليابانى عبور مقدمة الخط الروسى وذلك فى التكتيك المعروف باسم « T » . وأصبحت السفن الروسية القائدة واقعة تحت تأثير نيران متشابكة من كل سفينة يابانية وبالدور ، بينما كانت السفن الروسية التى فى الخلف فى موقع لا يمكنها من الرد ، وتفوقت المدفعية اليابانية .

---

(١) ٣٨ سفينة تشتمل على ٧ بوارج

ولم يمض أكثر من أربعين دقيقة حتى خرج من الصراع بارجتان روسيتان وطراد . وبعد الساعة بقليل إفترق الأسطولان ، إلا أن توجو عاود الهجوم مرة ثانية عند الغروب حيث أغرق ثلاثة بوارج وطراد روسى . وهكذا دمر الأسطول الروسى تقريباً . أما ما تبقى فقد هاجمته المدمرات اليابانية خلال الليل والتى ظلت تطارده بدون هوداة فى اليوم التالى . ولقد كانت معركة « تسوشيما » أول معركة بحرية كبرى منذ معركة « الطرف الأغر » ، كما أن عبور توجو بتشكيل (T) يعتبر إنجازاً رائعاً فى تاريخ التكتيكات البحرية . وفى الواقع كانت الهزيمة البحرية الساحقة هى التى أقنعت الروس أكثر من الموقف البرى بعد « موكدين » على ترك الحرب وقبول وساطة الرئيس الأمريكى . وحصلت اليابان بمقتضى معاهدة صلح « بورتسموث » (سبتمبر ١٩٠٥) على أهدافها المحدودة وبإحكام فى كوريا أى فى شبه جزيرة « لياو — تونج » والنصف الجنوبى « لساخالين » ، ولكن ليس أكثر . ومن الناحية السياسية ، فلم يحدث سوى تغيير طفيف نتيجة للحرب الروسية — اليابانية .

وقد أدى شعور روسيا بهزيمتها من اليابان إلى نذير سوء ، ففى روسيا إنتابت الحركة الثورية لعام ١٩٠٥ شعوراً بالإستياء وبالتالى فقد زادت من قلق الشعب وأضعفت من النظام القيصرى ، بينما بدأ الفلاحون فى اليابان بل عبر كل أرجاء آسيا بالتأثر لهذه الأنباء وبالرغبة فى التخلص من السيطرة الأوروبية .

وقد برزت لنا دروس مستفادة من الحروب التى دارت فى العام بين ١٨٧٠ و ١٩١٤ ، فقد ثبت بوضوح فى القتال البحرى ، بإن الفحم والطوربيد والغواصة من أكثر الأسلحة أهمية .

وأوجد « توجو » فكرة لأسلوب تكتيكى جديد يناسب عصر الدفع بالبخار والمدفعية البعيدة المدى . وقد وضع المؤرخ البحرى الأمريكى « ا. ت. ماهات » عام ١٨٩٠ كتاب إسمه « تأثير القوة البحرية على التاريخ » وقد لقى إهتماما واسعاً لتحليله العميق والقوى للدور الاستراتيجى للقوة البحرية ، لأن الدولة الحديثة أصبحت تعتمد على الثروة ، وهذه الثروة عادت عليها أصلا من التجارة والمستعمرات ، وهذا يتطلب ربط كل جزء من العالم إقتصاديا بأوروبا .

لذلك كان على كل دولة طموحة الإحتفاظ ببحرية قوية ، مع وضع إستراتيجية بحرية لنفسها يكون مجالها العالم أجمع .

وهكذا أصبحت الحرب الأوروبية فى العصر الحديث لا يمكن أن تكون سوى حرب عالمية .

أما الموقف بالنسبة للحرب البرية فلم يقدر جيداً مثلما قدر للحرب البحرية. وفى هذا الوقت كان أكثر خواص هذه الحروب هى القوة التكتيكية للدفاع. وقد أدى إستخدام البنادق والمدفعية والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية من داخل الخنادق والحفر الأرضية المحاطة بالأسلاك الشائكة ، إلى صعوبة الهجوم إذا حاول المهاجمون الإقتراب مع تكبيدهم خسائر فادحة .

وأصبح الجاروف أداة عسكرية حيوية فى التجهيز العسكرى ، لأن الدفاع الوحيد ضد نيران المدافع الرشاشة ونيران المدفعية هى حفر الخنادق للاحتماء بها . ولفترة من الوقت بعد عام ١٨٧٠ حاول المفكرون العسكريون وضع نظريات على أساس التجارب التى خرجت بها من الحروب الفرنسية — البروسية .

وكانت فرنسا وألمانيا تميل إلى التخلى عن «رياضيات» جومينى مع التفكير فى مفاهيم «كلاوزفتز» الخاصة بالقوة والتى تخفف منها طريقة مولتكة الأكثر عملية . وقد تلقى التكتيك إهتماما أكثر من الاستراتيجية .

وقد أصبحت النظرية العسكرية أقل واقعية عندما تقدم المجال التكنولوجى وتقلصت تجارب الحرب الواقعة فى أوروبا .

وفى ألمانيا وضع الكونت فون شليفن رئيس الأركان العامة من ١٨٩١ إلى ١٩٠٥ «خطة شليفن» لغزو فرنسا والتى ستناقش فى الفصل ٢٠ .

وفى فرنسا أدى الكبرياء الوطنى إلى التركيز على الهجوم حيث كتب فوش قائلا : — «مهما كانت الظروف، فإن النية من التقدم هو الهجوم» ، ثم أصبح الأمر كما وصفه دكتور «لوفاس» : — «أصبح التهور من أفضل جوانب الشجاعة» . وبدا أكثر من أى وقت من

قبل « أن الطريق للنصر هو السعى لتطويق جانب العدو » ، وعندما أصبح هذا غير عملى فقد تبعه توقف وجمود .

ومن أفضل الكتب التى ظهرت فى إنجلترا كتاب وضعه « كالويل » ، إلا أن موضوعه لم يكن فى إطار الخط الرئيسى للتطور الأوروبى .

وقد أدى إهتمام الجيش البريطانى بالمصالح الراسخة إلى الاقتراب الغير واقعى للحرب ، فقد أنشأ آلايات معينة كتبت عنها «جريدة الفرسان» عام ١٩٠٦ وكان الهدف منها هو تعزيز الفكرة بأن هجوم الصدمة للفرسان لا يزال عملا تكتيكيا رئيسيا فى مواجهة قوة نيران المشاة . وحيث أن شعب البوير كانوا حملة بنادق راكبين فقد كان ذلك عذرا للابقاء على القوات الراكبة لجيل آخر ، وذلك بعد فترة طويلة من المناقشة سلموا بفاعليتهم فى القتال . وقد تجاهل أكثر قواد أوروبا معركة « بلفنا » واعتبروا جنوب أفريقيا حرب عصابات لا علاقة لها بفن الحرب ، وإعتبروا النصر اليابانى ما هو إلا إنتصار لأسلوب مولتكة ، ولم يلاحظوا تأثير الخنادق والأسلاك الشائكة والأسلحة الصغيرة الحديثة على القتال . وفى هذه الأثناء كانت بلاد جنوب شرق أوروبا فى حرب مع بعضها مرة أخرى فى الفترة من (١٨٨٥ و١٨٩٧) ومن (١٩١١ إلى ١٩١٣) وزادت حدة المنافسة الصناعية من سباق التسلح بين القوى العظمى كما زاد التوتر فى النسيج السياسى . وقد أعطى كتاب نشر فى ١٨٩٨ ألفه « ى . س . بلوش[1] إشارة واضحة لما سوف يحدث مستقبلا .

وفى هذا الكتاب قدم « بلوش » تنبأ دقيقاً إلى حد كبير لطبيعة الحرب الشاملة ، فقد وضح فى ذهنه أن حدوث حرب عظمى لن يتأخر كثيراً . وناقش فى حالة حدوث حرب ذات مجال واسع فى أوروبا فسيحدث لا محالة ، جمود وتوقف بين القوات المسلحة للدول المتصارعة ، وذلك بسبب التطورات الفنية للأسلحة مع إستخدام جميع القوى السياسية والاقتصادية للدول القوية فى الحرب . وستكون النتيجة الوحيدة لذلك هو وقوع أقسى المحن المخيفة للمدنيين ، كما أن المنتصر سوف يعانى بنفس القدر الذى سيعانى منه المهزوم ، مع الإنهيار الكامل للتنظيم الاجتماعى .

(١) كان صاحب بنك من وارسو.

ولم تلق تحذيرات « بلوش » إلتفاتاً من القادة العسكريين فى أوروبا لأنه لم يكن عسكريا محترفاً .

وعلى أى حال فقد كان هناك على الأقل رجل واحد وهو « بلوش » الذى لم يخش الإشارة بيده إلى ما سيحدث فى العالم ، الشىء الذى حدث فعلا كما سنرى فى الفصلين القادمين .

الفصل العشرون

الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)

حرب لانهاء الحرب

لقد تطور القتال الذى بدأ فى أوروبا فى أغسطس ١٩١٤ ليصبح أدمى حرب فى التاريخ؟ وكانت النتائج المؤثرة والمثيرة فى هذه الحرب هى الخسائر الفادحة والتى أثرت على تفكيرى العسكرى بعمق. فلم يتوفر لعدد كبير من القتلى أى قبور معروفة لأن نيران المدفعية نسفتهم وحولتهم إلى أشلاء مبعثرة. وفى بعض الأحيان كانت هذه الجثث تكون جزءاً من الخنادق، وكانت فى النهاية تلتهم الفئران هذه الجثث.

وعلى كل حال يجب أن نفحص بعناية كل من القيادة السياسية والعسكرية فى ذلك الوقت، لأنه قد ثبت أن مسئولية هذه الحرب تقع على عاتقهم. فقد ظهر لى أن القيادة فى الجبهة الغربية فى أوروبا قد سيطرت عليها وبطريقة خيالية، فلسفة الجنرال الفرنسى «فوش» والتى تتضمن « الحرب تعنى دائماً الهجوم مهما كان الموقف والظروف » . وكانت هذه هى الإجابة الوحيدة للقادة، عندما رأوا القوى الضخمة التى منحها المدفع الرشاش والأسلاك الشائكة والخنادق والمدفعية للموقع الدفاعى، فلم يعد أمامهم سوى الهجوم المباشر بالمشاة(١) فى تشكيلات منضمة خلال الأرض الحرام لإقتحام الموقع الدفاعى للعدو. وقد شاهدت وقاسيت من هذا، ووضح لى أنه لا يمكن أن يكون مثل هذا الأسلوب التكتيكى هو مفتاح النصر. ولسوف يلاحظ القارىء أن كتابة قصة حرب ١٤ — ١٩١٨ فى فصل واحد ليعتبر عمل ضخم، لأن معظم الكتاب تناولوا هذه الحرب إما فى كتاب كامل أو فى عدة أجزاء، وعلى كل حال فهذه مشكلتى، لكن سأحاول عرض بعض صور هذه الحرب والتى تتمشى وتنطبق مع دراستنا للحرب عبر التاريخ. وسنرى أن لوحة هذه الحرب كئيبة لأنها لا تحتوى إلا على

---

(١) كان يحمل جندى المشاة ما يقرب من نصف وزنه معدات وأسلحة وخلافه. « المعرب »

فقط لامعة قليلة جداً . وقد إشتركت فى هذه الحرب جنباً إلى جنب مع شباب صغير يانع لا يعرفوا لماذا يقاتلون؟ وعلى الرغم من ذلك ضحوا بأرواحهم لأن زعمائهم السياسيين أفهموهم أنها ستكون « حرب لإنهاء الحرب » .

وعلى كل حال نرى أولا لماذا حاربت هذه الأمم ؟
وهل كان من الممكن تجنب هذه المأساة ؟ .

فى ٢٨ يونيه ١٩١٤ أغتيل الأرشيدوق فرانز فرديناند[١] فى « سراجيفو » « بالبوسنة » ، وأيقنت النمسا أن سبب الحادث هو الشعور الموالى للصرب فى البوسنة ، وعلى الفور قدمت النمسا إنذاراً للصرب فى ٢٥ يوليه ، وفى اليوم التالى أعلنت الحرب عليها . وفى ٣٠ يوليه عبأت روسيا[٢] قواتها ضد النمسا ، فى ذلك الوقت كانت ألمانيا حليفة النمسا بينما كانت فرنسا وبريطانيا حليفتين لروسيا . وفزع العالم من سرعة تطور الاحداث ، عندما أصرت كل قوة من هذه القوى على موقفها وتأييدها لحليفها .

وفى أوائل أغسطس كانت ألمانيا والنمسا[٣] قد إنضمتا للحرب ضد فرنسا وبلجيكا وبريطانيا وروسيا[٤] .

وفى سبتمبر ١٩١٤ خرجت تركيا من الخفاء لتعلن عن إنضمامها إلى قوى الوسط ، وبعد ذلك دخلت دول أخرى الحرب . وهكذا تسببت جريمة قتل فى البلقان فى إشعال حرب ١٤ — ١٩١٨ ، وفى الحقيقة لم يرغب كل من ساسة أوروبا ولا شعوبها فى الحرب ، ولم يتعمد أحد منهم تدبيرها . وتبع هذا سلسلة من قطع العلاقات الدبلوماسية وكان الهدف منها أن يحافظ السياسيون على سلامة بلادهم ، ولكنهم أخطأوا جميعاً الحساب ، فقد أدت التلميحات المقصود بها الخداع والردع إلى إثارة أعمال مضادة عنيفة وكانت غير مقدرة أو

---

(١) كان المفتش العام للجيش النمساوى — الهنغارى .
(٢) كانت روسيا هى النصير الحامى للشعوب السلافية .
(٣) كانت تسمى بقوى الوسط.
(٤) كانت تسمى بقوى الحلفاء

محسوبة . لذلك نجد أن السياسيين لعبوا بالدبلوماسية فى جو كان سريع الإشتعال بدرجة عالية . وعلى كل حال كانت المنافسة قائمة بين القوى المختلفة ، فنجد أن إنجلترا كانت مدركة فى الواقع التحدى الألمانى لقوتها التجارية والصناعية وذلك بقيام ألمانيا بنشاط كبير لبناء أسطولها الحربى التجارى .

وقد إستغل حزب المحافظين الشعور المعادى لألمانيا فى الحملة الإنتخابية العامة عام ١٩١١ . أما فرنسا فكان يوجد حقد دفين نحو ألمانيا نتيجة لحوادث (١٨٧٠ — ١٨٧١) وإحتلالها للالزاس واللورين ، بينما تنافست كل من ألمانيا وروسيا على فرض نفوذها على البلقان . أما الامبراطورية العثمانية المتداعية فلم يكن هناك أى شىء مقنع تكسبه من معاداتها لأحد الجانبين ، ولكن الألمان حاولوا إغرائها لتنضم إليها لتصفى حسابها مع كل من بريطانيا وروسيا ،القوتان التى تنمرت عليها خلال القرن ١٩ .

وعلى أى حال لم تكن كل هذه الخلافات تؤدى إلى إشعال الحرب ، ولكن ظهر أن الجو كان معبأ بدرجة عالية ، مما أدى إلى إشعال الحرب .

وفى الواقع لم يدرك المسئولون فى هذه الدول ماستؤدى إليه الحرب من خطورة ، بينما كان يدرك هذا عدد قليل جداً من الرجال .

وقد أخذت فكرة الحرب عامة بالإستخفاف وعدم المسئولية ، لأن المسئولين لم يتخيلوا هذه الحرب غير أنها حرب حديثة صغيرة فى البلقان .

وكانت أوامر التعبئة هى الخطوة الأولى المميتة ، لأن من هذه النقطة خرجت الأحداث من سيطرة الأفراد وأصبحت تمليها الخطط الحربية لرئاسات الأركان المختلفة ، والتى تتبع العقيدة العسكرية لذلك الوقت وهى « الهجوم » .وقدتبع الجنون الدبلوماسى تصاعداًعسكرياً، وقد كتب ا . ج . ب . تايلور : — « لقد أدت الجيوش الجبارة التى جمعت لتوفر السلام وتضمن الأمن إلى حمل الأمم للحرب نتيجة لثقلها » . وقد أثارت حادثة البلقان هذه ذعراً واسع الإنتشار ، وأدت إلى إتخاذ وسائل متطرفة من الدول . وعلى كل لو أدرك الزعماء السياسيين المشتركين حقيقة ونتائج مايفعلونه ، وقدموا إنذاراً واضحاً فى الوقت المناسب ، لكان من الممكن تجنب هذه الكارثة الرهيبة فى عام ١٩١٤ . وقد كتب سيريل فوللر

يقول : — « لقد رفضت بريطانيا أى إرتباطات حتى الدقيقة الأخيرة فى عام ١٩١٤ ، إلا أنها بعد ذلك قبلت إرتباطات محددة ، لذلك لو أن الحكومة البريطانية تولت أعمالها بحزم فى عام ١٩٠٦ لكانت تستطيع منع قيام الحرب إذا وقفت بقوة وبسياسة أجرأ بجانب فرنسا » . وقد ناقشت هذا الموضوع كثيراً مع سير ونستون تشرشل ، وكان رأيه أنه عندما

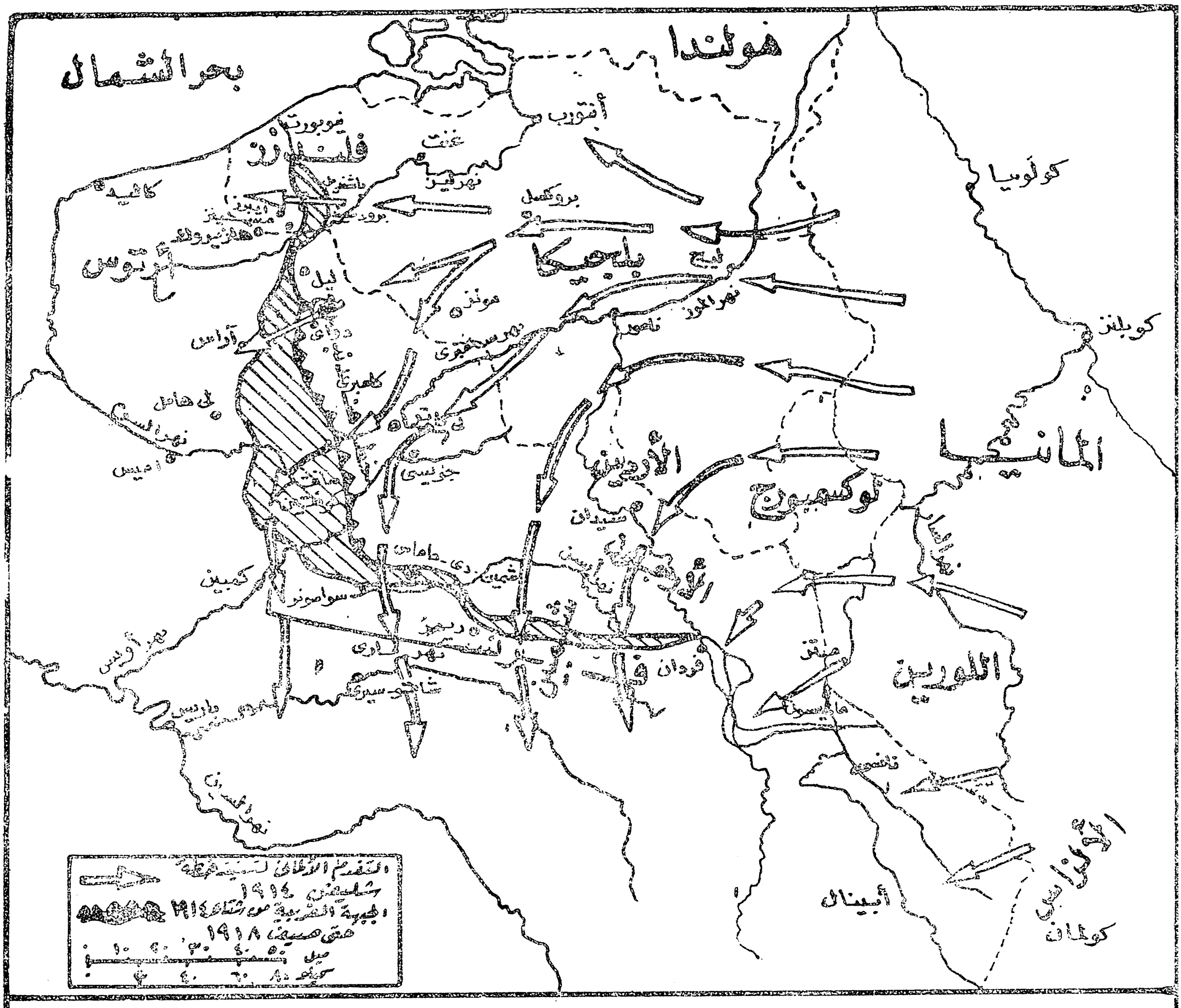

اللوحة رقم ٤٥ - خطة شليفن والجبهة الغربية

تبدأ الأحداث تتطور فى البلقان وتتدخل ألمانيا ، فلا يمكن لأى قوة بشرية أن تمنع الحرب ، وبذلك فقيام الحرب أصبح أمراً حتمياً . وهذه الآراء مفيدة وهامة ، ولكن كما يبدو لم يحاول أحد منع قيام الحرب .

خطة شليفن (أنظر اللوحة رقم ٤٥)

وفى الحال وضعت خطط التعبئة فى حيز التنفيذ وزالة سيطرة الأفراد على الأحداث . ومن ضمن خطط الدول المختلفة ، الخطة الألمانية الممتازة التى تتضمن الجرأة فى الهجوم ، وكانت ألمانيا تأمل أن تحقق المبادأة بهذه الخطة.

وقد أملت هذه الخطة الألمانية المثيرة فى الواقع سير الأحداث الرئيسية فى المراحل الأولى للحرب خلال خريف ١٩١٤ ، فى نفس الوقت ثبتت باقى المسارح الرئيسية التى كانت تقاتل بها باقى القوات . وقد وضعت هذه الخطة بواسطة « كونت فون شليفن » رئيس الأركان العامة الألمانية من عام ١٨٩١ إلى ١٩٠٦ ، وقد توفى قبل عام ١٩١٤ ، وكانت فكرته تتضمن دفع جيوش قوية لمهاجمة فرنسا بسرعة والقضاء عليها فى ستة أسابيع وذلك قبل توجيه الضربة لروسيا . وكان من الصعب القيام بغزو مباشر لفرنسا لأن الحدود الفرنسية — الألمانية كانت محصنة بخط من القلاع ذات الحاميات القوية . وكانت خطة شليفن الأصلية تتضمن سحب الفرنسيين للأمام ودفع الجناح الأيسر الألمانى فى اللورين لإيقافهم وتثبيتهم بينما تدفع القوة الرئيسية الألمانية الموجودة فى اليمين لتقوم بإلتفاف واسع من خلال بلجيكا ثم تدور فى إتجاه الجنوب الشرقى لمهاجمة فرنسا ، ولكن خليفته « مولتكه الثانى » عدل هذه الخطة بتقوية الجناح الأيسر الألمانى ، وعندما كان يحتضر شليفن تفوه بهذه الكلمات : —

« لابد وسيحدث قتال ، عليكم فقط تقوية الجناح الايمن » . وقد ناقشت الخطة فى إطالة مع ليدل هارت .

وقد وصف الخطة بأنها « كالباب الدوار » وكان صائباً فى وصفه . « فكلما كان إندفاع الفرنسيين قوياً خلال هجومهم الأول كان إلتفاف الجانب الألمانى من حولهم أشد وأكثر أثراً ليضربهم من الخلف ».

وقد كتب الكاتب الألمانى ج . ريتر فى مقدمة كتابه عن خطة شليفن قائلا : — « كانت خطة شليفن تتمشى مع جرأة نابليون». ثم ينتقل الكاتب إلى النقطة القاتلة، بأنه بالرغم من ملاءمة الخطة لعصر نابليون إلا أن وجود السكة الحديد مكن الفرنسيين من نقل قواتهم

وإحباط ما كان يرغبه شليفن فى حصد الفرنسيين بالمنجل ، وأعطى ذلك إحتمالات قليلة لنجاح الخطة لو وقوعها فى عصر أكثر حداثة. وفى الحقيقة فشلت خطة شليفن عام ١٩١٤ لأسباب إدارية . وقد إستطاعت التحركات الفرنسية السريعة بالسكة الحديد من مقاومة تقدم المشاة الألمانية التى تسير على أقدامها ومعها حملتها التى تجرى الخيل علاوة على أن هذا التقدم الألمانى تعثر أكثر من مرة بواسطة الكبارى وخطوط السكة الحديد الفرنسية المدمرة . وقد لا يوافق البعض على هذا التعليق ولكنه فى رأيى تعليق مفيد كثيراً ويستحق الإهتمام .

وفى عام ١٩١٤ ، وجدت القوى الأخرى نفسها وهى تدخل الحرب دون أن يكون لديها سوى خطط سطحية غامضة. وكانت النمسا تأمل أن تحطم الصرب بسرعة ثم تتقدم إلى الشمال الشرقى لملاقاة الروس .

أما فرنسا فقد قال جوفر : — « لم تكن هناك خطة للعمليات موضوعة ومكتوبة ، ولم أتبع أى فكرة أو خطة تم وضعها مسبقا بل كان كل تفكيرى وتصميمى القيام بالهجوم بكل قواتى » . وفى الحقيقة فقد قرر الفرنسيون بعكس الألمان إحترام حياد بلجيكا . ولم يكن لدى بريطانيا جيش كبير ولكن كان فى إمكانها إجراء حصار بحرى على العدو ، بينما يقوم جيش بريطانى صغير بتغطية اليسار الفرنسى. أما الخطة الروسية فكانت تتضمن الهجوم بإرسال جيشين إلى بروسيا الشرقية ، مع إرسال قوات أكثر لتتعمق فى الجنوب لتطويق النمساويين شمال جبال الكروبات .

وفى الحقيقة بدأت الأحداث فى الظهور فى الإتجاه الذى حددته خطة شليفن ، فإستطاع الألمان إصابة الهدف بسرعة ، فقد تحرك ٣٥٠٫٠٠٠ جندى إلى اللورين و ٤٠٠٫٠٠٠ إلى الأردين .

وفى ١٤ أغسطس دفعت ثلاث جيوش ألمانية[١] خلال لوكسمبرج وبلجيكا لتطويق الفرنسيين ، بينما دفع الفرنسيون بقواتهم الرئيسية فى شمال شرق فرنسا[٢] : — ٤٥٠٫٠٠٠

(١) كان أجمالها ٧٥٠٫٠٠٠ مقاتل .

(٢) بالضبط كما أمل وتوقع الألمان . « المعرب »

مقاتل فى اللورين و ٣٦٠٫٠٠٠ مقاتل فى الأردين . وبحلول ٢٤ أغسطس كان الفرنسيون تكبدوا خسائر فادحة فى هذه المناطق وإضطروا إلى الإنسحاب إلى خلف الحدود . وفى هذا الوقت لم تستطع بلجيكا مقاومة التقدم الألمانى خلال أراضيها . وفى ٢٠ أغسطس إلتف الألمان من خلال بروكسل ففاجأوا القوات الفرنسية عند الحدود الفرنسية — البلجيكية والتى كانت تحت قيادة « لانرزاك » . ووجد لانرزاك أن القوات الألمانية تتفوق عليه بنسبة ٢ : ١ لذلك حاول التمسك بموقع على نهر السامبيرى ولكنه فشل فى ذلك. وأخذت القوات الفرنسية تنسحب تحت ضغط القوات الألمانية المتفوقة ، بينما وصلت الحملة البريطانية فى ٢١ أغسطس وكانت تتكون من ١٠٠٫٠٠٠ مقاتل تحت قيادة « سيرجون فرنش » إلى منطقة الموز وفى الحال هوجمت بالقوات الألمانية المتقدمة ، إلا أن الحلفاء قاتلوا بشدة وتراجعوا ببطء . وفى ٢٣ أوقف الألمان عند « الموز » وفى ٢٦ عند « لى كاتو » وفى ٢٩ عند « جويسى » .

وأصبح الآن الألمان متأخرين عن برنامجهم بينما فوجئوا بقوة المقاومة التى قابلتهم ، فأخذ يضطرب التقدم الألمانى الذى وصل متأخراً أمام باريس .

وفى ٣٠ أغسطس أدار « فون كلوك » جيشه الأول(١) فى إتجاه الجنوب الشرقى ماراً من شرق باريس بدلا من تطويق المدينة . وعلى الفور جمع الحلفاء شعثهم ، وخرجت القوات الفرنسية من باريس لتضرب جانب جيش فون كلوك مما أدى أنه بدأ فى الإنسحاب إتجاه الشمال الشرقى فى ٥ سبتمبر . وفى الحقيقة منذ ذلك الوقت وأصبحت الأمور تسير خارج الخطة الألمانية . فى نفس الوقت تحرك « جوفر » ومعه قوات كبيرة من اللورين ، وهاجم جيش « بلو » على « المارن » .

وقد توقف الجيشان حتى يتقدم الجيش البريطانى إلى داخل الثغرة الموجودة فى الجبهة الألمانية على يمين « بلو » والتى سببها إنسحاب « فون كلوك » ، وبالتالى إضطر « بلو » أيضاً إلى الإنسحاب. وقد سميت المعركة التى أجبرت الألمان على الإنسحاب خلف نهر « الأيسن » بـ « معركة المارن » ، وتعتبر هذه المعركة من المعارك القليلة جداً فى حرب ١٤ — ١٩١٨ والتى لها قيمة

(١) جيش الجناح الأيمن للتقدم الألمانى . « المعرب »

إستراتيجية هامة ، بالرغم من عدم إدراك ذلك فى هذا الوقت ، لأنها فى الواقع منعت الألمان من كسب الحرب . بعد ذلك أخذ الألمان يعيدون تنظيم مواجهتهم خلف « الأيسن » مع تجهيز موقع دفاعى ، وفى ١٧ سبتمبر صدوا الهجوم الفرنسى الذى تم عليهم . وأخذ كلا الجانبان فى التسابق لتطويق جانب خصمه الشمالى المفتوح . وإمتدت خطوط الحصمين شمالا من « الأيسن » مارة « باميذس » و « أراس » ثم أخذت تضيق وتضيق حتى وصلت إلى البحر عند « نيوبورت » فى « الفلاندرز » . حاول الألمان تطويق جبهة الحلفاء فى معركة « أيبر الأولى » ، ولكن فشلت الهجمات الألمانية المتكررة المركزة والمنفذة بإعداد متفوق من دفع الحلفاء للخلف. فى نفس الوقت وصل القتال فى الجنوب الشرقى إلى منطقة « نانسى ». وفى نهاية ١٩١٤ حدث توقف تام على الجبهة الغربية فى أوروبا، وتحولت إلى حرب الخنادق، وسيطرت الأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة على ميدان المعركة مما أدى إلى إنتشار الشقاء بين الجنود المتعبة . وكانت حرب بدون فائدة ،لأن الجميع لا يعرفون الإجابة عن ...

كيف تكسب الحرب ؟ وكانت مجرد أنها حرب دمرت أرواحاً كثيرة .

وفى يوم عيد الميلاد عام ١٩١٤ حدثت حادثة غريبة، فقد إختلط جنود الجانبين فى الأرض الحرام حيث تبادلوا السجائر ولعبوا كرة القدم ، إلا أن هذا التصادق والإختلاط لم يقر . وعلى أى حال لم يحدث مثل هذا التآخى مرة أخرى أبداً .

يوم الحصاد (أنظر اللوحة رقم ٤٦ ، ٤٧)

ولم يستطع الألمان هزيمة أعدائهم فى الغرب فى ستة أسابيع حسب الخطة الموضوعة ، فأدى هذا عدم إمكان تنفيذ الخطة الموضوعة للجبهة الشرقية ولذلك لم تبدأ العمليات كما توقع وقدر من قبل . ففى الحقيقة تم طرد القوات النمساوية وفشل غزوهم للصرب ، وبدأ الروس فى التحرك بسرعة . وقد أظهرت العمليات الروسية الأولية خاصتين وهما : — الإخلاص لحلفائهم ... وعدم الكفاءة . فقد قام القائد العام الروسى « الدوق نيكولاس» بالإستجابة للنداءات الفرنسية ، ودفع فى أغسطس بجيشين فى إتجاه شرق بروسيا بالرغم من عدم إستعداد الجيشين .

وقد قسم مسرح العمليات بواسطة بحيرات « ماسوريان » ، فتقدم جيش بقيادة الجنرال

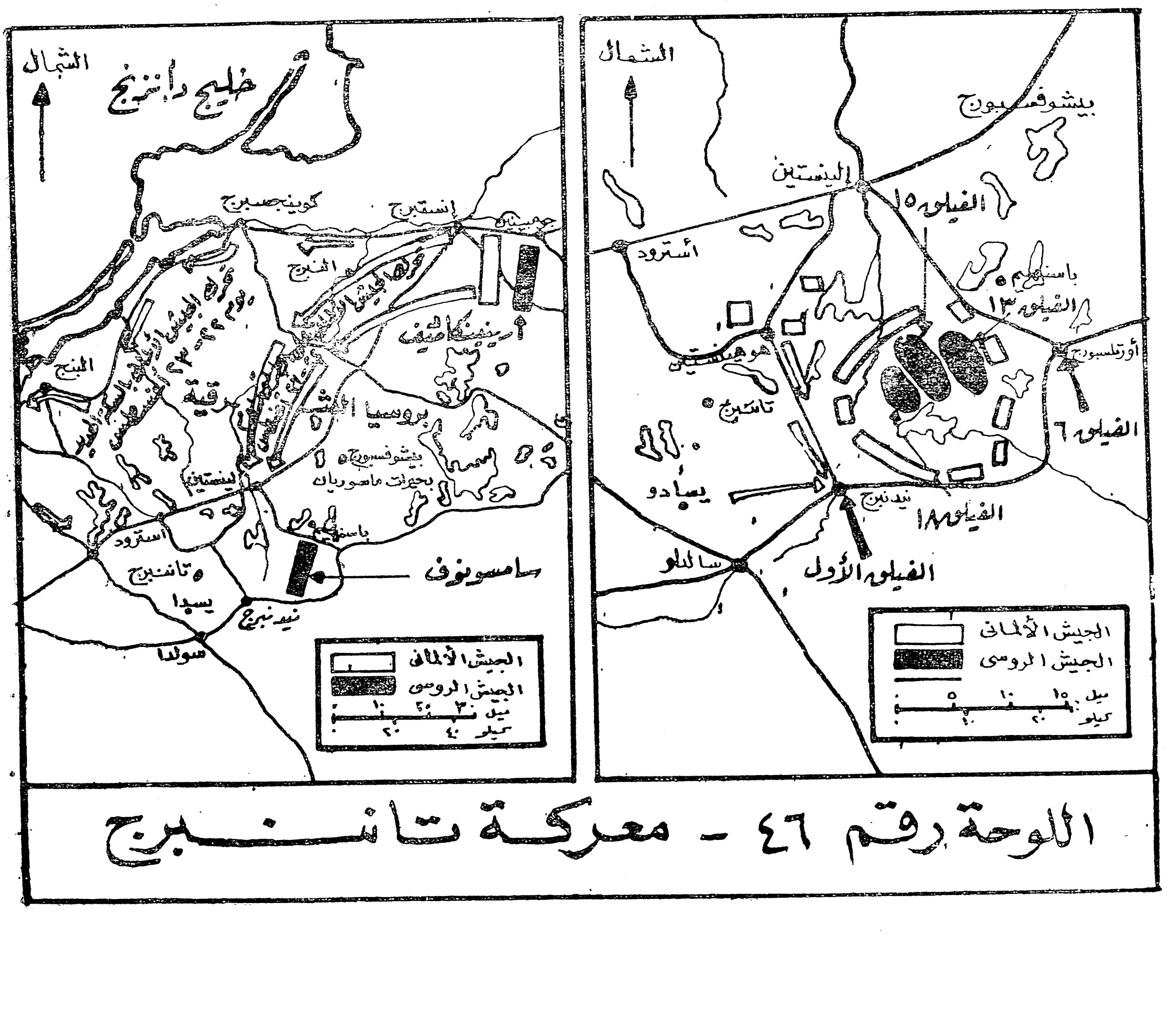

اللوحة رقم ٤٦ - معركة تاننبرج

« رينينكاميف » من شمال البحيرات ، بينما تحرك جيش آخر بقيادة الجنرال «سامسونوف» موازياً تقريباً لجنوب البحيرات . وعبر « رينينكاميف » الحدود ولم يندفع للأمام بقوة بالرغم من أن الألمان كان لديهم جيشاً واحداً تحت قيادة الجنرال «بريتويتز» فى شرق بروسيا، ويرجع ذلك لأن الجيش الروسى كان فى حالة مضطربة للغاية . ومثال لذلك كان لدى هيئة القيادة « بوصلات» بينما لم يكن لديهم أى خرائط للمنطقة . وعلى كل حال ففى ٢٠ أغسطس إصطدم الروس مع الفيلق الألمانى عند « جومبينين » وكان تفوقهم العددى كبيرا مما أدى إلى إنتصار الروس على الألمان .

ولم تكن هناك أى إتصال أو تنسيق بين قوات « رينينكاميف » و « سامسونوف » ويرجع ذلك لوجود كراهية شديدة بين القائدين ، ولذلك إعتقد «سامسونوف[1]» دون أن يتحقق بأن الجيش الألمانى قد هزم تماماً ولذا قرر الإندفاع للأمام بأقصى سرعة . فى هذا الوقت إقترح « بريتويتز » على رئيس أركان حرب القوات الألمانية الإنسحاب إلى خلف نهر « الفستولا » ، ونتج عن ذلك طرده من القيادة وتعين الجنرال « بول فون هندنبرج » خلفاً له .

وقد ولد « هندنبرج » عام ١٨٤٧ ودخل الكلية الحربية وتخرج ضابطاً فى مشاة الحرس وكان عمره ١٨ عاما، وحضر الخدمة العاملة بالنمسا عام ١٨٦٦، وبفرنسا فى عامى ٧٠ ـ ١٨٧١ ، وترقى من رتبة النقيب إلى رتبة الجنرال خلال سنوات السلام الأربعين ، وذلك ليس لأنه متفوقاً بل لأنه ضابط مهذب وحى الضمير . وقد تقاعد عام ١٩١١ وعمره ٦٤ عاماً .

وفى ٢٢ أغسطس ١٩١٤ إستدعى من التقاعد وكان عمره وقتها ٦٧ عاما وقد أسندت إليه قيادة الجيش الألمانى الثامن فى بروسيا الشرقية .

وقد عين الجنرال « أريك فون لدندورف » رئيسا لأركان « هندنبرج » وكان عمره ٤٩ عاماً ويعتبر من أكثر الضباط عبقرية فى الجيش . وقد إكتشف « هندنبرج » فى « لدندورف » ضابطاً يتمتع بعقلية قوية جبارة ، وكان هذا الشىء ينقص هندنبرج نفسه،

---

(١) كان قائداً متهوراً وطائشاً ، حاد المزاج . « المعرب »

ولذا قرر السماح له بمطلق الحرية فى التصرف فى الأمور حتى يحصل منه على أقصى فائدة من مواهبه العسكرية .

وسافر الإثنان سويا إلى مركز قيادة الجيش الثامن عند « مارينبرج » فوصلاها فى ٢٣ أغسطس . وبعد وصولهما بعشرة أيام جرت معركة «تاننبرج» وإنتصر فيها الألمان على الروس. وبما أن « هندنبرج » كان قائد الجيش فقد حصل على الثناء ، وقفز بالتالى من الظلام إلى الشهرة ، وأصبح محبوباً ومشهوراً فى كل ألمانيا .

ولم يفترق مطلقاً من ذلك الوقت كل من «هندنبرج» و«لدندورف»وهذا يدل على حكمة كبيرة ، وإستمر هذا حتى قبل نهاية الحرب بقليل فى عام ١٩١٨ .

وعندما وصل « لدندورف » إلى « ماينبرج » وجد أن الموقف هناك قد تولاه أحد ضباط هيئة قيادة « ريتويتز » ، وهو العقيد « هوفمان » ، وكانت التحركات الأولية فى خطة العمليات التى وضعها « هوفمان » يتم تنفيذها فعلا وكانت مقاربة إلى أفكاره هو .

أما « رينينكاميف، فلم يستغل نجاحه عند « جومبينين » وكل ما قام به هو التحرك قليلا للأمام ، بينما كان « سامسونوف » يتقدم بتهور يؤدى إلى الخطورة . ولذلك قرر الألمان إبقاء قوات ساترة لحجز جيش «رينينكاميف» فى الشمال ، مع دفع جميع القوى المتوفرة جنوبا لهزيمة « سامسونوف » .

وكانت هذه الخطة جريئة وخطرة لأنه من الممكن أن يثار « رينينكاميف » فيقوم على الفور بعمليات نشطة ، وعلى كل حال فقد وجد الألمان نسخة من أوامره مع ضابط روسى أسير وتدل على أنه لا توجد لديه خطط للهجوم فى الوقت الحالى وتعرضت الخطة الألمانية للخطر ، فى نفس الوقت فبحيرات « ماسوريان » ستمنعه من التقدم مباشرة لمعاونة « سامسونوف » .

وقد عرف الألمان أيضاً نوايا « سامسونوف »المستقبلة لأن عادة الروس إرسال إشاراتهم اللاسلكية بدون شفرة ، فى نفس الوقت أدت سرعة تقدمه الحالى إلى توسيع الثغرة

الموجودة على يمينه والتى كانت غير محمية. وأصبح فى إمكان « لدندورف » التقدم، ولذا فعلى الفور تحرك بقواته .

وفى الفترة مابين ٢٧،٢٤ أغسطس إنتقلت الوحدات المواجهة لرينينكاميف إلى الجنوب ، وقد تم هذا التحرك خلسة وبدون أن يتنبه له الروس ، فقدتحرك ثلاثة فيالق ، إثنان منها على الطريق إلى « الينستين » بينما الفيلق الآخر نقل بالسكة الحديد وفى دورة واسعة .

وفى ٢٧ أغسطس أرسل لواءان من الفرسان فقط لتثبيت قوات « رينينكاميف » ، فى نفس الوقت كانت القوات الألمانية المواجهة « لسامسونوف » فى موقف حرج فكان عليها إيقاف التقدم الروسى بالرغم من تفوق الروس عدديا بنسبة ٦ : ١ حتى تتم جميع التحركات الألمانية إلى الجنوب .

وفى ٢٦ أغسطس وصل للدندورف بعض التعزيزات الألمانية ، فأصبح فى إستطاعته تنفيذ خطته التكتيكية ، وكانت تتضمن إيقاف تقدم « سامسونوف » فى الوسط مع دفع جناحيه إلى الخلف بغرض فتح الطريق أمام القوات الألمانية لتطويق الوسط .

وفى يوم ٢٦ أغسطس حدث بعض التقدم ولكن بقتال شاق ، ولم ينزعج «سامسونوف» بهذا الهجوم على الوسط لأنه كان يجهل ما يحدث على أجنابه .

وفى ٢٧ أغسطس نفذت الخطة بقوة مما أدى إلى إجبار اليمين الروسى على الإنسحاب إلى الخلف من « الينستين » إلى « بيشوفسبورج» بينما إنسحب اليسار الروس من «يسادو» إتجاه « نيدنبرج » .

وفى ٢٧ أغسطس حسمت المعركة ، فقد قام اليمين الألمانى بالضغط على « نيدنبرج» بينما دار اليسار الألمانى إلى الداخل نحو « باسنهيم » ، فى نفس الوقت دفع بقوات قوية للهجوم على الوسط .

وفى خلال يومين بعد بعض التقدم والإنسحاب للجناحين الروسيين دفعاً أخيراً خارج مسرح العمليات بينما طوق الوسط وحوصر.

وكانت الخطة جريئة وصائبة لأن « رينينكاميف » لم يتحرك برغم كل ذلك . وكان يوم ٣١ هو يوم « الحصاد » كما سماه « هندنبرج » .

وقد كتب إلى القيصر يقول : — « تم أمس إغلاق الحلقة حول الجزء الأكبر من الجيش الروسى ، وتم تدمير الفيالق ١٣ ، ١٥ ، ١٨ الروسية ، ولدينا حالياً أكثر من ٦٠٫٠٠٠ أسير . ولازالت المدافع الروسية المأسورة موجودة فى الغابات وجارى الآن إحضارها . وكمية الغنائم كبيرة جداً .

أما الفيلقان ١ ، ٦ الروسيان اللذان كانا خارج حلقة حصارنا ، فقد تكبدا خسائر فادحة ، وهما ينسحبان الآن فى عجلة كبيرة خلال « ملاوا » و «ميزانيك »، وقد إنتحر سامسونوف » . وقد سمى لدندورف هذه المعركة بـ « تاننبرج » (١) ، وتعتبر من المعارك التكتيكية البارعة فى حرب ١٤ — ١٩١٨ .

وبعد أن دعم « هندنبرج » و « لدندورف » النصر ، وجها القوات ضد « رينين كاميف » .

وفى معركة بحيرات « ماسوريان » دفع الألمان بالروس إلى الخلف حيث إستسلم منهم أكثر من ٣٠٫٠٠٠ أسير .

وبذلك إستعاد الألمان مواقعهم فى بروسيا الشرقية والتى كانت فى خطر . وبالرغم من هذه الخسائر إلا أن الروس إنتصروا فى مناطق أخرى ، فقد إستولوا على «غاليسيا» من النمساويين ، وفى القوقاز إستطاعوا دفع الأتراك للخلف . وعلى كل لو هزم « هندنبرج » فى شرق بروسيا لأصبح ذلك كارثة مروعة لألمانيا ، إلا أن روسيا تلقت ضربة قاسية هناك .

الأفكار الجذابة

وعلى شتاء ١٤ — ١٩١٥ إستنفذت القوة الدافعة فى خطة الحرب الألمانية ، ولم يبق منها إلا تراثها فى مواقع ثابتة على جبهات القتال .

وحاول الزعماء السياسيون والعسكريون فى كلا الجانبين السيطرة على مجرى الأحداث . وعلينا الآن إيجاز الصورة الأستراتيجية الكاملة لحرب ١٤ — ١٩١٨ بعد الصدام الأولى التى قامت به هذه القوات الكبير ، فنجد أن الألمان قد كسبوا مزايا كثيرة فى المرحلة الأولى والتى إنتهت الآن ، ففى الغرب إستولوا على مناطق صناعية هامة من فرنسا ، أما فى الشرق

---

(١) هو اسم تل فى المنطقة تمسك به الوسط الألمانى فى أول الأمر . « المعرب »

فقد وجهوا ضربة ضخمة إلى الروس . وأصبح من ناحية أخرى ، الحلم المزعج [1] الذى أرعب هيئة الأركان الحرب الألمانية حقيقة واقعة ، وأصبحت ألمانيا مضطرة الآن إلى القيام بذلك ، فى نفس الوقت كانت على النمسا وتركيا القيام بذلك بالقتال على أكثر من جبهة . وقد أصبح واضحاً فى ذلك الوقت أن على الألمان تدعيم مجهود كل من الحليفتين [2] بالمساعدات الإقتصادية والأفكار العسكرية والقوة البشرية ، كان « فلانكهاين » رئيس أركان حرب القوات الألمانية فى ذلك الوقت والذى خلف مولتكة الصغير .

وكانت إستراتيجية « فلانكهاين » لعام ١٩١٥ هو الإلتزام بسياسة دفاعية فى الغرب مع المحافظة على المكاسب الألمانية هناك ، ثم القيام بهجوم رئيسى لإنهاء الأمر فى الشرق ، وبهذه الطريقة يستطيع الألمان تجميع كل قواتهم بعد ذلك فى الغرب لإنهاء الحرب لصالحهم .

وكان الألمان يستطيعوا تحويل الضغط من نقطة إلى أخرى حسب إرادتهم ، وأيضاً مقابلة التهديدات الجديدة بسرعة ، وذلك لتمتعهم بخطوط داخلية جيدة تربط بين الجبهة الغربية والشرقية علاوة على نظام جيد للسكك الحديد وموارد إقتصادية ممتازة . أما الناحية البحرية ، فقد ردت ألمانيا على الحصار البحرى للأسطول البريطانى ، بالسير فى سياسة حرب الغواصات .

أما إستراتيجية الحلفاء فلم يكن هناك تنسيق كبير بين قواها ، فلم ينعقد أول مؤتمر عسكرى يجمع كل الحلفاء إلا فى ديسمبر ١٩١٥ . وكان الطريق الوحيد أمام الحلفاء لكسب الحرب هو هزيمة ألمانيا هزيمة حاسمة على إحدى جبهاتها الرئيسية ، ولما كان من المحتمل أن يستطيع الروس تحقيق ذلك ، فأصبح من واجب الحلفاء السعى للحصول على النصر على الجبهة الغربية . وبالطبع قبل الفرنسيون هذه الخطة وإعتبروها المهمة الرئيسية للحلفاء وذلك لأنهم محتلون بواسطة الألمان ، بينما نظروا إلى كل الأفكار الإستراتيجية الأخرى بشك كبير .

وعلى العموم فقد طالب الروس بتنسيق عملياتهم مع عمليات الحلفاء فى الغرب لإجراء

(١) يقصد اضطرار ألمانيا للقتال على جبهتين .

(٢) يقصد النمسا وتركيا .

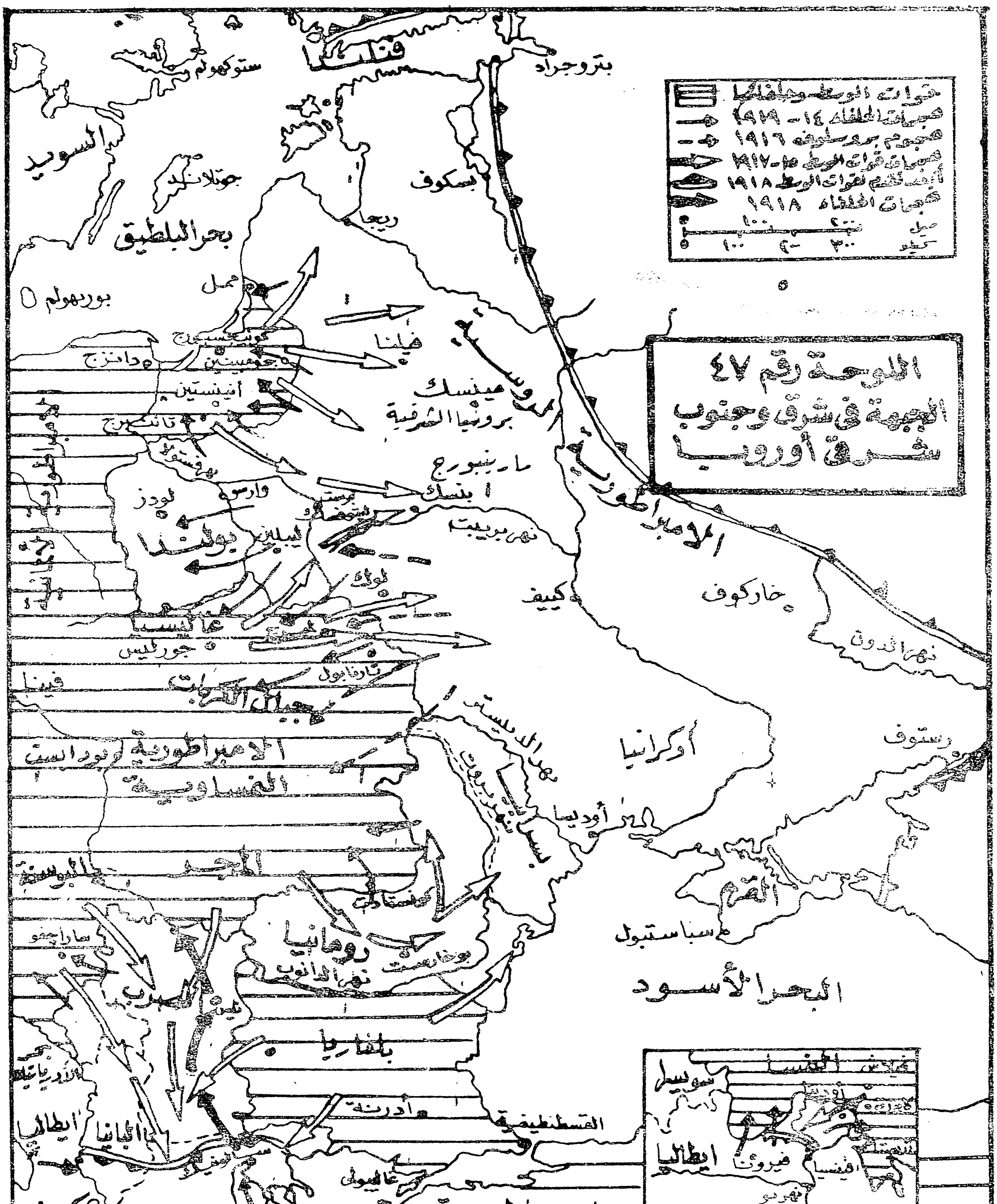

اللوحة رقم ٤٧
الجبهة في شرق وجنوب شرق أوروبا
قوات الوسط وحلفائها
هجمات الحلفاء ١٤ - ١٩١٩
هجوم بروسلوف ١٩١٦
هجمات قوات الوسط ١٥ - ١٩١٧
أقصى تقدم لقوات الوسط ١٩١٨
هجمات الحلفاء ١٩١٨
ميل
كيلو
بتروجراد
فنلندا
ستوكهولم
السويد
جوتلاند
بحر البلطيق
بورنهولم
ريجا
بسكوف
ممل
كونجسبرج
دانزج
جومبينن
فلنا
أينستين
تاننبرج
منسك
بروسيا الشرقية
روسيا
وارسو
لودز
بولندا
لبلين
برست ليتوفسك
بنسك
بينبورج
نهر بريبت
لوتسك
كييف
خاركوف
جاليسيا
جورليس
تارنابول
جبال الكربات
فينا
بودابست
الامبراطورية النمساوية
المجر
الإمبراطورية
الدنيستر
أوكرانيا
أوديسا
نهر الدون
رستوف
القرم
سباستبول
البحر الأسود
رومانيا
بوخارست
نهر الدانوب
البوسنة
سراجيفو
الصرب
نيش
بلغاريا
أدرنة
القسطنطينية
ألبانيا
إيطاليا
سالونيك
غاليبولي
كورفو
اليونان
بحر إيجه
الامبراطورية التركية
الجبهة الإيطالية
سويسرا
إيطاليا
فيرونا
فنيسيا
نهر بو

أقصى ضغط على جبهتى قوى الوسط فى وقت واحد ، ولـكن نادراً ما تمت هذه العمليات بنجاح .

وبما أن بريطانيا هى القوة البحرية العظمى فأصبح واجبها الرئيسى هو حصار ألمانيا بحراً لمنع تجارتها فتخنقها إقتصاديا ، بينما إعتمدت بريطانيا على المسرح الحاكم للحرب البرية وهى الجبهة الغربية . ولم توافق على هذه الحقيقة كل الأحزاب السياسية فى بريطانيا إلا أن رئيس وزراء بريطانيا « سير وليام روبرتسون[1] » كان مقيداً للعمل حسب رغبة الفرنسيين ، أى التركيز على بناء القوات البريطانية على الجبهة الغربية ، وكان موافق على هذا الرأى معظم الخبراء العسكريين فى بريطانيا ، إلا أنه كانت هناك مدرسة أخرى أعتبرت هذه المدرسة من الفكر مجرد إعتبارات عمياء . وقدرت أنه يمكن هزيمة ألمانيا فى الجبهة الغربية ، ولـكن بحشد قوات بريطانية كبيرة تماثل قوات العدو ، وكانت بريطانيا تفضل الإبقاء على جيشها الصغير ، بدلا من إنشاء ودفع أعداد كبيرة من الرجال إلى القتال ، بل وحتى إذا إستطاعت إنشاء جيش كبير ، فهل سيعرف الخبراء العسكريون البريطانيون كيف يستخدموه ؟ ولذلك كانت المدرسة الأخرى ترى وتفضل ترك الجبهة الغربية للفرنسيين بينما تقتصر مساهمة بريطانيا فى الحرب البرية عن طريق الإستراتيجية الغير مباشرة ، والتى سيكون لها فائدة عظمى ، وفى نفس الوقت أكثر إقتصاداً فى القوة البشرية .

وعرفت هاتان المدرستان من الفكر باسم « الشرقية والغربية » . وقد تزعم « الشرقيون » « لويد جورج » وقد أعتبر أنه يمكن كسب الحرب « بالتخلص من الدعامات » أى بهزيمة حلفاء ألمانيا ، أما « الغربيون » فاعتبروا أن الحرب ممكن كسبها فقط بالهزيمة الحاسمة للألمان على الجبهة الغربية .

وكان « ونستون تشرشل » و « لويد جورج » من أهم المناصرين السياسيين لفكرة التخلص من الدعامات ، ويتم ذلك فى منطقة جنوب شرق أوروبا حيث يجرى تطور إستراتيجية الحلفاء . لأنه لو سيطرت الحلفاء على هذا المسرح ، فسينتج عنه نتائج هامة ، منها خروج تركيا من الصراع ، فيسهل على الروس حشد كل مجهوداتهم على الجبهة

(١) لقد أصبح بعد ذلك رئيساً لأركان حرب القوات البريطانية . « المعرب »

الشرقية بعدغلق جبهة الأتراك ووصول الإمتدادات لها من الغرب وبذلك تجبر النمسا على القتال على جبهتين ؛ فتضطر ألمانيا إلى تحويل قوات أكثر لتقويتها ومساندتها . أما إذا أمكن إخراج النمسا من الصراع فسوف تضطر ألمانيا نفسها إلى القتال على ثلاث جبهات ، وكان كل هذا مجرد أفكار جذابة .

وفى عام ١٩١٥ أرسلت بريطانيا حملة إلى الدردانيل . وفى هذا العام والعام التالى له تسابقت دول الحلفاء ودول الوسط للحصول على رضا دول جنوب وجنوب شرق أوروبا المختلفة .

وفى عام ١٩١٥ دخلت إيطاليا الحرب فى جانب الحلفاء ، وأيضاً رومانيا فى عام ١٩١٦ . بينما كانت الصرب تحارب من قبل النمساويين . ومن ناحية أخرى إنضمت بلغاريا إلى قوى الوسط فى عام ١٩١٥ .

معركة الفردان (أنظر اللوحة رقم ٤٥ ، ٤٨)

وكانت إستراتيجية الحلفاء فى جنوب شرق أوروبا تثير الإعجاب الكبير ، فقد فرض أن الحرب يمكن كسبها فى هذا المسرح ببعض الإستعراضات الجانبية ، وطبعاً فهى فكرة جذابة لأنها فى نفس الوقت لو إستطاع الحلفاء كسب اليد العليا فى هذا المسرح ، فسيحصلوا على مزايا عديدة جداً . ولكن كما سنرى لم يتحقق هذا بسرعة ، وكلما طال أمد القتال كلما عظم إستنزاف القوات والتى يمكن إستخدامها فى مكان آخر . وإضطر البريطانيون فى النهاية إلى إنشاء جيش بريطانيا كبيرا ، وأرسلت معظم القوات إلى الجبهة الغربية كما طلب « الغربيون » . فى ذلك الوقت فتح البريطانيون مسرحاً حربياً منفصلا فى الشرق الأوسط ، وكان الغرض من العمليات فى مصر والتى إمتدت إلى العربية السعودية وفلسطين وسوريا ، هى حماية المصالح الإقتصادية البريطانية وخاصة قناة السويس ، مع توجيه ضربة من إسفل للإمبراطورية التركية . وتم التدخل المسلح فى العراق ، وقد برره البريطانيون بأنه لحماية الإمدادات البترولية فى منطقة الخليج العربى ، بينما أرجعه الفرنسيون إلى الطمع الإستعمارى البريطانى . ولكى تكتمل الصورة الإستراتيجية يجب ذكر الحرب فى الأجزاء الأخرى للعالم .

ففى عام ١٩١٤ تحركت اليابان إلى داخل المنطقة الألمانية فى « شانتونج » بالصين ، ونجح اليابانيون مابين عام ١٩١٤ — ١٩١٨ فى مد نفوذهم كثيراً فى الصين ، وكان الدافع لذلك بدون شك الطمع الإستعمارى .

وبما أن مستعمرات الخصوم كانت متجاورة كما فى إجزاء من أفريقيا وجنوب المحيط الهادى ، لذلك إغتنم الطرفان الفرصة للقيام « بمحاولة » ضد بعضهما هناك . وكانت هذه « الإستعراضات الجانبية » من وجهة النظر الألمانية ذات فائدة وهى « إزعاج العدو » ، أما تأثيرها على الجانبين فكانت تحويل قواتهما من المسارح الرئيسية ، وقد تم تحويل قوات بريطانية وفرنسية أكثر من القوات الألمانية . وعلى كل يمكن القول بأن الحرب فى المسارح خارج أوروبا لم يكن لهاأهمية إستراتيجية كبيرة . وفى الحقيقة كانت حرب ١٤ — ١٩١٨ حرباً أوروبية .

وقد سميت هذه الحرب بعد ذلك « بحرب عالمية » لإشتراك وحدات من أجزاء كثيرة من الإمبراطورية فى أوروبا علاوة على إنضمام الولايات المتحدة فى عام ١٩١٧ إلى قوى الحلفاء . ولكن يمكن أن نقول أيضاً بأنها حرب أقل من « حرب عالمية » لأن دور القوة البحرية كان فى الحقيقة سلبياً ، وفى رأيى فهى لاتخرج عن بعض الصراعات السابقة مثل حرب الأعوام السبعة .

وبعد أن ألقينا نظرة عامة على صورة الحرب ، فإنى أقترح الآن أن ندقق النظر على أجزاء معينة من المشهد والتى هى ذات أهمية ، آخذين المسارح واحداً تلو الآخر محللينه وخاصة طبيعة القتال والقيادة .

وكما ذكرنا من قبل فقد تجمدت الحرب على الجبهة الغربية إلى الدفاع الثابت منذ معركة « إيبر الأولى » . وإمتد الخط الدفاعى الألمانى بين « الفلاندرز » و « سويسرا » إلا أنه كان بارزاً فى نتوء عريض على شكل رأس ضعيفة عند « كومبنى » . ولم يحدث قتال رئيسى فى هذا المسرح سوى هجمتين كبيرتين للحلفاء فى « أراس » (أرتوس) ، وإثنتين أخرتين فى « شمبانيا » . وبلغت الخسائر فى هجمات الخريف حوالى ١٩٠٫٠٠٠ فرنسى و ٥٠٫٠٠٠ بريطانى و ١٤٠٫٠٠٠ ألمانى . وكانت النتيجة النهائية لهذه المذبحة هى إنبعاج المواقع الألمانية

قليلا . أما المعارك الكبرى فى عام ١٩١٦ فكانت معارك « الفردان » و « السوم » ، وقد إستمرت معركة الفردان ، حوالى عشرة أشهر تقريباً ، والتقدير الرسمى الفرنسى للخسائر الإجمالية للجانبين فى الفردان هى : — ٤٢٠٠٠٠ قتيل و ٨٠٠٠٠٠ جريح ومصاب بالغاز ، وكان العدد الإجمالى للقوات مليون وربع تقريباً . وعند نهاية المعركة كانت الجبهة تقريباً كما كانت عندما بدأت المعركة .

وكتب « اليستار هورن » فى « ثمن المجد » يقول : — « فى معركة الفردان لم يكسب أى جانب شيئاً ، وكانت معركة غير حاسمة فى حرب غير حاسمة ، بل أنها معركة غير ضرورية فى حرب غير ضرورية . إنها معركة ليس فيها منتصرون فى حرب ليس بها منتصرون » .

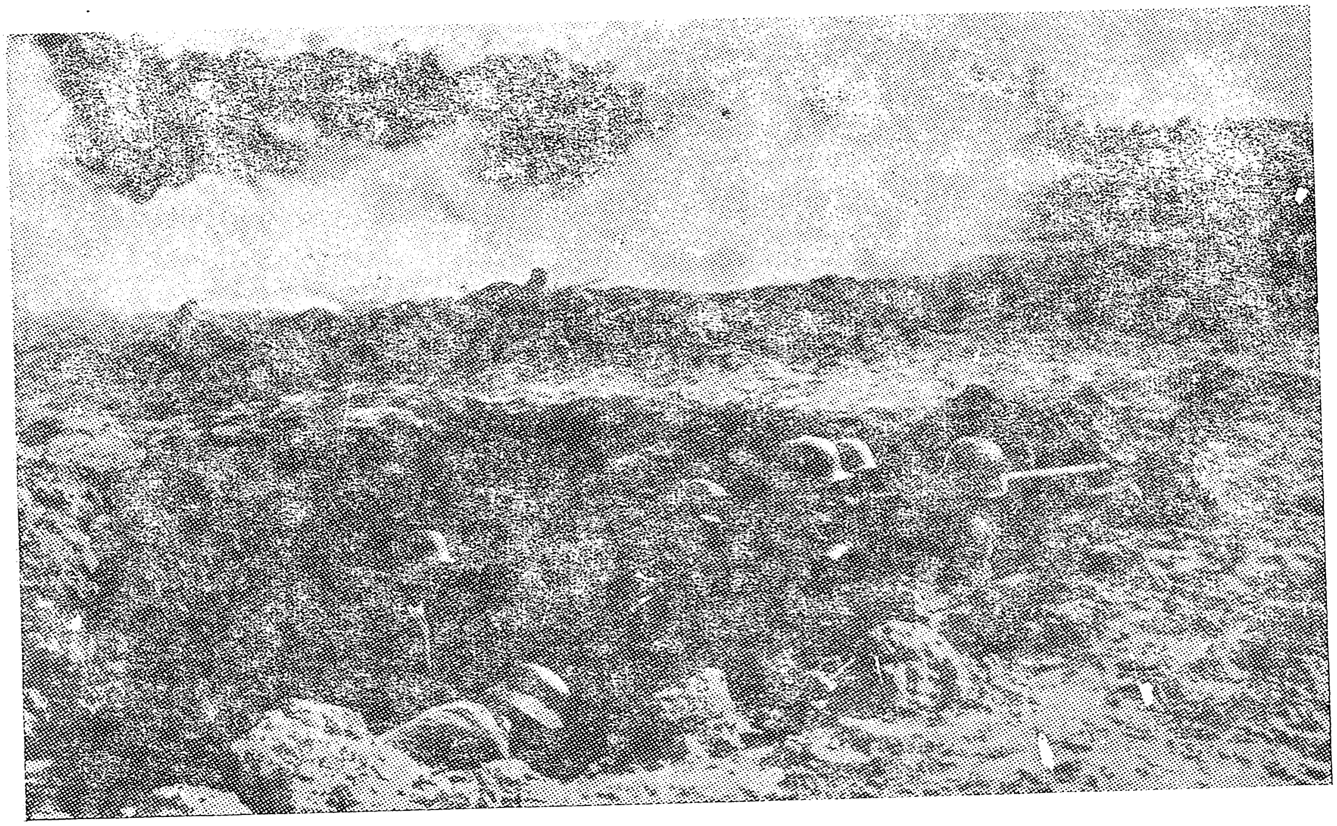

معركة الفردان وتستخدم فيها القوات الألمانية المدافع الرشاشة

أما معركة السوم التى جرت من ١ يوليه إلى ١٨ نوفمبر فكلفت كل جانب حوالى ٥٠٠٠٠٠ رجل بين قتيل وجريح وأسير ، بينما كسب الحلفاء نتوءاً من الأرض الموحلة عمقه حوالى تسعة أميال ومواجهته حوالى ٢٠ ميلا ، ولم يكن له فى نفس الوقت أى قيمة

إستراتيجية . وكان الجنرال « فلا كنهاين » هو المسئول عن إدارة العمليات فى الجانب الألمانى خلال هذين العامين .

وقد تولى منصبه بعد مولتكة الصغير فى سبتمبر ١٩١٤ ، وقد إستطاع أن يمنع كارثة كبرى بسبب الفشل فى خطة « شليفن » ، فقد قدر أن الخطة السليمة التى تتبع فى الغرب فى ذلك الوقت هو الدفاع . أما الهجوم الرئيسى للألمان بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ فكان الهجوم على الفردان[١] .

وفى أغسطس ١٩١٦ تم إستبدال « فلا كنهاين » بدلا من « هندنبرج » و « لدندورف » ، وبعد قليل أثبت « فلا كنهاين » فى رومانيا بأنه قائد ومقاتل ميدانى ماهر .

ويعتبر « فلا كنهاين » الإستراتيجى البارز الوحيد فى كلا الجانبين ، وهو صاحب نظرية « من الحكمة السعى وراء شيء أقل من النصر الكلى » . أما الحلفاء فلم يكن لهم قائداً أعلى للقوات على الجبهة الغربية قبل عام ١٩١٨ .

وقد إعتبر القائد العام الفرنسى الجنرال « جوفر » فى عامى ١٥ — ١٩١٦ القوة المرشدة بالنسبة لكل الحلفاء . أما القادة البريطانيون[٢] فكانوا مستقلين نظرياً ، فى نفس الوقت لم تكن لديهم قوات كافية تجعلهم فى موقف يمكنهم من إملاء إستراتيجيتهم بأنفسهم ، ولذلك فقد أتبعوا الإستراتيجية الفرنسية فى كل الأمورتقريباً .

وقد كان الجنرال « جوفر » قاسياً وصلدا ، ولا يستسلم مهما قاسى ، ولكنه فى نفس الوقت غبياً . وقد كسب معركة « المارن » بالحظ المطلق ، فكما ذكر « ليدل هارت » ، فقد دفع بمليون فرنسى ضد مليون ونصف ألمانى وفى المكان الخاطىء ، وقد أدى فشله فى اللورين أنه تمكن من إيقاف الألمان فى الدقيقة الأخيرة بعد أن وصلوا تقريباً إلى مؤخرة قواته .

وفى عام ١٩١٥ لم يكن فى الجبهة الألمانية أى أجناب معرضة حتى يستطيع « جوفر »

---

(١) هى قلعة على الحدود وقد أصبحت رمز الكفاح الفرنسيين، فقد رضوا بإستنزاف دماء شبابهم فى الدفاع عنها .

(٢) يقصد فرنش ، وقد حل محله دوجلاس هيج فى ديسمبر ١٩١٥ . «المعرب»

تطويقها ، ولذلك فقد قام « جوفر » بالهجوم بالمواجهة على كلا الجانبين[1] لقطع البروز الألمانى . وطبعاً لا يمكن تسمية هذا بإستراتيجية . وقد شاهدت طيلة حياتى قتالا كثيراً وتعلمت « أنه مايكون مرغوباً إستراتيجيا يجب أن يكون ممكناً تكتيكياً بالموارد التى تحت يد القائد » ، وأعتقد أن « جوفر » لم يفهم هذه الحقيقة الرئيسية .

غاز المستردة

لقد طالب الرأى العام بقيام الحلفاء بعمل هجومى لطرد الألمان الذين يحتلون الأراضى الفرنسية والباجيكية، فى نفس الوقت يجب عدم ترك الألمان بدون إزعاج على جبهتهم الغربية حتى لايقووا فيستطيعوا تسديد ضربة قوية للروس فى الشرق. وقد برز السؤال التالى : — كيف يتم الهجوم.. وماهى الطريقة؟ وتواجدت إمكانيات وإحتمالات عديدة، منها إغراء العدو على التقدم للأمام بغرض الإستيلاء على المدن ، ثم يتم تطويقه من كلا الجانبين ، كما حدث ذلك مصادفة فى عام ١٩١٨. على أن يتم ذلك على المواجهة الألمانية بإستخدام القوة البحرية البريطانية المتعاونة تعاوناً كاملا مع الهجوم البرى الذى سيتم على جانب « الفلاندرز » . وأخيراً تم ببساطة إختيار طريقة الضرب بالمواجهة على أن يتم ذلك فى هجمات متكررة ، وطبعاً فكان هذا حسابا خاطئاً من أساسه لإفتراض أن مثل هذه الطريقة يمكن أن تنجح ، وعلى كل فقد أساء كل القادة تقدير القوة التكتيكية للدفاع . ولم يدرك قادة الحلفاء مبكراً فى عام ١٩١٥ أن مثل هذه الهجمات الأمامية لن تحقق نتائج إيجابية لأنهم لم يدرسوا بجدية التاريخ العسكرى ، فى نفس الوقت لم يكونوا جنوداً محترفين . وعلى كل حال فقد قرروا الإستمرار فى نفس السياسة فى السنة التالية وعلى مجال أكبر كثيراً ، وطبعاً هذه لم تكن الحرب التى أفهمها .

وكانت قوة الدفاع أساساً تتكون من المشاة التى تطلق نيران البنادق والمدافع الرشاشة من الخنادق الآمنة وتعاونها المدفعية .

وكانت المشكلة الرئيسية أمام المهاجمين كيف الوصول إلى مسافة قريبة من المدافعين ؟ وفى الحقيقة كانت حرب الخنادق عبارة عن معارك حصار أكثر منها معارك مفتوحة ، وقد ظهرت

(١) الهجمات فى أراس وشمبانيا .

هذه المشكلة بوضوح فى الحرب الروسية — اليابانية وحروب البلقان وفى الإشتباكات التى جرت عند « مونز » و « لى كاتو » و « جريسى » حيث أمكن لعدد قليل جداً من القوات صد وإيقاف الإكتساح الألمانى الكبير المتقدم . وأثناء الإصطدام الأولى فى منطقة « مونز — لى كاتو » إستطاعت فرقتان بريطانيتان من إيقاف فيلقين ألمانيين . وقد أدت القوة التكتيكية للدفاع والعوامل الإدارية إلى تأخير خطة شليفن عن الجدول الزمنى الذى وضع لها مما أدى إلى فشلها فى تحقيق أهدافها . وكان حامل البندقية الموجود فى موقع ثابت يستطيع إطلاق ١٥ طلقة فى الدقيقة عبر الأرض الحرام ، بينما يستطيع المدفع الرشاش إطلاق سيل من الطلقات ، لذلك زاد عدد المدافع الرشاشة بسرعة . فى أول الأمر قرر « هيج » مدفعين لكل كتيبة ، ولكن لويد جورج لم يوافقه فى ذلك لعدم كفايتهما . وعلى نهاية الحرب تشكلت كتائب كاملة من المدافع الرشاشة بكل منها ٤٨ مدفع رشاش . وأصبحت الأسلاك الشائكة تحقق عائقاً آخر للتقدم . وبمرور الوقت أضيفت تحسينات إلى الدفاع .

وقد أدخل الألمان الغاز بأنواع عديدة منها : — الخانق ... والمسيل للدموع .. والحارق [١] . وكان غاز المستردة [٢] أسوأها جميعاً لأنه كان أكثرها تعجيزاً وبغضاً ، ويحتاج إلى وقت أطول فى التطهير . وأصبحت الخنادق تتكون من عدة خطوط فى العمق وبذلك لا يسقط الموقع الدفاعى إذا إخترق المهاجمون الخط الأول ، فى نفس الوقت يستطيع المدافعين إحضار قوات من الخلف بواسطة السكة الحديد والحملة الميكانيكية لملأ الثغرة أسرع من إمكان المهاجمين مواصلة الإندفاع للأمام . ومثال لذلك فى معركة « إيبر الأولى » إستطاع الألمان إختراق الخطوط الدفاعية البريطانية حتى وصلوا إلى المنطقة الخلفية للأسلحة الإدارية ولكنهم لم ينجحوا فى إستغلال هذا المكسب .

وخلال شتاء ١٦ — ١٩١٧ جهز الألمان مواقع دفاعية إحتياطية [٣] إنسحبوا إليها فى أوائل عام ١٩١٧ ، وقد تم إختيار هذا المكان لمزاياه الطبيعية والإستراتيجية . وكانت

---

(١) يحرق أنسجة الجسم . (٢) من نوع الغاز الحارق .

(٣) سميت بخط هندنبرج . « المعرب »

المواقع الدفاعية تتكون من ملاجىء عميقة تجعل المشاة آمنة من الناحية العملية من كل أنواع المدفعية، بينما بنيت دشم خرسانية للمدافع الرشاشة مع إنشاء شبكة من السكة الحديد الخفيفة لنقل الرجال والمواد والأمداد إلى المناطق الأمامية . وفى الواقع أصبح الدفاع يتمتع بمزايا كبيرة نتيجة للأسلحة المتوفرة ، ولكن كان هناك نظرية عكسية تكونت قبل الحرب ، ويمكن تلخيصها بكلمات فوش : — « الحرب معناها دائماً القيام بالهجوم » . وقد إفترضت هذه النظرية أن نيران المدفعية الحديثة والأسلحة الصغيرة سوف تعطى قوة للهجوم ، لدرجة أنه يمكن مهاجمة العدو وبنجاح فى مناطقه الدفاعية القوية . وقد كتب فوش : — « الحرب لا يمكن أن تخسر مادياً بل يمكن أن تخسر فقط معنوياً ، والمعركة التى تكسب هى المعركة التى لن يعترف فيها القائد بأنه هزم » . وأنا أوافقه على أن المعركة لا تخسر مطلقاً إلا عندما يعتقد القائد العام هذا . ولكن من الضرورى وجود حكم متزن بالرغم من أن القائد سيسعى دائماً لفرض إرادته على خصمه . فالقائد العام يجب أن يعرف متى يكون التعقل أفضل من الشجاعة ؟ كما يجب ألا تعلو رغبته فى السيطرة على خصمه ، الإمكانيات الحقيقية للموقف ، كما أن القائد الجيد الذى يكسب معاركه بأقل خسارة ممكنة فى الأرواح. وعلى كل حال ليس الهجوم الأعمى فى جميع الأوقات هو أفضل طريقة لتنفيذ هذه الفلسفة، وعادة ما يكون الدفاع الإستراتيجى أمراً مستصوبا عندما يسعى وراء هدف تكتيكى موات. وعندمايوجد هذا فيصبح الوقت مواتياً للجرأة ، فقد تم عمل كل شىء يمكن أن يمليه العقل لضمان النجاح ، وأعتقد أن فوش لم يفهم هذا .

صرخات الموتى الأخيرة

وكان الأسلوب العادى للهجوم هو تمهيد أولى بالمدفعية يتبعه إقتحام موجات من المشاة المسلحة بالبنادق والسنا كى ، بينما كانت المدافع الرشاشة والغاز أقل فائدة فى الإقتحام عنها فى الدفاع .

وقد سبق الهجوم على الجبهة الغربية قصفات بالمدفعية إستمرت عدة أيام . وكان الغرض الرئيسى من هذا القصف هو فتح ممرات فى الأسلاك الشائكة وإسكات المدافع الرشاشة للعدو قبل أن تبدأ المشاة الإقتحام .

وفى أول الأمر تفوقت المدفعية الألمانية فى الـكمية والنوع ، ولـكن بعد ذلك أصبحت أنواع المدافع تشبه بعضها كثيراً فى كل الجيوش . وأكثر المدافع البريطانية التى إستخدمت كانت من أعيرة ٢٥ رطلا و ٦ بوصة والهاوتزر ٢ر١ بوصة . وقد زاد المدى حتى وصل إلى أكثر من ٠٠٠ر١٠ ياردة . وإستخدمت الحملة الميـكانيكية فى نقل المدافع ولـكن كانت الخيل هى التى تحركها فى معظم الأحيان . أما أسلحة المدفعية الـكبيرة جداً مثل المدفع الشهير عيار ١٧ بوصة والمسمى « برتا الـكبير » والذى يستخدم فى الضرب على الأهداف الموجودة بالعمق البعيد ، وقد إستخدم الألمان معظم هذه الأسلحة . وعادت الهاونات للظهور والتى أهملت منذ مدة طويلة ، لأن هذه الحرب كانت من نوع حرب الحصار . وحلت الدانات شديدة الإنفجار تدريجيا محل الشرابنل ، كما إستخدمت أيضاً دانات الغاز والدخان . وقد تطلبت المدفعية درجة عالية من التنظيم لأن القصفات كانت تتم بحشدوتركيز وعلى مواجهات كبيرة ، ولذلك أصبحت قيادة المدفعية على طول قطاعات الجبهة وإزداد عددها وتركيزها ، حتى يمكن تنسيق القصف وتركيز النيران على المكان الصحيح وفى الوقت المطلوب .

وقد إستفادت المدفعية أثناء تنفيذ مهامها بالوسائل المتطورة للمواصلات مثل التليفون واللاسلكى وطائرات الملاحظة علاوة على إستخدام وسائل أخرى مثل الصوت واللهب لتحديد المكان والمسافة .

وعلى عامى ١٦ ، ١٩١٧ كانت فنون المدفعية قد تطورت بدرجة كبيرة . وكان من عيوب مثل هذه القصفات أنها تفقد تحقيق المفاجأة التكتيكية ، علاوة على ذلك كانت المدفعية فى الجو الممطر تحول الأرض إلى بركة من الطين فيصبح تقدم المشاة المترجلة والتى تحمل معدات تزن حوالى ٦٦ رطلا صعباً جدا .

وعندما تنتهى القصفة ، وكانت فى بعض الأحيان تنتهى بستارة من الدخان لإخفاء التحركات ، تترك المشاة المهاجمة خنادقها وتتقدم فى موجات لتشق طريقها بحذر خلال الأسلاك الشائكة الموجودة على جانبيها ، ثم تتشكل وتتقدم بسرعة خلف غلالة زاحفة من المدفعية .

ويصف أحد ضباط الآلاى ١٨٠ ألمانى الفرقة المشاة البريطانية وهى تهجم فى معركة السوم ، وكان هذا الهجوم هو النوع السائد فى ذلك الوقت : « ولقد أدرك الجميع أن القصفة

المركزه التالية هى إبتداء إقتحام المشاة البريطانية ، ولذلك إنتظر الرجال فى حفرهم على أهبة الإستعداد .

وكانت أحزمتهم مملوءة بالقنابل اليدوية ، بينما قبضوا على بنادقهم وأخذوا يستمعون وينتظرون رفع القصفة من المنطقة الدفاعية الأمامية إلى الدفاعات الخلفية . وكان من الأهمية القصوى أن يتخذ الجميع مواقعهم لمقابلة المشاة البريطانية التى ستتقدم مباشرة خلف غلالة

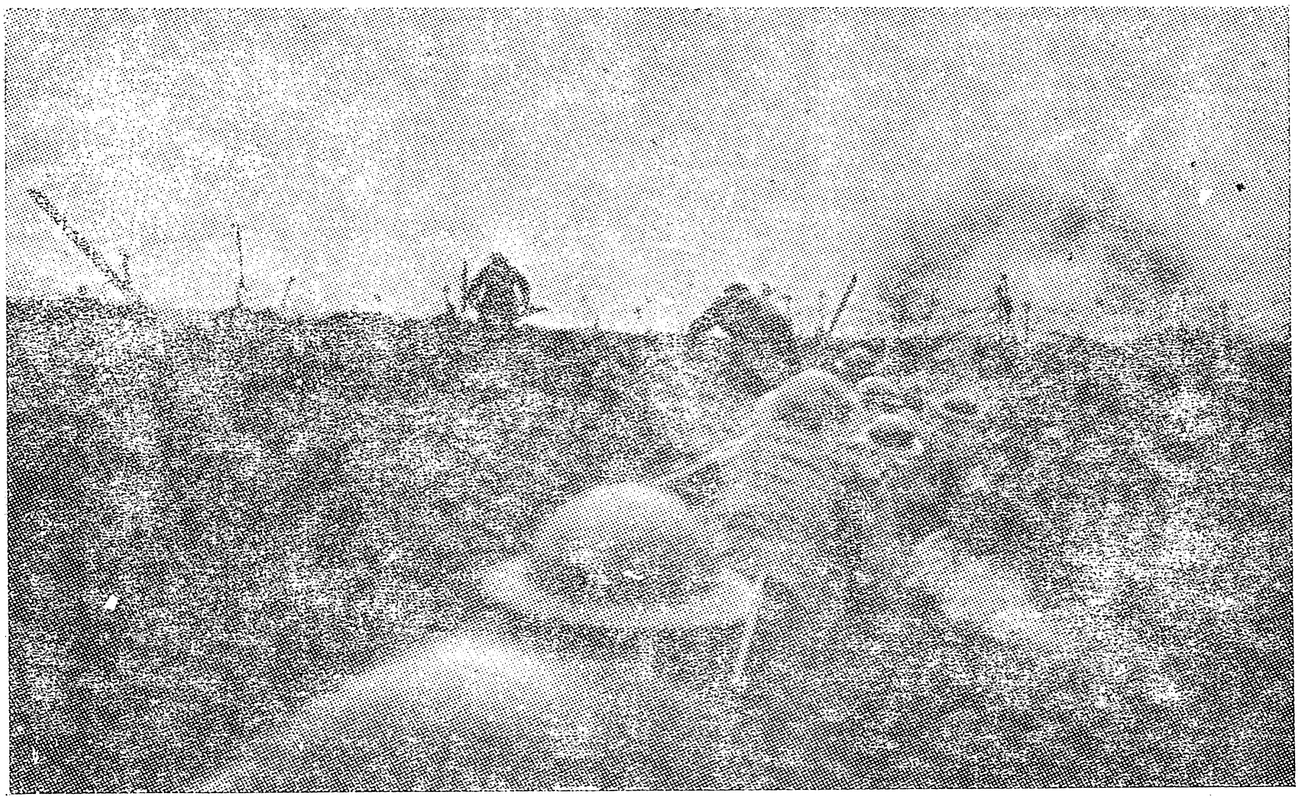

المشاة الانجليزية تتحرك فى خنادقها إستعدادا للهجوم

المدفعية . وعند النظر إتجاة الخنادق البريطانية من خلال بيرسكوبات الخنادق الطويلة والممتدة إلى أعلا الملاجىء يمكن رؤية حشد من الخوذ الحديدية خارج المواقع الدفاعية إستعدادا للاقتحام . وفى الساعة ٧½ ، توقفت عاصفة النيران فجأة كما بدأت ، وعلى الفور أسرع رجالنا خارج الملاجىء فراداً أو جماعات إلى أقرب حفرة سببتها دانات مدفعية العدو . وأخرجت المدافع الرشاش من مخابئها ووضعت بسرعة فى أماكنها وأخذ أطقم المدافع فى سحب صناديق الذخيرة الثقيلة فوق السلالم نحو المدافع . وهكذا أقيم خط رهيب من النيران ،

وبدأ الخط الأول فى التقدم وكأنه يمتد إلى اليمين واليسار بدون نهاية ، وسرعان ماتبعه خط ثانى وثالث ورابع .

ونقدمت الجنود البريطانية ببطء وثبات وكأنهم لايتوقعون وجود شيء حى فى خنادقنا الأمامية . وكان يسبق الخط الأول خط رقيق من المناوشين وقاذفى القنابل اليدوية.وأصبح الخط الآن فى منتصف مسافة الأرض الحرام .

وأخذت تمر كلمة «إستعد» على طول جبهتنا من حفرة إلى حفرة ، ، وظهرت الرؤوس على حافة الحفر وأخذ الجنود أوضاعهم الأخيرة بحيث تعطى أفضل رؤية بينما ثبتت المدافع الرشاشة القوية بقوة فى أماكنها . وبعد دقائق قليله وعندما أصبح الخط البريطانى الأمامى على مسافة ١٠٠ ياردة ، بدأت قعقعة نيران المدافع الرشاشة والبنادق من على طول خط حفر الدانات .

وكان الجنود يطلقون النيران من الوضع مرتكزا ليحصلوا على أفضل رؤية للهدف فوق الأرض المكسرة ، بينما إنتاب الأخرون نشوة المعركة ووقفوا يطلقون النيران على حشد العدو المتقدم بغض النظر عن سلامة أنفسهم .

وأسرعت إلى السماء الزرقاء صواريخ حمراء كأشارة لبدء المدفعية ، وعلى الفور مزقت أعداد كبيرة من دانات البطاريات الألمانية الموجودة فى الخلف الهواء لتنفجر بين الخطوط المتقدمة . وبدا وكأن جماعات كاملة تسقط ، وسرعان ماتفرقت التشكيلات البريطانية الخلفية وكانت تتحرك فى تشكيل منضم ، وأخذ يتعثر التقدم تحت وابل الدانات والطلقات . وكان يرى على طول خط الرجال المتقدم وهم يلقون بأسلحتهم ويسقطون بلا حركة إلى الأبد . وتدحرج الجرحى بينما زحف المجروحون الأقل خطورة إلى أقرب حفرة سببتها المدفعية لأتخاذها كملجأ للوقاية .

وعلى كل حال لم ينقص الجندى البريطانى الشجاعة ، فعندما يضع يده على السلاح فلم يكن من السهل تحويلة عنه .

والآن ظهرت فى الصورة بسرعة الخطوط الممتدة ولكنها أهتزت بشدة وحدث بها ثغرات كثيرة ، بينما قطع الجنود البريطانيون الأرض فى إندفاعات قصيرة وبخطوة سريعة

بدلا من الخطوة البطيئة . وفى خلال عدة دقائق ، وصلت القوات القائدة المتقدمه إلى مسافة إلقاء الحجر من خنادقنا الأمامية ، وقد إستمر بعضنا فى إطلاق النيران من هذه المسافة القاتلة بينما ألقى آخرون بالقنابل اليدوية على القوات المهاجمة . ورد البريطانيون بقذفة من القنابل بينما أندفعت مشاتهم للأمام والسناكى مثبتة فى بنادقهم .

وأصبح من المستحيل تحمل ضجة المعركة ، وكان يسمع من خلالها صراخ الأوامر والتشجيعات الصاخبة مختلطة بصوت الوابل الكثيف والعنيف للمدافع الرشاشة والبنادق وإنفجار الدانات ، ومع كل هذا إختلط أهات وتأوهات الجرحى والمعاونة وصرخات الموتى الأخيرة. ومرة أخرى تحطمت خطوط المشاة البريطانية الممتدة على الدفاعات الألمانية .

وكانت الصورة تشبه إلى حد كبير موجات البحر وهى تصطدم بالصخر ، والتى ينتج عنها تحطم الموجات فقط . »

وبهذا الشكل دارت الحرب على الجبهة الغربية فى أوروبا . وبالرغم من توفر هذه الأسلحة القاتلة والموقف الأستراتيجى القائم فلم تتوفر إلا فرص قليله ليغير قتال الخنادق من شكل القتال العام ، لذلك لم يخلق مهارات تكتيكيه جديدة تمكن المهاجم من إتمام عملية الأختراق .

حرب الأنهاك

وبالرغم من ذلك ففى بعض الفترات دار قتال جيد مما يدل على أنه من الممكن حدوث قتال أفضل قليلا من ذلك النظام العادى للهجوم .

وفى معركة الفردان حاول الألمان تحقيق المفاجأة ومهاجمة العدو فى أضعف نقطة بدلا من مهاجمته فى أقوى نقطة ، ولذلك قامت جماعات الإستطلاع بشجاعة وذكاء وتحت ستر الظلام بأستكشاف جبهة العدو لمعرفة الأماكن الضعيفة .

وعندما يجد الألمان الفرنسيين فى نقطة متنبهين وأقوياء ، يحولوا هجومهم إلى مكان آخر أو يؤجلوا الهجوم بينما يستمروا فى تمهيد إضافى بالمدفعية . وكان يحالف الألمان دائما النجاح فى هجماتهم الصغرى متأكدين أن فى إمكانهم إختراق خط العدو .

وقد أستغلوا منحنيات نهر الموز وصلاحية الأرض هناك للقيام بتطويق العدو . وكان هناك تعاونا وثيقا بين المدفعية والمشاة الألمانية حققها أستخدام الإشارات المضيئة (الصفراء والحمراء والخضراء) ، بينما لم تستطع قوات الحلفاء تحقيقها .

وقد قام الجنـــود الألمان أيضاً بتنظيم خنادقهم بدقه عاليه . وعلى أى حال وخاصة فى الفردان فقد أستغل الألمان الفرص التكتيكية أفضل من أعدائهم . ولكن فى النهاية لم يستطيعوا تحطيم المقاومة الفرنسية فى الفردان ، لأن الوسائل التكتيكية المطبقة فى حرب الخنادق لم تعطى أى نتائج حاسمة . وقد جاء فى التاريخ الرسمى البريطانى عن منطقة « الباشنديل » خلال معركة « ايبر الثالثة » فى عام ١٩١٧ ما يلى : « لقد تحولت المنطقة القريبة من الجبهة والتى قصفت بالمدفعية إلى حاجز من المستنقعات الطويلة لأن جسور الأنهار إنهارت ، وأصبح عبور المستنقعات فى مدقات محددة جداً والتى أصبحت أهدافا جيده لمدفعية العدو ، فى نفس الوقت كان الخروج عن المدقات معناه المخاطرة بالموت غرقا.» وفى هذه الأحوال البشعة حطم الأرهاق والضجر المعنويات ، مثلما حطمها الخطر والقذارة . وأخذ الحماس يضعف تدريجيا ، ولكن الشجاعة والتضحية بالنفس ظلت ثابتة ويتوجها الزمالة . وقد كتب سيدنى روجرسون يقول : « لم تكن حياة الخنادق كلها بشعة ، لأنها كانت مزيجا لأشياء كثيرة ، الرعب والضجر . . . والفكاهة والزمالة . . . والمأساة والتعب . . . والشجاعة وقنوط . » وكانت هناك حقيقة غريبة ومخزية ، فمعظم الضباط الكبار كانوا يجهلون الأحوال التى يقاتل فيها الجنود .

وكانت الأوامر تصدر لتنفيذ الهجمات « بغض النظر عن الخسائر » وكانت تستمر لأيام متتاليه . وكان هناك تناقض كبير بين معدن الرجال المقاتلين والقادة الذين أعطوا الأوامر . وقد كتب بصراحة م . ح . ب . تايلور : « كان الجندى هو بطل الحرب العالمية الأولى . » ويمكن أن نقول أن الجنود كانوا يستحقون قيادة أفضل لأنهم فى مجموعهم كانوا أفضل من قادتهم الكبار ، ولو أنه تواجد بين القادة بعض الاستثناءات القليلة جداً . وأصبح الموقف على الجبهة الغربية بطريقة الهجوم بالمواجهة ، حرب إنهاك وإختبار لتحمل كل جانب ودرجة توفر مواردة . ومن المثير أن جنود الجانبين لم تفترهممهم ، فنجد أن الألمان نجحوا

بدرجة معقولة فى القتال على الجبهتين ، وصمدوا فى مواقعهم وقتلوا أعداداً كبيرة من أعدائهم أكبر مما فقدوه هم .

وإستطاع الألمان إمداد جبهاتهم بقوات ممتازة ويرجع ذلك لنظامهم فى التجنيد الموضوع قبل الحرب ، وطول مدة تدريب جنودهم .

أما الفرنسيون فقد صمدوا أيضاً ، وقد إرتفعت معنوياتهم فى الحقيقة بعد الفردان ، بالرغم من خسائرهم الفادحة فى الإعداد أو فى نوعية الرجال الذين قتلوا ، فكانو فى الواقع أفضل جنودهم العاملة.

أما البريطانيون فكانوا على وشك الوقوف على أقدامهم فى الجبهة الغربية ، ففى ذلك الوقت قام « كتشنر » وزير الحرب بحملة للتجنيد مما أدى إلى تطوع ٠٠٠ر٤٠٠ مدنى من أجل الجيش الجديد(١) وتم تدريبهم بقدر الإمكان وكانت معداتهم ناقصة ، وبالرغم من ذلك شعر البريطانيون على عام ١٩١٦ بقدرتهم على تحمل المسئولة بالتساوى مع الفرنسيين .

وفى عام ١٩١٦ كانت قوات الحلفاء عند السوم تقريباً جميعها بريطانية ، ومعظمهم من الرجال الذين تطوعوا أخيراً .

وخلال تجارب عام ١٩١٦ تحول المسرح الأصلى للمتطوعين إلى عزم ضار شرس فقط . وقد تمتع كلا الجانبين خلال الحرب بموارد ضخمة من الأهالى والمعدات أمكن السحب منها .

ففى عام ١٩١٠ كان التعداد السكانى كالآتى : — ألمانيا ٦٥مليون — فرنسا ٣٩ مليون — بريطانيا ٤٥ مليون(٢) .

وكانت بريطانيا وألمانيا (عدا الولايات المتحدة) أعظم قوتين صناعيتين وتجاريتين فى العالم .

وكان يدير الاقتصاد الألمانى خلال الحرب الرأسمالى العبقرى « والترراثنو » والذى ساربه قدماً . وقد أعتمد الألمان من أجل الطعام على الأراضى الزراعية فى وسط أوروبا بينما أعتمد الفرنسيون على أراضيهم أما البريطانيون ، فاعتمدو على الاستيراد . وقد أثرت تعبئة

(١) كان الجيش البريطانى فى ذلك الوقت حوالى ٠٠٠ ر ١٠٠ فقط
(٢) لقد سحبت بريطانيا أعداد كبيرة من سكان مستعمراتها أكثر من الدول الأخرى «المعرب»

الملايين من الرجال على طبيعة المجتمع فى الدول المشتركة ، لأن الصراع أصبح « حرب شاملة » بينما أخذت « الجبهة الداخلية » أهمية لم تأخذها من قبل . وظهر « دافيد لويد جورج » كزعيم حربى عظيم فى بريطانيا ، وقد قوى بخطبه حماس الشعب ، حتى إستطاع دفع زعماء النقابات ورجال الأعمال لمعاونته فى إعادة تنسيق الصناعة لمقابلة إحتياجات الحرب ، بينما شجع النساء على العمل فى المصانع والمكاتب لملأ أماكن الرجال الذين يقاتلون بعيداً . وهكذا نجد أن الحرب تركت علامات ثابتة على الحياة فى بريطانيا كما أنشأت أشياء جديدة مثل التوقيت الصيفى وتحديد ساعات غلق المحلات العامة ، وكان الغرض من هذا هو جعل الناس تعمل أكثر .

وقامت الدعاية والرقابة الماهرة فى كل البلاد بمنع الجمهور من إدراك ما يحدث حقيقة على الجبهة ، وعلى العموم كانت الأهالى متحمسة للحرب ، ولم تؤثر الغارات الجوية على حياة المواطنين .

باشنديل (أنظر اللوحة رقم ٤٥)

ونجد أن قوة دول الحلفاء ودول الوسط تكافأة تماماً بالنسبة للقوة البشرية والإمداد بالمعدات ، بينما كانت الجبهات الداخلية تتمتع بروح معنوية عالية .

وكانت الصورة فى عام ١٩١٦ أنه من الممكن إستمرار حرب الإنهاك لبعض الوقت .

وفى نهاية عام ١٩١٦ قام لدندورف بأخبار الألمان بأنه لا يوجد صلح يحقق حلا وسطا ولذلك لابد من كسب الحرب .

وفى ديسمبر من ذلك العام أصبح « لويدجورج » رئيساً لوزراء بريطانيا وأعلن نفس الكلام . وفى ذلك الوقت وصل فى فرنسا شخصية جديدة إلى العلا ، وهو الجنرال « روبرت نيفيل » وقد رقى إلى رتبة القائد الأعلى مكان « جوفر » وذلك لأنه حصل فى الفردان على نجاح مظهرى ، فقد إستولى على شريط من الأرض بخسائر قليلة نسبياً . وقد أدعى « نيفيل » معرفة « سر النصر » .

وكان « لويد جورج » قائدا ممتازا للشعب البريطانى على الجبهة الداخلية ، ولكنه لم

يتفوق فى الإدارة الحربية . وقد كره « لويد جورج » الحرب على الجبهة الغربية كما كان رأيه ضعيفاً بالنسبة لهيج .

وقد أقترح « لويد » فى عام ١٩١٧ القيام بهجوم رئيسى على الجبهة الإيطالية ولكن الحلفاء لم توافق . بعد ذلك تأثر بنيفيل ، وقرر دفع المجهود البريطانى لمعاونة نيفيل ، وتآمر ليضمن أن يكون هيج تابعاً للقيادة الفرنسية العليا . وكتم نيفيل سره ، ولكنه سرعان ما كشفت أعماله عندما تولى القيادة وأنه لا يوجد لديه وصفه جديدة للنجاح .

ومرة أخرى فى عام ١٩١٧ ألقى الحلفاء ثقلا أكبر من الرجال والمعدات ضد الألمان أكثر من السنة السابقة .

وفى ربيع عام ١٩١٧ كانت خسائر الفرنسيين فادحة أثناء الهجوم فى معارك « أراس» و « أيسن » ، مما أدى أن الجيش الفرنسى بدأ يتصدع فى مايو . وعزل نيفيل من القيادة وعين بدلامنه « بيتان » البطل الحقيقى لفردان . وكان هذا الوقت أحلك أيام الحلفاء فروسياً فى آلام الاحتضار من الثورة بينما كانت الغواصات الألمانية تدمر سفن الحلفاء . فى ذلك الوقت أصبح « هيج » المخطط الرئيسى لعمليات الحلفاء بالجبهة الغربية ، وكانت خطته القيام بهجوم قوى بالمواجهة ضد الألمان فى الفلاندرز ، وهذا يعنى أن البريطانيين سيسحبون الضغط من الفرنسيين ، وعلى كل حال كان الأمر الأكثر أهمية فى نظره هو تجنب التشابك والتورط مع الفرنسيين . وكان يعتقد أنه إذا إنتصر فى هذا الهجوم فيستطيع طى جانب من المواجهة الألمانية ومعاونة القوى البحرية البريطانية فى منع غواصات العدو من العمل فى الموانى الواقعة بجوار بحر الشمال ، وكمثال فى الأراضى الواطئة .

وفى يونيه ١٩١٧ إستولى البريطانيون على سلسلة « مسينى » المرتفعة ، وتبع ذلك فترة توقف ، حدث بعدها معركة « أيبر الثالثة » والتى إستغرقت الفترة من ١١ يوليه حتى ١٠ نوفمبر ، وسقطت الأمطار فى أغسطس ضعف المعدل العادى ، ثم هبطت من ٣ أكتوبر فصاعدا بدون تقف تقريباً .

وقد قاتل الرجال وماتوا فى الطين وغرقوا فى حفر الدانات . ويتذكر الكثير من الجنود هذه الأيام كلمة « باشنديل » برعب شديد وعلى كل فقد إنتهت ذروة الهجوم

بالاستيلاء على سلسلة «الباشنديل» ولـكن ليس أكثر ، وقد فقد البريطانيون ٢٤٠٫٠٠٠ رجلا وبالمثل فقد الألمان نفس العدد تقريباً .

وفى أكتوبر دفع « بيتان » بهجوم عندالجنوب الشرقى الأبعد أى عند « ماليسون » وكانت نتيجة هذا الهجوم مجرد إزالة لبعض النتوءات القليلة التى ليس لها قيمة من جبهة القتال .

وقد برهنت إستراتيجية الحلفاء لعام ١٩١٧ على أنها عقيمة . وعلى كل حال فليس معنى الإشارة إلى خطأ وفظاعة حرب الخنادق أن ننكر أن الروح القتالية للرجال كانت لا تزال تتحمل الحرب .

وقد أديرت بعض العمليات بقدرة فائقة ، وكان من الممكن تحت قيادة ماهرة الحصول على مكسب من الأرض ، ولـكن سيكون محدوداً .

ظهور الدبابات (أنظر اللوحة رقم ٤٥)

وقد أدى قتال عام ١٩١٧ والذى كان عبارة عن الخوض بصعوبة فى الوحل والدماء إلى تحطيم الفرنسيين ، لأنهم كانوا يندفعون منذ فترة طويلة فى هجمات إنتحارية ضد الخنادق و حدثت سلسلة من التمردات بعد هجمات « نيفيل » ولـكن تخلص « بيتان » من العناصر السيئة وعالج الباقى حتى عادوا إلى حالتهم الطبيعية .

وفى خريف عام ١٩١٧ كان الجيش الفرنسى قد شفى تماماً . وظل البريطانيون مستبشرين كما كانوا سعداء بقدوم الوحدات الممتازة من الدومنيون لتدعمهم مع وصول الأفواج الأولى من الأمريكيين . ولـكن ما هو أكثر روعة ويلفت النظر هو تحمل الجنود الألمان للقتال فى الجبهة الغربية لمدة أربع سنوات على عاتقهم وبدون أى معاونة خارجية . وإذا ألقينا نظرة على معركة « أيبر الثالثة » لوجدنا أن الأمطار والوحل والبرد أكسبت « باشنديل » سمعة رهيبة فى نفس الوقت وصل علم التطبيق المتواصل المثابر والمستخدم إلى أعلى مستوى لمجرد إختراق مواجهة العدو . والرجل الذى حقق ذلك هو قائد الجيش البريطانى الثانى الجنرال « هربرت بلومر » والذى خدمت فى جيشه فى ذلك الوقت . وكان « بلومر » أحد القادة القلائل جداً فى الحرب ، فكان جنديا محترفاً وعلى درجة عالية بكل ما يعنى ذلك ،

ولذلك وثق به رجاله وأحترموه . وأخذ يخطط لمدة سنتين ويعد لعملية التلغيم والتى حققت له الإستيلاء على سلسلة المسينى المرتفعة فى يونيه ١٩١٧. فقام بحفر ١٩ نفقاً عميقاً وعلى مسافة أكثر من ١٠٠ قدم تحت الأرض ملأها بمليون رطلامن المواد المتفجرة . وجهزهالتنفجر كلها معا فى فجر صباح ٧ يونيه ، ونتج عن ذلك مجرد سير القوات البريطانية والإستيلاء على السلسلة .

وفى نهايه أغسطس أصبح جيشه الثانى رأس حربة فى المعركة ، فعلىالفور تولى « بلومر » إدارة العمليات بنفسه ، وقد كتب تيران يقول : — « كان أسلوب « بلومر » هو التجهيز الواعى والتقدم المحدود خطوة خطوة أى حوالى ١٥٠٠ ياردة فى المرة ، بعد أن يغطى ١٠٠٠ ياردة منها بغلالة أولية » . وقدر « بلومر » كثيراً أهمية المدفعية ، فقد طلب التجهيزلهجومه الأول ثلاثةأسابيع وأكثر من ١٣٠٠ مدفع هاونزر لتنفيذ الهجوم ووضعت هذه المدافع مع ٢٤٠ مدفع رشاش على طول مواجهة الهجوم . وعندما حدث الهجوم الأول لبلومر كان نموذجاً للتجهيز والعزم .

وفى ٢٠ سبتمبر أثناء معركة سلسلة طريق مينين كانت مواجهة الهجوم ٤٠٠٠ ياردة ويقوم بالهجوم ٤ فرق(١) وإستولت القوات البريطانية على مواقع العدو بمقاومة قليلة ، بينما كسب رجال « بلومر » فى مرتين أخرتين مواجهة محدودة من الأرض عند غابة « بوليجون » و « بروودسيند » مستخدمين نفس الوسائل أى القيام من قبل بتمهيد كثيف ومركز بالمدفعية .

وكانت نسبة الخسائر أقل بكثير من مثيلتها عند « السوم » وعند « ووترلو » . وبهذه الطريقة كان يتم كسب الأرض ، ولكن إذا كان سيتم بمعدل ١٥٠٠ يادرة كل ثلاثةأسابيع فمعنى هذا أن طرد الألمان إلى موطنهم سيأخذ وقتاً طويلا . ولكن وصلوا أخيراً إلى مايمكن فى الحقيقة تحريك الحرب بسرعة أكثر .

ففى ٢٠ نوفمبر ١٩١٧ إستخدم البريطانيون الدبابات فى الهجوم على « كامبرى » . وتقدمت ٣٠٠ دبابة فى تشكيلات كثيفةللامام وبدون أىقصف تمهيدى للمدفعية . وأحدثوا فى ذلك اليوم ثغرة عرضها ٤ أميال فى خط هندبرج ، وخسروا ١٥٠٠ رجلا بينما أخذوا

(١) ٢ أسترالية و٢ بريطانية « المعرب »

١٠٠٠٠ أسير ألمانى و٢٠٠ مدفع . وإخترقت الدبابات عمقاً وصل خمسة أميال[١] ويصف النقيب د . ج . برونى[٢] : — « عبرت الدبابات الأحزمة الثلاثة للأسلاك الشائكةوبدت الأسلاك وكأنها كنبات ذووبرةشائكة، وقامت الدبابات بفتح ٣٥٠ ممراً فى الأسلاك للمشاة . وبينما كان المدافعون فى الخندق الأول يخرجون بسرعه من ملاجئهم ودشمهم لمقابلة ضجة لهب الغلالة، عندماشاهدوا الدبابات القائدة و هى تقترب عليهموكان منظراً هائلا ومرعباً » . وفى الواقع فالفوائد التى كسبتها الدبابات ضيعتها بذلك عدم كفاءة القياده العليا ، فـكانت الاحتياطات الوحيدة المتوفرة لاستغلال النجاح هى الفرسان ذلك السلاح الذى أختفت خفة حركته التكتيكية فى وجه الأسلحة منذ زمن بعيد .

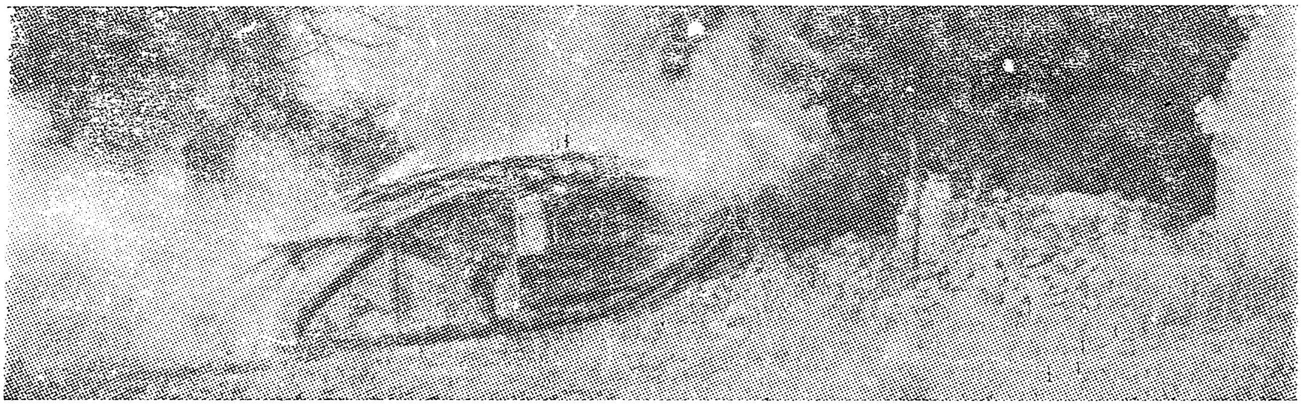

أول أنواع الدبابات وهى تقوم بالهجوم

وفى ٣٠ نوفمبر قام الألمان بهجوم مضاد مفاجىء موجه إلى جنب ومؤخرة المنطقة التى كسبها الاختراق البريطانى وإستولوا عليها وبالتالى على المكاسب البريطانية . وعلى كل حال فـكانت هذه المعركة هى علامة بارزة فى تاريخ الحروب .

وفى عيد ميلادى عام ١٩٥٣ أهدانى سير ونستون تشرشل نسخة من كتابه « الأزمة العالمية ١١ — ١٩١٨ » ولاحظت أنه كتب فى الجزء الثانى صفحة ١٢٢٠ عن معركة

---

(١) وهى المسافة التى أستغرقت لـكسبها فى أبريل أربعة شهور وكانت خسائرها ٣٠٠٠٠٠ جندى
(٢) كان حاضر هذه المعركة ورأى هجوم الدبابات « المعرب »

كامبرى يقول : « لقد إتهمت ونددت بدون إستثناء بكل هجمات الحلفاء الكبيرة فى أعوام ١٥ ، ١٦ ، ١٩١٧ . وقد وصفتها بأنها عمليات تمت خطأ بدون فائدة وبتكاليف خيالية . وهنا أجد نفسى مضطراً للاجابة عن السؤال : — ما الذى كان يمكن عمله غير ذلك ؟ وأنا أجيب مشيراً إلى معركة كامبرى : — كان يجب عمل ماحدث فى هذه المعركة ، ومن الممكن أن يتم فى أشكال متنوعة وأكبر وأفضل كثيراً .

ولكن يجب أولا يقتنع الجنرالات بأن الحرب ليست محاربه طلقات المدافع الرشاشة بصدور الرجال الشجعان » .

حروب الغواصات

أما بالنسبة لاستراتيجة الحلفاء فى البحر ، فقد تولت البحرية البريطانية الدور الرئيسى ، بينما لعب الفرنسيون دوراً مفيداً فى البحر المتوسط ، كما عملت الأساطيل الروسية فى البلطيق والبحر الأسود .

وكانت سياسة بريطانيا البحرية عادة تأمين خطوط المواصلات البحرية والتى تعتمد هى وحلفائها عليها فى البقاء مع تدمير خطوط مواصلات العدو .

وفى عام ١٩١٤ كانت قوة البحرية البريطانية ٣٠ بارجة حربية و٧ طرادات ثقيلة ضد ١٣ بارجة و٣ طراد ثقيل لدى الألمان ويرجع الفضل فى ذلك لبرنامج « فيشر » من قبل الحرب والخاص « بالدريدنوت[1] . وبدأ البريطانيون فى كنس البحار من العدو .

وفى ١ نوفمبر تقابل سرب ألمانى بقيادة الأدميرال « فون سبى » مع قوة بريطانية ضعيفة بقيادة « كرادون » خارج « كورونل » واغرق الألمان طرادين بريطانيين .

وفى ديسمبر تقابل « فون سبى » مصادفة مرة ثانية مع البريطانيين عند جزر « فولكلاند » وتم غرق أربع من كل خمس سفن ألمانية .

ومن ذلك الوقت قررت القيادة العليا الألمانية بعدم المخاطر بأسطول أعالى البحار ضد البحرية البريطانية مع إبقائها بدلا من ذلك مستعداً للعمليات فى البلطيق ، ليصبح عنصر التهديد دائم ، ويصلح ليكون عنصرا للمساومة فى أى مفاوضات للهدنة التالية . وهكذا

(١) البوارج الثقيلة

ترك الألمان البريطانيين أحراراً لتنفيذ سياستهم التقليدية لحصار أسطول العدو فى موانيه وتدميره إذا جرؤ على الخروج .

وعلى كل حال لم تكن طريقة الحصار هى نفس طريقة الحصار أيام الشراع بأن يبقى الأسطول المحاصر خارج موانى العدو ، لأن هذا العمل يكون خطيراً جداً لوجود الغواصات والألغام .

وبدلا من ذلك أقام البريطانيون حصاراً غير مرئى ، وذلك بتمركز عمليات الأسطول الكبرى على قاعدة « سكابا فلو » فى « الأركنيس » المواجهة للبلطيق . وأصبح النشاط الرئيسى للسفن البريطانية هو إعتقال السفن التجارية الألمانية وتفتيش السفن المحايدة ومهاجمة الغواصات الألمانية .

وتمت عمليات مختلفة فى بحر الشمال بين الطرادات الثقيلة ، ولكن لم يحدث غير مواجهة واحدة فقط للأسطولين على مستوى كبير وذلك خارج « جوتلاند » فى عام ١٩١٦ . فقد غامر الأدميرال الألمانى « سيشر » بالخروج ولكن لم ينوى الاشتباك فى معركة كاملة ، بينما كان الأدميرال البريطانى « جليكو » يدرك خطر الطوربيدات الألمانية ، وأن البريطانيين إذا أنتصروا فلن يكسبوا كثيراً أما إذا هزموا فسيخسروا كل شىء . وعلى ذلك إشتبك الأسطولان إشتباكا خفيفاً خلال ٣١ مايو — ١ يونية ، ثم قاما بالابتعاد .

وبعد هذه المعركة بقى الأسطول الألمانى بالكامل تقريباً بدون عمل حتى أن البحارة تمردت من مجرد الضجر فى عام ١٩١٨ .

وقد قبلت ألمانيا بدون تحدى تقريباً سيادة بريطانيا على سطح البحار ، ولكن الأمر مختلفاً تحت سطح البحار . فقد رد الألمان على الحصار البريطانى بحرب الغواصات .

وقد أدى البحث والتجربة إلى تطوير حديث للغواصة حتى أصبحت سلاحا ذا تأثير فعال . وتكمن قوتها الضاربة فى الطوربيدات التى تطلق بواسطة الهواء المضغوط من أنابيب فى مقدمة الغواصة . وكان يوجد بأكثر الغواصات أربعة أنابيب تحمل كل منها طوربيدين وبذلك يمكن إطلاق ٥٠٠ رطل من مادة ت . ن . ت بسرعة ٣٦ ميل فى الساعة ولمسافة ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ ياردة .

ويمكن للغواصة أثناء سيرها على عمق ٢٥٠ قدما مراقبة كل ما هو على السطح خلال البيرسكوب .

وفى عام ١٩١٤ كان لدى بريطانيا فى الواقع عـــدداً من الغواصات أكثر من ألمانيا[1] .

ولـكن فى نهاية ١٩١٤ أدخل الألمان أنفسهم فى برنامج كبير لحرب الغواصات ، فبنوا بسرعة عدداً كبيراً من القوارب «ى[2]» وكان حجمها أكبر وقوة ضاربة وحمولة أكثر ممـا سبق ، فى نفس الوقت بنى أنواع أخرى مثل « ى ١٠٠٠ » وكانت عبارة عن غواصات صغيرة إستخدمت لحمايه الموانى ورص الألغام .

وفى أوائل عام ١٩١٥ إفتتح الألمان حملةالغواصات ، وكانوا يأملون فى ضرب الأسطول الـكبير ، ولـكن بالرغم من الأخطار والمحاولات ، لم تنجح الغواصات مطلقاً فى إختراق القاعدة البريطانية فى « سكابافلو » ، إلا أن تأثير الغواصات أصبح شديداً جداً فى هجومها على السفن التجارية .

وكانت السياسه الألمانية فى عام١٩١٥ هى «حرب الغواصات بدون قيود» أى الضرب فوراً بمجرد رؤية السفن التجارية المعاديه والمحايدة وبدون إنذار ، وطبعاً هذا ضـد القانون الدولى ، وقـد عارضت أمريكا المحايدة فى ذلك بشدة حتى حدد الألمان حملات غواصاتهم . وبالرغم من ذلك إستمر إغراق كميات ضخمة من سفن الحلفاء فى بحر الشمال وفى المداخل الغربية بين إرلندا ويشانت وفى البحر المتوسط .

وعلى ربيع ١٩١٧ بدا وكأن عمليات الغواصات ستكسب الحرب لألمانيا ، ففى إبريل فقط دمر أكثر من مليون طن من سفن الحلفاء والمحايدين .

وأدى هذا أن كل أربعة سفن تبحر من الموانى البريطانية تغرق واحدة منها ، ولذا رفضت بحارة السفن الأجنبية الإبحار إلى إنجلترا .

وفى ذلك الوقت قرر الألـمان عودة حرب الغواصات الغير مقيدة على أمل إنهاء الأمور تماماً .

وقد أخذ إكتشاف أفضل الوسائل المضادة للغواصات وقتاً طويلا وعلى كل فقد رصت الألغام بغزارة ، وكانت السفن تبحر فى خطوط متعرجة مع إلقاء عبوات الأعماق .

(١) كان لدى بريطانياً ٣٦ غواصة أما ألمانيا فكان لديها ٥٨

(٢) كانت الغواصات تسمى بقوارب « ى »

وقرب نهاية الحرب أخترع « الأزتيك » ، وهو جهاز يمكن كشف الغواصات القريبة بإرسال موجة صوتية حاملة .

وفى الحقيقة لم تؤثر هذه الوسائل فى الغواصات . وأخيراً فى اللحظة النهائية الحرجة فقط إكتشف « لويد جورج » الإجابة .. وكانت الإجابة القوافل . فقد أمر « لويدجورج » بالرغم من عدم موافقة الأدميرالية والتى لم تقدم أى حل ، بإنشاء نظام القوافل وذلك فى نهاية إبريل عام ١٩١٧ ، فبالرغم من إزدياد عدد الغواصات العاملة إلى ١٤٠ غواصة فى شهر أكتوبر ، فإن معدل الخسائر فى سفن الحلفاء قد هبط كثيراً فى ذلك الوقت ، كما زاد معدل تدمير غواصات العدو . فكان من الصعب على الغوصات مهاجمة القوافل لأن قطيع السفن التجارية كان يصحبه سفن من البحرية لديها كل وسائل الدفاع المتوفرة ، وقد أعطى نجاح نظام القوافل ضد الغواصات شعاعا من الضوء للحلفاء فى نهاية عام ١٩١٧ بينما أعطى قرار الولايات المتحدة الأمريكية دخول الحرب (١) إلى جانب الحلفاء فى إبريل أملا كبيراً للحلفاء فى النصر وقد ساهمت القوى البحرية البريطانية مساهمة فعالة فى مجهود الحلفاء الحربى ، فسيطرتها على البحار مكن نقل القوات إلى المسارح المختلفة مع ضمان تدفق الأمدادات باستمرار .

وعلى كل حال فقد لعبت القوى البحرية البريطانية دوراً آخر لبريطانيا ألا وهو العمل كبنك قوى للحلفاء ، علاوة على أن الحصار البريطانى أضعف فى نهاية الأمر قوى الوسط بدرجة خطيرة ، بالرغم من إمتلاك قوى الوسط لموارد محلية هائلة من الطعام والمواد . فى نفس الوقت أدت حرب الغواصات ولأكثر من سنتين إلى تهديد خطير للحلفاء ، وفى نهاية سددوا ضربة مميتة لهم علاوة على الضربة القاتلة الاخرى بدخول الامريكان الحرب إلى جانب الحلفاء .

التخبط الروسى (أنظر اللوحة رقم ٤٧)

لقد لعبت القوة الجوية دورا صغيراً خلال حرب ١٤ ـ ١٩١٨ ، وأستخدمت الطائرات لمعاونة عمليات الجيش والبحرية . وكانت الطائرة مفيده جداً فى الاستطلاع ومهاجمة

---

(١) لقد أثار أمريكا حرب الغواصات الألمانية الغير مقيدة « المعرب »

الأمداد ، وعلى كل وحتى السنه الأخيرة من الحرب لم تشترك الطائرات فى تكتيكات الحروب البرية إلا قليلا . وكانت هناك أعمال بطولية قام بها بعض الطيارين الأبطال المسمون « بالاس »[١] ولكنهم فى الواقع لم يؤثروا تأثيراً كبيرا . أما قصف الطائرات فلم يكن له أى تأثير مادى حقيقى بالرغم مما سببته غارات زيبلن من ذعر كبير على المدن البريطانية . وعلى كل حال فعلى عام ١٩١٨ تطور سلاح الطيران الملكى وأصبح قوة كبيرة .

وسوف تصبح القوة الجوية سلاحا جباراً خلال حرب ١٩٤٥/٣٩ ، كما سنرى فى الجزء القادم . وكانت الجبهة الشرقية منطقة حسم للحرب لمن ينتصر فيها .
وقد أستخدمت فيها نفس تكتيكات الجبهة الغربية ولكن حدثت تحركات أكثر فى تلك الجبهة ، فنجد أن الجبهة تحركت للأمام وللخلف لمسافة ٥٠ ميلا وفى بعض المرات أكثر من ذلك .

كانت المواقع الدفاعية فى تلك المساحات الواسعة غير عميقة ، وفى نفس الوقت أفتقرت القوات النمساوية والروسيه إلى المعدات والتدريب . وأدى هذا أن أستطاع المهاجمين كثيراً دفع المدافعين للخلف لمسافات طويلة .

وكانت القيادة فى هذا المسرح تختلف عن مثيلتها فى الغرب أى من الجهل المطبق إلى العبقرية النادرة ، فى نفس الوقت كانت الحرب على الجبهة الروسية أكثر فظاعة من الحرب فى الغرب ، ويقال أن روسيا خسرت وحدها مليونين من الرجال فى عام ١٩١٥ ومليون آخر فى عام ١٩١٦ . وبدلا من أن يستغل الألمان النصر عند « تانبزج » بالتقدم إلى داخل بولندا ، توجهوا لنجدة النمساويين فى غاليسيا .

وهناك عاود الروس الهجوم فى ربيع ١٩١٥ ، فحول « فلاكنهاين » أعداد كبيرة من القوات الألمانية إتجاه الشرق[٢] بواسطة السكة الحديد لتوجيه هجوما كبيراً ضد الروس .
وفى عام ١٩١٥ نجحت الحملة الألمانية ضد هذا العدو الخاص . . وفى مايو قامت قوات

---

(١) وهو الطيار الذى يسقط خمس طائرات معادية على الأقل .
(٢) لم يرتدع فلاكنهاين بهجوم جوفر فى الغرب .

ألمانية ونمساوية مشتركة تحت قيادة « ما كنسين » بالهجوم على جبهة الروس[1] بمواجهة ٢٨ ميلا عند « جورليس »،وهذه هى المرة الوحيدة فى الحرب التى تحطمت فيها جبهة وأخترقت بعرض وعمق كبيرين لدرجة أن المدافعين لم يستطيعوا سد الثغرة .

وطرد الروس إلى خارج غاليسيا وبعدها أجبروا على التخلى عن معظم بولندا ، وتبع هذا الإنسحاب ١٠ ملايين لاجىء مدنى .

وعلى كل حال لم تكن هذه هزيمة حاسمة لأن الروس كانوا ينسحبون إلى بلادهم حيث يوجد إحتياطى من البشر لاينتهى ، بينما أخذ يتحسن إنتاجهم للأسلحة .وفى سبتمبر أقيمت جبهة جديدة على مسافة ٣٠٠ ميل شرقى الجبهة القديمة .

وكانت تتميز بسهولة الدفاع عنها لقصرها وليس لها أجباب معرضة . وعرض الألمان إجراء تسويه سلمية ولكن القيصر « نيكولاس الثانى » والذى كان يقود شخصيا القوات الروسية ، رفض الموافقة على فكرة التضحية بالأراضى الروسية والتخلى عن حلفائه الغربيين .

وعلى كل حال فقد أثبت نيكولاس أنه قائد ضعيف جداً فى قيادة الجيوش الكبيرة لأن الملوك والأباطرة فى الأزمنة الحديثة غير مدربين على هذا العمل ، فالقوات الروسية تحت قيادته لم تعطى أى إستراتيجية مترابطة .

وكانت الروح المعنوية للقوات الروسية لازالت مرتفعة فى نفس الوقت تحسن موقف الأمداد . فبينما كانت القيادة الروسية تتخبط أكثر من ذى قبل ، فنجد مثلا فى مارس ١٩١٦ ألقيت حشود من الرجال ضد أقوى أجزاء الجبهة الألمانية فى الشمال مما أدى أن أصبحت الخسائر الروسية إلى الألمانية بنسبة ٥ : ١ . وبعد هذا الفشل بقليل طلبت إيطاليا من روسيا نجدتها بمهاجمة النمساويين ، وقد أستجاب لهذا الطلب « بروسلوف » قائد مجموعة الجيوش الروسية الجنوبية — الغربية .

وعلى كل حال كان الجنرال « الكيمى بروسلون » أحد القادة القلائل المستثنين ، وقد لمعت قدراته فى ظلام سوء الإدارة الحربية لمعظم حرب ١٤ — ١٩١٨ .

---

(١) لم يكن لدى الكثير من جنود الروس حتى البنادق «المعرب»

وكان يتمتع بسجل رائع للنجاح فى القيادة قبل عام ١٩١٦ . ففى الشهور الأولى للحرب تقدم بجيشه إلى داخل غاليسيا ، وأستولى على « لمبرج » بعد ٣٠ يوما من إعلان الحرب. وقد أحرق بعد ذلك سهل المجر مسببا ذعرا للعدو . وقد إضطر لإجراء إنسحاب عام عندما تدمر الجيش الموجود على يمينه ، وبالرغم من تعرض جانبه الأيمن لهجمات متفرقة من العدو ، علاوة على نقص الذخيرة لديه ، فقد أستطاع « بروسلوف » الإنسحاب بجيشه خلال أرض صعبه وفى نظام جيد ، وفى الواقع كان قادرا على هزيمة الألمان عند نهر « السان » .

وكان رجلا مرحا وعطوفا وهى صفات ساهمت كثيراً فى قدرته العسكرية . وبعد أن تولى القيادة فى عام ١٩١٦ ، كان أول عمل له قيامه بالتفتيش شخصيا على قواته فى الجبهة وبذلك عرف قواته وأصبح قادراً بالتالى على معرفة مايتوقع أن يأخذه منها .

وكان « بروسلوف » يقوم دائما بدراسة ماهرة للأرض ، ودراسة أسلوب قتال العدو ، علاوة على وجود هيئة قيادة لديه ذات كفاءة عالية . وفى الواقع كان « بروسلوف » جنديا على درجة عالية من الأحتراف . وكانت خطته القيام بالهجوم على نقط متعددة وفى وقت واحد ، مدركا قيمة المفاجأة التى ستتحقق من ذلك ، على أن يكون منها هجومين رئيسيين فى قطاعين فقط : على اليمين فى مواجهة « لوك » وفى اليسار فى وديان « الدنيستر » و « البروت » ، وقد ساعده على ذلك توفر تفوقا عدديا فى جبهته : — ٤٠ فرقه روسية كبيرة فى مواجهة ٣٨ فرقة نمساوية .

وتعتبر حملته ضد القوات النمساوية — المجرية مثلا ممتازاً للقيادة وإدارة الحرب . وهى تستحق دراسة أكثر مما خصصت لها فى هذا الفصل . وعموما فقد بدأت الحملة فى ٤ يونية ١٩١٦ . وقد تأرجح هجوم « بروسلوف » للأمام والخلف إلا أنه فى أكتوبر ١٩١٦ ذبل عند أعالى جبال « الكروبات » ، لأن التدعيمات الالمانية أدت إلى تقوية المقاومة فى نفس الوقت أصبحت المواصلات الروسية مجهدة حتى قاربت الوصول إلى نقطة التحطيم . وفى النهاية توقفت الجيوش الروسية بعد أسرها ٤٠٠٫٠٠٠ أسير و ٥٠٠ مدفع ، وبعد ذلك بدأ الانسحاب الروسى .

وقد عبر بروسلوف عن رأيه فى هذا الموضوع بقولة : « لو صمم « نيكولاس » على

قيام بهجوم رئيسى فى الشمال فى الوقت الذى أقوم به بهجومى لأدى هذا إلى هزيمة قوى وسط فى كل مكان على الجبهة الشرقية » وطبعاً هذا أمر بعيد الاحتمال ولكن إستياؤه مايبرره . وبعد مرور سنتين ، خدم بروسلوف مع سيد آخر هو « تروتسكى »

القطار المغلق المتجه الى روسيا (أنظر اللوحة رقم ٤٧)

لقد أنقذ المجهود الروسى[١] فى عام ١٩١٦ ، كل من فرنسا وبريطانيا ، لأنه أجبر الألمان لى إبقاء قوات كبيرة على الجبهة الشرقية ، ولكن هذا المجهود أيضاً كان سبب كارثة لأمبراطورية النمساوية لأنه أدى إلى الأنهيار الكامل بين شعبها وأيضاً جيشها ولكنه فى س الوقت كان السبب فى إنهيار روسيا نفسها ، فقد أدى تجمع مليون أصابه حرب عام ١٩١٦ علاوة على إجهاد الإنتاج مع وجود تعفن فى الحكومة مع وجود نقص فى الطعام لال الشتاء إلى التأثير على الشعب الروسى وحدوث إضطرابات فى المدن ، ونتج عن ذلك ن أجبر القيصر على التنازل فى مارس ١٩١٧ .

وأستغل « لاندورف » الفرصة ليضع « القطة بين الحمام » فسمح للينين بالسفر من سويسرا لال ألمانيا فى قطار مغلق إلى روسيا .

فى ذلك الوقت لم تخرج روسيا تماما من الحرب ، ولكن كان النظام فى الجيش ينهار ندما دفع « كرنسكى » القوات الروسية مرة أخرى ضد الألمان فى يولية . وقد دمر هذا هجوم الأخير الجيش الروسى وفتح الطريق للثورة البولشفية . وفى ٨ نوفمبر تعين الكونجرس سوفيتى مكان الحكومة فى « بتروجراد » حيث قرأ عليهم لينين « مرسوم السلام » . قد أمل البولشفيون فى السلام . . . « سلام عادل لكل الأمم بدون إستثناء » . ومن طبيعى لم يكن الألمان فى موقف صعب مثل الروس ، ولذلك فالشروط التى أملوها عند برست — ليتوفسك » فى مارس ١٩١٨ ، أقتطعت من الإمبراطورية الروسية السابقة بع سكانها ، وأراضيها الصالحة للزراعة ، وثلاثة أرباع مواردها من الفحم والحديد نصف مصانعها .

وقد سبق أن ذكرت فى خطوط عريضة الغرض الإستراتيجى العام من العمليات فى

(١) كان هذا المجهود الروسى نتيجة لتصميم القيصر فى البداية وبروسلوف فى النهاية « المعرب »

جنوب شرق أوروبا ، ولكن الحملة البريطانية فى عام ١٩١٥ تستحق أن نفحص بعض تفاصيلها . وفى ديسمبر ١٩١٤ سأل الروس الحلفاء الغربيين معاونتهم للقيام بعمليات ض الأتراك وقد أستقبلت الفكرة بحماس فى إنجلترا وخاصة من « كتشنر » و « فيشر و « تشرشل » ، لأن الحلفاء ستحصل على فوائد إستراتيجية كثيرة بالسيطرة على جنو شرق أوروبا ، كما أن فى هذه المرحلة كان مطلوب تحقيق أى نجاح ومن أى نوع وخاصة أن إفترضوا أن تركيا أقل دول الوسط قوة ومناعة .

فى ذلك الوقت تحسن تدريب وتنظيم الجيش التركى بفضل البعثة العسكرية الألما برئاسة « ليمان فون ساندرز » ، علاوة على تميز الجندى التركى بالشجاعة الملحوظة وذا ضبط وربط عالى .

ولكن كان الجيش التركى يفتقر إلى المعدات فلم يتسلح بالبندقية الموزر الحديثة سوى القوا الممتازة فقط ، والأكثر من ذلك الخسائر التى منوا بها فى قتال الشتاء ضد الروس القوقاز والتى بلغت ٥٣٦٠٠ رجل من ٦٦٠٠٠ . وبالرغم من هذه الخسائر كانوا مضطر لدفع قوات على الجبهة الروسية مع وضع حاميات فى الأمبراطورية العثمانية الممتدة ، وا نجد فى بداية عام ١٩١٥ كان يحرس المداخل إلى القسطنطينية من خلال الدردنيل فرقتا فقط وقليل من القلاع الخربة المتهدمة .

وفى يناير ١٩١٥ قرر مجلس الحرب البريطانى بعد بعض التردد ، أن الحملة ض القسطنطينية يجب أن تكون بحرية خالصة . ولكن فى ١٩ فبراير عندما قصفت سف البحرية البريطانية القلاع الخارجية للدردنيل تغيرت الخطة وصدرت الأوامر بتكو جيش مصر تحت قيادة الجنرال « سيرايان هاملتون » للقيام بعملية برمائية تهدف إلى فت ممر خلال الدردانيل ، على أن يكون جيش « هاملتون » مستعد لبدء العمليات فى ٨ مارس ، ولكن تأخر بسبب التحميل الخاطىء لسفن النقل حيث وضعت معدات حيوية معي فى قاع عنابر التخزين .

وبالرغم من ذلك دخلت مرة ثانية السفن الحربية المضايق الضيقة ، ولكن عندما أغرق الألغام ثلاث سفن قرر الأدميرال « دى روبيك » عدم المخاطرة وإنسحب بالتالى . وفى الحقي

. نفذت الذخيرة من الأتراك ، وبالتالى كان من الممكن للسرب الأبحار حتى القسطنطينية
ون مقاومة ، ولكن ضاعت الفرصة . وكانت نتيجة هاتين العمليتين البحريتين الغير
سقتين هو ضياع المفاجأة وإعطاء إنذار للأتراك ليقووا دفاعاتهم الحارسة للمضايق .

مصطفى كمال اتاتورك

وقامت البعثة الألمانية خلال مارس وأبريل بزيادة عدد القوات التركية الموجودة على
به جزيرة « غاليبولى » إلى ٦ فرق ، بينما بذل الأتراك مجهودا كبيراً فى حفر الخنادق
تجهيز الشاطىء للدفاع .

ورفع الحلفاء قواتهم إلى ٨٤ سفينة و ٥ فرق وعدد كبير من حيوانات النقل والمركبات .
ى الحقيقة كانت هناك فرقة عاملة واحدة فى هذه القوة بينما كانت باقى القوات عبارة عن قوات
ليمية أو من الدومنيون . وكلها تفتقر إلى التجربة والخبرة ، فى نفس الوقت لم تدرس
م تتدرب مطلقا على عمليات النزول على الشاطىء المعادى تحت ضغط مقاومة . وغادر
هاملتون » لندن بدون أركانات حرب وبدون الخرائط الملائمة بل وبدون معلومات عن
دفاعات التركية غير التى يعرفها فى عام ١٩٠٦ .

وعلى أى حال ففى ٢٥ إبريل تم الأنزال الأولى وفاجأ الأتراك ولكن سرعان ما هبطت
وة الدافعة الأولى وتحولت العملية إلى إختناقات حرب الخنادق . وأستطاع مصطفى كمال
اتورك القائد التركى من صد الأستراليين والنيوزيلنديين شمال « جاباتيب » ومن يومها
ذاعت شهرته .

وتكرر إقتحام المواقع الدفاعية التركية بالمواجهة، ولكنها لم تنجح وكانت خسائرها باهظة
ثل مثيلتها فى الجبهة الغربية ، علاوة على أن الأحوال الطبيعية فى المسرح التركى كان أكثر
وءا فلا يوجد للحلفاء منطقة خلفية آمنة ولا حماية من الشمس المحرقة .

إستمر الأتراك فى جلب التدعيات والأمدادات حتى أصبح لديهم فى يوليه ١٥ فرقه ،
ينما كان لدى الحلفاء ١٢ فرقة . وفى ٦ أغسطس قام « هاملتون » بهجوم مزدوج ،الأول
ن خليج « الأتراك » إلى سلسلة « سارى بور » حيث تقدمت قوات ليلا بصعوبة خلال
رض جبلية ، وفى المرحلة الأخيرة أخطأتهم سفنهم وقصفتهم بالنيران ، أما الهجوم الثانى

فكان من خليج « سوفلا » تحت قيادة الجنرال « ستوبفورد »[1] حيث نزلت القوات بدون أى خسائر تقريبا، حيث هنأهم ستوبفورد وأمر لهم بفترة راحة و.ولم يتوجه «ستوبفورد إلى الشاطىء ولكنه بقى فى سفينته ليأخذ فترة راحة، ولكن «هاملتون» أيقظه من نو معترضا بأدب على عمله هذا . عندما حاولت القوات البريطانية التقدم مرة ثانية كان الدف التركى قد تنبة وأصبح قويا جداً .

وعزل « ستوبفورد » من قيادته ، وأتذكر أننى رأيته فى لندن فى نفس الشهر وه مرتدى ملابسه المدنية ، فاستنتجت مايدور فى منطقة غاليبولى .

وظلت القوات البريطانية طوال الخريف فى منطقة غاليبولى وكانت تفتقر إلى العزم ، وف السياسيون فى إنجلترا أكثر من مرة فى إنسحاب هذه القوات ، ولكنهم خشوا أن تفة بريطانيا هيبتها بهذا العمل ، مما أدى أن ظل الرجال فى غاليبولى يموتون . وبناء على طل جوفر ألقيت قوات بريطانية أكثر فى هجوم الخريف على الجبهة الغربية ، وفى النهاية أجليه الحملة فى تركيا عند نهاية السنة ، ونفذت هذه العملية على أى حال جيداً .

وكانت النتيجة إفساد فكرة إستراتيجية رائعة تسبب فيها القادة الذين عملوا جميع الاخط الممكن تصورها عند التنفيذ .

لورانس والعرب (أنظر اللوحة رقم ٤٨)

وفى عام ١٩١٥ فتح الحلفاء منطقة عمليات ثانية فى البلقان وذلك من « سالونيكا » بينما كان الألمان يجهزون لتسديد ضربة إلى الصرب ، وإمداد الأتراك بمعونة قوية ، فى نفس الوقت أنضم البلغاريون إلى صفوفهم .

وفى أكتوبر نزلت قوة الحلفاء فى «سالونيكا» لمعاونة الصرب ولكن البلغاريون دفعو إلى الخلف . وقد بقيت هذه القوة فى « سالونيكا » حتى نهاية الحرب بالرغم من إقتناع بعض القادة بأن ليس لها فائدة هناك . وعلى كل حال زيدت هذه القوة لتصل إلى حوالى

(١) كان من قبل قائد برج لندن ولم يقود قوات فى الحرب قبل ذلك
(٢) كان عددهم ٢٠٠٠٠٠ مقاتل .

٥٠٠٠٠٠ رجل وكانوا لايخدمون أى هدف مفيد ، وقد سماهم « كليمنصر » بـ « بستانية سالونيكا » .

وقد قاموا بحفر الخنادق ضد هجوم لم يكن لدى الألمان والبلغار أى نية للقيام به . وأعتاد ممثلى الفكاهة فى قاعات الرقص فى عام ١٩١٧ بلندن أن يغنوا : — « إذا كنت تريد أجازة فأذهب إلى سالونيكا » . بينما سمى الألمان « سالونيكا » بـ « أكبر معسكراتهم للاًعتقال » .

وفى سبتمبر ١٩١٨ فقط قامت هذه القوة بهجوم جدى تحت قيادة الجنرال « فرانشيت دى أسبيرى » ، إلى داخل بلغاريا فشطر الجيش البلغارى إلى نصفين ، وعلى كل كانت الحرب فى مقدونيا خاطئة فى مفهومها . ودخلت دولة أخرى الحرب فى جنوب شرق أوروبا وهى إيطاليا .

وقدر الحلفاء أن إيطاليا ستهاجم النمسا مستفيدة بالباب الخلفى ، ولكن الإيطاليون أغتروا بقوتهم وأعتقدوا أنهم يجب أن يمثلوا دور القوة العظمى .

وعلى كل حال لم يستفد الحلفاء من الإيطاليين بل كانوا يمثلون عبئاً إقتصادياً كبيراً عليهم، فى وقت كان البريطانيون يمدون فرنسا أيضاً بالامدادات .

وتعاونت البحرية الأيطالية فى البحر المتوسط ، بينما كان الجيش الأيطالى يفتقر للمعدات بعد الحرب الليبية ١١ — ١٩١٢ . وفى الحقيقة كان الباب الخلفى للنمسا عبارة عن سد من الجبال تمسك به النمساويون بسهولة ضد الإيطاليين ، وفشل الإيطاليون فى دفع النمساويون من مواقعهم الجبلية فى معارك « أسونزو » المتكررة .

وفى أكتوبر ١٩١٧ تدخل الألمان وقاموا بهجوم مضاد قوى عند « كابوريتو »، حيث دفع الإيطاليين للخلف لمسافة ٧٠ ميلا وخسروا أثناء ذلك ٢٠٠٠٠٠ مقاتل إيطالى ، بينما فر الكثيرون قبل أن تستطيع القيادة الإيطالية أقامة مواجهة أقصر على نهر « البياف » . وتعتبر معركة « كابوريتو » من الفترات المريرة للحلفاء فى نهاية عام ١٩١٧ . وكانت الحرب بصفة عامة فى المسارح خارج أوروبا لهاقيمة إستراتيجية قليلة ، إلا أنها أنجبت بعض القادة الممتازين ، وخاصة القتال الذى دار فى الشرق الأوسط ضد الأتراك .

فى عام ١٩١٦ توفر للبريطانيين فى مصر ٢٥٠٫٠٠٠ رجل تحت قيادة الجنرال «موراى»، وكان الغرض الرئيسى لهذه القوة هو إبعاد الأتراك عن قناة السويس .

وفى شتاء ١٩١٦ تقدم موارى إلى صحراء سيناء ليستطيع الدفاع عن قناة السويس . وتم وضع الخطط أثنـاء ذلك مع حسين شريف مكة للقيام بثورة عربية فى الحجاز مما سيؤدى إلى جذب إنتباه الأتراك بعيداً عن القوة البريطانية ، وفى يونيه ١٩١٦ نشبت الثورة العربية فى مـكة .

وإندفعت الأتراك بأسلحتهم المتفوقة جنوباً من المدينة إلى مـكة حيث تفرقت القوات العربية ، وقد أدت الفظائع التى قام بها الأتراك إلى إنتشار الثورة .

وفى أواخر عام ١٩١٦ أيدت بريطانيا العرب وأرسلت لهم النقيب ت . لورانس الذى يبلغ من العمر ٢٩ عاماً . وكان يعلم لورانس الـكثير عن العرب من دراساته ورحلاته السابقة إلى هناك . وجد لورانس أن القوات العربية مسلحة تسليحا بدائياً وغير منظمة وتتميز بخفة الحركة ، فقرر إستخدامها كقوة مستقلة غير نظامية بدلا من مواجهة القوات التركية العاملة مباشرة . وكانت إستراتيجيته تتضمن القيام بغارات من نوع إضرب ثم إهرب ، ويتم ذلك على خطوط المواصلات التركية الطويلة وخاصة ضد سكة حديد الحجاز ، مع نشر الثورة شمالا حتى دمشق مستخدماً فى ذلك الوسائل الدعائية . وفى يناير ١٩١٧ نجحت عمليته الأولى مع فيصل (ابن حسين) نجاحاً مدهشاً .

وقد قام لورانس بالألتفاف ٢٥٠ ميل حول جانب القوة التركية المتقدمة إتجاه مكة مهدداً بذلك أى تحرك فى إتجاه العقبة مستخدماً طريقاً ملتوياً حتى يتجنب الأتراك وفى نفس الوقت إنضم إليه بعض رجال القبائل .

وفى يوليه ١٩١٧ أستطاع لورانس الأستيلاء على العقبة لأنها لم تـكن محصنة ضد الهجوم البرى . فى ذلك الوقت أستطاع الأتراك صد القوات البريطانية مرتـين عند غزة . وعاد « موراى » إلى إنجلترا ، ورأى القائد البريطانى الجديد الجنرال «اللنبى» بأن العرب يمـكنهم أن يلعبوا دوراً هاماً فى هجوم آخر على غزة ، وأخذ يجهزله . وعلى الفور أرسل إلى قاعدة العرب الجديدة فى العقبة الأسلحة والذخيرة والطائرات . وبعد ذلك إندفع لورانس والعرب

نحو الشمال وأغار على سكة حديد الحجاز وهدد مؤخرة الأتراك ، وبذلك نجح فى جذب قوات تركية كثيرة من جبهة غزة مع حماية جانب « اللنبى » — وقد أصبح لورانس بطلا بين العرب لمهارته وقوة تحمله ، وقد أكسبه ذلك مكاناً بين القادة العظام لحرب العصابات ، وكثيراً ما تمنيت لو قابلته .

اللنبى وحرب فلسطين

(أنظر اللوحة رقم ٤٨)

عندما تولى الجنرال اللنبى القيادة فى يونيه ١٩١٧ ، قام بالتخطيط للتقدم شمالا إلى داخل فلسطين . وكانت قواته التى تقف أمام خط غزة — بير سبع عبارة عن خليط من القوات البريطانية والإسترالية والنيوزيلندية والهندية والفرنسيه ، وقد ثبطت همتهم بسبب شدة الحر والغبار وطول التوقف ، وعلى الفور توجه اللنبى بنفسه إلى الجبهة لرفع معنويات قواته ، حيث أعاد تنظيم قواته إلى ثلاث فيالق : — الفيلق ٢٠ تحت قيادة « شيتوود » والفيلق ٢١ تحت قيادة « بولفن » وفيلق الصحراء الراكب تحت قيادة « شوفال » . أما الموقع الدفاعى التركى

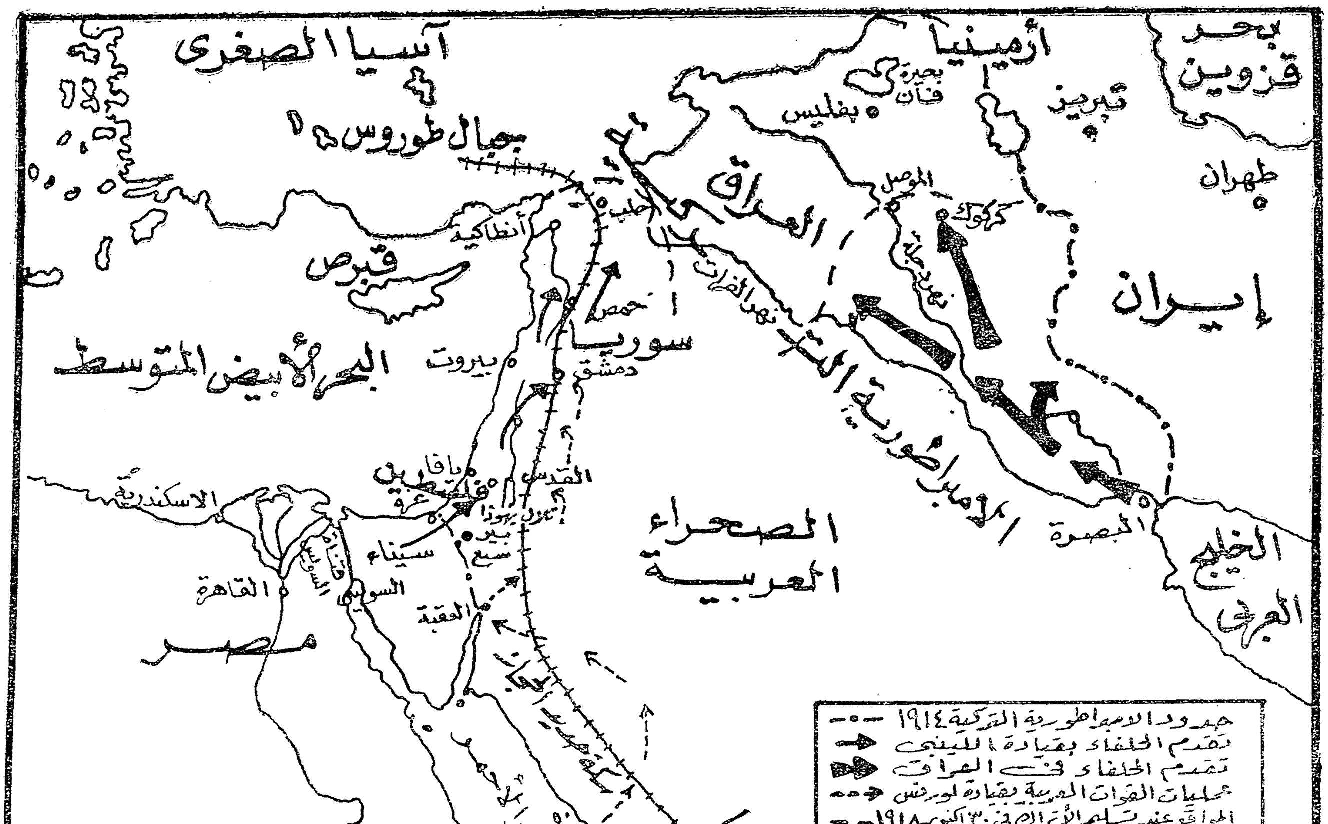

اللوحة رقم ٤٨ ـ الحرب فى الشرق الأوسط

فكان محصناً بقوة بالخنادق والأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة ، وقد تولى قيادة الأتراك الجنرال الألمانى « كرسنستين » .

وكانت خطة اللنبى تتضمن إختراق خط غزة بإستخدام المفاجأة والخداع ، وذلك بتوجيه ضربات متعاقبة على كلا نهايتي الخط حتى لا يعرف الأتراك إتجاه الضربة الرئيسية . فى نفس الوقت يقوم بهجوم مخادع آخر عند غزة فيعتقد الأتراك أنه الضربة الرئيسية ، وفى الواقع كان الإختراق الرئيسى سيكون عند بير سبع حيث توجد آبار المياه الضرورية لأى تقدم تالى للقدس .

وتم الأعداد للهجوم بدقة ، وسمح اللنبى بسقوط أوراق مزيفة فى أيدى الأتراك لتضليلهم عن النوايا البريطانية الحقيقية فى نفس الوقت دعمها بالتحركات الخداعية الكبيرة للقوات والأمدادات عند غزة ، وإنخدع الأتراك . فى ذلك الوقت تم إعداد الجيش تماماً وجمعت آلاف الجمال لحمل المياة .

وفى الأسبوع الأخير من أكتوبر أفتتح الهجوم بتمهيد كثيف للمدفعية عند غزة من البحر والبر مما أدى إلى تثبيت القوات التركية المحتشدة عند نهاية الخط الدفاعى هناك تحت عاصفة من النيران التى هبطت عليهم ، بينما تحرك الفيلق ٢٠ وفيلق الصحراء الراكب ليلا إلى بير سبع . وعند طلوع النهار قامت المشاة بهجوم مفاجىء على المدينة بينما إندفعت الفرسان على الأجناب ، وتم الأستيلاء على آبار المياة الثمينة هناك ، وأصبح الأتراك فى تخبط تام ، بينما سقطت غزه فى اليومين التاليين . وبعد تحطيم الخط التركى إندفع على الفور الفيلق الراكب بعد بير سبع إتجاه بيت المقدس ، بينما دفع الفيلق ٢١ الأتراك للخلف على الساحل وبدون هوادة . وفى الأسبوع الثانى من نوفمبر تم التقدم لمسافة ٤٠ ميلا . وقد إستمر ضغط الهجوم البريطانى بالرغم من الأجهاد والخسائر حتى لا يتوفر للأتراك على الإطلاق الوقت لأقامة مواقع دفاعية جديدة .

وفى ١٦ نوفمبر أستولى البريطانيون على يافا ، وبعدها جمع اللنبى جميع قواته فى أسفل تلال يهوذا ، ولكن الطقس الردىء وعدم الرغبة فى إحداث أضرار ببيت المقدس جعل إقتحامها أمراً صعباً .

وفى النهاية إستطاعت حركة التطويق إلى تحطيم الدفاعات التركية والإستيلاء على المدينة فى ٩ ديسمبر ١٩١٧ بعد أن حكمها الأتراك أربعة قرون . ولكن الهجوم البريطانى أوقف بعد بيت المقدس بعشرة أميال بسبب الأمطار الغزيرة . وقد تأخر اللنبى كثيراً فى التقدم نحو سوريا نتيجة لسحب بعض قواته إلى الجبهة الغربية بينما إحتاجت القوات الجديدة التى إنضمت على جيشة إلى تدريب طويل . وكانت خطة اللنبى لتحطيم الجبهة التركية الجديدة تشبه الخطة السابقة ولكن بالعكس ، وذلك بالقيام بهجوم خداعى عند اليسار التركى فى التلال ، والقيام بالأختراق على طول الساحل .

وفى ١٩ ديسمبر ١٩١٨ بدأت العمليات ، وأستطاع اللنبى القضاء على الخط التركى إلى الخلف ، بينما حاصر جيشين تركيين آخرين ودمرهما فى مكانهما .

وتعتبر عملية الفرسان هنا من أفضل عمليات الفرسان فى التاريخ والتى كانت فى الواقع آخر عملية للفرسان فى الحرب . وقد أسرع كل من اللنبى ولورانس نحو دمشق ولكن لورانس وصلها أولا فى أكتوبر . ولم يتبق سوى شرذمة من القوات التركية والتى طوردت بعد دمشق . وفى ٣٠ أكتوبر وقعت تركيا على طلب الهدنة للتسليم .

الالمان يحاصرون باريس (أنظر اللوحة رقم ٤٥)

يجب أن أذكر هنا قائداً ممتازاً كان يعمل خارج مسرح الحرب الأوروبى وهو العقيد « فون ليتوفو ربيك » ، وكان يدير العمليات الألمانية فى شرق أفريقيا لمدة أربعة سنوات مسبباً إزعاجاً خيالياً للحلفاء بالرغم من صغر حجم قواته . وكان « ليتوفوربيك » ملماً بطبيعة الحرب فى الطقس القارى وفى المساحات الواسعة فى شرق أفريقيا والتى لايوجد بها طرق ولاسكك حديدية ولذا تحدى كل المحاولات التى بذلت لوضع نهاية لأعماله ، وعلى كل حال لم يستسلم إلا بعد الهدنة فى نوفمبر ١٩١٨ .

وفى عام ١٩١٦ أدار الجنرال سمطس عمليه مشتركة على مستوى كبير ضد ليتوفوربيك ولكنه أخذ يراوغ أعدائه ، بالرغم من أنه لم يكن تحت قيادته سوى ٣٥٠٠ أوروبى و١٢٠٠٠ وطنى . وكان يعلم أنه لن يستطيع هزيمة القوات البريطانية المتفوقة فى أفريقيا ، ولكنه فى الواقع حقق أكثر من الهزيمة بأن جلب ١٣٠٫٠٠٠ من جنود الحلفاء من مسارح أخرى

محتاجين اليهم فيها ، فى نفس الوقت كاف بريطانيا ٧٢ مليون جنيه . ويستحق ليتوفوربيك أن يطلق عليه « أستاذ الحرب الغير نظامية » وذلك لصفاته الشخصية ومهارته العسكرية وحضور ذهنه وعزيمته وقيادته .

فى ذلك الوقت كان فى الواقع مدرسة الإستراتيجيين الأكثر تشاؤما هى الصائبة ، لأنه مهماحدث فى أى مسرح ، فالقرار النهائى للوصول إلى نهاية الحرب يجب أن يكون فى الجبهة الغربية تماماً كما قال « الغربيون » .

فنجد فى عام ١٩١٨ قرر « لدندروف » أن تخوض ألمانيا بكامل قوتها المعركة فى الغرب من أجل النصر ، لأن روسيا أصبحت خارج الحرب ولا يوجد أى خطر من إيطاليا ، وبالتالى تستطيع ألمانيا أخيراً حشد كل قواتها على جبهة واحدة .

وقد كان من المهم الضرب بسرعة لأن النمسا بدأت تتداعى بينما بدأت القوات الأمريكية تتدفق على أوروبا . وكانت ألمانيا تستطيع إيجاد إمداد معقول من الطعام من المناطق المستولى عليها حديثاً فى الجبهة الشرقية ولكن سيادة بريطانيا على البحار سببت نقصاً خطيراً فى المواد الصناعية لألمانيا . كان لدندورف يكره فكرة السلام المبنى على التسوية ، ولذلك قام فيمابين ٢١ مارس و١٥ يوليه ١٩١٨ بهجوم ألمانى رئيسى على عدة مراحل فى الجبهة الغربية . وقد تورطت أنا نفسى فى الهجمات الثلاثة الأولى « ٢١ مارس على السوم » و « ٩ إبريل على ليس » و « ٢٧ مايو على شمن دى دامس » وعند « سواسون » .

ولم يحصل الألمان على أى مميزات خاصة من هذا الهجوم ، لأن القوات المتضادة كانت تقريباً متساوية حتى بعد تحريكهم لـ ٥٢ فرقة من الجبهة الشرقية ، فى نفس الوقت لم يكن لديهم أى سلاح جديد فى حين أن رئاسة الأركان الألمانية لم تقدر قيمة الدبابات فى القتال . وعلى كل حال نوى لدندورف الآن الاعتماد على الخداع والمفاجأة ، والتى قد نسيت فعلا فى تكتيكات حرب الخنادق ، فقرر أن يضلل الحلفاء بقدر الامكان بالتحركات للقطارات المحملة بالجنود خلف الجبهة ، على أن تتخذ القوات المهاجمة مواقع تشكيل قتالها ليلا ، مع منع القصف الأولى الثقيل للمدفعية ، فى نفس الوقت تقوم المشاة بجس خط العدو لايجاد أضعف نقط فيه بدلا من مجرد رمى أنفسهم بحشد ضد الجبهة .

وكانت إستراتيجية لدندورف تتضمن القيام بهجوم مخادع ببعض القوات فى الجنوب فى منطقة السوم حيث تتصل الخطوط البريطانية بالفرنسية، على أن يكون الاختراق الرئيسى فى جنوب « أيبر » مباشرة ، وذلك لطى مواجهة الحلفاء من الشمال .

وبهذا البرنامج الاستراتيجى الطموح حصل الألمان على درجة كبيرة من النجاح . وفى ٢١ مارس أفتتحوا الهجوم ضد البريطانيين عند السوم مستخدمين تكتيكاتهم الجديدة ، وساعدهم الضباب الكثيف ، وتداعى الدفاع البريطانى ودفع للخلف أمام الهجوم الألمانى . قام بيتان بعمل الاستعدادات لستر باريس ، بينما أهتم هيج بموانى المانش .

وقد إنتاب الذعر جبهة الحلفاء خوفا من فتح ثغرة بواسطة العدو على مواجهة الفرنسيين أو البر يطانيين علاوة على سماعهم فى نفس الوقت نبأ تعيين المارشال « فرديناند فوش » قائداً عاما لقوات الحلفاء فى فرنسا فى ١٤ إبريل .

أما « فوش » نفسه فلم يكن لديه السلطة لإصــدار الأوامر لقادة القوات المقاتلة « هيج وبيتان وبيرشنج »[(١)] ، وقد أستمروا فى القتال حتى النهاية بدون تنسيق كامل بينهم، بينما سيطر فوش على الأحتياطيات .

أما التقدم الالمانى على السوم فقد نقص قوته الدافعة نتيجة لأحضار المدافعين للاحتياطيات بالسكة الحديد ، وكان هذا أسرع من القوات المهاجمة إذا شقت طريقها قتالا وهى مترجلة . وفى ٢٨ مارس حطم لدندورف المبدأ الخاص بعدم مهاجمة العدو فى المناطق القوية ، وأمر بأستمرار الهجوم شمالا إتجاه « أراس » ولكنه قوبل بمقاومة قوية وتكبد خسائر فادحة . أما الضربة الألمانية التى كانت ستوجه فى الشمال على نهر « الليس » فلم تتم حتى ٩ أبريل ، وفى ذلك الوقت لم تتوفر له سوى ١١ فرقة لتشترك فى القتال بدلا من ٣٥ فرقة ، وعلى كل حال إخترق الهجوم الجبهة عند « هازبورك » وكان يدافع عنها فرقة برتغالية، وألقى «لدندورف» بكل الاحتياطيات التى أمكن تواجدها ، وعلى ذلك تخلى « هيج » عن « باشيندال » وأنسحب للخلف إلى الموانى طالبا إحتياطيات من فوش والذى أرسل له ٤ فرق وبذلك تماسك المدفعون بشدة .

وحتى ذلك الوقت لم يكتشف الألمان السر الخاص بكيفية تدعيم النجاح الأولى

(١) بيرشنج قائد القوات الأمريكية .

للهجوم . . . وهو السر الذى راوغ أيضاً الحلفاء . والآن جرب الحلفاء بعض الوسائل الجديدة . ، وهى قصف قوات العدو بالدعاية لأغرائهم بالهروب من الخدمة ، وتشجيعهم على الإنفصال كدولة مستقلة من الأمبراطورية النمساوية وذلك بالتشكيك . فى ذلك الوقت كان لدندورف يطور أيضاً خططا جديدة ، ففى مايو قام بأستعدادات تم أخفاؤها جيداً لهجوم تحويلى آخر ضد الفرنسيين فى الجنوب . وفى ٢٧ مايو فوجىء الحلفاء بهجوم ألمانى فى منطقة « الشيمن دى دامس » على « الأيسن » ، وفى ٣ يونية وصل الألمان إلى المارن حيث قصفوا باريس بمدفعيتهم البعيدة المدى . ولكن وللمرة الثانية أغرى النجاح لدندورف على إهمال القاعدة الأساسية فى خطته وهى عدم الأستمرار فى مهاجمة أقوى نقطة . ومرة أخرى ألقى الحلفاء بكل الاحتياطيات المتوفرة ، ومرة أخرى أوقف الحلفاء الألمان .

وقد أستخدم فوش الإحتياطيات بمهارة فائقة ، بحيث يضمن فى جميع الحالات توفر قوات كافية لأى إحتياجات فى أى مكان آخر . وتوترت الأعصاب بشدة فى باريس ولكن فوش كان يعرف ماالذى يعمله وقد أيده فى ذلك رئيس وزراء فرنسا « كليمنصو . » . وفى يونيه رفض لدندورف مرة أخرى صلحا مشروطا . وفى ١٥ يوليو قام بهجوم على جانبى « ريمس » حيث أصبح الألمان أقرب إلى باريس عن أى وقت مضى .

ولكن فوش كان يتنبأ ويتوقع الأحداث المستقبلة ، وأخيراً أستطاع إيقاف العدو ، وهكذا أحبطت إستراتيجية لدندورف .

اليوم الاسود للجيش الالمانى (أنظر اللوحة رقم ٤٥)

ثم تحول المد . . وفى ١٨ يوليه قام الفرنسيون بهجوم بالدبابات على الألمان غرب ريمس مما أدى إلى ألغاء لدندورف ضربته المخطط لها فى الشمال وأمر قواته بالأنسحاب إلى خلف المارن . وفى ٢٤ يولية إتفق فوش مع قادة الحلفاء على خطط الهجوم . وتقرر إستخدام فكرة جوفر القديمة والخاصة بقطع البروز الدفاعى الالمانى ، ولكن هذه المرة بتكتيكات أفضل . وكانت الخطة أن يقوم البريطانيون بالهجوم من الشمال ، والأمريكيون من الجنوب ، بينما يتمسك الفرنسيون بالوسط . وفى ٨ أغسطس قام البريطانيون بالهجوم عند « أميذس » مستخدمين حشداً كبيراً من الدبابات ، وكان البريطانيون هم أول من أنتج الدبابة ، وأيضاً أول من إستخدمها فى الحرب .

وعندما بدأت حرب الخنادق تخيل العقيد « أرنست سوينتون » فكرة الدبابة التى ستوفر له حل مشكلة القضاء على الأسلاك الشائكة والخنادق المدافع عنها بنيران الأسلحة الصغيرة .

وأخيراً ظهرت الدبابة ماركة ١ والتى أشترك فى تصميمها العقيد « سوينتون » ، وكانت هذه الدبابة هى النموذج الأولى للدبابات التى إستخدمت بعد ذلك فى ميدان المعركة فى عام ١٩١٦ .

وعلى كل حال لم يستطع أى شخص فى القيادة العليا فى هذه المرحلة أن يقدر إمكانيات وملاءمة والإحتمالات الهائلة لهذه الدبابة . وكان سوينتون ضابطا من سلاح المهندسين وتمنيت كثيراً لو قابلته لأنه ألف كتابين رائعين عن الحرب ولا زلت أقرأهما حتى اليوم وهما « المنحنى الأخضر » و « الدفاع عن نفق دوفر » . وقد أهتم تشرشل بأفكاره ، وكتب فى نوفمبر ١٩١٥ مذكرة عن إستخدام الدبابات فى المعركة قال فيها تشرشل : —

« يجب عدم إستخدام الدبابات إلا إذا كانت فى حشد » . ولسوء الحظ لم تتبع هذه النصيحة وأستخدمت الدبابات عند السوم فى عام ١٩١٦ إستخدما سيئاً فى مجموعات صغيرة وليست فى حشد . وتم إستخدام الدبابات بطريقة مناسبة فى نوفمبر ١٩١٧ فقط عند « كامبرى » كما سبق أن قلنا .

وبعد نوفمبر ١٩١٧ أدرك أخيراً عدد من الضباط الكبار أن مشكلة الجمود فى حرب الخنادق يمكن حلها أخيراً . وخرج قائد الفيلق الاسترالى[١] بهذه النظرية : — « ليس واجب المشاة فى الواقع أن تستهلك نفسها فى مجهود بطولى شاق ، وليس أيضاً الذبول والذوبان تحت نيران المدافع الرشاشة التى لا ترحم .

وليس أيضاً أن تتلقى بصدورها السنا كى المعادية ، ولكن واجبها هو التقدم تحت أقصى حماية ممكنة من أقصى تنظيم ممكن للموارد الميكانيكية مثل المدافع الرشاشة والمدفعية والدبابات والهاونات والطائرات » وبناء على هذه النظرية تقرر تأييد برنامج كبير لبناء الدبابات .

وفى الجزء الأول من عام ١٩١٨ إستخدمت الدبابات فى عدد من العمليات الصغرى ،

(١) كان سيرجون موناش .

بينما إختبر « موناش » أفكاره فى عملية صغيرة عند « لى هامل » فى ٤ يوليه ، ولم يكن هناك قصف أولى بل تقدمت المشاة والدبابات فى تعاون وثيق . وقد إستخدمت أربعة دبابات لنقل الحمولات إلى الأمام كان سيحتاج لنقلها ١٢٥٠ رجل ، بينما إستخدمت الطائرات لأول مرة فى الجبهة الغربية فى نقل الامدادات لميدان المعركة . وقد أصر موناش على عدم تغيير أى جزء من خطته الكبرى للمعركة والتى أعدها بعناية مع قادته المرؤوسين وهيئة قيادته . ونجحت العملية عند « لى هامل » كما وضعت تماماً مما أدى إلى تطبيق نفس المبادىء عند التخطيط لمعركة « أمينس » فى ٨ أغسطس . وقد إسترشد فيها الجنرال «راولينسون» بنظرية الجنرال موناش عن الدبابات .

وقد توفر لدى « راولينسون » للمعركة القادمة القوات الآتية : — ١٣ فرقة مشاة و٣ فرق فرسان و ٢٠٧٠ مدفع و ٨٠٠ طائرة و ٤٥٠ دبابة(١) ، مع تزويد القوات البريطانية بكافة إحتياجاتها من الأمداد . وعلى كل حال يرجع الفضل إلى لويد جورج لقيامه بتدعيم وتقوية الإنتاج فى بريطانيا عام ١٩١٨ .

وقد تم إتخاذ كافة الإجراءات لإخفاء فتح القوات للمعركة عن العدو مع التشويش على نوايا بريطانيا المستقبلة .

وقد ساعد الضباب فى صباح ٨ أغسطس على تحقيق المفاجأة ، فقد تم قصف قصير من المدفعية وبعدها تقدمت خطوط طويلة من الدبابات والمشاة للأمام .

وسارت الخطة كما رسمت تماماً ، ما عدا فى الشمال حيث تنبه الألمان للهجوم خلال الليل علاوة على وعورة الأرض فى هذا القطاع . وقد وصل الاستراليون فى المنتصف إلى أهدافهم الأولى فى الساعة السابعة صباحاً بينما وصلوا إلى هدفهم الثانى فى الساعة ١٠ ½ ، وعلى الساعة ١١ صباحاً وصل الكنديون على جانبهم .

وقد وصل ضجيج التحركات فى هذا الوقت أعلى بكثير من ضجيج النيران . وإنتهى القتال الرئيسى بعد حوالى ساعتين ، بعد أن أستولى الاستراليون تقريباً على كل أهدافهم بينما حقق الكنديون تقدما بلغ أكثر من ٧ أميال . وقد حققت هذه النتائج الباهرة إستخدام

---

(١) مشكلة من ٣٢٤ دبابة ثقيلة ماركة ٥، ٩٦ دبابة خفيفة ماركة « ويبت »، ١٢٠ دبابة إمداد « المعرب »

الدبابات التى مرت بسهولة خلال حواجز الأسلاك الشائكة والخنادق ونيران المدافع الرشاشة والبنادق ، وفى الواقع دمرت مدفعية العدو العديد من الدبابات ، ولكن الدبابات التى واصلت تقدمها سببت فوضى شديدة بين الألمان . وعلى كل حال لم تعطى معركة « أميئس » كل ما كان مرجو منها ، لأن عند التقدم تخلفت المشاة ولم تنجح محاولة التنسيق بين الدبابات والخيالة . وقد سمى لدندورف يوم ٨ أغسطس باليوم « الأسود للجيش الألمانى » فى تاريخ الحرب .

حاول الحلفاء التقدم بالهجوم إلى الأمام إلا أن المقاومة الألمانية تم تقويتها خلال شهر سبتمبر . ووصل البريطانيون إلى منطقة معركة الفلاندرز السابقة حيث أعجزهم مرة أخرى عدوهم القديم وهو الطين والوحل عن التقدم . وفى ٢٦ سبتمبر قام الأمريكيون بهجوم فى « أرجون » وتم بالأسلوب القديم لحرب الخنادق ، مما أدى أن تكبد الأمريكيون خسائر فادحة لتحقيق تقدم لمسافة ٨ أميال وذلك بعد أسبوع من القتال الشاق .

وأخيراً فى ٤ أكتوبر طلبت ألمانيا الهدنة ، إلا أن القتال ظل مستمراً خلال المفاوضات حتى تم طرد الالمان من غربى بلجيكا ومعظم فرنسا . وفى ١١ نوفمبر ١٩١٨ توقف القتال فى الجبهة الغربية ، ووصلت الحرب إلى نهايتها فى كل المسارح فى حوالى نفس الوقت ولكن لم يكن هناك إرتباط إستراتيجى فى ذلك . وعلى كل حال لم يؤثر إنهيار الأتراك والبلغار على الألمان والنمساويين أكثر من تثبيط همتهم قليلا . وفى الحقيقة كان النمساويون والإيطاليون قد أجهدوا تماما مثل الألمان أيضاً .

وكان يرجع سبب خسارة ألمانيا للحرب هو هجوم لدندورف فى عام ١٩١٨ أكثر من هجوم الحلفاء المضاد أو من الحصار .

وأخيراً وبعد طول التحمل تحطمت الروح المعنوية للجنود الألمان وذلك عندما تحطم هجومهم على المواقع الدفاعية والتى لم تكن لديهم أى وسيلة للتغلب عليها ، كما حدث لقوات الحلفاء خلال الاعوام السابقة . وفى الحقيقة كان يوم ٨ أغسطس يوما أسوداً لنفسية الالمان أيضاً . وعلى كل حال عندما طلب الالمان الهدنة كانت جبهتهم سليمة على الاسلوب القديم للحرب . ولم ينجح الحلفاء حتى فى تحطيم وهزيمة الجيوش الالمانية بالرغم من فقد الالمان أرضاً خلال الشهر الذى أعترفوا فيه بالهزيمة . وكان الناتج القدرى لتكنولوجيه ذلك الوقت هو الجمود الذى كان بمثابة العامل الحاسم فى فن حرب ١٤ — ١٩١٨ . ولم يكن هناك خل

كاف لهذا الجمود ، بالرغم من إستخدام الدبابات لانها لم تحصل على نصر تكتيكى حاسم . وفى الواقع كان لا يمكن كسب حرب ١٤ — ١٩١٨ بل كان يمكن فقط خسارتها لعدم قدرة رجال كلا الطرفين على تحملها إلى النهاية .

وقد حارب رجال كلا الطرفين بمهارة وشجاعة ولكن فى النهاية تحطم الالمان .

انتهاء الحرب وحاول السلام

ولقد حاول القادة السيطرة على الحرب ولكنها تحدتهم جميعاً ، فليس معنى هذا أن القيادة كانت جميعها ضعيفه .

وعلى كل حال فقد أنجبت هذه الحرب بعض القادة العباقرة أمثال « فلا كنهين » و « لدندورف » و « مصطفى كمال » و « بلومر » و « موناش » و « اللنبى » و « بروسلوف » وكانوا جميعاً قادة مقاتلين ممتازين ، فى نفس الوقت لا ننسى « لورانس » و « ليتو » فقد كان لهم قدراتهم الخاصة . وإننى أعتبر سيرجون موناش أفضل الجنرالات على الجبهة الغربية الاوروبية ، لانه يمتلك أصالة خلاقة حقيقية ، وأعتقد أن الحرب كانت تنتهى مبكراً وبخسائر أقل إذا تعين موناش لقيادة القوات البريطانية بدلا من هيج الذى يفتقر إلى الخيال الواسع .

وتعليق على إستراتيجية الحلفاء أنهم ضيعوا قوات كبيرة جداً فى المسارح الرئيسية بدون براعة وبدون خيال واسع أو تفكير صائب . وقد أخلص الروس تماما لحلفائهم ، بينما أداروا معظم حربهم على الجبهة الشرقية فى عدم كفاءة بالغة .

أما بوفر فقد بدأ إستراتيجيته العقيمة فى الغرب ، بينما ألقى اللوم على فوش بسبب نظرياته التكتيكية وألقوا المسئولية عليه بالنسبة لمجازر هذه الحرب ، وبالرغم من أن توجيهه للاحتياطيات والهجوم المضاد فى عام ١٩١٨ قد أظهر أنه بدأ يرى الضوء ولكن متأخرا .

أما فى الجانب الألمانى فقد دفعا رئيسا الأركان « فلاكنهاين » و « لدندورف » قواتها على الجبهات المختلفة بمنتهى الحكمة لمقابلة متطلبات الموقف . وقد كان صائبين فى إتباع إستراتيجية دفاعية فى الجبهة الغربية معظم الحرب ، ولكن لدندورف فى النهاية رفض الصلح الذى يحقق حلا وسطا ، ثم قام فى عام ١٩١٨ بهجوم يماثل الهجوم الذى كاد يفقد الحلفاء الحرب فى الأعوام السابقة ، مما أدى أن فقدت ألمانيا الحرب أخيراً .

وقد قدمت قبل ذلك إحترامى للجندى البريطانى ، وأحب قبل أنهى قصة حرب ١٤ — ١٩١٨ أن أعبر عن إعجابى بالجندى الفرنسى .

وقد أظهرت دراستنا للحرب أن كل الجيوش لها فترات نجاح وأيضاً فترات يأس وثبوط الهمة ، فى نفس الوقت يصعب على قوات الدول الحصول على النصر لحكومة مذبذبة تنقصها الشجاعة وغير قادرة على الروح القتاليه لشعبها فى وقت الأخطار . أما إذا كانت الحكومه على عكس ذلك فالقيادة الممتازة يمكن الإستفادة منها فى ذلك الوقت ، لأن الأمم تحصل على النصر إذا كانت قواتها تقاد على كل المستويات بكفاءة ولديها التجهيزات الجيدة ويتمتع الجنود بالضبط والربط العالى واللياقة البدنية والتدريب والروح المعنوية العالية .

وهذه العوامل تمثلت تماما فى حالة فرنسا ، فقد رأينا الجنود الفرنسيين يقاتلون ببساله بالرغم من تكبدهم الخسائر الجسيمة من السرطان الأسبانى . . علاوة على الضربة الرهيبة لتقهقرهم من موسكو .وعلى كل حال كان « رجال الحرس القدامى » جنوداً رائعين كما كان أحفادهم الشبان أيضاً فى « الفردان » « وديان بيان فون » و « الجزائر » .

وقد حاربت أنا شخصيا جنبا إلى جنب مع الجيش الفرنسى ، ووجدت أن الجندى الفرنسى لو توفرت له قيادة شجاعة وخاصة على المستويات الصغرى(١) لايبارية أحد فى القتال ، وإنى أحييه .

وأخيراً إنتهى القتال ، ليس لحصول الجميع على السلام ولكن فقط لمجرد كسب الحرب. وقامت ألمانيا بمناورة أخيرة ضد فرنسا وإنجلترا بأنها أرسلت طلب الهدنه إلى الرئيس ويلسون رئيس الولايات المتحدة ، لأنها تعلم أن ويلسون يتخيل نفسه منذ مدة طويلة كوسيط للعالم . وفى يناير ١٩١٨ قدم ويلسون ١٤ نقطة(٢) لإقرار سلام مثالى وتتضمن إحترام حق الدولة فى تقرير مصيرها ، وإنشاء عصبه الأمم التى ستجعل قيام الحروب فى المستقبل مستحيلا . واعتبرت دول الوسط هذه النقط أحسن فرصة لتقليل خسائرهم فى القتال ، إلا أن فرنسا وبريطانيا لم توافق عليها . وعلى كل حال لم تمثل قوى الوسط فى مناقشات شروط السلم والتى تمت فى باريس بين يناير ويونيه ١٩١٩ ، وعلى كل حال أخلت ألمانيا مكانها لمصالح القوى المنتصرة

(١) أنها ضرورية لكل الجيوش حتى تحصل على النصر .

(٢) لقد علق كليمنصور على هذه النقط بقوله « الرب لديه عشرة فقط »

فى ٢٨ يونية أملى السلام من فرساى ، وأعيدت الألزاس واللورين إلى فرنسا وحصلت الأمبراطورية البريطانية وفرنسا على مناطق كثيرة مختفية تحت أسم « الأنتداب » ، وخلفت بولندا جديدة وأعطى لها ممراحراً إلى البحر ، وأزيلت الأمبراطورية النمساوية والأمبراطورية التركية بإعتراف الحلفاء بدول وطنية جديدة . وقد خسرت ألمانيا أرضا صغيرة نسبياً فى أوروبا ، ولكن تم نزع سلاحها وأمرت بدفع تعويضات . أما روسيا فبعد الثورة البولشيفية فلم تقبل فى المجمع الدولى للأمم المتمدينة ، وتركت التسوية الأقليمية التى تمت فى معاهدة « برست ليتوفسك » كما هى . وأقيمت عصبة الأمم ولم يسمح لألمانيا لعدة سنوات بدخولها . وكانت نتيجة حرب ١٤ — ١٩١٨ أخطار مستمرة التأثير منها ألمانيا المذلولة الحانقة وروسيا المشكوك فى أمرها الغير مقبولة قانونا ، فى نفس الوقت لم يعد الثبات الإقتصادى إلى ما كان يتميز به العالم قبل عام ١٩١٤ .

وأخيراً فقد ثبت أن شروط صلح فرساى لم ترض الكثير .

هكذا ينتهى الجزء السادس من الكتاب، أما الجزء السابع والأخير فضمنه مونتجمرى الآتى :-

* الفوهرر أدولف هتلر . . .
* الحرب الخاطفة . . .
* روميل وحرب الصحراء . . .
* محاولة إغتيال هتلر . . .
* الأسلحة السرية . . .
* إنتحـــار هتلر . . .
* كارثة بيرل هاربور . . .
* الهزيمة المهينة . . .
* الألغـــام البشرية . . .
* ضرب هيروشيما بالقنبلة الذرية . . .
* الحرب فى العصر النووى . . .
* الحرب البكترولوجية القديمة . . .
* السلوك الإنسانى القديمة . . .
* العـــالم الممزق . . .
* الحرب الكورية . . .
* تـكنولوجية السلاح النووى . . .
* الصراع النووى بين الشرق والغرب . . .
* الحرب تحت البحر . . .
* العودة إلى الهمجية الكاملة . . .
* عالم الراحة والســـلام . . .

العميد فتحى عبد الله النمر

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء السابع والأخير ؟

عميـــد

فتحى عبد الله النمر

مسابقة القراء

		عدد
الجائزة الأولى :—	١٠ جنيهات مصرية	١
الجائزة الثانية :—	٣ جنيهات مصرية	٢
الجائزة الثالثة :—	٢ جنيه مصرى	٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارىء أن يضع علامة (✓) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم أختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع فى مظروف عليه طابع بريد وترسل فى بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالى :—

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين فى الجزء التالى للكتاب والذى يظهر فى أول كل شهر .

٥ — لقد رصد الفيلد مارشال مونتجمرى الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء السبعة التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

أسماء الفائزين فى مسابقة الجزء الخامس

حل المسابقة :—

ج ١ : ١ — المركيز دى ساكس .

ج ٢ : ٢ — نابليون .

ج ٣ : ١ — ٦١ر٠٠٠ مقاتل + ١٣٩ مدفعاً .

ج ٤ : ٢ — ووترلو .

ج ٥ : ٣ — وحدة تتكون من ١٠ر٠٠٠ رجل .

ج ٦ : ٣ — الصين .

ج ٧ : ١ — ١ر٦٠٠ ميل .

ج ٨ : ٢ — الهند .

ج ٩ : ٣ — كوتيليا .

ج ١٠ : ١ — إلقاء الضحية أرضا وسحقها بالقدمين .

الجوائز :—

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ٢٠٢٩

باسم : وفيق يحيى

العنوان : مؤسسة مصر للطيران — مطار القاهرة الدولى

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٦٢١

باسم : بيومى حسن بيومى

العنوان : ٣ ميدان ابن سندل — القاهرة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٢١١٠

باسم : كمال وهبه العطار

العنوان : ١٤ ش الجراج حدائق القبة — القاهرة

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه وعددها ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣٠٠٢

باسم : مصطفى الشامى

العنوان : ٢٢٢ ص . ب طرابلس — ليبيا

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٢١٠٩

باسم : أبو العلا عبد الحميد

العنوان : ٤٣ ش الشهيد فكرى زاهر — دمياط

٣ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣٥٢٥

باسم : محمد اسامة

العنوان : ١٠٠ ص . ب بيروت

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد (عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* ونظراً لوجود بعض القراء خارج جمهورية مصر العربية سيتم إرسال جوائزهم عن طريق البريد الموصى عليه .

* هذا الكتاب يقع فى سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتجمرى لكل جزء مسابقة وجوائز مالية لها ، فمن لم يسعده الحظ فإلى اللقاء مع مسابقة جديدة فى الأجزاء التالية التى تظهر فى أول كل شهر .

* ترقبوا المسابقة الجديدة والجوائز المالية فى الكتاب الجديد « القرارات المميتة » والذى يقع فى ستة أجزاء ، وسيتم نشر هذا الكتاب بعد الجزء السابع من « الحرب عبر التاريخ » مباشرة .

نمرة ٠١١١١٢٠٠

المسابقة

١ — صدرت الطبعة الأولى من كتاب « فى الحرب » لفون كلاوزفتز عام

١ — ١٨٥٠

٢ — ١٨٣٢

٣ — ١٨٣٧

٢ — « الاسيجاوى » عبارة عن

١ — رمح رفيع تستعمله القبائل الأفريقية .

٢ — قائد الزولو .

٣ — اسم مدفع خفيف .

٣ — كان تعداد اليابان فى عام ١٩٠٣ حوالى

١ — ٥٠ مليون نسمة .

٢ — ٦٠ مليون نسمة .

٣ — ٣٥ مليون نسمة .

٤ — فى فبراير ١٨٦١ تم انتخاب أول رئيس للولايات الامريكية الكنفدرالية فى الجنوب وكان

١ — لينكولن .

٢ — جيفرسون دافيز .

٣ — جاكسون .

٥ — « أن الماضى مفيد لى عندما افكر فى الغد حتى أرسم مستقبل » من قال هذا ؟

١ — ميترلنك .

٢ — كريسوت .

٣ — ستينمتز .

٦ — المنطاد « زبلن » صنعته

١ — بريطانيا .

٢ — ألمانيا .

٣ — فرنسا .

٧ — برتا الكبير

١ — اسم قائد معركة فردان .

٢ — اسم كتاب ألفه فوش .

٣ — مدفع من عيار ١٧ بوصة .

٨ — فى عام ١٩١٦ التقى الادميرال الألمانى « سيشر » مع الادميرال البريطانى « جليكو » فى

١ — الأركينيس .

٢ — جوتلاند .

٣ — جزر فولكلاند .

٩ — نشبت الثورة العربية فى مكة

١ — فى يونية ١٩١٦

٢ — فى يولية ١٩١٧

٣ — فى يناير ١٩١٧

١٠ — دخل الانجليز بيت المقدس فى ٩ ديسمبر ١٩١٧ بعد أن حكمها الاتراك

١ — ثلاثة قرون .

٢ — ٥٠ عاماً .

٣ — أربعة قرون .

الاسم ________________

العنوان ________________

____

____

الحرب عبر التاريخ

A HISTORY OF WARFARE

الجزء السابع

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكليات العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
فى عيد العلم العاشر والحادى عشر

التصديق بالنشر

خطاب رقم ن / م ث / ٦ / ١ / ٢٠٢١

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الحادى والعشرون : بعد عشرين عاما : ـ الحرب العالمية الثانية	٧١١
* الفوهرر أدولف هتلر	٧١١
* الحرب الخاطفة	٧١٥
* الحرب الزائفة	٧١٨
* نكسة دنكرك	٧٢٢
* روميل وحرب الصحراء	٧٢٨
* القصف الجوى على ألمانيا	٧٤٣
* محاولة إغتيال هتلر	٧٥٣
* الأسلحة السرية	٧٥٧
* إنتحار هتلر	٧٦١
* كارثة بيرل هاربور	٧٦٣
* الهزيمة المهينة	٧٦٥
* الجحيم فى ميدواى	٧٧٢
* الألغام البشرية	٧٨٤
* ضرب هيروشيما بالقنبلة الذرية	٧٨٨
* ستالين وروزفلت وتشرشل	٧٩٢
* الحرب فى العصر النووى	٧٩٤
الفصل الثانى والعشرون : أخلاقيات الحرب	٧٩٦
* الحرب البكترولوجية القديمة	٧٩٦

تابــع الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة
* السلوك الإنسانى للحرب	٨٠٣
* الدروس المستفادة	٨٠٨
الفصل الثالث والعشرون : الستار الحديدى والحرب الباردة . .	٨١١
* العـــالم الممزق	٨١١
* الحـرب الكورية	٨١٧
الفصل الرابع والعشرون : العصر النووى	٨٢٢
* تـكنولوجية السلاح النووى	٨٢٢
* الصراع النووى بين الشرق والغرب	٨٢٨
* الحرب تحت البحر	٨٣٣
الفصل الخامس والعشرون : الغاية من السلام	٨٣٧
* العودة إلى الهمجية الـكاملة	٨٣٧
* عالم الراحة والســـلام	٨٣٨
الخرائط :	
* اللوحة رقم ٤٩ : الحملة الألمانية فى شمال غرب أوروبا عام ١٩٤٠	٧٢٠
* اللوحة رقم ٥٠ : الحرب فى حوض البحر الأبيض المتوسط	٧٣٠
* اللوحة رقم ٥١ : الحرب فى الجبهة الشرقية . . .	٧٣٤
* اللوحة رقم ٥٢ : معركة نورماندى	٧٥٢
* اللوحة رقم ٥٣ : هزيمة ألمانيا عام ١٩٤٤/١٩٤٥ . .	٧٥٨
* اللوحة رقم ٥٤ : الحرب اليابانية ٤١ — ١٩٤٥ . .	٧٦٧
* اللوحة رقم ٥٥ : الحلفاء يستعيدون بورما	٧٨٠
* اللوحة رقم ٥٦ : معركة ميـكتيلا	٧٨٦

الفصل الحادى والعشرون

بعد عشرين عاما : الحرب العالمية الثانية

الفوهرر أدولف هتلر

عندما سمع « فوش » بتوقيع معاهدة فرساى للسلام عقب قائلا : « إن هذا ليس سلاما، بل هدنة لمدة عشرين عاما » . وكان على حق، فبعد عشرين عاما من الحرب العظمى والتى جرى وصفها فى الجزء السادس ، تورطت الدول فى صراع ثان والذى إستمر ست سنوات . وإذا كان من المبالغ فيه وصف حرب ١٤ — ١٩١٨ بأنها صراع عالمى ، فلم يكن هناك أى مبالغة فى إطلاق هذه الصفة على الحرب التى أشعلها هتلر عام ١٩٣٩ . ولقد كاد أن يندلع صدام ثان فى الفترة بين ١٨ — ١٩١٩ بسبب حماقة قادة الحلفاء السياسيين المنتصرين . وقد أوضح هتلر فى كتابه « كفاحى » «أن السلام ليس إلا فترة إستعداد لحرب شاملة » وأصبح النظام النازى جهازاً للحرب ينادى بالحرب».

وتولى العريف السابق[1] بنفسه زعامة الدولة والقيادة العليا ، وتعامل بدون رحمة مع هؤلاء الألمان الذين كانوا لا يقبلون نظرية المدافع إلى جانب الزبد .

وكانت الحرب الأهلية الأسبانية ٣٦ — ١٩٣٩ بمثابة التمهيد لحرب ٣٩ — ١٩٤٥ ، جرب خلالها الشيوعيون والفاشستيون أسلحة وأسلوب مستحدث للحرب . ولم يكن الرعب والهلع الذى تميزت به الحرب الأهلية الأسبانية إلا إشارة لما سوف يأتى بعد ذلك . وكانت المبادىء التى إعتنقها زعماء الألمان الجدد ، هى الحرب الشاملة وأسلوب الحرب الخاطفة ، يعكس تماماً الإتجاهات الدفاعية التى كانت سائدة عند الغرب وإعتقادهم بإمكانية تجنب الحرب .

وبدأت بريطانيا فجأة بإعادة تسليح نفسها كرد فعل للسياسة النازية ، ولكنها بدأت

(١) كان هتلر عريف فى الحرب العالمية الأولى .

« المعرب »

فى نفس الوقت على العمل على تهدئة الدكتاتوريين ، وهذه السياسة لم تكن تجدى ضد هتلر وحكومته العسكرية .

وبدأت الحرب العالمية الثانية عندما هاجم هتلر بولندا فى أول سبتمبر عام ١٩٣٩ ،منهياً بذلك سلسلة الإعتداءات التى وقعت فى وقت السلم ، والتى بدأت باحتلال أراضى الراين عام ١٩٣٦ .

ولقد كانت الحرب الهتلرية مثار مناقشات عديدة بينى وبين سير ونستون تشرشل بعد إنتهائها .

وحيث كان تشرشل يعتبر أنه لا مفر من حرب ١٤ — ١٩١٨ فور تأزم الأحداث فى البلقان ثم تورط ألمانيا فيها ، إلا أنه كان شديد الاقتناع بأنه فى الإمكان تجنب مأساة الصراع الثانى .

وقد كتب فى كتاب « الحرب العالمية الثانية » : — « لقد أدى ضعف الصالحين إلى دعم حقد الأشرار » . وكتب أحدهم ذات مرة : — « عندما نصبح ثلاثة أضعاف قوة العدو ، أبدأ بالهجوم فوراً » ، ولكن هتلر كان يعرف جيداً أن : — « من يكيل ضربته بسرعة خاطفة تصبح قوته أربعة أضعاف القوة الأصلية » وهذا هو ما فعله تماماً فى الشرق والغرب ، فقد إندلعت الحرب الخاطفة فى بولندا فى سبتمبر ١٩٣٩ وبعد ذلك على الغرب فى مايو ١٩٤٠ .

ولكن الحرب التى شملت العالم بعد ذلك كانت تختلف تماماً عن الصراع فى حرب ١٤ — ١٩١٨ ، فقد إختفى نظام الخنادق والأسلاك الشائكة وحرب الحصار . واستطيع أن أقول بصدق بعد أن خضت كلا الحربين ، أنه من المستحيل أن نجد حربين ضد نفس العدو وبهذا الاختلاف الكبير .

٤٠ مليون قتيل فى الحرب

وخلال هذه الحرب إرتكب الألمان واليابانيون من جرائم الحرب التى لا أعتقد أن هناك ما يوازيها فى الوزن والفظاعة عبر التاريخ . وأكثر من ذلك فالسلاح الرهيب للقوات الجوية قد جلب الدمار والتعاسة للمدنيين فى الجبهة الداخلية نتيجة للطريقة البشعة الخاصة

بقصف المدن المفتوحة والمراكز الصناعية من الجو،والتى بدأها الألمان ، ولـكن كان هناك رد مماثل ومحقق من الحلفاء مع تزايد الحرب .

لقد كانت حرب غاية فى التعقيد ، ولم يقتصر إندلاعها فى أجزاء محددة بوضوح كما حدث فى حرب ١٤ — ١٩١٨ .

تشرشل مع رئيس وزراء بريطانيا الجديد تشمبرلين

لقد كانت الرؤية فيها دائمة التغيير وقد غطت الحرب الكوكب الأرضى بالكامل فيما عدا الأراضى الشاسعة للقارة الأمريكية . وإنى أعتقد أنها كانت أكبر مأساة فى تاريخ البشرية .وطبقاً لأقوال رئيس التحرير العسكرى لجريدة « النيويورك تايمز » والذى ناقشت معه ذلك ذات مرة ، فإن الرقم الإجمالى للقتلى من البشر من جميع الأسباب كان حوالى ٤٠ مليون ، وكان منهم على الأقل ١٧ إلى ١٨ مليون مدنى . وإن مقدار ماعانته البشرية ليفوق كل تصور . ويكفى ذلك الآن ، ولنتعرف أولا على أسباب المأساة بادئين باتفاقية فرساى الموقعة عام ١٩١٩ .

إن السلام الذى يوضع بفرض الإذلال والإنتقام لايمكن أن يستقر مدة طويلة ولا يرضى ولا يقنع الصرف المغلوب وقد ظهرت هذه الحقيقة بسرعة فى عام ١٩٢٠ أى بعد توقيع إتفاقية فرساى بوقت قصير .

ولقد كان يجب إيجاد علاقات وحسن جوار معقول مع الدولة التى لديها أكبر تعداد سكانى وأكبر إمكانية صناعية فى أوروبا ، نعنى ألمانيا وليس روسيا ، فقد تركت ألمانيا كما هى فى عام ١٩١٩ ، فيما عدا إنتزاع قطع صغيرة من أراضيها على الحدود .

ولكن فى النهاية أدت المناورات السياسية ، لإيجاد وتنظيم جديد لأوروبا ، وهى التى أدت إلى أخطاء دفعت العالم إلى الحرب فى عام ١٩٣٩ .

وقد أهملت كل من روسيا وأمريكا مشكلة ألمانيا ، بينما مالت فرنسا نحو إتخاذ موقف سلبى ، وبذلك ترك الأمر إلى حد بعيد لكل من بريطانيا وألمانيا للعمل على إيجاد حل جديد .

وإتجهت السياسة البريطانية إتجاه ألمانيا ، منذ تولى «رامزى مكدونالد» رئاسة الوزارة ، وكانت تتحرك بدرجة كبيرة نحو الاسترضاء ، وكانت هناك إلحاحات مختلفة نحو « الترضية » كما أصبحت تسمى هذه السياسة . وكانت تجربة ١٤ — ١٩١٨ قد ولدت الذعر من الحرب ، وجادل الكثيرون فى أن لدى ألمانيا سبباً قويا لاستعادة ما فقدته من أرض ، وأن البديل للقوة الفاشستية فى وسط أوروبا هو تقدم الشيوعية ، وإذا تم وأتخذ موقف خشن بالنسبة للألمان كما كان يعتقد ، فإنه سوف لا يعادى الألمان فحسب بل سيؤدى إلى متاعب جمة ،

فى حين لو عومل الألمان بطريقة مرضية فسوف يكون سلوكهم بالتأكيد لطيف .

ولكن سياسة « الترضية » الحمقاء وصلت آخر الأمر إلى أن :— «حاكم ألمانيا لم يكن ذلك الرجل النبيل الذى كان يحسبه رؤساء الدول الأجنبية » .

ولقد لعب أدولف هتلر[1] المباراة الدبلوماسية بطريقة أقل لطفاً من الساسة الآخرين حيث كان ينشد إعادة ألمانيا كقوة عظمى .

وأصبح هتلر « فوهررا[2] » فى عام ١٩٣٤ وبالتالى أصبح فى الواقع دكتاتوراً . وقد إستغل الحرب الأهلية الأسبانية التى بدأت فى عام ١٩٣٦ فى تجربة أسلحته وتكتيكاته الجديدة .

وفى عام ١٩٣٦ دفع قواته إلى داخل أراضى الراين ، وفى عام ١٩٣٨ قام بضم النمسا وإقليم «السوديت التشيكوسلوفاكية» . وأعتقد كل من «تشمبرلين» رئيس وزراء بريطانيا و « دلادييه » رئيس وزراء فرنسا وجوب الموافقة على هذه المكاسب الألمانية كثمن للسلام الآمن والدائم ، وفى إجتماعهم مع هتلر فى ميونيخ تغاضوا عما قام به . كيف يمكن حرمان ألمانيا من عودتها قانونا إلى وضعها الطبيعى ؟ . كيف يمكن للسياسيين إشعال حرب رئيسية ثانية من أجل قطعة تافهة من الأرض ؟ وقامت ألمانيا بحساب كل فرصها ، وأخذت توجه الضربة تلو الضربة بدون عقاب .

ولم يكن هتلر أحمقاً فى تلك الأيام الأولى مهما أصبح فيما بعد .

وفى أوائل ١٩٣٩ أعلن الحماية على « بوهيميا » و « موادافيا » كما حصل على إقليم « ممل » . ولقد قيل أن هتلر لم يكن ينشد الحرب حتى بدأت فى عام ١٩٣٩ ، وربما كان ذلك صحيحاً ، ولكننى أجد أن من المستحيل التصديق بأنه أعتقد أن فى مقدوره جر المتاعب على الدول الأوروبية بالطريقة التى كان يتبعها دون أن يؤدى ذلك إلى الحرب .

الحرب الخاطفة

وعندما تنبهت بريطانيا وفرنسا للخطر وضمنتا سلامة بولندا فى مارس ١٩٣٩ ، ولم يعتقد هتلر أنهما سوف يحترمان كلمتهما ، بالرغم من إتفاق ميونخ . ومع ذلك فبعد ستة

---

(١) لقد أصبح مستشاراً لألمانيا عام ١٩٣٣ .

(٢) رئيسا للدولة

شهور قام هتلر بغزو بولندا ، متعمداً إطلاق العنان لـكلاب الحرب . وكان مستعداً لإشعال حرب عالمية إذا دعت الضرورة ليس لهذا فقط بل لـكى يحقق أغراضه . وأ كثر من ذلك ، كان النظام النازى يعتمد على إثارة العواطف للشعب الألمانى بالجندية والعنصرية والوطنية والتى كانت مملوءة بالعجرفة والمرارة .

وهناك نقطة تروق لى وهى : — « متى قرر هتلر وبالضبط المخاطرة بالحرب من أجل تحقيق أغراضه ؟ . ومن المحتمل ألا نعرف أبداً هذا الأمر ، أما مانعرفه أن هتلر كان مقامراً متهوراً ، وأنه عندما غزا بولندا فقد تخطى قدرته .

لقد كان من المستحيل على بريطانياوفرنسا المحافظة على سلامة بولندا بدون الدعم المسلح لروسيا ، وكان ذلك مستحيلا من الناحية الاستراتيجية بدون الدعم المسلح الروسى ، وهذا الدعم تلاشى عندما وقع هتلر فى أغسطس ١٩٣٩ إتفاق مع روسيا بعدم الإعتداء ، تلك المعاهدة التى كانت بمثابة تـكتيك خبيث جداً .

ولـكن قررت بريطانيا وفرنسا المحافظة على تعهداتهما ، وأعلنت كل منهما الحرب على ألمانيا فى ٣ سبتمبر .

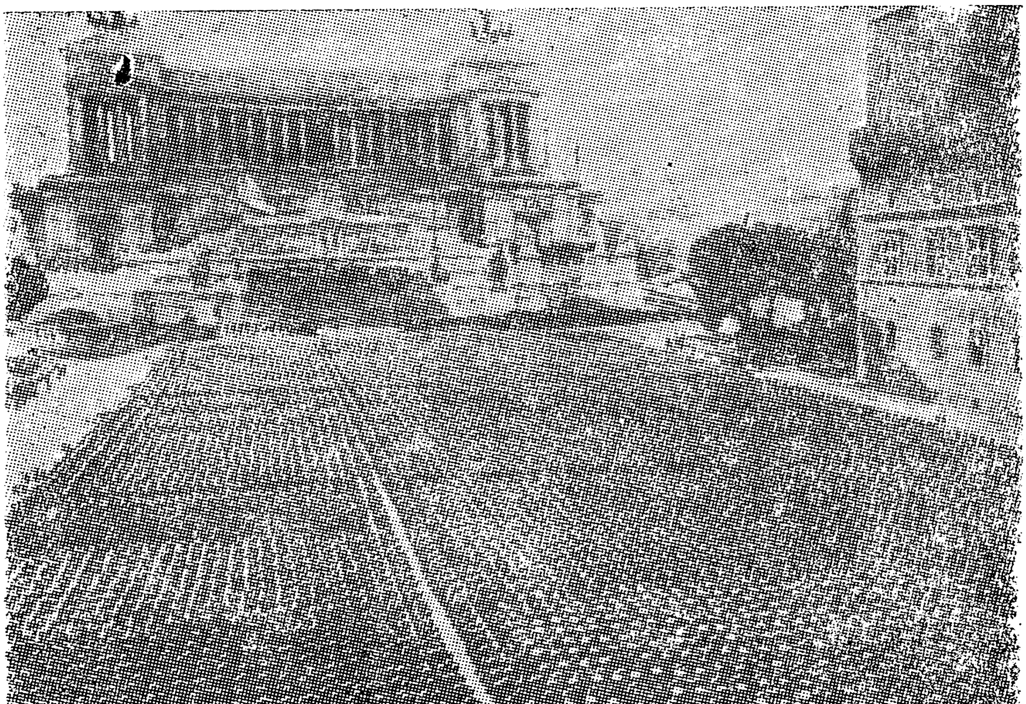

هتلر يستعرض جيوشه ليرهب العالم بقوته

وإستجمعت دول الإمبراطورية البريطانية قواها لمساعدة الدولة الأم ، وإلتزمت إيطاليا الصمت فى هذه المرحلة .

وقررت الولايات المتحدة تجنب التدخل . وبقيت كل من بلجيكا وهولندا والدانمرك والنرويج ولوكسمبورج على الحياد[1] . وربما كان يمكن باتخاذ سياسة أشد فى الثلاثينيات القرن ٢٠[2] إلى تفادى الحرب ، ولكن ربما كان هتلر فى جميع الحالات سيكون متهوراً جداً .

ولكن القدر حل فى عام ١٩٣٩ كما حدث فى عام ١٩١٤ . وإندلعت الحرب كنتيجة لخطأ فى التقدير من جميع الأطراف . ولم تكن كل من بريطانيا وفرنسا مستعدة بشكل مرضى للحرب فى عام ١٩٣٩ ، ولكن كيف كان الحال بالنسبة لألمانيا ؟؟ فقد كان اعداد الرجال المدربين فى ألمانيا أفضل وأكثر كثيراً ، لأن هتلر أصدر قانون التجنيد الإجبارى مبكراً فى عام ١٩٣٥ ، وفيما يتعلق بنظرية فن الحرب ، فقد تقدم الألمان وسبقوا المنتصرين فى صراع ١٤ — ١٩١٨ ، وأدركت ألمانيا أنها حرب جديدة ، وذات قوة ضارية وخفة حركة عالية جداً ، وذلك باستخدام الأسلحة الجديدة وهى الدبابة والطائرة[3] . وعلى هذا الأساس طور الجيش الألمانى أسلوبه التكتيكى وخرج بأسلوب جديد هو « الحرب الخاطفة » ، وجوهر هذا الأسلوب القيام بالهجوم مع إختراق عميق بالقوة المدرعة ، تعاونها القوات الجوية حيث تقوم الطائرات بتدمير مواصلات ومنشئات العدو ، على أن تقوم بتقديم المعاونة لمدفعية الميدان أثناء التقدم بقصفها للأهداف الأرضية وعليها المحافظة على إمداد القوات المهاجمة بالرجال والمعدات، بينما تحقق الدبابات التي تعاونها المشاة المحملة الإختراق على الأرض.

والمبادىء التكتيكية الأساسية للحرب الخاطفة هى . .

الحشد . . . والمفاجأة . . . والسرعة . . .

وبهذه المبادىء السابقة يجرى إرباك وبعثرة العدو ثم يجرى تحطيمه دون رحمة بكل ما فى الكلمة من معنى .

---

(١) لقد كانت هذه الدول غير مستعدة تماماً لحماية حيادها فى ذلك الوقت .

(٢) بدلا من سياسة الترضية

(٣) لقد برزت الدبابة والطائرة خلال التطور الذى طرأ على ماكينة الاحتراق الداخلى .

« المعرب »

وباستثناء الطائرة ، فلم يكن هناك إلا القليل من الاختراعات الفنية فيما بين عامى ١٨ — ١٩٣٩ ، وما حدث هو تطوير أسلحة ١٤ — ١٩١٨ وببطء .

وتطورت سرعة وتدريع وتسليح الدبابات ، وظهرت المدافع المضادة للدبابات وبدأ إستخدام الهاونات ، وظهر مدفع رشاش صغير يمكن حمله باليد ، كما حسنت الأقنعة الواقية من الغازات وأساليب الإخفاء والانتشار ، وأصبحت وسائل النقل ميكانيكية . والقوة الأخرى الوحيدة بخلاف ألمانيا والتى تبنت الأفكار الجديدة عن إدارة الحرب هى روسيا بعد عام ١٩١٨ ؛ حيث قدرت كثيراً الدبابات والقوات المحمولة جواً .

أما باقى القوى التى إنتصرت فى حرب ١٤ — ١٩١٨ فقد رضيت بما حققته من إنتصار ولم تغير على الإطلاق من أفكارها وأسلوبها ، ولم تهتم بالتطور العسكرى إعتماداً على توقعها ببقاء السلام فى المستقبل .

وتجاهل المسئولون فى كل من إنجلترا وفرنسا ، الأفكار والنظريات التى ناقشها قلة من العسكريين أمثال « ليدل هارت » و « فوللر » والخاصة بأن القتال فى المستقبل لن يهيمن عليه بواسطة الدفاع .

وفى كلا الدولتين فى عام ١٩٣٩ تدهورت كثيراً كل من المعدات والتدريب وأصبحت حالتها سيئة .

وبنى الفرنسيون « خط ماجينو(١) » والذى لم يكن له مكان بالنسبة للمفاهيم التكتيكية الجديدة . ولم يدرس أى من المسئولين بعناية كتابات « ليدل هارت » إلا فى ألمانيا والتى وضعت أفكاره موضع التنفيذ ، بينما أدركت الدول الأوروبية قيمتها متأخراً فى ربيع ١٩٤٠ عندما هبت الحرب الخاطفة غربا.

الحرب الزائفة

(أنظر اللوحة رقم ٤٩)

لقد كان الغزو الألمانى لبولندا هو الإقناع الأول لأوروبا بمدى قوة تكتيكات الحرب الخاطفة . وحصل الألمان على المبادأة بالضرب بدون إعلان للحرب . وفى البداية قامت

---

(١) وهو خط دفاعى من التحصينات والذى كان يعتبر منيعاً بالنسبة لحرب ١٤ — ١٩١٨ فقط .
« المعرب »

القوات الجوية الألمانية بتدمير القوات الجوية البولندية خلال يومين ، ولم يتمكن الكثير من الطائرات البولندية من الطيران لملاقاة العدو .

أما السكك الحديدية البولندية والتى كانت بدون دفاع فقد شلتها الهجمات الجوية الألمانية مما أدى إلى إرباك تحريك الجيش البولندى . وحتى يكتمل الاضطراب وإنهيار الروح المعنوية ، قامت القاذفات الألمانية بضرب المدن والقرى وقولات اللاجئين من الجو . وقام البولنديون بدفع ما إستطاعوا دفعه من القوات لمقاومة الغزو الأرضى ، ولكن المارشال « سميجلى ريدز » إستخدام قواته بأسلوب حرب ١٤ — ١٩١٨ ، بنشرها على جبهة طويلة بدرجة أنهم كانوا ضعافاً فى كل مكان ، وليسوا بأقوياء فى أى مكان. وتقدمت القوات الألمانية فى ثلاثة أرتال ضخمة من الشمال والشمال الغربى والجنوب ، وأخترقت رؤوس الحراب المدرعة(١) الجبهة البولندية بسهولة .

ومع ٧ سبتمبر تقابل الجيشان الشماليان بقيادة « بوك » بالقرب من « لودز » ، وبذلك طوق الألمان قوات بولندية كبيرة فى المثلث « لودز — وارسو — تورون » .

وفى أقصى الجنوب عبرت القوات الألمانية تحت قيادة « روندشتد » من جبال الكربات نهر « السان » .

وفى ١٧ سبتمبر حرك ستالين قوات روسية من الشرق إلى خلف الجيش البولندى ، ومرة أخرى قسمت بولندا .

وهكذا أتم الألمان إحتلال بولندا ، الدولة التى تعدادها ٢٣ مليون نسمة فى ١٨ يوماً وبخسارة ٥٠٠ر١٠ قتيل و ٠٠٠ر٣٠ جريح .

وكما ذكرت سابقاً لم تستطع كل من بريطانيا وفرنسا واللتان دخلتا الحرب بغرض حماية بولندا من القيام بأى شىء نحو الحفاظ على بولندا . وقد قامت بريطانيا بإرسال حملتها المكونة من أربع فرق نظامية من المشاة على شكل فيلقين إلى فرنسا فى شهر سبتمبر ، حيث شغلت وقتها بمد دفاعات خط ماجينو إلى الشمال على طول الحدود البلجيكية(٢) .

---

(١) كانت القوات المدرعة تعمل كرأس حربة أمام القوات الرئيسية الألمانية .

(٢) كانت بلجيكا فى ذلك الوقت محايدة . «المعرب»

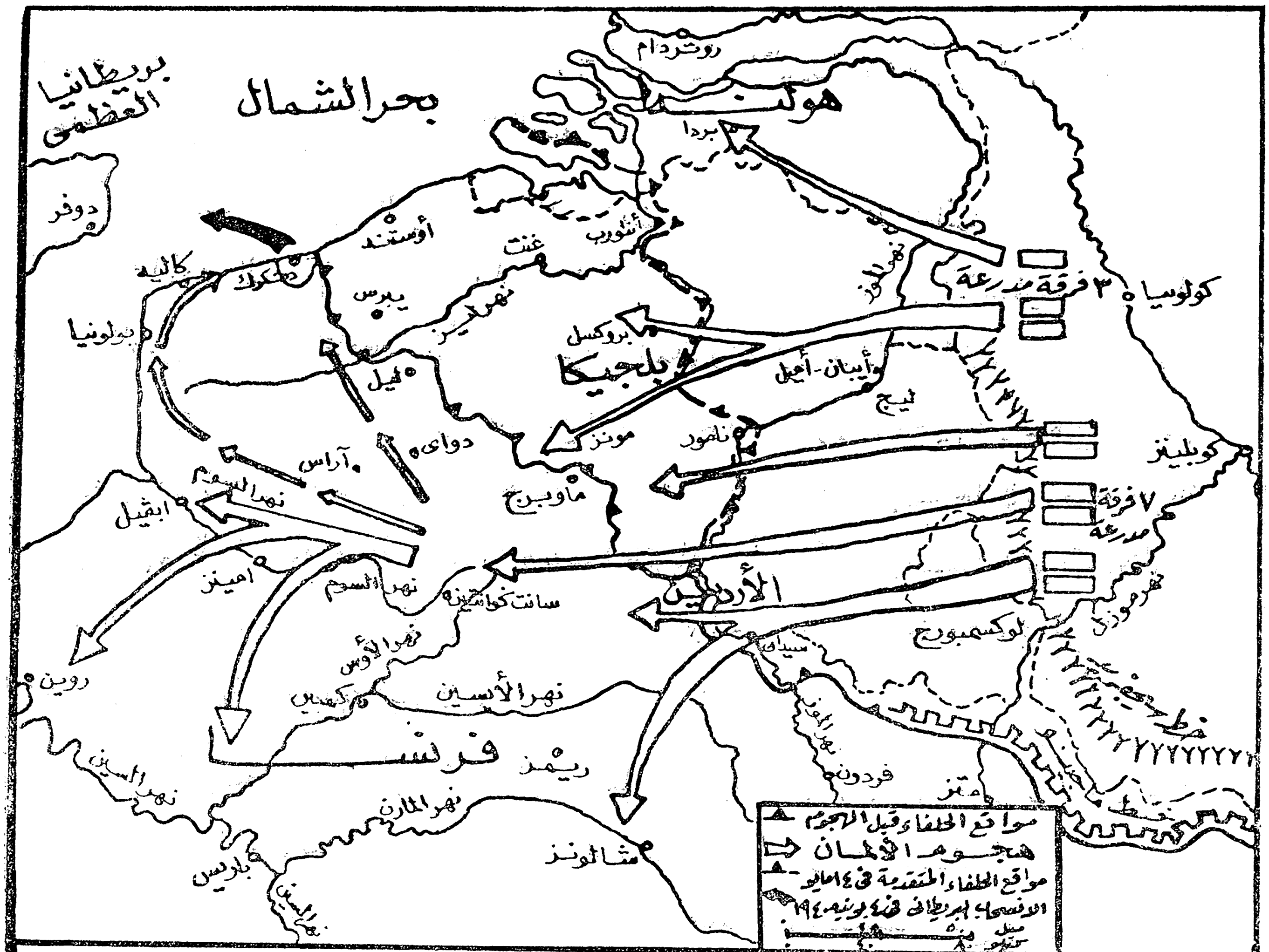

اللوحة رقم ٤٩ - الحملة الألمانية فى شمال غرب أوروبا عام ١٩٤٠

انتظروا فى أول الشهر القادم

القرارات المميتة

تعريب وتعليق العميد فتحى عبد الله النمر

وكانت الفرقة الثالثة المشاة والتى أقودها تقع على الجانب الأيسر من الجبهة البريطانية فى المنطقة إلى الجنوب من « ليل » . وتواجد على يسارى فرق الجيش السابع الفرنسى والتى مدت الجبهة حتى بحر الشمال . كما أرسل إلى فرنسا جزءا من القوات الجوية الملكية لمعاونة الحملة . ولما كانت النظرية الدفاعية مسيطرة على القوات البريطانية والفرنسية ، فلم تقم أياً منهما بمهاجمة ألمانيا من جبهتها الغربية عندما كانت جيوشها لازالت مشغولة فى القتال فى شرق أوروبا .

وبدلا من ذلك قاموا بقصف ألمانيا بمنشورات دعائية من الطائرات . . ! ! وإذا كانت تلك هى الحرب ، فيبدو إننى لم أفهمها .

وتواجد مع الجيش البريطانى فى فرنسا ، لواء مدرع واحد ذلك اللواء الذى لم أره أبداً . . ! ! بالرغم من أننا الدولة التى إخترعت الدبابة وأول من إستخدمها فى القتال عام ١٩١٦ . وإستمرت حالة الجمود فى الجبهة الغربية من سبتمبر ١٩٣٩ حتى مايو ١٩٤٠ ، وهى الفترة التى أصبحت معروفة بـ « الحرب الزائفة » .

وخلال ذلك الوقت إحتل الروس فنلندا لأنفسهم ، وسيطرت القوات الألمانية على الدانمارك والنرويج .

وإنتهت «الحرب الزائفة» فى ١٠ مايو ١٩٤٠ بالغزو الألمانى للأراضى الواطئة وفرنسا. وقد عبأت فرنسا ٨٠ فرقة ، كما كان لبريطانيا ١٠ فرق فى فرنسا ، ولكن كان ينقصها المعدات والتدريب وبذلك كانوا عاجزين عن المشاركة فى حرب رئيسية . وقد تبنى هتلر خطة وضعها الجنرال « فون مانشتاين » ، وكانت تقضى باكتساح بلجيكا وهولندا المحايدتين وبذلك يطوق خط ماجينو ، ويستولى على موانى بحر الشمال وقواعده الجوية ، وقد إستوجب ذلك الهجوم على فرنسا فوراً .

وتوقع الألمان أن البريطانيين والفرنسيين سوف يوجهون قواتهم لملاقاة الغزو عبر بلجيكا ، ولذا قرر الألمان تشديد ضربتهم الرئيسية المدرعة عبر الأردين فى إتجاه نهر « موز » عند « سيدان » وبذلك تفصل قوات الحلفاء التى زحفت نحو وداخل بلجيكا ، وسار كل شىء كما خطط تماما .

وا كتسح الهجوم الخاطف الألمانى هولندا فى خمسة أيام . كما قامت مجموعة هجوم مكونة من رجال المظلات ومهندسى إقتحام بالاستيلاء على قلعة « أيبن — أميل » البلجيكية المنيعة وذلك خلال ٣٦ ساعة .

وقد كان الاندفاع نحو نهر «الموز» أسرع مما توقعه الألمان أنفسهم بعد أن إنهار رجال المدفعية الفرنسية وأصابهم الارتباك من هجمات القاذفات المنقضة الألمانية من طراز « ستوكا » .

وتم فتح ثغرة فى جبهة الحلفاء عرضها ٥٠ ميلا ، وبعدها إندفع الجنرال « جودريان » بمجموعته المدرعة غرباً فى إتجاه « سانت كوانتين » .

وتحركت الفرق الميكانيكية على كلا جانبى الثغرة لحمايتها حيث تقدم بداخل الثغرة المدرعات الألمانية .

وفى الواقع كانت السيطرة الألمانية على الجو كاملة . أما قادة الحلفاء أمثال « جاملان » و « جورت » فكانوا غير قادرين على التعامل مع الجيش الألمانى .

نكبة دنكرك

وفى ٢٠ من مايو كان الألمان فى « أبفيل » ، وفى ٢٣ وصلوا إلى « بولونيا » . وفى منتصف ليلة ٢٧ مايو إستسلمت بلجيكا . وكان هذا أمرا محرجا لى ولفرقتى ، لأننا كنا فى هذا الوقت قد أصبحنا الفرقة، اليسار للقوات الفرنسية البريطانية، بالإضافة إلى الجيش البلجيكى المكون من ٢٠ فرقة ، والذى يمتد من يسارنا حتى البحر . وفى فجر ٢٨ مايو علمت أن ملك بلجيكا قد سلم كل جيشه للألمان . وقدرت فى ذهنى أنه ليس مناسبا للملوك فى منتصف القرن ٢٠ أن يقودوا جيوش دولهم فى المعركة . ولحسن الحظ كان يوجد الكثير من الجنود البلجيكية بين موقع فرقتى والبحر ، مما سيؤدى بعض الشىء إلى صعوبة تحرك الألمان خلالهم ، وهذا منحنى فرصة من الوقت للتفكير فيما أفعله بهذا الخصوص . وفى ٤ يونية كانت القوات البريطانية و٠٠٠و١٢٠ جندى فرنسى قد جلوا من دنكرك بأسلحتهم الشخصية فقط بينما تركوا خلفهم جميع المركبات والمعدات الثقيلة . وإستمر جلاء القوات البريطانية من شاطىء دنكرك[1]

(١) كان الأسم الكودى لهذه العملية « دينامو » . « المعرب »

تسعة أيام وأمكن إنقاذ ٣٣٨٠٠٠ رجل ، وكان ذلك من أروع أعمال البحرية البريطانية التى حشدت ٨٨٧ سفينة من جميع الأحجام ، وأيضاً للقوات الجوية الملكية التى أسقطت خلال العمل المتواصل ولمدة أربعة أيام حوالى ١٧٩ طائرة معادية ، وبخسارة ٢٩ طائرة . وقد خفف من وقع صدمة الهزيمة الإرتياح التى شعرت بها بريطانيا بتخليص قواتها من دنكرك. ولكن ذلك لايخفى الحقيقة أن الجيش البريطانى قد هزم تماما فى القتال ، كما ترك الكثير جدا من معداته فى فرنسا ، بدرجة أنه فى صيف عام ١٩٤٠ لم يكن فى بريطانيا سوى فرقة واحدة[١] مجهزة تجهيزاً جيداً . ولم تقم المدرعات الألمانية بمطاردة البريطانيين إلى داخل دنكرك ، وذلك بسبب أوامر هتلر والذى قرر التحول جنوبا للاجهاز على الفرنسيين. وإنهارت الروح المعنوية للفرنسيين ، وفى ١٦ يونية إستسلمت حكومة بيتان الفرنسية ، وأحتل الألمان شمال وغرب فرنسا . وعند هذه المرحلة ، أعلنت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا . ويرجع أسباب إحتلال ألمانيا لفرنسا وللبلاد الواطئة بسرعة إلى التفوق فى الأسلوب التكتيكى والقيادة. أما الحلفاء فقد كان لديهم تفوق طفيف فى العدد والعدة : — ١٤٦ فرقة للحلفاء إلى ١٢٦ فرقة للمحور ، ولكن الكثير من الفرق الفرنسية والبريطانية كانت قيمتها القتالية ضئيلة ، وكانت بعض دبابات الحلفاء أقوى فى نوعها من مثيلتها الألمانية وعلى سبيل المثال الدبابة البريطانية « ماتيلدا » . ولكن كان العامل الحاسم هو الاختلاف فى الاستخدام .فبينما كان وضع وتوزيع قوات الحلفاء خاطئا نتيجة لبعثرة قواتهم على مواجهة واسعة وبدون إحتياطيات ، كان الألمان يضربون فى رتل صلب يتقدم بسرعة وقوة . وقد تم حشد سبع فرق من فرقهم البانزر[٢] العشرة للقيام بعملية الاختراق بين « سيدان » و « نامور » . وقد أدى خطة مانشتاين الشاملة والتى نفذت بتكتيكات البانزر وعلى وجه الخصوص ضربة جودريان القوية غربا إلى تحقيق إنجاز عسكرى هام ورائع ، ومع ١٧ يونية أصبحت فرنسا خارج الحرب . وفى السنوات اللاحقة أصبح أعضاء حركة المقاومة الفرنسية وجنود إدارة العمليات الخاصة البريطانية ذات قيمة كبيرة . حيث قاموا بإزعاج قوات الاحتلال الألمانية ، ونظموا طرقا لهروب الجنود الذين فروا من معسكرات الأسرى، وللطيارين الذين كانت تسقط طائراتهم فوق فرنسا ، كما أقلقت

(١) كانت الفرقة الثالثة .

(٢) هى الفرق المدرعة .

إغارات الفدائيين راحة الألمان ، كما خدمت وحدات من الفرنسيين الأحرار في بريطانيا وفي أفريقيا. ولكن الحقيقة التي تحتم مواجهتها هي أنه في يونيه ١٩٤٠ ، وقفت بريطانيا وإمبراطوريتها وحيدة ضد قوى المحور ، ألمانيا وإيطاليا . وأستعد الشعب الإنجليزى للغزو الألمانى ، وعلى أى حال فلم تطأ قدم أى عدو أجنبي أرض بريطانيا منذ ٩٠٠ عاما . وبالرغم من عدم وجود أى شخص في الدولة يعرف كيف يمكن هزيمة الألمان ، فلم يوجد أيضاً أى شخص يفكر في التسليم . وحتى ونستون تشرشل نفسه والذى تناقشت معه بهذا الخصوص في يونيه ١٩٤٠ ذكر لى أنه لم يقرر بعد كيف يمكن إتمام هزيمة ألمانيا ، ولكنه كان بدون شك على وشك الوصول إلى النتيجة النهائية ، كما كنت أنا . وقد رأيت فيه الزعيم الذى نحتاجه ، والرجل الذى جمع شمل أمة مهزومة ، وعلى إستعداد لقيادتها خلال أزمات أبعد مدى حتى ولو قدر لهذه المتاعب أن تنفجر فوقنا ، والتى كانت على وشك الحدوث . وأصبح تشرشل رئيسا للوزراء منذ مايو ، وبعد نكسة دنكرك إستجمع روح الشعب البريطانى بشجاعته وخطابته : — « لن نذبل أو نسقط ، وسنمضى حتى النهاية . وسنقاتل في فرنسا وسنقاتل في البحار والمحيطات ، وسنقاتل بثقة متزايدة وقوة متزايدة في الجو . سنَدافع عن جزيرتنا مهما يكن الثمن . سنقاتل على الشواطىء وسنقاتل على أراضى نزول العدو ، وفي الحقول والشوارع ، سنقاتل في التلال ، لن نستسلم أبدا » . وإنبثق الحرس الوطنى إلى الوجود ، وتحولت الطاقة الإنتاجية لبريطانيا إلى المجهود الحربى ، كما وصلت معونات مادية كثيرة من أمريكا المحايدة ، وبدأت تجرى إعادة تجهيز الجيش بالمعدات وإزداد حجمه ، وتم تعديل التدريب ليساير أحدث أساليب الحرب العصرية . ومنذ ذلك الوقت تحققت منجزات عظيمة وكثيرة بواسطة السير « ألان بروك » وعلى وجه الخصوص تنظيم الجيش البريطانى ، وكان بروك يشغل وظيفة القائد العام لقوات الحرس الوطنى ثم بعد ذلك رئيس أركان حرب الإمبراطورية ، ولكن كان هناك الكثير لعمله ، فقد توليت أنا قيادة فيلق على الشاطىء الجنوبى لبريطانيا ولكننى كنت غير متأكد كم سيمر من الوقت قبل أن يضرب هتلر ضربته . وقد إحتلت القوات المسلحة الألمانية كل أوروبا من النرويج حتى فرنسا . وأخبرنا تشرشل أن هتلر يعرف أنه إما أن يغزو بريطانيا ويهزمنا أو يخسر الحرب ، ولذلك فقد قدرنا جميعا أن الدور التالى علينا .

عملية « سبع البحر »(١)

والآن سندرس الحرب الجوية فى أوروبا بين صيف ١٩٤٠ ومايو ١٩٤١ ، وكان على بريطانيا لمنع الألمان فى عام ١٩٤٠ من عبور القنال الانجليزى أن تعتمد على قوتها فى الجو وفى البحر . وكان على ألمانيا لـكى تغزو شواطىء عدو متفوق جداً فى البحر ، أن تسيطر أولا على الجو لأنها بدون ذلك لن تستطيع القوات الألمانية والامدادات أن تـكون قادرة على عبور المانش . وفى حرب ١٤ — ١٩١٨ كان للطائرة أهمية ضئيلة ،ولـكن الطيران تطور تطوراً عظيما فيما بين الحربين . وخلال حرب ٣٩ — ١٩٤٥ أصبحت القوة الجوية سلاحا قويا وغيرت الـكثيرمن مفهوم الحرب فى البحر، وأيضاً التـكتيكات البرية . كما حققت القوات الجوية إمكانية كسب المعارك البرية فى وقت أقل وبخسائر أقل مما لو لم تـكن موجودة . وقد لعب القصف الاستراتيجى دورا كبيرا فى الحرب ، حيث كانت القوات الجوية للحلفاء عاملا حاسما فى الحرب فى أوروبا . وعندما عينت فى قيادة أعلى عام ١٩٤٢ ، وضعت أمام عينى حقيقة لا أحيد عنها وهى يجب أن تـكسب المعركة الجوية قبل القيام بالمعركة البرية أو البحرية ، ولـكن مع تقدم الحرب وأزدياد خبرتى ، وصلت إلى أن ذلك ليس صحيحا تماما ، ولـكن من الضرورى الحصول بقدر الإمـكان على «السيادة الجوية »فوق منطقة العمليات، وهذا المبدأ قد ساعدنى حتى نهاية الحرب .

وكانت مهمة القوات الجوية الألمانية فى صيف ١٩٤٠ هى تحقيق هذه السيادة الجوية فوق إنجلترا والقنال الإنجليزى كمقدمة للغزو . وكان « هيرمان جورنج » على رأس وزارة الطيران الألمانية والقائد العام للقوات الجوية الألمانية ، وبحلول أغسطس كان قـــد حشد أسطولين جويين فيما بين الأراضى الواطئة ومقاطعة « بريتانى » وتولى « كسلرينج » فى بروكسل قيادة أسطول منهما ، بينما قاد « شبيرل » الأسطول الثانى من باريس ، وتمركز أسطول جوى ثالث صغير بقيادة « ستومبف » فى النرويج . وتوفرلدى الأسطولين الجويين الرئيسيين حوالى ٢٠٠٠ طائرة صالحة للقتال وتتـكون من القاذفات « الجونـكر ٨٨ »

---

(١) يمكن الإلمام بعملية « سبع البحر » بالتفصيل فى الجزء الأول من القرارات المميتة تعريب وتعليق العميد فتحى النمر . « المعرب »

والتى كانت أسرع وأفضل ماصنع حتى الآن ، والقاذفات المنقضة « جونكر ٨٧ » والمقاتلات « مسر شميت ١٠٩ » و « مسر شميت ١١٠ » . وفى مواجهة تلك القوة توفر لدى قيادة المقاتلات البريطانية بقيادة مارشال الجو « دودينج » خمسون سربا من طائرات الهاريكان والسبيتفاير ، وكانت القوة الجاهزة للقتال حوالى ٩٠٠ طائرة . كما كان هناك ١٧٠٠ مدفعا مضادا للطائرات . وقد تعين على الإنجليز بقوتهم العددية القليلة حماية الشاطىء البريطانى كله ، حيث سيختار الألمان المناطق التى سيركزون هجومهم عليها . وكانت المفاضلة بين المقاتلات البريطانية والألمانية ضئيلة ، فكانت السبيتفاير والهاريكان مسلحة بثمانى مدافع رشاشة ، وسرعتها أبطأ قليلا من المسرشميت ١٠٩[١] ولكنها تتفوق عليها فى القدرة على المناورة . أما القاذفات الألمانية فكانت بطيئة وأكثر تعرضا للهجوم عليها ، وبالتالى فكانت محتاجة إلى حمايتها بالمقاتلات ، الشىء الذى قيد قدرات كليهما . وأكثر من ذلك كانت قيادة المقاتلات البريطانية منظمة جيدا ، وقد أعدت تحت قيادة « دودينج » فى عام ١٩٣٦ فى « بنتلى بريورى » بالقرب من لندن . وكان جوهر نظام قيادة المقاتلات ، هو المركزية فى تجميع الإنذار المبكر فى « بنتلى بريورى » ، مع عدم المركزية فى السطيرة التكتيكية على المجموعات المرؤوسة فى أنحاء الدولة . وكانت معلومات إقتراب طائرات العدو تجمع من ٢٠ محطة رادار[٢] أو نحو ذلك موجودة على الشاطىء ثم تمرر المعلومات إلى رئاسة المجموعة المختصة والتى تكون مسئولة عن الإشتباك مع العدو ، بأن تدفع إلى العمل مقاتلاتها وأنوارها الكشافة ومدافعها المضادة للطائرات ، وقد عمل هذا النظام بكفاءة .

فى ٢ يولية أمر هتلر قواته المسلحة بالاستعداد لغزو بريطانيا «عملية أسد البحر» ، وإستهل جورنج معركة بريطانيا بهجوم تمهيدى محدود ضد الملاحة فى مضيق دوفر ، ورفض دودينج أن يستدرج . وبدأت المرحلة الرئيسية الأولى فى منتصف أغسطس ، وكان الغرض منها تحطيم القوات الملكية بتدمير الطائرات البريطانية فى الجو ، بينما يستمر فى نفس الوقت الهجوم على الملاحة . وركز كل من « كسلرينج » و«شبيرل» مجموعتها فوق جنوب

(١) كانت سرعتها ٣٥٨ ميل فى الساعة

(٢) جهاز الرادار يكتشف الأهداف البعيدة نحية إرتداد الموجات اللاسلكية ، وتم أكتشافه فى الثلاثينيات بواسطة ر. ا. واتسون وات « المعرب »

شرق إنجلترا ، بينما ركز « ستومبف » على المنطقة من النرويج حتى « ميدلاندز » . وخلال أول معركة كبيرة ، يوم ١٣ أغسطس قامت المقاتلات البريطانية من مجموعة الجنوب الشرقي والتي تحت قيادة الفيس مارشال بارك بتدمير ٤٥ طائرة المانية وخسرت ١٣ طائرة. أما في الصدام الرئيسي الثاني فقد ستومبف سدس قواته ، وهكذا لم يتمكن بعد ذلك إلا أن يلعب دورا ثانويا في العمليات . وفيما بين ١٦ — ١٨ أغسطس عانى الألمان مرة أخرى من الخسائر الجسيمة ، ٢٣٦ طائرة في مقابل ٩٥ طائرة بريطانية . وكانت هناك ميزة يتمتع بها القوات الجوية الملكية وهي أن الطيارين لم يفقد معظمهم مع طائراتهم بل كانوا يهبطون بالمظلات بسلام عند تدمير طائراتهم ، بالإضافة إلى سرعة إنتاج الطائرات البريطانية . وأدرك جورنج الآن خطأه بعد تركيز كل قواته لهزيمة القوات الجوية الملكية في الجو .

وفي المرحلة الثانية بين ١٩ أغسطس حتى ٦ سبتمبر كان هدفه الرئيسي تدمير القوات الجوية الملكية في الجو ، ولتنفيذ هذا دفعت مقاتلات كسلرينج أثناء النهار وقاذفات شبيرل خلال الليل ، ولم يقع بارك في الفخ والمخاطرة بكل قوته ضد المقاتلات بل واصل إعتراضه للقاذفات الألمانية .

موسوليني وغيرته من نجاح الألمان

وبدأت المرحلة الثالثة في أوائل سبتمبر ، عندما تركز كل الهجوم الألماني على لندن. وتكلم هتلر ذاكراً بالتحديد كلمة « الإفناء »

وفي ٧ سبتمبر هاجم كسلرينج لندن بـ ٣٠٠ قاذفة و ٦٠٠ مقاتلة . وتم إسقاط معظم القنابل مسببة دماراً فادحاً وخسارة جسيمة في أحواض السفن . وقد إشتبك مع العدو ٢١ سرباً مقاتلا من القوات الجوية الملكية والتي كبدت الألمان مرة أخرى خسائر كثيرة في الطائرات أكثر مما أوقعوه من خسائر في الطائرات البريطانية .

وإستمرت الغارات الألمانية وبلغت ذروتها في قتال ١٥ سبتمبر ، في هذا اليوم دفع كسلرينج كل قواته بواقع غارة في الصباح وأخرى بعد الظهر ، وفقدت قاذفات كسلرينج

عشرها ، بينما أجبرت المقاتلات الألمانية على الهرب . وإعترفت القوات الجوية الألمانية بهزيمتها من المقاتلات البريطانية .

وفى ٢١ أكتوبر ألغى هتلر خطته للغزو . وعبر تشرشل عن إمتنانه لرجال القوات الجوية الملكية كالآتى : — « لم يحدث أبداً فى ميدان الصراع البشرى ، مثل هذا الدين الكبير جداً ، الذى يدين به كثيرون جداً إلى عدد قليل جداً » . وواصلت القوات الجوية الألمانية القصف الليلى أثناء الشتاء والربيع التاليين ، ولكن ليس الآن بغرض التمهيد للغزو ، وإنما بغرض تعطيل الإنتاج وتحطيم الروح المعنوية للمدنيين .

وعانت معظم المدن الرئيسية معاناة هائلة ، وخاصة مدينة « كومنترى » . ولكن رغم كل ذلك لم يحقق الألمان هذه الأغراض الاستراتيجية .

وفى منتصف مايو ١٩٤١ بدأت القوات الألمانية فى النظر فى إتجاه روسيا ، إذ أن هتلر قرر أن يضرب هذا الشعب فى يونيه . ولقد كانت معركة بريطانيا صدمة لألمانيا ، ولكن رغم هذا ، قامت قوى المحور بعد ذلك بتوسيع إستراتيجيتها . وهوجمت مصادر قوة بريطانيا . فقد قصفت قواعد ومراكز الصناعة ، بينماهوجمت جواً وبحراً المواصلات البحرية البريطانية .

وفى سبتمبر ١٩٤٠ بدأت إيطاليا هجومها فى شمال أفريقيا ، وفى أكتوبر غزت اليونان، وكان على الألمان مساعدتهم بسرعة فى كلتا المنطقتين . وربما كان الدافع لموسولينى هو غيرته من نجاح الألمان .

ولكن الحرب فى مسرح البحر المتوسط كانت لها قيمة أستراتيجية حقيقية للمحور ، إذ أنها ضربة بعيدة المدى لمواصلات الإمبراطورية البريطانية . وكانت إستراتيجية المحور حتى هذه النقطة جسورة ، وواقعية وناجحة ولكن إلى حين .

روميل وحرب الصحراء (أنظر اللوحة رقم ٥٠)

وبعد ذلك ، فى ٢٢ يونيه ١٩٤١ قامت ألمانيا بالهجوم على روسيا ، وهذا خطأ إستراتيجى رئيسى والذى سوف يكون لدى الكثير مايقولونه بخصوصة .

وفى ١١ ديسمبر ١٩٤١ أعلنت ألمانيا الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية ،

ويتعذر فهم دافع هتلر فى جر ألمانيا إلى هوة الخطر الممثلة فى إعلان الحرب على أقوى دولتين فى العالم وفى آن واحد .

ربما كان يخشى من الهجوم عليه ، أو ربما إستبد به جنون العظمة . ولم تكن هناك صلة كبيرة بين الحرب التى دارت فى الغرب وتلك التى بدأت فى الشرق الأقصى عندما هاجمت اليابان الولايات المتحدة فى « بيرل هاربور » فى ٧ ديسمبر ١٩٤١ . وكانت هناك معاهدة بين ألمانيا واليابان ، ولكنهما من الوجهة العلمية لم يوحدا عملياتهما مثل ما عمل الحلفاء .

وحيث أنه كان لدى كل منهما أعداء مشتركين فقد عمل كل منهما إلى حد ما فى شغل خصوم الآخر ، هذا بالرغم من أن روسيا واليابان لم تحاربا بعضهما مطلقاً . وأصبح الآن على هتلر أن يحارب ليس فقط الإمبراطورية البريطانية فحسب وإنما روسيا والولايات المتحدة الأمريكية أيضاً .

وأخذ قادته العسكريون ينظرون إلى المشكلة بأمل ضئيل وخاصة بعد أن ثبت أن إحدى قوى المحور وهى إيطاليا أضعف من أن يعتمد عليها . وكان لدى إيطاليا قوات بحرية وجوية قوية فى البحر الأبيض المتوسط ، وأيضاً كان لديهم جيش كبير فى ليبيا .

وفى ١٣ سبتمبر ١٩٤٠ بدأت القوات الإيطالية زحفها من برقة فى إتجاه مصر وبعد إستيلائها على السلوم واصلت تقدمها حتى سيدى برانى حيث توقفت . وقرر ويفل القائد العام البريطانى ، بالرغم من قواته الأقل كثيراً من القوات الإيطالية ، وجوب التصدى بشجاعة للعدو الذى يهدد مصر .

وقامت قوة الصحراء الغربية بالهجوم تحت القيادة الفعلية للميجور جنرال « أوكونور » على الإيطاليين .

وخلال ليلة ٨ — ٩ ديسمبر تمكن الهجوم من إختراق خط التحصينات الإيطالية(١) وإستولوا عليها الواحد بعد الآخر . وبعدذلك بليلتين واصلت قوات « أوكونور » إختراقها

---

(١) كان الموقع الدفاعى الإيطالى مملوء بالعيوب التكتيكية فكان غير محصن ولا مدافع عنه جيداً مما سهل للانجليزالإستيلاء علية وبسرعة . « المعرب »

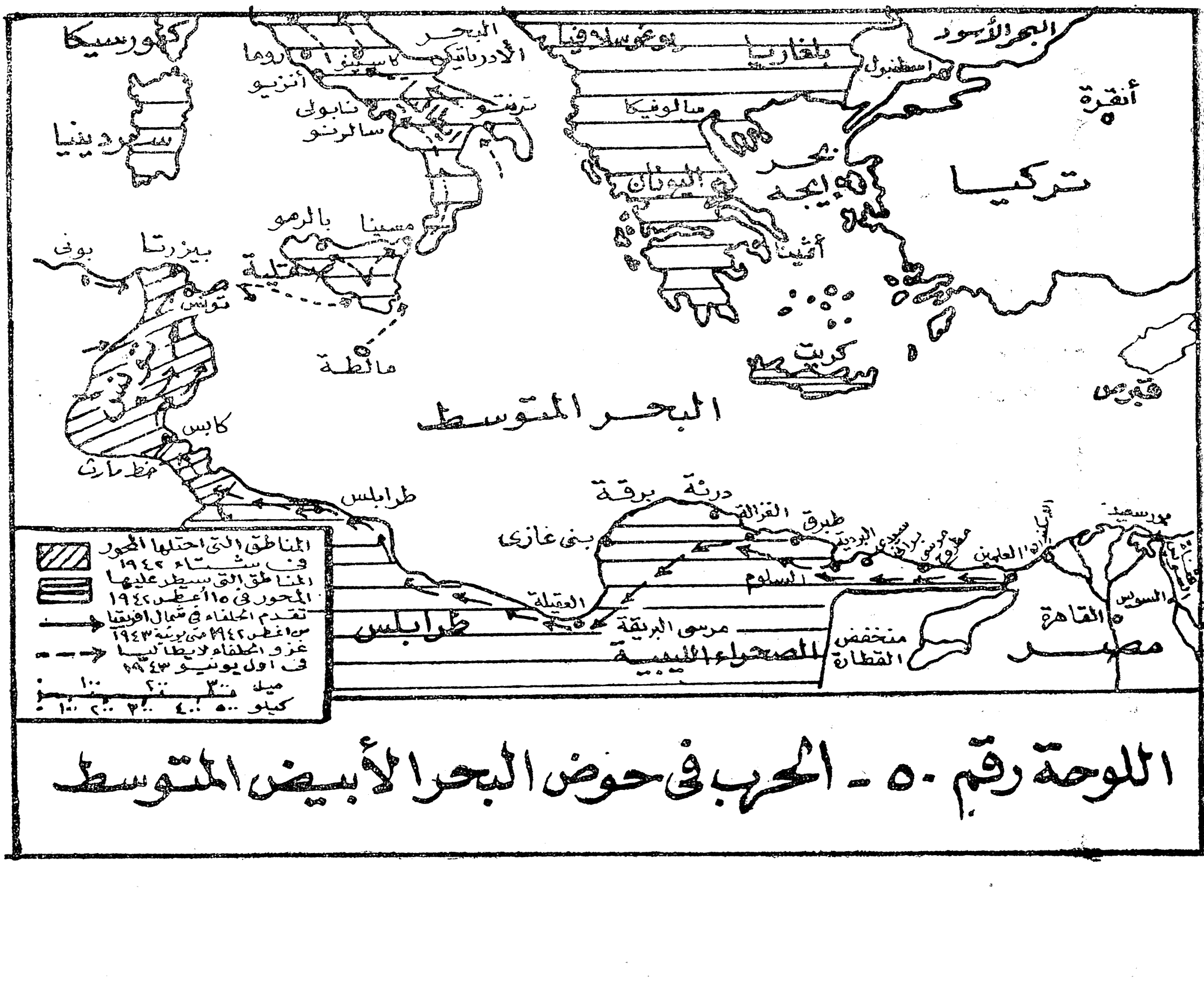

اللوحة رقم ٥٠ - الحرب فى حوض البحر الأبيض المتوسط

إلى البحر غرب سيدى براني لمنع إنسحاب القوة الإيطالية الرئيسية . ذلك الهجوم الذى بدأ كإغارة وتصاعد حتى تحول إلى حملة .

وتم الإستيلاء على طبرق فى ٢٢ يناير ١٩٤١ ، وتقدم البريطانيون مرة أخرى للأمام بجسارة وتم الإستيلاء على « مرسى البريقة » و « العقيلة » فى ٢ فبراير . وتمكنت القوات البريطانية المكونة من فرقتين من تدمير القوات الإيطالية المكونة من عشر فرق ، وتم أسر ١٣٠٫٠٠٠ و ٣٨٠ دبابة و ٨٤٥ مدفعاً بينما خسر الإنجليز ٥٠٠ قتيل و١٫٤٠٠ جريح . وكان من عوامل النجاح ، الشجاعة وخفة الحركة ، وفوق كل ذلك قيادة « أوكونور » والتعاون الوثيق المتبادل بين الأسلحة الثلاثة .

وهزم الايطاليين أيضاً فى شرق أفريقيا وفى أريتريا والحبشة نتيجة خفة الحركة العالية والاندفاع بقوة بالرغم من صغر الجيوش البريطانية المهاجمة عن القوات المدافعة الايطالية .

وخلال نفس الفترة ألحق أسطول الأدميرال « كاننجهام[1] » خسارة فادحة فى البحرية الايطالية .

وفى ١٥ أكتوبر غرقت ثلاث مدمرات إيطالية ، وفى ١١ نوفمبر قامت طائرات الأسطول بإغراق ثلاث بوارج إيطالية بالطوربيدات وذلك فى ميناء « تورنتو » .

وفى ٩ فبراير قصفت جوا أحواض السفن فى جنوة ، وفى ١٩ مارس وفى إشتباك خارج « كاب ماتابان » دمر « كاننجهام » ثلاث طرادات ومدمرتين ، بخسارة طائرتين فقط . كل ذلك كان نجاحاً مشجعاً . ولكن فى ١٢ فبراير ١٩٤١ وصل الجنرال روميل إلى طرابلس ومعه عناصر متقدمة من فيلقه الأفريقى ، وبدأت الأحداث تنعكس ضد البريطانيين مرة أخرى . وفى نهاية مارس هاجمت قوات روميل المدرعة قوة الصحراء الغربية فى « مرسى البريقة » وأجبرت البريطانيين[2] على الإنسحاب . ولسوء الحظ وقع « أوكونور » فى الأسر أثناء الأنسحاب . وفى ١٣ أبريل طوق روميل طبرق وتم حصارها

(١) كان هذا الأسطول متمركزاً فى الإسكندرية .

(٢) لقد ضعفت قوة الإنجليز لسحب قوات منها للعمليات فى اليونان .

« المعرب »

ولكنها صمدت . وفى ٢٨ أبريل عبر روميل الحدود المصرية وإحتل «ممر حلفايا» «والسلوم». وخلال هذه الفترة من الكوارث البريطانية إتخذت الخطوات الأولى بإستطلاع مواقع دفاعية فى منطقة العلمين ، لتستخدم فى حالة حدوث أسوأ الإحتمالات . وقام ويفل بهجمات عديدة ولكن بدون جدوى ، وإستمر روميل مسيطراً على مسرح الصحراء .

وفى أول يوليه ١٩٤١ عين ويفل قائداً عاما فى الهند ، وعين «أوكنلك» قائداً عاما للشرق الأوسط، فى أكتوبر ١٩٤٠ غزا الإيطاليون اليونان، ولكنهم فشلوا هناك أيضاً. وكان على الألمان التدخل فأجتاحوا يوغوسلافيا واليونان فى ربيع ١٩٤١ . وفى ٢٠ مايو غزا الألمان جزيرة كريت ، وكانت طريقة الغزو إسقاط مظليين[1] بعد قصف جوى للدفاعات المضادة للطائرات ثم أتبعوا هذا الإسقاط بقوات منقولة بالطائرات الشراعية وكانت عملية جريئة وماهرة بالرغم من أنها كلفت الألمان كثيراً . وسقطت كريت فى أيدى الألمان ، وقد تطلبت عمليتى اليونان وكريت جلب قوات برية من الصحراء وأيضاً قوات جوية . وقد إعتبرت دائماً التدخل البريطانى فى اليونان خطأ إستراتيجياً ، لأنه أضعف الجبهة البريطانية جنوب بنى غازى ، وفى النهاية طردت القوات البريطانية من اليونان وكريت وبرقة .

هتلر وروسيا (العملية باربار وسيا) (أنظر اللوحة رقم ٥٠ ، ٥١)

والآن يجب علينا الآن دراسة الهجوم الألمانى على روسيا ، ذلك الهجوم الذى أطلق عليه الأسم الكودى « باربار وسا » ، وبدأ الهجوم فى ٢٢ يونية ١٩٤١ وتم بسرعة كبيرة وبتقدم واسع . وكانت خطة العمليات هى قيام الألمان بعمليات حصار فى سلسلة من الجيوب فى المناطق النائية بواسطة ضربات تتلاقى، وتقوم بها القوات فى تشكيل أرتال، على ألا تستدرج القوات الألمانية إلى الأراضى الفسيحة المكشوفة للدولة. وكان لدى الألمان ١٤٥ فرقة ، منها ٢٠ فرقة مدرعة ، وكذلك بعض قوات من الدول التابعة لهم . وكان على هذه القوات مهاجمة ١٥٨ فرقة روسية و٥٥ لواء مدرع محتشدة بالقرب من الحدود . ونجحت طريقة الضربات المتلاقية نجاحاً كبيراً ، وتم أسر قوات روسية وبأعداد كبيرة خلال عام ١٩٤١ . وقام جوديريان بقيادة فرقة مدرعة واحدة فى أبرع عمليات الحرب، وذلك فى ضربته الموجهة إلى «سمولنسك

(١) أصبح هذا الأسلوب معمما فى جميع الجيوش المتحضرة فى الوقت الحاضر . «المعرب»

وتطويقه القوات المعادية[1] فى هذه المنطقة . ووقعت المعارك الرئيسية عند « كييف » و « فيازما برياتسك » و « بحر أزوف » . ولكن قبل حلول الشتاء ، وبعدأن قطع الألمان ٧٠٠ ميل ووصلوا إلى مسافة ١٥ ميلا من موسكو ، صدرت أوامر هتلر لقادته بعدم القيام بضربة نهائية على مراكز المواصلات الروسية والعاصمة الشيوعية . وتولى هتلر القيادة العليا المباشرة من الفيلد مارشال « فون براوشيتش » وإنسحب الألمان بعض الشىء إلى الخلف لتمضية فصل الشتاء . وكانت الوحدات الألمانية غير مجهزة لمقابلة شتاء روسيا الرهيب[2] وعانت أيضاً كثيراً من الهجمات المضادة للروس ، ولكنها تحملت مشاقاً صعبة بثبات وجلد رائعين . وفى ربيع ١٩٤٢ ، إمتدت الجبهة الشرقية من « لينينجراد » إلى « روستوف » على نهر الدون ، وبالتالى كان يحتل الألمان أفضل مناطق القمح الروسية وأيضاً مناطقها الصناعية الرئيسية . وفى البداية رحب الشعب الروسى بالألمان كمحررين له من حكم ستالين ولكن هتلر فشل فى الإستفادة من ذلك ، وقرر أن أفضل وسيلة للتهدئة هى القسوة والتدمير . وتمت عمليات إخلاء جماعية للسكان بواسطة « وحدات الأمن » بأوامر من « هتلر » ومن ذلك الوقت ومابعده أصبح التعذيب والقتل من أكثر الأمور شيوعاً . وهكذا كانت معاملة الألمان مع الذين هزموهم أو أسروهم .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه السياسة ، هى حرب للمقاومة السرية المهلكة والتى إمتدت فى كل المناطق المحتلة فى أوروبا الشرقية ، وقاسى الألمان منها الكثير . وإستأنف الألمان الهجوم فى عام ١٩٤٢ ، قاصرينه على الجبهة الجنوبية من « كورسك » حتى « خاركوف » وزحف للأمام حوالى ٥١ فرقة ألمانية يدعمها تفوق جوى كامل ، إلى « فرونز » على الجانب الأيسر ، وإلى « ستالينجراد » فى الوسط ، وذلك كتوطئة لهجوم حاسم فى القوقاز بغرض الإستيلاء على حقول البترول . ولكن قبل أن يتم ذلك ، قام الروس بهجومهم المضاد عند « ستالينجراد » . وقد صمد الروس قبل ذلك أمام هجوم الألمان عند « ستالينجراد » باذلين فى ذلك مقاومة عنيفة . وخلال هذا الوقت أخذت القوة الروسية تزداد بسرعة عن طريق الإنتاج المتزايد

---

(١) لم يكن الروس مجهزين بالمعدات أو حتى الأفكار التى تمكنهم من مواجهة تكتيكات الهجوم الخاطف .

(٢) كانت القوات الألمانية ترتدى الملابس الصيفية ولم يجهز لها ملابس لشتاء روسيا وذلك لإعتقاد هتلر بأن حملة روسيا ستنتهى قبل حلول الشتاء . « المعرب »

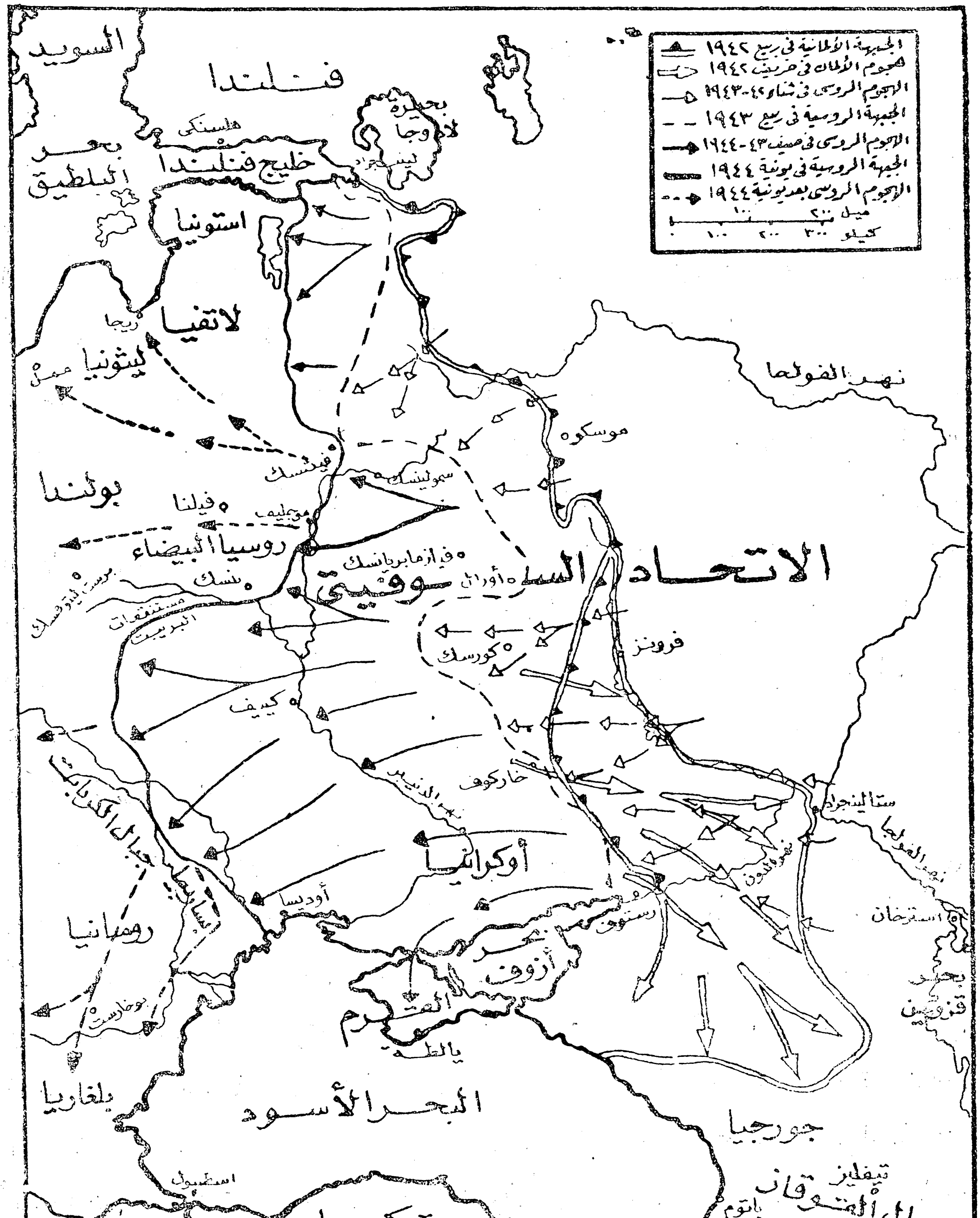

اللوحة رقم ٥١ - الحرب في الجبهة الشرقية

للمصانع الواقعة خلف مناطق القتال ، وأيضاً بواسطة المساعدات الأمريكية والبريطانية التى دفعت لهم عن طريق إيران وعن طريق البحر حول الرأس الشمالى للنرويج ، فى نفس الوقت توالى رجال أكفاء قيادة الجيش الأحمر . وفى نوفمبر ١٩٤٢ ، وبعد أن دعموا بقوة تحول الروس إلى الهجوم تحت قيادة المارشال زوكوف ، هذا الرجل العسكرى الممتاز والذى أعرفه جيداً ، وأغلق طرفى الكماشة على ١٨ فرقة ألمانية ورومانية عند ستالينجراد ، ولم يسمح لهم بالإنسحاب . وفى ٣١ يناير ١٩٤٣ إستسلمت القوات المتبقية من الجيش السادس الألمانى بقيادة الجنرال « باولوس » . وفى نفس الوقت قام الروس بفك حصار ليننجراد . وإضطر الفيلد مارشال فون ليست إلى سحب مجموعة الجيوش الألمانية من القوقاز ، حتى يتفادى وقوعها فى الفخ ، وأيضاً لكى يتمكن من إصلاح جبهة الدون . وقد تم هذا الإنسحاب من خلال « روستوف » بمهارة عظيمة .

وكان الروس فى ذلك الوقت يتقدمون بخطوات واسعة حتى وصلوا إلى «خاركوف»(١) فى منتصف فبراير ١٩٤٣ .

ومن الجدير بالذكر أن الروس فى تقدمهم نحو « خاركوف » إضطروا للتوقف لفترة ، لأن «مانشتين » كان موطداً أقدامه فى هذه المنطقة ، كما جعل ذوبان الثلج فى الربيع ، التحركات صعبة . وفى يولية قام الألمان بأقوى هجوم مدرع فى الحرب عند « كورسك » ، ولكن الروس صمدوا بصلابة . وخلال هذا الوقت كان الجيش الروسى تزداد قوته بالتدريج فى العتاد والأعداد ، تحت قيادة قادة جدد ، وعلى الخصوص « كونيف » و « ركوسوفكسى » اللذين أعرفهما . ولم تعد الآن القوة الألمانية هى ذاتها القوية كما كانت فى عام ١٩٤١ . وفى سبتمبر وصل الروس إلى « سمولنسك » فى الشمال ، وعلى نهاية عام ١٩٤٣ وصلوا إلى « كييف » فى الجنوب . وبدأ المد فى التحول فى الجبهة الروسية نحو أماكن أخرى . ففى الشهور الستة التالية إعتباراً من أكتوبر ١٩٤٢ (معركة العلمين) تم طرد الألمان من شمال أفريقيا ، وأتبع الحلفاء هذا النصر بالإستيلاء على جزيرة صقلية وبغزو إيطاليا .

وفى هذا الوقت كان الأمريكيون قد قطعوا شوطاً كبيراً فى بناء قوتهم الضخمة والتى كان

---

(١) على مسافة ٣٥٠ ميل إلى الغرب من ستالينجراد . « المعرب »

الإحتياج إليها شديداً . وفى شتاء ٤٢ — ١٩٤٣ تصاعد قصف الحلفاء الجوى لألمانيا . وفى صيف ١٩٤٣ تحولت الحرب فى الأطلنطى بشكل حاسم فى صالح البريطانيين والأمريكيين.

تشرشل يقابل روزفلت

وفى يناير ١٩٤٣ وعلى ثقة بالنصر ، تقابل تشرشل مع روزفلت فى « كازابلانكا » لتحديد إستراتيجيتهما، وأعلن كلاهماأن سياسة الحلفاء تهدف إلى الحصول بالقوة على «إستسلام» ألمانيا وإيطاليا واليابان بدون قيد ولا شرط .

وقد إعتبرت دائماً هذا القرار خطأ مفجعاً ، وما أدى إليه هـذا القرار لخصه المرحوم اللورد هانـكى فى كتابه « السياسة — تجارب وأخطاء » قائلا : — « لقد زاد هذا القرار من مرارة الحرب ، وأصبح لا مناص من القتال حتى النهاية ، وأغلق الباب فى وجـه أى إحتمال ليقدم أى من الجانبين شروط أو البدء فى مفاوضات ، معطياً للألمان واليابانيين شجاعة اليائس ، مقوياً من مركز هتلر « كأمل ألمانيا الوحيد » ، ومدعمابدعاية «جوبلز » ، جاعلا من النزول فى نورماندى أمراً محتوماً ، وما ترتب على ذلك من تقدم قاسى منهك ومهلك ، عبر شمال فرنسا وبلجيكا ، ولوكسمبورج وهولنداً وألمانيا .

وأدت إطالة الحرب إلى تمكين ستالين من إحتلال كل شرق أوروبا وإسدال الستار الحديدى عليها .

وقد أدى القضاء على أكثر العناصر كفاءة فى ألمانيا واليابان إلى تأخير إعادة الحياة وإعادة التعمير . ومن سوء الحظ أيضاً أن تلك السياسة لم تفعل أى شىء لتقوية الجانب المعنوى للحلفاء .

ولـكن منذ أن تحولت الحرب إلى صالح الحلفاء أصبح التسليم غير المشروط لـكل أعدائهم[1] هو هدف الحلفاء الإستراتيجى . وأقترح الآن أن نتطلع أكثر قرباً إلى جوانب معينة من هذه التطورات الإستراتيجية .

لقد كان الهجوم على روسيا هو خطأ هتلر المميت ، فقد كان هذا حماقة مزدوجة منه أن

(١) فيما يختص بألمانيا الهتلرية ، فعندما إنتهت الحرب لم تكن هناك حكومة يمكنها الاستسلام ، بل مجرد قيادة عليا فقط . « المعرب »

يقوم بذلك قبل أن ينتهى الألمان بنجاح فى الحرب ضد بريطانيا فى البحر المتوسط وفى شمال أفريقيا .ولو أرسل هتلر جزء من القوات والمعدات التى إستخدمت ضد الروس إلى أفريقيا ، وخاصة الفرق المدرعة ، فكان من المحتمل إمكان إستيلاء الألمان على مصر وقناة السويس بل كان من الممكن إنشاء معقل لهم فى الشرق الأوسط .

الرمية الاخيرة للمقامر (أنظر اللوحة رقم ٥٠)

وخلال كل هذه الحرب ، إعتمد النجاح فى الحرب فى الصحراء الأفريقية بطبيعة الحال على القيادة ، ولكنه إعتمد أيضاً بدرجة ملحوظة على عاملى المعدات والأمداد ، وتلك هى المشكلة التى سأقوم الآن بمناقشتها .

ولقد كانت التغيرات الهامة التى طرأت على ميزان هذين العاملين هى السبب الرئيسى فى تحرك كلا الجانبين جيئة وذهابا عبر الصحراء . وهزم ويفل الإيطاليين عام ١٩٤٠ بقوات أقل عدداً ولكنها أحسن تجهيزاً . ثم وصل روميل ومعه فيلقه الأفريقى ، وتغير الميزان إلى صالح المحور .

وفى عام ١٩٤١ وحتى خريف ١٩٤٢ توفر لدى الألمان تفوقاً فى المعدات حيث كانت دباباتهم أفضل تسليحا من الدبابات البريطانية والتى كانت مدافعها أقل قدرة . وعلى سبيل المثال كان المدفع البريطانى المضاد للدبابات ٢ رطل ، بل وحتى المدفع ٦ رطل أقل قوة من المدفع الألمانى ٨٨ مم والذى يستطيع إختراق درع سميك للدبابة على مسافة ٢٠٠٠ ياردة . وفى الحقيقة كان هذا المدفع مدفعاً مضاداً للطائرات ، ولكن وجد روميل أنه يصلح كمدفع مضاد للدبابات وله تأثير فعال عليها ، وقد إستخدمه عادة فى هذا الواجب . وأمثلة أخرى لتفوق المعدات الألمانية ، هو خزانات البترول والمعروفة باسم « جيريكان » ، وكذلك ناقلات الدبابات والتى كانت توفر إستهلاك الجنزير .

ومن الجدير بالذكر أن المعدات التى تعطى تفوق فى خفة الحركة وقوة النيران لها قيمة كبيرة فى الحرب فى الصحراء المفتوحة . نظراً لعدم إعتمادها على الدفاعات الثابتة . وأفضل الوسائل فى كسب المعركة هى السرعة والمناورة الواسعة والتفوق فى قوة المدفعية والمدرعات . وقد شبه ويفل فى ذات مرة تكتيكات الحرب فى الصحراء بالحرب فى البحر .

وكانت الألغام تزرع بكثرة فى الصحراء تماماً مثلما كانت توضع فى البحر . ولقد إمتلك الألمان التفوق فى المعدات ، ولكنهم لم يتفوقوا دائماً فى الإمداد ، والذى كان من العوامل ذات التأثير الكبير . وأدى إحتفاظ البريطانيين بطبرق بعد كارثة مارس ١٩٤١ إلى حرمان روميل من أحد القواعد الهامة .

أما بالنسبة لبريطانيا ، فكانت مالطة نقطة حيوية لإمداد البريطانيين وفى نفس الوقت قاعدة يمكن أن تخرج منها الغواصات والطائرات لمهاجمة خطوط إمداد العدو . ولم يلق الألمان إنتباهاً كافياً لمالطة فى عام ١٩٤١ ، ولذلك فى أغسطس من هذا العام فقد الألمان والإيطاليون ٣٥٪ من إمداداتهم وتدعيماتهم عند محاولتهم عبورها البحر المتوسط ، وإرتفع الرقم فى الخريف إلى ٧٥٪ .

وفى الفترة بين أكتوبر ١٩٤١ وأوائل يناير ١٩٤٢ ، إفتقر روميل نسبياً إلى الإمدادات ، ولذلك إستطاع «أوكنلك» على إرغام روميل مع دفعه للخلف إلى العقيلة ، ملحقاً به خسائر جسيمة فى الرجال والمدرعات ، وعندئذ أدرك الألمان مدى ما لعامل الإمداد من أهمية حيوية .

وفى شتاء عام ١٩٤١ تحولت ٢٥ غواصة من الأطلنطى إلى البحر المتوسط ، وفى ديسمبر بدأ المحور هجوماً قوياً على مالطة ، ونتيجة لهذا الهجوم ، لم تفقد قوات المحور فى يناير ١٩٤٢ طناً واحداً من الإمدادات خلال عبورها البحر المتوسط ، بينما بلغت خسائر البحرية البريطانية حداً فادحا فى هذه الفترة .

وهنا بدأ دور البريطانيين فى المعاناة من نقص الإمدادات . فقد كان «أوكنلك» قد تقدم لمسافة طويلة ، وأصبح جيشه بعيدا جداً عن قاعدته الإدارية فى مصر .

وفى نهاية يناير ١٩٤٢ عاود روميل الهجوم ، ولكنه توقف عند خط الغزالة ، ثم هاجم ثانية فى أواخر مايو وإستولى على طبرق فى ٢١ يونيه ، وأصبحت مالطة فى خطر عظيم . وواصل روميل زحفه بسرعة تميزت بالمهارة والجرأة . وطرد البريطانيين من مرسى مطروح حتى قبل أن يتمكنوا من تجميع شملهم .

وفى نهاية يونيه ١٩٤٢ وصل إنسحاب الإنجليز حتى خلف موقع العلمين ، حيث أنشأوا

موقعاً دفاعياً صعب الإجتياز بين البحر ومنخفض القطارة ، وكان مواجهة الموقع الدفاعى ٣٠ ميلا فى خط مستقيم . وخلال شتاء ٤١ — ١٩٤٢ كان على « أو كنلك » أن يرسل بعض قواته للحرب ضد اليابان ، وبطبيعة الحال إفتقر إلى القوات والمعدات ليسدد ضربته إلى روميل . وعلى كل حال صمد موقع العلمين بصلابة فى وجه هجمات روميل فلم يكن لهذا الموقع أجنابا مفتوحة . ومرة أخرى تأرجح بندول الإمدادات مع الألمان وهم على مسافة ٦٠ ميلا فقط من الإسكندرية ، ووجد جيش روميل نفسه فى نهاية خط إمداد طويل . وقام كل من «أو كنلك و«تيدر»[1] باستغلال هذه الفرصة بمهارة وذكاء ،وقامت القوات الجوية بقصف مركز الإمداد الألمانى فقط على طول الشاطىء ، فى مرسى مطروح والبردية وطبرق ، حتى أصبحت أقرب قاعدة إمداد لروميل هى بنى غازى والتى تبعد ٦٨٠ ميلا إلى الغرب من العلمين ، وأكثر من ذلك فقد أجل هتلر التصفية النهائية لمالطة ، مما أدى إلى تحسين موقف الإمداد البريطانى .

ووصلت قوات إضافية وأرسل الأمريكان ٣٠٠ دبابة شيرمان و ١٠٠ مدفع ذاتى الحركة ، وأصبح الميزان متكافىء مع الألمان .

وكان هذا هو الموقف فى منتصف أغسطس ، عندما حل الجنرال « الكسندر » محل « أوكنلك » كقائداً عاماً للشرق الأوسط ، وعينت أنا قائداً للجيش الثامن وقد وضحت بجلاء للجيش الثامن عن مدى تصميمى على هزيمـــة روميل وجيشه مرة واحدة وللأبد ، وذلك بطرد قوات المحور كلية من أفريقيا . ولكنى قررت فى نفس الوقت ألا أبدأ المحاولة حتى تكون قواتى مستعدة تماماً ، وهو ما كنت أذكره كثيراً للضباط والجنود . فكان يجب أن تتوفر لنا الإمدادات الكافية ليس فقط لهزيمة روميل فى العلمين، ولكن أيضاً لمطاردته غرباً حتى نستطيع فتح موانى طبرق وبنى غازى . وبناءاً على ذلك أمضيت شهرين فى بناء الجيش وروحه المعنوية . وقمت بإدخال نظام فعال وجديد فى القيادة ، بحيث يتولى رئيس الأركان كل تفاصيل أعمال القيادة بينما أتفرغ أنا للتركيز على المشكلة الرئيسية الخاصة بهزيمة خصمى الشهير روميل .

(١) قائد القوات الجوية البريطانية بمسرح الشرق الأوسط . « المعرب »

وفى ٣٠ أغسطس قام روميل بالهجوم على الجيش الثامن ، وهو هجوم بمثابة الرمية الأخيرة للمقامر بغية الوصول إلى القاهرة والإسكندرية .

وكان هدفه تبه « علم حلفا » والتى تمثل المفتاح الحقيقى لموقع العلمين ، وكنت متوقعاً مثل هذا الهجوم وقد فكرت بعمق فى إنتصارات روميل السابقة فى الصحراء ، ولاحظت أن تكتيكيه المفضل هو إغراء الدبابات البريطانية على مهاجمة مدرعاته والتى تكون محمية بستارة من المدافع المضادة للدبابات ، حيث يتم تدمير جزءاً كبيراً من المدرعات البريطانية ، ثم يقوم بعد ذلك بدفع مدرعاته لتوجيه ضربة قاضية لما تبقى من المدرعات البريطانية . وقررت أن ألعب معه بنفس تكتيكه .

ففى معركة «علم حلفا» تلقت قواته ضربات عنيفة من المدافع المضادة للدبابات البريطانية وكذلك من الدبابات المتمركزة فى مواقع دفاعية مجهزة ، حتى إضطر روميل إلى إيقاف القتال والإنسحاب وبذلك كسبت أولى معاركى مع روميل ، وكانت معركة دفاعية . فى ذلك الوقت لم يكن قد مضى على وقت طويل فى الصحراء ولكن كان يدور بخلدى نقطة راسخة ، بأن حرب الصحراء لا يناسبها أن يتم السيطرة عليها من بعيد . وقررت خلق قيادة واضحة، تمكننى من أن أقبض بقوة على زمام الجيش الثامن بحزم وبطريقة تعتمد على وضوح الرؤيا حتى لا يكون هناك مجالا للشك فى أى شيء .

<u>دحر جيش روميل فى شمال أفريقيا</u> (أنظر اللوحة رقم ٥٠)

وبعد معركة «علم حلفا» مضيت فى تحضيراتى إستعداداً للهجوم الكبير الذى صمت أن يكون هو بداية لنهاية روميل فى أفريقيا .

وقد توفر لنا التفوق الكبير فى القوات والمدرعات كما كان لدينا التفوق الجوى بنسبة ٣ : ١ ، فى نفس الوقت كان الألمان تفتقر بشكل كبير إلى البترول . ولما كانت المفاجأة الإستراتيجية غير ممكنة فقد خططت للحصول على المفاجأة التكتيكية . وقمنا بتنفيذ خطة خداع متقنة بواسطة إقامة منشآت هيكلية مع تنفيذ بعض العمليات المتنوعة المضللة وذلك حتى نقنع روميل بأن هجومنا الرئيسى سيكون فى الجنوب بينما كنا سنوجهه فى الشمال . وفى الحقيقة كانت خلاصة الخطة هى فتح ثغرتين فى جبهة العدو فى الشمال حيث يقوم المهندسون

بتطهير الثغرات خلال حقول الألغام مستخدمين فى ذلك مكتشفات الألغام مع معاونة الدبابات الدقاقة[١] ، ثم تتقدم فرق المشاة خلال الثغرات على أن تتبعها الفرق المدرعة[٢] . وقدرت أن فرق روميل المدرعة سوف تقوم بالهجوم على فرق المدرعة وهى فى مواقعها المجهزة وذلك لإنقاذ مشاتها من التدمير .

وأثناء هذا القتال تقوم فرق المشاة البريطانية بهزيمة مشاة العدو بعمليات « تفتيت » على الأجانب وفى المؤخرة .

وقد تم ذلك تماماً كما قدرت ، وقد بدأت معركة العلمين فى ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢ وكانت معركة قاسية ، وقد قوبل هجومنا بمقاومة يائسة ، وكانت الهجمات المضادة لمدرعات العدو عنيفة ، وقد إزدادت مقاومة الألمان فى الشمال حيث كان مخططا أصلا لعملية إختراقنا الرئيسى ، لذلك قررت أن تكون ضربتنا النهائية للاختراق إلى الجنوب قليلا وبالذات فى المنطقة التي يحتلها الإيطاليون من الموقع الدفاعى . وفى ٢ نوفمبر تمت هذه الضربة القاضية والتى تسمى « عملية سوبر تشارج » .

ولقد كتب الكثير عن معركة العلمين ، وفى الواقع فإن القليل جداً من المعارك الحديثة قد لقيت إلتفاتاً كبيراً من الكتاب البريطانيين مثلما لقيت هذه المعركة ، ولا يسمح لى الحيز هنا بمناقشة المعركة بالتفصيل[٣] .

وفى ٤ نوفمبر كان من المؤكد أن المعركة قد كسبت ، وإلى مدى بعيد كانت هذه المعركة فى نظر البريطانيين نقطة التحول فى الحرب ، وقد إستمرت هذه المعركة ١٢ يوماً أسرنا خلالها ٣٠٠٠٠ أسير من بينهم ٩ جنرالات ، بينما خسرنا حوالى ١٣٠٠٠ مقاتل من جميع الرتب ، وبعد ذلك بدأت المطاردة .

---

(١) الدبابات المجهزة لتفجير الألغام الموجودة فى الثغرات .

(٢) كانت على كل المدرعات البريطانية أن تحتل مواقع مجهزة على طرق الاقتراب خلف الموقع الدفاعى للمشاة الألمانية فى حين تقوم المشاة البريطانية بتدمير المشاة الألمانية الموجودة فى الموقع تحت ستر المدرعات الإنجليزية .

(٣) يمكن الرجوع لهذه المعركة فى قرارات هتلر المميتة التى سوف تنشر بعد سلسلة « الحرب عبر التاريخ » حيث يوجد جزء كامل يتكلم عن معركة العلمين ، ويمكن أيضا الرجوع إليها فى مذكرات روميل تعريب العميد فتحى النمر ، ويطلب من الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . « المعرب »

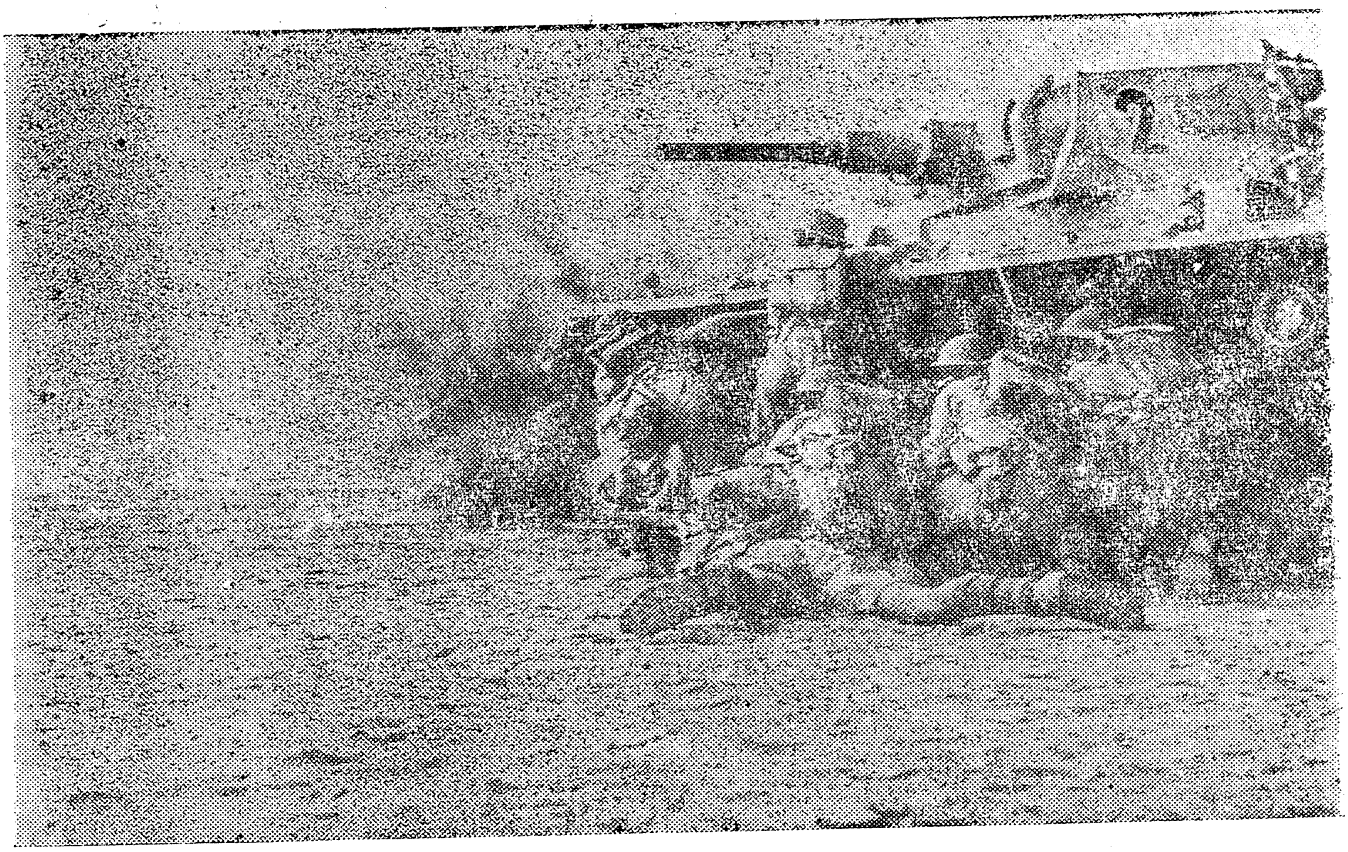

القوات المدرعة والمشاة البريطانية فى معركة العلمين وهى تقاتل فى تعاون وثيق

لقد إستطاع روميل قبل ذلك التخلص من المعركة لينسحب قبل أن يجبر على ذلك ، ولكن كان عادة إنسحابه فى ذلك الوقت لأسباب إدارية ، وعلى كل حال لم يحدث أن هزم روميل فى أى وقت أو فى أى معركة أثناء حرب الصحراء قبل ذلك ، ولكن ذلك قد حدث الآن . وظل هدفى قائماً والذى يتضمن طرده هو وقواته من أفريقيا . لقد أصبح فى ذلك الوقت يفتقر للوقود بدرجة كبيرة لدرجة أنه أصبح غير قادر على القيام بأى مناورة كبرى ، ولكنه كان قائداً ممتازاً . وقد قام بهجمات مضادة عديدة علينا ، كنا نعتبرها بعيدة الاحتمال .

وصممت على ألا تكون هناك عودة إلى الخلف بعد ذلك فى حرب الصحراء ، كما كنت غير مستعداً للقيام بأى مخاطرات فاشلة خلال المسيرة الطويلة إلى طرابلس ، وبعد ذلك إلى يونس ، علاوة على ذلك كنت أريد أقل خسائر ممكنة .

لقد أستغرق الأمر وقتاً طويلا لواصلة المطاردة ، بسبب الإرتباك فى منطقة الإختراق بعد المعركة ، علاوة على هطول الأمطار .

ولـكن عندما تحرك الجيش الثامن ، تحرك بسرعة ، واضعاً نصب عينيه باستمرار على النقط الحيوية للامداد فى طبرق وبنى غازى وطرابلس . ووصلنا إلى طرابلس فى ٢٣ يناير ١٩٤٣ ، وبمجرد فتحنا للميناء فلم يعد هناك أى خطر كبير فى المستقبل من فقدنا التفوق نتيجة نقص فى الإمدادات .

وفى نفس الوقت ، فى شهر نوفمبر نزلت قوات أنجلو — أمريكية تحت قيادة الجنرال أيزنهاور فى شمال أفريقيا الفرنسى ، وأصبح روميل الموجود فى تونس محصوراً بين قوتين . ولـكنه قد قام فى فبراير بتوجيه ضربات أليمة وحادة للأمريكيين فى منطقة « ممر كاسرين » .

ولـكن فى ٣٠ مارس هاجم الجيش الثامن عند «خط مارث» حيث طوق جناح الألمان الأيمن مجبره على الإنسحاب ، وكانت هذه بداية النهاية .

وفى ٣١ مايو ١٩٤٣ إستسلمت قوات المحور فى تونس . وتم تطهير البحر الأبيض المتوسط للملاحـــة الحلفاء بالإستيلاء على صقلية والتى تم إجتياحها فيما بين ١٠ يولية و١٦ أغسطس .

وبدأ غزو إيطاليا فى ٣ سبتمبر ، وسرعان ماإستسلمت القوات الإيطالية ، ولـكن القوات الألمانية فى إيطاليا قاومت بعنف .

أما تقدم الأمريكيون على الساحل الغربى ، والبريطانيون على جانب الأدرياتيك فقد ساده شىء من البطء بسبب حلول الشتاء فى إيطاليا .

القصف الجوى على ألمانيا

يجب على القارىء أن يعرف الآن بعض الشىء عن القصف الجوى على ألمانيا . فقد بدأ البريطانيون قصفاً إستراتيجياً ضد هذه الدولة فى مايو ١٩٤٠ . وحدد الغرض منه بعد ذلك فى مؤتمر « كازابلانـكا » فى يناير ١٩٤٣ بأنه : —

« تدمير وتعطيل متزايد للجهاز العسكرى والصناعى والأقتصادى لألمانيا ، وإضعاف

الروح المعنوية للشعب الألمانى حتى تصبح قدرته على المقاومة المسلحة ضعيفة للغاية » . وكان الهدف من القصف هو إتمام الحصار البحرى ، بضرب قواعد القوة الأقتصادية لألمانيا ، هذا القصف الذى جعل من صراع ٣٩ — ١٩٤٥ « حربا شاملة » . ولقد تمت أول غارة جوية فى ليلة ١٥ مايو ١٩٤٠ ، وذلك عندما قامت قوة بريطانية من ٩٩ قاذفة بمهاجمة أهداف السكة الحديدية وخزانات البترول فى الرور ، وإستمر القصف بعد ذلك طول عامى ٤٠ ، ١٩٤١ ، ولكن لم تكن النتائج كما كانت مأمولة .

وكان القصف النهارى غير مرغوب فيه نظراً لقوة المدفعية الألمانية المضادة للطائرات وأيضاً خوفا من المقاتلات الألمانية .

وبناءا عليه فقد تعين القيام بالغارات ليلا ، ولكن حتى ذلك جعله الألمان خطيراً جداً نتيجة لإستعانتهم بالرادار . وعلى أى حال فلم يمكن تحقيق الدقة على الأهداف المختارة . وفى المجموع كان تأثير القصف ضعيفاً على الإنتاج الكلى لألمانيا فى ذلك الوقت . وفى عام

مدينة هامبورج بعد قصفها بـ ٩٠٠٠ طن من القنابل

١٩٤٢ زادت كثافة الهجوم الجوى ،فقد دخل الأمريكيون الحرب . وبدأ فى أول مارس إستخدام أول قاذفات « لا نكستر » وهى طائرة قوية يعتمد عليها وذات أربع محركات . وفى فبراير إستلم المارشال الجوى « ماريس » قيادة كل القاذفات الهجومية البريطانية ، وإستطاع عن طريق ما يتمتع به من طاقة ومن نشاط أن يدخل التطوير والتحسين على أسلوب هذا الهجوم . فأرتفع بمستوى تدريب الملاحين وقاذفى القنابل ، وفى أغسطس ظهرت قوة « باثفيندر » ، وهى قوة من القاذفات الموسكيتو الخفيفة السريعة التى لها قدرة على المناورة . وكانت هذه القوة تسبق القاذفات من أنواع « اللانكستر » و « الستيرلينج » و « الهاليفاكس » ، لتحدد لهم الهدف بدقة . وفى عام ١٩٤٣ ظهرت أنواع عديدة من أجهزة الرادار للمساعدة فى الملاحة والتنشين . وفى مايو ١٩٤٣ تصدعت السدود فى كل من «سدى » و «موهن » و « أودر » بفعل الغارات التى قام بها سرب « جيبسون رقم ٦١٧ » والتى أعتبر عملا مثيراً للاعجاب . وألقيت ٩٠٠٠ طن من القنابل فى أربع هجمات رئيسية على « هامبورج » ثم تحول القصف إلى برلين بالغارات الأمريكية النهارية والغارات البريطانية الليلية . وقد أدى إصرار الأمريكيون على الغارات النهارية إلى فقد كثير من طائراتهم القاذفة من أنواع « الفورترس » و « الليبيريتور » خلال عامى ٤٢ ، ١٩٤٣ ، ولكن تغير الموقف بظهور الطائرة المقاتلة البعيدة المدى « ب ٥١ موستانج » .وفى عام ١٩٤٤ ، حصل الحلفاء على السيطرة الجوية فوق ألمانيا ، ولكن حتى فى عامى ٤٣ — ١٩٤٤ فالهجمات الجوية لم تحقق ما كان مطلوب تحقيقه من إصابة العدو بالشلل . وعلى أى حال ، فقد أدى قصف الحلفاء الجوى إلى دفع الألمان على التركيز على إنتاج الطائرات المقاتلة، مع توقفهم تقريبا عن أى قصف جوى كانوا يقومون به ،

ألمانيا والحرب البحرية

سوف نتحول الآن إلى الحرب فى البحر . ففى ١٧ أغسطس أعلن هتلر فرض الحصار الكامل على بريطانيا ، وكانت للحرب فى البحر ضد ألمانيا أهمية بالغة ،لأن بريطانيا لم تكن قادرة على إمداد نفسها ، على نحو كاف بالطعام والسلاح إلا بواسطة الأستيراد . ومن ناحية أخرى ، فقد أهمل هتلر بناء قوة بحرية كافية قبل أن يبدأ فى تحقيق أغراضه ، وبالتالى لم

تكن القوة البحرية الألمانية كافية لتنفيذ حصار مؤثر . وهكذا لم يكن لدى الألمان أى أمل فى السيطرة على القنال البريطانى بقوة بحرية من أجل مشروع غزو بريطانيا . وأصبحت الأستراتيجية الألمانية فى البحر ثلاثية : — الغواصات التى تخرج فى مجموعات — سفن السطح التى تخرج فى أنساق — القاذفات التى تقصف الملاحة على بعد كاف من الشواطىء . أما البحرية البريطانية فقد أستخدمت فى الدفاع عن القوافل البحرية ومطاردة سفن السطح الألمانية ، ولكنها كانت فى الحقيقة مقيدة لأن الكثير من سفنها كانت قديمة علاوة على النقص فى الغواصات والطائرات . ومنذ البداية كان الصراع متكافئاً تقريباً فوق سطح البحر . وفى يناير ١٩٤١ غادر الأدميرال « لوتجنز » ميناء « كييل » ومعه السفينتين « شارنهورست » و « جنيسناو » فى جولة لمدة شهرين ، وفى خلالها أغرق وأسر ٢٢ سفينة(١) . كما تمت بنجاح غزوات مدمرة مماثلة للألمان بواسطة بارجة الجيب « شير » والطراد الثقيل « هيبر » ، ولكن كان للأنجليز ضرباتهم أيضاً . وفى ديسمبر ١٩٣٩ قامت ثلاث طرادات بقيادة « الكومادور هاروود » باستدراج بارجة الجيب الألمانية « جراف سى »(٢) للدخول فى معركة معها خارج نهر « بلات » ، وأعطب البريطانيون البارجة الألمانية بدرجة أنها أغرقت بأوامر من قائدها . كما قام الأدميرال كاننجهام بأجتياح الأسطول الإيطالى فى البحر المتوسط . وأخيراً أغرقت المدمرتين « بسمارك » و « شارنهورست » .

أما بالنسبة لعمليات الغواصات الألمانية فقد كانت مؤثرة وخطيرة جداً على بريطانيا . وفى عام ١٩٤٢ فقد الحلفاء ١٦٦٤ر١ سفينة(٣) من بينها ١٦٠ر١ سفينة أغرقت بواسطة الغواصات . ولفترة فى عام ١٩٤٢ عانت بريطانيا معاناة عصيبة من النقص فى البترول . وقد تمت معظم عمليات الغواصات عبر المسالك البحرية خلال الأطلنطى ، ولكن كانت هناك مناطق حيوية أخرى مثل « المحيط الهندى وطريق القوافل إلى مالطة والطريق إلى جزر الأرخبيل » كلها طرق بحرية مخيفة للبحارة ، وقلما نجت السفن من الغرق فى مياهها

(١) كانت حمولات هذه السفن حوالى ٦٠٠ و ١١٥ طن .
(٢) لقد كانت البارجة قد أغرقت تسعة سفن بريطانية .
(٣) حمولتها حوالى ٦٩٧و٧٩٠ و ٧ طن .

الثلجية . ولقد بدأت كل الحرب البحرية تتجه إلى صالح الحلفاء فى خريف ١٩٤٢ . وكان المفتاح الرئيسى لهذا التحول هو القوة الجوية ، وبصفة خاصة الإستخدام المباشر للطائرات فى الحرب البحرية وخاصة ضد الغواصات، والذى كان مؤثراً جداً . وعليه فقد أصبحت قيادة الشواطىء تفتقر إلى الطائرات فى ذلك الوقت ، فكانت الأولوية معطاة للقصف ضد ألمانيا والتى لم تكن مثمرة على الأطلاق حتى عندما تركز على ترسانات وقواعد الغواصات فيما بين يناير ومايو ١٩٤٣ .

ولكن منذ خريف ١٩٤٢ توفر لدى قيادة الشواطىء طائرات أكثر وأصبحت قادرة على مراقبة مسافة ٨٠٠ ميل فى داخل البحر ، كما أستخدمت الطائرات التى تنطلق من فوق الحاملات لمرافقة القوافل . وقد أدى الرادار ذو الموجات القصيرة إلى إكتشاف الغواصات القريبة وعبوات الأعماق الثقيلة وهذا ساعد على إنتعاش الحلفاء . وفى أواخر عام ١٩٤٢ فقدت قافلة القطب الشمالى ١٣ سفينة من ٤٣ سفينة ، ولكن القافلة شقت طريقها عنوة مسقطة ٤١ طائرة ألمانية كانت متمركزه فى النرويج. وقد لعبت حاملة الطائرات المرافقة « أفنجر »

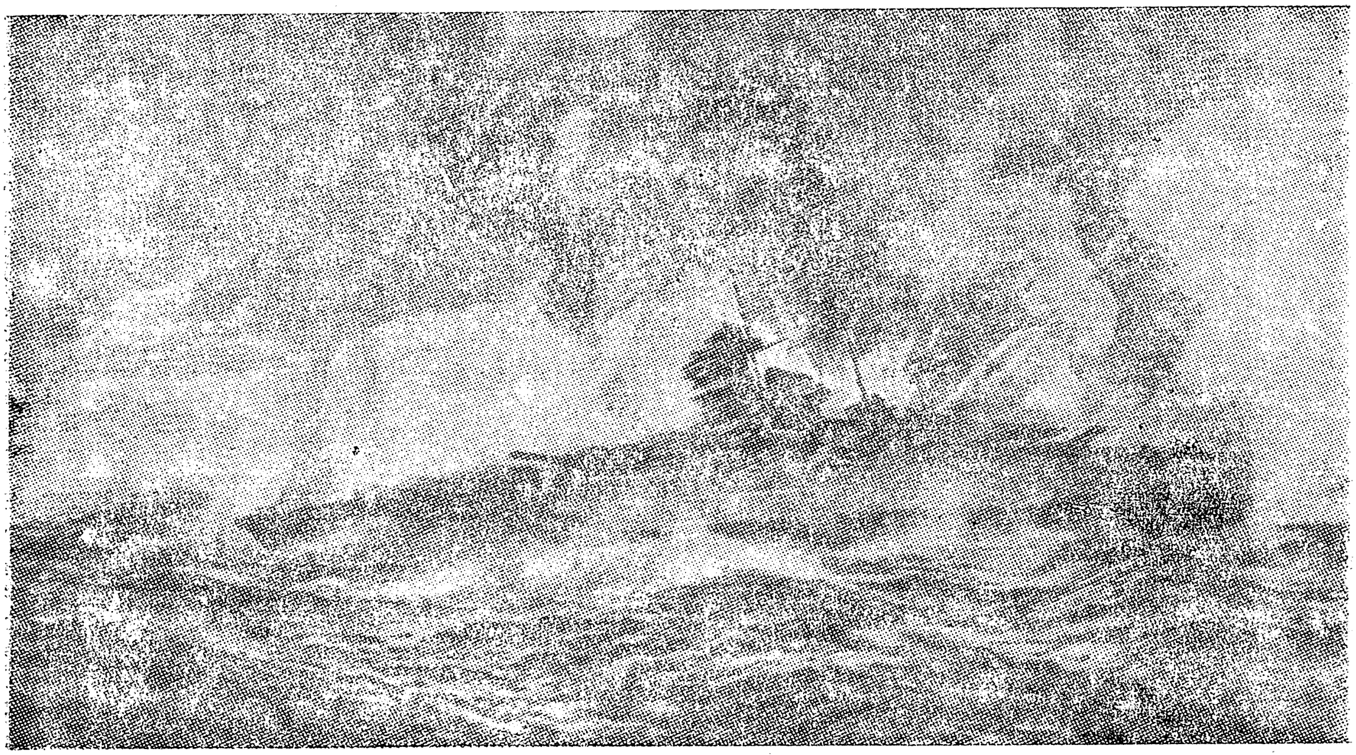

البارجـــة بسمارك أثنـاء غرقها

دوراً حاسماً فى هذا المجهود . وظل الصراع قاسياً خلال الشتاء ، وإحتفظ الأدميرال « دونتز » بمائة غواصة فى تشكيل دوريات فى البحر ، وفقد الحلفاء حوالى ١٠٨ سفينة فى مارس ١٩٤٣ . ولكن بدأ النظام الجديد تظهر نتائجه ، ففى مايو إستطاعت قافلة قادمة من كندا أن تخرج سالمة من معركة مع العدو الذى خسر خمس غواصات . وخلال هذا الشهر إنخفضت خسائر الحلفاء فى السفن التجارية بينما خسر الألمان ٤١ غواصة . ومع ذلك ، فلم تتوقف عمليات الغواصات ، ولم تكتشف أى وسيلة يعتمد عليها فى تدمير هذه الغواصات ، ولكن على الأقل فقد أجبرت طائرات الحراسة هذه الغواصات على بقائها غاطسة ، ومن ثم قللت من خفة حركتها ومنعتها من مهاجمة القوافل . والآن بدأت القبضة الألمانية تضعف على شريان الحياة لبريطانيا . وبالرغم من قيام قتال ضار فى البحر ، إلا أن الخطر الأستراتيجى على بريطانيا قد زال عملياً . وبصفة عامة ، فمع نهاية الحرب كانت جملة خسائر الألمان 785 غواصة من مجموع ١٦٢ر١ ، وهذه الغواصات أغرقت ٨٢٨ر٢[1] سفينة للحلفاء معظمها بريطانية ، كما فقدت بريطانيا حوالى ٠٠٠ر٨٢ رجل فى حرب البحر .

وأخيراً حصلت القوات الجوية على السيادة النهائية لبريطانيا على أسطول سفن السطح الألمانى . وفى ١٩ نوفمبر ١٩٤٤ قامت ٣٢ طائرة « لانكستر » بقصف وتحطيم البارجة « تربتز » . وتوقفت تماما مـــلاحة ألمانيا التجارية بينما عادت مثيلتها البريطانية إلى الحياة . ومع بداية عام ١٩٤٤ أصبح النجاح فى البحر المتوسط والأطلنطى وعلى الجبهة الشرقية واضحاً للعيان ، فقد أرغمت حوالى ٢٣ فرقة ألمانية بالبقاء فى إيطاليا ، وقد إستطاع كسلرينج بقيادته البراعة وعلى سبيل المثال منع الحلفاء من التقدم قبل منتصف عام ١٩٤٤ عند « أنزيو » و « كاسينو » كما كان مأمولا . فى نفس الوقت شغلت قوات المقاومة التابعة لتيتو وحدات ألمانيا أخرى . وفى الجبهة الشرقية إستهل الروس العام بالأندفاع خارج البروز الواقع إلى الغرب من كييف ، وخلال مايو ١٩٤٤ عبروا فى الجنوب أعالى نهر « بروت » . وكان هدف الحلفاء الإستراتيجى التالى واضحاً وهو تحرير فرنسا ، ثم يلى ذلك غزو ألمانيا نفسها من الغرب . وفى الحقيقة عرضت الولايات المتحدة ذلك فى عام ١٩٤٣

---

(٢) حمولتها حوالى ٢٣٠و٦٨٧و١٤ طن .

مفضلة أن يكون عن طريق إيطاليا . كما ضغط الروس لفتح جبهة رئيسية ثانية فى أوروبا لكى تخفف الضغط الألمانى بعض الشىء .

روميل يلتقى بمونتجمرى فى نورماندى (أنظر اللوحة رقم ٥٢)

وكان لدى ستالين بعد نظر إستراتيجى على عكس بعض ساسة الحلفاء ، حيث رأى أن النصر بات محققاً ، وقرر أن يحصر عمليات البريطانيين والأمريكيين بأوروبا الغربية وبذلك يتمكن من الإستيلاء على أوروبا الشرقية للشيوعية . وفى المؤتمر الذى عقد بين ستالين وروزفلت وتشرشل فى طهران فى نوفمبر ١٩٤٣ ، وافق ستالين مع الأمريكان على ضرورة سحب فرق من الجبهة الإيطالية للنزول فى جنوب فرنسا بغرض القيام بهجوم فى وادى الرون ومنه فى إتجاه « الفوج » والأفرع العليا لنهر الراين . ولم يوافق تشرشل على هذه الإستراتيجية ، وقد كنت مع رأى تشرشل ، لأن هذه الإستراتيجية تعنى إبعاد عشر فرق من إيطاليا وبالتالى يستحيل تطور أى هجوم نحو الشمال عبر ممر « لوبليانا » فى إتجاه « فيينا » . وبدون ذلك تصبح الحرب فى إيطاليا لا معنى لها ، كما كتب فوللر . —

« لقد أصبحت حملة بدون وسائل كافية وليس لها هدف إستراتيجى ، وبدون قاعدة سياسية » . وبالطبع كان غزو شمال فرنسا ملائماً تماما لغرض ستالين لأنه سوف يبقى البريطانيين والأمريكيين بعيداً جداً من البلقان وأوروبا الشرقية . وعارضت فكرة هذا الغزو بقوة مع أيزنهاور وذلك عندما كنا نجهز لغزو نورماندى، ولكن بدون جدوى، فقد صمم الأمريكيون على الغزو . ومن وجهة نظرى كان هذا الغزو من أكبر الأخطاء الإستراتيجية فى الحرب ، وحاولت أن أقنع الأمريكان برأيى بجميع الأدلة والوسائل . والشىء الذى وضح لى هو أن روسيا كانت تقاتل فى ذلك الوقت ليس فقط لهزيمة ألمانيا ، ولكن أيضاً لكسب السلام من حلفائها . ولقد كان من المستحيل جعل القادة الأمريكيين يفهمون ذلك . وقد تم أيضاً الأتفاق فى مؤتمر طهران على أن المهمة الرئيسية للبريطانيين والأمريكيين فى عام ١٩٤٤ هو غزو شمال غرب أوروبا . وعليه فقد قامت هاتان القوتان بالتخطيط للتركيز على هذا الهجوم، وقد تعلم الحلفاء من الغارة التى قامت بها القوات الكندية فى أغسطس ١٩٤٢ على « دييب » بدون معاونة جوية وبحرية إلى الحاجة القصوى لمثل هذه المعاونات عند القيام بعمليات إنزال

على الشاطىء المعادى وهى من أصعب العمليات التى تمت فى هذه الحرب كلها ، وكانت عملية مشتركة تماما بين القوات الثلاثة وتولى الجنرال الأمريكى أيزنهاور القيادة العليا بينما كان نائبه الطيار البريطانى « تيدر » وعين « لى مالورى » قائداً للقوات الجوية ، و «رامزى» قائداً للقوات البحرية وكلاهما بريطانى . وعينتنى الحكومة البريطانية لقيادة الجيوش البريطانية المشتركة فى الغزو ، وهى مجموعة الجيوش ٢١ ، ولكن الجنرال أيزنهاور والذى خدمت تحت قيادته فى مسرح البحر الأبيض المتوسط أمرنى بإدارة عمليات الجيوش الأمريكية أيضاً حتى تكون كل القوات البرية تحت قيادة واحدة أثناء عمليات الإنزال وتطوير الهجوم التالى من رأس الشاطىء .

وفى الحقيقة فقد جعلنى أيزنهاور قائداً للقوات البرية التابعة له والمخصصة لغزو شمال غرب أوروبا تلك العملية التى أعطيت اسم « أوفر لورد » . والمنطقة التى أختيرت لأنزال قوات الحلفاء كانت ذلك الجزء من نورماندى فى خليج السين ، فيما بين « كابورج » و « فالونز » . وقد أخفيت هذه الخطة عن الألمان بواسطة تنفيذ تحضيرات هيكلية على نطاق واسع تشير إلى أن الغزو موجه لممر كاليه .

وبناءا على طلبى وخلال عدة شهور قبل يوم الإنزال ، تم قصف السكك الحديدية والكبارى ووسائل المواصلات الأخرى . وكان الهدف من ذلك هو أولا إرباك تنظيم الأمداد الألمانى ، وثانياً عزل منطقة المعركة حتى يصبح من الصعوبة بمكان دفع فرق معادية بسرعة من المناطق الداخلية فى فرنسا أثناء معركة رأس الشاطىء فى نورماندى . وقد تحقق الغرض الثانى بدرجة أنه بعد نزولنا على شاطىء نورماندى وتمركزنا عليه بدأت تظهر الفرق الألمانية الأولى للتدعيم وعلى فترات متباعدة . وعندما فقد الألمان الأمل فى الأنتصار فى الجبهة الشرقية ، قاموا بدفع جزء كبير مما لديهم من قوات إلى الجبهة الغربية . وكان يقود الجبهة الغربية الفيلد مارشال فون « روندشتد » وكان بها ٦٠ فرقة منها ١١ فرقة مدرعة ، وقد نظمت هذه الفرق فى مجموعتين من الجيوش ، وقد إنتشرت من هولندا عبر أنتورب ونورماندى وشاطىء بسكاى حتى البحر المتوسط . وكانت نسبة من هذه القوات فقيرة التسليح وقد قاد روميل ، خصمى أيام الصحراء ، مجموعة الجيوش « ب » والتى تحتل المنطقة من

هولندا إلى نورماندى . وكان الألمان فى هذه الفترة شديدى الضعف فى القوات الجوية ، فلم يكن لديهم سوى ٩٠ قاذفة و٧٠ مقاتلة فقط صالحة للعمل . ومن سخرية القدر أن موقف الألمان الآن أصبح يشابه إلى حد بعيد موقف الفرنسيين عام ١٩٣٩ فكانوا يحتلون خط دفاعى طويل وهم غير متأكدين متى أو أين يتوقعون الضربة الرئيسية للعدو ؟ وأكثر من ذلك الخلاف الموجود بين « روندشتد » و « روميل » بخصوص الأسلوب التكتيكى المضاد لعملية الغزو .

فكان « روندشتد » يفضل دفاع غير قوى على الشواطىء ثم القيام بهجوم مضاد قبل أن يتمكن الحلفاء من تدعيم رأس الشاطىء ، أما روميل فكان يرغب فى وضع جميع قواته فى الأمام لمنع أى إنزال على الشاطىء ، بالرغم من أنه لا يعلم أين ستكون الضربة الرئيسية للانزال . ووافق هتلر على رأى روميل ، ولكن قرر أن يضع حلا يرضى الطرفين ، وهو وضع معظم المشاة فى الأمام بينما توضع معظم المدرعات فى الخلف . وقد تدخل هتلر كثيراً وبتأثير سىء فى إدارة الحرب فى الشرق ، وكان يقوم بنفس الشىء فى فرنسا .

وكانت القوات التى إقترحت لأستخدامها فى الموجة الأولى من الأنزال هى خمس فرق محمولة بحراً وثلاثة محمولة جواً[1] ، وقد خططت بإن يكون هناك ١٨ فرقة على الشاطىء فى نورماندى فى نهاية الأسبوع الأول أو حوالى ذلك . وكان لدينا أيضاً ٥٫٣٠٠ سفينة و١٢٫٠٠٠ طائرة و١٫٥٠٠ دبابة . وعند الغزو الفعلى توفر لنا مزايا المفاجأة والحشد القوى، فكانت جيوش الحلفاء عبارة عن قوة متوازنة من جميع الأسلحة . وأخيراً كان لدينا التفوق الجوى الكامل ، ومن ثم ضمنا أن حشد العدو وتحركاته التالية سوف يتم إعاقتها كثيراً . وقد تم تعديل عدد من الدبابات سميت بـ « فنتيز » خصيصاً لأغراض الغزو (دبابات برمائية ودبابات دقاقة لتفجير الألغام الأرضية ودبابات تقوم بمد حصير لعبور المناطق اللينة على الشاطىء) وأيضاً لأغراض كثيرة أخرى . كما خططت لأغراق السفن القديمة لتصبح بمثابة حاجز للأمواج ، كما كان هناك ميناءين صناعيين يطلق عليها الأسم الكودى « مولبريز » والذين بنيا من صناديق غاطسة ومتماسكة ، كما جهز خط أنابيب عابر للقناة سمى « بلوتو »

(١) كان المجموع الكلى لهذه القوات ١٥٠٫٠٠٠ رجل .

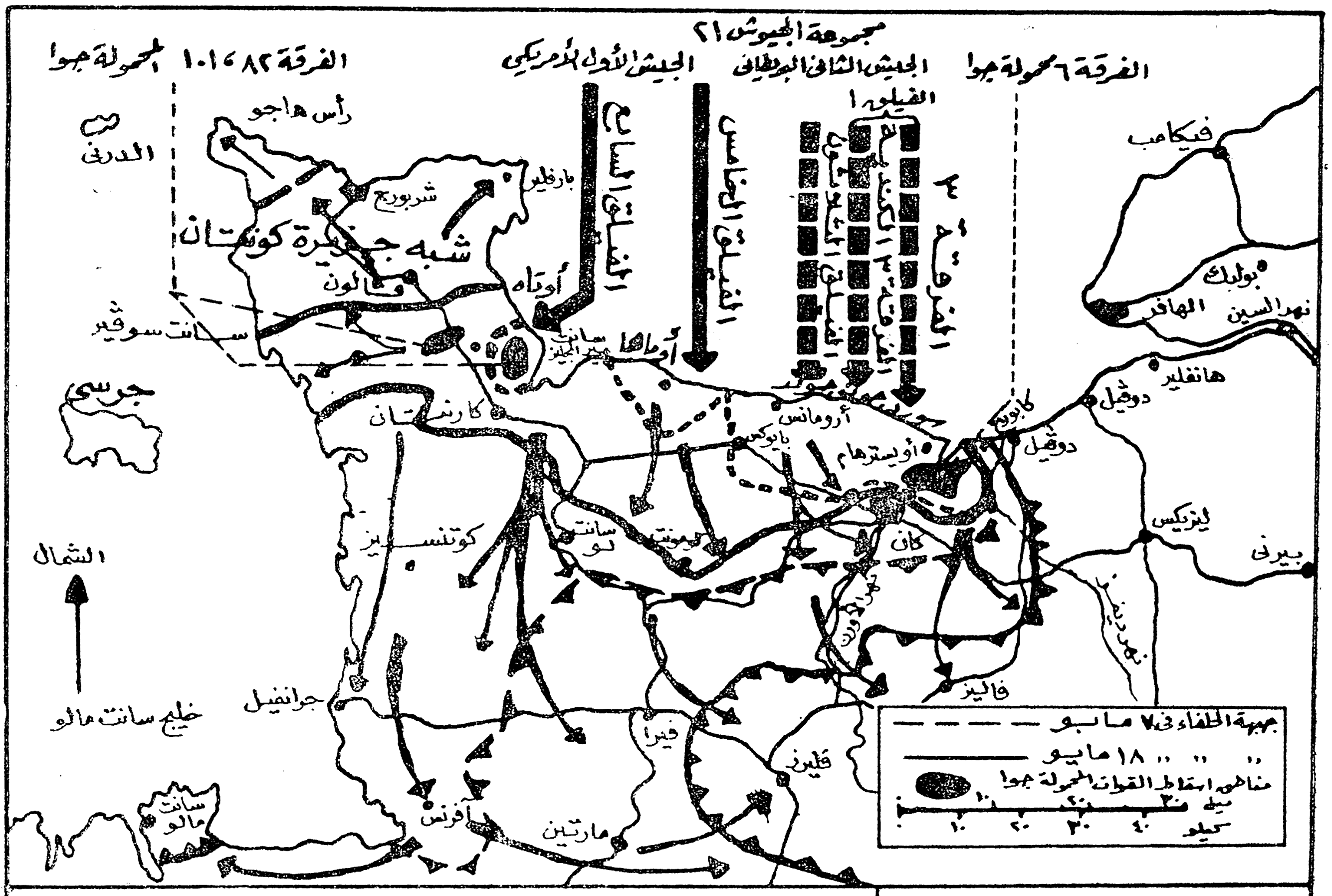

جبهة الحلفاء في ٣١ يوليو
" " في ١٣ أغسطس

اللوحة رقم ٥٢
معركة نورماندي

لتوصيل البترول إلى شاطىء نورماندى . وقد بدأت تحضيرات الغزو فى عام ١٩٤٣ وبالتالى فقد جهزت الحملة تجهيزاً جيداً .

محاولة اغتيال هتلر

أما اليوم الحاسم فقد كان فى ٦ يونيه ١٩٤٤ . وفى الواقع كان النزول فى نورماندى عملية مشتركة حقاً . فكان الأمريكيون على اليمين والبريطانيون والكنديون على اليسار . فى الساعات الأولى من ٦ يونيه أسقطت ثلاث فرق محمولة جواً لتأمين أجناب منطقة رأس الشاطىء والأشتباك مع الألمان لمنعهم من مهاجمة القوات المنقولة بحراً أثناء إنزالها على الشاطىء وقامت الطائرات الشراعية بنقل معدات الدفاع المضاد للدبابات . وكان نزول القوات المحمولة جواً أكثر إنتشاراً مما كان مخططاً ، ولكن فى الحقيقة أفاد ذلك فى إرباك العدو . ونجحت هذه القوات فى مهمتها التكتيكية . وسبق عمليات الأنزال على الشاطىء قصف من السفن وقصف جوى شديد على محطات الرادار والقواعد الجوية ومواقع المدفعية وعلى الدفاعات الساحلية عموما .

وأقوى مقاومة حدثت أثناء عمليات الغزو واجهتها القوات الأمريكية على شاطىء « أوماها » حيث كان هذا الشاطىء شديد الانحدار ، كما أن الأمريكيون رفضوا إستخدام الدبابات « فنتيز » البريطانية أو المدرعات المخصصة لعمليات الأنزال والتى سبق لى التنويه عنها . وأيضاً إرتكبوا خطأ نقل جنودهم فى سفن الأنزال وإنزالهم بعيداً جداً عن الشاطىء، مما عرض القوات للطقس السىء للبحر ولنيران المدفعية لمدة طويلة . وعلى أى حال فقد قاتل الأمريكيون وباندفاع حتى تمكنوا من الوصول إلى رأس الشاطىء .

أما عمليات الأنزال البريطانية فقد كانت مدعمة تماماً بالبحرية البريطانية والتى أعطت ملاحة وقصف دقيق ، وكانت فترة البقاء فى سفن الأنزال قصيرة ، كما أثبتت الدبابات المتخصصة فاعليتها وجدارتها .

وقد ساعد الحلفاء مادب من إضطراب فى القيادة الألمانية ، فقد كان روميل وقائدان آخران متغيبين ، كما كان هناك وحدات مدرعة معينة لا يمكن إستخدامها إلا بأوامر هتلر الشخصية . وقد قيل أن الفوهرر كان نائماً فى « برتشتسجادن » وغير مسموح إيقاظه . أما

« روندشتد » فقد سادته الحيرة بعض الوقت عما إذا كانت عمليات الأنزال هذه مجرد خدعة لغزو حقيقى سيحدث بعيداً إلى الشمال ، ولذلك بدأت الهجمات المضادة الألمانية متأخرة علاوة على أنها كانت سيئة التنسيق. وشكراً كثيراً للعمليات الجوية للحلفاء فى هذا الأمر . وأمن

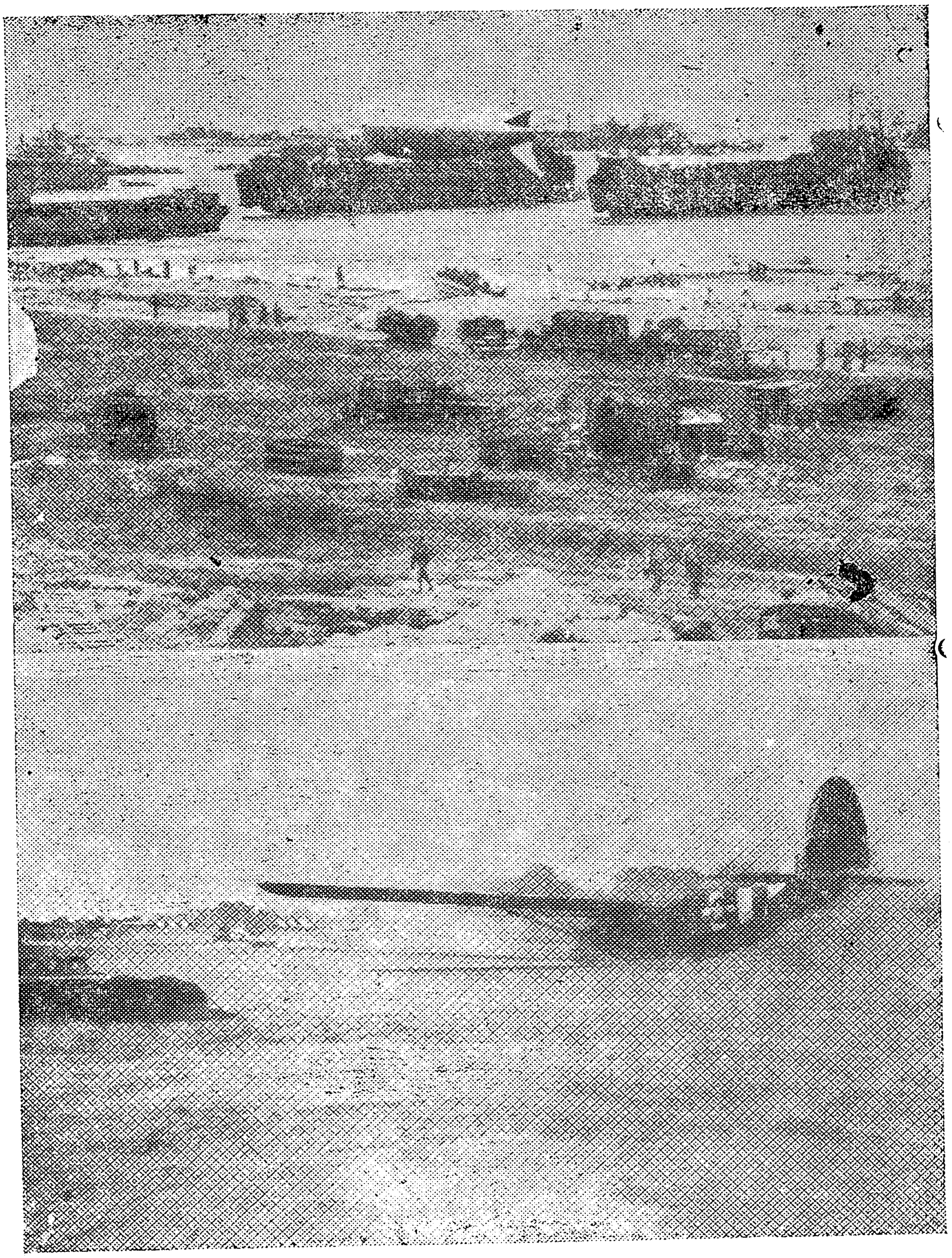

الإمدادات والتعزيزات التى وصلت إلى رؤوس الشواطىء
فى نورماندى بعد الاستيلاء عليها

الحلفاء رؤوس الشواطىء فى جميع نقاط الأنزال فى ٦ يونيه بخسارة ٩٠٠٠ رجل . وقام الألمان بهجمات مضادة خلال الأسبوع التالى ولكنها صدت جميعها ، وبحلول ١١ يونيه كانت كل رؤوس الشواطىء قد إتصلت وتم الإستيلاء على مساحة واسعة تسمح بحرية حركة القوات .

وفى ١٢ يونيه كان قد تم إنزال ٣٢٦٫٥٤٧ رجلا ومعهم ٥٤٫١٨٦ مركبة و ١٠٤٫٤٢٨ طن من الإحتياجات . وقد أدى رداءة الطقس إلى تأخير برنامج إنزال الحلفاء أكثر مما سببه الألمان .

وقد كانت خطتى فى إدارة المعركة البرية بعد إنشاء منطقة متماسكة فى رأس شاطىء ، هى قيام القوات البريطانية بجذب القوة الرئيسية للألمان وخاصة فرقهم المدرعة إلى جانبنا الأيسر فى منطقة السين ، للاشتباك معهم وإحتجازهم ، وذلك حتى يسهل على القوات الأمريكية إكتساب أرض على يميننا أى على جانبنا الغربى ، وعندئذ تقوم القوات الأمريكية بالاختراق النهائى فى هذا الجنب .

وهكذا أو نحو ذلك تطورت المعركة . ونتيجة لتفوقنا الجوى الكامل كانت هجماتنا على الأرض أكثر تأثيراً مما حدث من قبل ، كما تحسن التعاون بين القوات البرية والجوية بدرجة كبيرة .

وقد وصف الجنرال « أرنولد » تقدم القوات الأمريكية فى إتجاه « سانت لو » : —
« كانت المقاتلات والقاذفات المقاتلة على إتصال وثيق وتحت إدارة مشتركة تنطلق قبل القوات البرية مدمرة الأهداف العسكرية ، كما كانت المقاتلات على إتصال مباشر مع الدبابات بواسطة اللاسلكى وتطير بنشاط مستمر فوق أرتالنا المدرعة .

وكان الضباط البريين يطلبون المقاتلات لقصف أو مهاجمة المدفعية أو المدرعات التى تعترض طريقهم . فى نفس الوقت كان الطيارون يحذرون قادة الدبابات من الكمائن المعادية» وبالرغم من الدور الرائع الذى قامت به القوات الجوية والمدفعية والدبابات فى المعركة ، ففى رأيى أن جندى المشاة فى الحرب الحديثة هو الذى يلعب الدور الحاسم فى النهاية فى المعركة البرية .

ولا أقول ذلك لمجرد أننى شخصياً جندى مشاة ، ولكن لأننى أعتقد أن ذلك صحيحاً ، لأن المشاة متعددة الإستخدام أكثر من أى سلاح آخر ، إذ أنها تستطيع العمل فى أى طقس وفى أى طبيعة للأرض « جبال — غابات — أحراش — مستنقعات — صحراء » وجندى المشاة يستمر فى المعركة ليل نهار دون راحة طويلة ودون نوم كاف . ويمكنه أن يعبر بطلاقة عن الطريقة التى يتعين عليه أن يتحمل بها العبء الأكبر فى المعركة ، وهو يفعل ذلك دائماً .. لذلك أننى أحبيه .

ولا يمكن أن يكون هناك جيش جيد بدون مشاة جيدة ، ولكن أحب أن أضيف أن القوات البرية لا يمكنها كسب المعارك بدون معاونة قوات جوية جيدة ، وذلك صحيح خصوصاً فى الحرب ضد رجال العصابات الجيدى التسليح أو القوات الغير نظامية فى منتصف القرن ٢٠ .

وقد قاتل الجنود الألمان ضد الحلفاء فى نورماندى بعنف وبدون معاونة جوية ، وزاد من سوء حظهم سوء التنظيم فى القيادة العليا الألمانية . وحلت الأزمة فى ٢٠ يوليه ، عندما قام عدد من الجنرالات بمحاولة فاشلة لاغتيال هتلر . ومن رأيى أنهم كانوا على خطأ فليس من واجب الجنرالات إغتيال القادة السياسيين ، وإذا كان لابد من ذلك فالأفضل أن يقوم بذلك السياسيين أنفسهم . وكان روميل[1] على علم بهذه المحاولة ، ولكنه رفض الإشتراك فيها ، وأعتقد أنه كان على حق . وقام هتلر بتغيير « روندشتد » القائد العام فى فرنسا بـ « كلوج » ، وبعد ذلك غير « كلوج » بـ « موديل » .

وفى ١٥ يولية هاجمت المقاتلات سيارة روميل وجرح جرحاً خطيراً بدرجة أن دوره فى معركة نورماندى قد إنتهى .

وعندئذ تدخل هتلر الذى كان يجهل الحقيقة بأن الألمان قد خسروا المعركة فى نورماندى ، أو ربما كان لا يرغب فى تصديق ذلك .

وفى ٧ أغسطس أمر هتلر بقيام هجوم مدرع من « مورتين » غربا حتى الشاطىء عند « أفرانشز » آملا إلى شطر الجيوش الأمريكية إلى قسمين . ولم يكن مثل هذا الهجوم

---

(١) يمكن الرجوع لتفصيل هذه المؤامرة فى مذكرات روميل تعريب وتعليق العميد فتحى عبدالله النمر « المعرب »

ليحقق شيئاً ، فبدون معاونة جوية كان يعتبر ضرباً من الجنون . وعلى أى حال فالمعركة كانت قد خسرت فى ذلك الحين .

وكان الأمل الوحيد الممكن للألمان هو الإنسحاب بسرعة خلف السين ومحاولة تكوين جبهة جديدة خلف هذا المانع ، ولكن هتلر رفض السماح بأى إنسحاب وحتى عندما رضخ لذلك فى ٧ أغسطس فقد أصبح الوقت متأخراً جداً ، وعلى أى حال فالهجوم المدرع الألمانى قد أوقفته الجيوش الأمريكية والبريطانية والكندية فى جيب عرف بـ «جيب فاليز» وسحق الهجوم الألمانى فى هذا الجيب خلال عدة أيام .

وقد زرت الجيب بعد أن إنتهى كل شىء ، ولقد كانت مذبحة رهيبة . وسرعان ما أنشأ الحلفاء رؤوس كبارى على نهر السين .

وفى ١٩ أغسطس قامت ثورة فى باريس . وبعد ذلك بستة أيام حررت القوات الفرنسية العاصمة . وبذلك تم الإستيلاء على « نورماندى » « وبريتانى » وفقد الألمان نصف مليون رجل . وقمت بأصدار أوامرى بالقيام بعمليات أخرى على أساس إنهاء تلك الحرب مع حلول عيد الميلاد . ولكن فى أول سبتمبر تولى أيزنهاور بنفسه القيادة المباشرة للجيوش البرية ، بالإضافة إلى مسئوليته كقائد أعلى لقوات الحلفاء فى غرب أوروبا .

وكانت لديه آراء مختلفة ، وقام بأصدار أوامر جديدة .

<u>الأسلحة السرية</u> (أنظر اللوحة رقم ٥٣)

أما التفاصيل الدقيقة للخسائر الألمانية فى « نورماندى » فلم تعرف ، ولقد قدر الجنرال برادلى ذلك بقوله : — « بحلول أول سبتمبر إنخفضت قوة العدو التى كانت له فى يونيه فى الجبهة الغربية حتى أصبحت قوات ضعيفة غير منظمة . وبلغ مجموع كل الألمان المتبقين شمالى الأردين عبارة عن ٢١ فرقة » .

وقد أصبح من الواضح أن الألمان قد منيوا بخسائر جسيمة . وكان واجب القائد الأعلى لقوات الحلفاء هو دفع الألمان إلى الخلف داخل ألمانيا وإنهاء الحرب بأسرع ما يمكن . وكان العمل العسكرى الصحيح يستطيع عندئذ أن يغض النظر عن بعض الإتفاقات السياسية فى مؤتمر طهران ، الأمر الذى كان يدركه القائد الأمريكى . ولهذا فقد إقترحت وبإلحاح حشد

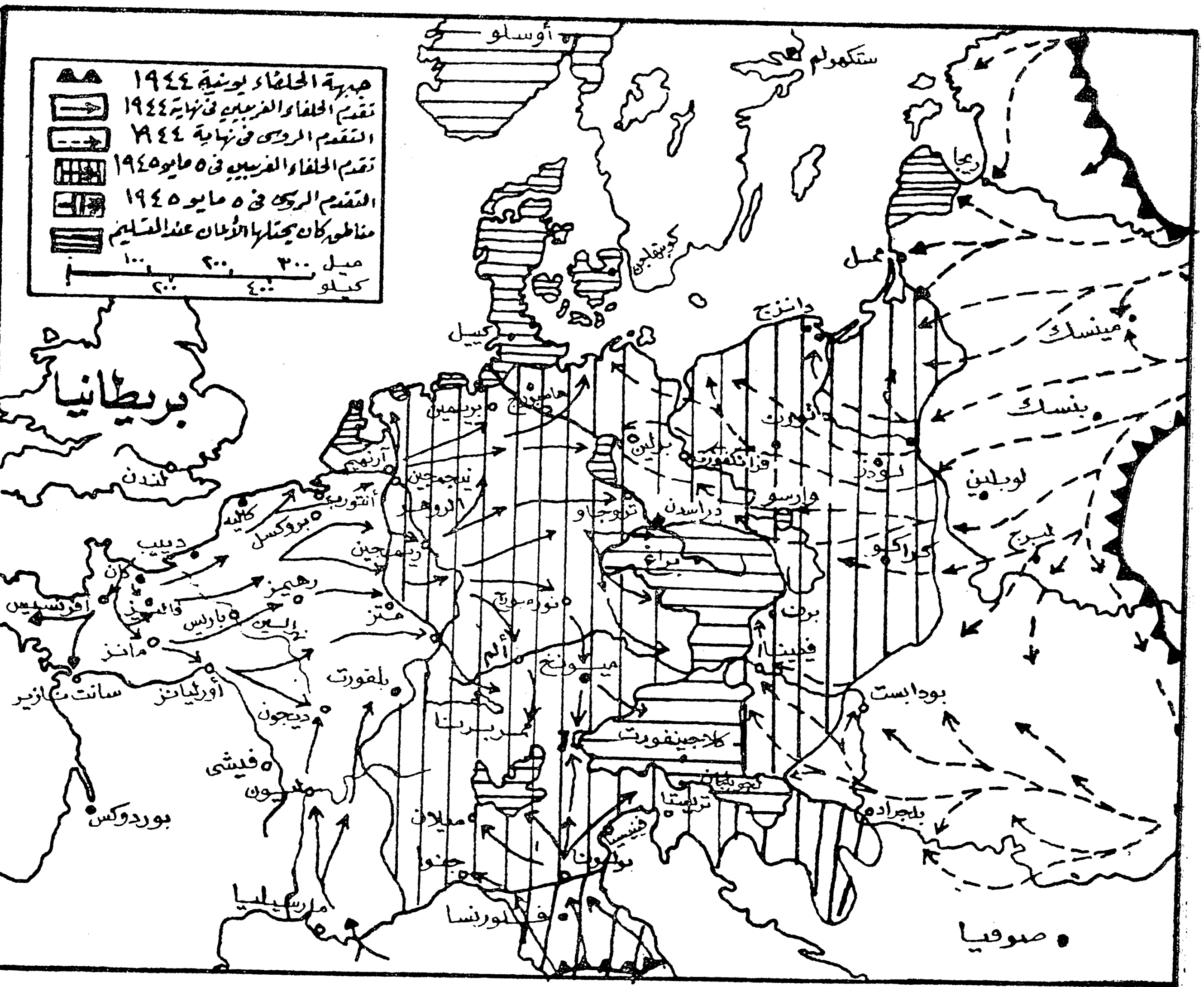

اللوحة رقم ٥٣

هزيمة ألمانيا عام ١٩٤٤/١٩٤٥

قوات الحلفاء للقيام بهجوم قوى ساحق للاستيلاء على « الرور » أولا ثم بعد ذلك التحرك إلى برلين ، « القلب السياسى لألمانيا ».

وكان الرأى العسكرى الألمانى ، حسب قول« ليدل هارت» والذى قاله بعد الحرب : — « إن مثل هذا الإختراق ومعه سيطرة جوية ، كان كفيلا بتمزيق الجبهة الألمانية إلى أقسام صغيرة ، وإنهاء الحرب فى شتاء ١٩٤٤ » . ولكن أعتبر الأمريكيون مثل هذه السياسة مخاطرة عسكرية علاوة على عدم ضرورتها من الناحية السياسية . ولم يكن روزفلت قد تنبه بعد إلى نية القوات الروسية لإجتياح شرق أوروبا .

وقد أصبح الأمريكيون الآن على قدر من القوة أكبر من البريطانيين وبالتالى كان على البريطانيين أن يسلكوا طريق الأمريكيين .

وكانت طريقة الأمريكيين هى أن يشكلوا قواتهم على نهر الراين من سويسرا إلى بحر الشمال ، وبعد ذلك يقرروا مايجب عمله . وعليه فقد كان على الجيوش كلها التقدم فى وقت واحد ، وعلى مواجهة واسعة . وقد أبرزت إستراتيجية « المواجهة الواسعة » ثلاث مساوىء رئيسية هى : —

١ — ستكون الشئون الإدارية مبعثرة جداً ، بحيث لن تستطيع معاونة تقدم كل الجيوش .

٢ — لن نكون أقوياء فى أى مكان بالقدر الكافى للحصول على نتائج حاسمة وبسرعة ، وكان هذا ضرورياً لو كان علينا إنهاء الحرب بنهاية العام

٣ — سوف يقل معدل التقدم تدريجياً وبذلك نكون قد منحنا الألمان وقتاً لإستعادة قوتهم .

ولكى نحصل على نتائج حاسمة سريعة ، فقد كان لزاماً علينا أن نركز قواتنا فى مكان ما ، فى اليسار أو المنتصف أو اليمين ، حيثما يرى القائد الأعلى أنه أكثر ملاءمة . وكان ذلك هو الموضوع ببساطة ، وقد أيد رئيس هيئة أركان حرب القوات البريطانية وجهة نظرى ، ولكن لم يوافق عليها القادة الأمريكان .

وفى منتصف سبتمبر بدأ الألمان يستعيدون قوتهم ، حتى يستطيعوا توجيه ضربة عند

«أرنهم» للقوات المحمولة جواً، والذين كانوا يقاتلون من أجل إنشاء رأس كوبرى عبر نهر الراين الشمال

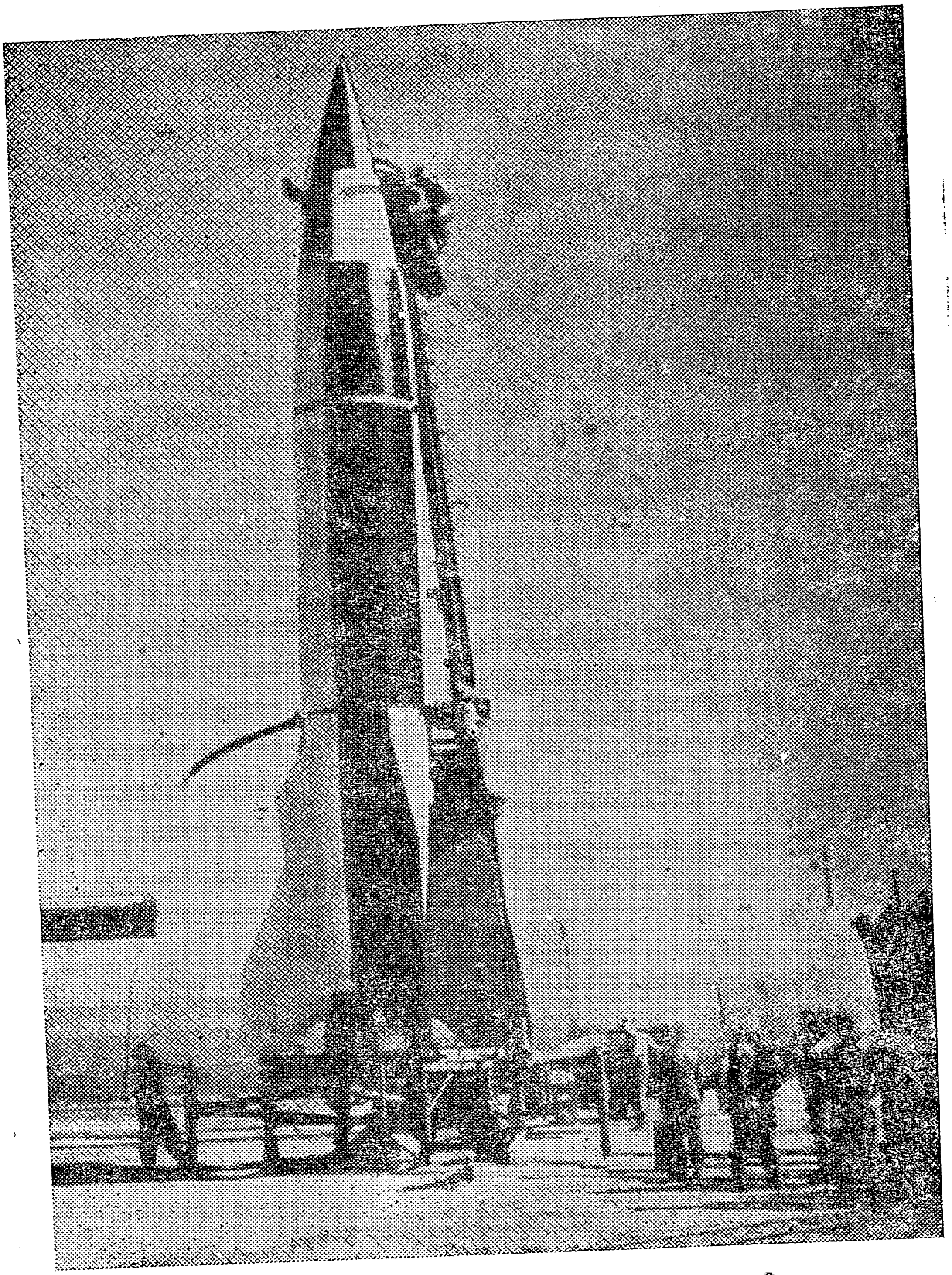

القنبلة الطائرة ف ٢ ذات المحرك النفاث أثناء تجهيزها
للاطـــلاق نحو بريطانيا

بعد حصولهم على رؤوس كبارى قيمة عبر نهر « موز » ، وعبر نهر « الراين » عند « نيجميجن » .

وأخيراً فى ديسمبر حشد الألمان قوة مدرعة كافية للقيام بهجوم قوى عبر الأردين فى إتجاه «أنتوريب» وبدأ هذا الهجوم فى أول الأمر بنجاح ، ولكنه تحطم تحت تأثير الهجمات على الأجناب ومن الجو .

وفى النصف الثانى من عام ١٩٤٤ سببت « الأسلحة السرية الألمانية »مثل « القنابل الطائرة » ف ١ و ف ٢ ذات المحرك النفاث أو الصواريخ الموجهة دماراً شديداً فى بريطانيا . وبعد معركة الأردين لم يبدى الألمان أى مقاومة عنيفة . وتم عبور الراين فى نقاط عديدة فى مارس ١٩٤٥ ، وتقدمت جيوش الحلفاء حتى نهر الألب .

لقاء ستالين وروزفلت وتشرشل فى يالطة

انتحار هتلر

وفى نفس الوقت لم يضيع الروس وقتا على الجبهة الشرقية ، فى حوالى نفس الوقت الذى تحرك

فيه الحلفاء فى نورماندى ، قـــام الروس بهجوم ضخم من « فيتبسك » حتى مستنقعات « بريبيت » . وفى أوائل أغسطس ١٩٤٤ وصل الجيش الأحمر إلى « ممل » و «وارسو» . وفى « وارسو » أنزلت قوات العاصفة الألمانية عقاب وحشى بالثورة التى قامت فى بولندا . وبعد ذلك واصلت القوات الروسية الزحف لتحطيم مجموعة الجيش الألمانى الشمالى ، ومن ثم الوصول إلى البلطيق .

وإذا ألقينا نظرة بأن الغرض هو هزيمة ألمانيا فقط ، فـكان من واجب الروس مواصلة تقدمهم داخل ألمانيا فى عام ١٩٤٤ ، ولـكن قرر ستالين إرجاء ذلك إلى ما بعد ، فـكان شاغله الأول هو إجتياح دول جنوب شرق أوروبا . ففى أغسطس كان الروس فى رومانيا ، وفى اكتوبر فى يوغسلافيا، وفى ديسمبر فى المجر . وفى شهر يناير ١٩٤٥ فقط زحف جيوش « كونيف » و « زوكوف » و « ردكوسونسكى » و « شرنيكوفسكى » إلى داخل ألمانيا .

وفى ٤ فبراير تقابل ستالين وروزفلت وتشرشل مرة أخرى ، فى « يالطة » فى القرم . وتعامل قادة الدول الديمقراطية مع ستالين فى « يالطة » بمثل الأستهانة التى عاملوا بها الدكتاتور النازى فى مؤتمر ميونيخ ، وأقنعوا أنفسهم بأن ستالين رجل نبيل ، ووافقوا على تقسيم ألمانيا .

وفى الحقيقة لم يـكن هناك شىء يمـكنهم عمله سوى ذلك . فقد خدع ستالين حلفاءه ، وكسب السلام لروسيا فى طهران ، وأخيرا توج إنتصاره فى يالطة . وفى ذلك الوقت بدأت الأحداث تتحرك بسرعة ، ففى ٣٠ أبريل إنتحر هتلر فى برلين ، وفى ٤ مايو وصل «هيس» (١) إلى مقر قيادتى فى « لونبرج » ووقع بيانا بالتسليم بدون قيد ولا شرط لـكل القوات المسلحة الألمانية الموجودة فى المنطقة من هولندا إلى الدانمرك والتى يبلغ مجموعها حوالى مليونين من المقاتلين .

وفى ٧ مايو فى مقر قيادة أيزنهاور فى رهيمز تم توقيع إستسلام كل القوات الألمانية

---

(١) كان المفوض من قبل الأدميرال رونتر القائد الألمانى الجديد . «المعرب»

المسلحة على جميع الجبهات بدون قيد أو شرط . وهكذا إنتهت الحرب الألمانية وفى حوذة الروس المراكز السياسية الكبرى فى وسط أوروبا « برلين — براغ — فينا — بلجراد » وأيضاً كل العواصم إلى الشرق من هذا الخط العام ولكن بقيت الحرب اليابانية ، وسوف نلقى الآن نظرة عليها .

كارثة بيرل هاربور (أنظر اللوحة رقم ٤٥)

لقد كانت اليابان عدوا طبيعيا للولايات المتحدة أكثر مما كانت ألمانيا .

وقد أصبحت اليابان طموحة بعد نموها السريع نحو النضج الاقتصادى . وقامت بالتخطيط لضم منطقة شرق آسيا والمحيط الهادى تحت سيطرتها السياسية والاقتصادية .

وفى مارس ١٩٣٣ أعلنت رسميا إنسحابها من عصبة الأمم ، ثم قامت بعد ذلك بغزو منشوريا وحققت تقدما كبيرا نحو هدفها . وقد إنتهزت اليابان فرصة سقوط فرنسا ، وقامت بتجنيد أكثر من مليون مقاتل ، وفى يوليو ١٩٤١ أعلنت الحماية على الهند الصينية .

وفى أكتوبر ١٩٤١ أصبح الجنرال « توجو » الذى كان وزيرا للحرب ، رئيسا لوزراء اليابان ، وأصبحت الدولة بالتالى فى قبضة حكم عسكرى فردى . وتنبهت الولايات المتحدة من إزدياد أطماع اليابانيين ، وعلى وجه الخصوص من التصريحات العدوانية لنظام الحكم الجديد فى اليابان . ولما كان للولايات المتحدة مصالح راسخة فى المحيط الهادى ، فقد وقعوا فى عام ١٩٤١ عقوبات بترولية على اليابان ، وأنذروا تلك الدولة لوقف أعمالها العدوانية ، وبذلك أصبحت الحرب لا يمكن تجنبها . وصممت اليابان على توجيه ضربة عندما تحين لها الفرصة المواتية . وكان أواخر عام ١٩٤١ هى الفرصة المناسبة من جميع النواحى لليابان للقيام بحرب ضد القوى الإستعمارية فى الشرق الأقصى ، ومن المؤكد أن قادة اليابان إرتكبوا خطأ فى الحساب بافتراضهم أن الألمان قد كسبوا فى الواقع الحرب فى الغرب ، ولكن بالرغم من ذلك ، كان الهولنديون فى ذلك الوقت ، بدون أى قوة ، ولم يكن لدى البريطانيون أى قوات يستطيعون توفيرها ، حيث كانت أفضل قوات المستعمرات البريطانية[1] مشغولة فى الشرق الأوسط . كما كانت البحرية البريطانية مجهدة للغاية ، بينما كانت القوات الجوية

(١) من أستراليا ونيوزيلاندة والهند .

الملكية فى آسيا مجهزة بطائرات قديمة . وكان لدى أمريكا قوات مسلحة أكبر مما لدى اليابان ، ولكن كان الأمريكيون فى ذلك الوقت يتطلعون غربا محولين سفنهم من المحيط الباسيفيكى إلى المحيط الأطلنطى . وفى الفترة بين عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤١ ، ضاعفت اليابان من حمولة بحريتها ، وجددت سفنها القديمة . وأصبح لديها ١٠ بوارج و ١٠ حاملات طائرات و ٣٨ طرادا و١١٢ مدمرة و ٦٥ غواصة . ولم تكن السفن الحربية اليابانية مختلفة إختلافا جوهريا فى التصميم عن مثيلاتها لدى القوى الغربية ، إلا أن طوربيداتهم كانت أكثر فاعلية من مثيلاتها لدى الأمريكان .

أما حاملات الطائرات اليابانية فكانت كل منها يمكن أن تحمل حوالى ٦٣ طائرة مقاتلة مابين قاذفة وقاذفة طوربيد . وبلغ عدد الفرق فى الجيش اليابانى فى عام ١٩٤١ ، ٥١ فرقة ، ويتراوح قوة الفرقة بين ٠٠٠و١٠و٠٠٠و١٨ مقاتل ، وبذلك بلغ مجموع الجيش اليابانى حوالى ٠٠٠و٧٥٠ مقاتل . ولم يكن لدى اليابانيين قوات جوية مستقلة ، ولكن كان لكل من القوات البرية والبحرية سلاحها الجوى الخاص بها . فتوفرت للقوات البرية حوالى خمس فرق جوية إحتوت على حوالى ٥٠٠و١ طائرة ، بينما كان لدى البحرية قوة عمليات تتكون من حوالى ٣٠٠و٣ طائرة. وقد إكتسب اليابانيون خبرة قيمة فى الحرب الحديثة منذ غزوهم للصين ، كما تطورت معداتهم تطوراً كبيراً . وفى نفس الوقت قاتل اليابانيون فى شراسة وضراوة وبشجاعة متعصبة أى على عكس الشعوب فى الغرب . وكان التخطيط اليابانى هو الضرب بسرعة وبقوة .

وكان عليهم تدمير الأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى وإجتياح «الفليبين» و«الملايو» و « بورنو » فى الهند الشرقية الهولندية وبورما . ثم بعد ما يتم التقدم جنوبا كان عليهم إنشاء حلقة منيعة من الحصون فى المحيط مارة بجزر « ويك » وجزر « مارشال » وجزر « الأرخبيل » شمالى إستراليا . وفى ٧ ديسمبر ١٩٤١ وبدون إعلان للحرب ، تم الهجوم فى وقت واحد على بيرل هاربور والفليبين والملايو .

وبالرغم من معرفة الأمريكيين الأكيدة لمدى بغض وكره اليابانيين لهم إلا أن الهجوم اليابانى عليهم فى بيرل هاربور كان مفاجأة تامة ، ذلك الهجوم الذى إستهدف أسطولهم

فى المحيط الباسيفيكى المتمركز فى بيرل هاربور فى « هاواى » .

فقد إقتربت القوة الضاربة للبحرية اليابانية ، المكونة من ست حاملات للطائرات وعليها ٤٥٠ طائرة تحت قيادة الفيس أدميرال « ناجومو » من الشمال الغربى من هاواى ، وأطلقت طائراتها فى وضح النهار فى ٧ ديسمبر ، وكان هدفها الرئيسى ٧ بوارج فى مراسيها من بين ٩٤ سفينة أمريكية ، وتم ضربها جميعا ، ونجت واحدة فقط من التدمير الخطير ، بينما فقدت إثنتان بالكامل ولحق تدمير خطير جداً بباقى السفن والمنشآت ، كما تم تدمير ٢٠٠ طائرة من ٤٠٠ طائرة كانت تقف على الأرض بجوار بعضها ، وفقد اليابانيون ٣٠ طائرة . ورجع نجاح الغارة إلى المفاجأة الكاملة ومهارة رجال سلاح الطيران اليابانى وبصفة خاصة فى هجمات القاذفات التى تحمل الطوربيدات فى المياه الضحلة . وفى نفس الوقت الذى كان يجرى فيه الهجوم على بيرل هاربور ، قام اليابانيون بهجمات جوية ضد الأمريكيين فى الفليبين ، حيث دمروا لهم ثلث مقاتلاتهم ونصف قاذفاتهم ، وفى ١٠ ديسمبر دمرت قاعدة « كافيت » البحرية . وبهذه الضربات الجوية السريعة والمدمرة فى « بيرل هاربور » و « الفليبين » حصل اليابانيون على فترة من التفوق فى البحر والجو ، والتى كانوا فى حاجة إليها لتأمين عملياتهم فى الغزو . وفى ديسمبر أستغلوا الفرصة باجتياح قواعد العدو فى « جوام » و « ويك » و « هونج كونج » . ولم يتم إحتلال الفليبين بصفة نهائية حتى مايو التالى ، وذلك بسبب المقاومة التى نظمها الجنرال « ماك آرثر » . وفى مارس ١٩٤٢ إنتقل « ماك آرثر » إلى أستراليا ليتولى قيادة الهجوم الأمريكى ضد اليابان والذى تقرر أن يجرى من هذه الدولة .

الهزيمة المهينة (أنظر اللوحة رقم ٥٤،٥٥)

وفى نفس اليوم ، ٧ ديسمبر ، يوم الهجوم على بيرل هاربور ، بدأ غزو شبه جزيرة الملايو بقوات يابانية ، نزلت فى سيام وعبرت الحدود تحت قيادة الجنرال « ياماشيتا » ، وفى ١٠ ديسمبر أغرقت الطائرات اليابانية البارجة البريطانية « أمير ويلز » والطراد « ريبلس » وذلك أمام « كانتون » على الشاطىء الشرقى للملايو . وتقدم اليابانيون بمحاذاة الساحل مستخدمين السفن البريطانية المأسورة ، عن طريق عمليات مشتركة ضد أجناب الدفاع . ولم يكن لدى اليابانيين

تفوق عددى كبير ، ولكن كانت القوات اليابانية أكثر جسارة وأعلى تدريبا على القتال فى الأحراش ، من القوات البريطانية والأسترالية والهندية . وتم تدمير القوة الجوية البريطانية بسرعة ، وأدى القصف المتواصل للمدن إلى تدمير عزيمة المدافعين . وفى ١١ يناير ١٩٤٢ كان اليابانيون فى « كوالا لوميور » ، وإستمر تقدمهم بسرعة .

وفى نهاية الشهر إنسحب المدافعون إلى جزيرة « سنغافورة » حيث دمروا الجسر الذى يربطها بالملايو .

وأصبح الآن البريطانيون بدون قوة بحرية أو جوية ، كما لم يكن لديهم سوى مدفعية ضعيفة . وبعد أربعة أيام فقط من القصف نزل اليابانيون إلى الجزيرة . وفى أقل من أسبوع كان فى حوذتهم المستودعات التى تمد المدينة بالمؤن . وإستسلمت أهم المراكز الرئيسيةالتجارية والبحرية لبريطانيا فى الشرق الأقصى إلى الليفتناتتجنرال « ياماشيتا » وذلك فى يوم الأحد الموافق ١٥ فبراير١٩٤٢ ، كما إستسلم الجنرال « بريسفال» وحاميته المكونة٠٠٠و٧٠رجل.

وكانت هذه هزيمة مهينة للقوات البريطانية أو بدون شك كان هناك الكثير لما يمكن عمله فى مجال التدريب والأمور الأخرى ، ولكن لم يشاهد أحد ، إن كان قد تم شىء من هذه الأمور . وكان رأيى دائما أن سنغافورة قد فقدت فى لندن فى « هوايت هول » قبل أن تبدأ الحرب على الإطلاق . وقدرجع ذلك إلى الإفتقار للتعاون المشترك الحقيقى بين القوات القائمة بالتخطيط للدفاع عن القاعدة الإستراتيجية الرئيسية ، وفى الواقع بسبب التخطيط الردىء فى وقت السلم .

فى ذلك الوقت أصبحت جزر الهند الشرقية الهولندية معرضة للغزو اليابانى . ومنذ شهر يناير قام اليابانيون بتوطيد أقدامهم فى « بورنو » و « سولاويزى » ، وأصبحوا الآن مستعدين للضرب فى جاوة ، أقوى الجزر.وفى ٢٧ فبراير ١٩٤٢،علم القائد الهولندى الحليف اللواء البحرى « دورمان » بأن هناك قافلة يابانية مكونة من ٣٠ ناقلة تحت حراسة ثلاث طرادات وسبع مدمرات ، متجه إلى جاوة ، وعليه فحشد « دورمان» قوة تتكون من خمس طرادات وعشر مدمرات ، وإشتبك مع القافلة اليابانية التى كانت تحت قيادة اللواء البحرى « كوندو » أمام ساحل جاوة الشمالى .

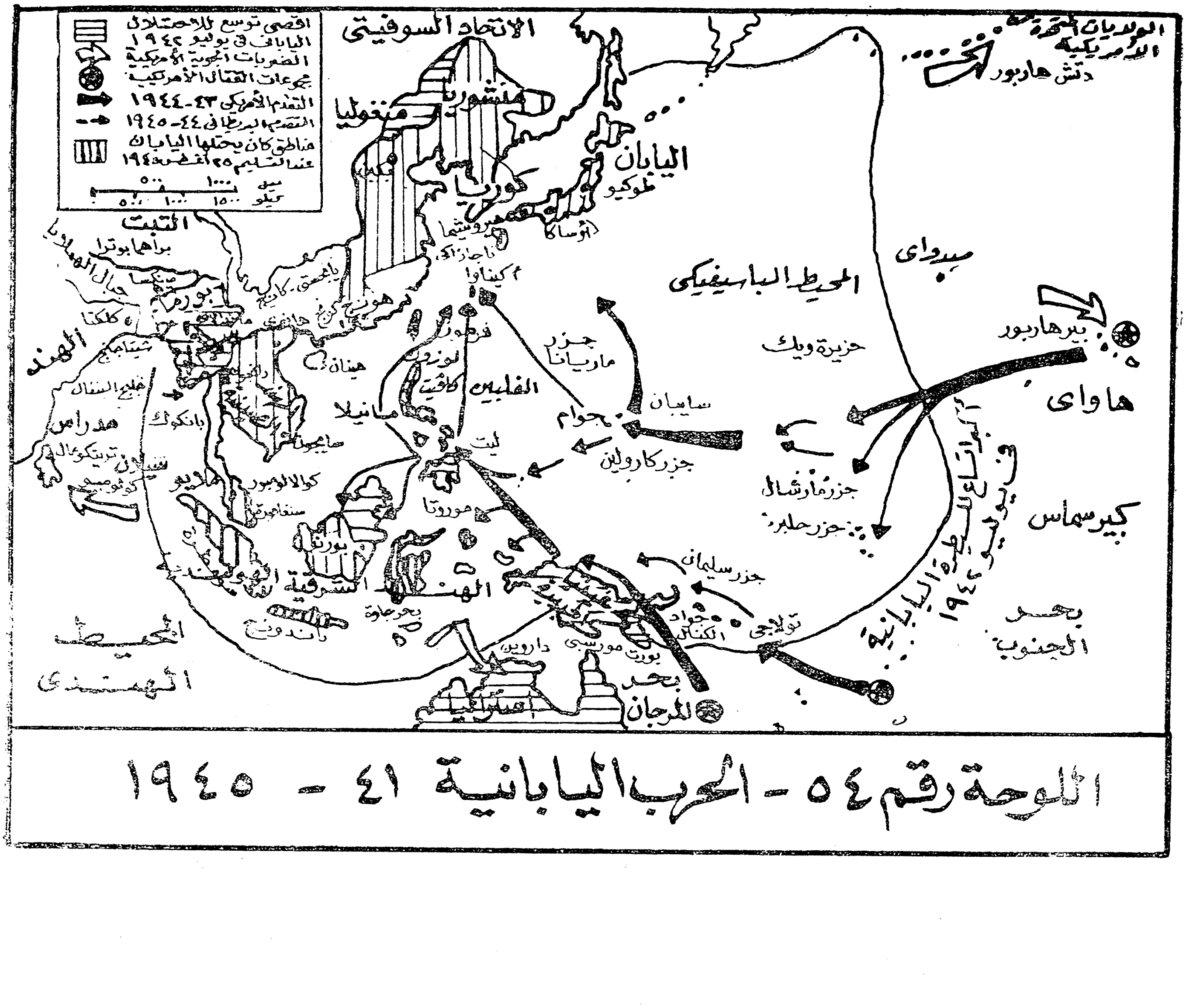

اللوحة رقم ٥٤ - الحرب اليابانية ٤١ - ١٩٤٥

ودارت معركة طويلة ومعقـــدة ، تم معظمها فى الظلام . وإنتهت المعركة بأن أغرق اليابانيون نصف سفن الحلفاء دون أن يخسروا سفينة واحدة . وكان الحلفاء يتفوقون فى قوة النيران ، ولـكن المعركة كسبت بتفوق التـكتيكات والمواصلات والطوربيدات والقوات الجوية اليابانية . وقررت معركة بحر جاوة هذه مصير جزر الهند الشرقية الهولندية .

وخلال الليلة اللاحقة لهذه المعركة نزل اليابانيون فى ثلاث مواقع على الشاطىء الشمالى لجاوة. وفى ٨ مارس إستسلم حوالى ٩٠٠٠٠ من القوات الأوروبية والأندونيسية فى باندونج. وسرعان ما تم غزو باقى الجزر . ولم يـكن لجيوب المقاومة المنعزلة لرجال العصابات أى تأثير إستراتيجى . وأغرقت كل السفن المتبقية للحلفاء فى المنطقة .

ونتحول الآن إلى بورما ، فنى نفس الوقت الذى كانوا يقومون فيه بحملتهم ضد جزر الهند الشرقية الهولندية ، وحتى قبل سقوط سنغافورة كان اليابانيون يتحولون غربا ضد بورما . وكان هدفهم الرئيسى من ذلك هو قطع طريق بورما الذى كانت تصل منه المساعدات إلى «تشانج كاى شيك» فى الصين ، وهدف آخر هو القيام بانهاء الاحتلال البريطانى للهند بمعاونة القوميين الهنود . وجعل اليابانيون من « بانجوك » القاعدة المتقدمة للغزو ، وكان هدفهم الأول هو « رانجون » . وكان الدفاع عن بورما ضعيفا ، إذ أن ويفل [١] لم يكن لديه إلا فرقتين غير كاملتين ، ثم دعم بعد ذلك بقوات صينية مساوية لها ، تحت قيادة الجنرال «ستيلويك» [٢] ولم يكن فى بورما موارد كافية لإعاشة الحملة ، وكان من الضرورى إحضار المؤن من الهند ، وكانت المواصلات صعبة للغاية .

وقد سيطر اليابانيون على الطرق البحرية الطبيعية من لهند . ولما لم تـكن هناك طرق عبر الجبال ، أصبحت المواصلات والامداد من الجو . وكانت محاور المواصلات فى بورما هى وديان أنهار « سلوين » و « أراوادى » و « سيتانج » ، وطريق سكة حديد مفرد يجرى شمالا من « رانجون » وعبر «ميكتيلا» و«مندلاى »وتحت قيادة الليفتنانت جنرال« كاواب». بدأ اليابانيون الهجوم على بورما بقصف مدينة « رانجون » فى يناير ١٩٤٢ مما أضعف روح

(١) كان القائد العام للمسرح

(٢) كان رئيس أركان حرب تشانج كاى شيك

المقاومة لدى السكان ، كما حدث فى الملايو . وبعد ذلك تحركوا من الملايو وسيام ، ووصلوا بسرعة إلى « مارتابان » . وبحلول منتصف فبراير كانوا قد وصلوا وادى « سيتانج » ، وفى ٧ مارس كانت مدينة رانجون مهجورة. وقرر القائد البريطانى الجديد« الكسندر »وجوب سحب قواته إلى الهند قبل أن تهب الرياح الموسمية ، وينشىء جبهة دفاعية على حدودآسام .

وقد عانت القوات البريطانية والهندية معاناة شديدة أثناء الإنسحاب ، على عكس اليابانيين الذين لم يبدوا عليهم التعب .

وأشرك اليابانيون فى هذه العمليات ثلاث فرق وثلاث ألوية مدرعة بدبابات خفيفة . ولم يحدث أبدا من قبل أن قامت حرب بين جيوش حديثة فى مثل أرض بهذه الطبيعة،ولكن اليابانيون كانوا قد تدربوا على أرض مشابهة فى جزر « هينان » و « فرموزا » ، وأصبحوا فى الواقع مقاتلين من الدرجة الأولى . وكانوا يقاتلون فى مجموعات صغيرة خفيفة التجهيز ومسلحة أساساً بمدافع ماكينة خفيفة وهاونات.وقاموا بمناورات بارعة وجريئة لتصفية الجيوب وقطع المواصلات ، شاقين طريقهم بالقوة عبر الوديان المتوازية لنهرى « أراوادى » و « سيتانج » مطوقين باستمرار المقاومة .

وبانسحاب البريطانيين ، تحول ثقل هجوم اليابانيين إلى الجبهة الصينية فى الشمال الشرقى، حيث تلاشت المقاومة بسرعة . وعندئذ إندفعوا بسرعة إتجاة طريق بورما عند «لاشيو» حيث وصلوها فى نهاية أبريل وقطعوا هذا المحور ، كما عبروا الحدود الصينية فى ١٥ مايو . وقد ناضل البريطانيون عبر الأحراش وفوق الجبال ، للوصول إلى « أمفال » داخل الحدود الهندية ورافقهم وأعاقتهم آلاف كثيرة من المواطنين اللاجئين . ومع نهاية مايو ١٩٤٢ كان الكسندر قد نجح فى سحب معظم رجاله ، ولكن بعد أن فقدوا الكثير من معداتهم .

معركة بحر المرجان

(أنظر اللوحة رقم ٥٤)

وفى منتصف عام ١٩٤٢ ، تمكن اليابانيون من تحقيق جميع أهدافهم بتقدمهم السريع وقتالهم الفعال ووحشيتهم مثلهم فى ذلك مثل قبائل المغول القديمة ، تلك الأهداف التى لم تقتصر فقط على بورما ولكن أمتدت إلى أندونيسيا والمحيط الهادى أيضا . وبعد إستيلائهم على

بورما لم يعبروا الحدود إلى الهند ، ولكنهم وطدوا أنفسهم بدفاع قوى فى بورما .

ومن جزر الهند الشرقية الهولندية قاموا بمد فتوحاتهم شرقا إلى غينيا الجديدة وجزر « جلبرت » و « وسليمان » . وفى أبريل قام الأسطول اليابانى بقيادة « ناجومو » بالدخول إلى المحيط الهندى والتجول فيه على هواه ، مدمرا القواعد البريطانية فى « كولومبو » و « ترينكومالى » وأغرق طرادين وحاملة طائرات . وتحول « ناجومو » بعد ذلك شمالا حيث أحدث تدميرا خطيرا فى السفن التجارية خارج « مدراس » وفى خليج « البنغال » . ولم يكن فى إستطاعة الحلفاء البدأ فى مهاجمة حلقة المواقع اليابانية بدون قوة بحرية . وعلى كل فالحرب فى المحيط الباسيفيكى يعتبر قصة مشوقة للغاية . فقد أصبحت مشكلة اليابانيين الآن تكمن فى القوة الجوية والبحرية لأعدائهم . وفى الحقيقة فقد أعجزت الغارة على بيرل هاربور فى دبسمبر ١٩٤١ الأمريكان فى المحيط الهادى ، ولكن كان إلى حين فقط . ففى الواقع لم تحقق هذة الغارة النجاح الحاسم لليابان ، والذى كانت تأمل فيه . وقد فقد الأمريكيون فى تلك الغارة بوارجهم ولكن عصر تلك السفن الحربية الكبيرة كان قد إنتهى مع ظهور حاملات الطائرات . وكان لدى الأسطول الأمريكى فى الباسيفيك أربع حاملات طائرات تستطيع حمل ٣٥٠ طائرة، وكان هذا هو المهم. أما التدمير الذى أصاب منشآت بيرل هاربور فقد أمكن للولايات المتحدة بقدرتها الصناعية التى تبلغ عشر مرات قدرة اليابان أن تبنى قوتها النسبية بسرعة . وقدر الأمريكيون أنهم سوف يكونون مستعدين للقيام بهجوم مضاد فى عام ١٩٤٣ . أما اليابانيون فقد أدركوا ضعف موقفهم وبالتالى وجوب القيام بتحطيم القوة البحرية لعدوهم فى الباسيفيكى خلال عام ١٩٤٢

وقدر الأدميرال « ياماموتو » قائد البحرية اليابانية ، أن بيرل هاربور بعيدة جدا على اليابانيين لكى يوجهوا هناك ضربة مباشرة وبقوة كافية ، ولهذا فقد أعد خطة مزدوجة لإستدراج أسطول الحاملات الأمريكية للدخول فى مدى الضرب اليابانى .وقد خطط أولا للحصول على السيطرة فى بحر المرجان وبذلك يشكل تهديدا على أستراليا ، وبالتالى لابد أن يقوم الأمريكان لإنقاذها . ثانيا سيقوم « ياماموتو » بالاستيلاء على « ميدواى » (١) .

---

(١) وهى جزيرة مرجانية صغيرة فى منتصف المسافة بين كاليفورنيا والصين وعلى بعد ١١٠٠ ميل إلى الشمال الغربى من جزر هاواى « المعرب »

وفى أواخر أبريل ١٩٤٢ بدأ تقدم اليابانيين فى بحر المرجان، وكان هدفهم الإستيلاء على نقطتين ، الأولى وهى « تولاجى » فى جنوب جزر سليمان وقد تم الإستيلاء عليها كما كان مخططا فى ٣ مايو . وتحركت مجموعة بحرية ثانية إلى ميناء « مورسبى » على الشاطىء .

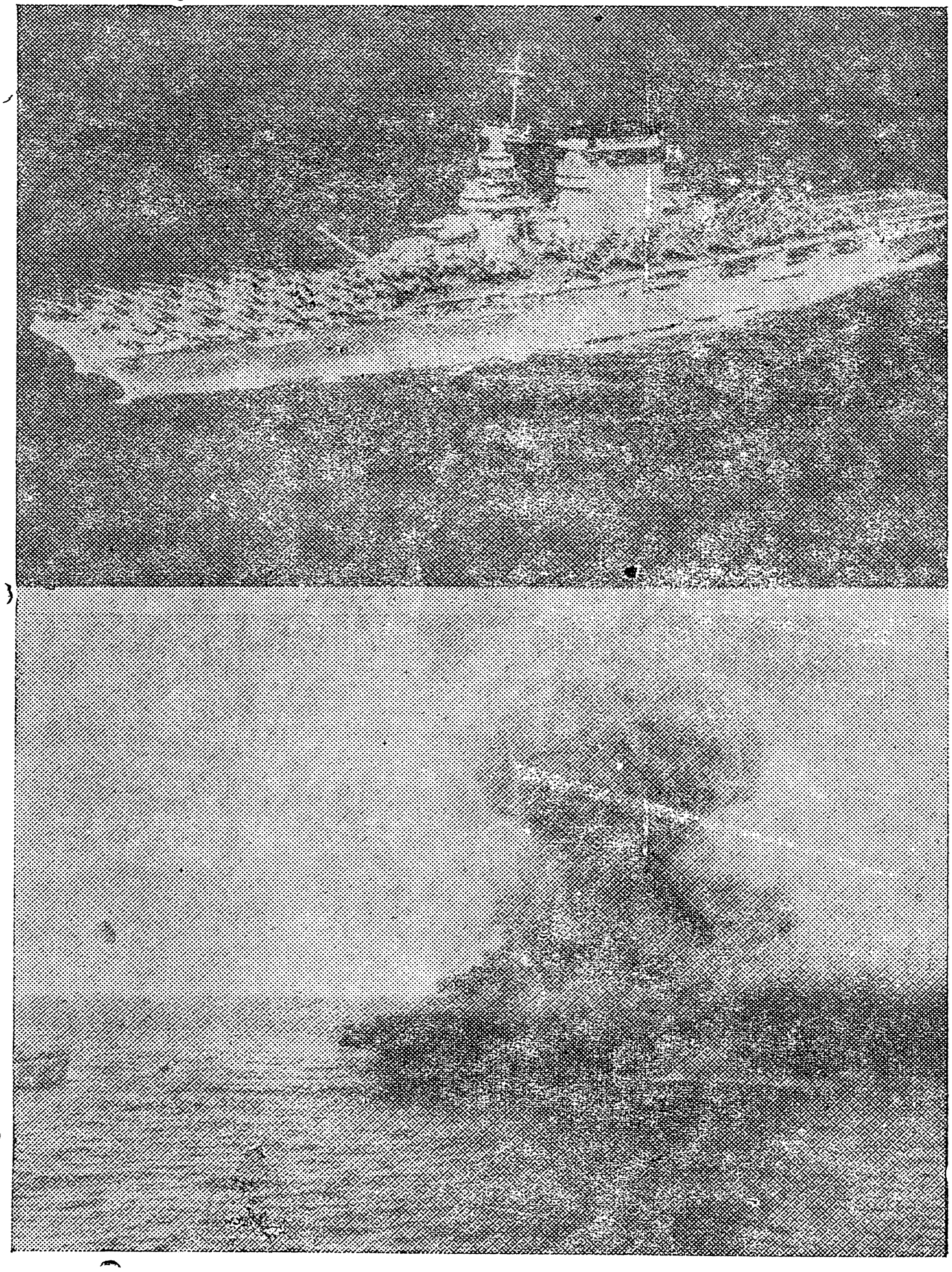

حاملة الطائرات لكسينجتون فى الصورة العليا قبل تدميرها مباشرة

وفى الصورة السفلى أثناء تدميرها

الجنوبى لغينيا الجديدة . ولـكن كانت إجراءات الأمن اليابانية ضعيفة ، وعلم الأدميرال « نيمتز » (١) بما كان يدبره اليابانيون ، وبناءا عليه فقد تمركزت كل من حاملتى الطائرات « لـكسينجتون » و « يوركتاون » بقيادة الأدميرال «فلتشر» بالقرب من « سامو » لمنع إستيلاء العدو على ميناء « مورسبى » .

وفى ٧ مايو ، تمكن «فلتشر» من تحديد موقع قوة التغطية اليابانية المكونة من الحاملة الخفيفة « شوهو » ومجموعات الطرادات الخفيفة التى تتقدمها لحمايتها .وعلى الفور قامت مجموعة من ١٩٣ طائرة من فوق أسطح « لـكسينجتون »و« يوركتاون» بمهاجمة الحاملة «شوهو» حيث أغرقتها فى نصف ساعة ، أماالقوة الضاربة الرئيسية فقد إستمرت فى إبحارها فى إتجاه الغرب عبر بحر المرجان تحت قيادة الأدميرال « تاكاجى » . وفى اليوم التالى ، وعندما أصبحت المسافة الفاصلة بن القوتين المتضادتين ٢٠٠ ميل تمكن إستطلاعهما مشاهدة كل منهما الآخر . وقامت القاذفات الأمريكية بمهاجمة الحملات اليابانية ، وتركت « شوكاكو » مشتعلة و « زويكاكو » مدمرة ، وسجلت قاذفات الطوربيد اليابانيـة ست إصابات على « لـكسينجتون » ، التى إنفجرت أثناء الليل . ومن الناحية الإستراتيجية تعتبر معركة بحر المرجان نصرا أمريكيا،إذ أنها أحبطت الخطط اليابانية ضد كل من أستراليا والأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى؛ أما من الناحية التكتيكية فكان لها أهمية عظيمة ، لأنها كانت بمثابة ثورة فى الحرب البحرية ، فقد كان لدى الطرفين قوة كبيرة من السفن الحربيـة التقليدية ، ولـكنها لم تشتبك مع بعضها على الإطلاق وتم القتال فى المعركة بين حاملات الطائرات ، ولم تشاهد الأساطيل بعضها أبدا . ولم تكن حاملات الطائرات سفنا حربية ولـكنها كانت قواعد متحركة للقوات الجوية ، وكانت قوة هذه الحاملات تكمن فى قوتها الهجومية لأنها تحمل طائرات الطوربيد والقاذفات المنقضة والمقاتلات .

الجحيم فى ميداوى

وفى هذه المرحلة ، كانت الطائرة اليابانية أكثر قـوة ولـكن قليلة العدد من الأمريكية وفيما بعد أنتج الأمريكيون طائرة الطوربيد «أفنجر» والمقاتلة « هلكات » ، بعد

(١) القائد الأمريكى فى بيرل هاربور .

إدخال بعض التطورات على مستوى أدائها . وأكثر من ذلك كانت الحاملات الأمريكية تحمل طائرات أكثر من اليابانية ، ولم تكن حاملة الطائرات نفسها مدرعة تدريعاً ثقيلا مما جعلها هدفا ضخما لما عليها من الوقود والمفرقعات ، وقد أعتمدت فى دفاعها على مقاتلاتها وعلى قوة نيران ستارة واقية من السفن الحربية الخفيفة .

وفى الحقيقة قد أثبتت حاملات الطائرات على أنها معرضة تعرضاً خطيراً للهجوم عليها من الجو . ولم تمنع هزيمة اليابان فى بحر المرجان إلى التخلى عن تنفيذ الجزء الثانى من برنامجهم ، وهو الهجوم على ميدواى . وفى مايو حشد الأدميرال « ياماموتو » معظم البحرية اليابانية تقريباً ، حوالى ٩٠ سفينة فى بحر « أنلاند » وجزيرة « ماريانا » . ولكن الأمريكيون حلوا الشفرة اليابانية ، لأن الأمن والإستطلاع اليابانى كانا سيئتين . وفى منتصف مايو علم « نيمتز » أن هناك هجوما يابانياً سوف يتم على « ميدواى » فى أوائل يونية من الشمال الغربى . ودعمت ميدواى ، وشكل الأمريكيون قوتين للمهمة ،الأولى تحت قيادةالأدميرال « فلتشر » فى حاملة الطائرات « يوركتاون » ، بينما كانت الثانية تحت قيادة الأدميرال « سبروانس » ومعه حاملتى الطائرات « انتربرايز » و « هورنت » . ولم يكن هناك بوارج ، وقدمت تغطية حاملات الطائرات بالطرادات والمدمرات . وفى أواخر مايو خرجت القوتين من بيرل هاربور إلى نقطة فى الباسيفيك تبعد ٣٠٠ ميل إلى الشمال الشرقى من ميدواى ، حيث كان عليها التجول لتشكل كميناً . وإقترب اليابانيون فى مجموعتين ، وكانت القوة الرئيسية مشكلة من أربع حاملات طائرات ، « أكاجى » و « كاجا » و « هيريو » و « سوريو » بقيادة « ناجامو » ، وتحركت هذه القوة فى المقدمة وعلى بعد حوالى ١٠٠ ميل من باقى القوات. وفى فجر ٤ يونية كان « ناجومو » عند نقطة بدء الهجوم وعلى بعد ٢٤٠ ميل من ميدواى ، فى نفس الوقت كان أسطول الحاملات الأمريكية يقترب من على بعد ١٠٠ ميل إلى الشرق ، وتوفر لدى الأمريكيين ميزة خطيرة وهى أن اليابانيين لم يكن لديهم أجهزة رادار ، ولم يعلموا بالتالى أن الأسطول الأمريكى فى البحر .

وهكذا كان « ياماموتو » يعتمد على المفاجأة الكاملة والتى لم تكن موجودة .وفى الساعة ٤½ من صباح ٤ يونية إنطلقت ١٠٠ طائرة قاذفة ومقاتلة من الحاملات اليابانية الأربعة ،

وبعد ذلك بساعتين كانت ميداوى مشتعلة ويعلوها الدخان بالرغم من أن قوة القاذفات قد عانت خسائر جسيمة . ودمرت خزانات البترول والمنشآت والطائرات الأمريكية ، ولكن الخسائر فى المدافع ومهابط الطائرات كانت صغيرة ، وقرر ياجومو أنه لابد من توجيه ضربة أخرى . ولتقصير المسافة على الطائرات العائدة أبحرت الحاملات جنوباً ، كما تم خلال الفاصل الزمنى وضع القنابل بدلا من الطوربيدات فى الطائرات الأخرى تمهيداً للهجوم الثانى . وفى الساعة السادسة أرسل الأدميرال « سبراونس » قوة ضاربة من ١٠٠ قاذفة ومقاتلة ، الغرض منها إعتراض الحاملات اليابانية وهى فى طريقها نحو الجنوب الشرقى . ولكن « ناجومو » علم بأقترابها وغير الأتجاه منبهاً طائراته العائدة فى الطريق إلى موقعه الجديد حيث هبطت القاذفات اليابانية بسلام .

وفى الوقت المناسب أطلقت المقاتلات اليابانية لمقابلة أول مجموعة من الطائرات الأمريكية والمكونة من ٢٩ قاذفة طوربيد والتى لم يكن معها غطاء من المقاتلات . وعندما هاجمت القاذفات الأمريكية فى ٩ ٫ أسقطت المقاتلات والسفن اليابانية ٢٥ طائرة من ٢٩ ولم يصب أى من الطوربيدات الأمريكية أهدافها ، وعندما دفعت الموجة الثانية والمكونة من ١٢ قاذفة لاقت نفس المصير . وبذلك فقدت ٣٥ طائرة أمريكية من بين ٤١ طائرة والتى أرسلت فى محاولة لتحديد مكان العدو . وتلك التضحية الأولى كانت ذات قيمة عظيمة ، فبعد طائرات الطوربيد جاءت ٥٠ قاذفة منقضة أمريكية ، فى الوقت التى كانت فيه الحاملات اليابانية لازلت تقوم بمناوراتها لتجنب الطوربيدات وبالتالى كانت غير قادرة على أطلاق طائرات أكثر من فوق سطحها ، كما كانت الحاملات « أكاجى » و « كاجا » و « سوريو » تسير فى تشكيل واحد ، والطائرات جميعها رابضة على أسطحها ، وهنا أنقضت عليها القاذفات الأمريكية فى هجوم مدمر ، وفى خلال بضع دقائق كانت الحاملات الثلاثة مشتعلة كالآتون حيث إنفجرت طوربيداتها وقنابلها فى حظائر السطح .

أما الحاملة اليابانية الرابعة « هيريو » فكانت متقدمة بضعة أميال ، وتوفر لديها الوقت لارسال قاذفاتها المنقضة للثأر من الأمريكيين . وحوالى الظهر هوجمت الحاملة الأمريكية « يوركتان » ، وأستطاعت ست طائرات يابانية النفاذ من ستارة مقاتلاتها وأصيبت بثلاث

قنابل إشعلت فيها النيران ودمرت غلاياتها . وأمكن السيطرة على النيران ، وبعد حوالى ساعة كانت « يوركتاون » تسير فى مجراها ثانية .

ولكن تمت هجمة ثانية بواسطة ٣٢ قاذفة طوربيد من الحاملة « هيريو » ، وأتت الطائرات منخفضة ، وقامت « يوركتاون » بعمل غلالة من الرزاز وذلك بأطلاق مدافعها فى الماء لتضليل الطائرات المنخفضة ، ولكن تمكنت خمس طائرات من إختراق هذه الغلالة ، وضربت الحاملة بثلاث طوربيدات . ودمرت « يوركتاون » تدميراً خطيراً مما أوجب إخلائها ، وبعد ذلك بيومين أغرقتها غواصة يابانية . وفى نفس الوقت تم تحديد مكان « هيريو » ، وأطلقت الحاملة « هورنت » قاذفاتها المنقضة ، وفى الساعة الخامسة كانت آخر حاملات الأدميرال « ناجومو » مشتعلة ، وبذلك تم إغراق الحاملات الأربعة . ولم يتمكن الأدميرال « ياماموتو » الموجود فى سفينة القيادة على مسافة ١٠٠ ميل فى الخلف من جمع أى تقارير واضحة عن المعركة إلا فى وقت متأخر من بعد الظهر . وبدأ على الفور الأنسحاب غرباً خوفاً من هجوم تالى للحاملات على أسطولة .وقام سبروانس بمطاردته ومعه الحاملتين « أنتربرايز » و « هورنت » ولكن لم يحدث أى إشتباك حتى ٥ يونية .

وفى ٦ يونية أغرقت القاذفات الأمريكية ، الطراد الثقيل « ميكوما » وتلك كانت الخاتمة الأخيرة لمعركة « ميداوى » . وواصل « ياماموتو » الأبحار للنجاة ، وأوقف «سبروانس» المطاردة نظراً لنقص الوقود فى الحاملات الأمريكية . وكانت معركة « ميدواى » فى يونية ١٩٤٢ ذات أهمية بالغة من الناحية الإستراتيجية ، فلو قدر ودمر اليابانيون أسطول الحاملات الأمريكية ، لفقدت الولايات المتحدة الفرصة لهزيمة اليابان لمدة طويلة .وظهرت فى السنوات التالية للحرب أهمية وحيوية وجود الحاملات فى الحرب البحرية . وقد كان من المستحيل الإستيلاء على الجزر المتناثرة غربى الباسفيك بدون غطاء جوى . وأصبح اليابانيون بعد خسارتهم لهذه الحاملات الأربعة فى موقف سىء الغاية ولم يتمكنوا من بناء سوى حاملة طائرات واحدة يمكن الأعتماد عليها فقط قبل نهاية الحرب . ومن ناحية أخرى كان عليهم إستخدام البوارج المعدلة لتصبح حاملات ولكنها كانت ليست البديل الصحيح لقوة وتأثير حاملات الطائرات . وفى ذلك الوقت أصبح الأمريكيون فى موقف ملائم للهجوم ، وبدأوا حملتهم

الطويلة بالصراع حول « جواد الـكنال » ، والتى إستمرت من أغسطس ١٩٤٢ حتى يناير ١٩٤٣ ، وكانت « جواد الـكنال » نقطة إستراتيجية هامة حيث أنها جزيرة من مجموعة جزر سليمان ، أنشأ فيها اليابانيون مهبط للطائرات . وفى ٧ أغسطس دخل الأسطول الأمريكى إلى المنطقة ، وتم إنزال حوالى ٢٠٫٠٠٠ من رجال البحرية بنجاح . ولـكن بعد ذلك بيومين ظهر على المسرح حشد بحرى يابانى ،وفى عملية ليلية اغرقت أربعة طرادات أمريكية وهى نصف القوة الأمريكية ، وكان الصراع التالى من أجل « جواد الـكنال » بالغ القسوة . فالى جانب الأعمال الصغيرة المتعددة والهجمات الجوية المستمرة من كلا الجانبين ، فقد نشبت ستة معارك بحرية أخرى ، وأعجزت المعارك الثلاث الأولى منها ، اليابانيين عن إحضار تدعيات قوية ، وعلى أرض « جواد الـكنال » نفسها دار قتال قاسى وضارى وبطريقة متـكافئة فى القوى وفى الخسائر لـكلا الجانبين ، ثم تمـكن الأسطول الأمريكى من إحراز التفوق على اليابانيين. وكانت آخر عملية بحرية عبارة عن عملية تغطية بواسطة اليابانيين لجلاء عن « جواد الـكنال ». وأدى هذا النجاح الأمريكى فى النهاية إلى إيقاف التقدم اليابانى جنوبا ، وحقق للامريكيين قاعدة لهجومهم المضاد . ويشير الأسم الغير رسمى لها « عملية رباط الحـذاء » على مدى صعوبتها .

أقوى قوة بحرية فى العالم (أنظر اللوحة رقم ٥٤)

وفى أوائل عام ١٩٤٣ حددت الخسائر الجسيمة التى وقعت بين السفن والطائرات اليابانية مقدار المعاونة التى يستطيع اليابانيون تقديمها لحامياتهم الخارجية . وبدأ الأمريكيون حملتهم لإعادة إحتلال القواعد اليابانية . وتميزت إستراتيجيتهم بالعمليات المشتركة ذات المستوى العالى بين جميع الأسلحة . وكان التقدم نحو اليابان لابد أن يتم عبر سلاسل الجزر المتعددة وفى وثبات متتالية وذلك بالإستيلاء على الجزر التى يحتلها اليابانيون قبل الاتجاة إلى الجزر الأخرى ،ولذلك أستخدمت القوات الجوية من قواعد جوية متقدمة أو من حاملة للطائرات ، للقيام بأجراء الضرب التمهيدى ضد قواعد العدو ، ثم بعدها يتم وثبة إلى الإمام بواسطة القوات المحمولة بحراً أو جواً للاستيلاء على الهدف .

ثم يتم إنشاء « قاعدة متحركة » مكونة من السفن التى تحمل كل الإحتياجات من مؤن

ومعدات ووقود ، للتحضير للوثبة التالية . وقاد الجنرال « دوجلاس مارك آرثر » التقدم على طول الشاطىء الشمالى لغينيا الجديدة حتى الفليبين .

وفى نفس الوقت تقدم الأدميرال « نيمتز » من جزر « هاواى » إلى جزر « جلبرت » و « مارشال » ثم إلى جزر «ماريا ناس» . وقام الأدميرال « هالس » بتطهير المنطقة جنوب شرقى غينيا الجديدة . وقاتلت قوات[1] مارك آرثر ، قتالا عنيفاً للاستيلاء على شبه جزيرة « فينستشافن » والتى تم الإستيلاء عليها فى أكتوبر ١٩٤٣ ، وفى سبتمبر ١٩٤٤ وصلت القوات إلى النهاية الغربية لغينيا الجديدة . وكان له ثقل كبير فى جزيرة موروتاى فى مجموعة جزر الملوك ، إستعداداً لغزو الفليبين . وأستولى « نيمتز » على جزر « جلبرت » فى نوفمبر ١٩٤٣ وعلى جزر « مارشال » فى أوائل ١٩٤٤ .

وفى يونيه ١٩٤٤ هوجمت جزر « سايبان » و « جوام »ضمن مجموعة جزر «ماريا ناس» . وإنخفض إنتاج اليابان للمواد الحربية إنخفاضا كبيرا ، بينما أنتج الأمريكيون طائرات جديدة وبأعداد كبيرة ، كما كان تفوقهم فى حاملات الطائرات كبيرا جدا . وأستخدم اليابانيون غواصاتهم فى مهاجمة السفن الحربية الأمريكية،فى الوقت التى ركزت فيه الغواصات الأمريكية هجومها على سفن الشحن وناقلات البترول اليابانية ، وكان ذلك له أكبر الفائدة .

وكان من النادر أن يستطيع اليابانيون تدعيم الجزر ، حيث كانت القاذفات الأمريكية تقصف بعنف وشدة أى محاولة للنزول إلى البر ولكن كان القتال دائما ضاريا وبدون رحمة من كلا الجانبين ، فكان اليابانيون ينتظرون فى الأحراش ويهاجمون مشاة البحرية على الشواطىء شديدة الانحدار . وعلى أى حال فبعد عدة أسابيع من القتال تم الإستيلاء على جزر « المارياناس » ، وبعد ذلك وفى معركة بحر الفليبين فى ٢٩ يونية أغرق أسطول «سبراونس» أفضل حاملتى طائرات يابانية ، كما دمر حاملة أخرى ، بينما تم تدمير أكثر من ٤٠٠ طائرة يابانية بواسطة الطائرات الأمريكية من نوع « هلكات » .وقد خاض كل من «ماك آرثر» و « نيمتز » واللذين أعرفهما ، حملات بارعة فى حربهم ضد اليابانيين فى الشرق الأقصى . وقد كانت هذه الحرب برمتها حربا أمريكية ، وقد قاتل الأمريكيون حرباجديدة وبوسائل

---

(١) كان معظمها من الاستراليين « المعرب »

جديدة ، وواصلوا الحرب حتى حققوا النصر الكاملا . وقد ركب الحلفاء أمواج هذه الحرب بصعوبة .

ولكن لم يكن لدى ماك آرثر حليف يقترح عليه حلولا بديلة . وخلال حرب ٣٩ — ١٩٤٥ أحدث الأمريكيون تأثيرا عميقا جدا فى الحرب البحرية ، فقد طوروا إستراتيجية جديدة وتكتيكات جديدة وأساليب تكنولوجية تلائم الحرب فى البحر فى العصر الجديد للقوة الجوية . وارتقوا خلال الأربع سنوات من الحرب ليصبحوا أقوى قوة بحرية فى العالم . ولكم أنا سعيد عندما حظيت بالتعرف على الأدميرال « نيمتز » ، ذلك البحار العظيم .

عمليات سليم (أنظر اللوحة رقم ٥٥)

والآن يجب علينا أن نعود إلى بورما ، حيث يخوض الجنرال سليم معارك بارعة بجيشه الرابع عشر .

فبينما كان المديتحول ضد اليابانيين فى الباسفيكى ، قام الحلفاء بالهجوم فى بورما . فقد تبع إنسحاب قوات الكسندر فى عام ١٩٤٢ فترة من الركود حيث قام البريطانيون خلالها بتنفيذ برنامج كبير لإعادة التدريب فى الهند ، وبأسلوب تجريبى إلى حدما . وقد تم الهجوم بحذاء الشاطىء الغربى فى منطقة «أراكان» وإنسحب اليابانيون إلى موقع مجهز فى شبه جزيرة « مايو » والمدافع عنها بشبكة من الدشم المحصنة. وهناك صدوا الهجمات المتكررة ، برغم التفوق عليهم بنسبة ٢ : ١ ، مما أدى أن أنسحب البريطانيون أخيرا ، بعد ما تكبدوا خسائر جسيمة كما حدث إنخفاض فى الروح المعنوية . وفى نفس الوقت قام ضابط بريطانى هو العميد « أورد وينجات » بعملية قام هو بتصميمها وبموافقة ويفل عليها . وكانت نظرية « أورد » تتضمن أنه يمكن لقوة صغيرة ومدربة تدريبا عاليا ، أن تعمل فى داخل بورما وذلك بشن حرب عصابات على مواصلات اليابانيين ، متجنبين القوات الدفاعية الرئيسية لليابانيين على ألا تعتمد هذه القوة على المواصلات البرية ، ولكن يتم إمدادها من الجو . وفى فبراير ١٩٤٣ عبر « أورد » نهر « شندوين » ومعه ٣٠٠٠ رجل ، مخترقا طريقه بعمق فى الأراضى التى يحتلها اليابانيون .

وفى مارس تم قطع خط السكة الحديد من «مندلاى» إلى ميتكينيا فى عدة أماكن وقتل مئات من جنود العدو .

وفى مايو عاد إلى الهند حوالى ٢٠٠٠ رجل من الحملة أحياء . ومن الناحية المادية ، لم تكن لحملة « أورد » قيمة كبيرة، كما أضطرت إلى ترك المرضى والجرحى لليابانيين المتوحشين وأدى هذا إلى الكثير من الشك فى قيمتها ولكن أكتسب الأمريكان خبرة ممتازة فيما يختص بالأمداد الجوى .

وفى عام ١٩٤٣ تم تنظيم قيادة جديدة للحلفاء ، وأصبح الأدميرال « مونتباتن » القائد الأعلى والمسئول عن تنظيم وتنسيق التعاون بين القوات فى جنوب شرقى آسيا ، كما أصبح « ستيلويل » نائباً له ، والذى كان قائداً للقوة الأمريكية — الصينية فى المنطقة الشمالية ، والتى تشمل على ثلاثة فرق صينية وثلاث كتائب أمريكية وقوة غير نظامية صغيرة .

أما القوة الرئيسية الأخرى فكانت الجيش البريطانى ١٤ والذى يتكون من حوالى ١٠ فرق من القوات البريطانية والهندية والجوركية والجنوب أفريقية ومعها لوائين من الدبابات. وفى أواخر عام ١٩٤٣ تولى الجنرال سليم قيادة الجيش ١٤ ، أما القوات اليابانية فكانت بقيادة الجنرال « كاواب » بلغ مجموعها حوالى تسع فرق كاملة ، وقد قسمت إلى ثلاثة جيوش: — الجيش ٢٨ ومسئولا عن مواجهة « أراكان » ، والجيش ١٥ مسئولا عن الجبهة الوسطى وبصفة خاصة ممرات السكة الحديد ، والجيش ٣٣ يحتل ويسيطر على الجبهة الشمالية الشرقية.

وقد أعطى الأمريكيون الأسبقية الأولى لتطهير الطريق إلى الصين عبر شمالى بورما . وكانت إستراتيجية الحلفاء لهجوم شتاء ١٩٤٣ — ١٩٤٤ تدور حول هذا الرأى وتحتم تجديد الهجوم على « أراكان » بينما تتحرك قوة « ستيلويل » جنوبا فى إتجاه « ميتكيينا » لتغطيه طريق ليدو على أن يتعاون مع قوة « ستيلويل » هجوم آخر « أورد » .

وأصبح من الملامح المميزة لهذه الحملة هو الاستخدام الجديد للمعاونة الجوية والتى حققتها القوات الجوية الملكية والأمريكية . فقد كانت الأمدادات والمواصلات تتم جواً بالكامل ، فكان يتم الأمداد بالكامل من الجو لفرقة تتقدم بسرعة عبر الأراضى الصعبة. وسارت الحملة سيراً حسناً . وحاول اليابانيون تطويق القوات البريطانية فى « أراكان » ولكن

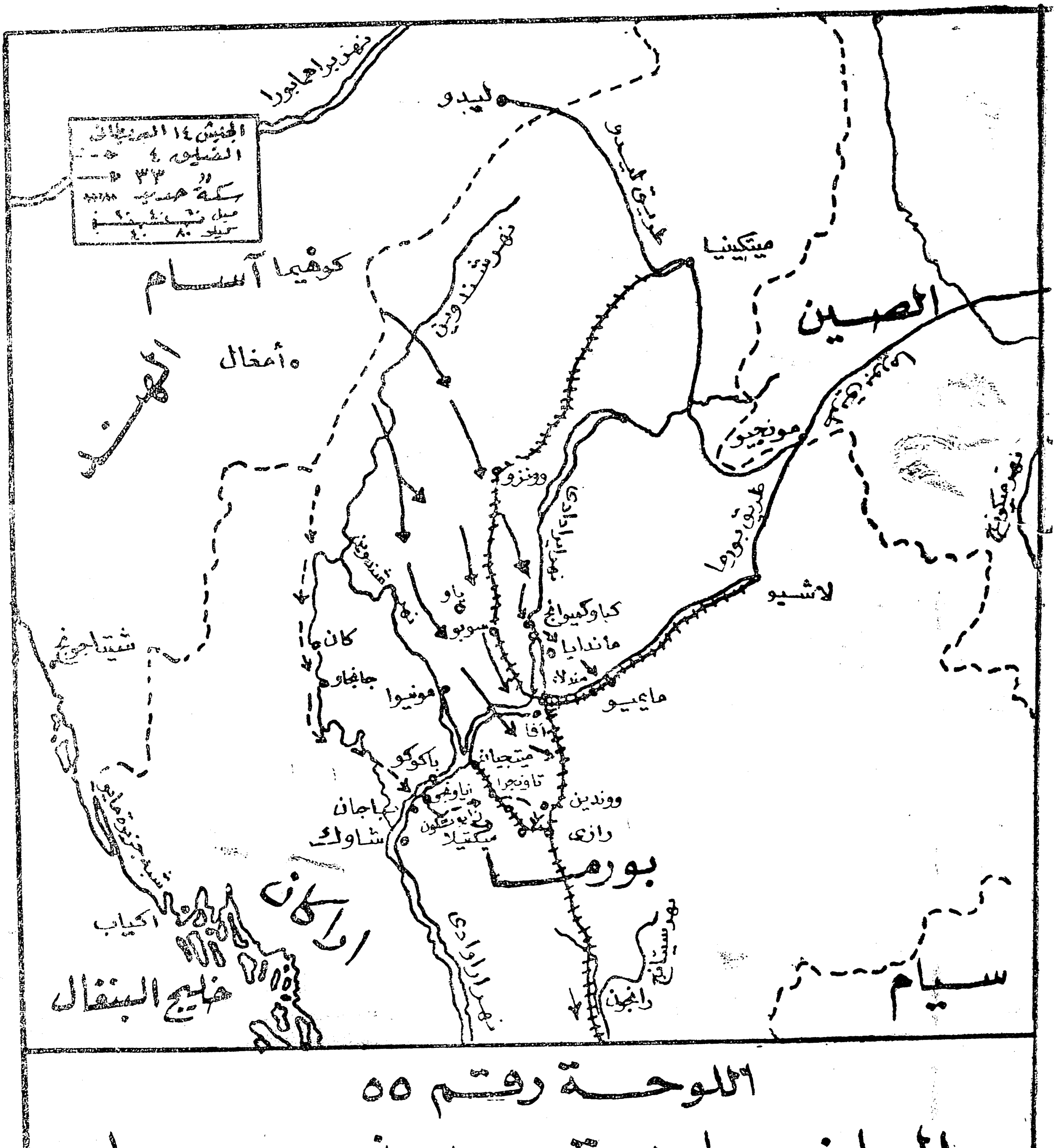

اللوحة رقم ٥٥

الحلفاء يستعيدون بورما

تم تطويقهم عندما دفع سليم بقوات إضافيه جوا . وأدى هذا الأنتصار الأول للبريطانيين على اليابانيين إلى رفع الروح المعنوية بدرجة عظيمة . وقد حققت قوات « ستيلويل » أهدافها، فقد قوبلت بفرقة واحدة فقط .

وتم إنزال لوائين من قوات « أورد » بواسطة الطائرات الشرعية فى عدة نقط ، بينما تقدم لواء واحد براً ، وقامت هذه القوات بمهاجمة المواصلات ، فنجحت فى جذب القوات اليابانية الرئيسية بعيدا عن « ستيلويل » قبل أن تشتبك معه في قتال . وقتل « أورد » نفسه فى حادث سقوط طائرة .

وفى مارس ١٩٤٤ قام اليابانيون بهجوم رئيسى ضد آسام ، ودار صراع دام ثلاثة أشهر فى كل من منطقتى « أمفال » و « كوهيما » . وقام سليم مرة أخرى بنقل قوات بطريق الجو ، حتى أصبح لدى البريطانيين ست فرق ضد ثلاث فرق يابانية . وبعد هجوم يائس تم فى يوليه ، توقف اليابانيون وأنسحبوا عبر نهر « شندوين » بعد أن قاتل اليابانيون بعنف وخسروا أكثر من ٥٣٠٠٠ رجل، كما أنهم عانوا المزيد من الخسائر التي نتجت عن الأمراض وخصة الملاريا . ويعتبر ذلك مقياسا لنوع الخدمات الطبية التى تتطلبها بشكل عام الحملات فى مثل هذا النوع من البلاد . وبعد الهزيمة الساحقة لليابانيين فى آسام ، أصبحت مهمه سليم هى إحتلال وسط بورما وجنوبها حتي « مندلاى » . فى الوقت الذى أصبحت قوة اليابانيين فيه تعادل عشر فرق مشاة وفرقتين من « الجيش الهندى القومى » وفوج دبابات ، بالإضافة إلى العديد من القوات على خطوط المواصلات .

وقد إستطاعت قوة الحلفاء الشمالية والتى يقودها فى ذلك الوقت الجنرال « سلتان » أن تشغل فرقتين من قوات العدو ، بينما أمكن شغل ثلاث فرق أخرى بواسطة القوة التى فى « الأراكان » وأيضا عن طريق التهديد بعمليات إنزال بحرى وجوى. وبذلك فأصبح من المتوقع أن يواجه هجوم الجيش ١٤ المكون من ست فرق على وسط بورما، بخمس فرق معادية فقط. وقد كان لدى اليابانيين قائداً عاماً جديداً هو الجنرال كيمورا . وقد قسم سليم جيشه إلى فيلقين الفيلق ٤ بقيادة الجنرال « مسيرفى » ويتكون أساساً من الفرقة ٧ والفرقة ١٧ واللواء

٢٥٥ دبابات[١] . والفيلق ٣٣ بقيادة الجنرال « ستوبفورد » ويتكون من الفرقة الثانية والفرقه ١٩ والفرقة ٢٠ واللواء ٢٥٤ دبابات[٢] . ووضعت الفرقة الخامسة فى الأحتياطى. وكان على النقل الجوى أن يكون هو وسيلة الأمداد حتى المواقع المتقدمة .

وبدأ هجوم الجيش ١٤ فى ٣ ديسمبر ١٩٤٤ ، وعبرت فرق سليم الستة نهر شندوين لغرض إجبار اليابانيين على الدخول فى المعركة وهزيمتهم فى سهل شويبو . وعلى أى حال فقد قرر « كيمورا » بعد هزيمته فى « أمفال » عدم المخاطرة بمعركة فى سهل مفتوح ، وقام بسحب قواته بالتدريج خلف نهر « أراوادى » حيث إستعد « لمعركة شاطىء نهر أراوادى » .

وكان يأمل أن يعطل الجيش ١٤ عندما يحاول عبور النهر ، وبعد ذلك يقوم بتدميره أثناء عودته منهكا إلى نهر « شندوين » .

ولكن عندما أصبح واضحاً أن اليابانيين ينسحبون ، قام سليم باتخاذ خطة جديدة لتدمير القوات اليابانية الرئيسية خلف « أراوادى » ، وكانت الخطة تتضمن أن يقوم الفيلق ٣٣ بعبور النهر عنوة شمال وغرب « مندلاى » ، جاذباً إليه أكبر تجمع ممكن من القوات اليابانية ، بينما يقوم فى نفس الوقت الفيلق الرابع بالتسلل على طول وادى جانجاو ، ويعبر نهر « أراوادى » بالقرب من « با كوكو » ، ثم يقوم عندئذ وبدون توقف وبعنف بالهجوم بالمدرعات والقوات المحمولة جـواً على « ميكتيلا » المركز الرئيسى الإدارى للجيوش اليابانية .

فكان يتواجد فى هذه المنطقة قواعدهم الرئيسية للأمداد ومستودعات الذخيرة والمستشفيات وعدة مطارات ، كما كان يلتقى عندها الطرق والسكة الحديد الآتية من الجنوب الشرقى والغرب، وقبل أن تمتد ثانية إلى الشمال، ولو تم الإستيلاء على ميكتيلا فسوف تقطع مواصلات الجيوش اليابانية فى المنطقة بين « سلوين » ونهر « أراوادى » ، وبذلك يجبر « كيمورا » على القتال فى معركة غير متكافئة من أجل إستعادتها . ويمكن للبريطانيين بعد ذلك متابعة النصر بالأنطلاق نحو « رانجون » .

(١) كان نوع الدبابات شيرمان

(٢) كان نوع الدبابات جرانت وستوارت

وفى الأسبوع الثانى من يناير ١٩٤٥ كان جيش سليم يقترب من نهر « أراوادى » وعلى مواجهة أكبر من ٢٠٠ ميل فيما بين « وونزو » و « با كوكو » .

ولم يحاول اليابانيون التمسك بكل خط النهر ، ولكنهم ركزوا الدفاعات على أماكن العبور المحتملة ، مع الإحتفاظ باحتياطى خفيف الحركة فى الخلف حتى يتضح لهم نوايا البريطانيين .

وفى ليلة ١٤ يناير بدأ الفيلق ٣٣ تنفيذ دوره فى إستراتيجية سليم ، وبدأت الفرقة ١٩ عبور نهر أراوادى ، شمالى مندلاى ، عند « كياوكميوانج » حيث تم أقامة رأس جسر .

وفى يوم ١٧ قرر العدو أن هذه هى عملية العبور الرئيسية للبريطانيين، وتم حشد القوات اليابانية للقيام بهجوم كبير هناك .

وفى خلال الثلاثة أسابيع التالية نشب قتال عنيف ، وأحضر « كيمورا » قوات أكثر وأكثر ، بما فى ذلك تدعيمات من « ميكتيلا » ، لطرد البريطانيين خلف نهر « أراوادى » ، ولكن رأس الجسر البريطانى كان يتسع بثبات ، كما تم عبور آخر إلى الغرب من « مندلاى » .

وفى نفس الوقت كان الفيلق الرابع يشق طريقه جنوباً خلف نهر « شندوين » فى إتجاه نهر « أراوادى » عند « با كوكو » .

وكان آخر موعد لأنجاز العبور هو ١٥ فبراير ، ولأحباط أى أعاقة يقوم بها الحرس الخلفى اليابانى ، تم التقدم خلف منطقة « كان » وعلى مواجهة واسعة لكى يمكن تطويق العدو ، وفى ٢٨ يناير وصل الفيلق الرابع إلى وادى نهر « أراوادى » .

وجند كل الرجال للعمل فى إنشاء مهابط للطائرات وإصلاح الطرق حتى يمكن للدبابات وعربات النقل أن تتحرك للأمام ، ومعها مهات العبور . وقرر « مسيرفى » أن يتم العبور بالقرب من « نياونجو ، حيث هناك النهر ضيقاً .

ولكى يتم خداع العدو ، تمت عمليتين خداعيتين فى نقطتين آخرتين على النهر . وقبل فجر يوم ١٤ فبراير مباشرة قامت أولى القوات بالعبور فى قوارب فى سكون تام ، وكان مكان

العبور على بعد حوالى ميل من نياونجو ، وقاموا بانشاء مواقع دفاعية على الضفة البعيدة . وفى ضوء النهار عبرت النهر قوة كبيرة ترافقها المدفعية والدبابات علاوة على المعاونة الجوية لتوسيع رأس الجسر لباقى القوات .

وتم الإستيلاء على « نياونجو » فى ١٦ فبراير . وفوجىء اليابانيون مفاجأة كاملة ، فلم يكن لديهم أى معلومات عن وجود قوات معادية رئيسية فى المنطقة . ولم يكن القيام بمثل هذه العملية ممكناً إلا بالتغطية التى وفرتها تحرك القوات من خلال الأحراش ودعم القوات الجوية لتحركات تلك القوات .

ولقد إنخدع « كيمورا » تماماً بخطة « سليم » ، فقد ظل يعتقد أن جميع الجيش ١٤ مازال فى المنطقة بين نهرى « شندوين » و « أراوادى » ، شمالى «مندلاى» . أما العمليات التى كانت تتم فى إتجاه « با كوكو » فقد أعتبرها « كيمورا » نوعاً من المظاهرات العسكرية الخداعية التى تقوم بها قوات صغيرة .

وظل « كيمورا » يتوقع أن يقوم البريطانيون بمحاولة رئيسية وواسعة للانطلاق فى إتجاه « مندلاى » ، ولذلك فقد إستمر فى سحب القوات من القطاعات الأخرى لحشدها لمعركة شاطىء نهر « أراوادى » .

وفى أواخر شهر فبراير زادت التدعيمات من قوة « كيمورا » حتى وصلت قوته إلى تسع فرق ، وذلك ضد الخمس فرق البريطانية الموجودة عند « مندلاى » . وأصبح الفيلق ٣٣ يواجه مقاومة كبيرة من المجموعات الغير نظامية المحلية .

وكان من الضرورى على الفيلق الرابع أن يحقق نجاحاً سريعاً فى هجومه على « ميكتيلا » . الشىء الذى سوف يجبر « كيمورا » على التحول لأنقاذها ومن ثم تتعرض قواته لهجوم مزدوج .

الألغام البشرية

(أنظر اللوحة رقم ٥٥،٥٦)

وفى ٢١ فبراير بدأت الفرقة ١٧ ولواء دبابات الفيلق الرابع التقدم نحو « ميكتيلا » . وفى ٢٥ فبراير إحتلوا مهبط طائرات « زابوتكون » والذى يقع على بعد عشرة أميال فقط من المدينة .

وفى اليوم التالى تدفقت قوات أكبر إلى المنطقة ، وجرت محاولات من جانب اليابانيين لأغلاق الطريق ، ولـكن تم القضاء عليها بسرعة بواسطة هجمات بالمواجهة وبحشد من الدبابات . وعلى بعد خمسة أميال من المدينة توقف الفيلق الرابع لأعادة التشكيل .

أما اليابانيون فى « ميكتيلا » فقد قضوا أياما عديدة فى حفر المواقـع الدفاعية تحت قيادة الجنرال « كاسويا » .

وقد نظم « كاسويا » قوته المقاتلة والتى كانت حوالى ٣٫٢٠٠ رجل وعدد كبير من المدافع ، وقام بتسليح كل رجاله المتيسرين حتى المرضى بالمستشفيات ، وقد تم وضعهم فى نقط قوية ، كمانصب المدافع المضادة للطائرات والتي جلبت من المطارات القريبة على المحيط الخارجى للدفاعات لتعمل كمدافع مضادة للدبابات .

وعلى أى حال فقد كانت « ميكتيلا » مكاناً يصعب جداً مهاجمته ، حيث يوجد فى شمال وجنوب المدينة بحيرات جعلت من السهولة الدفاع عن الطرق لأنها كانت طرقاً مرتفعة تمر فى أرض منخفضة ، كما أن الأرض المحيطة كان يقطعها قنوات ومصارف للرى .

وكانت الخطوة الأولى فى الهجوم هى الإستيلاء على المطار الواقع على الأطراف الشرقية للمدينة ، حتى يمـكن إرسال التدعيمات والمؤن بطريق الجو .

وفى ٢٨ فبراير ، شغل هجوم بريطانى على الدفاعات الغربية إنتباه اليابانيين ، بينما قام اللواء الدبابات ٢٥٥ بالتفاف لمسافة عشرة أميال حول « ميكتيلا » من الشمال حتى يصل إلى الشرق فيتشكل هناك للهجوم .

وتم الهجوم المدرع بمعاونة المدفعية والطائرات، وإخترق البريطانيون مقاومة اليابانيين (١) العنيفة وتقدموا نحو المدينة .

وكان أول مارس هو أعنف أيام القتال ، بينما تضاءل التقدم نحو الشرق، وتم إجراء عدة هجمات أخرى على النقط الدفاعية التى فى الغرب وفى الجنوب الشرقى . ودار قتال ضارى داخل المدينة عندما زحف البريطانيون من ضواحيها المتطرفة نحو وسطها ، حيث إصطدموا بدشم مدافع الماكينة بالقناصة اليابانيين والمختبئين فى كل منزل وفى قنوات المياه وخلف

(١) كانت تتـكون من جيوب شملت من بقى حياً من اليابانيين ، وظلت هذه الجيوب تقاتل بضراوة وبائسة .
« المعرب »

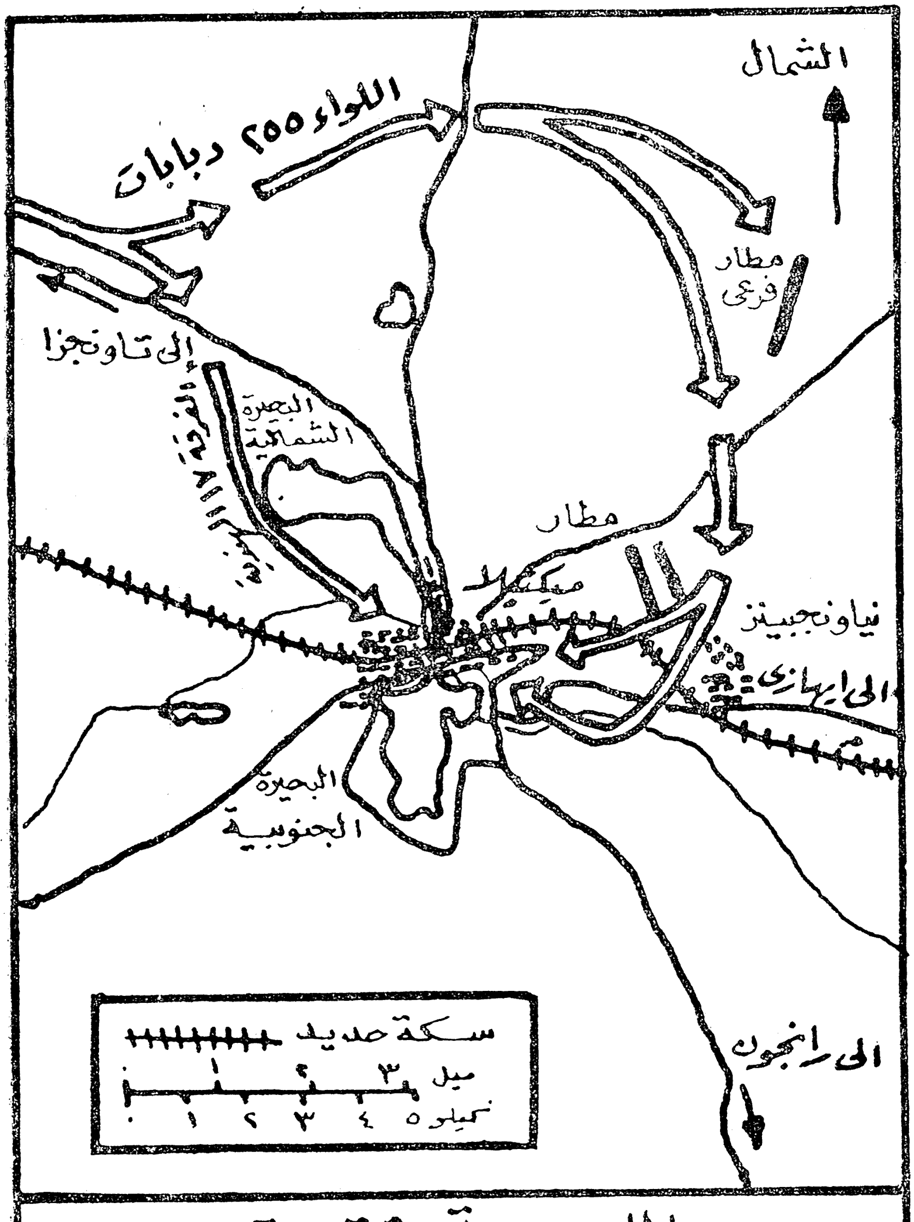

اللوحة رقم ٥٦
معركة ميكتيلا

أكوام الحجارة . ولم يستسلم اليابانيون بل ماتوا حيث كانوا يقاتلون . وتقدم البريطانيون ببطء ولكن بثبات ، ومع حلول المساء كانوا تقريباً قد دخلوا المدينة، وفى ٢ مارس تم حصار اليابانيين فى الجزء الجنوبى .

وفى ٣ مارس ١٩٤٥ كانت الحامية قد أبيدت تقريباً ، وأصبحت « ميكتيلا » فى أيدى البريطانيين . وذهل « كيمورا » لسقوط المدينة ، وعلى الفور إستبعد تخطيطه الخاص بالهجوم على الفيلق ٣٣ فى « مندلاى » وقام بتحويل قواته تحت قيادة الجنرال « هوندا » لاستعادة « ميكتيلا » .

وكان لدى اليابانيون قوات كبيرة متيسرة لهذه العملية ، ولكن كان عليها أن تتجمع من إتجاهات مختلفة ، ولذا كان من الصعب على « هوندا » تنظيم التحركات ، وأكثر من ذلك فكان الحلفاء لهم السيطرة الجوية الكاملة فى ذلك الوقت .

وفى الوقت الذى بدأت فيه القوات اليابانية تتجمع عند « ميكتيلا » من الشمال والجنوب قام الفيلق الرابع بالضرب فى جميع الاتجاهات فى هجوم جرىء .

وقامت المشاة والدبابات بغارات يومية لمسافة وصلت حتى ٢٠ ميلا وذلك لأصطياد ومهاجمة القوات اليابانية المقتربة .

وكان هدف اليابانيين الأول هو مهبط الطائرات ، والذى بإحتلاله كانت تقطع الإمدادات البريطانية . وبعد صراع وحشى ومستمر وصل فيه اليابانيون إلى حافة مهبط الطائرات ، ولكن أمكن طردهم تحت وطأة الهجمات المضادة .

وفى الأسبوع الأخير من مارس أصبحت ميكتيلا مؤمنة . وفى نفس الوقت الذى تحول فيه « كيمورا » لإستعادة « ميكتيلا » ، قام الفيلق ٣٣ بهجوم شامل من رأس الجسر فى إتجاه « مندلاى » .

وفى ٢٦ فبراير عندما بدأ الهجوم إنسحب اليابانيون تاركين جيوباً للمقاومة والتى أمكن التعامل معها فيما بعد . ولكن كلما أقترب البريطانيون من « مندلاى » كلما قابلوا مقاومة عنيفة .

وإستخدم اليابانيون ألغاماً بشرية عبارة عن جندى رابض فى حفرة ومعه قنبلة طائرة

زنتها ١٠٠ كيلو جرام بين ركبتيه ، ويوجد حجر كبير فوق الطابة ، وعندما تمر دبابة معادية فوق حفرته يقوم بأسقاط الحجر فتنفجر القنبلة والرجل والدبابة معاً . وفى الحقيقة أحدثت هذه الألغام البشرية خسائر طفيفة .

وفى ٨ مارس إنحصرت المقاومة اليابانية فى موقعين قويين ، وهما « تل مندلاى » « وقلعة دوفرين » ، وقد تم الإستيلاء على تل مندلاى فى ١١ مارس وذلك عندما تم حرق آخر المدافعين اليابانيين فى أقبيتهم ، كما تم قصف قلعة دوفرين والإستيلاء عليها فى ٢٠ مارس .

وفى نهاية مارس ١٩٤٥ كان الحلفاء قدأستولوا على كل ضفتى نهر أراوادى ، وذلك من « مندلاى » حتى « شاوك » والطريق الرئيسى والسكة الحديد المؤدية إلى رانجون جنوبا حتى « ووندين » . والآن من موقع ميكتيلا الحاكم أمكن لقوات الحلفاء التوسع فى أى إتجاه .

وأدار سليم الحملة التالية بالبراعة التى تمت بها عملية « مندلاى » — « ميكتيلا » . وبعد التقدم فى منطقة « أراكان » تم فتح مطار جديد وطرق إمداد بحرية جديدة . وفى ٣ مايو أستعيدت « رانجون » ، وإنسحب اليابانيون شرقا عبر نهر « سيتانج » وبذلك فقد كان لزاما القيام بقتال ضارى لتطويقهم ، وبدأت بعد ذلك التحضيرات لغزو الملايو ، ولكن هذا لم يتم على الأطلاق .

ضرب هيروشيما بالقنبلة الذرية

وفى سبتمبر ١٩٤٤ كانت كل من قوات « ماك آرثر » و « نيمتز » مستعدة للهجوم على الفلبين واليابان .

وفى ٢٠ أكتوبر بدأ الجيش السادس بمعاونة البوارج والطرادات والمدمرات و١٨ حاملة طائرات صغيرة فى النزول بجزيرة « ليت » . وقرر اليابانيون وجوب التمسك بالفلبين ، وتم حشد كل القوات البحرية المتيسرة من قواعد مختلفة .

وتمثل الصراع من أجل جزيرة « ليت » عن سلسلة من المعارك التى إمتدت عبر مئات من الأميال . وعلى مدى أربعة أيام جرى أكبر إشتباك بحرى فى الحرب ، حيث قاتل خلالها

اليابانيون بأسماته . وقد إستخدم الطيارون اليابانيون فى هذا القتال التكتيكات الإنتحارية، فكانوا ينقضون بطائراتهم المحملة بالقنابل ويرتطموا بأسطح الحاملات الأمريكية والسفن الغير مسلحة الأخرى . وقد تسبب هذا التكتيك إلى تدمير ٣٣ سفينة أمريكية .

ولكن يرجع الفضل أساساً للتفوق الجوى الأمريكى ، الذى أدى أن اليابانيين عانوا من هزيمة كبيرة بفقدهم من قبل أربعة حاملات للطائرات وحاملتين صغيرتين وثلاث بوارج ، علاوة على الكثير غيرها . وعموما ، فقد إستمر اليابانيون يدافعون عن الفلبيين . وكان لدى الجنرال « ياماشيتا » حوالى ٢٥٫٠٠٠ مقاتل .

وفى نهاية عام ١٩٤٤ أستولى الجيش السادس بقيادة الجنرال « كريجر » على كل جزيرة « ليت » . وفى يناير غزا الجيشان السادس والثامن جزيرة « لوزون » والتى كانت أقوى الجزر .

وفى مايو ١٩٤٥ كان الحلفاء قد أستعادوا الفلبين . وكان الهدف الرئيسى التالى هو جزيرة « أكيناوا » تلك القاعدة الجوية المتقدمة الهامة . وفى أول إبريل بدأ فيلق من مشاة الأسطول والفيلق البرى ٢٤ ، فى النزول على جزيرة « أكيناوا » والتى كانت حاميتها مكونة من ١٢٠٫٠٠٠ مقاتل يابانى .

وعمل الطيارون اليابانيون الانتحاريون مرة أخرى ، وكان القتال فوق « أكيناوا » من أعنف ماشهدته الحرب من وحشية والذى إستمر حتى ٢١ يونية عندما أستطاع الأمريكيون تأمين الجزيرة .

وقد بلغ قتلى اليابانيين ١٠٠٫٠٠٠ ، أما خسائر الأمريكيين من جميع الأنواع ، فقد بلغت ٣٩٫٠٠٠ رجل .

ومنذ ذلك الوقت إشتركت الطائرات التي تعمل من « أكيناوا » فى القصف الجوى ضد اليابان نفسها . والذى كان قد بدأ فى نوفمبر وأخذ يشتد فى الفترة بين إبريل وأغسطس ١٩٤٥ ، وذلك إستعدادا لغزو اليابان . وفى الفترة السابقة كانت الطائرات المحمولة على الحاملات هى التى تقوم بمعظم القصف ، ولكن الآن أصبحت القلاع الطائرة الكبيرة « ب ٢٩ » التابعة للقوات الجوية والتى تعمل مع الجيش هى التى تقوم بمعظم القصف .

وركزت الهجمات من « أكيناوا » على « نجازا كى » مدمرة أحواض السفن ومنطقة إنتاج الطائرات .

ومن قواعد فى الصين وجزر مارياناس قصفت الطائرات المراكز الصناعية فى اليابان ،

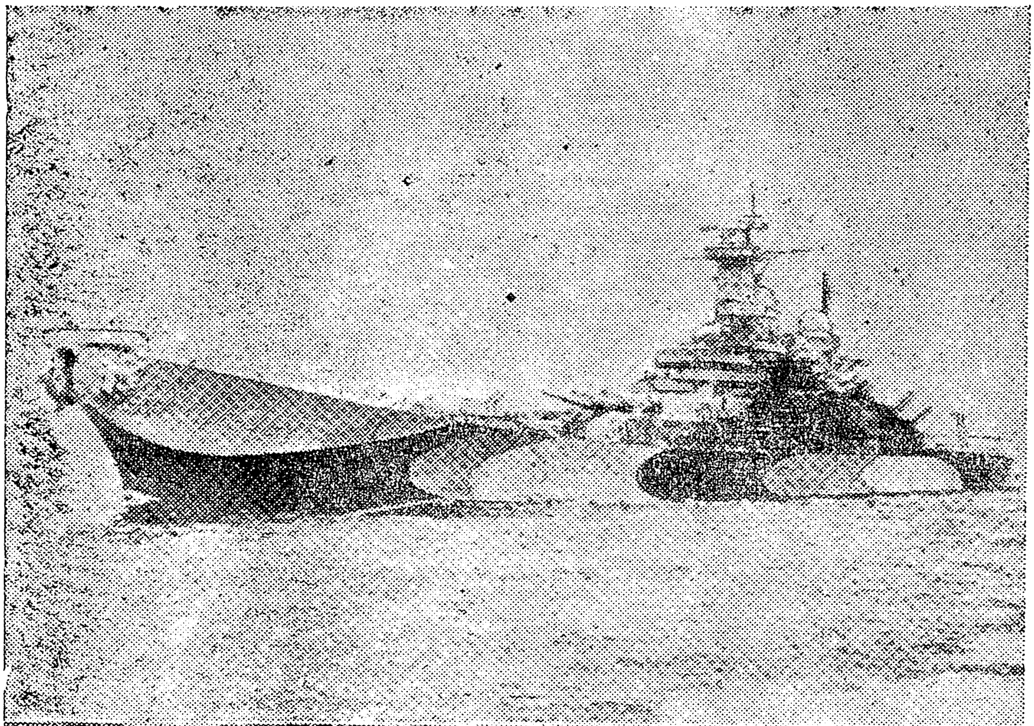

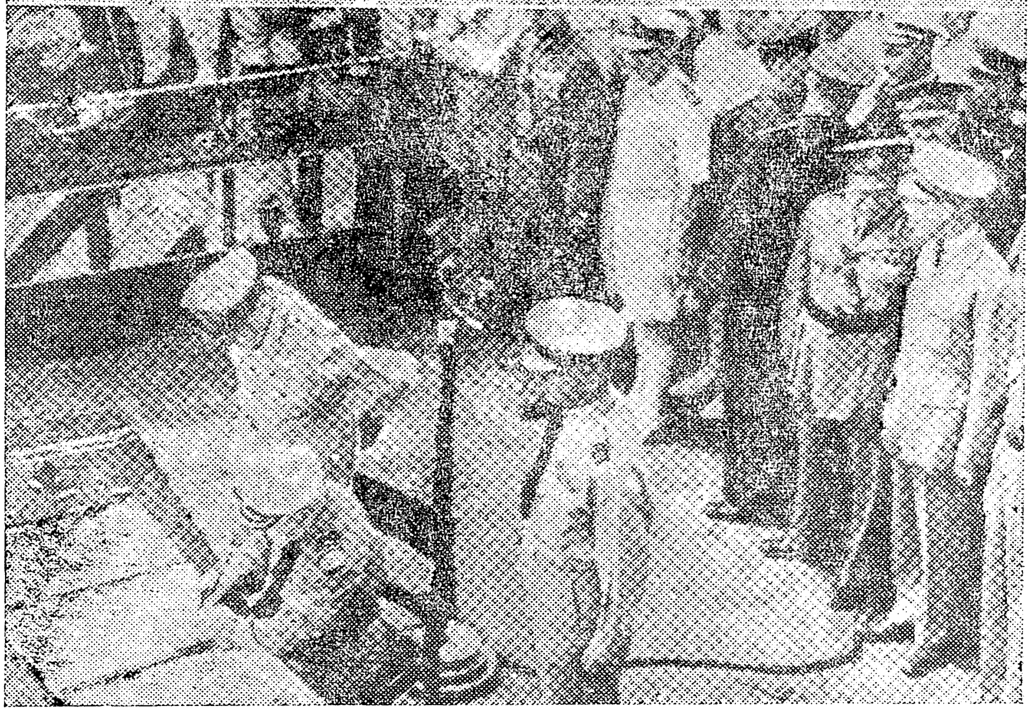

الاحتفال بتوقيع اليابان وثيقة الاستسلام بدون قيد أو شرط

بينما كملت الهجمات الليلية المحرقة القصف النهارى المحكم . وقد عانت «طوكيو» و«أوساكا»، من الدمار الشديد .

وفى أغسطس وصل القصف الجوى الهجومى ذروته . وفى ٦ أغسطس أسقط الأمريكيون أول قنبلة ذرية فوق « هيروشيما » حيث قتل ٨٠٫٠٠٠ من السكان .

وفى ٩ أغسطس أسقطت القنبلة الذرية الثانية على « نجازاكى » والتى قتلت ٤٠٫٠٠٠ من السكان وهذا أكثر من مجموع قتلى الغارات الجوية على لندن . ولقد شعر الأمريكيون بأن لديهم مبرر لأستخدام هذا السلاح الجديد فقد كان لايزال لدى اليابانيون ٢٥٠٫٠٠٠ مقاتل فى جزر الباسفيك ، كما كانوا متمركزين بقوة فى جزر الهند الشرقية الهولندية ، والملايو والصين . والدولة التي تعامل أسرها بمثل هذه الوحشية التى عامل بها اليابانيون أسراهم والتي إنتهكت حرمة كل الاتفاقيات الدولية مثل الصليب الأحمر ، والتى أستخدمت الألغام البشرية والطيارين الأنتحاريين ، يجب ألا تلقى أية رحمة . وفى ١٠ أغسطس ١٩٤٥ إستسلمت الحكومة اليابانية بدون قيد أو شرط ، وبذلك إنتهت حرب ٣٩ — ١٩٤٥ .

التخطط السياسى

إن الحرب التى بدأت عام ١٩٣٩ ، والتى سميت بأستمرار بـ « حرب هتلر » ،بدأت ببطء ، وبعد ذلك إشتعلت بسرعة عام ١٩٤٠ ، وأخيراً إنتشرت فوق كل الدنيا تقريبا ، وأصبحت معقدة جدا . وقد حاولت أن أقص القصة للقارىء بأبسط مايمكن ، وبطريقه يمكنه رؤية الغابة بدون أن يتحول إنتباهه إلى أشجار كثيرة جداً .

وأود هنا أن أختتم هذا الفصل بقليل من الأنطباعات التى ربما تساعد القارىء على فهم بعض أو كثير مما حوته هذه الحرب الحديثه من أمور معقدة .

فقد كانت القيادة الوطنية لها أهمية بالغة . فقد كان هتلر فى إعتبار الكثيرين شخصية سياسية مجنونة . وفى الواقع كان هتلر رجلا شيطانيا ، ولكنه كان زعيما ومغامرا وداهية .

ولم يكن لديه ميل لأعلان الحرب وإعطاء الضحية وقتا لتستعد للضربة ، فقد أيقن أن ذلك ليس هو الوسيلة الصحيحة للقتال ، ويمكن إعتبار هذه النظرة معقولة لو أنه إتفق

على أن الدولة تحارب لتنتصر عسكريا فقط.

ولكن يجب ألا يكون هذا هو الهدف النهائى للحرب . وقد إستطاع هتلر نقل زعامته الشريرة إلى الآخرين . وهنا يبرز سؤالا . . من الذى أرتكب أسواء الأخطاء فى إدارة الحرب ؟ ؟ .. وأعتقد أنه هتلر . وقد أشرت إلى أخطاءه فيما كتبت . ولقد كان خطأ عميقا مهاجمته لروسيا فى يونيه ١٩٤١ . وتقول أحد قواعد الحرب الأولى « لاتزحف نحو موسكو. » ومن المحتمل أنه لم يكن قادرا على منع اليابان من مهاجمة الولايات المتحدة والتى بعدها أعلن الحرب هو نفسه على الولايات المتحدة نتيجة لمعاهدته مع اليابان . وعندئذ وجد نفسه يقاتل بريطانيا وروسيا وأمريكا ، ولم يكن يستطيع أن يأمل فى كسب هذه الحرب .

وبعد ذلك إرتكب ثلاثة أخطاء رئيسية على الجبهة الغربية : —

١ — « محاولته خوض القتال فى معركة فرنسا جنوب نهر السين بعد هزيمته فى نورماندى عام ١٩٤٤ »

٢ — « قيامه بهجوم مضاد فى الأردين فى ديسمبر ١٩٤٤ »

٣ — « وقوفه للقتال إلى غرب نهر الراين بأمل إنقاذ الرور.» وقد بدأ هتلر الحرب بداية حسنة ، فمن الناحية التكتيكية المحضة لايسع المرء إلا أن يعجب بالهجوم السريع البارد الأعصاب والتى قامت به القوات المسلحة الألمانية على غرب أوروبا فى ربيع عام ١٩٤٠ ، والذى قلب الميزان العسكرى فى العالم ، وجعل من ألمانيا ، الدولة المسلحة السائدة على العالم . ولكن فى النهاية جلب هتلر الدمار لدولته لأنه كان مدفوعا وراء أنانيته وأطماعه الشخصية .

ستالين وروزفلت وتشرشل

والآن نلقى نظرة على ستالين ، فقد كان زعيما عظيما ، وربما كان متحجر القلب وليس فيه صفة الرجل النبيل ، ولكن لولاه لكان من المحتمل أن يترك الروس الحرب مبكرا فى عام ١٩٤٢ .

وتشرشل الوحيد الذى أدرك أن ستالين سوف يستخدم الحرب لأحكام قبضته على شرق أوروبا ، وقد طغت الأستراتيجية السياسية على تفكير ستالين حتى قبل أن يبدأ الصراع على الأطلاق .

وفى الحقيقة فقد بدأ ستالين فى تنفيذ هذه الأستراتيجية فى اللحظة التى جف فيها حبر معاهدة عدم الإعتداء مع ألمانيا فى أغسطس ١٩٣٩ .

ولم يرتكب ستالين أى أخطاء تقريبا ، فقد كانت لديه إستراتيجية سياسية واضحة ، وقام بالسعى وراءها دون أى كلل أو هوادة وبدون أى إنحراف . وقد تعرفت عليه فى أول مرة فى مؤتمر « بوتسدام » فى يولية ١٩٤٥ ، وبعدها كنت ضيفه فى موسكو عام ١٩٤٧ .

وقد كان لديه حاسة إستراتيجية تثير الأعجاب والدهشة ، ولاأستطيع أن أذكر أنه قد أخطأ ولو مرة واحدة أثناء نقاشنا فى الموضوعات الاستراتيجية ، وبالطبع كانت إستراتيجيته السياسية والتى تهدف إلى جمع شعوب أوروبا الشرقية فى داخل الأطار الشيوعى لاتروق للغرب .

أما روزفلت فلم يكن واضحا بالنسبه لى فيما يتعلق بالهدف الذى يقاتل من أجله ، فقد حاول التودد إلى ستالين ولكن ستالين كسب السلم لروسيا فى مؤتمر طهران ، وكان مؤتمر يالطه تتويج لأنتصاره ، ولم يجد أى صعوبة فى خداع روزفلت . أما تشرشل فكان زعيما عظيما للشعب البريطانى فى محنته .

ولقد كتب الكثير عنه وفى الحقيقة كتبت أنا شخصيا عنه الكثير وذلك لأننى أعرفه جيدا . وأصبح يحتل مركز الصدارة بين كل أصدقائى . وهناك شىء واحد واضح جدا ، فبوقوفه بحزم ضد هتلر فى الوقت الذى بدأ فيه أن كل شىء قد فقد ، ولم ينقذ تشرشل بريطانيا فحسب ، بل أنقذ أيضاً الحضارة الغربية . وإلى جانب كون تشرشل زعيما قوميا أثناء نكست بريطانيا ، وكذا كونه فى الواقع ولفترة من الزمن ، الزعيم الوحيد فى العالم الغربى ، والذى واجه الأستبداد النازى فقد كان لديه أيضاً صفه وضوح الرؤية ، تلك الميزة التى وضعته فى مكان الصدارة بين الأستراتيجيين .

فليس هناك طابع معين ثابت للزعماء القوميين أو الاستراتيجيين ولا حتى للقادة العسكريين ، لأننا جميعا بشر ، ونحن جميعا نرتكب الأخطاء . وبصفتى قائدا عاما فى الميدان كنت أتمنى بأستمرار لو أن تشرشل نفسه لم يكن رجلا عسكريا ، فقد كان مغرما بالإدارة

التكتيكية للمعركة بالدرجة التى كانت تجعله من آن لآخر يحاول التدخل فى الشئون التى كانت خارج إختصاصه، بالرغم من أنه لم يملى رأيه أطلاقا، وكان يتقبل دائما توضيحاتى. وعندما أقوم بتقييمه أقول أنه لم يحدث لأى دولة أن وجدت زعيما أكثر ملاءمة لظروفها مثل ما وجدت بريطانيا فى تشرشل أثناء حرب هتلر، وعندما وضع فى الميزان عام ١٩٤٠ وجد أنه كفء. أما العلم والتكنولوجيا فهما موضوعان كبيران جدا للخوض فى تفاصيلهما بعمق فى حيز هذا الفصل، ولكن يمكننى أن أقول ببساطة، أن الحرب قبل عام ١٩١٨ كانت عبارة عن قتال محصور داخل بعدين « فى البر والبحر » وعبر مسافات قصيرة مرئية، وبأسلحة تغطى منطقة صغيرة ولها درجة ضئيلة من الهلاك. أما فى حرب ٣٩ — ١٩٤٥ فقد تغيرت الأمور تغييراً كبيراً، فقد ظهر التوسع الهائل فى البعد الثالث فى « الجو »، واتساع فى أمكانيه الرؤية للعدو « الرادار»، وإتساع فى المدى الذى يتم فيه قتال المعارك، مع التطورات التى دخلت على الأسلحة لرفع مستوى تأثيرها. وإلى جانب كل ماسبق، فلا ننسى أن نضيف ما ظهر أيضاً من وسائل مضادة من جميع الأنواع. وقد إعتنقت دائماً وجهة النظر التى تقول بأن العامل الرئيسى الذى أثر تأثيراً كبيراً على معارك حرب ٣٩ — ١٩٤٥ هو ظهور القوة الجوية.

ولقد أحدثت القوة الجوية ثورة فى الاستراتيجية وفى تكتيكات الحرب البرية والبحرية، فالجنود والبحارة فى دول كثيرة، وعلى وجه الخصوص فى بلدى، لن ينسوا أبداً مايدينون به لقواتهم الجويه.

وبالطبع كانت الولايات المتحدة لن تصبح أقوى دولة بحرية فى العالم بدون أن تدرك تأثير القوة الجوية على الحرب فى البحر.

الحرب فى العصر النووى

أما الحرب فى العصر النووى سيتم مناقشته فى الفصل ٢٤، ولكن دعونى الآن أقول الآتى: — من وجهة نظرى فلم يكن ضرورياً إسقاط قنبلتين ذريتين على اليابان فى أغسطس ١٩٤٥، ولا أستطيع أن أعتقد أنه كان من الصواب القيام بهذا العمل. وطبقاً لما قاله الرئيس ترومان « فقد تم ذلك لإنقاذ مئات الألوف من الأرواح سواء منها الأمريكية واليابانية ».

ولكن لوأزيات عقبه التسليم بدون قيد ولا شرط لكانت كفيلة بإنقاذ هذه الأرواح، وإننى أعتقد أن اليابان كانت سوف تستسلم مبكراً ، لأن الحلفاء كانوا قد هزموا اليابان فعلا بالأسلحة التقليدية، لدرجة أن القصف الجوى التقليدى بالقنابل قد أدى إلى دمار ساحق لدرجة أنه لم يعد هناك أهداف لتلقى عليها القنابل الذريه ، لولا صدور الأوامر بترك أربعة مدن يابانية سليمة تمهيداً لقصفها ذرياً ، والتى كانت هيروشيما وناجازا كى إحداها . وكان إسقاط القنابل الذرية تخبطاً سياسياً رئيسياً ، وأيضاً مثالا صارخاً على مستوى هبوط الأخلاقيات فى إدارة الحرب الحديثة . وربما كانت تلك هى أول ضربة أمريكية فى الحرب الباردة ، وإننى آمل وبعد تفكير عميق ، ألا تستخدم مطلقاً القوة الكاملة للحرب العلمية . ونقطة أخيرة ، فبعض الأشخاص يميلون إلى الاعتقاد بأن الأعمال العسكرية مبنية فقط على أرضية عسكرية محضة ، دون أن يأخذوا فى إعتبارهم نتائجها السياسية . ولكن يؤدى التفكير والعمل بهذه الطريقة فحسب ، إلى ترك قطاع السياسة فى خطر . فهل يمكن أن يكون أى قرار فى الحرب على أعلى مستوى غير سياسى ؟ وقد أدى التفكير المرتبك المشوش فى هذا الموضوع ، أن الدول الغربية لم تمنح السلام العادل المستمر والذى من أجله حاربت ستة سنوات . فى نفس الوقت حصل ستالين على ما كان يأمل فيه ، ويرجع ذلك إلى أن قرارته العسكرية قد إتخذت مع وجود خلفية من هدف سياسى محدد ، وهى هيمنة روسيا على أوروبا الشرقية ونشر النظام الشيوعى إلى أبعد ما يمكن فى الغرب .

الفصل الثانى والعشرون

أخلاقيات الحرب

الحرب الإلكترولوجية القديمة

بعد أن قمنا بتلك الدراسة العامة لفن الحرب منذ عام ٧٠٠٠ ق . م حتى منتصف القرن ٢٠ ، ربما يجدر بنا أن ننظر عن قرب أكثر إلى المظهر المعنوى والأخلاقى للحرب . . . ونسأل هل يا ترى تمكن الجنس البشرى من تحقيق أى تقدم عبر كل هذه العصور من القتال ؟ .

ففى التاريخ ، كانت مبادىء الأخلاق تترجم أحياناً على أنها قواعد ونظم للسلوك ، وفى أحيان أخرى تبقى المناخ الملائم لإبداء الآراء . ولكن فى الحقيقة كان يبدو أنه كلما زادت مدنية الإنسان كلما أصبحت حروبه أكثر رعبا وهلعاً ، بل ويجب إضافة أنه فى العصور الحديثة فقد إنتهكت بوقاحة ولاحياء قواعد السلوك المتفق عليها .

وأثناء حرب ٣٩ — ١٩٤٥ إرتكبت جرائم ضد البشرية ، وأيضاً لوقت قريب وعلى سبيل المثال فى الكونغو الشىء الذى يوصلنا إلى هذه النتيجة : — « الحرب والقتل قد يكونان موضوعين مترادفين ، كما أنه من الممكن إثارة العوامل التى تحول الرجال إلى مخلوقات تتقمصها أرواح الشر » .

ولحسن الحظ أن هذا الميول ليس عالمياً ، ولكن أثبت الماضى وعلى وجه الخصوص الماضى القريب ، الحاجة إلى وجود قادة سياسيين وعسكريين لهم قبضة قوية للإبقاء على المبادىء الأخلاقية والمعنوية ، والتى هى معرضة لأن تضيع بسهولة . وسنقوم الآن بالنظر عبر التاريخ ونحاول إكتشاف الحقائق التى تخص التقدم أو الفشل فى موضوع أخلاقيات الحرب .

ودعونا الآن نتأمل بعض الأوجه الأساسية للموضوع مثل الشرف وطرق القتل والتسليم

ومعاملة الأسرى والجرحى والسلوك فى منطقة العمليات ، وفكرة الحرب الشاملة والقوانين الدولية للحرب .

ومن ثم فمن الواجب علينا محاولة الوصول إلى بعض الاستنتاجات والتى ستساعدنا على إدراك المستقبل مهما كان المصير غامضاً ومحتوماً .

نخلال الأعوام من ٥٠٠٠ق.م إلى عام ٤٠٠ق. م، وفى الأيام الأولى من الحروب اليونانية استخدمت أساليب الخداع والخيانة والآبار المسمومة والأسلحة المسمومة . وبعدها فى العصور الوسطى أثناء أعمال الحصار قذفت بجثث الحيوانات الميتة عبر التحصينات الدفاعية حتى تنتشر العفونة والأمراض ، ويمكن تسمية هـــذا النوع بأول مثال للحرب البكترولوجية .

وفى مؤتمر فى واشنطن عام ١٩٥٢ أعلن عدم شرعية هذه الصورة الخاصة من الحرب ، الشىء الذى بدا لى دائماً أنه خطأ .

وقد أثرت هذه الصورة على تفكيرى وبدرجة كبيرة عندما عبرت الجيوش تحت قيادتى الراين فى مارس ١٩٤٥، متحركة عبر السهل الشمالى لألمانيا نحو نهر « الألب » وبحر البلطيق، وقد شكلت هامبورج بحاميتها المعادية مشكلة لى . وبناءاً عليه قمت بعمل الترتيب مع قائد القاذفات البريطانية لقصف المدينة ، وقام أسطول من ألف قاذفة بالمهمة . وقد تسبب عن ذلك قتل آلاف من الألمان ، وإحداث دمار كبير للمبانى والمرافق العامة . وقد كان من الممكن أن يكون ذلك أقل فظاظة وفى نفس الوقت يؤدى إلى نفس النتائج الاستراتيجية لو جعلنا جميع سكان المدينة عديمى الفاعلية لمدة ٤٨ ساعة مستخدمين فى ذلك جراثيم مناسبة أو حتى الغاز .

وبالتأكيد فيعتبر إفقاد القدرة مؤقتاً لعدد كبير من العدو أفضل من إستخدام الأسلحة التى تسبب موتاً كثيراً وتدميراً للممتلكات المدنية .

فهناك إمكانيات كبيرة فى إستخدام غازات الأعصاب للحصول على فقدان القدرة لفترة قصيرة ، بدون موت . ويجب على القادة السياسيين دراسة هذا الموضوع بعناية .

ومنذ عصر النورمانديين وحتى العصور الوسطى ، فقد فرضت الكنيسة المسيحية

سيطرتها تدريجياً على غرب أوروبا بمبادىء معقدة ومحكمة والتى تعتبر الخيانة والغدر من الجرائم الحقيرة ، بينما تنظر إلى الشجاعة فى القتال والولاء للسادة الإقطاعيين من الفضائل الرئيسية .

وفى نطاق ضيق لمجموعة الصفات الموروثة للطبقة العسكرية فقد حلت الفروسية بإخلاصها للعهود وكرم الأخلاق إتجاه الأعداء المهزومين ، مكان ما سماه « سير آرثر بريانت » : — « القانون الانتحارى القديم للثأر القبلى والفوضى الدموية التى سببها سيادة مبدأ القوة على الحق » .

ونحن نعلم أنه على مر السنين ، فقد نمى بالتدريج ، نوع من أخوة السلاح حتى بين الخصوم ، مهما كانت وحشية القتال السابق بينهم .

وفى القرن ١٨ كانت هناك درجة كبيرة من الاحترام المتبادل بين الأعداء الأوروبيين، فقد كان يتم تبادل خطابات المجاملة بين القادة ، كما وصل الأمر أيضاً إلى تبادل الأسرى والجرحى من الرتب المتساوية مع المعاملة الحسنة للقادة المأسورين ، وقد ظهرت أمثلة لذلك فى حروب نابليون « البريطانيون والفرنسيون فى أسبانيا » و « القوات الفرنسية والروسية خارج سمولسك وموسكو » .

وأستخدمت كنايات عن العدو مثل « جونى كرابيو » أو « جون بول » بطريقة ودية ، وحتى فى حرب ٣٩ — ١٩٤٥ سادت تعبيرات مثل « جيرى » .

وفى عام ١٨١٠ كتب نقيب بريطانى فى البرتغال لعائلته يقول : — « كنت بالأمس فى مواقع الأعداء ، وحيانا الحارس الفرنسى ، ليس بطلقة ولكن بيده ، ألست هذه حرباً مدنية ؟ » وفى أحد الأيام تابعت كلاب الصيد ، المملوكة لضابط بريطانى آخر ، أرنبا داخل الخطوط الفرنسية ، وقد أعيدت الكلاب بذوق ، وكانت هذه الصورة من النبل فى الحرب واضحة فى الحمله المقدونية عام ١٥ — ١٩١٨ .

وفى أعالى وادى ستروما ، عندما كانت للفرقة ٢٨ البريطانية مجموعة من كلاب الصيد ، وتخترق خطوط الأعداء فى مناسبات عديدة ، كان البلغاريون يعيدونها دائماً لأصحابها .

ولم تكن تقاليد الفروسية قاصرة على أوروبا ، ففى اليابان إعتباراً من القرن ١٨ وما بعده أدت الفترة الطويلة من العداء العائلى والحرب الأهلية إلى وجود تقاليد للسلوك المتعارف عليها فى الطبقة العسكرية ، وقد بنيت هذه القواعد والتى كانت معروفة مثل « طريق الفارس والقوس » على أساس ولاء المقاتل للرتبة التي أعلى منه دون أى مناقشة .

وإستمر هذا التشابه اليابانى مع الفروصية لما يقرب من ألف عام وبعد ذلك فى القرن ١٨ أحلت الحكومة الطقوس الدينية المسمى « بوشيدو[1] » محل هذا السلوك . وقد كان « البوشيدو » بالإضافة إلى محافظته على المبادى التقليدية للاخلاص فى زمن الحرب ، يلائم مجتمعاً أكثر سلاماً بنشره الاعتدال والمحافظة وأيضاً قدراً معيناً من تعاليم « كونفوشيوس » .

وعلى أى حال كان تأثير هذا الاعتدال ضئيلا على سلوك العسكرية اليابانية خلال حرب ٣٩ — ١٩٤٥ ، عندما فاقت أساليبهم الوحشية لأسرى الحرب فى الشرق الأقصى ، كل معتقد ، وحطمت كل قواعد السلوك المتمدين المقبولة تحت قناع « البوشيدو » .

مراسيم الحرب

ومع إنتشار مبادىء المسيحية ، تأثرت عادات الحرب بدرجات متفاوته . ولكن بينما كانت القواعد الإنسانية تتطلب المعاملة الرحيمة للأسرى ، فإنها لبعض الوقت لم تضع حدوداً لطرق القتل .

وعلى العموم ، فى القرن١٨ ، والذى كان يطلق عليه « عصر التنوير » بذلت محاولات لفرض قيود معينة .

ولقد رفض كل من لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر (ملكى فرنسا) إستخدام « سوائل جهنمية » قدمها لهما الكيمائيون .

وفى عام ١٨٥٥ ، عندما إقترح سراً اللورد « دوندونالد » إستخدام سحابة دخان خانق خلال حصار سيباستوبول، رفضت الحكومة البريطانية خطته، وبعد ذلك عشر سنين

(١) يعنى طريق المحاربين

أوقف نابليون الثالث تجارب الدانات الخانقة التى كانت تجرب على الكلاب ، معلنا أن مثل هذه الطرق الجهنمية يجب ألا يستخدمها مطلقاً الجيش الفرنسى لأنها مخالفة للقانون الدولى .

ثم جاء مؤتمر « الهوج » الأول عام ١٨٩٩ الذى حرم إستخدام السم والأسلحة المسمومة ، ولكن لم يعلن عدم شرعية حرب الغازات أو إطلاق سحب الغاز ؛ بالرغم من أنه قد حرم إستخدام القذائف التى يكون عملها الوحيد هو نشر الغازات الخانقة ، الأمر الذى يمكن إفتراضة بأنه يعنى الضرب بقنابل الغاز ، ولكنه على العموم تركت المسألة بعيداً عن الوضوح . ولكن حرم المؤتمر بلا ريب إستخدام الرصاص المتمدد .

أما القرن ١٧ فقد سمح عادة للمدافعين عن الحصون بالاستسلام على أساس مراسيم الحرب ، حيث يخرج جميع المدافعين حاملين أسلحتهم ورافعين أعلامهم بينما تصدح الموسيقى ، ثم يقومون بوضع أسلحتهم على الأرض .

وقد ظلت هذه العادة قائمة حتى وقت حرب الحصار فى عصر « مارلبورو » وأيضاً فى عصر « ويلنجتون » ، وأمثلة لذلك « فلوشنج » عام ١٨٠٩ و « سان سباستين » عام ١٨١٣ .

وقد ظهر نفس الشىء فى حرب ٣٩ — ١٩٤٥ وبالتحديد فى مايو ١٩٤١ عندما أعطى مثل هذا الوعد للحامية الإيطاليه فى « أمبا آلاجى » فى الحبشة والتى كان بها الدوق « أوستا [1] » ، وذلك كإغراء لكى يتخلى عن المعركة بدون أى أعمال تخريب أو شراك خداعية أو تدمير ، وهذه السياسة أنقذت أرواح الكثيرين من الجيش الإنجليزى والهندى .

جرحى وأسرى الحرب

إذا نظرنا إلى ما يتعلق بمعاملة الجرحى ، فسوف نجد أن هناك بعض التقدم ، فمنذ زمن بعيد كان العرف فى أوروبا والمتعارف عليه فى الجانبين المتضادين أن يهيئوا فترة توقف مؤقتة لأعمال القتال لكى يمكن إعادة الجرحى ودفن الموتى .

---

(١) حاكم الأمبراطورية الأيطالية فى شرق أفريقيا . (المعرب)

ولكن عندما لا تحدث مثل هذه الهدنة كانت الترتيبات للجرحى على العموم غير كافية ، كيفما اتفق وبدون نظام ، وطبعاً كان جرجى العدو آخر من يعتنى بهم . وفى عام ١٨٦٢ نشر عالم سويسرى محب للخير يدعى هنرى دونانت وصف فيه ماعاناه الجرحى فى معركة « سولفرينو » بتأثير شديد لدرجة أن الموضوع أيقظ على نطاق واسع إنتباه وإهتمام الرأى العام . وحث « دونانت » على ضرورة تكوين الجمعيات المساعدة المتطوعة، وكنتيجة لذلك إشتركت ١٦ دولة أوروبية فى مؤتمر عقد فى جنيف فى السنة التالية .

ووقعت معاهدة جنيف الاولى عام ١٨٦٤ بعد أن أعيد النظر فيها ثلاث مرات ، وشكلت لجنة « الصليب الأحمر الدولية » لتحسين أحوال الجنود الجرحى فى الميدان ، وبعد ذلك أصبحت مسئولة أيضاًعلى الإشراف على معسكرات أسرى الحرب . وفى وقت الحرب أصبح المقاتلون الجرحى والمرضى يلقون كل إحترام ورعاية مهما كانت جنسياتهم . كما أصبح من الواجب إحترام عربات الإسعاف وسفن المستشفيات التى تأويهم والأطباء وهيئة التمريض والقساوسة وما يرعى شئون هؤلاء من الإداريين .

وكل هؤلاء يجب أن يكون لهم مطلق الاحترام ويتوفر لهم سبل الحماية تحت كل الظروف على شرط أن يحملوا دائماً العلامات المميزة من أعلام وشارات تحمل الصليب الأحمر .

وبهذا فكل شىء فى هذا الموضوع أصبح الآن يسير سيرا حسنا والصليب الأحمر يلقى كل الاحترام ، ولكن يجب أن أسجل هنا أن اليابانيين فى الشرق الأقصى خلال حرب ٣٩ — ١٩٤٥ إنتهكوا بطريقة مشينة معاملة علم الصليب الأحمر وشعاره .

وعلى مدى قرون عديدة ، كانت معاملة أسرى الحرب فى المجموع رهيبة وفظيعة . ففى البحر كانوا يقتلون أو يحولون إلى رقيق يعملون على المجاديف فى السفن . وعندما كانت السفن الحربية المستخدمة صغيرة الحجم ، ولا يوجد بها سوى أماكن قليلة جدا لإيواء الأسرى وكذلك كميات قليلة من الطعام والماء لا تكفى الجميع ، فلهذا السبب كان الأغراء بأخذ الأسرى ضعيفاً .

ولكن مع إزدياد حجم وسعة السفن وقدرتها الأكبر على الاستيعاب ، فقد استخدمت فى البحر أيضاً قوانين معاملة الأسرى على البر وبدرجة معقولة .

وفى عام ١٥٨٧ ، أى قبل هزيمة الأرمادا بسنة واحدة ، أمر القائد الأسبانى بقتل كل رجل يوجد فوق سطح السفن البريطانية ، ولكن الملكة اليزابيث الأولى المنتصرة أرسلت كل البحارة الأسبان الذين تحطمت سفنهم على شواطىء إيرلندا إلى بلادهم ، وكانوا محظوظين بدرجة كبيرة بوقوعهم فى أيدى جنودها ، بدلا من الأيرلنديين . أما بالنسبة إلى معاملة كل من الألمان واليابانيين لأسراهم خلال حرب ٣٩ — ١٩٤٥ ، فاعتقد أننى أوضحت وجهة نظرى بما فيه الكفاية .

وفى عام ١٩٠٧ بدأت قواعد الهوج فى جمع وتنسيق بعض المبادىء الإنسانية التى كانت سائده ، على أمل أن تتبع جميع الدول تلك المبادىء فى سلوكها نحو أسرى الحرب . ولقد تقرر أن يظل أسير الحرب محتفظاً بجميع ممتلكاته الشخصية فيما عدا أسلحته وخيوله وأوراقه العسكريه ، كما يجب معاملة أسرى الحرب فيما يتعلق بالغذاء والمسكن والملابس ، بنفس معاملة الدولة التى أسرتهم .

وقد إختلفت الآراء كثيراً حول أنسب نوع من الملابس لهؤلاء الأسرى ، واعتبرت عدة دول « الأحذية » جزءاً من مهمات الجندى وليست جزءاً من ملابسه . ويمكن للدولة المحاربة أن تستخدم جهد الأسرى ، فيما عدا الضباط ، ولكن يجب أن تكون المهام المعطاه لهم ليس لها علاقة بالعمليات الحربية وألا تكون زائدة عن الحد ، ويجب أن يدفع أجرا عنها .

وقد إنتهك اليابانيون هذه القوانين بشكل مخز خلال حرب ٣٩ — ١٩٤٥ ، وبصفة فى « سكة حديد الموت » المشهورة فى سيام .

وفى خلال الحربين العظمتين ١٤ — ١٩١٨ ، ٣٩ — ١٩٤٥ توصلت كل من بريطانيا وألمانيا إلى إتفاق يقضى بعدم إستخدام كل منهما لأسراه على مسافة أقل من ١٩ ميلا من خطوط القتال .

أما المقاتلون الذين يلجأون إلى دولة محايدة مثل سويسرا ، فمثل هؤلاء يجب إعتقالهم ، أما الضباط فيطلق سراحهم لقاء عهد يقطعونه على أنفسهم بعدم الهرب .

وأخيرا فقد تقرر ألا يجبر الأسير على إفشـاء أى معلومات لمن أسروه سوى رقمه ورتبته و إسمه .

ولـكن ظهر فى القرن ٢٠ أسلوب جديد فى معاملة الأسرى يطلق عليه « غسل المخ » وقد تعرض أسرى الحرب من البريطانيين والأمريكيين بدرجات مختلفة لهذه المعاملة خلال الحرب الـكورية التى بدأت فى يوليه ١٩٥٠ .

السلوك الانسانى للحرب

لقد أدى إنشاء الجيوش النظامية الدائمة إلى المساعدة فى محاولة الحد من التأثير العام للحرب . وبذلت مساعى كبيرة فى القرنين ١٧ ، ١٨ ، وقد بدأت كما رأينا بعد « حرب الثلاثين عاماً » التى عانى من ويلاتها العالم .

وقد حرم السلب والنهب والذى كان أحد الدوافع للمغامرين والذين يشكلون جزءاً كبيرا من القوات المقاتلة .

ولفترة من الزمن تجنب القادة المعارك بسبب معدلها المرتفع جدا من الخسائر ، كما أن الهدف الرئيسى للاستراتيجية كان يميل إلى إنهاك العدو بدلا من إبادته . ولـكن أدت ضخامة القوات المجندة فى حروب الثورة الفرنسية إلى تجديد الحرب غير المحدودة . وقد سببت أعمال الإزعاج وحرب العصابات ضد القوات النظامية المحتلة ، كما حدث فى روسيا وأسبانيا إلى توجيه أعمال عدوانية ضد المدنيين والتى إتخذت شـكل الثأر والانتقام ، وأدى ذلك إلى وحشية أكثر ، الأمر الذى زاد كثيرا من الهمجية وزاد من الرعب . ويكفى المرء أن يلقى نظرة على سلسـلة مطبوعات جويا « كوارث الحرب » ليقـدر ذلك حق قدره .

وقد استعمل الاصطلاح « حرب غير محدودة » عدة مرات ، وكان هذا اللفظ هو المستخدم فى تلك الأيام ، ولـكننا نسـتخدم فى منتصف القرن ٢٠ إصطلاح « الحرب الشاملة » .

وفى صورة عامة قد أدى السلوك الجيد للقوات إلى تحقيق مكاسب عسكرية أفضل ، بينما أدى السلوك الوحشى المطلق ضد المدنيين إلى العـكس .

ونذكر جيش ويلنجتون كمثال للسلوك الأول، فقد أصر الدوق باستمرار على وجوب ضبط قواته لسلوكها، مع القيام بدفع قيمة كل ما يستخدموه ، وكانت النتيجة لهذا أنه عندما قاد رجاله إلى جنوب فرنسا فى نهاية عام ١٨١٣ متوقعاً أن يواجه بأعمال عدائية فرنسية غير نظامية ، فقد قوبل بالترحاب .

وفى الواقع كان سلوك جيشه فى فرنسا أفضل بكثير من سلوك الجنود الفرنسيين أنفسهم .

أما إذا أردنا مثالا للحالة الثانية وهى القسوة المطلقة ، فلن نجد خيرا لذلك من قرار ألمانيا عام ١٩١٧ باتباع سياسة عدم التقييد لحرب الغواصات ، والذى أثار غضب وإشمئزاز العالم ، وقد أدى فى آخر الأمر إلى دخول أمريكا حرب ١٤ — ١٩١٨ . كما ظهر نفس الشىء فى الغزو الألمانى لروسيا فى عام ٤١ — ١٩٤٢ العملية « بربا روسا » فلقد رحب سكان القرى الروسية فى أماكن كثيرة بالقوات الألمانية القائدة عندما وصلت إليهم أولا ، ولكن كان سلوك قوات الاحتلال التى أتت بعد ذلك سيئاً لدرجة أن نفس الروس الذين تحركوا فى موجات للترحيب بالقوات الألمانية القائدة، إختفوا فى الغابات وقاتلوا كقوات غير نظامية ومخربين ضد « المحررين » والذين كرههم الأهالى كرها شديدا .

وخلال الحرب الأهلية الأمريكية أمر الجنرال « شيرمان » بإخلاء المواطنين المدنيين لمدينة أطلانطا لتحويلها إلى قاعدة عسكرية ، وقد أثار ذلك موجة من الاحتجاج الشديد ضد « الهمجية »،وعندما قدم إليه أحد المواطنين إلتماساً كتب يقول :— « إنك لاتستطيع أن تصف الحرب بتعبيرات مؤلمة أكثر مما سأصفها . فالحرب هى الوحشية ولا يمكنك تهذيبها » .

وعندما زحف شيرمان زحفته المشهورة « الزحف إلى البحر » ترك فى أعقابه قطعة من الأرض طولها ٣٠٠ ميل وعرضها ٥٠ ميل ، خالية من الطعام والمؤن ، وشبه الأهالى هذه المسيرة بأسوأ ما حدث فى « حرب الثلاثين عاما » ، بل حتى شبهوها بمسيرات «أتيلا» فى القرن الخامس الميلادى .

الحرب هى الحرب

لقد أعلن شيرمان : — « لو أن الشعب رفع صراخه ضد همجيتي وقسوتى ، فسوف أجيب بإن الحرب هى الحرب » ، فقد كان يخوض الحرب ضد الأعداء المدنيين تماما كما خاضها ضد القوات المسلحة المعادية . وفى عام ١٩١٤ كان يتم إعتقال البارزين من ملاك الأرض والعمد والقساوسة كرهائن ، جزءاً من السياسة الألمانية لتخويف الأهالى البلجيكيين المعادين . وحمل كل الجمهور مسئولية الأعمال المعادية ، بالرغم من أن معاهدة الهوج حرمت مبدأ المسئولية الجماعية . وزيادة على ذلك ، فلم يكن هناك حد فاصل بين الجنود والمدنيين فى حرب العصابات ، والتي منها على سبيل المثال المقاومة الفرنسية فى الحرب البروسية عامى ١٨٧٠ — ١٨٧١ . وكان الفلاحون الذين يطلقون النار على القوات الألمانية إذا ما قبض عليهم يتم شنقهم فوراً ، وقد أعلن ولى العهد البروسى : — « ليس أمامنا شىء نفعله سوى إتخاذ الإجراءات الأنتقامية بحرق المنازل التى ينطلق منها الطلقات أو تستخدم السياط مع فرض التعويضات لنجبر الأهالى على التعاون معنا » .

وقال بسمارك : — « أنهم ليسوا جنوداً ... إننا نعاملهم كالقتلة » . وهذا النموذج تكرر مرات ، وفيه يصبح بطل المقاومة لأحد الأطراف ، إرهابى وقاطع طريق فى نظر الطرف الآخر . وأى شخص يرتكب أعمالا عدائية دون أن يكون تابعاً للجيش النظامى المعادى ، لاتسرى عليه إمتيازات أسير الحرب ، وكان يعامل مثلما تعامل الجواسيس تقريباً فى زمن الحرب .

وقد أصبح الآن واضحاً أنه بالرغم من الجهود التى بذلت لجعل الحرب أكثر إنسانية إلا أنه كانت هناك إنتكاسات قاسية إلى الهمجية . وقد تبع عصر الفروسية عصر النهضة والذى كانت فيه المبادىء الذى أعلنها « ميكافيللى » ذات تأثير فعال فى السياسة ، ومهما يكن الأمر ، فقد كانت هناك عوامل كثيرة أدت إلى تحسين هذه القواعد لأن الحافز الرئيسى فى ذلك المعاناة التى يعانيها السكان الغير المقاتلين والمدنيين فى الحرب . وربما كان من أهم هذه العوامل ، التطور الذى حدث فى القوانين الدولية للحرب . ففى أوروبا أدت الفوضى المروعة والتدمير والمجاعة التى أحدثتها « حرب الثلاثين عاما » (١٦١٨ — ١٦٤٨)

والتى كانت خسارتها من الأرواح حوالى ثمانية ملايين نسمة بالإضافة إلى قتلى المعارك ، كل ذلك أدى بالقانونيين الذين خلفوا « جروتيس » بالمطالبة بالتخفيف من ويلات الحرب ، وضرورة التفرقة بين الجنود والمدنيين .

وقد أدى بعض الأحداث ومنها نهب « ماجد بورج » إلى إثارت الرعب فى أوروبا ، وبات واضحاً أنه لا بد من وضع بعض القيود على الحرب . وفى عام ١٩٠٧ وافق مؤتمر الهوج الثانى على قرارات تختص بالسلوك الإنسانى للحرب ، وحرم الأعلان بأنه لن تمنح الرحمة ، أو قتل أو جرح العدو إذا أستسلم ، أو مهاجمة أو قذف المدن والبلدان والقرى بالقنابل والتى لا تكون مدافع عنها ، ولذلك أصبح تعبير « مدينة مفتوحة » مستخدما . وأقر مؤتمر عام ١٩٠٧ أيضاً أنه لا يجوز بدأ الأعمال العدوانية بدون « تحذير سابق وواضح فى صورة إعلان مسبب للحرب أو إنذار مع شروط بأعلان الحرب » . وكان هذا القانون ضروريا لأن اليابان ، كما نعلم ، بدأت حربها عام ١٩٠٤ مع روسيا دون إنذار أو أعلان سابق ، تماما مثل ما فعلته ضد الصين عام ١٨٩٥ ، والأمر الذى فعلته ضد أمريكا فى ديسمبر ١٩٤١ فى « بيرل هاربور » . وقد شهدت حرب ٣٩ — ١٩٤٥ حوادث مختلفة على الحدود والتى لفقت بتعمد وخططت لتوفر ظاهريا ذريعة قانونية لأعلان الحرب ، فى الوقت التى فشلت فيه الضحية المصمم الأعتداء عليها فى تقديم أى حادثة أو ذريعة لمنع الحرب .

الحياد

فى مؤتمر واشنطن عام ١٩٢٢ « للحد من التسليح » تمت الموافقة على بعض « قواعد الحرب » وعلى وجه الخصوص حرب القذف الجوى الذى يكون الغرض منه إرهاب السكان المدنيين أو تدمير أو تخريب الممتلكات الخاصة التى ليس لها أى صفة عسكرية ، وبالمثل حرم أصابة غير المقاتلين وكذلك حرم أيضاً فى عام ١٩٢٥ إستخدام الغازات السامة ،

والخانقة[1] . وأعتبرت أيضاً الحرب البكتريولوجية حربا غير مشروعة ، ولكن بالرغم من هذه القواعد ذات النيات الفاضلة ، فقد شهدت كل من الحرب الأهلية الأسبانية التى بدأت عام ١٩٣٦ ، وحرب ٣٩ — ١٩٤٥ حوادث كثيرة لعمليات القصف الأرهابى وقتل المدنيين ، بل أن أكثر الغارات الجوية حرصاً كانت عرضة لتدمير الممتلكات الخاصة ، فالكثير جداً من هذه الغارات لم يكن يستطيع التمييز بين الأهداف المدنية والعسكرية ، وعلى كل كانت غارات غير دقيقة أو مدمرة عن غير عمد للممتلكات المدنية . وأخيراً سوف أتعرض للحياد ، والذى جاء تعريفه فى دائرة المعارف البريطانية كالآتى : —

« الوضع القانونى النابع من إمتناع الدولة عن جميع أنواع المشاركة فى حرب بين دول أخرى . ويتطلب المحافظة على الحياد إتخاذ الدولة المحايدة موقفاً غير منحاز فى معاملاتها مع الدول المتحاربة وكذا بأعتراف الدول المتحاربة بهذا الأمتناع وهذا الخلو من التحيز من جانب الدولة المحايدة » .

وذلك التعريف للحياد المذكور عاليه مأخوذ من مصدر حديث إلى حد ما ، أما فى القرن ١٧ فكان تعريف الدول المحايدة بأنها تلك الدول التى لا تقدم العون للأطراف المتحاربة ولكن كانت الآراء غير محدودة فى تلك الأيام فيما يتعلق عن أمكانية الدول المحايدة فى حماية أراضيها من أن تستخدم لأغراض عدائية . ولم تكسب بلجيكا شيئاً من إتخاذها موقف الحياد فى حربى القرن ٢٠ العظيمتين ، فلم تكن تلك الدولة قادرة على الدفاع عن سياستها ، وبالتالى فقد كان هذا بالتأكيد الأختبار العملى لجدوى الحياد ، أما سويسرا فقد ظلت لأسباب مختلفة محتفظة بوضعها كدولة محايدة .

وفى الحرب الأهلية الأسبانية (٣٦ — ١٩٣٩) كانت كل من ألمانيا وإيطاليا وروسيا دول محايدة إسماً فقط لأنها أرسلت جميعا وحدات أو قوات جوية لمعاونة أحد الأجناب وذلك للحصول على الخبرة فى التكتيك الحديث للحرب المقبلة . وبناءاً على معاهدة الهوج لعام ١٩٠٧ ، فلا يجوز للدولة المحايدة أن تمد دولة محاربة بالسفن الحربية وبالمؤن أو بالمواد الحربية ، أو ترفض تقديم أية تسهيلات لأحد الأطراف فى حين منحها للطرف الآخر

(١) لم تستخدم فعلا فى الحرب العالمية الثانية .

وعلى العموم فقانون الأعارة والتأجير الأمريكى لعام ١٩٤١ ، قد منح سلطة تصنيع أو الحصول على « أى مهمات دفاعية لحكومة أى دولة يرى الرئيس أن مقتضيات دفاعها يعتبر حيوياً للدفاع عن الولايات المتحدة . » وأجاز بيع أو تبادل أو تأجير أو إعارة هذه المهمات والتى قد تحتوى على سلع زراعية وصناعية ، وكذا المعدات الحربية والأسلحة والذخائر والسفن ، إلى مثل هذه الحكومات .

الدروس المستفادة من أخلاقيات الحرب

والآن ماهى الدروس المستفادة من هذا الفحص القصير لأخلاقيات الحرب .. ؟

لقد سبق لى القول بأن معاهدة الهوج لعام ١٩٠٧ قد أقرت مبادىء معينة . « للسلوك الإنسانى للحرب » . ولكن يجب أن نخرج من عقولنا الآن وإلى الأبد أن هناك أو من الممكن أن يكون هناك أية إنسانية فى الحرب .

ولسوء الحظ لم يحن الوقت بعد الذى يمكننا فيه أن نقول أن الحرب قد محيت وأن السلام قد عم الأرض ، ولذلك يجب على الزعماء السياسيين والرؤساء المختصين مواصلة جهودهم لجعل الحرب أقل هولا . وقد رأينا فى هذا الفصل ماتم إنجازه فى هذا الخصوص ، ولكن يجب الأعتراف بأن الحرب الشاملة سببت هبوطاً فى مستويات السلوك إلى أبعد من أى شىء كان معروفا من قبل . وخلال الأعوام التى تلت حرب ١٤ — ١٩١٨ مباشرة ، كان الشعار السائد هو « إذا أردت السلم ، جهز للحرب » ولكن يجب على الأمم أن تعلم أن مثل هذا التفكير سوف لا يبعدهم عن الحرب كثيراً ، لأن بأتباع كل الأمم لهذه النصيحة فسوف يصبح العالم معسكرا مسلحاً ، يخيم عليه المواقف المتفجرة والعرضة للاشتعال . ولكن ليدل هارت صاغ شعارا أكثر إيجابية وهو : ــ « إذا أردت السلام ... فتفهم الحرب » ذلك التفهم الذى سيحث الأمم لتتجنب وحشيتها .

أما « كلاوزفتز » فقد أوضح أن تدمير القوات المسلحة للعدو هو الهدف الأول للقيادة

الأمر الذى أدى أن أعتقد الكثيرين بأنه يعنى إستخدام أكبر عنفا لتحقيق تدمير كامل أو إبادة .

وكانت هذه الفكرة السبب فى الكثير من المآسى غير الضرورية والتى سببت فقد أرواح كثيرة فى الحرب ، وهى أيضاً مسئولة إلى درجة كبيرة عن عدم الأستقرار السياسى الذى ساد عالم السياسة والحرب المحير ، والذى ساد منتصف القرن ٢٠ .

ولكن تلك الملحوظة قد أخذت أيضاً من سياق كلام كلاوزفيتز ، لأنه كتب أيضاً بأن الحرب : — « إستمرار للاجراءات السياسية ممزوجة بوسائل أخرى . » وقد قرأته أن هذا الرأى يعتبر حجة قوية لسيادة السياسة العامة للدولة على السياسة العسكرية الضيقة ، وأيضاً لممارسة الأعتدال فى حالة ما إذا أصبح النصر مؤكداً . فالمسئولية التى تقع على عاتق رؤساء الدول والسياسيين لهى مسئولية عظيمة جداً . ويقع التوجيه الأعلى للحرب فى أيديهم ، ولذا يجب عليهم أن يعطوا توجيهات سياسية واضحة لقادة قواتهم . وإذا لم يفهموا أن هدف الأستراتيجية العليا يجب أن يكون السلام الذى يمكن أن تصان فيه القيم الأساسية ، وإذا لم يوجهوا كل الجهود العسكرية فى الحرب للحصول على موقف مسيطر ومعقول فى نهاية الحرب ، فسوف يلقون بعيداً بكل ثمار التضحيات الضخمة كما لن يعود من وراء هذه المذابح أية فائدة ، وسوف يحدث أبشع من هذا فى العصر النووى . وللأسف فقد تجوهلت هذه المبادىء فى حرب ٣٩ — ١٩٤٥ ، ولا يمكن لأكثر الأهداف والآراء الإنسانية أن تغطى ما جرته من أذى وويلات .

أما القادة العسكريين الذين ينفذون غرضاً سياسياً فهم يحملون مسئولية مختلفة ، فالنجاح أمر حيوى ، ولكن يجب أن تكسب المعارك بأقل خسارة ممكنة فى الأرواح . ولا يوجد شىء يفسد الروح المعنوية بسرعة أكثر من الشك فى القائد الذى يهمل رجاله ولا يهتم بأرواحهم ، وذلك الشك الذى يمكن أن ينمو من بعض المشاعر الحساسة التى تثار نتيجة لدفن الموتى من غير تمييز ومنظر القبور المتناثرة والمهملة ، والجثث الراقدة فى الخنادق أو الحفر . فليس هناك

قائداً يمكنه التغاضى عن تقديس الموتى والقيام بالإجراءات الملائمة لدفنهم حتى ولو كانوا من موتى الأعداء . بينما توضح صراعات القرن ٢٠ أنه لا زال أمامنا الكثير مما يمكن عمله لجعل الحرب أقل هولا ، وإنى أرجو أن يكون معظم الجنس البشرى قد حقق بعض التقدم منذ أن كتب « بليز دى مونتلوك » مارشال فرنسا فى القرن ١٦ : — « إتجاه العدو فكل شىء مسموح . . » وبالنسبة لى (اللهم أصفح عنى) فلو إستطعت أن أدعو جميع شياطين جهنم للتفوق على العدو الذى سوف يتفوق على فسأقوم بذلك من كل قلبى .

الفصل الثالث والعشرون

الستار الحديدى والحرب الباردة

العالم الممزق

حتى الآن ، قمنا بعبور مايقرب من ٩٠٠٠ سنة من تاريخ الحرب ، وقد بحثناها بتفصيل كبير ، وأنوى تكريس ما تبقى من الكتاب لمناقشة موضوعات ومشكلات معينة ، ربما لا تعتبر جزءاً من التاريخ ، ولكن قد تساعدنا دراستنا للتاريخ على تفهمها . وهى مشكلات يمكن أن يقال عنها أنها ميدان للتخمين ، وهى تفتقر للأسف للحزم والشجاعة الأدبية لمواجهة الحقائق العملية ، ولكن من الضرورى مناقشتها طالما يخيم فوق عالمنا سلام غير مستقر .

ويبدو لى أنه يحق لرجل عسكرى ذا خبرة عملية كبيرة فى الحرب ، وعمل أيضاً مع قادة سياسيين فى دول كثيرة خلال السلم ، يكون لديه الحق أن يطرح المشكلات التى تنشأ كما يترأى له ، ويحق له أيضاً أن يقدم آراءه كبعض الحلول ، وهذا ما أنوى القيام به الآن ؟

أما التعبيران الذى يتضمنهما عنوان هذا الفصل ، فقد أصبحا من التعبيرات الشائعة فى هذا الأيام ، ولكن أشك فى أن الكثير منا يفهم أصلهما .. وماذا يعنيان .. ؟ ومن الأفضل إزالة هذا الشك .

ويرجع شيوع تداول الإصلاح «الستار الحديدى» إلى ونستون تشرشل ، وإستخدمه لأول مرة فى مايو ١٩٤٥ ، فقد إنزعج للنصر الذى أحرزه ستالين فى إجتماع « يالطة » فى فبراير ١٩٤٥ ، وأيضاً الطريقة المتعمدة من الروس لتجاهل أى إتفاق تم التوصل إليه فى هذا الاجتماع .

وفى إبريل عام ١٩٤٥ توفى الرئيس روزفلت وألقيت فجأة مسئولية رهيبة على عاتق خلفه ترومان ، فى وقت كانت رؤيته للمواضيع محدودة ولم تكن قد إتسعت كما أصبحت فيما بعد .

وإنتهت الحرب الألمانية فى ٨ مايو ١٩٤٥ باستيلاء الجيش الروسى على كل العواصم الرئيسية لشرق ووسط أوروبا وعلى وجه الخصوص برلين وبراغ وفينا وبلجراد . وفى الحقيقة فقد أحكم ستالين قبضته على شرقى أوروبا ، وأصبح مركزه لأى مفاوضات ، موقفاً حصينا ولا يمكن مهاجمته عمليا .

وقام تشرشل بتحذير ترومان مما كان محتملا حدوثه ، ولكن لم يبدى ترومان أى إهتمام لتحذيرات تشرشل . وهذا لم يثبط همة تشرشل ، فقام فى ١٢ مايو ١٩٤٥ بإرسال برقية إلى ترومان والتى بدأت فقرتها الأولى بالكلمات الآتية : « إننى أشعر بقلق عميق حول الوضع فى أوروبا » .

ثم قام بعدها بتحليل موقف الحلفاء الغربيين فى مواجهة روسيا ، وفى الفقرة الثالثة بدأها بالآتى : — «لقد أسدل الروس ستاراً حديدياً على مواجهتهم ، ولا نعرف ما الذى يدور خلفه » .

وبعد ذلك عندما عينت قائداً عاما وحاكما عسكريا للمنطقة البريطانية فى ألمانيا عام ١٩٤٥ أصبحت أكثر إدراكا لصدق كلمات تشرشل .

وفى أوائل أكتوبر ١٩٤٥ ذهبت إلى لندن وأبلغت أتلى رئيس الوزراء ، أننا فى مجلس إدارة ألمانيا لا نستطيع الوصول إلى أى إتفاق مع الروس ، ويجب على القوى الغربية أن تجهز نفسها لصراع مستمر مع الشرق الشيوعى ، والذى ربما يستمر لسنين عديدة . وقد ثبت على الأقل صحة هذه النبوءة .

وفى ٥ مارس ١٩٤٦ ألقى تشرشل خطبة فى « فولتون » بالولايات المتحدة الأمريكية والذى قال فيها : — « من « ستيتين » على البلطيق إلى « تريستا » على الأدرياتيك أسدل ستاراً حديديا عبر قارة أوروبا » .

وكانت تلك هى المرة الأولى التى أستخدم فيها هذا الاصطلاح على الملأ .

أما توضيح إصطلاح « الحرب الباردة » فليس بهذه السهولة ، لأننى لا أعرف من الذى صاغه أو متى ؟ .

وعلى العموم فسأقص ما يمكننى قوله فى هذا الاصطلاح ،لقد أصبح متداولا فى خريف ١٩٤٥ أى بعد نهاية حرب هتلر ببضعة شهور .

وأستخدم نوصف حالة التوتر التى بدأت تتطور عندئذ بين الدول الغربية والكتلة السوفيتية . وكما أوضحت خلال هذا الكتاب ، فقد تواجد التوتر دائما بين الشعوب . فى الماضى ، عندما يصبح التوتر غير محتمل ، كانت الدولة المعنية تحله بإعلان الحرب . ولكن فى منتصف القرن ٢٠ فالقوة التدميرية المرعبة للأسلحة النووية والدقة التى وصلت إليها أساليب التوجيه أو القذف جعلت الحرب العلنية بين الدول القوية أو مجموعات من الدول لمحاولة فرض نهايات سياسية ، عبارة عن طريق إعدام ذاتى مؤكد ، ويرجع ذلك إلى أن نتيجتها قد تكون التدمير التام للحياة فى الدول المعنية وطبعا لا توجد دولة ترغب فى الأنتحار .

ومن منتصف القرن ٢٠ ونحن نعيش فى عالم ممزق ، فتوجد حاليا دولتان إسمهما ألمانيا وهناك مدينتان إسمهما برلين . . . وهناك قارتان إسمهما أوروبا . .

وهناك عالمان . . الدول « الرأسمالية » والدول « الشيوعية » ، كما توجد عداوة بين الشعوب الشيوعية والديمقراطية . . وتوجد عداوة بين الشعوب البيضاء والملونة .

وأصبح من الملاحظ أن الصراع بين المجتمعات المختلفة محتوما ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون صراعا مسلحا ، لأنه أعتبر من الأفضل الحصول على الأهداف بدون حرب علنية .

وقد حول الشيوعيون ما كان يسمى بوقت السلم إلى أحد الأشكال المصغرة للحرب ، وذلك بالتخريب وإثارة العصيان فى المستعمرات والانتهاك والتجسس عن طريق الأقمار الصناعية ، وهم

على كل حال خبراء فى توليف وتنفيذ صور الحرب غير العسكرية ، من الناحية السياسية والاقتصادية والنفسية ، وهم يحرضون الدول الصغيرة على العدوان المسلح ثم يعاونونها ماديا مع إمدادها بالأسلحة .

وكل هذه الأعمال والتى تقل عن مستوى الحرب الشاملة إنما هى جزء مما أصبح يسمى « بالحرب الباردة » ، وبتعريف مختصر للحرب الباردة يمكن القول بأنها سياسة القيام بإيقاع الشقاق فى العالم بكل الطرق الأقل من الحرب الفعلية ، مع عدم تورط الدول الشيوعية فى صراع علنى مع العالم الغربى .

وقد وجدت دول العالم الغربى أنه من الصعب عليها محاربة التكتيكات الشيوعية فى الحرب الباردة منذ أن بدأت هذه الحرب عام ١٩٤٥ .

نقطة الغليان

ولماذا وصلت الأمور فى العالم اليوم إلى مثل هذه الفوضى ... ؟ ربما يقول البعض أن ما حدث قد حدث ، والسبب مبهم وغير معروف . ولن أوافق على هذا القول . فى هذا العالم . . عالم السياسة والحرب . . لا يمكن الإكتفاء بمجرد القول بأن ما حدث قد حدث .. وإنما قد حدث بسبب سياسات وطنية معينة أو نقصها ، وخاصة فيما يتعلق بالحروب . وعلى كل حال ، فإذا كان السبب يبدو للبعض غامضاً فيجب علينا محاولة تبديد هذا الغموض .

وبصفة عامة فإننى أعتقد أن هذا يرجع إلى حد كبير إلى أفول قوة الرجل الأبيض فى الدول الشرقية والأفريقية .

ففى الفترة بين عامى ٤١ — ١٩٤٢ إختفى عصر خضوع الشعوب الآسيوية والملونة لحكم الأوروبيين البيض ، وذلك عندما دخلت اليابان الحرب العالمية الثانية وإجتاحت قواتها المسلحة جنوب شرق آسيا .

وقد ظهر اليابانيون فى هذا الوقت فى صورة محررين لهذه الشعوب فى ذلك الجزء من العالم ، بالرغم من نواياهم الاستعمارية وأساليبهم الوحشية والهمجية .

وعندما إنتهت السيادة اليابانية عام ٩٤٥ فجأة كما بدأت ، فلم ترغب الشعوب فى هذا

الجزء من العالم فى أن يتسيد عليهم سادتهم القدامى، وفى الحقيقة لم يفعل هؤلاء السادة كثيراً من أجل غالبية الشعب المستعمر ولكنهم إستغلوا موارد هذه الدول الطبيعية لزيادة ثرواتهم القومية وبالتالى أصبح قيام حركات الاستقلال والتحرر أمراً محتوما ، وإنتشرت هذه الحركات التحررية فى جميع أنحاء الشرق الأوسط والأدنى وقد ظهرت فى الهند وفى الجزء الأكبر من دول أفريقيا .

وبدأت موجة سريعة من التحرر للشعوب الملونة فى جميع أنحاء العالم . وفى كل مكان أجبر الرجل الأبيض على إتخاذ موقف الدفاع ، وبطبيعة الحال ، كان المحرك الرئيسى لهذه الشعوب هى روسيا لوعدها بتحرير كل الشعوب المتخلفة مع كشف سر الإمبريالية والاستعمار والرأسمالية .

وربما كان أهم من ذلك كله ، هو أن الشعوب الغربية نفسها لم تكن قوية الإيمان بأى مثل عليا .

وبعد إنتهاء إجتماع « يالطة » فى عام ١٩٤٥ ، وضح للجميع أنه بعد إنتهاء حرب هتلر فسوف يقسم العالم إلى مذهبين عقائديين أو نظامين إجتماعيين مختلفين ، وهو ماحدث فعلا . ولو لم يتضح ذلك آنذاك فإنه أصبح بالغ الوضوح عند نهاية إجتماع « بوتسدام » فى يولية ١٩٤٥ ، وكنت أحد الحاضرين فيه وقابلت هناك كل من ستالين وترومان لأول مرة .

وكان هذا هو الاجتماع الأخير بين قادة الدول العظمى الثلاثة والتى شكلت التحالف العظيم فى القتال من أجل الحرية والعدل ضد قوى المحور .

ومنذ تلك الأيام ظهرت لى أن الشئون الدولية قد إنحطت وكأنها أصبحت مثل لوحة الشطرنج ، والتى يمثل عليها غالبية الشعب العادية وكأنها قطع الشطرنج وكانت نتائج التحرك والتحرك المضاد لها أهمية عميقة لهذه الشعوب ، ولكن ما يمكن أن تراه هذه الشعوب بعد هذه التحركات هى سياسات ليست فى الواقع سوى نوع من الصراع بين المغامرين لكسب القوة ، ولا يوجد مكان أكثر وضوحاً لهذا الصراع اليوم مما هو فى آسيا وأفريقيا .

والآن بعد أن قمنا بتعريف الحرب الباردة وناقشنا نتائجها المباشرة فمن المناسب الآن

أن نذكر أنفسنا كيف إقترب هذا النوع من الحرب إلى نقطة الغليان .

والمثال الأول الذى يمكننا الاستشهاد به هو حصار الروس لبرلين الغربية ، والذى بدأ فى يونيه ١٩٤٨ وإستمر طوال هذا العام وجزء من عام ١٩٤٩ ، ذلك الحصار الذى ذابت قيمته بفضل الجسر الجوى الهائل لإمدادها .

وأدى هذا الحصار أيضاً إلى إنشاء منظمة حلف شمال الأطلنطى فى إبريل ١٩٤٩ . وعندما أفسدت منظمة حلف شمال الأطلنطى المخطط الشيوعى فى أوروبا تحولوا إلى آسيا حيث أفقدت الانتصارات اليابانية أثناء حرب ٣٩ — ١٩٤٠ الهيبة التقليدية للقوى الغربية وهنا يجب أن أنوه بأن « الاعتبار » من أهم العوامل لدى العالم الشرقى .

وفى أندونسيا ، قام الصراع من أجل الاستقلال الذى إنتهى بتحرير هذه البلاد ذات ١٠٠ مليون نسمة من القبضة الهولندية .

وفى الملايو إتجه رجال العصابات الصينيين إلى الغابات للقتال لمنع إعادة السيطره البريطانية وفى أول الأمر حققوا بعض النجاح .

ولكن بعد ذلك وتحت حكم « تمبلر » (١٩٥٢ — ١٩٥٤) ، تم تركيز كل موارد الدولة (١) تحت القيادة العليا وتوجية المندوب السامى (٢) .

ومن ثم أديرت الحرب بواسطة الرجل الموجود فى المكان نفسه ، وذلك بذكاء وتصميم وقوة ومراعاة كاملة للأحوال المحلية . وكانت النتيجة النصر كاملا ومؤكداً .

وفى نفس الوقت تقريباً وليس بعيداً عن ذلك المكان جرت حرب مشابهة فى صورتها بواسطة الفرنسيين ضد القوميين الفيتناميين فى ولاية فيتنام والتى كانت تحت الحماية الفرنسية . وبدأت الحرب عام ١٩٤٦ وذلك بمحاولة الفرنسيين إعادة إحتلال الهند الصينية والتى كانت جزءاً من أمبراطوريتهم منذ ١٨٨٠ . وإنتهت بأتفاقيات الهدنة الموقعة فى جنيف عام ١٩٥٤ ،

---

(١) يقصد كل موارد الدولة السياسية والعسكرية والشرطة والمخابرات .

(٢) كان لدية السلطة الكاملة فى كل الأمور والتى حولتها له حكومة الأم فى لندن « المعرب »

والتى قسمت فيتنام بين الشمال والجنوب عبر خط العرض ١٧° . وقد بلغت خسائر فرنسا فى هذه الحرب ٣٥٠٠٠ قتيل و ٤٨٠٠٠ جريح ، وهذه الحملة تستحق الدراسة ، وأبرز مافيها هو التردد والتذبذب وعدم وضوح الغرض السياسى ، والتدخل السياسى والعسكرى الدائم من قبل الحكومة الأم فى باريس .

معركة ديان بيان فو

وتلقى هذه الحرب أيضاً الضوء على العجز الكلى والتكبر الأعمى للقيادة العسكرية الفرنسية فى الهند الصينية ، والتى أدارت الحرب متجاهلة تماما جميع الأعتبارات والأحوال المحلية . وكانت الكارثة النهائية عند تسليم الحامية الفرنسية فى « ديان بيان فو » فى مايو ١٩٥٤ ، والتى كانت الضربة المميتة للأمبرطورية الفرنسية ، وجعلت من تلك المنطقة مجالا مفتوحاً للحرب الباردة . والدرس المستفاد من هذه الحرب : — « لاتقلل من شأن أو تحقر العدو الأسيوى . » ويوجد كتاب مفيد فى هذا الموضوع والذى كتبه المؤلف الفرنسى « جوليس روى » وأسم الكتاب « معركة ديان بيان فو » فعندما عاد « روى » إلى هانوى عام ١٩٦٣ قال له القائد الفيتنامى الجنرال « جياب » : — « لقد هزمت بواسطة أنفسكم . » وهذه حقيقة لاريب فيها .

واليوم .. تقوم الولايات المتحدة بخوض نفس النوع من الحرب فى نفس الدولة . وفى عام ١٩٥٤ أدرك الفرنسيون أنهم خسروا حربهم فى الهند الصينية . وفى هذا الوقت الذى أكتب فيه هذا الكتاب لا زال الأمر يتطلب إقناع الأمريكيين بأنه ليس فى إستطاعتهم الأنتصار فى صراعهم فى فيتنام بالقتال .

وليس هناك من شك فى أن الثورات فى أندونيسيا والملايو والهند الصينية هى بوحى شيوعى .

الحرب الكورية

وفى ٢٥ يوليه ١٩٥٠ عبر الجيش الكورى الشمالى والمدرب تدريباً عاليا بواسطة روسيا ، خط العرض ٣٨° وغزا كوريا الجنوبية ، تلك الدولة التى كانت القوات الأمريكية قد إنسحبت

منها حديثاً . وبطريقة أو بأخرى كانت الحرب الكورية حربا محدودة ، فلم تتجاوز حدود هذه الدولة .

وبالرغم من أن القوات الصينية قد تدخلت فى وقت متأخر من هذه السنة ، بعد التحذير الذى وجهته حكومة بكين إلى حكومة واشنطن من أنها سوف تتدخل لو عبرت قوات الولايات المتحدة خط العرض ٣٨° . وعلى كل حال فالأراضى الصينية إلى الشمال من نهر « اليالو » كانت محرمة على قوات الأمم المتحدة براً وجواً . ولم تنته الحرب الكورية إلا فى يولية ١٩٥٣ ، وبلغ المجموع الكلى لخسائر الحلفاء من قتلى وجرحى ومفقودين وأسرى حوالى ٤٠٠ر٠٠٠ . وأدى الصراع الكورى إلى تقارب الدول الغربية من بعضها فى شكل أكثر كما أدى أيضاً وبصفة مباشرة إلى تسليح ألمانيا الغربية .

وقد أجتاحت أوروبا موجة من الخوف وفى هذا العالم المغلق المتشابك تواجد دائماً خطر الحرب التى تنشب فى أى مكان وقد تصبح شاملة وتنتشر وتورط العالم كله . والكثير من الشعوب قدمت مقترحات لنزع السلاح ، ولكن جميع هذه الأقتراحات كانت تعتمد إلى حد كبير على الثقة والضمان بين الدول . وهو الشىء الغير موجود إطلاقا .

ولم يحدث أى شىء منذ حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ يوحى إلى أن العدو لن يستغل فترة الضعف العسكرى التى تمر بها دولة ما لصالحه ، كما كان يفعل الأعداء بأستمرار خلال صفحات التاريخ القديم المسجل ، وبناءاً على ذلك ، فلا بد من الأستمرار للتخطيط العسكرى ، بحيث يوجه لمنع الحرب .

ولدى شعور اليوم بأن الدول تفتقر إلى الإستراتيجية بعيدة المدى . وذلك لأنشغال القادة المسئولين ومساعديهم بالكفاح مع تعقيدات الشئون اليومية ، والنتيجة الحتمية لذلك هى الأرتجال والسرعة فى وضع القرارات ذات المدى القصير على السياسة ثم تغييرها ، حتى أصبحت السياسة وكأنها حفلة تنكرية تتغير فيها الشخصيات .

السلام العالمى

وعلى كل حال فالمسألة ببساطة هى : « هل من الممكن إيجاد طريقة ما يمكن بواسطتها

أن تعيش الدول ذات المذاهب العقائدية والنظم الأجتماعية المختلفة فى سلام مع بعضها بدون تدخل كل منها فى شئون غيرها .. ؟

هذا يمكن تحقيقه لو توفرت قيادة حكيمة فى كل من الجانبين، الشرق والغرب، فى نفس الوقت هذا غير ممكن طالما يظن كل جانب أن الآخر سوف يهاجمه ، وطالما إستمر كل جانب فى تصعيد الأزمة بالتهديد بالتدمير النووى للآخر. أى أن الأمر لن يكون ممكناً حتى يتم إزالة كل جانب الخوف والأرتياب وعدم الثقة من الجانب الآخر . ويجب على القادة السياسيين مواجهة الحقائق العملية ، لأن الخطر الأكبر هو على يصبح المرء عبداً لفكرة أو شعار إقتنع به فى الماضى . وعلى سبيل المثال ، فإنه غير منطقى عل الأطلاق ، كما أنه وهم حقيقى التفكير كالآتى:

« أنه من الممكن فى أى وقت مستقبلا توحيد ألمانيا ، لأن الروس لن يسمحوا على الأطلاق بقيام دولة تعدادها ٧٠ مليون فى وسط أوروبا ، والتى تنتشر فيها قواعد أطلاق الصواريخ النووية على الحدود البولندية » .

« أنه يمكن حل المشكلة الألمانية بدون حل مشكلة الأمن الأوروبى أولا » .

« وأن الحكومة الحقيقية للصين هى فرموزا . »[١]

« وأن فى إستطاعتنا التقدم نحو عالم أكثر سلاما بدون إشراك أكبر دولة فى العالم على مائدة الاجتماعات ألا وهى الصين »[١] .

ويجب أن أكون أميناً فى تحديد رأيى الشخصى عن السلام العالمى ، فبعد خدمتى لمدة عشر سنوات فى منظمة الدفاع الغربى وصلت إلى الخلاصة بأنه لن يكون هناك سلام مستقر فى هذا العالم الحير إلا بعد عودة القوات المسلحة لجميع الدول إلى أراضيها الوطنية . وقد ثبت صدق هذا الرأى عندما أنهيت الخدمة العاملة فى منظمة حلف شمال الأطلنطى عام ١٩٥٨ ، وأصبحت حراً فى زيارة القادة السياسيين والعسكريين فى الدول الغير منحازة والكتلة الشرقية.

وقد تحدثت بإسهاب فى هذا المجال فى كتاب نشر لى عام ١٩٦١ بعنوان : — « الطريق إلى القيادة » ولكنى الآن غير متأكد . والمشكلة هى أن الجانبين (الشرق والغرب) ،

---

(١) لقد تحققت نبوءة مونتجمرى بعد الأعتراف بالصين الشعبية وقبولها و هيئة الامم المتحدة وطرد فرموزا .

« المعرب »

قدوصلا إلى ما يمكن تسميته بالأختلاط الفكرى بدرجة أصبح من الصعب أن يكونا واضحين. ويلوح للبعض، الأمل فى أن الحرب الباردة سوف تصل يوما ما إلى مرحلة يستسلم فيها أحد الجانبين ويحل السلام.

وعندما فكرت طويلا، تأكدت من أن هذا الأمل هو وهم، لأنه مبنى على عدم فهم لطبيعة العلاقات الدولة. فالإتفاقيات والمعاهدات بل وحتى الحروب والمنازعات ما هى إلا بمثابة علامات الطريق الماضية، كما تحدد فقط مرحلة على طول الطريق فى الأمور الدولية.

والمواجهة الحالية بين عقيدة العالم الغربى وعقيدة العالم الشيوعى ليست من النوع المحدود، بل هى صراع مستمر، وقد يختفى فى بعض الأحيان ولكنه قد يظهر بشكل واضح فى أحيان أخرى.

وسوف يستمر الأمر هكذا لجيل أو لأكثر، فهو مثل المشكلات العائلية، فلن تختفى فجأة وإذا قدر لها الحل، فلن يكون حلا حاسماً ونهائياً، لأنه لا يمكن فصل هذا الصراع عن بقية المشكلات الدولية الملحة أيضاً، مثل قابلية التطبيق الاقتصادى والعدالة الأجتماعية ويجب علينا أن نرفض أى حل لمشكلات عصرنا والتى تبنى فقط على كسب الحرب الباردة، ولا أعتقد أنه يمكن تحقيق النصر كاملا فى هذا المجال، ولكن بالممارسة الصابرة للسياسة وبالتصميم على إزالة الأرتياب والخوف وحتى الكراهية، سيجعل العلاقات المتبادلة بين النظم الاجتماعية والعقائدية المختلفة أقل عرضة لأن تنفجر فى حرب، وتجعلها أكثر تماسكا مع تعايش سلمى حقيقى.

وقد بدأ الميل نحو هذا الاتجاه فى السنوات الحديثة، ولكن لم يكن هناك نوايا مخلصة بدرجة كافية وراء هذا الميل، ولا تصميم أكيد على إنهاء الصراع، والجميع يتفقون على نقطة واحدة: — «أن حالة دائمة من التعايش غير السلمى لن تجر سوى البؤس على الملايين من البشر البسطاء، ولابد من إيجاد وسيلة لمنع هذه الحالة».

وفى الفصل القادم، سأناقش المشكلات الرهيبة للعصر النووى ومدى الحاجة إلى أعادة تنظيم وأسس القوات المسلحة.

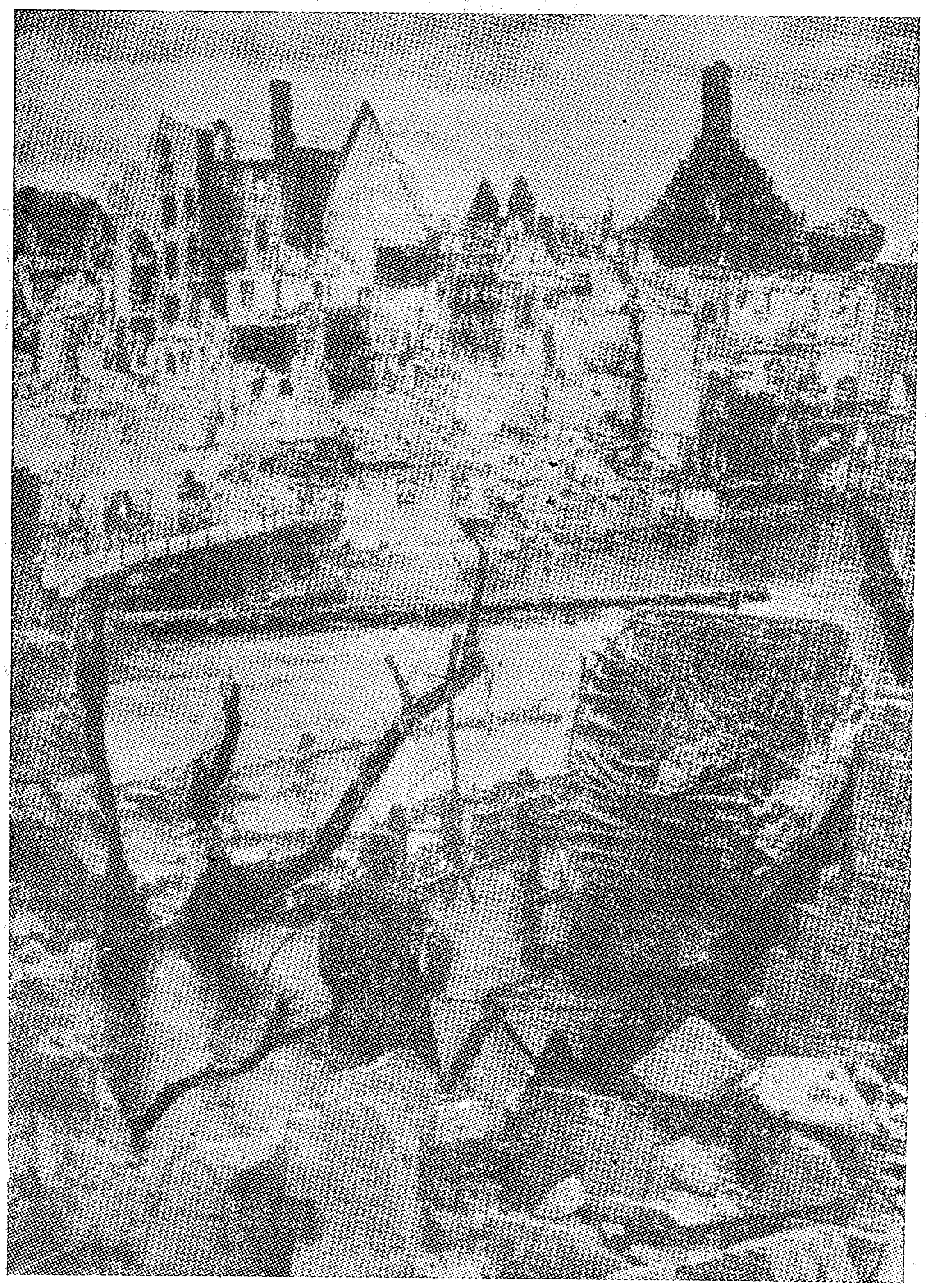

مدينة نورمبرج بعد تدميرها فى الحرب العالمية الثانية

وهذه الصورة وغيرها ترهب المعسكرين الغربى والشرقى من نشوب الحرب

الفصل الرابع والعشرون

العصر النووى

تكنولوجية السلاح النووى

والآن . . يجب علينا أن نفحص بإمعان وعمق ، الرادع النووى الذى يحول اليوم من قيام حرب شاملة بين القوى الكبرى، فربما الكثير من الناس لا يفهمون جيدا كل من قوة ومضمون الأسلحة النووية ، وخاصة القنبلة الهيدروجينية ، ولذا سنبحث هذا الموضوع لنرى إذا كان فى إستطاعتنا إكتشاف أفضل السياسات الملائمة والتى تمكن الجنس البشرى من العيش بسلام على الأرض ولسنوات طويلة . .

عكف العلماء على العمل فى مجال نظرية الطبيعة النووية ، ولكننا لسنا فى حاجة للذهاب بعيدا للخلف أكثر من بداية عام ١٩٤٠ .

فقد كان من الواضح أن إنتاج قنبلة ذرية سوف تمنح الحلفاء الأفضلية فى حرب ٣٩ — ١٩٤٥ .

وفى عام ١٩٤٠ علم أن العلماء الألمان يعملون فى هذا المشروع . وفى سرية تامة ، عكف العلماء البريطانيون والأمريكيون على العمل العاجل فى هذا المجال ، وتمت الموافقة فى عام ١٩٤٣ بين كل من روزفلت وتشرشل على أن تجرى كل الأبحاث والتطورات فى الولايات المتحدة ، لأنها كانت بعيدة عن مدى القاذفات الألمانية .

وتمت أول تجربة حية للقنبلة الذرية فى « نيومكسيكو » فى صباح ٢٦ يوليه ١٩٤٥ ونجحت التجربة نجاحاً تاماً . وفى هذه الفترة كانت الحرب الألمانية قد إنتهت ولكن الحرب ضد اليابان كانت لم تتوقف . وفى اليوم السابق ، ١٥ يوليه ١٩٤٥ أفتتح مؤتمر « بوتسدام » فى برلين ، وتلقى الوفد الأمريكى فى المؤتمر أنباء التجربة الناجحة بعد ١٦ يوليه ١٩٤٥ .

وقد أحيط تشرشل علماً بذلك على الفور ، والذى أبلغنى فى سرية تامة ، وهنا برز سؤال هام ... هل يجب إحاطة ستالين بهذة الأنباء ؟ ونوقش هذا الموضوع طويلا ، وأخيراً

تم الأتفاق على وجوب إخطار ستالين ، وقام ترومان بأبلاغه بذلك فى مساء ٢٤ يولية ١٩٤٥ ، وأبدى ستالين قليلا من الأهتمام فبطبيعة الحال قد عرف كل شىء عن ذلك من شبكة الخدمة السرية الروسية ولكن هذا مجرد تخمين .

وتمت الموافقة بالإجماع بين الوفد البريطانى والأمريكى على وجوب إستخدام القنبلة ضد اليابان ، وقد كتب تشرشل فى المجلد السادس من كتاب الحرب العالمية الثانية قائلا : ـ « لقد بدا لنا فجأة أننا قد أمتلكنا النهاية الرحيمة للمذابح فى الشرق وأسعد الآمال للغرب ، ولقد كانت موافقة إجماعية حول مائدة الأجتماع وتلقائية ، ولم أسمع أى إقتراح بأستعمال أى وسيلة أخرى » وبالرغم من هذه الموافقة بين الوفود البريطانية والأمريكية والروسية فى مؤتمر « بوتسدام » ، فإن الكثير من الناس وفيهم أنا ، قد أعتقدوا بعدم ضرورة إستخدام القنبلة الذرية ضد اليابان ، لأن اليابان بدأت تسعى للسلام قبل ذلك ببضعة أسابيع . وعلى أى حال فإن القنابل التقليدية أحدثت دماراً كاملا فى اليابان بدرجة جعلت الشعب اليابانى لم يتبق له سوى أمل ضئيل فى مواصلة القتال اليائس . وعلى أى حال فقد أسقطت القنبلة الذرية الأولى فوق « هيروشيما » فى ٦ أغسطس ١٩٤٥ ، وأسقطت الثانية فوق « نجازا كى » فى ٨ أغسطس وبعد ذلك بستة أيام إنتهت حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ .

أما العلماء فلم يتوقفوا ، بل واصلوا عملهم لتطوير قنبلة أكثر قوة . وفى عام ١٩٤٦ تم إجراء تفجير تحت الماء عند بيكيني فى جنوب المحيط الباسفيكى ، وفى أغسطس ١٩٤٦ تكونت « لجنة الطاقة الذرية » فى الكونجرس الأمريكى . وفى عام ١٩٥٢ تم إجراء التفجير الأول لقنبلة هيدروجينية فى المحيط الباسفيكى ، وتبعها ثلاث تفجيرات أخرى فى نفس الموقع فى مارس وإبريل ١٩٥٤ .

وبعد ذلك فى سبتمبر ١٩٥٤ توفى صياد سمك يابانى بمرض اليرقان الناتج عن إصابته بالأشعاعات المسببه من الغبار الذرى المتساقط . وأصيب الرأى العام فى جميع أنحاء العالم بالذعر وطالب بوقف التجارب الذرية فى الغلاف الجوى ، وتم الأتفاق على ذلك عام ١٩٥٨ . والآن نصل إلى أحد المواقف المثيرة والهامة ، ففى مارس ١٩٦٢ أعلن الرئيس كنيدى أن الولايات المتحدة سوف تستأنف التجارب النووية فى الغلاف الجوى نظراً لنقض روسيا للتحريم القائم

وقت ذلك ، وتضمن بيان الرئيس على الفقرة التالية : — « يجب علينا إجراء التجارب فى الغلاف الجوى لكى نسمح بتطوير هذه الأبحاث المتقدمة، والأسلحة الأكثر تأثيراً وفاعلية والتى صارت من أهم دعائم أمتنا على ضوء التجارب السوفيتية . لا يزال تكنولوجية السلاح النووى ميداناً دائم التغيير ولذا كان على أسلحتنا أن تكون أكثر مرونة فى إستخدامها وأكثر إنتقاءاً فى تأثيرها .

لذا يجب علينا أن نكون يقظين للتقدم العلمى الجديد وذلك بقيامنا بتجارب للتصميمات الجديدة ، وإذا أردنا المحافظة على قوتنا الدافعة العلمية وزعامتنا ، فيجب علينا ألا نوقف تقدم أسلحتنا أو نحد منها أو نعتمد على اوسائل النظرية أو نجعل التجارب داخل المعامل وفى الكهوف » . وإذا كان ذلك البيان صادقاً وحقيقياً وسارى المفعول ، وأنا شخصياً أعتقد أن له هذا ، فعلينا أن نحاول معرفة السبب الذى من أجله قام ارئيس كنيدى بعدذلك بتوقيع « إتفاقية التحريم الجزئى للتجارب النووية[1] » مع كل من بريطانيا والإتحاد السوفيتى وأمريكا . ومن الأصح أن نعرف ما كان يدور فى ذهن الرئيس الأمريكى ولكن هذا لم يحدث لأنه أغتيل فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ ، كما سقط خروشوف من مركز القوة بعد ذلك بسنة واحدة فى ١٤ أكتوبر ١٩٦٤ .

وبعد ذلك وقعت العديد من الدول على هذه الأتفاقية ، ولكن لم توقع فرنسا والصين ، وهما الدولتان الوحيدتان الأخريتان اللتان لهما قوة ضاربة نووية . ولم تكن روسيا متخلفة كثيراً عن الولايات المتحدة فى تطوير الأسلحة النووية ، فقد فجر علماؤها قنبلتهم الذرية الأولى عام ١٩٤٩ ، وكانت لديها القنبلة الهيدروجينية عام ١٩٥٣ . وربما كان الرئيس كنيدى قلقاً بخصوص التقدم النووى فى الصين ، فقد قام الصينيون فعلا بتجارب نووية مؤكدة ، ففى ١٦ أكتوبر ١٩٦٤ ، أى بعد يومين من سقوط خروشوف من مركز القوة ، قاموا بتفجير جهازاً نوويا منخفض القوة فى منطقه نائية فى « سنكيانج » ، ولهذا لم يكن من الغريب عدم توقيع الصين على إتفاقية تحريم التجارب النووية .

لقد فجر الصينيون جهازاً نوويا ثانياً عام ١٩٦٥ وأثنين آخرين فى مايو وديسمبر ١٩٦٦

(١) لقد أضيفت كلمة « جزئى » لأنه أنفق على أمكان إستمرار التجارب النووية تحت الأرض فى السنة التالية أى فى يوليه ١٩٦٣ . « المعرب »

والذى إحتوى كل منهما على مادة نووية حرارية وتقدموا بخطى واسعة فى هذا المجال حتى وصلوا إلى مصاف الدول الكبرى :

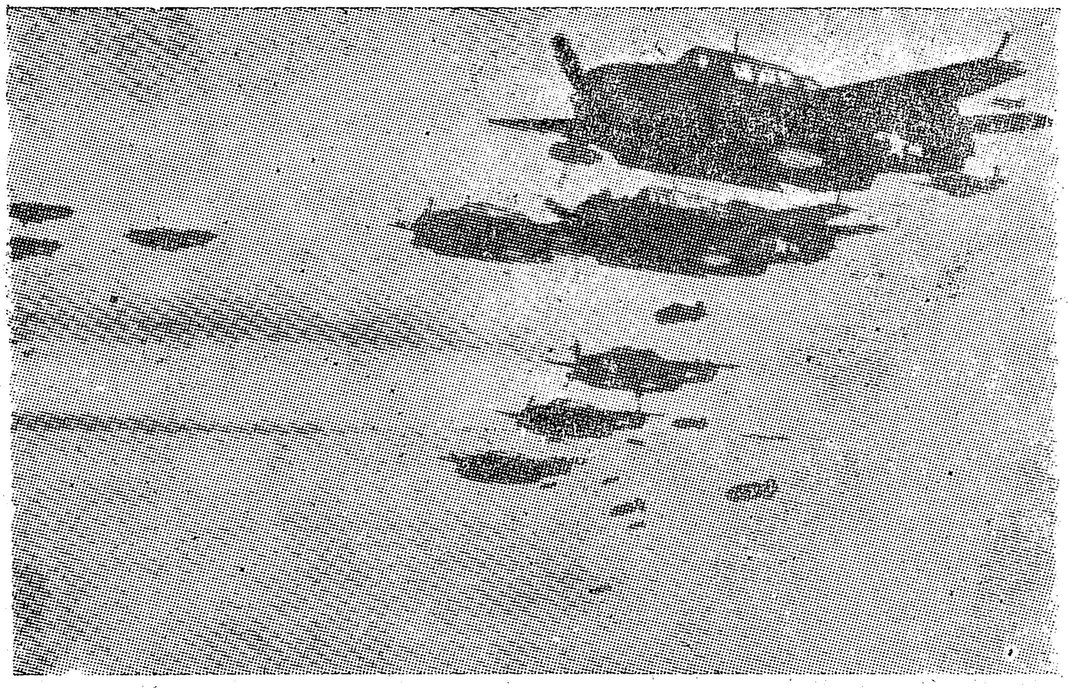

قذفت طائرات الحلفاء طول الحرب العالمية الثانية بحوالى ٥ر٣ مليون طن

القنبلة الهيدروجينية

يجب أن نبحث الآن علاقة القنبلة الهيدروجينية بالحرب ، لأنها ليست مجرد سلاح نووى آخر ذو قوة تدميرية أكبر . ويوجد اليوم وسائل من شأنها حمل القنبلة ثم توصيلها بسرعة رهيبة للغاية إلى أى هدف فى العالم ، وهذا الترابط المثير بين قوة النيران وخفة الحركة يعتبر ثورة فى فن الحرب ، فقبل العصر النووى كان الهجوم للاستيلاء على أو تدمير هدف عسكرى ، يستغرق أسابيع كثيرة ، أما اليوم فقنبلة هيدروجينية واحدة تكفى للقيام بهذا العمل فى مدة لا تتجاوز الجزء من الثانية ، أو بالطبع فلم يحدث أن ألقيت إحدى هذه القنابل على أى هدف فى الحرب . ولكن التجارب أثبتت أنها ذات قوة لا تصدق ، وقد يعطينا المثال التالى صورة لقوتها ، فقد بلغ الوزن الكلى للقنابل التى أسقطها الحلفاء خلال حرب ٣٩— ١٩٤٥ فى مسرحى أوروبا والباسفيك حوالى ٥ر٣ مليون طن .

وإذا عبرنا عن هذا الرقم باللغة النووية فإنه يكون ٣ر٥ ميجا طن ، وهى أقل من قوة قنبلة هيدروجينية واحدة من الحجم المتوسط أو قوة رأس صاروخ نووى . ومن الأفضل لنا أن نأخذ فكرة عامة عن الفجوة الإنفجارية لقنبلة هيدروجينية واحدة قوتها ٢ ميجاطن مستخدمين فى ذلك الأرقام التى نشرتها لجنة الطاقة الذرية . وسوف نفترض فى سقوط القنبلة على مركز مدينة كبيرة ، وفى هذه الحالة سوف يحدث الأنفجار فوهة عمقها حوالى ٣٥٠ قدم وقطرها ٣ر٧٠٠ قدم ، وسوف تتواجد خارج هذه الفوهة الكبيرة مساحة من الحطام ، المملوءة بالإشعاع الضار والتى تمتد إلى مسافة تقرب من ١ر٨٠٠ قدم وإلى إرتفاع حوالى ١٠٠ قدم ، وسوف يكون قطر كرة النيران الناتجة حوالى ٤ أميال ، كما تكون درجة حرارة الكرة حوالى ٨ر٠٠٠ درجة فهرنهيت .

وكل مافى داخل هذه المنطقة من أحياء وجماد سوف يسحق تماما ، ما النشاط الإشعاعى المتخلف فسيجعل من المستحيل إعادة تعمير المنطقة قبل ٥٠ عاما . والمبانى الكبيرة والتى على بعد ستة أميال من مكان سقوط القنبلة سوف تصبح لاشىء أكثر من هيا كل من الأنقاض ذات الأسقف والحوائط المنهارة .

وبالإضافة إلى هذا التدمير الذى أحدثه الأنفجار ، فهناك درجة الحرارة الرهيبة التى ستبدأ فى إشعال النيران ، وسوف ينتشر الدمار والنيران الثائرة ، وستحدث ملايين من الخسائر التى تمتد إلى نحو ١٨ ميل من مركز الأنفجار .

وسيبدأ تساقط غبار ذرى شديد الإشعاع على هذه المنطقة بعد حوالى ٢٠ دقيقة من تفجير القنبلة والذى يستمر لمدة حتى نصف ساعة قبل أن يهدأ . وبعد الأنفجار بـ ٤٨ ساعة سيتخذ الغبار الذرى المتساقط شكلا بعرض ١٨ ميلا وسينتشر مع الريح لحوالى ١٣٠ ميلا ، مسببا فيما بعد خسائر جسيمة . كل ذلك قد تحدثه قنبلة هيدروجينية واحدة طبقا لبيانات لجنة الطاقة الذرية الأمريكية .

القوة النووية

وهذا إذن هو السلاح الذى جعل الكتلة الشرقية ، نتيجة الخوف منه ، تكف عن

تجاوز الحد فى الحرب الباردة ، وذلك خوفاً من إشعال حرباً نووية شـــاملة بين الشرق والغرب .

وهو أيضاً السلاح الذى يأمل العالم الغربى فى أن يكون رادعا كافياً ضد أى عمل من هذا القبيل يقوم به العالم الشيوعى .

وعند الحديث عن إحتمال أى عمل يمـكن أن يقوم به أحد الطرفين الشيوعى أو الغربى فيمـكن القول بأنه لا يهم مدى ما يكون عليه الهجوم المفاجىء فمهما كانت سرعة المعتدى ، فإنه لن يستطيع الهروب من الضربات الانتقامية وهكذا فإن المخاطرة فى الحرب النووية الشاملة رهيبة جداً تجعل من العسير جداً القيام بأى مغامرة .

ومنذ أن قرر العالم الغربى إتباع سياسة الردع النووى برز لنا سؤال : —

« ماذا يعنى تعبير « القوة النووية ؟ » » .

فمن الزاوية الاستراتيجية يمـكن تعريف القوى النووية بأنها الدولة التى لديها أقل قدرة لتوصيل أسلحة نووية كافية لردع أى دولة معتدية ، أو بمعنى آخر منع العدو من إستـكمال وتقوية مركزه بتوجيه ضربة قاضية مفاجأة .

ومعنى هذا أنه يجب أن يكون لدى الدولة المعتدى عليها القوة لترد الضربة . وهذه القوة هى التى بوجودها يمـكن تجنب كارثة الحرب . ولـكن إلى أى مدى ترد الضربة ؟ ؟

وفى تقديرى أن ترد الضربة بحيث تدمر تماماً عدداً غير مقبول من المدن الرئيسية أو المناطق الحيوية .

وفى قاموس أكسفورد المختصر عرفت كلمة « الردع » هو إحباط وتثبيط العزيمة بواسطة بث الخوف .

ويوجد فى العالم اليوم خمسة قوى فقط والتى ينطبق عليها هذا التعريف ، أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا والصين .

والنقطة التى يجب فهمها جيدا هنا هى أن ما يمـكن أن يردع إحدى الدول ، ولتـكن مثلا ، من إستخدام قوتها النووية ، ليس ضرورى أن يكون هو نفسه الذى ينطق على دولة أخرى مثل الصين . وهنا تـكمن مانسميه : — « معضلة الردع » . والمشكلة هى أن نعرف

بالضبط ، درجة التدمير التى تعتبرها قوة نووية شيوعية أنه فى إمكانها تحملها ، وما هو المطلوب من دول العالم الغربى لكى تقنع الدول الشيوعية بأن بعدوانها سوف تكسب أقل وتتكلف أكثر مما تأمل أن تتوقعه .

وقد أعطت أزمة كوبا عام ١٩٦٢ تلميحاً لذلك ، ولكن رغم ذلك ، فليس هناك إجابة حاسمة لهذا السؤال . وأكثر من ذلك فلا توجد حتى الآن وعلى نحو مرضى ، وسائل لتقييد إنتشار الأسلحة الذرية عن طريق نزع السلاح ، وبالتالى تتوفر الضمانات بوسائل مختلفة ، والتى تحقق درجة معقولة من القوى ، الشىء الذى لا تستطيع الأسلحة تحقيقه الآن .

وقد أصبحت الأمم المتحدة مجرد مرآة لعالم منقسم ، وبتنظيمها الحالى لا يمكنها أن تكون إطلاقاً أكثر من منبر للمناقشة ، وفى الواقع أصبحت الأمم المتحدة ميدان قتال للحرب الباردة ، بدلا من أن تكون مجالا لحلها . فالحرب لا يمكن أن تلغى نفسها ، وبأبسط تعريف ، فيمكن القول بأن الأسلحة النووية قد أعطت الجنس البشرى الخيار بين إلغاء الحرب أو حرب فناء للبشرية بواسطة هذه الأسلحة .

والشىء الذى يجب الشروع فى إنجازه ، هو إيجاد حل للاختلافات السياسية والعقائدية والتى تقسم العالم . وإذا لم يتحقق ذلك أولا فمن المحتمل أن نزع السلاح الذرى سيزيد من إحتمالات الحرب التقليدية .

الصراع النووى بين الشرق والغرب

وقد تأتى الطامة الكبرى عندما تشن قوة نووية حربا تقليدية ضد قوة نووية أخرى ، ثم تجد نفسها سوف تخسر الحرب ، هل هذه الدولة لا تحاول عندئذ كمحاولة أخيرة لها لانتزاع النصر باستخدامها السلاح النووى فى اللحظة الحاسمة ؟

يجب علينا ألا نهرب من هذا السؤال ، ومن الأرجح أن تكون أفضل إجابة على هذا السؤال بفرض سؤال آخر . هل من المحتمل فى الحرب المحدودة أن تلجأ دولة إلى إستخدام سلاحاً نووياً صغير العيار نسبياً . . ؟ ؟ ويوجد اليوم أربع دول فقط يمكنهم إنتاج مثل هذه الأسلحة ، وهم الولايات المتحدة وروسيا وفرنسا والصين .

ويمكن لهذه الدول أن تمد الدول الصغرى والتى يوجد تعاطف معها بهذه الأسلحة ، ولكن تقديم هذه الأسلحة ينطوى على المخاطرة الممثلة فى أن تطلب تلك الدول الصغرى المزيد من الأسلحة الأكثر قوة والأشد دماراً ، وعندئذ تتسع دائرة الصراع لتصبح حرباً نووية شاملة بين كتل القوى الكبرى ، أى نفس نوع الحرب التى يحاول الغرب أن يردعها والتى فى الحقيقة لا يرغبها الشرق .

وفى رأيى أن الإجابة على هذا السؤال هو « لا » ، فلا توجد دوله سواء فى العالم الغربى أو العالم الشيوعى ، ترغب فى المخاطرة باستخدام أى نوع من الأسلحة النووية فى حرب محدودة ذات طابع تقليدى ، إلا إذا كانت تمتلك قوة نووية ضخمة وموثوق بها لكسب الحرب ، وذلك لاستخدامها فى حالة ما إذا إتسع الصراع .

ومثل هذه القوة النووية موجودة لدى أمريكا أقوى دول للعالم الغربى وأيضاً لدى روسيا أقوى دولة فى العالم الشيوعى ، ولكن لن تخاطر أى من الدولتين بتحمل تبعات إستعمال هذه الأساحة ، لأن الدمار الذى ستلحقه الضربات الانتقامية لمدن كل منهما سيكون دماراً مرعباً يفوق أى تصور ، كما أنه لا يمكن لأى منهما التأكد من تحقيق النصر . ولكن سيظل كل منهما محتفظا بقدرته النووية الكبيرة ، إلى أن يتمكن رجال السياسة من إيجاد وسيلة مقبولة للتعايش السلمى .

وقد يكون من المستحسن أن نتعرض هنا لأزمة كوبا عام ١٩٦٢ ، فقد أظهر بوضوح الاستطلاع الفوتوغرافى فوق الجزيرة للرئيس كيندى رئيس الولايات المتحدة بأنه هناك قواعد صواريخ روسية جارى إنشاؤها وبالتالى أصبح ذلك يشكل تهديداً نوويا لأمريكا . وبناءا على ذلك قرر كيندى منع السفن التى تحمل الأسلحة من الوصول إلى كوبا ، مستخدما فى ذلك القوات البحرية والجوية الأمريكية . ولو أن خروشوف إختار أن يبدأ حربا نوويه بسبب الأزمة الكوبية ، لنتج عن ذلك تنفيذ خطط القيادة الجوية الاستراتيجية الأمريكية بالاشتراك مع الغواصات البحرية التى تحمل الصواريخ « بولاريس » ، لتدمير آلة الحرب السوفييتية .

وقام كيندى بالاتصال بخروشوف طالباً منه سحب صواريخه من الجزيرة أو... المواجهة.. وبناءاً عليه قام خروشوف بالعمل الوحيد الذى كان فى إستطاعته عمله ألا وهو إعادة صواريخه ثانياً إلى روسيا .

ولقد كان هذا مثالا كلاسيكياً عن « الردع الديناميكى » والذى قام به زعيم شجاع .

وقد نجح كيندى لأن الولايات المتحدة كانت تتمتع بالترابط الكامل بين ثلاث عوامل حيوية يجب توافرها فى مثل هذه الأزمة وهى القوة العسكرية والشجاعة الدبلوماسية والوحدة الوطنية .

ولسوء الحظ تواجهنا حقيقة ساخرة ، وهى أن الحرب النووية قادرة على تدمير المجتمع ، فإن وسائل تجنبها تتكون من بناء وسائل تجهيزها للهجوم .

والشيء الذى يجب أن نأمل فيه ، هو بعض إجراءات السيطرة على التسليح ، وإلى أن يتم الاتفاق على هذه المسألة ، فسوف يتوقف تجنب الحرب النووية على بقاء التوازن السياسى العسكرى محفوظاً بين الشرق والغرب .

ومن السهولة أن ينقلب هذا التوازن ، بسلاح جديد أو نظام دفاعى . أو بأسلوب جديد للهجوم أو بأى إختراع جديد يمكن أن يقلب التوازن مرجحا كفة أحد الطرفين . وقد قال البعض ، أن فرص تجنب الحرب النووية تكمن فى إنشاء نوع من السلطة العالمية العليا أو الحكومة العالمية والتى تسيطر على العلاقات بين الدول .

ولكن الصعوبات التى تقابل أى حل من هذا القبيل للمشكلة لا يمكن التغلب عليها ، وربما أكثر الحلول إمكانية فى العصر الحالى يتمثل فقط فى منع إنتشار الأسلحة النووية خارج نطاق القوى النووية الخمس السابق ذكرها ، ولكن ذلك الحل صعباً أيضاً ، فقد صرح أحد الزعماء الغربيين بأنه لا يمكن لدولة أن تطلب مقعداً على « مائدة القمة » إلا إذا أصبحت هذه الدولة قوة نووية .

إذن لن يكون هناك مجال لهذا الحل حيث أن كل دولة ذات سيادة سوف تسعى جاهدة للجلوس على مائدة القمة . وطالما أن التعايش السلمى بين الشرق والغرب غير ممكن ، فالاستراتيجية الوحيدة السليمة فى هذه الحالة والتي يمكن أن تضمن أمنها القومى ، هى

إحتفاظ كل منها بقوات للردع وقوات أخرى تقليدية . ولكن فى هذه الحالة لن يكون هناك إستقرار دائم مع وجود عنصر عدم الثقة .

صندوق بندورا

وفى أثناء ذلك يتابع العلماء فى كل من الجانبين أبحاثهم لإنتاج أسلحة أكثر قوة ، بينما القادة العسكريون يصارعون المشكلة المستعصية المتمثلة فى رسم الاستراتيجية التى سوى يطبقونها فى العصر النووى .

وإحتمالات نزع السلاح النووى ضئيلة حيث لن ينهى تدمير كل الأسلحة النووية ، معرفة كيف يمكن صناعتها ، كما كتب أحد الكتاب عن الأسلحة النووية : — « إنه صندوق البندورا[1] إذا فتح مرة ، فمن الصعب غلقه » .

والآن قد قلنا ما فيه الكفاية ويتبقى عندنا رجال السياسة فى العالم وعليهم العثور على الطريق الذى يبعدهم عن الكارثة بشرط أن يكون هذا التنفيذ مؤيداً بالحلول التى يقدمها الرأى العام فى هذه الدول والذى على علم بحقيقة المشكلة ويرى بوضوح أبعاد المستقبل تحت التهديد النووى .

ويجب على رؤساء العالم أن يتعلموا من التجربة ، وفى كثير من الأحيان من التجربة المرة ، كما حدث فى منتصف القرن ٢٠ .

ففى عام ١٩٤٣ رفعت سياسة « التسليم بدون قيد ولا شرط » رأسها القبيح عاليا وأدت بالغرب إلى إنتهاج هذه السياسة التى أرتدت علينا جميعا ، بالرغم من أن هذه السياسة كانت تلائم العالم الشيوعى جيداً فى ذلك الوقت .

ويجب أن يكون الهدف الحقيقى فى الحرب هو خلق السلام الآمن المستقر ، ولن يتحقق هذا لو إتجهت دولة أو مجموعة من الدول لتحقيق نصر عسكرى كامل . وأغلق

---

(١) بندورا إسم أمرأة ورد فى أحد الأساطير الأغريقية التى يقال أن الألة زيوس أرسلها عقابا للجنس البشرى بعد سرقة بروميثيوس للنار ، وأعطاها علبة وعندما فتحتها بدافع الفضول حتى أنطلق منها جميع الشرور والرذائل وعمت جميع البشر ولم يتبق منها غير الأمل «المعرب»

الباب بعنف فى وجه أى فكرة للسلام عن طريق التفاوض ، وهو نفس الشىء الذى حدث فى حرب ١٤ — ١٩١٨ وأيضا فى حرب ٣٩ — ١٩٤٥ . ويجب علينا ألا نعتمد على العلاقات الدبلوماسية الجامدة فى العصر النووى .

وعلى المرء فقط أن يقارن بين العلاقات بين كل من ألمانيا والكومنولث البريطانى ، والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا ، والصين فى عام ١٩٤١ وفى عام ١٩٥٠ ، ثم أخيراً العلاقات بين نفس الدول فى أواخر الستينات ، ليتحقق المرء من عدم إمكانية حدوث أى تفاهم أو إلتقاء بين هذه الدول خلال السنوات القادمة .

الة الحرب القومية

ومن الصعب التنبؤ بأى درجة من التأكيد بالكيفية المحتملة لتطور القوات المسلحة فى العصر النووى، ولكن يبدو لى أن المبادىء التالية سوف تثبت ذلك لأننى أرى من خلالها المستقبل العسكرى .

لقد أحدث التقدم العلمى ثورة فى الأفكار والمفاهيم الإستراتيجية والتكتيكية منذ حرب ٤٩ — ١٩٤٥ ومابعدها ، وعلى ذلك ، فيمكن لأى إنسان أن يخمن ما الذى يمكن للعلماء تقديمه لنا فى المستقبل ؟ .

وإشترك هؤلاء العلماء فى البحث والتطور والابتكار خلال السنوات ٢٥ الماضية وكان لها نتائج باهرة . ولذلك إذا طرأ أى تقدم على نزع السلاح فى العالم ،وإذا خفضت ميزانية الدفاع ، فإن ما يخصص لهؤلاء العلماء من أموال وقوى بشرية يجب أن يظل كما هو . وسيكون من الخطورة التكهن بأى استنتاجات لأبعد من ١٥ سنة القادمة . ولكن تأثير العلم فى منتصف القرن ٢٠ على فن الحرب وعلى تنظيم القوات المسلحة هائلا . وسبب هذا التأثير صعوبة إحتمال قيام الحرب الكبرى ، أى الحرب الشاملة ، والتى يستخدم فيها الجانبين الأسلحة النووية .

ولن ترغب أى دولة فى تخطى الحد فى الحرب الباردة ، ذلك التخطى الذى يدفع بها إلى الانتحار .

وخلال الثمانى سنوات القادمة ومع بداية عام ١٩٨٠ ، فإن التركيز العسكرى سيكون مسلطا على الحروب الصغرى والمحدودة جغرافيا ، والتى سوف يستخدم فيها فقط ما يطلق عليه بالأسلحة التقليدية ، وسوف يكون مسرح هذه الصراعات المسلحة فى نصف الكرة الشرقى أكثر من وقوعها فى النصف الغربى مع زيادة إتساعها فى أفريقيا .

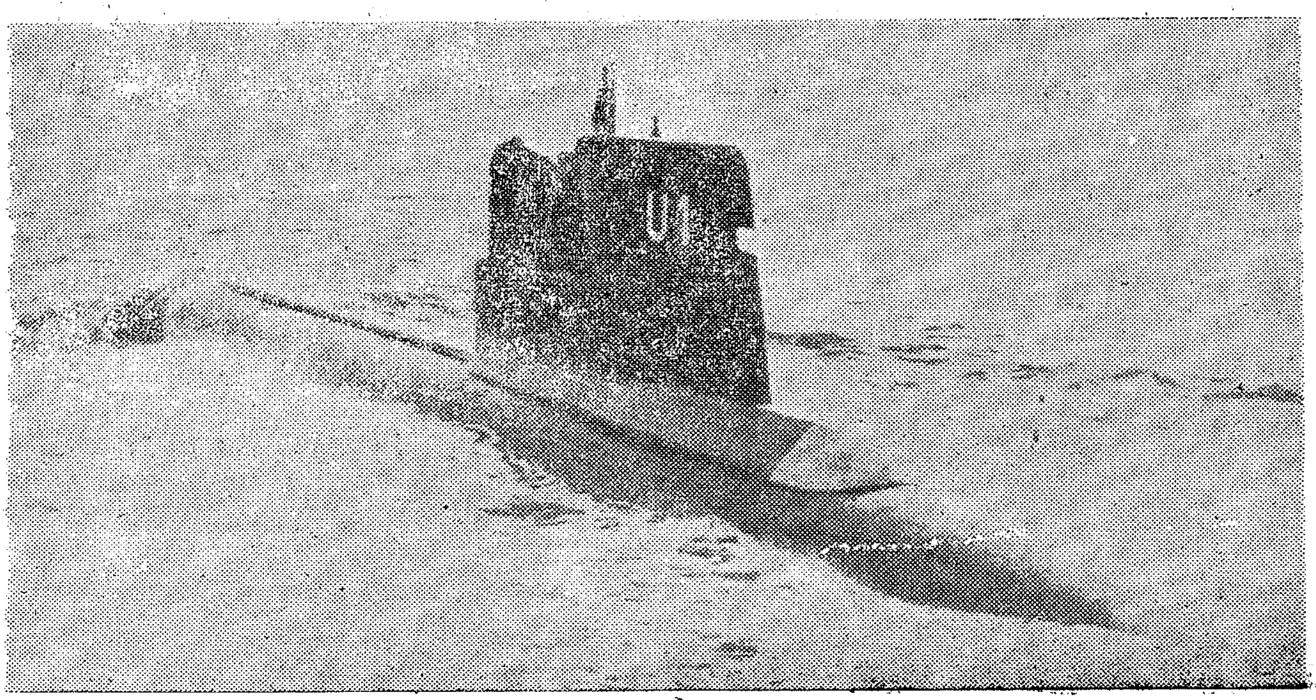

الغواصة الذرية بولاريس

الحرب تحت البحر

ومن أهم وأبرز تطورات الحرب الحديثة هو الزيادة السريعة والمفاجئة فى قوة كل من البحرية والطيران ، وقد سبق أن ذكرت فى الفصل الأول أنه منذ العصور القديمة عندما تسيطر الدولة على البحار ، يكون النصر فى النهاية فى جانبها ، لأن عدوها سيكون محصوراً داخل نطاق الإستراتيجية البرية .

وقد أكدت القوة الجوية ذلك عندما وصلت إلى ذروتها فى التطور . والتجميع البارع للقوة البحرية والقوة الجوية لمن العوامل ذات الأهمية الأولى فى نجاح المعركة ، وينطبق نفس المبدأ فى حالة القوات البرية والجوية .

وفى مجال التنظيم العسكرى ، فليس هناك طريق مضمون للوصول إلى كارثة محققة أكثر من إتباع نظم كانت متبعة من قبل ، ثم تطبيق هذه النظم السابقة والأستمرار فى تنفيذها ، فالمشكلة تتغير دائما . ويبين هذا المبدأ إلى أن القوة البحرية سوف تعمل فى المستقبل بطريقة

مختلفة عما كانت تعمل به فى الماضى ، وذلك بسبب تأثير العلم على فن الحرب . وقد ولى بالتأكيد عصر البوارج الكبيرة ، والحرب البحرية المستقبلة ستدور بنسبة متزايدة تحت سطح البحر ، وسيكون تسليحها الرئيسى هى الغواصات من طراز « البولاريس » و« الهانتر كيلر » (الصيادة القاتلة) وإذا أسطاعت الغواصة بولاريس الوصول إلى عمق أكبر من الحاضر ، فسيكون مستحيلا تحديد مكانها بواسطة أى وسائل علمية معروفة فى وقتنا الحاضر . أما السفن التى تعمل على سطح البحر ، فستصبح أكثر سرعة وصغيرة وقادرة على إطلاق الصواريخ . وسوف تحل الصواريخ محل الطائرات المقاتلة .

ولكن إلى أن يتم إمكان إنتاج طائرة « فوتول[1] » مناسبة قادرة على العمل من السفن الصغيرة ، وهو شىء ضرورى جداً وحيوى ، فسوف تظل حاملات الطائرات مطلوبة ، وربما تختفى حاملات الطائرات الكبيرة فى أوائل عام ١٩٨٠ .

القوة الجوية والمرونة

وأعظم مصادر القوة للقوات الجوية يكمن فى مرونتها . ففى داخل حدود المدى التى تعمل فيه الطائرات ، يمكن توجيهها بسرعة ومن هدف إلى آخر فى كل منطقة العمليات بدون تغييرها لقواعدها ، ولهذا فإنه فى الإمكان إستخدام كل ثقل القوة الجوية المتيسرة على مناطق مختارة بالتوالى .

ولهذا يجب أن تكون السيطرة مركزية على كل القوة الجوية المتيسرة الموجودة فى القواعد البرية أو البحرية ، على أن تخرج أوامر وتعليمات القيادة من مصدر واحد .

وإذا تأملنا بأمعان مشكلة الدفاع ، سنصل إلى إستنتاج بأن الإجابة تقع أساساً فى القدرة على إستخدام القوة البحرية والجوية بحرية ، مع حصر العدو للعمل فى إستراتيجية برية فقط ، وبهذه الطريقة فقط سيصبح فى الإمكان الحصول على أقصى مرونة ممكنة .

ويجب على الحلفاء الغربيين ومنهم إنجلترا أن يضعوا التخطيط السليم الذى يحقق لهم التحرك والانتشار المرن بدرجة تجعلهم قادرين على التعامل بسرعة وبفاعلية مع كل المواقف ، بما فى ذلك المواقف الغير محتملة والغير متوقعة .

وفى الحقيقة فالانتشار المرن يرتكز أساساً على إستراتيجية بحرية ، وهذا يتطلب إعتبارين هامين هما الاتحاد والقيادة .

وعند التخطيط للدفاع وتقرير أنسب تنظيم للقوات المسلحة ، فمن الضرورى وجود إستراتيجية طويلة المدى .

(١) طائرات مقاتلة نفاثة عمودية الأقلاع والهبوط .

وأشك فى أن الغرب سيستفيد بالقواعد البرية الثابتة الكثيرة أفضل إستفادة . ومن المحتمل عند نشوب أى أزمة أن تجد هذه القواعد الثابتة نفسها فجأة موجودة فى الاتجاه الخاطىء .

وسوف تؤدى هذه القوات الثابتة إلى تقييد خفة حركة القوات ، وفى الحقيقة ستكون دائماً رهن الحظ . ويجب على القواعد التى تعتبر حيوية ألا تتواجد فى مناطق يشعر سكانها بكره نحو هذه القواعد فى أراضيهم أو سكان لن يقبلوا وجودها لأمد طويل ، ومثل هذه القواعد الأخيرة تعتبر بمثابة دعاية ممتازة لصالح أعداء الغرب .

ويجب على الجيوش أن تتجه إلى البحر ، لتكون فى شكل قوات صغيرة لها خفة حركة جوية تكتيكيا ، نتيجة لتزويدها بطائرات الهليكوبتر لتحركها وإمدادها وللمعاونة الأرضية .

القوة الحقيقية للدولة

والنقاط السابقة التى ذكرتها عاليه ، ما هى إلا مجرد إطار خارجى لمشكلة كبيرة جداً ، وحلها كما أعتقد ، يقع بين يدى الاتجاه العام الذى أشرت إليه .

ولكن من الضرورى أن نتذكر أن القوة الحقيقية والنهائية للدولة لا تكمن فى قواتها المسلحة ولا فى إحتياطيها من الذهب والدولارات ، بل تكمن فى شخصيتها القومية أى فى شعبها وفى رجولة هذا الشعب ورغبته فى العمل ، وفى فهمه التام للحقيقة المتمثلة فى أنه إذا أراد الرخاء والقوة الاقتصادية ، فيجب أن يحصل عليها بنفسه لنفسه وإلا فليمضى بدونها .

وفى عام ١٩٤٦ كتبت هذه الكلمات : — « إن الاعتبار الوحيد الهام فى الحرب هو الروح المعنوية ، فلا يمكن مواصلة حرب لأمد طويل إذا إفتقر الشعب إلى العزيمة على القتال ، لأن فى هذه الحالة ستتوقف وظيفة الآلة القومية للحرب . وفى المعركة لن تنجح الاستراتيجية إذا لم يكن وراءها الروح المعنوية ، وإذا فقدت الروح المعنوية فسوف تكون الهزيمة محتومة » .

وتلك كلمات صادقة سواء الآن أو فى الوقت التى كتبت فيه ، وسوف أضيف إليها خمس كلمات فقط : — « تنطبق نفس الكلمات فى السلم » .

والآن أصل إلى نهاية آرائى عن الحرب عبر التاريخ ، ويبقى فصل واحد وأخير وهو الغاية من السلام .

الفصل الخامس والعشرون

الغاية من السلام

العودة الى الهمجية الكاملة

فى أحد الليالى ... عندما كنت أقرأ فى الأنجيل مررت عبر هذه السطور مصادفة : —
« كل فرد من النبى حتى مستوى القسيس ، ينادى .. السلام .. السلام ، فى وقت لم يكن فيه سلام .. »

تلك الكلمات كتبت منذ حوالى ٣٫٠٠٠ سنة مضت ، وهى تنطبق تماما على الموقف فى أيامنا هذه .

وأعتقد أن الكثير من قراء هذا الكتاب قد حصلوا على ما يبغونه من معلومات عن الحرب وأيضاً علموا كم هو مغر إخفاء التصدع فى وئام العالم . ويبدوأن شيئاً قد وقع بطريق الخطأ فى العالم الذى نعيش فيه، فبالرغم من التقدم فى المدنية والرغبة الشديدة فى السلام التى راودت عقول جميع الشعوب الراقية عبر الألفى عام السابقة أو أكثر، لم تستطع الأنسانية أن تمنع القرن ٢٠ من أن يصبح أعنف وأكثر فترة دموية سجلها التاريخ خلال سنوات الحكم النازى فى ألمانيا كانت الأمور تحدث بطريقة ليس لها مثيل حتى فى أحط وأخس أيام الأمبراطورية الرومانية أو المغولية ، فقد إرتكبت جرائم لا يمكن لمعظم الناس تخيلها ، إلا إذا شاهدوا مكانا مثل « بلسن » والتى دخلتها فى يوم تحريرها بقواتى فى إبريل عام ١٩٤٥ ، فقد كان الأمر عبارة عن قتل جماعى للمدنيين لم يسبق له مثيل .

ويكشف لنا دراسة الهجوم الألمانى على روسيا الذى بدأ فى يونيه عام ١٩٤١، عن العنف المتعفن لألمانيا النازية الذى بدأ يتقيح بوضوح » . وذلك فى القتل الجماعى والنفى والتجويع فى معسكرات الأسرى وحرق الأطفال فى المدارس وهم أحياء ، وجعل المستشفيات المدنية أهدافاً للتدريب على الضرب ، ومثل هذه الفظائع كانت شائعه تحت سيطرة النزوات الوحشية

لألمانيا أثناء الصراع الروسى لألمانيا . وتقع مسئولية كل هذه الأشياء على رجل شيطانى واحد ... هو هتلر .

وقد ماتت ملايين جوعاً ، بينما كان هو وأتباعه يستمتعون . وكان هتلر يفرق الزوجة عن زوجها ، والفتاة عن حبيبها ، والطفل عن والدية . ولو قدر لهذا الرجل أن يعيش فلم يكن فى إستطاعتة أن يرد ما أخذه من هؤلاء بأساليبه الظالمة القاسية ، ولن يستطيع أن يرد كل تلك السنوات من الحياة والصحة والسعاده والزوجات والأولاد والأحباب والأصدقاء . ولو كان لديه عشرة آلاف حياة فلم تكن ستكفر عن سيئاته حتى ولو جذبت كل منها إلى نهاية مرة وتعسة مثل التى كان يوزعها على الآخرين .

وقد أدى تسخير جميع مظاهر الحياة الألمانية للحرب إلى التدمير الكامل لتلك الدولة المهزومة ، كما كان لابد من حدوث ذلك .

وبعدها ظهرت مشكلة إطعام تلك الدولة التى تركتها الحرب تتضور جوعاً ، وكما أعلم جيداً ، لأن هذه المشكلة وقعت على عاتقى فى القطاع البريطانى والذى إحتوى على ٣٠ مليون ألمانى . ونفس الشيء كان فى الشرق الأقصى بالنسبة لليابانيين الذى تساوت وحشيتهم وقسوتهم مع الألمان .

هل من المحتمل أن يتكرر ما حدث مرة أخرى ؟ هل يمكن أن يظهر آخرون أمثال هتلر . . ؟ هل سنصل إلى الاستنتاج بأن الحرب الحديثة بين الدول هى العودة المطلقة إلى الهمجية الكاملة ؟ .

هذه الأسئلة تقع مسئولية مواجهتها على القادة السياسيين . ومن رأيى أن دراسة الحرب عبر العصور ، مع دراسة العناصر السياسية والاقتصادية الكثيرة المتشابكة والتى تظهر فى الصراع المسلح ، سوف توضح لنا ما الذى يمكننا عمله لتجنب الحرب مع العثور على الإجابات التى لم نحصل عليها حتى الآن .

القيم الروحية

وإننا نعلم أن مفاتيح السلام على الصعيد المادى والطبيعى ، هى فى يد القوة ، فالرجل القوى المسلح يحافظ على مصالحه فى سلام ، ولكن على الصعيد الروحانى فهناك من هو

أقوى منه ، فإن المجموعات الكبيرة لا تنتصر دائما . وقوات الاحتلال مهما كبرت فهى لن تظل إلى الأبد تسيطر على ما يجول فى أذهان الشعب المحتل . ودراسة الحرب تلقى الضوء على قيم روحية بالغة العمق والمغزى للمستقبل .

والآن . . ماذا عن المستقبل . . ؟ ذلك المستقبل إنما فى أيدى الشباب ، وهذه الأيدى غير ثابتة فى الوقت الحاضر ، والشباب يقول : « لقد فعل آباؤنا هذه الفوضى ، ويجب علينا أن نقلع عن ذلك ونسلك سلوكنا نحن ، والذى سيكون أفضل من سلوك آبائنا » .

أما ما هو الأفضل لعمله . ؟ فذلك ما لا يعرفونه . . . فجميعهم فى بحر واسع ، بينما يميلون فى تحركهم نحو المادية : « أحصد برعم الزهر مادمت تستطيع » . معتقدين أن ما كان ينقص آباؤهم هو حب السلام كشرط لحياة سعيدة هنيئة . ولكن آباؤهم المحبون للسلام قد حاربوا من أجل الحرية والعدل والتى بدونها يكون سلام الشعوب المروعة والمستعبدة جحيم على الأرض .

والسلام الذى ننعم به الآن هو سلام الانتصار على الهمجية فى الرجال ، وذلك النصر لن يكتب له البقاء إذا أهدرت الفضائل والقيم التى حققها وحافظ عليها ذلك الانتصار . فما الجدوى من السلام بدون الحرية ، وما قيمة الحرية بدون عدل بين رجل وآخر ؟ ويجب ألا يصبح الهدف من السلام مجرد الاستمتاع بحياة سهلة ومتراخية . ويجب أن تعيش الأمة على أسس من القيم الروحية وليس فقط على القيم المادية ، والدين هو مفتاح إرتفاع وإنخفاض القيم الروحية ، وهناك إختيار دائم يجب القيام به ، هو إختيار « مملكة الله » والذين يختارونها لن يفتقدوا التأييد والمعاونة سواء كانت بشرية أو سماوية .

عالم الراحة والسلام

وقد كتبت السطور الآتية فى مذكراتى : — « لا أعتقد أن القائد فى أيامنا هذه قادر على إثارة حماس جيوش كبيرة ، أو وحدات مستقلة أو حتى رجال منفردين ،

إلا إذا كان لديه إحساس خالص بعقيدة دينية صادقة . وفن القيادة يرتكز على الصفة الروحية التي تتمثل في القدرة على إثارة الآخرين لكي يسيروا وراءه » . ولكن لن يكون لذلك أي جدوى لحل المشكلة إلا إذا كان الآخرون مهيئين لقبوله .

ففي الحرب ينطلق الكثير من الحسنات وكذلك الكثير من الآثام ، فعندما يستشار الرجال ليهبوا انفسهم لغرض نبيل سامي ، فإن الحرب ومشقاتها سوف تظهر أفضل ما لديهم من صفات مثل الزمالة والثبات والشجاعة والتضحية بالنفس ، والاستعداد للموت . وقد عبر عن ذلك في شعر عثر عليه في الصحراء الغربية أثناء تقدم الجيش الثامن بعد العلمين : —

ساعدني يا إلهي عندما يقترب الموت حتى أهزأ بوجه الخوف الشرس

لأنني عندما أسقط لو قدر لي السقوط ... فأن روحي قد تبتهج بالنصر على الرمال . »

وبتلك الروح كشفت النقاب عن أنصبة تذكارية كثيرة . وعندما كشفت الستار عن النصب التذكاري للعلمين في الصحراء الغربية عندما زرت مصر في أكتوبر ١٩٥٤ ، وحدقت بنظري في المكان رأيت صفوفا كثيرة من الصلبان ، يضم كل منها عزيز على البعض في الوطن ، وأنني أعتقد أنه ليس هناك أية فائدة أو ميزة أو فضيلة في الخسارة الغير ضرورية للأرواح ، وفي الحقيقة فالخسارة الغير ضرورية ما هي إلا غباء وخزي .

ويجب أن تكون أرواح الرجال غالية عند أي قائد في المعركة ، ويجب ألا يضحى بها بدون سبب ولا تستخدم عندما يمكن لوسائل أخرى الوفاء بالغرض . ولكن كانت هناك أوقات في الحرب يتعين فيها على الرجال أن يقوموا بأعمال خطيرة ، فمثلا عندما يجب الاستيلاء أو الدفاع على موقع مهما كان الثمن ، وكذلك عندما يعتمد نجاح ومصير أمة على بسالة وتصميم وتضافر الضباط والجنود .

وعندئذ يقوم الرجال الذين يفضلون الواجب على أنفسهم بوهب أرواحهم لتنفيذ ما عهد إليهم من مهمة حتى نهايتها . وهؤلاء قد انتصروا على الزمن ، وحققوا بل كسبوا شرفاً عالياً مما يحققه رجل لا يجيد سوى القتال ، ولهم مكانة كبيرة عند ربهم . وهي على كل مسألة إختيار حر . وفي سبيل القيم الخالدة في هذا الاختبار ، تقام النصب بصرف النظر عما تضمه من ديانات أو معتقدات أو شكل العبادة ،

ومن خلال ضباب السنين وفى دوامة العصر القديم،لايسعنا إلا أن ننصت بصمت رهيب لعلنا نلتقط رسالة أمل وتشجيع من هؤلاء الذين وهبوا حياتهم ..

رسالة ربما تساعدنا على خلق عالم أفضل من ذلك الذى عاشوا فيه : ـ

« نحن الموتى ...

نقذف إليكم بأيدى هاوية بالشعلة ... حافظوا عليها وأحملوها عالياً ..

أما إذا حنثتم بعهدكم معنا نحن الموتى ... فلن نستريح فى رقدتنا .. »

يجب ألا نحث بالعهد مع شعلة العدالة والحرية التى قذفوها لنا ، فالجندى الحق هو عدو لكل وحش فى صورة إنسان وليس لأى شىء آخر .

وأنه لأمل الجندى أن يأتى يوم الغروب الذهبى للشمس ، حيث تطلق أبواق المساء معلنة إنتهاء النزاع والعداء ، ثم يتبعه شروق متألق للشمس وفيه تطلق أبواق الصباح موقظة دول العالم على عصر جديد من الود والسلام .

هكذا ينتهى الجزء السابع والأخير من الحرب عبر التاريخ ، أما الجزء الأول من « القرارات المميتة » فيتضمن : —

العميد فتحى عبد الله النمر

* ما هى عملية الأبيض والأحمر ؟
* ما هى حرب المهزلة ؟
* كيف دارت معركة بريطانيا ؟
* ما هى عملية أسد البحر ؟
* ما هى عملية فيلكس ؟
* كيف غرقت البارجة بسمارك ؟
* كيف إنتهت أخطر حملة فى التاريخ؟
* لماذا كان هتلر ينفر من العمليات البرمائية ؟
* كيف أنقذ هتلر موسولينى مرتين ؟
* كيف تم غرق ٢ مليون طن من السفن ؟
* حل مسابقة الجزء السابع وأسماء الفائزين .
* مسابقة جديدة لكتاب « القرارات المميتة » والشروط والجوائز المالية لكل جزء

فإلى اللقاء مع الجنرال بس. ل. مارشال ومجموعة من الجنرالات الألمان ، تعريب وتعليق

عميد

فتحى عبد الله النمر

مسابقة القراء

		عدد
الجائزة الأولى : —	١٠ جنيهات مصرية	١
الجائزة الثانية : —	٣ جنيهات مصرية	٢
الجائزة الثالثة : —	٢ جنيه مصرى	٣

١ — طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارىء أن يضع علامة (✓) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ — بعد أن يتم أختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع فى مظروف عليه طابع بريد وترسل فى بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالى :—

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ — سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ — سيتم نشر أسماء الفائزين فى الجزء الأول من « القرارت المميتة » والذى يظهر فى أول كل شهر .

٥ — توجد جوائز جديدة ومسابقة جديدة للقـــراء ، أقرأ تفاصيلها فى الجزء الأول من كتابه :

القرارات المميتة

أسماء الفائزين فى مسابقة الجزء السادس

حل المسابقة :ـ

ج ١ : ٢ — ١٨٣٢ .

ج ٢ : ١ — رمح رفيع تستعمله القبائل الأفريقية .

ج ٣ : ٣ — ٣٥ مليون نسمة .

ج ٤ : ٢ — جيفرسون دافيز .

ج ٥ : ١ — ميترلنك .

ج ٦ : ٢ — ألمانيا .

ج ٧ : ٣ — مدفع من عيار ١٧ بوصة .

ج ٨ : ٢ — جوتلاند .

ج ٩ : ١ — فى يونية ١٩١٦

ج ١٠ : ٣ — أربعة قرون .

الجوائز :ـ

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة

باسم : مصطفى رضى عبد المطلب

العنوان : عمارة ١٤ شقة ١٠١ مدينة نصر — القاهرة

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

١ — فازت بها استمارة المسابقة

باسم : أحمد فؤاد كامل

العنوان : ص. ب ٧٢٣١ الكويت

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٠٤٤

باسم : سنيه حجاج

العنوان : ٤ ش إبراهيم صالح — الزيتون

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه وعددها ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٩٣٦

باسم : محمود عبد المحسن

العنوان : الصالون الأخضر — القاهرة

٢ — فازت بها استمارة المسابقة

باسم : محمد على القصاص

العنوان : ص . ب ٤٨٠ المملكة العربية السعودية

٣ — فازت بها استمارة المسابقة

باسم : فؤاد حجاوى

العنوان : ص . ب ٩٦ سوق الحجاوى — الزرقاء — الأردن

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد (عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* ونظراً لوجود بعض القراء خارج جمهورية مصر العربية سيتم إرسال جوائزهم عن طريق البريد الموصى عليه .

* ترقبوا المسابقة الجديدة والجوائز المالية فى الكتاب الجديد « القرارات المميتة » والذى يقع فى ستة أجزاء وسيصدر فى أول الشهر ، وسيتم نشر مسابقة الجزء السابع والجوائز الخاصة بـ « الحرب عبر التاريخ » فى الجزء الأول من « القرارات المميتة » مع مسابقة جديدة وجوائز جديدة للكتاب الجديد .

ثمرة ١٥٥٠٠٠٠

المسابقة

١ — قام هتلر باختراق فرنسا بين سيدان ونامور بـ

١ — ١٢ فرقة مدرعة .

٢ — ٧ فرق مدرعة .

٣ — ١٠ فرق مدرعة .

٢ — حشد هتلر لمهاجمة روسيا

١ — ١٢٤ فرقـــة .

٢ — ١٥٨ فرقـــة .

٣ — ١٤٥ فرقـــة .

٣ — فى نوفمبر ١٩٤٢ تحول الروس الى مواجهة الالمان تحت قيادة

١ — مارشال زوكوف .

٢ — جنرال كونيف .

٣ — مارشال ركوسوفـكسى .

٤ — كانت مجموعة الجيوش «ب» الألمانية تحتل من هولندا الى نورماندى ويقودها

١ — الفيلد مارشال روندشتد .

٢ — الفيلد مارشال روميل .

٣ — الفيلد مارشال كلوج .

٥ — كان تعداد الجيش اليابانى فى الحرب العالمية الثانية

١ — ٢٥٠٠ر٠٠٠ مقاتل .

٢ — ١٠٠٠٠ر٠٠٠ مقاتل .

٣ — ٧٥٠٠ر٠٠٠ مقاتل .

٦ — كان لدى اليابان فى الحرب العالمية الثانية

١ — ٢٠٠٠ طـائرة .

٢ — ١٥٠٠ طـائرة .

٣ — ٤٨٠٠ طـائرة .

٧ — فى ٦ اغسطس ١٩٤٥ اسقط الامريكان اول قنبلة ذرية فوق مدينة

١ — نجـــازاكى .

٢ — هيروشـــيما .

٣ — أوســـاكا .

٨ — « اذا اردت السلام .. فتفهم الحرب .. » من قال هذا ؟

١ — بليز دى مونتلوك .

٢ — ليـــدل هارت .

٣ — كلاوزفيـــتز .

٩ — « لقد هزمتهم بواسطة انفسكم .. » من قال هذا

١ — كنيدى .

٢ — جوليس روى .

٣ — الجنرال جياب .

١٠ — تم فى يوليه ١٩٤٥ اول تجربه حية للقنبله الذريه فى

١ — نجـــازاكى .

٢ — نيومكسيكو .

٣ — بوتســـدام .

الاسم ________________________

العنوان ________________________

____

____